بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نهتدى ونستعين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد - ﷺ - وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإن شرف أى علم من العلوم يُنال من شرف موضوعه، ومن الغاية التى لأجلها يُدرس، وعلم التفسير هو أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق؛ وذلك للأسباب الآتية:

الأول: أن موضوعه هو القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ودستور الأمة المعجز، مع محاولة لفهمه فهماً صحيحاً على قدر الطاقة البشرية.

الثانى: لأن الغاية منه هو التماس هدايةالقران الكريم فى الآفاق وفى الأنفس، والأخذ بأيدى العباد إلى خالقهم «ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين».

الثالث: وهو أهم الأسباب؛ فلأن القرآن الكريم هو كلام الله، وكلام الله يختلف عن أى كلام من حيث لفظه ومعناه وإعجازه، فعلم التفسير ينال تشريفاً وتعظيماً ليسا لعلم آخر، وذلك لإضافته إلى كتاب الله عزوجل.

وها نحن بصدد التقديم لتفسير عظيم النفع، جم الفائدة، ألا وهو تفسير الإمام: عبدالله بن أحمد النسفى، والذى سماه: **«مدارك التنزيل وحقائق التأويل»** وذاع وانتشر بين الناس باسم **«تفسير النسفى»**.

ومن عظم هذا التفسير، وسعة علم صاحبه أنه يحدد منهجه الذى ارتضاه فى مقدمته فيقول: «قد سألنى من تتعين إجابته كتاباً وسطاً فى التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب والقراءات، متضمناً لدقائق علم البديع والإشارات، حالياً بأقاويل أهل السنة والجماعة، خالياً عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل».

وصدق الإمام النسفى فيما قال، فقد التزم بهذا النهج الذى ارتضاه من أول كتابه، فجاء تفسيره جامعاً لعلوم كثيرة من النحو والقراءات والفقه والعقيدة، مستنداً فى ذلك كله إلى القرآن والحديث والشعر وأقوال السلف الصالح، رضوان الله عليهم أجمعين.

ويهمنا أن نشير فى هذه المقدمة السريعة إلى أن الإمام النسفى - رحمه الله - كان يتعرض فى تفسيره لآيات الأحكام، ويعرض المذاهب الفقهية فى المسألة، وينتصر لمذهبه الحنفى فيقول: «وهذا دليل لنا» أو «وهو عندنا».

وبعد؛ فإذا كان الإمام النسفى وتفسيره قد درسا من ناحية المنهج أو الاتجاه، فما زال هذا التفسير بحاجة إلى مَنْ يستخرج لنا من درره الكامنة، فى الفقه والعقيدة والقراءات والنحو وغيرها من العلوم. فنسأل الله أن يهيأ لهذا التفسير مَنْ يضيف الجديد، ولا يكرر القديم.

ولا ننسى أن تقدم الشكر لشيخنا مروان محمد الشقار الذى حقق هذا التفسير وأخرجه فى شكل يليق بهذا التفسير وصاحبه، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وبعد، فنسأل الله العلىّ العظيم أن يجعل عملنا فى هذا الكتاب خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين والمسلمات، وأن يجعله لنا زخراً فى ميزان الحسنات، يوم لا ينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة المؤلف رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنزه بذاته عن إشارة الأوهام، المقدّس بصفاته عن إدراك العقول والأفهام، المتصف بالألوهية قبل كل موجود، الباقي بنعت السرمدية بعد كل محدود، الملك الذى طمست سبحات جلاله الأبصار، المتكبر الذى أزاحت سطوات كبريائه الأفكار، القديم الذى تعالى عن مماثلة الحدثان، العظيم الذى تنزه عن مماسّة المكان، المتعالى عن مضاهاة الأجسام ومشابهة الأنام، القادر الذى لا يشار إليه بالتكييف، القاهر الذى لا يسئل عن التحميل والتكليف، العليم الذى خلق الإنسان وعلمه البيان، الحكيم الذى نزل القرآن شفاء للأرواح والأبدان، والصلاة والسلام على المستل من أرومة البلاغة والبراعة، المحتل فى بحبوحة النصاحة والفصاحة، محمد المبعوث إلى خليقته، الداعى إلى الحق وطريقته، ﷺ، وعلى آله وشيعته، وعلى الآخذين بعهوده وشريعته. «قال» مولانا الشيخ الإمام المعظم، والحبر الإمام المقدم، أستاذ أهل الأرض، محيى السنة والفرض، كشاف حقائق أسرار التنزيل، مفتاح أسرار حقائق التأويل، ترجمان كلام الرحمن، صاحب علم المعانى والبيان، الجامع بين الأصول والفروع، المرجوع إليه فى المعقول والمسموع، حافظ الملة والدين، شيخ الإسلام والمسلمين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين، أكمل فحول المجتهدين، قدوة قروم المحققين، ذو السعادات والكرامات، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفى، نفع الله الإسلام بطول بقائه، والمسلمين بيمن لقائه، قد سألنى من تتعين إجابته كتابا وسطا فى التأويلات، جامعا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنا لدقائق علمى البديع والإشارات، حاليا بأقاويل أهل السنّة والجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى استقصاراً لقوة البشر، عن درك هذا الوطر، وأخذاً لسبيل الحذر، عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله، والعوائق كثيرة، وأتممته فى مدة يسيرة (وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل). وهو الميسر لكل عسير، وهو على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

فاتحة الكتاب[1]

مكية، وقيل: مدنيـة، والأصح أنها مكية ومدنية، نزلت بمكة حيـن فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة. وتسمى أم القرآن؛ للحديث قال عليه السلام: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن». ولاشتمالها على المعانى التى فى القرآن. وسورة الوافية والكافية لذلك. وسورة الكنز؛ لقوله ـ عليه السلام ـ حاكيا عن الله تعالى: «فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشى»[2]. وسورة الشفاء والشافية؛ لقوله عليه السلام: «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السام»[3]. وسورة المثانى؛ لأنها تثنـى فى كل صلاة. وسورة الصلاة لما تـروى ولأنها تكون واجبة أو فريـضة. وسورة الحمد والأساس فإنها أساس الـقرآن، قال ابن عباس[4] ـ رضى الله عنهـما ـ: إذا اعتللت أو اشـتكيت فعليك بالأساس». وآيها سبع بالاتفاق(٥).

●●﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قراء المديـنة والبصـرة والشام وفقهاؤها عـلى أن التسمية ليسـت بآية من الفاتحة ولا من غـيرها من السور، وإنما كتبـت؛ للفصل والتبرك للابتداء بها، وهو مذهب أبى حنيفة[6] ومن تابعه ـ رحمهم الله ـ ولذا لا يجهر بها عندهم

(١) فضلها: (أ) روى الإمام أحمد فى المسند أن «أبىّ بن كعب» قرأ على النبى ـ ﷺ ـ أم القرآن، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذى نفسى بيده، ما أنزل فى التـوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته».

(ب) وفى صحيح البخارى أن النبى ـ ﷺ ـ قال لأبى سعيـد المعلى: «لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن: الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته».

(٢) انظر كنز العمال ١/ ٢٥٠١، وفيه: فاتحة الكتاب أنزلت من كنز تحت العرش.

(٣) الدارمى، رواه عبدالملك بن عمير.

(٤) هو الصحابى الجلـيل: عبدالله بن عباس بن عبد المطلب الهـاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ ـ كان يقال له: «الحبر»، و«البحر»؛ لكثرة علمه، روى عن النـبى ـ ﷺ ـ كثيراً، وعن معظم الصحابة، وفيه قال ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عبـاس»، قبض رسـول الله ﷺ ـ وهو ابن بضع عشرة سنة، وكانت وفاته ـ رضى الله عنه ـ بالطـائف سنة ٦٨هـ أو ٦٩هـ، وصلى عليه محمد ابن الحـنفية، وقال: «اليوم مات ربانى هذه الأمة».

تهذيب التهذيب (٣/ ١٨٠ ـ ١٨٢).

(٥) وآياتها سبع بالاتفاق؛ وذلك لأن البسملة تعد آية من سورة الفاتحة. كذا عند الجمهور، وليست آية من كل سورة.

صفوة التفاسير١/ ١٢.

(٦) أبو حنيفة: النعمان بن ثابت التيمى الكوفى، الإمام الأعظم، العلم الأشهر، صاحب أقدم المذاهب المشهورة، فقد ولد فى أفضل القرون سنة ٨٠هـ، ورأى أنس بن مالك من الصحابة، وروى عن خلق من كبار التابعين، مناقبه كثيرة، يكفينا هنا قول الإمام الشافعى:

لقد زان البلاد ومن عليها   إمام المسلمين أبو حنيفة.

توفى ـ رحمه الله ـ عام ١٥٠ هـ تهذيب التهذيب ٥/ ٦٢٩ ـ ٦٣١.

فى الصلاة. وقراء مكة والكوفة على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعى[1] وأصحابه ـ رحمهم الله ـ ولذا يجهرون بها فى الصلاة، وقالوا: قد أثبتها السلف فى المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: «من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله». [2] ولنا حديث أبى هريرة[3] قال: سمعت النبى عليه السلام يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة ـ أى الفاتحة ـ بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ماسأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى حمدنى عبدى، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال الله ـ تعالى ـ: أثنى على عبدى، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدنى عبدى، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل، فإذا قال ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[4] ـ فالابتداء بقوله: «الحمد لله» دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة، وإذا لم تكن من الفاتحة لا تكون من غيرها إجماعا، والحديث مذكور فى «صحاح المصابيح»[5]، وما ذكروا لا يضرنا؛ لأن التسمية آية من القرآن أنزلت للفصل بين السور عندنا. ذكره فخر الإسلام فى «المبسوط»[6]، وإنما يرد علينا أن لو لم نجعلها آية من القرآن. وتمام تقريره فى «الكافى»[7]، وتعلقت الباء بمحذوف تقديره: باسم الله أقرأ أو أتلو؛ لأن الذى يتلو التسمية مقروء؛ كما أن المسافر إذا حل وارتحل فقال: باسم الله والبركات كان المعنى: باسم الله أحل وباسم الله أرتحل، وكذا الذابح وكل فاعل يبدأ فى فعله باسم الله كان مضمرا ما جعل التسمية مبدأ له، وإنما قدر

---

(١) الشافعى: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، الإمام المطلبى، القرشى، صاحب المذهب المشهور، المجمع على إمامته وعلو قدره فى الفقه والعلم والعمل، وهو أول من أفرد لعلم الأصول، تلميذ مالك بن أنس، شيخ أحمد بن حنبل، ذاع صيته وطال ذكره لقوة ذهنه، وحدة عقله، حفظ القرآن وهو فى السابعة، وحفظ الموطأ وهو فى العاشرة، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، ولد سنة ١٥٠ هـ، وتوفى سنة ٢٠٤هـ.

تهذيب التهذيب ٥/ ٢٠ ـ ٢٣.

(٢) ولنا «حديث أبى هريرة» يقصد المؤلف ـ رحمه الله ـ من: «لنا»: علماء الحنفية؛ وذلك لأنه حنفى المذهب يعرض آراء المذاهب فى المسألة الفقهية، ثم ينتصر لمذهبه الحنفى.

(٣) هو راوية الإسلام، أبو هريرة، المختلف فى اسمه ونسبه اختلافاً كثيراً، أشهرها: عبدالرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، وكما كان من حفاظ الصحابة، كان من فقرائهم، فقد كان من أهل الصفة، كنّاه الرسول ـ ﷺ ـ بهرّة كان يحمل أولادها.

تهذيب التهذيب ٦/ ٤٧٩ ـ ٤٨٢.

(٤) حديث «قسمت الصلاة...» رواه البخارى.

(٥) يقصد كتاب «مصابيح السنة» للإمام البغوى (ت: ٥١٠هـ).

(٦) هو أحمد بن الحسين بن مهران النيسابورى، أبو بكر، فخر الإسلام، إمام فى القراءات، وكتابه المشهور «المبسوط فى القراءات العشر»، ولد عام ٢٩٥ هـ، وتوفى عام ٣٨١. غاية النهاية ١/ ٤٩.

(٧) الكافى: هو اسم كتاب له أيضاً، وهو شرح لكتابه «الوافى» فى الفروع.

المحذوف متأخرا؛ لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به، وكانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات وباسم العزى. فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله - عز وجل - بالابتداء وذا بتقديمه وتأخير الفعل، وإنما قدم الفعل فى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(١). لأنها أول سورة نزلت - فى قول -، وكان الأمر بالقراءة أهم فكان تقديم الفعل أوقع، ويجوز أن يحمل اقرأ على معنى افعل القراءة وحققها كقولهم: فلان يعطى ويمنع. غير متعد إلى مقروء به، وأن يكون باسم ربك مفعول اقرأ الذى بعده، واسم الله يتعلق بالقراءة تعلق الدهن بالإنبات فى قوله ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾(٢). على معنى متبركا باسم الله أقرأ. ففيه تعليم عباده كيف يتبركون باسمه، وكيف يعظمونه، وبنيت الباء على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجر فكسرت لتشابه حركتها عملها، والاسم من الأسماء التى بنوا أوائلها على السكون كالابن والابنة وغيرهما فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة تفاديا عن الابتداء بالساكن تعذرا، وإذا وقعت فى الدرج(٣). لم يفتقر إلى زيادة شىء، ومنهم من لم يزدها واستغنى عنها بتحريك الساكن فقال: سِمٌ وسَمٌ. وهو من الأسماء المحذوفة الأعجاز كيد ودم، وأصله سمو بدليل تصريفه كأسماء وسمى وسميت، واشتقاقه من السمو وهو الرفعة؛ لأن التسمية تنويه بالمسمَّى وإشادة بذكره، وحذفت الألف فى الخط هنا وأثبتت فى قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. لأنه اجتمع فيها أى فى التسمية مع أنها تسقط فى اللفظ لكثرة الاستعمال وطولت الباء عوضاً عن حذفها، وقال عمر بن عبدالعزيز(٤) لكاتبه: طول الباء وأظهر السينات ودور الميم. والله أصله الإله، ونظيره الناس أصله الأناس حذفت الهمزة وعوض منها حرف التعريف، والإله من أسماء الأجناس يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بالحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب، ثم غلب على الثريا، وأما الله - بحذف الهمزة - فمختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره، وهو اسم غير صفة؛ لأنك تصفه ولا تصف به لا تقول - شىء إله كما لا تقول: شىء رجل وتقول الله واحد صمد؛ ولأن صفاته تعالى لابد لها من موصوف تجرى عليه،

---

(١) سورة «العلق»، الآية (١).

(٢) سورة «المؤمنون»، الآية (٢٠).

(٣) فى الدّرج: أى فى درج الكلام، مثل قولنا: عمر بن الخطاب بإسقاط همزة ابن (المعجم الوسيط ٢٧٧/١).

(٤) هو أمير المؤمنين، وخامس الخلفاء الراشدين: عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم، القرشى، الأموى، أعدل خلفاء بنى أمية، وأكثرهم ورعاً وعلماً وعدلاً، طلب العلم صغيراً، كان منعماً قبل الخلافة، ولكنه آثر الزهد والتقشف بعد توليه إياها، ويكفيه ما قاله البخارى: «قال مالك، وابن عيينة: عمر بن عبدالعزيز إمام».

ولد سنة ٦١ أو ٦٣هـ، ومات - رحمه الله - سنة ١٠١هـ.

تهذيب التهذيب (٢٩٩/٤، ٣٠٠).

فلو جعلتها كلها صفات لبقيت صفات غير جارية على اسم موصوف بها، وذا لا يجوز، ولا اشتقاق لهذا الاسم عند الخليل [(١)]والزجاج[(٢)] ومحمد بن الحسن[(٣)]. والحسين بن الفضل[(٤)]، وقيل: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحد وصيغة هذا الاسم وصيغة قولهم: «أَلِهَ» إذا تحير ينتظمهما معنى التحير والدهشة؛ وذلك أن الأوهام تتحير فى معرفة المعبود، ويدهش الفطن؛ ولذا كثر الضلال وفشا الباطل وقل النظر الصحيح، وقيل: هو من قولهم: «أَلَهَ، يأْلَهُ، إلاهاً» إذا عبد؛ فهو مصدر بمعنى مألوه أى: معبود، كقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾[(٥)]. أى: مخلوقه، وتفخم لامه إذا كان قبلها فتحة أو ضمة. وترقق إذا كان قبلها كسرة، ومنهم من يرققها بكل حال ومنهم من يفخم بكل حال، والجمهور على الأول. و(الرحمن) فعلان: من رحم، وهو الذى وسعت رحمته كل شيء؛ كغضبان من غضب، وهو الممتلىء غضباً، وكذا (الرحيم) فعيل منه؛ كمريض من مرض، وفى الرحمن من المبالغة ماليس فى الرحيم؛ لأن فى الرحيم زيادة واحدة، وفى الرحمن زيادتين، وزيادة اللفظ تدل على زيادة المعنى[(٦)]، ولذا جاء فى الدعاء: (يا رحمن الدنيا) لأنه يعم المؤمن والكافر (ورحيم الآخرة) لأنه يخص المؤمن، وقالوا: الرحمن خاص تسمية؛ لأنه لا يوصف به غيره، وعام معنى لما بينا، والرحيم بعكسه؛ لأنه يوصف به غيره ويخص المؤمنين؛ ولذا قدم الرحمن، وإن كان أبلغ، والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى، يقال: فلان

---

(١) الخليل بن أحمد، الأزدى، الفراهيدى، ويقال: الباهلى، أبو عبد الله البصرى، عالم غزير العلم، كأنه بحر غزير، يشهد له التاريخ أنه صاحب السبق فى علوم كثيرة؛ فهو صاحب علم العروض بلا منازع ومعجم «العين» هو أول المعاجم، وهو كذلك ذا باع طويل فى علوم اللغة بفروعها المختلفة، كانت وفاته سنة ١٧٥ هـ، وقيل غير ذلك.

تهذيب التهذيب (٢/ ٩٨، ٩٩)

(٢) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن السرى بن سهل، علم من أعلام العربية، لا يقل قدراً عن الخليل بن أحمد فى علوم اللغة.

ولد عام ٢٤١هـ، وتوفى عام ٣١١هـ. الأعلام (١/ ٤٠).

(٣) هو محمد بن الحسن بن فرقد، أبو عبدالله الشيبانى، مولاهم، كان إماماً فى الفقه والأصول، وقد جمع بين الفضلين، فهو صاحب أبى حنيفة وتلميذه، وهو الذى نشر علمه، وهو كذلك صاحب أصح الروايات للموطإ عن مالك بن أنس، ولد عام ١٣١هـ، ومات عام ١٨٩هـ

الأعلام (٦/ ٨٠).

(٤) الحسين بن الفضل بن عمير البجلى، كان ـ رحمه الله ـ إماماً فى التفسير، وكان رأساً فى معانى القرآن، ولد عام ١٧٨هـ ومات عام ٢٨٢هـ.

الأعلام ٢/ ١٥٢.

(٥) سورة «لقمان»، الآية (١١).

(٦) من أقوال أهل الصرف والاشتقاق: كل زيادة فى المبنى تؤدى إلى زيادة فى المعنى.

عالم ذو فنون تحرير؛ لأنه كالعلم لما لم يوصف به غير الله، ورحمة الله: إنعامه على عباده، وأصلها العطف، وأما قول الشاعر فى مسيلمة[1]: وأنت غيث الورى لازلت رحمانا؛ فسباب من تعنتهم فى كفرهم. ورحمن غير منصرف عند من زعم أن الشرط انتفاء فعلانة إذ ليس له فعلانة، ومن زعم أن الشرط وجود فعلى صرفه إذ ليس له فعلى، والأول الوجه.

●● ﴿الْحَمْدُ﴾: الوصف بالجميل على جهة التفضيل، وهو رفع بالابتداء، وأصله النصب، وقد قرىء بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة فى معنى الإخبار؛ كقولهم: شكراً وكفراً، والعدول عن النصب إلى الرفع[2]. للدلالة على ثبات المعنى واستقراره، والخبر ﴿لِلَّهِ﴾ واللام متعلق بمحذوف أى: واجب أو ثابت، وقيل: الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمده على شجاعته وحسبه. وأما الشكر فعلى النعمة خاصة، وهو بالقلب واللسان والجوارح قال:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

أى: القلب، والحمد باللسان وحده، وهو إحدى شعب الشكر، ومنه الحديث: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لم يحمده»[3]. وجعله رأس الشكر؛ لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد وآداب الجوارح لخفاء عمل القلب وما فى عمل الجوارح من الاحتمال. ونقيض الحمد: الذم، ونقيض الشكر: الكفران. وقيل: المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال، ككونه باقيا قادراً عالما أبديا أزليا، والشكر ثناء على ما هو منه من أوصاف الأفضال، والحمد يشملهما، والألف واللام فيه للاستغراق عندنا خلافاً للمعتزلة[4]. ولذا قرن باسم الله؛ لأنه اسم ذات فيستجمع

(١) هو الكذاب الأفاق، مسيلمة بن ثمامة بن كبير، من الذين ادعو النبوة، ولكنه كان أكثرهم أتباعاً، وأصعبهم على الدعوة الإسلامية، تصدى له أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فى حروب المرتدين حتى انتصر عليه، وقتل عام ١٢هـ، وكان من المعمرين.
الأعلام (٧/٢٢٦).

(٢) العدول عن النصب إلى الرفع فيه وجهان من الجمال:
الأول: أن الرفع هو أشرف العلامات الإعرابية وأرفعها كما يقول النحاة؛ و لذلك جاء فى سورة الفتح ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا أليق بمقام الله؛ فناسب أشرف العلامات أشرف العهود.
الثانى: أن القول بإضمار فعل محذوف فيه تكليف، وقضية الذكر والحذف من القضايا الشائكة، وما لا يحتاج إلى تكلف أولى مما يحتاج، كما أن الرفع يدل على الثبات والإستقرار كما ذكر المؤلف، رحمه الله.

(٣) رواه عبدالرزاق عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه انقطاع.

(٤) المعتزلة: فرقة من فرق الإسلام؛ مؤسسها واصل بن عطاء (٨٠هـ: ١٣١هـ)، وهو من تلاميذ الحسن البصرى (ت: ١١٠هـ) ولكنه اعتزل حلقته؛ فلهذا سموا بالمعتزلة.
وينبنى مذهبهم على تحكيم العقل فى كل الأمور: حتى السمعيات والمغيبات من الأمور، ولذلك فلهم آراء مخالفة لأهل السنة والجماعة؛ منها: الله يريد الخير ولا يريد الشر، العبد يخلق أفعاله الاختيارية، وكذلك: مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الكفر والإيمان، وغير ذلك، وبالرغم من مخالفتهم لمنهج=

صفات الكمال، وهو بناء على مسألة خلق الأفعال وقد حققته فى مواضع. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. الرب: المالك، ومنه قول صفوان(١) لأبى سفيان(٢): لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن. تقول: ربه يربه ربا فهو رب، ويجوز أن يكون وصفا بالمصدر للمبالغة كما وصف بالعدل: ولم يطلقوا الرب إلا فى الله وحده، وهو فى العبيد مع التقييد: ﴿إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾(٣). قال: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾(٤)، وقال الواسطى: هو الخالق ابتداء والمربى غذاء والغافر انتهاء. وهو اسم الله الأعظم، والعالم كل ما علم به الخالق من الأجسام والجواهر والأعراض، أو كل موجود سوى الله تعالى سمى به؛ لأنه علم على وجوده. وإنما جمع بالواو والنون ـ مع أنه يختص بصفات العقلاء أو ما فى حكمها من الأعلام ـ لما فيه من معنى الوصفية وهى الدلالة على معنى العلم.

●● ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ذكرهما قد مر، وهو دليل على أن التسمية ليست من الفاتحة؛ إذ لو كانت منها لما أعادهما؛ لخلو الإعادة عن الإفادة (٥).

●● ﴿مَالِكِ﴾ عاصم(٦). وعلى(٧) ملك غيرهما وهو الاختيار عند البعض؛ لاستغنائه عن

=أهل السنة والجماعة؛ إلا إنهم قدموا للإسلام خدمات جليلة بأنهم ردوا على شبه المشككين الكافرين، ومن العلماء من فسقهم، ومنهم من كفرهم.
الملل والنحل (٣/١٤٦).

(١) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب، أبو وهب الجمحى، القرشى وقيل: أبو أمية. قتل أبوه يوم بدر كافراً، وأسلم هو بعد الفتح، وكان من المؤلفة، وشهد اليرموك. كان من أشراف قريش فى الجاهلية والإسلام، قيل إنه مات أيام قتل عثمان، وقيل: مات سنة ٤١هـ، وقيل: سنة ٤٢هـ.
تهذيب التهذيب (٢/٥٥٣).

(٢) هو أبو سفيان، صخر بن حرب بن أمية بن عبد مناف، والد معاوية، ووالد أم المؤمنين «أم حبيبة». كان داهية من دواهى العرب، وكان رئيس المشركين يوم أحد، وزعيم الأحزاب يوم الخندق، أسلم زمن الفتح، وله مواقف مشهورة فى الجاهلية والإسلام، كانت ولادته قبل عام الفيل بعشر سنين، واختلف فى سنة وفاته، وخلاصته: أنه توفى بعد عام ٣٠هـ بقليل.
تهذيب التهذيب (٢/ ٥٤٤، ٥٤٥).

(٣) سورة «يوسف»، الآية (٢٣). (٤) سورة «يوسف» الآية (٥٠).

(٥) يحاول الإمام النسفى ـ رحمه الله ـ هنا أن ينتصر لمذهبه الحنفى القائل بأن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولكن رُدّ عليه بأن التكرار هنا للمبالغة والتأكيد على رحمة الله التى وسعت كل شىء، وبدليل قوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾.

(٦) هو: عاصم ابن بهدلة، وهو ابن أبى النجود الأسدى، مولاهم، الكوفى، أبو بكر المقرى، وقيل: إن بهدلة هى أمة، وهو أحد القراء السبعة، وهو يعد من التابعين، ت: ١٢٧هـ.
تهذيب التهذيب (٣/ ٢٩، ٣٠).

ـ قال فى الميزان: ثبت فى القراءة، وهو فى الحديث دون الثبت، صدوق، يهم. وفى التقريب: صدوق، حجة فى القراءة، من السادسة.

(٧) على بن حمزة بن عبدالله بن قيس بن فيروز الأسدى، مولاهم، الكوفى، الكسائى، الإمام،=

الإضافة ولقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[1] . ولأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا، ولأن أمر الملك ينفذ على المالك دون عكسه، وقيل: المالك أكثر ثوابا؛ لأنه أكثر حروفا، وقرأ أبو حنيفة والحسن[2] ـ رضى الله عنهما ـ : ملك ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أى يوم الجزاء، ويقال: كما تدين تدان[3]. أى: كما تفعل تجازى وهذه إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم، يا سارق الليلة أهل الدار، أى: مالك الأمر كله في يوم الدين، والتخصيص بيوم الدين؛ لأن الأمر فيه لله وحده، وإنما ساغ وقوعه صفة للمعرفة مع أن إضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية؛ لأنه أريد به الاستمرار فكانت الإضافة حقيقية فساغ أن يكون صفة للمعرفة، وهذه الأوصاف التى أجريت على الله سبحانه وتعالى ـ من كونه ربا أى مالكا للعالمين ومنعما بالنعم كلها ومالكا للأمر كله يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به فى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه.

●●﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (إيا) عند الخليل وسيبويه[4]: اسم مضمر، والكاف حرف خطاب عند سيبويه ولا محل له من الإعراب، وعند الخليل هو اسم مضمر أضيف إيا إليه؛ لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل، وقال الكوفيون: إياك بكمالها اسم وتقديم المفعول لقصد الاختصاص، والمعنى: نخصك بالعبادة وهى أقصى غاية الخضوع والتذلل، ونخصك بطلب المعونة وعدل عن الغيبة إلى الخطاب للالتفات، وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى

=أحد أئمة القراءة والتجويد فى بغداد، إلى جانب علو كعبه فى اللغة وعلومها، تميز بأنه أخذ كل علم على أيدى جهابذته؛ فأخذ القراءات عن حمزة الزيات، وأخذ علوم اللغة عن الخليل بن أحمد، وغيرهما، وكانت له مؤلفات كثيرة، ومناظرات شهيرة.

ولد سنة ١١٩هـ، وتوفى سنة بضع وثمانين ومائة، على خلاف.

تهذيب التهذيب (٤/١٩٧، ١٩٨).

(١) سورة «غافر»، الآية (١٦).

(٢) هو الإمام الزاهد، التابعى الجليل، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، اشتهر بعلمه وزهده وورعه؛ فقد كان إمام عصره فيها، له مناقب كثيرة، وسيرته شهيرة، كانت ولادته عام ٢٢هـ، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ١١٠ هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٤٨١ ـ ٤٨٤).

(٣) هذا جزء من حديث نبوى شريف يقول فيه رسولنا ﷺ ـ: «البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان».

(٤) سيبويه، اسمه: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثى، أبو بشير، وهو إمام أهل النحو بلا منازع، مع أنه لم يكن عربيًا؛ بل إن أصله فارسى، له كتاب من أمهات الكتب فى العربية، أسماه: «الكتب»، ولد عام ١٤٨هـ وكانت وفاته حوالى عام ١٨٠ هـ، على خلاف فى ذلك.

الأعلام (٥/ ٨١).

الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[1]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾[2]. وقول امرىء القيس[3]:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلىّ ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد

وذلك من نبأ جاءنى وخبرته عن أبى الأسود

فالتفت فى الأبيات الثلاثة حيث لم يقل ليلى وبت وجاءك، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل فى القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ لاستلذاذ إصغائه، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة والعلماء النحارير وقليل ما هم، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك. وقدمت العبادة على الاستعانة؛ لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة أقرب إلى الإجابة، أو لنظم الآى كما قدم الرحمن، وإن كان الأبلغ لا يقدم. وأطلقت الاستعانة لتتناول كل مستعان فيه، ويجوز أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادات ويكون قوله: ﴿اهْدِنَا﴾ بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا:

●●﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: ثبتنا على المنهاج الواضح؛ كقولك للقائم: قم حتى أعود إليك أى: اثبت على ما أنت عليه أو اهدنا فى الاستقبال كما هديتنا فى الحال، وهدى يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد، فأما تعديه إلى مفعول آخر فقد جاء متعدياً إليه بنفسه كهذه الآية، وقد جاء متعدياً باللام وبإلى كقوله تعالى: ﴿هَدَانَا لِهَٰذَا﴾[4]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5]، والسراط: الجادة من سرط الشيء إذا ابتلعه كأنه يسرط السابلة إذا سلكوه، والصراط من قلب السين صادا لتجانس الطاء فى الإطباق لأن الصاد والضاد والطاء والظاء من حروف الإطباق، وقد تشم الصاد صوت الزاى؛ لأن الزاى إلى الطاء أقرب لأنهما مجهورتان، وهى قراءة حمزة[6]، والسين قراءة ابن كثير[7] فى كل القرآن، وهى الأصل فى الكلمة والباقون بالصاد

---

(١) سورة «يونس»، الآية (٢٢). (٢) سورة «فاطر»، الآية (٩).

(٣) امرؤ القيس من أشهر شعراء العصر الجاهلى، وممن قالوا الشعر فى جميع الأغراض، وله ديوان شعر مطبوع ومحقق.

(٤) سورة «الأعراف»، الآية (٤٣). (٥) سورة «الأنعام»، الآية (١٦١).

(٦) إمام أهل القراءات، حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القارىء، أبو عمارة الكوفى، التيمى، مولاهم، لقب بـ «الزيات»؛ لأنه كان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان، وهو أحد القراء السبعة، وكان عالماً، ورعاً، صالحاً، صدوقاً، ولكن سيء الحفظ فى الحديث، ولذلك لم يوثقه أكثر أهل الحديث. ولد سنة ٨٠هـ، وتوفى سنة ١٥٦هـ. تهذيب التهذيب (٢/ ١٩، ٢٠).

(٧) هو عبدالله بن كثير الدارمى، المكى، أبو معبد القارىء، روى عن أبى الزبير، ومجاهد، وقرأ =

الخالصة وهى لغة قريش وهى الثابتة فى المصحف الإمام[1]. ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، والمراد به: طريق الحق، وهو ملة الإسلام.

●●﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الصراط، وهو فى حكم تكرير العامل وفائدته التأكيد والإشعار بأن الصراط المستقيم تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده وهم المؤمنون أو الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أو قوم موسى قبل أن يغيروا. ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بدل من الذين أنعمت عليهم، يعنى: أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أوصفة للذين، يعنى: أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهى نعمة الإيمان وبين السلامة من غضب الله والضلال، وإنما ساغ وقوعه صفة للذين ـ وهو معرفة وغير لا يتعرف بالإضافة ـ لأنه إذا وقع بين متضادين وكانا معرفتين تعرف بالإضافة نحو عجبت من الحركة غير السكون، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم متضادان؛ ولأن الذين قريب من النكرة، لأنه لم يرد به قوم بأعيانهم، وغير المغضوب عليهم قريب من المعرفة للتخصيص الحاصل له بإضافته؛ فكل واحد منهما فيه إبهام من وجه واختصاص من وجه فاستويا، (عَلَيْهِمْ) الأولى محلها النصب على المفعولية، ومحل الثانية الرفع على الفاعلية. وغضب الله: إرادة الانتقام من المكذبين وإنزال العقوبة بهم وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على ما تحت يده. وقيل: المغضوب عليهم هم اليهود، لقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[2]. والضالون هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾[3]، (وَلَا) زائدة عند البصريين للتوكيد، وعند الكوفيين هى بمعنى غير. (آمين): صوت سمى به الفعل الذى هو استجب كما أن رويد اسم لأمهل. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ سألت رسول الله ﷺ عن معنى آمين؛ فقال: «افعل»(٤). وهو مبنى وفيه لغتان: مد ألفه وقصرها ـ وهو الأصل ـ والمد بإشباع الهمزة قال:

يا رب لا تسلبنى حبها أبدا ويرحم الله عبداً قال آمينا

وقال: أمين فزاد الله ما بيننا بعدا، قال عليه السلام: «لقننى جبريل «آمين» عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب» وقال: إنه كالختم على الكتاب»[5] وليس من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف.

=عليه القرآن، وهو أحد القراء السبعة، وهو قارئ أهل مكة، وكان ـ رحمه الله ـ عطاراً.
ولد عام ٤٥ هـ، وكانت وفاته عام ١٢٠هـ.
تهذيب التهذيب (٣/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(١) المصحف الإمام: هو المصحف الذى جمع عليه عثمان بن عفان المسلمين، وأمر الناس أن يقرؤوا به دون غيره؛ درءاً للفرقة والاختلاف بين المسلمين.

(٢) سورة «المائدة»، الآية (٦٠). (٣) سورة «المائدة»، الآية (٧٧).

(٤) أخرجه الثعلبى من رواية أبى صالح عنه، بإسناد واه.

(٥) قال ابن حجر: لم أجده هكذا ـ أى بلفظه ـ وذكر ما وجده عند ابن أبى شيبة وأبى داود والطبرانى.

﴿ سورة البقرة مدنية وهى مائتان وست أو سبع وثمانون آية ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

●●﴿الٓمٓ﴾ ونظائرها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التى منها ركبت الكلم، فالقاف تدل على أول حروف قال، والألف تدل على أوسط حروف قال، واللام تدل على الحرف الأخير منه، وكذلك ما أشبهها، والدليل على أنها أسماء أن كلا منها يدل على معنى فى نفسه ويتصرف فيها بالإمالة والتفخيم وبالتعريف والتنكير والجمع والتصغير، وهى معربة، وإنما سكنت سكون زيد وغيره من الأسماء حيث لا يمسها إعراب لفقد مقتضيه، وقيل: إنها مبنية كالأصوات نحو غاق فى حكاية صوت الغراب، ثم الجمهور على أنها أسماء السور، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أقسم الله بهذه الحروف. وقال ابن مسعود(1) ـ رضى الله عنه ـ : إنها اسم الله الأعظم. وقيل: إنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها، وقيل: ورود هذه الأسماء على نمط التعديد كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن وكالتحريك للنظر فى أن هذا المتلو عليهم ـ وقد عجزوا عنه عن آخرهم ـ كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم؛ ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا إن لم تتساقط مقدرتهم دونه ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام إلا لأنه ليس من كلام البشر. وأنه كلام خالق القوى والقدر، وهذا القول من الخلاقة بالقبول بمنزل، وقيل: إنما وردت السور مصدرة بذلك؛ ليكون أول ما يقرع الأسماء مستقلاً بوجه من الإغراب وتقدمة من دلائل الإعجاز، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب، بخلاف النطق بأسامى الحروف فإنه كان مختصا بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستبعداً من الأمى التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة، فكان حكم النطق بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن التى لم تكن قريش ومن يضاهيهم فى شىء من الإحاطة بها فى أن ذلك حاصل له من جهة الوحى وشاهد لصحة نبوته. واعلم أن المذكور فى الفواتح نصف أسامى حروف المعجم: وهى الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهى مشتملة على أنصاف أجناس الحروف؛ فمن المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها: الألف

---

(1) هو الصحابى الجليل القدر، العالى المكانة: عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب، أبو عبدالرحمن الهذلى، من السابقين إلى الإسلام، هاجر الهجرتين، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان ملازماً له؛ حتى إنه لقب بـ: صاحب نعل رسول الله ﷺ، وهو من أجل علماء الصحابة، حتى قيل: لا إجماع بدون ابن مسعود.

كانت وفاته ـ على الأرجح ـ سنة ٣٢هـ، عن نيف وستين سنة.

تهذيب التهذيب (٣/٢٦٧، ٢٦٨).

والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها الصاد: والطاء، ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام الميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء، وغير المذكورة من هذه الأجناس مذكورة بالمذكورة منها. وقد علمت أن معظم الشيء ينزل منزلة كله، فكأن الله تعالى عدَّد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما مر من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم. وإنما جاءت مفرقة على السور، لأن إعادة التنبيه على المتحدى به مؤلفاً منها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كل تكرير ورد فى القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر فى النفوس وتقريره، ولم تجىء على وتيرة واحدة بل اختلفت أعداد حروفها مثل ص و ق و ن وطه وطس ويس وحم والم والر وطسم والمص والمر وكهيعص وحم عسق؛ فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة كعادة افتنانهم فى الكلام. وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك فى الفواتح هذا المسلك، والم آية حيث وقعت، وكذا المص آية، والمر لم تعد آية، وكذا الر لم تعد آية فى سورها الخمس، وطسم آية فى سورتيها، وطه ويس آيتان، وطس ليست بآية، وحم آية فى سورها كلها، وحم عسق آيتان، وكهيعص آية، وص و ن و ق ثلاثتها لم تعد آية وهذا عند الكوفيين، ومن عداهم لم يعد شيئاً منها آية. وهذا علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور، ويوقف على جميعها وقف التمام إذا حملت على معنى مستقل غير محتاج إلى ما بعده وذلك إذا لم تحمل أسماء للسور، ونعق بها كما ينعق بالأصوات أو جعلت وحدها أخبار ابتداء محذوف كقوله ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ﴾(١). أى هذه الم ثم ابتدأ فقال: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٢) ولهذه الفواتح محل من الإعراب فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام وهو الرفع على الابتداء أو النصب أو الجر؛ لصحة القسم بها وكونها بمنزلة الله، والله على اللغتين ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل فى مذهبه كما لا محل للجملة المبتدأة وللمفردات المعدودة.

** ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أى ذلك الكتاب الذى وعد به على لسان موسى وعيسى - عليهما السلام - أو ذلك إشارة إلى الم، وإنما ذكرَّ اسم الإشارة والمشار إليه مؤنث وهو السورة؛ لأن الكتاب إن كان خبره كان ذلك فى معناه ومسماه مسماه فجاز إجراء حكمه عليه بالتذكير والتأنيث، وإن كان صفته فالإشارة به إلى الكتاب صريحاً؛ لأن اسم الإشارة مشار به إلى الجنس الواقع صفة له، تقول: هند ذلك الإنسان، أو ذلك الشخص فعل كذا، ووجه تأليف ذلك الكتاب مع الم - إن جعلت الم اسماً للسورة - أن يكون الم مبتدأ وذلك مبتدأ ثانياً والكتاب خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول، ومعناه أن

(١) سورة «آل عمران» الآيتان: (١، ٢). (٢) سورة «آل عمران»، الآية: (٢).

ذلك هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب فـي مقابلته ناقص، كما تقول: هو الرجل، أى: الكامل فى الرجوليـة الجامع لما يكون فى الرجال من مرضيات الخصال، وأن يـكون الم خبر مبتدإ محذوف، أي: هذه الم جـملة، وذلك الكتاب جمـلة أخرى، وإن جعلت الم بمنـزلة الصوت كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أى: يذلك الـكتاب المنزل هو الكتاب الكامل. ﴿لا رَيْبَ﴾ لاشك، وهو مصدر رابنـى إذا حصل فيك الريبـة، وحقيقة الريبة قـلق النفس واضطرابـها، ومنه قولـه ـ عـليـه السـلام ـ: «دع ما يريبـك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة، وإن الصـدق طمأنينة»[1]. أى: فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستـقر، وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن، ومنه ريب الزمان وهو ما يقـلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، وإنما نـفى الريب على سبيل الاستغراق، وقد ارتاب فيه كثـير، لأن المنفى كونه متعلقاً للريب ومظـنة له لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهـان بحيث لا ينبغى لمرتـاب أن يقع فيه لا أن أحداً لا يرتاب، وإنما لـم يقل: لا فيه ريب كما قال ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[2]؛ لأن المراد فى إيلاء الريب حرف النفـى: نفى الريب عنه وإثبات أنه حق لا باطل كـما يزعم الكفار، ولو أولى الظـرف لقصد إلى ما يبعد عن المـراد وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لا فيه كما قصد فى قوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى، والوقف على «فيه» هو المشهور، وعن نافع[3] وعاصم أنهما وقفا على «ريب» ولابد للواقف من أن ينوى خبراً، والتقدير: لا ريب فيه. ﴿فِيهِ هُدًى﴾ فيه بإشباع كل هاء مكى[4] ووافقه حفص[5] فى ﴿فِيهِ مُهَانًا﴾[6] وهو الأصل كقولك: مررت به ومن عنده وفى داره، وكما لا يقال فى داره ومن عنده وجب أن لا يقال فيـه. وقال سيبويه: ما قاله مؤد إلى الجمع

---

(١) أخرجه الترمذى فى آخر الطب، والحاكم فى البيوع، والطبرانى والبزار.

(٢) سورة «الصافات»، الآية (٤٧).

(٣) هو: نافع بن عبدالرحـمن بن أبى نعيم، القارئ المدنى، أبو رويم وهو غيـر نافع مولى ابن عمر؛ فنافع القارئ روى عن نافع مولى ابن عمر، وهو من أقدم القراء السبعة.

يتلخص الحكم فيـه فى قول أبى طالب عن أحمد: «كان يؤخذ عنه القـرآن، وليس فى الحديث بشىء» اهـ. وهذا شأن غالب القراء [راجع ترجمة القراء فى الصفحات السابقة].

كانت وفاته عام ١٦٩هـ.

تهذيب التهذيب (٥/ ٦٠٢، ٦٠٣).

(٤) هو: مكى بن أبى طالب، حـموش بن مختار الأندلسى، القيسى، كنيتـه: أبو محمد، كان له باع طويل فى علوم القراءات والتفسير، وكذلك علوم اللغة.

ولد عام ٣٥٥هـ، وتوفى عام ٤٣٧هـ (الأعلام (٧/ ٢٨٦).

(٥) هو حفص بن سليمان، الأسدى، أبو عمر، البزار، الكوفى قرأ على عاصم بن أبى النجود، وكان أعلم تلاميذه بقراءته، وكان ابن امرأته، وروايته عنه أضبط الروايات.

ولد سنة ٩٠هـ، وتوفى سنة ١٨٠هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٥٥٨)، ٥٥٩).

(٦) سورة «الفرقان»، الآية (٦٩).

بين ثلاثة أحرف سواكن: الياء قبل الهاء، والهاء، إذ الهاء المتحركة فى كلامهم بمنزلة الساكنة؛ لأن الهاء خفية والخفى قريب من الساكن ـ والياء بعدها، والهدى مصدر على فعل؛ كالبكى، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلالة فى مقابلته فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾[1]. و إنما قيل: هدى ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، والمتقون مهتدون، لأنه كقولك للعزيز المكرم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة على ما هو ثابت فيه واستدامته؛ كقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]. أو لأنه سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى متقين، كقوله عليه السلام: «من قتل قتيلاً فله سلبه»[3]. وقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: إذا أراد أحدكم الحج فليعجل فإنه يمرض المريض. فسمى المشارف للقتل والمرض قتيلاً ومريضاً، ولم يقل: هدى للضالين، لأنهم فريقان؛ فريق علم بقاؤهم على الضلالة وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى، وهو هدى لهؤلاء فحسب؛ فلو جيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقيل: هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال فاختصر الكلام بإجرائه على الطريقة التى ذكرنا، فقيل: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع أن فيه تصديراً للسورة التى هى أولى الزهراوين وسنام القرآن بذكر أولياء الله، والمتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم: وقاه فاتقى، ففاؤها واو ولامها ياء، وإذا بنيت من ذلك افتعل قلبت الواو تاء وأدغمتها فى التاء الأخرى، فقلت: اتقى، والوقاية فرط الصيانة، وفى الشريعة: من يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك، ومحل هدى الرفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لاريب فيه لذلك، أو النصب على الحال من الهاء فى فيه. والذى هو أرسخ عرفاً فى البلاغة أن يقال: إن قوله الم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، وذلك الكتاب جملة ثانية، ولاريب فيه ثالثة، وهدى للمتقين رابعة. وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف عطف وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة، والرابعة بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريرا لجهة التحدى، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلا بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، وقيل لعالم: فيم لذتك؟ قال: فى حجة تتبختر اتضاحا وفى شبهة تتضاءل افتضاحا. ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم الرشيق من نكتة ذات جزالة؛ ففى الأولى الحذف والرمز إلى المطلوب

(١) سورة «البقرة» الآية (١٦).

(٢) سورة «الفاتحة»، الآية (٦).

(٣) الحديث متفق عليه من حديث أبى قتادة، رضى الله عنه.

بألطف وجه، وفى الثانية ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف، ووضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد؛ كأن نفسه هداية، وإيراده منكرا ففيه إشعار بأنه هدى لا يكتنه كنهه، والإيجاز فى ذكر المتقين كما مر.

●●﴿الَّذِينَ﴾ فى موضع رفع أو نصب على المدح أى: هم الذين يؤمنون أو أعنى: الذين يؤمنون أو هو مبتدأ وخبره أولئك على هدى، أو جر على أنه صفة للمتقين، وهى صفة واردة بيانا وكشفاً للمتقين؛ كقولك: زيد الفقيه المحقق، لاشتمالها على ما أسست عليه حال المتقين من الإيمان الذى هو أساس الحسنات، والصلاة والصدقة؛ فهما العبادات البدنية والمالية وهما العيار على غيرهما، ألا ترى أن النبى ـ عليه السلام ـ سمى الصلاة عماد الدين[(١)]. وجعل الفاصل بين الإسلام والكفر ترك الصلاة[(٢)]. وسمى الزكاة قنطرة الإسلام[(٣)]؛ فكان من شأنهما استتباع سائر العبادات، ولذلك اختصر الكلام بأن استغنى عن عد الطاعات بذكر ما هو كالعنوان لها مع ما فى ذلك من الإفصاح عن فضل هاتين العبادتين أوصفة مسرودة مع المتقين تفيد غير فائدتها كقولك: زيد الفقيه المتكلم الطبيب، ويكون المراد بالمتقين الذين يجتنبون السيئات. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، وهو إفعال من الأمن، وقولهم: آمنه أى: صدقه وحقيقته أمنه التكذيب والمخالفة، وتعديته بالباء لتضمنه معنى أقر وأعترف. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بما غاب عنهم مما أنبأهم به النبى ـ عليه السلام ـ من أمر البعث والنشور والحساب وغير ذلك، فهو بمعنى الغائب تسمية بالمصدر من قولك: غاب الشىء غيباً؛ هذا إن جعلته صلة للإيمان، وإن جعلته حالا كان بمعنى الغيبة والخفاء أى: يؤمنون غائبين عن المؤمن به وحقيقته متلبسين بالغيبة، والإيمان الصحيح أن يقر باللسان ويصدق بالجنان، والعمل ليس بداخل فى الإيمان. ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أى: يؤدونها، فعبر عن الأداء بالإقامة؛ لأن القيام بعض أركانها كما عبر عنه بالقنوت وهو القيام، وبالركوع والسجود والتسبيح لوجودها فيها، أو أريد بإقامة الصلاة تعديل أركانها من أقام العود إذا قومه، أو الدوام عليها والمحافظة: من قامت السوق إذا نفقت؛ لأنه إذا حوفظ عليها كانت كالشىء النافق الذى تتوجه إليه الرغبات، وإذا أضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى لا يرغب فيه، والصلاة فعلة من صلى كالزكاة من زكى، وكتابتها بالواو على لفظ المفخم، وحقيقة صلى حرك الصلوين أى: الأليتين؛ لأن المصلى يفعل ذلك فى ركوعه وسجوده، وقيل للداعى مصل تشبيها له فى تخشيعه بالراكع والساجد. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم، وما بمعنى الذى. ﴿يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون، أدخل من التبعيضية صيانة لهم عن التبذير المنهى عنه[(٤)]، وقدم المفعول دلالة على كونه أهم والمراد به الزكاة، لاقترانه بالصلاة التى هى

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب من طريق عكرمة، عن عمر رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن جابر بلفظ: «وبين الرجل وبين الكفر تركه الصلاة».

(٣) رواه إسحاق فى مسنده من حديث أبى الدرداء.

(٤) ورد النهى عن التبذير فى الآيتين ٢٦ ـ٢٧ من سورة الإسراء حيث يقول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

أختها أو هى وغيرها من النفقات فى سبل الخير لمجيئة مطلقاً، وأنفق الشىء وأنفده أخوان كنفق الشىء وتفدو كل ما جاء مما فاؤه نون وعينه فاء فدال على معنى الخروج والذهاب، ودلت الآية على أن الأعمال ليست من الإيمان حيث عطف الصلاة والزكاة على الإيمان، والعطف يقتضى المغايرة.

●●﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام(1) وأضرابه من الذين آمنوا بكل وحى أنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة إيقانا زال معه ما كانوا عليه من أنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات، ثم إن عطفتهم على الذين يؤمنون بالغيب دخلوا فى جملة المتقين، وإن عطفتهم على المتقين لم يدخلوا، فكأنه قيل: هدى للمتقين وهدى للذين يؤمنون بما أنزل إليك، أو المراد به وصف الأولين ووسط العاطف كما يوسط بين الصفات فى قولك: هو الشجاع والجواد، وقوله(2):

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكتيبة فى المزدحم

والمعنى: أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه. ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعنى: القرآن، والمراد: جميع القرآن لا القدر الذى سبق إنزاله وقت إيمانهم؛ لأن الإيمان بالجميع واجب، وإنما عبر عنه بلفظ الماضى، وإن كان بعضه مترقبا تغليبا للموجود على ما لم يوجد، ولأنه إذا كان بعضه نازلا وبعضه منتظر النزول جعل كأن كله قد نزل. ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى سائر الكتب المنزلة على النبيين ﴿وَبِالآخِرَةِ﴾ وهى تأنيث الآخر الذى هو ضد الأول، وهى صفة والموصوف محذوف وهو الدار بدليل قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾(3) وهى من الصفات الغالبة وكذلك الدنيا، وعن نافع أنه خففها بأن حذف الهمزة وألقى حركتها على اللام. ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيقان: إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه.

●●﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ الجملة فى موضع الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ وإلا فلا محل لها، ويجوز أن يجرى الموصول الأول على المتقين وأن يرتفع الثانى على الابتداء وأولئك خبره، ويجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح تعريضاً بأهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبوة رسول الله

---

(1) هو: عبدالله بن سلام بن الحارث، الإسرائيلى، أبو يوسف، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق، وما بعدها، وقيل: بل شهد بدراً، وهو ممن نزل فيهم قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

لأنه آمن بنبيه، وآمن برسول الله ﷺ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس، ومات بالمدينة سنة ٤٣هـ. تهذيب التهذيب (٣/ ١٦٣).

(2) هذا بيت لشريح بن أوفى العيسى، الذى قتل محمد بن طلحة يوم الجمل.

(3) سورة «القصص»، الآية (٨٣).

- ﷺ - وهم ظانون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح عند الله، ومعنى الاستعلاء فى على هدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به بحيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق، وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك فى قولهم: جعل الغواية مركبا، وامتطى الجهل، واقتعد غارب الهوى. ومعنى هدى ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: أوتوه من عنده، ونكر هدى ليفيد ضربا مبهما لا يبلغ كنهه، كأنه قيل: على أى هدى، ونحوه: لقد وقعت على لحم، أى: على لحم عظيم. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الظافرون بما طلبوا، الناجون عما هربوا، فالفلاح درك البغية، والمفلح الفائز بالبغية، كأنه الذى انفتحت له وجوه الظفر، والتركيب دال على معنى الشق والفتح، وكذا أخواته فى الفاء والعين، نحو فلق وفلز وفلى، وجاء العطف هنا بخلاف قوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1] لاختلاف الخبرين المقتضيين للعطف هنا واتحاد الغفلة والتشبيه بالبهائم ثم[2]؛ فكانت الثانية مقررة للأولى فهى من العطف بمعزل، وهم فصل، وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره، أو هو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك، فانظر كيف قرر الله - عز وجل - التنبيه على اختصاص المتقين بنيل مالا يناله أحد على طرق شتى، وهى ذكر اسم الإشارة وتكريره، ففيه تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الأثرة بالهدى فهى ثابتة لهم بالفلاح، وتعريف المفلحون[3] ففيه دلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون فى الآخرة، كما إذا بلغك أن إنسانا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو، فقيل: زيد التائب أى هو الذى أخبرت بتوبته، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك ليبصرك مراتبهم، ويرغبك فى طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا. . . . اللهم زينا بلباس التقوى واحشرنا فى زمرة من صدرت بذكرهم سورة البقرة. . . . . لما قدم ذكر أوليائه بصفاتهم المقربة إليه وبيّن أن الكتاب هدى لهم، قفى على أثره بذكر أضدادهم وهم العتاة المردة الذين لا ينفع فيهم الهدى بقوله:

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الكفر: ستر الحق بالجحود، والتركيب دال على الستر، ولذا سمى الزراع كافرا، وكذا الليل، ولم يأت بالعاطف هنا كما فى قوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[4]؛ لأن الجملة الأولى هنا مسوقة بيانا لذكر الكتاب لا خبرا عن المؤمنين، وسيقت الثانية للإخبار عن الكفار بكذا؛ فبين الجملتين تفاوت فى المراد؛ وهما على حد لا مجال للعطف فيه وإن كان مبتدأ على تقرير فهو كالجارى عليه، والمراد بالذين كفروا أناس بأعيانهم علم الله أنهم لا

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٧٩). (٢) ثَمّ: أى فى الموضع الآخر

(٣) وتعريف «المفلحون» هكذا، وجاءت فى نسخ «المفلحين»، وهذا هو الصحيح؛ لأنها مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء؛ لأنه جمع مذكر سالم، ولعل المؤلف ساقها على حركة الحكاية، مع أنها لم يقصد بها الحكاية هنا.

(٤) سورة «الانفطار»، الآيتان (١٣، ١٤).

يؤمنون؛ كأبى جهل(١)، وأبى لهب(٢)، وأضرابهما. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بهمزتين كوفى، وسواء بمعنى الاستواء، وصف به كما يوصف بالمصادر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾(٣) أى: مستوية وارتفاعه على أنه خبر لأن، وأأنذرتهم أم لم تنذرهم مرتفع به على الفاعلية، كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، أو يكون سواء خبرا مقدما وأأنذرتهم أم لم تنذرهم فى موضع الابتداء، أى سواء عليهم إنذارك وعدمه، والجملة خبر لإن، وإنما جاز الإخبار عن الفعل مع أنه خبر أبدا؛ لأنه من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى، والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا، قال سيبويه: جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء فى قولك: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، يعنى: أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام. كما جرى ذلك على صورة النداء ولا نداء. والإنذار: التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصى؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مؤكدة للجملة قبلها، أو خبر لإن، والجملة قبلها اعتراض، أوخبر بعد خبر. والحكمة فى الإنذار مع العلم بالإصرار إقامة الحجة، وليكون الإرسال عاما وليثاب الرسول.

●●﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال الزجاج: الختم التغطية؛ لأن فى الاستيثاق من الشىء بضرب الخاتم عليه تغطية له لئلا يطلع عليه، وقال ابن عباس: طبع الله على قلوبهم فلا يعقلون الخير، يعنى: أن الله طبع عليها فجعلها بحيث لا يخرج منها ما فيها من الكفر ولا يدخلها ما ليس فيها من الإيمان، وحاصل الختم والطبع خلق الظلمة والضيق فى صدر العبد عندنا، فلا يؤمن ما دامت تلك الظلمة فى قلبه، وعند المعتزلة: أعلام محض على القلوب بما يظهر للملائكة أنهم كفار فيلعنونهم ولا يدعون لهم بخير، وقال بعضهم: إن إسناد الختم إلى الله تعالى مجاز، والخاتم فى الحقيقة الكافر إلا أنه تعالى لما كان هو الذى أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى السبب فيقال: بنى الأمير المدينة، لأن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء

---

(١) أبو جهل: هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى، القرشى، أحد كبار سادات قريش، كان يكنى فى الجاهلية بأبى الحكم؛ فكناه الرسول ﷺ بأبى جهل، وهو والد عكرمة بن أبى جهل، الذى أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، قتل أبو جهل فى غزوة بدر عام ٢ هـ.

الأعلام (٥/ ٨٧).

(٢) أبو لهب: هو عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم، عم الرسول ﷺ ولكنه كان أشد الناس عداوة له، ولدعوته، حتى إن الله تعالى أنزل فيه وفى زوجته ـ أم جميل ـ سورة المسد لعنة الله عليهما.

مات بعد غزوة بدر بقليل. الأعلام (٤/ ١٢).

(٣) سورة «آل عمران»، الآية (٦٤).

مجازا لمضاهاتـها الفاعل فى ملابسة الفعل كـما يضاهى الرجل الأسد فى جرأته فـيستعار له اسمه، وهذا فرع مسألة خلق الأفعال. ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وحَّد السمع كما وحَّد البطن فى قوله:

كلوا فى بعض بطنكم تعفوا؛ لأمن اللبـس، ولأن السمع مصدر فى أصله يقال: سمعت الشىء سمعا وسمـاعا، والمصدر لا يجمع؛ لأنه اسـم جنس يقع على القلـيل والكثير فلا يحـتاج فيه إلى التثنـية والجمع فلمح الأصـل وقيل المضاف محذوف أى وعـلى مواضع سمعهـم. وقرىء: «وعلى أسماعهم» ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ بالرفع خـبر ومبتدأ، والبصـر نور العين، وهو ما يـبصر به الرائى، كما أن البصيرة: نور القلب، وهى ما به يستبصر ويتأمل، وكأنهما جوهران لطيفان خلقهما الله تعالى فيهما آلتين للإبصار والاستبصار. والغشاوة: الغطاء فعالة من غشاء إذا غطاه، وهذا البناء لما يشتمل على الـشىء كالعصابة والعمامة والقلادة. والأسمـاع داخلة فى حكم الختم لا فى حكم التغشية؛ لقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[1]. ولوقفهم على سمعهم دون قلوبهم ونصـب المفضل وحده غشاوة بإضمار جعـل، وتكرير الجار فى قوله: وعلى سـمعهم دليل على شدة الختم فى الموضعين. قال الشيخ الإمام أبو منصور بن على[2] ـ رحمه الله ـ: الكافر لما لم يسمع قول الحق ولم ينظر فى نفسه وغيره من المخلوقات ليرى آثار الحدوث فيعلم أن لابد من صانع جعل كأن على بصره وسـمعه غشاوة وإن لم يكن ذلك حقيقة، وهذا دلـيل على أن الأسماع عنده داخلة فى حكم التغشية، والآية حجة لنا على المعتزلة فى الأصلح؛ فإنه أخبر أنه ختم على قلوبهم، ولا شك أن ترك الختم أصـلح لهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب مثل النكـال بناء ومعنى؛ لأنك تقول: أعذب عـن الشىء إذا أمسك عنـه، كما تقول نكـل عنه، والفرق بيـن العظيم والكـبير أن العظيم يقابل الحقير والكبير يقابل الصغيـر، فكأن العظيم فوق الكبير كما أن الحقير دون الصغير. ويستعمـلان فى الجثة والأحداث جميعـا، تقول: رجل عظيم وكبـير تريد جثته أو خطـره، ومعنى التنكيـر: أن على أبصارهم نوعا من الـتغطية غير ما يتـعارفه الناس؛ وهو غطاء الـتعامى عن آيات الله، ولهم من بين الآلام العظام نوع عظيم من العذاب لا يعلم كنهه إلا الله.

●●﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ افتتح سبحانه وتعـالى بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم ألـسنتهم، ثم ثنى بالكافرين قلوباً وألسنة، ثم ثـلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولمّ تؤمن قلوبهم وهم أخبث الكفرة؛ لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعا ولذا نزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[3] وقال مجاهد[4]: أربع آيات من أول السورة فى

---

(١) سورة «الجاثية»، الآية (٢٣). (٢) هو أبو منصور الماتريدى، تأتى ترجمته لاحقاً.

(٣) سورة «النساء»، الاية (١٤٥).

(٤) مجاهد بن جبر، المكى، أبو الحجاج المخزومى المقرى، كان إماماً فى التفسير وفى العلم، روى عن جمع كبير من الـصحابة، وجعله ابن حجر فى الطـبقة الثالثة. ولد فى خلافة عمـر سنة ٢١ هـ، وتوفى ـ على خلاف ـ بعد عام ١٠٠هـ بقليل. تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥).

نعت المؤمنين، وآيتان في ذكر الكافرين وثلاث عشرة آية في المنافقين نعى عليهم فيها نكرهم وخبثهم وسفههم، واستجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم وسجل بطغيانهم وعمههم، ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة. وأصل ناس أناس حذفت همزته تخفيفا. وحذفها كاللازم مع لام التعريف، لايكاد يقال: الأناس. ويشهد لأصله: إنسان وأناسي وإنس، وسموا به لظهورهم وأنهم يؤنسون، أي: يبصرون كما سمي الجن لاجتنائهم، ووزن ناس فعال لأن الزنة على الأصول، فإنك تقول وزن «قه» افعل وليس معك إلا العين. وهو من أسماء الجمع ولام التعريف فيه للجنس، ومن موصوفة، ويقول صفة لها كأنه قيل: ومن الناس ناس يقولون كذا: وإنما خصوا الإيمان بالله وباليوم الآخر وهو الوقت الذي لا حد له، وهو الأبد الدائم الذي لا ينقطع، وإنما سمي بالآخر لتأخره عن الأوقات المنقضية، أو الوقت المعهود من النشور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار لأنهم أوهموا في هذا المقال أنهم أحاطوا بجانبي الإيمان أوله وآخره، وهذا لأن حاصل المسائل الاعتقادية يرجع إلى مسائل المبدأ، وهي العلم بالصانع وصفاته وأسمائه، ومسائل المعاد، وهي العلم بالنشور والبعث من القبور والصراط والميزان وسائر أحوال الآخرة. وفي تكرير الباء إشارة إلى أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام، وإنما طابق قوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهو في ذكر شأن الفاعل لا الفعل، قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهو في ذكر شأن الفعل لا الفاعل؛ لأن المراد إنكار ما ادعوه ونفيه على أبلغ وجه وآكده، وهو إخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من المؤمنين. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[1]، فهو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها، وأطلق الإيمان في الثاني بعد تقييده في الأول لأنه يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه، ويحتمل أن يراد نفي أصل الإيمان وفي ضمنه نفي المذكور أولا. والآية تنفي قول الكرامية[2]: أن الإيمان هو الإقرار باللسان لا غير؛ لأنه نفى عنهم اسم الإيمان مع وجود الإقرار منهم. وتؤيد قول أهل السنة إنه إقرار باللسان وتصديق بالجنان، ودخلت الباء في خبر ما مؤكدة للنفي؛ لأنه يستدل به السامع على الجحد إذا غفل عن أول الكلام. ومن موحد اللفظ فلذا قيل: يقول وجمع وما هم بمؤمنين نظرا إلى معناه.

●●﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي رسول الله، فحذف المضاف كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] كذا قاله أبو علي[4] ـ رحمه الله ـ وغيره: أي: يظهرون غير ما في أنفسهم، فالخداع إظهار غير ما في النفس،

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٣٧).

(٢) الكرامية: هم أصحاب أبي عبدالله، محمد بن كرام، الذي كان يثبت الصفات؛ إلا إنه ينتهي فيها إلى التشبيه والتجسيم، والكرامية طوائف؛ يبلغ عددها ١٢ طائفة. الملل والنحل (١/ ١١٥).

(٣) سورة «يوسف»، الآية (٨٢).

(٤) هو: إسماعيل بن شعيب، أبو علي النهاوندي، برع في الفقه والإقراء، كانت وفاته سنة ٣٥٠هـ. غاية النهاية (١/ ١٦٤).

وقد رفع الله منزلة النبى ﷺ حيث جعل خداعه خداعه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(١). وقيل: معناه يخادعون الله فى زعمهم؛ لأنهم يظنون أن الله ممن يصح خداعه، وهذا المثال يقع كثيرا لغير اثنين نحو قولك: عاقبت اللص، وقد قرىء: «يخدعون الله»، وهو بيان ليقول، أو مستأنف كأنه قيل: ولم يدعون الإيمان كاذبين، وما منفعتهم فى ذلك؟! فقيل: يخادعون الله ومنفعتهم فى ذلك متاركتهم عن المحاربة التى كانت مع من سواهم من الكفار، وإجراء أحكام المؤمنين عليهم، ونيلهم من الغنائم وغير ذلك، قال صاحب الوقوف(٢): الوقف لازم على «بمؤمنين»؛ لأنه لو وصل لصار التقدير وما هم بمؤمنين مخادعين، فينتفى الوصل، كقولك: ما هو برجل كاذب، والمراد نفى الإيمان عنهم وإثبات الخداع لهم. ومن جعل يخادعون حالا من الضمير فى يقول، والعامل فيها يقول، والتقدير: يقول: آمنا بالله مخادعين، أو حالا من الضمير فى بمؤمنين والعامل فيها اسم الفاعل والتقدير: وما هم بمؤمنين فى حال خداعهم لا يقف والوجه الأول. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يخادعون رسول الله والمؤمنين بإظهار الإيمان وإضمار الكفر. ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ أى: وما يعاملون تلك المعاملة المشبهة بمعاملة المخادعين إلا أنفسهم؛ لأن ضررها يلحقهم، وحاصل خداعهم ـ وهو العذاب فى الآخرة ـ يرجع إليهم، فكأنهم خدعوا أنفسهم. و(ما يخادعون) أبو عمرو(٣) ونافع ومكى للمطابقة، وعذر الأولين أن خدع وخادع هنا بمعنى واحد، والنفس ذات الشىء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح النفس لأن النفس بهما، وللدم نفس؛ لأن قوامها بالدم، وللماء نفس لفرط حاجتهما إليه، والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم، والمعنى: بمخادعتهم ذواتهم أن الخداع لاصق بهم لايعدوهم إلى غيرهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصل خداعهم يرجع إليهم، والشعور علم الشىء، علم حسن من الشعار، وهو ثوب يلى الجسد ومشاعر الإنسان حواسه لأنها آلات الشعور، والمعنى: أن الحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس وهم، لتمادى غفلتهم كالذى لا حس له.

●●﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك ونفاق، لأن الشك تردد بين الأمرين والمنافقين متردد. فى الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة المائرة بين الغنمين»(٤) . والمريض متردد بين الحياة والموت،

---

(١) سورة «الفتح»، الآية (١٠).

(٢) صاحب الوقوف هو: هلال بن يحيى بن مسلم، البصرى؛ فقيه من فقهاء الحنفية، بصرى، لقب بـ «هلال الرأى»؛ لسعة علمه، وكثرة أخذه بالقياس. وكتابه «أحكام الوقف» وهو عمدة فى بابه. توفى عام ٢٤٥هـ.

الأعلام (٨/ ٩٢).

(٣) هو: عثمان بن سعيد بن عثمان، معروف بـ: أبو عمرو الدانى، من الأئمة فى علوم القرآن، ورواياته وتفسيره، كانت ولادته سنة ٣٧١هـ، وتوفى سنة ٤٤٤هـ.

الأعلام (٤/ ٢٠٦).

(٤) رواه مسلم من رواية موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر، رضى الله عنهما.

ولأن المرض ضد الصحة، والفساد يقابل الصحة، فصار المرض اسما لكل فساد والشك والنفاق فساد فى القلب، ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أى: ضعفاً عن الانـتصار، وعجزا عن الاقتدار، وقـيل: المراد به خلق النفاق فى حـالة البقاء بخلق أمثاله، كمـا عرف فى زيادة الإيمان. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فعيل بمعنى مفـعل أى مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ كوفى. أى: بكذبـهم فى قولهم: آمنا بـالله وباليوم الآخر، فما مع الفعل بمعنى المصدر، والكذب: الإخـبار عن الشىء على خلاف ما هو به (يُكَذِّبُون) غيرهم أى: بتكذيبهم النبى ـ عليه السلام ـ فيما جاء به، وقيل: هو مبالغة فى كذب، كما بولغ فى صدق فقيل صدَّق، ونظيرهما بان الشىء وبين.

●●﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ معطوف على يـكذبون ويجوز أن يعطف على يقول آمـنا؛ لأنك لو قلت: ومن الناس من إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لكان صحيحا، والفساد: خروج الشىء عن حال استقامته وكونه منـتفعاً به، وضده الصلاح وهو الحصول على الحال المستقيـمة النافعة، والفساد فى الأرض هيج الحـروب والفتن؛ لأن فى ذلك فساد مـا فى الأرض، وانتفاء الاستقـامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية، وكان فساد المـنافقين فى الأرض أنهم كانوا يمايلون الكفار ويمالؤنهم على المسـلمين بإفشاء أسرارهم إليهم وإغرائهم عليهـم، وذلك مما يؤدى إلى هيج الفتن بينهم. ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بين المؤمنيـن والكافرين بالمداراة، يعنى: أن صفـة المصلحين خلصت لنا وتمحضت من غير شائبة قادح فـيها من وجه من وجوه الفساد، لأن «إنما» لقصر الحكم على شىء، أو لقصر الشىء على حكم، كقولك: إنما ينطلق زيد، وإنما زيد كاتب، وما كافة لأنها تكفها عن العمل.

●●﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم مفـسدون، فحذف المفعول للـعلم به، «ألا»: مركبـة من همزة الاسـتفهام وحـرف النفى لإعـطاء معنـى التنبيه على تحـقيق ما بـعدها، والاستفهام إذا دخل على النفى أفاد تحققاً كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ﴾(١)، ولكونها فى هذا المنصب من التحقيق لا تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بـنحو ما يتلقى به القسم، وقد رد الله ما ادعوه من الانتظام فى جملة المصلحين أبلغ رد وأدله على سـخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف، وما فى ألا وإن من التأكيد، وتعريف الخبر وتوسيط الفصل وقوله: لا يشعرون.

●●﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ نصحوهم من وجهين؛ أحدهما: تقبيـح ما كانوا عليه لبعده عن الصـواب وجره إلى الفساد، وثانيهما: تبـصيرهم الطريق الأسدَّ(٢) من اتباع ذوى الأحلام فكان من جوابهم أن سفهوهم لتـمادى جهلهم، وفيه تسلية للعالم مما يلقى من الجهلة، وإنمـا صح إسناد قيل إلى لا تفسـدوا وآمنوا مـع أن إسناد الـفعل إلـى الفعل

(١) سورة «القيامة» الآية (٤٠).
(٢) الأسد: صيغة تفضيل من «سدد»، أى: أكثر سداداً، صحةً وصواباً.

لا يصح؛ لأنه إسناد إلى لفظ الفعل، والممتنع إسناد الفعل إلى معنى الفعل، فكأنه قيل: وإذا قيل لهم هذا القول ومنه؟: «زعموا مطية الكذب»(١). وما فى كما كافة كما فى ربما، أو مصدرية كما فى ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾(٢). واللام فى الناس للعهد أى: كما آمن الرسول ومن معه وهم ناس معهودون، أو عبدالله بن سلام وأشياعه، أى كما آمن أصحابكم وإخوانكم، أو للجنس أى كما آمن الكاملون فى الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن عداهم كالبهائم، والكاف فى كما فى موضع النصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف؛ أى: إيماناً مثل إيمان الناس، ومثله كما آمن السفهاء، والاستفهام فى أنؤمن للإنكار، واللام فى السفهاء مشار بها إلى الناس وإنما سفهوهم وهم العقلاء المراجيح؛ لأنهم - لجهلهم - اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق وأن ما عداه باطل، ومن ركب متن الباطل كان سفيها، والسفه: سخافة العقل وخفة الحلم. ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السفهاء، وإنما ذكر هنا لا يعلمون، وفيما تقدم لا يشعرون لأنه قد ذكر السفه، وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً له، ولأن الإيمان يحتاج فيه إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة، أما الفساد فى الأرض فأمر مبنى على العادات فهو كالمحسوس، والسفهاء خبر إن، وهم فصل أو مبتدأ، والسفهاء خبرهم، والجملة خبر إن.

●●﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ وقرأ أبو حنيفة - رحمه الله - (وإذا لاقوا). يقال: لقيته ولاقيته إذا استقبلته، قريباً منه. الآية الأولى فى بيان مذهب المنافقين والترجمة عن نفاقهم، وهذه فى بيان ما كانوا يعملون مع المؤمنين من الاستهزاء بهم ولقائهم بوجوه المصادقين وإيهامهم أنهم معهم. ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، وبإلى أبلغ لأن فيه دلالة الابتداء والانتهاء، أى: إذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم، ويجوز أن يكون من خلا بمعنى مضى، وشياطينهم الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم وهم اليهود، وعن سيبويه: أن نون الشياطين أصلية. بدليل قولهم تشيطن، وعنه. أنها زائدة واشتقاقه من شطن إذا بعد لبعده من الصلاح والخير، أو من شاط إذا بطل ومن أسمائه الباطل، ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم، وإنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بإن؛ لأنهم فى خطابهم مع المؤمنين فى ادعاء حدوث الإيمان منهم لا فى ادعاء أنهم أوحديون فى الإيمان؛ إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوا على لفظ التأكيد والمبالغة؛ وكيف يطمعون فى رواجه وهم بين ظهرانى المهاجرين والأنصار وأما خطابهم مع إخوانهم، فقد كان عن رغبة وقد كان متقبلا منهم رائجاً عنهم فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتأكيد. وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ تأكيد لقوله إنا معكم؛ لأن معناه الثبات على اليهودية وقوله: إنما نحن مستهزئون رد للإسلام ودفع له منهم؛ لأن المستهزىء بالشىء المستخف به

---

(١) وفى حديث أبى داود: «بئس مطية الرجل زعموا كذبه».

(٢) سورة «التوبة»، الآية (١١٨).

منكر له، ودافع لكونه معتداً به، ودفع نقيض الشيء تأكيد لثباته، أو استئناف كأنهم اعترضوا عليهم بقولهم حين قالوا لهم: إنا معكم إن كنتم معنا فلم توافقون المؤمنين، فقالوا: إنما نحن مستهزئون، والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، وأصل الباب الخفة من الهزء وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات على المكان.

●●﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أى: يجازيهم على استهزائهم، فسمى جزاء الاستهزاء باسمه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(١)، ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾(٢) فسمى جزاء السيئة سيئة، وجزاء الاعتداء اعتداء، وإن لم يكن الجزاء سيئة واعتداء، وهذا لأن الاستهزاء لا يجوز على الله تعالى من حيث الحقيقة؛ لأنه من باب العبث وتعالى عنه، قال الزجاج(٣): هو الوجه المختار، واستئناف قوله: «الله يستهزىء بهم» من غير عطف فى غاية الجزالة والفخامة، وفيه؛ أن الله تعالى هو الذى يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ الذى ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء لما ينزل بهم من النكال والذل والهوان، ولما كانت نكايات الله وبلاياه تنزل عليهم ساعة فساعة قيل: الله يستهزىء بهم ولم يقل: الله مستهزىء بهم ليكون طبقاً لقوله: إنما نحن مستهزؤون ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أى: يمهلهم. عن الزجاج. ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ فى غلوهم فى كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال أى: يتحيرون ويترددون، وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح(٤).

●●﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أى: استبدلوها به واختاروها عليه، وإنما قال: اشتروا الضلالة بالهدى ولم يكونوا على هدى لأنها فى قوم آمنوا ثم كفروا، أو فى اليهود الذين كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ فلما جاءهم كفروا به، أو جعلوا لتمكنهم منه، كأن الهدى قائم فيهم فتركوه بالضلالة، وفيه دليل على جواز البيع تعاطياً لأنهم لم يتلفظوا بلفظ الشراء ولكن تركوا الهدى بالضلالة عن اختيارهم، وسمى ذلك شراء فصار دليلاً لنا على أن من أخذ شيئاً من غيره وترك عليه عوضه برضاه فقد اشتراه وإن لم يتكلم به، والضلالة: الجور عن القصد وفقد الاهتداء، يقال: ضل منزله فاستعير للذهاب عن الصواب فى الدين ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ الربح: الفضل على رأس المال، والتجارة: صناعة التاجر، وهو الذى يبيع ويشترى للربح، وإسناد الربح إلى التجارة من الإسناد المجازى، ومعناه: فما ربحوا فى تجارتهم إذ التجارة لا تربح، ولما وقع شراء الضلالة بالهدى مجازاً أتبعه ذكر الربح والتجارة ترشيحاً له كقوله:

ولما رأيت النسر عز ابن دأية　　وعشش فى وكريه جاش له صدرى

لما شبه الشيب بالنسر، والشعر الفاحم بالغراب؛ أتبعه ذكر التعشيش والوكر ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق التجارة، كما يكون التجار المتصرفون العالمون بما يربح فيه ويخسر. والمعنى: أن

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).　　(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٩٤).
(٣) انظر ترجمته فى ص (٨) .
(٤) يدعى المعتزلة أن الله يجب عليه فعل الأصلح لعباده، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

مطلوب التجار سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوهما فرأس مالهم الهدى ولم يبق لهم مع الضلالة، وإذا لم يبق لهم إلا الضلالة لم يوصفوا بإصابة الربح وإن ظفروا بالأغراض الدنيوية؛ لأن الضال خاسر، ولأنه لا يقال لمن لم يسلم له رأس ماله قد ربح، وقيل «الذين» صفة «أولئك»، و«فما ربحت تجارتهم» إلى آخر الآية فى محل الرفع خبر «أولئك».

●●﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل؛ زيادة فى الكشف وتتميما للبيان ولضرب الأمثال فى إبراز خفيات المعانى، ورفع الأستار عن الحقائق تأثير ظاهر، ولقد كثر ذلك فى الكتب السماوية، ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل فى أصل كلامهم هو المثل وهو النظير، يقال: مِثْل ومَثَل ومثيل كشِبْه وشَبَه وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل ولم يضربوا مثلاً إلا قولاً فيه غرابة ولذا حوفظ عليه فلا يغير، وقد استعير المثل للحال، أو الصفة، أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، كأنه قيل: حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً، وكذلك قوله: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾(١) أى: فيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة الشأن، ثم أخذ فى بيان عجائبها. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾(٢) أى الوصف الذى له شأن من العظمة والجلالة، ووضع الذى موضع الذين كقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا﴾(٣). فلا يكون تمثيل الجماعة بالواحد، أو قصد جنس المستوقدين، أو أريد الفوج الذى استوقد ناراً على أن ذوات المنافقين لم يشبهوا بذات المستوقد حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد إنما شبهت قصتهم بقصة المستوقد، ومعنى استوقد أوقد. ووقود النار سطوعها. والنار: جوهر لطيف مضىء حار محرق، واشتقاقها من نار ينور إذا نفر؛ لأن فيها حركة واضطراباً ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الإضاءة: فرط الإنارة، ومصداقه قوله: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾(٤) وهى فى الآية متعدية، ويحتمل أن تكون غير متعدية مسندة إلى ما حوله، والتأنيث للحمل على المعنى لأن ما حول المستوقد أماكن وأشياء. وجواب فلما ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وهو ظرف زمان والعامل فيه جوابه مثل إذا، وما موصولة، وحوله نصب على الظرف أو نكرة موصوفة، والتقدير: فلما أضاءت شيئاً ثابتاً حوله، وجمع الضمير وتوحيده للحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى، والنور: ضوء النار وضوء كل نير، ومعنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً، ومعنى ذهب به: استصحبه ومضى به. والمعنى: أخذ الله بنورهم وأمسكه وما يمسك فلا مرسل له، فكان أبلغ من الإذهاب، ولم يقل ذهب الله بضوئهم لقوله: فلما أضاءت؛ لأن ذكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة، والمراد إزالة النور عنهم رأساً ولو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب

---

(١) سورة «الرعد»، الآية (٣٥)، وسورة «محمد»، الآية (١٥).

(٢) سورة «النحل»، الآية (٦٠).

(٣) سورة «التوبة»، الآية (٦٩).

(٤) سورة «يونس»، الآية (٥).

بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، ألا ترى كيف ذكر عقيبه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ والظلمة عرض ينافى النور، وكيف جمعها وكيف نكرها وكيف أتبعها ما يدل على أنها ظلمة لا يتراءى فيها شبحان وهو قوله: ﴿لاَّ يُبْصِرُونَ﴾، وترك بمعنى: طرح وخلى إذا علق بواحد، فإذا علق بشيئين كان مضمناً معنى صير فيجرى مجرى أفعال القلوب، ومنه: وتركهم فى ظلمات. أصله: هم فى ظلمات ثم دخل ترك فنصب الجزأين، والمفعول الساقط من لا يبصرون من قبيل المتروك المطروح لا من قبيل المقدر المنوى كأن الفعل غير متعد أصلاً، وإنما شبهت حالهم بحال المستوقد، لأنهم غب الإضاءة وقعوا فى ظلمة وحيرة، نعم المنافق خابط فى ظلمات الكفر أبداً، ولكن المراد ما استضاءوا به قليلاً من الانتفاع بالكلمة المجراة على ألسنتهم ووراء استضاءتهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق المفضية بهم إلى ظلمة العقاب السرمدى. وللآية تفسير آخر: وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد، والضلالة التى اشتروها بذهاب الله بنورهم وتركه إياهم فى الظلمات، وتنكير النار للتعظيم.

●●﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أى: هم صم مشاعرهم؛ كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم، وأن ينظروا أو يتبصروا بعيونهم جعلوا كأنما أنفت مشاعرهم. وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم: هم ليوث للشجعان وبحور للأسخياء، إلا إن هذا فى الصفات وذلك فى الأسماء، وما فى الآية تشبيه بليغ فى الأصح لا استعارة، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون والاستعارة إنما تطلق حيث يطوى ذكر المستعار له ويجعل الكلام خلوا عنه صالحاً لأن يراد به المنقول عنه والمنقول إليه لولا دلالة الحال، أو فحوى الكلام. ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه، أو عن الضلالة بعد أن اشتروها لتنوع الرجوع إلى الشيء. وعنه أوأراد أنهم بمنزلة المتحيرين الذين بقوا جامدين فى مكانهم لا يبرحون ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون.

●●﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾. ثنى الله سبحانه وتعالى فى شأنهم بتمثيل آخر لزيادة الكشف والإيضاح. شبه المنافق فى التمثيل الأول بالمستوقد ناراً وإظهاره الإيمان بالإضاءة وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار، وهنا شبه دين الإسلام بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيبهم من الأفزاع والبلايا من جهة أهل الإسلام بالصواعق. والمعنى: أو كمثل ذوى صيب، فحذف مثل لدلالة العطف عليه وذوى لدلالة يجعلون عليه. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء بهذه الصفة فلقوا منها ما لقوا، فهذا تشبيه أشياء بأشياء إلا أنه لم يصرح بذكر المشبهات كما صرح فى قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ﴾(١). وقول امرىء القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

---

(١) سورة «غافر»، الآية (٥٨).

بل جاء به مطوياً ذكره على سنن الاستعارة، والصحيح أن التمثيلين من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلف لواحد واحد شئ يقدر شبهه به. بيانه: أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها من بعض لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامنت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾(1) الآية. فالمراد تشبيه حال اليهود فى جهلها بما معها من التوراة بحال الحمار فى جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوى الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ماسواها من الأوقار لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من الكد والتعب، وكقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾(2). فالمراد: قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر، فهو تشبيه كيفية بكيفة، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيرة شيئاً واحداً فلا؛ فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة: شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها فى ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق، والتمثيل الثانى أبلغ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر ولذا أخر، وهم يتدرجون فى مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ. وعطف أحد التمثيلين على الآخر بـ«أو» لأنها فى أصلها لتساوى شيئين فصاعدا فى الشك عند البعض، ثم استعيرت لمجرد التساوى كقولك: جالس الحسن(3) أو ابن سيرين(4) ويريد أنهما سيان فى استصواب أن يجالس، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾(5)، أى الآثم والكفور سيان فى وجوب العصيان، فكذا هنا معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتى هاتين القصتين، وأن الكيفيتين سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب وإن مثلتها بهما جميعاً فكذلك، والصيب: المطر الذى يصوب أى ينزل ويقع، ويقال للسحاب صيب أيضاً، وتنكير صيب لأنه نوع من المطر شديد هائل كما نكرت النار فى التمثيل الأول والسماء هذه المظلة. وعن الحسن: أنها موج مكفوف والفائدة فى ذكر السماء، والصيب لا يكون إلا من السماء، أنه جاء بالسماء معرفة فأفاد أنه غمام أخذ بآفاق السماء ونفى أن يكون من سماء؛ أى من أفق واحد من بين سائر الآفاق؛ لأن كل أفق من آفاقها سماء، ففى التعريف مبالغة

(1) سورة «الجمعة»، الآية (5). (2) سورة «الكهف»، الآية (45).

(3) الحسن البصرى؛ تأتى ترجمته لاحقاً.

(4) هو التابعي الأشهر؛ محمد ابن سيرين الأنصارى، مولاهم وسيرين أمه، سبيت على يد خالد بن الوليد حين فتح بلدته «عين التمر» غربى الكوفة، وكان محمد مولى لأنس بن مالك، وكان كاتبه بـ فارس، أجمعت الأمة على عدالته، وعلمه، وفقهه، وورعه، وقد آتاه الله ملكة تعبير الرؤى، وله فى ذلك مؤلفات، وهو وإخوته ستة من التابعين، وكلهم ثقات، رووا عن جمع من الصحابة. ولد محمد سنة ٤٠هـ، وقيل غير ذلك، وتوفى ـ رحمه الله ـ عام ١١٠هـ. تهذيب التهذيب (١٣٩/٥ ـ ١٤١).

(5) سورة «الإنسان»، الآية (24).

كما فى تنكير صيب وتركيبه وبنائه، وفيه دليل على أن السحاب من السماء ينحدر ومنها يأخذ ماءه، وقيل: إنه يأخذ من البحر ويرتفع. ظلمات مرفوع بالجار والمجرور لأنه قد قوى لكونه صفة لصيب بخلاف ما لو قلت ابتداء فيه ظلمات ففيه خلاف بين الأخفش[1] وسيبويه. والرعد: الصوت الذى يسمع من السحاب لاصطكاك أجرامه، أو ملك يسوق السحاب والبرق الذى يلمع من السحاب من برق الشىءبريقاً إذا لمع والضمير فى فيه يعود إلى الصيب، فقد جعل الصيب مكانا للظلمات، فإن أريد به السحاب فظلماته - إذا كان أسحم[2] مطبقاً - ظلمتا سحمته وتطبيقه مضمومة إليهما ظلمة الليل. وأما ظلمات المطر فظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة أظلال غمامه مع ظلمة الليل، وجعل الصيب مكاناً للرعد والبرق على إرادة السحاب به ظاهر، وكذا إن أريد به المطر لأنهما ملتبسان به فى الجملة، ولم يجمع الرعد والبرق لأنهما مصدران فى الأصل، يقال: رعدت السماء رعدا، وبرقت برقا؛ فروعى حكم الأصل بأن ترك جمعهما، ونكرت هذه الأشياء لأن المراد أنواع منها، كأنه قيل: فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف. ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾ الضمير لأصحاب الصيب وإن كان محذوفاً كما فى قوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾[3]؛ لأن المحذوف باق معناه وإن سقط لفظه، ولا محل ليجعلون لكونه مستأنفاً لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول فكأن قائلا قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم فى آذانهم، ثم قال: فكيف حالهم مع مثل ذلك البرق؟ فقال: يكاد البرق يخطف أبصارهم، وإنما ذكر الأصابع ولم يذكر الأنامل، ورءوس الأصابع هى التى تجعل فى الآذان اتساعاً كقوله: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[4] والمراد: إلى الرسغ، ولأن فى ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس فى ذكر الأنامل، وإنما لم يذكر الأصبع الخاص الذى تسد به الأذن لأن السبابة فعالة من السب فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، ولم يذكر المسبحة لأنها مستحدثة غير مشهورة. ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون أى من أجل الصواعق يجعلون أصابعهم فى آذانهم، والصاعقة قصفة رعد تنقض معها شقة من نار، قالوا: تنقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه، وهى نار لطيفة حديدة لا تمر بشىء إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود يحكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو نصفها، ثم طفئت، ويقال: صعقته الصاعقة إذا أهلكته فصعق أى مات؛ إما بشدة الصوت أو بالإحراق. ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

---

(١) الأخفش؛ هو سعيد بن مسعدة المجاشعى، مولاهم، البلخى، ثم البصرى، أبو الحسن. من جهابذة اللغة وعلومها، له آراء، واختيارات، أخذ العربية عن سيبويه.

توفى سنة ٢١٥هـ. الأعلام (٣/١٠١).

(٢) أسحم: شديد السواد، يقال: سَحِمَ الشىء: اسودَّ، فهو أسحم، وهى سحماء. المعجم الوسيط (٤٣٦/١).

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٤).

(٤) سورة «المائدة»، الآية (٣٨).

مفعول لـه، والموت: فساد بنيـة الحيوان، أو عرض لا يصح معـه إحساس معاقب لـلحياة. ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. يعنى أنهم لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط بـه المحيط؛ فهو مجاز وهذه الجملة اعتراض لا محل لها.

●●﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾. الخطف: الأخذ بسرعة، وكاد يستعمل لتقريب الفعل جداً، وموضع يخطف نـصب لأنه خبر كاد. ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم﴾ كل ظرف، وما نـكرة موصوفة معـناها الوقت، والعائد محذوف أى كل وقت أضاء لهـم فيه، والعامل فيه جوابها وهو: ﴿مَّشَوْا فِيهِ﴾ أى فى ضوئـه، وهو استئنـاف ثالث كأنه جـواب لمن يقول: كـيف يصنعـون فى تارتى خفـوق البرق وخفيته؟! وهذا تمـثيل لشدة الأمر على المنافقيـن بشدته على أصحاب الصيب وما هـم فيه من غاية التحير والجـهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا مـن البرق خفقة، مع خوف أن يخـطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيـرة فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين، وأضاء متعد أى كلما نور لهم ممشى ومـسلكاً أخذوه، والمفعول محذوف، أو غير متعد أى: كلـما لمع لهم مشوا فى مطرح نوره، والمشى، جنس الحركة المخصوصـة، فإذا اشتد فهو سمى، فإذا ازداد فهو عدو. ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أظلم غير متعد وذكر مع أضاء كلما ومع أظلم إذا لأنهم حراص على وجود ما همهم به معقود من إمكان المـشى، فكلما صادفوا منه فرصة انتهـزوها ولا كذلك التوقف. ﴿قَامُوا﴾ وقفوا وثبتـوا فى مكانـهم ومن:ه قام المـاء إذا جمد. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بقصيـف الرعد. ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ بوميض الـبرق، ومفعول شاء مـحذوف لدلالة الجواب علـيه، أى: ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بهمـا، ولقد تكاثر هذا الحذف فى شاء وأراد، لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشىء المستغرب كنحو قوله:

فلو شئت أن أبكى دماً لبكيته ... عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾(1)، ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾(2)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: إن الله قادر عـلى كل شىء، لـما عدد الله فرق المـكلفيـن من المؤمـنين والكـفار والمنافقين، وذكر صفاتهم وأحوالهم وما اختصت به كل فرقة مما يسعدها ويشقيها ويحظيها عند الله ويرديها، أقبل عليهم بالخطاب وهو من الالتفات المذكور فقال:

●●﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال علقمة(3): ما فى القرآن يا أيها الناس فهو خطاب لأهل مكة، وما فيه يا أيها الذين آمنوا فهو خطاب لأهل المدينة، وهذا خطاب لمشركى مكة، ويا حرف وضع لنداء البعيد،

---

(1) سورة «الأنبياء»، الاية (17). (2) سورة «الزمر»، الآية (4).

(3) هو: علقمة بن قـيس بن عبدالله بن مالك، النخعى، الكوفـى، ولد فى حياة الرسول ﷺ، وروى عن جمع من كبار الصحابة، وكان إماماً فى الفقه فى عصره، من أئمة العراق.

توفى ـ رحمه الله ـ سنة بضع وستين، على خلاف كبير. تهذيب التهذيب (4/ 174 ـ 176).

وأى والهمزة للقريب، ثم استعمل فى مناداة من غفل وسها وإن قرب ودنا؛ تنزيلا له منزلة من بعد ونأى، فإذا نودى به القريب المقاطن فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معتنى به جداً، وقول الداعى: يا رب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ استقصار منه لنفسه واستبعاد لها عن مظان الزلفى هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط مع فرط التهالك على استجابة دعوته، وأى وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام، كما أن ذو والذى وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل. وهو اسم مبهم يفتقر إلى ما يزيل إبهامه فلابد أن يردفه اسم جنس، أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء. فالذى يعمل فيه يا أى، والتابع له صفته نحو يا زيد الظريف إلا أن أيا لا يستقل بنفسه استقلال زيد فلم ينفك عن الصفة، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها؛ لتأكيد معنى النداء وللعوض عما يستحقه أى من الإضافة. وكثر النداء فى القرآن على هذه الطريقة لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعده ووعيده أمور عظام وخطوب جسام، يجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم إليها وهم عنها غافلون؛ فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ. ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: وحدوه. قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: كل عبادة فى القرآن هى توحيد. ﴿الَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة موضحة مميزة لأنهم كانوا يسمون الآلهة أربابا، والخلق: إيجاد المعدوم على تقدير واستواء، وعند المعتزلة: إيجاد الشىء على تقدير واستواء، وهذا بناءعلى أن المعدوم شىء عندهم لأن الشىء ما صح أن يعلم ويخبر عنه عندهم، وعندنا هو اسم للموجود خلكّم بالإدغام أبو عمرو. ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ احتج عليهم بأنه خالقهم وخالق من قبلهم لأنهم كانوا مقرين بذلك، فقيل لهم: إن كنتم مقرين بأنه خالقكم فاعبدوه ولا تعبدوا الأصنام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: اعبدوا على رجاء أن تتقوا فتنجوا بسببه من العذاب، ولعل للترجي والإطماع ولكنه إطماع من كريم فيجرى مجرى وعده المحتوم وفاؤه، وبه قال سيبويه. وقال قطرب[1]: هو بمعنى كى، أى: لكى تتقوا.

●●﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ﴾ أى: صيَّرَ، ومحل الذى نصب على المدح، أو رفع بإضمار هو. ﴿فِرَاشًا﴾: بساطا تقعدون عليها وتنامون وتتقلبون، وهو مفعول ثان لـ «جعل» وليس فيه دليل على أن الأرض مسطحة أو كرية؛ إذ الافتراش ممكن على التقديرين. ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾: سقفا، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[2]. وهو مصدر سمى به المبنى. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: مطرا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ بالماء، نعم خروج الثمرات بقدرته ومشيئته وإيجاده ولكن جعل الماء سببا فى

(١) هو محمد بن المستنير بن أحمد، كنيته: أبو على، اشتهر بلقبه «قطرب»؛ فغلب عليه، فلا يكاد يعرف إلا به، كان عالماً بالنحو واللغة والأدب، له فى ذلك مؤلفات، وآراؤه معتمدة، توفى عام ٢٠٦هـ. الأعلام (٧/ ٩٥).

(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٣٢).

خروجها كماء الفحل فى خلق الولد، وهو قادر على إنشاء الكل بلا سبب كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد، ولكن له فى إنشاء الأشياء مدرجا لها من حال إلى حال وناقلا من مرتبة إلى مرتبة، حكما وعبرا للنظار بعيون الاستبصار ،و«من» فى: ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ للتبعيض أو للبيان. ﴿رِزْقًا﴾ مفعول له إن كانت من للتبعيض، ومفعول به لأخرج إن كانت للبيان، وإنما قيل: الثمرات دون الثمر والثمار وإن كان الثمر المخرج بماء السماء كثيرا؛ لأن المراد جماعة الثمرة ولأن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض لالتقائها فى الجمعية. ﴿لَكُمْ﴾ صفة جارية على الرزق إن أريد به العين، وإن جعل اسما للمعنى فهو مفعول به، كأنه قيل: رزقا إياكم. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هو متعلق بالأمر أى: اعبدوا ربكم فلا تجعلوا له أندادا؛ لأن أصل العبادة وأساسها التوحيد، وأن لا يجعل له ند ولا شريك، ويجوز أن يكون الذى رفعا على الابتداء وخبره فلا تجعلوا. ودخول الفاء لأن الكلام يتضمن الجزاء أى الذى حفكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية؛ فلا تتخذوا له شركاء المثل والند ولا يقال إلا للمثل المخالف المناوىء، ومعنى قولهم ليس لله ند ولا ضد نفى ما يسد مسده ونفى ما ينافيه. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها لا تخلق شيئاً ولا ترزق والله الخالق الرازق، أو مفعول تعلمون متروك أى: وأنتم من أهل العلم، وجعل الأصنام لله أندادا غاية الجهل، والجملة حال من الضمير فى فلا تجعلوا، ولما احتج عليهم بما يثبت الوحدانية ويبطل الإشراك - لخلقهم أحياء قادرين، وخلق الأرض التى هى مثواهم ومستقرهم، وخلق السماء التى هى كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار وما سوّاه - عز وجل - من شبه عقد النكاح بين المقلة والمظلة بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الثمار رزقا لبنى آدم - فهذا كله دليل موصل إلى التوحيد مبطل للإشراك؛ لأن شيئاً من المخلوقات لا يقدر على إيجاد شىء منها، عطف على ذلك ما هو الحجة على إثبات نبوة محمد ﷺ وما يقرر إعجاز القرآن؛ فقال:

●●﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ ما: نكرة موصوفة أو بمعنى الذى ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد - عليه السلام - والعبد: اسم لمملوك من جنس العقلاء، والمملوك: موجود قهر بالاستيلاء، وقيل: نزلنا دون أنزلنا؛ لأن المراد به النزول على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من محازٍّ ملكان التحدى وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوما سورة بسورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا، شيئاً فشيئا لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة، ولا يرمى الناثر بخطبه ضربة، فلو أنزله الله لأنزله جملة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(1)، فقيل: إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على تدريج ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ أى فهاتوا أنتم توبة واحدة من توبة، وهلموا نجما فردا من نجومه سورة من أصغر السور، والسورة: الطائفة من القرآن المترجمة التى أقلها ثلاث آيات، وواوها إن كانت أصلا فإما أن تسمى بسور المدينة وهو حائطها لأنها طائفة من

(1) سورة «الفرقان» الآية (٣٢).

القرآن محدودة محوزة على حيالها كالبلد المسـور، أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد كاحتواء سور المديـنة على ما فيها، وإما أن تسمى بالسورة التى هـى الرتبة لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فـيها القارىء، وهى أيضاً فى نفسها مرتبـة طوال وأوساط وقصار، أو لرفعة شأنها وجلالة محلها فى الدين، وإن كانت منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسؤرة التى هى البقية من الشىء. وأما الفائدة فى تفصيل القرآن وتقطيعة سوراً فهى كثيرة ـ ولذا أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه مسورة مترجمة السورة وبوب المصنفون فى كل فن كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجـم. منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحس من أن يكون بياناً واحداً، ومنـها أن القارىء إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب، ثم أخذ فى آخر كان أنشط له وأبث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومن ثم جزأ الفراء[1] القرآن أسباعا وأجزاء وعشورا وأخماساً، ومـنها أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فـاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه ويجل فى نفسه، ومنه حديث أنس[2] رضى الله عنه ـ «كان الرجل إذا قرأ البـقرة وآل عمران جل فينا»[3]. ومن ثم كانت القراءة فى الصلاة بسورة تامة أفضل ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ متعلق بسورة صفة لها والضمير لما نزلنا أى: بسورة كائنة من مثله يعني: فأتوا بسورة مما هو علـى صفته فى البيان الغريب وعلو الطبقة فى حسن النظـم، أو لعبدنا أى: فـأتوا بمن هو علـى حاله من كونـه أمياً لم يقـرأ الكتب، ولم يـأخذ من العلـماء. ولا قصد إلى مثـل ونظير هنالـك. ورد الضمير إلى المـنزل أولى لقوله تـعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾[4]. ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾[5]. ﴿عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[6]. ولأن الكلام مع رد الـضمير إلى المنـزل أحسن ترتيبـاً. وذلك أن الحديث فى المنـزل لا فى المنزل عليه، وهو مسوق إليه، فإن المعنى: وإن ارتبتم فـى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نبذا مما يماثـله، وقضية الـترتيب لو كان الـضمير مردوداً إلـى رسول الله ﷺ أن يقال وإن ارتبـتم فى أن محمداً منـزل عليه فهاتوا قرآناً مـن مثله ولأن هذا التفسيـر يلائم قوله ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غير الله، وهو متعلق بشهداءكم أى:

(١) الفراء: ترجمته فى الصفحة التالية.

(٢) الصحـابى الجليـل، خادم رسول الله ﷺ، أنس بـن مالك بن الـنضر بن ضـمضم، النـجارى، الأنصارى، أبو حمزة المدنى، يقول عن نفسه: إن أمه جاءت به ـ وهو ابن عشر ـ ليخدم النبى ﷺ؛ وكان صبيًا نابهاً؛ فدعـا له الرسول ﷺ فقال: «اللهم أكثر ماله، وولده، وأدخلـه الجنة. وقال أنس: لقد رأيت اثنتـين، وأنا أرجو الثـالثة فكثـر ماله وولده ورأى جمعـاً من أحفاده، وكان آخـر من مات من الصـحابة بالبصرة سنة ٩٣هـ، وقد تعدى القرن من العمر. تهذيب التهذيب (١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠).

(٣) أخرجه أحمد وابن أبى شيبة.

(٤) سورة «يونس»، الآية (٣٨).

(٥) سورة «هود»، الآية (١٣).

(٦) سورة «الإسراء»، الآية (٨٨).

ادعوا الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق، أو من يشهد لكم بأنه مثل القرآن ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن ذلك مختلق وأنه من كلام محمد - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا أنتم بمثله واستعينوا بآلهتكم على ذلك.

●●﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. لما أرشدهم إلى الجهة التى منها يعرفون صدق النبى - عليه السلام - قال لهم: فإذا لم تعارضوه وبان عجزكم ووجب تصديقه فآمنوا وخافوا العذاب المعد لمن كذب وعاند. وفيه دليلان على إثبات النبوة: صحة كون المتحدى به معجزاً، والإخبار بأنهم لن يفعلوا وهو غيب لا يعلمه إلا الله - ولما كان العجز عن المعارضة قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واعتمادهم على بلاغتهم سيق الكلام معهم على حسب حسبانهم فجيء بإن الذى للشك دون إذا الذى للوجوب، وعبر عن الإتيان بالفعل لأنه فعل من الأفعال والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التى تعطيك اختصارا، إذ لو لم يعدل من لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لاستطيل أن يقال: فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله، ولا محل لقوله ولن تفعلوا؛ لأنها جملة اعتراضية، وحسّن هذا الاعتراض أن لفظ الشرط للتردد فقطع التردد بقوله ولن تفعلوا. ولا ولن أختان فى نفى المستقبل إلا أن فى لن تأكيدا، وعن الخليل أصلها لا أن، وعند الفراء[1]: لا أبدلت ألفها نوناً، وعند سيبويه: حرف موضوع لتأكيد نفى المستقبل، وإنما علم أنه إخبار عن الغيب على ما هو به حتى صار معجزة لأنهم لو عارضوه بشيء لاشتهر؛ فكيف والطاعنون فيه أكثر عدداً من الذابين عنه. وشرط فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؛ لأنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق الرسول، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد وأبوا الانقياد استوجبوا النار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد، فوضع فاتقوا النار موضعه لأن اتقاء النار سبب ترك العناد، وهو من باب الكناية، وهى من شعب البلاغة وفائدته الإيجاز الذى هو من حلية القرآن. والوقود ما ترفع به النار يعنى الحطب، وأما المصدر فمضموم، وقد جاء فيه الفتح. وصلة الذى والتى تجب أن تكون معلوما للمخاطب فيحتمل أن يكونوا سمعوا من أهل الكتاب، أو من رسول الله، أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[2]. وإنما جاءت النار منكرة ثَمَّ ومعرفة هنا

---

(١) هو: يحيى بن زياد الديلمى، كنيته: أبو زكريا، يلقب بـ: الفراء، واشتهر بلقبه، من أئمة الكوفيين فى علوم اللغة وفروعها.

ولد عام ١٤٤هـ، وتوفى عام ٢٠٧هـ. الأعلام (١٤٦/٨).

(٢) سورة «التحريم»، الآية (٦)..

لأن تلك الآية نزلت بمكة، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة مشارا بها إلى ما عرفوه أولا. ومعنى قوله تعالى: ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أنها نار ممتازة عن غيرها من النيران بأنها تتقد بالناس والحجارة، وهى حجارة الكبريت؛ فهى أشد توقداً وأبطأ خموداً وأنتن رائحة وألصق بالبدن، أو الأصنام المعبودة فهى أشد تحسيراً، وإنما قرن الناس بالحجارة لأنهم قرنوا بها أنفسهم فى الدنيا حيث عبدوها وجعلوها لله أنداداً، ونحوه: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(١) أى: حطبها فقرنهم بها محماة فى نار جهنم إبلاغا فى إيلامهم. ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: هيئت لهم: وفيه دليل على أن النار مخلوقة خلافاً لما يقوله جهم(٢). سنة الله فى كتابه أن يذكر الترغيب مع الترهيب تنشيطاً لاكتساب ما يزلف وتثبيطا عن اقتراف ما يتلف، فلما ذكر الكفار وأعمالهم وأوعدهم بالعقاب قفاه بذكر المؤمنين وأعمالهم وتبشيرهم بقوله:

●●﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والمأمور بقوله وبشر الرسول ـ عليه السلام أوكل أحد وهذا أحسن لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به. وهو معطوف على فاتقوا كما تقول: يا بنى تميم احذروا عقوبة ما جنيتم وبشر يا فلان بنى أسد بإحسانى إليهم، أو جملة وصف ثواب المؤمنين معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كقولك: زيد يعاقب بالقيد والإرهاق وبشر عمراً بالعفو والإطلاق والبشارة الإخبار بما يظهر سرور المخبر به، ومن ثم قال العلماء إذا قال: لعبيده أيكم بشرنى بقدوم فلان فهو حر فبشروه فرادى عتق أولهم؛ لأنه هو الذى أظهر سروره بخبره دون الباقين ولو قال: أخبرنى مكان بشرنى عتقوا! جميعاً، لأنهم أخبروه ومنه البشرة لظاهر الجلد وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه، وأما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٣) فمن العكس فى الكلام الذى يقصد به الاستهزاء الزائد فى غيظ المستهزأ به كما يقول الرجل لعدوه: أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك. والصالحة نحو الحسنة فى جريها مجرى الاسم. والصالحات كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة، واللام للجنس. والآية حجة على من جعل الأعمال إيمانا لأنه عطف الأعمال الصالحة على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه. ولا يقال: إنكم تقولون يجوز أن يدخل المؤمن الجنة بدون الأعمال الصالحة والله تعالى بشر بالجنة لمن آمن وعمل صالحاً لأن البشارة المطلقة بالجنة شرطها اقتران الأعمال الصالحة بالإيمان، ولا نجعل لصاحب الكبيرة البشارة المطلقة بل تثبت بشارة مقيدة بمشيئة الله؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ أى: بأن لهم جنات، وموضع أن وما عملت فيه النصب يبشر عند سيبوبة خلافاً للخليل، وهو كثير فى التنزيل.

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٩٨).

(٢) هو: جهم بن صفوان، إليه تنسب فرقة الجهمية، ومن أقوالهم: إن الجنة والنار غير موجودتان الآن.

(٣) آل عمران (٢١)، والتوبة (٣٤)، والانشقاق (٢٤).

والجنة: البستان من النخل والشجر المتكاثف، والتركيب دائر على معنى الستر، ومنه: الجن والجنون والجنين والجنة والجان والجنان، وسميت دار الثواب جنة لما فيها من الجنان. والجنة مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[1] خلافا لبعض المعتزلة، ومعنى جمع الجنة وتنكيرها أن الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهى مشتملة على جنان كثيرة مرتبة مراتب بحسب أعمال العاملين، لكل طبقة منهم جنات من تلك الجنان. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ الجملة فى موضع النصب صفة لجنات، والمراد: من تحت أشجارها كما ترى الأشجار النابتة على شواطىء الأنهار الجارية. وأنهار الجنة تجرى فى غير أخدود. وأنزه البساتين ما كانت أشجارها مظلة والأنهار فى خلالها مطردة، والجرى: الاطراد، والنهر: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، يقال للنيل: نهر مصر، واللغة العالية: نهر، ومدار التركيب على السعة وإسناد الجرى إلى الأنهار مجازى، وإنما عرف الأنهار لأنه يحتمل أن يراد بها أنهارها فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة كقوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2] أو يشار باللام إلى الأنهار المذكورة فى قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾[3] الآية والماء الجارى من النعمة العظمى واللذة الكبرى؛ ولذا قرن الله تعالى الجنات بذكر الأنهار الجارية وقدمة على سائر نعوتها. ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ صفة ثانية لجنات، أو جملة مستأنفة؛ لأنه لما قيل إن لهم جنات لم يخل خلد السامع أن يقع فيه أثمار تلك الجنات أشباه ثمار جنات الدنيا أم أجناس أخر لا تشابه هذه الأجناس، فقيل إن ثمارها أشباه ثمار جنات الدنيا أى أجناسها أجناسها وإن تفاوتت إلى غاية لا يعلمها إلا الله. ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي﴾ أى كلما رزقوا من الجنات ـ من أى ثمرة كانت من تفاحها، أو رمانها، أو غير ذلك ـ رزقاً قالوا ذلك؛ فمن الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية لأن الرزق قد ابتدىء من الجنات، والرزق من الجنات قد ابتدىء من ثمرة، ونظيره أن تقول: رزقنى فلان، فيقال لك من أين؟ فتقول : من بستانه. فيقال: من أى ثمرة رزقك من بستانه؟ فتقول: من الرمان، وليس المراد من الثمرة التفاحة الواحدة! والرمانة الفذة، وإنما المراد نوع من أنواع الثمار ﴿رُزِقْنَا﴾ أى رزقناه، فحذف العائد ﴿مِن قَبْلُ﴾ أى من قبل هذا، فلما قطع عن الإضافة بنى، والمعنى: هذا مثل الذى رزقنا من قبل وشبهه بدليل قوله ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ وهذا كقولك: أبو يوسف[4] أبو حنيفة تريد أنه لاستحكام الشبه كأن ذاته ذاته،

---

(١) البقرة (٣٥)، الأعراف(١٩).

(٢) سورة «مريم»، الآية (٤).

(٣) سورة «محمد»، الآية (١٥).

(٤) أبو يوسف، هو: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، الأنصارى، الكوفى، البغدادى، صاحب أبى حنيفة، وتلميذه.

ولد سنة ١١٣هـ بالكوفة، وكانت وفاته ببغداد سنة ١٨٢هـ.

الأعلام (٨/ ١٩٣).

والضمير فى به يرجع إلى المرزوق فى الدنيا والآخرة جميعاً؛ لأن قوله هذا الذى رزقنا من قبل انطوى تحته ذكر ما رزقوه فى الدارين، وإنما كان ثمار الجنة مثل ثمار الدنيا ولم تكن أجناسا أخر لأن الإنسان بالمألوف آنس وإلى المعهود أميل، وإذا رأى مالم يألفه نفر عنه طبعه وعافته نفسه؛ ولأنه إذا شاهد ما سلف له به عهد ورأى فيه مزية ظاهرة وتفاوتا بينا كان استعجابه به أكثر واستغرابه أوفر، وتكريرهم هذا القول عند كل ثمرة يرزقونها دليل على تناهى الأمر وتمادى الحال فى ظهور المزية، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذى يستملى تعجبهم فى كل أوان أو إلى الرزق كما أن هذا إشارة إليه، والمعنى أن ما يرزقونه من ثمرات الجنة يأتيهم متجانسا فى نفسه كما يحكى عن الحسن يؤتى أحدهم بالصحفة فيأكل منها، ثم يؤتى بالأخرى فيقول: هذا الذى أتينا به من قبل فيقول الملك: كل فاللون واحد والطعم مختلف. وعنه ـ عليه السلام ـ: «والذى نفس محمد بيده إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هى بواصلة إلى فيه حتى يبدلها الله مكانها مثلها، فإذا أبصروها ـ والهيئة هيئة الأولى ـ قالوا ذلك».(١) وقوله: (وأتوا به متشابها)، جملة معترضة للتقرير كقوله: فلان أحسن بفلان ونعم ما فعل ورأى من الرأى كذا وكان صواباً، ومنه: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٢). ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ أزواج مبتدأ ولهم الخبر، وفيها ظرف للاستقرار ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من مساوىء الأخلاق لاطمحات ولا مرحات، أو مما يختص بالنساء بالحيض والاستحاضة وما لا يختص بهن من البول والغائط وسائر الأقذار والأدناس: ولم تجمع الصفة كالموصوف لأنهما لغتان فصيحتان، ولم يقل طاهرة لأن مطهرة أبلغ لأنها تكون للتكثير، وفيها إشعار بأن مطهراً طهرهن وما ذلك إلا الله عز وجل. ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الخلد والخلود البقاء الدائم الذى لا ينقطع، وفيه بطلان قول الجهمية فإنهم يقولون بفناء الجنة وأهلها لأنه تعالى وصف بأنه الأول الآخر وتحقيق وصف الأولية بسبقه على الخلق أجمع فيجب تحقيق وصف الآخرية بالتأخر عن سائر المخلوقات، وذا إنما يتحقق بعد فناء الكل فوجب القول به ضرورة ولأنه تعالى باق وأوصافه باقية فلو كانت الجنة باقية مع أهلها لوقع التشابه بين الخالق والمخلوق وذا محال.. قلنا: الأول فى حقه هو الذى لا ابتداء لوجوده، والآخر هو الذى لا انتهاء له، وفى حقنا الأول هو الفرد السابق والآخر هو الفرد اللاحق، واتصافه بهما لبيان صفة الكمال ونفى النقيصة والزوال وذا فى تنزيهه عن احتمال الحدوث والفناء لا فيما قالوه وأنى يقع التشابه فى البقاء وهو تعالى باق لذاته وبقاؤه واجب الوجود وبقاء الخلق به وهو جائز الوجود، لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب به مثلا ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله فنزل:

●●﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾ أى: لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيى أن يتمثل بها لحقارتها، وأصل الحياء: تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به

---

(١) أخرجه الطبرانى، والحاكم، من حديث ثوبان بن بجدد، مولى رسول الله.

(٢) سورة «النمل»، الآية (٣٤).

ويذم، ولا يجوز على القديم التغير وخوف الذم ولكن الترك لما كان من لوازمه عبر عنه به، ويجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة فقالوا: أما ما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت، فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع، وفيه لغتان التعدى بنفسه وبالجار يقال: استحييته واستحييت منه وهما محتملتان هنا، وضرب المثل صنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وما هذه إبهامية وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاما وزادته عموماً كقولك: أعطنى كتابا... ما تريد أى كتاب كان، أوصلة للتأكيد كالتى فى قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾[1] كأنه قال: لا يستحيى أن يضرب مثلا البتة. وبعوضة عطف بيان لمثلا، أو مفعول ليضرب، ومثلا حال من النكرة مقدمةعليه، أو انتصبا مفعولين على أن ضرب بمعنى جعل واشتقاقها من البعض وهو القطع كالبضع والعضب يقال بعضه البعوض، ومنه بعض الشيء لأنه قطعة منه والبعوض فى أصله صفة على فعول كالقطوع فغلبت ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فما تجاوزها وزاد عليها فى المعنى الذى ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة، أو فمازاد عليها فى الحجم كأنه أراد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة، ولا يقال: كيف يضرب المثل بمادون البعوضة وهى النهاية فى الصغر؟ لأن جناح البعوضة أقل منها وأصغر بدرجات وقد ضربه رسول الله ﷺ مثلا للدنيا[2] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للمثل أو لأن يضرب والحق الثابت الذى لا يسوغ إنكاره، يقال: حق الأمر إذا ثبت ووجب ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ فى موضع النصب على الحال والعامل معنى الحق وذو الحال الضمير المستتر فيه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ويوقف عليه إذ لو وصل لصار ما بعده صفة له وليس كذلك وفى قولهم: ماذا أراد الله بهذا مثلا استحقار كما قالت عائشة[3] ـ رضى الله عنها ـ فى عبدالله بن عمرو[4]: ياعجبا لابن عمرو هذا ـ محقرة له[5] ـ ومثلا نصب على التمييز، أو على

---

(١) سورة «النساء»، الآية (١٥٥)، سورة «المائدة»، الآية (١٣).

(٢) وفى هذا المعنى جاء حديث: لو أن الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضه ما سقى كافراً منها شربة ماء». أخرجه الترمذى.

(٣) هى أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق، عائشة بنت أبى بكر الصديق، بكر النبى ﷺ، وأفقه وأعلم نساء المسلمين، بنى بها النبى ﷺ وهى بنت تسع، وتوفى عنها وهى بنت ثمانى عشرة سنة، برأها الله تعالى من فوق سبع سماوات؛ لذا أجمعت الأمة على كفر قاذفها، كانت زاهدة ـ رضى الله عنها ـ مركزاً لإشعاع نور النبوة حتى وفاتها سنة ٥٨هـ.
وقيل: ٥٧هـ.
تهذيب التهذيب (٦/ ٦٠٤، ٦٠٥).

(٤) الصحابى، ابن الصحابى، عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل، القرشى أسلم قبل أبيه، وبينهما ١١ أو ١٢ سنة فقط، كان من عباد الصحابة، وعلمائهم، وفقهائهم، نقل العلم عن الرسول ﷺ، وعن كبار الصحابة، توفى عام ٦٥ هـ عن اثنتين وسبعين عاماً.
تهذيب التهذيب (٣/ ٢١٨، ٢١٩).

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب الحيض من رواية عبيد بن عمير.

الحال كقوله: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾(١) وأما حرف فيه معنى الشرط ولذا يجاب بالفاء وفائدته فى الكلام أن يعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب فإذا قصدت توكيده وأنه لا محالة ذاهب قلت: أما زيد فذاهب، ولذا قال سيبويه فى تفسيره: مهما يكن من شىء فزيد ذاهب، وهذا التفسير يفيد كونه تأكيد وأنـه فى معنى الشرط وفـى إيراد الجملتين مـصدرتين به وإن لم يـقل فالذين آمنوا يـعلمون والذين كفروا يقولون إحماد عظيم لأمر المؤمنين واعتداد بليغ بعلمهم أنه الحق، وهى على الكافرين إغفالهم حظهم ورميهم بالكلمة الحمـقاء، وماذا فيه وجهان: أن يكون ذا اسما موصولا بمعنى الذى وما استفهاما فـيكون كلمتين، وأن تكون ذا مركبة مـع ما مجعولتين اسما واحدا للاسـتفهام فيكون كلمة واحـدة؛ فما على الأول رفع بـالابتداء وخبره ذا مع صـلته أى أراد والعائد مـحذوف، وعلى الثانى منصوب المحل بأراد والتقدير أى شـىء أراد الله والإرادة مصدر أردت الشىء إذا طلبته نفسك ومال إليه قلـبك، وهى عند المتكلـمين معنى يقتـضى تخصيص المفعـولات بوجه دون وجه، والله تعالى مـوصوف بالإرادة على الحقيقـة عند أهل السنة، وقال مـعتزلة بغداد: إنه تعـالى لا يوصف بالإرادة على الحقيقة. فـإذا قيل: أراد الله كذا فإن كان فعله فمعناه أنه فـعل وهو غير ساه ولا مكره عليه، وإن كان فعل غيره فمعناه أنه أمر به. ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً﴾ جار مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بأما، وأن فريق العالمين بأنه الحق وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بـالكثرة، وأن الـعلم بكـونه حقا من بـاب الهدى، وأن الجهـل بحسن مـورده من باب الضلالة. وأهل الهدى كثير فى أنفسهم وإنما يوصفون القلة بالقياس إلى أهل الضلال، ولأن القليل من المهتدين كثير فى الحقيقة وإن قلوا فى الصورة. . .

إن الكرام كثير فى البلاد وإن   قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

والإضلال: خلق فعـل الضلال فى العبد، والهداية: خـلق فعل الاهتداء. هذا هو الحقـيقة عند أهل السنة، وسياق الآية لـبيان أن ما استنكره الجهلة من الكفار واستـغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ليس بموضع الاستنكـار والاستغراب لأن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان المـتمثل له عظيما كان المتمثل به كذلك، وإن كان حقيرا كان المتمـثل به كذلك، ألا ترى أن الحق لما كان واضحا جليا تمثـل له بالضياء والنور، وأن الباطل لما كان بضد صفته تمثل له بالظلمة ولما كانت حال الآلهة التى جعلها الكفار أنداداً لله لا حال أحقر منها وأقل ـ ولذلـك جعل بيت العنكبوت مثلها فى الضـعف والوهن، وجعلت أقل من الذباب، وضربت لها البعوضة فالذى دونها مثلا ـ لم يستنكر ولم يستبدع ولم يقل للمتمثل استحى من تمثيلها بالبعوضة؛ لأنه مصيب فى تمثيله محق فى قوله سائق المثل على قضية مضربه، ولبيان أن

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٧٣)، وسورة «هود»، الآية (٦٤).

المؤمنين الذين عادتهم الإنصاف والنظر فى الأمور بناظر العقل إذا سمعوا بهذا التمثيل علموا أنه الحق وأن الكفار الذين غلب الجهل على عقولهم إذا سمعوه كابروا وعاندوا وقضوا عليه بالبطلان قابلوه بالإنكار، وأن ذلك سبب هدى المؤمنين وضلال الفاسقين، والعجب منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور وخشاش الأرض فقالوا: أجمع من ذرة، وأجرأ من الذباب، وأسمع من قراد، وأضعف من فراشة، وآكل من السوس، وأضعف من البعوضة، وأعز من مخ البعوض؟!!، ولكن ديدن المحجوج والمبهوت أن يرضى لفرط الحيرة بدفع الواضح وإنكار اللائح. ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ هو مفعول يضل وليس بمنصوب على الاستثناء؛ لأن يضل لم يستوف مفعوله. والفسق: الخروج عن القصد. والفاسق فى الشريعة: الخارج عن الأمر بارتكاب الكبيرة، وهو النازل بين المنزلتين؛ أى: بين منزلة المؤمن والكافر عند المعتزلة، وسيمر عليك ما يبطله، إن شاء الله.

●●﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ النقض: الفسخ وفك التركيب. والعهد: الموثق. والمراد بهؤلاء الناقضين لعهد الله أحبار اليهود المتعنتون، أو منافقوهم أو الكفار جميعا، وعهد الله ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم، أوأخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصدقه الله بمعجزاته صدقوه واتبعوه ولم يكتموا ذكره، أو أخذ الله العهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم ولا يبغى بعضهم على بعض ولا يقطعوا أرحامهم، وقيل: عهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود؛ العهد الأول الذى أخذه على جميع ذرية آدم ـ عليه السلام بأن يقروا بربوبيته، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾(1) الآية. وعهد خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾(2). وعهد خص به العلماء، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾(3). ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أصله من الوثاقة وهى: إحكام الشىء، والضمير للعهد، وهو ماوثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم، ويجوز أن يكون بمعنى توثقته كما أن الميعاد بمعنى الوعد، أو لله تعالى أى من بعد موثقته عليهم، ومن: لابتداء الغاية. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ هو قطعهم الأرحام وموالاة المؤمنين، أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق فى إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض. والأمر، طلب الفعل بقول مخصوص على سبيل الاستعلاء، وما نكرة موصوفة، أو بمعنى الذى وأن يوصل فى موضع جر بدل من الهاء أى بوصله، أو فى موضع رفع أى هو أن يوصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بقطع السبيل والتعويق عن الإيمان. ﴿أُولَئِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُمُ﴾: فصل، والخبر: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ أى: المغبونون؛ حيث استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب.

---

(1) سورة «الأعراف»، الآية (١٧٢).
(2) سورة «الأحزاب»، الآية (٧).
(3) سورة «آل عمران»، الآية (١٨٧).

●●﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ معنى الهمزة التى فى كيف مثله فى قولك أتكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان وهو الإنكار والتعجب، ونظيره قولك: أتطير بغير جناح؟ وكيف تطير بغير جناح؟ والواو فى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نطفاً فى أصلاب آبائكم للحال، وقد مضمرة والأموات جمع ميت كالأقوال جمع قيل ويقال لعادم الحياة أصلا ميت أيضاً؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾(1) ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ فى الأرحام. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تصيرون إلى الجزاء، أو ثم يحييكم فى قبوركم ثم إليه ترجعون للنشور، وإنما كان العطف الأول بالفاء والبواقى بثم؛ لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة والحياة الثانية كذلك تتراخى عن الموت إن أريد النشور. وإن أريد إحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع إلى الجزاء أيضا متراخ عن النشور. وإنما أنكر اجتماع الكفر مع القصة التى ذكرها؛ لأنها مشتملة على آيات بينات تصرفهم عن الكفر، ولأنها تشتمل على نعم جسام حقها أن تشكر ولا تكفر.

●●﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ﴾ أى لأجلكم ولانتفاعكم به فى دنياكم ودينكم، أما الأول فظاهر وأما الثانى فالنظر فيه وما فيه من العجائب الدالة على صانع قادر حكيم عليم وما فيه من التذكير بالآخرة؛ لأن ملاذها تذكر ثوابها ومكارهها تذكر عقابها. وقد استدل الكرخى(2) وأبو بكر الرازى(3) والمعتزلة بقوله خلق لكم على أن الأشياء التى يصح أن ينتفع بها خلقت مباحة فى الأصل. ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال من ما. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ الاستواء: الاعتدال والاستقامة يقال: استوى العود أى قام واعتدل: ثم قيل: استوى إليه كالسهم المرسل أى قصده قصدا مستويا من غير أن يلوى على شىء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى أقبل وعمد إلى خلق السموات بعد ما خلق ما فى الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شىء آخر، والمراد بالسماء جهات العلو كأنه قيل: ثم استوى إلى فوق والضمير فى ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ مبهم يفسره ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ كقولهم: ربه رجلا، وقيل: الضمير راجع إلى السماء ولفظها واحد ومعناها

---

(1) «الفرقان» (٤٩)، و«الزخرف» (١١)، «ق» (١١).

(2) الكرخى: هو عبيد الله بن الحسين، أبو الحسن، الحنفى، إمام الأحناف فى عصره بالعراق.
ولد سنة ٢٦٠هـ، وتوفى سنة ٣٤٠هـ.
الأعلام (٤/١٩٣).

(3) هو: أحمد بن على الرازى، اشتهر بكنيته «أبو بكر» الرازى.
كان كذلك من أعلام الأحناف بالعراق، وانتهت إليه رئاسة الحنفية ببغداد، صاحب الكرخى، وتلميذه، وعنه أخذ فقهاء بغداد.
ولد عام ٣٠٥هـ، وتوفى عام ٣٧٠هـ.
الأعلام (١/١٧١).

الجمع؛ لأنها فى معنى الجنس ومعنى تسويتهن: تعديل خلقهن وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفطور أو إتمام خلقهن وثم هنا لبيان فضل خلق السموات على خلق الأرض ولا يناقض هذا قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾(١) لأن جرم الأرض تقدم خلقه خلق السماء وأما دحوها فمتأخر. وعن الحسن: خلق الله الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منها السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض؛ فذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾(٢)، وهو الالتزاق. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فمن ثم خلقهن خلقا مستويا محكما من غير تفاوت مع خلق ما فى الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم. (وَهُوَ) وأخواته مدنى - غير ورش(٣) -، (وَهْوَ)؛ هو وأبو عمرو وعلى؛ جعلوا الواو كأنها من نفس الكلمة فصار بمنزلة عضد وهم يقولون فى عضد عضد بالسكون، ولما خلق الله تعالى الأرض أسكن فيها الجن وأسكن فى السماء الملائكة. فأفسدت الجن فى الأرض فبعث إليهم طائفة من الملائكة فطردتهم إلى جزائر البحار ورءوس الجبال وأقاموا مكانهم فأمر نبيه - عليه السلام - أن يذكر قصتهم فقال:

●●﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ إذ نصب بإضمار: (اذكر). والملائكة جمع ملاك كالشمائل جمع شمال، وإلحاق التاء لتأنيث الجمع. ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ أى مصير من جعل الذى له مفعولان وهما ﴿فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وهو من يخلف غيره فعيلة بمعنى فاعلة وزيدت الهاء للمبالغة والمعنى: خليفة منكم لأنهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته ولم يقل خلائف أو خلفاء لأنه أريد بالخليفة آدم واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما تستغنى بذكر أبى القبيلة فى قولك مضر وهاشم أو أريد من يخلفكم أو خلقا يخلفكم فوحد لذلك أو خليفة منى لأن آدم كان خليفة الله فى أرضه وكذلك كل نبى، قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾(٤) وإنما أخبرهم بذلك ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به فيعرفوا حكمته فى استخلافهم قبل كونهم أو ليعلّم عباده المشاورة فى أمورهم قبل أن يقدموا عليها وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة. ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية وهو الحكيم الذى لا يجهل، وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو من جهة اللوح، أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ أى: يصب والواو فى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ للحال، كما تقول: أتحسن إلى فلان وأنا أحق منه بالإحسان. ﴿بِحَمْدِكَ﴾ فى موضع الحال أى نسبح حامدين لك ومتلبسين

---

(١) سورة «النازعات»، الآية (٣٠).

(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٣٠).

(٣) ورش: هو عثمان بن سعيد بن عدى، المصرى، أحد الراويين عن نافع - والآخر: قالون - لقب بـ «ورش»؛ لشدة بياضه، ولد بمصر سنة ١١٠هـ، وتوفى بها أيضاً عام ١٩٧هـ.
غاية النهاية (١/٥٠٢).

(٤) سورة «ص»، الآية (٢٦).

بحمدك كقوله تعالى: ﴿وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ﴾[1] أى: دخلوا كافرين ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ونطهر أنفسنا لك، وقيل: التسبيح والتقديس تبعيد الله من السوء، من سبح فى الأرض وقدس فيها إذا ذهب فيها وأبعد، ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أى أعلم من الحكم فى ذلك ما هو خفى عليكم يعنى يكون فيهم الأنبياء والأولياء والعلماء، وما بمعنى الذى وهو مفعول أعلم، والعائد محذوف أى مالا تعلمونه. (إنى): حجازى وأبو عمرو.

●●﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ هو اسم أعجمى وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزوا واشتقاقهم آدم من أديم الأرض أو من الأدمة كاشتقاقهم يعقوب من العقب وإدريس من الدرس وإبليس من الإبلاس. ﴿الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أى أسماء المسميات فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولا عليه بذكر الأسماء إذ الاسم يدل على المسمى وعوض منه اللام كقوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[2] ولا يصح أن يقدر وعلم آدم مسميات الأسماء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ لأن التعليم تعلق بالأسماء لا بالمسميات لقوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ - و - أنبئهم بأسمائهم، ولم يقل أنبئونى بهؤلاء وأنبئهم بهم، ومعنى تعليمه أسماء المسميات: أنه تعالى أراه لأجناس التى خلقها وعلمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا وهذا اسمه كذا، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : علمه اسم كل شىء حتى القصعة والمغرفة. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ أى عرض المسميات. وإنما ذكر لأن فى المسميات العقلاء فغلبهم وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي﴾ أخبرونى ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى زعمكم أنى أستخلف فى الأرض مفسدين سفاكين للدماء، وفيه رد عليهم وبيان أن فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية التى هى أصول الفوائد كلها ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا.

●●﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك أن يخفى عليك شىء، أو عن الاعتراض عليك فى تدبيرك. وأفادتنا الآية: أنَّ علمَ الأسماء فوق التخلى للعبادة فكيف بعلم الشريعة، وانتصابه على المصدر تقديره سبحت الله تسبيحاً ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وليس فيه علم الأسماء، وما بمعنى الذى، والعلم بمعنى المعلوم أى لا معلوم لنا، إلا الذى علمتنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ غير المعلم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قضيت وقدرت، والكاف اسم إن، وأنت مبتدأ، وما بعده خبره، والجملة خبر إن. أو أنت فصل والخبر العليم، والحكيم خبر ثان.

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٦١).

(٢) سورة «مريم»، الآية (٤).

••﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ سمى كل شىء باسمه. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: أعلم ما غاب فيهما عنكم مما كان ومما يكون. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسرون. أى اخضعوا له وأقروا بالفضل له، عن أبى بن كعب[1]. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : كان ذلك انحناء ولم يكن خروراً على الذقن. والجمهور على أن المأمور به وضع الوجه على الأرض. وكان السجود تحية لآدم - عليه السلام - فى الصحيح، إذ لو كان لله تعالى لما امتنع عنه إبليس.

وكان سجود التحية جائزا فيما مضى ثم نسخ بقوله - عليه السلام - لسلمان حين أراد أن يسجد له: «لا ينبغى لمخلوق أن يسجد لأحد إلا الله تعالى»[2]. ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ الاستثناء متصل لأنه كان من الملائكة. كذا قاله على وابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهم -، ولأن الأصل أن الاستثناء يكون من جنس المستثنى منه، ولهذا قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[3]، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾[4] معناه: صار من الجن؛ كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[5]. وقيل: الاستثناء منقطع لأنه لم يكن من الملائكة بل كان من الجن بالنص. وهو قول الحسن وقتادة[6]، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من النور، ولأنه أبى وعصى واستكبر والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ولا يستكبرون عن عبادته، ولأنه قال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾[7]، ولا نسل للملائكة. وعن الجاحظ[8]: أن الجن والملائكة جنس واحد فمن طهر منهم فهو ملك ومن خبث فهو شيطان،

---

(١) هو الصحابى القارىء: أبى بن كعب بن قيس، المدنى، سيد القراء، قرأ على الرسول الكريم ﷺ، وروى عنه، ووصفه الرسول ﷺ بأنه: أقرأ الأمة - أى: أعرفهم بقراءة القرآن - ولذلك كان من الذين أسند إليهم مهمة جمع القرآن فى مراحلة المختلفة. مختلف فى وفاته على أقوال؛ منها: ١٩، ٢١، ٢٢، ٣٢هـ. تهذيب التهذيب (١/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) نقل هذا الواحدى عن الحسن البصرى أن رجلاً: فذكر الأثر...».

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (١٢). (٤) سورة «الكهف»، الآية (٥٠).

(٥) سورة «هود»، الآية (٤٣).

(٦) هو المفسر الكبير: قتادة بن دعامة بن قتادة، أبو الخطاب، السدوسى، البصرى، من أعلام التفسير، روى عن عدد من الصحابة؛ فقد أدرك بعضهم، وروى - كذلك - عن جمع غفير من كبار التابعين، قيل فيه مختصراً: «ثقة، ثبت، مفسرة حافظ، رأس الطبقة الرابعة..». لا تخلو كتب التفسير من ذكره وذكر أمثاله: مجاهد، السدى، عكرمة... و.. ولد عام ٦١هـ، وتوفى عام ١١٨هـ.

تهذيب التهذيب (٤/ ٥٤٠ - ٥٤٣).

(٧) سورة «الكهف»، الآية (٥٠).

(٨) هو عمرو بن بحر، أبو عثمان، الشهير بـ الجاحظ؛ لأن عيناه كانتا جاحظتان، وهو علم من أعلام اللغة وعلومها، ورأس فى الأدب والبلاغة.

ولد عام ١٦٣هـ، وكانت حياته بين الكتب؛ حتى إن وفاته كانت بسبب مجلدات وقعت عليه فقتلته، كان ذلك فى سنة ٢٥٥هـ.

الأعلام (٥/ ٧٤).

ومن كان بين بين فهو جن ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع مما أمر به ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تكبر عنه. ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بـإبائه واستكباره ورده الأمر. لا بترك العمل بالأمـر لأن ترك السجود لا يخرج من الإيمان ولا يكون كفرا عند أهل السـنة خلافا للمعتزلة والخوارج[1]، أو كان من الكـافرين فى علم الله أى وكان فى عـلم الله أنه يكفر بعد إيمـانه لأنه كان كافرا أبدا فى علـم الله، وهى مسألة الموافاة.

●●﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ أمر من سكن الدار يسكنها سكنـى إذا أقام فيها ويقال: سكن المتحرك سكوناً ﴿أَنتَ﴾ تأكيد للمستكـن فى اسكن ليصح عطف ﴿وَزَوْجُكَ﴾ عليه ﴿الْجَنَّةَ﴾ هى جنة الخلد التى وعدت للمتـقين للنقل المشهور، واللام للتـعريف، وقالت المعتزلة: كانت بسـتاناً باليمن لأن الجنة لا تكليف فيها ولا خروج عنها؛ قلنا: إنمـا لا يخرج منها من دخلها جزاء. وقد دخل النبى - عليه السلام - ليلة المعراج ثم خرج منهـا، وأهل الجنة يكلفون المعرفة والتوحيد. ﴿وَكُلا مِنْهَا﴾ من ثمارها فحذف المضاف. ﴿رَغَدًا﴾ وصف للمصدر أى أكلا رغداً واسعاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ شئتما، وبابه بغير همز أبو عمرو، وحيث للمكان المبهم أى أى مكان من الجنة شئتما ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أى الحنطة. ولذا قيل: كيـف لا يعصى الإنسان وقوته من شجرة العصيـان، أو الكرمة لأنها أصل كل فتنة، أو التينة. ﴿فَتَكُونَا﴾ جزم عطف على تقربـا أو نصب جواب للنهى ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ من الذين ظلموا أنفسهم، أو من الضارين أنفسهم.

●●﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أى: عن الشجرة، أى فحملها الشيطان عـلى الزلة بسببها. وتحقيقه فأصدر الشيطان زلتهما عنها أو فأزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما عنها وأبعدها. فأزالهما حمزة. وزلة آدم بالخطأ فى التأويل إما يحمل النهى على التنزيه دون التحريم، أو يحمل اللام على تعريف العهد وكان الله تعالى أراد الجنس والأول الوجه. وهذا دليل على أنه يجوز إطلاق اسم الزلة على الأنبياء - عليهم السلام - كما قال مشايخ بخارى. فإنه اسـم الفعل يقع على خلاف الأمر من غير قصد إلى الخلاف كزلة المـاشى فى الطين. وقال مشـايخ سمرقند: لا يطلـق اسم الزلة على أفعالـهم كما لا تطلق المعصية. وإنما يقال: فعلوا الفاضـل وتركوا الأفضل فعوتبوا عليه. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والكرامة. أو من الجنة إن كان الضمير للشجرة فى عنها. وقد توصل إلى إزلالهما بعدما قيل له اخرج منـها فإنك رجيم، لأنه منع عن دخولـها على جهة التكرمة كـدخول الملائكة لا عن دخولها على جهة الوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وروى أنـه أراد الدخول فمنعته الخزنة فدخل فى فم

---

(١) الخوارج: هم الفرقة التى خرجت على على بن أبى طالـب بعد التحكيم، قائليـن: «كيف نحكم الرجال فى كـتاب الله؟!». وكان منهم الـغلاة، ولكن كانوا مـعروفين بكثـرة العبادة؛ وبخاصـة؛ الصيام والقيام، ومنهم: عبدالرحمن بن ملجم قاتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب.
الملل والنحل (٣/ ١٤٤).

الحية حتى دخلت به. وقيل: قام عند الباب فنادى. ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ الهبوط النزول إلى الأرض. والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وقيل: والحية. والصحيح لآدم وحواء. والمراد: هما وذريتهما، لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾(1). ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ المراد به ما عليه الناس من التباغى والتعادى وتضليل بعضهم لبعض. والجملة فى موضع الحال من الواو فى اهبطوا أى اهبطوا متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار أو استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع بالعيش. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى يوم القيامة أو إلى الموت. قال إبراهيم بن أدهم(2): أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا.

●●﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أى استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها. وبنصب آدم ورفع كلمات مكى ـ على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به، وهن(3) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(4). وفيه موعظة لذريتهما حيث عرفوا كيفية السبيل إلى التنصل من الذنوب. وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن أحب الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(5). وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: يارب ألم تخلقنى بيدك؟ قال: بلى. قال: يارب ألم تنفخ فيى من روحك؟ ألم تسبق رحمتك غضبك، ألم تسكنى جنتك؟. وهو تعالى يقول: بلى. يلى. قال: فلم أخرجتنى من الجنة؟ قال: بشؤم معصيتك. قال: فلو تبت أراجعى أنت إليها؟ قال: نعم(6). ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فرجع عليه بالرحمة والقبول واكتفى بذكر توبة آدم لأن حواء كانت تبعا له، وقد طوى ذكر النساء فى أكثر القرآن والسنة لذلك. ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الكثير القبول للتوبة. ﴿الرَّحِيمُ﴾ على عباده.

●●﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ حال أى مجتمعين. وكرر الأمر بالهبوط للتأكيد، أو لأن الهبوط الأول من الجنة إلى السماء والثانى من السماء إلى الأرض، أو لما نيط به من زيادة قوله: ﴿فَإِمَّا

---

(1) سورة «طه»، الاية (123).

(2) هو: إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلى ـ وقيل: التميمى ـ أبو إسحاق البلخى، الزاهد، اشتهر بين الورى بزهده وفقهه وورعه، عظاته البليغة منتشرة فى كتب الرقائق. كانت وفاته أحد عامى 161 أو 162هـ. تهذيب التهذيب (1/68، 69).

(3) أى: الكلمات. واستخراجهن من القرآن هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو أعلى أنواع التفسير؛ فالقرآن يفسر بعضه بعضاً.

(4) سورة «الأعراف»، الآية (23).

(5) موقوف، أخرجه ابن أبى شيبة فى أوائل الصلاة من رواية التيمى من الحرث بن سويد.

(6) موقوف، أخرجه الحاكم فى ترجمة آدم، من تواريخ الأنبياء، من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد ابن جبير عنه.

﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أى: رسول أبعثه إليكم، أو كتاب أنزله عليكم بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فى مقابلة قوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أى بالقبول والأيمان به. ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فى المستقبل ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا والشرط الثانى مع جوابه جواب الشرط الأول كقولك إن جئتنى فإن قدرتى أحسنت إليك. (فلا خوف)؛ بالفتح فى كل القرآن يعقوب[(١)].

●●﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ﴾: مبتدأ، والخبر: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى أهلها ومستحقوها. والجملة فى موضع الرفع خبر المبتدأ أعنى: والذين ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●●﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هو يعقوب - عليه السلام - وهو لقب له ومعناه فى لسانهم صفوة الله أو عبدالله. فإسرا هو العبد أو الصفوة، وإيل هو الله بالعبرية، وهو غير منصرف لوجود العلمية والعجمة. ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذكرهم النعمة أن لا يخلوا بشكرها ويطيعوا مَانِحَها. وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه ومن الغرق ومن العفو عن اتخاذ العجل والتوبة عليهم، وما أنعم به عليهم من إدراك زمن محمد ﷺ المبشر به فى التوراة والإنجيل. ﴿وَأَوْفُوا﴾ أدوا وافيا تاما، يقال: وفيت له بالعهد فأنا واف به وأوفيت له بالعهد فأنا موف به، والاختيار أوفيت، وعليه ينزل التنزيل. ﴿بِعَهْدِي﴾ بما عاهدتمونى عليه من الإيمان بى والطاعة لى، أو من الإيمان بنبى الرحمة والكتاب المعجز. ﴿بِعَهْدِي أُوفِ﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم: والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعا. وعن قتادة: هما: (لئن أقمتم)، و(لأكفرن). وقال أهل الإشارة: أوفوا فى دار محنتى، على بساط خدمتى، بحفظ حرمتى، أوف فى دار نعمتى، على بساط كرامتى، بسرور رؤيتى. ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ فلا تنقضوا عهدى، وهو من قولك: زيدا رهبته وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من إياك نعبد و«إيَّاى» منصوب بفعل مضمر دل عليه ما بعده وتقديره، فارهبوا إياى فارهبون وحذف الأول لأن الثانى يدل عليه، وإنما لم ينتصب بقوله فارهبون لأنه أخذ مفعوله وهو الياء المحذوفة وكسرة النون دليل الياء؛ كما لا يجوز نصب زيد فى زيدا فاضربه باضرب الذى هو ظاهر.

●●﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة من الهاء المحذوفة، كأنه قيل: أنزلته مصدقا ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة يعنى فى العبادة والتوحيد والنبوة وأمر محمد - عليه السلام - ﴿وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أى أول من كفر به أو أول حزب أو فوج كافر به، أو ولا يكن كل واحد منكم أول كافر به. وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به

---

(١) هو: يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمى، البصرى، أبو محمد، أحد القراء العشرة، ولد عام ١١٧هـ، وتوفى بالبصرة عام ٢٠٥هـ.
غاية النهاية (٢/٣٨٦).

لمعرفتهم به وبصفته. والضمير فى بـه يعود إلى القرآن. ﴿وَلا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستـبدلوا. ﴿بِآيَاتِى﴾ بتغييرها وتحريفها. ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ قال الحسن: هو الدنيا بحذافيرهـا. وقيل: هو الرياسة التى كانت لهم فى قـومهم خافوا علـيها الفوات لو اتـبعوا رسول الله. ﴿وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ﴾ـ فخافونى فـارهبونى فاتقونى بالياء فى الحالين وكذلك كل ياء محذوفة فى الخط يعقوب.

●●﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لبس الحق بـالباطل خلطه. والـباء، إن كانت صلة مثـلها فى قولك لبست الشىء بالشىء خلطته به، كان المعنى ولا تـكتبوا فى التوراة ما ليس منها فيختلط الحق المنزل بالباطل الـذى كتبتم حتى لا يميز بين حـقها وباطلكم. وإن كانت باء الاستعـانة كالتى فى قولك: كتبت بالقلم، كان المعنى ولا تجعلوا الحق ملتبسا مشتبها بباطلكم الذى تكتبونه. ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ هو مجزوم داخل تحت حكم النهى بمعنى ولا تكتموا، أو منصوب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، أى ولا تجمعوا بين لـبس الحق بالباطل وكتمان الحق، كقولك: لا تـأكل السمك وتشرب اللبن. وهما أمران متميـزان. لأن لبس الحق بالباطل ما ذكرنا من كتبهم فـى التوراة ما ليس منها، وكتمانـهم الحق أن يقولوا: لانجد فـى التوراة صفة محمـد أو حكم كذا ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فى حال علمكم أنكم لابسون وكاتمون وهو أقبح لهم لأن الجهل بالقبيح ربما عذر مرتكبه.

●● ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى صلاة المسلمين وزكاتهم. ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ منهم لأن اليهـود لا ركوع فى صلاتهم أى أسـلموا واعملوا عـمل أهل الإسلام. وجاز أن يراد بـالركوع الصلاة كمـا يعبر عنهـا بالسجود، وأن يكون أمـراً بالصلاة مع المصـلين يعنى فـى الجماعة، أى: صلوها مع المصلين لا مـنفردين. والهمزة فى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ للتقرير مع التـوبيخ والتعجب من حالهم. ﴿بِالْبِرِّ﴾ أى سعة الخير والمعروف ومنه البر لسعته ويتناول كل خير، ومنه قولهم: صدقت وبررت. وكان الأحبار يأمرون من نصحوه فى السر من أقاربـهم وغيرهم باتباع محمد ـ عليه السلام ـ ولا يتبعونه. وقـيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يـتصدقون، وإذا أتوا بالصدقات لـيفرقوها خانوا فيها. ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من الـبر كالمنسيات. ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تبكيت أى: تتلون التـوراة وفيها نعت محمد ـ عـليه السلام ـ، أو فيها الوعـيد على الخيانة وترك البـر ومخالفة القول العمل ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليـه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وهو توبيخ عظيم.

●● ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ على حوائـجكم إلى الله ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ أى بالجمع بينـهما وأن تصلوا صابرين على تكاليـف الصلاة محتملين لمشاقها وما يجب فيهـا من إخلاص القلب ودفع الوساوس الشيطانـية والهواجس النفسـانية ومراعاة الآداب والخشوع واستحـضار العلم بأنه انتـصاب بين يدى جبار السموات والأرض، أو استعينوا على البلايا والنوائـب بالصبر عليها والالتجاء إلى الصلاة عند

وقوعها، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1]. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه نعى إليه أخوه قُثَمُ[2] وهو فى سفر فاسترجع وصلى ركعتين ثم قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[3] وقيل: الصبر الصوم لأنه حبس عن المفطرات، ومنه قيل لشهر رمضان شهر الصبر. وقيل: الصلاة الدعاء أى استعينوا على البلايا بالصبر والالتجاء إلى الدعاء والابتهال إلى الله فى دفعه. ﴿وَإِنَّهَا﴾ الضمير للصلاة أو للاستعانة. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ لشاقة ثقيلة من قولك كبر على هذا الأمر. ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ لأنهم يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم ألا ترى إلى قوله:

•• ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أى يتوقعون لقاء ثوابه ونيل ما عنده ويطمعون فيه. وفسر (يظنون) بـ «يتيقنون» لقراءة عبدالله: (يعلمون)، أى يعلمون أنه لابد من لقاء الجزاء فيعملون على حسب ذلك، وأما من لم يوقن بالجزاء ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة، والخشوع: الإخبات والتطامن، وأما الخضوع: فاللين والانقياد، وفسر اللقاء بالرؤية وملاقو ربهم: معاينوه بلا كيف. ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ لا يملك أمرهم فى الآخرة أحد سواه.

•• ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ نصب عطف على نعمتى أى اذكروا نعمتى وتفضيلى. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على الجم الغفير من الناس يقال: رأيت عالما من الناس والمراد: الكثرة.

•• ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أى يوم القيامة وهو مفعول به لا ظرف. ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ﴾ مؤمنة. ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة ﴿شَيْئًا﴾ أى لا تقضى عنها شيئاً من الحقوق التى لزمتها وشيئاً مفعول به، أو مصدر أى قليلا من الجزاء والجملة منصوبة المحل صفة يوماً، والعائد منها إلى الموصوف محذوف تقديره لا تجزى فيه ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ ولا تقبل ـ بالتاء ـ مكى وبصرى، والضمير فى منها يرجع إلى النفس المؤمنة، أى بلا تقبل منها شفاعة للكافرة، وقيل: كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم؛ فأويسوا، فهو كقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[4] وتشبث المعتزلة بالآية فى نفى الشفاعة للعصاة مردود؛ لأن النفى شفاعة الكفار وقد قال ـ عليه السلام ـ : «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى من كذب بها لم ينلها» ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: فدية لأنها معادلة للمفدى. ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعاونون وجمع لدلالة النفس المنكرة على النفوس الكثيرة، وذكر لمعنى العباد أو

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ.

(٢) هو من صغار الصحابة، كان أخاً للحسين بن على من الرضاعة، وحمله النبى ﷺ ين يديه، وولاه علىّ على المدينة، وقتل علىّ وهو عليها، توفى عام ٥٧هـ. تهذيب التهذيب (٥٤٦/٤).

(٣) سورة «البقرة»، آية (٤٥) وأخرجه سعيد بن منصور موقوف، والاسترجاع: أن يقول: إنا لله وإنا اليه راجعون».

(٤) سورة «المدثر»، آية (٤٨).

الأناسى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أصل آل أهل ولذلك يصغر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفا وخص استعماله بأولى الخطر كالملوك وأشباههم فلا يقال آل الإسكاف والحجام، وفرعون علم لمن ملك العمالقة؛ كقيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من آل فرعون أى يولونكم من سامه خسفاً إذا أولاه ظلما، وأصله من سام السلعة إذا طلبها، كأنها بمعنى يبغونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ويريدونكم عليه وسماومة البيع مزيدة أو مطالبة، وسوء مفعول ثان ليسومونكم وهو مصدر سىء، يقال: أعوذ بالله من سوء الخلق وسوء الفعل يراد قبحهما، ومعنى سوء العذاب، والعذاب كله سىء: أشده وأفظعه. ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ بيان لقوله يسومونكم ولذا ترك العاطف ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركون بناتكم أحياء للخدمة، وإنما فعلوا بهم ذلك لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد مولود يزول ملكه بسببه كما أنذروا نمرود فلم يغن عنهما اجتهادهما فى التحفظ وكان ما شاء الله ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ﴾: محنة؛ إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة؛ إن أشير به إلى الانتجاء. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ صفة لبلاء ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة ثانية.

●● ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ فصلنا بين بعضه وبعض حتى صارت فيه مسالك لكم، وقرىء فرّقنا أى فصلنا، يقال: فرق بين الشيئين وفرق بين الأشياء لأن المسالك كانت اثنى عشر على عدد الأسباط. ﴿بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ كانوا يسلكونه ويتفرق الماء عند سلوكهم فكأنما فرق بهم، أو فرقناه بسببكم، أو فرقناه ملتبساً بكم فيكون فى موضع الحال روى أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: أين أصحابنا فنحن لا نرضى حتى نراهم، فأوحى الله إليه أن قل بعصاك هكذا فقال بها على الحيطان فصارت فيها كوى فتراءوا وتسامعوا كلامهم ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إلى ذلك وتشاهدونه ولا تشكون فيه وإنما قال:

●● ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ لأن الله تعالى وعده الوحى ووعده هو المجىء للميقات إلى الطور، وعدنا حيث كان بصرى، لما دخل بنو إسرائيل مصر بعد هلاك فرعون ولم يكن لهم كتاب ينتهون إليه، وعد الله تعالى موسى أن ينزل عليه التوراة، وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة، وقال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لأن الشهور غررها بالليالى وأربعين مفعول ثان لواعدنا لاظرف؛ لأنه ليس معناه واعدناه فى أربعين ليلة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أى إلها فحذف المفعول الثانى لاتخذتم، وبابه بالإظهار مكى وحفص ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور، ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى بوضعكم العبادة غير موضعها، والجملة حال أى عبدتموه ظالمين.

●● ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ محونا ذنوبكم عنكم. ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد اتخاذكم العجل﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكى تشكروا النعمة فى العفو عنكم.

●● ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعنى الجامع بين كونه كتاباً منزلا وفرقانا يفرق بين الحق والباطل وهو التوراة، ونظيره رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات، أو الشرع الفارق بين الحلال والحرام، وقيل الفرقان انفلاق البحر أو النصر الذى فرق بينه وبين عدوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكى تهتدوا..

●● ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ للذين عبدوا العجل. ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ معبودا ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ هو الذى خلق الخلق بريئاً من التفاوت. وفيه تقريع لما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم أبرياء من التفاوت إلى عبادة البقر الذى هو مثل فى الغباوة والبلادة ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ قيل هو على الظاهر وهو البخع. وقيل معناه قتل بعضهم بعضا، وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبدة فقتل سبعون ألفا. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التوبة والقتل ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ من الإصرار على المعصية. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ المفضال بقبول التوبة وإن كثرت ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة[1] وإن كبرت. والفاء الأولى للتسبيب؛ لأن الظلم سبب التوبة. والثانية للتعقيب؛ لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم إذ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم. والثالثة متعلقة بشرط محذوف كأنه قال فإن فعلتم فقد تاب عليكم.

●● ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عيانا وانتصابها على المصدر كما تنصب القرفصاء بفعل الجلوس. أو على الحال من نرى أى ذوى جهرة. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أى الموت. قيل: هى نار جاءت من السماء فأحرقتهم. روى أن السبعين الذين كانوا مع موسى ـ عليه السلام ـ عند الانطلاق إلى الجبل قالوا له: نحن لم نعبد العجل كما عبده هؤلاء فأرنا الله جهرة. فقال موسى: سألته ذلك فأباه علىّ. فقالوا: إنك رأيت الله تعالى فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فبعث الله عليهم صاعقة فأحرقتهم. وتعلقت المعتزلة بهذه الاية فى نفى الرؤية؛ لأنه لو كان جائز الرؤية لما عذبوا بسؤال ما هو جائز الثبوت. قلنا: إنما عوقبوا بكفرهم لأن قولهم: إنك رأيت الله فلن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة كفر منهم. ولأنهم امتنعوا عن الإيمان بموسى بعد ظهور معجزته حتى يروا ربهم جهرة، والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم، ولايجوز اقتراح الآيات عليهم. ولأنهم لم يسألوا سؤال استرشاد، بل سؤال تعنت وعناد. ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ إليها حين نزلت.

---

(١) الحوبة: الإثم، يقال: حاب حوباً: أثِمَ، وأحوبَ: انزلق إلى الإثم. وفى التنزيل العزيز: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾.
المعجم الوسيط (١/ ٢١١).

●● ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أحيينا كم وأصله الإثارة ﴿مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث بعد الموت.

●● ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ جعلنا الغمام يظلكم وذلك فى التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس، وينزل بالليل عمود من نار يسيرون فى ضوئه وثيابهم لا تتسخ ولا تبلى ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ الترنجبين وكان ينزل عليهم مثل الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ كان يبعث الله عليهم الجنوب فتحشر عليهم السلوى وهى السمانى فيذبح الرجل منها ما يكفيه. وقلنا لهم ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذيذات أوحلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يعنى فظلموا بأن كفروا هذه النعم، وما ظلمونا ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أنفسهم مفعول يظلمون وهو خبر كان.

●● ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لهم بعدما خرجوا من التيه. ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أى بيت المقدس أو أريحاء والقرية المجتمع من قريت؛ لأنها تجمع الخلق أمروا بدخولها بعد التيه ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من طعام القرية وثمارها. ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ باب القرية، أو باب القبة التى كانوا يصلون إليها، وهم لم يدخلوا بيت المقدس فى حياة موسى - عليه السلام - وإنما دخلوا الباب فى حياته ودخلوا بيت المقدس بعده. ﴿سُجَّدًا﴾ حال وهو جمع ساجد، أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى وتواضعاً له. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فعلة من الحط كالجلسة، وهى خبر مبتدأ محذوف أى مسألتنا حطة أو أمرك حطة، والأصل النصب وقد قرىء به بمعنى حط عنا ذنوبنا حطة، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات. وقيل: أمرنا حطة أى أن نحط فى هذه القرية ونستقر فيها. وعن على: - رضى الله عنه - هو بسم الله الرحمن الرحيم وعن عكرمة(1): هو لا إله إلا الله. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ جمع خطيئة وهى الذنب، يغفر مدنى تغفر شامى. ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى من كان محسنا منكم كانت تلك الكلمة سببا فى زيادة ثوابه ومن كان مسيئا كانت له توبة ومغفرة.

---

(1) هو: عكرمة بن عبدالله، البربرى، أبو عبدالله المدنى، مولى ابن عباس، أصله من البربر، وهو أحد رؤوس التفسير، فإذا قيل «عكرمة» فهو البربرى، وليس ابن أبى جهل الصحابى، فهذا تابعى، وقيل فيه اختصاراً: «ثقة، ثبت، عالم بالتفسير، مجمع على توثيقه، ولا يثبت عليه بدعة، برىء من الحرورية - أى: الخوارج - روى عن جمع من الصحابة، وعن كبار التابعين، وروى عنه خلق كثير.
ولد عام ٢٥ هـ، وتوفى عام ١٠٥هـ.
تهذيب التهذيب (٤/ ١٦٧ - ١٧٢).

•• ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فيه حذف وتقديره فبدل الذين ظلموا بالذى قيل لهم قولا غير الذى قيل لهم، فبدل يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه وإلى آخر بالباء، فالذى مع الباء متروك، والذى بغير باء موجود يعنى وضعوا مكان حطة قولا غيرها، أى: أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قوله ليس معناه معنى ما أمروا به ولم يمتثلوا أمر الله. وقيل قالوا مكان حطة حنطة. وقيل: قالوا بالنبطية[1] حطا سمقاثا أى حنطة حمراء استهزاء منهم بما قيل لهم وعدولا عن طلب ما عند الله إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا. ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً﴾ عذابا. وفى تكرير الذين ظلموا زيادة فى تقبيح أمرهم وإيذان بإنزال الرجز عليهم لظلمهم. ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ صفة لرجز ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم. روى أنه مات منهم فى ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفا، وقيل: سبعون ألفا.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موضع إذ نصب؛ كأنه قيل: واذكروا إذ استسقى أى استدعى أن يسقى قومه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ عطشوا فى التيه فدعا لهم موسى بالسقيا، فقيل له: اضرب بعصاك الحجر. واللام للعهد والإشارة إلى حجر معلوم، فقد روى أنه حجر طورى يحمله معه وكان مربعا له أربعة أوجه كانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين لكل سبط عين، وكانوا ستمائة ألف: وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا، أو للجنس أى اضرب الشىء الذى يقال له الحجر، وهذا أظهر فى الحجة وأبين فى القدرة. ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ الفاء متعلقة بمحذوف، أى فضرب فانفجرت أى سالت بكثرة، أو فإن ضربت فقد انفجرت، وهى على هذا فاء فصيحة لا تقع إلا فى كلام بليغ. ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ على عدد الأسباط وقرىء بكسر الشين وفتحها، وهما لغتان، وعينا تمييز. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ عينهم التى يشربون منها. وقلنا لهم ﴿كُلُوا﴾ من المن والسلوى. ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من ماء العيون. ﴿مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ أى الكل مما رزقكم الله. ﴿وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ﴾ لا تفسدوا فيها. والعيث أشد الفساد ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة أى لا تتمادوا فى الفساد فى حال فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ هو ما رزقوا فى التيه من المن والسلوى. وإنما قالوا على طعام واحد وهما طعامان؛ لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يتبدل. ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، يقال: لا يأكل فلان إلا طعاما واحدا، ويراد بالوحدة نفى

---

(١) النبطيَّة: هى لغة قوم من العجم، يتزلون بالعراق، ويعرفون بـ «النبط»؛ لذلك نسبت اللغة إليهم. معجم البلدان (١/ ٥٣٤).

التبدل والاختلاف. أو أرادوا أنهـما ضرب واحد؛ لأنهما معا من طعام أهل التـلذذ والترف وكانوا من أهل الزراعات فأرادوا مـا ألفوا من البقول والحبـوب وغير ذلك ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ سله، وقل له أخرج لنا ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يظهر لـنا ويوجد ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ هو ما أنبـتته الأرض من الخضر والمراد به أطايب البـقول كالنعناع والكرفس والكراث ونحوهـما مما يأكل الناس. ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ يعنـى الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ هو الحـنطة أو الثـوم لقراءة ابن مـسعود وثومـها ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب منـزلة وأدون مقدارا والدنـو والقرب يعبر بـهما عن قلـة المقدار ﴿بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أرفع وأجل. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار أى انحدروا إليه من التيه. وبلاد التيه ما بين بيـت المقدس إلى قنَّسرين وهـى اثنا عشر فرسخا فـى ثمانية فراسخ. أو مصـر فرعون وإنما صرفه مع وجود السببين وهما التأنيث والتعريف لإرادة البلد، أو لسكون وسطه كنوح ولوط وفيهما العجمة والتعريف ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيها ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أى فإن الذى سألتم يكون فى الأمصار لا فى التيه. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أى الهوان والفقر، يعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم فهم فيهـا كما يكون فى القبـة من ضربت عليه، أو ألصقـت بهم حتى لزمتهـم ضربة لازب كما يضرب الطيـن على الحائط فيلزمـه فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسـكنة وفقر إما على الحـقيقة وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية. عليهم الذلة حمزة وعلى وكذا كل ما كان قبل الهاء ياء ساكنة، ويكسر الهاء والميم أبو عمرو. وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ من قولك باء فلان بفلان إذا كان حقيقا بأن يقتل به لمساواته له. أى: صاروا أحقاء بغضبه. وعن الكسـائى حقوا ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى مـا تقدم من ضرب الـذلة والمسكـنة والخلاقة بالـغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ بالهمزة نافع وكذا بابـه. أى ذلك بسبب كفرهم وقتلهم الأنبيـاء. وقد قتلت اليهود شعياء وزكريـا ويحيى صلوات الله عليهم. والنبـى من النبإ لأنه يخبر عـن الله تعالى، فعيـل بمعنى مفعِل أو بمـعنى مفعَل. أو مـن نبا أى ارتفع. والنـبوة المكان المرتفع. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم أيضا فإنهم لو أنصفوا لم يذكروا شـيئاً يستحقون به القتل عندهم فى التوراة. وهو فى محـل النصب على الحال من الضميـر فى يقتلون، أى يقتلونهـم مبطلين ﴿ذَلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصى واعتدائهم حدود الله فى كل شىء مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء. وقيل هو اعـتداؤهم؛ فى السبت. ويجوز أن يشار بذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء على معنى أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم؛ لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيـات وقتلهم الأنبياء، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بألسنتهم من غير مواطأة القلوب وهم المنافقون. ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا

يقال هاد يهود وتهودا إذا دخل فى اليهودية وهو هائد والجمع هود ﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ جمع نصران كندمان وندامى يقال: رجل نصران وامرأة نصرانة. والياء فى نصرانى للمبالغة كالتى فى أحمرى، سموا نصارى لأنهم نصروا المسيح ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الخارجين من دين مشهور إلى غيره من صبأ إذا خرج من الدين. وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا بالملائكة. وقيل: هم يقرءون الزبور ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصا ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فى الآخرة ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] ومحل من آمن الرفع إن جعلته مبتدأ خبره فلهم أجرهم، والنصب إن جعلته بدلا من اسم إن والمعطوف عليه. فخبر إن فى الوجه الأول الجملة كما هى، وفى الثانى فلهم والفاء لتضمن من معنى الشرط.

●● ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بقبول ما فى التوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أى الجبل حتى قبلتم وأعطيتم الميثاق. وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة فكبرت عليهم وأبوا قبولها. فأمر الله تعالى جبريل - عليه السلام - فقلع الطور من أصله ورفعه فظلله فوقهم وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقى عليكم حتى قبلوا وقلنا لكم ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من الكتاب، أى التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واحفظوا ما فى الكتاب وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين.

●● ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به. ﴿مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد القبول ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأخير العذاب عنكم أو بتوفيقكم للتوبة. ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين فى العذاب.

●● ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم فيتعدى إلى مفعول واحد ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ هو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت. وقد اعتدوا فيه أى جاوزوا ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد. وذلك أن الله تعالى نهاهم أن يصيدوا فى السبت، ثم ابتلاهم فما كان يبقى حوت[2] فى البحر إلا أخرج خرطومه يوم السبت فإذا مضى تفرقت؛ فحفروا حياضا عند البحر وشرعوا إليها الجداول فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت لأمنها من الصيد فكانوا يسدون مشارعها من البحر فيصطادونها يوم الأحد فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ

---

(١) نزلت هذه الآية فى أصحاب سلمان الفارس، رضى الله عنه.

(٢) الحوت: السمكة، صغيرة كانت أو كبيرة، والجمع: «حيتان». المعجم الوسيط (١/ ٢١١).

﴿كُونُوا﴾ بتكويننا إياكم ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ خبر كان أى كونوا جامعين بين القردية والخسوء وهو الصغار والطرد.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعنى. المسخة ﴿نَكَالاً﴾ عبرة تنكل من اعتبر بها أى تمنعه. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما قبلها. ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ وما بعدها من الأمم والقرون، لأن مسختهم ذكرت فى كتب الأولين فاعتبروا بها واعتبر بها من بلغتهم من الآخرين. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحى قومهم، أو لكل متق سمعها.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أى واذكروا إذ قال موسى. وهو معطوف على نعمتى فى قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[1] كأنه قال: اذكروا ذاك واذكروا إذ قال موسى. وكذلك هذا فى الظروف التى مضت أى اذكروا نعمتى، واذكروا وقت إنجائنا إياكم، واذكروا وقت فرقنا، واذكروا نعمتى، واذكروا وقت استسقاء موسى ربه لقومه. والظروف التى تأتى إلى قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ﴾ أى بأن ﴿تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال المفسرون: أول القصة مؤخر فى التلاوة وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[3] وذلك أن رجلا موسرا اسمه عاميل قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة، ثم جاءوا يطالبون بديته فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربون ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله. ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتجعلنا مكان هزء، أو أهل هزء أو الهزء نفسه لفرط الاستهزاء. هزأ بسكون الزاى والهمزة حمزة، وبضمتين والواو حفص، غيرهما بالتثقيل والهمزة. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ العياذ واللياذ من واد واحد. ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزء فى مثل هذا من باب الجهل والسفه، وفيه تعريض بهم، أى أنتم جاهلون حيث نسبتمونى إلى الاستهزاء.

●● ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ سؤال عن حالها وصفتها؛ لأنهم كانوا عالمين بماهيتها، لأن ما وإن كانت سؤالا عن الجنس، وكيف عن الوصف ولكن قد تقع ما موقع كيف، وذلك أنهم تعجبوا من بقرة ميتة يضرب ببعضها ميت فيحيا فسألوا عن صفة تلك البقرة العجيبة الشأن، وما هى خبر ومبتدأ. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ مسنة، وسميت فارضاً لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها وارتفع فارض لأنه صفة لبقرة، وقوله: ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ فتية عطف عليه. ﴿عَوَانٌ﴾ نصف ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الفارض والبكر، ولم يقل بين ذينك مع أن بين يقتضى شيئين

(١) سورة «البقرة»، الآيتان (٤٠)، و(٤٧).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٢٤).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (٧٢).

فصاعـدا؛ لأنه أراد بين هذا المـذكور، وقد يجرى الـضمير مـجرى اسم الإشارة فى هـذا، قال أبو عبيدة[١]: قلت لرؤبة[٢] فى قوله:

فيها خطوط من سواد وبلق   كأنه فى الجلد توليع البهق

إن أردت الخطـوط فقل كأنـها. وإن أردت السـواد والبلق فـقل كأنـهما، فقـال أردت كأن ذاك ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أى تؤمرونه بمـعنى تؤمرون به، أو أمـركم بمعنى مأموركـم تسمية للـمفعول بالمصدر كضرب الأمير.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ موضع ما رفع لأن معناه الاستفهام تقديره ادع لنا ربك يبين لنا أى شىء لونها. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ الفقوع أشد ما يـكون من الصفرة وأنصعه، يـقال فى التوكيد أصفـر فاقع، وهو توكيد لصـفراء وليس خبراً عن اللـون إلا أنه ارتفع اللون به ارتفاع الفاعل، ولا فرق بين قولك صفراء فاقعة وصفراء فاقع لونها، وفى ذكر اللون فائدة التوكيد لأن اللون اسم للهيئة وهى الصفرة، فكأنه قيل: شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك: جد جده ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ لحسنها والسرور لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه عن على ـ رضى الله عنه ـ من لبس فعلا صفراء قل همه؛ لقوله تعالى: تسر الناظرين.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها، وعن الـنبى ـ عليه السلام ـ: «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوهـا لكفتهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم»[٣]. والاستقصاء شؤم ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المـراد ذبحها، أو إلى ما خفى عـلينا من أمر القاتل، وإن شاء الله اعتراض بين اسم إن وخبرها، وفى الحديث: «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»[٤]. أى لو لم يقولوا إن شاء الله.

---

(١) أبو عبيدة، اسمه: معـمر بن المثنى، وهو من أعلام الأدب وعلوم العربيـة، وهو من مؤسسى علم البلاغة، فهو من أوائل من كتب فيه، وله فيه باع طويل.
ولد عام ١١٠هـ، وتوفى عام ٢٠٩ هـ. الأعلام (٧/ ٢٧٢).

(٢) هو: رؤبة بن العـجاج، واسم العجاج: عبدالله بـن رؤبة، التميمى، البصرى، الـراجز المشهور، على أن له حظ من الرواية، إلا إنه اشتهر بشعره، فقد كان أهل اللغة يحتجون بشعره.
خرج من البصرة إلى البادية هرباً من الفتنة، فمات سنة ١٤٥هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) رواه ابن مردويه والبزار من طريق الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة، مرفوعاً.

(٤) أخرجه الطبرى من طريق ابن جريج مرفوعاً.

•• ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ لاذلول صفة لبقرة بمعنى بقرة غير ذلول، يعنى لم تذلل للكراب[١] وإثارة الأرض ﴿وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ﴾ ولا هى من النواضح التى يسنى عليها لسقى الحروث، ولا الأولى نافية، والثانية مزيدة لتوكيد الأولى؛ لأن المعنى لاذلول تثير الأرض أى تقلبها للزراعة وتسقى الحرث على أن الفعلين صفتان لذلول؛ كأنه قيل لاذلول مثيرة وساقية ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ عن العيوب وآثار العمل. ﴿لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾ لا لمعة فى نقبتها من لون آخر سوى الصفرة فهى صفراء كلها حتى قرنها وظلفها، وهى فى الأصل مصدر وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لون آخر. ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أى بحقيقة وصف البقرة وما بقى إشكال فى أمرها، جئت وبابه بغير همز أبو عمرو ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها، أو خوف الفضيحة فى ظهور القاتل، روى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر ـ وكان براً بوالديه ـ فشبت البقرة وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها[٢] ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير، وكانوا طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة، وهذا البيان من قبيل تقييد المطلق فكان نسخاً والنسخ قبل الفعل جائز، وكذا قبل التمكن منه عندنا خلافا للمعتزلة.

•• ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بتقدير واذكروا، خوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فاختلفتم واختصمتم فى شأنها؛ لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضاً أى يدفع، أو تدافعتم بمعنى طرح قتلها بعضكم على بعض فيدفع المطروح عليه الطارح، أو لأن الطرح فى نفسه دفع، وأصله تدارأتم ثم أرادوا التخفيف فقلبوا التاء دالا لتصير من جنس الدال التى هى فاء الكلمة ليمكن الإدغام ثم سكنوا الدال إذ شرط الإدغام أن يكون الأول ساكنا وزيدت همزة الوصل؛ لأنه لا يمكن الابتداء بالساكن، فاداراتم بغير همز أبو عمرو. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾مظهر لا محالة ما كتمتم من أمر القتل لا يتركه مكتوماً، وأعمل مخرج على حكاية ما كان مستقبلا فى وقت التدارؤ، وهذه الجملة اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وهما اداراتم.

•• ﴿فَقُلْنَا﴾ والضمير فى ﴿اضْرِبُوهُ﴾ يرجع إلى النفس، والتذكير بتأويل الشخص والإنسان، أو إلى القتيل لما دل عليه ما كتم تكتمون. ﴿بِبَعْضِهَا﴾ ببعض البقرة وهو لسانها، أو فخذها اليمنى

---

(١) الكراب: قلب الأرض للحرث، وتهيئتها للزرع. المعجم الوسيط (٢/ ٨١٢).
(٢) المَسك: هو الجلد، والجمع «مُسُك»، و«مُسُوك».
المعجم الوسيط (٢/ ٩٠٤).

أو عجبها[1]، والمعنى فضربوه فحيي فحذف ذلك لدلالة ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ عليه، روى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان وفلان لابني عمه ثم سقط ميتاً؛ فأخذا وقتلا؛ ولم يورث قاتل بعد ذلك، وقوله كذلك يحيي الله الموتى إما أن يكون خطاباً للمنكرين في زمن النبي ـ عليه السلام ـ وإما أن يكون خطاباً للذين حضروا حياة القتيل بمعنى وقلنا لهم كذلك يحيي الله الموتى يوم القيامة. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلائله على أنه قادر على كل شيء ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتعملون على قضية عقولكم وهي أن من قدر على إحياء نفس واحدة قدر على إحياء جميعها لعدم الاختصاص، والحكمة في ذبح البقرة وضربه ببعضها وإن قدر على إحيائه بلا واسطة التقرب به، الإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب والتعليم لعباده ترك التشديد في الأمور والمسارعة إلى امتثال أوامر الله من غير تفتيش وتكثير سؤال وغير ذلك، وقيل: إنما أمروا بذبح البقرة دون غيرها من البهائم؛ لأنها أفضل قرابينهم، ولعبادتهم العجل فأراد الله تعالى أن يهون معبودهم عندهم، وكان ينبغي أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها، ولكنه تعالى إنما قص قصص بني إسرائيل تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها، وهاتان القصتان وإن كانتا متصلتين فتستقل كل واحدة منهما بنوع من التقريع. فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك. والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة. وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب المراد في تثنية التقريع ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله اضربوه ببعضها ليعلم أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وقصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة. وقيل: هذه القصة تشير إلى أن من أراد إحياء قدمه بالمشاهدات فليمت نفسه بأنواع المجاهدات.

ومعنى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ استبعاد القسوة ﴿مِّن بَعْدِ﴾ ما ذكر مما يوجب لين القلوب ورقتها. وصفة القلوب بالقسوة مثل لنبوها عن الاعتبار والاتعاظ. من بعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إحياء القتيل، أو إلى جميع ما تقدم من الآيات المعدودة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فهي في قسوتها مثل الحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها. وأشد معطوف على الكاف تقديره أو مثل أشد قسوة. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. أو هي في أنفسها أشد قسوة. يعني أن من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلا. أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال هي أقسى من الحجارة. وإنما لم يقل أقسى لكونه أبين وأدل على فرط القسوة. وترك ضمير المفضل عليه لعدم الإلباس كقولك: زيد

---

(١) العجب: مؤخر كل شيء، والجمع: «عجوب، وأعجاب».
المعجم الوسيط (٢/٥٠٦).

كريم وعمرو أكرم ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ﴾ بيان لزيادة قسوة قلوبهم على الحجارة ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ ما بمعنى الذى فى موضع النصب، وهو اسم إن واللام للتوكيد. والتفجر التفتح بالسعة والكثرة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أصله يتشقق وبه قرأ الأعمش[(١)] فقلبت التاء شينا وأدغمت ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ يعنى أن من الحجارة ما فيه خروق واسعه يتدفق منها الماء الكثير ومنها ما ينشق انشقاقا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضا وقلوبهم لا تندى[(٢)] ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يتردى من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ قيل هو مجاز عن انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد ولا تفعل ما أمرت به. وقيل: المراد به حقيقة الخشية على معنى أنه يخلق فيها الحياة والتمييز. وليس شرط خلق الحياة والتمييز فى الجسم أن يكون على بنية مخصوصة عند أهل السنة وعلى هذا قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾[(٣)] الآية، يعنى وقلوبهم لا تخشى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء مكى وهو وعيد.

●● ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله والمؤمنين. ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يؤمنوا لأجل دعوتكم ويستجيبوا لكم كقوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾[(٤)]، يعنى اليهود. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة فيمن سلف منهم. ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أى التوراة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ كما حرفوا صفة رسول الله ﷺ وآية الرجم. ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون مفترون والمعنى إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة فى ذلك.

●● ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أى المنافقون أو اليهود. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى المخلصون من أصحاب محمد ـ عليه السلام ـ ﴿قَالُوا﴾ أى المنافقون ﴿آمَنَّا﴾ بأنكم على الحق وأن محمدا هو الرسول المبشر به. ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ الذين لم ينافقوا ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى الذين نافقوا ﴿قَالُوا﴾ عاتبين عليهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ اتخبرون أصحاب محمد عليه السلام ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين الله لكم فى التوراة من صفة محمد ـ عليه السلام ـ ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم فى كتابه جعلوا محاجتهم به وقولهم هو فى كتابكم هكذا محاجة عند الله، ألا تراك تقول هو فى كتاب

(١) الأعمش: هو العلامة، سليمان بن مهران الأسدى، الكهلى، مولاهم، أبو محمد، طويل الباع فى الحديث وعلومه لا تكاد كتب الحديث تخلو من اسمه سنداً أو جرحاً أو تعديلاً، إمام مجمع على علوٍّ قدره، مختلف فى وفاته على أقوال؛ أرجحها أنه مات سنة ١٤٨هـ، وهو ابن ٨٨ سنة.
تهذيب التهذيب (٢/ ٤٢٣ ـ ٤٢٥).

(٢) معنى (لاتندى): لا تخشع.

(٣) سورة «الحشر»، الآية (٢١).

(٤) سورة «العنكبوت»، الآية (٢٦).

الله تعالى هكذا، وهو عند الله هكذا بمعنى واحد. وقيل: هذا على إضمار المضاف أى عند كتاب ربكم، وقيل: ليجادلوكم ويخاصموكم به بما قلتم لهم عند ربكم فى الآخرة، يقولون: كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1] أن هذه حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تتابعونه.

•• ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ جميع ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون الكتب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ إلا ماهم عليه من أمانيهم وأن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا تمسهم النار إلا أياما معدودة، أو إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فتقبلوها على التقليد ومنه قول عثمان[2] ـ رضى الله عنه ـ ما تمنيت منذ أسلمت؛ أو إلا ما يقرءون من قوله

تمنى كتاب الله أول ليلة   وآخرها لا فى حمام المقادر

أى لا يعلمون هؤلاء حقيقة المنزل وإنما يقرءون أشياء أخذوها من أحبارهم. والاستثناء منقطع ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ وما هم ﴿إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ لا يدرون ما فيه فيجحدون نبوتك بالظن. ذكر العلماء الذين عاندوا بالتحريف مع العلم ثم العوام الذين قلدوهم.

•• ﴿فَوَيْلٌ﴾ فى الحديث ويل واد فى جهنم[3] ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ المحرف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلا. وذكر الأيدى للتأكيد وهو من مجاز التأكيد ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ عوضا يسيرا ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا.

•• ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ أربعين يوما عدد أيام عبادة العجل. وعن مجاهد ـ رضى الله عنه ـ: كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب مكان كل ألف سنة[4] يوما ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أى عهد إليكم أنه لا يعذبكم إلا هذا المقدار ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾

---

(١) قيل: إنها نزلت فى جماعة من اليهود؛ آمنوا، ثم نافقوا.

(٢) هو أمير المؤمنين، ثالث الخلفاء الراشدين، ذو النورين؛ عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية، القرشى، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وتزوج ابنتى الرسول الكريم ﷺ ـ رقية، وأم كلثوم ـ ولذلك لقب بذى النورين، كان غنياً جواداً؛ فسخر ماله فى خدمة الدعوة، كانت تستحيى منه الملائكة، مناقبه كثيرة جداً، وهو من العشرة، ومن الستة، قتل بالمدينة عام ٣٥هـ، وقد جاوز الثمانين.

تهذيب التهذيب (٤/ ٩١، ٩٢).

(٣) أخرجه الطبرى عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

(٤) أخرجه الطبرى عن مجاهد، من طرق، بألفاظ متقاربة

متعلق بمحذوف تقديره إن اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده. ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ أم إما أن تكون معادلة، أى أتقولون على الله ما تعلمون أم تقولون عليه مالا تعلمون. أو منقطعة، أى بل أتقولون على الله مالا تعلمون.

●●﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد النفى وهو لن تمسنا النار أى بلى تمسكم أبدا بدليل قوله هم فيها خالدون. ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركا عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ رضى الله عنهم ـ ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ وسدت عليه مسالك النجاة بأن مات على شركه فأما إذا مات مؤمنا فأعظم الطاعات وهو الإيمان معه فلا يكون الذنب محيطا به فلا يتناوله النص، وبهذا التأويل يبطل تشبث المعتزلة والخوارج. وقيل: استولت عليه كما يحيط العدو ولم يتفصّ[1] عنها بالتوبة، خطياته مدنى.

●●﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●●﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●●﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. الميثاق: العهد المؤكد غاية التأكيد. ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ إخبار فى معنى النهى كما تقول تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر. وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء وهو يخبر عنه. وتنصره قراءة أبىّ لاتعبدوا، وقوله: وقولوا والقول مضمر. لايعبدون مكى وحمزة وعلى لأن بنى إسرائيل اسم ظاهر والأسماء الظاهرة كلها غيب. ومعناه أن لايعبدوا فلما حذفت أن رفع. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى وأحسنوا ليلتئم عطف الأمر، وهو قوله وقولوا عليه. ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ القرابة. ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ جمع يتيم وهو الذى فقد أباه قبل الحلم إلى الحلم لقوله عليه السلام لايتم بعد البلوغ[2]. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ جمع مسكين وهو الذى أسكنته الحاجة. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قولا هو حسن فى نفسه لإفراط حسنه. حَسَنا حمزة وعلى. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الميثاق ورفضتموه. ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾ قيل هم الذين أسلموا منهم. ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ وأنتم قوم عادتكم الإعراض والتولية، عن المواثيق.

●●﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أى لا يفعل ذلك بعضكم ببعض. جعل غير الرجل نفسه إذا اتصل به أصلا أو ديناً. وقيل: إذا قتل غيره فكأنما قتل نفسه لأنه يقتص منه. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم على أنفسكم بلزومه. ﴿وَأَنتُمْ

(١) يتفصَّ: ينفصل، يقال: افتص الشىء: فصله وانتزعه من غيره، وانفصَّ منه: انفصل. المعجم الوسيط (٢/ ٧١٦).

(٢) رواه أبو داود، وحسّنه الإمام النووى، لثبوت أبى داود عليه، وأعلَّه غير واحد. أسنى المطالب ص٣٥٥.

﴿تَشْهَدُونَ﴾ عليها كما تقول فلان مقر على نفسه بكـذا شاهد عليها أو وأنتم تشهدون اليوم يا معشر اليهود على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

●● **﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾** استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم. أنتم مـبتدأ وهؤلاء بمعنى الذين. **﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾** صلة هؤلاء. وهؤلاء مع صلته خبر أنتم. **﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾** غير مراقبين ميثاق الله. **﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾** بالتخفيف كوفى أى تتعاونون وبالـتشديد غيرهم. فمن خفف فقد حذف إحدى التائين. ثم قيل: هى الـثانية لأن الـثقل بهـا. وقيل: الأولى. ومـن شدد قلب الـتاء الثانيـة ظاء وأدغم. **﴿بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾** بالمعصية والظلم. **﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾** تفدوهم أبو عمـرو. أسرى تفدوهم مكى وشامى. أسرى تفدوهم حمزة أسارى تفادوهم على. فدى وفادى بمعنى. وأسارى حال وهو جمع أسيرو كذلك أسـرى والضميـر فى. **﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾** للـشأن أو هو ضمـير مبـهم تفسيره. **﴿إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾** بفداء الأسرى. **﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾** بالقتال والإجلاء. قال السدى[1]: أخذ الله عليكم أربعة عهود؛ ترك القتل وترك الإخراج وترك المظاهرة وفداء الأسير فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء. **﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ﴾** هو إشارة إلى الإيمان ببعض والكفر ببعض. **﴿مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾** فضيحة وهوان. **﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾** وهو الـذى لا روح فيـه ولا فرح، أو إلى أشـد من عـذاب الدنـيا. **﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** بالياء مكى ونافع وأبو بكر.

●● **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾** اختاروها على الآخرة اخـتيار المشترى. **﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾** ولا ينصرهم أحد بالدفع عنهم.

●● **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾** التوراة. آتاه جملة. **﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾** يقال: قفاه إذا اتبعه من الـقفا نحو ذنبه من الذنـب، وقفاه به إذا أتبعه إياه. يـعنى وأرسلنا على أثره الـكثير من الرسل وهـم يوشع واشمويل وشـمعون وداود وسليـمان وشعياء وأرمـياء وعزيز وحزقيـل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم. **﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾** هى بمعنى الخادم، ووزن مريم عند الـنحويين مفعل لأن فـعيلا لم يثبت فى الأبـنية، البينات المعـجزات الواضحات كإحياء

---

(١) السدِّى: هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبى كريـمة، أبو محمد القرشى، مولاهم، كان يقعد فى سدة باب الجامع؛ فـسمى: السدِّى، روى عن عدد من الصحـابة، وعن كبار التابعيـن، وروى عنه الناس، حجة فى التفسير دون الحديث.

مات سنة ١٢٧هـ.

تهذيب التهذيب (٢/ ١٩٩، ٢٠٠).

الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أى الطهارة وبالسكون حيث كان مكى. أى بالروح المقدسة كما يقال حاتم الجود ووصفها بالقدس للاختصاص والتقريب؛ أو بجبريل عليه السلام لأنه يأتى بما فيه حياة القلوب. وذلك لأنه رفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله، أو بالإنجيل كما قال فى القرآن: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(1)، أو باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره. ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تعظمتم عن قبوله. ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. ولم يقل قتلتم لوفاق الفواصل. أو لأن المراد وفريقا تقتلونه بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ـ عليه السلام ـ لولا أنى أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. والمعنى ولقد آتينا يا بنى إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم فكلما جاءكم رسول منهم بالحق استكبرتم عن الإيمان به. فوسط ما بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجب من شأنهم.

●● ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف أى هى خلقة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ـ عليه السلام ـ ولا تفقهه مستعار من الأغلف الذى لم يختن ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فرد الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك؛ لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق. وإنما طردهم بكفرهم وزيغهم. ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فقليلا صفة مصدر محذوف أى فإيمانا قليلا يؤمنون. وما مزيدة وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل: القلة بمعنى العدم. غلف تخفيف غلف، وقرىء به جمع غلاف أى قلوبنا أوعية للعلوم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره. أو أوعية للعلوم فلو كان ما جئت به حقا لقبلنا ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى اليهود ﴿كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم لا يخالفه ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ يعنى القرآن ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يستنصرون على المشركين إذ قاتلوهم، قالوا: اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة، ويقولون لأعدائهم المشركين: قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ ما موصولة أى ما عرفوه، وهو فاعل جاء ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ بغيا وحسدا وحرصا على الرياسة. ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى عليهم وضعا للظاهر موضع المضمر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم. واللام للعهد أو للجنس ودخلوا فيه دخولا أوليا، وجواب لما الأولى مضمر وهو نحو كذبوا به أو أنكروه. أو كفروا جواب الأولى والثانية لأن مقتضاهما واحد.

●● وما فى ﴿بِئْسَمَا﴾ نكرة موصوفة مفسرة لفاعل بئس أى بئس شيئاً. ﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾

---

(1) سورة «الشورى»، الآية (52).

أى باعوه والمخصوص بالذم ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعنى القرآن ﴿بَغْيًا﴾ مفعول له أى حسدا وطلبا لما ليس لهم، وهو علة اشتروا ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ لأن ينزل، أو على أن ينـزل أى حسدوه على أن ينزل الله. ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ الذى هو الوحى. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو محمد ـ عليه السلام ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فصاروا أحقاء بغضب مترادف؛ لأنهم كـفروا بنبى الحق وبغوا عليه أو كفروا بمحمد بعد عيسى ـ عليهما السلام ـ، أو بعد قولهم عزير ابـن الله، وقولهم: يد الله مغلولة وغير ذلك. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مذل بئسما وبابه غير مهمـوز أبو عمرو وينزل بالتخفيف مكى وبصرى.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾لهؤلاء اليهود. ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعنى القرآن، أو مطـلق يتناول كل كتاب. ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أى التوراة. ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أى قالوا ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ غير مخالف له وفيـه رد لمقالتهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ومصدقا حال مؤكدة. ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ﴾ أى فلم قتلتم فوضع المستقبل موضـع الماضى ويدل عليه قوله: ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى من قبل مـحمد ـ عليـه السلام ـ اعتراض علـيهم بقتلـهم الأنبياء مـع ادعائهم الإيمان بـالتوراة والتوراة لاتسـوغ قتل الأنبياء، قيل: قتلوا فى يوم واحد ثلثمائة نبى فى بيت المقدس.

●●﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات التـسع وأدغم الدال فى الجيم حـيث كان أبو عمرو وحمزة وعلى. ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلها. ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد خروج موسى ـ عليه السلام ـ إلى الطور. ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ هو حال أى عـبدتم العجـل وأنتم واضعـون العبادة غـير موضعـها، أو اعتراض أى وأنتم قوم عادتكم الظلم.

●●﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ كرر ذكر رفع الطور لما نيط به من زيـادة ليست مـع الأولى. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما أمـرتم به فى الـتوراة. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك وطابق قوله جوابهـم من حيث إنه قال لهم اسمعوا وليكن سمـاعكم سماع تقبل وطاعة؛ فـقالوا سمعـنا ولكن لاسمـاع طاعة. ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أى تداخلهـم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثـوب، وقوله: فى قلوبهم، بيان لمكان الإشراب والمضاف وهو الحب محذوف. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم واعتقادهم التشبيه. ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة؛ لأنه ليس فى الـتوراة عبادة العجل، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تـهكم وكذا إضافة الإيمان إليهم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تشكيك فى إيمانهم وقدح فى صحة دعواهم له.

●●﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ أى: الجنة. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ظرف، ولكم خبر كان. ﴿خَالِصَةً﴾ حال من الدار الآخرة أى: سالمة لكم ليس لأحد سواكم فيها حق، يعنى إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ هو للجنس. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها تخلصاً من الدار ذات الشوائب، كما نقل عن العشرة المبشرين بالجنة أن كل واحد منهم كان يحب الموت ويحن إليه.

●●﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾ هو نصب على الظرف أى لم يتمنوه ما عاشوا. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بما أسلفوا من الكفر بمحمد ـ عليه السلام ـ وتحريف كتاب الله وغير ذلك وهو من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به كقوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾(١) ولو تمنوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم.

●●﴿لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ﴾ مفعولا وجد (هم) و(أحرص). ﴿عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ التنكير يدل على أن المراد حياة مخصوصة وعلى الحياة المتطاولة؛ ولذا كانت القراءة بها أوقع من قراءة أبى على الحياة. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هو محمول على المعنى لأن معنى أحرص الناس أحرص من الناس نعم قد دخل الذين أشركوا تحت الناس ولكنهم أفردوا بالذكر لأن حرصهم شديد، كما أن جبريل وميكائيل خصا بالذكر وإن دخلا تحت الملائكة، أو أريد وأحرص من الذين أشركوا فحذف لدلالة أحرص الناس عليه. وفيه توبيخ عظيم؛ لأن الذين أشركوا لايؤمنون بعاقبة ولايعرفون إلا الحياة الدنيا فحرصهم عليها لايستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، وإنما زاد حرصهم على الذين أشركوا لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لعلمهم بحالهم والمشركون لايعلمون ذلك وقوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف، وقيل أراد بالذين أشركوا المجوس؛ لأنهم كانوا يقولون لملوكهم عش ألف نيروز. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هو قول الأعاجم زى هزار سال(٢). وقيل: ومن الذين أشركوا كلام مبتدأ أى ومنهم ناس يود أحدهم على حذف الموصوف والذين أشركوا على هذا مشار به إلى اليهود لأنهم قالوا عزير ابن الله والضمير فى. ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ لأحدهم، وقوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل بمزحزحه أى وما أحدهم بمن يزحزحه من النار تعميره، ويجوز أن يكون هو مبهمًا وأن يعمر موضحه والزحزحة التبعيد والإنحاء. قال فى جامع العلوم وغيره: لو يعمر بمعنى أن يعمر، فلو هنا نائبة عن أن، وأن مع الفعل فى تأويل المصدر، وهو مفعول يود أى يود أحدهم تعمير ألف سنة. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى بعمل هؤلاء الكفار فيجازيهم عليه. وبالتاء يعقوب.

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٤).

(٢) أخرجه الطبرى من طرق عدة، بألفاظ متقاربة.

●●﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء بلا همز مكى وبفتح الراء والجيم والهمز مشبعًا كوفى غير حفص، وبكسر الراء والجيم بلا همز غيرهم. ومنع الصرف فيه للتعريف والعجمة ومعناه عبد الله؛ لأن جبر هو العبد بالسريانية وإيل اسم الله، روى أن ابن صوريا[1] من أحبار اليهود حاج النبى ﷺ وسأله عمن يهبط عليه بالوحى، فقال: جبريل. فقال: ذاك عدونا ولو كان غيره لآمنا بك وقد عادانا مرارًا، وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر فبعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلامًا مسكينًا فدفع عنه جبريل وقال: إن كان ربكم أمره بهلاككم فإنه لا يسلطكم عليه، وإن لم يكن إياه فعلى أى ذنب تقتلونه. ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ فإن جبريل نزل القرآن ونحو هذا الإضمار أعنى إضمار ما لم يسبق ذكره فيه فخامة حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شىء من صفاته. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى حفظه إياك وخص القلب لأنه محل الحفظ كقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2]، وكان حق الكلام أن يقال على قلبى ولكن جاء على حكاية كلام الله كما تكلم به، وإنما استقام أن يقع فإنه نزله جزاء للشرط؛ لأن تقديره إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتاباً مصدقًا للكتب بين يديه فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه فى إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم، وقيل: جواب الشرط محذوف تقديره: من كان عدوًا لجبريل فليمت غيظًا فإنه نزل الوحى على قلبك. ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ رد على اليهود حين قالوا إن جبريل ينزل بالحرب والشدة، فقيل: فإنه ينزل بالهدى والبشرى أيضًا.

●●﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ بصرى وحفص وميكائل باختلاس الهمزة كميكاعل مدنى، وميكائيل بالمد وكسر الهمزة مشبعة غيرهم، وخص الملكان بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر إذ التغاير فى الوصف يتزل منزلة التغاير فى الذات. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أى لهم فجاء بالظاهر ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم وأن عداوة الملائكة كفر كعداوة الأنبياء، ومن عاداهم عاداه الله.

●● ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة واللام للجنس، والأحسن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب، وعن ابن عباس - رضى الله عنه- :قال ابن صوريا لرسول الله ﷺ: «ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فتتبعك بها... فنزلت»[3].

---

(١) ابن صوريا: هو عبد الله بن صوريا الفطيونى، رأس من رءوس اليهود، وحبر من أحبارهم، ذكره الطبرى فى تفسيره، فى الآية (٩٩).

(٢) سورة «الشعراء»، الآيتان (١٩٣، ١٩٤).

(٣) أخرجه الإمام الطبرى فى تفسيره.

●● الواو فى: ﴿أَوَ كُلَّمَا ﴾ الواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات البينات وكلما ﴿عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ﴾ نقضه ورفضه وقال ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لأن منهم من لم ينقض ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بالتوراة وليسوا من الدين فى شىء فلا يعدون نقض المواثيق ذنبًا ولا يبالون به.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى التوراة والذين أوتوا الكتاب اليهود ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعنى التوراة لأنهم بكفرهم برسول الله ﷺ المصدق لما معهم كافرون بها نابذون لها أو كتاب الله القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول. ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثل لتركهم وإعراضهم عنه. مثل بما يرمى به وراء الظهور استغناء عنه وقلة التفات إليه ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله.

●● ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ أى نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أى على عهد ملكه وفى زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها فى كتب يقرءونها ويعلمونها الناس وفشا ذلك فى زمن سليمان - عليه السلام - حتى قالوا إن الجن تعلم الغيب وكانوا يقولون هذا علم سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه سخر الجن والإنس والريح﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تكذيب للشياطين ودفع لما بهتت به سليمان من اعتقاد السحر والعمل به ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ هم الذين ﴿كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر وتدوينه ولكن بالتخفيف. الشياطين بالرفع شامى وحمزة وعلى ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فى موضع الحال أى كفروا معلمين الناس السحر قاصدين به إغواءهم وإضلالهم ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ الجمهور على أن ما بمعنى الذى هو نصب عطف على السحر أى ويعلمونهم ما أنزل على الملكين، أو على ما تتلو أى واتبعوا ما أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ علمان لهما وهما عطف بيان للملكين والذى أنزل عليهما هو علم السحر ابتلاء من الله للناس من تعلمه منهم وعمل به كان كافرًا إن كان فيه رد ما لزم فى شرط الإيمان ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه لئلا يغتر به كان مؤمنًا، قال الشيخ أبو منصور الماتريدى- رحمه الله-: القول بأن السحر على الإطلاق كفر خطأ بل يجب البحث عن حقيقته، فإن كان فى ذلك رد ما لزم فى شرط الإيمان فهو كفر وإلا فلا. ثم السحر الذى هو كفر يقتل عليه الذكور لا الإناث وما ليس بكفر وفيه إهلاك النفس ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى فيه المذكر والمؤنث، وتقبل توبته إذا تاب ومن قال لا تقبل فقد غلط فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم، وقيل: أنزل أى قذف فى قلوبهما مع النهى عن العمل قيل: إنهما ملكان اختارتهما الملائكة لتركب فيهما الشهوة حين عيرت بنى آدم فكانا يحكمان فى الأرض ويصعدان بالليل،

فهويا زهرة فحملتهما على شرب الخمر فزنيا فرآهما إنسان فقتلاه فاختارا عذاب الدنيا على عذاب الآخرة فهما يعذبان منكوسين فى جب ببابل وسميت ببابل لتبلبل الألسن بها ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ وما يعلم الملكان أحداً ﴿حَتَّىٰ يَقُولَا﴾ حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء واختبار من الله. ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بتعلمه والعمل به على وجه يكون كفراً ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الفاء عطف على قوله: يعلمون الناس السحر أى يعلمونهم فيتعلمون من السحر والكفر اللذين دل عليهما قوله كفروا - و- يعلمون الناس السحر أو على مضمر والتقدير فيأتون فيتعلمون والضمير لما دل عليه من أحد أى فيتعلم الناس من الملكين ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أى علم السحر الذى يكون سبباً فى التفريق بين الزوجين بأن يحدث الله عنده النشوز والخلاف ابتلاء منه. وللسحر حقيقة عند أهل السنة - كثرهم الله - وعنده المعتزلة هو تخييل وتمويه ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ﴾ بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه ومشيئته ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فى الآخرة وفيه دليل على أنه واجب الاجتناب كتعلم الفلسفة التى تجر إلى الغواية ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أى: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أى استبدل ما تتلوا الشياطين من كتاب الله ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ من نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ باعوها وإنما نفى العلم عنهم بقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مع إثباته لهم بقوله: ولقد علموا على سبيل التوكيد القسمى؛ لأن معناه لو كان يعلمون بعلمهم جعلهم حين لم يعلموا به كأنهم لا يعلمون.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ برسول الله والقرآن ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله فتركوا ما هم عليه من نبذ كتاب الله واتباع كتب الشياطين ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جهلهم لما تركوا العمل بالعلم، والمعنى لأثيب من عند الله ما هو خير، وأوثرت الجملة الاسمية على الفعلية فى جواب لو لما فيها من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها ولم يقل لمثوبة الله خير؛ لأن المعنى لشىء من الثواب خير لهم، وقيل: لو بمعنى التمنى كأنه قيل وليتهم آمنوا ثم ابتدأ لمثوبة من عند الله خير

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا لقى عليهم شيئًا من العلم: راعنا يا رسول الله أى راقبنا وانتظرنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهى: راعينا فلما سمعوا بقول المؤمنين: راعنا افترصوه وخاطبوا به الرسول وهم يعنون به تلك المسبة فنهى المؤمنون عنها وأمر بما هو فى معناها وهو: انظرنا من نظره إذا انتظره ﴿وَاسْمَعُوا﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ ويلقى عليكم من المسائل بآذان واعية وأذهان حاضرة حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة، أو

واسمعوا سماع قبول وطاعة ولا يكن سماعكم كسماع اليهود حيث قالوا: سمعنا وعصينا ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ ولليهود الذين سبوا رسول الله ﷺ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

●● ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾وبالتخفيف مكى وأبو عمرو ﴿ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من الأولى للبيان؛ لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركون والثانية مزيدة لاستغراق الخير، والثالثة لابتداء الغاية والخير الوحى، وكذلك الرحمة ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾يعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم وما يحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحى، والله يختص بالنبوة من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فيه إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم، ولما طعنوا فى النسخ فقالوا: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غدًا نزل .

●●﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ تفسير النسخ لغة التبديل وشريعة بيان انتهاء الحكم الشرعى المطلق الذى تقرر فى أوهامنا استمراره بطريق التراخى فكان تبديلاً فى حقنا بيانًا محضًا فى حق صاحب الشرع، وفيه جواب عن البداء الذى يدعيه منكروه ـ أعنى اليهود ـ ومحله حكم يحتمل الوجود والعدم فى نفسه لم يلحق به ما ينافى النسخ من توقيت أو تأبيد ثبت نصًا أو دلالة وشرطه التمكن من عقد القلب عندنا دون التمكن من الفعل خلافًا للمعتزلة، وإنما يجوز النسخ بالكتاب والسنة متفقًا ومختلفًا ويجوز نسخ التلاوة والحكم، والحكم دون التلاوة والتلاوة دون الحكم، ونسخ وصف بالحكم مثل الزيادة على النص فإنه نسخ عندنا خلافًا للشافعى، رحمه الله، والإنساء أن يذهب بحفظها عن القلوب، أو ننسأها مكى وأبو عمر أى نؤخرها من نسأت أى أخرت ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ أى نأت بآية خير منها للعباد أى بآية العمل بها أكثر للثواب ﴿ أَوْ مِثْلِهَا﴾ فى ذلك إذ لا فضيلة لبعض الآيات على البعض ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى قادر فهو يقدر على الخير وعلى مثله.

●● ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أموركم ويدبرها وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ أو منسوخ ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ يلى أمركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يمنعكم من العذاب.

●● ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾أم منقطعة وتقديره بل أتريدون﴿ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ روى أن قريشًا قالوا: يا محمد اجعل لنا الصفا ذهبًا ووسع لنا أرض مكة فنهوا أن يقترحوا عليه الآيات كما اقترح قوم موسى عليه حين قالوا اجعل لنا إلهًا ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها واقترح غيرها ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ قصده ووسطه.

●● ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾أن يردوكم ﴿ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ حال من كم أى يردونكم عن دينكم كافرين، نزلت حين قالت اليهود للمسلمين بعد واقعة أحد ألم تروا إلى ما أصابكم ولو كنتم على الحق لما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم ﴿حَسَدًا﴾ مفعول له أى لأجل الحسد وهو الأسف على الخير عند الغير ﴿ مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ يتعلق بود أى ودوا من عند أنفسهم ومن قبل شهوتهم لا من قبل التدين والميل مع الحق لأنهم ودوا ذلك ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أى من بعد علمهم بأنكم على الحق، أو بحسدًا أى حسدًا متبالغًا منبعثًا من أصل نفوسهم ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ فاسلكوا معهم سبيل العفو والصفح عما يكون منهم من الجهل والعداوة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بالقتال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على الانتقام منهم.

●● ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾من حسنة صلاة أو صدقة أو غيرهما ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ تجدوا ثوابه عنده﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يضيع عنده عمل عامل.

والضمير فى ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، أى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله وأمنًا من الإلباس لما علم من التعادى بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما صاحبه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ، وهو جمع هائد كعائذ وعوذ ووحد اسم كان للفظ من، وجمع الخبر لمعناه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أشير بها إلى الأمانى المذكورة وهى أمنيتهم ألا ينزل على المؤمنين خير من ربهم وأمنيتهم أن يردوهم كفارًا، وأمنيتهم أن لا يدخل الجنة غيرهم أى تلك الأمانى الباطلة أمانيهم. والأمنية أفعولة من التمنى مثل الأضحوكة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة، وهات بمنزلة هاء بمعنى أحضر، وهو متصل بقولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وتلك أمانيهم اعتراض ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى دعواكم.

●● ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ من أخلص نفسه له لا يشرك به غيره ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مصدق بالقرآن ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ جواب من أسلم. وهو كلام مبتدأ متضمن لمعنى الشرط، وبلى رد لقولهم. ﴿عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى على شىء يصح ويعتد به،

والواو فى ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ للحال والكتاب للجنس أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب. وحق من حمل التوراة والإنجيل وآمن به ألا يكفر بالباقى لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك القول الذى سمعت به ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أى الجهلة الذين لا علم عندهم ولا كتاب كعبدة الأصنام والمعطلة[١]، قالوا لأهل كل دين ليسوا على شىء وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم فى سلك من لا يعلم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى بين اليهود والنصارى بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب اللائق به.

●● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ موضع من رفع على الابتداء، وهو استفهام، وأظلم خبره، والمعنى أى أحد أظلم وأن يذكر ثانى مفعولى منع؛ لأنك تقول منعته كذا ومثله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾[٢] ، ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا﴾[٣]. ويجوز أن يحذف حرف الجر مع أن أى من أن يذكر ، وأن تنصبه مفعولاً له بمعنى منعها كراهة أن يذكر، وهو حكم عام لجنس مساجد الله وأن مانعها من ذكر الله مفرط فى الظلم، والسبب فيه طرح النصارى فى بيت المقدس الأذى، ومنعهم الناس أن يصلوا فيه، أو منع المشركين رسول الله أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية. وإنما قيل: مساجد الله وكان المنع على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام؛ لأن الحكم ورد عامًا وإن كان السبب خاصًا كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[٤] والمنزول فيه الأخنس بن شريق ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بانقطاع الذكر والمراد بمن العموم كما أريد العموم بمساجد الله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا﴾ أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله ﴿إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ حال من الضمير فى يدخلوها أى على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى ما كان الحق إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم. روى أنه لا يدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا متنكراً خيفة أن يقتل. وقال قتادة: لا يوجد نصرانى فى بيت المقدس إلا بولغ ضربًا، ونادى رسول الله ﷺ ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك[٥]، وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول والتخلية

(١) المعطلة: هىَ فرقة من فرق الغلاة، التى مَرَقَتْ من الدين، وذلك بأن قالت بتعطيل صفات الله تعالى، ثم أنكرت اليوم الآخر، والحساب، والجزاء، وكذلك أنكرت الرسل والأنبياء.
انظر: (الملل والنحل).

(٢) سورة «الإسراء» الآية (٥٩).

(٣) سورة «الإسراء»، الآية (٩٤)، وسورة «الكهف» الآية (٥٥).

(٤) سورة «الهمزة»، الآية (١).

(٥) متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، رضى الله عنه.

بينهم وبينه كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾[1] ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبى للحربى وذلة بضرب الجزية للذمى﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى النار.

●● ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى: بلاد المشرق والمغرب كلها له وهو مالكها ومتوليها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ شرط ﴿تُوَلُّوا﴾ مجزوم به أى ففى أى مكان فعلتم التولية، يعنى تولية وجوهكم شطر القبلة بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[2] والجواب ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أى جهته التى أمر بها ورضيها والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام، أو فى بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجدًا فصلوا فى أى: بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة فى كل مكان ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى هو واسع الرحمة يريد التوسعة على عباده وهو عليم بمصالحهم وعن ابن عمر[3] - رضى الله عنه-: نزلت فى صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت وقيل: عميت القبلة على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة فلما أصبحوا تبينوا خطأهم فعذروا. هو حجة على الشافعى - رحمه الله- فيما إذا استدبر[4] وقيل: فأينما تولوا للدعاء والذكر.

●● ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله، قالوا شامى فإثبات الواو باعتبار أنه قصة معطوفة على ما قبلها، وحذفه باعتبار أنه استئناف قصة أخرى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد، ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى هو خالقه ومالكه ومن جملته المسيح وعزير والولادة تنافى الملك ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون لا يمتنع شىء منهم على تكوينه وتقديره، والتنوين فى كل عوض عن المضاف إليه أى كل ما فى السموات والأرض أو كل من جعلوه لله ولدًا له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليه. وجاء بما الذى لغير أولى العلم مع قوله قانتون كقوله سبحان ما سخركن لنا.

---

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (٥٣).

(٢) سورة «البقرة»، الآيتان (١٤٤)، و(١٥٠).

(٣) هو الصحابى الجليل ،عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل، القرشى، العدوى، أبوعبدالرحمن، المكى، أسلم قديمًا، وهو صغير، وهاجر مع أبيه - الفاروق، عمر - استصغر يوم أحد، ثم شهد الخندق وما بعدها، من أكبر رواة الصحابة، فضله أبو هريرة على نفسه فى الرواية، وهو - كذلك ـ من علماء الصحابة، روى عنه الناس، وعَمَّرَ فنشر العلم، وأفاد الناس.

مات سنة ٧٣هـ، وهو ابن ٨٦ أو ٨٤ عامًا .

تهذيب التهذيب (٣/ ٢١٣, ٢١٤).

(٤) استدبر : أى استدبر القبلة، وعكس «استدبر»: استقبل.

●● ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى مخترعهما ومبدعهما لأعلى مثال سبق. وكل من فعل ما لم يسبق إليه يقال له أبدعت، ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة مبتدع لأنه يأتى فى دين الإسلام ما لم يسبق إليه يقال له أبدعت، ولهذا قيل لمن خالف السنة والجماعة مبتدع لأنه يأتى فى دين الإسلام ما لم يسبقه إليه الصحابة والتابعون - رضى الله عنهم - ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أى حكم أو قدر ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ هو من كان التامة أى أحدث فيحدث وهذا مجاز عن سرعة التكوين وتمثيل ولا قول ثم. وإنما المعنى أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون، ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه إباء. وأكد بهذا استبعاد الولادة؛ لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت صفاته مباينة لصفات الأجسام فأنى يتصور التوالد ثَمَّ. والوجه الرفع فيكون وهو قراءة العامة على الاستئناف أى فهو يكون. أو على العطف على يقول ونصبه ابن عامر(١) على لفظ كن لأنه أمر وجواب الأمر بالفاء نصب. وقلنا إن كن ليس بأمر حقيقة إذ لا فرق بين أن يقال وإذا قضى أمراً فإنما يكونه فيكون وبين أن يقال فإنما يقول له كن فيكون وإذا كان كذلك فلا معنى للنصب. وهذا لأنه لو كان أمراً فإما أن يخاطب به الموجود، والموجود لا يخاطب بكن، أو المعدوم والمعدوم لا يخاطب.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا كما يكلم الملائكة وكلم موسى استكباراً منهم وعتواً ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ جحوداً لأن يكون ماأتاهم من آيات الله آيات واستهانة بها ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى العمى ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى لقوم ينصفون فيوقنون أنها آيات يجب الاعتراف بها والإذعان لها والاكتفاء بها عن غيرها.

●● ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيراً﴾ وللكافرين بالعقاب ﴿وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ولا نسألك عنهم ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلّغت وبلغت جهدك فى دعوتهم، وهو حال كنذير وبشيراً وبالحق أى وغير مسئول أو مستأنف. قراءة نافع ولا تسئل على النهى ومعناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب، كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع فى بلية فيقال لك لا تسأل عنه، وقيل: نهى الله نبيه عن السؤال عن أحوال الكفرة حين قال: ليت شعرى ما فعل أبواى(٢).

(١) هو عبدالله بن عامر بن يزيد اليحصبى، المقرئ، الدمشقي، أحد القراء السبعة، وهو عند أهل الحديث: «ثقة، قليل الحديث». وقال الذهبى: «مقرئ أهل الشام، صدوق، ما علمت به بأساً» وفى التقريب: «ثقة، من الثالثة». ولد عام ٨ هـ أو ٢١ هـ، ومات عام ١١٨هـ.
تهذيب التهذيب (١٧٩/٣).

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظى.

●● ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ كأنهم قالوا لن نرضى عنك وإن أبلغت في طلب رضانا حيث تتبع ملتنا إقناطًا منهم لرسول الله عن دخولهم في الإسلام فذكر الله عز وجل كلامهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذي رضى لعباده ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أي الإسلام، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى والذي تدعون إلى اتباعه ما هو هدى إنما هو هوى. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من العلم بأن دين الله هو الإسلام، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر .

●● ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ صلته، وهم مؤمنو أهل الكتاب وهو التوارة والإنجيل، أو أصحاب النبي ـ عليه السلام ـ والكتاب القرآن ﴿يَتْلُونَهُ﴾ حال مقدرة من هم؛ لأنهم لم يكونوا تالين له وقت إيتائه ونصب على المصدر ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي يقرءونه حق قراءته في الترتيل وأداء الحروف والتدبر والتفكر، أو يعملون به ويؤمنون بما في مضمونه ولا يغيرون ما فيه من نعت النبي ﷺ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ والجملة خبر الذين ويجوز أن يكون يتلونه خبرًا. والجملة خبر آخر ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

●● ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أنعمتها عليكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وتفضيلي إياكم على عالمي زمانكم.

●● ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ هم رفع بالابتداء والخبر ينصرون. والجمل الأربع وصف ليومًا أي واتقوا يومًا لا تجزى فيه، ولا يقبل فيه، ولا تنفعها فيه، ولا هم ينصرون فيه . وتكرير هاتين الآيتين لتكرار المعاصي منهم وختم قصة بني إسرائيل بما بدأ به.

●● ﴿وَإِذِ﴾ أي واذكر إذا ﴿ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ اختبره بأوامر ونواه. والاختبار منا لظهور مالم تعلم ومن الله لإظهار ما قد علم، وعاقبة الابتلاء ظهور الأمر الخفي في الشاهد والغائب جميعاً فإنما تجوز إضافته إلى الله تعالى. وقيل: اختبار الله عبده مجاز عن تمكينه من اختيار أحد الأمرين ما يريد الله تعالى وما يشتهيه العبد كأنه يمتحنه ما يكون منه حتى يجازيه على حسب ذلك، وقرأ أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ: إبراهيم ربه، برفع إبراهيم وهي قراءة ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أي دعاه بكلمات من الدعاء فعل المختبر هل يجيبه إليهن أم لا ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي قام بهن حق القيام وأداهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان ونحوه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾[1] ومعناه في

---

(١) سورة «النجم»، الآية ٣٧٠).

قراءة أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فأعطاه ما طلبه لم ينقص منه شيئا والكلمات على هذا ما سأل إبراهيم ربه في قوله: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾(١). ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾(٢). ﴿ وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾(٣). ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾(٤). والكلمات على القراءة المشهورة خمس في الرأس: الفرق وقص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق، وخمس في الجسد: الختان وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والاستنجاء، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هي ثلاثون سهما من الشرائع عشر في براءة التائبون الآية، وعشر في الأحزاب، إن المسلمين والمسلمات الآية وعشر في المؤمنين والمعارك إلى قوله: يحافظون وقيل: وهي مناسك الحج. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ هو اسم من يؤتم به أي يأتمون بك في دينهم ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي إماما يقتدى به. ذرية الرجل أولاده ذكورهم وإناثهم فيه سواء. فعيلة من الذرء أي الخلق فأبدلت الهمزة ياء ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ بسكون الياء حمزة وحفص أي لا تصيب الإمامة أهل الظلم من ولدك أي أهل الكفر. أخبر أن إمامة المسلمين لاتثبت لأهل الكفر وأن من أولاده المسلمين والكافرين قال الله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(٥). والمحسن: المؤمن، والظالم: الكافر. قالت المعتزلة: هذا دليل على أن الفاسق ليس بأهل للإمامة قالوا: وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة والإمام إنما هو لكف الظلمة فإذا نصب من كان ظالما في نفسه فقد جاء المثل السائر من استرعى الذئب ظلم؟. ولكنا نقول المراد بالظالم الكافر هنا إذ هو الظالم المطلق. وقيل: إنه سأل أن يكون ولده نبيا كما كان هو فأخبر أن الظالم لا يكون نبيا.

●● ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي الكعبة وهو اسم غالب لها كالنجم للثريا ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ مباءة ومرجعا للحجاج والعمار يفرقون عنه يثوبون إليه ﴿ وَأَمْنًا ﴾ وموضع أمن فإن الجاني يأوي إليه فلا يتعرض له حتى يخرج وهو دليل لنا في الملتجىء إلى الحرم. ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلنا أتخذوا منه موضع صلاة تصلون فيه. وعنه ـ عليه السلام ـ أنه أخذ بيد عمر فقال: «هذا مقام إبراهيم» فقال عمر أفلا نتخذه مصلى فقال ـ عليه السلام ـ : «لم أومر بذلك». فلم تغب الشمس حتى نزلت(٦). وقيل مصلى مدعى. ومقام إبراهيم الحجر الذي فيه أثر قدميه. وقيل: الحرم كله مقام إبراهيم واتخذوا شامي ونافع بلفظ الماضي عطفا على جعلنا أي وأتخذ الناس من مكان إبراهيم

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٢٦).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٢٨).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (١٢٩).

(٤) سورة «البقرة»، الآية (١٢٧).

(٥) سورة «الصافات»، الآية (١١٣).

(٦) أخرجه أبو نعيم من رواية مجاهد عن ابن عمر، وقال أبو نعيم: غريب، تفرد به جعفر بن محمد المدائني عن أبيه عن هارون الأعور عن أبان بن تغلب عن الحكم عن مجاهد.

الذى وسم به لاهتمامه به وإسكان ذريته عنده قبلة يصلون إليها ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ بفتح الياء مدنى وحفص أى بأن طهرا أو أى طهرا والمعنى طهراه من الأوثان والخبائث والأنجاس كلها ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ للدائرين حوله ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده أى أقاموا لايبرحون أو المعتكفين. وقيل للطائفين للنزّاع إليه من البلاد والعاكفين والمقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ والمصلحين جمعا راكع وساجد.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا﴾ أى أجعل هذا البلد أو هذا المكان ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن كعيشة راضية، أو آمنا من فيه كقولك ليل نائم، فهذا مفعول أول. وبلدا مفعول ثانى، وآمنا صفة له ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ لأنه لم يكن لهم ثمرة ثم أبدل ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من أهله بدل البعض من الكل، أى وارزق المؤمنين من أهله خاصة. قاس الرزق على الإمامة فخص المؤمنين به، قال الله تعالى جوابا له: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أى وارزق من كفر ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ تمتيعا قليلا، أو زمانا قليلا إلى حين أجله فأمتعه شامى ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ ألجئه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع الذى يصير إليه النار فالمخصوص بالذم محذوف.

●● ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ حكاية حال ماضية ﴿إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ هى جمع قاعدة وهى الأساس والأصل لما فوقه وهى صفة غالبة ومعناها الثابتة. ورفع الأساس البناء عليها لأنها إذا بنى عليها نقلت عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع وتطاولت بعد التقاصر ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ بيت الله وهو الكعبة ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ هو عطف على إبراهيم، وكان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ﴿رَبَّنَا﴾ أى يقولان ربنا. وهذا الفعل فى محل النصب على الحال، وقد أظهره عبدالله فى قراءته ومعناه يرفعانها قائلين ربنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ تقربنا إليك ببناء هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائرنا ونياتنا، وفى إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام تفخيم لشأن المبين.

●● ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مخلصين لك أوجهنا من قوله: أسلم وجهه لله، أو مستسلمين يقال: أسلم له واستسلم إذا خضع واذعن، والمعنى زدنا إخلاصا وإذعانا لك ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ واجعل من ذريتنا ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ ومن للتبعيض، أو للتبيين وقيل: أراد بالأمة أمة محمد عليه السلام - وإنما خصا بالدعاء ذريتهما لأنهم أولى بالشفقة كقوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(١)، ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرف ولذا لم يتجاوز مفعولين أى وبصرنا متعبداتنا فى الحج أو عرفناها. وواحد المناسك منسك بفتح السين وكسرها، وهو المتعبد ولهذا قيل

(١) سورة «التحريم»، الآية (٦).

للعابد ناسك، وأرنا مكى قاسه على فخذ فى فخذ، وأبو عمرو يشم الكسرة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ ما فرط منا من التقصير أو استتابا لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

●● ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ فى الأمة المسلمة ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم فبعث الله فيهم محمدا ـ عليه السلام ـ، قال ـ عليه السلام ـ: «أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمى»[1] ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحى إليه من دلائل وحدانيتك وصدق أنبيائك ورسلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة وفهم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهركم من الشرك وسائر الأرجاس ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذى لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أوليت.

●● ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ استفهام بمعنى الجحد وإنكار أن يكون فى العقلاء من يرغب عن الحق الواضح الذى هو ملة إبراهيم. والملة: السنة والطريقة، كذا عن الزجاج ﴿إِلاَّ مَن﴾ فى محل الرفع على البدل من الضمير فى يرغب وصح البدل؛ لأن من يرغب غير موجب كقولك: هل جاءك أحد إلا زيد؟ والمعنى وما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من ﴿سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى جهل نفسه أى لم يفكر فى نفسه. فوضع سفه موضع جهل وعدى كما عدى أو معناه سفه فى نفسه فحذف فى كما حذف من فى قوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾[2] أى من قومه، وعلى فى قوله: ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾[3]. أى على عقدة النكاح والوجهان عن الزجاج وقال الفراء هو منصوب على التمييز وهو ضعيف لكونه معرفة ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بيان لخطأ رأى من يرغب عن ملته؛ لأن من جمع كرامة الدارين لم يكن أحد أولى بالرغبة فى طريقته منه.

●● ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف لاصطفناه، أو انتصب بإضمار اذكر كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح الذى لايرغب عن ملة مثله ﴿لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أذعن أو أطع أو أخلص دينك الله ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أخلصت أو انقدت.

●● ﴿وَوَصَّىٰ﴾ وأوصى مدنى وشامى ﴿بِهَا﴾ بالملة أو بالكلمة، وهى أسلمت لرب العالمين ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ هو معطوف على إبراهيم داخل فى حكمه، والمعنى ووصى بها يعقوب بنيه أيضا ﴿يَا بَنِيَّ﴾ على إضمار القول ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ أى: أعطاكم الدين الذى هو صفوة الأديان وهو دين الإسلام ووفقكم للأخذ به ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فلا يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام فالنهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا كقولك: لا تصلّ إلا وأنت خاشع فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع فى صلاته.

---

(١) رواه أحمد والبزار وابن حبان.
(٢) سورة «الأعراف»، الآية (١٥٥).
(٣) سورة «البقرة»، الآية (٢٣٥).

●● ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة فيها الإنكار. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أى ما كنتم حاضرين يعقوب - عليه السلام - إذا حضره الموت أى حين احتضر، والخطاب للمؤمنين بمعنى ما شهدتم ذ لك، وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى أو متصلة ويقدر قبلها محذوف والخطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون ما مات نبى إلا على اليهودية كأنه قيل: أتدعون على الأنبياء اليهودية. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من إذ الأولى والعامل فيهما شهداء أو ظرف لحضر ﴿لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ما استفهام فى محل النصب، بتعبدون أى أىّ شيىء تعبدون، وما عام فى كل شيء، أو هو سؤال عن صفة المعبود، كما تقول ما زيد تريد أفقيه أم طبيب ﴿مِنْ بَعْدِى﴾ من بعد موتى ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ أعيد ذكر الإله لئلا يعطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لآبائك وجعل إسماعيل من جملة آبائه وهو عمه لأن العم أب قال - عليه السلام - فى العباس: «هذا بقية آبائى»[1]. ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إله آبائك كقوله: ﴿بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾[2]، أو نصب على الاختصاص أى نريد بإله آبائك إلها واحدا ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد أو جملة معطوفة على نعبد أو جملة اعتراضية مؤكدة.

●● ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التى هى إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أى: أن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدما كان أو متأخرا فكما أن أولئك لاينفعهم إلا ما اكتسبوا فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم وذلك لافتخارهم بآبائهم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولا تؤاخذون بسيآتهم.

●● ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أى قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى. وجزم ﴿تَهْتَدُوا﴾ لأنه جواب الأمر ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بل نتبع ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المضاف إليه نحو رأيت وجه هند قائمة. والحنيف المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم؛ لأن كلا منهم يدعى اتباع ملة إبراهيم وهو على الشرك.

●● ﴿قُولُوا﴾ هذا خطاب للمؤمنين، أو الكافرين أى قولوا لتكونوا على الحق وإلا فأنتم على الباطل ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أى القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ السبط الحافظ وكان الحسن والحسين سبطى رسول الله ﷺ والأسباط حفدة يعقوب

(١) رواه ابن أبى شيبة عن مجاهد، والطبرانى عن الحسن بن على، عن النبى ﷺ فى الأوسط.
(٢) سورة «العلق»، الآيتان (١٥، ١٦).

ذرارى أبنائه الأثنى عشر، ويعدى أنزل بإلى وعلى فلذا ورد هنا بإلى وفى آل عمران بعلى ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أى لانؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى؛ وأحد فى معنى الجماعة ولذا صح دخول بين عليه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ لله مخلصون.

●● ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ ظاهر الآية مشكل لأنه يوجب أن يكون لله تعالى مثل وتعالى عن ذلك. فقيل: الباء زائدة ومثل صفة مصدر محذوف تقديره فإن آمنوا إيمانا مثل إيمانكم، والهاء يعود إلى الله عزوجل وزيادة الباء غير عزيز، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾[1] والتقدير جزاء سيئة مثلها كقوله فى الآية الآخرى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[2]. وقيل: المثل زيادة أى فإن آمنوا بما آمنتم به يؤيده قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ بما آمنتم به وما بمعنى الذى بدليل قراءة أبى بالذى آمنتم به، وقيل الباء للاستعانة كقولك: كتبت بالقلم أى فإن دخلوا فى الإيمان بشهادة مثل شهادتكم التى آمنتم بها ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عما تقولون لهم ولم ينصفوا، أو إن تولوا عن الشهادة والدخول فى الإيمان بها ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أى فما هم إلا فى خلاف وعداوة وليسوا من طلب الحق فى شىء ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ ضمان من الله لإظهار رسوله عليهم وقد أنجز وعده بقتل بعضهم وإجلاء بعضهم، ومعنى السين أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما ينطقون به ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون من الحسد والغل وهو معاقبهم عليه فهو وعيد لهم، أو وعد لرسول الله ﷺ أى يسمع ما تدعو به ويعلم نيتك وما تريده من إظهار دين الحق وهو مستجيب لك وموصلك إلى مرادك.

●● ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ دين الله وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله: آمنا بالله. وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ والمعنى تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المغمودية ويقولون: هو تطهير لهلم فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم. وجىء بلفظ الصبغة للمشاكله كقولك لمن يغرس الأشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلا يصطنع الكرم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تمييز أى لاصبغة أحسن من صبغته يريد الدين أو التطهير ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ عطف على آمنا بالله وهذا العطف يدل على أن قوله: صبغة الله. داخل فى مفعول قولوا

(١) سورة «يونس»، الآية (٢٧).

(٢) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

آمنا أى قولوا هذا وهذا ونحن له عابدون، ويردّ قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم أو نصب على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما فيه من فك النظم وإخراج الكلام عن التئامه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه، والقول ما قالت حذام.

●● ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أى أتجادولننا فى شأن الله واصطفائه النبى من العرب دونكم وتقولون لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا وترونكم أحق بالنبوة منا ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ نشترك جميعا فى أننا عباده، وهو ربنا وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعنى أن العمل هو أساس الأمر وكما أن لكم أعمالا فلنا كذلك ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أى نحن له موحدون نخصه بالإيمان وأنتم به مشركون، والمخلص أحرى بالكرامة وأولى بالنبوة من غيره.

●● ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتاء شامى وكوفى غير أبى بكر. وأمْ على هذا معادلة للهمزة فى أتحاجوننا يعنى أى الأمرين تأتون: المحاجة فى حكم الله أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء، أو منقطعة أى بل أتقولون. يقولون غيرهم بالياء وعلى هذا لاتكون الهمزة إلا منقطعة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ ثم أمر نبيه عليه السلام أن يقول مستفهما رادا عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعنى أن الله شهد لهم بملة الإسلام فى قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾(١). ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى كتم شهادة الله التى عنده أنه شهد بها وهى شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية. والمعنى أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها، أو أنا لو كتمنا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منا فلا نكتمها. وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ـ عليه السلام ـ بالنبوة فى كتبهم وسائر شهادته. ومن فى قوله من الله مثلها فى قولك هذه شهادة منى لفلان إذا شهدت له فى أنها صفة لها ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسل وكتمان الشهادة.

●● ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كررت للتأكيد أو لأن المراد بالأول الأنبياء عليهم السلام وبالثانى أسلاف اليهود والنصارى.

●● ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الخفاف الأحلام فأصل السفه الخفة، وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة وأنهم لا يرون النسخ أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء، أو المشركون لقولهم: رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها والله ليرجعن إلى دينهم. وفائدة الأخبار

(١) سورة «آل عمران»، الآية (٦٧).

بقولهم قبل وقوعه توطين النفس إذ المفاجأة بالمكروه أشد، وإعداد الجواب قبل الحاجة إليه أقطع للخصم فقبل الرمى يراش السهم[1] ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ ما صرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يعنون بيت المقدس. والقبلة الجهة التى يستقبلها الإنسان فى الصلاة؛ لأن المصلى يقابلها ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى: بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها له ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من أهلها ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق مستو. أى يرشد من يشاء إلى قبلة الحق وهى الكعبة التى أمرنا بالتوجه إليها، أو الأماكن كلها لله فيأمر بالتوجه إلى حيث شاء فتارة إلى الكعبة وطوراً إلى بيت المقدس لا اعتراض عليه لأنه المالك وحده.

●●﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم فالكاف للتشبيه، وذا جر بالكاف واللام للفرق بين الإشارة إلى القريب والإشارة إلى البعيد، والكاف للخطاب لا محل لها من الإعراب ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خياراً. وقيل للخيار: وسط لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية أى كما جعلت قبلتكم خير القبل جعلتكم خير الأمم أو عدولا لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض. أى كما جعلنا قبلتكم متوسطة بين المشرق والمغرب جعلناكم أمة وسطا بين الغلو والتقصير فإنكم لم تغلوا غلو النصارى حيث وصفوا المسيح بالألوهية، ولم تقصروا تقصير اليهود حيث وصفوا مريم بالزنا وعيسى بأنه ولد الزنا ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ غير منصرف لمكان ألف التأنيث ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ صلة شهداء ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ عطف على لتكونوا. روى أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا ـ وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد ـ عليه السلام ـ فيشهدون فتقول الأمم: من أين عرفتم؟! فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى فى كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ـ عليه السلام ـ فيسئل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم. والشهادة قد تكون بلا مشاهدة كالشهادة بالتسامع فى الأشياء المعروفة، ولما كان الشهيد كالرقيب جيء بكلمة الاستعلاء كقوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[2]. وقيل لتكونوا شهداء على الناس فى الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار، ويكون الرسول عليكم شهيدا يزكيكم ويعلم بعدالتكم. واستدل الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ بالآية على أن الإجماع حجة؛ لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة والعدل هو المستحق للشهادة وقبولها فإذا اجتمعوا على شيء وشهدوا به لزم قبوله. وأخرت صلة الشهادة أو لا قدمت آخراً؛ لأن المراد فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ أى: وما جعلنا القبلة

---

(١) يراش السهم: يلصق به الريش، ومنه فى اللغة: راش الطائر، أي: نبت ريشه. المعجم الوسيط (١/٣٩٨).

(٢) سورة «المائدة»، الآية (١١٧).

الجهة التى كنت عليها وهى الكعبة فالتى كنت عليها ليست بصفة للقبلة بل هى ثانى مفعولى جعل، روى أن رسول الله ﷺ كان يصلى بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تأليفا لليهود، ثم حول إلى الكعبة ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أى وما جعلنا القبلة التى تحب أن تستقبلها الجهة التى كنت عليها أولا بمكة إلا امتحانا للناس وإبتلاء لنعلم الثابت على الإسلام الصادق فيه ممن هو على حرف ينكص على عقبيه لقلقه يرجع فيرتد عن الإسلام عند تحويل القبلة، قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ : معنى قوله لنعلم كائنا أو موجودا ما قد علمناه أنه يكون ويوجد، فالله تعالى عالم فى الأزل بكل ما أراد وجوده أنه يوجد فى الوقت الذى شاء وجوده فيه ولا يوصف بأنه عالم فى الأزل بأنه موجود كائن؛ لأنه ليس بموجود فى الأزل فكيف يعلمه موجودا فإذا صار موجودا يدخل تحت علمه الأزلى فيصير معلوما له موجودا كائنا، والتغير على المعلوم لا على العلم أو لنميز التابع من الناكص كما قال تعالي: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[1]. فوضع العلم موضع التمييز لأن العلم به يقع التمييز، أو ليعلم رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته لأنهم خواصه، أو هو على ملاطفة الخطاب لمن لا يعلم كقولك لمن ينكر ذوب الذهب: فلنلقه فى النار لنعلم أيذوب ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أى: التحويلة أو الجعلة أو القبلة، وإن هى المخففة واللام فى ﴿لَكَبِيرَةً﴾ أى ثقيلةشاقة وهى خبر كان واللام فارقة ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى هداهم الله فحذف العائد أى إلا على الثابتين الصادقين فى اتباع الرسول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس سمى الصلاة إيمانا لأن وجوبها على أهل الإيمان وقبولها من أهل الإيمان وأداؤها فى الجماعة دليل الإيمان. ولما توجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات قبل التحويل من إخواننا فنزلت[2] ثم علل ذلك فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ مهموز مشبع حجازي وشامى وحفص رؤف غيرهم بوزن فعل، وهما للمبالغة ﴿رَّحِيمٌ﴾ لايضيع أجورهم، والرأفة أشد من الرحمة وجمع بينهما كما فى الرحمن الرحيم.

●●﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردد وجهك وتصرف نظرك فى جهة السماء. وكان رسول ﷺ يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة موافقة لإبراهيم ومخالفة لليهود، ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ فلنعطينك ولنمكننك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا جعلته واليا له، أو فلنجعلك تلى سمتها دون سمت[3] بيت المقدس ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التى أضمرتها وواقفت مشيئة الله وحكمته. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى نحوه. وشطر نصب على الظرف أى اجعل

(١) سورة «الأنفال»، الآية (٣٧).
(٢) رواه أبو داود والترمذي، وصححه الحاكم من رواية سماك عن عكرمة عن ابن عباس.
(٣) السمت: هو الطريق. (المعجم الوسيط).

تولية الوجه تلقاء المسجد أى فى جهته وسمته؛ لأن استقبال عين القبلة متعسر على النائي. وذكر المسجد الحرام دون الكعبة دليل على أن الواجب مراعاة الجهة دون العين. روى أنه ـ عليه السلام ـ قدم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه إلى الكعبة[(١)]. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ من الأرض وأردتم الصلاة ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أى التحويل إلى الكعبة هو الحق؛ لأنه كان فى بشارة أنبيائهم برسول الله ﷺ أنه يصلى إلى القبلتين. ﴿مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء مكى وأبو عمرو ونافع وعاصم، وبالتاء غيرهم، فالأول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء؛ والثانى وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والأداء.

●●﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أراد ذوى العناد منهم ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ برهان قاطع أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة تزيلها بإيراد الحجة إنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما فى كتبهم من نعتك أنك على الحق وجواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ حسم لأطماعهم إذا كانوا اضطربوا فى ذلك، وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره، وطمعوا فى رجوعه إلى قبلتهم ووحدت القبلة وإن كان لهم قبلتان فلليهود قبلة وللنصارى قبلة لاتحادهم فى البطلان ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يعنى أنهم مع اتفاقهم على مخالفتك مختلفون فى شأن القبلة لا يرجى اتفاقهم كما لا ترجى موافقتهم لك فاليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى مطلع الشمس ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى من بعد وضوح البرهان والإحاطة بأن القبلة هى الكعبة وأن دين الله هو الإسلام ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لمن المرتكبين الظلم الفاحش. وفى ذلك لطف للسامعين وتهييج للثبات على الحق وتحذير لمن يترك الدليل بعد إنارته ويتبع الهوي. وقيل: الخطاب فى الظاهر للنبى ـ عليه السلام ـ والمراد أمته ولزم الوقف على الظالمين إذ لو وصل لصار.

●●﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ صفة للظالمين. وهو مبتدأ والخبر ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أى محمدا ـ عليه السلام ـ أو القرآن أو تحويل القبلة. والأول أظهر لقوله: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ قال عبدالله بن سلام: أنا أعلم به منى بابني؟ فقال له عمر[(٢)]: ولم؟ قال: لأنى لست أشك فى محمد أنه نبي،

---

(١) متفق عليه من طريق أبى إسحاق.

(٢) هو: الفاروق، عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوي، أبو حفص، أمير المؤمنين، وثانى الخلفاء الراشدين، ورث عن أبيه الشدة والغلظة، والشجاعة والجرأة، فكان شابا فتياً، ثم دخل الإسلام بعد ٤٠ رجلاً، و١١ امرأة فكان إسلامه عزاً للإسلام، ولذلك لقبه الرسول ﷺ بـ«الفاروق»؛ لأنه فرق بين الحق والباطل، قتله أبو لؤلؤة المجوسى ـ عليه لعنة الله ـ عام ٢٣ هـ وعمره ٦٣، وقيل: ٥٩ عاماً. تهذيب التهذيب (٤/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧).

فأما ولدى فلعل والدته خانت؛ فقبل عمر رأسه. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أى الذين لم يسلموا ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ حسدا وعنادا ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى بينه فى كتابهم.

●●﴿الْحَقُّ﴾ مبتدأ خبره ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ واللام للجنس أى الحق من الله لا من غيره. يعنى أن الحق ما ثبت أنه من الله كالذى أنت عليه. ومالم يثبت أنه من الله كالذى عليه أهل الكتاب فهو الباطل. أو للعهد والإشارة إلى الحق الذى عليه رسول الله (ﷺ). أو خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق، ومن ربك خبر بعد خبر أو حال. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فى أنه من ربك.

●●﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل الأديان المختلفة. ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة. وقرئ بها. والضمير فى ﴿هُوَ﴾ لكل. وفى ﴿مُوَلِّيهَا﴾ للوجهة. أى هو موليها وجهة فحذف أحد المفعولين أو هو لله تعالى. أى الله موليها إياه. هو مولاها شامى أى هو مولى تلك الجهة قد وليها. والمعنى ولكل أمة قبلة يتوجه إليها منكم ومن غيركم ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أنتم ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ فاستبقوا إليها غيركم من أمر القبلة وغيره. ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيفصل بين المحق والمبطل، أو ولكل منكم يا أمة محمد وجهة يصلى إليها جنوبية أو شمالية أو شرقية أو غربية فاستقبلوا الفاضلات من الجهات، وهى الجهات المسامتة للكعبة وإن اختلفت أينما تكونوا من الجهات المختلفة يأت بكم الله جميعاً ويجمعكم ويجعل صلاتكم كأنها إلى جهة واحدة وكأنكم تصلون حاضرى المسجد الحرام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

●●﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أى بلد خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت. ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا المأمور به ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء أبو عمرو.

●●﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده؛ لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة فكرر عليهم ليثبتوا على أنه نيط بكل واحد مالم ينط بالآخر فاختلفت فوائدها ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى قد عرفكم الله جل ذكره أمر الاحتجاج فى القبلة بما قد بين فى قوله: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾. لئلا يكون للناس لليهود عليكم حجة فى خلاف ما فى التوراة من تحويل القبلة. وأطلق اسم الحجة على قول المعاندين لأنهم يسوقونه سياق الحجة. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أى: لئلا يكون حجة لأحد من اليهود إلا المعاندين منهم القائلين: ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء عليهم السلام، أو معناه لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض فى تركم التوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم

وإسماعيل أبى العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة حين يقولون بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم، ثم استأنف منها بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا مطاعنهم فى قبلتكم فإنهم لايضرونكم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمرى ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أى عرفتكم لئلا يكون عليكم حجة ولأتم نعمتى عليكم بهدايتى إياكم إلى الكعبة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولكى تهتدوا إلى قبلة إبراهيم.

●● الكاف فى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ إما أن يتعلق بما قبله أى ولأتم نعمتى عليكم فى الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم فى الدنيا بإرسال الرسول، أو بما بعده أى كما ذكرتكم بإرسال الرسول فاذكرونى بالطاعة أذكركم بالثواب. فعلى هذا يوقف على تهتدون وعلى الأول لا. ﴿رَسُولاً مِّنكُمْ﴾ من العرب ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ يقرأ عليكم ﴿آيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة والفقه ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ مالا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي.

●●﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالمعذرة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمغفرة، أو بالثناء والعطاء، أو بالسؤال والنوال، أو بالتوبة وعفوا الحوبة، أو بالإخلاص والخلاص، أو بالمناجاة والنجاة. ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ ولا تجحدوا نعمائي.

●●﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ فبه تنال كل فضيلة ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ فإنها تنهى عن كل رذيلة ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

●●﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا. ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أى هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أى هم أحياء ﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لاتعلمون ذلك لأن حياة الشهيد لا تعلم حسا. عن الحسن - رضى الله عنه - أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إلى الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوا وعشياً فيصل إليهم الوجع. وعن مجاهد يرزقون ثمر الجنة ويجدون ريحها وليسوا فيها.

●●﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كل واحدة من هذه البلايا وطرف منه. وقلل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليهم. ويريهم أن رحمته معهم فى كل حال. وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها، ليوطنوا نفوسهم عليها. ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ خوف الله والعدو ﴿وَالْجُوعِ﴾ أى القحط أو صوم شهر رمضان ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بموت المواشي، أو الزكاة. وهو عطف على شيء. أو على الخوف أى وشيء من نقص الأموال. ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ بالقتل والموت.

أو بالمرض والشيب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ ثمرات الحرث، أو موت الأولاد لأن الولد ثمرة الفؤاد ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ على هذه البلايا أو المسترجعين عند البلايا؛ لأن الاسترجاع تسليم وإذعان وفى الحديث: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقباه وجعل له خلفا صالحا يرضاه»[1]. وطفيء سراج رسول الله (ﷺ) فقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقيل: أمصيبة هي؟ قال: «نعم كل شيء يؤذى المؤمن فهو مصيبة»[2]. والخطاب لرسول الله (ﷺ) أو لكل من يتأتى منه البشارة.

●●﴿الَّذِينَ﴾ نصب صفة للصابرين. ولا وقف عليه بل يوقف على راجعون ومن ابتدأ بالذين وجعل الخبر أولئك يقف على الصابرين لا على راجعون. والأول الوجه؛ لأن الذين وما بعده بيان للصابرين. ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ مكروه. اسم فاعل من أصابته شدة أى لحقته. ولا وقف على مصيبة لأن ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا. وإذا وجوابها صلة الذين. ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرار له بالملك. ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار على نفوسنا بالهلك.

●●﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة: الحنو والتعطف فوضعت موضع الرأفة. وجمع بينها وبين الرحمة كقوله: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[3]. ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4]. والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ لطريق الصواب حيث استرجعوا وأذعنوا لأمر الله. قال عمر - رضى الله عنه - نعم العدلان ونعم العلاوة أى الصلاة والرحمة والاهتداء.

●●﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما علمان للجبلين. ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه ومتعبداته جمع شعيرة وهى العلامة ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ قصد الكعبة ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ زار الكعبة، فالحج: القصد. والاعتمار: الزيارة، ثم غلبا على قصد البيت وزيارته للنسكين المعروفين وهما فى المعانى كالنجم والبيت فى الأعيان ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ فلا إثم عليه ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أى يتطوف فأدغم التاء فى الطاء. وأصل الطوف المشى حول الشيء والمراد هنا السعى بينهما قيل كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة وهما صنمان يروى أنهما كانا رجلا وامرأة زنيا فى الكعبة فمسخا حجرين فوضعا عليهما ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبدا من دون الله، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما، لأجل فعل الجاهلية فرفع عنهم الجناح

(١) أخرجه ابن جرير، والطبراني، والبيهقى فى الشعب.

(٢) أخرجه أبو داود فى المراسيل، من حديث عمران القصير.

(٣) سورة «الحديد»، الاية (٢٧).

(٤) سورة «التوبة»، الآية (١١٧)، والآية (١٢٨)، وسورة «الحشر»، الآية (١٠).

بقوله: فلا جناح. وهو دليل على أنه ليس بركن كما قال مالك[1] والشافعي ـ رحمهما الله تعالى ـ وكذا قوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: بالطواف بهما مشعر بأنه ليس بركن، ومن يطوع حمزة وعلى أي يتطوع فأدغم التاء فى الطاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ مجاز على القليل كثيرا ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأشياء صغيرا أو كبيرا.

●●﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ فى التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ من الآيات الشاهدة على أمر محمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَالْهُدَى﴾ الهداية إلى الإسلام بوصفه ـ عليه السلام ـ ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أوضحناه ﴿لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ فى التوراة لم ندع فيه موضع إشكا ل فعمدوا إلى ذلك المبين فكتموه ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ الذين يتأتى منهم اللعن، وهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين.

●●﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان وترك الإيمان ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أحوالهم وتداركوا ما فرط منهم ﴿وَبَيَّنُوا﴾ وأظهروا ما كتموا ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ اقبل توبهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

●●﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعنى الذين ماتوا من هؤلاء الكاتمين ولم يتوبوا ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ذكر لعنتهم أحياء، ثم لعنتهم أمواتا. والمراد بالناس المؤمنون، أو المؤمنون والكافرون إذ بعضهم يلعن بعضا يوم القيامة، قال الله تعالي: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[2].

●●﴿خَالِدِينَ﴾ حال من هم في عليهم ﴿فِيهَا﴾ فى اللعنة، وفى النار إلا أنها أضمرت تفخيما لشأنها وتهويلا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار أى لايمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

●●﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فرد فى ألوهيته لاشريك له فيها، ولا يصح أن يسمى غيره إلها ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية ينفى غيره وإثباته. وموضع هو رفع؛ لأن بدل من موضع لا إله ولا يجوز النصب هنا لأن البدل يدل على أن الاعتماد على الثاني، والمعنى فى الآية على ذلك، والنصب يدل على أن الاعتماد على الأول، ورفع ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أى المولى لجميع النعم أصولها

---

(١) هو: الإمام؛ مالك بن أنس بن مالك، الأصبحي، الحميري، أبو عبدالله، المدنى الفقيه، أحد أعلام الإسلام، إمام دار الهجرة، وهو صاحب المذهب، وهو ليس ابن أنس الصحابي؛ وهو لم يدرك أحداً من الصحابة، روى عن كبار التابعين ومن بعدهم، يكفى أن قيل فيه: «لايُفتى ومالك فى المدينة». وهو شيخ الإمام الشافعي، ولد عام ٩٣هـ ـ على الأرجح ـ ، وتوفى عام ١٧٩هـ.
تهذيب التهذيب (٥/ ٣٥٠ ـ ٣٥٣).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٣٨).

وفروعها ولا شيء سواه بهذه الصفة فما سواه إما نعمة، وإما منعم عليه على أنه خبر مبتدأ. أو على البدل من هو لا على الوصف؛ لأن المضمر لايوصف. ولما عجب المشركون من إله واحد وطلبوا آية على ذلك نزل.

●●﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فى اللون والطول والقصر وتعاقبهما فى الذهاب والمجيء ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ بالذى ينفعهم مما يحمل فيها، أو بنفع الناس، ومن فى ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابتداء الغاية وفى ﴿مِن مَّاءٍ﴾ مطر بيان الجنس لأن ما ينزل من السماء مطر وغيره. ثم عطف على أنزل ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بالماء ﴿الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ثم عطف على فأحيا ﴿وَبَثَّ﴾ وفرق ﴿فِيهَا﴾ فى الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ هى كل ما يدب ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ الريح حمزة وعلى أن وتقليبها فى مهابها قبولا ودبورا وجنوبا وشمالا، وفى أحوالها حارة وباردة وعاصفة ولينة وعقما ولواقح. وقيل: تارة بالرحمة وطورا بالعذاب ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلل المنقاد لمشيئة الله تعالى فيمطر حيث شاء ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ فى الهواء ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم ويعتبرون فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدها وحكمة مبدعها ووحدانية منشئها. وفى الحديث: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها»(١) أى لم يتفكر فيها ولم يعتبر بها.

●●﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أى ومع هذا البرهان النير من الناس ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالا من الأصنام ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظمونهم ويخضعون لهم تعظيم المحبوب ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيم الله والخضوع له أى يحبون الأصنام كما يحبون الله يعنى يسوون بينهم وبينه فى محبتهم، لأنهم كانوا يقرون بالله ويتقربون إليه. وقيل: يحبونهم كحب المؤمنين الله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من المشركين لآلهتهم لأنهم لا يعدلون عنه إلي غيره بحال، والمشركون يعدلون عن أندادهم إلى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ويخضعون ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ ترى نافع وشامى على خطاب الرسول، أو كل مخاطب أى ولو ترى ذلك لرأيت أمرا عظيما ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إشارة إلى متخذى الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ يرون شامى ﴿الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ شديد عذابه، أى ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله تعالى على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم مالا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة فحذف الجواب؛ لأن لو إذا جاء فيما يشوق إليه، أو يخوف منه قلما يوصل بجواب ليذهب القلب فيه كل مذهب. ولو يليها الماضي. وكذا إذا وضعها لتدل على الماضي، وإنما دخلتا على المستقبل هنا لأن إخبار الله تعالى عن المستقبل باعتبار صدقه كالماضي.

---

(١) الحديث فى «كنز العمال» برقم (١/ ٢٥٧٦).

●●﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ مدغمة الذال فى التاء حيث وقعت عراقى غير عاصم. وهو بدل من إذ يرون العذاب ﴿الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ أى المتبعون وهم الرؤساء ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من الأتباع ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الواو فيه للحال أن تبرءوا فى حال رؤيتهم العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ عطف على تبرأ ﴿بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ الوصل التى كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحاب.

●●﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أى الاتباع ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾ نصب على جواب التمني؛ لأن لو فى معنى التمنى والمعنى ليت لنا كرة فنتبرأ ﴿مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ الآن﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفظيع ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى عبادتهم الأوثان﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات. وهى مفعول ثالث ليريهم ومعناه أن أعمالهم تنقلب عليهم حسرات فلا يرون إلا حسرات مكان أعمالهم ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ بل هم فيها دائمون.

ونزل فيمن حرموا على أنفسهم البحائر[1] ونحوها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا﴾ أمر إباحة ﴿مِمَّا فِي الأَرْضِ﴾ من للتبعيض؛ لأن كل ما فى الأرض ليس بمأكول ﴿حَلالاً﴾ مفعول كلوا أو حال مما فى الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهرا من كل شبهة ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرقه التى يدعوكم إليها بسكون الطاء أبو عمرو غير عباس ونافع وحمزة وأبو بكر[2]، والخطوة فى الأصل ما بين قدمى الخاطى يقال اتبع خطواته إذا اقتدى به واستن بسنته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لاخفا به. وأبان متعد ولازم. ولا يناقض هذه الآية قوله تعالي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾[3] أى الشيطان، لأنه عدو للناس حقيقة ووليهم ظاهراً فإنه يريهم فى الظاهر الموالاة ويزين لهم أعمالهم ويريد بذلك هلاكهم فى الباطن.

●●﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ بيان لوجوب الانتهاء عن اتباعه وظهور عداوته أى لا يأمركم بخير قط، إنما يأمركم ﴿بِالسُّوءِ﴾ بالقبيح ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ وما يتجاوز الحد فى القبح من العظائم: وقيل: السوء ما لاحد فيه والفحشاء ما فيه حد ﴿وَأَن تَقُولُوا﴾ فى موضع الجر بالعطف على بالسوء أى وبأن تقولوا ﴿عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ هو قولكم هذا حلال وهذا حرام بغير علم ويدخل فيه كل ما يضاف إلى الله تعالى مما لايجوز عليه.

●●﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريق الالتفاف، قيل: هم المشركون. وقيل: طائفة من اليهود لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان واتباع

---

(١) البحائر: جمع بحيرة: وهى الناقة بنت السائبة، لايركب ظهرها، ولايجز وبرها، ولايشرب لبنها. (النهاية ١/ ١٠٠).

(٢) هو: شعبة بن عياش بن سالم، الكوفي، أبو بكر الخياط، وهو أحد علماء المسلمين فى علم القراءات، وهو أحد راويي عاصم لقراءته، والذى ثانيهما حفص، وكلاهما أعلام.

ولد عام ٩٥هـ، وتوفى عام ١٩٣هـ. غاية النهاية (١/ ٣٢٥).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (٢٥٧).

القرآن، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فإنهم كانوا خيراً منا وأعلم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ الواو للحال، والهمزة بمعنى الرد والتعجب معناه أيتبعونهم ولو كان آباؤهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من الذين ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للصواب، ثم ضرب لهم مثلا فقال.

●●﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المضاف محذوف أى ومثل داعى الذين كفروا ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يصيح والمراد ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ البهائم والمعنى ومثل داعيهم إلى الإيمان فى أنهم لايسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوى الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التى لاتسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذى هو تصويت بها وزجر لها، ولا تفقه شيئاً آخر كما يفهم العقلاء. والنعقيق: التصويت، يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن والنداء ما يسمع والدعاء قد يسمع وقد لايسمع ﴿صُمٌّ﴾ خبر مبتدأ مضمر أى هم صم ﴿بُكْمٌ﴾ خبر ثان ﴿عُمْيٌ﴾ عن الحق خبر ثالث ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الموعظة، ثم بين أن ما حرمه المشركون حلال، فقال:

●●﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من مستلذاته أو من حلالاته ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ الذى رزقكموها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح إنكم تختصونه بالعبادة وتقرون أنه معطى النعم، ثم بين المحرم فقال:

●●﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهى كل ما فارقه الروح من غير ذكاة مما يذبح، وإنما لإثبات المذكور ونفى ما عداه، أى ما حرم عليكم إلا الميتة ﴿وَالدَّمَ﴾ يعنى السائل لقوله فى موضع آخر: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ (١). وقد حلت الميتان والدمان بالحديث(٢) «أحلت لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ يعنى الخنزير بجميع أجزائه، وخص اللحم لأنه المقصود بالأكل ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أى ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله، وأصل الإهلال رفع الصوت أى رفع به الصوت للصم، وذلك قول أهل الجاهلية باسم اللات والعزى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أى ألجيء بكسر النون بصرى وحمزة وعاصم لالتقاء الساكنين أعنى النون، والضاد وبضمها غيرهم لضمة الطاء ﴿غَيْرَ﴾ حال أى أكل غير ﴿بَاغٍ﴾ للذة وشهوة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متعد مقدار الحاجة. وقول من قال: غير باغ على الإمام ولا عاد فى سفر حرام ضعيف، لأن سفر الطاعة لايبيح بلا ضرورة والحبس بالحضر يبيح بلا سفر ولأن بغيه لايخرج عن الإيمان فلا يستحق الحرمان.

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (١٤٥).

(٢) رواه أحمد والشافعى وابن ماجة من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

والمضطر يباح له قدر ما يقع به القوام وتبقى معه الحياة دون ما فيه حصول الشبع؛ لأن الإباحة للاضطرار فتقدر بقدر ما تندفع الضرورة ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فى الأكل ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب الكبائر فأنى يؤاخذ بتناول الميتة عند الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث رخص، ونزل فى رؤساء اليهود وتغييرهم نعت النبى ـ عليه السلام ـ وأخذهم على ذلك الرشا.

●●﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فى صفة محمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أى عوضاً، أو ذا ثمن ﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم تقول: أكل فلان فى بطنه، وأكل فى بعض بطنه ﴿إِلاَّ النَّارَ﴾ لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار. ومنه قولهم أكل فلان الدم إذا أكل الدية التى هى بدل منه قال:

* يأكلن كل ليلة إكافا *

أى ثمن إكاف فسماه إكافا، لتلبسه به بكونه ثمناً له. ﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كلاما يسرهم ولكن بنحو قوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾(1). ﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولايطهرهم من دنس ذنوبهم أولا يثنى عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم فحرف النفى مع الفعل خبر أولئك؛ وأولئك مع خبره خبر إن والجمل الثلاث معطوفة على خبر إن فقد صار لإن أربعة أخبار من الجمل.

●●﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ بكتمان نعت محمد ـ عليه السلام ـ ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فأى شيء أصبرهم على عمل يؤدى إلى النار. وهذا استفهام معناه التوبيخ.

●●﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل ما نزل من الكتب بالحق. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ أى أهل الكتاب ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ هو للجنس أى فى كتب الله فقالوا فى بعضها: حق، وفى بعضها: باطل ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق، أو كفرهم ذلك بسبب أن الله نزل القرآن بالحق كما يعلمون، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شقاق بعيد عن الهدي.

●●﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا﴾ أى ليس البر توليتكم ﴿وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ والخطاب لأهل الكتاب؛ لأن قبلة النصارى مشرق بيت المقدس وقبلة اليهود مغربه وكل واحد من الفريقين يزعم أن البر التوجه إلى قبلته فرد عليهم بأن البر ليس فيما أنتم عليه فإنه منسوخ ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ﴾ بر ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أو ذا البر من آمن والقولان على حذف المضاف، والأول أجود، والبر اسم للخير ولكل فعل مرضى وقيل كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب فى أمر القبلة فقيل: ليس البر

---

(1) سورة «المؤمنون»، الآية (108).

العظيم الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة ولكن البر الذى يجب الاهتمام به برمن آمن وقام بهذه الأعمال، ليس البر بالنصب على أن خبر ليس، واسمه أن تولوا حمزة وحفص، ولكن البر نافع وشامي، وعن المبرد[1]: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت ولكن البر وقريء ولكن البار ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى يوم البعث ﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أى جنس كتب الله أو القرآن ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى على حب الله، أو حب المال، أو حب الإيتاء يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى القرابة وقدمهم لأنهم أحق. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «صدقتك علي المسكين صدقة، وعلى ذوى رحمك صدقة وصلة»[2] ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ والمراد الفقراء من ذوى القربى واليتامي، وإنما أطلق لعدم الإلباس ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ المسكين الدائم السكون إلى الناس؛ لأنه لاشيء له كالسكير للدائم السكر ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وهو جنس وإن كان مفردا لفظا، وجعل ابنا للسبيل لملازمته له أو الضيف ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ المستطعمين ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفى معاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم، أو فى الأسارى ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾ المكتوبة ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة قيل: هو تأكيد للأول، وقيل: المراد بالأول نوافل الصدقات والمبار ﴿وَالْمُوفُونَ﴾ عطف على من آمن ﴿بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله والناس ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نصب على المدح والاختصاص إظهارا لفضل الصبر فى الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال. ﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ الفقر والشدة ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض والزمانة ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت القتال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى أهل هذه الصفة هم الذين صدقوا فى الدين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ روى أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماء فى الجاهلية؛ وكان لأحدهما طول على الآخر؛ فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى والاثنين بالواحد؛ فتحا كموا إلى رسول الله (ﷺ) حين جاء الله بالإسلام فنزل.

●●﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ أى فرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ وهو عبارة عن المساواة وأصله من قص أثره واقتصه إذا اتبعه ومنه القاص؛ لأنه يتبع الآثار والأخبار ﴿فِي الْقَتْلَى﴾ جمع قتيل، والمعنى فرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ مبتدأ وخبر أى الحر مأخوذ، أو مقتول بالحر ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾ وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ لايقتل الحر بالعبد لهذا

---

(١) المبرد: اسمه محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الثمالي، الأزدي، أبو العباس، من أئمة اللغة والأدب، عالى القدر فيهما، يكفى أن كتابة «الكامل» يعد رابع أربعة كتب فى الأدب، يعد ما بعدها عيال عليها، وكان إمام اللغة فى عصره ببغداد، ولد عام ٢١٠هـ، وتوفى عام ٢٨٦هـ.
الأعلام (٧/ ١٤٤).

(٢) أخرجه النسائى والترمذى وابن ماجة وابن حبان، والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة، كلهم من حديث سلمان بن عامر.

النص وعندنا يجرى القصاص بين الحر والعبد بقوله تعالي: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[1]. كما بين الذكر والأنثي، وبقوله عليه السلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»[2]. وبأن التفاضل غير معتبر فى الأنفس بدليل أن جماعة لو قتلوا واحدا قتلوا به، وبأن تخصيص الحكم بنوع لاينفيه عن نوع آخر بل يبقى الحكم فيه موقوفا على ورود دليل آخر وقد ورد كما بينا ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قالوا: العفو ضد العقوبة. يقال عفوت عن فلان إذا صفحت عنه وأعرضت عن أن تعاقبه، وهو يتعدى بعن إلى الجانى وإلى الجناية ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾[3] ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[4] وإذا اجتمعا عدى إلى الأول باللام فتقول: عفوت له عن ذنبه ومنه: الحديث: «عفوت لكم عن صدقه الخيل والرقيق»[5]. وقال الزجاج: من عفى له أى من ترك له القتل بالدية وقال الأزهري[6]: العفو فى اللغة الفضل ومنه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[7]. ويقال: عفوت لفلان بمال إذا أفضلت له وأعطيته، وعفوت له عما لى عليه إذا تركته، ومعنى الآية عند الجمهور فمن عفىَ له مَن جهة أخيه شيء من العفو، على أن الفعل مسند إلى المصدر، كما فى سير بزيد بعض السير والأخ ولى المقتول، وذكر بلفظ الأخوة بعثا له على العطف لما بينهما من الجنسية والإسلام، ومن هو القاتل المعفو له عما جنى وترك المفعول الآخر استغناء عنه. وقيل: أقيم له مقام عنه والضمير فى له وأخيه لمن، وفى إليه للأخ أو للمتبع الدال عليه فاتباع لأن المعنى فليتبع الطالب القاتل بالمعروف بأن يطالبه مطالبة جميلة وليؤد إليه المطلوب - أى القاتل - بدل الدم أداء بإحسان بأن لا يمطله ولا يبخسه، وإنما قيل شيء من العفو ليعلم أنه إذا عفا عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو وسقط القصاص، ومن فسر عفى بترك جعل شيء مفعولا به، وكذا من فسره بأعطى يعنى أن الولى إذا أعطى له شيء من مال أخيه يعنى القاتل بطريق الصلح فليأخذه بمعروف، من غير تعنيف وليؤده القاتل إليه بلا تسويف، وارتفاع اتباع بأنه خبر مبتدأ مضمر أى: فالواجب اتباع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو وأخذ الدية ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فإنه كان فى التوراة القتل لاغير وفى الإنجيل العفو بغير بدل لا غير، وأبيح لنا القصاص والعفو وأخذ المال بطريق الصلح توسعة وتيسيرا. والآية تدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن للوصف بالإيمان بعد وجود القتل

(١) سورة «المائدة»، الآية (٤٥).
(٢) رواه أبو داود والنسائى والحاكم، من طريق قيس بن عباد عن علي.
(٣) سورة «البقرة»، الآية (٥٢).
(٤) سورة «الشوري»، الآية (٢٥).
(٥) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى والدارقطنى، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه.
(٦) الأزهري: هو محمد بن أحمد بن الأزهر، الهروي، كنيته: أبو منصور، من علماء العربية المشهورين، برع فى مختلف علوم اللغة والأدب، ولد عام ٢٨٢، وتوفى عام ٣٧٠هـ.
الأعلام (٥/ ٣١١).
(٧) سورة «البقرة»، الآية (٢١٩).

ولبقاء الأخوّة الثابتة بالإيمان ولاستحقاق التخفيف والرحمة ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع من العذاب شديد الألم فى الآخرة.

●●﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كلام فصيح لما فيه من الغرابة إذ القصاص قتل وتفويت للحياة، وقد جعل ظرفا للحياة ، وفى تعريف القصاص وتنكير الحياة بلاغة بينة؛ لأن المعنى ولكم فى هذا الجنس من الحكم الذى هو القصاص حياة عظيمة لمنعه عما كانوا عليه من قتل الجماعة بواحد متى اقتدروا فكان القصاص حياة وأى حياة. أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالقصاص من القاتل؛ لأنه إذا هم بالقتل فتذكر الاقتصاص ارتدع فسلم صاحبه من القتل، وهو من القود فكان شرع القصاص سبب حياة نفسين ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ياذوى العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل حذرا من القصاص.

●●﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أى إذا دنا منه فظهرت أمارته ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالا كثيرا لما روى عن على ـ رضى الله عنه ـ إن مولى له أراد أن يوصى وله سبعمائة فمنعه، وقال: قال الله تعالي: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال الكثير وليس لك مال وفاعل كتب ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وكانت الوصية للوارث فى بدء الإسلام فنسخت بآية المواريث كما بيناه فى شرح المنار، وقيل: هى غير منسوخة؛ لأنها نزلت فى حق من ليس بوارث بسبب الكفر لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقرابته، والإسلام قطع الإرث فشرعت الوصية فيما بينهم قضاء حق القرابة ندبا، وعلى هذا لايراد بكتب فرض ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل وهو أن لا يوصى للغنى ويدع الفقير ولا يتجاوز الثلث ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد أى حق ذلك حقا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ على الذين يتقون الشرك.

●●﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾ فمن غير الإيصاء عن وجهه إن كان موافقاً للشرع من الأوصياء والشهود ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أى الإيصاء ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم التبديل إلا على مبدليه دون غيرهم من الموصى والموصى له؛ لأنهما بريئان من الحيف ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصى ﴿عَلِيمٌ﴾ بجور المبدل.

●●﴿فَمَنْ خَافَ﴾ علم وهذا شائع فى كلامهم يقولون: أخاف أن ترسل السماء ويريدون الظن الغالب الجارى مجرى العلم ﴿مِن مُّوصٍ﴾ موَص كوفى غير حفص ﴿جَنَفًا﴾ ميلا عن الحق بالخطأ فى الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمدا للحيف ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم، وهم الوالدان والأقربون بإجرائهم على طريق الشرع ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ حينئذ؛ لأن تبديله تبديل باطل إلى حق ذكر من يبدل بالباطل ثم من يبدل بالحق ليعلم أن كل تبديل لا يؤثم وقيل: هذا فى حال حياة الموصى أى فمن

حضر وصيته فرآه على خلاف الشرع فنهاه عن ذلك وحمله على الصلاح فلا إثم على هذا الموصى بما قال أولا ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ ﴾ أى فرض ﴿عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ هو مصدر صام، والمراد صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ أى كتابة مثل ما كتب؛ فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى عهدكم فهو عبادة قديمة والتشبيه باعتبار أن كل أحد له صوم أيام أى أنتم متعبدون بالصيام فى أيام كما تعبد من كان قبلكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعاصى بالصيام؛ لأن الصيام أظلف لنفسه وأردع لها من مواقعة السوء، أو لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين إذ الصوم شعارهم وانتصاب.

●●﴿أَيَّامًا﴾ بالصيام أى كتب عليكم أن تصوموا أياماً ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ موقتات بعدد معلوم أى قلائل وأصله أن المال القليل يقدر بالعدد لا الكثير ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ يخاف من الصوم زيادة المرض ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فعليه عدة، أى فافطر فعليه صيام عدد أيام فطره، والعدة بمعنى المعدود أى أمران يصوم أياماً معدودة مكانها ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ سوى أيام مرضه وسفره. وأخر لاينصرف للوصف والعدل عن الألف واللام؛ لأن الأصل فى فعلى صفة أن تستعمل فى الجمع بالألف واللام كالكبرى والكبر والصغرى والصغر ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام الذين لا عذر لهم إن أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره. فطعام بدل من فدية. فدية طعام مساكين مدنى وابن ذكوان[1]، وكان ذلك فى بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم فرخص لهم فى الإفطار والفدية ثم نسخ التخيير بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. ولهذا كرر قوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾. لأنه لما كان مذكوراً مع المنسوخ ذكر مع الناسخ ليدل على بقاء هذا الحكم وقيل: معناه لايطيقونه فأضمر لا لقراءة حفصة[2] كذلك، وعلى هذا لايكون منسوخاً ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد على مقدار الفدية ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ فالتطوع، أو الخير خير له يطوع، بمعنى يتطوع حمزة وعلى ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية وتطوع الخير وهذا فى الابتداء، وقيل: وأن تصوموا فى السفر والمرض خير لكم؛ لأنه أشق عليكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شرط محذوف الجواب.

(١) عبدالله بن ذكوان، القرشي، أبو عبدالله المدني، ويعرف كذلك بـ: «أبى الزناد»، روى عن أنس، وعن جمع من كبار التابعين، قال ابن أبى حاتم، عن أبيه، : «روى عن أنس مرسلاً، وعن ابن عمر، ولم يره». وهو فقيه المدينة فى عصره، وهو: «ثقة»، فقيه، عالم، من الخامسة». ولد عام ٦٥هـ، وتوفى عام ١٣١هـ، وقيل قبله بعام، أو بعده بعام.
تهذيب التهذيب (٣/ ١٣٤، ١٣٥).

(٢) هي: أم المؤمنين، حفصة بنت عمر بن الخطاب، ورثت عن أبيها العلم والورع، وكذلك الشدة، تزوجها النبى ﷺ سنة ٣ هـ أو ٢هـ، فروت عنه ﷺ، وعن أبيها وأخيها، وغالب أهلها، ولدت قبل المبعث بخمسة أعوام، وتوفيت ـ رضى الله عنها ـ سنة ٤٥ هـ، على الأرجح.
تهذيب التهذيب (٦/ ٥٨٨، ٥٨٩).

●●﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أى ابتديء فيه إنزاله، وكان فى ليلة القدر، أو أنزل فى شأنه القرآن وهو قوله تعالي: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ وهو بدل من الصيام، أو خبر مبتدأ محذوف أى هو شهر، والرمضان: مصدر رمض إذا احترق من الرمضاء فأضيف إليه الشهر، وجعل علما ومنع الصرف للتعريف والألف والنون؛ وسموه بذلك لارتماضهم فيه من حر الجوع ومقاساة شدته؛ ولأنهم سموا الشهور بالأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر، فإن قلت ما وجه ما جاء فى الحديث: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً»(١) مع أن التسمية واقعة مع المضاف والمضاف إليه جميعاً قلت: هو من باب الحذف لأمن الإلباس. القرآن حيث كان غير مهموز مكى وانتصب ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ أى: أنزل وهو هداية للناس إلى الحق، وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدى إلى الحق ويفرق بين الحق والباطل، ذكر أولا أنه هدي، ثم ذكر أنه بينات من جملة ما هدى به الله وفرق بين الحق والباطل من وحيه وكتبه السماوية الهادية الفارقة بين الهدى والضلال ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فمن كان شاهداً أى حاضراً مقيما غير مسافر فى الشهر فليصم فيه ولا يفطر؛ والشهر منصوب على الظرف؛ وكذا الهاء فى ليصمه ولايكون مفعولا به؛ لأن المقيم والمسافر كلاهما شاهدان للشهر ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعدة مبتدأ، والخبر محذوف أى فعليه عدة أى صوم عدة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ ومن فرض الفطر على المريض والمسافر حتى لو صاما تجب عليهما الإعادة فقد عدل عن موجب هذا ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ عدة ما أفطرتم بالقضاء إذا زال المرض والسفر والفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق، تقديره لتعلموا ولتكلموا العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ شرع ذلك يعنى جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه ومن الترخيص فى إباحة الفطر فقوله: لتكملوا علة الأمر بمراعاة العدة ولتكبروا علة ما علم من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر ولعلكم تشكرون علة الترخيص، وهذا نوع من اللف اللطيف المسلك. وعدى التكبير بعلى لتضمنه معنى الحمد، كأنه قيل: لتكبروا الله أى لتعظموه حامدين على ما هداكم إليه. ولتكلموا بالتشديد أبو بكر. ولما قال إعرابى لرسول الله (ﷺ): أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ نزل(٢):

●●﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ علما وأجابة لتعاليه عن القرب مكاناً ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الداعى دعانى فى الحالين سهل ويعقوب ووافقهما أبو عمرو ونافع، غير قالون(١)

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة. (٢) ذكره الطبرى وابن أبى حاتم، والدارقطنى فى المؤتلف.

فى الوصل، غيرهم بغير ياء فى الحالين، ثـم إجابة الدعاء وعد صدق من الله لا خلف فيه غير أن إجابة الدعوة تخـالف قضاء الحاجة فإجابة الدعـوة أن يقول العبد" يا رب فيقول الله لـبيك عبدى وهذا أمر موعود موجـود لكل مؤمن وقضاء الحاجة إعطاء المـراد وذا قد يكون ناجزا وقد يكون بعد مدة وقد يكون فى الآخرة وقد تكون الخير له فى غيره ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أنى أجيبهم إذا دعونى لحوائجهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ واللام فيها للأمر ﴿لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾ ليكونوا على رجاء من إصابة الرشد وهـو ضد الغي، كان الرجل إذا أمسى حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلـى العشاء الآخرة، أو يرقد فـإذا صلاها أورقد ولم يفـطر حرم عليه الطـعام والشراب والنساء إلى القابلـة، ثم إن عمر ـ رضى الله عنه ـ واقع أهله بعد صلاة العشـاء الآخرة فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النبى ـ علـيه السلام ـ وأخبره بما فعل فقال ـ عليه السلام ـ : «ما كنت جديراً بذلك»[٢] فنزل.

●●﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ أى الجماع ﴿إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ عدى بإلى لتضمنه معنى الإفضاء وإنما كنى عنه بلفظ الرفث الدال على معنى القبح، ولم يقل الإفضاء إلى نسائكم استقباحا لما وجد منهم قبل الإبـاحة كما سماه اختيانا لأنفســهم، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويـشتمل كل واحد منهما على صاحبـه فى عناقه شبه باللباس المشتمل علـيه بقوله تعالي: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وقيل: لباس أى ستر عن الحرام، وهن لباس لكم اسـتئناف كالبيان لسبب الإحلال وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن؛ فلذا رخص لكم فى مـباشرتهن ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بالجـماع وتنقصونها حظها من الخـير. والاختيان من الخيانـة، كالاكتساب من الكسـب فيه زيادة وشدة ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تبـتم مما ارتكـبتم من المحـظور ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ما فـعلتم قـبل الرخـصة ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ جامعوهن فى ليالى الصوم وهو أمر إباحة وسميـت المجامعة مباشر لالتصاق بشرتيهما ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ واطلبوا ما قسم الله لكم، وأثبت فى اللوح من الولد بالمباشرة أى لاتباشروا لقضاء الشهوة وحدها ولكن لابـتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، أو وابـتغوا المحل الذى كتبه الله لكم وحله دون مالم يكتب لكم من المحل المحرم ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾ هو أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق كالخيط الممدود ﴿مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ وهو ما يمتد من سواد الليل شبها بخيـطين أبيض وأسود لامتدادهما ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيان أن الخيـط الأبيض من الفجر

---

(١) قالون: اسمه عيسى بن مينا المدني، كنيته أبو موسي، ولقب بـ«قالون»؛ لجودة قراءاته؛ فغلب عليه لقبه، حتى لايكاد يعرف إلا به ـ قالون: كلمة رومانية تعنى «جيد» ـ وهو أحد روايي نافع، ثانيهما ورش، وكان قالون قاريء المدينة ونحويها.

غاية النهاية (١/ ٦١٥).

(٢) أخرجه الطبرى من طريق ابن عباس.

لا من غيره واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأن بيان أحدهما بيان للآخر، أو من للتبعيض لأنه بعض الفجر وأوله. وقوله: من الفجر أخرجه من باب الاستعارة وصيَّره تشبيها بليغا، كما أن قولك: رأيت أسداً مجاز فإذا زدت من فلان رجع تشبيها. وعن عدى بن حاتم[1] قال: عمدت إلى عقالين أبيض وأسود فجعلتهما تحت وسادتى فنظرت إليهما فلم يتبين لى الأبيض من الأسود فأخبرت النبى ـ عليه السلام ـ بذلك فقال: «إنك لعريض القفا»[2] أى سليم القلب لأنه مما يستدل به على بلاهة الرجل وقلة فطنته إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل وفى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أى الكف عن هذه الأشياء دليل على جواز النية بالنهار فى صوم رمضان وعلى جواز تأخير الغسل إلى الفجر وعلى نفى الوصال وعلى وجوب الكفارة فى الأكل والشرب، وعلى أن الجنابة لا تنافى الصوم ﴿تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ معتكفون فيها. بين أن الجماع يحل فى ليالى رمضان لكن لغير المعتكف ، والجملة فى موضع الحال وفيه دليل على الاعتكاف لايكون إلا فى المسجد وأنه لا يختص به مسجد دون مسجد ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام التى ذكرت ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه المحدودة ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ بالمخالفة والتغيير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المحارم.

●●﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ أى لا يأكل بعضكم مال بعض ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ بالوجه الذى لم يبحه الله ولم يشرعه ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ ولا تدلوا بها فهو مجزوم داخل فى حكم النهي، يعنى ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة، أو بالصلح مع العلم بأن المقضى له ظالم، وقال ـ عليه السلام ـ للخصمين: «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض؛ فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذن منه شيئاً فإن ما أقضى له قطعة من نار فبكيا، وقال كل واحد منهما: حقى لصاحبي»[3]. وقيل: وتدلوا بها وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة يقال: أدلى دلوه أى ألقاه فى البئر للاستقاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على الباطل وارتكاب المعصية مع العلم بقبحها أقبح وصاحبه بالتوبيخ أحق.

(١) عدى بن حاتم بن عبدالله الطائى، أبو طريف، ويقال: أبو وهب، وهو ابن حاتم الطائى، الذى يضرب به المثل فى الجود والكرم حتى يومنا هذا، قدم حاتم على النبى ﷺ سنة ٧هـ، وروى عنه، وعن بعض الصحابة، قال الخطيب: «لما قبض رسول الله ﷺ ثبت عدى وقومه على الإسلام، وجاء بصدقاتهم إلى أبى بكر، وحضر فتح المدائن، وشهد ـ مع على ـ الجمل وصفين والنهروان، ومات بعد ذلك بالكوفة».

وكان ذلك عام ٦٨هـ وهو ابن ١٢٠ سنة، بل قيل أكثر من ذلك.

تهذيب التهذيب (١٠٨/٤)، أعمار الأعيان (٩٥).

(٢) متفق عليه من حديث الشعبى عن عدى بن حاتم.

(٣) أخرجه أبو داود والدارقطنى والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى، وكلهم عن أم سلمة.

قال معاذ بن جبل(١): يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لايكون على حالة واحدة كالشمس فنزل(٢).

●●﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال سمى به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أى معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم ومحال ديونهم، وصومهم وفطرهم، وعدة نسائهم وأيام حيضهن ومدة حملهن، وغير ذلك ومعالم للحج يعرف بها وقته، كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً من باب، فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فنزل ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ أى ليس البر بتحرجكم من دخول الباب، ولا خلاف فى رفع البر هنا، لأن الآية ثمة تحتمل الوجهين كما بينا فجاز الرفع والنصب ثمة وهذه لاتحتمل إلا وجها واحداً وهو الرفع إذ الباء لاتدخل إلا على خبر ليس ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾بر﴿مَنِ اتَّقَى﴾ ما حرم الله البيوت وبابه مدنى وبصرى وحفص - وهو الأصل - مثل كعب وكعوب ومن كسر الباء فلمكان الياء بعدها ولكن هى توجب الخروج من كسر إلى ضم وكأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة فى نقصانها وتمامها. معلوم أن كل ما يفعله الله تعالى لايكون إلا حكمة فدعوا السؤال عنه وانظروا فى خصلة واحدة تفعلونها مما ليس من البر فى شيء وأنتم تحسبونها براً فهذا وجه اتصاله بما قبله، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت الحج؛ لأنه كان من أفعالهم فى الحج، ويحتمل أن يكون هذا تمثيلا لتعكيسهم فى سؤالهم، وإن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخل من ظهره، والمعنى ليس البر وما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم، ولكن البر بر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وباشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا، أو المراد وجوب الاعتقاد بأن جميع أفعاله، تعالى - حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة ولا اعتراض شك فى ذلك حتى لايسئل عنه لما فى السؤال من الاتهام بمقارنة الشك ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٣) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيم أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لتفوزوا بالنعيم السرمدى.

---

(١) الصحابى الجليل، معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، الأنصارى، الخزرجى، أبو عبدالرحمن المدنى، أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وشهد بدراً والعقبة والمشاهد، شهد له رسول الله ﷺ بأنه أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو - كذلك - من الرواة، والفقهاء، والقراء؛ ولهذا فإن مناقبه كثيرة، وسيرته مشهورة مذكورة، توفى - رضى الله عنه - عام ١٨هـ، وهو ابن ثمان وثلاثين عاماً.
تهذيب التهذيب (٥/ ٤٦٥، ٤٦٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم وابن عساكر فى تاريخ دمشق.

(٣) سورة «الأنبياء»، الآية (٢٣).

●● ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المقاتلة فى سبيل الله الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يناجزونكم القتال دون المحاجزين وعلى هذا يكون منسوخا بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾(١) وقيل، هى أول آية نزلت فى القتال فكان رسول الله (ﷺ) يقاتل من قاتل ويكف عمن كف، أو الذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء أو الكفرة كلهم؛ لأنهم قاصدون لمقاتلة المسلمين فهم فى حكم المقاتلة ﴿وَلا تَعْتَدُوا﴾ فى ابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما أو بالمثلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

●●﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم والثقف الوجود على وجه الأخذ والغلبة ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى من مكة وعدهم الله تعالى فتح مكة بهذه الآية وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أى شركهم بالله أعظم من القتل الذى يحل بهم منكم، وقيل: الفتنة عذاب الآخرة، وقيل: المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان فيعذب به أشد عليه من القتل، وقيل لحكيم: ما أشد من الموت؟ قال: الذى يتمنى فيه الموت. فقد جعل الإخراج من الوطن من الفتن التى يتمنى عندها الموت ﴿ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أى ولاتبدءوا بقتالهم فى الحرم حتى يبدءوا، فعندنا المسجد الحرم يقع على الحرم كله ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ فى الحرم فعندنا يقتلون فى الأشهر الحرم لا فى الحرم إلا أن يبدءوا بالقتال معنا فحينئذ نقتلهم وإن كان ظاهر قوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يبيح القتل فى الأمكنة كلها لكن لقوله: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ خص الحرم إلا عند البداءة منهم كذا فى شرح التأويلات(٢) ﴿كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مبتدأ وخبر. ولاتقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم حمزة وعلى.

●●﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الشرك والقتال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من طغيانهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بقبول توبتهم وإيمانهم.

●●﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك، وكان تامة، وحتى بمعنى كى أوالى أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصا ليس للشيطان فيه نصيب أى لايعبد دونه شىء ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فإن امتنعوا عن الكفر فلا تقاتلوهم فإنه لا عدوان إلا على الظالمين ولم يبقوا ظالمين، أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين سمى جزاء الظالمين ظلما للمشاكلة كقوله﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ

(١) سورة «التوبة»، الآية (٣٦).

(٢) يعنى كتاب «شرح تأويلات أهل السنة» للماتريدى: وللنسفى كتاب «تأويلات القرآن».

﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْه﴾. قاتلهم المشركون عام الحديبية (١) فى الشهر الحرام وهو ذو القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء وكراهتهم القتال وذلك فى ذى القعدة.

●● ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ مبتدأ خبره ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أى هذا الشهر بذلك الشهر وهتكه بهتكه يعنى تهتكون حرمته عليهم كماهتكوا حرمته عليكم ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أى: وكل حرمة يجرى فيها القصاص. من هتك حرمة أى حرمة كانت اقتص منه بأن تهتك له حرمة فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولاتبالوا وأكد ذلك بقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ من شرطية والباء غير زائدة والتقدير بعقوبة مماثلة لعدوانهم، أو زائدة وتقديره عدوانا مثل عدوانهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم فلاتعتدوا إلى مالايحل لكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصر.

●● ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تصدقوا فى رضا الله، وهو عام فى الجهاد وغيره ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أى أنفسكم والباء زائدة، أو ولا تقتلوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده إذا تسبب لهلاكها والمعنى النهى عن ترك الإنفاق فى سبيل الله؛ لأنه سبب الهلاك، أو عن الإسراف فى النفقة حتى يفقر نفسه ويضيع عياله أو عن الإخطار بالنفس، أو عن ترك الغزو الذى هو تقوية للعدو والتهلكة والهلاك والهلك واحد ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ الظن بالله فى الإخلاف ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى المحتاجين.

●● ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وأدوهما تامين بشرائطهما وفرائضهما لوجه الله تعالى بلا توان ولا نقصان وقيل: الإتمام يكون بعد الشروع فهو دليل على أن من شرع فيهمالزمه إتمامهما، وبه نقول: إن العمرة تلزم بالشروع ولاتمسك للشافعى ـ رحمه الله بالآية على لزوم العمرة لأنه أمر بإتمامها، وقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع، أو إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك أو أن تفرد لكل واحد منهما سفرا، أو أن تنفق فيهما حلالا، أو أن لاتتجر معهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ يقال: أحصر فلان إذا منعه أمر من خوف أو مرض أو عجز، وحصر إذا حبسه عدو عن المضى، وعندنا الإحصار يثبت بكل منع من عدو، أو مرض أو غيرهما لظاهر النص، وقد جاء فى الحديث: من كسر أو عرج فقد حل أى جاز له أن يحل وعليه الحج من قابل (٢)، وعند الشافعى ـ رحمة الله ـ: الإحصار بالعدو وحده، وظاهر النص يدل على أن الإحصار يتحقق فى العمرة أيضا لأنه ذكر عقبهما ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فما تيسر منه يقال يسر الأمر واستيسركما يقال: صعب

---

(١) الحديبية: قرية متوسطة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة، حيث وادع النبى المشركين عام٥هـ.

(معجم البلدان ٢/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه أصحاب السنن وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والطبرانى من حديث عكرمة عن ابن عمرو ابن غزية الأنصارى.

واستصعب، والهدى جمع هدية يعنى فإن منعتم من المضى إلى البيت وأنتم محرمون بحج أو عمرة فعليكم إذا أردتم التحلل ما استيسر من الهدى من بعير، أو بقرة أو شاة، فما رفع بالابتداء أى فعليكم مااستيسر، أو نصب أى فأهدوا له مااستيسر ﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ الخطاب للمحصرين أى لاتحلوا بحلق الرأس حتى تعلموا أن الهدى الذى بعثتموه إلى الحرم بلغ محله أى مكانه الذى يجب نحره فيه وهو الحرم وهو حجة لنا فى أن دم الإحصار لا يذبح إلا فى الحرم على الشافعى - رحمه الله - إذ عنده يجوز فى غير الحرم ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ فمن كان منكم به مرض يحوجه إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ وهو القمل، أو الجراحة ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه إذا حلق فدية ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ شاة وهو مصدر أوجمع نسيكة﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ الإحصار أى فإذا لم تحصروا وكنتم فى حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ استمتع ﴿بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله قبل انتفاعه بالتقرب بالحج، وقيل: إذا حل من عمرته انتفع باستباحة ما كان محرما عليه إلى أن يحرم بالحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ هو هدى المتعة. وهو نسك يؤكل منه ويذبح يوم النحر. ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدى ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت الحج وهو أشهره ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إذا نفرتم وفرغتم من أفعال الحج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ فى وقوعها بدلا عن الهدى، أو فى الثواب. أو المراد رفع الإبهام فلا يتوهم فى الواو أنها بمعنى الإباحة كما فى جالس الحسن وابن سيرين. ألا ترى أنه لو جالسهما أوواحدا منهما كان ممتثلا ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التمتع عندنا إذ لا تمتع ولا قران لحاضرى المسجد الحرام عندنا وعند الشافعى - رحمة الله - إلى الحكم الذى هو وجوب الهدى أو الصيام، ولم يوجب عليهم شيئا ﴿ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم أهل المواقيت فمن دونها إلى مكة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمر كم به ونهاكم عنه فى الحج وغيره ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقه.

●●﴿الْحَجُّ﴾ أى وقت الحج، كقولك: البرد شهران ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ معروفات عند الناس لا يشكلن عليهم وهى شوال وذ والقعدة وعشر ذو الحجة. وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر أن شيئا من أفعال الحج لايصح إلا فيها وكذا الإحرام عند الشافعى - رحمه الله - وعندنا وإن انعقد لكنه مكروه وجمعت أى الأشهر لبعض الثالث. أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ما وراء الواحد بدليل قوله تعالى ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾(١) ﴿ فَمَن فَرَضَ﴾ ألزم نفسه بالإحرام ﴿فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ فى هذه الأشهر ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ هو الجماع أو ذكره عند النساء، أو الكلام الفاحش ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ هو المعاصى أو السباب، لقوله - عليه السلام -: «سباب المؤمن فسوق» (٢) أو التنابز بالألقاب لقوله

(١) سورة «التحريم»، الآية (٤).
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود.

تعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوق﴾[1] ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ولامراء مع الرفقاء والخدم والمكارين وإنما أمر باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب فى كل حال لأنه مع الحج أسمج كلبس الحرير فى الصلاة والتطريب فى قراءة القرآن. والمراد بالنفى وجوب انتفائها وأنها حقيقة بأن لاتكون، وقرأ أبو عمرو ومكى الأولين بالرفع، فحملاهما على معنى النهى، كأنه قيل: فلا يكونن رفث ولا فسوق والثالث بالنصب على معنى الإخبار بانتفاء الجدال كأنه قيل، ولاشك ولا خلاف فى الحج، ثم حث على الخير عقيب النهى عن الشر وأن يتسعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى. ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أعلم بأنه عالم به يجازيكم عليه ورد قول من نفى علمه بالجزئيات. كان أهل اليمن لا يتزودون ويقولون نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس فنزل فيهم ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أى تزودوا واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أى الاتقاء عن الإبرام والتثقيل عليهم، أو تزودوا للمعاد باتقاء المحظورات فإن خير الزاد اتقاؤها ﴿وَاتَّقُونِ﴾ وخافو عقابى وهو مثل دعان ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يا ذوى العقول يعنى أن قضية اللب تقوى الله ومن لم يتقه من الألباء فكأنه لا لب له. ونزل فى قوم زعموا أن لاحج لجمال وتاجر وقالوا هؤلاء الداج [2] وليسوا بالحاج.

●● ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ فى أن تبتغوا فى مواسم الحج ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عطاء وتفضلا وهو النفع والربح بالتجارة والكراء ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دفعتم بكثرة من إفاضة الماء وهو.. صبه بكثرة. وأصله أفضتم أنفسكم فترك ذكر المفعول ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ هى علم للموقف سمى بجمع كأذرعات. وإنما صرفت، لأن التاء فيها ليست للتأنيث بل هى مع الألف قبلها علامة جمع المونث وسميت بذلك، لأنها وصفت لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما رآها عرفها. وقيل التقى فيها آدم وحواء فتعارفا وفيه دليل على وجوب الوقوف بعرفة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والتكبير والثناء والدعوات، أو بصلاة المغرب والعشاء ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هو قزح وهو الجبل الذى يقف عليه الإمام وعليه الميقدة. والمشعر المعلم لأنه معلم العبادة. ووصف بالحرام لحرمته. وقيل: المشعر الحرام مزدلفة، وسميت المزدلفة جمعا لأن آدم ـ عليه السلام اجتمع فيها مع حواء وازدلف إليها أى دنامنها، أولأنه يجمع فيها بين الصلاتين، أو لأن الناس يزدلفون إلى الله تعالى أى يتقربون بالوقوف فيها ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ ما مصدرية، أو كافة أى اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولاتعدلوا عنه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل الهدى ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين لاتعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه وإن مخففة من الثقيلة واللام فارقة.

●● ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس ولاتكن من

---

(١) سورة «الحجرات»، الآية (١١).

(٢) الداج: من «دج» دجيجاً، أى: دب فى السير. المعجم الوسيط (١/ ١٨٧).

المزدلفة. قالوا: هذا أمر لقريش بالإفاضة من عرفات إلى جمع [1] وكانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفات ويقولون: نحن قطان حرمه فلا نخرج منه. وقيل؛ الإفاضة من عرفات مذكورة فهى الإفاضة من جمع إلى منى والمراد بالناس على هذا الجنس ويكون الخطاب للمؤمنين ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ**﴾ من مخالفتكم فى الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم أو من تقصير كم فى أعمال الحج ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ بكم.

●● ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ**﴾ فإذا فرغتم من عباداتكم التى أمرتم بها فى الحج ونفرتم ﴿**فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ**﴾ أى فاذ كروا الله ذكرا مثل ذكر كم آباءكم. والمعنى فاكثروا من ذكر الله وبالغوا فيه كما تفعلون فى ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم. وكانوا إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل فيعددون فضائل آبائهم ويذكرون محاسن أيامهم ﴿ **أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ أى أكثر. وهو فى موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر فى قوله: كذكر كم كما تقولون كذكر قريش أباءَهم أو قوم أشدمنهم ذكرا وذكرا تمييز ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ**﴾ فمن الذين يشهدون الحج من يسأل الله حظوظ الدنيا فيقول ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا** ﴾ اجعل إيتاءنا أى إعطاءنا فى الدنيا خاصة يعنى الجاه والغنى ﴿**وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾ نصيب؛ لأن همه مقصور على الدنيا لكفره بالآخرة. والمعنى أكثروا ذكر الله ودعاءه لأن الناس من بين مقل لا يطلب بذكر الله إلا أغراض الدنيا ومكثر يطلب خير الدارين فكونوا من المكثرين أى من الذين قيل فيهم.

●●﴿**وَمِنْهُم**﴾ ومن الذين يشهدن الحج ﴿**مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ نعمة وعافية. أو علماً وعبادة. ﴿**وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾ عفوا ومغفرة. أو المال والجنة. أو ثناء الخلق ورضا الحق. أو الإيمان والأمان. أو الإخلاص والخلاص. أو السنة والجنة. أو القناعة والشفاعة. أو المرأة الصالحة والحور العين. أو العيش على سعادة والبعث من القبور على بشارة. ﴿**وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ احفظنا من عذاب جهنم. أو عذاب النار امرأة السوء.

●●﴿**أُولَٰئِكَ**﴾ أى الداعون بالحسنتين ﴿ **لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا** ﴾ من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة وهو الثواب الذى هو المنافع الحسنة أو من أجل ما كسبوا أو سمى الدعاء كسبا، لأنه من الأعمال والأعمال موصوفة بالكسب، ويجوز أن يكون أولئك للفريقين وأن لكل فريق نصيباً من جنس ماكسبوا ﴿**وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب العباد فبادروا إكثار الذكر وطلب الآخرة، أو وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل على كمال قدرته ووجوب الحذر من نقمته. وروى أنه يحاسب الخلق فى قدر حلب شاة، وروى فى مقدار لمحة.

---

(١) جمع: يعنى المزدلفة، وسمى جمعاً لاجتماع الناس به.
(معجم البلدان ٢/ ١٨٩).

●● ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ هى أيام التشريق وذكر الله فيها التكبير فى أدبار الصلوات وعند الجمار ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن عجل فى النفر، أو استعجل النفر. وتعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل. يقال: تعجل فى الأمر واستعجل ومتعديين يقال تعجل الذهاب واستعجله والمطاوعة أوفق لقوله: ومن تأخر ﴿ فِي يَوْمَيْنِ﴾ من هذه الأيام الثلاثة فلم يمكث حتى يرمى فى اليوم الثالث واكتفى برمى الجمار فى يومين من هذه الأيام الثلاثة ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا يأثم بهذا التعجل ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى فى اليوم الثالث ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ الصيد أو الرفث والفسوق أو هو مخير فى التعجل. والتأخر وإن كان التأخر أفضل فقد يقع التخيير بين الفاضل والأفضل كما خير المسافر بين الصوم والإفطار، وإن كان الصوم أفضل وقيل: كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل آثماومنهم من جعل المتأخر آثما فورد القرآن بنفى المأثم عنهما ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى جميع الأمور ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حين يبعثكم من القبور. كان الأخنس بن شريق [1] حلو المنطق إذا لقى رسول الله (ﷺ) ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم وقال: يعلم الله أنى صادق فنزل فيه.

●● ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يروقك ويعظم فى قلبك ومنه الشىء العجيب الذى يعظم فى النفس ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فى يتعلق بالقول أى يعجبك ما بقوله فى معنى الدنيا، لأنه يطلب بادعاء المحبة حظ الدنيا ولا يريد به الآخرة أو بيعجبك أى يعجبك حلو كلامه فى الدنيا لافى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الحبسة واللكنة ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أى يحلف ويقول الله شاهد على ما فى قلبى من محبتك ومن الإسلام ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد الجدال والعداوة للمسلمين، والخصام المخاصمة والإضافة بمعنى فى، لأن أفعل يضاف إلى ماهو بعضه، تقول: زيد أفضل القوم ولا يكون الشخص بعض الحدث فتقديره ألد فى الخصومة، أو الخصام جمع خصم كصعب وصعاب، والتقدير وهو أشد الخصوم خصومة.

●● ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ عنك وذهب بعد إلانة القول وإحلاء المنطق ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ﴾ كما فعل بثقيف فإنه كان بينه وبينهم خصومة فبيتهم ليلا وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم ﴿فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أى الزرع والحيوان، أو إذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد فى الأرض بإهلاك الحرث والنسل وقيل: يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾للأخنس﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ فى الإفساد والإهلاك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ حملته النخوة وحمية الجاهلية على الإثم الذى ينهى عنه وألزمته ارتكابه، أو الباء للسبب أى أخذته العزة من أجل الإثم الذى فى قلبه وهو الكفر ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أى كافيه ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى الفراش جهنم.

(١) الأخنس بن شريق، حليف بنى زهرة.

ونزل فى صهيب [1] حين أراده المشركون على ترك الإسلام وقتلوا نفراً كانوا معه فاشترى نفسه بماله منهم وأتى المدينة أو فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل.

●● ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها ﴿ابْتِغَاءَ﴾ لابتغاء ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أثابهم على ذلك.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ وبفتح السين حجازى وعلى، وهو الاستسلام والطاعة أى استسلموا لله وأطيعوه، أو الإسلام والخطاب لأهل الكتاب، لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم ﴿كَافَّةً﴾ لايخرج أحد منكم يده عن طاعته حال من الضمير فى ادخلوا أى جميعاً، أو من السلم لأنها تؤنث كأنهم أمروا أن يدخلوا فى الطاعات كلها أو فى شعب الإسلام وشرائعه كلها وكافة من الكف، كأنهم كفوا أن يخرج منهم أحد باجتماعهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وساوسه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

●● ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ ملتم عن الدخول فى السلم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى الحجج الواضحة والشواهد اللائحة على أن مادعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لايمنعه شىء من عذابكم ﴿حَكِيمٌ﴾ لايعذب إلا بحق، وروى إن قارئاً قرأ غفور رحيم فسمعه أعرابى لم يقرأ القرآن فأنكره، وقال: ليس هذا من كلام الله إذ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل والعصيان لأنه إغراء عليه.

●● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ماينتظرون ﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾[2] أى أمر الله وبأسه كقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[3]. ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أو المأتى به محذوف بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه للدلالة عليه بقوله ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة وهى ما أظلك ﴿مِّنَ الْغَمَامِ﴾ السحاب: وهو للتهويل إذ الغمام مظنة الرحمة أنزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أى وتأتى الملائكة الذين وكلوا بتعذيبهم، أو المراد حضورهم يوم القيامة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى وتم أمر إهلاكهم وفرغ منه ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى أنه ملّك العباد بعض الأمور فترجع إليه الأمور يوم النشور ترجع الأمور حيث كان شامى وحمزة وعلى.

●● ﴿سَلْ﴾ أصله اسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين بعد حذفها واستغنى عن همزة الوصل

---

(١) الصحابى الجليل، صهيب بن سنان، أبو يحيى، وقيل: أبو غسان، النمرى المعروف بـ «صهيب الرومى»، وذلك لأن أصله من النمر بن قاسط، سبَتْه الروم من نينوى، ثم جاهد - رضى الله عنه - فى سبيل الوصول إلى الحق حتى دخل مكة، وحالف عبدالله بن جدعان، وأسلم قديماً، فلما أراد أن يهاجر أخذ المشركون كل ماله، فقال له النبى ﷺ: «ربح البيع أبا يحيى»، ثم شهد المشاهد كلها.

توفى بالمدينة سنة ٣٨هـ، وقد جاوز السبعين، على خلاف فى تحديد عمره.

تهذيب التهذيب (٢/ ٥٦٢).

(٢) سورة «النحل»، الآية (٣٣).

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٤).

فصار سل. وهو أمر للرسول ، أو لكل أحد وهو سؤال تقريع كما يسئل الكفرة يوم القيامة ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ على أيدى أنبيائهم وهى معجزاتهم، أو من آية فى الكتب شاهدة على صحة دين الإسلام، وكم استفهامية أو خبرية ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ هى آياته وهى أجل نعمة من الله لأنها أسباب الهدى والنجاة من الضلالة وتبديلهم إياها، أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم فجعلوها أسباب ضلالتهم كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[1] أو حرفوا آيات الكتب الدالة على دين محمد- عليه السلام ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ من بعد ما عرفها وصحت عنده لأنه إذا لم يعرفها فكأنها غائبة عنه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن استحقه.

●● ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ المزين هو الشيطان زين لهم الدنيا وحسنها فى أعينهم بوساوسه وحببها إليهم فلا يريدون غيرها، أو الله تعالى يخلق الشهوات فيهم ولأن جميع الكائنات منه، ويدل عليه قراءة من قرأ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين كابن مسعود وعمار[2]، وصهيب ونحوهم أى لا يريدون غير الدنيا وهم يسخرون ممن لا حظ له فيها، أو ممن يطلب غيرها ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك وهم هؤلاء الفقراء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم فى جنة عالية وهم فى نار هاوية ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقتير يعنى أنه يوسع على من أراد التوسعة عليه كما وسع على قارون وغيره وهذه التوسعة عليكم من الله لحكمة وهى استدراجكم بالنعمة ، ولو كانت كرامة لكان المؤمنون أحق بها منكم.

●● ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على دين الإسلام من آدم إلى نوح عليهما السلام أو من نوح ومن كان معه فى السفينة فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ ويدل على حذفه قوله تعالى: ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقراءة عبد الله ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾[3] أو كان الناس أمة واحدة كفاراً فبعث الله النبين فاختلفوا عليهم والأول الأوجه ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب للمؤمنين ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب للكافرين وهما حالان ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى مع كل واحد منهم كتابه ﴿بِالْحَقِّ﴾ بتبيان الحق ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الله أو الكتاب أو النبى المنزل عليه ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فى دين الإسلام الذى اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فى الحق﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أى الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف أى

---

(١) سورة «التوبة» الآية (١٢٥).

(٢) هو الصحابى المجاهد : عمّار بن ياسر بن عامر، أبو اليقظان، مولى لبني مخزوم، أسلم قديمًا، هو وأبوه، وأمه «سُمَيَّة»، وقد نالوا قدراً كبيراً من العذاب، وقتل أبو جهل أمه «سمية، فكانت أول شهيد فى الإسلام، قال الواقدي: «والذى أجمع عليه فى قتل عمّار، أنه قُتل مع على بصفين سنة ٣٧ هـ، وهو ابن ٩٣ عامًا، ودفن هناك بصفين»: اهـ.

تهذيب التهذيب (٤/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) سورة «يونس»، الآية (١٩).

ازدادوا فى الاختلاف لما أنزل عليهم الكتاب ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ على صدقه ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ مفعول له أى حسدًا بينهم وظلمًا لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أى هدى الذين آمنوا للحق الذى اختلف فيه من اختلف فيه ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

●● ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أم منقطعة متصلة لأن شرطها أن يكون قبلها همزة الاستفهام كقولك: أعندك زيد أم عمرو أى أيهما عندك وجوابه زيد إن كان عنده زيد أو عمرو إن كان عنده عمرو، وأما أم المنقطعة فتقع بعد الاستفهام وبعد الخبر وتكون بمعنى بل والهمزة، والتقدير بل أحسبتم، ومعنى الهمزة فيها للتقرير وإنكار الحسبان واستبعاده. لما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين بعد مجيء البينات تشجيعاً لرسول الله (ﷺ) والمؤمنين على الثبات والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لآياته وعداوتهم له، قال لهم على طريقة الالتفات التى هى أبلغ أم حسبتم ﴿أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أى ولم يأتكم وفى لما معنى التوقع يعني أن إتيان ذلك متوقع منتظر ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا أى حالهم التى هى مثل فى الشدة ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ من النبيين والمؤمنين ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ بيان للمثل وهو استئناف كأن قائلا قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل: مستهم ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ أى البؤس ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ المرض والجوع ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ وحركوا بأنواع البلايا وأزعجوا إزعاجا شديداً شبيها بالزلزلة ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ إلى الغاية التى قال الرسول ومن معه من المؤمنين فيها ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ أى بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك ومعناه طلب النصر وتمنيه واستطالة زمان الشدة فقيل لهم ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إجابة لهم إلى طلبهم من عاجل النصر، يقول بالرفع نافع على حكاية حال ماضية نحو شربت الإبل حتى يجئ البعير يجر بطنه وغيره بالنصب على إضمار أن ومعنى الاستقبال لأن أن علم له ولما قال عمرو بن الجموح [1]: وهو شيخ كبير وله مال عظيم، ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعها؟! نزل:

●● ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقد تضمن قوله ما أنفقتم من خير بيان ما ينفقونه، وهو كل خير وبنى الكلام على ماهو أهم وهو بيان المصرف، لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها عن الحسن هى فى التطوع ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجزى عليه.

●● ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ فرض عليكم جهاد الكفار ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ من الكراهة فوضع المصدر موضع الوصف مبالغة كقولها[2]: * فإنما هى إقبال وإدبار *

---

(١) هو الصحابى؛ عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام، الأنصارى، السلمى، كان فى الجاهلية من سادات بنى سلمة وأشرافهم وهو آخر الأنصار إسلاماً، استشهد بأحد عام ٣هـ. الأعلام (٥/ ٧٥)

(٢) القائلة: هى الخنساء، وهو عجز بيت صدره: لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت.

كأنه فى نفسه كراهة لفرط كراهتهم له أو هو فعل بمعنى مفعول كالخبز بمعنى المخبوز أى وهو مكروه لكم ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فأنتم تكرهون الغزو وفيه إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وهو القعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الذل والفقر وحرمان الغنيمة والأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فبادروا إلى ما يأمر كم به وإن شق عليكم ونزل فى سرية بعثها رسول الله (ﷺ) فقاتلوا المشركين وقد أهل هلال رجب وهم لايعلمون ذلك فقالت قريش: قد استحل محمد (عليه السلام) الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف.

•• ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أى يسألك الكفار أو المسلمون عن القتال فى الشهر الحرام ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل الاشتمال من الشهر، وقرىء عن قتال فيه على تكرير العامل كقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ (١) ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أى إثم كبير قتال مبتدأ وكبير خبره وجاز الابتداء بالنكرة، لأنها قد وصفت بفيه وأكثر الأقاويل على أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٢) ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى منع المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت عام الحديبية، وهو مبتدأ ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أى بالله عطف على صد ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عطف على سبيل الله أى وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى به أى كفر به وبالمسجد الحرام ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فلا تقول: مررت به وزيد ولكن تقول وبزيد، ولو كان معطوفاً على الهاء هنا لقيل وكفر به وبالمسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أى أهل المسجد الحرام وهم رسول الله (ﷺ) والمؤمنون وهو عطف على صد أيضاً ﴿مِنْهُ﴾ من المسجد الحرام وخبر الأسماء الثلاثة﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ أى مما فعلته السرية من القتال فى الشهر الحرام على سبيل الخطإ والبناء على الظن ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الإخراج أو الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فى الشهر الحرام أو تعذيب الكفار المسلمين أشد قبحاً من قتل هؤلاء المسلمين فى الشهر الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ أى إلى الكفر وهو إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لاينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم وحتى معناها التعليل نحو فلان يعبدالله حتى يدخل الجنة أى يقاتلونكم كى يردوكم وقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ استبعاد لاستطاعتهم كقولك لعدوك إن ظفرت بى فلا تبق على وأنت واثق بأنه لايظفر بك ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ ومن يرجع عن دينه إلى دينهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أى يمت على

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٧٥).
(٢) سورة «التوبة»، الآية (٥).

الردة ﴿فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين فى الدنيا من ثمرات الإسلام وفى الآخرة من الثواب وحسن المآب ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وبها احتج الشافعى ـ رحمة الله ـ على أن الردة لاتحبط العمل حتى يموت عليها وقلنا قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ (١) والأصل عندنا أن المطلق لايحمل على المقيد وعنده يحمل عليه فهو بناء على هذا ولما قالت السرية أيكون لنا أجر المجاهدين فى سبيل الله نزل.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ تركوا مكة وعشائرهم ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المشركين ولا وقف عليه لأن ﴿أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ خبر إن قيل من رجا طلب ومن خاف هرب (٢) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نزل فى الخمر أربع آيات نزل بمكة: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾(٣) فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال، ثم إن عمرو نفرا من الصحابة قالوا: يارسول الله أفتنا فى الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فشربها قوم وتركها آخرون ثم دعا عبدالرحمن ابن عوف جماعة فشربوا وسكروا فأم بعضهم فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ماتعبدون فنزل ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾(٤) فقل من يشربها، ثم دعا عتبان بن مالك (٥) جماعة فلما سكروا منها تخاصموا وتضاربوا، فقال عمر: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (٦) فقال عمر: انتهينا يارب (٧) وعن على ـ رضى الله عنه ـ لو وقعت قطرة فى بئر فبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت فى بحر ثم جف ونبت فيه الكلأ لم أرعه(٨) والخمر ماغلى واشتد وقذف بالزبد من عصير العنب وسميت بمصدر خمره خمرا إذا ستره لتغطيتها العقل، والميسر القمار مصدر من يسر كالموعد من فعله، يقال: يسرته إذا أقمرته واشتقاقه من اليسر أنه كانت لهم عشرة أقداح سبعة منها عليها خطوط وهو الفذوله سهم والتوأم وله سهمان والرقيب وله ثلاثة والحلس وله أربعة

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٥).

(٢) من رجا الله وجنته طلب الفوز بالعمل ، ومن خاف الله ـ تعالى ـ هرب من الذنوب والمعاصى.

(٣) سورة «النحل»، الآية (٦٧).

(٤) سورة «النساء»، الآية (٤٣).

(٥) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان بن زيد بن غنم، الأنصارى، الخزرجى السلمى، البدرى، ذكر ابن سعد أن النبى ﷺ آخى بينه وبين عمر بن الخطاب، توفى عتبان فى خلافة معاوية على خلاف فى تحديد سنه.

تهذيب التهذيب (٤/ ٦٢).

(٦) سورة «المائدة»، الآيتان (٩٠، ٩١).

(٧) ذكره الثعلبى فى تفسيره بلا إسناد، وأخرج الطبرى معناه من طرق عدة.

(٨) هذا قول لعلى، قال ابن حجر لم أجده لعلى.

والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة والمعلى وله سبعة وثلاثة أغفال لانصيب لها وهى المنيح والسفيح والوغد[1] فيجعلون الأقداح فى خريطة [2] ويضعونها على يد عدل ، ثم يجلجلها ويدخل يده ويخرج باسم رجل قدحا منها فمن خرج لـه قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسم به ذلك القدح ومن خرج له قدح مما لانصيب له لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه وفى حكم الميسر أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما والمعنى يسألونك عما فى تعاطيهما بدليل ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ بسبب التخاصم والتشاتم وقول الفحش والزور كثير حمزة وعلى ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ بالتجارة فى الخمر والتلذذ بشربها وفى الميسر بارتفاق الفقراء، أو نيل المال بلاكد ﴿وَإِثْمُهُمَا﴾ وعقاب الإثم فى تعاطيهما ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لأن أصحاب الشرب والقمار يفترفون فيهما الآثام من وجوه كثيرة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ أى الفضل أى أنفقوا مافضل عن قدر الحاجة، وكان التصدق بالفضل فى أول الإسلام فرضا، فإذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل، وإذا كان صانعا أمسك قوت يومه وتصدق بالفضل فنسخت بآية الزكاة، العفو أبو عمرو فمن نصبه جعل ماذا اسما واحدا فى موضع النصب بينفقون، والتقدير قل ينفقون العفو ومن رفعه جعل ما مبتدأ وخبره ذا مع صلته فذا بمعنى الذى وينفقون صلته أى ما الذى ينفقون فجاء الجواب العفو أى هو العفو فإعراب الجواب كإعراب السؤال ليطابق الجواب السؤال ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف أى تبيينا مثل هذا التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

●● ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أى فى أمر الدنيا ﴿وَالآخِرَةِ﴾ وفى يتعلق بتتفكرون أى تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بماهو أصلح لكم، أو تتفكرون فى الدارين فتؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع ويجوز أن يتعلق يبين أى يبين لكم الآيات فى أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون ولما نزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾[3] اعتزلوا اليتامى وتركوا مخالطتهم والقيام بأموالهم وذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فنزل ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أى مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ وتعاشروهم ولم تجانبوهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم فى الدين ومن حق الأخ أن يخالط أخاه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ لها فيجازيه على حسب مداخلته فاحذروه ولاتتحروا غير الإصلاح ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾

---

(١) الوغد: أى العبد. (المعجم الوسيط).

(٢) الخريطة: وعاء من ادم وغيره.

(٣) سورة «النساء»، الآية (١٠)

إعناتكم ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لحملكم على العنت وهو المشقة وأحرجكم فلم يطلق لكم مداخلتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على أن يعنت عباده ويحرجهم ﴿حَكِيمٌ﴾ لايكلف إلا وسعهم وطاقتهم ولما سأل مرثد[1] النبي ﷺ عن أن يتزوج عناق ـ [2] وكانت مشركة ـ نزل.

●● ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أى لا تتزوجوهن يقال نكح إذا تزوج وأنكح غيره زوجه ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولو كان الحال أن المشركة تعجبكم وتحبونها ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ولا تزوجوهم بمسلمة كذا قاله الزجاج، وقال جامع العلوم: حذف أحد المفعولين والتقدير ولاتنكحوهن المشركين ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ثم بين علة ذلك فقال ﴿أُولَٰئِكَ﴾ وهو إشارة إلى المشركات والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر الذى هو عمل أهل النار فحقهم أن لايوالوا ولا يصاهروا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أى وأولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة والمغفرة وما يوصل إليهما فهم الذين تجب موالاتهم ومصاهرتهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه أو بأمره ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون كانت العرب لم يؤاكلوا الحائض ولم يشاربوها ولم يساكنوها كفعل اليهود والمجوس، فسأل أبو الدحداح [3] رسول الله (ﷺ) عن ذلك وقال: يارسول الله كيف نصنع بالنساء إذا حضن فنزل.

●● ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ هو مصدر يقال حاضت محيضاً كقولك: جاء مجيئاً ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أى المحيض شىء يستقذر ويؤذى من يقربه ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوهن أى فاجتنبوا مجامعتهن، وقيل: إن النصارى كانوا يجامعونهن ولا يبالون بالحيض واليهود كانوا يعتزلونهن فى كل شىء فأمر الله بالاقتصاد بين الأمرين، ثم عند أبى حنيفة وأبى يوسف ـ رحهما الله ـ يجتنب ما أشتمل عليه الإزار ومحمد ـ رحمه الله ـ لايوجب إلا اعتزال الفرج، وقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك [4] ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مجامعين أو ولاتقربوا مجامعتهن ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ بالتشديد كوفى غير حفص، أى يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء فى الطاء، لقرب مخرجيهما غيرهم يطهرن أى ينقطع دمهن والقراءتان كآيتين فعملنا بهما وقلناله أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم، وإن لم تغتسل عملا بقراءة التخفيف، وفى أقل منه

(١) هو الصحابى، ابن الصحابى: مرثد بن أبى مرثد كناز بن الحصين، الغنوى، شهد بدراً، كان هو وأبوه ـ رضى الله عنهما ـ حليفين لحمزة بن عبدالمطلب، وقتل مرثد يوم الرجيع، فى حياة الرسول ﷺ، عام ٤هـ.
تهذيب التهذيب (٥/ ٣٩٩).

(٢) عناق: هى أمرأة مشركة من العرب كانت مشهورة بالجمال، حتى كان يضرب بها المثل فى الجمال.

(٣) أبو الدحداح؛ صحابى جليل، لم ينل قسطاً كبيراً من الشهرة بين المسلمين، اسمه: ثابت بن الدحداح، الأنصارى، وهو الذى تصدق بحائطه ـ أى: حديقته ـ وأخرج منه زوجه وأولاده لما سمع آية تحث على إقراض الله تعالى، وقال لهم: لقد أقرضته لله تعالى؛ فرضى الله تعالى عنه، وعن الصحابة أجمعين.

(٤) أخرجة الدارمى من رواية أيوب عن رجل عن عائشة، رضى الله عنها.

لايقربها حتى تغتسل، أو يمضى عليها وقت الصلاة عملا بقراءة التشديد والحمل على هذا أولى من العكس، لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف وعند الشافعي - رحمة الله لايقربها حتى تطهر وتتطهر دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن فجمع بينهما ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأتى الذى أمركم الله به وحلله لكم وهو القبل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من ارتكاب مانهوا عنه، أو العوادين إلى الله تعالى وإن زلوا فزلوا والمحبة لعرفته بعظم عفوالله حيث لايبأس ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ بالماء، أو المتنزهين من أدبار النساء أو من الجماع فى الحيض أو من الفواحش. كان اليهود يقولون إذا أتى الرجل أهله باركة أتى الولد أحول فنزل.

•• ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم، وهذا مجاز شبهن بالمحارث تشبيها لما يلقى فى أرحامهن من النطف التى منها النسل بالبذور والولد بالنبات ووقع قوله: نساؤكم حرث لكم بيانا وتوضيحا لقوله: فأتوهن من حيث أمر كم الله أى إن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث لامكان الفرث تنبيها على أن المطلوب الأصلى فى الإتيان هو طلب النسل لاقضاء الشهوة، فلا تأتوهن إلا من المأتى الذى نيط به هذا المطلوب ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ جامعوهن متى شئتم، أو كيف شئتم باركة، أو مستلقية، أو مضطجعة بعد أن يكون المأتى واحدا وهو موضع الحرث وهو تمثيل أى فأتوهن كما تأتون أراضيكم التى تريدون أن تحرثوها من أى جهة شئتم لايحظر عليكم جهة وقوله: ﴿هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا﴾ من حيث أمركم الله فأتوا حرثكم أنى شئتم من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة فعلى كل مسلم أن يتأدب بها ويتكلف مثلها فى المحاورات والمكاتبات ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ ما يجب تقديمه من الأعمال الصالحة وما هو خلاف ما نهيتم عنه، أو هو طلب الولد أو التسمية على الوطء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تجترئوا على المناهى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ صائرون إليه فاستعدوا للقائه ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب يامحمد، وإنما جاء يسئلونك ثلاث مرات بلاواو، ثم مع الواو ثلاثا، لأن سؤالهم عن تلك الحوادث الأول كأنه وقع فى أحوال متفرقة فلم يؤت بحرف العطف، لأن كل واحد من السؤالات سؤال مبتدأ وسألوا عن الحوادث الأخر فى وقت واحد فجىء بحرف الجمع لذلك.

•• ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ العرضة فعلة بمعنى مفعول كالقبضة وهى اسم ما تعرضه دون الشىء من عرض العود على الإناء فيتعرض دونه ويصير حاجزا ومانعا منه تقول فلان عرضة دون الخير وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد أو عبادة، ثم يقول أخاف الله أن أحنث فى يمينى فيترك البرّ إرادة البر فى يمينه فقيل لهم: ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أى حاجزا لما حلفتم عليه، وسمى المحلوف عليه يمينا بتلبسه باليمين كقوله - عليه السلام - «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه». [1] وقوله: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ عطف بيان لأيمانكم أى للأمور المحلوف عليها التى هى البر

(١) أخرجه الخمسة بألفاظ متقاربة. عن عبدالرحمن بن سمرة وأبى هريرة رضى الله عنهم.

والتقوى والإصلاح بين الناس، واللام تتعلق بالفعل أى ولا تجعلوا الله لأيمانكم برزخاً، ويجوز أن تكون اللام للتعليل ويتعلق «أن تبروا» بالفعل أو بالعرضة؛ أ ى: ولا تجعلوا الله لأجل إيمانكم به عرضة لأن تبروا ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

●●﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذى لا يعتد به من كلام وغيره، ولغو اليمين الساقط الذى لا يعتد به فى الأيمان، وهو أن يحلف على شىء يظنه على ما حلف عليه والأمر بخلافه والمعنى لا يعاقبكم بلغو اليمين الذى يحلفه أحدكم وعند الشافعى ـ رحمة الله ـ هو ما يجرى على لسانه من غير قصد للحلف نحو لا والله وبلى والله ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ولكن يعاقبكم ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ بما اقترفته من إثم القصد إلى الكذب فى اليمين وهو أن يحلف على ما يعلم أنه خلاف ما يقوله وهو اليمين الغموس، وتعلق الشافعى بهذا النص على وجوب الكفارة فى الغموس، لأن كسب القلب العزم والقصد، والمؤاخذة غير مبينة هنا وبينت فى المائدة فكان البيان ثمة بيانا هنا، وقلنا: المؤاخذة هنا مطلقة وهى فى دار الجزاء والمؤاخذة، ثم مقيدة بدار الابتلاء فلايصح حمل البعض على البعض ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم.

●● ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ يقسمون وهى قراءة ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ومن فى ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يتعلق بالجار والمجرور أى للذين كما تقول: لك منى نصره ولك منى معونة أى للمؤلين من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أى استقر للمؤلين ترقب أربعة أشهر لايؤلون لأن آلى يعدى بعلى يقال آلى فلان على امرأته وَقوله القائل: آلى فلان من امرأته وهم توهمه من هذه الآية، ولك أن تقول عدى بمن لما فى هذا القسم من معنى البعد فكأنه قيل يبعدون من نسائهم مؤلين ﴿ فَإِن فَاءُوا﴾ فى الأشهر لقراءة عبدالله فإن فاءوا فيهن أى رجعوا إلى الوطء عن الإصرار بتركه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث شرع الكفارة.

●● ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ﴾ بترك الفىء فتربصوا إلى مضى المدة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لإيلائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيته وهو وعيد على إصرارهم وتركهم الفيئة، وعند الشافعى ـ رحمة الله ـ معناه فإن فاءوا، وإن عزموا بعده مضى المدة لأن الفاء للتعقيب وقلنا: قوله: فإن فاءوا. وإن عزموا تفصيل لقوله: للذين يولون من نسائهم والتفصيل يعقب المفصل، كما تقول أنا نزيلكم هذا الشهر فإن أحمدتكم أقمت عندكم إلى آخره وإلالم أقم إلا ريثما أتحول.

●●﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ أراد المدخول بهن من ذوات الأقراء ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ خبر فى معنى الأمر وأصل الكلام ولتتربص المطلقات، وإخراج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودا ونحوه قولهم فى الدعاء: رحمك الله أخرج فى صورة الخبر ثقة بالاستجابة، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها، وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضا فضل تأكيد؛ لأن الجملة الأسمية تدل على الدوام والثبات بخلاف الفعلية وفى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث، لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال فأمرن أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص ﴿ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾

جمع قَـرء أو قُرء وهو الحيـض لقوله ـ عـليه السـلام ـ : «دعى الصلاة أيـام أقرائك»[(١)]، وقوله: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان»،[(٢)] ولم يقل طهران، وقوله تعالى: ﴿وَاللاَّئِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾[(٣)] فأقام الأشـهر مقام الحيـض دون الأطهار؛ ولأن المطلوب من الـعدة استبراء الرحم والحيض هـو الذى يستبرأ به الأرحام دون الـطهر، ولذلك كان الاستبراء من الأمة بالحـيضة، ولأنه لو كان طهراً ـ كما قال الشافعى ـ لانـقضت العدة بقرأين وبعض الثالث فانتقـص العدد عن الثلاثة لأنه إذا طلقها لآخر الطهر فـذا محسوب من العدة عنده، وإذا طلقها فى آخر الحيض فذا غير محسوب مـن العدة عندنا، والثلاث اسم خاص لعدد مخصوص لايقع على مادونه ويقال: أقرأت المرأة إذا حاضت: وامرأة مقرىء، وانتصاب ثلاثة على أنه مفعول به أى يتربـصن مضى ثلاثة قروء، أو عـلى الظرف أى يتربصـن مدة ثلاثة قروء وجاء المميـز على جمع الكثرة دون الـقلة التى هى الأقراء؛ لاشتراكهمـا فى الجمعية اتساعاً ولعل الـقروء كانت أكثر استعمالا فى جمع قرء من الاقراء فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل ﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو من دم الحيض، أو منهما وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتـمت حملها لئلا ينتـظر بطلاقها أن تضع ولئلا يـشفق على الولد فيترك تـسريحها، أو كتمت حيضها وقالت وهى حـائض: قد طهرت استعجالا للطلاق، ثم عظـم فعلهن فقال ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأن من آمن بالله وبعقـابه لايجترى على مثله مـن العظائم ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ البعول جمـع بعل والتاء لاحقة لتـأنيث الجمع ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ أى أزواجهن أولى برجعـتهن وفيه دليل على أن الطـلاق الرجعى لا يحرم الوطء حيث سمـاه زوجا بعد الطلاق ﴿فِى ذَلِكَ﴾ فى مدة ذلك التربص، والمعنى أن الرجل إن أراد الرجعة وأبتها المرأة وجب إيثار قوله على قولها وكان هو أحق منها لا أن لها حقا فى الرجعة ﴿ إِنْ أَرَادُوا ﴾ بالرجعة ﴿إِصْلاحًا﴾ لما بينهم وبينهن وإحساناً إليهن ولم يريدوا مضارتهن ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾ ويجب لهن من الحق على الرجال من المهر والنفقة وحسن العـشرة وترك المضارة مثل الذى يجب لهم عليـهن من الأمر والنهى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الـذى لاينكر فى الشرع وعـادات الناس فلا يكلف أحـد الزوجين صاحبه مالـيس له والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب الواجب فى كونه حسنة لا فـى جنس الفعل فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه، أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك ولكن يـقابله بما يليق بالرجال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ زيادة فى الحق وفضيـلة بالقيام بأمرهـا وإن اشتركا فى اللذة والاسـتمتاع، أو بالإنفاق وملـك النكاح ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ الا يعترض عليه فى أموره ﴿حَكِيمٌ﴾ لايأمر إلا بما هو صواب وحسن.

---

(١) أخرجه الدارقطنى من حديث حبيب بن أبى ثابت.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة والحاكم والدارقطنى.

(٣) سورة «الطلاق»، الآية (٤).

●● ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾ الطلاق بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم أى التطليق الشرعى تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾[1] أى كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين،وهو دليل لنا فى أن الجمع بين الطلقتين والثلاثة بدعة فى طهر واحد، لأن الله تعالى أمرنا بالتفريق لأنه وإن كان ظاهره الخبر فمعناه الأمر وإلا يودى إلى الخلف فى خبر الله تعالى، لأن الطلاق على وجه الجمع قد يوجد، وقيل: قالت أنصارية إن زوجى قال: لا أزال أطلقك ثم أراجعك؛ فنزلت الطلاق مرتان أى الطلاق الرجعى مرتان لأنه لا رجعة بعد الثالث ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ برجعة والمعنى فالواجب عليكم إمساك بمعروف ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ بأن لا يراجعها حتى تبين بالعدة وقيل بأن يطلقها الثالثة فى الطهر الثالث، ونزل فى جميلة [2] وزوجها ثابت بن قيس بن شماس [3] وكانت تبغضه وهو يحبها وقد أعطاها حديقة فاختلعت منه بها، وهو أول خلع كان فى الإسلام ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج أو الحكام لأنهم الآمرون بالأخذو الإيتاء عند الترافع إليهم فكأنهم الآخذون والمؤتون ﴿أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ مما أعطيتموهن من المهور ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إلا أن يعلم الزوجان ترك إقامة حدود الله فيما يلزمهما من مواجب الزوجية لما يحدث من نشوز المرأة وسوء خلقها ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الولاة وجاز أن يكون أول خطاب للأزواج وآخره للحكام ﴿ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على الرجل فيما أخذ ولاعليها فيما أعطت ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فيما افتدت به نفسها واختلعت به من بذل ما أوتيت من المهر إلاأن يخافا، حمزة على البناء للمفعول، وإبدال ألا يقيما من ألف الضمير وهو من بدل الاشتمال نحو خيف زيد تركه إقامة حدود الله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى ما حد من النكاح واليمين والإيلاء والطلاق والخلع وغير ذلك ﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تجاوزوها بالمخالفة ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الضارون أنفسهم ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ مرة ثالثة بعد المرتين فإن قلت الخلع طلاق عندنا وكذا عند الشافعى - رحمه الله فى

---

(١) سورة «الملك»، الآية (٤).

(٢) اختلف فى صاحبة القصة؛ هل هى «جميلة بنت أبى بن سلول»؟ أم هى «حبيبة بنت سهل بن ثعلبة»؟!، والأرجح؛ أن كلاً منهما كانت تحت ثابت، واختلعت منه، مع اختلاف الزمن.

تهذيب التهذيب (٦/ ٥٨٧).

(٣) هو الصحابى، ثابت بن قيس بن شماس بن مالك بن امرئ القيس، الخزرجى، أبو عبدالرحمن، ويقال: أبو محمد، المدنى، خطيب رسول الله ﷺ، له مناقب كثيرة، وزكاه رسول الله ﷺ أكثر من مرة؛ إلا إنه لم يكن وسيماً، فكان أن حدثت معه واقعتا الخلع مع كلٍّ من حبيبة، وجميلة، فى زمنين مختلفين، ولكن ذلك - بطبيعة الحال - لا يقدح فى قدره ومكانته - رضى الله عنه - شهد قيس أحداً، وما بعدها، وتوفى يوم اليمامة عام ١٢هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٣٣٢، ٣٣٣).

قول فكأن هذه تطـليقة رابعة قلت: الخلع طلاق بيـدل فيكون طلقة ثالثة، وهذه بـيان لتلك أى فإن طلقها الثالثة بيـدل فحكم التحليل كذا ﴿فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد التطـليقة الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ حتى تتزوج غيره والنـكاح يسند إلى المرأة كما يسند إلى الرجـل كالتزوج، وفيه دليل على أن النكاح ينعقد بعبارتها والإصارة شرطت بحديث العسيلة كما عرف فى أصول الفقه، والفقة فيه أنه لما أقدم على فراق لم يبق للندم مخلصا لم تحل له إلا بدخول فحل عليها ليمتنع عن ارتكابه ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثانى بعد الوطء ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ على الزوج الأول وعليها ﴿ أَن يَتَرَاجَعَا ﴾ أن يرجع كل واحد منهمـا إلى صاحبه بالزواج ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إن كان فى ظنـهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية ولم يقل إن علما أنهـما يقيمان، لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا ﴾ وبالنون المفضل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون ما بين لهم.

●●﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى آخر عدتهن وشـارفن منتهاها والأجل يـقع على المدة كلها وعلى آخرها يقال لعمر الإنـسان أجل وللموت الذى ينتهى به أجل ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أى فإما أن يراجـعها من غير طـلب ضرار بالمراجعـة،وإما أن يخليهـا حتى تنقضى عدتها وتبين من غير ضرار ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا ﴾ مفعول له، أو حال أى مضارين وكان الرجل يطلق المرأة ويتركـها حتى يقرب انقضاء عدتها، ثم يراجعهـا ـ لا عن حاجة ـ ولكن ليطوّل العدة عليها فهو الإمساك ضرارا ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾ لتظلموهن، أو لتلجئوهن إلى الافتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يعنى الإمساك للضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لعقاب الله ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أى جدوا بالأخذ بها والعمل بما فيها وارعوها حق رعايتها وإلا فقد أتخذتمو هاهزوا يقال لمن لم يجد فى الأمر: إنما أنت لاعب وهازئ ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام وبنبوة محمد ـ علية السلام ـ ﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من القرآن والسنة وذكرها مقابلتـها بالشكر والقيام بحقها ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ بما أنزل عليكم وهو حال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما امتحنكم به ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الذكر والاتقاء والائماظ وغير ذلك، وهو أبلغ وعد ووعيد.

●●﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أى انقضـت عدتهن فدل سيـاق الكلامين علـى افتراق البلوغين، لأن النكاح يـعقبه هنا وذا يكون بعد العدة وفى الأولى الـرجعة وذا يكون فى العدة ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فلا تمنعوهن، العضل: المنع والتضييق ﴿أَن يَنكِحْنَ﴾ من أن ينكحن ﴿ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الذين يرغبن فيهـم ويصلحون لهن وفيـه إشارة إلى انعقاد النكـاح بعبارة النساء والخطـاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلما ولا يتر كونهن يتزوجن من شئن من الأزواج سموا أزواجا باسم ما يؤول إلـيه، أو للاولياء فى عضلهـن أن يرجعن إلى أزواجهن الذين كـانوا أزواجا لهن،

سموا أزواجا باعتبار ما كان نزلت فى معقل بن يسار [(١)] حين عضل اخته أن ترجع إلى الزوج الأول، أو للناس أى لا يوجد فيما بينكم عضل، لأنه إذا وجد بينهم وهم راضون كانوا فى حكم العاضلين ﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم﴾ إذا تراضى الخطاب والنساء ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يحسن فى الدين والمروءة من الشرائط، أو بمهر المثل والكفء، لأن عند عدم أحدهما للاولياء أن يتعرضوا، والخطاب فى ﴿ذَلِكَ﴾ للنبى (ﷺ) أو لكل واحد ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فالموعظة إنما تنجع فيهم ﴿ذَلِكُمْ﴾ أى ترك العضل والضرار ﴿أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أى لكم من أدناس الآثام، أو أزكى وأطهر أفضل وأطيب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فى ذلك من الزكاء والطهر ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

●● ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ﴾ خبر فى معنى الأمر المؤكد كيتر بصن وهذا الأمر على وجه الندب، أو على وجه الوجوب إذا لم يقبل الصبى إلا ثدى أمه، أو لم توجد له ظئر أو كان الأب عاجزا عن الاستئجار أو أراد الوالدات المطلقات وإيجاب النفقة والكسوة لأجل الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ﴾ ظرف ﴿كَامِلَيْنِ﴾ تامين وهو تأكيد لأنه مما يتسامح فيه فإنك تقول: أقمت عند فلان حولين ولم تستكملهما ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ بيان لمن توجه إليه الحكم، أى هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة والحاصل أن الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئرا [(٢)] إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعة وهى مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه ولا يجوز استجار الأم ما دامت زوجة أو معتدة ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ الهاء يعود إلى اللام الذى بمعنى الذى، والتقدير وعلى الذى يولد له وهو الوالد، وله فى محل الرفع على الفاعلية كعليهم فى المغضوب عليهم؛ وإنما قيل على المولود له دون الوالد ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم إذ الاولاد للآباء، والنسب إليهم لا إليهن؛ فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظآر ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله: ﴿وَاخْشَوْاْ يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾[(٣)] ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بلا إسراف ولا تقتير وتفسيره ما يعقبه وهو أن لا يكلف واحد منهما ما ليس فى وسعه ولايتضارا ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وجدها أو قدر إمكانها. والتكليف إلزام ما يوثره فى الكلفة، وانتصاب وسعها على أنه مفعول ثان لتكلف لاعلى الاستثناء ودخلت إلا بين المفعولين ﴿لاَ تُضَارَّ﴾ مكى وبصرى بالرفع على الإخبار ومعناه النهى، وهو يحتمل

---

(١) هو الصحابى الجليل: معقل بن يسار بن عبدالله المزنى، أبو على، ويقال: أبو يسار، وهو ممن بايع تحت الشجرة، مع الذين رضى الله عنهم، وقد روى عن النبى ﷺ، وروى عنه جمع من كبار التابعين، وهو الذى فجر نهر معقل بالبصرة، ذكره البخارى فى الأوسط، فى فصل من مات مابين ٦٠هـ إلى ٧٠هـ.

تهذيب التهذيب (٥/ ٤٩٦).

(٢) الظئر: المرضعة لولد غيرها. (المعجم الوسيط).

(٣) سورة «لقمان»، الآية (٣٣).

البناء للفاعل والمفعول وأن يكون الأصل تضارر بكسر الراء، أو تضارر فتحها الباقون لاتضار على النهى، والأصل تضارر أسكنت الراء الأولى وأدغمت فى الثانية فالتقى الساكنان ففتحت الثانية لالتقاء الساكنين ﴿وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ أى لاتضار والدة زوجها بسبب ولدها وهو أن تعنف به وتطلب منه ما ليس بعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد وأن تقول بعدما ألفها الصبى أطلب له ظئراو ما أشبه ذلك ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ أى ولايضار مولود له امرأته بسبب ولده بأن يمنعها شيئا مما وجب عليه من رزقها وكسوتها، أو يأخذه منها وهى تريد إرضاعه، وإذا كان مبنيا للمفعول فهو نهى عن أن يلحق بها الضرار من قبل الزوج وعن أن يلحق الضرار بالزوج من قبلها بسبب الولد، أو تضار بمعنى تضر والباء من صلته، أى لاتضر والدة ولدها فلا تسىء غذاءه وتعهده، ولاتدفعه إلى الأب بعد ما ألفها، ولايضر الوالد به بأن ينتزعه من يدها، أو يقصر فى حقها فتقصر هى فى حق الولد، وإنما قيل بولدها وبولده، لأنه لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافا لها عليه، وكذلك الوالد ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ عطف على قوله: وعى المولود له رزقهن وكسوتهن، وما بينهما تفسير للمعروف معترض بين المعطوف والمعطوف عليه أى وعلى وارث الصبى عند عدم الأب ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أى مثل الذى كان على أبيه فى حياته من الرزق والكسوة، واختلف فيه فعند ابن أبى ليلى [1] كل من ورثه وعندنا من كان ذارحم محرم منه لقراءة ابن مسعود - رضى الله عنه - وعلى الوارث ذى الرحم المحرم مثل ذلك، وعند الشافعى - رحمة الله - لانفقة فيما عدا الولاد ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ يعنى الأبوين ﴿فِصَالًا﴾ فطاما صادراً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فى ذلك زادا على الحولين أو نقصا، وهذه توسعة بعد التحديد والتشاور استخراج الرأى من شرت العسل إذا استخرجته وذكره ليكون التراضى عن تفكر فلا يضر الرضيع فسبحان الذى أدب الكبير ولم يهمل الصغير واعتبر اتفاقهما، لأن للأب النسبة والولاية وللأم الشفقة والعناية ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أى لأولادكم عن الزجاج، وقيل: استرضع منقول من أرضع، يقال: أرضعت المرأة الصبى واسترضعتها الصبى معدى إلى مفعولين أى أن تسترضعوا المراضع أولادكم، فخذف أحد المفعولين يعنى غير الأم عند إبائها أو عجزها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع ﴿مَّا آتَيْتُم﴾ ما أردتم إيتاءه من الأجرة أتيتم مكى من أتى إليه إحساناً إذا فعله ومنه قوله ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [2] أى مفعولا، والتسليم ندب لاشرط للجواز

(١) ابن أبى ليلى: هو محمد بن عبدالرحمن بن أبى ليلى، الأنصارى، أبو عبدالرحمن الكوفى، الفقيه، قاضى الكوفة، وكان أهل الحديث يجرحونه من قبل حفظة؛ لا من قبل عدالته؛ فإنه فى أعلى مراتب الفقهاء.

ولد سنة ٧٤هـ، وتوفى عام ١٤٨هـ.

تهذيب التهذيب (٥/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) سورة «مريم»، الآية (٦١).

﴿بِالْمَعْرُوف﴾ متعلق بسلمتم أى سلمتم الأجرة إلى المراضع بطيب نفس وسرور ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لاتخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها.

•• ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ تقول: توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وافيا تاما أى تستوفى أرواحهم ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أى وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن أى يعتددن، أو معناه يتربصن بعدهم بأنفسهن فخذف بعدهم للعلم به، وإنما احتيج إلى تقديره لأنه لابد من عائد يرجع إلى المبتدأ فى الجملة التى وقعت خبراً يتوفون المفصل أى يستوفون آجالهم ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أى وعشر ليال والأيام داخلة معها ولايستعمل التذكر فيه ذهابا إلى الأيام تقول صمت عشرا ولو ذكرت لخرجت من كلامهم ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة والحكام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب ﴿بِالْمَعْرُوف﴾ بالوجه الذى لاينكره الشرع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بالبواطن.

•• ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ الخطبة الاستنكاح، والتعريض أن تقول لها: إنك لجميلة، أو صالحة ومن غرضى أن أتزوج ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح فلا يقول إنى أريد أن أتزوجك، والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم ولذلك قالوا:

* وحسبك بالتسليم منى تقاضيا *

فكأنه إمالة الكلام إلى غرض يدل على الغرض ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أو سترتم وأضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لامعرضين ولا مصرحين ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ لامحالة ولاتنفكون عن النطق برغبتكم فيهم فاذ كروهن ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ جماعا، لأنه مما يسر أى لاتقولوا فى العدة إنى قادر على هذا العمل ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرضوا ولاتصرحوا، وإلا متعلق بلا تواعدوهن أى لاتواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ من عزم الأمر وعزم عليه، وذكر العزم مبالغة فى النهى عن عقد النكاح، لأن العزم على الفعل يتقدمه فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى ومعناه ولاتعزموا عقد عقدة النكاح أو ولاتقطعوا عقدة النكاح لأن حقيقة العزم القطع ومنه الحديث: «لاصيام لمن لم يعزم الصيام من الليل». (١) وروى: «لمن لم يبيت الصيام»(٢) أى ولاتعزموا على عقدة النكاح ﴿حَتَّىٰ

---

(١) رواه أصحاب السنن من حديث حفصة بلفظ: «لمن لم يُجمع».
(٢) هذه الرواية عند النسائى.

﴿يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى تنقضى عدتها، وسميت العدة كتابا لأنها فرضت بالكتاب يعنى حتى يبلغ التربص الكتوب عليها أجله أى غايته ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على مالا يجوز ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ ولاتعزموا عليه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لايعاجلكم بالعقوبة، ونزل فيمن طلق امرأته ولم يكن سمى لهامهرا ولاجامعها.

●● ﴿لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لاتبعة عليكم من إيجاب مهر ﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ شرط، ويدل على جوابه لاجناح عليكم والتقدير إن طلقتم النساء فلا جناح عليكم ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ مالم تجامعوهن وماشرطية أى إن لم تمسوهن تماسوهن حمزة وعلى حيث وقع، لأن الفعل واقع بين اثنين ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إلا أن تفرضوا لهن فريضة أو حتى تفرضوا، وفرض الفريضة تسمية المهر وذلك أن المطلقة غير الموطوءة لها نصف المسمى إن سمى لها مهر، وإن لم يسم لها مهر فليس لها نصف مهر المثل، بل تجب المتعة والدليل على أن الجناح تبعة المهر قوله: وإن طلقتموهن إلى قوله فنصف ما فرضتم فقوله: فنصف مافرضتم إثبات للجناح المنفى ثمة ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ معطوف على فعل محذوف تقديره فطلقوهن ومتعوهن والمتعة درع وملحفة وخمار ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾ الذى له سعة ﴿قَدَرُهُ﴾ مقداره الذى يطيقه قدره فيهما كوفى غير أبى بكر، وهما لغتان ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ الضيق الحال ﴿قَدَرُهُ﴾ ولاتجب المتعة عندها إلا لهذه وتستحب لسائر المطلقات ﴿مَتَاعًا﴾ تأكيد لمتعوهن أى تمتيعاً ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذى يحسن فى الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعا أى متاعا واجبا عليهم أوحق ذلك حقا ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ على المسلمين أو على الذين يحسنون إلى المطلقات بالتمتيع وسماهم قبل الفعل محسنين، كقوله ـ عليه السلام ـ : «من قتل قتيلا فله سلبه» (١). وليس هذا الإحسان هو التبرع بما ليس عليه إذ هذه المتعة واجبة، ثم بين حكم التى سمى لها مهرا فى الطلاق قبل المس، فقال.

●● ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أن مع الفعل بتأويل المصدر فى موضع الجر أى من قبل مسكم إياهن ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾ فى موضع الحال ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهرا ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ يريد المطلقات وأن مع الفعل فى موضع النصب على الاستثناء، كأنه قيل: فعليكم نصف مافرضتم فى جميع الأوقات إلا وقت عفوهن عنكم من المهر، والفرق بين الرجال يعفون والنساء يعفون أن الواو فى الأول ضميرهم والنون علم الرفع، والواو فى الثانى لام الفعل والنون ضميرهن، والفعل مبنى لا أثر فى لفظه للعامل ﴿أَوْ يَعْفُوَ﴾ عطف على محله ﴿الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو الزوج كذا فسره على ـ رضى الله عنه ـ وهو قول سعيد بن جبير(٢)

(١) تقدم تخريجه.

(٢) هو: سعيد بن جبير بن هشام، الأسدى، الوالبى، مولاهم، أبو محمد، ـ ويقال: أبو عبدالله ـ الكوفى، من سادات التابعين، من أعلاهم قدراً، روى عن ابن عباس، وبعض صغار الصحابة، وروى عنه من بعده من التابعين، وله قصة مشهورة مع الحجاج بن يوسف، انتهت بأن قتله الحجاج عام ٩٥هـ، وهو ابن ٤٩ أو ٥٠ سنة، ومات الحجاج بعده بأيام، وكان مولد الحجاج سنة ٤٠هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤).

وشريح[1] ومجاهد وأبى حنيـفة والشافعى على الجديد ـ رضى الله عنـهم ـ وهذا، لأن الطلاق بيده فكان بقاء العـقد بيده والمعنى أن الواجب شرعـا هو النصف إلا أن تسقط هى الكـل أو يعطى هو الكل تفضلا، وعـند مالك والشافعى فى القديم هو الـولى قلنا: هو لا يملك التبرع بـحق الصغيرة فكيف يجوز حـمله عليه ﴿وأَن تعْفُوا﴾ مبتدأ خبره ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ والخطاب لـلأزواج والزوجات على سبيل التغلـيب ذكره الزجاج أى عفو الزوج بإعطاء كل المهر خير لـه وعفو المرأة بإسقاط كله خير لها أو للأزواج ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ﴾ التفضل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أى ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على تفضلكم.

●● ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ داوموا عليها بمواقيتـها وأركانها وشرائطها ﴿ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ بين الصـلوات أى الفضـلى من قولـهم للأفضل الأوسـط، وإنما أفردت وعطـفت على الـصلوات لانفرادها بالفـضل وهى صلاة العصر عند أبى حنـيفة ـ رحمه الله ـ وعليه الجمهور، لـقوله ـ عليه السلام ـ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نـاراً» [2] وقـال ـ عليـه السـلام ـ: «إنها الصـلاة التى شغل عنهـا سليمان حتى تـوارت بالحجاب [3] وفى مصحف حفصة والصلاة الوسطى صلاة العصر [4]؛ ولأنها بين صلاتى الليل وصلاتى النهار وفضلها لما فى وقتها من اشـتغال الناس بتجاراتـهم ومعايشهم، وقيـل: صلاة الظهر، لأنها فى وسـط النهار، أو صلاة الفجـر لأنها بين صلاتى النـهار وصلاتى الليـل، أو صلاة المغرب لأنها بين الأربـع والمثنى ولأنها بين صلاتـى مخافتة وصلاتى جهر، أو صلاة الـعشاء لأنها بين وترين، أو هى غيـر معينة كليلة القدر ليحفظوا الكل ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ فى الصلاة ﴿ قَانِتِينَ﴾ حال أى مطيعين خاشعين أو ذا كرين الله فى قيامكم، والقنوت أن تذكر الله قائماً أو مطيلين القيام.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فإن كان بـكم خوف من عـدو أو غيره ﴿فَرِجَالاً﴾ حال أى فصلـوا راجلين، وهو جمع راجل كقائم وقيام ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ وحدانا بإيماء ويسقط عنـه التوجه إلى القبلة ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ فإذا زال خوفكم ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فصلـوا صلاة الأمن ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أى ذكرا مثـل ماعلمـكم ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ من صلاة الأمن.

●● ﴿الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِم﴾ بالنصب شامـى وأبو عمرو وحمزة وحفص أى فليوصوا وصية عن الزجاج غيـرهم بالرفع أى فعليهم وصية ﴿مَّتَاعًا﴾ نصب بالوصية،

---

(١) شريح بن يزيد الحضرمى، أبو حيوة الحمصى، المؤذن، المقرئ، كان مقرئ الشام فى زمانه. كانت وفاته عام ٢٠٣هـ. تهذيب التهذيب (٢/ ٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم بهذا اللفظ (انظر صحيح مسلم).

(٣) رواه ابن أبى شيبة عن الحرث بن على مرفوعاً، وابن عدى فى الكامل عن علىّ مرفوعاً.

(٤) أخرجه ابن جرير عن سالم، ومالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم وابن حبان.

لأنها مصـدر، أو تقديره متعوهـن متاعا ﴿إِلَى الْحَوْلِ﴾ صفة لمتاعا ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ مصدر مؤكد، كقولك: هذا القول غيـر ما تقول أو بدل من متاعاً والمعنى أن حق الذيـن يتوفون عن أزواجهم أن يوصـوا قبل أن يحـتضروا بأن تمـتع أزواجهم بـعدهم حـولا كاملا أى ينـفق عليـهن من تركـته ولايخرجن من مساكـنهن، وكان ذلك مشروعا فى أول الإسلام، ثم نسـخ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ إلى قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1]. والناسـخ متقدم علـيه تلاوة ومتأخر نزولا كقـوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾.[2] مع قوله تـعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[3] ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بعد الحول ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزين والتعرض للخطاب ﴿ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما ليس بمنكر شرعا ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما حكم.

●● ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ أى نفقة العدة ﴿بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا﴾ نصب على المصدر ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

●● ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هو فى موضع الرفع، لأنه خبر لعل، وإن أريد به المتعة فالمراد غير المطلقة المذكورة، وهى على سبيل الندب

●● ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقرير لمن سمع بـقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين وتعـجيب من شأنهم، ويجوز أن يخاطب به من لم ير ولم يسمع، لأن هذا الكـلام جرى مجرى المثل فى معنى التعجيب ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ من قرية قـيل: واسط [4] وقع فيهم الطاعـون؛ فخرجوا هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حزقيل ـ عليه السلام ـ وقيل: هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فـهربوا حذرا من الموت فأماتـهم الله ثمانية أيام ثـم أحياهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فى موضع النصـب على الحال، وفيه دلـيل على الألوف الكـثيرة، لأنها جـمع كثرة وهى جمـع ألف لا آلف ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أى فأماتهم الله، وإنما جىء بـه على هذه العبارة للدلالة عـلى أنهم ماتوا مـيتة رجل واحد بأمر الله ومـشيئته، وتلك مـيتة خارجة عن الـعادة وفيه تشجيع للمسلمين على الجهاد، وأن الموت إذا لم يكـن منه بدو لم ينفع منه مفر فأولى أن يكون فى سبيل الله ﴿ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ ليعتبروا ويعلموا أنه لامفر من حـكم الله وقضائه، وهو معطوف على فعل محذوف تقديره فماتوا، ثـم أحياهم أو لما كان معنى قوله: فقال لهم الله موتـوا فأماتهم كان عطفا عليه معنى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث يبصرهـم ما يعتبرون به كما بصـر أولئك وكما

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٣٤).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٤٢).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (١٤٤).

(٤) واسط: اسم مكان يـطلق على عدة مواضع منـها فى حلب، وقرب بغداد، وغـربى الفرات، ومن منازل بنى قشير فى الأندلس.

بصركم باقتصاص خبرهم، أو لذو فضل على الناس حيث أحيا أولئك ليعتبروا فيفوزوا، ولو شاء لتركهم موتى إلى يوم النشور ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ ذلك والدليل على أنه ساق هذه القصة بعثا على الجهاد ما أتبعه من الأمر بالقتال فى سبيل الله وهو قوله.

•• ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فحرض على الجهاد بعد الإعلام، لأن الفرار من الموت لايغنى وهذا الخطاب لأمة محمد - عليه السلام - أو لمن أحياهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

•• ﴿مَن﴾ استفهام فى موضع رفع بالابتداء ﴿ذَا﴾ خبره ﴿الَّذِي﴾ نعت لذا أو بدل منه ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ صلة الذى، سمى ما ينفق فى سبيل الله قرضا، لأن القرض ما يقبض ببدل مثله من بعد. سمى به لأن المقرض يقطعه من ماله فيدفعه إليه، والقرض القطع ومنه المقراض وقرض الفأر والانقراض فنبههم بذلك على أنه لا يضيع عنده وأنه يجزيهم عليه لا محالة ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بطيبة النفس من المال الطيب والمراد النفقة فى الجهاد؛ لأنه لما أمر بالقتال فى سبيل الله ويحتاج فيه إلى المال حث على الصدقة ليتهيأ أسباب الجهاد ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ بالنصب عاصم على جواب الاستفهام وبالرفع أبو عمرو ونافع وحمزة وعلى عطفا على يقرض، أو هو مستأنف أى فهو يضاعفه فيضعفه شامى، فيضعفُه مكى ﴿أَضْعَافًا﴾ فى موضع المصدر ﴿كَثِيرَةً﴾ لا يعلم كنهها إلا الله وقيل: الواحد بسبعمائة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقتر الرزق على عباده ويوسعه عليهم فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضّيق بالسعة ويبسط حجازى وعاصم وعلى ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم.

•• ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ﴾ الأشراف، لأنهم يملئون القلوب جلالة والعيون مهابة ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من للتبعيض ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ من بعد موته ومن لابتداء الغاية ﴿إِذْ قَالُوا﴾ حين قالوا ﴿لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو شمعون أو يوشع أو اشمويل ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أنهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير الحرب عن رأيه وننتهى إلى أمره ﴿نُقَاتِلْ﴾ بالنون والجزم على الجواب ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صلة نقاتل ﴿قَالَ﴾ النبى ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ عسيتم حيث كان نافع ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ شرط فاصل بين اسم عسى، وخبره وهو ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ والمعنى هل قاربتم أن لا تقاتلوا يعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون وتجبنون، فأدخل هل مستفهما عما هو متوقع عنده، وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب فى توقعه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأى داع لنا إلى ترك القتال وأى غرض لنا فيه ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ الواو فى وقد للحال، وذلك أن قوم جالوت كانوا يسكنون بين مصر وفلسطين فأسروا من أبناء ملوكهم أربعمائة وأربعين يعنون إذا

بلغ الأمر منا هذا المبلغ فلابد من الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أى أجيبوا إلى ملتمسهم ﴿تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر على عدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد.

•• ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ هو اسم أعجمى كجالوت وداود ومنع من الصرف للتعريف والعجمة ﴿مَلِكًا﴾ حال ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أى كيف ومن أين، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ الواو للحال ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ أى كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك وأنه فقير ولابد للملك من مال يعتضد به؛ وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت فى سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام، والملك فى سبط يهوذا وهو كان من سبط بنيامين وكان رجلا سقاء، أو دباغا فقيرا وروى أن نبيهم دعا الله حين طلبوا منه ملكا فأتى بعصا يقاص بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ الطاء فى اصطفاء بدل من التاء لمكان الصاد الساكنة أى اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكمه، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما العلم المبسوط والجسامة فقال ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ مفعول ثان ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ قالوا: كان أعلم بنى إسرائيل بالحرب والديانات فى وقته، وأطول من كل إنسان برأسه ومنكبه، والبسطة السعة والامتداد والملك لابد أن يكون من أهل العلم فإن الجاهل دليل مزدرى غير منتفع به، وأن يكون جسيما؛ لأنه أعظم فى النفوس وأهيب فى القلوب ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ أى الملك له غير منازع فيه وهو يؤتيه من يشاء إيتاءه وليس ذلك بالوراثة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أى واسع الفضل والعطاء يوسع على من ليس له سعة من المال ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك فثمة طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله طالوت.

•• ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أى صندوق التوراة وكان موسى - عليه السلام - إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بنى إسرائيل ولا يفرون ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سكون وطمأنينة ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ هى رضاض الألواح(١) وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة وفعلا موسَى وهارون - عليهما السلام - ﴿مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ أى مما تركه موسى وهارون، والآل مقحم لتفخيم شأنهم ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعنى التابوت وكان رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، والجملة فى موضع الحال، وكذا فيه سكينة. ومن ربكم نعت لسكينة ومما

---

(١) رضاض الألواح: ما بقى منها بعد أن تكسرت وتفتتت.

ترك نعت لبقية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن فى رجوع التابوت إليكم علامة أن الله قد ملك طالوت عليكم إن كنتم مصدقين.

●● ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ﴾ خرج ﴿بِالْجُنُودِ ﴾ عن بلده إلى جهاد العدو وبالجنود فى موضع الحال أى مختلطا بالجنود وهم ثمانون ألفا، وكان الوقت قيظا وسألوا أن يجرى الله لهم نهرا ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم أى يعاملكم معاملة المختبر ﴿بِنَهَرٍ﴾ وهو نهر فلسطين؛ ليتميز المحقق فى الجهاد من المعذر ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعا ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أتباعى وأشياعى ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ومن لم يذقه من طعم الشىء إذا ذاقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وبفتح الياء مدنى وأبو عمرو، واستثنى ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ﴾ من قوله فمن شرب منه فليس منى، والجملة الثانية فى حكم المتأخرة عن الاستثناء إلا أنها قدمت للعناية ﴿غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ غرفة حجازى وأبو عمرو بمعنى المصدر، وبالضم بمعنى المغروف، ومعناه الرخصة فى اغتراف الغرفة باليد دون الكرع، والدليل عليه ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أى فكرعوا ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ أى النهر ﴿هُوَ﴾ طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أى القليل. ﴿قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾ أى لا قوة لنا ﴿بِجَالُوتَ﴾ هوجبار من العمالقة من أولاد عمليق ابن عاد، وكان فى بيضته[1] ثلثمائة رطل من الحديد ﴿وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ﴾ يوقنون بالشهادة، قيل: الضمير فى قالوا للكثير الذين انخذلوا، والذين يظنون هم القليل الذين ثبتوا معه، وروى أن الغرفة كانت تكفى الرجل لشربه وإداوته، والذين شربوا منه اسودت شفاههم وغلبهم العطش ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ كم خبرية، وموضعها رفع بالابتداء ﴿غَلَبَتْ﴾ خبرها ﴿فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بنصره ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر.

●● ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ خرجوا لقتالهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ اصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا وإلقاء الرعب فى صدور عدونا ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أعنا عليهم.

●● ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أى طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بقضائه ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ كان يشا أبو داود فى عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم - وهو صغير يرعى الغنم - فأوحى الله إلى نبيهم أن داود هو الذى يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد مر فى طريقه بثلاثة أحجار دعاه كل واحد منها أن يحمله، وقالت له إنك تقتل بنا جالوت فحملها فى مخلاته ورمى بها جالوت فقتله، وزوجه طالوت بنته، ثم حسده وأراد قتله ثم مات تائبا ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ فى مشارق الأرض المقدسة ومغاربها وما اجتمعت بنو إسرائيل على ملك قط قبل داود

(١) البيضة - بوجه عام - : ما يهتم الإنسان بحفظه. ويقصد به هنا: «السلاح».

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والنبوة ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من صنعة الدروع وكلام الطيور والدواب وغير ذلك ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ هو مفعول به ﴿بَعْضَهُم﴾ بدل من الناس دفاع مدنى مصدر دفع أو دافع ﴿بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أى ولولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها من الحرث والنسل، أوولولا أن الله تعالى ينصر المسلمين على الكافرين لفسدت الأرض بغلبة الكفار وقتل الأبرار وتخريب البلاد وتعذيب العباد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بإزالة الفساد عنهم، وهو دليل على المعتزلة فى مسئلة الأصلح.

●● ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعنى القصص التى اقتصها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم وتمليك طالوت وإظهاره على الجبابرة على يد صبى ﴿نَتْلُوهَا﴾ حال من آيات الله والعامل فيه معنى الإشارة أو آيات الله بدل من ونتلوها الخبر ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين الذى لا يشك فيه أهل الكتاب؛ لأنه فى كتبهم كذلك ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث تخبر بها من غير أن تعرف بقراءة كتاب، أو سماع من أهله.

●● ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى جماعة الرسل التى ذكرت قصصها فى هذه السورة من آدم إلى داود، أو التى ثبت علمها عند رسول الله ـ عليه السلام ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالخصائص وراء الرسالة لاستوائهم فيها كالمؤمنين يستوون فى صفة الإيمان ويتفاوتون فى الطاعات بعد الإيمان ثم بين ذلك بقوله ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أى كلمة الله حذف العائد من الصلة يعنى منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ مفعول أول ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مفعول ثان أى بدرجات أو إلى درجات، يعنى ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة وهو محمد (ﷺ) لأنه هو المفضل عليهم بإرساله إلى الكافة وبأنه أوتى مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقبة إلى ألف أو أكثر وأكبرها القرآن، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر وفى هذا الإبهام تفخيم وبيان أنه العلم الذى لا يشتبه على أحد والتميز الذى لا يلتبس، وقيل: أريد به محمد وإبراهيم وغيرهما من أولى العزم من الرسل ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قويناه بجبريل أو بالإنجيل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ﴾ أى ما اختلف، لأنه سببه ﴿الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات الظاهرات ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ بمشيئتى، ثم بين الاختلاف، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بمشيئتى يقول الله: أجريت أمور رسلى على هذا أى لم يجتمع لأحد منهم طاعة جميع أمته فى حياته ولا بعد وفاته بل اختلفوا عليه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ كرره للتأكيد أى لو شئت أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا إذ لا يجرى فى ملكى إلا ما يوافق مشيئتى، وهذا يبطل قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء أن لا يقتتلوا لم

يقتتلوا، وهم يقولون شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أثبت الإرادة لنفسه، كما هو مذهب أهل السنة.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ فى الجهاد فى سبيل الله أو هو عام فى كل صدقة واجبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أى من قبل ان يأتى يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيع فيه حتى تبتاعوا ما تنفقونه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم به ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ أى للكافرين فأما المؤمنون فلهم شفاعة أو إلا بإذنه ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم بتركهم التقديم ليوم حاجاتهم، أو الكافرون بهذا اليوم هم الظالمون لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة مكى وبصرى.

●● ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مع اسمه وخبره وما أبدل من موضعه فى موضع الرفع خبر المبتدأ وهو الله ﴿الْحَيُّ﴾ الباقى الذى لا سبيل عليه للفناء ﴿الْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ نعاس وهو ما يتقدم النوم من الفتور ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾. عن المفضل[1]: السنة ثقل فى الرأس والنعاس فى العين والنوم فى القلب وهو تأكيد للقيوم لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوما، وقد أوحى إلى موسى عليه السلام قل لهؤلاء إنى أمسك السموات والأرض بقدرتى فلو أخذنى نوم أو نعاس لزالتا ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وملكا ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وهو بيان لملكوته وكبريائه وأن أحدا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام، وفيه رد لزعم الكفار أن الأصنام تشفع لهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما كان قبلهم وما يكون بعدهم والضمير لما فى السماوات والأرض، لأن فيهم العقلاء ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ من معلومه يقال فى الدعاء: الهم اغفر علمك فينا أى معلومك ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ إلا بما علم ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى علمه ومنه الكراسة لتضمنها العلم والكراسى العلماء، وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذى هوكرسى العالم وهو كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[2] أو ملكه تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك أو عرشه كذا عين الحسن، أوهو سرير دون العرش فى الحديث: «ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بفلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[3] أو قدرته بدليل قوله. ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ ولا يثقله ولا يشق عليه ﴿حِفْظُهُمَا﴾ حفظ السموات والأرض ﴿وَهُوَ

---

(١) المفضل بن محمد بن مسعر بن محمد، التنوخى، المعرى، أبو المحاسن، كان قاضياً ببعلبك، وحدّث بالشام، وكان أقوى فى الأدب واللغة، ولكنه كان شيعيًا، معتزلاً (ت: ٤٤٢). الأعلام (٧/ ٢٨٠).

(٢) سورة «غافر»، الآية (٧).

(٣) ذكره البغوى وقال: فى جنب الكرسى. وذكره الخازن عن السدى وقال: فى «جوف الكرسى». وليس عندهما: «وفضل العرش على الكرسى».

﴿الْعَلِيُّ﴾ فى ملكه وسلطانه ﴿الْعَظِيمُ﴾ فى عزه وجلاله أو العلى المتعالى عن الصفات التى لا تليق به العظيم المتصف بالصفات التى تليق به فهما جامعان لكمال التوحيد، وإنما ترتبت الجمل فى آية الكرسى بلا حرف عطف، لأنها وردت على سبيل البيان، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه والثانية لكونه مالكا لما يدبره والثالثة لكبرياء شأنه والرابعة لإحاطته بأحوال الخلق والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو جلاله وعظم قدره، وإنما فضلت هذه الآية حتى ورد فى فضلها ماورد، منه ماروى عن على - رضى الله عنه - عن النبى (ﷺ): «من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه أمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله[(١)]». وقال - عليه السلام - : «سيد البشر آدم وسيد العرب محمد ولا فخر» وسيد الفرس سلمان، وسيد الروم صهيب، وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال الطور وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام القرآن، وسيد القرآن البقرة، وسيد البقرة آية الكرسى[(٢)] -وقال -: «ما قرئت هذه الآية فى دار إلا هجرتها الشياطين ثلاثين يوماً ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة[(٣)] وقال: «من قرأ آية الكرسى عند منامه بعث إليه ملك يحرسه حتى يصبح[(٤)]. وقال: «من قرأ هاتين الآيتين حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح، وإن قرأهما حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى: آية الكرسى وأول حم المؤمن إلى إليه المصير،[(٥)] لا شتمالهما على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة فما كان ذاكراً له كان أفضل من سائر الأذكار وبه يعلم أن أشرف العلوم علم التوحيد».

●● ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أى لا إجبار على الدين الحق وهو دين الإسلام، وقل: هو إخبار فى معنى النهى وروى أنه كان لأنصارى ابنان فتنصرا فلزمهما أبو همام، وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا فاختصما إلى رسول الله (ﷺ) فقال الأنصارى: يا رسول الله أيدخل بعضى فى النار وأنا أنظر؟! فنزلت[(٦)]. فخلاهما قال ابن مسعود وجماعة، كان هذا فى الابتداء ثم نسخ بالأمر بالقتال ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ قد تميز الإيمان من الكفر بالدلائل الواضحة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشيطان أو الأصنام ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ تمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ﴾ أى المعتصم والمتعلق ﴿الْوُثْقَىٰ﴾ تأنيث الأوثق أى الأشد من الحبل الوثيق المحكم المأمون ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع للعروة، وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والمعنى فقد عقد لنفسه من الدين عقداً وثيقاً لا تحله شبهة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لإقراره ﴿عَلِيمٌ﴾.

---

(١) الحديث رواه البيهقى فى «شعب الإيمان».

(٢)(٣) لم أجده فى كتب الحديث ! لمعتبرة.

(٤) الحديث عند الطبرانى فى «المعجم الأوسط»، وغيره.

(٥) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١/٢٥٦٩، ٢٥٧٠)، (٢/٤٠٥٦)، بألفاظ مقاربة.

(٦) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة، لكن ذكره الواحدى فى أسباب النزول.

•• ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أرادوا أن يؤمنوا أى ناصرهم ومتولى أمورهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من ظلمات الكفر والضلالة وجمعت لاختلافها ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان والهداية ووحد لاتحاد الإيمان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ، والجملة وهى ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ خبره ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وجمع لأن الطاغوت فى معنى الجمع يعنىء الذين صمموا على الكفر أمرهم على عكس ذلك، أو الله ولى المؤمنين يخرجهم من الشبهة فى الدين إن وقعت لهم بما يهديهم ويوفقهم له من حلها حتى يخرجوا منها إلى نور اليقين، والذين كفروا أولياؤهم الشياطين يخرجونهم من نور البينات الذى يظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ثم عجب نبيه - عليه السلام وسلاه بمجادلة إبراهيم - عليه السلام - نمرود الذى كان يدعى الربوبية بقوله.

•• ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾ فى معارضته وبربوبية ربه، والهاء فى ربه يرجع إلى إبراهيم أو إلى الذى حاج فهو ربهما ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لأن آتاه الله يعنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر فحاج لذلك، وهو دليل على المعتزلة فى الأصلح، أو حاج وقت أن آتاه الله الملك ﴿إِذْ قَالَ﴾ نصب بحاج أو بدل من إن آتاه إذا جعل بمعنى الوقت ﴿إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ﴾ رب حمزة ﴿الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ﴾ كأنه قال له من ربك؟ قال: ربى الذى يحيى ويميت ﴿قَالَ﴾ نمرود ﴿أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ﴾ يريد أعفو عن القتل وأقتل فانقطع اللعين بهذا عند المخاصمة فزاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما لا يتأتى فيه التلبيس على الضعفة حيث ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عليه السلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وهذا ليس بانتقال من حجة إلى حجة كما زعم البعض؛ لأن الحجة الأولى كانت لازمة ولكن لما عاند اللعين حجة الإحياء بتخلية واحد وقتل آخر كلمه من وجه لا يعاند وكانوا أهل تنجيم، وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية كتحريك الماء النمل على الرحى إلى غير جهة حركة النمل فقال إن ربى يحرك الشمس قسراً على غير حركتها فإن كنت ربا فحركها بحركتها فهو أهون ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ تحير ودهش ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى لا يوفقهم، وقالوا: إنما لم يقل نمرود فليأت ربك بالشمس من المغرب، لأن الله تعالى صرفه عنه وقيل إنه كان يدعى الربوبية لنفسه وما كان يعترف بالربوبية لغيره ومعنى قوله أنا أحيى وأميت أن الذى ينسب إليه الإحياء والإماتة أنا لا غيرى، والآية تدل على إباحة التكلم فى علم الكلام والمناظرة فيه لأنه قال: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ﴾ والمحاجة تكون بين اثنين فدل على أن إبراهيم حاجه أيضا ولو لم يكن مباحا لما باشرها إبراهيم - عليه السلام - لكون الأنبياء عليهم السلام معصومين عن ارتكاب الحرام ولأنا أمرنا بدعاء الكفرة إلى الإيمان بالله وتوحيده وإذا دعوناهم إلى ذلك لابد أن يطلبوا منا الدليل على ذلك، وذا لا يكون إلا بعد المناظرة كذا فى شرح التأويلات.

•• ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ﴾ معناه أو أرأيت مثل الـذى فخذف لدلالة ألم تر عليه لأن كلتـيهما كلمة تعجيب، أو هـو محمول على المعنى دون اللـفظ، تقديره أرأيت كالذى حاج إبـراهيم، أو كالذى مر، وقال صاحب الكشف[1]: قيه الكاف زائدة، والذى عطف على قوله إلى الذى حاج عن الحسن أن المار كان كافراً بالبعث لا نـتظامه مع نمرود فى سلك ولكلمة الاستبعـاد التى هى «أنى يحيى»، والأكثر أنه عزير أراد أن يعاين إحياء الموتى ليزداد بصـيرة كما طلبه إبراهيم ـ عليه السلام ـ «وأنى يحيى» إعتراف بالـعجز عن معرفة طريـقة الإحياء واستعظـام لقدرة المحى ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هى بـيت المقدس حين خربـه بختنصر وهى التى خـرج منها الألوف ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ ساقطة مع سقوفها، أو سقطت السقوف، ثم سقطـت عليها الحيطان، وكل مرتفع عرش ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي﴾ أى كيف ﴿هَٰذِهِ﴾ أى أهل هذه ﴿اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى أحياه ﴿قَالَ﴾ له ملك ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على الـظن وفيه دليل جواز الاجتـهاد روى أنه مات ضحى وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً، ثم التفت فرأى بقية من الشمس، فقال أو بعض يوم ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ روى أن طعامه كان تيناً وعنباً، وشرابه عصيراً ولبناً فـوجد التين والعنب كماجنيا والـشراب على حاله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير، والهاء أصلية، أو هاء سـكت واشتقاقه من السنة على الـوجهين، لأن لامها هاء لأن الأصل سنهـة والفعل سانهـت يقال سانهت فلانـا أى عاملته سنـة، أو واو لأن الأصل سنوة والفعل سانيت ومعناه لم تغيره السنون لم يتسن بحذف الهاء فى الوصل وبإثباتها فى الوقف حمزة وعلى ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفـرقت عظامه ونخرت، وكان لـه حمار قد ربطه فمـات وتفتت عظامه، أو وانظر إليه سالما فى مكانـه كما ربطته، وذلك من أعظم الايات أن يعـيش مائة عام من غير علف ولا ماء كماحفظ طعامه وشرابه من التغير ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك يريد إحياءه بعد الموت وحفظ مامعه، وقيل: الواوعـطف على محذوف أى لتعتبر ولنجعـلك. قيل: أتى قومه راكبا حمـارا، وقال: أنا عزيز، فكذبوه، فـقال هاتوا التوراة فأخذ يـقرؤها عن ظهر قلبـه ولم يقرأ التوراة ظاهراً أحد قبل عزير فذلك كونه آية، وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخاً وهو شاب ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أى عظام الحمار، أو عظام الموتى الذيـن تعجب من إحيائهم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نحركها ونرفع بعضـها إلى بعض للتركيب ننشرها بالراء حـجازى وبصرى نحييها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ أى العظام ﴿لَحْمًا﴾ جعل اللحم كاللباس مجازاً ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعله مضمر تقـديره، فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثانى عليه،

---

(١) هو: أحمد بن محمد بن إبـراهيم، أبو إسحاق، الشهير بلقبه «الثعلـبى»، المفسر، و«الكشف» هو تفسيـره المسمي: «الكشف والـبيان، فى تفسير الـقرآن»، ويعرف بـ«تفسـير الثعلبى». تـوفى عام ٤٢٧هـ. (الأعلام (١/ ٢١٢).

كقولهم: ضربني وضربت زيداً، ويجوز فلما تبين له ما أشكل عليه يعنى أمر إحياء الموتى قال. اعلم على لفظ الأمر حمزة وعلى، أى قال الله له أعلم أو هو خاطب نفسه.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي﴾ بصرني ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ موضع كيف نصب بتحى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وإنما قال له: أو لم تؤمن: وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين، وبلى إيجاب لما بعد النفى معناه بلى آمنت ولكن لأزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة فعلم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف الضرورى، واللام تتعلق بمحذوف تقديره ولكن سألت ذلك أراد طمأنينة القلب ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاوسا وديكا وغرابا وحمامة ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ وبكسر الصاد حمزة أى أملهن وأصممهن إليك ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ثم جزئهن وفرق أجزاءهن على الجبال التى بحضرتك وفى أرضك، وكانت أربعة أجبل أو سبعة جزأ بضمتين وهمز أبو بكر ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ قل لهن: تعالين بإذن الله ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ مصدر فى موضع الحال أى ساعيات مسرعات فى طيرانهن أو فى مشيهن على أرجلهن، وإنما أمره بضمها إلى نفسه بعد أخذها ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئآتها وحلاها[1] لئلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك، وروى أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ويفرق أجزاءها ويخلط ريشها ودمائها ولحومها وأن يمسك رءوسها، ثم أمر أن يجعل أجزاءها على الجبال على كل جبل ربعا من كل طائر، ثم يصيح بها تعالين بإذن الله تعالى فجعل كل جزء يطير إلى الآخر حتى صارت جثثا، ثم أقبلن فانضممن إلى رءوسهن كل جثة إلى رأسها ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يدبر لا يفعل إلا ما فيه الحكمة، ولما برهن على قدرته على الإحياء حث على الإنفاق فى سبيل الله وأعلم أن من أنفق فى سبيله فله فى نفقته أجر عظيم، وهو قادر عليه فقال:

●● ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لابد من حذف مضاف أى مثل نفقتهم ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أومثلهم كمثل باذر حبة ﴿أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ النبت هو الله، ولكن الحبة لما كانت سببا أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض وإلى الماء ومعنى إنباتها سبع سنابل أن تخرج ساقا يتشعب منه سبع شعب لكل واحد سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عينى الناظر والممثل به موجود فى الدخن[2] والذرة، وربما فرخت ساق البرة فى الأرض القوية المغلة فيبلغ حبها هذا المبلغ، على أن التمثيل يصح وإن لم يوجد على سبيل الفرض، والتقدير ووضع سنابل موضع سنبلات كوضع قروء موضع أقراء ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أى

(١) حلاها: صفاتها.

(٢) الدخن: هو حب أملس يابس بارد حابس للطبع، وقيل: هو نوع من الذرة. (المعجم الوسيط).

يضاعف تلك المضاعفه لمن يشاء لالكل منفق لتفاوت أحوال المنفقين، أو يزيد على سبعمائة لمن يشاء، يضعف شامي، ويضعف مكي **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾** واسع الفضل والجود **﴿عَلِيمٌ﴾** بنيات المنفقين.

●● **﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا﴾** هو أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا له، وكانوا يقولون إذا صنعتم صنيعة فانسوها **﴿وَلا أَذًى﴾** هو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه، ومعنى ثم إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيراً من الدخول فيه بقوله: **﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾**(1) **﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾** أى ثواب انفاقهم **﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾** من بخس الأجر **﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** من فوته، أو لا خوف من العذاب ولا حزن بفوت الثواب، وإنما قال هنا: لهم أجرهم وثمَّا بعد فلهم أجرهم؛ لأن الموصول هنا لم يضمن معنى الشرط وضمنه ثمة.

●● **﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾** رد جميل **﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾** وعفو عن السائل إذا وجد منه ما يثقل على المسئول، أو ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل **﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾** وصح الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة **﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾** لاحاجة له إلى منفق يمن ويؤذى **﴿حَلِيمٌ﴾** عن معاجلته بالعقوبة، وهذا وعيدله، ثم أكد ذلك بقوله.

●● **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي﴾** الكاف نصب صفة مصدر محذوف والتقدير إبطالا مثل إبطال الذى **﴿يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** اى لا تبطلوا ثواب صدقاتكم بالمن والأذى كإبطال المنافق الذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة، ورئاء مفعول له **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾** مثَّله ونفقته التى لا ينتفع بها البتة بحجر أملس عليه تراب **﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾** مطر عظيم القطر **﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾** أجرد نقيا من التراب الذى كان عليه **﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾** لا يجدون ثواب شىء مما أنفقوا، أو الكاف فى محل النصب على الحال أى لا تطلبوا صدقاتكم مماثلين الذي ينفق، وإنما قال لا يقدرون بعد قوله: كالذى ينفق؛ لأنه أراد بالذى ينفق الجنس، أو الفريق الذى ينفق **﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾** ما داموا مختارين الكفر.

●● **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾** أى وتصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه، ومن لابتداء الغاية وهو معطوف على المفعول له أى

---

(1) سورة «فصلت»، الآية (30)، وسورة «الأحقاف»، الآية (13).

للإبتغاء والتثبيت والمعنى، ومثل نفقة هؤلاء فى زكاتها عند الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع وخصها، لأن الشجر فيها أزكى وأحسن، ثمرا بربوة عاصم وشامى ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها أكلها، نافع ومكى وأبو عمرو ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلى ما كانت تثمر قبل بسبب الوابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فمطر صغير القطر يكفيها لكرم منبتها، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها رضا الله تعالى زاكية عند الله زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عنده ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يرى أعمالكم على إكثار وإقلال ويعلم نياتكم فيهما من رياء وإخلاص.

الهمزة ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ للإنكار ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ﴾ لصاحب البستان ﴿فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يريد بالثمرات المنافع التى كانت تحصل له فيها، أو أن النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما - وإن كانت محتوية على سائر الأشجار - تغليبا لهما على غيرهما، ثم أردفهما ذكر كل الثمرات ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ الواو للحال ومعناه أن تكون له جنة، وقد أصابه الكبر والواو فى ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أولاد صغار للحال أيضا، والجملة فى موضع الحال من الهاء فى أصابه ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ ريح تستدير فى الأرض، ثم تستطع نحو السماء كالعمود ﴿فِيهِ﴾ فى الإعصار وارتفع ﴿نَارٌ﴾ بالظرف إذ جرى الظرف وصفا لإعصار ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ الجنة وهذا مثل لمن يعمل الأعمال الحسنة رياء فإذا كان يوم القيامة وجدها محبطة فيتحسر عند ذلك حسرة من كانت له جنة جامعة للثمار، فبلغ الكبر وله أولاد ضعاف، والجنة معاشهم، فهلكت بالصاعقة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا البيان الذى بين فيما تقدم ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ فى التوحيد والدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنتبهوا.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من جياد مكسوباتكم وفيه دليل وجوب الزكاة فى أموال التجارة ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ من الحب والثمر والمعادن وغيرها، والتقدير ومن طيبات ما أخرجنا لكم إلا أنه حذف لذكر الطيبات ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ ولا تقصدوا المال الردىء ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ تخصونه بالإنفاق، وهو فى محل الحال أى ولا تيمموا الخبيث منفقين أى مقدرين النفقة ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه فى حقوقكم ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ إلا بأن تسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه من قولك: أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره، ويقال للبائع: أغمض أى لا تستقص كأنك لا تبصر وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد أو محمود.

•• ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ﴾ فى الإنفاق ﴿الْفَقْرَ﴾ ويقول لكم إن عاقبة إنفـاقكم أن تفتقروا، والوعد يستعمل فـى الخير والشر ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ ويغريكم عـلى البخل ومنع الصـدقات إغراء الآمر للمأمور والفاحش عند العرب البخيل ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم﴾ فى الإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم وكفارة لها ﴿وَفَضْلاً﴾ وأن يخلف عـليكم أفضل مما أنـفقتم، أو وثوابا علـيه فى الآخرة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ يوسع على من يشاء ﴿ عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم ونياتكم.

•• ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ علم القرآن والسنة، أو العلم النافع الموصل إلى رضا الله والعمل به والحكيم عند الله هو العالم العامل ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ ومن يؤت يعقـوب أى: ومن يؤته الله الحكمة﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ تنكـير تعظيم أى أوتـى خيراً أى خيركـثير ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ وما يتعظ بمواعظ الله إلا ذوو الـعقول السليمة، أو العلماء العـمال، والمراد به الحث على العمل بما تضمنت الآى فى معنى الإنفاق.

•• ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ فى سبيل الله، أو فى سبيل الشيطان ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فى طاعة الله أو فى معصيته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ لا يخفى عليه وهو مجازيكم عليه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يمنعون الصدقات، أو يـنفقون أموالهـم فى المعاصى، أو ينـذرون فى المعاصى، أو لا يفـون بالنذور ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ ممن ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

•• ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعم شيئا إبداؤها، وما نـكرةغير موصولة ولا موصوفة، والمخصوص بالمدح هى فنعما هى بكسر النون، وإسكان العين، أبو عمرو ومدنى غير ورش، وبفتح النون وكسر العين شامى وحمزة وعلى وبكسر النون والعين غيرهم ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ وتصيبوا بها مصارفها مع الإخفاء ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم، قالوا: المراد صدقات التطوع والجهر فى الـفرائض أفضل لنفى الـتهمة، حتى إذا كان المـزكى ممن لا يعرف باليسـار كان إخفاؤه أفضــل، والمتطوع إن أراد أن يـقتدى بـه كان إظهاره أفـضل ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بالنون وجـزم الراء مدنى وحمزة، وعلى بالياء ورفـع الراء شامى، وحفص وبالنون والرفع غيرهم فمـن جزم فقد عطف على محل الفـاء وما بعده، لأنه جواب الشرط، ومـن رفع فعلى الاستـئناف والياء على معنـى يكفرالله ﴿عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والنون علـى معنى نحن نـكفر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإبداء والإخـفاء ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم.

•• ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلـى الانتهاء عما نهوا عنه من المن والأذى والإنفاق من الخبيث وغير ذلك وما عليك إلا أن تبلغهم النواهى فحسب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

﴿مَن يَشَاءُ﴾ أو ليس عليك التوفيق علـى الهدى، أو خلق الهدى وإنما ذلك إلى الله ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال ﴿فَلأَنفُسِكُمْ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا به على الناس ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ وليست نفقتـكم إلا ابتغاء وجه الله أى رضا الله ولطلب ما عنـده، فما بالكم تمنون بها وتنـفقون الخبيث الذى لا يوجه مثـله إلى الله، أو هذا نفى معنـاه النهى أى ولا تنـفقوا إلا ابتـغاء وجه الله ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافا مضاعفة فلا عذر لكـم فى أن ترغبوا عن إنفاقه وأن يكون على أحسـن الوجوه وأجملها ﴿وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ ولا تنقصون كقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾(1) أى: لم تنقص.

الجار فى ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلـق بمحذوف أى اعمدوا للفـقراء، أو هو خبر مبتـدأ محذوف أى هذه الصدقات للفقراء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم الذين أحصرهم الجهاد فـمنعهم من التصرف ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به ﴿ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ للكسب، وقيل: هم أصحاب الصفة، وهم نحو من أربعمائة رجـل من مهاجرى قريش لم تكن لهـم مساكن فى المدينة ولا عشائر فـكانوا فى صفة المسجد – وهى سقيفته – يتعلمون القرآن بالليـل ويرضخون النوى بالنهار، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله (ﷺ) فمن كـان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم يحسبهم وبـابه شامى ويزيد(2) وحمزة وعاصم غـير الأعشى(3) وهبيرة(4)، والباقون بكـسر السين ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ مستغنين من أجل تعـففهم عن المسئلة ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ من صفرة الوجوه ورثاثة الحال ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحا قيل هو نفى السؤال والإلحـاح جميعا، كقوله: على لاحب لا يهتدى بمنـاره، يريد نفى المنار والاهتداء به والإلحاح هو الـلزوم، وأن لا يفارق إلا بشىء

---

(1) سورة «الكهف»، الآية (33).

(2) هو: أبو جعفر، القارىء المدنى، المخزومي، مختلف فى اسمه بين: «يزيد بن القعقاع»، «فيروز»، «جندب بن فيروز»، والأول أشـهر، وهو مشهور بكنيتـه ولقبه، حتى إن ابن حجر ذكره فـى الكنى، وهو أحد القراء الـعشرة، قال ابن سعـد: «كان ثقة قليـل الحديث، وكان إمام أهل المـدينة فى القراءة؛ فـسمى «القارىء» لذلك».

وقال ابن حجر: «ثقة، من الرابعة»، توفى عام 130 هـ، وقيل غير ذلك.

تهذيب التهذيب (6/ 326).

(3) الأعشى: هو يـعقوب بن محمد بن خـليفة بن هلال، أبو يوسـف، التميمى، الكوفـى، لقب بـ «الأعشى»؛ لضعف بصره، واشتهر به، فلا يكاد يعرف بغيره، وكان من أجل أصحاب أبى بكر شعبة بن عياش؛ راوى عاصم، كانت وفاته فى حدود 200هـ، على خلاف فى التحديد.

غاية النهاية (2/ 390).

(4) هو: هبيرة بن محمد التمار، أبو عمـر، الأبرش البغدادى، أخذ القراءة – عرضاً – عن حفص بن سليمان؛ راوى عاصم بن بهدلة.

غاية النهاية (2/ 353).

يعطاه وفى الحديث: «إن الله يحب الحيى الحليم المتعفف، ويبغض البذى السآل الملحف»[1] وقيل معناه أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ لا يضيع عنده.

•• ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ هماحالان أى مسرين ومعلنين يعنى يعممون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على الخير فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال، وقيل: نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - حين تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة فى السر وعشرة فى العلانية، أو فى على - رضى الله عنه - لم يملك إلا أربعة دراهم تصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

•• ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ هو فضل مال خال عن العوض فى معاوضة مال بمال، وكتب الربوا بالواو على لغة من يفخم، كما كتبت الصلوة والزكوة، وزيدت الألف بعدها تشبيها بواو الجمع ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى المصروع؛ لأنه تخبط فى المعاملة فجوزى عى المقابلة، والخبط: الضرب على غير استواد كخبط العشواء ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ من الجنون وهو يتعلق بلا يقومون أى لا يقومون من المس الذى بهم إلا كما يقوم المصروع، أو بيقوم أى كما يقوم المصروع من جنونه، والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف، وقيل: الذين يخرجون من الأحداث يوفضون[2] إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله فى بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض ﴿ذَلِكَ﴾ العقاب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ولم يقل إنما الربا مثل البيع مع أن الكلام فى الربا لا فى البيع لأنه جيء به على طريقة المبالغة وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا فى الحل حتى شبهوا به البيع ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم بينهما إذ الحل مع الحرمة ضدان فأنى يتماثلان ودلالة على أن القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحلال الله وتحريمه ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهى عن الربا ﴿فَانتَهَىٰ﴾ فتبع النهى وامتنع ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فلا يؤاخذ بما مضى منه لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يحكم فى شأنه يوم القيامة وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا عن الزجاج؛ أو إلى الربا مستحلا ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأن من أحل ما حرم الله عز وجل فهو كافر فلذا استحق الخلود، وبهذا تبين أنه لا تعلق للمعتزلة بهذه الآية فى تخليد الفساق.

(١) رواه ابن أبى شيبة فى الأدب من رواية ميمون بن أبى شبيب؛ مرسلاً.
(٢) يوفضون: يسرعون. (المعجم الوسيط).

●● ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته ويهـلك المال الذى يدخل فيه ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ ينميها ونزيدها أى يزيد المال الذى أخرجت منه الصدقة ويبارك فيه وفى الحديث: «ما نقصت زكاة من مال قط»(١). ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ عظيم الكفر باستحلال الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ متماد فى الإثم بأكله.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قيل: المراد به الذين آمنوا بتحريم الربا.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أخذوا ما شرطوا على الناس من الربا وبقيت لهم بقايا فـأمروا أن يتركوها ولا يطالبوا بها، روى أنها نزلت فـى ثقيف، وكان لهم على قوم من قريش مـال فطالبوهم عند المحـل بالمال والربا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كاملى الإيمـان فإن دليل كماله امتثال المأمور به.

●● ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فاعلموا بها من أذن بـالشىء إذا علم يؤيده، قراءة الحسن فأيقنوا فآذنوا حـمزة وأبو بكر غير ابن غالب(٢) فأعلموا بها غيـركم؛ ولم يقل بحرب الله ورسوله؛ لأن هذا أبـلغ لأن المعنى فأذنوا بنـوع من الحرب عظيم من عـند الله ورسوله، وروى أنها لما نزلت قالت ثقيـف: لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها ﴿وَلا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها.

●● ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم من غرمائـكم ذو عسرة ذو إعسار ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم، أو فالأمر نظـرة أى إنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار ميسرة نافـع وهما لغتان ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ بالتخفيف عاصم أى تتصـدقوا برءوس أموالكم، أو ببعضها على من أعسر مـن غرمائكم، وبالتشـديد غيره فالتخفيـف على حذف إحدى التاءين والتشـديد على الإدغام ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فى القيامـة، وقيل: أريد بالتصدق الانظار لقـوله - عليه السلام - : «لا يحل دين رجل مسلم فـيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»(٣). ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لـكم فتعلموا به جـعل من لا يعمل به وإن علـمه كأنه لا يعلمه.

●● ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ترجعون أبو عمرو، فرجـع لازم ومتعد، قيل: هى آخر

---

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة.

(٢) ابن غالب: هو محمد بن غالب، الصيرفى، الكوفي، أبو جعفر، أخذ القراءةعن الأعشى - الذى سبقت ترجمته قريباً - عن شعبة بن عياش.
غاية النهاية (٢/٢٢٧).

(٣) أخرجه ابن ماجة بألفاظ مقاربة.

آية نزل بها جبريل - عليه السلام - وقال: ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة وعاش رسول الله (ﷺ) بعدها أحداً وعشرين يوماً أو احداً وثمانين أو سبعة أيام أو ثلاث ساعات **﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾**أى جزاء ما كسبت **﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** بنقصان الحسنات وزيادة السيآت.

●● **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾** أى إذا داين بعضكم بعضا، يقال: داينت الرجل إذا عاملته بدين معطيا أو أخذاً **﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** مدة معلومة كالحصاد، أو الدياس أو رجوع الحاج، وإنما احتيج إلى ذكر الدين ولم يقل إذا تداينتم إلى أجل مسمى ليرجع الضمير إليه فى قوله **﴿فَاكْتُبُوهُ﴾** إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال، وإنما أمر بكتابة الدين لأن ذلك أوثق وآمن من النسيان وأبعد من الجحود والمعنى إذا تعاملتم بدين مؤجل فاكتبوه، والأمر للندب وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المراد به السلم، وقال لما حرم الله الربا أباح السلف وعنه أشهد أن الله أباح السلم المضمون إلى أجل معلوم فى كتابه وأنزل فيه أطول آية(١)، وفيه دليل على اشتراط الأجل فى السلم **﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ﴾** بين المتداينين **﴿كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾** هو متعلق بكاتب صفة له أى كاتب مأمون على ما يكتب يكتب بالاحتياط لا يزيد على ما يجب أن يكتب ولا ينقص، وفيه دليل أن يكون الكاتب فقيها عالما بالشروط حتى يجيء مكتوبه معدلا بالشرع وهو أمر للمتداينين بتخير الكاتب وأن لا يستكتبوا إلا فقيها ديناحتى يكتب ما هو متفق عليه **﴿وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾** ولا يمتنع واحد من الكتاب **﴿أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾** مثل ما علمه الله كتابة الوثائق لا يبدل ولا يغير وكمامتعلق بأن يكتب **﴿فَلْيَكْتُبْ﴾** تلك الكتابة لا يعدل عنها **﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾** ولا يكن المملى إلا من وجب عليه الحق، لأنه هو المشهود على ثباته فى ذمته وقراره به فيكون ذلك إقراراً على نفسه بلسانه، والإملال والإملاء لغتان **﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾** وليتق الله الذى عليه الدين ربه فلا يمتنع عن الإملاء فيكون جحوداً لكل حقه **﴿وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾** ولا ينقص من الحق الذى عليه شيئاً فى الإملاء فيكون جحوداً لبعض حقه **﴿فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾** أى مجنوناً لأن السفه خفة فى العقل، أو محجوراً عليه لتبذيره وجهله بالتصرف **﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾** صبياً **﴿أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾** لعى به أو خرس أو جهل باللغة **﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾** الذى يلى أمره ويقوم به **﴿بِالْعَدْلِ﴾** بالصدق والحق **﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾** واطلبوا أن يشهد لكم شهيدان على الدين **﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾** من رجال المؤمنين. والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام وشهادة الكفار بعضهم على بعض مقبولة عندنا **﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾** فإن لم يكن الشهيدان **﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾** فليشهد رجل وامرأتان وشهادة الرجال مع

---

(١) أخرجه الحاكم.

النساء تقبل فيما عدا الحدود والقصاص ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ ممن تعرفون عدالتهم، وفيه دليل على أن غير المرضى شاهد ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ لأجل أن تنسى إحداهما الشهادة فتذكرها الأخرى إن تضل إحداهما على الشرط، فتذكر بالرفع والتشديد حمزة كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾(١) فتذكر بالنصب مكى وبصرى من الذُّكر لامن الذِّكر ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة أو للتحمل لئلا تتوى حقوقهم وسماهم شهداء قبل التحمل تنزيلا لما يشارف منزلة الكائن فالأوّل للفرض والثانى للندب ﴿وَلا تَسْأَمُوا﴾ ولا تملوا، قال الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسام(٢)

والضمير فى ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ للدين أو الحق ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ على أى حال كان الحق من صغر أو كبر وفيه دلالة جواز السلم فى الثياب لأن مايكال أو يوزن لا يقال فيه الصغير والكبير، وإنما يقال فى الذرعى ويجوز أن يكون الضمير للكتاب وأن تكتبوه مختصراً أو مشبعاً أو ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ إلى وقته الذى اتفق الغريمان على تسميته ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه؛ لأنه فى معنى المصدر أى ذلك الكتب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل من القسط وهو العدل ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ظرف لاقسط ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وأعون على إقامة الشهادة وبنى أفعلا التفضيل أى أقسط وأقوم من أقسط وأقام على مذهب سيبوية ﴿وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ وأقرب من انتفاء الريب للشاهد والحاكم وصاحب الحق فإنه قد يقع الشك فى المقدار والصفات وإذا رجعوا إلى المكتوب زال ذلك وألف أدنى منقلبة من واولأنه من الدنو ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ عاصم أى إلا أن تكون التجارة تجارة أو إلا أن تكون المعاملة تجارة حاضرة غيره تجارة حاضرة على كان التامة أى إلا أن تقع تجارة حاضرة أو هى ناقصة والاسم تجارة حاضرة والخبر ﴿تُدِيرُونَهَا﴾ وقوله ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ظرف لتديرونها ومعنى إدارتها بينهم تعاطيهم يداً بيد ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ يعنى إلا أن تتبايعوا بيعا ناجزاً يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوها لأنه لا يتوهم فيه ما يتوهم فى التداين ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أمر بالإشهاد على التبايع مطلقا ناجزاً أو كالئا؛ لأنه أحوط وأبعد من وقوع الاختلاف، أو أريد به وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة، والأمر للندب ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ يحتمل البناء للفاعل لقراءة عمر رضى الله عنه ولا يضارر وللمفعول لقراءة ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ولا يضارر والمعنى نهى الكاتب والشهيد عن ترك الإجابة إلى ما يطلب منهما وعن التحريف والزيادة والنقصان، أو النهى عن الضرار بهما بأن يعجلا عن مهم ويلزّا أولا يعطى الكاتب حقه

(١) سورة «المائدة»، الآية (٩٥).

(٢) هذا البيت من معلقة زهير بن أبى سلمى.

من الجعل، أو يحمل الشهيد مـؤنة مجيئه من بلد ﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ وإن تضاروا ﴿فَإِنَّهُ﴾ فإن الضرار ﴿فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ مأثم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى مخالفة أوامره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ شرائع دينه ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يلحقه سهو ولا قصور.

●● ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ﴾ فرهان مكى وأبو عمرو أى فالذى يستوثق به رهن وكلاهما جمع رهن كسقف وبغل وبقال، ورهن فى الأصل مصدر سمى به، ثم كسر تكسير الأسماء ولما كان السفر مظنة لأعواز الكتب والإشهاد أمر على سبيل الإرشاد إلى حفظ المال من كان على سفر بأن يقيم التوثق بالارتهان مقام التوثق بالكتب والإشهاد، لا أن السفر شرط تجويز الارتهان وقوله: ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يدل على اشتراط القبض لا كما زعم مالك أن الرهن يصح بالإيجاب والقبول بدون القبض ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به فلم يتوثق بالكتابة والشهود والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ دينه وائتمن افتعل من الأمن وهو حث للمديون على أن يكون عند ظن الدائن وأمنه منه وائتمانه له وأن يؤدى إليه الحق الذى ائتمنه عليه فلم يرتهن منه، وسمى الدين أمانة وهو مضمون لائتمانه عليه بترك الارتهان منه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فى إنكار حقه ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ هذا خطاب للشهود ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ ارتفع قلبه بآثم على الفاعلية، كأنه قيل: فإنه يأثم قلبه، أو بالابتداء وآثم خبره مقدم والجملة خبر إن، وإنما أسند إلى القلب وحده، والجملة هى الآثمة لا القلب وحده، لأن كتمان الشهادة أن يضمرها فى القلب ولا يتكلم بها فلما كان إثما مقترفا مكتسبا بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ، كما تقول هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى ومما عرفه قلبى، ولأن القلب رئيس الأعضاء والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان منه ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب، وإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : «أكبر الكبائر الإشراك بالله وشهادة الزور وكتمان الشهادة»[1] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وإظهارها ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شىء.

●● ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعنى من السوء ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ يكافئكم ويجازيكم ولا تدخل الوساوس وحديث النفس فيما يخفيه الإنسان؛ لأن ذلك مما ليس فى وسعه الخلو منه، ولكن ما اعتقده وعزم عليه والحاصل أن عزم الكفر كفر وخطره الذنوب من غير عزم معفوة وعزم الذنوب إذا ندم عليه ورجع عنه واستغفر منه مغفور فأما إذا هم بسيئة، وهو ثابت على ذلك إلا أنه منع عنه بمانع ليس باختياره فإنه لا

---

(١) أخرجه ابن جرير من رواية معاوية عن على عن ابن عباس.

يعاقب على ذلك عقوبة فعله أى بالعزم على الزنا لا يعاقب عقوبة الزنا وهل يعاقب عقوبة عزم الزنا، قيل: لا لقوله ـ عليه السلام ـ: «إن الله عفا عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به»(١). والجمهور على أن الحديث فى الخطرة دون العزم وأن المؤاخذة فى العزم ثابتة، وإليه مال الشيخ أبو منصور وشمس الأئمة الحلوانى(٢) ـ رحمهما الله ـ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾(٣) الآية وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما هو العبد بالمعصية من غير عمل يعاقب على ذلك بما يلحقه من الهم والحزن فى الدنيا(٤)، وفى أكثر التفاسير أنه لما نزلت هذه الآية جزعت الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وقالوا: أنؤاخذ بكل ما حدثت به أنفسنا فنزل قوله: «آمن الرسول» إلى قوله: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما اكتسبت» وعليها ما كتسبت فتعلق ذلك بالكسب دون العزم وفى بعضها أنها نسخت بهذه الآية، والمحققون على أن النسخ يكون فى الأحكام لا فى الأخبار ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ برفعهما شامى وعاصم أى فهو يغفر ويعذب، ويجزمهما غيرهم عطفا على جواب الشرط، وبالإدغام أبو عمرو وكذا فى الإشارة والبشارة وقال صاحب الكشاف مدغم الراء فى اللام لا حن مخطىء؛ لأن الراء حرف مكرر فيصير بمنزلة المضاعف، ولا يجوز إدغام المضاعف وراويه عن أبى عمر مخطىء مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس فى العربية ما يؤذن بجهل عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المغفرة والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر.

•• ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إن عطف المؤمنون على الرسول كان الضمير الذى التنوين نائب عنه فى ﴿كُلٌّ﴾ راجعا إلى الرسول والمؤمنون أى كلهم ﴿آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ووقف عليه وإن كان مبتدأ كان عليه كل مبتدأ ثانيا، والتقدير كل منهم وآمن حبر المبتدأ الثانى والجملة خبر الأول وكان الضمير للمؤمنين ووحد ضميركل فى آمن على معنى كل واحد منهم آمن وكتابه حمزة وعلى يعنى القرآن أو الجنس ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ أى يقولون لا نفرق بل نؤمن بالكل ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ أحد فى معنى الجمع ولذا دخل عليه بين وهو لا يدخل إلا على اسم يدل على أكثر من واحد تقول المال بين القوم ولا تقول المال بين زيد ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ أجبنا

---

(١) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة.

(٢) هو: عبدالعزيز بن أحمد بن نصر، الحلواني، البخاري، أبو محمد، يعرف بـ «شمس الأئمة الحلوانى»، وهو فقيه حنفى، وكان إماماً فى زمانه ببخاري، كانت وفاته عام ٤٤٨هـ.
الأعلام (٤/١٣).

(٣) سورة «النور»، الآية (١٩).

(٤) أخرجه ابن جرير من طريق الضحاك عن عائشة، رضى الله عنها.

قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿غُفْرَانَكَ﴾ أى اغفر لنا غفرانك فهو منصوب بفعل مضمر ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع وفيه إقرار بالبعث والجزاء والآية تدل على بطلان الاستثناء فى الإيمان وعلى بقاء الإيمان لمرتكب الكبائر.

●● ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا﴾ محكى عنهم أو مستأنف ﴿إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلا طاقتها وقدرتها لأن التكليف لا يرد إلا بفعل يقدر عليه المكلف كذا فى شرح التأويلات، وقال صاحب الكشاف: الوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يخرج فيه أى لا يكلفها إلا يتسع فيه طوقه ويتيسر عليه دون مدى غاية الطاقة والمجهود، فقد كان فى طاقة الإنسان أن يصى أكثر من الخمس ويصوم أكثر من الشهر ويحج أكثر من حجة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر وخص الخير الكسب والشر بالاكتساب، لأن الافتعال للانكماش والنفس تنكمش فى الشر وتتكلف للخير ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ تركنا أمرا من أوامرك سهوا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ودل هذا على جواز المؤاخذة فى النسيان والخطأ خلافا للمعتزلة لإمكان التحرز عنهما فى الجملة ولولا جواز المؤاخذة بهما لم يكن للسؤال معنى ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ عبأ يأصر حامله أى يحبسه مكانه لثقله استعير للتكليف الشاق من نحو قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة من الجلد والثوب وغير ذلك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ كاليهود ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من العقوبات النازلة بمن قبلنا ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امح سيئاتنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبنا وليس بتكرار فالأول للكبائر والثانى للصغائر ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بتثقيل ميزاننا مع إفلاسنا، أو الأول من المسخ والثانى من الخسف والثالث من الغرق ﴿أَنتَ مَوْلانَا﴾ سيدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولى أمورنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فمن حق المولى أن بنصر عبيده فى الحديث: «من قرأ آمن الرسول إلى آخره فى ليلة كفتاه»(١) . وهيه: «من قرأها بعد العشاء الآخرة اجزأتاه عن قيام الليل»(٢). ويجوز أن يقال قرأت صورة البقرة أو قرأت البقرة لما روى عن على - رضى الله عنه - خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش وقال بعضهم يكره ذلك بل يقال قرأت السورة التى تذكر فيها البقرة والله أعلم.

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود.

(٢) ابن عدى من حديث ابن مسعود، وفى إسناده: الوليد بن عياد، وهو مجهول عن أبان بن أبى عياش، وهو متروك.

(سورة آل عمران نزلت بالمدينة وهى مائتا آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الٓمٓ * اللَّهُ﴾ حركت الميم لالتقاء الساكنين ـ أعنى سكونها وسكون لام الله-وفتحت لخفة الفتحة، ولم تكسر للياء، وكسر الميم قبلها تحاميا عن توالى الكسرات، وليس فتح الميم لسكونها وسكون ياء قبلها إذ لو كان كذلك لوجب فتحها فى حم، ولايصح أن يقال: إن فتح الميم هو فتحة همزة الله نقلت إلى الميم؛ لأن تلك الهمزة همزة وصل تسقط فى الدرج وتسقط معها حركتها، ولو جاز نقل حركتها لجاز إثباتها وإثباتها غير جائز، وأسكن يزيد والأعشى الميم وقطعا الألف والباقون بوصل الألف وفتح الميم والله مبتدأ. ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾ خبره وخبر لا مضمر، والتقدير: لا إله فى الوجود إلا هو، وهو فى موضع الرفع بدل من موضع لا واسمه. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحي، أو بدل من هو، والقيوم فيعول من قام، وهو القائم بالقسط والقائم على كل نفس بما كسبت.

●● ﴿نَزَّلَ﴾ أى هو نزل. ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال أى نزله حقا ثابتا. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لماقبله ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ هما اسمان أعجميان وتكلف اشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وافعيل إنما يصح بعد كونهما عربيين، وإنما قيل: نزل الكتاب وأنزل التوارة والإنجيل؛ لأن القرآن نزل منجما ونزل الكتابان جملة.

●● ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لقوم موسى وعيسى أو لجميع الناس. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أى جنس الكتب؛ لأن الكل يفرق بين الحق والباطل أو الزبور أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له تفخيما لشأنه. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ذو عقوبة شديدة لايقدر على مثلها منتقم.

●● ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ أى فى العالم فعبر عنه بالسماء والأرض أى هو مطلع على كفر من كفر وإيمان من آمن وهو مجازيهم عليه.

●● ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من الصور المختلفة. ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى سلطانه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى تدبيره روى(١) أنه لما قدم وفد بنى نجران ـ وهم ستون راكبا -أميرهم العاقب(٢)، وعمدتهم السيد(٣) وأسقفهم وحبرهم أبو حارثة(٤) خاصموا فى أن عيسى إن لم يكن

(١) هناك شبه إجماع على القصة التالية، فقد ذكرها محمد بن إسحاق بن يسار، وعنه غالب المفسرين، راجع تفسير ابن كثير (١/٣٤٧، وما بعدها).

(٢) العاقب: اسمه: عبدالمسيح . (المصدر السابق)

(٣) السيد : اسمه :الأيهم. (المصدر السابق)

(٤) أبو حارثة، هو أبو حارثة بن علقمة، أخو بكر بن وائل . (المصدر السابق).

ولدا لله فمن أبوه؟ فقال ـ عليه السلام ـ : ألستم تعلمون أنه لايكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلي. قال: ألم تعلموا أن الله تعالى حى لايموت، وعيسى يموت، وأن ربنا قيم على العباد يحفظهم ويرزقهم، وعيسى لايقدر على ذلك، وأنه لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وعيسى لايعلم إلا ما علم، وإنه صور عيسى فى الرحم كيف شاء فحملته أمه ووضعته وأرضعته وكان يأكل ويحدث، وربنا منزه عن ذلك كله؟ فانقطعوا فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية(1).

●● ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿مِنْهُ﴾ من الكتاب. ﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه. ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب تحمل المتشابهات عليها وترد إليها. ﴿وَأُخَرُ﴾ وآيات أخر. ﴿مُتَشَابِهَاتٌ﴾ مشتبهات محتملات. مثال ذلك ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(2). فالاستواء يكون بمعنى الجلوس وبمعنى القدرة والاستيلاء، ولايجوز الأول على الله تعالى بدليل المحكم وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(3) أو المحكم ما أمر الله به فى كل كتاب أنزله نحو قول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾(4) الآيات، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾(5). الآيات، والمتشابه ما وراءه أو مالا يحتمل إلا وجها واحداً وما احتمل أوجها، أو ما يعلم تأويله ومالا يعلم تأويله، أو الناسخ الذى يعمل به والمنسوخ الذى لايعمل به، وإنما لم يكن كل القرآن محكما لما فى المتشابه من الابتلاء به والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ولما فى تقادح العلماء واتعابهم والقرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله تعالي. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الحق وهم أهل البدع. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ﴾ فيتعلقون بالمتشابه الذى يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لايطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق. ﴿مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم. ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يؤولوه التأويل الذى يشتهونه. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى لايهتدى إلى تأويله الحق الذى يجب أن يحمل عليه إلا الله. ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ﴾ والذين رسخوا أى ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع مستأنف عند الجمهور، والوقف عندهم على قوله: إلا الله، وفسروا المتشابه بما استأثرالله بعلمه، وهو مبتدأ عندهم والخبر: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾

---

(1) فلتراجع القصة كاملة فى تفسير ابن كثير تفسير سورة آل عمران، فى أول السورة، وعند آية المباهلة (الآية ٦١).

(2) سورة «طه»، الآية(٥).

(3) سورة «الشوري»، الآية (١١).

(4) سورة «الأنعام»، الآية (١٥١).

(5) سورة «الإسراء»، الآية (٢٣).

وهو ثناء منه تعالى عليهم بالإيمان على التسليم واعتقاد الحقية بلا تكييف، وفائدة إنزال المتشابه الإيمان به واعتقاد حقية ما أراد الله به ومعرفة قصور أفهام البشر عن الوقوف على مالم يجعل لهم إليه سبيلا، ويعضده قراءة أبى ويقول الراسخون إن تأويله إلا عند الله، ومنهم من لايقف عليه ويقول: بأن الراسخين فى العلم يعلمون المتشابه، ويقولون كلام مستأنف موض لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به أى بالمتشابه أو بالكتاب. ﴿كُلٌّ﴾ من متشابهه ومحكمه. ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ من عند الله الحكيم الذى لايتناقض كلامه. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ وأصله يتذكر. ﴿إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول وهو مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل، وقيل: يقولون حال من الراسخين.

●● ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ لاتملها عن الحق بخلق الميل فى القلوب. ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ للعمل بالمحكم والتسليم للمتشابه. ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ من عندك نعمة بالتوفيق والتثبيت. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾كثير الهبة والآية من مقول الراسخين، ويحتمل الاستئناف أى قولوها وكذلك التى بعدها وهي.

●● ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أى تجمعهم لحساب يوم أو لجزاء يوم. ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك فى وقوعه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الموعد والمعنى أن الإلهية تنافى خلف الميعاد كقولك: إن الجواد لايخيب سائله، أى لايخلف ما وعد المسلمين والكافرين من الثواب والعقاب.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسول الله. ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ تنفع أو تدفع. ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذابه. ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ حطبها.

●● ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأب مصدر دأب فى العمل إذا كدح فيه فوضع موضع ماعليه الإنسان من شأنه وحاله، والكاف مرفوع المحل تقديره دأب هؤلاء الكفرة فى تكذيب الحق، كدأب من قبلهم من آل فرعون وغيرهم أو منصوب المحل بلن، تغنى أى لن تغنى عنهم مثل مالم تغن عن أولئك كداب بلاهمز حيث كان أبو عمرو. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ تفسير لدأبهم مما فعلوا أو فعل بهم على أنه جواب سؤال مقدر عن حالهم ويجوز أن يكون حالا أى قد كذبوا. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم يقال: أخذته بكذا أى جازيته عليه. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ شديد عقابه فالإضافة غير محضة. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم مشركو مكة. ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يوم بدر. ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ من الجهنام وهى بئر عميقة. وبالياء فيهما حمزة وعلى. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المستقر جهنم. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لمشركى قريش. ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يوم بدر. ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المؤمنون. ﴿وَأُخْرَىٰ﴾وفئة أخري. ﴿كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرى

المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين ألفين، أو مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم؛ ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم. ترونهم نافع أى ترون يا مشركى قريش المسلمين مثلى فئتكم الكافرة، أو مثلى أنفسهم، ولايناقض هذا ما قال فى سورة الأنفال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ (١) لأنهم قللوا أولا فى أعينهم حتى اجترؤا عليهم فلما اجتمعوا كثروا فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالتين مختلفتين، ونظيره من المحمول على اختلاف الأحوال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ (٢) . ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾(٣)، وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى فى أعينهم أبلغ فى القدرة وإظهار الآية. ومثليهم نصب على الحال؛ لأنه من رؤية العين بدليل قوله: ﴿ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يعنى رؤية ظاهرة مكشوفة لالبس فيها ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى أعين العدو ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فى تكثير القليل ﴿ لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوى البصائر.

●● ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ المزين هو الله عند الجمهور للابتلاء. كقوله :﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ (٤). دليله قراءة مجاهد زين للناس على تسمية الفاعل وعن الحسن :الشيطان ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ الشهوة توقان النفس إلى الشيء، جعل الأعيان التى ذكرها شهوات مبالغة فى كونها مشتهاة، أو كأنه أراد تخسيسها بتسميتها شهوات إذ الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالبهيمية﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ والإماء داخله فيها ﴿وَالْبَنِينَ﴾ جمع ابن، وقد يقع فى غير هذا الموضع على الذكور والإناث، وهنا أريد به الذكور فهم المشتهون فى الطباع والمعدون للدفاع﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير قيل: ملء مسك ثور، أومائة ألف دينار، ولقد جاء الإسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا ﴿الْمُقَنطَرَةِ﴾ المنضدة أو المدفونة ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ سمى ذهباً لسرعة ذهابه بالإنفاق وفضة؛ لأنها تتفرق بالإنفاق والفض التفريق ﴿وَالْخَيْلِ﴾ سميت به لاختيالها فى مشيها ﴿الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة من السومة وهى العلامة أو المرعية من أسام الدابة وسومها(٥). ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هى الأزواج الثمانية ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزرع ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يتمتع بها فى الدنيا ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ المرجع ثم زهدهم فى الدنيا فقال:

●● ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾من الذى تقدم. ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ كلام مستأنف فيه دلالة على بيان ماهو خير من ذلكم، فجنات مبتدأ وللذين اتقوا خبره.

---

(١) سورة «الأنفال» الآية (٤٤). (٢) سورة «الرحمن» الآية (٣٩).
(٣) سورة «الصافات» الآية (٢٤). (٤) سورة « الكهف» الآية (٧).
(٥) يقال فى اللغة: سوَّم الماشية أى: أسامها، وسوَّم الخيل: أى: أرسلها وعليها فرسانها. والمعني هنا: دعاها. (انظر المعجم الوسيط ١/ ٤٦٥).

●● ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ صفة لجنات ويجوز أن يتعلق اللام بخير واختص المتقين؛ لأنهم هم المتفعون به ويرتـفع جنات على هو جنات، وتنصره قراءة من قرأ جنـات بالجر على البدل من خير ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى رضـا الله ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ عالم بأعمالهم فيجازيهم عليها أو بصير بالذين اتقوا بأحوالهم فلذا أعدلهم الجنات.

●● ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ نصب على المدح، أو رفع أو جر صفة للمتقين، أو للعباد ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ إجابة لدعوتك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إنجازاً لوعدك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بفضلك.

●● ﴿الصَّابِرِينَ﴾ على الطاعات والمصائب وهو نصب على المدح ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ قولا بإخبار الحق وفعلا بإحكام العمل ونية بإمضاء العزم ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الداعين أوالمطيعين ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ المتصدقين ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ المصلين أو طالبين المغفرة وخص الأسحار؛ لأنه وقت إجابة الدعاء ولأنه وقت الخلوة، قال لقمان لابنه: يا بنى لايكن الـديك أكيس منك؛ ينادى بالأسحار وأنت نائم!. والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها وللإشعار بأن كل صفة مستقلة بالمدح.

●● ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ أى حكم أو قال. ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى بأنه. ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ﴾ بما عاينوا من عظيم قدرته . ﴿ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ أى الأنبياء والعلماء. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيما للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ويثيب ويعاقب ومـا يأمر به عبادة من إنصاف بعضهم لبعض والـعمل على السوية فيما بينهم، وانتصابه على أنه حال مـؤكدة من اسم الله تعالي، أو من هو، وإنما جاز إفراده بنصب الحال دون المعطـوفين عليه، ولو قلـت: جاء زيد وعمرو راكبـار لم يجز لعدم الالبـاس؛ فإنك لو قلت: جاءنـى زيد وهند راكبا جاز لـتميزه بالذكورة، أو عـلى المدح وكرر ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ للتأكيد ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ رفع على الاستئـناف أى هو العزيز وليس بوصف لهو؛ لأن الـضمير لايوصف يعنى أنه العزيز الذى لايغالب الحكيم الذى لايعدل عن الحق.

●● ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ جملة مستأنفة، وقرىء إن الـدين على البدل من قوله: أنه لا إله إلا هو أى شهد الله أن الديـن عند الله الإسلام، قال ـ عليه السلام ـ « من قرأ الآيـة عند منامه خلق الله تعالى منها سبعين ألف خلق يستغـفرون له إلى يوم القيامة، ومن قال بعدها: وأنا أشهد بما شهد الله، وأستودع الله هذه الـشهادة وهى لي عند الله وديعة، يقول الله ـ تعـالى ـ يوم القيامة: إن لعبدى عندى عهدا وأنا أحق من وفـى بالعهد؛ أدخلوا عبدى الجنة». ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى واختلافهـم أنهم تركوا الإسلام وهو التوحيد فثلثت النصاري، وقالت اليهود عزير بن الله﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أنه الحق الذى لامحيد عنه ﴿بَغْيًا

بينهم﴾ أى ماكان ذلك الاختلاف إلا حسدا بينهم وطلبا منهم للرياسة وحظوظ الدنيا واستتباع كل فريق ناسا لاشبهة فى الإسلام، وقيل : هو اختلافهم فى نبوة محمد- عليه الصلاة والسلام- حيث آمن به بعض وكفر به بعض، وقيل : هم النصارى واختلافهم فى أمر عيسى بعدما جاءهم العلم أنه عبدالله ورسوله﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ بحججه ودلائله ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ سريع المجازاة.

●● ﴿فإن حاجوك﴾ فإن جادلوك فى أن دين الله الإسلام، والمراد بهم وفد بنى نجران عند الجمهور ﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾ أى أخلصت نفسى وجملتى لله وحده لم أجعل فيها لغيره شريكاً بأن أعبده وأدعو إلها معه يعنى أن دينى دين التوحيد، وهو الدين القويم الذى ثبتت عندكم صحته، كما ثبتت عندي،وماجئت بشيء بديع حتى تجادلونى فيه ونحوه: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا﴾(١) فهو دفع للمحاجة بأن ماهو عليه ومن معه من المؤمنين هو اليقين الذى لاشك فيه فمامعنى للمحاجة فيه ﴿ومن اتبعن﴾ عطف على التاء فى أسلمت أى أسلمت أنا ومن اتبعنى وحسن للفاصل، ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع فيكون مفعولا معه، ومن اتبعنى فى الحالين سهل(٢)،ويعقوب وافق أبو عمرو فى الوصل وجهى مدنى وشامى وحفص والأعشى والبرجمي(٣)، ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿والأميين﴾ والذين لاكتاب لهم من مشركى العرب ﴿ءأسلمتم﴾ بهمزتين كوفى يعنى أنه قدأتاكم من البينات ما يقتضى حصول الإسلام فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وقيل: لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الأمر أى أسلموا كقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ (٤). أى انتهوا ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ فقد أصابوا الرشد حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أى لم يضروك فإنك رسول منبه ما عليك إلا أن تبلغ الرسالة وتنبه على طريق الهدى ﴿والله بصير بالعباد﴾ فيجازيهم على إسلامهم وكفرهم .

●● ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين﴾ هم أهل الكتاب راضون بقتل آبائهم الأنبياء.

(١) سورة «آل عمران» الآية (٦٤).

(٢) هو : سهل بن محمد بن عثمان، أبو حاتم السجستاني النحوي، المقرىء، البصرى، إمام البصرة فى النحو والقراءة واللغة، وهو الذى صنف القراءات، قال ابن الأثير: «أحسبه أول من صنف فى القراءات» توفى عام ٢٥٥ هـ على الأرجح . تهذيب التهذيب (٢/٤٤٦، ٤٤٧) .

(٣) البرجمي: اسمه: عبد الحميد بن صالح بن عجلان، أبو صالح الكوفي، روى عن أبى بكر بن عياش، وابن المبارك، والفضيل بن عياض، وغيرهم، يعرف له أهل القراءات، وأهل الحديث قدره.

توفى عام ٢٣٠هـ، تهذيب التهذيب (٣/ ٣٢٥).

(٤) سورة «المائدة» الآية(٩١).

●● ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ حال مؤكدة؛ لأن قتل النبى لايكون حقا ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ ﴾ ويقاتلون حمزة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿ مِنَ النَّاسِ﴾ أى سوى الأنبياء، قال : عليه السلام: «قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحد فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً فى آخر النهار ومن ذلك اليوم»[١].

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ دخلت الفاء فى خبر إن لتضمن اسمها معنى الجزاء كأنه قيل الذين يكفرون فبشرهم بعذاب أليم بمعنى من يكفر فبشرهم وهذا لأن إن لاتغير معنى الابتداء فهى للتحقيق فكأن دخولها كلا دخول، ولو كان مكانها ليت أولعل لامتنع دخول الفاء.

●● ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى ضاعت ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فلهم اللعنة والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ جمع لوقف رءوس الآى، وإلا فالواحد النكرة فى النفى يعم.

●● ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيبا وافرا من التوارة ومن للتبعيض أو للبيان ﴿يُدْعَوْنَ﴾ حال من الذين ﴿ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى التوارة، أو القرآن ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ جعل حاكما حيث كان سببا للحكم أو ليحكم النبي، روى أنه عليه السلام - دخل مدراسهم [٢] فدعاهم ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد [٣]: على أى دين أنت؟ قال النبى عليه السلام - على ملة إبراهيم. قالا: إن إبراهيم كان يهوديا قال لهما إن بيننا وبينكم التوراة فهلموا إليها [٤] فأبيا ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ استبعاد لتوليهم بعد علمهم بأن الرجوع إلى كتاب الله واجب ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾وهم قوم لايزال الإعراض دينهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أى ذلك التولى والإعراض بسبب تسهيلهم على أنفسهم أمر العقاب وطمعهم فى الخروج من النار بعد أيام قلائل وهى أربعون يوما، أو سبعة أيام وذلك مبتدأ وبأنهم خبره ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى غرهم افتراؤهم على الله وهو قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبنا بذنوبنا إلا مدة يسيرة.

●● ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ فكيف يكون حالهم فى ذلك الوقت ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك فيه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ماكسبت ﴿وَهُمْ﴾ يرجع إلى كل نفس على المعنى؛ لأنه فى معنى كل الناس ﴿لا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة فى سيئاتهم ونقصان فى حسناتهم.

●● ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض من يا؛ ولذا لايجتمعان وهذا بعض خصائص هذا الاسم، كما اختص بالتاء فى القسم وبدخول حرف النداء عليه وفيه لام التعريف وبقطع همزته فى ياالله

---

(١) رواه ابن جرير من حديث أبى عبيدة بن الجراح.

(٢) المدراس : موضع يقرأ اليهود فيه التوراة.

(٣) نعيم بن عمرو، والحارث بن زيد، اثنان من كبار أحبار يهود المدينة.

(٤) روى ابن جرير نحوه عن ابن عباس.

وبالتفخيم ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ تملك جنس الملك فتتصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، وهو نداء ثان أى: يا مالك الملك ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ تعطى من تشاء النصيب الذى قسمت له من الملك ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ أى تنزعه فالملك الأول عام والملكان الآخران خاصان بعضان من الكل. روى أنه - عليه السلام - حين فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقالت اليهود والمنافقون: هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم هم أعز وأمنع من ذلك فنزلت[1] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بالملك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ بنزعه منه ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أى الخير والشر فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، أو لأن الكلام وقع فى الخير الذى يسوقه إلى المؤمنين وهو الذى أنكرته الكفرة، فقال بيدك الخير تؤتيه أوليائك على رغم من أعدائك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولا يقدر على شيء أحد غيرك إلا بإقدارك، وقيل: المراد بالملك ملك العافية، أوملك القناعة. قال -عليه السلام - : «ملوك الجنة من أمتى القانعون بالقوت يوما فيوما». أو ملك قيام الليل وعن الشبلى الاستغناء بالمكون عن الكونين تعز بالمعرفة، أو بالاستغناء بالمكون، أو بالقناعة وتذل بأضدادها، ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار فى المعاقبة بينهما، وحال الحى والميت فى إخراج أحدهما من الآخر وعطف عليه رزقه بغير حساب بقوله:

●● ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فالإيلاج إدخال الشيء فى الشيء، وهو مجاز هنا أى تنقص من ساعات الليل وتزيد فى النهار وتنقص من ساعات النهار وتزيد فى الليل ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الحيوان من النطفة، أو الفرخ من البيضة، أو المؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ النطفة من الإنسان، أو البيض من الدجاج أو الكافر من المؤمن ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لايعرف الخلق عدده ومقداره وإن كان معلوما عنده ـ ليدل على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام، ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده فهو قادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم، وفى بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة، وإن العباد عصونى جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم، وهومعنى قول عليه السلام: «كما تكونوا يولى عليكم»[2] الحى من الميت والميت من الحى بالتشديد حيث كان مدنى وكوفى غير أبى بكر.

●● ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم، أو لصداقة قبل

---

(١) ذكر ابن جرير عن قتادة أنه عليه السلام سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته، فنزلت الآية. ذكره الواحدى فى أسباب النزول .

(٢) رواه القضائى فى مسند الشهاب.

الإسلام، أو غير ذلك، وقد كرر ذلك فى القرآن، والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم فى الإيمان﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن لكم فى موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أى ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله فى شىء لأن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه، أى إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة وإبطان المعاداة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى ذاته فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى مصيركم إليه والعذاب معد لديه، وهو وعيد آخر.

●● ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ من ولاية الكفار، أو غيرها مما لايرضى الله ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ ولم يخف عليه، وهو أبلغ وعيد ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ استئناف، وليس بمعطوف على جواب الشرط، أى: هو الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض؛ فلايخفى عليه سركم وعلنكم﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادرا على عقوبتكم.

●● ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ يوم منصوب بتود، والضمير فى بينه لليوم، أى: يوم القيامة حين تجد كل نفس خيرها وشرها حاضرين، تتمنى لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمدا بعيدا، أى مسافة بعيدة أو باذكر، ويقع تجد على ما عملت وحده، ويرتفع وما عملت على الابتداء، وتود خبره أى: والذى عملته من سوء تود هى لو تباعد ما بينها وبينه، ولا يصح أن تكون ما شرطية؛ لارتفاع تود، نعم الرفع جائز إذا كان الشرط ماضيا لكن الجزم هو الكثير، وعن المبرد أن الرفع شاذ، وكرر قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ليكون على بال منهم لايغفلون عنه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه حتى لايتعرضوا لسخطه، ويجوز أن يريد أنه مع كونه محذوراً لكمال قدرته مرجو لسعة رحمته، كقوله تعالي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. ونزل حين قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه.

●● ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ محبة العبد لله إيثار طاعته على غير ذلك، ومحبة الله العبد أن يرضى عنه ويحمد فعله، وعن الحسن زعم أقوام على عهد رسول الله (ﷺ) أنهم يحبون الله؛ فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل، فمن ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب وكتاب الله يكذبه، وقيل: محبة الله معرفته ودوام خشيته ودوام اشتغال القلب به وبذكره ودوام الأنس به، وقيل : هى اتباع النبى ـ عليه السلام ـ وفى أقواله وأفعاله وأحواله إلا ماخص

---

(١) سورة «فصلت» الآية (٤٣).

به، وقيل: علامة المحبة أن يكون دائم التفكير، كثير الخلوة، دائم الصمت، لايبصر إذا نظر ولايسمع إذا نودى، ولايحزن إذا أصيب، ولايفرح إذا أصاب ولايخشى أحداً ولايرجوه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ قيل: هى علامة المحبة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن قبول الطاعة ويحتمل أن يكون مضارعاً أى: فإن تتولوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أى لايحبهم.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ اختار ﴿آدَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ شيخ المرسلين﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحاق وأولادهما ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ موسى وهارون هما ابنا عمران بن يصهر، وقيل: عيسى ومريم بنت عمران بن ماثان، وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمى زمانهم.

●● ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران ﴿بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ مبتدأ وخبره فى موضع النصب صفة للذرية يعنى أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة بعضها متشعب من بعض موسى وهارون من عمران وعمران من يصهر ويصهرمن قاهث وقاهث من لاوى ولاوى من يعقوب ويعقوب من إسحق، وكذلك عيسى بن مريم بنت عمران بن ماثان، وهو يتصل بيهواد بن يعقوب بن إسحق، وقد دخل فى آل إبراهيم رسول الله (ﷺ) وقيل: بعضها من بعض فى الدين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يصلح للاصطفاء، أو سميع عليم لقول امرأة عمران ونيتها.

●● ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ وإذ منصوب به، أو بإضمار اذكر ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ هى امرأة عمران بن ماثان أم مريم جدة عيسي، وهى حنة بنت فاقوذا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ﴾ أوجبت ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ هو حال من ما، وهى بمعنى الذى، أى: معتقا لخدمة بيت المقدس لايدل عليه ولا أستخدمه، وكان هذا النوع من النذر مشروعا عندهم، أو مخلصا للعبادة، يقال: طين حر أى: خالص ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ منى مدنى وأبو عمرو، والتقبل: أخذ الشيء على الرضا به ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

●● ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير لما فى بطنى، وإنما أنث على تأويل الحبلة، أوالنفس، أو النسمة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ أنثى حال من الضمير فى وضعتها، أى: وضعت الحبلة أوالنفس أو النسمة أنثى، وإنما قالت هذا القول؛ لأن التحرير لم يكن إلا للغلمان فاعتذرت عما نذرت وتحزنت إلى ربها؛ ولتكلمها بذلك على وجه التحزن والتحسر قال الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾تعظيما لموضوعها أى: والله أعلم بالشيء الذى وضعت وما علق به من عزائم الأمور، وضعت شامى وأبو بكر بمعنى ولعل لله سرا وحكمة، وعلى هذا يكون داخلاً فى القول ، وعلى الأول يوقف عند قوله أنثى وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ابتداء إخبار من الله تعالى﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذى طلبت

﴿كَالأُنثَى﴾ التى وهبت لها، واللام فيهما للعهد ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ معطوف على إنى وضعتها أنثى، وما بينهماجملتان معترضتان،وإنما ذكرت حنة تسميتها مريم لربها؛ لأن مريم فى لغتهم العابدة؛ فأرادت بذلك التقرب والطلب إليه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها وأن يصدق فيها ظنها بها، ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها ولولدها من الشيطان بقوله: ﴿ وإِنِّي﴾ وإنى مدنى ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجيرها ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الملعون فى الحديث: «مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد؛ فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» (١) .

●● ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ قبل الله مريم ورضى بها فى النذر مكان الذكر ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قيل: القبول اسم ما يقبل به الشيء كالسعوط لما يسعط به، وهو اختصاصه لها بإقامتها مقام الذكر فى النذر ولم تقبل قبلها أنثى فى ذلك، أو بأن تسلمها من أمها عقيب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة. روى أن حنة لما ولدت مريم لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم فى بيت المقدس كالحجبة فى الكعبة، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها؛ لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، وكانت بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل. وأحبارهم ، فقال لهم زكريا: أنا أحق بها؛ عندى أختها، فقالوا: لا.حتى نقترع عليها، فانطلقوا، وكانوا سبعة وعشرين، إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم، فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها، وقيل: هو مصدر على تقدير حذف المضاف أى فتقبلها بذى قبول حسن، أى بأمر ذى قبول حسن وهو الاختصاص ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة قال ابن عطاء (٢): ما كانت ثمرته مثل عيسى فذاك أحسن النبات، ونباتا مصدر على خلاف الصدر أو التصدير، فنبتت نباتا ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ وكلفها: قبلها، أو ضمن القيام بأمرها. وكفَّلها كوفى أى كفلها الله زكريا يعنى جعله كافلالها وضامنا لمصالحها ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر كوفى غير أبى بكر فى كل القرآن، وقرأ أبو بكر بالمد والنصب هنا. غيرهم بالمد والرفع كالثانية والثالثة، ومعناه فى العبري: دائم الذكر والتسبيح ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ قيل: بنى لها زكريا محرابا فى المسجد أى غرفة تصعد إليها بسلم وقيل المحراب أشرف المجالس ومقدّمها كأنها وضعت فى أشرف موضع من بيت المقدس، وقيل: كانت مساجدهم تسمى المحاريب، وكان لايدخل عليها إلا هو وحده ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ كان رزقها ينزل عليها من الجنة، ولم ترضع ثديا قط فكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الذى لايشبه أرزاق الدنيا! وهو

(١) الحديث فى الصحيحين من حديث أبى هريرة.

(٢) ابن عطاء، هو واصل بن عطاء رأس المعتزلة.

آت فى غير حينه ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فلاتستبعد. قيل: تكلمت وهى صغيرة كما تكلم عيسى وهو فى المهد﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ من جملة كلام مريم، أو من كلام رب العالمين ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو تفضلا بغير محاسبة ومجازاة على عمل.

●● ﴿هُنَالِكَ﴾ فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب، أو فى ذلك الوقت فقد يستعار هنا، وحيث، وثم للزمان، لما رأى حال مريم فى كرامتها على الله ومنزلتها رغب أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أمها حنة فى الكرامة على الله، وإن كانت عاقراً عجوزاً فقد كانت أمها كذلك، وقيل: لما رأى الفاكهة فى غير وقتها انتبه على جواز ولادة العاقر ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾ ولداً، والذرية يقع على الواحد والجمع ﴿طَيِّبَةً﴾ مباركة، والتأنيث للفظ الذرية﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

●● ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل: ناداه جبريل ـ عليه السلام ـ وإنما قيل: الملائكة؛ لأن المعنى أتاه النداء من هذا الجنس كقولهم: فلان يركب الخيل فناديه بالياء والإمالة حمزة وعلي﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ وفيه دليل على أن المرادات تطلب بالصلوات وفيها إجابة الدعوات وقضاء الحاجات، وقال ابن عطاء: ما فتح الله ـ تعالى ـ على عبد حالة سنية إلا باتباع الأوامر وإخلاص الطاعات ولزوم المحاريب﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف شامي وحمزة على إضمار القول، أو لأن النداء قول. الباقون بالفتح أى بأن الله ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ يبشرك وما بعده حمزة وعلى من بشره والتخفيف والتشديد لغتان ﴿بِيَحْيَى﴾ هو غير منصرف إن كان عجميا وهو الظاهر فللتعريف والعجمة كموسى وعيسى وإن كان عربياً فللتعريف ووزن الفعل كيعمر ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال منه ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى مصدقاً بعيسى مؤمنا به فهو أول من آمن به، وسمى عيسى كلمة الله، لأن تكونه بكن بلا أب أو مصدقاً بكلمة من الله مؤمنا بكتاب منه ﴿وَسَيِّدًا﴾ هو الذى يسود قومه أى يفوقهم فى الشرف؛ وكان يحيي فائقا على قومه؛ لأنه لم يركب سيئة قط ويالها من سيادة ، وقال الجنيد [1]: هو الذى جاد بالكونين عوضا عن المكون ﴿وَحَصُورًا﴾ هو الذى لايقرب النساء مع القدرة حصرا لنفسه أى منعًا لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئا من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء أوكائنا من جملة الصالحين.

●● ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاد من حيث العادة واستعظام للقدرة لاتشكك ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ كقولهم: أدركته السن العالية أى أثر فى الكبر وأضعفني، وكان له تسع وتسعون سنة

(١) الجنيد: هو محمد بن الجنيد،البغدادي، الخراز، كنيته:«أبو القاسم»،وهو رأس الصوفية بلا منازع، تتلمذ على خاله سرى السقطي، واشتهرا بالزهد، والورع، والعبادة، وكان الجنيد ـ رحمه الله ـ عالماً ثبتاً، ولد نشأ وتوفى ببغداد،وكانت وفاته عام ٢٩٧ هـ. الأعلام. (١٤١/٢).

ولامرأته ثمان وتسعون ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لم تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأفعال العجيبة.

●● ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي﴾ لي مدني وأبو عمرو ﴿آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحبس لأتلقى النعمة بالشكر إذا جاءت ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي لاتقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إلا إشارة بيد أو رأس أو عين أو حاجب، وأصله التحرك يقال : ارتمز إذا تحرك واستثنى الرمز وهو ليس من جنس الكلام؛ لأنه لما أدّى مؤدّى الكلام وفهم منه ما يفهم منه، سمى كلاما، أو هو استثناء منقطع، وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة عن تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ولذا قال: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة والأدلة الظاهرة، وإنما حبس لسانه عن كلام الناس ليخلص المدة لذكر الله لايشغل لسانه بغيره كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر، قيل له: آيتك أن تحبس لسانك لا عن الشكر، وأحسن الجواب ما كان منتزعا من السؤال، والعشى من حين الزوال إلى الغروب، والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

●● ﴿وَإِذْ﴾ عطف على إذ قالت امرأة عمران، أو التقدير واذكر إذ ﴿قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ روى أنهم كلموها شفاها﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ ولاحين تقبلك من أمك ورباك واختصك بالكرامة السنية ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ مما يستقذر من الأفعال ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ آخرا ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

●● ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أديمى الطاعة، أو أطيلى قيام الصلاة ﴿وَاسْجُدِي﴾ وقيل: أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئات الصلاة ثم قيل لها: ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أى ولتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى فى عدادهم ولاتكونى فى عداد غيرهم.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من قصة حنة وزكريا ويحيي ومريم ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ يعنى أن ذلك من الغيوب التى لم تعرفها إلا بالوحى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ أزلامهم وهى قداحهم التى طرحوها فى النهر مقترعين، أو هى الإقلام التى كانوا يكتبون التوراة بها اختاروها للقرعة تبركا بها ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون، كأنه قيل: يلقونها ينظرون أيهم يكفل مريم، أو ليعلموا، أو يقولون: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فى شأنها تنافسا فى التكفل بها.

●● ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى اذكر ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ أى بعيسى ﴿مِّنْهُ﴾ فى موضع جر صفة لكلمة ﴿اسْمُهُ﴾ مبتدأ وذكر ضمير الكلمة؛ لأن المسمى بها مذكر ﴿الْمَسِيحُ﴾ خبره والجملة

فى موضع جر صفة لكلـمة. والمسيح لقب من الألقاب المشرفة كالصديـق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك كقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾(1) . وقيل: سمى مسيحا؛ لأنه كان لايمسح ذا عاهة إلا برأ، أو لأنه كـان يمسح الأرض بالسياحة لايستـوطن مكانا ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ خبر مبتدأ مـحذوف أى هو ابن مريم، ولايجوز أن يكون صفـة لعيسي؛ لأن اسمه عيسى فحسـب وليس اسمه عيسى ابن مريم، وإنما قال ابن مريم إعلاما لـها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه ﴿ وَجِيهًا﴾ ذا جاه وقدر ﴿ فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة والطاعة ﴿وَالآخِرَةِ ﴾ بعلو الدرجة والشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ برفعه إلى السماء، وقول: وجيها حال من كلمة لكونها موصوفة وكذا ومن المقربين أى وثابتا من المقربين وكذا.

●● ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ أى مكلماً الناس ﴿ فِي الْمَهْدِ ﴾ حال من الضمير فى يكلم أى ثابتا فى المهد وهو ما يمهد لـلصبى من مضجعه، سـمى بالمصدر ﴿وَكَهْلاً﴾ عطف علـيه أى ويكلم النـاس طفلا وكهلا أى يكـلم الناس فى هاتين الحالـتين كلام الأنبياء من غـير تفاوت بين حال الطفـولة وحالة الكهولة الـتى يستحكم فيها الـعقل ويستنبأ فيـها الأنبياء ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال أيضاً، والـتقدير يبشرك به موصوفا بهذه الصفات.

●● ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى إذا قدر تكون شيء كونـه من غير تأخير لكنه عبر بـقوله كن إخبارا عن سرعة تكون الأشياء بتكوينه.

●● ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ مدنى وعاصم، وموضعه حال معطوفة على وجيها. الباقون بالنون على أنه كلام مبتدأ ﴿الْكِتَابَ ﴾ أى الكتابة، وكـان أحسن الناس خطا فى زمانـه، وقيل: كتب الله ﴿وَالْحِكْمَةَ ﴾ بيان الحلال والحرام، أو الكتاب الخط باليد والحكمة: البيان باللسان ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾

●● ﴿ وَرَسُولاً﴾ أى ونجعله رسـولا أو يكون فى موضع الحـال، أى وجيها فى الدنـيا والآخرة ورسولا ﴿إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي﴾ بأنى ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بدلالة تدل على صدقى فيما أدعيه من النبوة ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم ﴾ نُصب بدل من أنى قد جئتكـم، أوجر بدل من آية، أو رفع على هى أنى أخلق لكم، إنّى نافـع على الاستئناف ﴿مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أى أقدر لكم شيـئا مثل صورة الطير﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أى فى ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ فيصير طيرا كسائر، الطيور طائر مدنى﴿بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾بأمره، قيل: لم يخلـق شيئا غير الخفاش ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ ﴾ الذى ولد أعـمى ﴿ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرر بـإذن الله دفع الوهم مـن يتوهم فـيه اللاهوتية، روى أنه أحيا سام بن نوح ـ عليه السـلام ـ وهم ينظرون إليه ، فقالوا: هذا سحر مبين

(1) سورة «مريم» الآية (31).

فأرنا آية فقال: يا فلان أكلت كذا ويا فلا خبيء لك كذا وهو قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وما فيهما بمعنى الذى أو مصدرية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما سبق ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

●● ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾أى قد جئتكم بآية وجئتكم مصدقا ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ رد على قوله[1]. ﴿بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى جئتكم بآية من ربكم ولأحل لكم. وما حرم الله عليهم فى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ الشحوم ولحوم الإبل والسمك وكل ذى ظفر فأحل لهم عيسى بعض ذلك ﴿وجئتكم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرر للتأكيد ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى تكذيبى وخلافى ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فى أمري.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إقرار بالعبودية ونفى للربوبية عن نفسه بخلاف ما يزعم النصارى ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دونى ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يؤدى صاحبه إلى النعيم المقيم.

●● ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ علم من اليهود كفرا علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي﴾ أنصارى مدنى وهو جمع ناصركأصحاب ، أو جمع نصير كأشراف ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يتعلق بمحذوف حال من الياء أى من أنصارى ذاهبا إلى الله ملتجئا إليه ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ حوارى الرجل صفوته وخاصته ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أعوان دينه ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ﴾ ياعيسى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ إنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيدا لإيمانهم؛ لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد.

●● ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أى رسولك عيسى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم، أو مع الذين يشهدون لك بالوحدانية، أو مع أمة محمد- عليه السلام ـ لأنهم شهداء على الناس.

●● ﴿وَمَكَرُوا﴾ أى كفار بنى إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر حين أرادوا قتله وصلبه ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أى جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء؛ لأنه مذموم عند الخلق وعلى هذا الخداع والاستهزاء كذا فى شرح التأويلات ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أقوى المجازين وأقدرهم على العقاب من حيث لايشعر المعاقب.

●● ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أى مستوفى أجلك ومعناه أنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى سمائى ومقر ملائكتى ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم وخبث صحبتهم، وقيل: متوفيك

---

(١) يقصد بالرد: العطف على الجملة السابقة.

قابضك من الأرض مـن توفيت مالى على فلان إذا استـوفيته، أو مميتك فى وقتك بـعد النزول من السماء، ورافعك الآن إذ الواو لاتوجب الترتيب ، قال النبـي- عليه السلام- : «ينزل عيسى خليفة على أمتى يدق الصليب ويقتل الخنازير ويلبث أربعين سنة ويتزوج ويولد له ثم يتوفى وكيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها والمـهدى من أهل بيتى فى وسطها»(١) . أو متوفى نفسك بالنوم ورافعك وأنت نائـم حتى لايلحقك خوف وتـستيقظ وأنت فى السـماء آمن مقرب ﴿**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ**﴾ أى المسلمـين؛ لأنهم متبعـوه فى أصل الإسلام وإن اختلـفت الشرائع دون الذيـن كذبوه وكذبوا عليه من الـيهود والنصارى ﴿**فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ بك ﴿**إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ يعلونهم بالحجة وفى أكثـر الأحوال بها وبالـسيف ﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**﴾ فى الآخـرة ﴿**فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ .

●● ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ*** **وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾وتفسير الحكم هاتان الآيتان فيوفيهم حفص.

●● ﴿ **ذَلِكَ**﴾ إشارة إلى مـا سبق من نبأ عـيسى وغيره وهو مـبتدأ ﴿**نَتْلُوهُ عَلَيْكَ**﴾ خبره ﴿**مِنَ الآيَاتِ**﴾ خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿**وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ** ﴾ القرآن يعنى المحكم، أو كأنه ينطق بالحكمة لكثرة حكمه ونزل لما قال وفد بنى نجران هل رأيت ولد بلا أب.

●● ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ** ﴾ أى إن شأن عيـسى وحالة الغـريبة كشأن آدم عـليه السلام-﴿**خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾ قدره جسدا من طين وهـى جملة مفسرة لحالة شبه عـيسى بآدم ولاموضع لها أى خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم، فكـذلك حال عيسى مع أن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب فشبه الـغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهـته إذا نظر فيما هو أغرب مما استـغربه، وعن بعض العلماء أنـه أسر بالروم فقال لهم: لم تعبـدون عيسي؟ قالوا : لأنه لا أب له. قال: فآدم أولي، لأنه لا أبـوين له، قالوا: كان يحيي الموتي، قال: فحـزقيل أولي؛ لأن عيسى أحيا أربعة نفر وحزقيل ثـمانية آلاف، فقالوا: كان يبرىء الأكمه والأبرص، قال فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق، ثم قام سالما ﴿**ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن**﴾ أى أنشأه بشرا﴿ **فَيَكُونُ**﴾ أى فكان وهو حكاية حـال ماضية، وثم لترتيب الخبر علـى الخبر لا لترتيب المخبر عنه.

●● ﴿ **الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ خبر مبتدأ محذوف أى هو الحق﴿**فَلا تَكُن**﴾ أيها السامع ﴿**مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ الشاكين ويحتـمل أن يكون الخطاب للنبي(ﷺ) ويكـون من باب التهييج لزيادة الثـبات؛ لأنه عليه السلام معصوم من الامتراء.

●● ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ**﴾ من النصارى ﴿**فِيهِ**﴾ فى عيسى ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ من البينات

---

(١) رواه ابن جرير بسند صحيح عن كعب.

الموجبة للعلم، وما بمعنى الذى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ هلموا والمراد المجيء بالعزم والرأى كما تقول: تعال نفكر فى هذه المسئلة ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أى يدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه نفسه إلى المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ ثم نتباهل بأن نقول: بهلة الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله لعنه وأبعده من رحمته، وأصل الابتهال هذا ثم يستعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا. روى أنه ـ عليه السلام ـ لما دعاهم إلى الباهلة قالوا: حتى ننظر فقال العاقب – وكان ذا رأيهم: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبى مرسل، وما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ولانبت [1] صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن فإن أبيتم إلا إلف دينكم فودعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله، (ﷺ) وقد غدا محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعليّ خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إنى لأرى توجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولايبقى على وجه الأرض نصراني، فقالوا: يا أبا القاسم رأينا أن لانباهلك فصالحهم النبى على ألفى حلة كل سنة فقال ـ عليه السلام ـ: «والذى نفسى بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير»[2]. وإنما ضم الأبناء والنساء وإن كانت المباهلة مختصة به وبمن يكاذبه؛ لأن ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء؛ لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وقدمهم فى الذكر على الأنفس لينبه على قرب مكانهم ومنزلتهم، وفيه دليل واضح على صحة نبوة النبى (ﷺ) لأنه لم يرو أحد من موافق أو مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ منا ومنكم فى شأن عيسى، ونبتهل ونجعل معطوفان على ندع.

●● ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذى قص عليك من نبأ عيسى ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ هو فصل بين اسم إن وخبرها، أو مبتدأ والقصص الحق خبره، والجملة خبر إن وجاز دخول اللام على الفصل؛ لأنه إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجوز؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ منه، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ومن فى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ بمنزلة البناء على الفتح فى لا إله إلا الله فى إفادة معنى الاستغراق، والمراد الرد على النصارى تثليثهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى الانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى تدبير الأحكام.

●● ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب المذكور فى قوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾[3].

---

(١) نبت: أى بلغ واحتلم.

(٢) رواه البغوى والخازن، وروى ابن جرير نحوه، وفيه: ولو فعلوا لاَستُؤْصِلُوا عن جديد الأرض».

(٣) سورة «النحل» الآية (٨٨).

●● ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ هم أهل الكتاب، أو وفد نجران، أو يهود المدينة ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ أى مستوية ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لايختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل وتفسيرالكلمة قوله: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ يعنى تعالوا إليها حتى لانقول: عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله؛ لأن كل واحد منهما بعضنا بشر مثلنا ولانطيع أحبارنا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع الله، وعن عدى بن حاتم ماكنا نعبدهم يا رسول الله قال: «أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم»؟ قال : نعم. قال: «هوذاك» ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال، أو صراع : اعترف بأنى أنا الغالب وسلم إليّ الغلبة.

●● ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ زعم كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم وجادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين فيه فقيل لهم: إن اليهوديةإنما حدثت بعد نزول التوراة، والنصرانية بعد نزول الإنجيل وبين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبينه وبين عيسى ألفان فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ حتى لاتجادلوا مثل هذا الجدال المحال.

●● ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ ﴾ ها للتنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره ﴿حَاجَجْتُمْ ﴾ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى يعنى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مما نطق به التوراة والإنجيل ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا ذكر له فى كتابيكم من دين إبراهيم، وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، وحاججتم صلته ها أنتم بالمد وغير الهمز حيث كان مدنى وأبو عمرو ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ علم ما حاججتم فيه ﴿وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به ثم أعلمهم بأنه بريء من دينهم فقال:

●● ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كأنه أراد بالمشركين اليهود والنصارى لإشراكهم به عزيراً والمسيح، أو وما كان من المشركين كما لم يكن منهم .

●● ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقر بهم منه من الولى وهو القرب ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ فى زمانه وبعده ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ خصوصاً خص بالذكر لخصوصيته بالفضل والمراد محمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أمته ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ناصرهم.

●● ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ هم اليهود دعوا حذيفة [1]. وعمارا ومعاذا

---

(١) هو الصحابى الفاتح: حذيفة بن اليمان ـ واسم اليمان: حُسَيْل، أو حسْل ـ بن جابر، العبسي، هرب أبوه إلى المدينة؛ فحالف بنى عبد الأشهل، فسماه قومه «اليمان» ؛ لأنه حالف اليمانية، حسبه المشركون هو وأبيه عن بدر حتى حلفا لهم أن لايشهداها، وشهدا أحداً وقتل اليمان بأحد، وشهد حذيفة =

إلى اليهودية ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يعود وبال الإضلال إلا عليهم؛ لأن العذاب يضاعف لهم بضلالهم وإضلالهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك.

●● ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالتوراة والإنجيل وكفرهم بها أنهم لايؤمنون بما نطقت به من صحة نبوة رسول الله ﷺ وغيرها ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعترفون بأنها آيات الله وتكفرون بالقرآن ودلائل النبوة وأنتم تشهدون نعته فى الكتابين، أو تكفرون بآيات الله جميعاً وأنتم تعلمون أنها حق.

●● ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ تخلطون الإيمان بموسى وعيسى بالكفر بمحمد (ﷺ) ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعت محمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق.

●● ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فيم بينهم ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى القرآن ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ ظرف أى أوله يعنى أظهروا الإيمان بما أنزل على المسلمين فى أول النهار ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ واكفروا به آخره ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل المسلمين يقولون مارجعوا وهم أهل كتاب وعلم إلا لأمر قد تبين لهم فيرجعون برجوعكم.

●● ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ ولاتؤمنوا متعلق بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ وما بينهما اعتراض أى ولاتظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم، أرادوا: أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولاتفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين؛ لئلا يزيدهم ثباتاً ودون المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى والضمير فى يحاجوكم لأحد لأنه فى معنى الجمع بمعنى ولاتؤمنوا لغير اتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ويغالبونكم عند الله بالحجة، ومعنى الاعتراض أن الهدى هدى الله من شاء هداه حتى أسلم، أو ثبت على الإسلام كان ذلك ولم ينفع كيدكم وحيلكم وزيكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين وكذلك قوله : ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ يريد الهداية والتوفيق، أو يتم الكلام عند قوله إلا لمن تبع دينكم أى ولا تؤمنوا هذا الإيمان الظاهر وهو إيمانهم وجه النهار إلا لمن تبع دينكم إلا لمن كانوا تابعين لدينكم ممن أسلموا منكم؛ لأن رجوعهم كان أرجى عندهم من رجوع من سواهم، ومعنى قوله: أن يؤتى لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم قلتم ذلك ودبرتموه لا لشيء آخر يعنى أن ما بكم من الحسد والبغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيم من العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، ويدل عليه قراءة ابن كثير آن بالمد والاستفهام يعنى الآن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب تحسدونهم وقوله : أو يحاجوكم على هذا معناه دبرتم ما دبرتم لأن يؤتى أحد مثل ماأوتيم، أو لما يتصل به عند كفركم به من محاجتهم لكم عند ربكم ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ أى واسع الرحمة ﴿مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ بالمصلحة.

=ما بعدها، وكان صاحب سر رسول الله ﷺ، وكانت له فتوحات كثيرة سنة ٢٢ هـ. تهذيب التهذيب (١/ ٤٥٤، ٤٥٥).

●● ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾هو عبدالله بن سلام استودعه رجل من قريش ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداه إليه﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ هو فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش دينارا فجحده وخانه، وقيل: المأمونون على الكثير النصارى لغلبةالأمانة عليهم والخائنون فى القليل اليهود لغلبة الخيانة عليهم﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾ إلامدة دوامك عليه يا صاحب الحق قائماً على رأسه ملازماً له يؤده ولايؤده بكسر الهاء مشبعة مكى وشامى ونافع وعلى وحفص واختلس أبو عمرو فى رواية. غيرهم بسكون الهاء ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذى دل عليه لايؤده ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أى تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم: ليس علينا فى الأميين سبيل أى لايتطرق علينا إثم وذم فى شأن الأميين يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم؛ لأنهم ليسو على ديننا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، وكانوا يقولون، لم يجعل لهم فى كتابنا حرمة، وقيل: بايع اليهود رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم، فقالوا: ليس لكم عليناحق حيث تركتم دينكم وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بإدعائهم أن ذلك فى كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

●● ﴿ بَلَىٰ ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل عليهم فى الأميين أى بلى عليهم سبيل فيهم وقوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدت بلى مسدها والضمير فى بعهده يرجع إلى الله تعالى أى كل من أوفى بعهد الله واتقاه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى يحبهم فوضع الظاهر موضع الضمير، وعموم المتقين قام مقام الضمير الراجع من الجزاء إلى من ويدخل فى ذلك الإيمان وغيره من الصالحات وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال السوء، قيل: نزلت فى عبدالله بن سلام ونحوه من مسلمى أهل الكتاب ويجوز أن يرجع الضمير إلى من أوفى بما عاهد الله عليه واتقى الله فى ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه، ونزل فيمن حرَّف التوراة وبدل نعته عليه السلام من اليهود وأخذ الرشوة على ذلك.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ بما عاهدوه عليه من الإيمان بالرسول المصدق لمَا معهم ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبماحلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ متاع الدنيا من الترؤس والارتشاء ونحو ذلك وقوله: بعهد الله يقوى رجوع الضمير فى بعهده إلى الله ﴿أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ﴾ أى لانصيب ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بمايسرهم﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ نظر رحمة ﴿ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ ولايثنى عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

●● ﴿وَإِنَّ مِنْهُم﴾ من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ هم كعب بن الأشرف[1]، ومالك بن الصيف[2]، وحيى بن أخطب[3]. وغيرهم ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾يفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى المحرف، واللَّىُ: الفتل وهو الصرف والمراد تحريفهم كآية الرجم ونعت محمد (ﷺ) ونحو ذلك والضمير في﴿تَحْسَبُوهُ﴾ يرجع إلى ما دل عليه يلوون ألسنتهم بالكتاب، وهو المحرف ويجوز أن يراد يعطفون ألسنتهم يشبه الكتاب لتحسبوا ذلك الشبه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى التوراة ﴿ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وليس هو من التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ تأكيد لقوله: وماهومن الكتاب وزيادة تشنيع عليهم ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون.

●● ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ﴾ تكذيب لم اعتقد عبادة عيسى عليه السلام - وقيل: قال رجل : يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ قال:«لاينبغى أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله»[4]. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة وهى السنة أو فصل القضاء ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ عطف على يؤتيه ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ ولكن يقول: كونوا ربانيين، والربانى منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون وهو شديد التمسك بدين الله وطاعته، وحين مات ابن عباس قال ابن الحنفية[5]: مات ربانى هذه الأمة، وعن الحسن ربانيين علماء فقهاء، وقيل: علماء معلمين، وقالوا : الربانى العالم العامل ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ كوفي وشامى أى غيركم، غيرهم بالتخفيف ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى تقرءون والمعنى بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم كانت الربانية

---

(١) هو: كعب بن الأشرف الطائى، شاعر جاهلى، أدرك الإسلام ولم يسلم، بل كان يهجو النبى ﷺ، ويكيد له المؤامرات، فحث النبىُّ ﷺ الصحابة على قتله؛ فقتله خمسة من الصحابة عام ٣ هـ. الأعلام (٥/ ٢٢٥).

(٢) مالك بن الصيف؛ هو أحد المنافقين من اليهود.

(٣) هو: حُيَى بن أخطب النضرى، جاهلى من الأشداء الفتاة، أدرك الإسلام ولم يسلم، بل آذى المسلمين، وهو والد صفية، أم المؤمنين، سباها الرسول ﷺ،يوم خيبر ثم أعتقها وتزوجها، أسره المسلمون.فى غزوة بنى قريظة، ثم قتلوه عام ٥ هـ. الأعلام (٢/ ٢٩٢).

(٤) نقله الواحدى فى الأسباب عن الحسن البصرى أن رجلاً. . » فذكره.

(٥) محمد بن الحنفية: هو محمد بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - الهاشمى، أبو القاسم المدنى، وهو معروف بـ « ابن الحنفية» وهى أمه، واسمها: خولة بنت جعفر بن قيس، من بنى حنيفة، وسمى بذلك تمييزاً له عن أخويه - الحسن والحسين - ابنا الزهراء، وسبطا رسول الله ﷺ . روى عن أبيه ، وعن بعض الصحابة، وعنه أبناؤه، والتابعون، وكان أوثق الناس عن أبيه، قال فيه ابن حجر:«ثقة، عالم، من الثانية». ولد عام ٢١ هـ، وتوفى عام ٨١ هـ ، على خلاف فى كلٍّ. تهذيب التهذيب (٥/ ٢٢٧،٢٢٨).

التى هى قوة التمسك بطاعة الله مسببة عن العلم والدراسة وكفى به دليلاً على خيبة سعى من جهد نفسه وكد روحه فى جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل فكان كمن غرس شجرة حسناء تؤنقه بمنظرها ولاتنفعه بثمرها وقيل: معنى تدرسون تدرسونه على الناس كقوله : ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾[1]. فيكون معناه معنى تدرسون من التدريس كقراءة ابن جبير[2].

●● ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ثم يقول، ووجهه أن تجعل لامزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله: ماكان لبشر والمعنى ماكان لبشر أن يستنبئه الله وينصبه للدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة وترك الأنداد ثم يأمر الناس بأن يكونوا عبادا له ويأمركم ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ كما تقول: ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهيننى ولا يستخف بى، وبالرفع حجازى وأبو عمرو وعلىّ على ابتداء الكلام، والهمزة فى ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ﴾ للإنكار، والضمير فى لايأمركم وأيأمركم للبشر، أو لله ، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يدل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوه أن يسجدوا له.

●● ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ هو على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك أو المراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف واللام فى ﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ لام التوطئة؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستحلاف، وفى لتؤمنن لام جواب القسم وما يجوز أن تكون متضمنة لمعنى الشرط ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط جميعا وأن تكون موصولة، بمعنى للذى آتيتكموه لتؤمنن به ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ معطوف على الصلة والعائد منه إلى مامحذوف والتقدير ثم جاءكم به ﴿رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ للكتاب الذى معكم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ بالرسول ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ أى الرسول وهو محمد(ﷺ) لما آتيتكم حمزةوما بمعنى الذى، أو مصدرية أى لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب والحكمة، ثم لمجىء رسول مصدق لما معكم، واللام للتعليل أى أخذ الله ميثاقهم لتؤمنن بالرسول ولتنصرنه لأجل أنى آتيتكم الحكمةوأن الرسول الذى آمركم بالإيمان به ونصرته موافق لكم غير مخالف آتيناكم مدنى ﴿قَالَ﴾ أى الله ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أى قبلتم عهدى، وسمى إصرا؛ لأنه مما يؤصر أى يشد ويعقد﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا معكم على ذلك من إقراركم وتشاهدكم من الشاهدين، وهذا توكيد عليهم وتحذير من الرجوع إذا علموا بشهادة الله وشهادة بعضهم على بعض، وقيل: قال الله للملائكة: اشهدوا.

---

(١) سورة «الإسراء» ، الآية (١٠٦).

(٢) ابن جبير: هو عبدالله بن جبير، الهاشمى، المكى، وهوغير الصحابى، وغير التابعى، فهذا من القراء.

غاية النهاية (١/ ٤١٢).

●● ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق والتوكيد ونقض العهد بعد قبوله وأعرض عن الإيمان بالنبى الجائى ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفار.

●● ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ﴾ دخلت همزة الإنكار على الفاء العاطفة جملة على جملة، والمعنى فأولئك هم الفاسقون فغير دين الله يبغون، ثم توسطت الهمزة بينهما، ويجوز أن يعطف على محذوف تقديره: أيتولون فغير دين الله يبغون، وقدم المفعول وهو غير دين الله على فعله؛ لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذى هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل ﴿يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ الإنس والجن ﴿طَوْعًا﴾ بالنظر فى الأدلة والإنصاف من نفسه ﴿وَكَرْهًا﴾ بالسيف، أو بمعاينة العذاب كنتق[1] الجبل على بنى إسرائيل وإدراك الغرق فرعون والإشفاء على الموت ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[2] . وانتصب طوعا وكرها على الحال أى طائعين ومكرهين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على الأعمال يبغون ويرجعون بالياء فيهما حفص وبالتاء فى الثانى وفتح الجيم أبو عمرو؛ لأن الباغين هم المتولون والراجعون جميع الناس، وبالتاء فيهما وفتح الجيم غيرهما.

●● ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أمر رسول الله (ﷺ) بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان فلذا وحد الضمير فى قل وجمع فى آمنا، أو أمر بأن يتكلم عن نفسه كما يتكلم الملوك إجلالا من الله لقدر نبيه وعدى أنزل هنا بحرف الاستعلاء، وفى البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين إذ الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسول فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر، وقال صاحب اللباب [3] الخطاب فى البقرة للأمة لقوله: قولوا فلم يصح إلا إلى لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعا، وهنا قال: قل وهو خطاب للنبى - عليه السلام - دون أمته فكان اللائق به على لأن الكتب منزلة عليه لاشركة للأمة فيه وفيه نظر لقوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾[4] ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب وكان فيهم أنبياء ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ﴾ كرر فى البقرة وما أوتى ولم يكرر هنا لتقدم ذكر الإيتاء حيث قال لما آتيتكم﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ من عند ربهم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فى الإيمان كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ موحدون مخلصون أنفسنا له لانجعل له شريكا فى عبادتنا.

---

(١) النتق: هو الزعزعة والنقض.

(المعجم الوسيط).

(٢) سورة «غافر» الآية (٨٤).

(٣) صاحب اللباب: هو على بن محمد بن عبدالكريم الشيبانى الجزرى، أبو الحسن عز الدين، ابن الأثير، إمام مؤرخ، له مؤلفات. ولد عام ٥٥٥ هـ، وتوفى ٦٣٠هـ.

(الأعلام ٤/ ٣٣١).

(٤) سورة «آل عمران» الآية (٧٢).

●● ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ﴾ يعنى التوحيد وإسلام الوجه لله أو غير دين محمد – عليه السلام – ﴿دينا﴾ تمييز ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ من الذين وقعوا فى الخسران ونزل فى رهط أسلموا ثم رجعوا عن الإسلام ولحقوا بمكة .

●● ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ والواو فى ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ للحال وقد مضمرة أى كفروا، وقد شهدوا أن الرسول أى محمدا حق، أو للعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل؛ لأن معناه بعد أن آمنوا ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى الشواهد كالقرآن وسائر المعجزات ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى ماداموا مختارين الكفر أولا يهديهم طريق الجنة إذا ماتوا كفارا.

●● ﴿أُولَئِكَ﴾ مبتدأ ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثان خبره ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ وهما خبر أولئك، أو جزاؤهم بدل الاشتمال من أولئك ﴿وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ .

●● ﴿خَالِدِينَ﴾حال من الهاء والميم فى عليهم ﴿فِيهَا﴾ فى اللعنة ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ .

●● ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الكفر العظيم والارتداد ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا أو دخلوا فى الصلاح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكفرهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم ونزل فى اليهود.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعيسى والإنجيل ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى والتوراة ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن أوكفروا برسول الله (ﷺ) بعدما كانوا به مؤمنين قبل مبعثه ثم ازدادوا كفرا بإصرارهم على ذلك وطعنهم فيه فى كل وقت أونزل فى الذين ارتدوا ولحقوا بمكة. وازديادهم الكفر أن قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ريب المنون ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ أى إيمانهم عند البأس؛ لأنهم لايتوبون إلا عند الموت، قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (١) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ﴾ الفاء فى فلن يقبل يؤذنى بأن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وترك الفاء فيما تقدّم يشعر بأن الكلام مبتدأ وخبر، ولادليل فيه على التسبيب ﴿ذَهَبًا﴾ تمييز ﴿وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ أى فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا، قال عليه السلام: «يقال لكافر يوم القيامة: لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديا به؟ فيقول: نعم . فيقال له: لقد سئلت أيسر من ذلك» (٢). قيل: الواو لتأكيد النفى ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ معينين دافعين العذاب .

---

(١) سورة «غافر» الآية (٨٥).

(٢) رواه أحمد من حديث أنس بن مالك.

●● ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ لن تبلغوا حقيقة البر أو لن تكونوا أبرارا أو لن تنالوا بر الله وهو ثوابه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها وتؤثرونها وعن الحسن كل من تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو تمرة فهو داخل فى هذه الآية. قال الواسطى [(١)]: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحاب وإلى الرب بالتخلى عن الكونين، وقال أبو بكر الوراق[(٢)] : لن تنالوا برى بكم إلا ببركم بإخوانكم، والحاصل أنه لا وصول إلى المطلوب إلا بإخراج المحبوب، وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يشترى أعدال السكر ويتصدق بها، فقيل له: لم لا تتصدق بثمنها؟ قال : لأن السكر أحب إلى فأردت أن أنفق مما أحب ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى هو عليم بكل شىء تنفقونه فيجازيكم بحسبه، ومن الأولى للتبعيض لقراءة عبدالله حتى تنفقوا بعض ما تحبون والثانية للتبيين أى من أى شىء كان الإنفاق طيب تحبونه ، أو خبيث تكرهونه، ولما قالت اليهود للنبى -عليه السلام - : إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها فقال - عليه السلام - : «كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحله»[(٣)]. فقالت اليهود: إنها لم تزل محرمة فى ملة إبراهيم ونوح - عليهما السلام -نزل تكذيبا لهم.

●● ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أى المطعومات التى فيها النزاع فإن منهاماهو حرام قبل ذلك كالميتة والدم ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى حلالا وهو مصدر يقال: حل الشىء حلا ولذا استوى فى صفة المذكر والمؤنث والواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [(٤)] ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ أى يعقوب ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ وبالتخفيف مكى وبصرى وهو لحوم الإبل وألبانها، وكانا أحب الطعام إليه والمعنى أن المطاعم كلها لم تزل حلا لبنى إسرائيل من قبل إنزال التوراة سوى ماحرم إسرائيل على نفسه، فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها لحوم الإبل وألبانها لتحريم إسرائيل ذلك على نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمر بأن يحاجهم بكتابهم ويبكتهم بما هو ناطق به من أن تحريم ماحرم عليهم تحريم حادث بسبب ظلمهم وبغيهم، لا تحريم قديم كما يدعونه فلم يجرءوا على إخراج التوراة وبهتوا. وفيه دليل بين على صدق النبى ـ عليه السلام ـ وعلى جواز النسخ الذى ينكرونه.

●● ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بزعمه أن ذلك كان محرما فى ملة إبراهيم ونوح ـ عليهما السلام ـ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾من بعدما لزمهم من الحجة القاطعة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المكابرون الذين لاينصفون من أنفسهم ولايلتفتون إلى البينات. ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ فى إخباره أنه لم يحرم وفيه

(١) الواسطى : هو محمد بن زيد بن على بن الحسين، الواسطى، أبو عبدالله، معتزلى ، له باع طويل فى علم الكلام. له مؤلفات، توفى عام ٣٠٧ هـ. الأعلام (٦/ ١٣٢).

(٢) أبو بكر الوراق : اسمه محمد بن عمر الوراق، البلخى، أبو بكر.

(٣) ذكره البغوى والخازن، وليس فيه : فنحن نحله.

(٤) سورة «الممتحنة» الآية (١٠).

تعريض بكذبهم أى ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهى ملة الإسلام التى عليها محمد - عليه السلام - ومن آمن معه حتى تتخلصوا من اليهودية التى ورطتكم فى فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب الله لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التى أحلها الله لإبراهيم ولمن تبعه ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم أى مائلا عن الأديان الباطلة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولما قالت اليهود للمسلمين قبلتنا قبل قبلتكم نزل.

●● ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾والواضع هو الله عزوجل، ومعنى وضع الله بيتا للناس أنه جعله متعبداً لهم فكأنه قال إن أول متعبد للناس الكعبة، وفى الحديث [(١)]: إن المسجد الحرام وضع قبل: بيت المقدس بأربعين سنة قيل: أول من بناه إبراهيم، وقيل: هو أول بيت حج بعد الطوفان وقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض، وقيل: هو أول بيت بناه آدم - عليه السلام - فى الأرض ، وقوله : وضع للناس فى موضع جر صفة لبيت والخبر ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أى للبيت الذى ببكة وهى علم للبلد الحرام ومكة وبكة لغتان فيه، وقيل : مكة البلد وبكة موضع المسجد وقيل: اشتقاقها من بكة إذا زحمه لازدحام الناس فيها، أو لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها لم يقصدها جبار إلا قصمه الله ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير لمايحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيئات﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ومباركا وهدى حالان من الضمير فى وضع.

●● ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ علامات واضحات لاتلتبس على أحد﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان، لقوله: آيات بينات، وصح بيان الجماعة بالواحد؛ بالواحد، لأنه وحده بمنزلة آيات كثيرة لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم - عليه السلام - من تأثير قدمه فى حجر صلد أو لاشتماله على آيات، لأن أثر القدم فى الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية وإلانة بعض الصخرة دون بعض آية وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء - عليهم السلام - آية لإبراهيم خاصة على أن ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ عطف بيان لآيات - وإن كان جملة ابتدائية أو شرطية - من حيث المعنى لأنه يدل على أمن داخله فكأنه قيل : فيه آيات بينات مقام لإبراهيم وأمن داخله، والاثنان فى معنى الجمع ويجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكاثر الآيات كأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن داخله وكثير سواهما نحو انمحاق الأحجار مع كثرة الرماة وامتناع الطير من العلو عليه وغير ذلك ، ونحوه فى طى الذكر قوله - عليه السلام -«حبب إلىّ من دنياكم ثلاث؛ الطيب، والنساء، وقرة عينى فى الصلاة» [(٢)]. ؛ فقرة عينى ليس من الثلاث بل هوابتداء كلام لأنها ليست من الدنيا والثالث مطوى وكأنه - عليه السلام - ترك ذكر الثالث تنبيها على أنه لم

---

(١) متفق عليه من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

(٢) أخرجه النسائى ورواه أحمد والحاكم وابن أبى شيبة وابن سعد والبزار. وضعفه الدارقطنى.

يكن من شأنه أن يـذكر شيئاً من الدنيا فذكر شـيئاً هو من الدين وقيل فى سـبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة وضعف إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه، وقيل :أنـه جاء زائرا من الشام إلى مكة، فقـالت له امرأ إسماعيل ـ علـيه السلام ـ: انزل حتى تغسل رأسك فـلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضـعته على شقه الأيمن فوضع قدمـه عليه حتى غسلت شق رأسه، ثم حولته إلى شقه الأيسر حتى غسلت الشق الآخر فبقى أثر قدميه عليه، وأمان من دخله بدعوة إبراهيـم ـ عليه السلام ـ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[١] وكان الرجل لـو جنى كل جناية ثم التجأ إلـى الحرم لم يطلب، وعن عمر ـ رضى الله عنه ـ لو ظفرت فـيه بقاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه ومن لزمه القتل فـى الحل بقود أو ردة أوزنا فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له إلا أنه لا يؤوى ولايطعم ولايسقـى ولايبايع حتى يضطر إلى الخروج وقيل: آمنـا من النار لقوله ـ عليه السلام ـ «من مات فى أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا من النار»[٢]. وعنه ـ عليه السلام ـ: «**الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينثران فى الجنة**»[٣] . وهما مقبرتا مكة والمدينة وعنه عليه السلام ـ: «**من صبر على حرمكـة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مـسيرة مائتى عام**»[٤] ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾ أى استقـر له عليهم فـرض الحج حج البيـت كوفى غير أبـى بكر وهو اسم وبالـفتح مصدر، وقيـل: هما لغتان فـى مصدر حج ﴿**مَنِ**﴾ فى موضع جـر على أنه بدل البعـض من الكل ﴿**اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ فسرها النـبى - عليه السلام - بالزاد والـراحلة والضمير فى إليـه للبيت أو للحج وكل مأتى إلى الشىء فهو سـبيل إليه ولما نزل قوله تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾ جمع رسول الله (ﷺ) أهل الأديان كلهم فخطبهم فقال: «**إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا**» فآمنت به ملة واحدة وهـم المسلمون وكفرت به خمس ملل، قالوا: لا نـؤمن به ولا نصلى إليه ولا نحجه فنزل ﴿**وَمَن كَفَرَ**﴾[٥] أى جحد فرضيـة الحج وهو قول ابن عباس والحسـن وعطاء، ويجوز أن يكون من الكـفران أى ومن لـم يشكر ما أنعمـت عليه من صحة الجسم وسعـة الرزق ولم يحج ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ مستغن عنهم وعن طاعتهم وفى هذه الآية أنواع من التأكيد والتشديد، منها اللام وعلى أى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس، ومنها الإبدال ففيه تثنية للمراد وتكرير له، ولأن الإيضاح بعد الإبهـام والتفصيل بعد الإجمال إيراد لـه فى صورتين مختلفتيـن، ومنها قوله: ومن كفر مكان ومن لـم يحج تغليظًا على تاركى الحج، ومنها ذكر الاستغناء وذلك دليل على المقت

---

(١) سورة «البقرة» الآية (١٢٦).

(٢) رواه البيـهقى فى الشعـب وأبو داود الطيالـسى ، وعبد الرزاق والـطبرانى. وفيه ضـعف . وابن الجوزى أخرجه فى الموضوعات.

(٣) قال ابن حجر : لم أجده.

(٤) ذكره الأزرقى فى تاريخ مكة بغير إسناد، وأخرجه العقيلى فى الضعفاء.

(٥) أخرجه ابن جرير من طريق جبير عن الضحاك، وجبير متروك الحديث كما قال ابن حجر.

والسخط ومنها: قوله: عن العالمين وإن لم يقل عنه وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان؛ لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغنـاء لا محالة؛ ولأنه يدل على الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه.

●● **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾** الواو للحال والمعنى لم تكفرون بآيات الله الدالة على صدق محمد - عـليه السلام - والحال أن الله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها.

●● **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾** الصد: المنع **﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾** عن دين حق علم أنه سبيل الله الـتى أمر بسلوكـها وهو الإسلام وكانوا يـمنعون من أراد الدخـول فيه بجهدهـم ومحل **﴿تَبْغُونَهَا﴾** تطلبون لها نصب على الحال **﴿عِوَجًا﴾** اعوجاجًا وميلاً عن القصد والاسـتقامة بتغييركم صفة رسول الله (ﷺ) عن وجهها ونحو ذلك **﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾** أنها سبيل الله التى لا يصد عنها إلا ضال مـضل **﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** من الصـد عن سبيله وهـو وعيد شديد، ثـم نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادين عن سبيله بقوله:

●● **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾** قيل مرّساش بن قيس اليهودى على نفر مـن الأنصار من الأوس والخزرج فى مجلس لهم يتحدثون فغاظه تحدثهـم وتألفهم فأمر شابًا من اليهـود أن يذكرهم يوم بعاث لعلهم يـغضبون - وكان يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس- فـفعل فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح السلاح فبلغ النبى عـليه السلام، فخرج إليهم فيمن معه من المـهاجرين والأنصار فقال: «**أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ﴿وألف بينكم﴾**»[(١)] فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضًا باكين فنزلت الآية:

●● **﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾** معنى الاستفهام فيه الإنكار والتعجب أى من أين يتطرق إليكم الكفر **﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾** والحال أن آيات الله - وهى القرآن المعجز - تتـلى عليكم على لسان الرسول غضة طرية **﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾** وبين أظهركم رسول الله - عليه السـلام - ينبهكم ويعظكم ويزيح عنكم شبهكم؟! **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾** ومن يتمسك بدينه أو بكـتابه أو هو حث لهم على الالتجاء إلـيه فى دفع شرور الكفار ومـكايدهم **﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** أرشد إلى الدين الحق، أو من يجعل ربه ملجأ ومفزعًا عند الشبه يحفظه عن الشبه.

●● **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾** واجب تقواه وما يحق منهـا وهو القيام بالواجب

---

(١) أخرجه الطبرى عن زيد بن أسلم وابن إسحاق فى المغازى.

والاجتناب عن المحارم وعن عبد الله[١] هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، أو هو أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو بنيه أو أبيه، وقيل: لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه. والتقاة من اتقى كالتؤدة من اتأد ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت.

●●﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ تمسكوا بالقرآن لقوله - عليه السلام- «القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه، ولا يخلق[٢] عن كثرة الرد. من قال به صدق، ومن عمل به رشد، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم»[٣] ﴿جَمِيعًا﴾حال من ضمير المخاطبين، وقيل: تمسكوا بإجماع الأمة دليله ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أى ولا تتفرقوا يعنى: ولا تفعلوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع، أو ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين فى الجاهلية يحارب بعضكم بعضًا ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ كانوا فى الجاهلية بينهم العداوة والحروب فألف بين قلوبهم بالإسلام وقذف فى قلوبهم المحبة فتحابوا وصاروا إخوانًا ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وكنتم مشفين[٤] على أن تقعوا فى نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام، وهو رد على المعتزلة فعندهم هم الذين ينقذون أنفسهم لا الله تعالى فالضمير للحفرة، أو للنار، أو للشفا، وأنث لإضافته إلى الحفرة، وشفا الحفرة: حرفها، ولامها واو فلهذا يثنى شفوان ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك البيان البليغ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى القرآن الذى فيه أمر ونهى ووعد ووعيد ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لتكونوا على رجاء الهداية، أو لتهتدوا به إلى الصواب وما ينال به الثواب.

●● ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل، أو المعروف ما وافق الكتاب والسنة والمنكر ما خالفهما، أو المعروف الطاعة والمنكر المعاصى والدعاء إلى الخير عام فى التكاليف من الأفعال والتروك، وما عطف عليه خاص ومن للتبعيض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية؛ ولأنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته فإنه يبدأ بالسهل فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب قال الله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[٥] ثم قال: ﴿فَقَاتِلُوا﴾[٦] أو للتبيين أى وكونوا أمة تأمرون؛ كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

(١) عبد الله: يقصد به : عبد الله بن مسعود.
(٢) يخلق: يبلى (المعجم الوسيط).
(٣) أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن.
(٤) مشفين: يعنى مشرفين.
(٥) سورة الحجرات الآية (٩). (٦) سورة الحجرات الآية (٩).

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1] ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى هم الأخصاء بالفلاح الكامل ، قال ـ عليه السلام ـ: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه»[2] وعن على رضى الله عنه: «أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[3] .

●● ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ بالعداوة ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ فى الديانة وهم اليهود والنصارى فإنهم اختلفوا وكفر بعضهم بعضًا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة، وهى كلمة الحق ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ونصب .

●● ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أى وجوه المؤمنين بالظرف، وهو لهم أو بعظيم أو باذكروا ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أى وجوه الكافرين، والبياض من النور والسواد من الظلمة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم ﴿أَكَفَرْتُم﴾ فحذف الفاء والقول جميعًا للعلم به والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يوم الميثاق فيكون المراد به جميع الكفار وهو قول أبى، وهو الظاهر، أوهم المرتدون، أو المنافقون أى أكفرتم باطنًا بعد إيمانكم ظاهر، أو أهل الكتاب وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

●● ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ففى نعمته وهى الثواب المخلد، ثم استأنف فقال ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظعنون[4] عنها ولا يموتون ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة فى الوعد والوعيد وغير ذلك ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والعدل من جزاء المحسن والمسئ ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى لا يشاء أن يظلم هو عباده فيأخذ أحد بغير جرم، أو يزيد فى عقاب مجرم أو ينقص من ثواب محسن.

●● ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ترجع شامى وحمزة وعلى. كان عبارة عن وجود الشىء فى زمان ماض على سبيل الإبهام ولا دليل فيه على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ. ومنه قوله:

●● ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كأنه قيل: وجدتم خير أمة، أو كنتم فى علم الله، أو فى اللوح خير أمة، أو كنتم فى الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة موصوفين به ﴿أُخْرِجَتْ﴾ أظهرت ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام يتعلق بأخرجت ﴿تَأْمُرُونَ﴾ كلام مستأنف بين به كونهم خير أمة كما تقول: زيد كريم يطعم

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٠).

(٢) ابن عدى فى الكامل فى ترجمة كادح بن رحمة من روايته عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حميد عن مسلم بن جابر عن عبادة بن الصامت. قال ابن حجر: وكادح ساقط .

(٣) أخرجه أبو نعيم فى «حلية الأولياء» فى ترجمة علىّ، كرم الله وجهه.

(٤) الظعن: أى الارتحال، ومعناه: لا يرتحلون عنها.

الناس ويكسوهم بينت بالإطعام والإلباس وجه الكرم فيه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان وطاعة الرسول ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الكفر وكل محظور ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾وتدومون على الإيمان به، أو لأن الواو لا تقتضى الترتيب ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بمحمد - عليه السلام - ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمان خيرًا لهم مما هم فيه، لأنهم إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حبًا للرياسة واستتباع العوام، ولو آمنوا لكان لهم من الرياسة والأتباع وحظوظ الدنيا ما هو خير مما آثروا دين الباطل لأجله مع الفوز بما وعدوا على الإيمان به من إيتاء الأجر مرتين ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون فى الكفر.

●● ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ إلا ضررًا مقتصرًا على أذى بقول من طعن فى الدين أو تهديد، أو نحو ذلك ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ولا يضروكم بقتل أو أسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون لهم نصر من أحد ولا يمنعون منكم وفيه تثبيت لمن أسلم منهم؛ لأنهم كانوا يؤذونهم بتوبيخهم وتهديدهم وهو ابتداء إخبار معطوف على جملة الشرط والجزاء وليس بمعطوف على يولوكم إذ لو كان معطوفًا عليه لقيل: ثم لا ينصروا وإنما استؤنف ليؤذن أن الله لا ينصرهم قاتلوا أم لم يقاتلوا، وتقدير الكلام أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، وثم للتراخى فى المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الإدبار.

●● ﴿ضُرِبَتْ﴾ ألزمت ﴿عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ أى على اليهود ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فى محل النصب على الحال والباء متعلق بمحذوف تقديره إلا معتصمين أو متمسكين بحبل من الله ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ والحبل العهد والذمة، والمعنى ضربت عليهم الذلة فى كل حال إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس يعنى ذمة الله وذمة المسلمين، أى لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ استوجبوه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر عقوبة لهم على قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء، أو خوف الفقر مع قيام اليسار ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذلك إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بغضب الله أى ذلك كائن بسبب كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أى ذلك الكفر وذلك القتل كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده.

●● ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ﴾ ليس أهل الكتاب مستوين ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كلام مستأنف لبيان قوله: ليسوا سواء كما وقع قوله: تأمرون بالمعروف بيانًا لقوله: كنتم خير أمة ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ جماعة مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام أى استقام وهم الذين أسلموا منهم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾

القرآن ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته واحدها إنى كمعـى، أو إنو كقنوا، أو إنى كنحى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يصلون، قيل: يريد صلاة العشاء لأن أهل الـكتاب لا يصلونها، وقيل: عبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن فى سـاعات الليل مع الـسجود ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان وسائر أبـواب البر ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الكفر ومنـهيات الشرع ﴿وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إليـها خشية الفوت وقولـه: يتلون ويؤمنون فى مـحل الرفع صفتان لأمة، أى: أمـة قائمة تالون مؤمنون . وصفهـم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بـالليل ساجدين ومن الإيمان بالله ؛ لأن إيمانهم به كلا إيمان لإشراكهم به عزيراً وكفرهم ببعض الكتب والرسل ومن الإيمان باليوم الآخر؛ لأنهم يصفونه بخلاف صفته ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهم كانوا مداهنين ومن المسارعة فى الخيرات؛ لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها، والمسارعة فى الخير فرط الرغبة فيه؛ لأن من رغب فى الأمر سارع بالقيام به ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الموصوفين بما وصفوا به ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المسلمين أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم .

●● ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء فيهـما كوفى غير أبى بكر وأبو عـمرو ، ومخير غيرهم بالتاء وعدى يـكفروه إلى مفعولين - وإن كان شكر وكفر لا يـتعديان إلا إلى واحد تقول شكر النعمـة وكفرها- لتضمنه معنـى الحرمان، كأنه قيل فلن تحرمـوه أى فلن تحرموا جزاءه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ بشارة للمتقين بجزيل الثواب.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى من عـذاب الله ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

●● ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فى المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس، أو ما يتقربون به إلى الله مع كفرهم ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ كمثل مهلك ريح وهو الحرث، أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد عن ابن عباس، رضى الله عنهما ، وهو مبتدأ وخبر فى موضع جر صفة لريح مثل ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة علـى كفرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإهلاك حـرثهم ﴿وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكـاب ما استحقوا به العقوبة، أو يكون الضمير للمنفقين أى وما ظلمهم الله بأن لـم يقبل نفقاتهم ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بها لائقة للقبول ونزل نهيًا للمؤمنين عن مصافات المنافقين .

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووليجته خصيصه وصفية شبه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعارى، وفى الحديث: «الأنصار شعار والناس دثار»(١). ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون أبناء جنسكم وهم المـسلمون وهو صفة لبطانة أى بطانة كائنـة من دونكم مجاوزة لكم ﴿لا يَأْلُونَكُمْ

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم المازنى.

خَبَالاً﴾ فى موضع النصب صفة لبطانة يعنى لا يقصرون فى فساد دينكم، يقال: ألا فى الأمر يألوا إذا قصر فيه والخبال الفساد وانتصب خبالاً على التمييز أو على حذف فى أى فى خبالكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم فما مصدرية والعنت شدة الضرر والمشقة أى تمنوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر، وأبلغه، وهو مستأنف على وجه التعليل للنهى عن اتخاذهم بطانة كقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضه للمسلمين ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من البغض لكم ﴿أَكْبَرُ﴾ مما بدا ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين وموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بين لكم.

●● ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ﴾ ها للتنبيه، وأنتم مبتدأ وأولاء خبره أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاة منافقى أهل الكتاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم فى موالاتهم حيث يبذلون محبتهم البغضاء، أو أولاء موصول صلته تحبونهم والواو فى ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ للحال وانتصابها من لا يحبونكم أى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم كله وهم مع ذلك يبغضونكم فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشىء من كتابكم، وفيه توبيخ شديد، لأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم، وقيل: الكتاب للجنس ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أظهروا كلمة التوحيد ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فارقوكم أو خلا بعضهم ببعض ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به والمراد بزيادة الغيظ زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام، وعز أهله وما لهم فى ذلك من الذل والخزى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو يعلم ما فى صدور المنافقين من الحنق والبغضاء وما يكون منهم فى حال خلو بعضهم ببعض ، وهو داخل فى جملة المقول أى أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظًا إذا خلوا، وقل لهم: إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم وهو مضمرات الصدور فلا تظنوا أن شيئًا من أسراركم يخفى عليه أو خارج عن المقول، أى قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من إطلاعى إياك على ما يسرون فإنى أعلم بما هو أخفى من ذلك وهو ما أضمروه فى صدورهم.

●● ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ رخاء وخصب وغنيمة ونصرة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم إصابتها ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أضداد ما ذكرنا والمس مستعار من الإصابة فكأن المعنى واحد ألا ترى إلى قوله تعالى﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾(1) ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما نهيتم عنه من موالاتهم، وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله فى اجتنابكم محارمه ﴿لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ مكرهم وكنتم فى حفظ الله وهذا تعليم

(1) سورة التوبة الآية (٥٠).

من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً فى نفسك. **لا يضركم** مكى وبصرى ونافع من ضاره يضيره بمعنى ضره، وهو واضح ، والمشكل قراءة غيرهم، لأنه جواب الشرط وجواب الشرط مجزوم، فكان ينبغي أن يكون بفتح الراء كقراءة المفضل عن عاصم، إلا أن ضمة الراء لاتباع ضمة الضاد نحو مد يا هذا **﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾** بالتاء سهل أى من الصبر والتقوى وغيرهما **﴿مُحِيطٌ﴾** ففاعل بكم ما أنتم أهله وبالياء غيره أى أنه عالم بما يعملون فى عداوتكم فمعاقبتهم عليه.

●● **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** واذكر يا محمد إذا خرجت غدوة من أهلك بالمدينة والمراد غدوة من حجرة عائشة - رضى الله عنها - إلى أحد **﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** تنزلهم وهو حال **﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾** مواطن ومواقف من الميمنة والميسرة والقلب والجناحين والساقة وللقتال يتعلق بتبوئ **﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم، روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشاروا رسول الله (ﷺ) أصحابه ودعا عبد الله بن أبى[1] فاستشاره فقال: أقم بالمدينة فما خرجنا على عدو قط إلا أصاب منا وما دخلوا علينا إلا أصبنا منهم فقال - عليه السلام - إنى رأيت فى منامى بقرا مذبحة حولى فأولتها خيرا، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمة فأولتها هزيمة، ورأيت كأنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة، فلم يزل به قوم ينشطون فى الشهادة حتى لبس لأمته[2]، ثم ندموا. فقالوا: الأمر إليك يا رسول الله، فقال - عليه السلام : «لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضيعها حتى يقاتل»[3]. فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال.

●● **﴿إِذْ هَمَّتْ﴾** بدل من إذ غدوت أو عمل فيه معنى عليم **﴿طَائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾** حيان من الأنصار بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكان - عليه السلام- خرج إلى أحد فى ألف والمشركون فى ثلاثة آلاف ووعدهم الفتح إن صبروا فانخذل عبد الله بن أبىّ بثلث الناس، وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فهم الحيان باتباعه فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله **﴿أَن تَفْشَلَا﴾** أى

---

(١) هو رأس النفاق والمنافقين، بلا منازع : عبد الله بن أبى بن مالك، أبو الحباب، يعرف بـ « ابن سلول» ، وهى جدته لأبيه، كان زعيم المدينة، وينتظر تنصيبه ملكًا عليها، فلما قدم الرسول ﷺ انهار ذلك كله، فظل يحقد على الرسول ﷺ ويكيد له ولأصحابه، وهو يظهر الإيمان، ويبطن الكفر، وأخرج الله من صلبه صحابى جليل، هو عبد الله بن عبد الله بن أبى، استأذن النبى ﷺ أن يقتل أباه فلم يأذن له.

توفى عبدالله الأب عام ٩ هـ لعنه الله ، ورضى الله عن ولده .

الأعلام (٤/ ٦٥).

(٢) اللأمة: هى الدرع، وقيل: السلاح، وهى أداة الحرب، وقد تخفف الهمزة. (المعجم الوسيط).

(٣) أخرجه الطبرى من رواية أسباط عن السدى.

بأن تفشلا أى بأن تجبنا وتـضعفا والفشل الجبن والخور ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ محبهما أو ناصرهما أو متولى أمرهما فما لهما تفشلان ولا تتوكلان على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمرهم بأن لا يتوكلوا إلا عـليه ولا يفوضوا أمورهم إلا إلـيه ، قال جابر(١): والله ما يسرنا أنا لـم نهم بالذى هممنا به وقد أخـبرنا الله بأنه ولينا. ثم ذكرهم ما يـوجب عليهم التوكل مما يسر لـهم من الفتح يوم بدر وهم فى حال قلة وذلة فقال:

●● ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وهو اسم ماء بين مـكة والمدينة كان لرجل يسمـى بدرًا، فسمى به، أو ذكر بدرًا بعد أحد للجمع بين الصبر والشكر ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ لقلة العدد فإنهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر، وكان عـدوهم زهاء ألف مقاتل والعدد فإنهم خـرجوا على النواضح(٢) يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد ومع عدوهم مائة فرس والشكة والشوكة(٣) وجاء بجمع القلة وهو أذلة ليدل علـى أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

●● ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم على أن يقول لهم ذلك يوم بدر أى نصركم الله وقت مقالتكم هذه، أو بدل ثان من إذ غـدوت على أن يقول لهم ذلك يوم أحد ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ منَزَّلين شامى مـنزلين أبو حيوة(٤) أى للنصرة ومعنى ألن يكفيكم إنـكار أن لا يكفيهم الإمداد بثلاثة آلاف مـن الملائكة، وجيء بلن الذى هو لتـأكيد النفى للإشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم وشوكته كالآيسين من النصر.

●● ﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد لن أى يكفيكم الإمداد بهم فأوجب الكفاية ثم قال: ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ على القتال ﴿وَتَتَّقُوا﴾ خلاف الرسول - علـيه السلام - ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ يعنى المشركين ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ هو من فارت القدر إذا غلت فاستعير للسـرعة ، ثم سميت بها الحالة التى لا ريث بها ولا تعريـج على شيء من صاحـبها فقيـل خرج من فوره كمـا تقول من ساعتـه لم يلبث ومـنه قول الكرخى الأمر المـطلق على الفور لا على التـراخى والمعنى أن يأتوكم من سـاعتهم هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ

---

(١) هو الصحابى الجـليل: جابر بن عبد الله بن عمـرو بن حرام بن ثعلبة، الخزرجى، الـسلمى، أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الرحمن، وكان قريبًا مـن رسول الله ﷺ، لذا فهو من المكثرين فى الرواية عنه ﷺ، لم يمنعه عن بدر وأحد إلا أبوه، فلما مات، لم يتخلف عن نداء الجهاد قط، وكان - كذلك - من فقهاء الصحابة، توفى جابر - رضى الله عنه - عام ٧٨ هـ ، وهو ابن ٩٤ عامًا.

تهذيب التهذيب (١/ ٣٥٠) ، وانظر: أعمار الأعيان (٨٤).

(٢) النواضح : البعير.

(٣) الشكة: يقصد السلاح.

(٤) أبو حيوة: شريح بن يزيد، سبق ترجمته عند الآية ٢٣٧ من سورة البقرة.

﴿رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ﴾ فى حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم عن إتيانهم، يعنى أن الله تعالى يعجل نصرتكم وييسر فتحكم إن صبرتم واتقيتم ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بكسر الواو مكى وأبو عمرو وعاصم وسهل أى معلمين أنفسهم ، أو خيلهم بعلامة يعرفون بها فى الحرب، والسومة العلامة من الضحاك[1] معلمين بالصوف الأبيض فى نواصى الدواب وأذنابها، غيرهم بفتح الواو أى معلمين، قال الكلبى[2]: معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم، وكانت عمامة الزبير[3] يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك، قال قتادة: نزلت ألفا فصاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف .

●● ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الضمير يرجع إلى الإمداد الذى دل عليه أن يمدكم ﴿إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ أى وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ كما كانت السكينة لبنى إسرائيل بشارة بالنصر وطمأنينة لقلوبهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لا من عند المقاتلة ولا من عند الملائكة ولكن ذلك مما يقوى به الله رجاء النصرة والطمع فى الرحمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذى لا يغالب فى أحكامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذى يعطى النصر لأوليائه ويبتليهم بجهاد أعدائه.

●● واللام فى ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من رؤساء قريش متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾. أو بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أو ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ أو ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة وحقيقة الكبت شدة وهن تقع فى القلب فيصرع فى الوجه لأجله ﴿فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ فيرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم .

●● ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اسم ليس شىء والخبر لك ومن الأمر حال من شىء، لأنها صفة مقدمة ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم

---

(١) الضحاك: اسمه الضحاك بن ميمون، الثقفى، من علماء القراءات، روى القراءة عن عاصم وابن كثير.

(٢) الكلبى: اسمه : محمد بن السائب بن بشر بن عمرو، أبو النضر، الكوفى، النسابة، المفسر، يؤخذ منه فى علم أنساب العرب، وفى التفسير، دون الحديث، فهو عند أهل الحديث «ليس بشىء» ، كانت وفاته بالكوفة عام ١٤٦هـ . تهذيب التهذيب (٥/ ١١٦- ١١٨).

(٣) هو : الصحابى الجليل : الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، الأسدى ، أبو عبد الله ، حوارى رسول الله ﷺ ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب ، وهو أحد العشرة، شهد بدراً، وما بعدها، وهاجر الهجرتين، وهو أول من سلَّ سيفًا فى سبيل الله، وأبلى بلاءً حسنًا مع رسول الله ﷺ ، وبارك الله فى نسله، فكان منهم أعلام فى الرواية مثل ابناه: عبد الله ، وعروة، وأبناؤهما. قتل - رضى الله عنه - على يد عمرو بن جرموز عام ٣٦هـ وقد جاوز الستين . تهذيب التهذيب (٢/ ١٨٨، ١٨٩).

وليس لك من الأمر شيء اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى أن الله تعالى مالك أمرهم فإما أن يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم، وعن الفراء أو بمعنى حتى، وعن ابن عيسى[1] بمعنى إلا أن كقولك لألزمنك أو تعطيني حقى أى ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتتشفى منهم، وقيل: أراد أن يدعو عليهم فنهاه الله تعالى لعلمه أن فيهم من يؤمن ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ مستحقون للتعذيب.

●● ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى الأمر له لا لك لأن ما فى السموات وما فى الأرض ملكه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ للمؤمنين ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ الكافرين ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ مضعفة مكى وشامى. هذا نهى عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله يقول: إما أن تقضى حقى أو تربى وتزيد فى الأجل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى أكله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

●● ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ كان أبو حنيفة رضى ـ الله عنه ـ يقول: هى أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه، وقد أمد ذلك بما اتبعه من تعليق رجاء المؤمنين لرحمته بتوفرهم على طاعته وطاعة رسوله بقوله:

●● ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفيه رد على المرجئة[2] فى قولهم لا يضر مع الإيمان ذنب ولا يعذب بالنار أصلاً وعندنا غير الكافرين من العصاة قد يدخلها ولكن عاقبة أمره الجنة، وفى ذكره تعالى لعل وعسى فى نحو هذه المواضع، وإن قال أهل التفسير إن لعل وعسى من الله للتحقيق مالا يخفى على العارف من دقة مسلك التقوى وصعوبة إصابة رضا الله تعالى وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه.

●● ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ سارعوا مدنى وشامى فمن أثبت الواو عطفها على ما قبلها، ومن حذفها استأنفها ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة: الإقبال على ما يوصل إليهما، ثم قيل: هى الصلوات الخمس، أو التكبيرة الأولى، أو الطاعة، أو الإخلاص، أو التوبة، أو الجمعة، والجماعات ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ أى عرضها عرض السماوات والأرض كقوله : ﴿عَرْضُهَا

---

(١) ابن عيسى: هو عيسى بن عبد العزيز بن عيسى بن عبد الواحد، الموفق، أبو محمد اللخمى، الشريشى الأصل، ثم الإسكندرى. من أئمة القراءات، توفى عام ٦٢٩هـ .
الأعلام (٥/ ١٠٤).

(٢) المرجئة: هم الفرقة الذين يقولون: إن الإنسان مسيَّر ، لا مخير، وأنه كريشة معلقة فى الهواء، ولا يملك من أمره شيئًا، ويعتقدون أنهم بذلك يرجئون الأمر إلى الله.
الملل والنحل (١/ ١٢٣).

﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1] والمراد وصفها بالسعة والبسط فشبهت بأوسع ما علمه الناس من خلقه وأبسطه وخص العرض ؛ لأنه فى العادة أدنى من الطول للمبالغة وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - كسبع سموات وسبع أرضين ولو وصل بعضها ببعض، وما روى أن الجنة فى السماء السابعة أو فى السماء الرابعة فمعناه أنها فى وجهتها لا أنها فيها، أو فى بعضها كما يقال فى الدار بستان وإن كان يزيد عليها؛ لأن المراد أن بابه إليها ﴿أُعِدَّتْ﴾ فى موضع جر صفة لجنة أيضًا أى جنة واسعة معدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ودلت الآيتان على أن الجنة والنار مخلوقتان، ثم المتقى من يتقى الشرك، كما قال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[2] أو من يتقى المعاصى فإن كان المراد الثانى فهى لهم بغير عقوبة وإن كان الأول فهى لهم أيضًا فى العاقبة ويوقف عليه إن جعل.

●● ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فى حال اليسر والعسر مبتدأ، وعطف عليه والذين إذا فعلوا فاحشة، وجعل الخبر أولئك وإن جعل وصفًا للمتقين، وعطف عليه والذين إذا فعلوا فاحشة أى أعدت للمتقين والتائبين فلا وقف، فإن قلت الآية تدل على أن الجنة معدة للمتقين والتائبين دون المصرين، قلت: جاز أن تكون معدة لهما ثم يدخلها بفضل الله وعفوه غيرهما، كما يقال: أعدت هذه المائدة للأمير ، ثم قد يأكلها أتباعه ألا ترى أنه قال: ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ثم قد يدخلها غير الكافرين بالاتفاق وافتتح بذكر الإنفاق؛ لأنه أشق شىء على النفس وأدله على الإخلاص؛ولأنه كان فى ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه فى مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين وقيل المراد الإنفاق فى جميع الأحوال؛ لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ والممسكين الغيظ عن الإمضاء؛ يقال: كظم القربة إذا امتلأها وشد فاها، ومنه كظم الغيظ وهو أن يمسك على ما فى نفسه منه بالصبر ولا يظهر له أثرًا. والغيظ: توقد حرارة القلب من الغضب، وعن النبى - عليه السلام - : «**من كظم غيظًا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا**»[3] ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه، وروى ينادى مناد يوم القيامة أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا[4] . وعن ابن عيينة[5]

---

(١) سورة الحديد الآية (٢١). (٢) سورة الحديد الآية (٢١).

(٣) رواه أبو داود، وأحمد، وعبد الرزاق عن سهل عن معاذ بن أنس.

(٤) رواه البيهقى فى الشعب.

(٥) ابن عيينة : هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران، ميمون الهلالى، أبو محمد الكوفى، الإمام المشهور، علم من أعلام الأمة الإسلامية الشامخة، وجبل راسخ فى الحديث وعلومه، روى عن جمع غفير جدًا من التابعين الأعلام، وروى عنه جمع غفير أيضًا ممن أتى بعده، ومنهم الأئمة الأعلام أيضًا، لا تكاد كتب الحديث تخلو من اسمه، قيل: إنه حج أكثر من سبعين مرة، ولد سنة ١٠٧ هـ وتوفى عام ١٩٨ هـ بمكة .

تهذيب التهذيب (٢/٣٥٧- ٣٦٠).

أنه رواه للرشيد وقد غضب على رجل فخلاه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ اللام للجنس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورين أو للعهد فيكون إشارة إلى هؤلاء. عن الثورى[1] الإحسان أن تحسن إلى المسيء فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة.

●● ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة متزايدة القبح، ويجوز أن يكون والذين مبتدأ خبره أولئك ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، أو الفاحشة الزنا، وظلم النفس القبلة واللمس ونحوهما ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ بلسانهم أو بقلوبهم ليبعثهم على التوبة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتابوا عنها لقبحها نادمين، قيل بكى إبليس حين نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ من مبتدأ ويغفر خبره وفيه ضمير يعود إلى من وإلا الله بدل من الضمير فى يغفر، والتقدير ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب، وإشعار بأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ ولم يقيموا على قبيح فعلهم والإصرار الإقامة، قال ـ عليه السلام ـ: **«ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»**[2] وروى **«لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار»**[3]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من الضمير فى ولم يصروا أى وهم يعلمون أنهم أساءوا أو وهم يعلمون أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله.

●● ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بتوبته ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ برحمته ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أى ونعم أجر العاملين ذلك يعنى المغفرة والجنات، نزلت فى تمار، قال لامرأة تريد التمر: فى بيتى تمر أجود، فأدخلها بيته وضمها إلى نفسه وقبلها فندم، أو فى أنصارى استخلفه ثقفى وقد آخى بينهما النبى- عليه السلام- فى غيبة غزوة فأتى أهله لكفاية حاجة فرآها فقبلها فندم فساح فى الأرض صارخًا فاستعتبه الله تعالى.

---

(١) الثورى: هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، أبو عبد الله، الكوفى، وما قيل عن ابن عيينة يقال مع الثورى، فسبحان من جمعهما في رضوانه ؛ فكلاهما سفيان، حتى إنه ليقال اختصاراً: «السفيانان»، وكلاهما إمام فى الحديث ؛ غير أن الثورى أقدم، ولقب بـ «أمير المؤمنين فى الحديث» وله - كذلك ـ باع طويل، فى الفقه، حتى إنه يعتقد أنه كان له مذهب متبوع، ولكنه اندثر، ولد عام ٩٧هـ، وتوفى عام ١٦١ هـ .

تهذيب التهذيب (٢/ ٣٥٣- ٣٥٥).

(٢) رواه أبو داود، والترمذى، والبزار. قال الترمذى: غريب.

(٣) رواه إسحاق بن بشر عن الثورى عن هشام بن عروة عن عائشة، وإسحاق حديثه منكر.

●● ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يريد ما سنه الله تعالى فى الأمم المكذبين من وقائعه ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فتعتبروا بها ﴿هَذَا﴾ أى القرآن، وما تقدم ذكره ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾ أى إرشاد ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ ترغيب وترهيب ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

●● ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من الهزيمة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما فاتكم من الغنيمة أو على من قتل منكم أو جرح وهو تسلية من الله لرسوله وللمؤمنين عما أصابهم يوم أحد وتقوية لقلوبهم ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب ؛ لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، أو وأنتم الأعلون بالنصر والظفر فى العاقبة، وهى بشارة لهم بالعلو والغلبة، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] أو وأنتم الأعلون شأنًا؛ لأن قتالكم لله ولإعلاء كلمته وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، أو لأن قتلاكم فى الجنة وقتلاهم فى النار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهى أى ولا تهنوا إن صح إيمانكم يعنى أن صحة الإيمان توجب قوة القلب والثقة بوعد الله وقلة المبالاة بأعدائه أو بالأعلون أى إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله به ويبشركم به من الغلبة.

●● ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ بضم القاف حيث كان كوفى غير حفص وبفتح القاف غيرهم وهما لغتان كالضعف والضعف، وقيل بالفتح الجراحة وبالضم ألمها ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ، ولم يمنعهم عن معاودتكم إلى القتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿الْأَيَّامُ﴾ صفته والخبر ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نصرفها ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى نصرف ما فيها من النعم والنقم نعطى لهؤلاء تارة وطورا لهؤلاء كبيت الكتاب.

فيومًا علينا ويومًا لنا ويومًا نساء ويومًا نسر

●● ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى نداولها لضروب من التدبير وليعلم الله المؤمنين مميزين بالصبر والإيمان من غيرهم كما علمهم قبل الوجود ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وليكرم ناسًا منكم بالشهادة يريد المستشهدين يوم أحد أو ليتخذ منكم من يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة من قوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[2] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراض بين بعض التعليل وبعض ، ومعناه والله لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان المجاهدين فى سبيله، وهم المنافقون والكافرون .

(١) سورة الصافات، الآية (١٧٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٤٣).

●● ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التمحيص : التطهير والتصفية ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم يعنى إن كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص، وإن كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو آثارهم.

●● ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار أى لا تحسبوا ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أى ولما تجاهدوا؛ لأن العلم متعلق بالمعلوم فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقة لأنه منتف بانتفائه، تقول: ما علم الله فى فلان خيرًا أى ما فيه خير حتى يعلمه، ولما بمعنى لم إلا أن فيه ضربًا من التوقع فدل على نفى الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن، والواو بمعنى الجمع، نحو لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أو جزم للعطف على يعلم الله، وإنما حركت الميم لالتقاء الساكنين واختيرت الفتحة لفتحة ما قبلها.

●● ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ خوطب به الذين لم يشهدوا بدرًا، وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهدًا مع رسول الله ﷺ لينالوا كرامة الشهادة وهم الذين ألحوا على رسول الله (ﷺ) فى الخروج إلى المشركين وكان رأيه فى الإقامة بالمدينة، يعنى وكنتم تمنون الموت قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أى رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل إخوانكم بين أيديكم وشارفتم أن تقتلوا، وهذا توبيخ لهم على تمنيهم الموت وعلى ما تسببوا له فى خروج رسول الله (ﷺ) بإلحاحهم عليه ثم انهزامهم عنه، وإنما تمنوا الشهادة لينالوا كرامة الشهداء من غير قصد إلى ما يتضمنه من غلبة الكفار كمن شرب الدواء من طبيب نصرانى فإن قصده حصول الشفاء ولا يخطر بباله أن فيه جر منفعة إلى عدو الله وتنفيقًا لصناعته لما رمى ابن قميئة[(١)] رسول الله (ﷺ) بحجر فكسر رباعيته أقبل يريد قتله فذب عنه مصعب بن عمير[(٢)] وهو صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه رسول الله(ﷺ) فقال: قتلت محمدًا وخرج صارخ[(٣)] قيل : هو الشيطان ألا إن محمدًا قد قتل ففشا فى الناس خبر قتله فانكفئوا وجعل رسول الله (ﷺ) يدعو إلى عباد الله حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا: يا رسول الله! فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فولينا مدبرين فنزل[(٤)]:

---

(١) ابن قميئة: رجل من بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

(٢) هو الصحابى المجاهد: مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، من السابقين إلى الإسلام، تحمل أذى المشركين، وضغط أمه عليه، وثبت على الحق، وكان أبر الناس بأمه، فلما وقفت فى طريق إسلامه، لم يعبأ بها، قاتل فى بدر واستشهد فى غزوة أحد عام ٣ هـ.
الأعلام (٧/ ٢٤٨).

(٣) قوله: «وخرج صارخ» إعراب «صارخ» خبر لمبتدإٍ محذوف، تقديره: «وهو» والجملة الاسمية «وهو صارخ» فى محل نصب حال، والأبلغ أن يقول: «وخرج صارخًا» بغير تأويل.

(٤) جاء هذا الأثر فى واقعة أحد كما يقول ابن حجر.

•• ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه؛ لأن المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لا وجوده بين أظهر قومه ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة التى قبلها على معنى التسبيب. والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت، أو قتل مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد ـ عليه السلام ـ لا للانقلاب عنه، الانقلاب على العقبين مجاز عن الارتداد، أو عن الانهزام ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ وإنما ضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين لم ينقلبوا وسماهم شاكرين لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

•• ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما جاز ﴿لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بعلمه، أو بأن يأذن ملك الموت فى قبض روحه، والمعنى أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، وفيه تحريض على الجهاد وتشجيع على لقاء العدو وإعلام بأن الحذر لا ينفع وأن أحداً لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿كِتَابًا﴾ مصدر مؤكد، لأن المعنى كتب الموت كتاباً ﴿مُّؤَجَّلاً﴾ مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بقتاله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى الغنيمة وهو تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ ﴾ أى إعلاء كلمة الله والدرجة في الآخر ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ وسنجزى الجزاء المبهم الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

•• ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أى دخل عليه كاف التشبيه وصارا فى معنى كم التى للتكثير وكائن بوزن كاع حيث كان مكى ﴿مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ﴾ قتل مكى وبصرى ونافع ﴿مَعَهُ﴾ حال من الضمير فى قتل أى قتل كائنا معه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربيون الربانيون، وعن الحسن بضم الراء، وعن البعض بفتحها فالفتح على القياس؛ لأنه منسوب إلى الرب والضم والكسر من تغييرات النسب ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ فما فتروا عند قتل نبيهم ﴿ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن الجهاد بعده ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا لعدوهم وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن عند الإرجاف بقتل رسول الله ـ عليه السلام ـ واستكانتهم لهم حيث أرادوا أن يعتضدوا بابن أبى فى طلب الأمان من أبى سفيان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على جهاد الكافرين.

•• ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أى وما كان قولهم إلا هذا القول وهو إضافة الذنوب إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ تجاوزنا حد العبودية

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فى القتال ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بالغلبة وقدم الدعاء بالاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على الأعداء، لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى النصرة والظفر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ المغفرة والجنة وخص بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد به عنده ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى هم محسنون والله يحبهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ يرجعوكم إلى الشرك ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قيل: هو عام فى جميع الكفار وعلى المؤمنين أن يجانبوهم ولا يطيعوهم فى شىء حتى لا يستجروهم إلى موافقتهم، وعن السدى: إن تستكينوا لأبى سفيان وأصحابه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم، وقال على[1] ـ رضى الله عنه ـ نزلت فى قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم.

●● ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾ ناصركم فاستغنوا عن نصرة غيره ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الرعب شامى وعلى وهما لغتان، قيل: قذف الله فى قلوب المشركين الخوف يوم أحد فانهزموا إلى مكة من غير سبب ولهم القوة والغلبة ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم أى كان السبب فى إلقاء الله الرعب فى قلوبهم إشراكهم به ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ آلهة لم ينزل الله بإشراكها حجة ولم يرد أن هناك حجة إلا أنها لم تنزل عليهم؛ لأن الشرك لا يستقيم أن تقوم عليه حجة، وإنما المراد نفى الحجة ونزولها جميعا كقوله: ولا ترى الضب بها ينجحر[2] أى ليس بها ضب فينجحر ولم يعن أن بها ضبا ولا ينجحر ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ مرجعهم ﴿النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ النار فالمخصوص بالذم محذوف ولما رجع رسول الله (ﷺ) مع أصحابه إلى المدينة قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل.

●● ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى حقق ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قتلا ذريعا وعن ابن عيسى حسه أبطل حسه بالقتل ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره وعلمه ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أى

---

(١) هو أمير المؤمنين: على بن أبى طالب بن عبدالمطلب، ابن عم الرسول الكريم ﷺ، ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين، وأحد الستة، وهو أول من أسلم من الصبيان، وهو صهر الرسول ﷺ، زوج فاطمة بنت محمد ﷺ ووالد سبطى رسول الله ﷺ ـ الحسن والحسين ـ، كناه الرسول ﷺ: ـ أبو تراب)، ومناقبه كثيرة، وشهيرة.

مات عام ٤٠هـ، وهو ابن ٦٣، أو ٦٤ أو ٦٥، وقيل غير ذلك.

تهذيب التهذيب (٤/ ٢١١ ـ ٢١٣).

(٢) هو عجز بيت صدره: لا تفزع الأرنب أحوالها.

االختلفتم ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر نبيكم بترككم المركز واشتغالكم بالغنيمة ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر وقهر الكفار، ومتعلق إذا محذوف تقديره حتى إذا فشلتم منعكم نصره، وجاز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ أى الغنيمة وهم الذين تركوا المركز لطلب الغنيمة روى أن رسول الله (ﷺ) جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا فى مكانهم ولا يبرحوا ـ كانت الدولة للمسلمين أو عليهم ـ فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم حتى إذا فشلوا وتنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا ههنا فادخلوا عسكر المسلمين وخذوا الغنيمة مع إخوانكم، وقال بعضهم: لا تخالفوا أمر رسول الله ﷺ فمن ثبت مكانه عبدالله بن جبير[1] أمير الرماة فى نفر دون العشرة وهم المعنيون بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ فكر المشركون على الرماة وقتلوا عبدالله بن جبير وأقبلوا على المسلمين حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا، وهو قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أى كف معونته عنكم فغلبوكم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحن صبركم على المصائب وثباتكم عندها وحقيقته ليعاملكم معاملة المختبر؛ لأنه يجازى على ما يعمله العبد لا على ما يعلمه منه ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ حيث ندمتم على ما فرط منكم من عصيان رسول الله (ﷺ) ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم وقبول توبتهم أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال سواء أديل لهم، أو أديل عليهم؛ لأن الابتلاء رحمة كما أن النصرة رحمة.

وانتصب ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبالغون فى الذهاب فى صعيد الأرض والإصعاد الذهاب فى صعيد الأرض أو الإبعاد فيه بصرفكم، أو بقوله ليبتليكم أو بإضمار اذكروا ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ ولا تلتفون وهو عبارة عن غاية انهزامهم وخوف عدوهم ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ يقول: «إلى عباد الله أنا رسول الله من يكرفله الجنة»[2]. والجملة فى موضع الحال ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾ فى ساقتكم وجماعتكم الأخرى وهى المتأخرة يقال: جئت فى آخر الناس وأخرهم كما تقول فى أولهم وأولاهم بتأويل مقدمتهم وجماعتهم الأولى ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ عطف على صرفكم أى فجازاكم الله ﴿غَمًّا﴾ حين صرفكم عنهم وابتلاكم ﴿بِغَمٍّ﴾ بسبب غم أذقتموه رسول الله (ﷺ) بعصيانكم أمره، أو غما مضاعفا، غما بعد غم وغما متصلا بغم، من الاغتمام بما أرجف به من قتل رسول الله عليه السلام والجرح والقتل وظفر المشركين وفوت الغنيمة والنصر ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم فلا

---

(١) هو: عبدالله بن جبير بن النعمان، الأنصاري، وهو غير المترجم له قبلُ، فهذا صحابى شهد بدراً، وكان أمير الرماة يوم أحد، ولم يبرح مكانه ـ كما أمره رسول الله ﷺ ـ واستشهد فى هذه الغزوة، فرضى الله عنه.

الأعلام (٤/ ٧٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: هذا منتزع من أخبار فى وقعة أحد.

تحزنوا فيما بعد على فات من المنافع ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ ولا على مصيب من المضار ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عالم بعملكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا ترغيب فى الطاعة وترهيب عن المعصية.

●● ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ ثم أنزل الله الأمن على المؤمنين وأزال عنهم الخوف الذى كان بهم حتى نعسوا وغلبهم النوم، عن أبى طلحة[1]: غشينا النعاس ونحن فى مصافنا فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه[2] ثم يسقط فيأخذه. والأمنة الأمن، ونعاسا بدل من أمنة، أو هو مفعول، وأمنة حال منه مقدمة عليه، نحو رأيت راكبا رجلا، والأصل أنزل عليكم نعاسا ذا أمنة؛ إذ النعاس ليس هو الأمن ويجوز أن يكون أمنة مفعولا له، أو حالا من المخاطبين بمعنى ذوى أمنة، أو على أنه جمع آمن كبار وبررة ﴿يَغْشَىٰ﴾ يعنى النعاس، تغشى بالتاء والإمالة حمزة وعلى، أى الأمنة ﴿طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ هم أهل الصدق واليقين ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ هم المنافقون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ما يهمهم إلا هم أنفسهم وخلاصها لا هم الدين ولا هم رسول الله (ﷺ) والمسلمين - رضوان الله عليهم - ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ فى حكم المصدر أى: يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به وهو أن لا ينصر محمدا (ﷺ) ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه والمراد الظن المختص بالملة الجاهلية أو ظن أهل الجاهلية أى لا يظن مثل ذلك الظن إلا أهل الشرك الجاهلون بالله ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ هل لنا معاشر المسلمين من أمر الله نصيب قط يعنون النصر والغلبة على العدو ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ﴾ أى النصر والغلبة ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ولأوليائه المؤمنين ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[3] كله تأكيد للأمر، ولله خبر إن، كله بصرى، وهو مبتدأ ولله خبره، والجملة خبر إن ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ خوفا من السيف ﴿يَقُولُونَ﴾ فى أنفسهم أو بعضهم لبعض منكرين لقولك لهم: إن الأمر كله لله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى لو كان الأمر كما قال محمد: إن الأمر كله لله ولأوليائه وأنهم الغالبون لما غلبنا قط، ولما قتل من المسلمين من قتل فى هذه المعركة قد أهمتهم صفة لطائفة، يظنون خبر لطائفة، أو صفة أخرى أو حال أي قد أهمتهم أنفسهم ظانين، ويقولون بدل من يظنون، ويخفون حال من يقولون وقل إن الأمر كله لله اعتراض بين الحال وذى الحال ويقولون بدل من يخفون أو استئناف ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أى من علم

---

(١) أبو طلحة: هو الصحابى؛ زيد بن سهل بن الأسود بن حرام، النجارى، الأنصارى، أبو طلحة المدنى، شهد العقبة، وبدراً، والمشاهد كلها، وهو أحد النقباء، وذلك لأنه كان من كبار الأنصار، توفى - رضى الله عنه - عام ٣٤هـ وهو ابن سبعين سنة، وصلى عليه عثمان، وهذا أرجح ما قيل فى ذلك.

تهذيب التهذيب (٢/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٢) أخرجه البخارى من رواية قتادة عن أنس به.

(٣) سورة «الصافات»، الآية (١٧٣).

لله منه أنه يقتل فى هذه المعركة وكتب ذلك فى اللوح لم يكن بد من وجوده فلو قعد تم فى بيوتكم ﴿لَبَرَزَ﴾ من بينكم ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم بأحد ليكون ما علم الله أنه يكون. والمعنى أن الله كتب فى اللوح قتل من يقتل مـن المؤمنين وكتب ـ مع ذلك ـ أنهم الغالبون لعلمه أن العاقبة فى الغلبة لهم، وأن دين الإسلام يظهر على الدين كله وأن ما ينكبون به فى بعض الأوقات تمحيص لهم ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وليمتحن ما فى صدور المؤمنين من الإخلاص، ويمحص ما فى قلوبهم من وساوس الشيطان فعل ذلك. أو فعل ذلك لمصالح جمة وللابتلاء والتمحيص ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفياتها.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ انهزموا ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع محمد ـ عليه السلام ـ وجمع أبي سفيان للقتال بأحد ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ دعاهم إلى الزلة وحملهم عليها ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ بتركهم المركز الذى أمرهم رسول الله (ﷺ) بالثبات فيه فالإضافة إلى الشيطان لطف وتقريب والتعليل بكسبهم وعظ وتأديب. وكان أصحاب محمد ـ عليه السلام ـ تولوا عنه يوم أحد إلا ثلاثة عشر رجلا منهم أبو بكر وعلى وطلحة[1] وابن عوف[2] وسعد بن أبي وقاص[3]، والباقون من الأنصار ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كابن أبى وأصحابه ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أى:

---

(١) طلحة: هو الصحابى الجليل؛ طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو، القرشى، التيمى، أبو محمد المدنى، وهو من السابقين إلى الإسلام، وهو أحد العشرة، وأحد الستة؛ غاب عن بدر لمهمة أرسله بها رسول الله ﷺ، وضرب له بسهمه وأجره، وشهد أحداً، والمشاهد كلها، قتل يوم وقعة الجمل سنة ٣٦هـ، وهو ابن ٦٠ أو ٦٣ سنة.

تهذيب التهذيب (٣/ ١٦، ١٧).

(٢) ابن عوف: هو الصحابى الجليل؛ عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف، أبو محمد الزهري، من أجلاء الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، وهو أحد العشرة، كان تاجراً خبيراً، وكان يتصدق بجل مكسبه فى سبيل الله، مناقبه كثيرة. ولد بعد الفيل بعشر سنين، وتوفىّ عام ١ أو ٢ أو ٣٣هـ.

تهذيب التهذيب (٣/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٣) سعد: هو الصحابى الجليل؛ سعد بن أبى وقاص، واسمه: مالك بن أهيب ـ ويقال: وهيب ـ بن عبد مناف، أبو إسحاق الزهرى، أسلم قديماً، وهاجر قبل رسول الله ﷺ، وشهد بدراً، والمشاهد كلها، وهو أحد العشرة وأحد الستة، وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله، وهو من فرسان قريش الذين كانوا يحرسون النبى ﷺ فى مغازيه.

توفى ـ رضى الله عنه ـ عام ٦٥هـ وهو ابن بضع وسبعين سنة، وهو آخر العشرة وفاةً.

تهذيب التهذيب (٢/ ٢٨٤، ٢٨٥).

فى حق إخوانهم فى النسب، أو فى النفاق ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ سافروا فيها للتجارة، أو غيرها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ جمع غاز كعاف وعفى وأصابهم موت أو قتل ﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ اللام يتعلق بلا تكونوا أى لا تكونوا كهؤلاء فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منهم قلوبكم، أو بقالوا، أى قالوا ذلك، واعتقدوه ليكون ذلك حسرة فى قلوبهم، والحسرة الندامة على فوت المحبوب ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ رد لقولهم إن القتال يقطع الآجال أى الأمر بيده، قد يحيى المسافر والمقاتل ويميت المقيم والقاعد ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم. يعملون مكى وحمزة وعلى، أى الذين كفروا.

●● ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ متم وبابه بالكسر نافع وكوفى غير عاصم تابعهم حفص، إلا فى هذه السورة، كأنه أراد الوفاق بينه وبين قتلتم. غيرهم بضم الميم فى جميع القرآن فالضم من مات يموت والكسر من مات يمات كخاف يخاف فكما تقول خفت، تقول مت ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ما بمعنى الذى، والعائد محذوف، وبالياء حفص.

●● ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ لإلى الرحيم الواسع الرحمة المثيب العظيم الثواب تحشرون. ولوقوع اسم الله فى هذا الموضع مع تقديمه وإدخال اللام على الحرف المتصل به شأن غنى عن البرهان لمغفرة جواب القسم، وهو ساد مسد جواب الشرط، وكذلك لإلى الله تحشرون كذب الكافرين أولا فى زعمهم أن من سافر من إخوانهم أوغزا لو كان بالمدينة لما مات، ونهى المسلمين عن ذلك؛ لأنه سبب التقاعد عن الجهاد، ثم قال لهم: ولئن تم عليكم ما تخافونه من الهلاك بالموت، أو القتل فى سبيل الله فإن ما تنالونه من المغفرة والرحمة بالموت فى سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا، فإن الدنيا زاد المعاد فإذا وصل العبد إلى المراد لم يحتج إلى الزاد.

●● ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ ما مزيدة للتوكيد، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا برحمة من الله، ومعنى الرحمة ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق والتلطف بهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ جافيا ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك حتى لا يبقى حولك أحد منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ما كان منهم يوم أحد مما يختص بك ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يختص بحق الله إتماما للشفقة عليهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أى فى أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحى تطبيبا لنفوسهم وترويحا لقلوبهم ورفعا لأقدارهم ولتقتدى بك أمتك فيها، فى الحديث: «ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم»[1]. وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ ما رأيت أحدا أكثر مشاورة من

---

(١) أخرجه الطبرى عن الحسن بلفظ: ما شاور.

أصحاب رسول الله[1] ﷺ ومعنى شاورت فلانا: أظهرت ما عندى وما عنده من الرأى، شرت الدابة استخرجت جريها، شرت العسل أخذته من مآخذه، وفيه دلالة جواز الاجتهاد وبيان أن القياس حجة ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا قطعت الرأى على شيء بعد الشورى ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فى إمضاء أمرك على الأرشد لا على المشورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه والتوكل الاعتماد على الله والتفويض فى الأمور إليه، وقال ذو النون[2]: خلع الأرباب وقطع الأسباب.

●● ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم وإنما يدرك نصر الله من تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه وقدرته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه وهو ترك المعونة، أو هو من قولك ليس لك من يحسن إليك من بعد فلان تريد إذا جاوزته، وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله وعلى وجوب التوكل عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليخص المؤمنون ربهم بالتوكل والتفويض إليه لعلمهم أنه لا ناصر سواه، ولأن إيمانهم يقتضى ذلك.

●● ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ مكى وأبو عمرو وحفص وعاصم أى يخون وبضم الياء وفتح الغين غيرهم، يقال: غل شيئا من المغنم غلولا وأغل إغلالا إذا أخذه فى خفية، ويقال: أغله إذا وجده غالا، والمعنى ما صح له ذلك يعنى أن النبوة تنافى الغلول، وكذا من قرأ على البناء للمفعول فهو راجع إلى هذا؛ لأن معناه وما صح له أن يوجد غالا ولا يوجد غالا إلا إذا كان غالا، روى أن قطيفة حمراءفقدت يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال بعض المنافقين: لعل رسول الله (ﷺ) أخذها فنزلت الآية ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى يأت بالشيء الذى غله بعينه حاملا له على ظهره كما جاء فى الحديث، أو يأت بما احتمل من وباله وإثمه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تعطى جزاءها وافيا، ولم يقل ثم يوفى ما كسب ليتصل بقوله: ومن يغلل بل جيء بعام ليدخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى وهو أبلغ؛ لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيرا أو شرا مجزى فموفى جزاءه علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى جزاءكل على قدر كسبه.

---

(١) قال ابن حجر: هذا فيه تحريف، والصواب من رسول الله (ﷺ) لأصحابه. كذلك أخرجه الشافعى منقطعاً عن الزهرى، وأخرجه ابن حبان من رواية معمر عن الزهرى، عن عروة عن المسور ومروان، وكذا أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه، وعند أحمد وإسحاق، وقد أشار إليه الترمذى فى آخر الجهاد فقال: يروى عن أبى هريرة فذكره.

(٢) ذو النون: هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمى، الشهير بـ «ذى النون المصرى»، وهو أحد الزهاد العباد المشهورين من أهل مصر، يكثر ذكر اسمه فى كتب الزهد والرقائق، توفى عام ٢٤٥هـ. الأعلام (١٠٢/٢).

•• ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أى رضا الله قيل هم المهاجرون والأنصار ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهم المنافقون والكفار ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

•• ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات أو ذوو درجات، والمعنى تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها.

•• ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على من آمن مع رسول الله ـ عليه السلام ـ من قومه وخص المؤمنين منهم؛ لأنهم هم المنتفعون بمبعثه ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من جنسهم عربيا مثلهم أو من ولد إسماعيل كما أنهم من ولده، والمنة فى ذلك من حيث إنه إذا كان منهم كان اللسان واحداً فيسهل أخذ ما يجب عليهم أخذه عنه، وكانو واقفين على أحواله فى الصدق والأمانة فكان ذلك أقرب لهم إلى تصديقه، وكان لهم شرف بكونه منهم، وفى قراءة رسول الله من أنفسهم أى من أشرفهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أى القرآن بعدما كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم بالإيمان من دنس الكفر والطغيان، أو يأخذ منهم الزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن والسنة ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ من قبل بعثة الرسول (ﷺ) ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ عمى وجهالة ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شبهة فيه، إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والتقدير وإن الشأن، والحديث كانوا من قبل فى ضلال مبين.

•• ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين، وهو فى موضع رفع صفة لمصيبة ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ من أين هذا ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ لاختياركم الخروج من المدينة، أو لترككم المركز. لما نصب بقلتم، وأصابتكم فى محل الجر بإضافة لما إليه، وتقديره أقلتم حين أصابتكم، وأنى، هذا نصب لأنه مقول والهمزة، للتقرير والتقريع وعطفت الواو هذه الجملة على ما مضى من قصة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾(١) أو على محذوف كأنه قيل: أفعلتم كذا وقلتم حينئذ كذا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على النصر وعلى منعه.

•• ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ ما بمعنى الذى وهو مبتدأ ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمعكم وجمع المشركين بأحد والخبر ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فكائن بإذن الله أى بعلمه وقضائه ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

•• ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وهو كائن ليتميز المؤمنون والمنافقون وليظهر إيمان هؤلاء ونفاق هؤلاء ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين وهو كلام مبتدأ ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: جاهدوا للآخرة

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٥٢).

كما يقاتل المؤمنون ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ أى قاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تقاتلوا للآخرة، وقيل: أو ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما تروع العدو ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أى لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لا تبعناكم، يعنون أن ما أنتم فيه لخطإ رأيكم ليس بشىء ولا يقال لمثله قتال إنما هو إلقاء النفس فى التهلكة ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ يعنى أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر، أو هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية للمشركين ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى يظهرون خلاف ما يضمرون من الإيمان وغيره والتقييد بالأفواه للتأكيد ونفى المجاز ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

•• ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أى ابن أبى وأصحابه، وهو فى موضع رفع على هم الذين قالوا أو على الإبدال من واو يكتمون، أو نصب بإضمار أعنى أو على البدل من الذين نافقوا، أوجر على البدل من الضمير فى أفواههم أو قلوبهم ﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد ﴿وَقَعَدُوا﴾ أى: قالوا وقد قعدوا عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ لو أطاعنا إخواننا فيما أمرناهم به من الانصراف عن رسول الله (ﷺ) والقعود ووافقونا فيه لما قتلوا كما لم نقتل ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن الحذر ينفع من القدر فخذوا حذركم من الموت أو معناه قل إن كنتم صادقين فى أنكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلا وهو القعود عن القتال فجدوا إلى دفع الموت سبيلا، وروى أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقا، ونزل فى قتلى أحد.

•• ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾ شامى وحمزة وعلى وعاصم وبكسر السين غيرهم والخطاب لرسول الله (ﷺ) أو لكل أحد ﴿ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ قتلوا شامى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ بل هم أحياء ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مقربون عنده ذوو زلفى ﴿يُرْزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء يأكلون ويشربون وهو تأكيد لكونهم أحياء ووصف لحالهم التى هم عليها من التنعم برزق الله.

•• ﴿فَرِحِينَ﴾ حال من الضمير فى يرزقون ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وهو التوفيق فى الشهادة وما ساق إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم من كونهم أحياء مقربين معجلا لهم رزق الجنة ونعيمها وقال النبى ـ عليه السلام ـ «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر تدور فى أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش»(١). وقيل: هذا الرزق فى الجنة يوم القيامة، وهو ضعيف لأنه لا يبقى للتخصيص فائدة

(١) رواه أبو داود، وابن أبى شيبة، والحاكم، وأبو يعلى، والبزار، كلهم من حديث ابن عباس.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ﴾ بإخوانهم المجاهدين الذين ﴿لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم﴾ لم يقتلوا فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ يريد الذين من خلفهم قد بقوا من بعدهم وهم قد تقدموهم، أو لم يلحقوا بهم لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الذين، والمعنى: ويستبشرون بما تبين لهم من حال من تركوا خلفهم من المؤمنين وهو أنهم يبعثون آمنين يوم القيامة بشرهم الله بذلك فهم مستبشرون به وفى ذكر حال الشهداء واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على الجد فى الجهاد والرغبة فى نيل منازل الشهداء ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

●● ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يسرون بما أنعم الله عليهم وما تفضل عليهم من زيادة الكرامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف على النعمة والفضل. وإن الله علىٌّ بالكسر على الاستئناف وعلى أن الجملة اعتراض ﴿لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يوفر عليهم.

●● ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ مبتدأ، خبره للذين أحسنوا، أو صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ الجرح، روى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة؛ فندب النبى أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلا حتى بلغوا حمراء الأسد، وهى من المدينة على ثمانية أميال وكان بأصحابه القرح فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فذهبوا[1] فنزلت ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾ من للتبيين. مثلها فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً﴾[2] لأن الذين استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فى الآخرة.

●● ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ بدل من الذين استجابوا ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ روى أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل فقال ـ عليه السلام ـ «إن شاء الله» فلما كان القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له أن يرجع فلقى نعيم بن مسعود[3] الأشجعى وقد قدم معتمرا، فقال: يا نعيم إنى واعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر، وقد بدا لى أن أرجع فألحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل؛ فخرج نعيم فوجد

---

(١) ابن إسحاق فى المغازى عن شيوخه، ومن طريق البيهقى فى الدلائل مطولاً.

(٢) سورة «الفتح» الآية (٢٩).

(٣) هو الصحابى الجليل: نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف، أبو سلمة، الغطفانى، الأشجعى، أسلم زمن الخندق، وهو الذى خذل الأحزاب؛ بأن ألقى بينهم الفتنة، وصدقوه؛ لأنهم لم يكونوا يعلموا بإسلامه، فرضى الله تعالى عنه، توفى فى زمن عثمان، وقيل: بل فى خلافة على، فالله أعلم.
تهذيب التهذيب (٥/ ٦٣٩، ٦٤٠).

المسلمين يتـجهزون، فقال لهم: أتريدون أن تخـرجوا وقد جمعوا لكم، فوالله لا يفـلـت منكم أحد فقال ـ علـيه السلام ـ : «والله لأخرجن ولـو لم يخرج معى أحـد». فخرج فى سبعـين راكبا وهم يقولون: حـسبنا الله ونعم الـوكيل حتى وافوا بـدرا وأقاموا بها ثمـانى ليال، وكانت مـعهم تجارة فباعوها وأصابوا خيـر، ثم انصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين ولم يكن قـتال ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسمى أهل مكـة جيشه جيش السويق، وقالوا: إنما خرجتـم لتأكلوا السويق[1] فالناس الأول نعيم وهـو جمع أريد به الواحد أو كان لـه أتباع يثبطون مثل تـثبيطه والثانى أبو سفـيان وأصحابه ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ فخافوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ أى: القول الـذى هو إن الناس قد جمـعوا لكم فاخـشوهم أو القول أو نعيم ﴿إِيمَانًا﴾ بصيرة وإيقانا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا الله أى الذى يكـفينا الله، يقال: أحسبه الشىء إذا كفاه وهو بمعنى المحسب، بدليل أنك تقول هـذا رجل حسبك فتصف به النكرة؛ لأن إضافته غير حقيقية لكونه فى معنى اسم الفاعل ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو.

•• ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهى السلامة وحذر العدو منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وهو الربح فى التجارة فأصابوا بالـدرهم درهمين ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ لم يلـقوا ما يسوءهـم من كيد عدو وهـو حال من الضمير فى انقلبوا، وكذا بنعمة، وللتقدير فرجعوا من بدر منعمين بريئين من سوء ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بجراءتهم وخروجهم إلـى وجه العدو على أثر تثبيطه، وهو معـطوف على انقلبوا ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتوفيق فيما فعلوا.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ هو خبـر ذلكم أى إنما ذلكـم المثبط هو الـشيطان وهو نـعيم ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى المنافقين، وهوجملـة مستأنفة بيان لشيطنته، أو الشيـطان صفة لاسم الإشارة، ويخوف الخبر ﴿فَلا تَخَافُوهُمْ﴾ أى أوليـاءه ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يقـتضى أن يؤثر الـعبد خوف الله على خـوف غيره، وخافونى فى الـوصل والوقف سهل ويـعقوب وافقهما أبـو عمرو فى الوصل.

•• ﴿وَلا يَحْزُنكَ﴾ يحـزنك فى كـل القرآن نـافع إلا فـى سورة الأنبـياء﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾[2] ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يعنى لا يحزنونك لخوف أن يضروك، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى أولياء الله يعنى أنهم لا يضرون بمسارعتـهم فى الكفر غير أنفسهم وما وبال ذلك عائدا على غيرهم، ثم بين كـيف يعود وباله عليهم بقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ﴾ أى: نصيبـاً من الثواب ﴿وَلَهُمْ﴾ بدل الـثواب ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أبلـغ ما

(١) ذكره الثعلبى عن مجاهد وعكرمة، وروى ابن سعد فى الطبقات بعضه.
(٢) سورة «الأنبياء» الآية (١٠٣).

ضربه الإنسان نفسه، والآية تدل على إرادة الكفر والمعاصى؛ لأن إرادته أن لا يكون لهم ثواب فى الآخرة لا تكون بدون إرادة كفرهم ومعاصيهم.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ أى استبدلوه ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ هو نصب على المصدر، أى شيئا من الضرر الآية الأولى فيمن نافق من المتخلفين أو ارتد عن الإسلام، والثانية فى جميع الكفار، أو على العكس ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ﴾ وثلاثة بعدها مع ضم الباء فى يحسبنهم بالياء مكى وأبو عمرو، وكلها بالتاء حمزة، وكلها بالياء مدنى وشامى إلا فلا تحسبنهم فإنها بالتاء الباقون الأوليان بالياء والأخريان بالتاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيمن قرأ بالياء رفع أى ولا يحسبن الكافرون وأن مع اسمه وخبره فى قوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ﴾ فى موضع المفعولين ليحسبن والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا املاءنا خيراً لأنفسهم وما مصدرية وكان حقها فى قياس علم الخط أن تكتب مفصولة، ولكنها وقعت فى الإمام[1] متصلة فلا يخالف، وفيمن قرأ بالتاء نصب أى ولا تحسبن الكافرين، وأنما نملى لهم خير لأنفسهم بدل من الكافرين أى ولا تحسبن أن ما نملى للكافرين خير لهم، وأن مع ما فيخبره ينوب عن المفعولين، والإملاء لهم إمهالهم وإطالة عمرهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ما هذه حقها أن تكتب متصلة؛ لأنها كافة دون الأولى، وهذه جملة مستأنفة تعليل للجملة قبلها، كأنه قيل ما بالهم لا يحسبون الإملاء خيراً لهم فقيل إنما نملى لهم ليزدادوا إثما، والآية حجة لنا على المعتزلة فى مسألتى الأصلح وإرادة المعاصى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ واللام فى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المؤمنين الخلص والمنافقين لتأكيد النفى ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ حتى يعزل المنافق عن المخلص، يميز حمزة وعلى، والخطاب فى أنتم للمصدقين من أهل الإخلاص والنفاق، كأنه قيل ما كان الله ليذر المخلصين منكم على الحال التى أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض حتى يميزهم منكم بالوحى إلى نبيه وإخباره بأحوالكم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وما كان الله ليؤتى أحداً منكم علم الغيوب فلا تتوهموا عند إخبار الرسل بنفاق الرجل وإخلاص الآخر أنه يطلع على ما فى القلوب اطلاع الله فيخبر عن كفرها وإيمانها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: ولكن الله يرسل الرسول فيوحى إليه ويخبره بأن فى الغيب كذا وأن فلانا فى قلبه النفاق وفلانا فى قلبه الإخلاص فيعلم ذلك من جهة إخبار الله لا من جهة نفسه. والآية حجة على الباطنية[2] فإنهم يدعون ذلك

(١) الإمام: أى: المصحف الإمام، وهو مصحف عثمان ـ رضى الله عنه ـ الذى جمع فيه القراءات كلها؛ ليتجنب الفرقة والشقاق بين القراء.

(٢) الباطنية: هم فرقة من غلاة الشيعة، عرفوا بهذا اللقب؛ لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة سوى هذا؛ مثل: القرامطة، المزدكية، التعليمية، الملحدة، وهم يقولون: نحن إسماعيلية؛ لأننا تميزنا عن فرق الشيعة.
الملل والنحل (٢/ ٢٦).

العلم لإمامهم فإن لم يثبتوا النبوة له صاروا مخالفين للنص حيث أثبتوا علم الغيب لغير الرسول، وإن أثبتوا النبوة له صاروا مخالفين لنص آخر وهو قوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1] ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بصفة الإخلاص ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فى الآخرة.

ونزل فى مانعى الزكاة ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من قرأ بالتاء قدر مضافاً محذوفا أى ولا تحسبن بخل الباخلين وهو فصل وخيرا لهم مفعول ثان، وكذا من قرأ بالياء وجعل فاعل يحسبن ضمير رسول الله، أو ضمير أحد ومن جعل فاعله الذين يبخلون كان التقدير ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم هو خيراً لهم، وهو فصل وخيراً لهم مفعول ثان ﴿بَلْ هُوَ﴾ أى البخل ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأن أموالهم ستزول عنهم ويبقى عليهم وبال البخل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفسير لقوله: بل هو شر لهم أى سيجعل ما لهم الذى منعوه عن الحق طوقا فى أعناقهم، كما جاء فى الحديث: «من منع زكاة ماله يصير حية ذكرا أقرع له نابان فيطوق فى عنقه فينهشه ويدفعه إلى النار»[2] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيل الله، والأصل فى ميراث موراث فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء مكى وأبو عمرو فالتاء على طريقة الالتفات، وهو أبلغ فى الوعيد والياء على الظاهر.

•• ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[3] وقالوا: إن إله محمد يستقرض منا فنحن إذا أغنياء وهو فقير، ومعنى سماع الله له أنه لم يخف عليه وأنه أعد له كفاء من العقاب ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا فى الصحائف، أو سنحفظه إذ الكتاب من الخلق ليحفظ ما فيه فسمى به مجازا، وما مصدرية أو بمعنى الذى ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ معطوف على ما. جعل قتلهم الأنبياء قرينة له إيذانا بأنهما فى العظم أخوان وأن من قتل الأنبياء لم يستبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى عذاب النار، كما أذقتم المسلمين الغصص، قال الضحاك: يقول لهم ذلك خزنة جهنم، وإنما أضيف إلى الله تعالى، لأنه بأمره كما فى قوله سنكتب سيكتب وقتلهم، ويقول حمزة: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من عقابهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى: ذلك العذاب بما قدمتم من الكفر والمعاصى والإضافة إلى اليد؛ لأن أكثر الأعمال يكون بالأيدى فجعل كل عمل كالواقع بالأيدى على سبيل التغليب؛ ولأنه يقال للآمر

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (٤٠).

(٢) لم أجده.

(٣) سورة «البقرة»، الآية (٢٤٥)، وسورة «الحديد»، الآية (١١).

بالشيء فاعله فذكر الأيدى للتحقيق يعنى أنه فعل نفسه لا غيره بأمره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله لا يظلم عباده فلا يعاقبهم بغير جرم.

●● ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ فى موضع جر على البدل من الذين قالوا، أو نصب بإضمار أعنى، أو رفع بإضمارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أمرنا فى التوراة وأوصانا ﴿أَلاَّ نُؤْمِنَ﴾ بأن لا نؤمن ﴿لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أى يقرب قربانا فتنزل نار من السماء فتأكله فإن جئتنا به صدقناك، وهذه دعوى باطلة وافتراء على الله؛ لأن أكل النار القربان سبب الإيمان للرسول الآتى به لكونه معجزة فهو إذا وسائر المعجزات سواء ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات سوى القربان ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أى: بالقربان يعنى قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ أى: إن كان امتناعكم عن الإيمان لأجل هذا فلم لم تؤمنوا بالذين أتوا به ولم قتلتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى قولكم: إنما نؤخر الإيمان لهذا.

●● ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك اليهود فلا يهولنك فقد فعلت الأمم بأنبيائها كذلك ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الكتب جمع زبور من الزبر، وهو الكتابة وبالزبر شامى ﴿وَالْكِتَابِ﴾ جنسه ﴿الْمُنِيرِ﴾ المضى قيل: هما واحد فى الأصل وإنما ذكرا لاختلاف الوصفين فالزبور كتاب فيه حكم زاجرة، والكتاب المنير هو الكتاب الهادى.

●● ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وجاز الابتداء بالنكرة لما فيه من العموم، والمعنى لا يحزنك تكذيبهم إياك فمرجع الخلق إلى فأجازيهم على التكذيب وأجازيك على الصبر، وذلك قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: تعطون ثواب أعمالكم على الكمال يوم القيامة فإن الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بعد والزحزحة: الإبعاد ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير، وقيل: فقد حصل له الفوز المطلق، وقيل: الفوز نيل المحبوب والبعد عن المكروه ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ شبه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه، ثم يتبين له فساده ورداءته، والشيطان هو المدلس الغرور، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ، وعن الحسن كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل لها.

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ والله لتبلون أى لتختبرن ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالإنفاق فى سبيل الله وبما يقع فيها من الآفات ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل والأسر والجراح ومايرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب وهذه الآية دليل على أن النفس هى الجسم المعاين دون ما فيه من المعنى الباطن، كما قال بعض أهل الكلام والفلاسفة كذا فى شرح التأويلات ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعنى اليهود

والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ كالطعن فى الدين وصد من أراد الإيمان وتخطئة من آمن ونحو ذلك ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مخالفة أمر الله ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ﴾ فإن الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور أى مما يجب العزم عليه من الأمور خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على احتمال ما سيلقون من الشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها وهم مستعدون لا يرهقهم ما يرهق من تصيبه الشدة بغتة فينكرهم وتشمئز منها نفسه.

●● ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ واذكر وقت أخذ الله ميثاق أهل الكتاب ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ عن الناس بالتاء على حكاية مخاطبتهم كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ﴾[1] وبالياء مكى وأبو عمرو وأبو بكر، لأنهم غيب والضمير للكتاب أكد عليهم إيجاب بيان الكتاب واجتناب كتمانه ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فنبذوا الميثاق وتأكيده عليهم أى لم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه، والنبذ وراء الظهر مثل فى الطرحي وترك الاعتداد، وهو دليل على أنه يجب على العلماء أن يبينوا الحق للناس وما علموه، وأن لا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم، أو لجر منفعة، أو دفع أذية، أو لبخل بالعلم، وفى الحديث: «من كتم علما عن أهله ألجمه الله بلجام من نار»[2] ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ عرضا يسيرا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

والخطاب فى ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ لرسول الله وأحد المفعولين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ والثانى بمفازة وقومه فلا تحسبنهم تأكيد تقديره لا تحسبنهم فائزين ﴿بِمَا أَتَوا﴾ بما فعلوا، وهى قراءة أبى وجاء وأتى يستعملان بمعنى فعل أنه ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾[3] ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾[4] وقرأ النخعى[5] بما آتوا أى أعطوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ بمنجاة منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم روى أن رسول الله (ﷺ) سأل اليهود عن شىء مما فى التوراة فكتموا الحق وأخبروه بخلافه وأروه أنهم قد صدقوه واستحمدوا إليه وفرحوا بما فعلوا من تدليسهم، فأطلع الله

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٤).

(٢) رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجة، والطبرانى فى الأوسط، قال ابن حجر: ليس فى شىء من طرقه «عن أهله».

(٣) سورة «مريم»، الآية (٦١).

(٤) سورة «مريم»، الآية (٢٧).

(٥) النخعى: هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، النخعى، أبو عمران، الكوفى الفقيه، تابعى جليل، رأى أنساً ولم يرو عنه، وقيل: رأى عائشة أيضاً، توفى عام ٩٦هـ، وقد تجاوز الخمسين من العمر، على خلاف.

تهذيب التهذيب (١/١١٥/١١٦).

رسوله على ذلك وسلاه بما أنزل من وعيدهم[1] أى لا تحسبن اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك ويحبون أن تحمدهم بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عما سألتهم عنه ناجين من العذاب، وقيل: هم المنافقون يفرحون بما أتوا من إظهار الإيمان للمسلمين وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم ويستحمدون إليهم بالإيمان الذى لم يفعلوه على الحقيقة، وفيه وعيد لمن يأتى بحسنة فيفرح بها فرح إعجاب ويحب أن يحمده الناس بما ليس فيه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهما وفيه تكذيب لمن قال: إن الله فقير ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على عقابهم.

●● ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ﴾ لأدلة واضحة على صانع قديم عليم حكيم قادر ﴿لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ لمن خلص عقله عن الهوى خلوص اللب عن القشر فيرى أن العرض المحدث فى الجواهر يدل على حدوث الجواهر؛ لأن جوهر مالا ينفك عن عرض حادث ومالا يخلو عن الحادث فهو حادث، ثم حدوثها يدل على محدثها، وذا قديم وإلا لاحتاج إلى محدث آخر إلى مالا يتناهى وحسن صنعه يدل على علمه، وإتقانه يدل على حكمته، وبقاؤه يدل على قدرته، قال ـ عليه السلام ـ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[2]. وحكى أنه كان فى بنى إسرائيل من إذا عبدالله ثلاثين سنة أظلته سحابة فعبدها فتى فلم تظله فقالت له أمه: لعل فرطة فرطت منك فى مدتك، قال ما أذكر. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تعتبر، قال: لعل. قالت: فما أوتيت إلا من ذلك.

●● ﴿الَّذِينَ﴾ فى موضع جر نعت الأولى، أو نصب بإضمار أعنى أو رفع بإضمارهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ يصلون ﴿قِيَامًا﴾ قائمين عند القدرة ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أى مضطجعين عند العجز وقياما وقعودا حالان من ضمير الفاعل فى يذكرون وعلى جنوبهم حال أيضا، أو المراد الذكر على كل حال؛ لأن الإنسان لا يخلو عن هذه الأحوال، وفى الحديث: «من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[3] ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما يدل عليه اختراع هذه الأجرام العظام وإبداع صنعتها وما دبر فيها مما تكل الأفهام عن إدراك بعض عجائبه من عظم شأن الصانع وكبرياء سلطانه، وعن النبى ـ عليه السلام ـ : «بينا رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال: أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى،

---

(١) متفق عليه من رواية حميد بن عبد الرحمن.

(٢) رواه الثعلبى بغير إسناد، وبلفظ: «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها». قال الزمخشرى: أى ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ولم يعتبر بها، وأخطأ النسفى باعتماده شرح الزمخشرى بدل ألفاظ الثعلبى للحديث.

(٣) رواه ابن أبى شيبة، وإسحاق، والطبرانى من حديث معاذ، وأخرجه الثعلبى فى تفسير العنكبوت، وابن مردويه فى تفسير الواقعة. قاله ابن حجر.

فنظر الله إليه فغفر له»[١] وقال ـ عليه السلام ـ : «لا عبادة كالتفكر»[٢]. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكر ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ أى يقولون ذلك وهو فى محل الحال أى يتفكرون قائلين، والمعنى ما خلقته خلقا باطلاً بغيرحكمة بل خلقته لحكمة عظيمة وهو أن تجعلها مساكن للمكلفين، وأدلة لهم على معرفتك، وهذا إشارة إلى الخلق على أن المراد به المخلوق، أو إلى السماوات والأرض؛ لأنها فى معنى المخلوق، كأنه قيل ما خلقت هذا المخلوق العجيب باطلا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك عن الوصف بخلق الباطل وهو اعتراض ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الفاء دخلت لمعنى الجزاء، تقديره: إذا نزهناك فقنا.

●● ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أهنته أو أهلكته أو فضحته واحتج أهل الوعيد بالآية مع قوله: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[٣] فى أن من يدخل النار لا يكون مؤمنا ويخلد قلنا: قال جابر: إخزاء المؤمن تأديبه وإن فوق ذلك لخزيا ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ اللام إشارة إلى من يدخل النار والمراد الكفار ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ من أعوان وشفعاء يشفعون لهم، كما للمؤمنين.

●● ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ تقول: سمعت رجلا يقول كذا فتوقع الفعل على الرجل وتحذف المسموع؛ لأنك وصفته بما يسمع فأغناك عن ذكره ولولا الوصف لم يكن منه بد وأن يقال: سمعت كلام فلان والمنادى هو الرسول ـ عليه السلام ـ أو القرآن ﴿يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ لأجل الإيمان بالله، وفيه تفخيم لشأن المنادى إذ لا منادى أعظم من مناد ينادى للإيمان ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ بأن آمنوا أو أى آمنوا ﴿بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: فيه دليل بطلان الاستثناء فى الإيمان ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين فى جملتهم، والأبرار المتمسكون بالسنة جمع بر أو بار، كرب وأرباب وصاحب وأصحاب.

●● ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أى على تصديق رسلك، أو ما وعدتنا منزلا على رسلك، أو على ألسنة رسلك، وعلى متعلق بوعدتنا والموعود هو الثواب، أو النصرة على الأعداء، وإنما طلبوا إنجاز ما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأن معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد، أو المراد اجعلنا ممن لهم الوعد إذ الوعد غير مبين لمن هو، أو المراد ثبتنا على ما يوصلنا إلى عدتك يؤيده قوله: ﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أو هو إظهار للخضوع والضراعة ﴿إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ هو مصدر بمعنى الوعد.

---

(١) الثعلبى من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة.

(٢) ابن حبان فى الضعفاء، والبيهقى فى الشعب بسنده عن على ـ رضى الله عنه ـ وفى سنده كلام.

(٣) سورة «التحريم»، الآية (٨).

•• ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى أجاب، يقال: استجاب له واستجابه ﴿أَنِّي﴾ بأنى ﴿لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم﴾ منكم صفة لعامل ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لعامل ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر كلكم بنو آدم، أو بعضكم من بعض فى النصرة والدين، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين، عن جعفر الصادق[1] ـ رضى الله عنه ـ من حزبه أمر فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد، وقرأ الآيات ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مبتدأ وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له كأنه قال: فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة وهى المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم إلى حيث يأمنون عليه، فالهجرة كائنة فى آخر الزمان كما كانت فى أول الإسلام ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ التى ولدوا فيها ونشئوا ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ بالشتم والضرب ونهب المال يريد سبيل الدين ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وغزوا المشركين واستشهدوا، وقتّلوا مكى وشامي، وقتلوا وقاتلوا على التقديم والتأخير حمزة وعلى وفيه دليل على أن الواو لا توجب الترتيب والخبر ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهو جواب قسم محذوف ﴿ثَوَابًا﴾ فى موضع المصدر المؤكد يعنى إثابة أو تثويبا ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لأن قوله: لأكفرن عنهم ولأدخلنهم فى معنى لأثيبنهم ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أى يختص به ولا يقدر عليه غيره، وروى أن طائفة من المؤمنين قالوا: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع، فنزل.

•• ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ والخطاب لكل أحد أو للنبى ـ عليه السلام ـ والمراد به غيره، أو لأن مدرة القوم[2] ومقدّمهم يخاطب بشىء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا فكأنه قيل لا يغرنكم أو لأن رسول الله (ﷺ) كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه، كقوله: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾[3] ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4] وهذا فى النهى نظير قوله فى الأمر: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[5] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾[6] ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾

---

(١) جعفر الصادق، هو جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ الهاشمى، العلوى، أبو عبدالله المدنى، الصادق، كان من أئمة أهل البيت فى عصره، وكان كثير العبادة، وثقه أهل الحديث، ولد عام ٨٠ هـ، وتوفى عام ١٤٨هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) معنى مدرة القوم: سيدهم.

(٣) سورة «القصص»، الآية (٨٦).

(٤) سورة «القصص»، الآية (٨٧).

(٥) سورة «الفاتحة»، الآية (٦).

(٦) سورة «النساء»، الآية (١٣٦).

خبر مبتدأ محذوف أى تقلبهم فى البلاد متاع قليل وأراد قتله فى جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة، أو فى جنب ما أعد الله للمؤمنين من الثواب أو أراد أنه قليل فى نفسه لانقضائه وكل زائل قليل ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وساء ما مهدوا لأنفسهم.

●● ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن الشرك ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً﴾ النزل والنزل ما يقام للنازل وهو حال من جنات لتخصصها بالصفة، والعامل اللام فى لهم أو هو مصدر مؤكد، كأنه قيل: رزقا أو عطاء ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ صفة له ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الكثير الدائم ﴿خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار من القليل الزائل لكن بالتشديد يزيد وهو للاستدراك أى لابقاء لتمتعهم لكن ذلك للذين اتقوا، ونزلت فى ابن سلام وغيره من مسلمى أهل الكتاب، أو فى أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى - عليه السلام - فأسلموا.

●● ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ دخلت لام الابتداء على اسم إن لفصل الظرف بينهما ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن، لأن من يؤمن فى معنى الجمع ﴿لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ كما يفعل من لم يسلم من أحبارهم وكبارهم وهو حال بعد حال أى غير مشترين ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: ما يختص بهم من الأجر وهو ما وعده فى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمه فى كل شيء.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ على الدين وتكاليفه قال الجنيد - رضى الله عنه -: الصبر حبس النفس على المكروه بنفى الجزع ﴿وَصَابِرُوا﴾ أعداء الله فى الجهاد أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب لا تكونوا أقل صبرا منهم وثباتا ﴿وَرَابِطُوا﴾ وأقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح: البقاء مع المحبوب بعد الخلاص عن المكروه، ولعل لتغييب المآل لئلا يتكلوا على الآمال عن تقديم الأعمال، قيل: اصبروا فى محبتى وصابروا فى نعمتى ورابطوا أنفسكم فى خدمتى، لعلكم تفلحون تظفرون بقربتى، قال النبى (ﷺ): «اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غياياتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما»[2]. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٥٤).

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبى أمامة الباهلى.

(سورة النساء نزلت بالمدينة آياتها مائة وست وسبعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس﴾ يا بنى آدم ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فرعكم من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة أنشأها وخلق منها زوجها، والمعنى: شعبكم من نفس واحدة هذه صفتها وهى أنه أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ ونشر من آدم وحواء ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ كثيرة أى: وبث منهما نوعى جنس الإنس، وهما الذكور والإناث فوصفها بصفة هى بيان وتفصيل لكيفية خلقهم منها، أو على خلقكم، والخطاب فى يا أيها الناس للذين بعث إليهم رسول الله ﷺ، والمعنى خلقكم من نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء غيركم من الأمم الفائتة للحصر، فإن قلت الذى تقتضيه جزالة النظم أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يدعو إليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذى ذكره داعيا إليها، قلت: لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة، ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شىء، ومن المقدورات عقاب الكفار والفجار، فالنظر فيه يؤدى إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى عقابه؛ ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم فحقهم أن يتقوه فى كفرانها قال ـ عليه السلام ـ عند نزول الآية: «خلقت المرأة من الرجل فهمّها فى الرجل، وخلق الرجل من التراب فهمّه فى التراب»[1] ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ والأصل تتساءلون فأدغمت التاء فى السين بعد إبدالها سينا لقرب التاء من السين للهمس تساءلون به بالتخفيف، كوفى على حذف التاء الثانية استثقالا لاجتماع التاءين أى يسأل بعضكم بعضا بالله وبالرحم، فيقول بالله وبالرحم: افعل كذا على سبيل الاستعطاف ﴿وَالأَرْحَامَ﴾ بالنصب على أنه معطوف على اسم الله تعالى أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها، أو على موضع الجار والمجرور، كقولك: مررت بزيد وعمراً وبالجر حمزة على عطف الظاهر على الضمير، وهو ضعيف؛ لأن الضمير المتصل كاسمه متصل والجار والمجرور كشىء واحد فأشبه العطف على بعض الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ حافظا أو عالما.

●●﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعنى الذين ماتت آباؤهم فانفردوا عنهم. واليتم: الانفراد ومنه الدرة اليتيمة، وقيل: اليتم فى الأناسى من قبل الآباء وفى البهائم من قبل الأمهات، وحق هذا الاسم أن يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء إلا أنه قد غلب أن يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم عليهم زال هذا الاسم عنهم. وقوله ـ عليه السلام ـ «لا يتم بعد الحلم»[2]. تعليم شريعة لا لغة يعنى أنه إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار

---

(١) أخرجه ابن المنذر، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس (الدر المثور).

(٢) أخرجه أبو داود عن على.

والمعنى وآتوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ، وسماهم يتامى لقرب عهدهم إذا بلغوا بالصغر وفيه إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ أن أونس منهم الرشد وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار ﴿وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم، أولا تستبدلوا الأمر الخبيث، وهو اختزال أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع عنها التفعل بمعنى الاستفعال غير عزيز ومنه التعجل بمعنى الاستعجال ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ إلى متعلقة بمحذوف وهو فى موضع الحال أى مضافة إلى أموالكم والمعنى ولاتضموها إليها فى الإنفاق حتى لاتفرقوا بين أموالكم وأموالهم قلة مبالاة بما لايحل لكم وتسوية بينه وبين الحلال ﴿إِنَّهُ﴾ إن أكلها ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنبا عظيما.

•• ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ أى لاتعدلوا. أقسط أى عدل ﴿فِي الْيَتَامَىٰ﴾ يقال للإناث اليتامى، كما يقال للذكور وهو جمع يتيمة ويتيم، وأما أيتام فجمع يتيم لاغير ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم﴾ ماحل لكم ﴿مِّنَ النِّسَاءِ﴾ لأن منهن ماحرم الله كاللاتى فى آية التحريم وقيل ما ذهابا إلى الصفة لأن مايجىء فى صفات من يعقل، فكأنه قيل: الطيبات من النساء ولأن الإناث من العقلاء يجرين مجرى غير العقلاء ومنه قوله تعالى: أو ما ملكت أيمانكم قيل: كانوا لايتحرجون من الزنا ويتحرجون من ولاية اليتامى فقيل: إن خفتم الجور فى حق اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم من النساء ولاتحوموا حول المحرمات، أو كانوا يتحرجون من الولاية فى أموال اليتامى ولا يتحرجون من الاستكثار من النساء مع أن الجور يقع بينهن إذا كثرن، فكأنه قيل: إذا تحرجتم من هذا فتحرجوا من ذلك وقيل: وإن خفتم أن لاتقسطوا فى نكاح اليتامى فانكحوا من البالغات، يقال: طابت الثمرة أى أدركت ﴿مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ نكرات، وإنما منعت الصرف للعدل والوصف، وعليه دل كلام سيبويه ومحلهن النصب على الحال من النساء، أو مما طاب تقديره فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ثنتين ثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا. فإن قلت الذى أطلق للناكح فى الجمع أن يجمع بين اثنتين أو ثلاث أو أربع فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع، قلت: الخطاب للجميع فوجب التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له، كما تقول للجماعة: اقتسموا هذا المال وهو ألف درهم درهمين درهمين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة ولو أفردت لم يكن له معنى وجىء الواو لتدل على تجويز الجمع بين الفرق ولو جئ بأو مكانها لذهب معنى التجويز ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فالزموا أو فاختاروا واحدة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوّى فى اليسر بين الحرة الواحدة وبين الإماء من غير حصر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتسرى ﴿أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لاتميلوا ولاتجوروا، يقال عال الميزان عولا إذا مال وعال الحاكم فى حكمه إذا جار، ويحكى عن الشافعى - رحمه الله - أنه فسر أن لاتعولوا أن لاتكثر عيالكم، واعترضوا عليه بأنه يقال أعال يعيل إذا كثير عياله يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم، كقولك: مانهم يمونهم إذا أنفق عليهم، لأن من كثر عياله

لزمه أن يعولهم وفى ذلك مايصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال. وكلام مثله من أعلام العلم حقيق بالحمل على السداد وأن لايظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا كأنه سلك فى تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات.

•• ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ من نحله كذا إذا أعطاه إياه ووهبه له عن طيبة من نفسه نحلة ونحلا وانتصابها على المصدر، لأن النحلة والإيتاء بمعنى الإعطاء، فكأنه قال: وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أى أعطوهن مهورهن عن طيبة أنفسكم أو على الحال من المخاطبين أى آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبى النفوس بالإعطاء، أو من الصدقات أى منحولة معطاة عن طيبة الأنفس، وقيل نحلة من الله تعالى عطية من عنده وتفضلا منه عليهن، وقيل: النحلة الملة وفلان ينتحل كذا أى يدين به يعنى وآتوهن مهورهن ديانة على أنها مفعول لها، والخطاب للأزواج، وقيل للأولياء، لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾ للأزواج ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أى من الصداق إذ هو فى معنى الصدقات ﴿نَفْسًا﴾ تمييز وتوحيدها؛ لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه، والمعنى فإن وهبن لكم شيئا من الصدقات وتجافت عنه نفوسهن طيبات غير مخبثات بما يضطرهن إلى الهبة من شكاسة أخلاقكم وسوء معاشرتكم، وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا، ولم يقل فإن وهبن لكم إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب طيبة ﴿ فَكُلُوهُ﴾ الهاء يعود على شىء ﴿هَنِيئًا﴾ لا إثم فيه ﴿مَّرِيئًا﴾ لاداء فيه فسرهما النبى - عليه السلام - أو هنيئا فى الدنيا بلا مطالبة مريئا فى العقبى بلا تبعة وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغا لا تنغيص فيه، وهما وصف مصدر أى أكلا هنيئا مريئا، أو حال من الضمير أى كلوه وهو هنئ مرىء، وهذه عبارة عن المبالغة فى الإباحة وإزالة التبعة. هنيا مريا بغير همز يزيد وكذا حمزة فى الوقف وهمزهما الباقون، وعن على - رضى الله عنه - إذا اشتكى أحدكم شيئا فليسأل امرأته ثلاثة دراهم من صداقها ثم ليشتر بها عسلا فليشربه بماء السماء فيجمع الله له هنيئا ومريئا وشفاء ومباركا.

•• ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ المبذرين أموالهم الذين ينفقونها فيما لاينبغى ولاقدرة لهم على إصلاحها وتثميرها والتصرف فيها، والخطاب للأولياء وأضاف إلى الأولياء أموال السفهاء بقوله ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ لأنهم يلونها ويمسكونها ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أى قواما لأبدانكم ومعاشا لأهلكم وأولادكم. قيما بمعنى قياما نافع وشامى كما جاء عوذا بمعنى عياذا وأصل قيام قوام فجعلت الواو ياء لانكسار ما قبلها وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن، ولأن أترك مالا يحاسبنى الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس وعن سفيان - وكان له بضاعة يقلبها - لولاها لتمندل (١) بى بنو العباس ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ واجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها، وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح

---

(١) لتمندل: التمندل: التمسح، (قاموس ٤/ ٥٦).

لا من صلب المال فيأكلها الإنفاق ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن جريج: عدة جميلة إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم وكل ما سكنت إليه النفس لحسنه عقلا أو شرعا من قول أو عمل فهو معروف، وما أنكرته لقبحه فهو منكر.

• • ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ واختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ فالابتلاء عندنا أن يدفع إليه ما يتصرف فيه حتى تتبين حاله فيما يجئ منه وفيه دليل على جواز إذن الصبى العاقل فى التجارة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أى الحلم: لأنه يصلح للنكاح عنده ولطلب ما هو مقصود به وهو التوالد ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ﴾ تبينتم ﴿رُشْدًا﴾ هداية فى التصرفات وصلاحا فى المعاملات ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، ونظم هذا الكلام أن ما بعد حتى إلى فادفعوا إليهم أموالهم جعل غاية للابتلاء وهى حتى التى تقع بعدها الجمل كالتى فى قوله:

* حتى ماء دجلة أشكل *(١)

والواقعة بعدها جملة شرطية؛ لأن إذا متضمنه معنى الشرط وفعل الشرط بلغوا النكاح وقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ جملة من شرط وجزاء واقعة جوابا للشرط الأول الذى هو إذا بلغوا النكاح فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم وتنكير الرشد يفيد أن المراد رشد مخصوص، وهو الرشد فى التصرف والتجارة، أو يفيد التقليل أى طرفا من الرشد حتى لاينتظر به تمام الرشد وهو دليل لأبى حنيفة - رحمه الله - فى دفع المال عند بلوغ خمس وعشرين سنة ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم فإسرافًا وبدارا مصدران فى موضع الحال وأن يكبروا فى موضع المصدر منصوب الموضع ببدارا ويجوز أن يكونا مفعولا لهما أى لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم تفرطون فى إنفاقها وتقولون ننفق فيما نشتهى قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قسم الأمر بين أن يكون الوصى غنيا وبين أن يكون فقيرا فالغنى يستعف من أكلها أى يحترز من أكل مال اليتيم واستعف أبلغ من عف كأنه طالب زيادة العفة والفقير يأكل قوتا مقدرا محتاطا فى أكله، عن إبراهيم(٢) ماسد الجوعة ووارى العورة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم تسلموها وقبضوها دفعا للتجاحد وتفاديا عن توجه اليمين عليكم عند التخاصم والتناكر ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسبا فعليكم

(١) هذا من عجز بيت لجرير صدره: فمازالت القتلى تمج دماءها: بدجلة....

(٢) إبراهيم: هو إبراهيم بن يزيد النخعى، سبق ترجمته قريباً، عند تفسير سورة: آل عمران، الآية ١٨٨.

بالتصادق وإياكم والتكاذب، أو هو راجع إلى قوله فليأ كل بالمعروف أى ولا يسرف فإن الله يحاسبه عليه ويجازيه به وفاعل كفى لفظة الله والباء زائدة وكفى يتعدى إلى مفعولين دليله ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾(١).

•• ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ هم المتوارثون من ذوى القرابات دون غيرهم ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بتكرير العامل والضمير فى منه يعود إلى ما ترك ﴿نَصِيبًا﴾ نصب على الاختصاص بمعنى أعنى نصيبا ﴿مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعا لابدلهم من أن يحوزوه، روى أن أوس بن ثابت ترك امرأته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابناعمه ميراثه عنهن، وكان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والأطفال ويقولون: لايرث إلا من طاعن بالرماح وحاز الغنيمة. فجاءت أم كحة إلى رسول الله (ﷺ) فشكت فقال ارجعى حتى أنظر ما يحدث الله فنزلت الآية فبعث إليهما لا تفرقا من مال أوس شيئا فإن الله تعالى قد جعل لهم نصيبا ولم يبين حتى يبين فنزلت يوصيكم الله فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقى ابنى العم(٢).

•• ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أى قسمة التركة ﴿أُوْلُوا الْقُرْبَى﴾ ممن لايرث ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ﴾ من الأجانب ﴿فَارْزُقُوهُم﴾ فأعطوهم ﴿مِّنْهُ﴾ مما ترك الوالدان والأقربون وهو أمر ندب وهو باق لم ينسخ، وقيل: كان واجبا فى الابتداء، ثم نسخ بآية الميراث ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ عذرا جميلا وعدة حسنة، وقيل القول المعروف أن يقولوا لهم خذوا بارك الله عليكم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم.

•• ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ المراد بهم الأوصياء أمروا بأن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى فيشفقوا عليهم خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافا وأن يقدروا ذلك فى أنفسهم ويصوره حتى لايجسروا على خلاف الشفقة والرحمة، ولو مع ما فى حيزه صلة للذين أى وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرية ضعافا وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وجواب لو: خافوا، والقول السديد من الأوصياء أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيث ويدعوهم بيابنى وياولدى.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ ظالمين فهو مصدر فى موضع الحال ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم ﴿نَارًا﴾ أى يأكلون مايجر إلى النار فكأنه نار، روى أنه يبعث آكل مال

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٣٧).

(٢) أورده الثعلبى والبغوى بغير سند، وروى الطبرى هذه القصة من طريق ابن جريج عن عكرمة على غير هذا السياق.

اليتامى يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم فى الدنيا [1] ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ وسيُصلَوْن شامى وأبو بكر ﴿سَعِيراً﴾ ناراً من النيران مبهمة الوصف.

•• ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يعهد إليكم ويأمركم ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ فى شأن ميراثهم وهذا إجمال تفصيله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أى للذكر منهم أى من أولادكم فحذف الراجح إليه، لأنه مفهوم كقولهم السمن منوان [2] بدرهم، وبدأ بحظ الذكر ولم يقل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث وهو السبب لورود الآية، فقيل: كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يتمادى فى حظهن حتى يحرمن مع إدلائهن من القرابة بمثل ما يدلون به والمراد حال الاجتماع أى إذا اجتمع الذكر والأنثيان كان له سهمان كما أن لهما سهمين، وأما فى حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله والبنتان تأخذان الثلثين والدليل عليه أنه أتبعه حكم الانفراد بقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً﴾ أى فإن كانت الأولاد نساء خلصا يعني بناتا ليس معهن ابن ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان لكان أو صفة لنساء أى نساء زائدات على اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أى الميت، لأن الآية لما كانت فى الميراث علم أن التارك هو الميت ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أى وإن كانت المولودة منفردةٌ. واحدة مدنى على كان التامة والنصب أوفق لقوله: فإن كن نساء فإن قلت قد ذكر حكم البنتين فى حال اجتماعهما مع الابن وحكم البنات والبنت فى حال الانفراد ولم يذكر حكم البنتين فى حال الانفراد فما حكمهما؟ قلت: حكمهما مختلف فيه فابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ نزلهما منزلة الواحدة لامنزلة الجماعة وغيره من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أعطوهما حكم الجماعة بمقتضى قوله للذكر مثل حظ الانثيين وذلك، لأن من مات وخلف بنتا وابنا فالثلث للبنت والثلثان للابن، فإذا كان الثلث لبنت واحدة كان الثلثان للبنتين، ولأنه قال فى آخر السورة: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ والبنتان أمس رحما بالميت من من الأختين فأوجبوا لها ما أوجب الله للأختين ولم ينقصوا حظهما عن حظ من هو أبعد منهما ولأن البنت لما وجب لها مع أخيها الثلث كان أحرى أن يجب لها الثلث إذا كانت مع أخت مثلها، ويكون لأختها معها مثل ما كان يجب لها أيضا مع أخيها لو انفردت معه فوجب لهما الثلثان، وفي الآية دلالة عى أن المال كله للذكر إذا لم يكن معه أنثى، لأنه جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد جعل للأنثى النصف إذا كانت منفردة فعلم أن للذكر فى حال الانفراد ضعف النصف وهو الكل والضمير فى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ للميت والمراد الأب والأم إلا أنه غلب الذكر ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ بدل من لأبويه بتكرير العامل وفائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس لكان ظاهرة

---

(١) رواه الطبرى من طريق السدى.

(٢) منوان: رطلان (القاموس ٤/ ٢٧٢).

اشتراكـهما فيه، ولو قـيل: ولأبوية السدسـان لأوهم قسمة السـدسين عليهمـا على التسويـة وعلى خلافها، ولو قيل: ولكل واحد من أبويه السدس لذهبـت فائدة التأكيد وهو التفصيل بعد الإجمال. والسدس مبتدأ خبره لأبوية والبدل متوسط بينهما للبيان، وقرأ الحسن السدس والربع والثمن والثلث بالتخفيف ﴿مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ هو يقع على الذكر والأنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أى مما ترك والمعنـى وورثه أبواعه فحسب، لأنه إذا ورثه أبواه مـع أحد الزوجين كان للأم ثلث ما يـبقى بعد إخراج نصيب الزوج لا ثلـث ما ترك، لأن الأب أقوى من الأم فى الإرث بدليل أن له ضعف حظها إذا خلصا فلو ضرب لها الثلث كملا لأدى إلى حظ نصيبه عن نصيبها، فإن امرأة لـو تركت زوجا وأبويـن فصار للزوج الـنصف وللأم الـثلث والباقـى للأب حازت الأم سهمين والأب سـهما واحدا فينقلـب الحكم إلى أن يكون للأنثـى مثل حظ الذكرين فلأمـه بكسر الهمزة حمزة وعـلى لمجاورة كسر اللام ﴿فَإِن كَانَ لَهُ﴾ أى للميت ﴿إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ إذا كان للميت اثنان من الإخوة والأخوات فصاعدا فـلأمه السدس والأخ الواحد لايحجب والأعيان والعلات والأضياف [1] فى حجب الأم سواء ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها لابما يليه وحده، كأنه قى قسمة هذه الأنصباء من بعد وصية ﴿يُوصِي بِهَا﴾ هو وما بعده بفتح الصاد مكى وشامى وحماد ويـحيى وافق الأعشى فى الأولى، وحـفص فى الثانية لمجاورة يـورث وكسر الأولى لمجاورة يوصيكم الله. الباقون بكسـر الصادين أى يوصى بها الميت ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ والإشكال أن الدَّين مقدم علـى الوصية فى الشـرع وقدمت الوصية علـى الدين فى التلاوة، والجـواب إن أو لاتدل على الترتيب ألا ترى أنك إذا قلت جاءنى زيد أو عمرو كان المـعنى جاءنى أحد الرجلين، فكان التقدير فى قوله: من بعد وصية يوصى بها أو دين من بعـد أحد هذين الشيئين الوصية، أو الدين ولو قيل بهذا اللفظ لم يدر فيه الترتيب بل يجوز تقديم المؤخر وتأخير المقدم كذا هنا، وإنما قدمنا الدين على الوصية بقوله ـ عليه الـسلام ـ : «ألا إن الدَّين قبل الوصية» [2] ولأنها تشبه الميـراث من حيث إنها صلة بلاعوض فكان إخراجها مما يشق على الورثة وكـان أداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فقدمت على الدين ليسارعوا إلـى إخراجها مع الدين ﴿آبَاؤُكُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ عطف عليه والخبر ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ وقوله ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿أَقْرَبُ لَكُمْ﴾ والجملة فى موضـع نصب بتدرون ﴿نَفْعًا﴾ تميز والمعنى فرض الله الفرائض على ما هو عنده حكمة، ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فوضعتم أنتـم الأموال على غير حكمة والتفاوت فـى السهام بتفاوت المنافع وأنتـم لاتدرون تفاوتها فتولى الله ذلك فـضلا منه، ولم يكلهـا إلى اجتهادكم لعجـزكم عن معرفة المقاديـر، وهذه الجملة اعتراضية مؤكدة لامـوضع لها من الإعراب ﴿فَرِيضَةً﴾ نصبت نصب المـصدر المؤكد أى فرض ذلك

---

(١) الأعيان: الإخوة مـن أب وأم، العلات: أبناء الرجـل من نساء عدة، الأضيـاف: أبناء الأم من رجال شتى.

(٢) رواه البيهقى، باب تبدية الدَّين.

فرضاً ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيماً﴾ فى كل مافرض وقسم من المواريث وغيرها.

●● ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ أى زوجاتكم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أى ابن أو بنت ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ والواحد والجماعة سواء فى الربع والثمن جعل ميراث الزوج ضعف ميراث الزوجة لدلالة قوله: للذكر مثل حظ الأنثيين ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ يعنى للميت وهو اسم كان ﴿يُورَثُ﴾ من ورث أى يورث منه وهو صفة الرجل ﴿كَلَالَةً﴾ خبر كان أى وإن كان رجل موروث منه كلالة، أو يورث خبر كان وكلالة حال من الضمير فى يورث والكلالة تطلق على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين وهو فى الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء ﴿أَوِ امْرَأَةٌ﴾ عطف على رجل ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أى لأم فإن قلت قد تقدم ذكر الرجل والمرأة فلم أفرد الضمير وذكره قلت: أما إفراده فلأن، أو لأحد الشيئين وأما تذكيره فلأنه يرجع إلى رجل لأنه مذكر مبدوء به أو يرجع إلى أحدهما وهو مذكر ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون بقرابة الأم وهى لاترث أكثر من الثلث ولهذا لا يفضل الذكر منهم على الأنثى ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ إنما كررت الوصية لاختلاف الموصين فالأول الوالدان والأولاد، والثانى الزوجة والثالث الزوج، والرابع الكلالة ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ حال أى يوصى بها وهو غير مضار لورثته وذلك بأن يوصى بزيادة على الثلث، أو لوارث ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أى يوصيكم بذلك وصية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن جار أو عدل فى وصيته ﴿حَلِيمٌ﴾ على الجائر لايعاجله بالعقوبة وهذا وعيد فإن قلت: فأين ذو الحال فيمن قرأ يوصى بها، قلت: يضمر يوصى فينتصب عن فاعله، لأنه لما قيل يوصى بها علم أن ثم موصيا كما كان رجال فاعل ما يدل عليه يسبح لأنه لما قيل: يسبح له علم أن ثم مسبحا فأضمر يسبح. وأعلم أن الورثة أصناف أصحاب الفرائض وهم الذين لهم سهام مقدرة كالبنت ولها النصف وللأكثر الثلثان وبنت الابن وإن سفلت، وهى عند عدم الولد كالبنت ولها مع البنت الصلبية السدس وتسقط بالابن وبنتى الصلب إلا أن يكون معها أو أسفل منها غلام فيعصبها والأخوات لأب وأم وهن عند عدم الولد وولد الابن كالبنات والأخوات لأب وهن كالأخوات لأب وأم عند عدمهن، ويصير الفريقان عصبة مع البنت أو بنت الابن ويسقطن بالابن وابنه وإن سفل، والأب وبالجد عند أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ وولد الأم فللواحد السدس وللأكثر الثلث وذكرهم كأنثاهم ويسقطون بالولد وولد الابن ـ وإن سفل ـ والأب والجد. والأب وله السدس مع الابن أو

ابن الابن ـ وإن سفل ـ ومع البنت أو بنت الابن ـ وإن سفلت ـ السدس والباقى، والجد وهو أبو الأب ـ وهو كالأب عند عدمه إلا فى رد الأم إلى ثلث ما يبقى والأم ولها السدس مع الولد أو ولد الابن وإن سفل أو الاثنين من الإخوة والأخوات فصاعدا من أى جهة كانا وثلث الكل عند عدمهم وثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزوجين فى زوج وأبوين أو زوجة وأبوين والجدة ولها السدس وإن كثرت لأم كانت أولأب والبعدى تحجب بالقربى والكل بالأم والأبويات بالأب، والزوج وله الربع مع الولد أو ولد الا بن وإن سفل وعند عدمه النصف، والزوجة ولها الثمن مع الولد أو ولد الابن وإن سفل وعند عدمه الربع* والعصبات وهم الذين يرثون مابقى من الفرض، وأولاهم الابن ثم ابنه وإن سفل، ثم الأب ثم أبوه وإن علا، ثم الأخ لأب وأم ثم الأخ لأب،ثم ابن الأخ لأب وأم ثم ابن الأخ لأب ثم الأعمام ثم أعمام الأب ثم أعمام الجد ثم المعتق ثم عصبته على الترتيب. واللاتى فرضهن النصف والثلثان يصرن عصبة بأخواتهن لاغيرهن * وذوو الأرحام وهم الأقارب الذين ليسوا من العصبات ولا من أصحاب الفرائض وترتيبهم كترتيب العصبات.

●● ﴿**تِلْكَ**﴾ إشارة إلى الأحكام التى ذكرت فى باب اليتامى والوصايا والمواريث ﴿**حُدُودُ اللَّهِ**﴾ سماها حدوداً لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين لايجوز لهم أن يتجاوزها ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

●● ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا**﴾ انتصب خالدين وخالداً على الحال، وجمع مرة وأفرد أخرى نظرا إلى معنى من ولفظها. ندخله فيهما مدنى وشامى ﴿**وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ لهوانه عند الله ولاتعلق للمعتزلة بالآية فإنها فى حق الكفار إذ الكافر هو الذى تعدى الحدود كلها، وأما المؤمن العاصى فهو مطيع بالإيمان غير متعد حد التوحيد؛ ولهذا فسر الضحاك المعصية هنا بالشرك، وقال الكلبى: ومن يعص الله ورسوله بكفره بقسمة المواريث ويتعد حدود استحلالا، ثم خاطب الحكام فقال.

●● ﴿ **وَاللاَّتِي**﴾ هى جمع التى وموضعها رفع بالابتداء ﴿**يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ**﴾ أى الزنا لزيادتها فى القبح على كثير من القبائح، يقال أتى الفاحشة وجاءها ورهقها وغشيها بمعنى ﴿**مِن نِّسَائِكُمْ**﴾ من للتبعيض والخبر ﴿**فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ**﴾ فاطلبوا الشهادة ﴿**أَرْبَعَةً مِّنكُمْ**﴾ من المؤمنين ﴿**فَإِن شَهِدُوا**﴾ بالزنا ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ**﴾ فاحبسوهن ﴿**حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ**﴾ أى ملائكة الموت كقوله ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ**﴾(١) أو حتى يأخذهن الموت ويستوفى أرواحهن ﴿**أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ**﴾ قيل: أو بمعنى إلا أن ﴿**سَبِيلاً**﴾ غير هذه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ السبيل للبكر جلد مائة وتغريب

(١) سورة «النحل»، الآية (٢٨)، والآية (٣٢).

عام وللثيب الرجم لقوله ـ عليه السلام ـ : «خذوا عنى، خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائه وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة»(١).

●● ﴿وَاللَّذَانِ﴾ يريد الزانى والزانية. وبتشديد النون مكى ﴿يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ﴾ أى الفاحشة ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتعيير، وقولوا لهما أما استحييتما أما خفتما الله ﴿فَإِن تَابَا﴾ عن الفاحشة ﴿وَأَصْلَحَا﴾ وغيرا الحال ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فاقطعوا التوبيخ والمذمة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يقبل توبة التائب ويرحمه. قال الحسن أول ما نزل من حد الزنا الأذى، ثم الحبس، ثم الجلد أو الرجم فكان ترتيب النزول على خلاف ترتيب التلاوة، والحاصل أنهما إذا كانا محصنين فحدهما الرجم لاغير وإذا كانا غير محصنين فحدهما الجلد، لاغير وإن كان أحدهما محصنا والآخر غير محصن فعلى المحصن منهما الرجم وعلى الآخر الجلد، وقال ابن بحر (٢): الآية الأولى فى السحّاقات، والثانية فى اللواطين والتى فى سورة النور فى الزانى والزانية، وهو دليل ظاهر لأبى حنيفة ـ رحمه الله ـ فى أنه يعزر فى اللواطة ولايحد وقال مجاهد: آية الأذى فى اللواطة.

●● ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ هى من تاب الله عليه إذا قبل توبته أى إنما قبولها ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ وليس المراد به الوجوب إذ لايجب على الله شىء ولكنه تأكيد للوعد يعنى أنه يكون لا محالة كالواجب الذى لايترك ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الذنب لسوء عقابه ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ فى موضع الحال أى يعملون السوء جاهلين سفهاء؛ لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه، وعن مجاهد: من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته وقيل: جهالته اختياره اللذة الفانية على الباقية، وقيل: لم يجهل أنه ذنب ولكنه جهل كنه عقوبته ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب وهو ما قبل حضرة الموت ألا ترى إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لاتقبل فيه التوبة وعن الضحاك كل توبة قبل الموت فهو قريب، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قبل أن ينظر إلى ملك الموت وعنه (ﷺ) «إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر» ـ (٣) ومن للتبعيض أى : يتوبون بعض زمان قريب، كأنه سمى ما بين وجود المعصية وبين حضرة الموت زمانا قريبا ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عدة بأنه يفى بذلك وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بعزمهم على التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ حكم بكون الندم توبة.

●● ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ أى ولا توبة للذين يذنبون ويسوفون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف بحضور أسباب الموت ومعاينة ملك الموت فإن توبة هؤلاء غير مقبولة، لأنها حالة اضطرار لا حالة اختيار، وقبول التوبة ثواب ولا وعد به إلا المختار ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾ فى موضع جر بالعطف على للذين يعملون السيئات أى

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) ابن بحر: هو الجاحظ، سبق ترجمته عند تفسير سورة البقرة، الآية (٣٤).
(٣) رواه الطبرى.

ليست التوبة للذين يعملون السيئات ولا للذين يموتون﴿وَهُمْ كُفَّار﴾ قال سعيد بن جبير: الآية الأولى فى المؤمنين، والوسطى فى المنافقين، والأخرى فى الكافرين، وفى بعض المصاحف بلامين وهو مبتدأ خبره ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى هيأنا من العتيد، وهو الحاضر أو الأصل أعددنا فقلبت الدال تاء. كان الرجل يرث امرأة مورثه بأن يلقى عليها ثوبه فيتزوجها بلا مهر فنزلت.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أى أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات لذلك أو مكرهات كرها بالفتح من الكراهة، وبالضم حمزة وعلى من الإكراه مصدر فى موضع الحال من المفعول. والتقييد بالكره لا يدل على الجواز عند عدمه، لأن تخصيص الشىء بالذكر لايدل على نفى ماعداه كما فى قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاق﴾(١) وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة لتفتدى منه بمالها ـ وتختلع فقيل: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ وهو منصوب عطفاً على أن ترثوا ولا لتأكيد النفى أى لايحل لكم أن ترثوا النساء، ولا أن تعضلوهن، أو مجزوم بالنهى على الاستئناف فيجوز الوقف حينئذ على كرها. والعضل: الحبس والتضييق ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر واللام متعلقة بتعضلوا ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ﴾ هى النشوز وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء أى إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن فقد عذرتم فى طلب الخلع، وعن الحسن: الفاحشة الزنا فإن فعلت حل لزوجها أن يسألها الخلع ﴿مُّبَيِّنَة﴾ ويفتح الياء مكى وأبو بكر والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له كأنه قيل ولاتعضلوهن فى جميع الأوقات إلاوقت أن يأتين بفاحشة، أو ولاتعضلوهن لعلة من العلل إلا لأن يأتين بفاحشة وكانوا يسيئون معاشرة النساء فقيل: لهم ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو النصفة فى البيت والنفقة والإجمال فى القول ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لقبحهن أو سوء خلقهن ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ فى ذلك الشىء، أو فى الكره ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثوابا جزيلا أو ولدا صالحا والمعنى فإن كرهتموهن فلا تفارقوهن لكراهة الأنفس وحدها فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين وأدنى إلى الخير وأحبت ما هو بضد ذلك ولكن للنظر فى أسباب الصلاح، وإنما صح قوله فعسى أن تكرهوا جزاء للشرط، لأن المعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن مع الكراهة فلعل لكم فيما تكرهونه خيرا كثيرا ليس فيما تحبونه، وكان الرجل إذا رأى امرأة فأعجبته بهت التى تحته ورماها بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها فقيل.

•• ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أى تطليق امرأة وتزوج أخرى ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ وأعطيتم إحدى الزوجات، فالمراد بالزوج الجمع، لأن الخطاب لجماعة الرجال ﴿قِنطَارًا﴾ مالا عظيما كما مر فى آل عمران وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ على المنبر لاتغالوا بصدقات النساء، فقالت امرأة:

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٣١).

أنتبع قولك أم قول الله: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارًا﴾؟! فقال عمر: كل أحد أعلم من عمر تزوجوا على ماشئتم ﴿فلا تأخذوا منه﴾ من القنطار ﴿شيئًا أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا﴾أى بينا، والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو بريء منه؛ لأنه يبهت عند ذلك أى يتحير وانتصب بهتانا على الحال أى باهتين وآثمين، ثم أنكر أخذ المهر بعد الإفضاء فقال.

●● ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أى خلا بلاحائل ومنه الفضاء، والآية حجة لنا فى الخلوة الصحيحة أنها توكد المهر حيث أنكر الأخذ وعلل بذلك ﴿وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا﴾ عهدا وثيقا وهو قوله الله تعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ (١). والله تعالى أخذ هذا الميثاق على عباده لأجلهن فهو كأخذهن، أو قول النبى ـ عليه السلام ـ: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان فى أيديكم أخذ تموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» (٢). ولما نزل لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها، قالوا: تركنا هذا لا نرتهن كرها ولكن نخطبهن فننكحهن برضاهن فقيل لهم.

●● ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ وقيل: المراد بالنكاح الوطء أى لا تطئوا ما وطىء آباوكم وفيه تحريم وطء موطوءة الأب بنكاح أو بملك يمين أو بزنا كما هو مذهبنا وعليه كثير من المفسرين، ولما قالوا: كنا نفعل ذلك فكيف حال ما كان منا قال﴿إلا ما قد سلف﴾ أى لكن ما قد سلف فإنكم لا تؤاخذون به والاستثناء منقطع عن سيبويه، ثم بين صفة هذا العقد فى الحال فقال ﴿إنه كان فاحشة﴾ بالغة فى القبح ﴿ومقتا﴾وبغضا عندالله وعند المؤمنين وناس منهم يمقتونه من ذوى مروآتهم ويسمونه نكاح المقت وكان المولود عليه يقال له: المقتى ﴿وساء سبيلا﴾ وبئس الطريق طريقا ذلك، ولما ذكر فى أول السورة نكاح ماطاب أى حل من النساء وذكر بعض ما حرم قبل هذا وهو نساء الآباء ذكر المحرمات الباقيات وهن سبع من النسب وسبع من السبب وبدأ بالنسب فقال:

●● ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ والمراد تحريم نكاحهن عند البعض وقد ذكرناالمختار فى شرح المنار. والجدة من قبل الأم أو الأب ملحقة بهن ﴿وبناتكم﴾ وبنات الابن وبنات البنت ملحقات بهن، والأصل أن الجمع إذا قوبل بالجمع ينقسم الآحاد على الآحاد فتحرم على كل واحد أمه وبنته ﴿وأخواتكم﴾ لأب وأم أو لأب أولأم ﴿وعماتكم﴾ من الأوجه الثلاثة ﴿وخالاتكم﴾ كذلك ﴿وبنات الأخ﴾ كذلك ﴿وبنات الأخت﴾ كذلك ثم شرع فى السبب فقال: ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ الله تعالى نزل الرضاعة منزلة النسب، فسمى المرضعة أما للرضيع والمراضعة أختا، وكذلك زوج المرضعة أبوه وأبواه جداه وأخته عمته، وكل ولد ولد له من غير

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٢٩).

(٢) هذا حديث مركب من حديثين، الأول أخرجه الترمذى، والنسائى، وابن ماجة فى حديث عمرو ابن الأحوص، والثانى أخرجه مسلم فى حديث جابر الطويل فى صفة الحج.

الرضعة قبل الرضاع وبعده فهم أخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدته وأختها خالته وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم أخوته وأخواته لأم، وأصله قوله ـ عليه السلام ـ : «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» (١): ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وهن محرمات بمجرد العقد ﴿وَرَبَائِبُكُم﴾ سمى ولد المرأة من غير زوجها ربيبا وربيبة؛ لأنه يَرُبُّهما كما يَرُب ولده فى غالب الأمر، ثم اتسع فيه فسميا بذلك وإن لم ير بهما ﴿اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ قال داود: (٢) إذا لم تكن فى حجره لا تحرم قلنا: ذكر الحجر عى غلبة الحال دون الشرط وفائدته التعليل للتحريم وأنهن لاحتضانكم لهن أو لكونهن بصدد احتضانكم كأنكم فى العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ متعلق بربائبكم أى الربيبة من المرأة المدخول بها حرام على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها، والدخول بهن كناية عن الجماع كقولهم: بنى عليها وضرب عليها الحجاب أى أدخلتموهن الستر والباء للتعدية. واللمس ونحوه يقوم مقام الدخول، وقد جعل بعض العلماء اللاتى دخلتم بهن وصفا للنساء المتقدمة والمتأخرة وليس كذلك؛ لأن الوصف الواحد لا يقع على موصوفين مختلفى العامل وهذا، لأن النساء الأولى مجرورة بالإضافة والثانية بمن ولايجوز أن تقول مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظريفات على أن تكون الظريفات نعتا لهؤلاء النساء وهؤلاء النساء، كذا قال الزجاج وغيره، وهذا أولى مما قاله صاحب الكشاف فيه ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فلا حرج عليكم فى أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن أو متن ﴿وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ جمع حليلة وهى الزوجة، لأن كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش الآخر من الحل أومن الحلول ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ﴾ دون من تبنيتم فقد تزوج رسول الله (ﷺ) زينب حين فارقها زيد وقال الله تعالى: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ (٣). وليس هذا لنفى الحرمة عن حليلة الابن من الرضاع ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ أى فى النكاح وهو فى موضع الرفع عطف على المحرمات أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ولكن ما مضى مغفور بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾ وعن محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ أن أهل الجاهلية كانوا يعرفون هذه المحرمات إلا نكاح امرأة الأب ونكاح الأختين فلذا قال فيهما: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة وابن عباس، رضى الله عنهما.

(٢) داود: هو داود بن على بن خلف الأصبهانى، أبو سليمان، المشهور بـ «داود الظاهرى»، وذلك لأنه رأس المذهب الظاهرى؛ أي: الأخذ بظاهر الكتاب والسنة، دون الغوص فى التأويل والرأى والقياس، وهو من أعلام الإسلام، كان فقيهاً قوى الحجة، حاد الذهن ، ولد عام ٢٠١هـ، وتوفى عام ٢٧٠هـ الأعلام (٢/ ٣٣٣).

(٣) سورة «الأحزاب» الآية (٣٧).

●● ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أى ذوات الأزواج لأنهن أحصنّ فروجهن بالتزوج قرأ الكسائى بفتح الصاد هنا وفى سائر القرآن بكسرها، وغيره بفتحها فى جميع القرآن ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالسبى وزوجها فى دار الحرب والمعنى وحرم عليكم نكاح المنكوحات أى اللاتى لهن أزواج إلاما ملكتموهن بسبيهن وإخراجهن بدون أزواجهن لوقوع الفرقة بتباين الدارين لا بالسبى، فتحل الغنائم بملك اليمين بعد الاستبراء ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ مصدر مؤكد أى كتب الله ذلك عليكم كتابا وفرضه فريضة، وهو تحريم ماحرم وعطف ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ على الفعل المضمر الذى نصب كتاب الله أى كتب الله عليكم تحريم، ذلك وأحل لكم ﴿مَّا وَرَاءَ ذَلِكُم﴾ ما سوى المحرمات المذكورة، وأحل كوفى غير أبى بكر عطف على حرمت ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ مفعول له أى بين لكم ما يحل مما يحرم لأن تبتغوا أو بدل مما وراء ذلكم، ومفعول تبتغوا مقدر وهو النساء والأجود أن لا يقدر ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ يعنى المهور، وفيه دليل على أن النكاح لايكون إلا بمهر وأنه يجب وإن لم يسم وأن غير المال لايصلح مهرا وأن القليل لايصلح مهرا إذ الحبة لاتعد مالا عادة ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ فى حال كونكم محصنين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لئلا تضيعوا أموالكم وتفقروا أنفسكم فيما لا يحل لكم فتخسروا دينكم ودنياكم ولافساد أعظم من الجمع بين الخسرانين. والإحصان العفة وتحصين النفس من الوقوع فى الحرام والمسافح الزانى من السفح وهو صب المنى ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموه منهن ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، لأن المهر ثواب على البضع فما فى معنى النساء، ومن للتبعيض، أو للبيان ويرجع الضمير إليه على اللفظ فى به وعلى المعنى فى فآتوهن ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور أى مفروضة، أو وضعت موضع إيتاء، لأن الإيتاء مفروض أو مصدر موكد أى فرض ذلك فريضة ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فيما تحط عنه من المهر أو تهب له من كله أو يزيد لها على مقداره أو فيما تراضيا به من مقام أو فراق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بالأشياء قبل خلقها ﴿حَكِيماً﴾ فيما فرض لهم من عقد النكاح الذى به حفظت الأنساب، وقيل: إن قوله فما استمتعتم نزلت فى المتعة التى كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسوله ثم نسخت.

●● ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً﴾ فضلا يقال لفلان علىّ طول أى فضل وزيادة، وهو مفعول يستطع ﴿أَن يَنكِحَ﴾ مفعول الطول فإن مصدر فيعمل عمل فعله، أو بدل من طولا ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الحرائر المسلمات ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى فلينكحن مملوكة من الإماء المسلمات وقوله: من فتياتكم. أى من فتيات المسلمين والمعنى ومن لم يستطع زيادة فى المال وسعة يبلغ بها نكاح الحرة فلينكح أمه، ونكاح الأمة الكتابية يجوز عندنا والتقييد فى النص للاستحباب بدليل أن الإيمان ليس بشرط فى الحرائر اتفاقا مع التقييد به، وقال ابن عباس: ومما وسّع الله على هذه الأمة نكاح الأمة واليهودية والنصرانية وإن كان موسرا، وفيه دليل لنا فى مسألة

الطول ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فيه تنبيه على قبول ظاهر إيمانهن، ودليل على أن الإيمان هو التصديق دون عمل اللسان، لأن العلم بالإيمان المسموع لايختلف ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أى لاتستنكفوا من نكاح الإماء فكلكم بنو آدم، وهو تحذير عن التعيير بالأنساب والتفاخر بالأحساب ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ سادتهن، وهو حجة لنا فى أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهن، لأنه اعتبر إذن الموالى لاعقدهم، وأنه ليس للعبد أو للأمة أن يتزوج إلا بإذن المولى ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وأدوا إليهن مهورهن بغير مطل وإضرار وملاك مهورهن مواليهن فكان أداؤها إليهن أداء إلى الموالى، لأنهن وما فى أيديهن مال الموالى، أو التقدير وآتوا مواليهن فحذف المضاف ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف حال من المفعول فى وآتوهن ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ زوان علانية ﴿وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ زوان سرا والأخدان: الأخلاء فى السر ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ بالتزويج أحصَن كوفى غير حفص ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ زنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى: الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ من الحد يعنى خمسين جلدة، وقوله: نصف ما على المحصنات. يدل على أنه الجلد لا الرجم، لأن الرجم لايتنصف وأن المحصنات هنا الحرائر اللاتى لم يزوجن ﴿ذَلِكَ﴾ أى نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ لمن خاف الإثم الذى تؤدى إليه غلبة الشهوة وأصل العنت انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل مشقة وضرر ولاضرر أعظم من مواقعة المآثم وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو الزنا، لأنه سبب الهلاك ﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ فى محل الرفع على الابتداء أى وصبركم عن نكاح الإماء متعففين ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأن فيه إرقاق الولد ولأنها خراجة ولاجة ممتهنة مبتذلة وذلك كله نقصان يرجع إلى الناكح ومهانة والعزة من صفات المؤمنين وفى الحديث: «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاك البيت» (١) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر المحظور ﴿رَّحِيمٌ﴾ يكشف المحظور.

•• ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أصله يريد الله أن يبين لكم فزيدت اللام مؤكدة لإرادة التبيين كما زيدت فى لا أبالك لتأكيد إضافة الأب. والمعنى يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عليكم من مصالحكم وأفاضل أعمالكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وأن يهديكم مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين والطرق التى سلكوها فى دينهم لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لهم.

•• ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ التكرير للتأكيد والتقرير والتقابل ﴿وَيُرِيدُ﴾ الفجرة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ وهو الميل عن القصد والحق ولاميل أعظم منه بمساعدتهم وموافقتهم على اتباع الشهوات، وقيل: هم اليهود لاستحلالهم الأخوات لأب وبنات الأخ وبنات

---

(١) رواه الثعلبى، وفى سنده كلام.

الأخت فلما حرمهن الله قالـوا فإنكم تحلون بنت الخالة والعمة والخالة والعمة عـليكم حرام فانكحوا بنات الأُخت والأَخ فنزلت، يقول: يريدون أن تكونوا زناة مثلهم.

●● ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بإحلال نـكاح الأمة وغيره مـن الرخص ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم تبـحه الشريعة من نحـو السرقة والخيانة والغصب والقمار وعقود الربا ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ إلا أن تقع تجارة. تجـارة كوفى أى إلا أن تكون التـجارة تجارة ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ صفة لـتجارة أى تجارة صـادرة عن تراض بالـعقد، أو بالتعاطـى والاستثناء منقطع، معـناه ولكن اقصدوا كون تجارة عن تراض، أو ولـكن كون تجارة عن تراض غير منـهى عنه، وخص التجارة بالذكـر، لأن أسباب الرزق أكثرها متعلـق بها، والآية تدل على جواز البـيع بالتعاطي وعلى جواز الـبيع الموقوف إذا وجدت الإجازة لوجود الرضـا وعلى نفى خيار المجلس، لأن فـيها إباحة الأكل بالتـجارة عن تراض من غير تقـييد بالتفرق عن مـكان العقد والتقييد به زيادة على النص ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ من كان من جنسكم مـن المؤمنين؛ لأن المومنين كنفس واحدة أو ولايقتل الرجل نفسه كما يفعله بعض الجهلة، أو معنى القتل أكل الأموال بالباطل فظالم غيره كمهلك نفسه أو لاتتبعوا أهواءها فتقتلوها، أو تركبوا ما يوجب القتل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ولرحمته بكـم نبهكم على ما فيه صيانـة أموالكم وبقاء أبدانكم وقيل معـناه أنه أمر بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم ليكون توبة لهم وتمحـيصاً لخطاياهم، وكان بكم يا أمة محمد رحيماً حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الصعبة.

●● ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أى القتل أى ومـن يقدم على القـتل الأنفس ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ لاخطأ ولاقصاصـاً وهما مصـدران فى موضع الحـال أو مفعول لـهما ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخلـه نارا مخصوصة شديدة العذاب ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أى إصلاؤه النار ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ سهلا وهذا الوعيد فى حق المستحل للتخليد وفى حق غيره لبيان استحقاقه دخول النار مع وعد الله بمغفرته.

●● ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ عن ابن مسعود ـ رضـى الله عنهما ـ الكبائر كل ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. وعنه أيضا الكـبائر ثلاث، الإشراك بالله واليـأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وقيـل: المراد بها أنواع الكفـر بدليل قراءة عبدالله كبـير ماتنهون عنه وهـو الكفر ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً﴾ مدخلا مدنى وكلاهما بمعنى المكان والمصدر ﴿كَرِيمًا﴾ حسنا، وعن ابن عباس ـ رضى الله عـنهما ـ ثمان آيات فى سورة الـنساء هى خـير لهذه الأمـة مما طلـعت عليـه الشمس وغـربت: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾(١) وتشبث المعتزلة بالآية على أن الصغائر واجبة المغفرة باجتناب الكبائر وعلى أن الكبائـر غير مغفورة باطل؛ لأن الكبائر والصغائر فى مشـيئته تعالى سواء إن شاء عذب عليهما وإن شاء عفا عنهما لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (٢) فقد وعـد المغفرة لما دون الشـرك وقرنها بمشـيئته تعالـى وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(٣) فهذه الآية تدل على أن الصغائر والكبائر يجوز أن يذهبا بالحسنات؛ لأن لفظ السيئات ينطلق عـليهما، ولما كان أخذ مال الغـير بالباطل وقتل النفـس بغير حق بتمنى مال الـغير وجاهه نهاهم عن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال بقوله.

●● ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد، وبما ينبغى لكل من بسط فى الرزق أو قبض فعلى كل واحد أن يرضى بما قسم له ولا يحسد أخاه على حظه، فالحسد أن يتمنى أن يكون ذلك الشىء له ويزول عن صاحبه، والـغبطة أن يتمنى مـثل ما لغيره وهو مرخـص فيه، والأول منهى عنه ولمـا قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كالميراث وقالت النساء: يكون وزرنا على نصف وزر الرجال كالميراث نزل ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أى ليس ذلك على حسب الميراث ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ فإن خزائنه لاتنفد ولاتتمـنوا ما للناس من الفضل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فالتفضيل منه عن علم بمـواضع الاستحقاق. قال ابن عيينة (٤) لم يأمر بالمسئلـة إلا ليعطى، وفى الحديث: «مـن لم يسأل الله من فضله غـضب عليه» (٥). وفيه: «أن الله تعـالى لـيمسك الخير الكثـير عـن عبده ويقول لا أعـطى عبـدى حتـى يـسألنى» (٦) وسلوا مكى وعلى.

●● ﴿وَلِكُلٍّ﴾ المضاف إليه محذوف تقديره ولكل أحد أو ولكل مال ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ ورّاثا يلونه

---

(١) سورة «النساء»، الآية (١٤٧).

(٢) سورة «النساء»، الآية (٤٨)، والآية (١١٦).

(٣) سورة «هود»، الآية (١١٤).

(٤) ابن عيينة: سبق ترجمته عن تفسير سورة «آل عمران»، الآية (١٣٤).

(٥) البخارى فى الأدب المفرد عن أبى صالح، عن أبى هريرة.

(٦) رواه ابن أبى حاتم، والطـبرانى، وأبو القاسم بن بشران فـى أماليه بسند ضعيـف عن أبى هريرة (الدر المنثور).

ويحرزونه ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ هو صفة مال محذوف أى لكل مال مما تركه الوالدان، أو هو متعلق بفعل محذوف دل عليه الموالى تقديره يرثون مما ترك ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عاقدتهم أيديكم، وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط فوقع خبره وهو ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ مع الفاء. عقدت كوفى أى عقدت عهودهم أيمانكم والمراد به عقد الموالاة، وهى مشروعة والوراثة بها ثابتة عند عامة الصحابة - رضى الله عنهم - وهو قولنا وتفسيره إذا أسلم رجل أو امرأة لا وارث له وليس بعربى ولا معتق فيقول لآخر: واليتك على أن تعقلنى إذا جنيت وترث منى إذامت، ويقول الآخر: قبلت انعقد ذلك ويرث الأعلى من الأسفل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أى هو عالم الغيب والشهادة وهو أبلغ وعد ووعيد.

●● ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن آمرين ناهين كما يقوم الولاة على الرعايا وسموا قواما لذلك ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الضمير فى بعضهم للرجال والنساء يعنى إنما كانوا مسيطرين عليهن لسبب تفضيل الله بعضهم، وهم الرجال على بعض، وهم النساء بالعقل والعزم والحزم والرأى والقوة والغزو وكمال الصوم والصلاة والنبوة والخلافة والإمامة والآذان والخطبة والجماعة والجمعة وتكبير التشريق عند أبى حنيفة - رحمه الله - والشهادة فى الحدود والقصاص وتضعيف الميراث والتعصيب فيه وملك النكاح والطلاق وإليهم الانتساب وهم أصحاب اللحى والعمائم ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ وبأن نفقتهن عليهم، وفيه دليل وجوب نفقتهن عليهم. ثم قسمهن على نوعين؛ النوع الأول ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات قائمات بما عليهن للأزواج ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب وهو خلاف الشهادة أى إذ كان الأواج غير شاهدين لهن حفظن مايجب عليهن حفظه فى حال الغيبة من الفروج والبيوت والأموال، وقيل: للغيب لأسرارهم ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج بقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (١). أو بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب أو بحفظ الله إياهن حيث صيرهن كذلك. والثانى ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن عن طاعة الأزواج. والنشر: المكان المرتفع والنبوة. عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو أن تستخف بحقوق زوجها ولا تطيع أمره ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ خوفوهن عقوبة الله تعالى والضرب والعظة كلام يلين القلوب القاسية ويرغب الطبائع النافرة ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ فى المراقد أى لاتداخلوهن تحت اللحف وهو كناية عن الجماع، أو وهو أن يوليها ظهره فى المضجع؛ لأنه لم يقل عن المضاجع ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربا غير مبرح. أمر بوعظهن أولا ثم بهجرانهن فى المضاجع ثم بالضرب إن لم ينجع فيهن الوعظ والهجران ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بترك النشوز ﴿فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ فأزيلوا عنهن التعرض بالأذى وسبيلا مفعول تبغوا

(١) سورة «النساء»، الآية (١٩).

وهو من بغيت الأمر أى طلبته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ أى إن علت أيديكم عليهن فاعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم عليهن فاجتنبوا ظلمهن، أو إن الله كان عليا كبيرا وإنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ثم تتوبون فيتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عمن يجنى عليكم إذا رجع ثم خاطب الولاة بقوله:

●● ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أصله شقاقا بينهما فأضيف الشقاق إلى الظرف على سبيل الاتساع كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ (١) وأصله بل مكر فى الليل والنهار. والشقاق: العداوة والخلاف، لأن كلا منهما يفعل ما يشق على صاحبه أو يميل إلى شق أى ناحية غير شق صاحبه، والضمير للزوجين ولم يجر ذكر هما لجرى ذكر ما يدل عليهما وهو الرجال والنساء ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ رجلا يصلح للحكومة والإصلاح بينها ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما، لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح ونفوس الزوجين أسكن إليهم فيبرزان ما فى ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصحبة والفرقة. والضمير فى ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾ للحكمين وفى ﴿يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ للزوجين أى إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة بورك فى وساطتهما وأوقع الله بحسن سعيهما بين الزوجين الألفة والوفاق وألقى فى نفوسهما المودة والاتفاق، أو الضميران للحكمين أى إن قصدا إصلاح ذات البين والنصيحة للزوجين يوفق الله بينها فيتفقان على الكلمة الواحدة ويتساندان فى طلب الوفاق حتى يتم المراد، أو الضميران للزوجين أى إن يريدا إصلاح ما بينهما وطلب الخير وأن يزول عنهما الشقاق يلق الله بينهما الألفة وأبدلها بالشقاق الوفاق وبالبغضاء المودة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بإرادة الحكمين ﴿خَبِيرًا﴾ بالظالم من الزوجين وليس لهما ولاية التفريق عندنا خلافا لك رحمة الله.

●● ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ قيل العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ صنماً وغيره ويحتمل المصدر أى إشراكا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بهما إحسانا بالقول والفعل والإنفاق عليهما الاحتياج ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وبكل من بينكم وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الذى قرب جواره ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أى الذى جواره بعيد أو الجار القريب النسيب، والجار الجنب الأجنبى ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ أى الزوجة عن على ـ رضى الله عنه ـ أو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر أو شريكا فى تعلم علم، أو غيره أو قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الغريب، أو الضيف ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد والإماء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبرا يأنف عن قرابته وجيرانه فلا يلتفت إليهم ﴿فَخُورًا﴾ يعدد مناقبه كبرا فإن عدها اعترافا كان شكورا.

---

(١) سورة «سبأ»، الآية (٣٣).

•• ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ نصب على البدل من من كان مختالا فخورا، وجمع على معنى من، أو على الذم أو رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هم الذين يبخلون ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بالبَخَل حمزة وعلى، وهما لغتان كالرشد والرشد أى يبخلون بذات أيديهم وبما فى أيدى غيرهم فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتا للسخاء. قيل: البخل أن يأكل بنفسه ولا يؤكل غيره، والشح أن لا يأكل ولا يؤكل والسخاء أن يأكل ويؤكل والجود أن يؤكل ولا يأكل ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ ويخفون ما أنعم الله عليهم به من المال وسعة الحال، وفى الحديث: «إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن يرى نعمته على عبده»(1) وبنى عامل للرشيد قصرا حذاء قصره فنم به فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن الكريم يسره أن يرى أثر نعمته فأحببت أن أسرك بالنظر إلى آثار نعمتك فأعجبه كلامه، وقيل: نزلت فى شأن اليهود الذين كتموا صفة محمد ـ عليه السلام ـ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أى: يهانون به فى الآخرة.

•• ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ معطوف على الذين يبخلون أو على الكافرين ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ مفعول له أى للفخار وليقال ما أجودهم لا لابتغاء وجه الله وهم المنافقون أو مشركو مكة ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ حيث حملهم على البخل والرياء وكل شر، ويجوز أن يكون وعيدا لهم بأن الشيطان يقرن بهم فى النار.

•• ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ وأى تبعة ووبال عليهم فى الإيمان والإنفاق فى سبيلى والمراد الذم والتوبيخ وإلا فكل منفعة ومصلحة فى ذلك، وهذا كما يقال للعاق ماضرك لو كنت بارا وقد علم أنه لامضرة فى البر ولكنه ذو وتوبيخ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد.

•• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ هى النملة الصغيرة. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه أدخل يده فى التراب فرفعه ثم نفخ فيه، فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة، وقيل: كل جزء من أجزاء الهباء فى الكوة ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يك مثقال الذرة حسنة وإنما أنث ضمير المثقال لكونه مضافا إلى مؤنث. حسنة حجازى على كان التامة، وحذفت النون من تكن تخفيفا لكثرة الاستعمال ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ يضاعف ثوابها. يضعفها مكى وشامى ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويعط صاحبها من عنده ثوابا عظيما وما وصفه الله بالعظم فمن يعرف مقداره مع أنه سمى متاع الدنيا قليلا. وفيه إبطال قول المعتزلة فى تخليد مرتكب الكبيرة مع أن له حسنات كثيرة.

﴿فَكَيْفَ﴾ يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بما فعلوا وهو نبيهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يامحمد ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى أمتك ﴿شَهِيدًا﴾ حال أى شاهد على من

---

(1) أخرجه ابن حبان، والحاكم.

آمن بالإيمان وعلى من كفر بالكفر وعلى من نافق بالنفاق وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قرأ سورة النساء على رسول الله (ﷺ) حتى بلغ قوله: وجئنا بك على هؤلاء شهيدا. فبكى رسول الله (ﷺ) وقال: حسبنا (١).

●● ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لقوله: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ لو يدفنون فتسوى بهم الأرض كما تسوى بالموتى، أو يودون أنهم لم يبعثوا وأنهم كانوا والأرض سواء، أو تصير البهائم ترابا فيودون حالها. تسوى بفتح التاء وتخفيف السين والإمالة وحذف إحدى التاءين من تتسوى حمزة وعلى. تسوى بإدغام التاء فى السين مدنى وشامى ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ مستأنف أى ولا يقدرون على كتمانه؛ لأن جوارحهم تشهد عليهم ولما صنع عبدالرحمن بن عوف طعاما وشرابا ودعانفرا من الصحابة - رضى الله عنهم - حين كانت الخمر مباحة فأكلوا وشربوا فقدموا أحدهم ليصلى بهم المغرب فقرأ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد، نزل(٢).

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ أى لا تقربوها فى هذه الحالة ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أى تقرءون وفيه دليل على أن ردة السكران ليست بردة؛ لأن قراءة سورة الكافرين بطرح اللامات كفر ولم يحكم بكفره خاطبهم باسم الإيمان وما أمر النبى - عليه السلام - بالتفريق بينه وبين امرأته ولا بتجديد الإيمان، ولأن الأمة اجتمعت على أن من أجرى كلمة الكفر على لسانه مخطئا لا يحكم بكفره ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على وأنتم سكارى؛ لأن محل الجملة مع الواو النصب على الحال، كأنه قيل: لاتقربوا الصلاة سكارى ولاجنبا أى ولا تصلوا جنبا، والجنب يستوى فيه الواحد والجمع والذكر والمؤنث؛ لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذى هو الإجناب ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ صفة لقوله: جنبا أى لا تقربوا الصلاة جنبا غير عابرى سبيل أى جنبا مقيمين غير مسافرين، والمراد بالجنب الذين لم يغتسلوا، كأنه قيل: لاتقربوا الصلاة غير مغتسلين ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ إلا أن تكونوا مسافرين عادمين الماء متيممين عبر عن المتيمم بالمسافر؛ لأن غالب حاله عدم الماء وهذا مذهب أبى حنيفة - رحمه الله - وهو مروى عن على - رضى الله عنه - وقال الشافعى - رحمه الله -: لاتقربوا الصلاة أى مواضع الصلاة وهى المساجد ولا جنبا أى: ولاتقربوا المسجد جنبا إلا عابرى سبيل إلا مجتازين فيه فيجوز للجنب العبور فى المسجد عند الحاجة ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أى المطمئن من الأرض وكانوا يأتونه لقضاء الحاجة فكنى به عن الحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتموهن كذا عن على - رضى الله عنه - وابن عباس ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تقدروا على استعماله لعدمه أو بعده، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لمانع من حية أو

---

(١) متفق عليه من رواية عبيرة السلمانى عنه.

(٢) أصحاب السنن الثلاثة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، والحاكم، والطبرى.

سبع أو عدو ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أدخل فى حكم الشرط أربعة وهم المرضى والمسافرون والمحدثون وأهل الجنابة والجزاء الذى هو الأمر بالتيمم متعلق بهم جميعا فالمرضى إذا عدموا الماء لضعف حركتهم وعجزهم عن الوصول إليه، والمسافرون إذا عدموه لبعده، والمحدثون وأهل الجنابة إذا لم يجدوه لبعض الأسباب فلهم أن يتيمموا. لستم حمزة وعلى ﴿صَعِيدًا﴾ قال الزجاج: هو وجه الأرض ترابا كان أو غيره وإن كان صخرا لا تراب عليه لو ضرب المتيمم يده ومسح لكان ذلك طهوره. ومن فى سورة المائدة لابتداء الغاية لا للتبعيض ﴿طَيِّبًا﴾ طاهرا ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ قيل: الباء زائدة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ بالترخيص والتيسير ﴿غَفُورًا﴾ عن الخطأ والتقصير.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من رؤية القلب وعدى بإلى على معنى ألم ينته علمك إليهم، أو بمعنى ألم تنظر إليهم ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حظا من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ يستبدلونها بالهدى، وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم على صحة نبوة رسول الله (ﷺ) وأنه هو النبى العربى المبشر به فى التوراة والإنجيل ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ أى سبيل الحق كما ضلوه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم ولاتستنصحوهم فى أموركم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ فى النفع ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ فى الدفع فثقوا بولايته ونصرته دونهم، أو لاتبالوا بهم فإن الله ينصركم عليهم ويكفيكم مكرهم ووليا ونصيرا منصوبان على التميز أو على الحال.

●● ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب، أو بيان لأعدائكم وما بينهما اعتراض، أو يتعلق بقوله نصيرا أى ينصركم من الذين هادوا، كقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(١) أو يتعلق بمحذوف تقديره من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم فقوم مبتدأ، ويحرفون صفة له والخبر من الذين هادوا مقدم عليه وحذف الموصوف وهو قوم وأقيم صفته، وهو ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ يميلونه عنها ويزيلونه، لأنهم إذا بدلوه ووضعوا مكانه كلماً غيره فقد أمالوه عن مواضعه فى التوراة التى وضعه الله تعالى فيها وأزالوه عنها - مقامه وذلك نحو تحريفهم أسمر ربعة عن موضعه فى التوراة بوضعهم آدم طوال مكانه. ثم ذكر هنا عن مواضعه وفى المائدة من بعد مواضعة-فمعنى عن مواضعه على مابينا من إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. ومعنى من بعد مواضعه أنه كانت له مواضع هو جدير بأن يكون فيها فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد مواضعه ومقاره، والمعنيان متقاربان ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك قيل أسرّوا به ﴿وَاسْمَعْ﴾ قولنا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ حال من المخاطب أى اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذووجهين يحتمل الذم أى اسمع

م

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٧٧).

نا مدعوا عليك بلا سمعت، لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع شيئا فكان أصم غير مسمع، قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم لاسمعت دعوة مستجابة، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئا أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه فسمعك عنه نـاب. ويحتمل المدح أى اسمع غير مسمع مكروها من قولك: أسمع فلان فلانا إذا سبه، وكذلك قوله: ﴿وَرَاعِنَا﴾ يحتمل راعنا نكلمك أى ارقبنا وانتظرنا ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها وهى راعينا، فكانوا سخرية بالدين وهزؤا برسول الله (ﷺ) يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتلا بها وتحريفا أى يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون راعنا موضع انظرنا، وغير مسمع موضع لا أسمعت مكروها، أو يفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقا ﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ هو قولهم: لو كان نبيا حقا لأخبر بما نعتقد فيه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ولم يقولوا: وعصينا ﴿وَاسْمَعْ﴾ ولم يلحقوا به غير مسمع ﴿وَانظُرْنَا﴾ مكان راعنا ﴿لَكَانَ﴾ قولهم ذاك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله ﴿وَأَقْوَمَ﴾ وأعدل وأسد ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ طردهم وأبعدهم عن رحمته بسبب احتيارهم الكفر ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم قد آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه، أو إلا إيمانا قليلا ضعيفا لا يعبأ به وهو إيمانهم بمن خلقهم مع كفرهم بغيره ولما لم يؤمنوا نزل.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعنى القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعنى التوراة ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها، وهى الأقفاء مطموسة مثلها والفاء للتسبيب وإن جعلتها للتعقيب على أنهم تُوعدوا بعقابين أحدهما عقيب الآخر ـ ردها على أدبارها بعد طمسها فالمعنى أن نطمس وجوها فننكس الوجوه إلى خلف والأقفاء إلى قدام، وقيل: المراد بالطمس القلب والتغيير كما طمس أموال القبط فقلبها حجارة، وبالوجوه رءوسهم ووجهاؤهم أى من قبل أن نغير أحوال وجهائهم فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم ونكسوهم صغارهم وإدبارهم ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أى نخزيهم بالمسخ كما مسخنا أصحاب السبت والضمير يرجع إلى الوجوه إن أريد الوجهاء، أو إلى الذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات. والوعيد كان معلقا بأن لا يؤمن كلهم وقد آمن بعضهم فإن ابن سلام قد سمع الآية قافلا من الشام فأتى النبى (ﷺ) مسلماً قبل أن يأتى أهله، وقال: ما كنت أرى أن أصل إلى أهلى قبل أن يطمس الله وجهى. أو أن الله تعالى أوعدهم بأحد الأمرين بطمس الوجوه، أو بلعنهم فإن كان الطمس تبدل أحوال روسائهم فقد كان أحد الأمرين، وإن كان غيره فقد حصل اللعن فإنهم ملعونون بكل لسان، وقيل: هو منتظر فى اليهود ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى المأمور به وهو العذاب الذى أوعدوا به ﴿مَفْعُولًا﴾ كائنا لا محالة فلابد أن يقع أحد الأمرين إن لم يؤمنوا.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ إن مات عليه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى مادون الشرك، وإن كان كبيرة مع عدم التوبة، والحاصل أن الشرك مغـفور عنه بالتوبة، وأن وعد غفران ما دونه لمن لم يتب أى لايغفر لمن يشرك وهو مشرك ويغفر لن يذنب وهو مذنب، قال النبى - عليه السلام - «من لقى الله تعالى لايشرك به شيئا دخـل الجنة ولم تضره خطيئته»[1]. وتقييده بقوله ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ لا يخرجه عن عمومه كقوله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾[2] قال على - رضى الله عنه - : ما فى القرآن آيـة أحب إلى من هذه الآية. وحمل المـعتزلة على التـائب باطل لأن الكفر مغـفور عنه بالتوبة لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[3] فما دونه أولى أن يغفر بالتوبة، والآية سيقت لبيان التفرقة بينهما وذا فيما ذكرنا ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كذب كذبا عظيـما استحق به عذابا أليما ونزل فـيمن زكى نفسه من اليهود والنـصارى حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[4]. ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[5].

●● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ويدخل فيها كل من زكى نفـسه ووصفها بزكاء العمل وزيادة الطاعة والتقوى ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ إعلام بأن تزكية الله هى التى يـعتد بها لا تزكية غيره، لأنه هو الـعالم بمن هو أهل للتـزكية ونحوه: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[6] ﴿وَلا يُظْلَمُونَ﴾ أى الذين يزكون أنـفسهم يعاقبون على تـزكية أنفسهم حق جزائـهم، أو من يشاء يثابون عـلى زكائهم ولاينقص مـن ثوابهم ﴿فَتِيلاً﴾ قدر فتـيل وهو ما يحـدث بفتل الأصـابع من الوسخ.

●● ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فى زعمهم أنهم عند الله أزكياء ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ بزعمهم هذا ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ من بين سائر آثامهم.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى اليهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أى الأصنام وكل ماعبدوه من دون الله ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِيـنَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ وذلك أن حيي بن أخطـب وكعب بن الأشرف اليهوديين خرجا إلى مـكة مع جماعة من اليهود يحالفونَ قريشا على محاربة رسـول الله (ﷺ) فقالوا: أنتم أهل الكتاب وأنتم إلى محمد

---

(١) رواه الإمام أحمد.
(٢) سورة «الشورى»، الآية (١٩).
(٣) سورة «الأنفال»، الآية (٣٨).
(٤) سورة «المائدة»، الآية (١٨).
(٥) سورة «البقرة»، الآية (١١١).
(٦) سورة «النجم»، الآية (٣٢).

أقرب منا وهو أقرب منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا، فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس ـ عليه اللعنة ـ فيما فعلوا فقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلا أم محمد؟ فقال كعب: أنتم أهدى سبيلا.

●● ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ يعتد بنصره ثم وصف اليهود بالبخل والحسد وهما من شر الخصال يمنعون مالهم ويتمنون مالغيرهم فقال ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ فأم منقطعة ومعنى الهمزة الإنكار أن يكون لهم نصيب من الملك ﴿فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ أى: لو كان لهم نصيب من الملك أى ملك أهل الدنيا، أو ملك الله فإذا لا يؤتون أحدا مقدار نقير لفرط بخلهم، والنقير: النقرة فى ظهر النواة، وهو مثل فى القلة كالفتيل.

●● ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ بل أيحسدون رسول الله (ﷺ) والمؤمنين على إنكار الحسد واستقباحه وكانوا يحسدونهم على ما آتاهم الله من النصرة والغلبة وازدياد العز والتقدم كل يوم ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ﴾ أى التوراة ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الموعظة والفقه ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾ يعنى ملك يوسف وداود وسليمان ـ عليهم السلام ـ وهذا إلزام لهم بما عرفون من إيتاء الله الكتاب والحكمة آل إبراهيم الذين هم أسلاف محمد ـ عليه السلام ـ وأنه ليس ببدع أن يؤتيه الله مثل ما أوتى أسلافه.

●● ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ فمن اليهود من آمن بما ذكر من حديث آل إبراهيم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ وأنكره مع علمه بصحته أو من اليهود من آمن برسول الله (ﷺ) ومنهم من أنكر نبوته وأعرض عنه ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾ للصادين.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أحرقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ أعدنا تلك الجلود غير محترقة فالتبديل والتغيير لتغاير الهيئتين لا لتغاير الأصلين عند أهل الحق خلافا للكرامية[1]، وعن فضيل يجعل النضيج غير نضيج ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كقولك للعزيز: أعزك الله أى أدامك على عزك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً﴾ غالبا بالانتقام لا يمتنع عليه شىء مما يريده بالمجرمين ﴿حَكِيماً﴾ فيما يفعل بالكافرين.

●● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الأنجاس والحيض والنفاس ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ هو صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه كما يقال: ليل أليل وهو ما كان طويلا فيتانا لاجوب فيه ودائما لا تنسخة الشمس وسجسجا لاحر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة، ثم خاطب الولاة بأداء الأمانات

---

(١) سبق التعريف بتلك الطائفة عند تفسير سورة البقرة الآية /٨»

والحكم بالعدل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وقيل: قد دخل فى هذا الأمر أداء الفرائض التى هى أمانة الله تعالى التى حملها الإنسان وحفظ الحواس التى هى ودائع الله تعالى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ قضيتم ﴿أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ بالسوية والإنصاف، وقيل: إن عثمان بن طلحة بن عبدالدار كان سادن الكعبة وقد أخذ رسول الله (ﷺ) منه مفتاح الكعبة فلما نزلت الآية أمر عليا ـ رضى الله عنه ـ بأن يرده إليه وقال رسول الله (ﷺ): «لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا». وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فهبط جبريل ـ عليه السلام وأخبر رسول الله (ﷺ) أن السدانة فى أولاد عثمان أبدا [1] ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ مانكرة منصوبة موصوفة بيعظكم به، كأنه قيل: نعم شيئا يعظكم به، أو موصولة مرفوعة المحل صلتها ما بعدها أمى نعم الشىء يعظكم به والمخصوص بالمدح محذوف أى نعمّا يعظكم به ذلك وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل فى الحكم. وبكسر النون وسكون العين مدنى وأبو عمرو، وبفتح النون وكسر العين شامى وحمزة وعلى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم ولما أمر الولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل أمر الناس بأن يطيعوهم بقوله:

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ أى الولاة أو العلماء لأن أمرهم ينفذ على الأمراء ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فإن اختلفتم أنتم وأولو الأمر فى شىء من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أى ارجعوا فيه إلى الكتاب والسنة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى إن الإيمان يوجب الطاعة دون العصيان، ودلت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق فإذا خالفوه فلا طاعة لهم لقوله ـ عليه السلام ـ :«لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق»[2] وحكى أن مسلمة بن عبدالملك بن مروان قال لأبى حازم ألستم أمرتم بطاعتنا بقوله: ﴿وأولى الأمر منكم﴾ فقال أبو حازم أليس قد نزعت الطاعة عنكم إذا خالفتم الحق بقوله فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله أى القرآن والرسول فى حياته وإلى أحاديثه بعد وفاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرد أى الرد إلى الكتاب والسنة ﴿خَيْرٌ﴾ عاجلا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة، كان بين بشر المنافق ويهودى خصومة فدعاه اليهودى إلى النبى (ﷺ) لعلمه أنه لا يرتشى ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ليرشوه فاحتكما إلى النبى ـ عليه السلام ـ فقضى لليهودى فلم يرض المنافق، وقال: تعال نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودى لعمر ـ رضى الله عنه: قضى لى رسول الله (ﷺ) فلم يرض بقضائه. فقال عمر للمنافق: كذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فأخذ سيفه، ثم خرج فضرب به عنق المنافق، فقال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزل.

---

(١) ذكره الثعلبى، ثم البغوى بغير إسناد، وذكره الواحدى فى الأسباب.

(٢) رواه أحمد من طرق عدة وألفاظ متقاربة.

•• ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وقال جبريل ـ عليه السلام ـ : إن عمر فرق بين الحق والباطل، فقال له رسول الله (ﷺ) «أنت الفاروق» (١) ﴿يُرِيدُونَ﴾ حال من الضمير فى يزعمون ﴿أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أى كعب بن الأشرف سماه الله طاغوتا لإفراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله ـ عليه السلام ـ أو على التشبيه بالشيطان، أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله (ﷺ) على التحاكم إليه تحاكما إلى الشيطان بدليل قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿ضَلالاً بَعِيداً﴾ مستمرا إلى الموت.

•• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ للمنافقين ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ للتحاكم ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾ يعرضون عنك إلى غيرك ليغروه بالرشوة فيقضى لهم ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم وكيف يصنعون ﴿إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ من قتل عمر بشرا ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك واتهامهم لك فى الحكم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أى أصحاب القتيل من المنافقين ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حال ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ﴿إِلاَّ إِحْسَاناً﴾ لا إساءة ﴿وَتَوْفِيقاً﴾ بين الخصمين ولم نرد مخالفة لك ولاتسخطا لحكمك، وهذا وعيد لهم على فعلهم وأنهم سيندمون عليه حين لاينفعهم الندم ولايغنى عنهم الاعتذار، وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه وقد أهدره الله، فقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا بحكومة العدل والتوفيق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا أنه يحكم له بما حكم به.

•• ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ فأعرض عن قبول الأعذار وعظ بالزجر والإنكار وبالغ فى وعظهم بالتخويف والإنذار، أو أعرض عن عقابهم وعظهم فى عتابهم وبلغ كنه ما فى ضميرك من الوعظ بارتكابهم وبالبلاغة أن يبلغ بلسانه كنه ما فى جنانه وفى أنفسهم يتعلق بقل لهم أى قل لهم فى معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا يبلغ منهم ويؤثر فيهم.

•• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أى رسولا قط ﴿إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بتوفيقه فى طاعته وتيسيره، أو بسبب إذن الله فى طاعته وبأنه أمر المبعوث إليهم بأن يطيعوه، لأنه مؤد عن الله فطاعته طاعة الله ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالتحاكم إلى الطاغوت ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين من النفاق معتذرين عما ارتكبوا من الشقاق ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ من النفاق والشقاق ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم، والعامل فى إذ ظلموا خبر أنّ وهو جاءوك والمعنى ولو وقع مجيئهم فى وقت ظلمهم مع استغفارهم واستغفار الرسول ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً﴾ لعلموه توابا أى لتاب

---

(١) ذكره الثعلبى من رواية الكلبى عن أبى عاصم عن ابن عباس.

عليهـم، ولو يقل واستغفـرت لهم وعدل عنه إلى طريـقة الالتفات تفخـيما لشأنه (ﷺ) وتعـظيما لاستغفاره وتنبيها على أنَّ شفاعة من اسمه الرسول من الله بمكان ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم، قيل: جاء أعرابى بعد دفنه ـ عليه الـسلام ـ فرمى بنفسه على قبره وحثا من تـرابه على رأسه وقال: يارسول الله قلت فسمعنا، وكان فـيما أنزل عليك: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية وقد ظلمت نـفسى وجئتك أستغفر الله من ذنبى فاستغفرلى من ربى فنودى من قبره قد غفر لك.

•• ﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾ أى فوربك، كـقوله ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾[1] ولا مزيدة لتـأكيد معنى الـقسم وجواب القسم ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ أو التقدير فـلا أى ليس الأمر كما يقولون، ثم قـال وربك لا يؤمنون ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلـط ومنه الشجر لتداخل أغصانه ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أى لا تضيق صدورهم مـن حكمك أو شكًا لأن الشاك فى ضيق من أمره حتى يلوح له اليقين ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا لقضائك انقيادا وحقيقته سلم نفسه له وأسلمهـا أى جعلها سالمة له أى خالصة وتسليما مصدر موكد لـلفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمك انقيادا لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم، والمعنى لا يكونون مؤمنين حتى يرضوا بحكمك وقضائك.

•• ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على المنافقين أى ولو وقع كـتبنا عليهم ﴿أَنِ اقْتُلُوا﴾ أن هى المفسرة ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أى تعرضوا للقتل بالجـهاد أو ولو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا عـلى بنى إسرائيل من قتلهم أنفسهم ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ بالهجرة ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ لنفاقهم والهـاء ضمير أحد مصدرى الفعلين، وهو القتل، أو الخروج، أو ضمير المكتوب لدلالة كتبنا عليه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ قليلا شامى على الاستثناء والرفع على البدل من واو فعلوه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من اتباع رسول الله ـ عليه السلام ـ والانـقياد لحكمة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فى الدارين ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لإيمانهم وأبعد عن الاضطراب فيه.

•• ﴿وَإِذًا﴾ جواب لسوال مقدر، كأنه قيل: وماذا يكون لهم بـعد التثبيت؟ فقيل: وإذا لو ثبتوا ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى ثوابـا كثيـرا لا ينقـطع ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا﴾ مفعـول ثانٍ ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾ أى لثبتناهم على الدين الحق.

•• ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ كأفاضل صحابة الأنبياء. والصديق: المبالغ فى صدق ظاهره بـالمعاملة وباطنه بالمراقبة، أو الذى يصدق قوله بفعله ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ والذين استشهدوا فى سبيل الله ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ ومن صلحت أحوالهم وحسنت

---

(١) سورة «الحجر»، الآية (٩٢).

أعمالهم ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أى وما أحسن أولئك رفيقا، وهو كالصديق والخليط فى استواء الواحد والجمع فيه.

●● ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أو الفضل صفته ومن الله خبره، والمعنى أن ما أعطى المطيعون من الأجر العظيم ومرافقة المنعم عليهم من الله؛ لأنه تفضل به عليهم أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾بعباده وبمن هو أهل الفضل. ودلت الآية على أن ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه بخلاف ما يقوله المعتزلة.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الحِذر والحَذر بمعنى وهو التحرز وهما كالإثر والأثر، يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف كأنه جعل الحذر آلته التى يقى بها نفسه ويعصم بها روحه والمعنى احذروا واحترزوا من العدو ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ فاخرجوا إلى العدو جماعات متفرقة سرية بعد سرية، فالثبات: الجماعات واحدها ثبة ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أى مجتمعين أو مع النبى ـ عليه السلام ـ لأن الجمع بدون السمع لايتم، والعقد بدون الواسطة لاينتظم. أو انفروا ثبات إذا لم يعم النفير أو انفروا جميعا إذا عم النفير. وثبات حال وكذا جميعا واللام فى.

●● ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن﴾ للابتداء بمنزلتها فى﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ [(١)] ومن موصولة وفى ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ جواب قسم محذوف، تقديره وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن والقسم وجوابه صلة من، والضمير الراجع منها إليه ما استكنّ فى ليبطئن أى ليتثاقلن وليتخلفن عن الجهاد، وبطؤ بمعنى أبطأ أى تأخر، ويقال: ما بطؤ بك فيتعدى بالباء والخطاب لعسكر رسول الله (ﷺ) وقوله منكم أى فى الظاهر دون الباطن يعنى المنافقين، يقولون، لم تقتلون أنفسكم تأنوا حتى يظهر الأمر ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ قتل أو هزيمة ﴿قَالَ﴾ المبطئ ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضرا فيصيبنى مثل ما أصابهم.

●● ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ فتح أو غنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المبطىء متلهفا على ما فاته من الغنيمة لا طلبا للمثوبة ﴿كَأَن﴾ مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى كأنه ﴿لَّمْ تَكُن﴾وبالتاء[(٢)] مكى وحفص ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ وهى اعتراض بين الفعل وهو ليقولن وبين مفعوله وهو ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ والمعنى كأن لم يتقدم له معكم موادة، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين فى الظاهر وإن كانوا يبغون لهم الغوائل فى الباطن ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالنصب، لأنه جواب التمنى ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فآخذ من الغنيمة حظاً وافرا.

●● ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ والمراد المؤمنون الذين يستحبون الحياة الآجلة على العاجلة ويستبدلونها بها أى إن صد الذين مرضت قلوبهم وضعفت

---

(١) سورة «النحل»، الآية (١٨).

(٢) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها «لم يكن» بالياء.

نياتهم عن القتال فليقاتل الثابتون المخلصون، أو يشترون، والمراد المنافقون الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة وعظوا بأن يغيروا مابهم من النفاق ويخلصوا الإيمان بالله ورسوله ويجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده **﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** وعد الله المقاتل فى سبيل الله ظافرا، أو مظفورا به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده فى إعزاز دين الله.

●● **﴿وَمَا لَكُمْ﴾** مبتدأ وخبر وهذا الاستفهام فى النفى للتنبيه على الاستبطاء وفى الإثبات للإنكار **﴿لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** حال والعامل فيها الاستقرار، كما تقول: مالك قائما والمعنى وأى شىء لكم تاركين القتال وقد ظهرت دواعيه **﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾** مجرور بالعطف على سبيل الله أى فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين، أو منصوب على الاختصاص منه أى واختص من سبيل الله خلاص المستضعَفين من المستضعِفين، لأن سبيل الله عام فى كل خير وخلاص المسلمين من أيدى الكفار من أعظم الخير وأخصه، والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين يلقون منهم الأذى الشديد **﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾** ذكر الولدان تسجيلا بإفراط ظلمهم حيث بلغ أذاهم الولدان غير المكلفين إرغاما لآبائهم وأمهاتهم، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم فى دعائهم استنزالا لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا كما فعل قوم يونس ـ عليه السلام ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كنت أنا وأمى من المستضعفين من النساء والولدان **﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾** يعنى مكة **﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾** الظالم وصف للقرية إلا أنه مسند إلى أهلها فأعطى إعراب القرية، لأنه صفتها وذكر لإسناده إلى الأهل، كما تقول من هذه القرية التى ظلم أهلها **﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾** يتولى أمرنا ويستنقذنا من أعدائنا **﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾** ينصرنا عليهم كانوا يدعون الله بالخلاص ويستنصرونه، فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة وبقى بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد ـ عليه السلام ـ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر، ولما خرج محمد (ﷺ) استعمل عتاب بن أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا. قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة، ثم رغب الله المؤمنين بأنهم يقاتلون فى سبيل الله فهو وليهم وناصرهم وأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الشيطان فلا ولى لهم إلا الشيطان بقوله:

●● **﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾** أى الشيطان **﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾** أى الكفار **﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾** أى وساوسه، وقيل: الكيد السعى فى فساد الحال على جهة الاحتيال **﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾** لأنه غرور لا يؤول إلى محصول، أو كيده فى مقابلة نصر الله ضعيف كان المسلمون مكفوفين عن القتال مع الكفار ما داموا بمكة وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه فنزل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أى عن القتال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أى فرض بالمدينة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يخافون أن يقاتلهم الكفار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه لاشكا فى الدين ولا رغبة عنه ولكن نفورا عن الإخطار بالأرواح وخوفا من الموت، قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: هذه خشية طبع لا أن ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقادا فالمرء مجبول على كراهة مافيه خوف هلاكه غالبا، وخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، ومحله النصب على الحال من الضمير فى يخشون أى يخشون الناس مثل خشية أهل الله أى مشبهين لأهل خشية الله ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ هو معطوف على الحال أى أو أشد خشية من أهل خشية الله وأو للتخيير أى إن قلت خشيتهم الناس كخشية الله فأنت مصيب، وإن قلت إنها أشد فأنت مصيب، لأنه حصل لهم مثلها وزيادة ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هلا أمهلتنا إلى الموت فنموت على الفرش وهو سؤال عن وجه الحكم في فرض القتال عليهم لا اعتراض لحكمه بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال بل أجيبوا بقوله ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ متاع الدنيا قليل زائل ومتاع الآخرة كثير دائم والكثير إذا كان على شرف الزوال فهو قليل فكيف القليل الزائل ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولاتنقصون أدنى شيء من أجور كم على مشاق القتل فلا ترغبوا عنه. وبالياء مكى وحمزة وعلى، ثم أخبر أن الحذر لاينجى من القدر بقوله:

●● ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ ما زائدة لتوكيد معنى الشرط فى أين ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ حصون أو قصور ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرفعة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمة من خصب ورخاء ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ نسبوها إلى الله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية من قحط وشدة ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أضافوها إليك وقالوا هذه من عندك وما كانت إلا بشؤمك، وذلك أن المنافقين واليهود كانوا إذا أصابهم خير حمدوا الله تعالى وإذا أصابهم مكروه نسبوه إلى محمد (ﷺ) فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ والمضاف إليه محذوف أى كل ذلك فهو يبسط الأرزاق ويقبضها ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ يفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ فيعلمون أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادر عن حكمة، ثم قال.

●● ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ يا إنسان خطابا عاما، وقال الزجاج: المخاطب به النبى ـ عليه السلام ـ والمراد غيره ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة وإحسان ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ تفضلا منه وامتنانا ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من بلية ومصيبة ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فمن عندك أى فبما كسبت يداك ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (١) ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ لا مقدرا حتى تنسبوا إليك الشدة، أو أرسلناك للناس رسولا

(١) سورة «الشورى»، الآية (٣٠).

فإليك تبليغ الرسالة ولـيس إليك الحسنة والسيئة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ بأنك رسولـه، وقيل: هذا متصل بالأول أى لا يكادون يفقـهون حديثا يقولون ما أصابك. وحمل المعتزلـة الحسنة والسيئة فى الآية الثانيـة على الطاعة والمعصـية تعسف بين، وقد نادى عـليه ما أصابك إذ يقال فـى الأفعال ما أصبت، ولأنهم لا يقولون الحسنات من الله خلقا وإيـجادا فأنى يكون لهم حجة فى ذلك. وشهيدا تمييز.

●● ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بما أمر الله به ونهى عنه فكانت طاعتـه فى أوامره ونواهيـه طاعة لله ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن الطـاعة فأعرض عـنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها وتعاقبهم.

●● ﴿وَيَقُولُونَ﴾ ويقول المنافقون إذا أمرتهم بشئ ﴿طَاعَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى أمرنا وشأننا طاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ زوّر وسوّى فهو من البـيتوتة، لأن قضاء الأمر وتدبيره بالـليل أو من أبيات الشعر لأن الشـاعر يدبرها ويسويها. ولإدغام حـمزة وأبو عمرو ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ خلاف ما قلت وما أمرت به، أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة، لأنهم أبطنوا الرد لا الـقبول، والعصيان لا الطاعـة، وإنما ينافقون بما يقـولون ويظهرون ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يثبته فـى صحائف أعمالهم ويجازيـهم عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تحدث نفسك بـالانتقام منهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فى شأنهم فإن الله يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم إذا قوى أمر الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كافيا لمن توكل عليه.

●● ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ افلا يتأملون معانيه ومبانيه. والتدبر: التأمل والنظر فى أدبار الأمر وما يؤول إليه فى عاقبتـه، ثم استعمل فى كل تأمل. والتفكر: تصرف القـلب بالنظر فى الدلائل، وهذا يرد قـول من زعم من الروافـض أن القرآن لايفهـم معناه إلا بـتفسير الـرسول (ﷺ) والإمام المعصوم، ويدل على صحة القياس وعلى بطلان التقليد ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ كما زعم الكفار ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أى تناقضا من حيث التوحيد والتشريك والتحليل والتحريم، أو تفاوتا من حيث البلاغة فكان بعض بالغا حد الإعجاز، وبـعضة قاصرا عنه يمكن معارضته، أو من حيث المعانى فكان بعضه أخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه وبـعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه وبعضه دالا على معنى صحـيح عند علماء المعاني، وبعضة دالا عـلى معنى فاسد غير ملتئم وأمـا تعلق الملحدة بآيات يدعون فيها اختلافـا كثيرا من نحو قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾(١) ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾(٢) ﴿فَوَرَبِّكَ

---

(١) سورة «الأعراف» الآية (١٠٧)، وسورة «الشعراء» الآية (٣٢).

(٢) سورة «النمل» ،الآية (١٠)، وسورة «القصص»، الآية (٣١).

لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾(٢) فقد تفصى (٣) عنها أهل الحق وستجدها مشروحة فى كتابنا هذا فى مظانها إن شاء الله تعالى.

●● ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ هم ناس من ضعفة المسلمين لم يكن فيهم خبرة بالأحوال، أو المنافقون كانوا إذا بلغهم خبر من سرايا رسول الله (ﷺ) من أمن وسلامة، أو خوف وخلل ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أفشوه وكانت إذاعتهم مفسدة، يقال: أذاع السر وأذاع به والضمير يعود إلى الأمر، أو إلى الأمن أو الخوف، لأن أو تقتضى أحدهما ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أى ذلك الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ﴾ أى رسول الله ﷺ ﴿وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ يعنى كبراء الصحابة البصراء بالأمور، أو الذين كانوا يؤمَّرون منهم ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لعلم تدبير ما أخبروا به ﴿الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله (ﷺ) وأولى الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينتشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر وفوضوه إليهم، وكانوا كأن لم يسمعوا لعلم الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون فيه والنَّبَط: الماء الذى يخرج من البئر أول ما تحفر واستنباطه استخراجه، فاستعير لما يستخرجه الرجل بفضل ذهنه من المعانى والتدابير فيما يعضل ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بإنزال الكتاب ﴿لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ لبقيتم على الكفر ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لم يتبعوه ولكن آمنوا بالعقل كزيد بن عمرو بن نفيل (٤) وقس بن ساعدة (٥) وغيرهما. لما ذكر فى الآى قبلها تثبطهم عن القتال وإظهارهم الطاعة، وإضمارهم خلافها قال.

●● ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إن أفردوك وتركوك وحدك ﴿لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ غير نفسك وحدها أن تقدمها إلى الجهاد فإن الله تعالى ناصرك لا الجنود، وقيل: دعا الناس فى بدر الصغرى إلى الخروج وكان أبو سفيان واعد رسول الله (ﷺ) اللقاء فيها فكره بعض الناس أن يخرجوا

---

(١) سورة «الحجر» الآية (٩٢).

(٢) سورة «الرحمن»، الآية (٣٩).

(٣) معنى تفصى عنها: فصلوها.

(٤) هو: زيد بن عمرو بن نفيل، ابن عم عمر بن الخطاب، كان رجلاً عاقلاً، كره عبادة الأوثان، وتحنَّف؛ أي: انفرد، وعبد الإله الواحد على ملة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ، وهو وأمثاله يسمون بـ «الحنيفيون»، لم يدرك الإسلام. توفى قبل البعثة بسعة أعوام.
الأعلام (٣/ ٦٠).

(٥) هو: قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى، الإيادى، من بنى إياد، من أشهر حكاء العرب، وخطبائهم، فى الجاهلية، كان يخطب الناس فى الأسواق ويعظهم، سمعه النبى ﷺ وهو صغير وسأل عنه بنى إياد لما أسلموا، فحكوا له؛ فشهد له الرسول ﷺ بأنه مات على الفطرة حنيفاً، توفى قبل البعثة بنحو ١٢ عاماً.
الأعلام (٥/ ١٩٦).

فنزلت فخرج وما معه إلا سبعون ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وما عليك فى شأنهم إلا التحريض على القتال فحسب لا التعنيف بهم ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى بطشهم وشدتهم وهم قريش، وقد كف بأسهم بالرعب فلم يخرجوا وعسى كلمة مطمعة غير إن أطماع الكريم أعود من انجاز اللئيم ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ تعذيبا وهو تمييز كبأسا.

●● ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ هى الشفاعة فى دفع شر أو جلب نفع مع جوازها شرعا ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ هى خلاف الشفاعة الحسنة. قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ما لها مفسر غيرى معناه من أمر بالتوحيد وقاتل أهل الكفر وضده السيئة وقال الحسن: هو المشى بالصلح وضده النميمة ﴿يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ نصيب ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً من أقات على الشىء اقتدر عليه أو حفيظا من القوت، لأنه يمسك النفس ويحفظها.

●● ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أى سلم عليكم فإن التحية فى ديننا بالسلام فى الدارين فسلموا على أنفسكم تحية من عندالله ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾(١) وكانت العرب تقول عند اللقاء: حياك الله أى أطال الله حياتك فأبدل ذلك بعد الإسلام بالسلام ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ هى تفعله من حيّا يحيّى تحية ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أى قولوا: وعليكم السلام ورحمة الله إذا قال: السلام عليكم وزيدوا وبركاته إذا قال: ورحمة الله، ويقال لكل شىء منتهى ومنتهى السلام وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾؛ أى أجيبوها بمثلها، ورد السلام جوابه بمثله؛ لأن المجيب يرد قول المسلِّم وفيه حذف مضاف أى ردوا مثلها. والتسليم سنة والرد فريضة والأحسن فضل. وما من رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلم عليهم ولا يردون عليه إلا نزع عنهم روح القدس وردت عليه الملائكة. ولايرد السلام فى الخطبة وقراءة القرآن جهراً ورواية الحديث وعند مذاكرة العلم والآذان والإقامة وعند أبى يوسف رحمه الله لايسلم على لاعب الشطرنج والنرد والمغنى والقاعد لحاجته ومطير الحمام والعارى من غير عذر فى حمام، أو غيره، ويسلم الرجل إذا دخل على امرأته، والماشى على القاعد، والراكب على الماشى، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير والأقل على الأكثر، وإذا التقيا ابتدرا وقيل بأحسن منها لأهل الملة، أو رودها لأهل الذمة وعن النبى (ﷺ) «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم» (٢) أى وعليكم ما قلتم لأنهم كانوا يقولون السام عليكم، وقوله عليه السلام: «لاغرار فى تسليم» (٣) أى لايقال عليك بل عليكم لأن كاتبيه معه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أى يحاسبكم على كل شىء من التحية وغيرها.

---

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (٤٤).

(٢) متفق عليه من حديث أنس، رضى الله عنه.

(٣) رواه أحمد بلفظ: لا إغرار فى صلاة ولاتسليم. من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

●● ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ﴾ خبـره أو اعتراض والخـبر ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ومعـناه الله والله ليجمعنكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى ليحشرنكم إليه والقيامة القـيام كالطلابة والطلاب وهى قيامهم من القبور، أو قيامـهم للحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو حال مـن يوم القيامة والهاء يعود إلى اليوم، أو صفة لمصدر مـحذوف أى جمعا لاريب فيه والهاء يعود إلى الجمع ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ تمييز وهـو استفهام بمعنـى النفى أى لا أحد أصدق منـه فى إخباره ووعده ووعيده لاستحالة الكذب عليه لقبحه لكونه إخباراً عن الشىء بخلاف ما هو عليه.

●● ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أى مالكم اختلفتم فى شأن قوم قـد نافقوا نفاقاً ظاهراً وتفـرقتم فيهم فرقتين، ومالكم لـم تقطعوا القول بكفرهم وذلك أن قـوماً من المنافقين استأذنوا رسول الله (ﷺ) فـى الخروج إلى البدو معتلـين باجتواء [2] المدينة فلمـا خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين فاختلف المسلمون فيهم، فقال بعضهم: هم كفار، وقال بعضهم: هم مسلمون. وفئتين حال، كقولك مالك قائما، قال سيبويه: إذا قلت مالك قائما فمعناه لم قمت ونصـبه على تأويل أى شىء يستقـرلك فى هذه الحال ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ ردهم إلى حكم الكفار ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من ارتدادهـم ولحوقهم بـالمشركين فردوهـم أيضا، ولاتختـلفوا فى كـفرهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا﴾ أن تجعلـوا من جملة المهـتدين ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ من جـعلـه الله ضالا، أو أتريدون أن تسموهم مهتدين وقد أظهر الله ضلالهم فـيكون تعييراً لمن سماهم مهتدين، والآية تدل على مذهبنا فى إثبات الكسب للعبد والخلق للرب جلت قدرته ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الهداية.

●● ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ الكاف نعـت لمصدر محذوف، وما مـصدرية أى ودوا لو تكفرون كفراً مـثل كفرهم ﴿فَتَكُونُونَ﴾ عطف علـى تكفرون ﴿سَوَاءً﴾ أى مستوين أنـتم وهم فى الكفر ﴿فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يـؤمنوا، لأن الهجرة فى سبيـل الله بالإسلام ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كما كان حكم سائر المشركين ﴿وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوا منهم.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ أى ينتهون إليـهم ويتصلون بهم: والاستثناء مـن قوله: فخذوهم واقتلوهم دون الموالاة﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ القوم هم الأسـلميون [3] كان بينـهم وبين رسول الله

---

(١) سورة «المطففين»، الآية (٦).

(٢) معتلين باجتواء المدينة أى كراهتهم المقام فيها.

(٣) الأسلميون: نسبة إلى أسلم بن أقصى بن حارثة بن عمرو، وهما أخوان خزاعة وأسلم. (الأنساب ١/ ١٥٢).

(ﷺ) عهد وذلك أنه وادع قبل خروجه إلى مكة هلال بن عـويمر الأسلمى على أن لايعينه ولايعين عليه وعلى أن من وصل إلى هلال والتجأ إليه فـله من الجوار مثل الذى لهلال أى فاقتلوهم إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ عطف على صفة قوم أى إلا الـذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم ممسكين عن القتال لا لكم ولا علـيكم، أو على صلة الذين أى إلا الذين يتصلون بالمعاهـدين أو الذين لايقاتـلونكم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بـإضمـار قد. والحصـر: الضيق والانقباض ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾ عن أن يقاتلوكـم أى عن قتالكم ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ معكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بتقوية قلوبـهم وإزالة الحصر عنه ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ عطف على لسـلطهم، ودخول اللام للتأكيد ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أى الانقياد والاستسلام ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى القتال.

●● ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بالنفاق ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بالوفاق هم قوم من أسد وغطفان كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنـوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ كلما دعاهم قومهم إلى قتال المسلمين ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ قلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرا فيها من كل عدو ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ فإن لم يعتزلوا قتالكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ عطف على لم يعتزلوكم أى ولم ينقادوا لكم بطلب الصلح ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عطف عليه أيـضا أى ولم يمسكوا عن قـتالكم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنـتم منهم وظفرتم بهم ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة لظهـور عداوتهم وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر وإضرارهم بالمسلمين، أو تسلطا ظاهرا حيث أذنا لكم فى قتلهم.

●● ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وماصح له ولا استـقام ولا لاق بحاله ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ ابتداء من غير قصاص أى ليس المؤمن كالكافر الذى تقدم إباحة دمه ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ إلا على وجه الخطأ وهو استثناء منقطع بمعنى لكن أى لكن إن وقع خطأ، ويحتمل أن يكون صفة لمصدر أى إلا قتلا خطأ، والمعنى من شأن المؤمن أن ينتفى عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البتة إلا إذا وجد منه خطاب من غير قصد بأن يرمى كافراً فيصـيب مسلما، أو يرمى شخصا على أنه كـافر فإذا هو مسلم ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ صفة مـصدر محذوف أى قتـلا خطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مبتـدأ والخبر محذوف أى فـعله تحريـر رقبة والتحريـر: الإعتاق، والحر والعتيـق الكريم، لأن الكرم فى الأحرار كـما أن اللؤم فى العبـيد ومنه عتاق الطير وعتاق الخيل لكرامها. والرقبة: النسـمة ويعبر عنها بالرأس فى قولهم: فلان يملك كذا رأسا من الرقيق ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ قيل لما أخرج نفسا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسا مثلها فى جملة الأحرار لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها من قبل أن الرقيق ملحق بالأموات إذ الرق أثر من آثار الكفر والكفر موت حكما. ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾(١) ولهذا منع من تصرف الأحرار، وهذا مشكل إذ لو كان كذلك لوجب فى العمد أيضا لكن يحتمل أن يقال إنما وجب عليه ذلك؛ لأن الله

(١) سورة «الأنعام»، الآية (١٢٢).

تعالى أبقى للقاتل نفسا مؤمنة حيث لم يوجب القصاص، فأوجب عليه مثلها رقبة مؤمنة ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كما يقتسمون الميراث لا فرق بينها وبين سائر التركة فى كل شىء فيقضى منها الدين وتنفذ الوصية، وإذا لم يبق وارث فهى لبيت المال، وقد ورّث رسول الله (ﷺ) امرأة أشيم الضبابى من عقل زوجها أشيم لكن الدية على العاقلة والكفارة على القاتل ﴿إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية أى يعفوا عنه، والتقدير فعليه دية فى كل حال إلا فى حال التصدق عليه بها ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ فإن كان المقتول خطأ من قوم أعداء لكم أى كفرة فالعدو يطلق على الجمع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى المقتول مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يعنى إذا أسلم الحربى فى دار الحرب ولم يهاجر إلينا فقتله مسلم خطأ تجب الكفارة بقتله للعصمة المؤثمة وهى الإسلام، ولا تجب الدية؛ لأن العصمة المقومة بالدار ولم توجد ﴿وَإِن كَانَ﴾ أى المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ﴾ بين المسلمين ﴿وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أى وإن كان المقتول ذميا فحكمة حكم المسلم، وفيه دليل على أن دية الذمى كدية المسلم وهو قولنا ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة أى لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ قبولا من الله ورحمة منه، من تاب الله عليه إذا قبل توبته يعنى شرع ذلك توبة منه، أو فليتب توبة فهى نصب على المصدر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ بما أمر ﴿حَكِيماً﴾ فيما قدّر.

●● ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً﴾ حال من ضمير القاتل أى قاصداً قتله لإيمانه وهو كفر، أو قتله مستحلا لقتله وهو كفر أيضاً ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ أى إن جازاه. قال ـ عيه السلام ـ: «هى جزاؤه إن جازاه» (١) والخلود قد يراد به طول المقام. وقول المعتزلة بالخروج من الإيمان يخالف قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾(٢): ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أى انتقم منه وطرده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ لارتكابه أمرا عظيما وخطبا جسيما. فى الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم»(٣).

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سرتم فى طريق الغزو ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتثبتوا حمزة وعلى وهما من التفعل بمعنى الاستفعال أى اطلبوا بيان الأمر وثباته ولاتتهوكوا (٤) فيه ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ السلم مدنى وشامى وحمزة وهما الاستسلام، وقيل: الإسلام، وقيل

---

(١) رواه سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر فى البعث عن أبى مجلز.

(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٧٨).

(٣) رواه الترمذى، والنسائى من حديث عبدالله بن عمر.

(٤) التهوّك: التحير.

التسليم الذى هو تحية أهل الإسلام ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ فى موضع النصب بالقول. وروى أن مرداس بن نهيك [1] أسلم - ولم يسلم من قومه غيره - فغزتهم سرية لرسول الله (ﷺ) فهربوا وبقى مرداس لثقته بإسلامه فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى منعرج من الجبل وصعد فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه فأخبروا رسول الله (ﷺ) فوجد وجداً شديداً وقال: «قتلتموه إرادة مامعه». ثم قرأ الآية على أسامة [2] ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون الغنيمة التى هى حطام سريع النفاد فهو الذى يدعوكم إلى ترك التثبت وقلة البحث عن حال من تقتلونه. والعرض: المال، سمى به لسرعة فنائه وتبتغون حال من ضمير الفاعل فى تقولوا: ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ يغنمكوها تغنيكم عن قتل رجل يظهر الإسلام ويتعوذ به من التعرض له لتأخذوا ماله ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أول مادخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاع على مواطأة قلوبكم لألسنتكم، والكاف فى كذلك خبر كان، وقد تقدم عليها وعلى اسمها ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاستقامة والاشتهار بالإيمان فافعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ كرر الأمر بالتبين ليؤكد عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تتهافتوا فى القتل وكونوا محترزين محتاطين فى ذلك.

●● ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الجهاد ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالنصب مدنى وشامى وعلى، لأنه استثناء من القاعدين، أو حال منهم وبالجر عن حمزة صفة للمؤمنين، وبالرفع غيرهم صفة للقاعدين، والضرر المرض، أو العاهة من عمى، أو عرج أو زمانة، أو نحوها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ عطف على القاعدون ونفى التساوى بين المجاهد والقاعد بغير عذر وإن كان معلوما توبيخا للقاعد عن الجهاد وتحريكا له عليه ونحوه ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] فهو تحريك لطب العلم وتوبيخ على الرضا بالجهل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ ذكر هذه الجملة بيانا للجملة الأولى موضحة لما نفى من استواء القاعدين والمجاهدين كأنه قيل مالهم لا يستوون فأجيب بذلك ﴿دَرَجَةً﴾ نصب على المصدر لوقوعها موقع المرة من التفضيل، كأنه قيل: فضلهم تفضلة، كقولك: ضربه سوطا ونصب ﴿وَكُلًّا﴾ أى وكل

---

(١) مرداس: رجل من فدك، غير مشهور.

(٢) أسامة: هو الصحابى الشاب؛ أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل، الكلبى، أبو محمد، حب رسول الله ﷺ، وابن حبه، وأمه؛ أم أيمن حاضنة الرسول ﷺ، توفى النبى ﷺ وأسامة ابن ١٨ عاماً، وكان يعده لقيادة سرية، وذلك لخبرته وذكائه بالرغم من صغر سنه، وبعد مداولات مع الصحابة أخرجها أبو بكر لتنفيذ وصية الرسول ﷺ توفى عام ٥٨ أو ٥٩هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ١٣٤، ١٣٥).

* والحديث: رواه الثعلبى من حديث ابن عباس، وروى الطبرى نحوه.

(٣) سورة «الزمر» الآية (٩).

فريق من القاعدين والمجاهدين، لأنه مفعول أول لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ والثانى ﴿الْحُسْنَى﴾ أى المثوبة الحسنى وهى الجنة، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ بغير عذر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

●● ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: انتصب أجرا بفضّل لأنه فى معنى أجرهم أجرا ودرجات ومغفرة ورحمة بدل من أجر، أو انتصب درجات نصب درجة كانه قيل: فضلهم تفضيلات، كقولك ضربه أسواطا أى ضربات، وأجرا عظيما. على أنه حال من النكرة التى هى درجات مقدمة عليها. ومغفرة ورحمة. بإضمار فعلهما أى وغفر لهم ورحمهم مغفرة ورحمة وحاصله أن الله تعالى فضل المجاهدين على القاعدين بعذر درجة وعلى القاعدين بغير عذر بأمر النبى - عليه السلام - اكتفاء بغيرهم درجات - لأن الجهاد فرض كفاية ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ بتكفير العذر ﴿رَّحِيمًا﴾ بتوفير الأجرو نزل فيمن أسلم ولم يهاجر حين كانت الهجرة فريضة، وخرج مع المشركين إلى بدر مرتدا فقتل كافرا.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يجوز أن يكون ماضيا لقراءة من قرأ توفتهم ومضارعا بمعنى تتوفاهم، وحذفت التاء الثانية لاجتماع التاءين، والتوفى: قبض الروح، والملائكة: ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ حال من ضمير المفعول فى توفاهم، أى فى حال ظلمهم أنفسهم بالكفر وترك الهجرة ﴿قَالُوا﴾ أى الملائكة للمتوفّين ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أى فى أى شىء كنتم فى أمر دينكم، ومعناه التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عاجزين عن الهجرة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة فأخرجونا كارهين ﴿قَالُوا﴾ أى الملائكة موبخين لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أرادوا أنكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التى لاتمنعون فيها من إظهار دينكم ومن الهجرة إلى رسول الله (ﷺ) ونصب فتهاجروا على جواب الاستفهام ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ خبر إن فأولئك، ودخول الفاء لما فى الذين من الإبهام المشابه بالشرط، أو قالوا: فيم كنتم والعائد محذوف، أى قالوا لهم، والآية تدل على أن من لم يتمكن من إقامة دينه فى بلد كما يجب وعلم أنه يتمكن من إقامته فى غيره حقت عليه المهاجرة، وفى الحديث: «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجبت له الجنة». وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد (ﷺ)(١).

●● ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثنى من أهل الوعيد المستضعفين الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فى الخروج منها لفقرهم وعجزهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ولا معرفة لهم

(١) أخرجه الثعلبى فى تفسير سورة العنكبوت عن الحسن مرسلاً.

بالمسالك ولا يستطيعون صفة للمستضعفين أو للرجال والنساء والولدان، وإنما جاز ذلك، والجمل نكرات، لأن الموصوف وإن كان فيه حرف التعريف فليس بشيء بعينه كقوله:

* ولقد أمر على اللئيم يسبني*

●● ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ وعسى وإن كان للإطماع فهو من الله واجب، لأن الكريم إذا أطمع أنجز ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ لعباده قبل أن يخلقهم.

●● ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾ مهاجرا وطريقا يراغم بسلوكه قومه أي يفارقهم على رغم أنوفهم، والرغم: الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب، يقال: راغمت الرجل إذا فارقته وهو يكره مفارقتك لمذلة تلحقه بذلك ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق أو في إظهار الدين أو في الصدر لتبدل الخوف بالأمن ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ حال من الضمير في يخرج ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى حيث أمر الله ورسوله ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه مهاجره وهو عطف على يخرج ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: حصل له الأجر بوعد الله وهو تأكيد للوعد فلا شيء يجب على الله لأحد من خلقه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قالوا: كل هجرة لطلب علم، أوحج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة، أو قناعة، أو زهدا، أو ابتغاء رزق طيب فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت في طريقه فقد وقع أجره على الله.

●● ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتم فيها فالضرب في الأرض هو السفر ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾ في أن تقصروا ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ من أعداد ركعات الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين، وظاهر الآية يقتضي أن القصر رخصة في السفر والإكمال عزيمة، كما قال الشافعي ـ رحمه الله ـ لأن لاجناح يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لا في موضع العزيمة وقلنا: القصر عزيمة غير رخصة، ولايجوز الإكمال لقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ[1] وأما الآية فكأنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة؛ لأن يخطر ببالهم أن عليهم نقصانا في القصر فنفى عنهم الجناح لتطيب أنفسهم بالقصر ويطمئنوا إليه ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إن خشيتم أن يقصدكم الكفار بقتل أو جرح أو أخذ، والخوف شرط جواز القصر عند الخوارج بظاهر النص، وعند الجمهور ليس بشرط لما روى عن يعلى بن أمية أنه قال لعمر: ما بالنا نقصر وقد أمنّا فقال: عجبت مما تعجبت منه فسألت رسول الله (ﷺ) عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[2]. وفيه دليل على أنه لا يجوز الإكمال في السفر لأن التصدق بما لايحتمل التمليك إسقاط محض لايحتمل الرد وإن كان المتصدق ممن لا تلزم طاعته

---

(١) رواه النسائي، وابن ماجة من رواية عبدالرحمن بن أبي ليلى عن عمر رضي الله عنه.
(٢) رواه أحمد، وأبو يعلى.

كولى القصاص إذا عفا فمن تلزم طاعته أولى؛ ولأن حالهم حين نزول الآية كذلك فنزلت على وفق الحال وهو كقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ (١) دليله قراءة عبدالله من الصلاة أن يفتنكم أى لئلا يفتنكم على أن المراد بالآية قصر الأحوال وهو أن يومى على الدابة عند الخوف أو يخفف القراءة والركوع والسجود والتسبيح كما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ فتحرزوا عنهم.

•• ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمْ﴾ فى أصحابك ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ فأردت أن تقيم الصلاة بهم وبظاهره تعلق أبو يوسف ـ رحمه الله ـ فلا يرى صلاة الخوف بعده ـ عليه السلام ـ وقالا: (٢) الأئمة نواب عن رسول الله (ﷺ) فى كل عصر فكان الخطاب له متناولا لكل إمام، كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾(٣)، دليله فعل الصحابة رضى الله عنهم بعده ـ عليه السلام ـ ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك فصل بهم وتقوم طائفة تجاه العدو ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أى الذين تجاه العدو. عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وإن كان المراد به المصلين، فقالوا يأخذون من السلاح مالا يشغلهم عن الصلاة كالسيف والخنجر ونحوهما﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أى قيدوا ركعتهم بسجدتين فالسجود على ظاهره عندنا، وعند مالك بمعنى الصلاة ﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ أى إذا صلت هذه الطائفة التى معك ركعة فليرجعوا ليقفوا بإزاء العدو ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا﴾ فى موضع رفع صفة لطائفة ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أى ولتحضر الطائفة الواقفة بإزاء العدو فليصلوا معك الركعة الثانية ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾ ما يتحرزون به من العدو كالذرع ونحوه ﴿وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جمع سلاح وهو ما يقاتل به، وأخذ السلاح شرط عند الشافعى ـ رحمه الله ـ وعندنا مستحب، وكيفية صلاة الخوف معروفة ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة فى صلاتكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فيشدون عليكم شدة واحدة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا﴾ فى أن تضعوا ﴿أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ رخص لهم فيوضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها بسبب ما يبلهم من مطر، أو يضعفهم من مرض وأمرهم مع ذلك بأخذ الحذر لئلا يغفلوا فيهجم عليهم العدو ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أخبر أنه يهين عدوهم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لتوقع غلبتهم عليهم وإنما هو تعبد من الله تعالى.

---

(١) سورة «النور»، الآية (٣٣).

(٢) يقصد الصاحبين؛ محمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل صاحبى أبى حنيفة.

(٣) سورة «التوبة»، الآية (١٠٣).

●● ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ﴾ فرغتم منها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أى دوموا على ذكر الله فى جميع الأحوال، أو فإذا أردتم أداء الصلاة فصلوا قيامًا إن قدرتم عليه، وقعودا إن عجزتم عن القيام، ومضطجعين إن عجزتم عن القعود ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ سكنتم بزوال الخوف ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ فأتموها بطائفة واحدة إو إذا أقمتم فأتموا ولاتقصروا، أو إذا اطمأننتم بالصحة فأتموا القيام والركوع والسجود ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ مكتوبا محدودا بأوقات معلومة ﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ولا تتوانوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ فى طلب الكفار بالقتال والتعرض به لهم ثم ألزمهم الحجة بقوله: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ أى ليس ما تجدون من الألم بالجرح والقتل مختصا بكم بل هو مشترك بينكم وبينهم يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أجدر منهم بالصبر، لأنكم ترجون من الله مالا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان ومن الثواب العظيم فى الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما يجد المؤمنون من الألم ﴿حَكِيمًا﴾ فى تدبير أمورهم. روى أن طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان فى جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق فيه، وخبأها عند زيد بن السمين - رجل من اليهود - فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى، فأخذوها فقال: دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله (ﷺ) فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح ويبرئ اليهودى فهم رسول الله (ﷺ) أن يفعل فنزل.

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى محقا ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما عرفك وأوحى به إليك، وقال الشيخ أبو منصور - رحمه الله: بما ألهمك بالنظر فى أصوله المنزلة، وفيه دلالة جواز الاجتهاد فى حقه ﴿وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ﴾ لأجل الخائنين ﴿خَصِيمًا﴾ مخاصما أى ولاتخاصم اليهود لأجل بنى ظفر.

●● ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

●● ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعصية جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، لأن الضرر راجع إليهم والمراد به طعمة ومن عاونه من قومه وهم يعلمون أنه سارق، أو ذكر بلفظ الجمع ليتناول طعمة وكل من خان خيانته ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وإنما قيل بلفظ المبالغة؛ لأنه تعالى عالم من طعمة أنه مُفْرِط فى الخيانة وركوب المآثم وروى أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله، وقيل إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر - رضى الله عنه - أنه أمر بقطع يد

سارق فجاءت أمه تبكى وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه، فقال: كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة.

●● ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ يستترون ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ حياء منهم وخوفا من ضررهم ﴿وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولايستحيون منه ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهو عالم بهم مطلع عليهم لايخفى عليه لايخفى عليه خاف من سرهم، وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم أنهم فى حضرته لا سترة ولا غيبة ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون وأصله أن يكون ليلا ﴿مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو تدبير طعمة أن يرمى بالدرع فى دار زيد ليسرَّق دونه ويحلف أنه لم يسرقها، وهو دليل على أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس حيث سمى التدبير قولا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ عالم علم إحاطة.

●● ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾ ها للتنبيه فى أنتم وأولاء، وهما مبتدأ وخبر ﴿جَادَلْتُمْ﴾ خاصمتم، وهى جملة مبينة لوقوع أولاء خبرًا، كقولك لبعض الأسخياء: أنت حاتم تجود بمالك، أو أولاء اسم موصول بمعنى الذين وجادلتم صلته، والمعنى هبوا أنكم خاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾ عن طعمة وقومه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فمن يخاصم عنهم فى الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه. وقرئ عنه أى عن طعمة ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ حافظا ومحاميا من بأس الله وعذابه.

●● ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا﴾ ذنبا دون الشرك ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالشرك أو سوءا قبيحًا يتعدى ضرره إلى الغير كما فعل طعمة بقتادة واليهودى، أو يظلم نفسه بما يختص به كالحلف الكاذب ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يسأل مغفرته ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ له وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ لأن وباله عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يعاقب بالذنب غير فاعله.

●● ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أو كبيرة، أو الأول ذنب بينه وبين ربه، والثانى ذنب فى مظالم العباد ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ كما رمى طعمة زيدا ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾ كذبا عظيما ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ذنبا ظاهرا وهذا؛ لأنه بكسب الإثم آثم ويرمى البرىء باهت فهو جامع الأمرين، والبهتان كذب يبهت، من قيل عليه مالا علم له به.

●● ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى عصمته ولطفه من الاطلاع على سرهم ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من بنى ظفر، أو المراد بالطائفة بنو ظفر الضمير فى منهم يعود إلى الناس ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق وتوخى طريق العدل مع علمهم بأن الجانى صاحبهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾

لأن وباله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ لأنك إنما عملت بظاهر الحال وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ والسنة ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من أمور الدين والشرائع، أو من خفيات الأمور وضمائر القلوب ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ فيما علمك وأنعم عليك ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ من تناجي الناس ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ إلا نجوى من أمر وهو مجرور بدل من كثير أو من نجواهم، أو منصوب على الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففى نجواه الخير ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أى قرض، أو إغاثة ملهوف، أو كل جميل، أو المراد بالصدقة الزكاة وبالمعروف التطوع ﴿أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى إصلاح ذات البين ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلب رضا الله وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترؤسا، وهو مفعول له والإشكال أنه قال: إلا من أمر، ثم قال: ومن يفعل ذلك والجواب أنه ذكر الأمر بالخير ليدل به على فاعله لأنه إذا دخل الآمر به فى زمرة الخيرين كان الفاعل فيهم أدخل ثم قال ومن يفعل ذلك فذكر الفاعل وقرن به الوعد بالأجر العظيم، أو المراد ومن يأمر بذلك فعبر عن الأمر بالفعل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ يؤتيه أبو عمرو وحمزة.

●● ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ ومن يخالف الرسول من بعد وضوح الدليل وظهور الرشد ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى السبيل الذى هم عليه من الدين الحنيفى، وهو دليل على أن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها كما لاتجوز مخالفة الكتاب والسنة، لأن الله تعالى جمع بين اتباع غير سبيل المؤمنين وبين مشاقة الرسول فى الشرط وجعل جزاءه الوعيد الشديد فكان اتباعهم واجبا كموالاة الرسول ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ نجعله واليا لما تولى من الضلال وندعه وما اختاره فى الدنيا ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ فى العقبى ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ قيل: هى فى طعمة وارتداده.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ مر تفسيره فى هذه السورة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ عن الصواب.

●● ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ مايعبدون من دون الله ﴿إِلاَّ إِنَاثاً﴾ جمع أنثى وهى اللات والعزى ومناة ولم يكن حى من العرب إلا ولهم صنم يعبدونه يسمونه أنثى بنى فلان، وقيل: كانوا يقولون فى أصنامهم هى بنات الله ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿إِلاَّ شَيْطَاناً﴾ لأنه هو الذى أغراهم على عبادة الأصنام فأطاعوه فجعلت طاعتهم له عبادة ﴿مَّرِيداً﴾ خارجا عن الطاعة عاريا عن الخير ومنه الأمرد.

●● ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ﴾ صفتان يعنى شيطانا مريدا جامعا بين لعنه الله وهذا القول الشنيع ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾ مقطوعا واجبا لى من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد لله ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بالدعاء إلى الضلالة والتزيين والوسوسة، ولو كان إنفاذ الضلالة إليه لأضل الكل ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ولالقين فى قلوبهم الأمانى الباطلة من طول الأعمار وبلوغ الآمال ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ البتك: القطع. والتبتيك للتكثير والتكرير أى لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام، وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ بفقء عين الحامى وإعفائه عن الركوب، أو بالخصاء، وهو مباح فى البهائم محظور فى بنى آدم أو بالوشم، أو بنفى الأنساب واستلحاقهم أو بتغيير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنث أو بتبديل فطرة الله التى هى دين الإسلام لقوله ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾(١) ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وأجاب إلى ما دعاه إليه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ فى الدارين.

●● ﴿يَعِدُهُمْ﴾ يوسوس إليهم أن لاجنة ولانار ولابعث ولا حساب ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ مالا ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ هو أن يرى شيئا يظهر خلافه ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلا ومفرا.

●● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يتبعوا الشيطان فى الأمر بالكفر ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ النخعي سيدخلهم ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران الأول مؤكد لنفسه، والثانى مؤكد لغيره ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ قولا وهو استفهام بمعنى النفى أى لا أحد أصدق منه، وهو تأكيد ثالث وفائدة، هذه التوكيدات مقابلة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائة بوعد الله الصادق لأوليائه.

●● ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ليس الأمر على شهواتكم وأمانيكم أيها المشركون أن تنفعكم الأصنام ﴿وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ولا على شهوات اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(٢). ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾(٣) ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أى من المشركين وأهل الكتاب بدليل قوله: ﴿وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾وهذا وعيد للكفار، لأنه قال بعده.

●● ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقوله: وهو مؤمن حال ومن الأولى للتبعيض والثانية لبيان الإبهام فى من يعمل وفيه إشارة إلى أن الأعمال ليست من الإيمان ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ يُدخلون مكى وأبو عمرو وأبو بكر ﴿وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قدر النقير وهو النقرة فى ظهر النواة والراجع فى ولا يظلمون لعمال السوء وعمال الصالحات جميعا وجاز أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دليلا على ذكره عند الآخر، وقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ

(١) سورة «الروم»، الآية (٣٠).
(٢) سورة «المائدة»، الآية (١٨).
(٣) سورة «البقرة»، الآية (٨٠).

مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾. بعد ذكر تمنى أهل الكتاب كقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [(١)]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [(٢)] عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [(٣)] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا يعرف لها ربا ولا معبودا سواه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عامل للحسنات ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلا عن الأديان الباطلة، وهو حال من المتبع، أو من إبراهيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ هو فى الأصل المخال، وهو الذى يخالك أى يوافقك فى خلالك، أو يداخلك خلال منزلك أو يسد خللك كما يسد خلله فالخلة صفاء مودة توجب الاختصاص بتخلل الأسرار والمحبة أصفى لأنها من حبة القلب، وهى جملة اعتراضية لامحل لها من الإعراب، كقوله: والحوادث جمة وفائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته ولو جعلتها معطوفة على الجمل قبلها لم يكن لها معنى، وفى الحديث: «**اتخذ الله إبراهيم خليلا لإطعامه الطعام وإفشائه السلام وصلاته بالليل والناس نيام**» [(٤)] وقيل: أوحى إليه إنما اتخذتك خليلا لأنك تحب أن تعطى ولا تعطى، وفى رواية لأنك تعطى الناس ولا تسألهم وفى قوله.

•• ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ دليل على أن اتخاذه خليلا لاحتياج الخليل إليه لا لاحتياجه تعالى إليه لأنه منزه عن ذلك ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ عالمًا.

•• ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ ويسألونك الإفتاء فى النساء والإفتاء تبيين المبهم ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ أى الله يفتيكم والمتلو فى الكتاب أى القرآن فى معنى اليتامى يعنى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [(٥)]. وهو من قولك: أعجبنى زيد وكرمه وما يتلى فى محل الرفع بالعطف على الضمير فى يفتيكم، أو على لفظ الله وفى يتامى النساء صلة يتلى أى يتلى عليكم فى معناهن ويجوز أن يكون فى يتامى النساء بدلا من فيهن والإضافة بمعنى من ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ مافرض لهن من الميراث وكان الرجل منهم يضم اليتيمة إلى نفسه ومالها فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أى فى أن تنكحوهن لجمالهن، أو عن أن تنكحوهن لدمامتهن ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أى اليتامى وهو مجرور معطوف على يتامى النساء وكانوا فى الجاهلية إنما يورثون الرجال القوام بالأمور دون الأطفال والنساء ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ﴾

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٨١).
(٢) سورة «البقرة»، الآية (٨٢).
(٣) سورة «البقرة»، الآية (٨٠).
(٤) رواه البيهقى فى الشعب عن عبدالله بن عمر. وفيه: لإطعامه الطعام. فقط.
(٥) سورة «النساء»، الآية (٣).

مجرور كالمستضعفين بمعنى يفتيكم فى يتامى النساء، وفى المستضعفين، وفى أن تقوموا، أو منصوب بمعنى ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة فى أن ينظروا لهم ويستوفوا لهم حقوقهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل فى ميراثهم ومالهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ شرط وجوابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أى فيجازيكم عليه.

•• ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ توقعت منه ذلك لما لاح لها من مخايله وأمارته. والنشوز أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته وأن يؤذيها بسب أو ضرب ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بأن يقل محادثتها ومؤانستها بسبب كبر سن، أو دمامة، أو سوء فى خلق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ كوفى. يصالحا غيرهم أى يتصالحا وهو أصله بأبدلت التاء صادا وادغمت ﴿صُلْحًا﴾ فى معنى مصدر كل واحد من الفعلين. ومعنى الصلح أن يتصالحا على أن تطيب له نفسا عن القسمة، أو عن بعضها، أو تهب له بعض المهر، أو كله أو النفقة ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة، أو من النشوز، أو من الخصومة فى كل شىء، أو والصلح خير من الخيور، كما أن الخصومة شر من الشرور وهذه الجملة اعتراض كقوله ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أى جعل الشح حاضرا لها لايغيب عنها أبدا ولا تنفك عنه يعنى أنها مطبوعة عليه. والمراد أن المرأة لا تكاد تسمح بقسمها، والرجل لا يكاد يسمح بأن يقسم لها إذا رغب عنها فكل واحد منهما يطلب مافيه راحته. وأحضرت يتعدى إلى مفعولين، والأول الأنفس، ثم حث على مخالفة الطبع ومتابعة الشرط بقوله ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ بالإقامة على نسائكم وإن كرهتموهن وأجبتم غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصحبة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض وما يؤدى إلى الأذى والخصومة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿خَبِيرًا﴾ فيثيبكم عليه، وكان عمران الخارجى من أدمّ بنى آدمّ وامرأته من أجملهم فنظرت إليه، وقالت: الحمد لله على أنى وإياك من أهل الجنة قال كيف؟ فقالت لأنك رزقت مثلى فشكرت ورزقت مثلك فصبرت، والجنة موعودة للشاكرين والصابرين.

•• ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ولن تستطيعوا العدل بين النساء والتسوية حتى لايقع ميل البتة فتمام العدل أن يسوى بينهن بالقسمة والنفقة والتعهد والنظر والإقبال والمحالمة والمفاكهة وغيرها، وقيل: معناه أن تعدلوا فى المحبة وكان عليه السلام يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذه قسمتى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك» (١): يعنى المحبة، لأن عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت أحب إليه ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالغتم فى تحرى ذلك ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ فلاتجوروا على المرغوب عنها كل الجور فتمنعوها قسمها من غير رضا منها يعنى أن اجتناب كل الميل فى حد

---

(١) رواه أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم من حديث عائشة، رضى الله عنها.

اليسر فلا تُفْرطوا فيه إن وقع منكم التفريط فى العدل كله وفيه ضرب من التوبيخ، وكل نصب على المصدر، لأن له حكم مايضاف إليه ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وهى التى ليست بذات بعل ولا مطلقة ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ بينهن ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الجور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ يغفر لكم ميل قلوبكم ويرحمكم فلا يعاقبكم.

●● ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أى إن لم يصطلح الزوجان على شىء وتفرقا بالخلع أو بتطليقه إياها وإيفائه مهرها ونفقة عدتها ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ﴾ كل واحد منهما ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ من غناه أى يرزقه زوجا خيرا من زوجه وعيشا أهنأ من عيشه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً﴾ بتحليل النكاح ﴿حَكِيماً﴾ بالإذن فى السراح فالسعة الغنى والقدرة والواسع الغنى المقتدر، ثم بين غناه وقدرته بقوله.

●● ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ خلقا والمتملكون عبيده رقا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هو اسم للجنس فيتناول الكتب السماوية ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم السالفة وهو متعلق بوصينا أو بأوتوا ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين أوتوا ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا، أو تكون أن المفسرة؛ لأن التوصية فى معنى القول، والمعنى أن هذه وصية قديمة مازاله يوصى الله بها عباده ـ ولستم بها مخصوصين ـ لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ عطف على اتقوا، لأن المعنى أمرناهم وأمرناكم بالتقوى وقلنا لهم ولكم إن تكفروا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً﴾ عن خلقه وعن عبادتهم ﴿حَمِيداً﴾ مستحقا لأن يحمد لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد. وتكرير قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تقرير لما هو موجب تقواه، لأن الخلق لما كان كله له وهو خالقهم ومالكهم فحقه أن يكون مطاعا فى خلقه غير معصى وفيه دليل على أن التقوى أصل الخير كله، وقوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ عقيب التقوى دليل على أن المراد الاتقاء عن الشرك.

●● ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ فاتخذوه وكيلا ولاتتكلوا على غيره ثم خوفهم وبين قدرته بقوله.

●● ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ويوجد إنسا آخرين مكانكم أو خلقا آخرين غير الإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيراً﴾ بليغ القدرة.

●● ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فما له يطلب أحدهما دون الآخر والذى يطلبه أخسهما ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً﴾ للأقوال ﴿بَصِيراً﴾ بالأفعال وهو وعد ووعيد.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مجتهدين فى إقامة العدل حتى لا تجوروا ﴿شُهَدَاءَ﴾ خبر بعد خبر ﴿لِلَّهِ﴾ أى تقيمون شهاداتكم لوجه الله ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت

الشهادة على أنفسكم والشهادة على نفسه هى الإقرار على نفسه؛ لأنه فى معنى الشهادة عليها بإلزام الحق وهذا لأن الدعوى والشهادة والإقرار يشترك جميعها فى الإخبار عن حق لأحد على حد، غير أن الدعوى إخبار عن حق لنفسه على الغير، والإقرار للغير على نفسه، والشهادة للغير على الغير ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ أى ولو كانت الشهادة على آبائكم وأمهاتكم وأقاربكم ﴿إِن يَكُن﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ فلايمنع الشهادة على لغناه طلبا لرضاه ﴿أَوْ فَقِيراً﴾ فلايمنعها ترحما عليه ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغنى والفقير أى بالنظر لهما والرحمة، وإنما ثنى الضمير فى بهما وكان حقه أن يوحد، لأن المعنى إن يكن أحد هذين لأنه يرجع إلى مادل عليه قوله: ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً﴾ وهو جنس الغنى والفقير كأنه قيل فالله أولى بجنسى الغنى والفقير أى بالأغنياء والفقراء ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ إرادة ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ عن الحق من العدول أو كراهة أن تعدلوا بين الناس من العدل ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ بواو واحدة وضم اللام شامى وحمزة من الولاية ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أى وإن وليتم إقامة الشهادة أو أعرضتم عن إقامتها. غيرهما تلووا بواوين وسكون اللام من اللى أى وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو حكومة العدل أو تعرضوا عن الشهادة بما عندكم وتمنعوها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ فيجازيكم عليه.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للسلمين ﴿آمِنُوا﴾ اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه، أو لأهل الكتاب، لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض، أو للمنافقين أى يا أيها الذين آمنوا نفاقا آمنوا إخلاصا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى محمد (ﷺ) ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أى الفرقان ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أى جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من الكتب ويدل عليه قوله: وكتبه. نزل وأنزل بالبناء للمفعول مكى وشامى وأبو عمرو، وعلى البناء للفاعل فيهما غيرهم، وإنما قيل نزل على رسوله وأنزل من قبل لأن الفرقان نزل مفرقا منجما فى عشرين سنة بخلاف الكتب قبله ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى ومن يكفر بشىء من ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ لأن الكفر ببعضه كفر بكله.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بموسى عليه السلام ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بموسى بعد عوده ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعيسى عليه السلام ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾ بكفرهم بمحمد (ﷺ) ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ إلى النجاة، أو إلى الجنة، أو هم المنافقون آمنوا فى الظاهر وكفروا فى السر مرة بعد أخرى، وازدياد الكفر منهم ثباتهم عليه إلى الموت يؤيده قوله.

•• ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ أى أخبرهم ووضع بشر مكانه تهكما بهم ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ مؤلما.

﴿الَّذِينَ﴾ نصب على الذم، أو رفع بمعنى أريد الذين، أو هم الذين ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ كان المنافقون يوالون الكفرة يطلبون منهم المنعة والنصرة ويقولون: لايتم أمر محمد ـ عليه السلام ـ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ولمن أعزه كالنبى عليه السلام والمؤمنين، كما قال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

•• ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح النون عاصم وبضمها غيره ﴿فِى الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ حتى يشرعوا فى كلام غير الكفر والاستهزاء بالقرآن والخوض: الشروع وأن مخففة من الثقيلة أى أنه إذا سمعتم أى نزل عليكم أن الشأن كذا. والشأن ما أفادته الجملة بشرطها وجزائها، وأن مع ما فى حيزها فى موضع الرفع بنُزِّل، أو فى موضع النصب بنَزَّل والمنزل عليهم فى الكتاب هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[٢] وذلك أن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم فيستهزئون به فنهى المسلمين عن القعود معهم ماداموا خائضين فيه، وكان المنافقون بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين بمكة فهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أى فى الوزر إذا مكثتم معهم ولم يرد به التمثيل من كل وجه فإن خوض المنافقين فيه كفر ومكث هؤلاء معهم معصية ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لاجتماعهم فى الكفر والاستهزاء.

•• ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين، أو نصب على الذم منهم ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم مايتجدد لكم من ظفر أو إخفاق ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ نصرة وغنيمة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين فأشركونا فى الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ سمى ظفر المسلمين فتحا تعظيما لشأنهم، لأنه أمر عظيم تفتح له أبواب السماء وظفر الكافرين نصيبا تخسيسا لحظهم، لأنه لُمظة من الدنيا يصيبونها ﴿قَالُوا﴾ للكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم، والاستحواذ الاستيلاء والغلبة ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبطناهم عنكم وخيلنا لهم ما ضعفت قلوبهم به ومرضوا عن قتالكم وتوانينا فى مظاهرتهم عليكم فهاتوا نصيبا لنا مما أصبتم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أيها المؤمنون والمنافقون ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيدخل المنافقين النار والمؤمنين الجنة ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أى فى القيامة بدليل أول الآية كذا عن على ـ رضى الله عنه ـ أو حجة، كذا عن ابن عباس، رضى الله عنهما.

•• ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أى يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، أو أولياء الله وهم المؤمنون فأضاف خداعهم إلى نفسه

(١) سورة «المنافقون»، الآية (٨).
(٢) سورة «الأنعام»، الآية (٦٨).

تشريفا لهم ﴿وَهُوَ خَادِعُهُم﴾ وهو فاعل بهم ما يفعل المغالب فى الخداع حيث تركهم معصومى الدماء والأموال فى الدنيا وأعد لهم الدرك الأسفل من النار فى العقبى والخادع اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه، وقيل: يجزيهم جزاء خداعهم ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ متثاقلين كراهة أما الغفلة فقد يبتلى بها المؤمن وهو جمع كسلان كسكارى فى سكران ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ حال أى يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة والمراءاة مفاعلة من الرؤية، لأن المرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسانا ﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ولا يصلون إلا قليلا لأنهم لايصلون قط غائبين عن عيون الناس، أولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكرا قيلا نادرا. قال الحسن: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيرا.

●● ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ نصب على الذم أى مردَّدين يعنى ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر فهم مترددون بينهما متحيرون، وحقيقة المذبذب الذى يذب عن كلا الجانبين أى يدفع فلا يقر فى جانب واحد إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس فى الذب ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الكفر والإيمان ﴿لا إِلَى هَؤُلاءِ﴾ لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونوا مؤمنين ﴿وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾ ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسموا مشركين ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الهدى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ حجة بينة فى تعذيبكم.

●● ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أى فى الطبق الذى فى قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك، لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض، وإنما كان المنافق أشد عذابا من الكافر، لأنه أمن السيف فى الدنيا فاستحق الدرك الأسفل فى العقبى تعديلا، ولأنه مثله فى الكفر وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله، والدرك بسكون الراء كوفى غير الأعشى، ويفتح الراء غيرهم، وهما لغتان وذكر الزجاج أن الاختيار فتح الراء ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يمنعهم من العذاب.

●● ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ من النفاق وهو استثناء من الضمير المجرور فى ولن تجد لهم نصيرا ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم فى حال النفاق ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ ووثقوا به كما يثق المؤمنون الخلص ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لايبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهم أصحاب المؤمنين ورفاقهم فى الدارين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيشاركونهم فيه وحذفت الياء فى الخط هنا إتباعا للفظ ثم استفهم مقررا أنه لا يعذب المؤمن الشاكر فقال.

●● ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ لله ﴿وَآمَنتُمْ﴾ به فما منصوبة بيفعل أى أى شىء يفعل

بعذابكم فالإيمان معرفة المنعم والشكر الاعتراف بالنعمة والكفر بالمنعم والنعمة عناد فلذا استحق الكافر العذاب وقدم الشكر على الإيمان؛ لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة فى خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكرا مبهما فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به، ثم شكر شكرا مفصلا فكان الشكر متقدما على الإيمان ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ يجزيكم على شكركم، أو يقبل اليسير من العمل ويعطى بالجزيل من الثواب ﴿عَلِيمًا﴾ عالما بما تصنعون.

●● ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ولاغير الجهر ولكن الجهر أفحش ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ إلا جهر من ظلم استثنى من الجهر الذى لايحبه الله جهر المظلوم وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بمافيه من السوء. وقيل: الجهر بالسوء من القول هو الشتم، إلا من ظلم فإنه إن رد عليه مثله فلا حرج عليه، ولمن انتصر بعد ظلمه ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لشكوى المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ بظلم الظالم، ثم حث على العفو وأن لايجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار بعد ما أطلق الجهر به حثا على الأفضل وذكر إبداء الخير وإخفاءه تشبيبا للعفو فقال:

●● ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا﴾ مكان جهر السوء ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فتعملوه سرا ثم عطف العفو عليهما فقال ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ أى تمحوه عن قلوبكم والدليل على أن العفو هو المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أى إنه لم يزل عفوا عن الآثام مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنته.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ كاليهود كفروا بعيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ والإنجيل والقرآن وكالنصارى كفروا بمحمد (ﷺ) والقرآن ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ أى دينا وسطا بين الإيمان والكفر ولا واسطة بينهما.

●● ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هم الكاملون فى الكفر؛ لأن الكفر بواحد كفر بالكل ﴿حَقًّا﴾ تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هذا عبدالله حقا أى حق ذلك حقا وهو كونهم كاملين فى الكفر، أو هو صفة لمصدر الكافرين أن هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لاشك فيه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فى الآخرة.

●● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ وإنما جاز دخول بين على أحد؛ لأنه عام فى الواحد المذكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما ﴿أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ وبالياء حفص ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أى الثواب الموعود لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يستر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ يقبل الحسنات، والآية تدل على بطلان قول المعتزلة فى تخليد المرتكب الكبيرة؛ لأنه أخبر أن من آمن بالله ورسله ولم يفرق بين أحد منهم يؤتيه أجره ومرتكب الكبيرة ممن آمن بالله ورسله، ولم يفرق بين أحد

فيدخل تحت الوعد وعلى بطلان قول من لايقول بقدم صفات الفعل من المغفرة والرحمة، لأنه قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وهم يقولون ما كان الله غفورا رحيما فى الأزل ثم صار غفورا رحيما، ولما قال فنحاص وأصحابه للنبى (ﷺ) إن كنت نبيا صادقا فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى ـ عليه السلام ـ نزل.

•• ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ﴾ وبالتخفيف مكى وأبو عمرو ﴿كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى جملة كما نزلت التوراة جملة، وإنما اقترحوا ذلك على سبيل التعنت، وقال الحسن: ولو سألوه مسترشدين لأعطاهم؛ لأن إنزال القرآن جملة ممكن ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ هذا جواب شرط مقدر معناه إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، وإنما أسند السؤال إليهم وقد وجد من آبائهم فى أيام موسى ـ عليه السلام ـ وهم النقباء السبعون، لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عيانا أى أرنا نره جهرة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ العذاب الهائل، أو النار المحرقة ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ على أنفسهم بسؤال شىء فى غير موضعه، أو بالتحكم على نبيهم فى الآيات وتعنتهم فى سؤال الرؤية لا بسؤال الرؤية، لأنها ممكنة كإنزال القرآن جملة ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق فإنه قال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [1] وما أخذته الصاعقة بل أطمعه وقيده بالممكن، ولا يعلق بالممكن إلا ما هو ممكن الثبوت ثم أحياهم ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ التوراة والمعجزات التسع ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ تفضلا ولم نستأصلهم ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ حجة ظاهرة على من خالفه.

•• ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ والطور مطل عليهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى ادخلوا باب إيلياء[2] مطأطئين عند الدخول رءوسكم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾ لا تجاوزوا الحد تعدُّوا ورش تعدوا بإسكان العين وتشديد الدال مدنى غير ورش وهما مدغما تعتدوا وهى قراءة أبى إلا أنه أدغم التاء فى الدال وأبقى العين ساكنة فى رواية وفى رواية نقل فتح التاء إلى العين ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بأخذ السمك ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً موكداً.

•• ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ أى فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والباء يتعلق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾[3] تقديره حرمنا عليهم طيبات بنقضهم ميثاقهم، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾[4] بدل من قوله فبما نقضهم ﴿مِّيثَاقَهُمْ﴾ ومعنى التوكيد تحقيق أن تحريم الطيبات لم يكن إلا بنقض العهد،

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٤٣).

(٢) إيلياء: تطلق على بيت المقدس، وقيل معناه: بيت الله.

(٣) سورة «النساء»، الآية (١٦٠).

(٤) سورة «النساء»، الآية (١٦٠).

وما عطف عليه من الكفـر، وقتل الأنبياء وغير ذلك ﴿وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى معجزات موسى - عليه السلام - ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء﴾ كزكريا ويحيى وغيرهما ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير سبب يستحقون به القتل ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغلف أى محجوبة لا يتوصـل إليها شىء من الذمر والوعظ ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ هو رد وإنكار لقولهـم قلوبنا غلف ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه.

●● ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوف على فبما نقضهم، أو على ما يـليه من قوله بكفرهم ولما تكرر منهم الكفر، لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد (ﷺ) عطف بعـض كفرهم على بعض ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ هو النسبة إلى الزنا.

●● ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ سمى مسيحـا، لأن جبريل - عليه السلام - مسحه بـالبركة فهو ممسوح، أو لأنه كان يمسح المريض والأكمه والأبرص فيبـرأ فسمى مسيحاً بمعنى الماسح ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ هم لم يعتقدوه رسول الله، لكنهم قالـوا استهزاء - كقول الكفار لرسولنا - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(١) ويحتمـل أن الله وصفه بالرسول وإن لم يـقولوا ذلك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. روى أن رهطاً من اليهود سبوه وسبوا أمه فدعا عليهم اللهم أنت ربى وبـكلمتك خـلقتنـي اللهم العـن من سبنى وسـب والدتى فمـسخ الله من سبهـما قردة وخنازير، فاجتمعت اليـهود على قتله فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويـطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة فقال رجل منهم: أنا، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب، وقيل: كان رجـل ينافق عيسى فلما أرادوا قتله، قال: أنا أدلكم عليه فدخل بيت عيسى ورفع عيسى وألقى الله شبهه على المنافق فدخلوا عليه، فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى، وجاز هذا على قوم متعنتين حكم الله بأنهم لا يؤمنون، وشبه مسند إلى الجار والمجرور وهو لهم، كقولك خيـل إليه كأنه قيل، ولكن وقع لهم الـتشبيه أو مسند إلى ضمير المـقتول لدلالة إنا قتلنا علـيه كأنه قيل ولكن شبه لـهم من قتلوه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فى عيسى يعـنى اليهود، قالوا: إن الوجه وجه عيسـى والبدن بدن صاحبنا، أو اختلف النصارى قـالوا: إله وابن إله وثالث ثلاثة ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم يعنى ولكنـهم يتبعون الظن وإنما وصفوا بالشك وهو أن لايتـرجح أحد الجانبين، ثم وصفوا بالظن وهو أن يـترجح أحدهما، لأن المراد أنهم شـاكون مالهم به من علم ولـكن إن لاحت لهم أمارة فظنوا فذاك وقيل: وإن الذين اختلفوا فيه أى فى قـتله لفى شك منه أى من قتله، لأنهم كانوا يقولون إن كان هذا عيـسى فأين صاحبنا، وإن كان هذا صاحبـنا فأين عيسى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أى

(١) سورة «الحجر»، الآية (٦).

قتلاً يقينا أو ما قـتلوه متيقنين أو ما قتلوه حقا فـيجعل يقينا تأكيدا لقوله: ومـا قتلوه أى حق انتفاء قتله حقا.

●● ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله أو إلى السماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ فى انتقامه من اليهود ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من رفعه إليه.

●● ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ ليؤمنن به جملة قسمية واقعة صفة لموصوف محذوف تقديـره وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليـؤمنن به ونحوه ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١) والمعنى وما مـن اليهود والنصارى أحد إلا لـيؤمنن قبل موته بعـيسى ـ عليه السلام ـ وبـأنه عبدالله ورسوله يعنى إذا عاين قبـل أن تزهق روحه حين لاينفعه إيمانه لانقطاع وقت التـكليف، أو الضمير أن لعيسـى يعنى، وإن منهـم أحد إلا ليؤمنن بعـيسى قبل موت عـيسى، وهم أهل الكـتاب الذين يكونون فى زمان نزوله، روى أنـه ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقـى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتـى تكون الملة واحدة وهى ملـة الإسلام، أو الضمير فى به يـرجع إلى الله، أو إلى محمد (ﷺ) والثانى إلى الكتابى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

●● ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ وهى ما ذكر فـى سورة الأنعام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾(٢) الآية والمعنى ما حرمنا عليهـم الطيبات إلا لظلم عظيم ارتكبوه وهو مـا عدد قبل هذا ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾وبمنعهم عن الإيمان ﴿كَثِيرًا﴾ أى خلقا كثيرا، أو صدا كثيرا.

●● ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرما عـليهم كما حرم علينا، وكانـوا يتعاطونه ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ﴾ دون من آمن ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الآخرة.

●● ﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أى الثابتون فيه، المتقون كابن سلام وأضرابه ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أى المؤمنون منهم والمؤمنون من المهـاجرين والأنصار، وارتفع الراسخون على الابتداء ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ خبره ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى القـرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أى سائر الـكتب ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾ منصوب على المدح لـبيان فضل الصلاة، فى مصحف عبـدالله والمقيمون وهى قراءة مالك بن دينار وغيره ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ مبتدأ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ عطف عليه والخبر ﴿أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وبالياء حمزة.

---

(١) سورة «الصافات»، الآية (١٦٤).

(٢) سورة «الأنعام»، الآية (١٤٦).

●● ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله (ﷺ) أن ينزل عليهم كتاباً من السماء واحتجاج عليهم بأن شأنه فى الوحى إليه كشأن سائر الأنبياء الذين سلفوا ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ كهود وصالح وشعيب وغيرهم ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أى أولاد يعقوب ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ زُبورا حمزة مصدر بمعنى مفعول، سمى به الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

●● ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر فى معنى أوحينا إليك وهو أرسلنا ونبأنا ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذه السورة ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ سأل أبو ذر رسول الله (ﷺ) عن الأنبياء قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا». قال كم الرسل منهم؟ قال: «ثلثمائة وثلاثة عشر، أول الرسل آدم وآخرهم نبيكم محمد ـ عليه السلام ـ وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ومحمد ـ عليه السلام »(١). والآية تدل على أن معرفة الرسل بأعيانهم ليست بشرط لصحة الإيمان، بل من شرطه أن يؤمن بهم جميعا إذ لو كان معرفة كل واحد منهم شرطا لقص علينا كل ذلك ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أى بلاواسطة.

●● ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الأوجه أن ينتصب على المدح أى أعنى رسلا، ويجوز أن يكون بدلا من الأول، وأن يكون مفعولاً أى وأرسلنا رسلا واللام فى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ يتعلق بمبشرين ومنذرين والمعنى أن إرسالهم إزاحة للعلة وتتميم لإلزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا بما وجب الانتباه له ويعلمنا ماسبيل معرفته السمع كالعبادات والشرائع أعنى فى حق مقاديرها وأوقاتها وكيفياتها دون أصولها فإنها مما يعرف بالعقل ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ فى العقاب على الإنكار ﴿حَكِيمًا﴾ فى بعث الرسل للإنذار، ولما نزل ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قالوا: ما نشهد لك بهذا فنزل.

●● ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه إثباته لصحته بإظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالبينات، إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب بالمعجزة ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أى أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنك مبلغه، أو أنزله بما علم من مصالح العباد، وفيه نفى قول المعتزلة فى إنكار الصفات فإنه أثبت لنفسه العلم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لك بالنبوة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ شاهداً وإن لم يشهد غيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتكذيب محمد (ﷺ) وهم اليهود ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومنعوا الناس عن سبيل الحق بقولهم للعرب إنا لا نجده فى كتابنا ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الرشد.

---

(١) رواه أحمد، وإسحاق، وذكره أيضاً فى سورة الحج الآية ٥٢.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَظَلَمُوا﴾ محمداً - عليه السلام - بتغيير نعته وإنكار نبوته ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ماداموا على الكفر ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

•• ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وكان تخليدهم فى جهنم سهلا عليه، والتقدير يعاقبهم خالدين فهو حال مقدرة، والآيتان فى قوم علم الله أنهم لايومنون ويموتون على الكفر.

•• ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى بالإسلام، أو هو حال أى محقا ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وكذلك انتهوا خيراً لكم انتصابه بمضمر، وذلك أنه لما بعثهم على الإيمان وعلى الانتهاء عن التثليث علم أنه يحملهم عى أمر، فقال خيراً لكم أى اقصدوا وأتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث وهو الإيمان به والتوحيد ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يضره كفركم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يؤمن وبمن يكفر ﴿حَكِيمًا﴾ لايسوى بينهما فى الجزاء.

•• ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ لا تجاوزوا الحد فغلت اليهود فى حط المسيح عن منزلته حتى قالوا: إنه ابن الزنا وغلت النصارى فى رفعه عن مقداره حيث جعلوه ابن الله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ابن الله ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ وهو المسيح، وعيسى عطف بيان أو بدل ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على رسول الله وقيل له: كلمة؛ لأنه يهتدى بـه كما يهتدى بالكلام ﴿أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ حال وقد معه مرادة أى أوصلها إليها وحصلها فيها ﴿وَرُوحٌ﴾ معطوف على الخبر أيضاً، وقيل له: روح لأنه كان يحيى الموتى كما سمى القرآن روحا بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(1) لما أنه يحيى القلوب ﴿مِّنْهُ﴾ أى بتخليقه وتكوينه كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (2) وبه أجاب على ابن الحسين بن واقد (3) غلاما نصرانيا كان للرشيد فى مجلسه حيث زعم أن فى كتابكم حجة على أن عيسى من الله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى ولاتقولوا الآلهة ثلاثة ﴿انتَهُوا﴾ عن التثليث ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم ألا ترى إلى قوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

---

(1) سورة «الشورى»، الآية (٥٢).

(2) سورة «الجاثية»، الآية (١٣).

(3) هو: على بن الحسين بن واقد، المروزى، كان جده واقد مولى عبداله بن عامر بن كريز، اختلف حكم أهل الحديث فيه، ولكن التعديل أكثر من الجرح، قال فيه ابن حجر: «صدوق، من العاشرة».
ولد عام ١٣٥هـ، وتوفى عام ٢١١ على الراجح.
تهذيب التهذيب (٤/ ١٩٤، ١٩٥).

وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(١) ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (٢) ﴿إِنَّمَا اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿ إِلَهٌ﴾ خبره ﴿وَاحِدٌ﴾ توكيد ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أسبحه تسبيحا من أن يكون له ولد ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ بيان لتنزهه مما نسب إليه بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه إذ البنوة والملك لا يجتمعان، على أن الجزء إنما يصح فى الأجسام، وهو يتعالى عن أن يكون جسما ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ حافظا ومدبرا لهما ولما فيهما، ومن عجز عن كفاية أمر يحتاج إلى ولد يعينه، ولما قال وفد نجران لرسول الله (ﷺ) لم تعيب صاحبنا عيسى؟ قال: وأى شىء: أقول: قالوا: تقول. إنه عبدالله ورسوله: قال إنه ليس بعار أن يكون عبدالله. قالوا: بلى(٣)، نزل قوله تعالى.

•• ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أى لن يأنف ﴿أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ﴾ هو رد على النصارى ﴿وَلا الْمَلائِكَةُ﴾ رد على من يعبدهم من العرب وهو عطف على المسيح ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى الكروبيون الذين حول العرض كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم، والمعنى ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبادا لله فحذف ذلك لدلالة عبدالله عليه إيجازا، وتشبثت المعتزلة والقائلون بتفضيل الملك على البشر بهذه الآية، وقالوا الارتقاء إنما يكون إلى الأعلى، يقال: فلان لا يستنكف عن خدمتى ولا أبوه ولو قال ولاعبده لم يحسن وكان معنى قوله: ولا الملائكة المقربون ولا من هو أعلى منه قدرا وأعظم منه خطرا، ويدل عليه تخصيص المقربين، والجواب أنا نسلم تفضيل الثانى على الأول، ولكن هذا لايمس ما تنازعنا فيه، لأن الآية تدل على أن الملائكة المقربين بأجمعهم أفضل من عيسى، ونحن نسلم بأن جميع الملائكة المقربين أفضل من رسول واحد من البشر. إلى هذا ذهب بعض أهل السنة؛ ولأن المراد أن الملائكة مع ما لهم من القدرة الفائقة قدر البشر والعلوم اللوحية وتجردهم عن التولد الازدواجى رأسا لا يستنكفون عن عبادته، فكيف بمن يتولد من آخر ولا يقدر على ما يقدرون ولا يعلم ما يعلمون، وهذا لأن شدة البطش وسعة العلوم وغرابة التكون هى التى تورث الحمقى أمثال النصارى وهم الترفع عن العبودية حيث رأوا المسيح ولد من غير أب وهو يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى وينبئ بما كانوا يأكلون ويدخرون في بيوتهم فبرءوه من العبودية، فقيل لهم: هذه الأوصاف فى الملائكة أتم منها فى المسيح ومع هذا لم يستنكفوا عن العبودية، فكيف المسيح والحاصل أن خواص البشر وهم الأنبياء - عليهم السلام - أفضل من خواص الملائكة وهم الرسل منهم، كجبريل وميكائيل وعزرائيل ونحوهم وخواص الملائكة أفضل من عوام المؤمنين من البشر وعوام المؤمنين من البشر أفضل من عوام الملائكة، ودليلنا على تفضيل البشر على الملك ابتداء أنهم قهروا نوازع الهوى فى ذات الله تعالى مع أنهم جبلوا عليها فضاهت الأنبياء - عليهم السلام - الملائكة - عليه السلام - فى العصمة وتفضلوا عليهم فى قهر البواعث النفسانية والدواعى الجسدانية

(١) سورة «المائدة»، الآية (١١٦). (٢) سورة «التوبة»، الآية (٣٠).
(٣) الواحدى فى الأسباب عن ابن الكلبى.

فكانت طاعتهم أشق لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة، لأنهم جبلوا عليها فكانت أزيد ثوابا بالحديث ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يترفع ويطلب الكبرياء ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم على استنكافهم واستكبارهم ثم فصل فقال.

●● ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ فإن قلت التفصيل غير مطابق للمفصل؛ لأن التفصيل اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد، قلت: هو مثل قولك جمع الإمام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه، وحمله ومن خرج عليه نكل به. وصحة ذلك لوجهين أحدهما أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه؛ لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثانى، كما حذف أحدهما فى التفصيل فى قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾. والثانى أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلا فى جملة التنكيل بهم فكأنه قيل. ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى رسول يبهر المنكر بالإعجاز ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ قرآنا يستضاء به فى ظلمات الحيرة.

●● ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ بالله، أو بالقرآن ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ أى جنة ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة النعمة ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله، أو إلى الفضل، أو إلى صراطه ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ فصراطا حال من المضاف المحذوف.

●● ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ كان جابر بن عبدالله مريضا فعاده رسول الله (ﷺ) فقال: إنى كلالة فكيف أصنع فى مالى فنزلت ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ ارتفع امرؤ بمضمر يفسره الظاهر ومحل ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الرفع على الصفة أى إن هلك امرؤ غير ذى ولد والمراد بالولد الابن - وهو مشترك - يقع على الذكر والأنثى، لأن الابن يسقط الأخت ولاتسقطها البنت ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أى لأب وأم أو لأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أى الميت ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أى الأخ يرث الأخت جميع ما لها إن قدر الأمر على العكس من موتها وبقائه بعدها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أى ابن لأن الابن يسقط الأخ دون البنت، فإن قلت: الابن لا يسقط الأخ وحده فالأب نظيره فى الإسقاط فلم اقتصر على نفى الولد قلت بين حكم انتفاء الولد وكل حكم انتفاء الوالد إلى بيان السنة وهو قوله - عليه السلام -: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى عصبة ذكر» (١) والأوب أولى من الأخ ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى فإن كانت الأختان اثنتين دل على ذلك وله أخت ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً﴾ أى وإن كان من يرث بالإخوة. والمراد بالإخوة الإخوة والأخوات تغليبا لحكم الذكورة ﴿رِّجَالًا وَنِسَاءً﴾ ذكورا وإناثا ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الحق فهو مفعول يبين ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ كراهة أن تضلوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء بكنهها قبل كونها وبعده.

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس بلفظ: فلأولى رجل ذكر.

(سورة المائدة مدنية، وهى مائة وعشرون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يقال: وفى بالعهد وأوفى به والعقد العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه وهى عقود الله التى عقدها على عباده وألزمها إياهم من مواجب التكليف، أو ما عقد الله عليكم، أو ما تعاقدتم بينكم والظاهر أنها عقود الله عليهم فى دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه وأنه كلام قد م مجملاً، ثم عقب بالتفصيل وهو قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ والبهيمة كل ذات أربع قوائم فى البر والبحر، وإضافتها إلى الأنعام للبيان، وهى بمعنى من كخاتم فضة ومعناه البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية وقيل بهيمة الأنعام: الظباء وبقر الوحش ونحوهما ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه وهو قوله، حرمت عليكم الميتة الآية ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير فى لكم أى أحلت لكم هذه الأشياء لا محلين الصيد ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ حال من محلى الصيد، كأنه قيل: أحللنا لكم بعض الأنعام فى حال امتناعكم من الصيد وأنتم محرمون لئلا يضيق عليكم والحرم جمع حرام وهو المحرم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من الأحكام أو من التحليل والتحريم ونزل نهيا عن تحليل ما حرم.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ جمع شعيرة وهى اسم ما أشعر أى جعل شعارا وعلما للنسك به من مواقف الحج ومرامى الجمار والمطاف والمسعى، والأفعال التى هى علامات الحاج يعرف بها من الإحرام والطواف والسعى والحلق والنحر ﴿وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أى أشهر الحج ﴿وَلا الْهَدْيَ﴾ وهو ما أهدى إلى البيت وتقرب به إلى الله تعالى من النسائك، وهو جمع هدية ﴿وَلا الْقَلائِدَ﴾ جمع قلادة وهى ما قلد به الهدى من نعل أو عروة مزادة أو لحاء شجر أو غيره ﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ ولا تحلوا قوما قاصدين المسجد الحرام وهم الحجاج والعمار وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمة الشعائر وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا فى أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وأن يتعرضوا للهدى بالغصب، أو بالمنع من بلوغ محله وأما القلائد فجاز أن يراد بها ذوات القلائد وهى البدن وتعطف على الهدى للاختصاص؛ لأنها أشرف الهدى كقوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾(١) كأنه قيل: والقلائد منها خصوصا، وجاز أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة فى النهى عن التعرض للهدى أى ولا تحلوا قلائدها فضلا أن تحلوها، كما قال ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾(٢) فنهى عن إبداء الزينة مبالغة فى النهى عن إبداء مواقعها ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من الضمير فى آمين ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى ثوابا ﴿وَرِضْوَانًا﴾ وأن يرضى عنهم أى لا تتعرضوا لقوم

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٩٨).

(٢) سورة «النور»، الآية (٣١).

هذه صفتهم تعظيما لهم ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ خرجتم من الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم بقوله: غير محلى الصيد وأنتم حرم ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ جرم مثل كسب فى تعديته إلى مفعول واحد واثنين، تقول: جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته إياه، وأول المفعولين ضمير المخاطبين، والثانى أن تعتدوا، وأن صدوكم متعلق بالشنآن بمعنى العلة وهو شدة البغض، وبسكون النون شامى وأبو بكر، والمعنى ولا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم الاعتداء ولا يحملنكم عليه. إن صدوكم على الشرط مكى وأبو عمرو، ويدل على الجزاء ما قبله وهو لا يجر منكم ومعنى صدهم إياهم عن المسجد الحرام منع أهل مكة رسول الله (ﷺ) والمؤمنين يوم الحديبية عن العمرة ومعنى الاعتداء الانتقام منهم بإلحاق مكروه بهم ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ على الانتقام والتشفى، أو البر فعل المأمور والتقوى ترك المحظور والإثم ترك المأمور والعدوان فعل المحظور، ويجوز أن يراد العموم لكل بر وتقوى ولكل إثم وعدوان فيتناول بعمومه العفو والانتصار ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وما اتقاه ثم بين ما كان أهل الجاهلية يأكلونه فقال.

●● ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ أى البهيمة التى تموت حتف أنفها ﴿وَالدَّمُ﴾ أى المسفوح وهو السائل ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ وكله نجس، وإنما خص اللحم لأنه معظم المقصود ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى رفع الصوت به لغير الله وهو قولهم باسم اللات والعزى عند ذبحه ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التى خنقوها حتى ماتت، أو انخنقت بالشبكة أو غيرها ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التى أثخنوها ضربا بعصا، أو حجر حتى ماتت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التى تردت من جبل أو فى بئر فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ المنطوحة وهى التى نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ بعضه ومات بجرحه ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وهو يضطرب اضطراب المذبوح والاستثناء يرجع إلى المنخنقة وما بعدها فإنه إذا أدركها وبها حياة فذبحها وسمى عليها حلت ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها يعظمونها بذلك ويتقربون إليها، تسمى الأنصاب، واحدها نصب، أو هو جمع والواحد نصاب ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ فى موضع الرفع بالعطف على الميتة أى حرمت عليكم الميتة، وكذا وكذا والاستقسام بالأزلام وهى القداح المعلمة واحدها زلم وزلم، كان أحدهما إذا أراد سفرا أو غزوا أو تجارة أو نكاحا أو غير ذلك يعمد إلى قداح ثلاثة على واحد منها مكتوب أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى والثالث غُفْل، فإن خرج الآمر مضى لحاجته، وإن خرج الناهى أمسك وإن خرج الغفل أعاده، فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة ما قسم له مما لم يقسم له بالأزلام، قال الزجاج، لا فرق بين هذا وبين قول المنجمين: لا تخرج من أجل نجم كذا واخرج لطلوع نجم كذا، وفى شرح التأويلات رد هذا وقال: لا يقول المنجم إن نجم كذا يأمر بكذا ونجم كذا ينهى عن كذا كما كان فعل أولئك ولكن المنجم جعل النجم دلالات وعلامات على أحكام الله تعالى،

ويجـــوز أن يجعل الله فى النجوم معانى وأعلامـا يدرك بها الأحكام ويستخرج بها الأشياء ولالائمة فى ذلك إنما اللائمة عليه فيما يحكم على الله ويشـهد عليه، وقيل: هو الميسر وقسمتهم الجزور على الأنصباء المعلومة ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ الاستقســام بالأزلام خروج عن الطاعـة ويحتمل أن يعـود إلى كل محرم فى الآية ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف ليئس ولم يـرد به يوم بعينه، وإنما معناه الآن وهـذا كما تقول: أنا اليوم قد كبرت تريد الآن وقـيل أريد يوم نزولها وقد نزلت يوم الجمعة وكان يـوم عرفة بعد العصر فى حجة الوداع ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ يئسوا منه أن يبطلوه أو يئـسوا من دينكم أن يغلبوه لأن الله تعالـى وفى بوعده من إظـهاره على الديـن كله ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾ بعد إظهـار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغـلوبين بعدما كانوا غالبين ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ بغير ياء فى الوصل والوقف أى أخلصوا لـى الخشية ﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف لقـوله ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بأن كفـيتم خوف عـدوكم وأظهرتكم عليهم، كما يقول الملوك اليوم كما لنا الملك أى كفينا من كنا نخافه، أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه فى تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف علـى شرائع الإسلام وقوانين القياس ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بفتـح مكة ودخولـها آمنين ظـاهرين وهدم مـنار الجاهلـية ومناسـكهم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ حال. اخترتـه لكم من بين الأديان وآذنـتكم بأنه هو الـدين المرضى وحده. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1] ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ متصل بـذكر المحرمات، وقوله: ذلكم فسق اعتراض أكد به معنى التحريم، وكذا ما بعده لأن تحريم هـذه الخبائث من جملة الدين الكامل والنـعمة التامة والإسلام المنعوت بالـرضا دون غيره من الملل ومعناه فـمن اضطر إلى الميتة، أو إلى غيرها ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرَ﴾ حال ﴿مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ مائل إلى إثـم أى غير متجاوز سد الرمق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذه بذلك ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإباحة المحظور للمعذور.

●● ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ فى السؤال معنى القول فلذا وقع بعده ﴿مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ كأنه قيل: يقولون لك ماذا أحل لهم، وإنمـا لم يقل ماذا أحل لنا حـكاية لما قالوا: لأن يسألـونك بلفظ الغيبـة كقولك: أقسم زيد ليفعلن، ولـو قيل لأفعلن وأحل لنا لكان صوابا وماذا مبتـدأ، وأحل لهم خبره كقولك: أى شيء أحل لهم ومـعناه ماذا أحل لهم من المـطاعم كأنهم حين تلـى عليهم ما حرم علـيهم من خبيثات المآكل سألوا عما أحل لهم منها فقال: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ أى ما ليس بخبيث منها أو هو كل ما لم يـأت تحريمه فى كتاب الله أو سنة، أو إجـماع أو قياس ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ عطف على الطيبات أى أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتـم فحذف المضاف، أو تجعل ما شرطية وجوابها فكلوا ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أى الكواسب للصـيد من سباع البهائم والطـير كالكلب والفهد والعـقاب والصقر والبازى والشاهين، وقيل: هى من الجـراحة فيشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال من علمتم وفائدة

(١) سورة «آل عمران»، الآية (٨٥).

هذه الحال مع أنه استغنى عنها بعلمتم أن يكون من يعلم الجوارح موصوفا بالتكليب، والمكلب مؤدب الجوارح ومعلمها مشتق من الكلب؛ لأن التأديب فى الكلاب أكثر فاشتق من لفظه لكثرته في جنسه، أو لأن السبع يسمى كلبا، ومنه الحديث: «اللهم سلط عليه كلبا من كلابك»[1]. فأكله الأسد ﴿تعلمونهن﴾ حال أو استئناف ولا موضع له وفيه دليل على أن على كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أقتل أهله علما وأنحرهم دراية فكم من آخذ عن غير متقن قد ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله ﴿مما علمكم الله﴾ من التكليب ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ الإمساك على صاحبه أن لا يأكل منه، فإن أكل منه لم يؤكل إذا كان صيد كلب ونحوه، فأما صيد البازى ونحوه فأكله لايحرمه وقد عرف فى موضعه والضمير فى ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ يرجع إلى ما أمسكن على معنى وسموا عليه إذا أدركتم ذكاته، أو إلى ما علمتم من الجوارح أى سموا عليه عند إرساله ﴿واتقوا الله﴾ واحذروا مخالفة أمره فى هذا كله ﴿إن الله سريع الحساب﴾ إنه محاسبكم على أفعالكم ولا يلحقه فيه لبث.

●● ﴿اليوم﴾ الآن ﴿أحل لكم الطيبات﴾ كرره تأكيدا للمنة ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أى ذبائحهم؛ لأن سائر الأطعمة لا يختص حلها بالملة ﴿وطعامكم حل لهم﴾ فلا جناح عليكم أن تطعموهم؛ لأنه لو كان حراما، عليهم طعام المؤمنين لما ساغ لهم إطعامهم ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ هى الحرائر، أو العفائف وليس هذا بشرط لصحة النكاح بل هو للاستحباب، لأنه يصح نكاح الإماء من المسلمات ونكاح غير العفائف. وتخصيصهن بعث على تخير المؤمنين لنطفهم وهو معطوف على الطيبات، أو مبتدأ والخبر محذوف أى والمحصنات من المؤمنات حل لكم ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ هن الحرائم الكتابيات أو العفائف الكتابيات ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أعطيتموهن مهورهن ﴿محصنين غير مسافحين﴾ متزوجين غير زانين ﴿ولا متخذى أخدان﴾ صدائق والخدن يقع على الذكر والأنثى ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾ بشرائع الإسلام وما أحل الله وحرم ﴿فقد حبط﴾ بطل ﴿عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾.

●● ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة، كقوله: ﴿فإذا قرأت القرآن﴾[2] أى إذا أردت أن تقرأ القرآن فعبر عن إرادة الفعل بالفعل، لأن الفعل مسبب عن الإرادة فأقيم المسبب مقام السبب للملابسة بينهما طلبا للإيجاز، ونحوه كما تدين تدان عبر عن الفعل الابتدائى الذى هو سبب الجزاء بلفظ الجزاءالذى هو مسبب عنه، وتقديره وأنتم محدثون عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أو من النوم لأنه دليل الحدث وكان رسول الله

---

(١) هو طرف حديث أخرجه الحاكم.

(٢) سورة «النحل»، الآية (٩٨).

(ﷺ) والصحابة يتوضئون لكل صلاة وقيل كان الوضوء لكل صلاة واجبًا أول ما فرض، ثم نسخ ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى تفيد معنى الغاية مطلقا فأما دخولها فى الحكم وخروجها فأمر يدور مع الدليل فما فيه دليل على الخروج ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[١]؛ لأن الإعسار علة الإنظار وبوجود الميسرة تزول العلة ولو دخلت الميسرة فيه لكان منظرا فى الحالتين معسرا وموسرا وكذلك ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[٢] لو دخل الليل لوجب الوصال ومما فيه دليل على الدخول قولك: حفظت القرآن من أوله إلى آخره؛ لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله ومنه، قوله تعالى: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾[٣] لوقوع العلم بأنه ـ عليه السلام ـ لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله، وقوله: إلى المرافق لا دليل فيه على أحد الأمرين فأخذ الجمهور بالاحتياط فحكموا بدخولها فى الغسل وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها وعن النبى (ﷺ) أنه كان يدير الماء على مرفقيه[٤] ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد إلصاق المسح بالرأس وماسح بعضه ومستوعبه بالمسح كلاهما ملصق للمسح برأسه فأخذ مالك بالاحتياط فأوجب الاستيعاب، والشافعى باليقين فأوجب أقل ما يقع عليه اسم المسح وأخذنا ببيان النبى ـ عليه السلام ـ وهو ما روى أنه مسح على ناصيته[٥] وقدرت الناصية بربع الرأس ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بالنصب شامى ونافع وعلى وحفص والمعنى فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم على التقديم والتأخير. غيرهم بالجر بالعطف على الرءوس؛ لأن الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها فكانت مظنة للإسراف المنهى عنه فعطفت على الممسوح لا لتمسح ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد فى صب الماء عليها، وقيل: إلى الكعبين فجىء بالغاية إماطة لظن ظان يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تضرب له غاية فى الشريعة، وقال فى جامع العلوم إنها مجرورة للجوار وقد صح أن النبى ـ عليه السلام ـ رأى قوما يمسحون على أرجلهم فقال: «ويل للأعقاب من النار»[٦]. وعن عطاء[٧]. والله ما علمت أن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ مسح على القدمين وإنما أمر بغسل هذه الأعضاء ليطهرها من الأوساخ التى تتصل بها، لأنها تبدو كثيرا والصلاة خدمة الله تعالى والقيام بين يديه

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٨٠).

(٢) سورة «النحل»، الآية (١٨٧).

(٣) سورة «الإسراء»، الآية (١).

(٤) أخرجه الدارقطنى من حديث جابر، وإسناده ضعيف.

(٥) رواه مسلم من حديث المغيرة بن شعبة فى قصة.

(٦) متفق عليه.

(٧) عطاء: هو العلم المشهور، عطاءبن أبى رباح ـ واسمه: أسلم ـ القرشى، مولاهم، أبو محمد المكى، تابعى جليل القدر، مفتى أهل مكة، ومحدثهم، متفق على توثيقه، حديثه فى الكتب الستة، روى عن جمع من الصحابة، وعن كبار التابعين، وروى عنه الناس، ولد عام ٢٧هـ، وتوفى عام ١١٤، وقيل ١١٥، وقيل ١١٧هـ، فالله أعلم. تهذيب التهذيب (١٢٨/٤ ـ ١٣٣).

متطهرا من الأوساخ أقرب إلى التعظيم فكان أكمل فى الخدمة، كما فى الشاهد إذا أراد أن يقوم بين يدى الملك، ولهذا قيل: إن الأولى أن يصلى الرجل فى أحسن ثيابه وإن الصلاة متعمما أفضل من الصلاة مكشوف الراس لما أن ذلك أبلغ فى التعظيم ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فاغسلوا أبدانكم ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ قال الرازى: معناه وجاء حتى لا يلزم المريض والمسافر التيمم بلا حديث ﴿مِّنَ الْغَائِطِ﴾ المكان المطمئن وهو كناية عن قضاء الحاجة ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتم ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ فى باب الطهارة حتى لا يرخص لكم فى التيمم ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ بالتراب إذا أعوزكم التطهر بالماء ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ وليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيثيبكم.

•• ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى عاقدكم به عقدا وثيقا، وهو الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله (ﷺ) على السمع والطاعة فى حال اليسر والعسر والمنشط والمكره فقبلوا، وقالوا: سمعنا وأطعنا وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة وفى بيعة الرضوان ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى نقض الميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بسرائر الصدور من الخير والشر وهو وعد ووعيد.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ عدى يجرمنكم بحرف الاستعلاء مضمنا معنى فعل يتعدى به، كأنه قيل: ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى العدل أقرب إلى التقوى. نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا وتشديدا، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. وإذا كان وجوب العدل مع الكفار بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمر ونهى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعيد ولذا ذكر بعدها آية الوعد، وهو قوله تعالى.

•• ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وعد يتعدى إلى مفعولين فالأول الذين آمنوا، والثانى محذوف استغنى عنه بالجملة التى هى قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والوعيد وهو قوله.

•• ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أى لا يفارقونها.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ روى أن رسول الله (ﷺ) أتى بنى قريظة ومعه الشيخان أبو بكر وعمر والختنان يستقرضهم دية مسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ ـ يحسبهما مشركين ـ فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك فأجلسوه فى

صفة وهموا بالفتك به، وعمد عمرو بن جحاش إلى رحى عظيمة يطرحها عليه فأمسك الله يده ونزل جبريل فأخبره بذلك فخرج النبى (ﷺ) ونزلت الآية[1]. إذ ظرف للنعمة ﴿أَن يَبْسُطُوا﴾ بأن يبسطوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل يقال بسط لسانه إليه إذا شتمه وبسط إليه يده إذا بطش به ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ومعنى بسط اليد مدها إلى المبطوش به ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ فمنعها أن تمد إليكم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافى والدافع والمانع.

•• ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ هو الذى ينقب عن أحوال القوم ويفتش عنها. ولما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالمسير إلى أريحا أرض الشام[2]، وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، وقال لهم: إنى كتبتها لكم دارا وقرارا فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإنى ناصركم وأمر الله موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا به توثقة عليهم فاختار النقباء، وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل وتكفل لهم به النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون فرأوا أجراما[3] عظيمة وقوة وشوكة فهابوا ورجعوا فحدثوا قومهم، وقد نهاهم أن يحدثوهم فنكثوا الميثاق إلا كالب بن يوقنا ويوشع بن نون وكانا من النقباء ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أى ناصركم ومعينكم. وتقف هنا لابتدائك بالشرط الداخل عيه اللام الموطئة للقسم وهو ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ وكانتا فريضتين عليهم ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ من غير تفريق بين أحد منهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وعظمتموهم أو نصرتموهم بأن تردّوا عنهم أعداءهم، والعزر فى اللغة الردّ ويقال: عزرت فلانا أى أدّبته يعنى فعلت به ما يردعه عن القبيح كذا قاله الزجاج ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بلا من وقيل: هو كل خير واللام فى ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ جواب للقسم وهذا الجواب ساد مسد جواب القسم والشرط جميعا ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أى بعد ذلك الشرط المؤكد المتعلق بالوعد العظيم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ طريق الحق نعم من كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضا، ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم.

•• ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ ما مزيدة لإفادة تفخيم الأمر ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ طردناهم وأخرجناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يابسة لا رحمة فيها ولا

---

(١) رواه ابن إسحاق فى المغازى.

(٢) أريحا: أرض الشام ـ بالفتح، ثم الكسر، وياء سكنة، والحاء مهملة، والقصر ورواه بعضهم بالخاء المعجمة، لغة عبرانية، وهى مدينة الجبارين فى الغور من أرض الأردن بالشام. (معجم البلدان ١/ ١٩٦).

(٣) أجراماً: أجساماً.

لين. قسّية حمزة وعلى أى رديئة من قولهم: درهم قسى أى ردىء ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ يفسرونه على غير ما أنزل وهو بيان لقسوة قلوبهم، لأنه لا قسوة أشد من الافتراء على الله وتغيير وحيه ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ وتركوا نصيبا جزيلا وقسطا وافيا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التوراة يعنى أن تركهم وإعراضهم عن التوراة إغفال حظ عظيم، أو قست قلوبهم وفسدت فحرفوا التوراة وزلت أشياء منها عن حفظهم. عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: قد ينسى المرءبعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية وقيل تركوا نصيب أنفسهم مما أمروا به من الإيمان بمحمد (ﷺ) وبيان نعته ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أى هذه عادتهم وكان عليهم أسلافهم كانوا يخونون الرسل وهؤلاء يخونونك ويهمون بالفتك بك، وقوله: على خائنة أى على خيانة، أو على فعلة ذات خيانة، أو على نفس، أو فرقة خائنة، ويقال: رجل خائنة كقولهم: رجل راوية للشعر للمبالغة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا منهم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ بعث على مخالفتهم أو فاعف عن مؤمنيهم ولا تؤاخذهم بما سلف منهم ﴿وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن فى قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ وهو الإيمان بالله والرسل وأفعال الخير، يتعلق بأخذنا أى وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، فقدم على الفعل الجار والمجرور وفصل بين الفعل والواو بالجار والمجرور، وإنما لم يقل من النصارى، لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصر الله وهم الذين قالوا لعيسى: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾(1) ثم اختلفوا بعد نسطورية ويعقوبية وملكانية(2) أنصارا الشيطان ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا﴾ فألصقنا وألزمنا من غرى بالشىء إذا لزمه ولصق به ومنه الغراء الذى يلصق به ﴿بَيْنَهُمُ﴾ بين فرق النصارى المختلفين ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالأهواء المختلفة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أى فى القيامة بالجزاء والعقاب.

●● ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خطاب لليهود والنصارى، والكتاب للجنس ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ـ عليه السلام ـ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من نحو صفة رسول الله (ﷺ) ومن نحو الرجم ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يبينه، أو يعفو عن كثير منكم لا يؤاخذه ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ يريد القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك ولإبانته ما كان خافيا على الناس من الحق، أو لأنه ظاهر الإعجاز أو النور محمد ـ عليه السلام ـ لأنه يهتدى به كما سمى سراجا.

---

(1) سورة «آل عمران» الآية (٥٢)، وسورة «الصف»، الآية (١٤).

(2) أصحاب ملكا الذى ظهر بأرض الروم، واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية، وهم صرحوا بإثبات التثليث. (الملل والنحل ـ الباب الثانى ـ الفصل الثانى).

•• ﴿يَهْدِى بِهِ اللَّهُ﴾ أى بالقرآن ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من آمن منهم ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة والنجاة من عذاب الله، أو سبـل الله فالسلام السلامة، أو الله ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته وتوفيقه ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

•• ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه بت القول على أن الله هو المسيح لا غير قيل: كان فى النصارى قوم يقولون ذلك، أو لأن مذهبهم يؤدى إليه حيث إنهم اعتقدوا أنه يخلق ويحيى ويميت ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنع من قدرته ومـشيئته شيئا ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى إن أراد أن يهلك من دعوه إلها من المسيح وأمه، يعنى أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد وعطف من فى الأرض جميعا على المسيح وأمه إبانة أنهما من جنسـهم لا تفاوت بينهما وبينهم، والمـعنى أن من اشتمل عليه رحم الأمومـية متى يفارقه نقص البشريـة، ومن لاحت عليه شواهد الحدثية أنـى يليق به نعت الربوبية، ولـو قطع البقاء عن جيمع ما أوجد لم يعد نقص إلى الصمدية ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى يخلق مـن ذكر وأنثى، ويخلق مـن أنثى بلا ذكر كما خـلق عيسى، ويخلـق من ذكر من غير أنثى، كما خلق حواء من آدم، ويخلق من غيـر ذكر وأنثى كما خلق آدم، أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له فلا اعتراض عليه؛ لأنه الفعال لما يريد ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

•• ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أى أعزة عليه كالابن على الأب أو أشياع ابنى الله عزير والمسـيح، كما قيل لأشياع أبى خبيـب وهو عبد الله بن الزبير الخبيـبيون وكما كان يقول رهط مسيلمة نحن أبناء الله ويقول أقرباء الملك وحشمه نحن أبناء الملوك، أو نحن أبناء رسل الله ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أى فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تـعذبون بذنوبكم بالمسخ والنار أياما مـعدودة على زعمكم وهل يمسـخ الأب ولده وهل يعذب الوالد ولده بـالنار، ثم قال ردا عليهم ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أى أنتم خلق من خـلقه لا بنوه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ لمن تاب عن الكفر فضلا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من مات عليه عدلا ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيه تنبيه على عبودية المسيح؛ لأن الملك والبنوة متنافيان.

•• ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ـ عليه السلام ـ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أى الشرائع وحذف لظهوره أو ما كنتم تخفون وحذف لتقدم ذكره أو لا يقـدر المبين ويكون المعنى يبذل لكم البيان وهو حال أى مبينا لكم ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ متعلق بـجاءكم أى جاءكم على حين فـتور من إرسال الرسل وانقطاع مـن الوحي وكان بين عيسى ومحمد ـ عليـهما السلام ـ ستمائة سنـة، أو خمسمائة سنة وستون سنة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ كراهة أن تـقولوا ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ والفـاء فى ﴿فَقَدْ جَاءَكُم﴾ متعلق بمحذوف أى لا تـعتذروا فقد جاءكم ﴿بَشِيرٌ﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٌ﴾ للكافرين والمعنى

الامتنان عليهم بأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى أحوج ما يكونون إليه ليهشوا إليه ويعدوه أعظم نعمة من الله، وتلزمهم الحجة، فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادرا على إرسال محمد ـ عليه السلام ـ ضرورة.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ﴾ لأنه لم يبعث فى أمة ما بعث فى بنى إسرائيل من الأنبياء ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ لأنه ملكهم بعد فرعون ملكه وبعد الجبابرة ملكهم؛ ولأن الملوك تكاثروا فيهم تكاثر الأنبياء وقيل: الملك من له مسكن واسع فيه ماء جار وكانت منازلهم واسعة فيها مياه جارية، وقيل: من له بيت وخدم أو لأنهم كانوا مملوكين فى أيدى القبط فأنقذهم الله فسمى إنقاذهم ملكا ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر وإغراق العدو وإنزال المن والسلوى وتظليل الغمام ونحو ذلك من الأمور العظام، أو أراد عالمى زمانهم.

●● ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أى المطهرة، أو المباركة وهى أرض بيت المقدس أو الشام ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم، أو سماها، أو كتب فى اللوح المحفوظ أنها مساكن لكم ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين منهزمين من خوف الجبابرة جبنا، أولا ترتدوا على أدباركم فى دينكم ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فترجعوا خاسرين ثواب الدنيا والآخرة.

●● ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ الجبار فعال من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه، وهو العاتى الذى يجبر الناس على ما يريد ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ بالقتال ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بغير قتال ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بلا قتال ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ بلادهم.

حينئذ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله ويخشونه كأنه قيل: رجلان من المتقين وهو فى محل الرفع صفة لرجلان وكذا ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالخوف منه ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أى باب المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ أى انهزموا وكانت الغلبة لكم، وإنما علما ذلك بإخبار موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمان به يقتضى التوكل عليه وهو قطع العلائق وترك التملق للخلائق.

●● ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا﴾ هذا نفى لدخولهم فى المستقبل على وجه التوكيد ﴿أَبَدًا﴾ تعليق للنفى المؤكد بالدهر المتطاول ﴿مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ بيان للأبد ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ من العلماء من حمله على الظاهر، وقال: إنه كفر منهم وليس كذلك إذ لو قالوا ذلك اعتقادا وكفروا به لحاربهم موسى ولم تكن مقاتلة الجبارين أولى من مقاتلة هؤلاء، ولكن الوجه فيه أن يقال فاذهب

أنت وربك يعينك على قتالك، أو وربك أى وسيدك وهو أخوك الأكبر هارون أو لم يرد به حقيقة الذهاب ولكن كما تقول كلمته فذهب يجيبنى تريد معنى الإرادة كأنهم قالوا: أريدا قتالهم ﴿فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ما كثون لا نقاتلهم لنصرة دينكم فلما عصوه وخالفوه.

●● ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ﴾ لنصرة دينك ﴿إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي﴾ وهو منصوب بالعطف على نفسى، أو على اسم إن، أى: إنى لا أملك إلا نفسى، وإن أخى لا يملك إلا نفسه، أو مرفوع بالعطف على محل إن واسمها، أو على الضمير فى لا أملك وجاز للفصل أى ولا يملك أخى إلا نفسه، أو هو مبتدأ والخبر محذوف أى وأخى، كذلك وهذا من البث والشكوى إلى الله ورقة القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة وكأنه لم يثق بالرجلين المذكورين كل الوثوق فلم يذكر إلا النبى المعصوم، أو أراد ومن يؤاخيني على دينى ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما وعدتنا وتحكم عليهم بما هم أهله وهو فى معنى الدعاء عليهم، أو فباعد بيننا وبينهم وخلصنا من صحبتهم كقوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أى الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها وهو تحريم منع لا تحريم تعبد كقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾(٢) والمراد بقوله: ﴿كتب الله لكم﴾ أى بشرط أن تجاهدوا أهلها فلما أبوا الجهاد قيل: فإنها محرمة عليهم؛ أو المراد فإنها محرمة عليهم ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فإذا مضى الأربعون كان ما كتب فقد سار موسى ـ عليه السلام ـ بمن بقى من بنى إسرائيل وكان يوشع على مقدمته ففتحها وأقام فيها ما شاء الله ثم قبض. وأربعين ظرف التحريم والوقف على سنة أو ظرف ﴿يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أى يسيرون فيها متحيرين لا يهتدون طريقا أربعين سنة والوقف على عليهم، وإنما عوقبوا بالحبس لاختيارهم المكث فكانوا مع شدة سيرهم يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا فى ستة فراسخ، ولما ندم على الدعاء عليهم قيل له: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ فلا تحزن عليهم؛ لأنهم فاسقون قيل: لم يكن موسى وهارون معهم فى التيه؛ لأنه كان عقابًا وقد سأل موسى ربه أنه يفرق بينهما وبينهم وقيل: كانا معهم إلا أنه كان ذلك روحا لهما وسلاما لا عقوبة ومات هرون فى التيه وموسى فيه بعده بسنة ومات النقباء فى التيه إلا كالب ويوشع، ثم أمر الله تعالى محمداً (ﷺ) أن يقص على حاسديه ما جرى بسبب الحسد ليتركوه ويؤمنوا بقوله:

●● ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على أهل الكتاب ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ من صلبه هابيل وقابيل أو هما رجلان من بنى إسرائيل ﴿بِالْحَقِّ﴾ نبأ ملتبسا بالصدق موافقا لما فى كتب الأولين أو تلاوة ملتبسة بالصدق والصحة، أو واتل عليهم وأنت محق صادق ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ نصب بالنبأ أى: قصتهما وحديثهما فى

---

(١) سورة «التحريم»، الآية (١١).

(٢) سورة «القصص»، الآية (١٢).

ذلك الوقت، أو بدل من النبأ أى اتل عيهم النبأ؛ نبأ ذلك الوقت على تقدير حذف المضاف ﴿قُرْبَانًا﴾ ما يتقرب به إلى الله من نسيكة، أو صدقة يقال: قرب صدقة وتقرب بها؛ لأن تقرب مطاوع قرب والمعنى إذ قرب كل واحد منهما قربانه دليله ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ قربانه وهو قابيل، روى أنه أوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجمل واسمها اقليما فحسده عليها أخوه وسخط فقال لهما آدم قربا قربانا فمن أيكما قبل يتزوجها فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فاكلته فازداد قابيل حسدا وسخطا وتوعده بالقتل وهو قوله: ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ﴾ أى قال لهابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وتقديره قال: لم تقتلني؟ قال: لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين وأنت غير متق فإنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلى وعن عامر بن عبدالله(١) أنه بكى حين حضرته الوفاة فقيل له: ما يبكيك وقد كنت وكنت؟! قال: إنى أسمع الله يقول: إنما يتقبل الله من المتقين.

•• ﴿لَئِن بَسَطتَ﴾ مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ بماد ﴿يَدِيَ﴾ مدنى وأبو عمرو وحفص ﴿إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كان أقوى من القاتل وأبطش منه ولكن تحرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفا من الله تعالى؛ لأن الدفع لم يكن مباحا فى ذلك الوقت، وقيل: بل كان ذلك واجبا فإن فيه إهلاك نفسه ومشاركة للقاتل فى إثمه، وإنما معناه ما أنا بباسط يدى إليك مبتدئا كقصدك ذلك منى وكان هابيل عازما على مدافعته إذا قصد قتله، وإنما قتله فتكا على غفلة يمنه إنّى أخاف حجازى وأبو عمرو.

•• ﴿إِنِّي أُرِيدُ﴾ إنِّى مدنى ﴿أَن تَبُوءَ﴾ أن تحتمل أو ترجع ﴿بِإِثْمِي﴾ بإثم قتلى إذا قتلتنى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذى لأجله لم يتقبل قربانك، وهو عقوق الأب والحسد والحقد، وإنما أراد ذلك لكفره برده قضية الله تعالى، أو كان ظالما وجزاء الظالم جائز أن يُرد ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

•• ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فوسعته ويسرته من طاع له المرتع إذا اتسع ﴿فَقَتَلَهُ﴾ عند عقبة حراء أو بالبصرة والمقتول ابن عشرين سنة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

•• ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ﴾ أى الله، أو الغراب ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾

---

(١) هو: عامر بن عبدالله العنبري، المشهور بـ «ابن عبدالقيس»، تابعى جليل، من بنى العنبر، كان ـ رحمه الله ـ عابداً، زاهداً، ورعًا، واشتهر بتنسكه، حتى قيل أنه أول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة. قاله أبو نعيم، وتوفى فى بيت المقدس عام ٥٥ هـ.
الأعلام (٣/ ٢٥٢).

عورة أخيه وما لا يجوز أن ينكشف من جسده. روى أنه أول قتيل قتل على وجه الأرض من بنى آدم ولما قتله تركه بالعراء لا يدرى ما يصنع به فخاف عليه السباع؛ فحمله فى جراب على ظهره سنة حتى أروح[1] وعكفت عليه السباع، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه فى الحفرة فحينئذ ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ﴾ عطف على أكون ﴿سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله لما تعب فيه من حمله وتحيره فى أمره ولم يندم ندم التائبين، أو كان الندم توبة لنا خاصة، أو على حمله لا على قتله، وروى أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض فسأله آدم عن أخيه، فقال: ماكنت عليه وكيلا. فقال: بل قتلته ولذا اسود جسدك. فالسودان من ولده وما روى أن آدم رثاه بشعر فلا يصح؛ لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر.

•• ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ بسبب ذلك وبفعلته وذلك إشارة إلى القتل المذكور، قيل: هو متصل بالآية الأولى فيوقف على ذلك أى فأصبح من النادمين لأجل حمله ولأجل قتله، وقيل: هو مستأنف والوقف على النادمين، ومن يتعلق بكتبنا لا بالنادمين ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خصهم بالذكر، وإن اشترك الكل فى ذلك؛ لأن التوراة أول كتاب فيه الأحكام ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا﴾ الضمير للشأن ومن شرطية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ بغير قتل نفس ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على نفس أى بغير فساد فى الأرض وهو الشرك، أو قطع الطريق وكل فساد يوجب القتل ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى فى الذنب عن الحسن لأن قاتل النفس جزاؤه جهنم وغضب الله عليه والعذاب العظيم، ولو قتل الناس جميعا لم يزد على ذلك ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ ومن استنقذها من أسباب الهلكة من قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ جعل قتل الواحد كقتل الجميع وكذلك الإحياء ترغيبًا وترهيبًا لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور أن قتلها كقتل الناس جميعا عظم ذلك عليه فثبطه وكذا الذى أراد إحياءها إذا تصور أن حكمه حكم إحياء جميع الناس رغب فى إحيائها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ أى بنى إسرائيل ﴿رُسُلُنَا﴾ رسْلنا أبو عمرو ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات الواضحات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما كتبنا عليهم أو بعد مجيء الرسل بالآيات ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ فى القتل لا يبالون بعظمته.

•• ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى أولياء الله فى الحديث يقول الله تعالى: «من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة»[2]. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين ويجوز أن يكون مفعولا له أى للفساد وخبر جزاء ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ وما عطف عليه، وأفاد التشديد الواحد بعد الواحد،

(١) أروح: أنتن.

(٢) كنز العمال ١/ ١١٦٠، ١٦٨٥.

ومعناه أن يقتلوا من غير صلب إن أفردوا القتل ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إن جمعوا بين القتل وأخذ المال ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ إن أخذوا المال ﴿مِّنْ خِلاف﴾ حال من الأيدى والأرجل أى مختلفة ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ بالحبس إذا لم يزيدوا على الإخافة ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ذل وفضيحة ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

•• ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ فتسقط عنهم هذه الحدود، لا ما هو حق العباد ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم بالتوبة ويرحمهم فلا يعذبهم.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تؤذوا عباد الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ هى كل ما يتوسل به أى يتقرب من قرابة، أو صنيعة أو غير ذلك فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك السيئات ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من صنوف الأموال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وأنفقوه ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ولو مع ما فى حيزه خبر إن ووحد الراجع فى ليفتدوا به وقد ذكر شيئان؛ لأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: ليفتدوا بذلك ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلا سبيل لهم إلى النجاة بوجه.

•• ﴿يُرِيدُونَ﴾ يطلبون أو يتمنون ﴿أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

•• ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ ارتفعا بالابتداء، والخبر محذوف تقديره وفيما يتلى عليكم السارق والسارقة، أو الخبر ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أى يديهما والمراد اليمينان بدليل قراءة عبدالله بن مسعود، ودخول الفاء لتضمنهما معنى الشرط لأن المعنى والذى سرق والتى سرقت فاقطعوا أيديهما، والاسم الموصول يضمن معنى الشرط وبدأ بالرجل لأن السرقة من الجراءة وهى فى الرجال أكثر، وأخر الزانى[1]؛ لأن الزنا ينبعث من الشهوة وهى فى النساء أوفر وقطعت اليد؛ لأنها آلة السرقة ولم تقطع آلة الزنا تفاديا عن قطع النسل ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ مفعول له ﴿نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى عقوبة منه وهو بدل من جزاء ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعارض فى حكمه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من قطع يد السارق والسارقة.

---

(١) يعنى فى قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ﴾ الآية. «النور» (٢).

●● ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السرقة﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ برد المسروق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يقبل توبته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنبه ويرحمه.

●● ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، أو يا مخاطب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من مات على الكفر ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ لمن تاب عن الكفر ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب والمغفرة وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر وقدم التعذيب على المغفرة هنا لتقدم السرقة على التوبة.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أى لاتهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين فى الكفر أى فى إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين فإنى ناصرك عليهم وكافيك شرهم، يقال: أسرع فيه الشيب أى وقع فيه سريعا فكذلك مسارعتهم فى الكفر، وقوعهم فيه أسرع شيء إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ تبيين لقوله: ﴿آمَنَّا﴾ مفعول قالوا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ متعلق بقالوا أى قالوا بأفواههم آمنا ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ فى محل النصب على الحال ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ معطوف على من الذين قالوا أى من المنافقين واليهود ويرتفع.

●● ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ على أنه خبر مبتدأ مضمر أى هم سماعون والضمير للفريقين، أو سماعون مبتدأ، وخبره من الذين هادوا، وعلى هذا يوقف على قلوبهم، وعلى الأول على هادوا. ومعنى سماعون للكذب يسمعون منك ليكذبوا عليك بأن يمسخوا ما سمعوا منك بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أى سماعون منك لأجل قوم آخرين من اليهود وجّهوهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أى يزيلونه ويميلونه عن مواضعه التى وضعه الله فيها فيهملونه بغير مواضع بعد أن كان ذا موضع. يحرفون صفة لقوم، كقوله: لم يأتوك، أو خبر لمبتدأ محذوف أى هم يحرفون والضمير مردود على لفظ الكلم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ المحرف المزال عن مواضعه ويقولون مثل يحرفون وجاز أن يكون حالا من الضمير فى يحرفون ﴿فَخُذُوهُ﴾ واعلموا أنه الحق واعملوا به ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وأفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاحْذَرُوا﴾ فإياكم وإياه فهو الباطل. روى أن شريفا زنى بشريفة بخيبر، وهما محصنان، وحدهما الرجم فى التوراة فكرهوا رجمهما لشرفهما فبعثوا رهطا منهم ليسألوا رسول الله (ﷺ) عن ذلك، وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا فأمرهم بالرجم فأبوا أن يأخذوا به[1] ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ ضلالته وهو حجة على من يقول يريد الله الإيمان ولا يريد الكفر ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ قطع رجاء محمد (ﷺ) عن إيمان هؤلاء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن

(١) رواه ابن إسحاق فى المغازى عن أبى هريرة.

﴿يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الكفر لعلمه منهم اختيار الكفر وهو حجة لنا عليهم أيضا ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ للمنافقين فضيحة ولليهود جزية ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى التخليد فى النار.

●● ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرر للتأكيد أى هم سماعون ومثله ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وهو كل مالا يحل كسبه، وهو من سحته إذا استأصله، لأنه مسحوت البركة وفى الحديث: «هو الرشوة فى الحكم»(١). وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام. وبالتثقيل مكى وبصرى وعلى ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قيل: كان رسول الله (ﷺ) مخيرا إذا تحاكم إليه أهل الكتاب بين أن يحكم بينهم وبين أن لا يحكم بينهم، وقيل: نسخ التخيير بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾(٢) ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ فلن يقدروا على الإضرار بك لأن الله تعالى يعصمك من الناس ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

●● ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه مع أن الحكم منصوص فى كتابهم الذى يدعون الإيمان به. فيها حكم الله حال من التوراة وهى مبتدأ، وخبره عندهم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عطف على يحكمونك أى ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما فى كتابهم لا يرضون به ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بك أو بكتابهم كما يدعون.

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدى للحق ﴿وَنُورٌ﴾ يبين ما استبهم من الأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ انقادوا لحكم الله فى التوراة وهو صفة أجريت للنبيين على سبيل المدح وأريد بإجرائها التعريض باليهود، لأنهم بعداء عن ملة الإسلام التى هى دين الأنبياء كلهم ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ تابوا من الكفر، واللام يتعلق بيحكم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ معطوفان على النبيون أى الزهاد والعلماء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ استودعوا، قيل: ويجوز أن يكون بدلا من بها فى يحكم بها ﴿مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ من للتبيين والضمير فى استحفظوا للأنبياء والربانيين والأحبار جميعا ويكون الاستحفاظ من الله أى كلفهم الله حفظه أو للربانيون والأحبار ويكون الاستحفاظ من الأنبياء ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ رقباء لئلا يبدل ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ نهى للحكام عن خشيتهم غير الله فى حكوماتهم وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل خشية سلطان ظالم، أو خيفة أذية أحد ﴿وَاخْشَوْنِ﴾

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإجارة.

(٢) سورة «المائدة»، الآية (٤٩).

فى مخالفة أمرى وبالياء فيهما[١] سهل وافقه أبو عمرو فى الوصل ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ ولا تستبدلوا بآيات الله وأحكامه ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ مستهينا به ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من لم يحكم جاحدا فهو كافر، وإن لم يكن جاحدا فهو فاسق ظالم، وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: هو عام فى اليهود وغيرهم.

●● ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ وفرضنا على اليهود فى التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ مأخوذة ﴿بِالنَّفْسِ﴾ مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق ﴿وَالْعَيْنَ﴾ مفقوأة ﴿بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ﴾ مجدوع ﴿بِالأَنفِ وَالأُذُنَ﴾ مقطوعة ﴿بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ﴾ مقلوعة ﴿بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أى ذات قصاص وهو المقاصة ومعناه ما يمكن فيه القصاص وإلا فحكومة عدل، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة فنزلت وقوله أن النفس بالنفس يدل على أن المسلم يقتل بالذمى والرجل بالمرأة والحر بالعبد. نصب نافع وعاصم وحمزة المعطوفات كلها للعطف على ما عملت فيه أن. ورفعها على للعطف على محل أن النفس، لأن المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس إجراء لكتبنا مجرى قلنا، ونصب الباقون الكل ورفعوا الجروح. والأذن بسكون الذال حيث كان نافع والباقون بضمها وهما لغتان كالسحت والسحت ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من أصحاب الحق ﴿بِهِ﴾ بالقصاص وعفا عنه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ فالتصدق به كفارة للمتصدق بإحسانه قال ـ عليه السلام ـ «من تصدق بدم فما دونه كان كفار فله من يوم ولدته أمه»[٢]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بالامتناع عن ذلك.

●● ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى قفيت الشىء بالشىء جعلته فى أثره كأنه جعل فى قفاه يقال قفاه بقفوه إذا تبعه ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا﴾ هو حال من عيسى ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أى وآتيناه الإنجيل ثابتا فيه هدى ونور ومصدقا، فنصب مصدقا بالعطف على ثابتا الذى تعلق به فيه وقام مقامه فيه وارتفع هدى ونور بثابتا الذى قام مقامه فيه ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ انتصبا على الحال أى هاديا وواعظا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم ينتفعون به.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ وقلنا لهم: احكموا بموجبه، فاللام لام الأمر وأصله الكسر، وإنما سكن استثقالا لفتحة وكسرة وفتحة. وليحكم بكسر اللام وفتح الميم حمزة على أنها لام كى أى وقفينا ليؤمنوا وليحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون

(١) فيهما: يقصد؛ فى حالتى الوقف والوصل، عند القراءة.

(٢) رواه سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن مردويه عن عدى بن ثابت، وفيه: من يوم ولد إلى يوم يموت.

عن الطاعة، قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: يجوز أن يحمل على الجحود فى الثلاث فيكون كافرا ظالما فاسقا، لأن الفاسق المطلق والظالم المطلق هو الكافر، وقيل: ومن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر بنعمة الله ظالم فى حكمه فاسق فى فعله.

●● ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أى القرآن فحرف التعريف فيه للعهد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بسبب الحق وإثباته وتبيين الصواب من الخطأ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه نزولا وإنما قيل لما قبل الشىء هو بين يديه؛ لأن ما تأخر عنه يكون وراءه وخلفة فما تقدم عليه يكون قدامه وبين يديه ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ المراد به جنس الكتب المنزلة؛ لأن القرآن مصدق لجميع كتب الله فكان حرف التعريف فيه للجنس ومعنى تصديقه الكتب موافقتها فى التوحيد والعبادة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(1) ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ وشاهدا لأنه يشهد له بالصحة والثبات ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى بما فى القرآن ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ نهى أن يحكم بما حرفوه وبدلوه اعتمادا على قولهم. ضمّن ولا تتبع معنى ولا تنحرف، فلذا عدى بعن، فكأنه، قيل: ولا تنحرف عما جاءك من الحق متبعا أهواءهم، أو التقدير عادلا عما جاءك ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقا واضحا واستدل به من قال: إن شريعة من قبلنا لا تلزمنا. ذكر الله إنزال التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ ثم إنزال الإنجيل على عيسى ـ عليه السلام ـ ثم إنزال القرآن على محمد (ﷺ) وبين أنه ليس للسماع فحسب بل للحكم به فقال فى الأول يحكم به النبيون، وفى الثانى وليحكم أهل الإنجيل، وفى الثالث فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على شريعة واحدة ﴿وَلَكِن﴾ أراد ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة فتعبّد كل أمة بما اقتضته الحكمة ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها وسابقوا نحوها قبل الفوات بالوفاة. والمراد بالخيرات كل ما أمر الله تعالى به ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ استئناف فى معنى التعليل، لاستباق الخيرات ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير المجرور، والعامل المصدر المضاف، لأنه فى تقدير إليه ترجعون ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيخبركم بمالا تشكون معه من الجزاء الفاصل بين محقكم ومبطلكم وعاملكم ومفرطكم فى العمل.

●● ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ معطوف على بالحق أى وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، وبأن احكم ﴿بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ أى يصرفوك وهو مفعول له أى مخافة أن يفتنوك، وإنما حذره وهو رسول مأمون لقطع أطماع القوم ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم بما أنزل الله إليك وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أى بذنب التولى

(1) سورة «الأنبياء»، الآية (25).

عن حكم الله وإرادة خلافه فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك وهذا الإبهام لتعظيم التولى وفيه تعظيم الذنوب فإن الذنوب بعضها مهلك فكيف بكلها ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ لخارجون عن أمر الله.

•• ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يطلبون وبالتاء شامى يخاطب بنى النضير فى تفاضلهم على بنى قريظة، وقد قال لهم رسول الله (ﷺ): «القتلى سواء» فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت[١]: وسئل طاوس عن الرجل يفضل بعض ولده على بعض فقرأ هذه الآية. وناصب أفحكم الجاهلية يبغون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ مبتدأ وخبره وهو استفهام فى معنى النفى أى لا أحد أحسن ﴿مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ هو تمييز واللام فى ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ للبيان كاللام فى ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[٢] أى هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتبينون أن لا أعدل من الله ولا أحسن حكما منه، وقال أبو على[٣]: معنى لقوم عند قوم؛ لأن اللام وعند يتقاربان فى المعنى ونزل نهيا عن موالاة أعداء الدين.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين ثم علل النهى بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وكلهم أعداء المؤمنين وفيه دليل على أن الكفر كله ملة واحدة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم وحكمه حكمهم وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿يُسَارِعُونَ﴾ حال، أو مفعول ثان، لاحتمال أن يكون فترى من رؤية العين أو القلب ﴿فِيهِمْ﴾ فى معاونتهم على المسلمين وموالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ أى فى أنفسهم لقوله: على ما أسروا ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى حادثة تدور بالحال التى يكونون عليها ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله (ﷺ) على أعدائه وإظهار المسلمين ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ أى يؤمر النبى (عليه السلام) بإظهار إسرار المنافقين وقتلهم ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أى المنافقون ﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿نَادِمِينَ﴾ خبر فيصبحوا.

•• ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى يقول بعضهم لبعض عند ذلك، ويقول بصرى عطفا على أن يأتى يقول بغير واو شامى وحجازى، على أنه جواب قائل يقول: فماذا يقول المؤمنون حينئذ: فقيل:

(١) ابن أبى شيبة من طريق الشعبى.
(٢) سورة «يوسف»، الآية (٢٣).
(٣) أبو على: هو أبو على النهاوندى، القارىء، سبق ترجمته عند تفسير سورة البقرة، الآية (٩).

يقول الذين آمنوا: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أى أقسموا لكم بإغلاظ الأيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار وجهد أيمانهم مصدر فى تقدير الحال أى مجتهدين فى توكيد أيمانهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم التى عملوها رياء وسمعة لا إيمانا وعقيدة، وهذا من قول الله عز وجل شهادة لهم بحبوط الأعمال وتعجيبا من سوء حالهم ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والعقبى لفوات المعونة ودوام العقوبة.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى ما كان عليه من الكفر يرتدد مدنى وشامى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يرضى أعمالهم ويثنى عليهم بها ويطيعونه ويؤثرون رضاه، وفيه دليل نبوته ـ عليه السلام ـ حيث أخبرهم بما لم يكن فكان. وإثبات خلافة الصديق؛ لأنه جاهد المرتدين، وفى صحة خلافته وخلافة عمر ـ رضى الله عنهما ـ وسئل النبى (ﷺ) عنهم فضرب على عاتق سلمان؛ وقال: «هذا وذووه لو كان الإيمان معلقا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس(١). والراجع من الجزاء إلى الاسم المتضمن لمعنى الشرط محذوف معناه فسوف يأتى الله بقوم مكانهم ﴿أَذِلَّةٍ﴾ جمع ذليل وأما ذلول فجمعه ذلل ومن زعم أنه من الذُّل الذى هو ضد الصعوبة، فقد سها، لأن ذلولا لا يجمع على أذلة، قال الجوهرى: الذل ضد العز ورجل ذليل بين الذل وقوم أذلاء وأذلة، والذل بالكسر اللين وهو ضد الصعوبة، يقال: دابة ذلول ودواب ذلل ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل للمؤمنين؛ لتضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أشداء عليهم والعَزَاز الأرض الصلبة فهم مع المؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، ومع الكافرين كالسبع على فريسته ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقاتلون الكفار وهو صفة لقوم كيحبهم وأعزة وأذلة ﴿وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ الواو يحتمل أن تكون للحال أى يجاهدون، وحالهم فى المجاهدة خلاف حال المنافقين فإنهم كانوا موالين لليهود، فإذا خرجوا فى جيش المؤمنين خافوا أولياءهم اليهود فلا يعملون شيئا مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم، وأما المؤمنون فمجاهدتهم لله لا يخافون لومة لائم وأن تكون للعطف أى من صفتهم المجاهدة فى سبيل الله وهم صلاب فى دينهم إذا شرعوا فى أمر من أمور الدين لا تزعهم لومة لائم، واللومة المرة من اللوم، وفيها وفى التنكير مبالغتان، كأنه قيل: لا يخافون شيئا قط من لوم واحد من اللوام ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وصف به القوم من المحبة والذلة والعزة والمجاهدة وانتفاء خوف اللومة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفواضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو من أهلها عقب النهى عن موالاة من تجب معاداتهم ذكر من تجب موالاتهم بقوله:

•• ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإنما يفيد اختصاصهم بالموالاة ولم يجمع الولى

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة.

وإن كان المذكور جماعة تنبيها على أن الولاية لله أصل ولغيره تبع ولو قيل: إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن فى الكلام أصل وتبع. ومحل ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الرفع على البدل من الذين آمنوا أو على هم الذين، أو النصب على المدح ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾. والواو فى ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ للحال أى يؤتونها فى حال ركوعهم فى الصلاة قيل إنها نزلت فى على - رضى الله عنه - حين سأله سائل وهوراكع فى صلاته فطرح له خاتمه كأنه كان مرجا[1] فى خنصره فلم يتكلف لخلعه كثير عمل يفسد صلاته، وورد بلفظ الجمع وإن كان السبب فيه واحدا ترغيبا للناس فى مثل فعله لينالوا مثل ثوابه، والآية تدل على جواز الصدقة فى الصلاة وعلى أن الفعل القليل لا يفسد الصلاة.

•• ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتخذه وليا أو يكن وليا ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام الضمير أى فإنهم هم الغالبون، أو المراد بحزب الله الرسول والمؤمنون، أى ومن يتولهم فقد تولى حزب الله واعتضد بمن لا يغالب. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمرٍ حَزَبهم أى أصابهم، وروى أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فنزل.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يعنى اتخاذهم دينكم هزواً ولعبا لا يصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء، بل يقابل ذلك بالبغضاء والمنابذة ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من للبيان ﴿مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾ أى المشركين وهو عطف على الذين المنصوبة. والكفار بصرى وعلى عطف على الذين المجرورة أى من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار ﴿أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى موالاة الكفار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقا، لأن الإيمان حقا يأبى موالاة أعداء الدين.

•• ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا﴾ أى الصلاة أو المناداة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لأن لعبهم وهزوهم من أفعال السفهاء والجهلة، فكأنهم لا عقل لهم، وفيه دليل على ثبوت الآذان بنص الكتاب، لا بالمنام وحده.

•• ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ يعنى هل تعيبون منا وتنكرون إلا الإيمان بالله وبالكتب المنزلة كلها ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهو عطف على المجرور أى ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وما أنزل وبأن أكثركم فاسقون والمعنى أعاديتمونا، لأنا اعتقدنا توحيد الله وصدق أنبيائه وفسقكم لمخالفتكم لنا فى ذلك ويجوز أن يكون الواو بمعنى مع أى ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله مع أنكم فاسقون.

•• ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أى ثوابا وهو نصب على التمييز والمثوبة وإن

(١) مرجًا: أى متحركاً، أو سهل الحركة.

كانت مختصة بالإحسان ولكنهـا وضعت موضع العقوبة، كقوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] وكان اليهود يزعمون أن المسلمين مستوجبون للعقوبة فقيل لهم ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ شر عقوبة فى الحقيقة من أهل الإسلام فى زعمكم وذلـك إشارة إلى المتقدم أى الإيمان أى بشر مما نقمتـم من إيماننا ثوابًا أى جزاء ولابد من حذف مضاف قـبله، أو قبل من تقديـره بشر من أهل ذلك، أو دين مـن لعنه الله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ﴾ يعنى أصحاب السبت ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ أى كفار أهل مائدة عيسى - عليـه السلام - أو كلا المـسخين من أصـحاب السبـت فشبانـهم مسخـوا قردة ومشايـخهم مسـخوا خنازير﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أى العجل، أو الشيطان، لأن عبادتهم العجل بتزيين الشيطان وهو عطف على صلة من كأنه قيل: ومن عـبدالطاغوت. وعبد الطاغوت حمزة جعله اسما مـوضوعا للمبالغة، كقولهم: رجل حذر وفطن للبليغ فى الحذر والفطنة وهو معطوف على القردة والخنازير أى جعل الله منهم عبدالطاغوت ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الممسوخون الملعونون ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جعلت الشرارة للمكان وهى لأهله للمبالغة ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد الطـريق الموصل إلى الجنة ونزل فى نـاس من اليهود كانوا يدخلون على النبى (ﷺ) ويظهرون له الإيمان نفاقا.

●● ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ الباء للـحال أى دخلوا كافرين وخرجوا كافرين، وتقديره ملتبسين بالكفر، وكذلك قد دخلوا وهم قد خرجوا، ولذا دخلت قد تقريبـا للماضى من الحال وهو متعـلق بقالوا آمنا أى قالوا ذلـك، وهذه حالهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق.

●● ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ الكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم، أو الإثم ما يختص بهم والعـدوان ما يتعداهم إلى غيرهم والمسارعة فى الشـىء الشروع فيه بسرعة ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبئس شيئاً عملوه.

●● ﴿لَوْلَا﴾ هلا وهو تحـضيض ﴿يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ هذا ذم للعلمـاء والأول للعامة، وعن ابن عباس - رضى الله عـنهما - هى أشد آية فى القرآن حيث أنزل تارك النهى عن المنكر منزلة مرتكب المنكر فى الوعيد.

●● ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ روى أن اليهود لعنهم الله لما كذبوا محمداً - عليه السلام - كف الله ما بسط عليهم من السعة وكانوا من أكثر الناس مالا فعـند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلـولة ورضى بقوله الآخرون فأشركوا فـيه وغل اليد وبسطها مجاز عن البخـل والجود ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا

(١) آل عمران(٢١)، والتوبة (٣٤)، والانشقاق (٢٤).

كُلَّ الْبَسْطِ﴾[1]. ولا يقصد المتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى إنه يستعمل فى ملك يعطى ويمنع بالإشارة من غير استعمال اليد، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزلا لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، وقد استعمل حيث لا تصح اليد يقال: بسط البأس كفيه فى صدرى فجعل للبأس الذى هو من المعانى كفان ومن لم ينظر فى علم البيان يتحير فى تأويل أمثال هذه الآية وقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل، ومن ثم كانوا أبخل خلق الله أو تغل فى جهنم فهى كأنها غلبت، وإنما ثنيت اليد فى بل يداه مبسوطتان وهى مفردة فى يد الله مغلولة ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفى البخل عنه فغاية ما يبذله السخى أن يعطيه بيديه ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد للوصف بالسخاء ودلالة على أنه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ من اليهود ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أى يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تماديا فى الجحود وكفراً بآيات الله، وهذا من إضافة الفعل إلى السبب، كما قال: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[2] ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فكلمهم أبدا مختلف وقلوبهم شتى لا يقع بينهم اتفاق ولا تعاضد ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا لم يقم لهم نصر من الله على أحد قط، وقد أتاهم الإسلام وهم فى ملك المجوس وقيل: كلما حاربوا رسول الله (ﷺ) نصر عليهم عن قتادة لا تلقى يهوديا فى بلد إلا وقد وجدته من أذل الناس ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ويجتهدون فى دفع الإسلام ومحو ذكر النبى ـ عليه السلام ـ من كتبهم ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ برسول الله ـ عليه السلام ـ وبما جاء به مع ما عددنا من سيئاتهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ أى وقرنوا إيمانهم بالتقوى ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ولم نؤاخذهم بها ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ مع المسلمين.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أى أقاموا أحكامهما وحدودهما وما فيهما من نعت رسول الله (ﷺ) ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ من سائر كتب الله؛ لأنهم مكلفون الإيمان بجميعها فكأنها أنزلت إليهم وقيل هو القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾ يعنى الثمار من فوق رءوسهم ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ يعنى الزروع وهذه عبارة عن التوسعة كقولهم: فلان فى النعمة من فوقه إلى قدمه، ودلت الآية على أن العمل بطاعة الله تعالى سبب لسعة الرزق وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[3]. ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢)

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٢٩).
(٢) سورة «التوبة»، الآية (١٢٥).
(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٩٦).

ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[1] ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا﴾[2] الآيات ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾[3] ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ طائفة حالها أمم فى عداوة رسول الله ـ عليه السلام ـ وقيل: هى الطائفة المؤمنة وهم عبدالله بن سلام وأصحابه وثمانية وأربعون من النصارى ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ فيه معنى التعجب، كأنه قيل: وكثير منهم ما أسوأ عملهم وقيل هم كعب بن الأشرف وأصحابه وغيرهم.

●● ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ جميع ما أنزل إليك وأى شىء أنزل إليك غير مراقب فى تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وإن لم تفعل﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿فما بلغت رسالته﴾ رسالاته مدنى وشامى وأبو بكر أى فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالة ولم تؤد منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، فإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها لكونها فى حكم شىء واحد لدخولها تحت خطاب واحد، والشىء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ مؤمناً به غير مؤمن. قالت الملحدة لعنهم الله تعالى هذا كلام لا يفيد وهو كقولك لغلامك: كل هذا الطعام فإن لم تأكله فإنك ما أكلته، قلنا: هذا أمر بتبليغ الرسالة فى المستقبل، أى بلغ ما أنزل إليك من ربك فى المستقبل فإن لم تفعل، أى إن لم تبلغ الرسالة فى المستقبل فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلا، أو بلغ ما أنزل إليك من ربك الآن ولا تنتظر به كثرة الشوكة والعدة فإن لم تبلغ كنت كمن لم يبلغ أصلا، أو بلغ ذلك غير خائف أحداً فإن لم تبلغ على هذا الوصف فكأنك لم تبلغ الرسالة أصلا ثم قال مشجعا له فى التبليغ ﴿والله يعصمك من الناس﴾ يحفظك منهم قتلا فلم يقدر عليه، وإن شج فى وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته، أو نزلت بعد ما أصابه ما أصابه والناس الكفار بدليل قوله: ﴿إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ لا يمكنهم مما يريدون إنزاله بك من الهلاك.

●● ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شىء﴾ على دين يعتد به حتى يسمى شيئاً لبطلانه ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعنى القرآن ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ إضافة زيادة الكفر والطغيان إلى القرآن بطريق التسبب ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ فلا تتأسف عليهم فإن ضرر ذلك يعود إليهم لا إليك.

●● ﴿إن الذين آمنوا﴾ بألسنتهم وهم المنافقون ودل عليه قوله: ﴿لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾[4] ﴿والذين هادوا والصابئون والنصارى﴾ قال سيبويه وجميع البصريين ارتفع الصابئون بالابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما فى حيز إن

---

(1) سورة «الطلاق»، الآيتان (٢، ٣).
(2) سورة «نوح» الآية (١٠)
(3) سورة «الجن»، الآية (١٦).
(4) سورة «المائدة»، الاية (٤١).

من اسمها وخبرها كأنه قيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى﴾ ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والصابئون كذلك أى من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم فقدم وحذف الخبر كقوله(١):

فمن يك أمسى بالمدينة رحله   فإنى وقيار بها لغريب

أى: فإنى لغريب وقيار كذلك، ودل اللام على أنه خبر إن، ولا يرتفع بالعطف على محل إن واسمها؛ لأن ذا لا يصح قبل الفراغ من الخبر لا تقول: إن زيدا وعمرو منطلقان، وإنما يجوز: إن زيدا منطلق وعمرو، والصابئون مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله: إن الذين آمنوا... إلى آخره، ولا محل لها كما لا محل للتى عطفت عليها وفائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين وهم أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غيا يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان فما الظن بغيره. ومحل من آمن الرفع على الابتداء، وخبره فلا خوف عليهم والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط، ثم الجملة كما هى خبر إن والراجع إلى اسم إن محذوف تقديره من آمن منهم.

•• ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بالتوحيد ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً﴾ ليقفوهم على ما يأتون وما يذرون فى دينهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جملة شرطية وقعت صفة لرسلا والراجع محذوف أى رسول منهم ﴿بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم من مشاق التكليف والعمل بالشرائع وجواب الشرط محذوف دل عليه ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ كأنه قيل: كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه، وقوله: فريقاً كذبوا جواب مستأنف لقائل كأنه يقول: كيف فعلوا برسلهم؟ وقال: يقتلون بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل وتنبيهًا على أن القتل من شأنهم وانتصب فريقاً وفريقاً على أنه مفعول كذبوا ويقتلون، وقيل: التكذيب مشترك بين اليهود والنصارى والقتل مختص باليهود فهم قتلوا زكريا ويحيى.

•• ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ﴾ ألا تكون حمزة وعلى وأبو عمرو على أن أن مخففة من الثقيلة أصله أنه لا تكون، فخففت إن وحذف ضمير الشأن ونزل حسبانهم لقوته فى صدورهم منزلة العلم فلذا دخل فعل الحسبان على ان التى هى للتحقيق ﴿فِتْنَةٌ﴾ بلاء وعذاب أى وحسب بنو إسرائيل أنهم لا يصيبهم من الله عذاب بقتل الأنبياء وتكذيب الرسل. وسد ما يشتمل عليه صلة أن وأن من المسند والمسند إليه مسد مفعولى حسب ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ فلم يعملوا بما رأوا ولا بما سمعوا، أو فعموا عن الرشد وصموا عن الوعظ ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ رزقهم التوبة ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ هو بدل

---

(١) القائل هو ضابىء بن الحارث البرجمى (... - ٣٠هـ) مات فى سجن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وسجن لقتله صبياً بدابته، ثم لمحاولته قتل أمير المؤمنين (الأعلام ٣/ ٢١٢).

من الضمير أى الواو، وهو بدل البعض من الكل، أو هو خبر مبتدأ محذوف أى أولئك كثير منهم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بحسب أعمالهم.

●● ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لم يفرق عيسى ـ عليه السلام ـ بينه وبينهم فى أنه عبد مربوب ليكون حجة على النصارى ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فى عبادته غير الله ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التى هى دار الموحدين حرمه دخولها ومنعه منه ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أى مرجعه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أى الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام عيسى، عليه السلام.

●● ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أى ثالث ثلاثة آلهة، والإشكال أنه تعالى قال فى الآية الأولى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وقالوا فى الثانية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ والجواب أن بعض النصارى كانوا يقولون كان المسيح بعينه هو الله، لأن الله ربما يتجلى فى بعض الأزمان فى شخص فتجلى فى ذلك الوقت فى شخص عيسى ولهذا كان يظهر من شخص عيسى أفعال لا يقدر عليها إلا الله وبعضهم ذهبوا إلى آلهة ثلاثة: الله ومريم والمسيح وأنه ولد الله من مريم ومن فى قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ للاستغراق أى وما إله قط فى الوجود إلا إله موصوف بالوحدانية لا ثانى له وهو الله وحده لا شريك له وفى قوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ للبيان كالتى فى ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾(١)، ولم يقل ليمسنهم، لأن فى إقامة الظاهر مقام المضمر تكريرا للشهادة عليهم بالكفر، أو للتبعيض أى ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم، لأن كثيرا منهم تابوا عن النصرانية ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نوع شديد الألم من العذاب.

●● ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ ألا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر، وهذا الوعيد الشديد مما هم عليه، وفيه تعجيب من إصرارهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم.

●● ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فيه نفى الألوهية عنه ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ صفة لرسول أى ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله وإبراؤه الأكمه والأبرص وإحياؤه الموتى لم يكن منه، لأنه ليس إلها بل الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده كما أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى. وخلقه من غير ذكر كخلق آدم من غير ذكر وأنثى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أى وما أمه أيضا إلا كبعض النساء المصدقات للأنبياء المؤمنات بهم ووقع اسم الصديقة

(١) سورة «الحج»، الآية (٣٠).

عليها لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾(1) ثم أبعدهما عما نسب إليهما بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنقض لم يكن إلا جسما مركبا من لحم وعظم وعروق وأعصاب وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ أى الأعلام من الأدلة الظاهرة على بطلان قولهم ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان، وهذا تعجيب من الله تعالى فى ذهابهم عن الفرق بين الرب والمربوب.

●● ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ هو عيسى ـ عليه السلام ـ أى شيئا لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلاء، والمصائب فى الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، لأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبتخليقه تعالى فكأنه لا يملك منه شيئا، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرا ولا نفعا، وصفة الرب أن يكون قادرا على كل شىء لا يخرج مقدور عن قدرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ متعلق بأتعبدون أى أتشركون بالله ولا تخشونه، وهو الذى يسمع ما تقولونه ويعلم ما تعتقدونه.

●● ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو مجاوزة الحد فغلو النصارى رفعه فوق قدره باستحقاق الألوهية وغلو اليهود وضعه عن استحقاق النبوة ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف، أى غلوا غير الحق يعنى غلوا باطلا ﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾ أى أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل مبعث النبى (ﷺ) ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن تابعهم ﴿وَضَلُّوا﴾ لما بعث رسول الله (ﷺ) ﴿عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه.

●● ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قيل إن أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت قال داود: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة، ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة قال عيسى: اللهم عذب من كفر بعدما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة الآف رجل ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ذلك اللعن بعصيانهم واعتدائهم، ثم فسر المعصية والاعتداء بقوله.

●● ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضا ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ عن قبيح فعلوه ومعنى وصف المنكر بفعلوه، ولا يكون النهى بعد الفعل أنهم لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله، أو المراد لا ينتهون عن منكر فعلوه، بل يصرون عليه، يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع منه وتركه، ثم عجب من سوء فعلهم مؤكدا لذلك

---

(1) سورة «التحريم»، الآية (12).

بالقسم بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وفيه دليل على أن ترك النهى عن المنكر من العظائم فيا حسرة على المسلمين فى إعراضهم عنه.

•• ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم منافقو أهل الكتاب كانوا يوالون المشركين ويصافونهم ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لبئس شيئا قدموه لأنفسهم سخط الله عليهم أى موجب سخط الله ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أى فى جهنم.

•• ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيمانا خالصا بلا نفاق ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ أى محمد (ﷺ) ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يعنى القرآن ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ما اتخذوا المشركين أولياء يعنى أن موالاة المشركين تدل على نفاقهم ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مستمرون فى كفرهم ونفاقهم، أو معناه ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله وبموسى وما أنزل إليه - يعنى التوراة - ما اتخذوا المشركين أولياء كما لم يوالهم المسلمون، ولكن كثيرا منهم فاسقون خارجون عن دينهم فلا دين لهم أصلا.

•• ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ هو مفعول ثان لتجدن. وعداوة تميز ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عطف عليهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ اللام تتعلق بعداوة ومودة. وصف اليهود بشدة الشكيمة والنصارى بلين العريكة، وجعل اليهود قرناء المشركين فى شدة العداوة للمؤمنين، ونبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أى علماء وعبادا ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ علل سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين بأن منهم قسيسين ورهبانا، وأن فيهم تواضعا واستكانة واليهود على خلاف ذلك، وفيه دليل على أن العلم أنفع شىء وأهداه إلى الخير وإن كان علم القسيسين وكذا علم، الآخرة وإن كان فى راهب والبراءة من الكبر وإن كانت فى نصرانى.

•• ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وصفهم برقة القلوب وأنهم يبكون عند استماع القرآن، كما روى عن النجاشى أنه قال لجعفر بن أبى طالب حين اجتمع فى مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يقرءونه عليهم هل فى كتابكم ذكر مريم. قال جعفر فيه سورة تنسب إلى مريم فقرأها إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾(1) وقرأ سورة طه إلى قوله ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾(2) فبكى النجاشى وكذلك فعل قومه الذين وفدوا على رسول الله (ﷺ) وهم سبعون رجلا حين قرأ عليهم سورة يس فبكوا. تفيض من الدمع تمتلىء من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلىء الإناء؛ أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء، أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء

(1) سورة «مريم»، الآية (34).
(2) سورة «طه»، الآية (9).

فجعلت أعينهيم كأنها تفيض بأنفسها أى تسيل من أجل البكاء ومن فى مما عرفوا لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله ومن فى من الحق لتبيين الموصول الذى هو ما عرفوا، أو للتبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال من ضمير الفاعل فى عرفوا ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بمحمد (ﷺ) والمراد إنشاء الإيمان والدخول فيه ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مع أمة محمد ـ عليه السلام ـ الذين هم شهداء على سائر الأمم يوم القيامة ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1] وقالوا ذلك، لأنهم وجدوا ذكرهم فى الإنجيل كذلك.

●● ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام موجبه وهو الطمع فى إنعام الله عيهم بصحبة الصالحين، وقيل: لما رجعوا إلى قومهم لاموهم فأجابوهم بذلك ومالنا مبتدأ وخبر، ولا نؤمن حال أى غير مؤمنين كقولك مالك قائما ﴿وَمَا جَاءَنَا﴾ وبما جاءنا ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ يعنى محمدا ـ عليه السلام ـ والقرآن ﴿وَنَطْمَعُ﴾ حال من ضمير الفاعل فى نؤمن، والتقدير ونحن نطمع ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا﴾ الجنة ﴿مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء والمؤمنين.

●● ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أى بقولهم ربنا آمنا وتصديقهم لذلك ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه دليل على أن الإقرار داخل فى الإيمان كما هو مذهب الفقهاء، وتعلقت الكرامية فى أن الإيمان مجرد القول بقوله بما قالوا، لكن الثناء بفيض الدمع فى السباق وبالإحسان فى السياق يدفع ذلك وأنى يكون مجرد القول إيمانا وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]. نفى الإيمان عنهم مع قولهم: آمنا بالله، لعدم التصديق بالقلب، وقال أهل المعرفة الموجود منهم ثلاثة أشياء البكاء على الجفاء والدعاء على العطاء والرضا بالقضاء فمن ادعى المعرفة ولم يكن فيه هذه الثلاثة فليس بصادق فى دعواه.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا أثر الرد فى حق الأعداء، والأول أثر القبول للأولياء ونزل فى جماعة من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ حلفوا أن يترهبوا ويلبسوا المسوح، ويقوموا الليل، ويصوموا النهار، ويسيحوا فى الأرض، ويجبّوا مذاكيرهم، ولا يأكلوا اللحم والودك[3] ولا يقربوا النساء والطيب.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ما طاب ولذ من الحلال ومعنى لا تحرموا لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم، أولا تقولوا : حرمناها على أنفسنا مبالغة منكم فى العزم

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٤٣).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٨).

(٣) الودك: دسم اللحم ودجاجة.

على تركها تزهدا منكم وتقشفا. روى أن رسـول الله (ﷺ) كان يأكل الدجاج والفالوذ وكان يعجبه الحلواء والعسل، وقال: «إن المـؤمن حلو يحب الحلاوة»[1]. وعن الحسن أنه دعى إلـى طعام ومعه فرقد السبخى[2] وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمن والفالوذ وغير ذلك فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن أهو صائم. قالوا: لا؟ ولكنه يكره هذه الألوان فأقبل الحسن عليه، وقال: يا فريقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالـص السمن يعيبه مسلم. وعنه أنه قيل له: فلان لا يأكل الفالوذ ويـقول لا أؤدى شكره، فقال: أفيشرب الماء البارد؟ قـالوا نعم قال: إنه جاهل أن نعمة الله عليه فى الماء البارد أكبر مـن نعمته عليه فى الفالوذ ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ ولا تجاوزوا الحد الذى حد عليكم فى تحليل أو تحريم أو ولا تتعدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، أو ولا تسرفوا فى تناول الطيبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ حدوده.

●● ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ حلالا حال مما رزقكم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ توكيد للتوصية بما أمر به وزاده توكـيدا بقوله: ﴿الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ لأن الإيمان به يوجب التقـوى فيما أمر به ونهى.

●● ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو فى اليمين الساقـط الذى لا يتعلق به حكم وهو أن يحلف على شىء يرى أنه كذلك وليس كما ظن، وكانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنه قربة فلما نزلت تلك الآية قالوا: فكيف أيماننـا فنزلت، وعند الشافعى ـ رحمه الله ـ ما يجرى على اللسان بلا قصد ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أى بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها وبالتخفيف كوفى غير حفص والعـقد العزم على الوطء وذا لا يتصور فى الماضى فلا كـفارة فى الغموس، وعند الشافعى ـ رحمه الله ـ القصـد بالقلب، ويمين الغموس مقصودة فكانت معقودة فـكانت الكفارة فيها مشروعـة، والمعنى ولكن يـؤاخذكم بما عقدتم إذا حـنثتم فحذف وقـت المؤاخذة؛ لأنه كان معـلوما عندهم. أو بنكث ما عقدتم فحذف المضاف ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أى فكفارة نكثه، أو فكفارة معقود الأيمان، والكفارة الفعلة التى من شأنهـا أن تكفر الخطيئة أى تسترها ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ هو أن يغديهم ويعشيهم، ويجوز أن يعطيهم بطريق التمليك، وهو لكل أحد نصف صاع من بر أوصاع من شعير

---

(١) هذا منتزع من أحاديث، أما أكل الدجاج فمتفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى فى قصة له، وأما أكله الفالوذ فرواه الحاكم مـن حديث عبدالله بن سلام، وأما كان يعجبه الحلواء والعسـل فمتفق عليه من حديث همام عن أبيه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ، وأما إن المؤمن حلو يحب الحلاوة فذكره الديلمى فى الفردوس عن على به أبى طالب ـ رضى الله عنه.

(٢) فرقد: هو فرقد بن يعـقوب السبخي، أبو يعقوب البصرى، تابـعى، روى عن أنس، وبعض كبار التابعين، لـم يكن كثير الحديث، وهو عنـد أهل الحديث «صالح، رديء الحفظ، لا يؤخـذ حديثه». مات بالطاعون سنة ١٣١هـ، وقيل: بل قبل الطاعون؛ فالله أعلم.
تهذيب التهذيب (٤/ ٤٨٣، ٤٨٤).

أو صاع من تمر، وعند الشافعي ـ رحمه الله ـ مد لكل مسكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى غداء وعشاء من بر إذ الأوسع ثلاث مرات مع الإدام والأدنى مرة من تمر أو شعير ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطف على إطعام، أو على محل من أوسط ووجهه أن من أوسط بدل من إطعام، والبدل هو المقصود فى الكلام وهو ثوب يغطى العورة، وعن ابن عمر ـ رضى الله عنه ـ إزار وقميص ورداء ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة، أو كافرة لإطلاق النص وشرط الشافعي ـ رحمه الله ـ الإيمان حملا للمطلق على المقيد فى كفارة القتل ومعنى أو التخيير وإيجاب إحدى الكفارات الثلاثة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ إحداها ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة لقراءة أبى وابن مسعود كذلك ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم فترك ذكر الحنث لوقوع العلم بأن الكفارة لا تجب بنفس الحلف ولذا لم يجز التكفير قبل الحنث ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيرا أو ولا تحلفوا أصلا ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج منه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ أى القمار ﴿وَالأَنصَابُ﴾ الأصنام؛ لأنها تنصب فتعبد ﴿وَالأَزْلامُ﴾ وهى القداح التى مرت ﴿رِجْسٌ﴾ نجس أو خبيث مستقذر ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه يحمل عليه فكأنه عمله والضمير فى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يرجع إلى الرجس، أو إلى عمل الشيطان أو إلى المذكور أو إلى المضاف المحذوف كأنه قيل إنما تعاطى الخمر والميسر، ولذا قال: رجس ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أكد تحريم الخمر والميسر من وجوه حيث صدر الجملة بإنما وقرنهما بعبادة الأصنام، ومنه الحديث: «شارب الخمر كعابد الوثن»(١). وجعلهما رجسا من عمل الشيطان ولا يأتى منه إلا الشر البحت، وأمر بالاجتناب وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحا كان الارتكاب خسارا.

●● ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ﴾ ذكر ما يتولد منهما من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار، وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة، وخص الصلاة من بين الذكر لزيادة درجتها، كأنه قال وعن الصلاة خصوصا، وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولا ثم أفردهما آخرًا؛ لأن الخطاب مع المؤمنين وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب الأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أن ذلك جميعا من أعمال أهل الشرك فكأنه لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر ثم أفردهما بالذكر ليعلم أنهما المقصود بالذكر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ من أبلغ ما ينهى به، كأنه قيل: قد تلى عليكم ما

---

(١) أخرجه البزار من حديث مجاهد عن عبدالله بن عمر، وأبو نعيم فى الحلية.

فيهما من أنواع الصوارف والزواجر فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا؟

•• ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ وكونوا حذرين خاشعين؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة وعمل كل حسنة ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ذلك ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول؛ لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه ونزل فيمن تعاطى شيئا من الخمر والميسر قبل التحريم.

•• ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أى شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار قبل تحريمهما ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿وَآمَنُوا﴾ بالله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ الخمر والميسر بعد التحريم ﴿وَآمَنُوا﴾ بتحريمهما ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ سائر المحرمات، أو الأول عن الشرك، والثانى عن المحرمات، والثالث عن الشبهات ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ إلى الناس ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولما ابتلاهم الله بالصيد عام الحديبية وهم محرمون وكثر عندهم حتى كان يغشاهم فى رحالهم فيستمكنون من صيده أخذا بأيديهم وطعنا برماحهم نزل.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ومعنى يبلو يختبر، وهو من الله لإظهار ما علم من العبد على ما علم لا لعلم ما لم يعلم، ومن للتبعيض إذ لا يحرم كل صيد، أو لبيان الجنس ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليعلم الله خوف الخائف منه بالامتناع عن الاصطياد موجودا كما كان يعلم قبل وجوده أنه يوجد ليثيبه على عمله لا على علمه فيه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ فصاد ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الابتلاء ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قلل فى قوله بشىء من الصيد ليعلم أنه ليس من الفتن العظام وتناله صفة لشىء.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ أى المصيد إذ القتل إنما يكون فيه ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أى محرمون جمع حرام كردح فى جميع رداح فى محل النصب على الحال من ضمير الفاعل فى تقتلوا ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ حال من ضمير الفاعل أى ذاكرا لإحرامه، أو عالما أن ما يقتله مما يحرم قتله عليه فإن قتله ناسيا لإحرامه، أو رمى صيدا وهو يظن أنه ليس بصيد فهو مخطىء، وإنما شرط التعمد فى الآية مع أن محظورات الإحرام يستوى فيها العمد والخطأ؛ لأن مورد الآية فيمن تعمد فقد روى أنه عن لهم فى عمرة الحديبية حمار وحش فحمل عليه أبو اليسر فقتله، فقيل له: إنك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت. ولأن الأصل فعل المتعمد والخطأ ملحق به للتغليظ وعن الزهرى نزل

الكتاب بالعمد ووردت السنة بالخطأ(١) ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ كوفى أى فعليه جـزاء يماثل ما قتل من الصيد، وهو قيمة الصيد يقوّم حيث صيد، فإن بلغت قيمته ثمن هدى خير بين أن يهدى من النعم ما قيمته قيمة الصـيد وبين أن يشترى بقيمته طعاما فيعطى كل مـسكين نصف صاع من بر أوصاعا من غيره، وإن شاء صام عن طعام كل مسكين يوما، وعنـد محمد والشافعى ـ رحمهما الله تعالى ـ مثله نظـيره من النعم فإن لم يوجـد له نظير من النعم فكـما مر فجزاء مثل على الإضـافة غيرهم، وأصله فجزاء مثل ما قتل أى فعليه أن يجزى مثل ما قتل، ثم أضيف، كما تقول عجبت من ضرب زيدا، ثم من ضرب زيد ﴿مِنَ النَّعَمِ﴾ حال من الضميـر فى قتل إذ المقتول يكون من الـنعم أوصفة لجزاء ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بمثل ما قتل ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ حكمان عادلان من المسلمين، وفيه دليل على أن المثل القيمة؛ لأن التقويم مما يحتاج إلى النظر والاجتهاد دون الأشياء المشاهدة؛ ولأن المثل المطلق فى الكتاب والسنـة والإجماع مقيد بالصورة والمعـنى، أو بالمعنى لا بالصورة، أو بالـصورة بلا معنى؛ ولأن القيمة أريدت فـيما لا مثل له صورة إجماعا فـلم يبق غيرها مرادا إذ لا عموم لـلمشترك، فإن قلت: قوله: من النعم ينـافى تفسير المثل بالقيمة قلت: من أوجب القيـمة خير بين أن يشترى بها هديا أو طعاما أو يصوم، كما خير الله تعالى فى الآية فكان مـن النعم بيانا للهدى المشترى بالقيمة فى أحد وجوه التخيير؛ لأن من قوم الصيد واشترى بالـقيمة هديا فأهداه فقد جزى بمثل ما قتل من النعم على أن التخيير الذى فى الآية بين أن يجزى بالهدى أو يكفر بالطعام أو الصوم، إنما يستقيم إذا قوم ونظر بعد التقويم أى الثلاثة يختار، فأما إذا عـمد إلى النظير وجعله الواجب وحده من غير تخيير، فإذا كان شيئا لا نظير له قوم حينئذ، ثم يخير بين الطعام والصيام ففيه نبوّ عما فى الآية ألا ترى إلى قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ كيف خير بين الأشـياء الثلاثة ولا سبيل إلى ذلـك إلا بالتقويم؟ ﴿هَدْيًا﴾ حال من الهـاء فى به أى يحكم به فـى حال الهدى ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ صفة لهديا؛ لأن إضافته غير حقيقية ومعنـى بلوغه الكعبة أن يذبح بالحرم فأما التصدق به فحيث شئت وعند الـشافعى ـ رحمه الله ـ فى الحرم ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ﴾ معطوف على جزاء ﴿طَعَامُ﴾ بدل من كفارة، أو خبر مبـتدأ محذوف أى هى طعام أو كفارة طعام على الإضـافة مدنى وشامى، وهذه الإضافة لتبيين المضاف، كأنه قيل: أو كفارة من طعام ﴿مَسَاكِينَ﴾ كما تقول: خاتم فضة أى خاتم من فضة ﴿أَوْ عَدْلُ﴾ وقرىء بكسر العين قال الفـراء: العدل ما عادل الشىء من غير جنسه كالصوم والإطعام، والعدل مثله من جنسه ومنه عدلاً الحمل، يقال: عندى غلام عدل غلامك بالكسر إذا كان من جنسه فإن أريد أن قيمته كقيمته ولم يكن من جنسه قيل. هو عدل غلامك بالفتح ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الطعام ﴿صِيَامًا﴾ تمييز نحو لى مثله رجلا والخيار فى ذلك إلى القاتل وعند محمد ـ رحمه الله ـ إلى الحكمين ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ متعلق بقولـه فجزاء أى فعليه أن يجازى، أو يكفر ليذوق سوء

(١) رواه الطبرى.

عقاب عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، والوبال المكروه والضرر الذى ينال فى العاقبة من عمل سوء لثقله عليه من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾[1] أى ثقيلا شديدا والطعام الوبيل الذى يثقل على المعدة فلا يستمر ﴿عفا الله عما سلف﴾ لكم من الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد التحريم، أو فى ذلك الإحرام ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ بالجزاء وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره فهو ينتقم الله منه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ بإلزام الأحكام ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ لمن جاوز حدود الإسلام.

●● ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ مصيدات البحر مما يؤكل ومما لا يؤكل ﴿وَطَعَامُهُ﴾ وما يطعم من صيده، والمعنى أحل لكم الانتفاع بجميع ما يصاد فى البحر وأحل لكم أكل المأكول منه وهو السمك وحده ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ مفعول له أى لكم تمتيعا لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وللمسافرين والمعنى أحل لكم طعامه تمتيعا لتنائكم[2] يأكلونه طريا ولسيارتكم يتزودونه قديدا، كما تزود موسى - عليه السلام - الحوت فى مسيره إلى الخضر ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ ما صيد فيه وهو ما يفرخ فيه، وإن كان يعيش فى الماء فى بعض الأوقات كالبط فإنه برى؛ لأنه يتولد فى البر والبحر له مرعى كما للناس متجر ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ محرمين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى الاصطياد فى الحرم، أو فى الإحرام ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تبعثون فيجزيكم على أعمالكم.

●● ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ أى صير ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿قِيَامًا﴾ مفعول ثان، أو جعل بمعنى خلق وقياما حال ﴿لِّلنَّاسِ﴾ أى انتعاشا لهم فى أمر دينهم ونهوضا إلى أغراضهم فى معاشهم ومعادهم لما يتم لهم من أمر حجهم وعمرتهم وأنواع منافعهم، قيل: لو تركوه عاما لم ينظروا ولم يؤخروا ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ والشهر الذى يؤدى فيه الحج وهو ذو الحجة، لأن فى اختصاصه من بين الأشهر بإقامة موسم الحج فيه شأنا قد علمه الله، أو أريد به جنس الأشهر الحرم وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿وَالْهَدْيَ﴾ ما يهدى إلى مكة ﴿وَالْقَلائِدَ﴾ والمقلد منه خصوصا وهو البدن فالثواب فيه أكثر وبهاء الحج معه أظهر ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعل الكعبة قياما، أو إلى ما ذكر من حفظ حرمة الإحرام بترك الصيد وغيره ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى لتعلموا أن الله يعلم مصالح ما فى السموات وما فى الأرض وكيف لا يعلم وهو بكل شىءعليم.

●● ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن استخف بالحرم والإحرام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لآثام من

---

(١) سورة «المزمل»، الآية (١٦).

(٢) لتنائكم: التناء جمع تانىء وهم المقيمون حيث أنتم (القاموس ١/ ٩).

عظم المشاعر العظام ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالجانى الملتجىء إلى البلد الحرام ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ تشديد فى إيجاب القيام بما أمر به وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم فى التفريط ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فلا يخفى عليه نفاقكم ووفاقكم.

•• ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ لما أخبر أنه يعلم ما يبدون وما يكتمون ذكر أنه لا يستوى خبيثهم وطيبهم بل يميز بينهما فيعاقب الخبيث أى الكافر ويثيب الطيب أى المسلم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾وآثروا الطيب ـ وإن قل ـ على الخبيث ـ وإن كثر ـ وقيل: هو عام فى حلال المال وحرامه، وصالح العمل وطالحه، وجيد الناس ورديئهم ﴿يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ أى العقول الخالصة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كانوا يسألون النبى (ﷺ) عن أشياء امتحانا فنزل.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قال الخليل وسيبويه وجمهور البصريين ـ أصله شيئاء بهمزتين بينهما ألف وهى فعلاء من لفظ شىء، وهمزتها الثانية للتأنيث ولذا لم تنصرف كحمراء، وهى مفردة لفظا جمع معنى ولما استثقلت الهمزتان المجتمعتان قدمت الأولى التى هى لام الكلمة فجعلت قبل الشين فصار وزنها لفعاء، والجملة الشرطية والمعطوفة عليها أى قوله: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ صفة لأشياء أى وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة فى زمان الوحى وهو ما دام الرسول بين أظهركم تبد لكم تلك التكاليف التى تسوؤكم أى تغمكم وتشق عليكم وتؤمرون بتحملها فتعرضون أنفسكم لغضب الله بالتفريط فيها ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاقبكم إلا بعد الإنذار.

والضمير فى ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ لا يرجع إلى أشياء حتى يعدى بعن بل يرجع إلى المسألة التى دلت عليها لا تسألوا أى قد سأل هذه المسألة ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ صاروا بسببها ﴿كَافِرِينَ﴾ كما عرف فى بنى إسرائيل.

•• ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ﴾ كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا إذنها أى شقوها وامتنعوا من ركوبها وذبحها ولا تطرد عن ماء ولا مرعى، واسمها البحيرة، وكان يقول الرجل: إذا قدمت من سفرى، أو برأت من مرضى فناقتى سائبة وجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها، وقيل: كان الرجل إذا أعتق عبدا قال: هو سائبة فلا عقل بينهما ولا ميراث، وكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع ذكرا أكله الرجال وإن كان أنثى أرسلت فى الغنم: وكذا إن كان ذكرا وأنثى وقالوا: وصلت أخاها فالوصيلة بمعنى الواصلة وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه

ولا يمنع من ماء ولا مرعى ومعنى ما جعل ما شرع ذلك ولا أمر به ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتحريمهم ما حرموا ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فى نسبتهم هذا التحريم إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أن الله لم يحرم ذلك وهم عوامهم.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أى هلموا إلى حكم الله ورسوله بأن هذه الأشياء غير محرمة ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى كافينا ذلك، حسبنا مبتدأ، والخبر ما وجدنا، وما بمعنى الذى، والواو فى ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ للحال قد دخلت عليها همزة الإنكار، وتقديره أحسبهم ذلك، ولو كان آباؤهم ﴿لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ أى الاقتداء، إنما يصح بالعالم المهتدى، وإنما يعرف اهتداؤه بالحجة.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ انتصب أنفسكم بعليكم وهو من أسماء الأفعال أى الزموا إصلاح أنفسكم، والكاف والميم فى عليكم فى موضع جر؛ لأن اسم الفعل هو الجار والمجرور لا على وحدها ﴿لا يَضُرُّكُم﴾ رفع على الاستئناف أو جزم على جواب الأمر، وإنما ضمت الراء إتباعا لضمة الضاد ﴿مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العناد من الكفرة يتمنون دخولهم فى الإسلام فقيل لهم: عليكم أنفسكم وما كلفتم من إصلاحها لا يضركم الضُّلَّال عن دينكم إذا كنتم مهتدين، وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإن تركهما مع القدرة عليهما لا يجوز ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يجزيكم على أعمالكم، روى أنه خرج بديل مولى عمرو بن العاص - وكان من المهاجرين - مع عدى وتميم - وكانا نصرانيين - إلى الشام فمرض بديل وكتب كتاباً فيه ما معه وطرحه فى متاعه ولم يخبر به صاحبيه، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشا متاعه فأخذا إناء من فضة فأصاب أهل بديل الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدا فرفعوهما إلى رسول الله (ﷺ) فنزل.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ ارتفع اثنان، لأنه خبر المبتدأ وهو شهادة بتقدير شهادة بينكم شهادة اثنين، أو لأنه فاعل شهادة بينكم أى فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. واتسع فى بين فأضيف إليه المصدر، وإذا حضر ظرف الشهادة وحين الوصية بدل منه وفى إبداله منه دليل على وجوب الوصية، لأن حضور الموت من الأمور الكائنة وحين الوصية بدل منه فيدل على وجود الوصية ولو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء فنقل إلى الوجوب وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لاثنين ﴿مِّنكُمْ﴾ من أقاربكم؛ لأنهم أعلم بأحوال الميت ﴿أَوْ آخَرَانِ﴾ عطف على اثنان ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من الأجانب ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ سافرتم فيها وأنتم فاعل فعل يفسره الظاهر ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أو

منكم من المسلمين ومن غيركم من أهل الذمة، وقيل: منسوخ إذ لا يجوز شهادة الذمى على المسلم، وإنما جازت فى أول الإسلام لقلة المسلمين ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ تقفونهما للحلف هو استئناف كلام، أو صفة لقوله «أو آخران من غيركم» أى أو آخران من غيركم محبوسان، وإن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ﴾ من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس. وعن الحسن ـ رحمه الله ـ بعد العصر أو الظهر، لأن أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما وفى حديث بديل أنها لما نزلت صلى رسول الله (ﷺ) صلاة العصر ودعا بعديٍّ وتميم فاستحلفهما عند المنبر فحلفا، ثم وجد الإناء بمكة فقالوا إنا اشتريناه من تميم وعدى ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ فيحلفان به ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ شككتم فى أمانتهما وهو اعتراض بين يقسمان وجوابه وهو ﴿لا نَشْتَرِي﴾ وجواب الشرط محذوف أغنى عنه معنى الكلام، والتقدير إن ارتبتم فى شأنهما فحلفوهما ﴿بِهِ﴾ بالله أو بالقسم ﴿ثَمَنًا﴾ عوضا من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أى المقسم له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أى لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ولو كان من نقسم له قريباً منا ﴿وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أى الشهادة التى أمر الله بحفظها وتعظيمها ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن كتمنا ﴿لَّمِنَ الآثِمِينَ﴾ وقيل: إن أريد بهما الشاهدان فقد نسخ تحليف الشاهدين، وإن أريد الوصيان فلم ينسخ تحليفهما.

•• ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ فإن اطلع ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ فعلا ما أوجب إثما واستوجبا أن يقال إنهما لمن الآثمين ﴿فَآخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أى من الذين استحق عليهم الإثم ومعناه من الذين جنى عليهم وهم أهل الميت وعشيرته، وفى قصة بديل أنه لما ظهرت خيانة الرجلين حلف رجلان من ورثته إنه إناء صاحبهما وإن شهادتهما أحق من شهادتهما ﴿الأَوْلَيَانِ﴾ الأحقان بالشهادة لقرابتهما، أو معرفتهما وارتفاعهما على هما الأوليان، كأنه قيل: ومن هما فقيل الأوليان، أو هما بدل من الضمير فى يقومان، أو من آخران استحق عليهم الأوليان حفص. أى من الورثة الذين استحق عليهم الأوليان من بينهم بالشهادة أن يجردوهما للقيام بالشهادة ويظهروا بهما كذب الكاذبين. الأولين حمزة وأبو بكر على أنه وصف للذين استحق عليهم مجرور أو منصوب على المدح، وسموا أولين؛ لأنهم كانوا أولين فى الذكر فى قوله شهادة بينكم ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ أى ليميننا أحق بالقبول من يمين هذين الوصيين الخائنين ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ وما تجاوزنا الحق فى يميننا ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

•• ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى مر ذكره من بيان الحكم ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقرب ﴿أَن يَأْتُوا﴾ أى الشهداء نحو تلك الحادثة ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ كما حملوها بلا خيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى تكرر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور كذبهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى الخيانة واليمين الكاذبة ﴿وَاسْمَعُوا﴾ سمع قبول وإجابة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الطاعة، فإن

قلت ما معنى أو هنا قلت معناه ذلك أقرب من أن يؤدّوا الشهادة بالحق والصدق، إما لله، أو لخوف العار والافتضاح برد الأيمان، وقد احتج به من يرى ردّ اليمين على المدعى، والجواب أن الورثة قد ادّعوا على النصرانيين أنهما قد اختانا فحلفا فلما ظهر كذبهما ادعيا الشراء فيما كتما فأنكرت الورثة فكانت اليمين على الورثة لإنكارهما الشراء.

●● ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكروا أو احذروا ﴿يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ ما الذى أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان ؟ وهذا السؤال توبيخ لمن أنكرهم وماذا منصوب بأجبتم نصب المصدر على معنى أى إجابة أجبتم ﴿قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا﴾ بإخلاص قومنا دليله ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أو بما أحدثوا بعدنا دليله ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[1] أو قالوا ذلك تأدبا أى علمنا ساقط مع علمك ومغمور به فكأنه لا علم لنا.

●● ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ بدل من يوم يجمع ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث طهرتها واصطفيتها على نساء العالمين والعامل فى ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ أى قويتك نعمتى ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبريل ـ عليه السلام ـ أيد به لتثبت الحجة عليهم، أو بالكلام الذى يحيا به الدين وأضافه إلى القدس؛ لأنه سبب الطهر من أوضار الآثام دليله ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ حال أى تكلمهم طفلا إعجازا ﴿وَكَهْلاً﴾ تبليغا ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ معطوف على إذ أيدتك ونحره وإذ تخلق. وإذ تخرج. وإذ كففت. وإذ أوحيت ﴿الْكِتَابَ﴾ الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ الكلام المحكم الصواب ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تقدر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ هيئة مثل هيئة الطير ﴿بِإِذْنِي﴾ بتسهيلى ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ الضمير للكاف، لأنها صفة الهيئة التى كان يخلقها عيسى وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها؛ لأنها ليست من خلقه وكذا الضمير فى ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وعطف ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ على تخلق ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من القبور أحياء ﴿بِإِذْنِي﴾ قيل: أخرج سام بن نوح ورجلين وامرأة وجارية ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ أى اليهود حين هموا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُم﴾ ظرف لكففت ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ساحر حمزة وعلى.

●● ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ ألهمت ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ الخواص، أو الأصفياء ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أى آمنوا ﴿بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أى اشهد بأننا مخلصون من أسلم وجهه.

●● ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ أى اذكروا إذ ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عيسى نصب على اتباع حركته حركة الابن نحو يازيد بن عمرو ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هل يفعل، أو هل يطيعك ربك إن سألته؟

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (١١٧).

فاستطاع وأطاع بمعنى كاستجاب وأجاب. هل تستطيع ربك على، أى هل تستطيع سؤال ربك؟ فحذف المضاف والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ ينزل مكى وبصرى ﴿مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هى الخوان إذا كان عليه الطعام من ماده إذا أعطاه كأنها تميد من تقدم إليها ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى اقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذ الإيمان يوجب التقوى.

•• ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تبركا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ ونزداد يقينا كقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(1) ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أى نعلم صدقك عيانا كما علمناه استدلالاً ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ بما عاينا لمن بعدنا ولما كان السؤال لزيادة العلم لا للتعنت.

•• ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ﴾ أصله يا الله فحذف يا وعوض منه الميم ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أى يكون يوم نزولها عيدا، قيل: هو يوم الأحد ومن ثم اتخذه النصارى عيدا، والعيد: السرور العائد، ولذا يقال: يوم عيد فكان معناه تكون لنا سرورا وفرحا ﴿لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من لنا بتكرير العامل أى لمن فى زماننا من أهل ديننا ولمن يأتى بعدنا أو يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم، أو للمتقدمين منا والأتباع ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ على صحة نبوّتى ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وأعطنا ما سألناك وأنت خير المعطين.

•• ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ بالتشديد مدنى وشامى وعاصم وعد الإنزال وشرط عليهم شرطا بقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ بعد إنزالها منكم ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أى تعذيبا كالسلام بمعنى التسليم، والضمير فى ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ للمصدر ولو أريد بالعذاب ما يعذب به لم يكن بد من الباء ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ عن الحسن أن المائدة لم تنزل ولو نزلت لكانت عيدا إلى يوم القيامة لقوله: وآخرنا، والصحيح أنها نزلت. فعن وهب نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة عليها كل طعام إلا اللحم، وقيل: كانوا يجدون عليها ما شاءوا، وقيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرة وعيشا.

•• ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الجمهور على أن هذا السؤال يكون فى يوم القيامة دليله سياق الآية وسباقها، وقيل: خاطبه به حين رفعه إلى السماء دليله لفظ إذ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ ما ينبغى لى ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أن أقول قولا لا يحق لى أن أقوله: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إن صح أنى قلته فيما مضى فقد علمته والمعنى أنى لا أحتاج إلى الاعتذار؛ لأنك تعلم أنى لم أقله ولو قلته لعلمته لأنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ذاتى ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ذاتك فنفس الشىء ذاته وهويته والمعنى تعلم معلومى ولا أعلم معلومك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين معا؛ لأن

(1) سورة «البقرة»، الآية (٢٦٠).

ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب؛ ولأن مـا يعلم علام الغيوب لا ينتهى إليه علم أحد ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ﴾ أى ما أمرتهم إلا بما أمرتنى بـه، ثم فسر ما أمر به فقال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فأن مفسرة بمعنى أى ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيبا ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ من مدة كونى فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الحفيظ ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولى وفعلى وقولهم وفعلهم.

•• ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال الزجاج: علم عيسى ـ عليه السلام ـ أن منهم من آمن ومنهم من أقام علـى الكفر، فقال فى جملتهم: إن تعذبهم أى أن تعذب من كفر منهم فإنهم عبادك الذين علمـتهم جاحدين لآياتك مكذبين لأنبيائك، وأنت العادل فى ذلك فإنهم قد كفـروا بعد وجوب الحجة عليهم، وإن تغفر لهم أى لمن أقـلع منهم وآمن فذلك تفضل منك، وأنت عزيـز لا يمتنع عليك ما تريد حكيم فى ذلك، أو عـزيز قوى قادر على الثواب حكيم لا يعاقب إلا عن حكمة وصواب.

•• ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ برفع اليوم والإضافة علـى أنه خبر هذا أى يقول الله تعالى: هذا يـوم ينفع الصادقين فيـه صدقهم المستمر فى دنـياهم وآخرتهم، والجملـة من المبتدأ والخبر فى محل الـنصب على المفعولية، كما تـقول، قال زيد، عمرو منطلق، وبالنـصب نافع على الظرف أى قال الله هذا لـعيسى ـ عليه السلام ـ يوم يـنفع الصادقين صدقهم وهو يـوم القيامة ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بالسعى المشكور ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالجزاء الموفور ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه باق بخلاف الفوز فى الدنيا فهو غير باق.

•• ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ عظم نفسه عما قالـت النصارى إن معه إلها آخرا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المنع والإعطاء والإيجاد والإفناء. نسأله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته ـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(سورة الأنعام مكية وهى مائة وخمس وستون آية كوفى، وأربع وستون بصرى)

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء أى: الحمد له وإن لم تحمدوه: ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ جمع السموات، لأنها طباق بعضها فوق بعض. والأرض وإن كانت سبعة عند الجمهور فليس بعضها فوق بعض بل بعضها موال لبعض. جعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وإلى مفعولين إن كان بمعنى صيَّر كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[1] وفيه رد قول الثنوية[2] بقدم النور والظلمة، وأفرد النور لإرادة الجنس؛ ولأن ظلمة كل شئ تختلف باختلاف ذلك الشئ، نظيره ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة الموضع المظلم يخالف كل منها صاحبة، والنور ضرب واحد لا يختلف كما تختلف الظلمات، وقدم الظلمات لقوله عليه السلام: « خلق اللَّه خلقه فى ظلمة، ثم رش عليهم من نور فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»[3]. ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد هذا البيان ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يساوون به الأوثان، تقول عدلت بذا أى: ساويته به، والباء فى بربهم صلة للعدل لا للكفر، أو ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾عنه أى: يعرضون عنه فتكون الباء صلة للكفر وصلة يعدلون أى عنه محذوفة وعطف ثم الذين كفرو على الحمد للَّه على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته، أو على خلق السموات على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شئ منه، ومعنى ثم: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ من لابتداء الغاية، أى ابتدأ خلق أصلكم يعنى آدم منه ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً﴾ أى حكم أجل الموت ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ أجل القيامة، أو الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثانى ما بين الموت والبعث وهو البرزخ، أول الأول النوم والثانى الموت، أو الثانى هو الأول، وتقديره وهو أجل مسمى أى معلوم، وأجل مسمى مبتدأ والخبر عنده وقدم المبتدأ وإن كان نكرة والخبر ظرفاً وحقه التأخير لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون من المرية، أو تجادلون من المراء، ومعنى ثم: استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

---

(١) سورة «الزخرف»، الآية (١٩).

(٢) الثنوية: فرقة من الفرق الضالة، يزعمون أن النور والظلمة قديمان، ومنهم المزدكية والتناسخية. انظر: (الملل والنحل).

(٣) هذا الحديث رواه ابن حبان والبيهقى.

●● ﴿ وَهُوَ اللَّهُ ﴾ مبتدأ وخبر﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل: وهو المعبود فيهما. كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ (١) أو المعروف بالإلهية فيهما، أو هو الذى يقال له الله فيهما. والأول تفريع على أنه مشتق، وغيره على أنه غير مشتق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبر بعد خبر أو كلام مبتدأ أى: هو يعلم سركم وجهركم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ من الخير والشر، ويثيب عليه ويعاقب.

●● و«من» فى ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ ﴾ للاستغراق وفى ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ للتبعيض أى: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التى يجب فيها النظر والاعتبار ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر لا يلتفتون إليه لقلة خوفهم وتدبرهم فى العواقب ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ مردود على كلام محذوف، كأنه قيل: إن كانوا معرضين على الآيات فقد كذبوا ﴿بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ أى بما هو أعظم آية وأكبرها وهو القرآن الذى تُحدُّوا به فعجزوا عنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى أنباء الشئ الذى كانوا به يستهزءون؛ وهو القرآن أى: أخباره وأحواله يعنى: سيعلمون بأى شئ استهزءوا، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

●● ﴿أَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى المكذبين ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ هو مدة انقضاء أهل كل عصر، وهو ثمانون سنة أو سبعون ﴿مَّكَّنَّاهُمْ ﴾ فى موضع جر صفة لقرن، وجمع على المعنى: ﴿فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ التمكين فى البلاد إعطاء المكنة، والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى الأجسام والسعة فى الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا ﴾ كثيرا، وهو حال من السماء ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ ﴾ من تحت أشجارهم، والمعنى: عاشوا فى الخصب بين الأنهار والثمار وسقيا الغيث المدرار ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يغن ذلك عنهم شيئاً ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلا منهم.

●● ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ﴾ مكتوباً ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ فى ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ هو بالتأكيد لئلا يقولوا: سكرت أبصارنا ومن المحتج عليهم العمى: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره.

●● ﴿وَقَالُوا لَوْلا ﴾ هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ ﴾ على النبى ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يكلمنا أنه نبى فقال الله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ﴾ لقضى أمر هلاكهم ﴿ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين لأنهم إذا شاهدوا ملكاً فى صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، ومعنى ثم بُعد ما بين الأمر وقضاء الأمر وعدم الإنظار جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر؛ لأن مفاجأة الشدة من نفس الشدة.

---

(١) سورة الزخرف»، الآية (٨٤).

●● ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون تارة: لولا أنزل على محمد ملك وتارة يقولون: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُم﴾[1] ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾[2] ﴿لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ لأرسلناه في صورة رجل كما كان جبريل - عليه السلام - ينزل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة دحية[3] لأنهم لا يبقون على رؤية الملائكة في صورهم ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ ولخلطنا وأشكلنا عليهم من أمره إذا كان سبيله كسبيلك يا محمد فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة الإنسان هذا إنسان وليس بملك، يقال: لبست الأمر على القوم وألبسته إذا أشبهته وأشكلته عليهم.

●● ثم سلى نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه بقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأحاط بهم الشئ الذى كانوا يستهزءون به وهو الحق حيث أهلكوا من أجل استهزائهم به، و«منهم» متعلق بسخروا كقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾[4] والضمير للرسل والدال مكسورة عند أبي عمرو وعاصم لالتقاء الساكنين، وضمها غيرهم إتباعا لضم التاء.

●● ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ والفرق بين فانظروا وبين ثم انظروا أن النظر جعل مسبباً عن السير فى فانظروا، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، ومعنى سيروا فى الأرض ثم انظروا، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، ومعنى سيروا فى الأرض ثم انظروا: إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها وإيجاب النظر فى آثار الهالكين ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

●● ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من استفهام، وما بمعنى الذى فى موضع الرفع على الابتداء ولمن خبره ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقرير لهم أى: هو لله لا خلاف بينى وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا منه شيئاً إلى غيره ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أصل كتب: أوجب ولكن لا يجوز الإجراء على ظاهره إذ لا يجب على الله شئ للعبد، فالمراد به أنه وعد ذلك وعداً مؤكداً، وهو منجزه لا محالة وذكر النفس للاختصاص ورفع الوسائط ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شئ بقوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيكم على إشراككم ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ فى اليوم أوفى الجمع ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ نصب على الذم أى أريد الذين خسروا أنفسهم باختيارهم الكفر ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال الأخفش: الذين بدل من كم فى ليجمعنكم أى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم، والوجه هو الأول؛ لأن سيبويه قال: لا يجوز: مررت بى

---

(١) سورة «المؤمنون»، الآية (٢٤). (٢) سورة «فصلت»، الآية (١٤).
(٣) دحية : هو الصحابى الجليل، دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبى، كان أجمل الناس وجهًا، حتى إن جبريل - عليه السلام - كان يتزل على صورته، أسلم قديمًا، ولم يشهد بدرًا، وشهد المشاهد، وبقى إلى خلافة معاوية، فمات نحو عام ٤٥هـ. تهذيب التهذيب (٢/١٢٣).
(٤) سورة «التوبة»، الآية (٧٩).

المسكين ولا بك المسكين فتجعل المسكين؛ بدلاً من الياء أو الكاف لأنهما فى غاية الوضوح فلا يحتاجان إلى البدل والتفسير.

●● ﴿ ولَه ﴾ عطف على «الله» ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ من السكنى حتى يتناول الساكن والمتحرك أو من السكون ومعناه ما سكن وتحرك فيهما، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر كقوله : ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾[1] أى الحر والبرد، وذكر السكون؛ لأنه أكثر من الحركة وهو احتجاج على المشركين؛ لأنهم لم ينكروا أنه خالق الكل ومدبره ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم فلا يخفى عليه شئ مما يشتمل عليه الملوان.

●● ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ ناصراً ومعبوداً، وهو مفعول ثان لأتخذ والأول غير، وإنما أدخل همزة الاستفهام على مفعول أتخذ لا عليه؛ لأن الإنكار فى اتخاذ غير الله ولياً لا فى اتخاذ الولى فكان أحق بالتقديم ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بالجر صفة للَّه أى مخترعهما وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ما عرفت معنى الفاطر حتى اختصم إلى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها أى ابتدأتها[2] .﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ وهو يرزق ولا يرزق أى المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ لأن النبى سابق أمته فى الإسلام كقوله: ﴿ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[3] ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لى: لاتكونن من المشركين، ولو عطف على ما قبله لفظاً لقيل: وأن لا أكون، والمعنى: أُمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

●● ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى: إنى أخاف عذاب يوم عظيم وهو القيامة إن عصيت ربى فالشرط معترض بين الفاعل والمفعول به، محذوف الجواب.

●● ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ الله الرحمة العظمى وهى النجاة. من يَصْرِف حمزة وعلى وأبو بكر أى من يصرف الله عنه العذاب ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ النجاة الظاهرة.

●● ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ من مرض، أو فقر، أو غير ذلك من بلاياه ﴿فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ من غنى أو صحة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إدامته وإزالته.

●● ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ ﴾ مبتدأ وخبر أى: الغالب المقتدر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ خبر بعد خبر أى: عال عليهم بالقدرة. والقهر: بلوغ المراد بمنع غيره من بلوغه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ فى تنفيذ مراده ﴿الْخَبِيرُ﴾ بأهل القهر من عباده.

---

(١) سورة «النحل»، الآية (٨١).
(٢) رواه أبو عبيدة فى غريب الحديث.
(٣) سورة «الأنعام»، الآية (١٦٣).

●● ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ أى شئ مبتدأ وأكبر خبره، وشهادة تمييز وأى كلمة يراد بها بعض ما تضاف إليه فإذا كانت استفهاماً كان جوابها مسمى باسم ما أضيفت إليه، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب أى الله أكبر شهادة فاللَّه مبتدأ والخبر محذوف فيكون دليلاً على أنه يجوز إطلاق اسم الشئ على اللَّه تعالى وهذا لأن الشئ اسم للموجود، ولا يطلق على المعدوم والله تعالى موجود فيكون شيئاً؛ ولذا نقول الله تعالى شئ لا كالأشياء، ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى هو شهيد بينى وبينكم، ويجوز أن يكون الجواب: الله شهيد بينى وبينكم؛ لأنه إذا كان الله شهيداً بينه وبينهم فأكبر شئ شهادة شهيد له ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أى ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة فى الحديث: «من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً»[1] ومن فى محل النصب بالعطف على كم والمراد به أهل مكة والعائد إليها محذوف أى ومن بلغ، وفاعل بلغ ضمير القرآن ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ استفهام إنكار وتبكيت ﴿ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون وكرر ﴿ قُلْ﴾ توكيداً ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ما كافة لـ«إنَّ» عن العمل، وهو مبتدأ وإله خبره وواحد صفة، أو بمعنى الذى فى محل النصب بإن وهو مبتدأ وإله خبره والجملة صلة الذى وواحد خبر إن وهذا الوجه أوقع ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾به.

●● ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعنى اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أى رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت فى الكتابين ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بحلاهم ونعوتهم وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته، ثم قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ من المشركين وأهل الكتاب الجاحدين ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به.

●● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام يتضمن معنى النفى أى لا أحد أظلم لنفسه، والظلم وضع الشئ فى غير موضعه، وأشنعه اتخاذ المخلوق معبوداً ﴿مِمَّنِ افْتَرَى﴾ اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيصفه بما لا يليق به ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بالقرآن والمعجزات ﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ جمعوا بين أمرين باطلين فكذبوا على الله ما لا حجة عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسموا القرآن والمعجزات سحراً .

●● ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هو مفعول به والتقدير واذكر يوم نحشرهم ﴿جَمِيعًا﴾ حال من ضمير المفعول ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله غيره توبيخاً، وبالياء[2] فيهما يعقوب ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ آلهتكم التى جعلتموها شركاء الله ﴿ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أى تزعمونهم شركاء فحذف المفعولان.

●● ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ وبالياء حمزة وعلى ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ كفرهم. ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يعنى ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه إلا جحوده والتبرؤ منه،

(١) رواه ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى.
(٢) بالياء؛ أى: «يحشرهم»، و«يقول».

والحلف على الانتفاء من التدين به، أو ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا فسمى فتنة، لأنه كذب، وبرفع الفتنة مكى وشامى وحفص، فمن قرأ تكن بالتاء ورفع الفتنة فقد جعل الفتنة اسم تكن وأن قالوا الخبر أى لم تكن فتنتهم إلا قولهم، ومن قرأ بالياء ونصب الفتنة جعل أن قالوا اسم يكن أى لم يكن فتنتهم إلا قولهم، ومن قرأ بالتاء ونصب الفتنة حمل على المقالة. ربنا حمزة وعلى، على النداء أى: يا ربنا وغيرهما بالجر على النعت من اسم الله ﴿انظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ بقولهم ما كنا مشركين، قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد، فإذا قال لهم الله أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إلهيته وشفاعته.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلوا القرآن روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: ما يقول محمد، فقال: والله ما أدرى ما يقول محمد إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إنى لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا فنزلت ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية جمع كنان وهو الغطاء مثل عنان وأعنة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلاً يمنع من السمع وحد الوقر، لأنه مصدر وهو عطف على أكنة، وهو حجة لنا فى الأصلح على المعتزلة ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حتى هى التى تقع بعدها الجمل والجملة قوله: إذا جاؤك يقول الذين كفروا، ويجادلونك فى موضع الحال، ويجوز أن تكون جارة ويكون إذا جاؤك فى موضع الجر بمعنى حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، ويقول الذين كفروا تفسير له، والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك، وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون: ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ ما القرآن ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فيجعلون كلام الله أكاذيب وواحد الأساطير أسطورة.

●● ﴿وَهُمْ﴾ أى المشركون ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون الناس عن القرآن أو عن الرسول واتباعه والإيمان به ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ويبعدون عنه بأنفسهم فَيَضِلُّون وَيُضِلُّون ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: لا يتعداهم الضرر إلى غيرهم وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله، وقيل: عنى به أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً من التعرض لرسول الله ﷺ وينأى عنه فلا يؤمن به والأول أشبه.

●● ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ حذف جوابه أى ولو ترى لشاهدت أمراً عظيماً ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أروها حتى يعاينوها أو حبسوا على الصراط فوق النار ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا تمنوا الرد إلى الدنيا

ليؤمنوا وتم تمنيهم ثم ابتداءوا بقوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واعدين الإيمان كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن، ولا نكذب ونكون حمزة وعلى وحفص على جواب التمنى بالواو، وبإضمار أن ومعناه إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين وافقهما فى ونكون شامى.

●● ﴿بَلْ﴾ للإضراب عن الوفاء بما تمنوا ﴿بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ من الناس ﴿مِن قَبْلُ﴾ فى الدنيا من قبائحهم وفضائحهم فى صحفهم وقيل: هو فى المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذى كانوا يسرونه أو فى أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسل الله ﷺ ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يوفون به.

●● ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على لعادوا أى ولو ردوا لكفرو، ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة، أو على قوله: وإنهم لكاذبون، أى: وإنهم لقوم كاذبون فى كل شئ وهم الذين قالوا: إن هى إلا حياتنا الدنيا وهى كناية عن الحياة أو هو ضمير القصة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس والتوبيخ والسؤال كما يقف العبد الجانى بين يدى سيده ليعاقبه، أو وقفوا على جزاء ربهم ﴿قَالَ﴾ جواب لسؤال مقدر، كأنه قيل ماذا قال لهم ربهم، إذ وقفوا عليه فقيل قال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ أى البعث ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالكائن الموجود وهذا تعبير لهم على التكذيب للبعث وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث ما هو بحق ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقروا وأكدوا الإقرار باليمين ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم.

●● ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، أو هو مجرى على ظاهره؛ لأن منكر البعث منكر للرؤية ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لكذبوا لا لخسر؛ لأن خسرانهم لا غاية له ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ أى القيامة؛ لأن مدة تأخرها مع تأبد ما بعدها كساعة واحدة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة وانتصابها فى الحال يعنى باغتة، أو على المصدر كأنه قيل بغتتهم الساعة بغتة، وهى ورود الشئ على صاحبه من غير علمه بوقته ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ نداء تفجع معناه يا حسرة احضرى فهذا أوانك ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا﴾ فى الحياة الدنيا أو فى الساعة أى قصرنا فى شأنها وفى الإيمان بها ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ آثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ خص الظهر لأن المعهود حمل الأثقال على الظهور كما عهد الكسب بالأيدى وهو مجاز عن اللزوم على وجه لا يفارقهم وقيل: إن الكافر إذا خرج من قبره استقبله أقبح شئ صورة وأخبثه ريحاً فيقول: أنا عملك السيئ فطالما ركبتنى فى الدنيا وأنا أركبك اليوم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يحملونه وأفاد ألا تعظيم ما يذكر بعده.

●● ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ جواب لقولهم: إن هى إلا حياتنا الدنيا، واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع واللهو الميل من الجد إلى الهزل، قيل: ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو، وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو لأنها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وَلَلدَّارُ﴾ مبتدأ ﴿الآخِرَةُ﴾ صفتها ولدار الآخرة بالإضافة شامى أى ولدار الساعة الآخرة؛ لأن الشئ لا يضاف إلى صفته. وخبر المبتدأ على القراءتين ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وفيه دليل على أن ما سوى أعمال المتقين لعب ولهو ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء مدنى وحفص.

●●وقال أبو جهل: ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمصدق وإنما نكذب ما جئتنا به(١) نزل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ الهاء ضمير الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ لا ينسبونك إلى الكذب، وبالتخفيف نافع وعلى من أكذبه، إذا وجده كاذباً ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر وفيه دلالة على أنهم ظلموا فى جحودهم والباء يتعلق بيجحدون ، أو بالظالمين كقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾(٢) والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله؛ لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك فى الحقيقة إنما يكذبون الله. لأن تكذيب الرسول تكذيب المرسل ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ وهو دليل على أن قوله «فإنهم لا يكذبونك» ليس بنفى لتكذيبه وإنما هو من قولك لغلامك إذا أهانه بعض الناس أنهم لم يهينوك وإنما أهانونى ﴿فَصَبَرُوا﴾ والصبر حبس النفس على المكروه ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده من قوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ (٣) ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ (٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوه من مصابرة المشركين، وأجاز الأخفش أن تكون من زائدة والفاعل نبأ المرسلين وسيبويه لا يجيز زيادتها فى الواجب.

●● كان يكبر على النبى ﷺ كفر قومه وإعراضهم، ويحبوا مجئ الآيات ليسلموا فتنزل ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ عظم وشق ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿ فِى الأَرْضِ﴾ صفة لنفقاً ﴿أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم﴾ منها ﴿بِآيَةٍ﴾ فافعل وهو جواب فإن استطعت، وإن استطعت وجوابها جواب وإن كان كبر، والمعنى أنك لا تستطيع ذلك والمراد بيان حرصه على إسلام قومه، وأنه لو استطاع أن

---

(١) أخرجه الترمذى والحكم عن الإمام على، رضى الله عنه.
(٢) سورة «الأعراف»، الآية (١٠٣).
(٣) سورة «الصافات»، الآيتان (١٧١، ١٧٢).
(٤) سورة «غافر»، الآية (٥١).

يأتيهم بآيـة من تحت الأرض، أو من فوق السماء لأتى بهـا رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ لجعلـهم بحيث يختارون الهدى، ولكن لمـا علم أنهم يـختارون الكفر لـم يشأ أن يجمعهم على ذلك، كذا قالـه الشيخ أبو منصور رحمه الله ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين يجهلون ذلك.

•• ثم أخبر أن حرصه علـى هدايتهم لا ينفع لعدم سمعهـم كالموتى بقوله : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أى: إنما يجيب دعـاءك الذين يسمعون دعاءك بـقلوبهم ﴿وَالْمَوْتَى﴾ مبتدأ أى الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فحينئذ يسمعون، وأما قبل ذلك فلا.

•• ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ هلا أنزل عـليه ﴿آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما نقترح من جـعل الصفا ذهباً وتوسيع أرض مكة وتفجير الأنهار خلالها ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ كما اقترحوا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ إن الله قادر على أن ينزل تلك الآية أو لا يعلمـون ما عليهم فى الآية من البلاء لو أنزلت.

•• ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ﴾ هى اسم لما يـدب تقع على المذكـر والمؤنث ﴿فِي الأَرْضِ﴾ فى موضع جرصفة لدابة ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيد الطيران بـالجناحين لنفى المجاز؛ لأن غيـرالطائر قد يقال فيـه طار إذا أسرع ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ فى الخلق والمـوت والبعث والاحتياج إلى مـدبر يدبر أمرها ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ ما تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ من ذلك لم نكـتبه ولم نثبـت ما وجب أن يثبت، أو الـكتاب القرآن وقـوله: من شئ أى من شـىء يحتاجون إليـه فهو مشتمل على ما تعبدنا به عبارة إشارة ودلالة واقتضاء ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعنى الأمم كلها من الدواب والطيور فيتصف بـعضها من بعض كما روى أن يأخذ للجماء من الـقرناء، ثم يقول كونى تراباً وإنما قال : إلى أمم مع إفراد الدابة والطائر لمعنى الاستغراق فيهما.

•• ولما ذكرمن خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لـربوبيته وينادى على عظمته قال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق خابطون ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى: ظلمة الجهل والحيرة والكفر، غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه. صم وبكم خبر الذين، ودخول الواو لا يمنع من ذلك، وفى الظلمات خبر آخـر ثم قال إيذاناً بأنه فعال لما يريد ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أى من يشأ الله ضلاله يضلله ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وفيه دلالة خـلق الأفعال وإرادة المعاصى ونفى الأصلح.

•• ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بتليين الهمـزة مدنى، وبتركه على، ومعناه هل علمـتم أن الأمر كما يقال لكم فأخبرونى بما عنـدكم، والضمير الثانى لا محل له من الإعراب، والتاء ضمـير الفاعل ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره أرأيتكم ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ من تدعون ثم بكتهم

بقوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى أن الأصنام آلة فادعوها لتخلصكم.

●● ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ﴾ أى: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إِن شَاءَ﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم أو لا تذكرون آلهتكم فى ذلك الوقت؛ لأن أذهانكم مغمورة بذكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: أغير الله تدعون كأنه قيل: أرأيتكم أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً فالمفعول محذوف فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ بالبؤس والضر. والأول القحط والجوع، والثانى المرض ونقصان الأنفس والأموال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم فالنفوس تتخشع عند نزول الشدائد.

●● ﴿لَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أى: هلا تضرعوا بالتوبة ومعناه نفى التضرع، كأنه قيل فلم يتضرعوا إذا جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم ينزجروا بما ابتلوا به ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وصاروا معجبين بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم.

●● ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء أى: تركوا الاتعاظ به ولم يزجرهم ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة فتّحنا شامى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من الخير والنعمة ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون متحسرون وأصله الإطراق حزناً لما أصابه، أو ندماً على ما فاته، وإذا للمفاجأة.

●● ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: أهلكوا من آخرهم ولم يترك منهم أحد ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد للّه عند هلاك الظلمة وأنه من أجل النعم وأجزل القسم، أو احمدوا الله على إهلاك من لم يحمد الله.

●● ثم دل على قدرته وتوحيده بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ بأن أصمكم وأعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فسلب العقول والتمييز ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بما أخذ وختم عليه. من رفع بالابتداء وإله خبره، وغير صفة لإله وكذا يأتيكم، والجملة فى موضع مفعولى أرأيتم

وجواب الشرط محذوف ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿الآيَاتِ﴾ نكررها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها والصدوف الإعراض عن الشئ.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ بأن لم تظهر أماراته ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بأن ظهرت أماراته وعن الحسن ليلاً أو نهاراً ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم .

●● ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بالجنان والنيران للمؤمنين والكفار ولن نرسلهم ليقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة والأدلة الساطعة ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ أى داوم على إيمانه ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا خوف يعقوب.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماسا كأنه حى يفعل بهم ما يريد من الآلام ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى بالكفر.

●● ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أى قسمه بين الخلق وأرزاقه ومحل ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ النصب عطفاً على محل عندى خزائن الله، لأنه من جملة العقول. كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أى لا أدعى ما يستبعد فى العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وعلم الغيب ودعوى الملكية، وإنما أدعى ما كان لكثير من البشر وهو النبوة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى ما أخبركم إلا بما أنزل الله على ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للضال والمهتدى أو لمن اتبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع أو لمن يدعى المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الإلهية ﴿أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو فتعلموا أن اتباع ما يوحى إلى مما لا بد لى منه.

●● ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ بما يوحى ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المسلمون المقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون فى العمل فينذرهم بما أوحى إليه، أو أهل الكتاب؛ لأنهم مقرون بالبعث ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ فى موضع الحال من يحشروا أى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يدخلون فى زمرة أهل التقوى، ولما أمر النبى - عليه السلام - بإنذار غير المتقين ليتقوا أمر بعد ذلك بتقريب المتقين ونهى عن طردهم بقوله: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته ويواظبون عليها، والمراد بذكر الغداة والعشى الدوام، أو معناه يصلون صلاة الصبح والعصر أو الصلوت الخمس. بالغدوة شامى ووسمهم بالإخلاص فى عبادتهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فالوجه يبر به من ذات

الشئ وحقيقته نزلت فى الفقراءبلال [1] وصهيب وعمار وأضرابهم حين قال رؤساء المشركين: لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك، فقال عليه السلام: ما أنا بطارد المؤمنين. اجعل لنا يوما ولهم يوما، وطلبوا بذلك كتاباً فدعا علياً - رضى الله عنه - ليكتب فقام الفقراء وجلسوا ناحية، فنزلت فرمى عليه الصلاة والسلام - بالصحيفة وأتى الفقراء فعانقهم[2] ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي﴾[3] ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وذلك أنهم طعنوا فى دينهم وإخلاصهم فقال: حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفى وهو ما عليك من حسابهم ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهى وهو ولا تطرد ويجوز أن يكون عطفاً على فتطردهم على وجه التسبيب؛ لأن كونه ظالما مسبب عن طردهم.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن العظيم ابتلينا الأغنياء بالفقراء ﴿لِّيَقُولُوا﴾ أى: الأغنياء ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ أى: أنعم الله عليهم بالإيمان ونحن المقدمون والرؤساء وهم الفقراء إنكار لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير، ونحوه ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [4] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يشكر نعمته.

●● ﴿إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ إما أن يكون أمر بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييبًا لقلوبهم وكذا قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ من جملة ما يقول لهم ليبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم ومعناه وعدكم بالرحمة وعداً مؤكداً ﴿أَنَّهُ﴾ الضمير للشأن ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا﴾ ذنباً ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ فى موضع الحال أى عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة، أو جعل جاهلاً لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد السوء أو العمل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أخلص توبته ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنه فإنه شامى وعاصم الأول بدل الرحمة، والثانى خبر مبتدأ محذوف أى فشأنه أنه غفور رحيم. أنه فأنه مدنى الأول الرحمة والثانى مبتدأ. إنه فإنه إنه غيرهم على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل: إنه من عمل منكم.

●● ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ﴾ وبالياء حمزة وعلى وأبو بكر ﴿ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بالنصب مدنى، غيره بالرفع فرفع السبيل مع التاء والياء؛ لأنها تذكر وتؤنث ونصب السبيل مع

---

(١) هو الصحابى المجاهد، بلال بن رباح، التيمى، مولاهم، المؤذن، أبو عبد الله مؤذن رسول الله ﷺ، من السابقين إلى الإسلام، ومن أكثر الذين عذبوا فى سبيل الله؛ لذا فهو أحد العشرة، وأحد الستة، شهد بدرًا، والمشاهد كلها، كان حبشيًا، أسود اللون، ولكنه كان أبيض القلب، فقدمه يقينه على سادة القوم، حتى إن رسول الله ﷺ استخلفه على بيت ماله، توفى - رضى الله عنه - عام ٢٠ هـ. عن بضع وستين سنة . تهذيب التهذيب (١/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) هذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان. (٣) سورة «الشعراء» الآية (١١٣).

(٤) سورة «الأحقاف» الآية (١١).

التاء علي خطاب الرسول ﷺ يقال: استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه ومن يرجى إسلامه ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل.

●● ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي صرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله ﴿قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ أي لا أجرى في طريقتكم التى سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل وهو بيان للسبب الذى منه وقعوا في الضلال ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وما أنا من المهتدين في شئ يعنى: أنكم كذلك.

●● ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً نبه على ما يجب اتباعه بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: إني من معرفة ربي، وأنه لا معبود سواه على حجة واضحة ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ حيث أشركتم به غيره، وقيل: على بينة على حجة من جهة ربي وهو القرآن وكذبتم به بالبينة وذكر الضمير على تأويل البرهان أو البيان أو القرآن، ثم عقبه بما دل على أنهم أحقاء بأن يعاقبوا بالعذاب فقال: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعنى العذاب الذى استعجلوه في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾(1) ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ في تأخير عذابكم ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ حجازى وعاصم أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويصدره من قص أثره. الباقون: يقض الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل فالحق أي: القضاء الحق صفة لمصدر يقضي وقوله: ﴿هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: القاضين بالقضاء الحق إذ الفصل هو القضاء وسقوط الياء من الخط لاتباع اللفظ لالتقاء الساكنين.

●● ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ أي: في قدرتي وإمكاني ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو ينزل عليكم العذاب في وقت يعلم أنه أردع.

●● ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ المفاتح جمع مفتح وهو المفتاح، أو هي خزائن العذاب والرزق أو ما غاب عن العباد من الثواب والعقاب والآجال والأحوال. جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة، لأن المفاتح يتوصل إليها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال ومن علم مفاتحها وكيفية فتحها توصل إليها، فأراد أنه هو المتوسل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح الغيب فمن آمن بغيبه أسبل الله الستر على عيبه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ من النبات والدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ من الحيوان والجواهر وغيرهما ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ ما للنفى ومن للاستغراق أي يعلم عددها وأحوالها قبل السقوط وبعده ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ عطف على ورقة وداخل في حكمها، وقوله: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ كالتكرير لقوله إلا يعلمها؛ لأن معنى إلا يعلمها ومعنى إلا في كتاب مبين واحد وهو علم الله أو اللوح.

---

(1) سورة «الأنفال» الآية (٣٢).

•• ثم خاطب الكفرة بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أى يقبض أنفسكم عن التصرف بالتمام فى المنام ﴿يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه، من الآثام ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ ثم يوقظكم فى النهار، أو التقدير ثم يبعثكم فى النهار ويعلم ما جرحتم فيه فقدم الكسب لأنه أهم وليس فيه أنه لا يعلم ما جرحنا بالليل، ولا أنه لا يتوفانا بالنهار فدل أن تخصيص الشئ بالذكر لا يدل على نفى ما عداه ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتوفى الآجال على الاستكمال ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالبعث بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وليلكم ونهاركم، قال بعض أهل الكلام: إن لكل حاسة من هذه الحواس روحاً تقبض عند النوم، ثم ترد إليها إذا ذهب النوم، فأما الروح التى تحيا بها النفس فإنها لا تقبض إلا عند انقضاء الأجل، والمراد بالأرواح المعانى والقوى التى تقوم بالحواس ويكون بها السمع والبصر والأخذ والمشى والشم، ومعنى ثم يبعثكم فيه أى: يوقظم ويرد إليكم أرواح الحواس فيستدل به على منكرى البعث؛ لأنه بالنوم يذهب أرواح هذه الحواس. ثم يردها إليها فهكذا يحيى الأنفس بعد موتها.

•• ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم ، وهم الكرام الكاتبون؛ ليكون ذلك أزجر للعباد عن ارتكاب الفساد إذا تفكرو أن صحائفهم تقرأ على رءوس الأشهاد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ حتى لغاية حفظ الأعمال أى وذلك دأب الملائكة مع المكلف مدة الحياة إلى أن يأتيه الممات ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أى استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه توفيه واستوفيه بالإمالة حمزة رسلنا أبو عمرو ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ لا يتوانون ولا يؤخرون.

•• ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه أى رد المتوفون برد الملائكة ﴿مَوْلَاهُمُ﴾ مالكهم الذى يلى عليهم أمورهم ﴿الْحَقِّ﴾ العدل الذى لا يحكم إلا بالحق وهما صفتان للَّه﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، يحاسب جميع الخلق فى مقدار حلب شاة، وقيل: الرد إلى من رباك خير من البقاء مع من آذاك.

•• ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ ينجيكم ابن عباس ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما أو ظلمات البر الصواعق والبحر الأمواج وكلاهما فى الغيم والليل ﴿تَدْعُونَهُ﴾ حال من ضمير المفعول فى ينجيكم ﴿تَضَرُّعًا﴾ معلنين الضراعة، وهو مصدر فى موضع الحال، وكذا ﴿وَخُفْيَةً﴾ أى مسرين فى أنفسكم خفية حيث كان أبو بكر وهما لغتان ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا﴾ عاصم بالإمالة حمزة وعلى. الباقون أنجيتنا، والمعنى يقولون: لئن خلصنا ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله تعالى.

•• ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد كوفى ﴿مِّنْهَا﴾ من الظلمات ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ وغم وحزن ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ولا تشكرون.

•• ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾ هو الذى عرفتموه قادراً، أو هو الكامل القدرة، فاللام يحتمل العهد

والجنس ﴿عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما أمطر على قوم لوط، وعلى أصحاب الفيل الحجارة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما غرق فرعون وخسف بقارون. أو من قبل سلاطينكم وسفلتكم، أو هو حبس المطر والنبات ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أو يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى كل فرقة منكم مشايعة لإمام ومعنى خلطهم أن ينشب القتال بينهم فيخلطوا ويشتبكوا فى ملاحم القتال ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقتل بعضكم بعضاً، والبأس: السيف وعنه- عليه الصلاة والسلام -: «سألت الله تعالى أن لا يبعث على أمتى عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى وأخبرنى جبريل أن فناء أمتى بالسيف»(١) ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ بالوعد والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

●● ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ بالقرآن أو بالعذاب ﴿قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الصدق، أو لا بد أن ينزل بهم ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم إنما أنا منذر.

●● ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ لكل شئ ينبأ به يعنى إنباءهم بأنهم يعذبون وإبعادهم به ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وحصول لا بد منه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد.

●● ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ اى القرآن يعنى يخوضون فى الاستهزاء بها والطعن فيها وكانت قريش فى أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تجالسهم وقم عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ غير القرآن مما يحل فحينئذ يجوز أن تجالسهم ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ ما نهى عنه، ينسيك شامى نسى وأنسى واحد ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ﴾ بعد أن تذكر ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

●● ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم﴾ من حساب هؤلاء الدين يخوضون فى القرآن تكذيباً واستهزاء ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أى: وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شئ مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿وَلَٰكِن﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ إذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم. ومحل ذكرى نصب أى ولكن يذكرونهم ذكرى أى تذكيرا، أو رفع، والتقدير ولكن عليهم ذكرى فذكرى مبتدأ، والخبر محذوف ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم.

●● ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذى كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ سخروا به واستهزءوا. ومعنى ذرهم أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم واللهو ما يشغل الإنسان من هوى أو طرب ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ﴾ وعظ بالقرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها، وأصل الإبسال المنع ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ

(١) ذكره الثعلبى بدون سند.

﴿اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ ينصرها بالقوة ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها بالمسألة. ولا وقف على كسبت فى الصحيح؛ لأن قوله ليس لها صفة لنفس والمعنى وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس عادمة ولياً وشفيعاً بكسبها ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ نصب على المصدر وإن تفد كل فداء والعدل الفدية، لأن الفادى يعدل المفدى بمثله وفاعل ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ لا ضمير العدل؛ لأن العدل هنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ وأما فى قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (١) فبمعنى المفدى به فصح إسناد إليه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المتخذين من دينهم لعباً ولهوا وهو مبتدأ والخبر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ وقوله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أى ماء سخين حار خبر ثان لأولئك، والتقدير أولئك المبسلون ثابت لهم شراب من حميم أو مستأنف ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

●● ﴿قُلْ﴾ لأبى بكر يقل لابنه عبدالرحمن وكان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان ﴿أَنَدْعُو﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الضارالنافع ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ مالا يقدر على نفعنا إن دعوناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركنا ﴿وَنُرَدُّ﴾ وأنرد ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ راجعين إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ للإسلام وأنقذنا من عبادة الأصنام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ كالذى ذهبت به الغيلان ومردة الجن، والكاف فى محل النصب على الحال من الضمير فى نرد على أعقابنا أى: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين وهو استفعال من هوى فى الأرض إذا ذهب فيها كأنه معناه طلب هوية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فى المهمة ﴿حَيْرَانَ﴾ حال من مفعول استهوته أى: تائها ضالاً عن الجادة لا يدرى كيف يصنع ﴿لَهُ﴾ لهذا المستوى ﴿أَصْحَابٌ﴾ رفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق. سمى الطريق المستقيم بالهدى يقولون له: ﴿ائْتِنَا﴾ وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم، وهذا مبنى على ما يقال: إن الجن تستهوى الإنسان والغيلان تستولى عليه فشبه به الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وحده وما وراءه ضلال ﴿وَأُمِرْنَا﴾ محله النصب بالعطف على محل إن هدى الله هو الهدى على أنهما مقولان، كأنه قيل قل هذا القول، وقل: أمرنا ﴿لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

●● ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ والتقدير وأمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا أى: للإسلام ولإقامة الصلاة ﴿وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة أو محقاً ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ على الخبر دون الجواب ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ مبتدأ ويوم يقول خبره مقدما عليه، كما تقول يوم الجمعة قولك الصدق أى: قولك الصدق كائن يوم الجمعة واليوم بمعنى الحين. والمعنى أنه خلق السموات والأرض بالحق والحكم وحين يقول لشئ من الأشياء كن فيكون ذلك الشئ، قوله الحق

(١) سورة «البقرة» الآية (٤٨).

والحكمة أى لا يكون شيئاً من السماوات والأرض وسائر المكونات إلاعن حكمة وصواب ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ ظرف قوله: وله الملك ﴿فِي الصُّورِ﴾ هو القرن بلغة اليمن أو جمع صورة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ هو عالم الغيب ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أى السر والعلانية ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فى الإفناء والإحياء ﴿الْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ هو اسم أبيه أو لقبه؛ لأنه خلاف بين النسابين ان اسم أبيه تارخ وهو عطف بيان لأبيه، وزنه فاعل ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ استفام توبيخ أى أتتخذها آلهة وهى لا تستحق الإلهية ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

●● ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى: وكما أريناه قبح الشرك ﴿نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى نرى بصيرته لطائف خلق السماوات والأرض ونرى حكاية حال ماضية والملكوت أبلغ من الملك؛ لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة. قال مجاهد: فرجت له السموات السبع فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى نظره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع حتى نظر إلى ما فيهن ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ فعلنا ذلك أو ليستدل، وليكون من الموقنين عياناً كما أيقن بياناً.

●● ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أى: أظلم وهو عطف على قال إبراهيم لأبيه، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أى الزهرة أو المشترى وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها ليس بإله لقيام دليل الحدوث فيها، ولأن لها محدثاً أحدثها ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحولها، فلما رأى الكوكب الذى كانوا يعبدونه ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أى: قال لهم هذا ربى فى زعمكم، أو المراد أهذا استهزاء بهم وإنكار عليهم والعرب تكتفى عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت والصحيح أن هذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهب، لأنه أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بد حكايته فيبطله بالحجة ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غاب ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أى لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال لأن ذلك من صفات الأجسام.

●● ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ مبتدئاً فى الطلوع ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ نبه قومه على أن من اتخذ القمر إلهاً فهو ضال، وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؛ لأن الاحتجاج به أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب.

●● ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وإنما ذكره؛ لأنه أراد الطالع، أو لأنه جعل المبتدأ

مثل الخبر؛ لأنهما شئ واحد معنى، وفيه صيانة الرب عن شبهة التأنيث؛ ولهذا قالوا فى صفات الله تعالى: علام ولم يقولوا علامة وإن كان الثانى أبلغ تفادياً من علامة التأنيث ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من باب استعمال النصفة أيضاً مع خصومه ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التى تجعلونها شركاء لخالقها، وقيل هذا كان نظره واستدلاله فى نفسه فحكاه الله تعالى والأول أظهر لقوله: يا قوم إنى برئ مما تشركون.

●● ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أى: للذى دلت هذه المحدثات على أنه منشئها ﴿حَنِيفًا﴾ حال أى مائلاً عن الأديان كلها إلى الإسلام ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الله شيئاً من خلقه.

●● ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ فى توحيد الله تعالى ونفى الشركاء عنه ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ﴾ فى توحيده أتحاجونى مدنى وابن ذكوان ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ إلى التوحيد، وبالياء فى الوصل أبو عمرو ولما خوفوه أن معبوداتهم تصيبه بسوء قال: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا﴾ أى لا أخاف معبوداتكم فى وقت قط، لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربى أن يصيبنى منها بضر فهو قادر على أن يجعل فيما شاء نفعاً وفيما شاء ضراً لا الأصنام ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يصيب عبداً شئ من ضر أو نفع إلا بعلمه ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أى فتميزوا بين القادر والعاجز.

●● ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ معبوداتكم وهى مأمونة الخوف ﴿وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ بإشراكه ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حجة إذ الاشراك لا يصح أن يكون عليه حجة. ،المعنى ومالكم تنكرون على الأمن فى موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن فى موضع الخوف ﴿فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى فريقى الموحدين والمشركين ﴿أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل فأينا احترازا من تزكية نفسه.

●● ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرك عن الصديق - رضى الله عنه -﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثم كلام إبراهيم، عليه السلام.

●● ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم - عليه السلام - على قومه من قوله فلما جن عليه الليل إلى وهم مهتدون ﴿آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وهو خبر بعد خبر ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ فى العلم والحكمة وبالتنوين كوفى، وفيه نقض قول المعتزلة فى الأصلح ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ بالرفع ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأهل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أى كلهم وانتصب كلا بهدينا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ أى: وهدينا نوحا ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم ﴿وَمِن

ذُرِّيَّتِه﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم والأول أظهر لأن يونس ولوطا لم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ والتقدير هدينا من ذريته هؤلاء ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ونجزى المحسنين جزاء مثل ذلك، فالكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف.

●● ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ﴾ أى كلهم ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذكر عيسى معهم دليل على أن النسب يثبت من قبل الأم أيضاً، لأنه جعله من ذرية نوح ـ عليه السلام ـ وهو لا يتصل به إلا بالأم وبذا أجيب الحجاج حيث أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبى ـ عليه السلام.

●● ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ والليسع حيث كان بلامين حمزة وعلى ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة والرسالة.

●● ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ فى موضع النصب عطفاً على كلا أى وفضلنا بعض آبائهم ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى ما دان به هؤلاء المذكورون ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه نقض قول المعتزلة، لأنهم يقولون إن الله شاء هداية الخلق كلهم لكنهم لم يهتدوا ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ من فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات العلى ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبطلت أعمالهم كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد الجنس ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة أو فهم الكتاب ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ وهى أعلى مراتب البشر ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ بالكتاب والحكم والنبوة أو بآيات القرآن ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أى أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أو أصحاب النبى -عليه السلام -، أوكل من آمن به، أو العجم ومعنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه، والباء فى ﴿لَّيْسُوا بِهَا﴾ صلة كافرين وفى ﴿بِكَافِرِينَ﴾ لتأكيد النفى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى: الأنبياء الذين مر ذكرهم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم، وهذا معنى تقديم المفعول والمراد بهداهم طريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فهى مختلفة، والهاء فى اقتده للوقف تسقط فى الوصل واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء فى المصحف ويحذفها حمزة وعلى الوصل، ويختلسها شامى ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على الوحى أو على تبيلغ الرسالة والدعاء إلى

(١) سورة «الزمر» الآية (٦٥).

التوحيد ﴿أَجْراً﴾ جعلاوفيه دليل على أن أخذ الأجر على تعليم القرآن ورواية الحديث لا يجوز ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للجن والإنس.

●● ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أى ما عرفوه حق معرفته فى الرحمة على عباده حين أنكروا بعثه للرسل والوحى إليهم وذلك من أعظم رحمته ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١) روى أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف كانوا يجادلون النبى ـ عليه السلام ـ فقال النبى- عليه السلام- له: «أليس فى التوارة أن الله يبغض الحبر السمين». قال: نعم. قال: «فأنت الحبر السمين» فغضب. فقال: ما أنزل الله على بشر من شئ(٢) وحق قدره منصوب نصب المصدر ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً﴾ حال من الضمير فى به أو من الكتاب ﴿وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ مما فيه نعت رسول الله ﷺ أى بعضوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وبالياء فى الثلاثة مكى وأبو عمرو ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ جواب أى أنزل الله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ فى باطلهم الذين يخوضون فيه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ذرهم ، أو من خوضهم.

●● ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ على نبينا ـ عليه السلام ـ ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير المنافع والفوائد ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ وبالياء أبو بكر أى الكتاب، وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب، كأنه قيل أنزلناه للبركات وتصدق ما تقدمه من الكتب والإنذار ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ مكة وسميت م القرى، لأنهاسرة الأرض وقبلة أهل القرى وأعظمها شأنا ولأن الناس يؤمونها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يصدقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بهذا الكتاب فأصل خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خصت الصلاة بالذكر لأنها علم الإيمان وعماد الدين، فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً.

●● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ هو مالك بن الصيف ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هو مسيلمة الكذاب ﴿وَمَن قَالَ﴾. فى موضع جر عطف على من افترى أى وممن قال ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أى سأقول وأملى، هو عبدالله بن سعد بن أبى سرح(٣) كاتب الوحى

---

(١) سورة «الأنبياء» الآية (١٠٧). (٢) انظر: أسباب النزول للواحدى.

(٣) هو: عبد الله بن سعد بن أبى السرح، القرشى، العامرى، صحابى ارتد فترة، ثم تاب الله عليه، ورجع ، وولى مصر بعد فاتحها عمرو بن العاص فترة طويلة، توفى عام ٣٧هـ . الأعلام (٤/ ٨٨).

وقد أملى النبى ـ عليه السلام- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[1] فجرى على لسانه: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال ـ عليه السلام ـ «اكتبها فكذلك نزلت» فشك، وقال: إن كان محمد صادقاً فقد أوحى إلى كما أوحى إليه، وإن كان كاذباً فقد قلت كما قال فارتد ولحق بمكة[2]، أو النضر بن الحارث[3] ، كان يقول: والطاحنات طحناً فالعاجنات عجناً فالخابزات خبزاً كأنه يعارض ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ جوابه محذوف أى لرأيت أمراً عظيماً ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة فتكون اللام للعهد ويجوز أن تكون للجنس فيدخل هؤلاء لا شتمالة ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شدائده وسكراته ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أى يبسطون إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن التشديد فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أرادوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع، والهون: الهوان الشديد وإضافة العذاب إليه، كقولك: رجل سوء يريد العراقة فى الهوان والتمكن فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من أن له شريكاً وصاحبه ولدا، وغير الحق مفعول تقولون أو وصف لمصدر محذوف أى قولاً غير الحق ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تؤمنون بها.

●● ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء ﴿فُرَادَى﴾ منفردين بلا مال ولا معين وهو جمع فريد كأسير وأسارى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ فى محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أى مجيئاً مثل ما خلقناكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ على الهيئات التى ولدتم عليها فى الانفراد ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ملكناكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ولم تحتملوا منه نقيراً ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ فى استبعادكم ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ بينكم وصلكم عن الزجاج والبين: الوصل والهجر قال:

فواللّه لولا البين لم يكن الهوى ... ولولا الهوى ما حن للبين آلف

بينكم مدنى وعلى وحفص أى وقع التقطع بينكم ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ وضاع وبطل ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم عند الله.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ بالنبات والشجر أى فلق الحب عن السنبلة والنواة عن النخلة؛

---

(١) سورة «المؤمنون» الآيات (١٢/ ١٤).

(٢) هذا الحديث رواه ابن عباس ، كما جاء فى أسباب النزول للواحدى.

(٣) هو: النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، القرشى، من رؤوس المشركين ، كان صاحب لواء المشركين ببدر، وكان ابن خالة النبى ﷺ، أسره المسلمون بعد الوقعة، وقتلوه بمكان قرب المدينة يسمى «الأثيل». الأعلام (٨/ ٣٣).

والفلق: الشق، وعن مجاهد أراد الشقين اللذين فى النواة والحنطة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامى من الحب اليابس ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامى، و الإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه؛ لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه الذى خلق هذه الأشياء فهو يقدر على بعثهم، وإنما قال: ومخرج الميت بلفظ اسم الفاعل لأنه معطوف على فالق الحب لأعلى الفعل ويخرج الحى من الميت، موقعه موقع الجملة المبينة لقوله: فالق الحب والنوى؛ لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحى من الميت لأن النامى فى حكم الحيوان دليله قوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(١) ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ ذلكم المحى والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية لا الأصنام ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عنه وعن تواليه إلى غيره بعد وضوح الأمر بما ذكرنا.

●● ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ هو مصدر سمى به الصبح أى شاق عمود الصبح عن سواد الليل، أو خالق نور النهار ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ﴾ وجعل الليل كوفى؛ لأن اسم الفاعل الذى قبله بمعنى المضى فلما كان فالق بمعنى فلق عطف عليه جعل لتوافقهما معنى ﴿سَكَنًا﴾ مسكوناً فيه من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾(٢) أى: ليسكن فيه الخلق من كد المعيشة إلى نوم الغفلة، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ انتصبا بإضمار فعل يدل عليه جاعل الليل أى وجعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾ أى: جعلهما على حسبان، لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحسبان بالكسر مصد حسب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً أى ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذى قهرهما وسخرهما ﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما وتدويرهما.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى فى ظلمات الليل بالبر وبالبحر وأضافها إليهما لملابستها لهما، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هى آدم ـ عليه السلام ـ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فمستقر بالكسر مكى وبصرى، فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله ومن كسرها كان اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول يعنى فلكم مستقر فى الرحم ومستودع فى الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وإنما قيل يعلمون

---

(١) سورة «الروم»، الآية (١٩).

(٢) سورة «القصص»، الآية (٧٣).

ثم ويفقهون هنا، لأن الدلالة ثم أظهر وهنا أدق؛ لأن إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب مطرا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نبت من كل صنف من أصناف النامى أى السبب، وهو الماء واحد والمسببات صنوف مختلفة ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات ﴿خَضِرًا﴾ أى شيئاً غضاً أخضر يقال أخضر وخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل الذى تراكب حبة ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ هو رفع بالابتداء ومن النخل خبره ومن طلعها بدل منه كأنه قيل. وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو جمع قنووهو العذق نظيره صنو وصنوان ﴿دَانِيَةٌ﴾ من المجتنى لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها وفيه اكتفاء أى وغير دانية لطولها كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾(١) ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بالنصب عطفا على نبات كل شئ أى وأخرجنا به جنات ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أى من النخل وكذا ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ وجنات بالرفع الأعشى أى وثم جنات من أعناب أى من النخل ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها نحو استويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا، وتقديره والزيتون متشابها وغير متشابه والرمان كذلك يعنى بعضه متشابه وبعضه غير متشابه فى القدر واللون والطعم ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفاً لا ينتفع به ﴿وَيَنْعِهِ﴾ ونضجة أى انظروا إلى حال نضجه كيف يعود شيئا جامعا لمنافع، نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال إلى حال ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ثمرة. وكذا ما بعده(٢) حمزة وعلى جمع ثمار، فهو جمع الجمع، يقال ثمرة وثمر وثمار وثمر.

●● ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ إن جعلت لله شركاء مفعولى جعلوا كان الجن بدلا من شركاء وإلا كان شركاء الجن مفعولين قدم ثانيهما على الأول، وفائدة التقديم استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو غير ذلك، والمعنى أنهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أى: وقد خلق الجن فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه، والجملة حال أو وخلق الجاعلين للّه شركاء فكيف يعبدون غيره ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ أى: اختلقوا يقال: خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى، أو هو من خرق الثوب إذا شقه أى اشتقوا له ﴿بَنِينَ﴾ كقول أهل الكتابين فى المسيح وعزير ﴿وَبَنَاتٍ﴾ كقول بعض العرب فى الملائكة. وخرقوا بالتشديد للتكثير مدنى لقوله: بنين وبنات ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوا من خطأ أو صواب ولكن

---

(١) سورة «النحل»، الآية (٨١).

(٢) ما بعده : إشارة إلى كلمة «ثمره» فى الآية (١٤١) من هذه السورة.

رمياً بقول عن جهالة وهو حال من فاعل خرقوا أى جاهلين بما قالوا. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والولد.

●● ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يقال: بُدع الشئ فهو بديع وهو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها يعنى بديع سمواته وأرضه، أو هو بمعنى المبدع أى مبدعها وهو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أو هو فاعل تعالى ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ أى من أين يكون له ولد والولد لا يكون إلا من صاحبة ولا صاحبة له، ولأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون له ولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى ما من شئ إلا وهو خالقه وعالمه، ومن كان كذلك كان غنياًعن كل شئ والولد إنما يطلبه المحتاج.

●● ﴿ذَلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهى ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ مسبب عن مضمون الجملة أى من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى هو مع تلك الصفات مالك لكل شئ من الأرزاق والآجال رقيب على الأعمال.

●● ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ لا تحيط به، أو أبصار من سبق ذكرهم، وتشبث المعتزلة بهذه الآية لا يستتب، لأن المنفى هو الإدراك لا الرؤية، والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئى وحدوده وما يستحيل عليه الحدود والجهات يستحيل إدراكه لا رؤيته؛ فنزل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ونفى الإحاطة التى تقتضى الوقوف على الجوانب والحدود لا يقتضى نفى العلم به فهكذا هذا على أن مورد الآية ـ وهو التمدح ـ يوجب ثبوت الرؤية إذ نفى إدراك ما تستحيل رؤيته لا تمدح فيه، لأن كل ما لا يرى لا يدرك، إنما التمدح ينفى الإدراك مع تحقيق الرؤية، إذ انتفاؤه مع تحقيق الرؤية دليل ارتفاع نقيصه التناهى والحدود عن الذات فكانت الآية حجة لناعليهم ولو أمعنوا النظر فيها لاغتنموا التفصى عن عهدتها، ومن ينفى الرؤية يلزمه نفى أنه معلوم موجود وإلا فكما يعلم موجودا بلا كيفية وجهة بخلاف كل موجود لم يجز أن يرى بلا كيفية وجهة بخلاف كل مرئى، وهذا لأن الرؤية تحقق الشئ بالبصر كما هو فإن كان المرئى فى الجهة يرى فيها وإن كان لافى الجهة يرى لا فيها ﴿وَهُوَ﴾ للطف إدراكه ﴿يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ أى العالم بدقائق الأمور ومشكلاتها ﴿الْخَبِيرُ﴾ العليم بظواهر الأشياء وخفياتها وهو من قبيل اللف والنشر.

●● ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصيرة نور القلب الذى به يستبصر القلب، كما أن البصر نور العين الذى به تبصر أى جاءكم من الوحى والتنبيه ما هو للقلوب كالبصائر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ الحق وآمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر وإياها نفع ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنه وضل ﴿فَعَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه عمى وإياها

ضر بالعمى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، إنما أنا منذر والله هوالحفيظ عليكم. الكاف فى ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ فى موضع نصب صفة المصدر المحذوف أى نصرف الآيات تصريفاً مثل ما تلونا عليك ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ جوابه محذوف أى: وليقولوا ﴿دَرَسْتَ﴾ نصرفها ومعنى درست قرأت كتب أهل الكتاب. دارست مكى وأبو عررو أى دراست أهل الكتاب. درست شامى أى: قدمت هذه الآية ومضت كما قالوا أساطير الأولين ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ﴾ أى القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوما، أو الآيات لأنها فى معنى القرآن قيل: اللام الثانية حقيقة والأولى لام العاقبة والصيرورة أى لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست وهو كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١) وهم لم يلتقطوه للعدواة وإنما التقطوه ليصير لهم قرة عين ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العدواة، فكذلك الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست، ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين فشبه به، وقيل ليقولوا كما قيل لنبينه وعندنا ليس كذلك لما عرف ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل.

•• ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولا تتبع أهواءهم ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحى لا محل له من الإعراب أو حال من ربك مؤكدة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فى الحال إلى أن يرد الأمر بالقتال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أى: إيمانهم فالمفعول محذوف ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ بين أنهم لا يشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم اختيار الإيمان لهداهم إليه، ولكن علم منهم اختيار الشرك فشاء شركهم فأشركوا بمشيئه ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ مراعياً لأعمالهم مأخوذا بإجرامهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بمسلط.

وكان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا عنه لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله بقوله: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ﴾ منصوب على جواب النهى ﴿عَدْوًا﴾ ظلماً وعدوانا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من أمم الكفار ﴿عَمَلَهُمْ﴾ وهو كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٢) وهو حجة لنا فى الأصلح ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم بما عملوا ويجزيهم عليه.

•• ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ جهد مصدر وقع موقع الحال أى جاهدين فى الإتيان بأوكد الأيمان ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ وهو قادر عليها لا عندى فكيف آتيكم بها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم ﴿أَنَّهَا﴾ أن الآية المقترحة ﴿إِذَا جَاءَتْ لا

(١) سورة «القصص» الآية (٨).

(٢) سورة «فاطر» الآية (٨).

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بها يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم تعلمون ذلك، وكان المؤمنون يطمعون فى إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها، فقال الله تعالى، وما يدريكم أنهم لا يؤمنون، على معنى أنكم لا تدرون ما سبق علمى به من أنهم لا يؤمنون- إنها بالكسر مكى وبصرى وأبو بكر على أن الكلام تم قبله، أى: وما يشعركم وما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون ألبته ومنهم من جعل لا مزيدة فى قراءة الفتح كقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١) لا تؤمنون شامى وحمزة.

●● ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ عن قبول الحق ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن رؤية الحق عند نزول الآية التى اقترحوها فلا يؤمنون بها قيل: هو عطف على لا يؤمنون داخل فى حكم، وما يشعركم أى وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم، فلا يفقهون ولا يبصرون الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لا يؤمنون بها ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قيل: وما يشعركم أنا نذرهم فى طغيانهم يعمهون يتحيرون.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ كما قالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾(٢) ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ كما قالوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾(٣) ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ جمعنا ﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا جمع قبيل وهو الكفيل، قبلا مدنى وشامى أى عيانا، وكلاهما نصب على الحال ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إيمانهم فيؤمنوا وهذا جواب لقول المؤمنين لعلهم يؤمنون بنزول الآية ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أى هؤلاء لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية المقترحة.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ وكما جعلنا لك أعداء من المشركين جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء أعداء لما فيه من الابتلاء الذى هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر، وانتصب ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ على البدل من عدوا أو على أنه من المفعول الأول، وعدوا مفعول ثان ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجن إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض، وعن مالك بن دينار(٤) إن شياطين الإنس أشد على من شيطان الجن؛ لإنى إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٩٥). (٢) سورة «الفرقان»، الآية (٢١).

(٣) سورة «الدخان»، الآية (٣٦).

(٤) هو التابعى العابد، مالك بن دينار السامى، الناجى، مولاهم، أبو يحيى، البصرى، الزاهد، إمام فى الورع والحديث، لا تخلو كتب الحديث ـ رواية ودراية ـ من اسمه، قال عنه ابن حجر: «صدوق، عابد، من الخامسة»، كان يكتب المصاحف، ويتقوت بذلك، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، توفى بالبصرة عام ١٣١هـ.

تهذيب التهذيب (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧).

المعاصى عياناً، وقال: عليه السلام: «قرناء السوء شر من شياطين الجن»[1] ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ ما زينوه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصى ﴿غُرُورًا﴾ خدعاً وأخذا على غرة وهو مفعول له ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى: الإيحاء يعنى ولو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة، ولكنه امتحن بما يعلم أنه أجزل فى الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عليك وعلى الله فإن الله يخزيهم وينصرك ويجزيهم.

●● ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ولتميل إلى زخرف القول قلوب الكفار وهى معطوفة على غرورا أى: ليغروا ولتصغى إليه ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

●● ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أى: قل يا محمد: أفغير الله أطلب حاكما يحكم بينى وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ المعجز ﴿مُفَصَّلًا﴾ حال من الكتاب أى مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لى بالصدق وعليكم بالافتراء ثم عضد الدلالة على أن القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى عبدالله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ﴾ شامى وحفص ﴿مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه أيها السامع أو فلا تكونن من الممترين فى أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به.

●● ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أى ما تكلم به. كلمات ربك حجازى وشامى وأبو عمرو أى تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد ﴿صِدْقًا﴾ فى وعده ووعيده ﴿وَعَدْلًا﴾ فى أمره ونهيه وانتصبا على التمييز، أو على الحال ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئاً من ذلك ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لإقرار من أقر ﴿الْعَلِيمُ﴾ بإصرار من أصر، أو السميع لما يقولون العليم بما يضمرون.

●● ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الكفار لأنهم الأكثرون ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فى أن الله حرم عليهم كذا وأحل لهم كذا.

●● ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى هو يعلم الكفار والمؤمنين من رفع بالابتداء ولفظها لفظ الاستفهام والخبر يضل، وموضع الجملة نصب بيعلم المقدر لا بأعلم، لأن أفعل لا يعمل فى الاسم الظاهر النصب ويعمل الجر وقيل تقديره أعلم بمن يضل بدليل ظهور الباء بعده فى بالمهتدين.

●● ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ هو مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين إنكم تزعمون أنكم

---

(١) ذكره الخازن فى تفسيره، وليس فيه قرناء السوء (انظر: تفسير الخازن).

تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم ، فقيل للمسلمين : إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه خاصة أى على ذبحه دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه.

●● ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا﴾ ما استفهام فى موضع رفع بالابتداء، ولكم الخبر أى: وأى غرض لكم فى لا تأكلوا ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ بين لكم ﴿ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾(١)- «فَصَّلَ»، و«حَرَّمَ» كوفى غير حفص وبفتحهما مدنى وحفص وبضمهما غيرهم ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ مما حرم عليكم فإنه حلال لكم فى حال الضرورة أى شدة المجاعة إلى أكله ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ﴾ ليضلون (٢) كوفى ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم وشهواتهم من غير تعلق بشريعة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمتجاوزين من الحق إلى الباطل.

●●﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ علانيته وسره أو الزنا فى الحوانيت والصديقة فى السر، أو الشرك الجلى والخفى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُون﴾ يكتسبون فى الدنيا .

●● ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند الذبح ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن أكله ﴿لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ ﴾ ليوسوسون ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُم﴾ بقولهم لا تأكلون مما قتله الله وتأكلون مما تذبحون بأيديكم؟!، والآية تحرم متروك التسمية وخصت حالة النسيان بالحديث، أو يجعل الناسى ذاكرا تقديراً ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فى استحلال ماحرمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُون﴾ لأن من اتبع غيرالله فى دينه فقد أشرك به، ومن حق المتدين أن لايأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لما فى الآية من التشديد العظيم، ومن أوّل الآية بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (٣) وقال: إن الواو فى وإنه لفسق للحال؛ لأن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لايحسن فيكون التقدير: ولاتأكلوا منه حال كونه فسقا، والفسق مجمل فبين بقوله: أو فسقا أهل لغير الله به فصار التقدير: ولا تأكلوا منه حال كونه مهلا لغير الله به، فيكون ما سواه حلالا بالعمومات المحلة منها قوله: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ﴾ (٤) الآية فقد عدل عن ظاهر اللفظ.

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٣).

(٢) اعتمد النسفى مصحفًا جاء فى رسمه (لَيَضِلُّون) بفتح الياء، قال الحافظ: إنها فى الإنعام . انظر: الغاية فى القراءات العشر ص١٤٩.

(٣) سورة «الأنعام»، الآية (١٤٥).

(٤) سورة «الأنعام»، الآية (١٤٥).

●● ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كافرا فهديناه لأن الإيمان حياة القلوب ميتاً مدنى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مستضيئا به والمراد به: اليقين ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ أى: صفته ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: خابط فيها ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لايفارقها ولايتخلص منها، وهو حال، قيل: المراد بهما حمزة وأبو جهل والأصح أن الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله فبين أن مثل المهتدى مثل الميت الذى أحيى وجعل مستضيئا يمشى فى الناس بنور الحكمة والإيمان ومثل الكافر مثل من هو فى الظلمات التى لا يتخلص منها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى: كما زَيَّنَ للمؤمن إيمانه ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ بتزيين الله تعالى كقوله : ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١) ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى أعمالهم.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أى: وكما جعلنا فى مكة صناديدها ليمكروا فيها ﴿جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصى. واللام على ظاهرها عند أهل السنة وليست بلام العاقبة، وخص الأكابر - وهم الرؤساء - لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم دليله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾(٢) ثم سلى رسوله - عليه السلام - ووعد له النصرة بقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن مكرهم يحيق بهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه يحيق بهم. أكابر مفعول أول والثانى: فى كل قرية، ومجرميها بدل من أكابر أو الأول مجرميها والثانى أكابر والتقدير: مجرميها أكابر.

ولما قال أبوجهل: زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يوحى إليه، والله لانرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، نزل: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أى: الأكابر ﴿آيَةٌ﴾ معجزة أو آية من القرآن تأمرهم بالإيمان. ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى: نعطى من الآيات مثل ما أعطى الأنبياء فأعلم الله تعالى أنه أعلم بمن يصلح للنبوة؛ فقال تعالى ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ مكى وحفص، رسالاته غيرهما، حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ من أكابرها. ﴿صَغَارٌ﴾ ذل وهوان ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ فى القيامة ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى الدارين من القتل والأسر وعذاب النار. ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ فى الدنيا.

●● ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يوسعه وينور قلبه. قال عليه السلام: «إذا دخل النور فى القلب انشرح وانفتح» قيل: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إل دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» (٣) ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ أى: الله ﴿أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ

---

(١) سورة «النمل»، الآية (٤).

(٢) سورة «الشورى»، الآية (٢٧).

(٣) رواه ابن المبارك فى الزهد، وابن أبى شيبة وابن جرير، والبيهقى فى الأسماء والصفات، عن أبى جعفر المدائنى.

صَدْرَهُ ضَيِّقًا ﴾ ضيقا مكي ﴿حَرَجًا﴾ حَرِجاً صفة لضيقاً مدني وأبو بكر: بالغاً في الضيق، حَرَجاً غيرهما، وصفا بالمصدر. ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ كأنه كلف أن يصعد إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه، إذا ضاقت عليه الأرض؛ فطلب مصعدا في السماء؛ أو كعازب الرأى طائر القلب في الهواء ، يصعد مكي يصاعد أبو بكر، وأصله يتصاعد، الباقون يصعد، وأصله يتصعد. ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ ﴾ العذاب في الآخرة واللعنة في الدنيا ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ والآية حجة لنا على المعتزلة في إرادة المعاصي.

●● ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ أي : طريقه الذي اقتضته الحكمة وسنته في شرح صدر من أراد هدايته وجعله ضيقاً لمن أراد ضلاله. ﴿مُسْتَقِيماً﴾ عادلا مطردا وهو حال مؤكدة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

●● ﴿ لَهُمْ ﴾ أي: لقوم يذكرون ﴿دَارُ السَّلامِ ﴾ دار الله، يعني: الجنة، أضافها إلى نفسه تعظيما لها، أو دار السلامة من كل آفة وكدر، أو السلام: التحية، سميت دار السلام لقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾[1]. ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [2] ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في ضمانه. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ محبهم، أو ناصرهم على أعدائهم. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأعمالهم، أو متوليهم بجزاء ماكانوا يعملون، أو هو ولينا في الدنيا بتوفيق الأعمال وفي العقبى بتحقيق الآمال.

●● ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وبالياء[3] حفص، أي: واذكر يوم نحشرهم، أو ويوم نحشرهم قلنا: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾ أضللتم منهم كثيرا وجعلتموهم أتباعكم، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم. ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم. ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعنون: يوم البعث، وهذا الكلام اعتراف بماكان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى ، والتكذيب بالبعث، وتحسر على حالهم ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ منزلكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال، والعامل معنى الإضافة ، كقوله تعالى: ﴿ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[4] فمصبحين حال من هؤلاء، والعامل في الحال معنى الإضافة إذ معناه الممازجة والمضامة، والمثوى ليس بعامل؛ لأن المكان لايعمل في شيء ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أي: يخلدون في عذاب النار الأبد كله، إلاماشاء الله إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب

---

(١) سورة «إبراهيم»، الآية (٢٣). (٢) سورة «الواقعة»، الآية (٢٦).

(٣) هذا يدل على أن النسفي يقرؤها: (نحشرهم) بالنون.

(٤) سورة «الحجر»، الآية (٦٦).

الزمهرير. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بأوليائه وأعدائه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم فيجزى كلا على وفق عمله.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نتبع بعضهم بعضاً فى النار، أونسلط بعضهم على بعض، أونجعل بعضهم أولياء بعض. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بسبب ماكسبوا من الكفر والمعاصى.

●● ثم يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ عن الضحاك: بعث إلى الجن رسلا منهم كما بعث إلى الأنس رسلا منهم؛ لأنهم بهم آنس وعليه ظاهر النص، وقال آخرون: الرسل من الأنس خاصة وإنما قيل رسل منكم؛ لأنه لما جمع الثقلين فى الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (1). أو رسلهم رسل نبينا كقوله: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾(2). ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يقرءون كتبى ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ يعنى يوم القيامة ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ بوجوب الحجة علينا وتبليغ الرسل إلينا ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ بالرسل.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وهو خبر مبتدأ محذوف؛ أى: الأمر ذلك ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ تعليل أى: الأمر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم على أنّ «أنْ» مصدرية، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، والمعنى لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم بسبب ظلم أقدموا عليه أوظالما على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظالما، وهو متعال عنه.

●● ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المكلفين ﴿دَرَجَاتٌ﴾ منازل ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ من جزاء أعمالهم، وبه استدل أبو يوسف ومحمد(3) ـ رحمهما الله ـ على أن للجن الثواب بالطاعة لأنه ذكر عقيب ذكر الثقلين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بساه عنه، وبالتاء شامى.

●● ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ عليهم بالتكليف ليعرِّضهم للمنافع الدائمة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الظلمة ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ من الخلق المطيع ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح، عليه السلام.

●● ﴿إِنَّ مَا﴾ ما بمعنى الذى ﴿تُوعَدُونَ﴾ من البعث والحساب والثواب والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ خبر إن أى لكائن ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين؛ رد لقولهم: من مات فقد فات.

---

(1) سورة «الرحمن»، الآية (٢٢). (2) سورة «الأحقاف»، الآية (٢٩).
(3) صاحبا أبى حنيفة، وأجل تلاميذه، وأئمة مذهبه.

المكانة تكون مصدرا، يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال: مكان ومكانه ومقام ومقامه. وقوله.

●● ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم واعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها، ويقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان أى اثبت على ما أنت عليه ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتى التى أنا عليها أى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لى فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم، وهو أمر تهديد ووعيد، دليله قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أى فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة، وهذا طريق لطيف فى الإنذار ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى الكافرون. مكاناتكم حيث كان أبو بكر. يكون حمزة وعلى. وموضع من رفع إذا كان بمعنى أى وعلق عنه فصل العلم أو نصب إذا كان بمعنى الذى .

●● ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ أى: وللأصنام نصيبا فاكتفى بدلالة قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ بزُعمهم على ، وكذا ما بعده أى زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولاشرع لهم تلك القسمة ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى لايصل إلى الوجوه التى كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾ من إنفاقهم عليها والإجراء على سدنتها. روى أنهم كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم، فإذا رأوا ماجعلوا لله زاكيا ناميا رجعوا فجعلوه للأصنام، وإذا زكا ماجعلوه للأصنام تركوه لها، وقالوا : إن الله غنى وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها، وفى قوله: «مما ذرأ» إشارة إلى أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكى؛ لأنه هو الذى ذرأه ثم ذم صنيعهم بقوله: ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فى إيثار آلهتهم على الله وعملهم على ما لم يشرع لهم وموضع مارفع أى ساء الحكم حكمهم، أو نصب أى ساء حكما حكمهم.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى كمازين لهم تجزئة المال زين وأد البنات ﴿قَتْلَ﴾ مفعول زين ﴿ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ هو فاعل زين، زين بالضم قتل بالرفع أولادهم بالنصب شركائهم بالجر شامى على إضافة القتل إلى الشركاء أى الشياطين، والفصل بينهما بغير الظرف، وهو المفعول، وتقديره: زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ وليخلطوا عليهم ويشوبوه ودينهم ماكانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلوا عنه إلى الشرك ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ وفيه دليل على أن الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وما يفترونه من الإفك أو وافتراءهم؛ لأن ضرر ذلك الافتراء عليهم لاعليك ولاعلينا.

●● ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾ للأوثان ﴿حِجْرٌ﴾ حرام فعل بمعنى المفعول كالذبح والطحن ويستوى فى الوصف به الذكر والمؤنث والواحد والجمع لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات،

وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: ﴿لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء والزعم قول بالظن يشوبه الكذب ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هى البحائر والسوائب والحوامى [١] ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ حالة الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ هو مفعول له أو حال أى قسموا أنعامهم قسم حجر، وقسم لايركب، وقسم لايذكر اسم الله عليها، ونسبوا ذلك إلى الله افتراء عليه ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾وعيد.

●● ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ كانوا يقولون فى أجنة البحائر والسوائب: ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا يأكل منه الإناث، وما ولد ميتا اشترك فيه الذكور والإناث، وأنث خالصة وهو خبر ما؛ للحمل على المعنى؛ لأن ما فى معنى الأجنة وذكر ومحرم حملا على اللفظ أو التاء للمبالغة كنسابة ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أى وإن يكون ما فى بطونها ميتة. وإن تكن ميتة أبو بكر، أى وإن تكن الأجنة ميتة. وإن تكن ميتةٌ شامى على كان التامة، يكن ميتة مكى لتقدم الفعل وتذكير الضمير فى ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ لأن الميتة اسم لكل ميت ذكر أو أنثى، فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ جزاء وصفهم الكذب على الله فى التحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ فى جزائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ باعتقادهم.

●● ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ﴾ كانوا يئدون بناتهم مخافة السبى والفقر. قتلوا مكى وشامى ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم لا هم﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر والسوائب وغيرها ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ مفعول له ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الصواب.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ خلق ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مسموكات مرفوعات ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش، يقال: عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا﴾ فى اللون والطعم والحجم والرائحة وهو حال مقدرة؛ لأن النخل وقت خروجه لا أكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[٢] ﴿أُكُلُهُ﴾ أكله حجازى وهو ثمره الذى يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل فى حكمه لأنه معطوف عليه، أو لكل واحد ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ فى اللون ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ فى الطعم ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد وفائدة ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أن يعلم أن أول وقت الإباحة وقت

(١) سبق التعريف بهذه الكلمات فى التعليق على الآية (١٦٨) من سورة البقرة.
(٢) سورة «الزمر»، الآية (٧٣).

إطلاع الشجر الثمر ولايتوهم أنه لايباح إلا إذا أدرك ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ عشره وهو حجة أبى حنيفة - رحمه الله- فى تعميم العشر ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ بصرى وشامى وعاصم، وبكسر الحاء غيرهم، وهما لغتان. ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ بإعطاء الكل وتضييع العيال، وقوله: (كلوا) إلى: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ اعتراض.

●● ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ عطف على جنات، أى: وأنشأ من الأنعام مايحمل الأثقال وما يفرش للذبح، أو الحمولة الكبار التى تصلح للحمل والفرش للصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم، لأنها دانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى ما أحل الله لكم منها ولاتحرموها كما فى الجاهلية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرقه فى التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فاتهموه على دينكم.

●● ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدل من حمولة وفرشا ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين يريد الذكر والأنثى والواحد إذا كان وحده فهو فرد، وإذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منهما زوجا، وهما زوجان بدليل قوله: ﴿خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾(1) ويدل عليه قوله: ثمانية أزواج ثم فسرها بقوله: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر، وفتح عين المعز مكى وشامى وأبو عمرو، وهما لغتان، والهمزة فى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ للإنكار، والمراد بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز وبالأنثيين الأنثى من الضأن والأنثى من المعز والمعنى إنكار أن يحرم الله من جنسى الغنم ضأنها ومعزها شيئا من نوعى ذكورها وإناثها ولاما تحمل الإناث وذلك أنهم كانوا يحرمون ذكورة الأنعام تارة وإناثها طورا، وأولادها كيفما كانت ذكوراً أوإناثاً أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون قد حرمها الله فأنكر ذلك عليهم، وانتصب آلذكرين بـ«حرَّم»، وكذا أم الأنثيين أى: أم حرم الأنثيين وكذا ما فى أم ما اشتملت. ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أخبرونى بأمرمعلوم من جهة الله يدل على تحريم ماحرمتم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى أن الله حرمه.

●●﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ﴾ منهما ﴿حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ ﴾ منهما ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾ أم ما تحمل إناثها ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أم منقطعة أى بل أكنتم شهداء ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ يعنى: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم، ولما كانوا لايؤمنون برسول الله وهم يقولون الله حرم هذا الذى نحرمه؛ تهكم بهم فى قوله: أم كنتم شهداء على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لاتؤمنون بالرسل ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ

---

(1) سورة «النجم»، الآية (٤٥).

كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم مالم يحرم ﴿ لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى الذين فى علمه أنهم يختمون على الكفر ووقع الفاصل بين بعض المعدود وبعضه اعتراضا غير أجنبى من المعدود، وذلك أن الله تعالى من على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم، فالاعتراض بالاحتجاج على من حرمها يكون تأكيدا للتحليل ، والاعتراضات فى الكلام لاتساق إلا للتوكيد.

•• ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أى فى ذلك الوقت أو فى وحى القرآن، لأن وحى السنة قد حرم غيره، أو من الأنعام لأن الآية فى رد البحيرة وأخواتها، وأما الموقوذة والمتردية والنطيحة فمن الميتة وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يثبت بوحى الله وشرعه لابهوى الأنفس ﴿مُحَرَّمًا﴾ حيوانا حرم أكله ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ على آكل يأكله ﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلا أن يكون الشىء المحرم ميتة. أن تكون مكى وشامى وحمزة ميتَة شامى ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ مصبوبا سائلا فلا يحرم الدم الذى فى اللحم والكبد والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ نجس ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ عطف على المنصوب قبله، وقوله : فإنه رجس اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ منصوب المحل صفة لفسقا أى رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله وسمى بالفسق لتوغله فى باب الفسق ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى أكل شىء من هذه المحرمات ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ على مضطر مثله تارك لمواساته ﴿وَلا عَادٍ﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لايؤاخذه.

•• ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ أى ماله أصبع من دابة أو طائر، ويدخل فيه الإبل والنعام ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أى حرمنا عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شىء منه ولم يحرم من البقر والغنم إلا الشحوم، وهى الثروب وشحوم الكلى ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة(١) ﴿ أَوِ الْحَوَايَا﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء واحدها حاوياء، أو حوية ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو الألية أو المخ ﴿ ذَلِكَ ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿جَزَيْنَاهُم ﴾ والتقدير: جزيناهم ذلك ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرنا به، وكيف نشكر من سبب معصيتهم لتحريم الحلال ومعصية سالفنا لتحليل الحرام حيث قال: ﴿وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾(٢) .

•• ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما أوحيت إليك من هذا ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ بها يمهل

---

(١) السحفة: هى الشحمة التى على الظهر، الملتزقة بالجلد فيما بين الكتفين إلى الوركين. والجمع: سَحْفٌ، وسحافٌ. المعجم الوسيط (١/ ٤٢٠).

(٢) سورة «البقرة»، الآية(١٨٧).

المكذبين ولايعاجلهم بالعقوبة ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ عذابه مع سعة رحمته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا جاء، فلا تغتر بسعة رحمته عن خوف نقمته.

•• ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار بماسوف يقولونه ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لانشرك ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ ولكن شاء فهذا عذرنا؛ يعنون أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله لهم بمشيئته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أى كتكذيبهم إياك كان تكذيب المتقدمين رسلهم وتشبثوا بمثل هذا فلم ينفعهم ذلك إذ لم يقولوه عن اعتقاد، بل قالوا ذلك استهزاءً، ولأنهم جعلوا مشيئته حجة لهم على أنهم معذورون به، وهذا مردود لا الإقرار بالمشيئة أومعنى المشيئة هنا الرضا كما قال الحسن: أى: رضى الله منا ومن آبائنا الشرك والشرك مراد لكنه غير مرضى ألا ترى أنه قال: فلو شاء لهداكم أجمعين، أخبر أنه لو شاء منهم الهدى لآمن كلهم ولكن لم يشأ من الكل الإيمان بل شاء من البعض الإيمان ومن البعض الكفر فيجب حمل المشيئة هنا على ما ذكرناه دفعا للتناقض ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهروه ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون.

•• ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ عليكم بأوامره ونواهيه ولاحجة لكم على الله بمشيئته ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى فلو شاء هدايتكم. وبه تبطل صولة المعتزلة .

•• ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ هاتوا شهداءكم وقربوهم، ويستوى فى هذه الكلمة الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازين، وبنو تميم تؤنث وتجمع ﴿ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أى مازعموه محرما ﴿ فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولاتصدقهم، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم فكان واحدا منهم ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أن من كذب بآيات الله فهو متبع للهوى؛ إذ لو تبع الدليل لم يكن إلامصدقا بالآيات موحداً لله ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ هم المشركون ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يسوون الأصنام.

•• ﴿قُلْ ﴾ للذين حرموا الحرث والأنعام ﴿تَعَالَوْا﴾ هو من الخاص الذى صار عاما، وأصله أن يقول من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه، ثم كثر حتى عم ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ الذى حرمه ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من صلة حرم ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أن مفسرة لفعل التلاوة ولا للنهى ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ وأحسنوا بالوالدين إحسانا، ولماكان إيجاب الإحسان تحريما لترك الإحسان ذكر فى المحرمات، وكذا حكم مابعده من الأوامر ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ من أجل فقر

ومن خشيته: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ (١) ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأن رزق العبيد على مولاهم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما بينك وبين الخلق ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما بينك وبين الله، ما ظهر بدل من الفواحش ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقصاص والقتل على الردة والرجم ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ أى المذكور مفصلا أمركم ربكم بحفظه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعقلوا عظمها عند الله.

•• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التى هى أحسن، وهى حفظه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أشده مبلغ حلمه فادفعوه إليه، وواحده: شد؛ كفلس وأفلس ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالسوية والعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولاتعجز عنه، وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك لأن مراعاة الحد من القسط الذى لازيادة فيه ولانقصان مما فيه حرج؛ فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفو عنه ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ فاصدقوا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه فى شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل، كقوله: ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (٢) ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يوم الميثاق أو فى الأمر والنهى والوعد والوعيد والنذر واليمين ﴿أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ﴾ أى ما مر ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حيث كان حمزة وعلى، وحفص على حذف إحدى التاءين. غيرهم بالتشديد؛ أصله تتذكرون فأدغم التاء الثانية فى الذال أى أمركم به لتتعظوا.

•• ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ ولأن هذا صراطى فهو علة الاتباع بتقدير اللام. وأن بالتخفيف شامى وأصله: وأنه على أن الهاء ضمير الشأن والحديث. وإن ـ على الابتداء ـ حمزة وعلى ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المختلفة فى الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ فتفرقكم أيادى سبأ (٣) عن صراط الله المستقيم، وهو دين الإسلام روى أن رسول الله ﷺ خط خطا مستويا، ثم قال: «هذا سبيل الرشد وصراط الله فاتبعوه» . ثم خط على كل جانب ستة خطوط ممالة، ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه فاجتنبوها». وتلا هذه الآية (٤)، ثم يصير كل واحد من الأثنى عشر طريقا ستة طرق فتكون اثنين وسبعين، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: -هذه الآيات محكمات لم

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٣١). (٢) سورة «النساء»، الآية (١٣٥).

(٣) أيادى سبأ: هذا مثل يضرب بأبناء سبأ فى اليمن، لأنهم تبددوا فى البلاد بعد ذهاب جناتهم . (انظر القاموس: ص١٧).

(٤) هذا الحديث رواه النسائى وابن حيان والحاكم وأحمد من حديث ابن مسعود، رضى الله عنه.

ينسخهن شيء من جميع الكتب، وعن كعب: إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لتكونوا على رجاء إصابة التقوى. ذكر أولا تعقلون، ثم تذكرون، ثم تتقون لأنهم إذا عقلوا تفكروا، ثم تذكروا أى اتعظوا فاتقوا المحارم.

●● ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ أى ثم أخبركم إنا آتينا أو هو عطف على قل أى ثم قل آتينا أو ثم مع الجملة تأتى بمعنى الواو ، كقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ (١) ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على من كان محسنا صالحا يريد جنس المحسنين. دليله: قراءة عبدالله: «على الذين أحسنوا»، أو أراد به موسى ـ عليه السلام ـ أى تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ فى كل ما أمر به ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبيانا مفصلا لكل ما يحتاجون إليه فى دينهم ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ أى بنى إسرائيل ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون أى بالبعث والحساب وبالرؤية.

●● ﴿وَهَذَا﴾ أى القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ مخالفته ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لترحموا.

●● ﴿أَن تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أى: أهل التوراة وأهل الإنجيل ، وهذا دليل على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن تلاوة كتبهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لاعلم لنا بشيء من ذلك. إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية، والأصل: وإنه كنا عن دراستهم غافلين على أن الهاء ضمير الشأن، والخطاب لأهل مكة والمراد إثبات الحجة عليهم بإنزال القرآن على محمد ﷺ كيلا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على طائفتين من قبلنا وكنا غافلين عما فيهما.

●● ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ كراهة ان تقولوا : ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا لأيام العرب(٢) ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى إن صدقتم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم ما فيه البيان الساطع والبرهان القاطع، فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد ما عرف صحتها وصدقها ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وهو النهاية فى النكاية ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم.

●● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أى أقمنا حجج الوحدانية وثبوت الرسالة، وأبطلنا مايعتقدون من الضلالة

---

(١) سورة «يونس»، الآية (٤٦).

(٢) أيام العرب: يقصد بها الأيام الهامة، والشهيرة، التى وقعت فيها حروب أو غيره.

فما ينتظرون فى ترك الضلالة بعدها ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أى ملائكة الموت لقبض أرواحهم. يأتيهم حمزة وعلى ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أى أمر ربك وهو العذاب، أو القيامـةوهذا لأن الإتيان متشابه وإتيان أمره منصوص عليه محكم فيرد إليه ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أى: أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ لأنه ليس بإيمان اختيارى، بل هو إيمان دفع العذاب والبأس عن أنفسهم ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾ صفة نفسا ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ أى إخلاصا كما لا يقبل إيمان الكافر بعد طلوع الشمس من مغربها لايقبل إخلاص المنافق أيضا، أو توبته، وتقديره لاينفع إيمان من لم يؤمن ولاتوبة من لم يتب قبل ﴿ قُلِ انتَظِرُوا﴾ إحدى الآيات الثلاث ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ بكم إحداها.

●● ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ اختلفوا فيه وصاروا فرقا كما اختلفت اليهود والنصارى، وفى الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا، واحدة وهى الناجية، وافترقت النصارى على إثنتين وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى الهاوية إلا واحدة ،وهى السواد الأعظم»(1). وفى رواية: «وهى ما أنا عليه وأصحابى»، وقيل: فرقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. فارقوا دينهم حمزة وعلى أى تركوا ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فرقا كل فرقة تشيع إماما لها ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى من السؤال عنهم وعن تفرقهم أو من عقابهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فيجاريهم على ذلك.

●● ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ تقديره: عشر حسنات أمثالها إلا أنه أقيم صفة الجنس المميزة مقام الموصوف ﴿ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

●● ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾. ربِّىَ أبو عمرو ومدنى ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا ﴾ نصب على البدل من محل إلى صراط مستقيم، لأن معناه هدانى صراطا؛ بدليل قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (2) ﴿قِيَمًا﴾ قيما فيعل من قام، كسيد من ساد، وهو أبلغ من القائم. قيما كوفى وشامى وهو مصدر بمعنى القيام وصف به ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ عطف بيان ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالله يامعشر قريش.

●● ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾ أى عبادتى، والناسك: العابد، أوذبحى، أو حجى ﴿ وَمَحْيَايَ

---

(1) رواه أصحاب السنن إلاّ النسائى، من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(2) سورة «الفتح»، الآية (20).

ومماتي﴾ وماأتيته فى حياتى وأموت عليه من الإيمان والعمل ﴿ لله رب العالمين﴾ خالصة لوجهه. محياى ومماتى بسكون الياء الأول وفتح الثانى مدنى وبعكسه غيره.

•• ﴿لا شريك له ﴾ فى شيء من ذلك ﴿وبذلك ﴾ الإخلاص ﴿أمرت وأنا أول المسلمين﴾ لأن إسلام كل نبى متقدم على إسلام أمته.

•• ﴿ قل أغير الله أبغي ربا﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار أى: منكر أن أطلب ربا غيره، وتقديم المفعول للإشعار بأنه أهم ﴿ وهو رب كل شيء﴾ وكل من دونه مربوب ليس فى الوجود من له الربوبية غيره ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أى لاتؤخذ نفس آثمة بذنب نفس أخرى ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من الأديان التى فرقتموها.

•• ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ لأن محمدا ﷺ خاتم النبيين فأمته قد خلفت سائر الأمم، أو لأن بعضهم يخلف بعضا، أو هم خلفاء الله فى أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ورفع بعضكم فوق بعض﴾ فى الشرف والرزق وغير ذلك ﴿درجات﴾ مفعول ثان أو التقدير إلى درجات أو هى واقعة موقع المصدر ، كأنه قيل: رفعة بعد رفعة ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ فيما أعطاكم من نعمة الجاه والمال كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع والغنى بالفقير والمالك بالمملوك ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن كفر ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة لأن ماهو آت قريب ، وماأمر الساعة إلاكلمح البصر أو هو أقرب. عن النبى ﷺ :«من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام حين يصبح؛ وكل الله تعالى به سبعين ألف ملك يحفظونه، وكتب له مثل أعمالهم إلى يوم القيامة»(١).

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة، ولكن أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء.

سورة الأعراف مكية وهى مائتان وخمس آيات بصرى وست كوفى ومدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الٓمٓصٓ﴾ قال الزجاج: المختار فى تفسيره ما قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أنا الله أعلم وأفصل.

●● ﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: هو كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفته والمراد بالكتاب: السورة ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ شك فيه وسمى الشك حرجا؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أى لا شك فى أنه منزل من الله وأحرج منه بتبليغه؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم فكان يضيق صدره من الأذى ولا ينشط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم، والنهى متوجه إلى الحرج وفيه من المبالغة ما فيه والفاء للعطف أى: هذا الكتاب أنزلته إليك فلا يكن بعد إنزاله حرج فى صدرك، واللام فى ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ متعلق بأنزل، أى: أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهى؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم وكذا إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار به، لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فى محل النصب بإضمار فعلها أى لتنذر به وتذكر تذكيراً؛ فالذكرى اسم بمعنى التذكير، أو الرفع بالعطف على كتاب أى: هو كتاب وذكرى للمؤمنين، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو الجر بالعطف على محل لتنذر أى: للإنذار وللذكرى.

●● ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: القرآن والسنة ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقليلا نصب بتذكرون أى تذكرون تذكرا قليلا، وما مزيدة لتوكيد القلة. تتذكرون شامى.

●● ﴿وَكَم﴾ مبتدأ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تبيين والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: أردنا إهلاكها كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ (١) ﴿فَجَاءَهَا﴾ جاء أهلها ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى بائتين يقال بات بياتاً حسناً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على بياتا كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين (٢)، وإنما قيل هم قائلون بلا واو، ولا يقال جاءنى زيد هو فارس بغير واو؛ لأنه لما عطف على حال قبلها حذفت الواو استثقالا لاجتماع حرفى عطف؛ لأن واو الحال هى واو العطف

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٦).

(٢) قائلون : جمع لقائل، وهو النائم فى وسط النهار، والقيلولة: هى النوم فى الظهيرة أو الاستراحة فيه، وإن لم يكن نوم. (انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٧٠).

استعيرت الوصل وخص هذان الوقتان لأنهما وقتا الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع. وقوم لوط ـ عليه السلام ـ أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب ـ عليه السلام ـ وقت القيلولة وقيل: بياتا ليلا أى ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائلون.

●● ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ دعاؤهم وتضرعهم ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ لما جاءهم أوائل العذاب ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك، «ودعواهم» اسم كان، «وأن قالوا» الخبر، ويجوز العكس.

●● ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أرسل مستد إلى إليهم أى: فلنسألن المرسل إليهم وهم الأمم عما أجابوا به رسلهم ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجيبوا به.

●● ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعما وجد منهم، ومعنى السؤال: التوبيخ والتقريع، والتقرير إذا فاهوا بألسنتهم وشهد عليهم أنبياؤهم.

●● ﴿وَالْوَزْنُ﴾ أى وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، وهو مبتدأ وخبره: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم يسأل الله الأمم ورسلهم، فحذفت الجملة وعوض عنها التنوين ﴿الْحَقُّ﴾ أى العدل صفته ثم قيل توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان إظهاراً للنصفة وقطعا للمعذرة، وقيل: هو عبارة عن القضاء السوى والحكم العادل، والله أعلم بكيفيته ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع ميزان، أو موزون أى فمن رجحت أعماله الموزونة التى لها وزن وقدر وهى الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

●● ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ هم الكفار فإنه لا إيمان لهم ليعتبر معه عمل فلا يكون فى ميزانهم خير فتخف موازينهم ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون؛ فالآيات: الحجج، والظلم بها: وضعها فى غير موضعها، أى: جحودها وترك الانقياد لها.

●● ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ﴾ جعلنا لكم فيها مكانا وقراراً، أومكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ جمع معيشة وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيْرهما، والوجه تصريح الياء لأنها أصْلية بخلاف صحائف فالياء فيها زائدةٌ، وعن نافع أنه همز تشبيها بصحائف ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مثل قليلا ما تذكرون.

●● ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى خلقنا اباكم آدم ـ عليه السلام ـ طينا غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك؛ دليله ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم، عليه السلام.

•• ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ ما رفع أىْ أىّ شىء منعك من السجود، ولا زائدة بدليل ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾(١)، ومثلها ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾(٢) أى ليعلم ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فيه دليل على أن الأمر للوجوب والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصل آدم ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ وهى جوهر نورانى ﴿وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهو ظلمانى وقد أخطأ الخبيث بل الطين أفضل لرزانته ووقاره ومنه الحلم والحياء والصبر، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار. وفى النار الطيش والحدة والترفع، وذلك دعاه إلى الاستكبار. والتراب عدة الممالك والنار عدة المهالك والنار مظنة الخيانة والإفناء والتراب مئنة الأمانة والإنماء، والطين يطفىء النار ويتلفها، والنار لا تتلفه وهذه فضائل غفل عنها إبليس حتى زل بفاسد من المقاييس. وقول نافى القياس: أول من قاس إبليس قياس على أن القياس عند مثبته مردود عند وجود النص، وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص. وكان الجواب لمامنعك أن يقول: منعنى كذا، وإنما قال: أنا خير منه؛ لأنه قد استأنف قصة وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ـ عليه السلام ـ وبعلة فضله عليه فعلم منها الجواب ـ كأنه قال: منعنى من السجود فضلى عليه ـ وزيادة عليه وهى إنكار الأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمورا بالسجود لمثله، إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب.

•• ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أو من السماء لأنه كان فيها وهى مكان المطيعين والمتواضعين والفاء فى فاهبط جواب لقوله: أنا خير منه أى إن كنت تتكبر فاهبط ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه يذمك كل إنسان ويلعنك كل لسان لتكبرك وبه علم أن الصغار لازم للاستكبار.

•• ﴿قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلنى إلى يوم البعث، وهو وقت النفخة الأخيرة.

•• ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ إلى النفخة الأولى وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء وفيه تقريب لقلوب الأحباب أى هذا برىء بمن يسيئنى فكيف بمن يحبنى وإنما جسره على السؤال مع وجود الزلل منه فى الحال علمه بحلم ذى الجلال.

•• ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى﴾ أضللتنى أى فبسبب إغوائك إياى، والباء تتعلق بفعل القسم المحذوف تقديره: فبسبب إغوائك أقسم، أو تكون الباء للقسم أى: فأقسم بإغوائك ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأعترضن لهم على طريق الإسلام مترصدا للرد متعرضا للصد، كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة، وانتصابه على الظرف، كقوله: ضرب زيد الظهر، أى: على الظهر،

(١) سورة «ص~»، الآية (٧٥).
(٢) سورة «الحديد»، الآية (٢٩).

وعن طاوس: أنه كان فى المسجد الحرام فجاء رجل قدرى، فقال له طاوس: تقوم أو تقام فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه فقال: إبليس أفقه منه؛ قال: رب بما أغويتنى، وهو يقول: أنا أغوى نفسى.

●● ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أشككهم فى الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم فى الدنيا ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل الحسنات ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ من قبل السيئات وهو جمع شمال يعنى: ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى يأتى منها العدو فى الأغلب، وعن شقيق[1] : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد من بين يدى، فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم فأقرأ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[2]. ومن خلفى فيخوفنى الضيعة على مخلفى فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[3] وعن يمينى فيأتينى من قبل الثناء فأقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4] وعن شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[5] ولم يقل: من فوقهم ومن تحتهم؛ لمكان الرحمة والسجدة وقال فى الأولين من لابتداء الغاية وفى الأخيرين عن؛ لأن عن تدل على الانحراف ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مؤمنين قاله ظنا فأصاب لقوله ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾[6] أو سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى إياهم.

●● ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماء ﴿مَذْءُومًا﴾ معيبا من ذأمه إذا ذمه، والذأم والذم: العيب ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودا مبعدا من رحمة الله، واللام فى ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ موطئة للقسم، وجوابه ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط ﴿مِنكُمْ﴾ منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

●● ﴿وَيَا آدَمُ﴾ وقلنا: يا آدم بعد إخراج إبليس من الجنة ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ اتخذها مسكنا ﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾ فتصيرا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

●● ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وسوس إذا تكلم كلاما خفيا يكرره وهو غير متئد، ورجل موسوس بكسر الواو، ولا يقال موسوس بالفتح ولكن موسوس له وموسوس إليه، وهو الذى يلقى

---

(١) هو الزاهد المجاهد، شقيق بن إبراهيم بن على، الأزدى، البلخى، أبو على، المشهور بـ «شقيق البلخى» ، اشتهر بالزهد والتصوف، وكذلك الجهاد، حتى إنه مات شهيداً فى غزوة كولان عام ١٩٤هـ . لم يكن له حظ كبير فى الحديث، حتى إن ابن حجر لم يذكره.
الأعلام (٣/ ١٧١).

(٢) سورة «طه»، الآية (٨٢). (٣) سورة «هود». الآية (٦).

(٤) سورة «الأعراف»، الآية (١٢٨)، وسورة «القصص»، الآية (٨٣).

(٥) سورة «سبأ»، الآية (٥٤).

(٦) سورة «سبأ»، الآية (٢٠).

إليه الوسوسة، ومعنى وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، ووسوس إليه: ألقاها إليه ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ ليكشف لهما ماستر عنهما من عوراتهما، وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه لم يزل مستقبحا فى الطباع والعقول. فإن قلت: ما للواو المضمومة فى ووري لم تقلب همزة، كما فى أويصل ـ تصغير واصل ـ وأصله وويصل فقلبت الواو همزة كراهة لاجتماع الواوين؟! قلت: لأن الثانية مدة كألف واري، فكما لم يجب همزها فى واعد لم يجب فى ووري وهذا، لأن الواوين إذا تحركتا ظهر فيهما من الثقل مالا يكون فيهما إذا كانت الثانية ساكنة وهذا مدرك بالضرورة فالتزموا إبدالها فى موضع الثقل لا فى غيره، وقرأ عبدالله[1]: أوري بالقلب ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إلا كراهة أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء وقرىء: «مَلِكَيْن» لقوله: ﴿وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾[2] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ من الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين.

●● ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾: وأقسم لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ وأخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة؛ لأنه لما كان منه القسم ومنهما التصديق فكأنها من اثنين.

●● ﴿فَدَلاَّهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرهما به من القسم بالله، وإنما يخدع المؤمن بالله وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : «من خدعنا بالله انخدعنا له». ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ وجدا طعمها آخذين فى الأكل منها، وهى السنبلة أو الكرم ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عوراتهما لتهافت اللباس عنهما وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر، وقيل: كان لباسهما من جنس الأظفار أى كالظفر بياضا فى غاية اللطف واللين فبقى عند الأظفار تذكيرا للنعم وتجديدا للندم ﴿وَطَفِقَا﴾: وجعلا، يقال: طفق يفعل كذا، أى: جعل ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ يجعلان على عورتهما من ورق التين؛ أو الموز ورقة فوق ورقة ليستترا بها كما تخصف النعل ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطأ، وروى أنه قال لآدم ـ عليه السلام ـ: ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة، فقال: بلى، ولكن ماظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا، قال: فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا بكد يمين وعرق جبين، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبز ﴿وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

●● ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فيه دليل لنا على المعتزلة؛ لأن الصغائر عندهم مغفورة.

---

(١) أى: عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فى قراءته.

(٢) سورة «طه» الآية (١٢٠).

●● ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع؛ لأن إبليس هبط من قبل ويحتمل أنه هبط إلى السماء ثم هبطوا جميعا إلى الأرض ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فى موضع الحال أى متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أو موضع استقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وانتفاع بعيش ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم، وعن ثابت البنانى[1]: لما أهبط آدم ـ عليه السلام ـ وحضرته الوفاة، أحاطت به الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلى ملائكة ربى فإنما أصابنى ما أصابنى فيك، فلما توفى غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته فى وتر من الثياب، وحفروا له قبرا ودفنوه بسرنديب[2] بأرض الهند، وقالوا: لبنيه هذه سنتكم بعده.

●● ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ فى الأرض ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للثواب والعقاب. تَخرجون حمزة وعلى.

●● ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ جعل ما في الأرض منزلا من السماء؛ لأن أصله من الماء وهو منها ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يستر عوراتكم ﴿وَرِيشًا﴾ لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته أى: أنزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوءاتكم ولباسا يزينكم ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ ولباس الورع الذى يقى العقاب وهو مبتدأ، وخبره الجملة، وهى ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، أو ذلك صفة للمبتدأ وخير خبر المبتدأ، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، أو لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف أى: وهو لباس التقوى أى ستر العورة لباس المتقين، ثم قال: ذلك خير وقيل ولباس أهل التقوى من الصوف والخشن ولباس التقوى مدنى وشامى وعلى عطفا على لباسا أى وأنزلنا عليكم لباس التقوى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده يعنى: إنزال اللباس ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه. وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما فى العرى من الفضيحة وإشعارا بأن التستر من التقوى.

●● ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ لا يخدعنكم ولا يضلنكم بأن لا تدخلوا الجنة كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ حال أى أخرجهما نازعا لباسهما بأن كان سببا فى أن نزع عنهما، والنهى فى الظاهر للشيطان وفى المعنى لبنى آدم أى لا

---

(١) هو التابعى الزاهد؛ ثابت بن أسلم البنانى، أبو محمد البصرى، قال عنه ابن سعد «كان ثقة، مأمونًا». وهو من كبار رواة الحديث روى عن أنس بن مالك، وعن بعض الصحابة، وروى عنه الناس، وكان – كذلك– رأسًا فى العبادة والورع، توفى عام بضع وعشرين ومائتين، ومختلف فى عمره.
تهذيب التهذيب (١/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) سرنديب: هى سيرلانكا حاليًا.

تتبعوا الشيطان فيفتنكم ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ عوراتهما ﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للشأن والحديث ﴿يَرَاكُمْ هُوَ﴾ تعليل للنهى وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجى[1]؛ يكيدكم من حيث لا تشعرون ﴿وَقَبِيلُهُ﴾ وذريته أو جنوده من الشياطين، وهو عطف على الضمير فى يراكم المؤكد بـ«هو» ولم يعطف عليه؛ لأن معمول الفعل هو المستكن دون هذا البارز، وإنما يعطف على ما هو معمول الفعل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ قال ذو النون: إن كان هو يراك من حيث لا تراه فاستعن بمن يراه من حيث لا يراه، وهو الله الكريم الستار الرحيم الغفار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيه دلالة خلق الأفعال.

•• ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ ما يبالغ فى قبحه من الذنوب وهو طوافهم بالبيت عراة وشركهم ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أى: إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها حيث أقرنا عليها، إذ لو كرهها لنقلنا عنها؛ وهما باطلان لأن أحدهما تقليد للجهال، والثانى افتراء على ذى الجلال ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ إذ المأمور به لابد أن يكون حسنا وإن كان فيه على مراتب على ما عرف فى أصول الفقه ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ.

•• ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وبما هو حسن عند كل عاقل فكيف يأمر بالفحشاء ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقل أقيموا وجوهكم أى: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها فى كل وقت سجود، أو فى كل مكان سجود ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى الطاعة مبتغين بها وجهه خالصا ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم، احتج عليه فى إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق والمعنى أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة.

•• ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون ﴿وَفَرِيقًا﴾ أى أضل فريقا ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ وهم الكافرون ﴿إِنَّهُمُ﴾ إن الفريق الذين حق عليهم الضلالة ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى أنصارا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ والآية حجة لنا على أهل الاعتزال فى الهداية والإضلال.

•• ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ لباس زينتكم ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ كلما صليتم وقيل الزينة المشط والطيب، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئاته للصلاة، لأن الصلاة مناجاة الرب فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر ﴿وَكُلُوا﴾ من اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بالشروع فى الحرام أو فى مجاوزة الشبع ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وعن ابن عباس ـ رضى الله

---

(١) المداجى: اسم فاعل من (أدْجَى)، وهو من ساتر بالعداوة ولم يبدها.
(انظر: المعجم الوسيط ١/ ٢٧٢).

عنهماـ : كل ماشئت وأشرب ماشئت والبس ماشئت؛ ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة. وكان للرشيد[1] طبيب نصرانى حاذق، فقال لعلىّ بن الحسين بن واقد[2]: ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان، قال له علىّ: قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه وهو قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ فقال النصرانى ـ ولم يرو عن رسولكم شىء فى الطب؟! فقال: قد جمع رسولنا الطب فى ألفاظ يسيرة وهى قوله ـ عليه السلام ـ: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ماعودته»[3] ـ فقال النصرانى: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا.

●● ثم استفهم إنكارا على محرم الحلال بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وكل ما يتجمل به ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أى أصلها يعنى: القطن من الأرض والقز من الدود ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات من المآكل والمشارب وقيل: كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، لأن المشركين شركاؤهم فيها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشركهم فيها أحد ولم يقل للذين آمنوا ولغيرهم لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة والكفار تبع لهم. خالصة بالرفع نافع فهى مبتدأ، خبره: للذين آمنوا وفى الحياة الدنيا ظرف للخبر، أو خالصة خبر ثان، أو خبر مبتدأ محذوف أى هى خالصة. وغيره نصبها على الحال من الضمير الذى فى الظرف الذى هو الخبر أى: هى ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا فى حال خلوصها يوم القيامة ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نميز الحلال من الحرام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا شريك له.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ربىْ حمزة. الفواحش ما تفاحش قبحه أى: تزايد ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ سرها وعلانيتها ﴿وَالإِثْمَ﴾ أى: شرب الخمر أو كل ذنب ﴿وَالْبَغْيَ﴾ والظلم والكبر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغى ومحل: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة النصب كأنه قال: حرم الفواحش وحرم الشرك. ينزل بالتخيف مكى وبصرى وفيه تهكم؛ إذ لا يجوز أن ينزل برهانا على أن يشرك به غيره ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وأن تتقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

---

(١) هو الخليفة العباسى الشهير: هارون الرشيد، ابن محمد المهدى بن المنصور، من أشهر خلفاء العصر العباسى الأول، استمرت خلافته أكثر من عشرين عامًا، توفى عام ١٩٣ هـ.
الأعلام (٨/ ٦٢).

(٢) على بن الحسين بن واقد، سبقت ترجمته عن تفسير سورة النساء، الآية (١٧١).

(٣)هذا من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب .

•• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، وهو وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قيد بساعة؛ لأنها أقل ما يستعمل فى الإمهال.

•• ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هى إن الشرطية ضمت إليها ما مؤكدة لمعنى الشرط؛ لأن ما للشرط ولذا لزمت فعلها النون الثقيلة، أو الخفيفة ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ يقرءون عليكم كتبى وهو فى موضع رفع صفة لرسل وجواب الشرط ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل منكم ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلا. فلا خوفَ يعقوب.

•• ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ منكم ﴿بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تعظموا عن الإيمان بها ﴿أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

•• ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ فمن أشنع ظلما ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقوَّل على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله ﴿أُوْلَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه وحتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له وهى حتى التى يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهى إذا جاءتهم رسلنا ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، وهو حال من الرسل أى متوفيهم وما فى ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ فى خط المصحف موصولة بأين وحقها أن تكتب مفصولة، لأنها موصولة، والمعنى: أين الآلهة الذين تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ليذبوا عنكم ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا فلا نراهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التى هى لتحقيق الخبر.

•• ﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أى يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار: ادخلوا ﴿فِي أُمَمٍ﴾ فى موضع الحال أى كائنين فى جملة أمم مصاحبين لهم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ من كفار الجن والإنس ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بادخلوا ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ شكلها فى الدين أى التى ضلت بالاقتداء بها ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ أصله: تداركوا أى: تلاحقوا واجتمعوا فى النار؛ فأبدلت التاءدالا وسكنت للإدغام، ثم أدخلت همزة الوصل ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ منزلة وهى الأتباع والسفلة ﴿لأُولاهُمْ﴾ منزلة وهى القادة والرءوس ومعنى لأولاهم: لأجل أولاهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضاعفا ﴿مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ للقادة بالغواية والإغواء، وللأتباع بالكفر والاقتداء ﴿وَلَٰكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. لا يعلمون أبو بكر أى: لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

●● ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة: لكل ضعف. أى: فقد ثبت أن لافضل لكم علينا وأنا متساوون فى استحقاق الضعف ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بكسبكم وكفركم، وهو من قول القادة للسفلة ولا وقف على فضل، أو من قول الله لهم جميعاً والوقف على فضل.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أى: لا يؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة. إذ هى فى السماء، أو لا يصعد لهم عمل صالح ولا تنزل عليهم البركة، أو لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء. وبالتاء مع التخفيف أبو عمرو. وبالياء معه حمزة وعلى ﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ حتى يدخل البعير فى ثقب الإبرة أى: لا يدخلون الجنة أبداً؛ لأنه علقه بما لا يكون والخياط والمخيط ما يخاط به وهو الإبرة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذى وصفنا ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أى الكافرين بدلالة التكذيب بآيات الله والاستكبار عنها.

●● ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية؛ جمع غاشية ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ طاقتها والتكليف: إلزام مافيه كلفة أى مشقة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ والخبر ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ والجملة خبر الذين، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض بين المبتدأ والخبر ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●● ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حقد كان بينهم فى الدنيا فلم يبق بينهم إلا التواد والتعاطف، وعن على ـ رضى الله عنه ـ: إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ حال من هم فى صدورهم، والعامل فيها معنى الإضافة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم وهو الإيمان ﴿وَمَا كُنَّا﴾ ـ ما كنا ـ بغير واو شامى على أنها جملة موضحة للأولى ﴿لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ اللام لتوكيد النفى أى وما كان يصح أن نكون مهتدين، لولا هداية الله، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فكان لطفا لنا وتنبيها على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سرورا بما نالوا وإظهارا لما اعتقدوا ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ أن مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف والجملة بعدها خبرها تقديره ونودوا بأنه تلكم الجنة، والهاء ضمير الشأن، أو بمعنى أى كأنه قيل لهم تلكم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتموها وهو حال من الجنة والعامل فيه ما فى تلك من معنى الإشارة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سماها ميراثا، لأنها لا تستحق بالعمل بل هى محض فضل الله وعده على الطاعات كالميراث من الميت ليس بعوض عن شىء بل هو صلة خالصة. وقال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ: إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر ونوحاً ـ عليه السلام ـ وأهل الجنة والنار وإبليس؛ لأنه قال

الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(١) وقال نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾(٢) وقال أهل الجنة: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا﴾(٣) وقال أهل النار: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾(٤). وقال إبليس: فبما أغويتني.

●● ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾ أن مخففة من الثقيلة، أو مفسرة وكذلك أن لعنة الله على الظالمين ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا﴾ حال ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا﴾ وتقديره: وعدكم ربكم، فحذف «كم» لدلالة «وعدنا ربنا» عليه وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار، واعترافا بنعم الله تعالى ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ وبكسر العين حيث كان على ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ نادى مناد،وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. أنَّ لعنة مكى وشامى وحمزة وعلى.

●● ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مفعول ثان ليبغون أى ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ﴾ بالدار الآخرة ﴿كَافِرُونَ﴾.

●● ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ وبين الجنة والنار، أو بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ وهو السور المذكور فى قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾(٥) ـ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ على أعراف الحجاب: وهو السور المضروب بين الجنة والنار وهى أعاليه، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿رِجَالٌ﴾ من أفاضل المسلمين، أو من آخرهم دخولا فى الجنة لاستواء حسناتهم وسيئاتهم، أو من لم يرض عنه أحد أبويه، أو أطفال المشركين ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من زمرة السعداء والأشقياء ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم. قيل: سيما المؤمنين: بياض الوجوه ونضارتها، وسيما الكافرين: سواد الوجوه وزرقة العيون ﴿وَنَادَوْا﴾ أى أصحاب الأعراف ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أنه سلام أو أى سلام، وهو تهنئة منهم لأهل الجنة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أى: أصحاب الأعراف، ولا محل له؛ لأنه استئناف كأن سائلا سأل أصحاب الأعراف، فقيل: لم يدخلوها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فى دخولها أوله محل وهو صفة لرجال.

●● ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أبصار أصحاب الأعراف، وفيه أن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيدوا ﴿تِلْقَاءَ﴾ ظرف أى ناحية ﴿أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه من العذاب ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فاستعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم معهم.

---

(١) سورة «النحل»، الآية (٩٣).
(٢) سورة «هود»، الآية (٣٤).
(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٤٣).
(٤) سورة «براهيم»، الآية (٢١).
(٥) سورة «الحديد»، الآية (١٣).

●● ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من رؤوس الكفرة ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ المال أو كثرتكم واجتماعكم، و«ما» نافية ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ واستكباركم على الحق وعلى الناس.

●● ثم يقولون لهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ﴾ خبر مبتدأ مضمر تقديره: أهؤلاء هم الذين ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ حلفتم فى الدنيا والمشار إليهم فقراء المؤمنين كصهيب وسليمان ونحوهما ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ جواب أقسمتم، وهو داخل فى صلة الذين تقديره أقسمتم عليهم بأن لا ينالهم الله برحمة أى: لا يدخلهم الجنة؛ يحتقرونهم لفقرهم فيقال لأصحاب الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وذلك بعد أن نظروا إلى الفريقين وعرفوهم بسيماهم، وقالوا ما قالوا ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

●● ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أن مفسرة وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من غيره من الأشربة لدخوله فى حكم الإفاضة، أو أريد أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة كقوله * علفتها تبناً وماءاً بارداً* [1] أى: وسقيتها، وإنما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة؛ لأن المتحير ينطق بما يفيد وبما لايفيد ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هو تحريم منع كما فى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾[2]. وتقف هنا إن رفعت أو نصبت ما بعده ذما، وإن جررته وصفاً للكافرين فلا.

●● ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرموا وأحلوا ما شاءوا، أو دينهم عيدهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ اغتروا بطول البقاء ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ نتركهم فى العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أى: كنسيانهم وجحودهم.

●● ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ ميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من منصوب فصلناه كما أن «على علم» حال من مرفوعه ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

●● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه، وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تركوه وأعرضوا عنه ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أى تبين وصح أنهم جاءوا بالحق فأقروا حين لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ جواب الاستفهام ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ جملة معطوفة على الجملة قبلها داخلة معها فى

(١) هذا عجز بيت من الشعر وصدره:

ولما حططت الرحل عنها وارداً.

(٢) سورة «القصص»، الآية (١٢).

حكم الاستفهام، كأنه قيل: فهل لنا من شفعاء؟! أو هل نرد؟! ورافعه وقوعه موقعا يصلح للاسم كقولك ـ ابتداءً ـ هل يضرب زيد؟! أو عطف على تقدير: هل يشفع لنا شافع؟! أو هل نرد؟! ﴿فَنَعْمَلَ﴾ جواب الاستفهام أيضا ﴿غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ما كانوا يعبدونه من الأصنام.

•• ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أراد السموات والأرض وما بينهما، وقد فصلها فى حم السجدة أى من الأحد إلى الجمعة، لاعتبار الملائكة شيئا فشيئا وللإعلام بالتأنى فى الأمور؛ ولأن لكل عمل يوما ولأن إنشاء شىء بعد شىء أدل على عالم مدبر مريد يصرِّفه على اختياره ويجريه على مشيئته ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ أضاف الاستيلاء إلى العرش وإن كان سبحانه وتعالى مستوليا على جميع المخلوقات؛ لأن العرش أعظمها وأعلاها وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة[1] باطل؛ لأنه تعالى كان قبل العرش ولا مكان وهو الآن كما كان لأن التغير من صفات الأكوان، والمنقول عن الصادق والحسن وأبى حنيفة ومالك ـ رضى الله عنهم ـ : أن الاستواء معلوم والتكييف فيه مجهول والإيمان به واجب والجحود له كفر والسؤال عنه بدعة. ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يغشّى حمزة وعلى وأبو بكر أى يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ حال من الليل أى سريعا، والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ أى: وخلق الشمس والقمر والنجوم ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حال أى مذللات والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامى والشمس مبتدأ والبقية معطوفة عليها والخبر مسخرات ﴿بِأَمْرِهِ﴾ هو أمر تكوين ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ أى: هو الذى خلق الأشياء وله الأمر ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ كثر خيره أو دام بره، من البركة: النماء، أو من البروك: الثبات ومنه البركة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

•• ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ نصب على الحال أى: ذوى تضرع وخفية والتضرع تفعل من الضراعة وهى الذل أى تذللا وتملقا. قال ـ عليه السلام ـ: «إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبا، إنما تدعون سميعا قريبا، إنه معكم أينما كنتم»[2]. عن الحسن: بين دعوة السر والعلانية سبعون ضعفا ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به فى كل شىء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج: الرافعين أصواتهم بالدعاء. وعنه: الصياح فى الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو الإسهاب فى

---

(١) المشبهة: فرقة من الفرق الضالة، أثبتت الصفات لله تعالى ولكنها بالغت إلى حد التشبيه بصفات المحدثات، وقالوا بجواز الانتقال والصعود والنزول والاستقرار والتمكن بالنسبة لله عزوجل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. (الملل والنحل).

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده.

الدعاء، وعن النبى (ﷺ): «سيكون قوم يعتدون فى الدعاء، وحسب المرء أن يقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل»(١). ثم قرأ: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

●● ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ أى: بالمعصية بعد الطاعة أو بالشرك بعد التوحيد، أو بالظلم بعد العدل ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ حالان أى خائفين من الرد طامعين فى الإجابة، أو من النيران، وفى الجنان، أو من الفراق وفى التلاق أو من غيب العاقبة وفى ظاهر الهداية، أو من العدل وفى الفضل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ذكر قريب على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف أى شىء قريب أو على تشبيهه بفعيل الذى هو بمعنى مفعول أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى، أو للإضافة إلى المذكر.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ الريح مكى وحمزة وعلى ﴿بُشْرًا﴾ نشرا حمزة وعلى مصدر نشر وانتصابه، إما لأن أرسل ونشر متقاربان فكأنه قيل: نشرها نشرا، وإما على الحال أى منشورات. بشرا عاصم تخفيف بشرا جمع بشير؛ لأن الرياح تبشر بالمطر، نشرا شامى تخفيف نشر كرسل ورسل، وهو قراءة الباقين جمع نشور أى ناشرة للمطر ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أمام نعمته وهو الغيث الذى هو من أجلّ النعم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت ورفعت واشتقاق الإقلال من القلة لأن الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلا ﴿سَحَابًا ثِقَالاً﴾ بالماء جمع سحابة ﴿سُقْنَاهُ﴾ الضمير للسحاب على اللفظ ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل: ثقيلا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ميْت - لأجل بلد ليس فيه مطر ولسقيه. ميِّت مدنى وحمزة وعلى وحفص ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ بالسحاب، أو بالسوق وكذلك ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤديكم التذكر إلى الإيمان بالبعث إذ لا فرق بين الإخراجين؛ لأن كل واحد منهما إعادة الشىء بعد إنشائه.

●● ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض الطيبة الترب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسنا وافيا؛ لأنه واقع فى مقابلة نكدا ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ صفة للبلد أى والبلد الخبيث ﴿لا يَخْرُجُ﴾ أى نباته فحذف للاكتفاء ﴿إِلاَّ نَكِدًا﴾ هو الذى لا خير فيه، وهذا مثل لمن ينجح فيه الوعظ، وهو المؤمن، ولمن لا يؤثر فيه شىء من ذلك، وهو الكافر، وهذا التمثيل واقع على إثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ نرددها ونكررها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله، وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها.

---

(١) رواه أبو داود فى سننه، والبيهقى فى الشعب.

•• ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف أى: والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجارا وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو اسم إدريس ـ عليه السلام ـ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ غيره على فالرفع على المحل، كأنه قيل مالكم إله غيره فلا تعبدوا معه غيره والجر على اللفظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان.

•• ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ أى: الأشراف والسادة ﴿مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بين فى ذهاب عن طريق الصواب، والرؤية رؤية القلب.

•• ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ ولم يقل ضلال، كما قالوا لأن الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ فى نفى الضلال عن نفسه كأنه قال: ليس بى شىء من الضلالة: ثم استدرك لتأكيد نفى الضلالة فقال: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن كونه رسولا من الله مبلغا لرسالاته فى معنى كونه فى الصراط المستقيم فكان فى الغاية القصوى من الهدى.

•• ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ ما أوحى إلى فى الأوقات المتطاولة، أو فى المعانى المختلفة من الأوامر والنواهى والمواعظ والبشائر والنظائر أبلغكم أبو عمرو، وهوكلام مستأنف بيان لكونه رسول رب العالمين ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأقصد صلاحكم بإخلاص يقال: نصحته ونصحت له وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وحقيقة النصح إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك، أو النهاية فى صدق العناية ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: من صفاته يعنى قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين.

•• ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل، أكذبتم وعجبتم ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ من أن جاءكم ﴿ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ على لسان رجل منكم أى من جنسكم، وذلك أنهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح ـ عليه السلام ـ ويقولون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾(١) يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾(٢) ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ليحذركم عاقبة الكفر ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ ولتوجد منكم التقوى، وهى الخشية بسبب الإنذار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

•• ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فنسبوه إلى الكذب ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وكانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة وقيل تسعة: بنوه سام وحام ويافث، وستة ممن آمن به ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ يتعلق بمعه، كأنه قيل: والذين

(١) سورة «المؤمنون»، الآية (٢٤).
(٢) سورة «فصلت»، الآية (١٤).

صحبوه فى الفلك ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق يقال: أعمى فى البصر وعمٍ فى البصيرة.

●● ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا إلى عاد وهو عطف على نوحا ﴿أَخَاهُمْ﴾ واحدا منهم من قولك يا أخا العرب للواحد منهم، وإنما جعل واحدا منهم، لأنهم عن رجل منهم أفهم فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان لأخاهم، وهو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وإنما لم يقل فقال كما فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ لأنه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال: يا قوم اعبدوا الله وكذلك.

●● ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وإنما وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؛ لأن فى أشراف قوم هود من آمن به منهم مرثد بن سعد فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن فى أشراف قوم نوح ـ عليه السلام ـ مؤمن ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فى خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر وجعلت السفاهة ظرفا مجازا يعنى أنه متمكن فيها غير منفك عنها ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فى ادعائك الرسالة.

●● ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ فيما ادعوكم إليه ﴿أَمِينٌ﴾ على ما أقول لكم، وإنما قال هنا وأنا لكم ناصح أمين لقولهم: وإنا لنظنك من الكاذبين؛ أى: ليقابل الاسم الاسم وفى إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من ينسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم أدب حسن وخلق عظيم، وإخبار الله تعالى ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم.

●● ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى: خلفتموهم فى الأرض، أو فى مساكنهم، وإذ مفعول به وليس بظرف أى: اذكروا وقت استخلافكم ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ طولاً وامتدادا فكان أقصرهم ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع. بصطة[1] حجازى وعاصم وعلى ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ فى استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواها من عطاياه، وواحد الآلاء: «إِلْيٌ» نحو إنى وآناء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

●● ومعنى المجىء فى ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ أن يكون لهود ـ عليه السلام ـ مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله (ﷺ) بحراء قبل المبعث، فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين

---

(١) أى: بصطة، تكتب صاداً، وتنطق سيناً: «بسطة».

الآباء فى اتخاذ الأصنام شركاء معه حبا لما نشئوا عليه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا.

•• ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ أى: قد نزل ﴿عَلَيْكُم﴾ جعل المتوقع الذى لابد من نزوله بمنزلة الواقع، كقوله لمن طلب إليك بعض المطالب قد كان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ﴾ سخط ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ فى أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات لأنكم تسمون الأصنام آلهة وهى خالية عن معنى الألوهية ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿فَانتَظِرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك.

•• ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أى من آمن به ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدابر الأصل أو الكائن خلف الشىء وقطع دابرهم استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فائدة نفى الإيمان عنهم مع إثبات التكذيب بآيات الله الإشعار بأن الهلاك خص المكذبين وقصتهم أن عادا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان وحضر موت وكانت لهم أصنام يعبدونها صداء وصمود والهباء، فبعث الله إليهم هودا فكذبوه، فأمسك القطر عنهم ثلاث سنين، وكانوا إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله الفرج منه عند بيته الحرام فأوفدوا إليه، قيل بن عنز ونعيم بن هزال ومرثد بن سعد ـ وكان يكتم إيمانه ـ بهود ـ عليه السلام ـ وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوز بن سام ابن نوح وسيدهم معاوية بن بكر فنزلوا عليه بظاهر مكة، فقال لهم مرثد: لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود فخلفوا مرثدا وخرجوا فقال قيل: اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك فاختار السوداء؛ على ظن أنها أكثر ماء، فخرجت على عاد من واد لهم فاستبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

•• ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وأرسلنا إلى ثمود وقرىء وإلى ثمود بتأويل الحى، أو باعتبار الأصل لأنه اسم أبيهم الأكبر ومنع الصرف بتأويل القبيلة، وقيل: سميت ثمود لقلة مائها من الثمد وهو الماء القليل وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوتى فكأنه قيل ما هذه البينة فقال: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ وهذه إضافة تخصيص وتعظيم لأنها بتكوينه تعالى بلا صلب ولا رحم ﴿لَكُمْ آيَةً﴾ حال من الناقة والعامل معنى الإشارة فى هذه كأنه قيل أشير إليها آية، ولكم بيان لمن هى له آية وهى ثمود لأنهم عاينوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أى: الأرض أرض الله والناقة ناقة الله فذروها تأكل فى أرض ربها من نبات ربها فليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ ولاتضربوها ولا تعقروها ولا تطردوها إكراما لآية الله ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهى ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

•• ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ ونزلكم، والمباءة المنزل ﴿فِي الأَرْضِ﴾ فى أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ غرفا للصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ للشتاء، وبيوتا حال مقدرة نحو خط هذا الثوب قميصا إذ الجبل لا يكون بيتا فى حال النحت ولا الثوب قميصا فى حال الخياطة ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. روى أن عادا لما أهلكت عمرت ثمود بلادها وخلفوها فى الأرض وعمروا أعمارا طوالا فنحتوا البيوت من الجبال خشية الانهدام قبل الممات، وكانوا فى سعة من العيش فعتوا على الله وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان؛ فبعث الله إليهم صالحا ـ وكانوا قوما عربا وصالح من أوسطهم نسبا ـ فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون فأنذرهم فسألوه أن يخرج من صخرة بينها ناقة عشراء[(١)] فصلى ودعا ربه فتمخضت تمخض النتوج[(٢)] بولدها فخرجت منها ناقة كما شاءوا فآمن به جندع ورهط من قومه.

•• ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وقال شامى ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ للذين استضعفهم رؤساء الكفار ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استضعفوا بإعادة الجار وفيه دليل على أن البدل حيث جاء كان فى تقدير إعادة العامل، والضمير فى منهم راجع إلى قومه، وهو يدل على أن استضعافهم كان مقصورا على المؤمنين، أو إلى الذين استضعفوا، وهو يدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ قالوه على سبيل السخرية ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وإنما صار هذا جوابا لهم؛ لأنهم سألوهم عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمرا معلوما مسلما، كأنهم قالوا: العلم بإرساله وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنما الكلام فى وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون.

•• ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ فوضعوا آمنتم به موضع أرسل به رداً لما جعله المؤمنون معلوما مسلماً.

•• ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم وإن كان العاقر قدار بن سالف؛ لأنه كان برضاهم وكان قدار أحمر أزرق قصيرا كما كان فرعون كذلك وقال ـ عليه السلام ـ: «يا على أشقى الأولين عاقر ناقة صالح وأشقى الآخرين قاتلك»[(٣)]. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولوا عنه واستكبروا

---

(١) ناقة عشراء: العُشَراء من النوق ونحوها: ما مضى على حملها عشرة أشهر. وجمعها : عشار، وفى القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾. (المعجم الوسيط: ٢/ ٦٠٢).

(٢) النتوج: الناقة؛ استبان حملها، أو حان نتاجها.

(المعجم الوسيط).

(٣) رواه النسائى، والحاكم والطبرى والبيهقى.

وأمر ربهم ما أمر به على لسان صالح ـ عليه السلام ـ من قوله: فذروها تأكل فى أرض الله، أو شأن ربهم، وهو دينه ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

•• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الصيحة التى زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ فى بلادهم أو مساكنهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ ميتين قعودا، يقال: الناس جثم أى قعود لاحراك بهم ولا يتكلمون.

•• ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ لما عقروا الناقة ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ﴾ عند فراقه إياهم ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ الآمرين بالهدى؛ لاستحلاء الهوى، والنصيحة منيحة تدرأ الفضيحة، ولكنها[1] وخيمة تورث السخيمة، روى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، فقال صالح: تعيشون بعده ثلاثة أيام تصفر وجوهكم أول يوم وتحمر فى الثانى وتسود فى الثالث، ويصيبكم العذاب فى الرابع وكان كذلك. روى أنه خرج فى مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكى، فلما علم أنهم هلكوا رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

•• ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أى: واذكر لوطا، وإذ بدل منه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ اتفعلون السيئة المتمادية فى القبح ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ ما عملها قبلكم والباء للتعدية، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ: «سبقك بها عكاشة»[2] ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ من ـ زائدة ـ لتأكيد النفى وإفادة معنى الاستغراق ﴿مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من للتبعيض وهذه جملة مستأنفة أنكر عليهم أولا بقوله أتأتون الفاحشة، ثم وبخهم عليها فقال أنتم أول من عملها، وقوله تعالى.

•• ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أئنكم لتأتون الرجال ـ بيان لقوله أتأتون الفاحشة، والهمزة مثلها فى أتأتون للإنكار. إنكم على الإخبار مدنى وحفص، يقال: أتى المرأة إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول له أى للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة، ولاذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمية ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى لا من النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التى توجب ارتكاب القبائح، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء، فمن ثم أسرفوا فى باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد.

•• ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أى لوطاً ومن آمن معه يعنى ما أجابوه بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط من إنكار الفاحشة ووصفهم بصفة الإسراف الذى هو أصل الشر، ولكنهم جاءوا بشىء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من

---

(١) الضمير يعود على الفضيحة.

(٢) هذا الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما.

المؤمنين من قريتهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يدَّعون الطهارة ويدعون فعلنا الخبيث، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عابوهم بما يتمدح به.

●● ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الباقين فى العذاب، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث ـ وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروى أنها التفتت فأصابها حجر فماتت.

●● ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وأرسلنا عليهم نوعا من المطر عجيباً، قالوا: أمطر الله عليهم الكبريت والنار، وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت حجارة على مسافريهم، وقال أبو عبيدة:[1] أمطر فى العذاب، ومطر فى الرحمة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

●● ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى مدين، وهو اسم قبيلة ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى معجزة وإن لم تذكر فى القرآن ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموهما والمراد فأوفوا الكيل ووزن الميزان أو يكون الميزان كالميعاد بمعنى المصدر ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن، وكانوا يبخسون الناس كل شىء فى مبايعتهم وبخس يتعدى إلى مفعولين وهما الناس وأشياءهم، تقول: بخست زيداً حقه أى نقصته إياه ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد الإصلاح فيها أى: لا تفسدوا فيها بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء وإضافته كإضافة ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[2] أى بل مكركم فى الليل والنهار ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان، وترك البخس والإفساد فى الأرض ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فى الإنسانية وحسن الأحدوثة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين لى فى قولى.

●● ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ بكل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ من آمن بشعيب بالعذاب ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن العبادة ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بالله، وقيل: كانوا يقطعون الطرق، وقيل: كانوا عشارين[3] ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ وتطلبون لسبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أى: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة؛ لتمنعوهم عن سلوكها، ومحل توعدون وما عطف عليه النصب على الحال، أى: لاتقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله وباغين عوجا ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ إذ مفعول به غير ظرف أى واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله ووفر عددكم، وقيل: إن مدين

(١) أبو عبيدة، هو معمر بن المثنى، عالم البلاغة، سبق ترجمته عند تفسير سورة البقرة ، الآية (٦٨).
(٢) سورة «سبأ»، الآية (٣٣).
(٣) عشارين: أى : كانوا يأخذون الأعشار من أموال الناس.

ابن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها بالبركة والنماء فكثروا ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمر، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ـ عليهم السلام.

●● ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى: بين الفريقين بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، أو هو حث للمؤمنين على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، أو هو خطاب للفريقين أى: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار الكافرون على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله، فيميز الخبيث من الطيب؛ لأن حكمه حق وعدل لا يخاف فيه الجور.

●● ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أى ليكونن أحد الأمرين؛ إما إخراجكم، وإما عودكم فى الكفر ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ الهمزة للاستفهام، والواو للحال تقديره أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا ومع كوننا كارهين قالوا: نعم، ثم قال شعيب.

●● ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾وهو قسم على تقدير حذف اللام أى: والله لقد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ خلصنا الله، فإن قلت: كيف قال شعيب إن عدنا فى ملتكم والكفر على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ محال؟ قلت: أراد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك؛ إجراء لكلامه على حكم التغليب ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما ينبغى لنا وما يصح ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلا أن يكون سبق فى مشيئته أن نعود فيها إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز أى هو عالم بكل شىء فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول قلوبهم كيف تتقلب ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فى أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أى احكم والفتاحة الحكومة والقضاء بالحق بفتح الأمر المغلق؛ فلذا سمى فتحا، ويسمى أهل عمان القاضى فتاحا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ كقوله: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾(1).

●● ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتباعه؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية وجواب القسم الذى وطأته اللام فى لئن اتبعتم، وجواب الشرط إنكم إذاً لخاسرون فهو ساد مسد الجوابين.

---

(1) الأعراف (87)، ويونس (109)، ويوسف (80).

●● ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ميتين.

●● ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها. غنى بالمكان أقام ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ لا من قالوا لهم إنكم إذاً لخاسرون، وفى هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا كأن لم يقيموا فى دارهم؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فهم الرابحون، وفى التكرار مبالغة واستعظام لتكذيبهم ولما جرى عليهم.

●● ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بعد أن نزل بهم العذاب ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ اشتد حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه فقال: كيف يشتد حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم مانزل بهم، أو أراد لقد أعذرت لكم فى الإبلاغ والتحذير مما حل بكم فلم تصدقونى فكيف آسى عليكم.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يقال لكل مدينة قرية وفيه حذف أى فكذبوه ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾ بالبؤس و الفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الضر والمرض لاستكبارهم عن اتباع نبيهم، أو هما نقصان النفس والمال﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ليتضرعون ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر .

●● ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء، والمحنة : الرخاء والسعة والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم من قولهم عفا النباب إذا كثر، و منه قوله ـ عليه السلام ـ «واعفوا اللحى»(١).

●● ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أى قالوا هذه عادة الدهر يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءَنا نحو ذلك، وما هو بعقوبة الذنب فكونوا على ما أنتم عليه ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾فجاة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

●● واللام فى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ إشارة إلى أهل القرى التى دل عليها، وما أرسلنا فى قرية من نبى ، كأنه قال ولو أن أهل تلك القرى الذين كانوا وأهلكوا ﴿آمَنُوا﴾ بدل كفرهم ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الشرك مكان ارتكابه ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ لفتحنا شامى ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أراد المطر والنبات، أو لآتيناهم بالخيْر من كل وجه ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الأنبياء ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكفرهم وسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام للجنس.

●● ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ يريد الكفار منهم ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ ليلا أى وقت بيات، يقال بات بياتا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

●● ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهارا والضحى فى الأصل ضوء الشمس إذا أشرقت والفاء والواو فى أفأمن وأو أمن حرفا عطف دخل عليهما همزة الإنكار والمعطوف عليه فأخذناهم بغتة، وقوله: ولو أن أهل القرى إلى يكسبون اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وإنما عطفت بالفاء؛ لأن المعنى فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسناد بياتا وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى أوْ أمن شامى وحجازى على العطف بأو والمعنى إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلا أو ضحى، فإن قلت: كيف دخل همزة الاستفهام على حرف العطف وهو ينافى الاستفهام؟ قلت: التنافى فى المفرد لا فى عطف جملة على جملة لأنه على استئناف جملة بعد جملة ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يشتغلون بما لايجدى عليهم.

●● ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ تكرير لقوله أفأمن أهل القرى ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ أخذه العبد من حيث لايشعر وعن الشبلى [(١)] ـ قدس الله روحه العزيزة ـ: مكره بهم تركه إياهم على ماهم عليه، وقالت ابنة الربيع ابن خثيم [(٢)] لأبيها: مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام قال: يابنتاه إن أباك يخاف البيات، أراد قوله: أن يأتيهم بأسنا بياتا ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إلا الكافرون الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا إلى النار.

●● ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أن لو نشاء مرفوع بأنه فاعل يهد، وأن مخففة من الثقيلة أى أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم فى ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين، وإنما عدى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنف أى ونحن نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الوعظ.

●● ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[(٣)] فى أنه مبتدأ وخبر وحال أو تكون القرى صفة تلك ونقص خبر، أو المعنى تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيء الرسل بالبينات ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ بما كذبوا من

---

(١) الشبلى: هو أحد العباد الزهاد، اختلف فى اسمه ونسبه، أصحها: دلف بن جحدر، ولكنه اشتهر، فى كتب الزهد والرّقائق بلقبه «الشبلى» كان واليًا، فترك الولاية، ليتفرغ للعبادة، ولد عام ٢٤٧هـ ، وتوفى عام ٣٣٤هـ.
الأعلام (٢/ ٣٤١).

(٢) هو سيد التابعين : الربيع بن خثيم بن عائذ، الثورى، أبو يزيد، الكوفى، تلميذ ابن مسعود، روى عنه، وعن بعض الصحابة، وروى عن النبى ﷺ مرسلاً، قال له ابن عباس: «والله لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك». قال ابن حبان فى الثقات: «أخباره فى الزهد والعبادة أشهر من أن يحتاج إلى الإغراق فى ذكره» توفى عام ٦١هـ ، وقيل: ٦٣هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ١٤٤).

(٣) سورة «هود»، الآية (٧٢).

آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولا حين جاءتهم الرسل أى استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين مع تتابع الآيات واللام لتأكيد النفى ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر.

●● ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ الضمير للناس على الإطلاق يعنى أن أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه فى الإيمان والآية اعتراض، أو للأمم المذكورين فإنهم كانوا إذا عاهدوا الله فى ضرر ومخافة لئن أنجيتنا لنؤمنن ثم أنجاهم نكثوا ﴿وَإِن﴾ وإن الشأن والحديث ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ لخارجين من الطاعة، والوجود بمعنى العلم بدليل دخول إن المخففة واللام الفارقة ولايجوز ذلك إلا فى المبتدأ والخبر والأفعال الداخلة عليهما .

●● ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم﴾ الضمير للرسل فى قوله: ولقد جاءتهم رسلهم أوللأمم ﴿مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بآياتنا أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١) أو فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن، أو لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلما حيث وضعوا الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ حيث صاروا مغرقين.

●● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ﴾ يقال لملوك مصر الفراعنة، كما يقال لملوك فارس الأكاسرة، وكأنه قال يا ملك مصر اسمه قابوس، أو الوليد بن مصعب بن الريان ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك قال فرعون كذبت فقال موسى.

●● ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أى أنا حقيق على قول الحق أى واجب على قول الحق أن أكون قائله والقائم به. حقيق عليّ نافع أى واجب عليّ ترك القول على الله إلا الحق أى الصدق، وعلى هذه القراءة تقف على العالمين، وعلى الأول يجوز الوصل على جعل حقيق وصف الرسول وعلى بمعنى الباء كقراءة أبي: أى إنى رسول خليق بأن لا أقول، أو يعلق على بمعنى الفعل في الرسول أى: إني رسول حقيق جدير بالرسالة أرسلت على أن لاأقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بما يبين رسالتى ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فخلهم يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدسة التى هى وطنهم. وذلك أن يوسف ـ عليه السلام ـ لما توفى غلب فرعون على نسل الأسباط واستعبدهم فأنقذهم الله بموسى ـ عليه السلام ـ وكان بين اليوم الذى دخل يوسف ـ عليه السلام ـ مصر واليوم الذى دخله موسى أربعمائة عام. معى حفص.

●● ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند من أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأتنى بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها.

---

(١) سورة «لقمان»، الآية (١٣).

●● ﴿ فَأَلْقَىٰ ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿ فَإِذَا هِيَ ﴾ إذا هذه للمفاجأة وهى من ظروف المكان بمنزلة ثمة وهناك ﴿ثُعْبَانٌ ﴾ حية عظيمة ﴿مُّبِينٌ ﴾ ظاهر أمره روى أنه كان ذكرا فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وحمل على الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا، فصاح فرعون: يا موسى خذه وأنا أؤمن بك، فأخذه موسى فعاد عصا.

●● ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ من جيبه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى فإذا هى بيضاء للنظارة ولاتكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضا عجيباً خارجاً عن العادة يجمع الناس للنظر إليه، روى أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه. فقال: يدك، ثم أدخلها فى جيبه ونزعها فإذا هى بيضاء غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى ـ عليه السلام ـ آدم شديد الأدمة[1] .

●● ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ عالم بالسحر ماهر فيه قد خيل إلى الناس العصا حية والآدم أبيض، وهذا الكلام قد عزى إلى فرعون فى سورة الشعراء وأنه قاله للملأ، وهنا عزى إليهم فيحتمل أنه قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله ثمة وقولهم هنا، أو قاله ابتداء فتلقنه منه الملأ فقالوه لأعقابهم.

●● ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ يعنى مصر ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون من آمرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى وهو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا له إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم.

●● ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء عاصم وحمزة أى أخر واحبس أى آخر أمره ولا تعجل، أو كأنه هم بقتله فقالوا: أخر قتله واحبسه ولاتقتله ليتبين سحره عند الخلق ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ جامعين.

●● ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ سحار حمزة وعلى أى يأتوك بكل ساحر عظيم مثله فى المهارة أو بخير منه.

●● ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ يريد فأرسل إليهم فحضروا ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على الخبر وإثبات الأجر العظيم حجازى وحفص، ولم يقل فقالوا لأنه على تقدير سؤال سائل ما قالوا إذ جاءوه، فأجيب بقوله: قالوا إن لنا لأجراً: لَجُعْلاً على الغلبة والتنكير للتعظيم كأنهم قالوا لابد لنا من أجر عظيم ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ .

●● ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ إن لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندى فتكونون أول من يدخل وآخر من يخرج، وكانوا ثمانين ألفا أو سبعين ألفاً أو بضعة وثلاثين ألفاً.

(١) الأدمة: هى السمرة ، ويقصد أن موسى ـ عليه السلام ـ شديد السُّمرة.

•• ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ لما معنا و فيه دلالة على أن رغبتهم في أن يلقوا قبله حيث أكد ضميرهم المتصل بالمنفصل وعرف الخبر .

•• ﴿قَالَ﴾لهم موسى ـ عليه السلام ـ ﴿أَلْقُوا﴾ تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه كما يفعل المتناظرون قبل أن يتحاوروا الجدال، وقد سوغ لهم موسى ما رغبوا فيه ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم، واعتمادا على أن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أروها بالحيل والشعوذة وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. روى أنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشبا طوالا فإذا هى أمثال الحيات قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضا ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهابا شديدا كأنهم استدعوا رهبهم بالحيلة ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ فى باب السحر أو فى عين من رآه.

•• ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ ـ تلقف ـ تبتلع تلقف حفص ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما موصولة أو مصدرية يعنى ما يأفكونه أى يقلبونه عن الحق إلى الباطل ويزوورونه، أو إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك: روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال، ورفعها موسى فرجعت عصا كما كانت وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت السحرة: لو كان هذا سحرا لبقيت حبالنا وعصينا.

•• ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فحصل وثبت ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ من السحر.

•• ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ أى: فرعون وجنوده والسحرة ﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾وصاروا أذلاء مبهوتين.

•• ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ وخروا سجدا لله كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا فكانوا أول النهار كفاراً سحرة وفى آخره شهداء بررة.

•• ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ هو بدل مما قبله .

•• ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ﴾ على الخبر حفص (١)، وهذا توبيخ منه لهم. وبهمزتين كوفى غير حفص فالأولى همزة الاستفهام ومعناه الإنكار والاستبعاد ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قبل إذنى لكم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ إن صنعكم هذا الحيلة احتلتموها أنتم وموسى فى مصر قبل أن تخرجوا إلى الصحراء لغرض لكم، وهو أن تخرجوا من مصر القبط وتسكنوا بنى إسرائيل ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعيد أجمله، ثم فصله بقوله .

•• ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ من كل شق طرفا ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو أول من قطع من خلاف (٢) وصلب.

•• ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾فلا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته، أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفروعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا .

---

(١) يعنى : آمنتم

(٢) من خلاف: هو قطع يد ورجل متخالفتين، أى: يد يمنى مع رجل يسرى، أو العكس.

●● ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا وما تعيب منا إلا هو أصل المناقب والمفاخر وهو الإيمان ومنه قوله [١]:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

●● ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: أصبب صبا ذريعا والمعنى: هب لنا صبرا واسعا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء إفراغا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام .

●● ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفر ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ عطف على ليفسدوا. قيل صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ويقولون: ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [٢]، ولذلك ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [٣] ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيبا للملإ ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ سنقتُل حجازى أى سنعيد عليهم قتل الأبناء ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر وأنهم مقهورون تحت أيدينا، كما كانو؛ ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذى تحدث المنجمون بذهاب ملكنا على يده فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه .

●● ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون سنقتل أبناءهم تسلية لهم، ووعدا بالنصر عليهم ﴿إِنَّ الأَرْضَ﴾ اللام للعهد أى أرض مصر، أو للجنس فيتناول أرض مصر تناولا أوليا ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فيه تمنيته إياهم أرض مصر ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط وأخليت هذه الجملة عن الواو؛ لأنها جملة مستأنفة بخلاف قوله: وقال الملأ لأنها معطوفة على ما سبقها من قوله قال الملأ من قوم فرعون.

●● ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبىء وإعادته عليهم بعد ذلك، وذلك اشتكاء من فرعون واستبطاء لوعد النصر ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده فى أرض مصر ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى الكائن منكم من

(١) الشعر من قصيدة للنابغة الذبيانى.

(٢) سورة «الزمر»، الآية (٣).

(٣) سورة «النازعات»، الآية (٢٤).

العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم وعن عمرو بن عبيد[1] أنه دخل على المنصور[2] قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان وطلب المنصور زيادة لعمرو فلم توجد فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك وقال قد بقى فينظر كيف تعملون .

●● ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ سنى القحط وهن سبع سنين والسنة من الأسماء الغالبة كالدابة والنجم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قيل السنون لأهل البوادى ونقص الثمرات للأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ليتعظوا فينبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر؛ ولأن الناس فى حال الشدة أضرع خدوداً وأرق أفئدة، وقيل عاش فرعون أربعمائة سنة لم ير مكروها فى ثلثمائة وعشرين سنة ولو أصابه فى تلك المدة وجع، أو جوع أو حمى لما أدعى الربوبية.

●● ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الصحة و الخصب ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى هذه التى نستحقها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب ومرض ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ أصله يتَّطيروا فأدغمت التاء فى الطاء؛ لأنها من طرف اللسان وأصول الثنايا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ تشاءموا بهم، وقالوا: هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا، وإنما دخل إذا فى الحسنة وعرفت الحسنة وإن فى السيئة ونكرت السيئة؛ لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأما السيئة فلاتقع إلا فى الندرة ولايقع إلا شىء منها ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾ سبب خيرهم وشرهم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ فى حكمه ومشيئته والله هو الذى يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾[3] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

●● ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أصل منهما ما ما فما الأولى للجزاء ضمت إليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء فى قولك متى ما تخرج أخرج أينما تكونوا فإما نذهبن بك، إلا أن الألف قلبت هاء استثقالا لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصرى، وهو فى موضع النصب بتأتنا أى أيما شىء تحضرنا تأتنا به، ومن آية تبيين لمهما والضمير فى به وبها راجع إلى مهما، إلا أن الأول ذكر على اللفظ والثانى أنث على المعنى؛ لأنها فى معنى الآية وإنما سموها آية اعتبارا لتسمية موسى، أو قصدوا بذلك الاستهزاء .

---

(١) هو: عمرو بن عبيد ، التميمى، شيخ بصرى، أرسل عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حديث: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم». وهو أحد رؤوس المعتزلة ، ومفتى المعتزلة فى عصره، ولد عام ٨٠هـ، وتوفى عام ١٤٤هـ.

تهذيب التهذيب (٤/ ٣٦٤)، والأعلام (٥/ ٨١).

(٢) المنصور: هو أمير المؤمنين ، عبد الله بن محمد بن على بن العباس، أبو جعفر المنصور، ثانى خلفاء العصر العباسى الأول، وهو جد هارون الرشيد، ولد عام ٩٥ هـ، وتوفى عام ١٥٨ هـ.

الأعلام (٤/١١٧).

(٣) سورة «النساء»، الآية (٧٨).

•• ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ ما طاف بهم وغلبهم من مطر أو سيل، قيل طفا الماء فوق حروثهم وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة لايرون شمسا ولاقمرا ولايقدر أحد أن يخرج من داره، وقيل: دخل الماء فى بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم فمن جلس غرق ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل من الماء قطرة، أو هو الجدرى أو الطاعون ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم وثمارهم وسقوف بيوتهم وثيابهم ولم يدخل بيوت بنى إسرائيل منها شىء ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وهى الدبى وهو أولاد الجراد قيل: نبات أجنحتها أو البراغيث أو كبار القردان[1]. ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ وكانت تقع فى طعامهم وشرابهم حتى إذا تكلم الرجل تقع فى فيه ﴿وَالدَّمَ﴾ أى الرعاف، وقيل: مياههم انقلبت دما حتى إن القبطى والإسرائيلى إذا اجتمعا على إناء فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء وما يلى القبطى دما، وقيل: سال عليهم النيل دما ﴿آيَاتٍ﴾ حال من الأشياء المذكورة ﴿مُّفَصَّلاتٍ﴾ مبينات ظاهرات لايشكل على عاقل أنها من آيات الله، أو مفرقات بين كل آيتين شهر ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

•• ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ العذاب الأخير، وهو الدم أو العذاب المذكور واحداً بعد واحد ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ما مصدرية أى بعهده عندك وهو النبوة والباء تتعلق بادع أى ادع الله لنا متوسلا إليه بعهد عندك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

•• ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ إلى حد من الزمان ﴿هُم بَالِغُوهُ﴾ لامحالة فمعذبون فيه لاينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب لما، أى فلما كشفنا عنهم فاجئوا النكث ولم يؤخروه .

•• ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ هو ضد الإنعام كما أن العقاب هو ضد الثواب ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو البحر الذى لايدرك قمره، أو هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم؛ لأن المنتفعين به يقصدونه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها.

••﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ هم بنو إسرائيل؛ كان يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ يعنى أرض مصر والشام ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة الأرزاق وكثرة الأنهار والأشجار ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[2] ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾[3] إلى ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[4]. والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة

(١) القردان: هو ما تساقط من الوبر أو الصوف. (انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٧٢٤).
(٢) سورة «الأعراف» الآية (١٢٩). (٣) سورة «القصص»، الآية (٥).
(٤) سورة «القصص»، الآية (٦).

وعلى صلة تمت أى مضت عليهم واستمرت من قولك تم على الأمر إذا مضى عليه ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارات وبناء القصور ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات أو ماكانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء كصرح هامان وغيره. وبضم الراء شامى وأبو بكر وهذا آخر قصة فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله، ثم أتبعه قصة بنى إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم من فرعون ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر من عبادة البقر وغير ذلك ليتسلى رسول الله ﷺ مما رآه من بنى إسرائيل بالمدينة.

●● ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ روى أنهم عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ماأهلك الله فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادتها، وكانت تماثيل بقر وبكسر الكاف حمزة وعلى ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ صنما نعكف عليه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أصنام يعكفون عليها وما كافة للكاف؛ ولذلك وقعت الجملة بعدها قال يهودى لعلى ـ رضى الله عنه ـ : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه فقال: قلتم: اجعل لنا إلها ولم تجف أقدامكم ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تعجب من قولهم على أثر مارأوا من الآية العظمى فوصفهم بالجهل المطلق وأكده .

●● ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعنى عبدة تلك التماثيل ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك من التبار ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أى يتبر الله ويهدم دينهم الذى هم عليه على يدى وفى إيقاع هؤلاء اسما لأن، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها، واسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار وأنه لايعدوهم ألبتة ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: ما عملوا من عبادة الأصنام باطل مضمحل.

●● ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أى أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودا ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حال أى على عالمى زمانكم .

●● ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أنجاكم شامى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يبغونكم شدة العذاب من سام السلعة، إذا طلبها وهو استئناف لامحل له أو حال من المخاطبين، أو من آل فرعون ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يقتُلون نافع ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أى فى الإنجاء أو فى العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ نعمة أو محنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

●● ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ لإعطاء التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ روى أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما ـ وهى شهر ذى القعدة ـ فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فتسوك فأوحى الله إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من

ريح المسك فأمره أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ ما وقت له من الوقت وضربه له ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال أى تم بالغا هذا العدد ولقد أجمل ذكر الأربعين فى البقرة وفصلها هنا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ هو عطف بيان لأخيه ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتى فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ مايجب أن يصلح من أمور بنى إسرائيل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولاتطعه.

•• ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ لو قتنا الذى وقتنا له وحددنا ومعنى اللام الاختصاص أى اختص مجيئه لميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة ولاكيفية. وروى أنه كان يسمع الكلام من كل جهة وذكر الشيخ [1] فى التأويلات أن موسى ـ عليه السلام ـ سمع صوتا دالا على كلام الله تعالى وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتا تولى تخليقه من غير أن أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق وغيره يسمع صوتا مكتسبا للعباد فيفهم منه كلام الله تعالى فلما سمع كلامه طمع فى رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ثانى مفعولى أرنى محذوف أى أرنى ذاتك أنظر إليك يعنى مكنى من رؤيتك بأن تتجلى لى حتى أراك أرْنى مكى، وبكسر الراء مختلسة أبو عمرو، وبكسر الراء مشبعة غيرهما، وهو دليل لأهل السنة على جواز الرؤية فإن موسى ـ عليه السلام ـ أعتقد أن الله تعالى يرى حتى سأله واعتقاد جواز مالا يجوز على الله كفر ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ بالسؤال بعين فانية بل بالعطاء والنوال بعين باقية وهو دليل لنا أيضاً ، لأنه لم يقل لن أرى ليكون نفيا للجوار، ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئى، إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ بقى على حاله ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ وهو دليل لنا أيضاً لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل وهوممكن وتعليق الشىء بماهو ممكن يدل على إمكانه، كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه والدليل على أنه ممكن قوله جعله دكا، ولم يقل اندك وما أوجده تعالى كان جائزا أن لايوجد لو لم يوجده؛ لأنه مختار فى فعله ولأنه تعالى ماآيسه عن ذلك ولاعاتبه عليه ولو كان ذلك محالا لعاتبه كما عاتب نوحاً ـ عليه السلام ـ بقوله : ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2] . حيث سأل إنجاء ابنه من الغرق ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أى ظهر وبان، ظهوراً بلا كيف قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله ـ معنى التجلى للجبل ما قاله الأشعرى إنه تعالى خلق فى الجبل حياة وعلما ورؤية حتى رأى ربه وهذا نص فى إثبات كونه مرئياً، وبهذه الوجوه يتبين جهل منكرى الرؤية وقولهم بأن موسى ـ عليه السلام ـ كان عالما بأنه لايرى ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [3] فطلب

---

(١) الشيخ: يقصد به أبو منصور الماتريدى ، صاحب كتاب «التأويلات» وسبق ترجمته عند تفسير سورة «البقرة»، الآية (٧).

(٢) سورة «هود»، الآية (٤٦). (٣) سورة «البقرة»، الاية (٥٥).

الرؤية ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئى باطل (*) إذ لو كان كما زعموا لقال أرهم ينظروا إليك، ثم يقول له لن يرونى؛ ولأنها لو لم تكن جائزة لما أخر موسى ـ عليه السلام ـ الرد عليهم بل كان يرد عليهم وقت قرع كلامهم سمعه لما فيه من التقرير على الكفر وهو ـ عليه السلام ـ بعث لتغييره لا لتقريره ألا ترى أنهم لما قالوا له اجعل لنا إلها كما لهم آلهة لم يمهلهم بل رد عليهم من ساعته بقوله : «إنكم قوم تجهلون» ﴿ **جَعَلَهُ دَكًّا** ﴾ مدكوكا مصدر بمعنى المفعول ، كضرب الأمير والدق والدك أخوان. دكاء حمزة وعلى، أى: مستوية بالأرض لا أكمة فيها وناقة دكاء لاسنام لها ﴿**وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾ حال أى: سقط مغشيا عليه ﴿**فَلَمَّا أَفَاقَ**﴾ من صعقته ﴿**قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾ من السؤال فى الدنيا ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ بعظمتك وجلالك وبأنك لاتعطى الرؤية فى الدنيا مع جوازها، وقال الكعبى (١) والأصم (٢) : معنى قوله أرنى أنظر إليك أرنى آية أعلمك بها بطريق الضرورة كأنى أنظر إليك «لن ترانى» لن تطيق معرفتى بهذه الصفة، ولكن انظر إلى الجبل فإنى أظهر له آية فإن ثبت الجبل لتجليها واستقر مكانه فسوف تثبت لها وتطيقها، وهذا فاسد؛ لأنه قال: أرنى أنظر إليك ولم يقل إليها، وقال: لن ترانى ولم يقل لن ترى آيتى وكيف يكون معناه لن ترى آيتى وقد أراه أعظم الآيات حيث جعل الجبل دكا .

●● ﴿ **قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ**﴾ اخترتك على أهل زمانك ﴿ **بِرِسَالاتِي** ﴾ هى أسفار التوراة برسالتى حجازى ﴿**وَبِكَلامِي**﴾ وبتكليمى إياك ﴿**فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ**﴾ أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿**وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ على النعمة فى ذلك فهى من أجل النعم، قيل : خر موسى صعقا يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر، ولما كان هارون وزيرا وتابعا لموسى تخصص الاصطفاء بموسى عليه السلام.

●● ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ**﴾ الألواح التوراة جمع لوح وكانت عشرة ألواح وقيل: سبعة وكانت من زمرد و قيل من خشب تنزلت من السماء فيها التوراة ﴿**مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ فى محل النصب على أنه مفعول كتبنا ﴿**مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ بدل منه والمعنى كتبنا له كل شىء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه فى دينهم من المواعظ، وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهى سبعون وقر(٣) بعير لم يقرأها كلها إلا أربعة نفر موسى ويوشع وعزير وعيسى ﴿**فَخُذْهَا**﴾ فقلنا له خذها عطفا على كتبنا، والضمير للألواح، أو لكل شىء لأنه فى معنى الأشياء ﴿**بِقُوَّةٍ**﴾ بجد وعزيمة فعل أولى

(*) باطل: يقصد قول قوم موسى، عليه السلام.

(١) الكعبى: هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبى البلخى، رأس من رؤوس المعتزلة، وإليه تنتمى فرقة الكعبية.

(٢) الأصم: هو محمد بن يعقوب بن يوسف، أبو العباس الأصم، محدث من أهل نيسابور، ولد عام ٢٤٧ هـ وتوفى عام ٣٤٦هـ (الأعلام ٧/ ١٤٥).

(٣) وقر، أى: «حِمْل».

العزم من الرسل ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أى: فيها ما هو حسن وأحسن كالقصاص والعفو والانتصار والصبر فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل فى الحسن وأكثر للثواب كقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾[1] ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ دار فرعون وقومه وهى مصر ومنازل عاد وثمود والقرون المهلكة كيف أقفرت منهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم، فينكّل بكم مثل نكالهم، أوجهنم.

●● ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ عن فهمها، قال ذو النون ـ قدس الله روحه ـ :أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يتطاولون على الخلق ويأنفون عن قبول الحق . وحقيقته التكلف للكبرياء التى اختصت بالبارى عزت قدرته ﴿ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ هو حال أى يتكبرون غير محقين؛ لأن التكبر بالحق لله وحده ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ طريق صلاح الأمر وطريق الهدى . الرَّشد حمزة وعلى وهما كالسقم والسقم ﴿ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ ومحل ﴿ذَلِكَ﴾ الرفع أى ذلك الصرف ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض لاغفلة سهو وجهل .

●● ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى المفعول به أى: ولقائهم الآخر ومشاهدتهم أحوالها ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ خبر والذين ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهو تكذيب الأحوال بتكذيب الإرسال.

●● ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ من بعد ذهابه إلى الطور ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ وإنما نسبت إليهم مع أنها كانت عوارى[2] فى أيديهم؛ لأن الإضافة تكون لأدنى ملابسة و فيه دليل على أن من حلف أن لايدخل دار فلان فدخل دارا استعارها يحنث، على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم، وفيه دليل على أنَّ الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها. نعم المتخذ هو السامرى ولكنهم رضوا به فأسند الفعل إليهم،والحلى: جمع حلى وهو اسم ما يتحسن به من الذهب والفضة حِليهم حمزة وعلى للإتباع ﴿عِجْلاً﴾ مفعول اتخذ ﴿ جَسَدًا﴾ بدل منه أى بدنا ذا لحم ودم كسائر الأجساد ﴿ لَّهُ خُوَارٌ ﴾هو صوت البقر والمفعول الثانى محذوف أى إلها ثم عجب من عقولهم السخيفة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا ﴾حين اتخذوه إلها ﴿أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ لايقدر على كلام وعلى هداية سبيل حتى لايختاروه على من لو كان البحر مداد لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته، وهو الذى هدى الخلق إلى سبيل الحق بما ركز فى العقول من الأدلة: وبما أنزل فى الكتب، ثم ابتدأ فقال: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلها فأقدموا على هذا المنكر ﴿ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾.

(١) سورة «الزمر»، الآية (٥٥).

(٢) العوارى: جمع عارية، وهو ما يتداولونه بينهم.
(القاموس: ٢/ ٩٧).

•• ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل، وأصله أن من شأن من اشتد ندمه أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها ؛ لأن فاه وقع فيها وسقط مسند إلى فى أيديهم، وهو من باب الكناية، وقال الزجاج: معناه سقط الندم فى أيديهم أى فى قلوبهم وأنفسهم، كما يقال حصل فى يده مكروه، وإن استحال أن يكون في اليد تشبيها لما يحصل فى القلب، وفى النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ وتبينوا ضلالهم تبينا كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا حمزة وعلى وانتصاب ربنا على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين فى الدنيا والآخرة.

•• ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ من الطور ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ بنى إسرائيل ﴿غَضْبَانَ﴾ حال من موسى ﴿أَسِفًا﴾ حال أيضاً أى حزينا ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي ﴾ قمتم مقامى وكنتم خلفائى ﴿مِن بَعْدِي﴾ والخطاب لعبدة العجل من السامرى وأشياعه، أو لهارون ومن معه من المؤمنين، ويدل عليه قوله: اخلفنى فى قومى، والمعنى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله، وفاعل بئس مضمر يفسره ما خلفتمونى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم ومعنى من بعدى بعد قوله: خلفتمونى من بعد ما رأيتم منى من توحيد الله ونفى الشركاء عنه، أو من بعد ما كنت أحمل بنى إسرائيل على التوحيد وأكفهم عن عبادة البقرة حين قالوا: أجعل لنا إلها كما لهم آلهة، ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أسبقتم بعبادة العجل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو إتيانى لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة وأصل العجلة طلب الشيء قبل حينه. وقيل : عجلتم بمعنى تركتم ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ ضجرا عند استماعه حديث العجل غضبا لله، وكان فى نفسه شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانبا؛ ولذلك كان أحب إلى بنى إسرائيل من موسى فتكسرت فرفعت ستة أسباعها وبقى سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقى هدى ورحمة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ بشعر رأسه غضبا عليه حيث لم يمنعهم عن عبادة العجل ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ عتابا عليه لاهوانا به، وهو حال من موسى ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ بنى الابن مع الأم على الفتح كخمسة عشر، وبكسر الميم حمزة وعلى شامى؛ لأن أصله أمى فحذف الياء اجتزاء عنها بالكسرة وكان ابن أمه وأبيه وإنما ذكر الأم؛ لأنها كانت مؤمنة، ولأن ذكرها أدعى إلى العطف ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ أى: إنى لم آل جهدا فى كفهم بالوعظ والإنذار ولكنهم استضعفونى وهموا بقتلى ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾ الذين عبدوا العجل أى: لا تفعل بى ما هو أمنيتهم من الاستهانة بى والإساءة إلى ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: قرينًا لهم بغضبك على، فلما اتضح له عذر أخيه.

•• ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾ ليرضى أخاه وينفى الشماتة عنه بإشراكه معه فى الدعاء، والمعنى: اغفر لى ما فرط منى فى حق أخى، ولأخى إن كان فرط فى حسن الخلافة ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ عصمتك فى الدنيا وجنتك فى الآخرة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

•• ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ﴾ إلها ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ هو ما أمروا به من قتل

أنفسهم توبة ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ خروجهم من ديارهم فالغربة تذل الأعناق أو ضرب الجزية عليهم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين على الله ولا فرية أعظم من قول السامرى ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ (١).

•• ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ رجعوا إلى الله ﴿مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أى: السيئات أو التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ منعم عليهم بالجنة، وإن مع اسمها وخبرها خبر الذين وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم عظم جنايتهم أولا، ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم، ولما كان الغضب لشدته كأنه هو الآمر لموسى بما فعل قيل.

•• ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ وقال الزجاج: معناه سكن وقرىء به ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التى ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ وفيما نسخ منها أى كتب فعلة بمعنى مفعول كالخطبة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول وضعف عمل الفعل فيه باعتباره.

•• ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أى من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ قيل اختار من اثنى عشر سبطا من كل سبط ستة فبلغوا اثنين وسبعين رجلا، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فقعد كالب ويوشع ﴿لِّمِيقَاتِنَا﴾ لاعتذارهم عن عبادة العجل ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل ﴿وَإِيَّايَ﴾ لقتلى القبطى ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهال منا وهم أصحاب العجل ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ابتلاؤك وهو راجع إلى قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ﴾(٢) فقال موسى: هى تلك الفتنة التى أخبرتنى بها أو هى ابتلاء الله تعالى عباده بما شاء، ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٣) ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ بالفتنة ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من علمت منهم اختيار الضلالة ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من علمت منهم اختيار الهدى ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مولانا القائم بأمورنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

•• ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ وأثبت لنا واقسم﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ عاقبة وحياة طيبة وتوفيقا فى الطاعة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك وهاد إليه يهود، إذا رجع وتاب، والهود جمع هائد وهو التائب ﴿قَالَ عَذَابِي﴾ من صفته أنى ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أى لا أعفو عنه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى: من صفة رحمتى أنها واسعة تبلغ كل شىء ما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمتى فى الدنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أى: هذه الرحمة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك من أمة محمد ﷺ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ بجميع كتبنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لايكفرون بشىء منها.

---

(١) سورة «طه»، الآية (٨٨).
(٢) سورة «طه»، الآية (٨٥).
(٣) سورة «الأنبياء»، الآية (٣٥).

●● ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الذى نوحى إليه كتابا مختصا به وهو القرآن ﴿النَّبِيَّ﴾ صاحب المعجزات ﴿الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أى: يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بنى إسرائيل ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ بخلع الأنداد وإنصاف العباد ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عبادة الأصنام وقطيعة الأرحام ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ ماحرم عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ماطاب فى الشريعة مما ذكر اسم عليه من الذبائح وما خلال كسبه من السحت ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ ما يستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به أو ماخبث فى الحكم كالربا والرشوة ونحوهما من المكاسب الخبيثة ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ هو الثقل الذى يأصر صاحبه أى: يحبسه عن الحراك لثقله والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس فى توبتهم وقطع الأعضاء الخاطئة. آصارهم شامى على الجمع ﴿وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ هى الأحكام الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمدا كان، أو خطأ من غيرشرع الدية، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت،وشبهت بالغُل للزومها لزوم الغل ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه أو منعوه من العدو حتى لايقوى عليه عدو وأصل العزر المنع ومنه التعزير؛ لأنه منع عن معاودة القبيح كالحد فهو المنع ﴿ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ أى: القرآن ومع متعلق باتبعوا أى: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى والعمل بسنته ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بكل خير والناجون من كل شر.

●● ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد ـ ﷺ ـ إلى كافة الإنس: كافة الجن﴿ جَمِيعًا﴾ حال من إليكم ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فى محل النصب بإضمار أعنى وهو نصب على المدح ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بدل من الصلة وهى له ملك السماوات والأرض وكذلك ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وفى لا إله إلا هو بيان للجملة قبلها؛ لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة، وفى يحيى ويميت بيان لاختصاصه بالإلهية، إذ لايقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ أى: الكتب المنزلة ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ولم يقل فآمنوا بالله وبى بعد قوله: ﴿ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾(١) لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه، ولما فى الالتفات من مزية البلاغة؛ وليعلم أن الذى وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائنا من كان أنا أو غيرى إظهارا للنصفة وتفاديا من العصبية لنفسه.

●● ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ أى: يهدون الناس محقين، أو بسبب الحق الذى هم عليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم لايجورون، قيل: هم قوم وراء الصين آمنوا بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليلة المعراج، أو هم عبدالله بن سلام وأضرابه.

---

(١) سورة «الصف» الآية (٥) ، والآية (٦).

•• ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ وصيرناهم قطعا أى: فرقا، وميزنا بعضهم من بعض ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ كقولك: اثنتى عشرة قبيلة والأسباط، أولاد الولد جمع سبط وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدًا من ولد يعقوب- عليه السلام-. نعم مميز ما عدا العشرة مفرد فكان ينبغى أن يقال: اثنى عشر سبطا لكن المراد وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط لاسبط فوضع أسباط موضع قبيلة ﴿أُمَمًا﴾ بدل من اثنتى عشرة أى وقطعناهم أمما؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة، وكل واحدة كانت تؤم خلال ماتؤمه الأخرى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضرب ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ فانفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ هو اسم جمع غير تكسير ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ وجعلناه ظليلا عليهم فى التيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وقلنا لهم: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أى: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

•• ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ واذكر إذ قيل لهم ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ تغفر لكم مدنى وشامى خطيئاتكم مدنى، خطاياكم أبو عمرو خطيئتكم شامى ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

•• ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ولاتناقض بين قوله اسكنوا هذه القرية وكلوا منها فى هذه السورة وبين قوله فى سورة البقرة ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ (١) لوجود الدخول والسكنى وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون بينهما، ترك ذكر الرغد لايناقض إثباته، وقوله: «نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين» موعد بشيئين بالغفران وبالزيادة وطرح الواو لايخل بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على قول القائل: وماذا بعد الغفران؟!، فقيل له: سنزيد المحسنين وكذلك زيادة منهم زيادة بيان وأرسلنا وأنزلنا ويظلمون ويفسقون من واد واحد.

•• ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ وأسأل اليهود ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ أيلة، أو مدين وهذا السؤال للتقريع بقديم كفرهم ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قريبة منه ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ إذ يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم فى يومَ السبت وقد نهوا عنه، إذ يعدون فى محل الجر بدل من القرية، والمراد بالقرية أهلها، كأنه قيل: وأسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم فى السبت، وهو من بدل الاشتمال ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بيعدون أو بدل بعد بدل ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ جمع حوت أبدلت الواو ياء لسكونها وإنكسار ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان، والسبت مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعبد، والمعنى؛ إذ يعدون فى

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٥٨).

تعظيم هذا اليوم وكذا قوله: «يوم سبتهم» معناه يوم تعظيمهم أمر السبت ويدل عليه **﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾** ويوم ظرف لاتأتيهم **﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾** مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بفسقهم .

●● **﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾** معطوف على إذ يعدون وحكمه كحكمه فى الإعراب **﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾** جماعة من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلول فى موعظتهم لآخرين لايقلعون عن وعظهم **﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾** وإنما قالوا ذلك ، لعلمهم أن الوعظ لاينفع فيهم **﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾** ـ معذرةٌ ـ أى موعظتنا إبلاء عذر إلى الله لئلا ننسب فى النهى عن المنكر إلى التفريط. معذرةً حفص على أنه مفعول له، أى وعظناهم للمعذرة **﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** ولطمعنا فى أن يتقوا.

●● **﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾** أى: أهل القرية لما تركوا **﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾** ماذكرهم به الصالحون ترك الناسى لما ينساه **﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾** من العذاب الشديد **﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** الراكبين للمنكر، والذين قالوا: لم تعظون من الناجين، فعن الحسن نجت فرقتان وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان **﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾** شديد يقال بؤس يبؤس بأساً إذا اشتد فهو بئيس. بئس شامى، بيس مدنى، بيئس على وزن فيعل أبو بكر غير حماد **﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾**.

●● **﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾** أى جعلناهم قردة أذلاء مبعدين ، وقيل: فلما عتوا تكرير لقوله فما نسوا، والعذاب البئيس: هوالمسخ، قيل : صار الشبان قردة والشيوخ خنازير، وكانوا يعرفون أقاربهم ويبكون ولا يتكلمون، والجمهور على أنها ماتت بعد ثلاث، وقيل: بقيت وتناسلت .

●● **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾** أى: أعلم وأجرى مجرى فعل القسم؛ ولذا أجيب بما يجاب به القسم وهو قوله **﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾** أى: كتب على نفسه ليسلطن على اليهود **﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ﴾** من يوليهم **﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾** فكانوا يؤدون الجزية إلى المجوس إلى أن بعث محمد ﷺ فضربها عليهم فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾** للكفار **﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** للمؤمنين.

●● **﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** وفرقناهم فيها فلا تخلو بلد عن فرقة **﴿أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾** الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين **﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾** ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه وهم الفسقة ومحل دون ذلك الرفع وهو صفة لموصوف محذوف، أى: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح **﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾** بالنعم والنقم والخصب والجدب **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** ينتهون فينيبون.

•• ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين ﴿ خَلْفٌ ﴾ وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله ﷺ، والخَلْفُ بدل السوء بخلاف الخَلَفِ فهو الصالح ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة ووقفوا على ما فيها من الأوامر والنواهى والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ﴾ هو حال من الضمير فى ورثوا، والعرض: المتاع أى: حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وهو من الدنو بمعنى القرب؛ لأنه عاجل قريب، والمراد ماكانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام على تحريف الكلم، وفى قوله: «هذا الأدنى» تخسيس وتحقير ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لايؤاخذنا الله بما أخذنا والفعل مسند إلى الأخذ، أو إلى الجار المجر ورأى لنا ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ الواوللحال أى يرجون المغفرة، وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أى الميثاق المذكور فى الكتاب ﴿ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ أى أخذ عليهم الميثاق فى كتابهم : لايقولوا على الله إلا الصدق، وهو عطف بيان لميثاق الكتاب ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ وقرءوا ما فى الكتاب وهو عطف على ألم يؤخذ عليهم؛ لأنه تقرير فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس ﴿ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الرشا والمحارم ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا يعقلون ـ أنه كذلك وبالتاء مدنى وحفص.

•• ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ يمسكون أبو بكر والإمساك والتمسيك والتمسك الاعتصام والتعلق بشيء ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ خص الصلاة مع أن التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، لأنها عماد الدين والذين مبتدأ والخبر ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ أى: إنا لانضيع أجرهم وجاز أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون، وإنا لانضيع اعتراض.

•• ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾ واذكروا إذ قلعناه ورفعناه كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ (١) ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ هى كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رءوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخافى فرسخ، وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه؛ فلذلك لا ترى يهوديا يسجد على حاجبه الأيسر، ويقولون: هى السجدة التى رفعت عنابها العقوبة، وقلنا لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ ﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهى ولاتنسوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ماأنتم عليه.

•• ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ أى: واذكر إذ أخذ ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ﴾بدل من بنى آدم والتقدير: وإذا أخذ ربك من ظهور بنى آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلاب آبائهم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ هذا من باب

(١) سورة «البقرة» الآية (٦٣) ، والآية (٩٣).

التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم، وقال لهم: ألست بربكم؟! وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك ﴿أَن تَقُولُوا ﴾ مفعول له: أى فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول كراهة أن يقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾لم ننبه عليه.

●● ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ أو كراهة أن يقولوا: ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم فلا عذر لهم فى الإعراض عنه والاقتداء بالآباء، كما لا عذر لآبائهم فى الشرك وأدلة التوحيد منصوبة لهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى: كانوا السبب فى شركنا لتأسيسهم الشرك وتركه سنة لنا.

●● ﴿ وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ لهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم نفصلها، إلى هذا ذهب المحققون من أهل التفسير منهم الشيخ أبو منصور والزجاج والزمخشرى. وذهب جمهور المفسرين إلى أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر وأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله: ألست بربكم؟! فأجابوه ببلى ـ قالوا وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :أخرج الله من ظهر آدم ذريته وأراه إياهم كهيئة الذر، وأعطاهم العقل وقال: هؤلاء ولدك آخذ عليهم الميثاق أن يعبدونى ، قيل كان ذلك قبل دخول الجنة بين مكة والطائف، وقيل: بعد النزول من الجنة، وقيل فى الجنة والحجة للأولين أنه قال من بنى آدم من ظهورهم، ولم يقل من ظهر آدم؛ ولأنا لانتذكر ذلك فأنى يصير حجة. ذرياتهم مدنى وبصرى وشامى أن تقولوا، أو تقولوا أبو عمرو.

●● ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ على اليهود ﴿نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ هو عالم من علماء بنى إسرائيل وقيل هو بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين الكافرين، روى أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى فلم يزالوا به حتى فعل، وكان عند اسم الله الأعظم.

●● ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿بِهَا﴾ بتلك الآيات ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا ورغب فيها ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ فى إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أى: تزجره وتطرده ﴿يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ ﴾ غير مطرود﴿يَلْهَثْ﴾ والمعنى فصفته التى هى مثل فى الخسة والضعة كصفة الكلب فى أخس أحواله وأذلها، وهى حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أى شد عليه وهيج فطرد، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه وذلك أن سائر الحيوان لايكون منه اللهث إلا إذا حرك ، أما الكلب فيلهث فى الحالين فكان

مقتضى الكلام أن يقال ولكنه أخلد إلى الأرض فحططناه ووضعنا منزلته فوضع هذا التمثيل موضع فحططناه أبلغ حط. ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال، كأنه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى خرج لسانه فوقع على صدره جعل يلهث كما يلهث الكلب، قيل: معناه هو ضال وعظ أو ترك، عن عطاء من علم ولم يعمل فهو كالكلب ينبح إن طرد أو ترك ﴿ ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ من اليهود بعد أن قرءوا نعت رسول الله ﷺ فى التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ أى: قصص بلعم الذى هو نحو قصصهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته.

●● ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: مثل القوم فحذف المضاف وفاعل ساء مضمر أى ساء المثل مثلا، وانتصاب مثلاً على التمييز ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ معطوف على كذبوا فيدخل فى حيز الصلة أى الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم، أو منقطع عن الصلة أى، وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص أى وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعد إلى غيرها.

●● ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى ﴾ حمل على اللفظ ﴿وَمَن يُضْلِلْ ﴾ أى: ومن يضلله ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حمل على المعنى، ولو كان الهدى من الله البيان، كما قالت المعتزلة لاستوى الكافر والمؤمن إذ البيان ثابت فى حق الفريقين فدل أنه من الله تعالى التوفيق والعصمة والمعونة، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن.

●● ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ هم الكفار من الفريقين المعرضون عن تدبر آيات الله والله تعالى علم منهم اختيار الكفر فشاء منهم الكفر وخلق فيهم ذلك، وجعل مصيرهم جهنم لذلك. ولاتنافى بين هذا وبين قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١) لأنه إنما خلق منهم للعبادة من علم أنه يعبده، وأمامن علم أنه يكفر به فإنما خلقه لما علم أنه يكون منه فالحاصل أن من علم منه فى الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه للعبادة، ومن علم منه أن يكون منه الكفر خلقه لذلك وكم من عام يراد به الخصوص، وقول المعتزلة بأن هذه لام العاقبة أى لما كان عاقبتهم جهنم جعل كأنهم خلقوا لها فرارا عن إرادة المعاصى عدول عن الظاهر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ولايتفكرون فيه ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الرشد﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الوعظ ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ ﴾ فى عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنه كابروا العقول وعاندوا الرسول وارتكبوا الفضول فالأنعام تطلب منافعها وتهرب عن

---

(١) سورة «الذاريات»، الآية (٥٦).

مضارها وهم لايعلمون مضارهم حيث اختاروا النار وكيف يستوى المكلف المأمور والمخلى المعذور، فالآدمى روحانى شهوانى سماوى أرضي فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السماوات، وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الكاملون فى الغفلة.

●● ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ التى هى أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة فمنها ما يستحقه بحقائقه كالقديم قبل كل شىء، والباقى بعد كل شىء، والقادر على كل شىء، والعالم بكل شىء، والواحد الذى ليس كمثله شىء، ومنها ما تستحسنه الأنفس لآثارها كالغفور والرحيم والشكور والحليم، ومنها ما يوجب التخلق به كالفضل والعفو، ومنها ما يوجب مراقبة الأحوال كالسميع والبصير والمقتدر ومنها ما يوجب الإجلال كالعظيم والجبار والمتكبر ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها؛ فيسمونه بغير الأسماء الحسنى؛ وذلك أن يسموه بمالايجوز عليه نحو أن يقولوا: ياسخى يا رفيق لأنه لم يسم نفسه بذلك، ومن الإلحاد تسميته بالجسم والجوهر والعقل والعلة، يَلحدون حمزة لحد وألحد مال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

●● ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ للجنة؛ لأنه فى مقابلة ولقد ذرأنا لجهنم ﴿ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فى أحكامهم، قيل هم العلماء والدعاة إلى الدين، وفيه دلالة على إن إجماع كل عصر حجة.

●● ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يراد بهم وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم فى الغى، فكلما جدد الله عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف النعم ظانين أن ترادف النعم أثره من الله تعالى وتقريب، وإنما هو خذلان منه وتبعيد، وهو استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة .

●● ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ عطف على سنستدرجهم، وهو غير داخل فى حكم السين أى أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أخذى شديد، سماه كيدا؛ لأنه شبيه بالكيد من حيث أنه فى الظاهر إحسان وفى الحقيقة خذلان ولما نسبوا النبى ﷺ إلى الجنون نزل.

●● ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ـ عليه السلام ـ وما نافية بعد وقف أى أولم يتفكروا فى قولهم، ثم نفى عنه الجنون بقوله ما بصاحبهم ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ منذر من الله موضح إنذاره.

●● ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ نظر استدلال ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملكوت الملك العظيم﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وفيماخلق الله مما يقع عليه اسم الشىء من أجناس لايحصرها العدد ﴿وَأَنْ عَسَىٰ﴾ أن مخففة من الثقيلة وأصله وأنه عسى، والضمير ضمير الشأن، وهو فى موضع الجر

بالعطف على ملكوت، والمعنى أو لم ينظروا فى أن الشأن والحديث عسى ﴿ **أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ** ﴾ ولعلهم يموتون عما قريب فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم قبل مفاجأة الأجل وحلول العقاب ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ**﴾ بعد القرآن ﴿ **يُؤْمِنُونَ** ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو متعلق بعسى أن يكون قد اقترب أجلهم، كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لايبادرون الإيمان بالقرآن قبل الفوت وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا .

●● ﴿**مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ** ﴾ أى يضلله الله ﴿**وَيَذَرُهُمْ** ﴾ بالياء عراقى وبالجزم حمزة وعلى عطفا على محل فلا هادى له، كأنه قيل من يضلل الله لايهده أحدويذرهم والرفع على الاستئناف أى وهو يذرهم. الباقون بالنون ﴿**فِي طُغْيَانِهِمْ** ﴾ كفرهم ﴿**يَعْمَهُونَ**﴾ يتحيرون.

●● ولما سألت اليهود، أو قريش عن الساعة متى تكون نزل ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ**﴾ وهى من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها؛ أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق ﴿**أَيَّانَ** ﴾ متى واشتقاقه من أى فعلان منه، لأن معناه أى: وقت ﴿**مُرْسَاهَا** ﴾ إرساؤها مصدر مثل المدخل بمعنى الإدخال،أو وقت إرسائها أى إثباتها والمعنى متى يرسيها الله ﴿**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي** ﴾ أى: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحدا من ملك مقرب، ولانبى مرسل ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص، وهو وقت الموت لذلك ﴿**لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ لايظهر أمرها ولايكشف خفاء علمها إلاهو وحده ﴿**ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ أى: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه، أو ثقلت فيها لأن أهلها يخافون شدائدها وأهوالها ﴿ **لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً**﴾ فجأة على غفلة منكم ﴿**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا** ﴾ كأنك عالم بها، وحقيقته كأنك بليغ فى السؤال عنها، لأن من بالغ فى المسألة عن الشىء والتنقير عنه استحكم علمه فيه، وأصل هذا التركيب المبالغة ومنه إحفاء الشارب، أو عنها متعلق بيسئلونك أى يسئلونك عنها كأنك حفى أى عالم بها ﴿**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ** ﴾ وكرر يسئلونك، وإنما علمها عند الله للتأكيد ولزيادة كأنك حفى عنها، وعلى هذا تكرير العلماء فى كتبهم لايخلون المكرر من فائدة، منهم محمد بن الحسن ـ رحمه الله ـ ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أنه المختص بالعلم بها.

●● ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ هو إظهار للعبودية وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب أى: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسى احتلاب نفع ولادفع ضرر كالمماليك إلا ما شاء ـ مالكى ـ من النفع لى والدفع عنى ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** ﴾ أى: لكانت حالى على خلاف ماهى عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار

حتى لا يمسنى شىء منها، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى فى الحروب. وقيل: الغيب الأجل والخير العمل، والسوء الوجل، وقيل لاستكثرت: لاعتددت من الخصب للجدب. والسوء الفقر وقد رد ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إن أنا إلا عبد أرسلت نذيرا وبشيرا وما من شأنى أن أعلم الغيب، واللام فى ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يتعلق بالنذير والبشير؛ لأن النذارة والبشارة إنما ينفعان فيهم، أو بالبشر وحده والمتعلق بالنذير محذوف أى إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون.

●● ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هى نفس آدم ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن ويميل؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل خصوصا إذا كان بعضا منه، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وذكر ليسكن بعد ما أنث فى قوله: «واحدة وخلق منها زوجها» ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق (١) أو حملت حملا خفيفا يعنى النطفة فمرت به فقامت به وقعدت ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ حان وقت ثقل حملها ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذى هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ لئن وهبت لنا ولدا سويا قد صلح بدنه، أو ولدا ذكراً لأن الذكورة من الصلاح ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك والضمير فى آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما.

●● ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوى ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ أى: جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أى آتى أولادهما دليله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ حيث جمع الضمير، وآدم وحواء بريئان من الشرك ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناف وعبد شمس، ونحو ذلك مكان عبدالله وعبدالرحمن وعبدالرحيم، أو يكون الخطاب لقريش الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ وهم آل قصى، أى هو الذى خلقكم من نفس واحدة قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبدالعزى وعبد قصى وعبد الدار.

والضمير فى أيشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما فى الشرك. شركا مدنى وأبو بكر أى ذوى شرك وهم الشركاء ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعنى الأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أجريت الأصنام مجرى أولى العلم بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى أيشركون مالا يقدر

(١) الإخداج: الولادة المبكرة، والإزلاق: الإسقاط.

على خلق شىء وهم يخلقون، لأن الله خالقهم، أو الضمير فى وهم يخلقون للعابدين أى أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم مخلوقو الله فليعبدوا خالقهم، أو للعابدين والمعبودين وجمعهم كأولى العلم تغليبا للعابدين.

﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعبدتهم ﴿نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾فيدفعون عنها مايعتريها من الحوادث كالكسر وغيره بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وإن تدعوا هذه الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ إلى ما هو هدى ورشاد، أو إلى أن يهدوكم أى وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى ﴿لا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. لا يتبعوكم نافع ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ عن دعائهم فى أنه لافلاح معهم ولا يجيبونكم، والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية لرءوس الآى.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: تعبدونهم وتسمونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أى مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع، أو دفع ضر ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فليجيبوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى أنهم آلهة، أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال:

•• ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ مشيكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يتناولون بها ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فلم تعبدون ما هو دونكم ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم فى عداوتى ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ جميعا أنتم وشركاؤكم، وبالياء يعقوب، وافقه أبو عمرو فى الوصل ﴿فَلا تُنظِرُونِ﴾ فإنى لا أبالى بكم، وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك وبالياء يعقوب.

•• ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ﴾ ناصرى عليكم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أوحى إلى وأعزنى برسالته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ومن سنته أن ينصر الصالحين من عباده ولا يخذلهم ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

•• ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشىء ينظر إليه ﴿وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ المرئى.

•• ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو ضد الجهد أى ما عفالك من أخلاق الناس وأفعالهم ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا، كقوله ـ عليه السلام ـ «يسروا ولا تعسروا»(١) ـ ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بالمعروف والجميل من الأفعال، أو هو كل خصلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، رضى الله عنه.

﴿الْجَاهِلِينَ﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ولا تمارهم[1] واحلم عليهم، وفسرها جبريل - عليه السلام- بقوله: «صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»[2] وعن الصادق أمر الله نبيه - عليه السلام- بمكارم الأخلاق ،وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها.

●● ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ وإما ينخسنك منه نخس أى: بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ولا تطعه والنزغ: النخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده، أو أريد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب كقول أبى بكر - رضى الله عنه -: إن لى شيطانا يعترينى[3] ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لنزغه ﴿عَلِيمٌ﴾ بدفعه.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ طيف مكى وبصرى وعلى أى لمة[4] منه مصدر من قولهم طاف به الخيال يطيف طيفا وعن أبى عمرو هما واحد، وهى الوسوسة وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن عادة المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام[5] بوسوسته ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ فأبصروا السداد ودفعوا وسوسته. وحقيقته أن يفروا منه إلى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله.

●● ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس فإن الشياطين ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أى يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم يمدونهم من الإمداد مدنى ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، وجاز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين والأول أوجه؛ لأن إخوانهم فى مقابلة الذين اتقوا، وإنما جمع الضمير فى إخوانهم والشيطان مفرد لأن المراد به الجنس.

●● ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ مقترحة ﴿قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اخترتها أى: اختلقتها كما اختلقت ما قبلها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ ولست بمقترح لها ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن دلائل تبصركم وجوه الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

●● ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن فى الصلاة وغيرها، وقيل معناه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا

---

(١) ولا تمارهم: أى: ولا تجادلهم. وفى القرآن العظيم: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ والمماراة هى: المجادلة والمناظرة . (المعجم الوسيط ٢/٨٦٦).

(٢) أخرجه الطبرى منقطعًا وابن مردويه موصولاً من حديث جابر.

(٣) ابن سعد فى الطبقات وإسحاق فى مسنده.

(٤) لمة منه: أى مسٌ منه.

(٥) الإلمام: المقاربة من المعصية من غير مواقعة، وفى القرآن العظيم: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾. المعجم الوسيط (٢/ ٨٤٠).

له وجمهور الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على أنه فى استماع المؤتم، وقيل فى استماع الخطبة، وقيل فيهما وهو الأصح.

●● ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ هو عام فى الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعا وخائفا ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلما كلاما دون الجهر، لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ لفضل هذين الوقتين وقيل المراد إدامة الذكر باستقامة الفكر، ومعنى بالغدو بأوقات الغدو وهى الغدوات، والآصال جمع أصُل، والأصل جمع أصيل وهو العشىُ ﴿وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ مكانة ومنزلة لا مكانا ومنزلا يعنى الملائكة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظمون عنها ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويختصونه بالعبادة، لا يشركون به غيره، والله أعلم.

(سورة الأنفال مدنية، وهى خمس، أو ست، أو سبع وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النفل: الغنيمة؛ لأنها من فضل الله وعطائه، والأنفال: الغنائم، ولقد وقع اختلاف بين المسلمين فى غنائم بدر وفى قسمتها؛ فسألوا رسول الله كيف نقسم، ولمن الحكم فى قسمتها، للمهاجرين، أم للأنصار، أم لهم جميعا؟ فقيل له: قل لهم: هى لرسول الله، وهو الحاكم فيها خاصة يحكم ما يشاء ليس لأحد غيره فيها حكم، ومعنى الجمع بين ذكر الله والرسول أن حكمها مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، ويمتثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر فى قسمتها مفوضا إلى رأى أحد. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى الاختلاف والتخاصم، وكونوا متآخين فى الله ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أحوال بينكم يعنى: ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، وقال الزجاج: معنى ذات بينكم حقيقة وصلكم، والبين: الوصل، أى: فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله به، قال عبادة بن الصامت[1] ـ رضى الله عنه ـ : نزلت فينا يا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل، وساءت فيه أخلاقنا؛ فنتزعه الله من أيدينا فجعله لرسول الله (ﷺ) فقسمه بين المسلمين على السواء[2] ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرتم به فى الغنائم وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كاملى الإيمان.

●● ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما الكاملو الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فزعت لذكره؛ استعظاما له وتهيبا من جلاله وعزه وسلطانه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ أى: القرآن ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ازدادوا بها يقينا وطمأنينة؛ لأن تظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه وأثبت لقدمه، أو زادتهم إيماناً بتلك الآيات؛ لأنهم لم يؤمنوا بأحكامها قبل ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعتمدون ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم؛ لا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

●● ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ جمع بين أعمال القلوب من الوجل والإخلاص والتوكل وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة.

●● ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ هو صفة لمصدر محذوف، أى: أولئك هم المؤمنون إيمانا حقا، أو هو مصدر مؤكد للجملة التى هى أولئك هم المؤمنون كقوله: هو عبدالله حقا، أى: حق ذلك حقاً وعن الحسن ـ رحمه الله ـ أن رجلا سأله: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألنى عن الإيمان بالله

---

(١) عبادة بن الصامت: صحابى جليل، كان أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً فما بعدها، وروى عن النبى ﷺ، أرسله عمر إلى فلسطين: ليعلم أهلها القرآن، وهو أول من ولى القضاء بفلسطين، وظل بها إلى أن مات- يرحمه الله- فى عام ٣٤هـ، وعمره ٧٢ عاماً. (تهذيب التهذيب:٣/ ٧٦).

(٢) رواه أحمد وإسحاق والطبرى من حديث عبادة.

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن، وإن كنت تسألنى عن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية فلا أدرى أنا منهم أم لا، وعن الثورى من زعم أنه مؤمن بالله حقا، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية، أى: كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقا فلا يقطع بأنه مؤمن حقا، وبهذا يتشبث من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، وكان أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لا يقول ذلك، وقال لقتادة: لم تستثنى فى إيمانك قال: اتباعا لإبراهيم فى قوله: ﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾[1] فقال له: هلا اقتديت به فى قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾[2]، وعن إبراهيم التيمى[3]: قل: أنا مؤمن حقاً: فإن صدقت اثبت عليه، وإن كذبت فكفرك أشد من كذبك، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من لم يكن منافقا فهو مؤمن حقا، وقد احتج عبدالله[4] على أحمد[5]، فقال: إيش اسمك؟ ـ فقال: أحمد. فقال: أتقول: أنا أحمد حقا، أو أنا أحمد إن شاء الله؟ فقال: أنا أحمد حقا ـ فقال: حيث سماك والداك لا تستثنى: وقد سماك الله فى القرآن مؤمنا تستثنى. ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ صاف عن كد الاكتساب وخوف الحساب: الكاف فى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فى محل النصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر، والتقدير: قل: الأنفال استقرت لله والرسول، وثبتت مع كراهتهم ثباتا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون ﴿مِن بَيْتِكَ﴾ يريد بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها؛ لأنها مهاجره ومسكنه فهى فى اختصاصها به كاختصاص البيت لساكنه ﴿بِالْحَقِّ﴾ إخراجا متلبسا بالحكمة والصواب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

(١) سورة «الشعراء»، الآية (٨٢). (٢) سورة «البقرة»، الآية (٢٦٠).

(٣) هو: إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى - تيم الرباب - أبو أسماء، الكوفى، أحد كبار عباد التابعين، روى عن أنس، وعن أبيه يزيد، وعن جمع من كبار التابعين، وأرسل عن عائشة، توفى عام ٩٢هـ، وقيل: ٩٤هـ ، عاش نحو أربعين سنة .
تهذيب التهذيب (١/ ١١٥).

(٤) هو الإمام المبارك؛ عبد الله بن المبارك بن واضح، الحنظلى، التميمى، مولاهم، أبو عبد الرحمن المروزى، أحد الأئمة فى الحديث ، والجهاد، والفقه والزهد، والورع، يكفينا هنا ما قاله النسائى: «لا نعلم فى عصر ابن المبارك أجل من ابن المبارك، ولا أعلى منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه». اهـ. مشهور كثير المناقب، ولد عام ١١٨هـ، وتوفى عام ١٨١هـ.
تهذيب التهذيب (٣/ ٢٤٧- ٢٤٩).

(٥) هو الإمام الزاهد المجاهد؛ أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، الشيبانى ، أبو عبد الله المروزى، ثم البغدادى، العلم الأشهر، إمام أهل السنة والجماعة، أحد الأئمة الأربعة، وأحد كبار الأئمة فى الحديث. قال الشافعى: «خرجت من بغداد، وما خلفت بها أفقه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم من أحمد بن حنبل». خرجت أمه من مرو وهى حامل فولدته ببغداد - سنة ١٦٤هـ ـ وبها طلب العلم، ثم طاف البلاد، وعاش حياة زاخرة حتى وفاته - رحمه الله - عام ٢٤١هـ.
تهذيب التهذيب (١/ ٤٩-٥١).

﴿الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ فى موضع الحال، أى: أخرجك فى حال كراهتهم؛ وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة، ومعها أربعون راكبا منهم أبو سفيان، فأخبر جبريل النبى - عليه السلام - فأخبر أصحابه، فأعجبهم تلقى العير؛ لكثرة الخير وقلة القوم، فلما خرجوا علمت قريش بذلك؛ فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة، وهو النفير فى المثل السائر: لافى العير ولا فى النفير. فقيل له: إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فأبى، وسار بمن معه إلى بدر- وهو ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما فى السنة- ونزل جبريل - عليه السلام - فقال: يا محمد! إن الله وعدكم إحدى الطائفتين؛ إما العير، وإما قريشاً، فاستشار النبى (ﷺ) أصحابه وقال: «العير أحب إليكم أم النفير؟». قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو؛ فتغير وجه رسول الله (ﷺ)، ثم ردَّد عليهم فقال: «إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل». فقالوا: يا رسول الله! عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبى (ﷺ) أبو بكر[١] وعمر- رضى الله عنهما- فأحسنا، ثم قام سعد بن عبادة[٢] فقال: انظر أمرك فامض فوالله لو سرت إلى «عدن أبين»[٣] ما تخلف عنك رجل من الأنصار ثم قال المقداد بن عمرو[٤]: امض لما أمرك الله فإنا معك حيث أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت عين منا تطرف؛ فضحك رسول الله (ﷺ) وقال سعد بن معاذ[٥]: امض يا رسول الله لما أردت فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا

(١) هو صدِّيق الأمة، وخيرها بعد نبيها ﷺ؛ عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو، التيمى، خليفة رسول الله ﷺ وصاحبه فى الغار، أول من آمن من الرجال، وأول الخلفاء الراشدين، جمع كل خصال الخير، كان عظيمًا فى الجاهلية والإسلام، ولد بعد النبى ﷺ بنحو سنتين وتوفى بعده بنحو سنتين أيضًا، فعاش نحو ٦٣ عامًا مثله، ودفن بجواره، رضى الله عنه.
تهذيب التهذيب (٣/ ٢٠٥).

(٢) هو الصحابى الجليل، سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة، بن أبى خزيمة، الخزرجى الأنصارى، سيد الخزرج، أبو ثابت المدنى، شهد العقبة، وغيرها من المشاهد، واختلف فى شهوده بدراً، كان صاحب راية رسول الله ﷺ على الأنصار، وهو أحد النقباء، توفى عام ١٥، وقيل ١٤هـ ، على خلاف .
تهذيب التهذيب (٢/ ٢٧٩).

(٣) عدن أبين: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .
(معجم البلدان ١/ ١٠٩).

(٤) هو الصحابى، البطل، المجاهد؛ المقداد بن عمرو بن ثعلبة، الكندى، أبو الأسود، الزهرى، أسلم قديمًا، وشهد بدرًا، والمشاهد، وهو أول من قاتل على فرس فى سبيل الله - وكان ذلك يوم بدر- وهو أحد أبطال الصحابة، كان شجاعًا مقدامًا، مات بالجرف - على ثلاثة أميال من المدينة - عام ٣٣ هـ.وهو ابن سبعين سنة، ودفن بالمدينة .
تهذيب التهذيب (٥/ ٥٢٧).

(٥) هو الصحابى المكرم؛ سعد ين معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، الأشهلى، سيد الأوس، شهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، ورمى فيه بسهم فقطع أكحله، فعاش بعد ذلك شهرًا، ثم انتقض جرحه فمات منه سنة ٥هـ، وبلغنا عن رسول الله ﷺ: أن عرش الرحمن قد اهتز لموت سعد بن معاذ، رضى الله عنه ورحمه رحمة واسعة .
تهذيب التهذيب (٢/ ٢٨٣).

هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، فسر بنا على بركة الله؛ ففرح رسول الله (ﷺ) ونشطه قول سعد: ثم قال: «سيروا على بركة الله، أبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم».[1] وكانت الكراهة من بعضهم لقوله: وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. قال الشيخ أبو منصور- رحمه الله-: يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقادا، ويحتمل أن يكونوا مخلصين وأن يكون ذلك كراهة طبع؛ لأنهم غير متأهبين له.

•• ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الحق الذى جادلوا فيه رسول الله (ﷺ) تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ بعد إعلام رسول الله (ﷺ) بأنهم ينصرون وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير، وهلا قلت لنا لنستعد؛ وذلك لكراهتهم القتال ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ شبه حالهم فى فرط فزعهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة بحال من يعتل[2] إلى القتل ويساق على الصغار إلى الموت وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشك فيها، وقيل: كان خوفهم لقلة العدد وإنهم كانوا رجالة، وما كان فيهم إلا فارسان.

•• ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ إذ منصوب باذكر، وإحدى مفعول ثان ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من إحدى الطائفتين، وهما العير والنفير، والتقدير: وإذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أى: العير وذات الشوكة ذات السلاح، والشوكة كانت فى النفير لعددهم وعدتهم، أى: تتمنون أن تكون لكم العير؛ لأنها الطائفة التى لاسلاح لها، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أى يثبته ويعليه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته المنزلة فى محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من قتلهم، وطرحهم فى قليب[3] بدر ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ آخرهم، والدابر الآخر، فاعل من دبر إذا أدبر، وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، يعنى: أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفساف[4] الأمور، والله تعالى يريد معالى الأمور ونصرته الحق وعلو الكلمة، وشتان ما بين المرادين؛ ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة وكسر قوتهم بضعفكم وأعزكم وأذلهم.

•• ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلق بيقطع، أو بمحذوف تقديره: ليحق الحق ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ فعل ذلك والمقدر متأخر؛ ليفيد الاختصاص، أى: ما فعله إلا لهما، وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه، وليس هذا بتكرار؛ لأن الأول تمييز بين الإرادتين، وهذا بيان لمراده فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون ذلك.

---

(١) الرواية من سيرة ابن هشام.

(٢) أى: يجر جراً عنيفًا . القاموس (٢/ ١٤).

(٣) القليب: هو البئر . (القاموس ص١١٩).

(٤) السفساف: الردئ من كل شىء، والأمر الحقير. (القاموس ٣/ ١٥٢).

●● ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من إذ يعدكم، أو متعلق بقوله: ليحق الحق ويبطل الباطل، واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لابد من القتال؛ طفقوا يدعون الله يقولون: أى ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا، وهى طلب الغوث وهو التخليص من المكروه ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأجاب وأصل ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ بأنى ممدكم، فحذف الجار، وسلط عليه استجاب؛ فنصب محله ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ ـ مردَفين ـ مدنى، غيره بكسر الدال فالكسر على أنهم أردفوا غيرهم، والفتح على أنه أردف كل ملك ملكا آخر، يقال: ردفه إذا تبعه وأردفته إياه إذا اتبعته.

●● ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أى: الإمداد الذى دل عليه ممدكم ﴿إِلاَّ بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ يعنى: أنكم استغثتم وتضرعتم لقلتكم فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر وتسكينا منكم وربطا على قلوبكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى: ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة، أووما النصر من الملائكة وغيرهم من الأسباب إلا من عند الله، والمنصور من نصره الله، واختلف فى قتال الملائكة يوم بدر، فقيل: نزل جبريل- عليه السلام- فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وميكائل فى خمسمائة على الميسرة وفيها على ـ رضى الله عنه ـ فى صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد أرخوا أذنابها بين أكتافهم، فقاتلت حتى قال أبو جهل لابن مسعود: من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة. قال: فهم غلبونا لا أنتم، وقيل: لم يقاتلوا، وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بنصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ بقهر أعدائه.

●● ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ بدل ثان من إذ يعدكم، أو منصوب بالنصر أو بإضمار اذكر. يغشيكم مدنى ﴿النُّعَاسَ﴾ النوم، والفاعل هو الله على القراءتين. يغشاكم النعاس مكى وأبو عمرو ﴿أَمَنَةً﴾ مفعول له أى: إذ تنعسون أمنة بمعنى أمنا أى: لأمنكم، أو مصدر أى: فأمنتم أمنة فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس ﴿مِّنْهُ﴾ صفة لها أى: أمنة حاصلة لكم من الله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف مكى وبصرى، وبالتشديد غيرهم ﴿عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطرا ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ بالماء من الحدث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وسوسته إليهم وتخويفه إياهم من العطش، أو الجنابة من الاحتلام؛ لأنه من الشيطان وقد وسوس إليهم أن لا نصرة مع الجنابة ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بالصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أى: بالماء إذ الأقدام كانت تسوخ فى الرمل، أو بالربط؛ لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم فى مواطن القتال.

●● ﴿إِذْ يُوحِى﴾ بدل ثالث من إذ يعدكم، أو منصوب بيثبت ﴿رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾

بالنصر ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالبشرى وكان الملك يسير أمام الصف فى صورة رجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف، والرعُب شامى وعلى ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أمر للمؤمنين، أو الملائكة وفيه دليل على أنهم قاتلوا ﴿فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أى: أعالى الأعناق التى هى المذابح تطييرا للرءوس، أو أراد الرءوس؛ لأنها فوق الأعناق يعنى: ضرب الهام ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ هى الأصابع يريد الأطراف والمعنى فاضربوا المقاتل والشوى؛ لأن الضرب إما أن يقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم أن يجمعوا عليهم النوعين.

●● ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أى: مخالفتهم، وهى مشتقة من الشق؛ لأن كلا المتعاديين فى شق خلاف شق صاحبه، وكذا المعاداة والمخاصمة؛ لأن هذا فى عدوة وخُصم أى: جانب وذاك فى عدوة وخصم ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والكاف فى ذلك لخطاب الرسول، أو لكل أحد.

●● وفى ﴿ذَلِكُمْ﴾ للكفرة على طريقة الالتفات، ومحله الرفع على ذلكم العقاب، أو العقاب ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ والواو فى ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ بمعنى مع أى: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذى لكم فى الآخرة فوضع الظاهر موضع الضمير.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ حال من الذين كفروا. والزحف الجيش الذى يرى لكثرته كأنه يزحف أى: يدب دبيباً من زحف الصبى إذا دب على استه قليلا قليلا سمى بالمصدر ﴿فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ فلا تنصرفوا عنهم منهزمين أى: إذا لقيتموهم للقتال، وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا فضلا أن تدانوهم فى العدد، أو تساووهم أو حال من المؤمنين، أو من الفريقين أى: إذا لقيتموهم متزاحفين، هم وأنتم ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا﴾ مائلا ﴿لِّقِتَالٍ﴾ هو الكر بعد الفر يخيل عدوه أنه منهزم، ثم يعطف عليه وهو من خدع الحرب ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضما ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها، وهما حالان من ضمير الفاعل فى يولهم ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ووزن متحيز متفيعل لا متفعل؛ لأنه من حاز يحوز فبناء متفعل منه متحوز.

●● ولما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا، وكان القاتل منهم يقول تفاخراً: قتلت وأسرت، قيل لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ والفاء جواب لشرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. ولما قال جبريل للنبى (ﷺ): خذ قبضة من تراب فارمهم بها،

فرمى بها فى وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه»[1] فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا قيل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ يعنى: أن الرمية التى رميتها أنت لم ترمها أنت على الحقيقة؛ لأنك لورميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم، وفى الآية بيان أن فعل العبد مضاف إليه كسبا وإلى الله تعالى خلقا لا كما تقول الجبرية والمعتزلة؛ لأنه أثبت الفعل من العبد بقوله: إذ رميت، ثم نفاه عنه وأثبته لله تعالى بقوله: ولكن الله رمى، ولكن الله قتلهم، ولكن الله رمى بتخفيف، لكن شامى وحمزة وعلى ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وليعطيهم ﴿مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ عطاء جميلا والمعنى وللإحسان إلى المؤمنين فعل ما فعل وما فعل إلا لذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

●● ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع أى: الأمر ذلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ذلكم أى: المراد إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين. مُوَهِّن كيد شامى وكوفى غير حفص موهن كيد حفص، موهنٌ غيرهم.

●● ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم، وهو خطاب لأهل مكة؛ لأنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهم إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على الحق فانصرنا، وقيل: إن تستفتحوا خطاب للمؤمنين، وإن تنتهو للكافرين ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ عن عداوة رسول الله (ﷺ) ﴿فَهُوَ﴾ أى: الانتهاء ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأسلم ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ لمحاربته ﴿نَعُدْ﴾ لنصرته عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جمعكم ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ عدداً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالفتح مدنى وشامى وحفص أى؛ ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك وبالكسر غيرهم ويؤيده قراءة عبدالله والله مع المؤمنين.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ عن رسول الله (ﷺ)؛ لأن المعنى أطيعوا رسول الله كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[2]؛ ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شىء واحد ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[3] فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما كقولك: الإحسان والإجمال لا ينفع فى فلان، أو يرجع الضمير إلى الأمر بالطاعة أى: ولا تولوا عن هذا الأمر وأمثاله، وأصله: ولا تتولوا فحذف إحدى التاءين تخفيفا ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أى: وأنتم تسمعونه، أو ولا تتولوا عن رسول (ﷺ) ولا تخالفوه وأنتم تسمعون أى: تصدقون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة.

(١) أخرجه الواقدى فى المغازى والطبرى فى التفسير، وكلاهما من طريق حكيم بن حزام.
(٢) سورة «التوبة»، الآية (٦٢).
(٣) سورة «النساء»، الآية (٨٠).

●● ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ أى: ادعوا السماع، وهم المنافقون وأهل الكتاب ﴿وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ لأنهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين، والمعنى: أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة فإذا توليتم عن طاعة الرسول فى بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن، ثم قال.

●● ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ أى: إن شر من يدب على وجه الأرض البهائم، وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه جعلهم من جنس البهائم، ثم جعلهم شرها؛ لأنهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل.

●● ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ﴾ فى هؤلاء الصم البكم ﴿خَيْرًا﴾ صدقاً ورغبة ﴿لأَسْمَعَهُمْ﴾ لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ عنه أى: ولو أسمعهم وصدقوا لارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير أيضا كما وحده فيما قبله؛ لأن استجابة رسول الله (ﷺ) كاستجابته والمراد بالاستجابة: الطاعة والامتثال، وبالدعوة البعث والتحريض ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من علوم الديانات والشرائع؛ لأن العلم حياة كما أن الجهل موت قال الشاعر:

لا تعجبنّ الجهول حلته فذاك ميت وثوبه كفن

أو لمجاهدة الكفار؛ لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم، أو للشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(١) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أى: يميته فتفوته الفرصة التى هو واجدها وهى التمكن من إخلاص القلب فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله، أو بينه وبين ما تمناه بقلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمة ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ واعلموا أنكم إليه تحشرون فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة.

●● ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ عذابا ﴿لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ هو جواب للأمر، أى: إن أصابتكم لا تصب الظالمين منكم خاصة، ولكنها تعمكم وجاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الأمر؛ لأنَ فيه معنى النهى، كما إذا قلت انزل عن الدابة لا تطرحك، وجاز لا تطرحنك ومن فى «منكم» للتبعيض ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

●● ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ إذ مفعول به لا ظرف أى: واذكروا وقت كونكم أقلة أذلة

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٦٩).

﴿مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أرض مكة قبل الهجرة: أتستضعفكم قريش ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ لأن الناس كانوا لهم أعداء مضادين ﴿فَآوَاكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم، ولم تحل لأحد قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ بأن تعطلوا فرائضه ﴿وَالرَّسُولَ﴾ بأن لا تستنوا به ﴿وَتَخُونُوا﴾ جزم عطف على لا تخونوا أى: ولا تخونوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ فيما بينكم بأن لا تحفظوها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تبعة ذلك ووباله، أو وأنتم تعلمون أنكم تخونون يعنى: أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو، أو وأنتم علماء تعلمون حسن الحسن وقبح القبيح ومعنى الخون النقص، كما أن معنى الإيفاء التمام ومنبه تخونه إذا انتقصه، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد أدخلت عليه النقصان فيه.

•• ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أى: سبب الوقوع فى الفتنة، وهى الإثم والعذاب أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فعليكم أن تحرصوا على طلب ذلك وتزهدوا فى الدنيا، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ نصرا؛لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله، أو بيانا وظهورا يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم فى أقطار الأرض من قولهم: سطع الفرقان أى: طلع الفجر، أو مخرجا من الشبهات وشرحا للصدور، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلا ومزية فى الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾أى: الصغائر﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم أى: الكبائر﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾على عباده.

•• ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما فتح الله عليه ذكره مكر قريش به حين كان بمكة؛ ليشكر نعمة الله فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم، والمعنى: واذكر إذ يمكرون بك وذلك أن قريشا لما أسلمت الأنصار فرقوا[1] أن يتفاقم أمره فاجتمعوا فى دار الندوة متشاورين فى أمره، فدخل عليهم إبليس - فى صورة شيخ - وقال: أنا شيخ من نجد دخلت مكة فسمعت باجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيا ونصحا فقال أبو البخترى[2]: رأيى أن تحبسوه فى بيت وتشدوا

---

(١) فرقوا : أى خافوا.

(٢) أبو البخترى: اسمه: العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، من زعماء قريش فى الجاهلية.

الأعلام (٣/ ٢٤٧).

وثاقه وتسدوا بابه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون، فقال إبليس بئس الرأى يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو[١]: رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم فقال إبليس: بئس الرأى يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم،فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ:أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا، فقال اللعين: صدق هذا الفتى هو أجودكم رأيا فتفرقوا على رأى أبى جهل مجتمعين على قتله فأخبر جبريل- عليه السلام- رسول الله (ﷺ) وأمره أن لا يبيت فى مضجعه، وأذن له الله فى الهجرة فأمر عليا فنام فى مضجعه، وقال له: اتشح ببردتى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه، وباتوا مترصدين فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه فأبصروا عليا فبهتوا وخيب الله سعيهم واقتفوا أثره فأبطل الله مكرهم[٢] ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليحبسوك ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسيوفهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكايد له ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفى الله ما أعدلهم حتى يأتيهم بغتة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى: مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيرا.

كان عليه السلام يقرأ القرآن ويذكر أخبار القرون الماضية فى قراءته فقال النضر بن الحارث: لو شئت لقلت مثل هذا وهو الذى جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم وأحاديث العجم فنزل ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أى: القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا صلف منهم ووقاحة، لأنهم دعوا إلى أن يأتوا بسورة واحدة من مثل هذا القرآن فلم يأتوا به.

●● ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أى: القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ هذا اسم كان وهو فصل، والحق خبر كان. روى أن النضر لما قال: إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبى- عليه الصلاة- والسلام-: «ويلك هذا كلام الله» فرفع النضر رأسه إلى السماء وقال: إن كان هذا هو الحق من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بنوع آخر من جنس العذاب الأليم فقتل يوم بدر صبرا[٣] وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! قال: أجهلِ من قومى قومك قالوا لرسول- الله عليه السلام- حين دعاهم إلى الحق: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق فاهدنا له.

(١) هشام بن عمرو بن ربيعة بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى. (سيرة ابن هشام).

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس، والطبرى عنه وعن السدى.

(٣) القتل صبراً؛ معناه: الحبس حتى الموت. وغالباً ما يستخدم هذا النوع من القتل لزيادة التنكيل بالمقتول.

●● ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ اللام لتأكيد النفى والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم؛ لأنك بعثت رحمة للعالمين وسنته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هو فى موضع الحال ومعناه نفى الاستغفار عنهم أى: ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم، أو معناه: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين.

●● ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وهو معذبهم إذا فارقتهم، وما لهم ألا يعذبهم الله ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وإخراجهم رسول الله والمؤمنين من الصد، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء فقيل: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاة أمر الحرم ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين: وقيل: الضميران راجعان إلى الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاند، وأراد بالأكثر الجميع كما يراد بالقلة العدم.

●● ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً﴾ صفيرا كصوت المكاء وهو طائر مليح الصوت، وهو فعال من مكا يمكو إذا صفر ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ وتصفيقا تفعلة من الصدى، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله (ﷺ) فى صلاته يخلطون عليه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم. ونزل فى المطعمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلا وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: كان غرضهم فى الإنفاق الصد عن اتباع محمد (ﷺ) وهو سبيل الله ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ثم تكون عاقبة إنفاقها ندما وحسرة، فكأن ذاتها تصير ندما وتنقلب حسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر وهو من دلائل النبوة؛ لأنه أخبر عنه قبل وقوعه فكان كما أخبر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكافرون منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه.

●● واللام فى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: من الفريق الطيب من المؤمنين متعلقة بيحشرون لِيُمَيِّزَ حمزة وعلى ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ﴾ الفريق الخبيث ﴿بَعْضَهُ

عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ أى: الفريق الخبيث ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أنفسهم وأموالهم.

●● ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أبى سفيان وأصحابه ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ عما هم عليه من عداوة رسول الله (ﷺ) وقتله بالدخول فى الإسلام ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ لهم من العداوة ﴿وَإِن يَعُودُوا﴾ لقتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ بالإهلاك فى الدنيا والعذاب فى العقبى، أو معناه أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصى، وبه احتج أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ فى أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة.

●● ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ويضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يثيبهم على إسلامهم.

●● ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لا يغلب من نصره. والمخصوص بالمدح محذوف.

●● ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ ما بمعنى الذى، ولا يجوز أن يكتب إلا مفعولا إذ لو كتب موصولا لوجب أن تكون ما كافة وغنمتم صلته، والعائد محذوف، والتقدير: الذى غنمتموه ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيانه قيل: حتى الخيط والمخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ والفاء إنما دخلت لما فى الذى من معنى المجازاة، وأن وما عملت فيه فى موضع رفع على أنه خبر مبدأ، تقديره فالحكم أن لله خمسه ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فالخمس كان فى عهد رسول الله (ﷺ) يقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله، وسهم لذوى قرابته من بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل استحقوه حينئذ بالنصرة لقصة عثمان وجبير بن مطعم[1]، وثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأما بعد رسول الله (ﷺ) فسهمه ساقط بموته وكذلك سهم ذوى القربى، وإنما يعطون لفقرهم ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وعن ابن عباس- رضى الله عنهما ـ أنه كان على ستة لله والرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض فأجرى

---

(١) هو الصحابى النسابة؛ جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، القرشى، النوفلى، قدم على النبى ﷺ فى فداء أسارى بدر، ثم أسلم بعد ذلك عام خيبر، وقيل: يوم الفتح. قال الزبير: «كان يؤخذ عنه النسب، وكان أخذه عن أبى بكر». وسلح عمر بن الخطاب جبيراً سيف النعمان بن المنذر، توفى سنة ٥٩هـ على الراجح.
تهذيب التهذيب (١/ ٣٦٢).

أبو بكر ـ رضى الله عـنه ـ الخمس على ثلاثة وكذا عـمر ومن بعده من الخلفـاء- رضى الله عنهم- ومعنى لله وللرسول لرسول الله كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1] ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ فاعملـوا به، وارضوا بهذه القسـمة فالإيمان يوجب الرضـا بالحكم، والعمل بـالعلم ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ معطوف على بالله أى: إن كنتـم آمنتم بالله وبالمنزل ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين والمراد مـا أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ، وهو بدل من يوم الفرقان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقدر على أن ينصر القلـيل على الكثير كما فعل بكم يوم بدر.

●● ﴿إِذْ أَنتُم﴾ بدل مـن يوم الفـرقان، أو التقـدير اذكروا إذ أنـتم ﴿بِالْعُدْوَةِ﴾ شط الـوادى، وبالكسر فيهـما مكى وأبو عمرو ﴿الدُّنْيَا﴾ القربى إلـى جهة المدينة تـأنيث الأدنى ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ البعدى عن المدينة تأنيث الأقصى، وكلتاهما فعلى من بنات الواو والقياس قلب الواو ياء كالعليا تأنيث الأعلى، وأما القصوى فكالقود فى مجيئه على الأصل ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أى: العير، وهو جمع راكب فى المعنى ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ نصب على الظـرف أى: مكانا أسفل من مكانكـم يعنى فى أسفل الوادى بثـلاثة أميال، وهو مرفوع المحل؛ لأنه خـبر المبتدأ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ لخالف بعضكم بعضاً فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الـوفاء بالموعد، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيـب رسول الله ﷺ والمسلمين فلم يتفق لكم من التلاقى ماوفقه الله وسبب له ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من إعزاز دينه وإعلاء كلمته، أو اللام تتعلق بمحذوف أى: ليقضى الله أمراً كان ينبغى أن يفعل؛ وهـو نصر أوليائه وقهـر أعدائه دبر ذلك. قال الشـيخ أبو منصور ـ رحمـه الله ـ: القضاء يحتمل الحكـم أى:ليحكم ماقد علم أنه يـكون كائنا، أوليتم أمراً كان قـد أراده وما أراد كونه فهو مفعول لا محالة،وهو عز الإسلام وأهله وذل الكفر وحزبه،ويتعلق بيقضى﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾حى نافع وأبو عمرو فالإدغام لالتقاء المثلين والإظهار؛لأن حركة الثانى غير لازمة لأنك تقول فى المستقبل يحيا والإدغام أكثر.استعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام أى:ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر إسلام من أسلم أيضا عن يقين، وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك أن وقعة بدر من الآيات الواضـحة التى من كفر بـعدها كان مكابراً لـنفسه مغالطـا لها، ولهذا ذكر فيـها مراكز الفريـقين وأن العيـر كانت أسفل مـنهم مع أنهـم قد علمـوا ذلك كله مشـاهدة ليعلـم الخلق أن

(١) سورة «التوبة»، الآية (٦٢).

النصر والغلبة لا تكون بالكثرة والأسباب بل بالله تعالى، وذلك أن العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كانت فيها الماء، وكانت أرضا لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهى خبار(١) تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم وعدتهم وقلة المسلمين وضعفهم، ثم كان ما كان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه وبإيمان من آمن وثوابه.

●● ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ نصب بإضمار اذكر، أو هو متعلق بقوله: لسميع عليم أى: يعلم المصالح إذ يقللهم فى عينك ﴿فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ أى: فى رؤياك وذلك أن الله تعالى أراه إياهم فى رؤياه قليلا، فأخبر بذلك أصحابه، فكان ذلك تشجيعا لهم على عدوهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ﴾ أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع.

●● ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضميران مفعولان، أى: وإذ يبصركم إياهم ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ وقت اللقاء ﴿فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ هو نصب على الحال، وإنما قللهم فى أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله (ﷺ) وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا قال ابن مسعود - رضى الله عنه - :لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة وكانوا ألفا ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال قائل منهم: إنما هم أكلة جزور قيل: قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيما بعده ليجترئوا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفجأهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، ويجوز أن يبصروا الكثير قليلا بأن يستر الله بعضهم بساتر أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير كما أحدث فى أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين قيل لبعضهم: إن الأحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديه ديك واحد فقال: مالى لا أرى هذين الديكين أربعة ﴿لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فيحكم فيها بما يريد، ترجع شامى وحمزة وعلى.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ إذا حاربتم جماعة من الكفار وترك وصفها؛ لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء اسم غالب للقتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم ولا تفروا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبا، وأكثر ما يكون هما وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك، وإن كانت متوزعة عن غيره.

---

(١) خَبَار: هو ما لان من الأرض واسترخى.
(القاموس ٢/ ١٧).

●● ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى الأمر بالجهاد والثبات مع العدو وغيرهما ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ فتجبنوا، وهو منصوب بإضمار أن ويدل عليه ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى: دولتكم، يقال هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره شبهت فى نفوذ أمرها وتمشيته بالريح وهبوبها، وقيل: لم يكن نصر قط إلاّ بريح يبعثها الله، وفى الحديث: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور[1]»[2]. ﴿وَاصْبِرُوا﴾ فى القتال مع العدو وغيره ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: معينهم وحافظهم.

●● ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ هم أهل مكة حين نفروا لحماية العير فأتاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فأبى أبو جهل، وقال: حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القيان[3] ونطعم بها العرب، فذلك بطرهم ورياؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها فسقوا كأس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيام فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى، والكآبة والحزن من خشية الله مخلصين أعمالهم لله، والبطر أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم وهو وعيد.

●● ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ واذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم التى عملوها فى معاداة رسول الله (ﷺ) ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون، وغالب مبنى نحو لا رجل ولكم فى موضع رفع خبر لا، تقديره لا غالب كائن لكم ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أى: مجير لكم أو هممهم أن طاعة الشيطان مما يجيرهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ فلما تلاقى الفريقان ﴿نَكَصَ﴾ الشيطان هاربا ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أى: رجع القهقرى ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ أى: رجعت عما ضمنت لكم من الأمان، روى أن إبليس تمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم[4] فى جند من الشياطين معه راية فلما رأى الملائكة تنزل نكص، فقال له الحارث بن هشام[5]: أتخذ لنا

(١) الدَّبُورُ: ريح تهب من المغرب، وتقابل القَبُول وهى ريح الصَّبَا.
(المعجم الوسيط: ١/ ٢٧٠).

(٢) متفق عليه من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٣) القيان: جمع قينة، وهى الأمة؛ مغنية كانت أو غير مغنية.

(٤) هو الصحابى الفارس، سراقة بن مالك بن جعشم بن مالك، المدلجى، يكنى أبا سفيان، من مشاهير الصحابة، وهو الذى لحق النبى ﷺ وأبا بكر حين خرجا مهاجرين إلى المدينة، وقصته مشهورة، وعده فيها رسول الله ﷺ بسوارى كسرى، فنالهما، ومات فى خلافة عثمان سنة ٢٤ هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٥) هو الصحابى الجليل، الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله ، أبو عبد الرحمن المكى، أخو أبى جهل، أسلم يوم الفتح، وخرج إلى الشام مجاهدًا، فقتل يوم اليرموك هو وعكرمة، وعياش بن أبى ربيعة عطشًا لما آثر كل منهم أخواه عليه فى الشرب .
وقيل: بل مات فى طاعون عمواس سنة ١٨هـ . وكان شريفًا فى الجاهلية والإسلام.
تهذيب التهذيب (١/ ٤٢٠).

فى هذه الحالة فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أى: الملائكة وانهزموا فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أى: عقوبته ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

•• اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ بالمدينة ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو من صفة المنافقين، أو أريد والذين هم على حرف ليسوا بثابتى الأقدام فى الإسلام ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم فخرجوا وهم ثلثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف ثم قال جوابا لهم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكل إليه أمره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يسوى بين وليه وعدوه.

•• ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ولو عاينت وشاهدت؛ لأن لو ترد المضارع إلى معنى الماضى كما ترد إن الماضى إلى معنى الاستقبال ﴿إِذْ﴾ نصب على الظرف ﴿يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾ حال منهم ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ إذا أقبلوا ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ظهورهم واستاههم(١) إذا أدبروا، أو وجوههم عند الإقدام وأدبارهم عند الانهزام وقيل فى يتوفى: ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر، والأول الوجه؛ لأن الكفار لا يستحقون أن يكون الله متوفيهم بلا واسطة، دليله قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء ﴿وَذُوقُوا﴾ ويقولون لهم: ذوقوا معطوف على يضربون ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى: مقدمة عذاب النار، أو ذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به، أو يقال لهم يوم القيامة: ذوقوا، وجواب لو محذوف أى: لرأيت أمرا فظيعا.

•• ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أى: كسبت وهو رد على الجبرية، وهو من كلام الله تعالى، أو من كلام الملائكة، وذلك رفع بالابتداء وبما قدمت خبره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ عطف عليه أى: ذلك العذاب بسببين بسب كفركم ومعاصيكم وبأن الله ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأن تعذيب الكفار من العدل، وقيل: ظلام للتكثير لأجل العبيد، أو لنفى أنواع الظلم.

•• الكاف فى﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فى محل الرفع أى: دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون: ودأبهم عادتهم وعملهم الذى دأبوا فيه أى: داوموا عليه ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش، أو من قبل آل فرعون ﴿كَفَرُوا﴾ تفسير لدأب آل فرعون﴿بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والمعنى جروا على عادتهم فى التكذيب فأجرى عليهم مثل ما فعل بهم فى التعذيب.

•• ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب أو الانتقام ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بسبب أن الله لم يصح فى حكمته أن يغير نعمته عند قوم حتى يغيروا ما بهم من الحال

(١) أستاهم: أى أعجازهم، وهى جمع كلمة «است»: وهو العجز. (القاموس: ٤/ ٢٨٥).

نعم لم يكن لآل فرعون ومشركى مكة حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة، لكن لما تغيرت الحال المرضية إلى المسخوطة تغيرت الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه وسعوا فى إراقة دمه غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت؛ فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

●● ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد، أو لأن فى الأولى الأخذ بالذنوب بلا بيان ذلك وهنا بين أن ذلك هو الإهلاك والاستئصال ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وفى قوله: «بآيات ربهم» زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ بماء البحر ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلهم من غرقى القبط وقتلى قريش ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى.

●● ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: أصروا على الكفر فلا يتوقع منهم الإيمان.

●● ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين كفروا أى: الذين عاهدتهم من الذين كفروا وجعلهم شر الدواب؛ لأن شر الناس الكفار ،وشر الكفار المصرون، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ فى كل معاهدة ﴿وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار.

●● ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ فإما تصادفهم وتظفرن بهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم. وقال الزجاج: افعل بهم ما تفرق به جمعهم وتطرد به من عداهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعل المشردين من ورائهم يتعظون.

●● ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نكثا بأمارات تلوح لك ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ على استواء منك، ومنهم فى العلم بنقص العهد، وهو حال من النابذ والمنبوذ إليهم أى: حاصلين على استواء فى العلم ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ الناقضين للعهود.

●● ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء وفتح السين شامى وحمزة، ويزيد وحفص وبالتاء وفتح السين أبو بكر وبالتاء وكسر السين غيرهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم أنهم شامى أى؛ لأنهم وكل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل غير أن المكسورة على طريقة الاستئناف والمفتوحة تعليل صريح، فمن قرأ بالتاء فالذين كفروا مفعول أول والثانى سبقوا، ومن قرأ بالياء فالذين كفروا فاعل، وسبقوا

مفعول، تقديره أن سبقوا فحذف أن، وأن مخففة من الثقيلة أى: أنهم سبقوا فسد مسد المفعولين، أو يكون الفاعل مضمرا أى: ولا يحسبن محمد الكافرين سابقين، ومن ادعى تفرد حمزة بالقراءة ففيه نظر لما بيناه من عدم تفرده بها، وعن الزهرى أنها نزلت فيمن أفلت من فل المشركين[1].

●● ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ لناقضى العهد أو لجميع الكفار ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به فى الحرب من عددها، وفى الحديث: «ألا إن القوة الرمى»[2]. قالها ثلاثا على المنبر وقيل: هى الحصون ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ هو اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله، أو هو جمع ربيط كفصيل وفصال وخص الخيل من بين ما يتقوى به كقوله: ﴿جبريل وميكال﴾[3] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ بما استطعتم ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أى: أهل مكة ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ غيرهم، وهم اليهود، أو المنافقون، أو أهل فارس، أو كفرة الجن، فى الحديث: «إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا دارا فيها فرس عتيق»[4]. وروى أن صهيل الخيل يرهب الجن[5] ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفر عليكم جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فى الجزاء بل تعطون على التمام.

●● ﴿وَإِن جَنَحُوا﴾ مالوا جنح له وإليه مال ﴿لِلسَّلْمِ﴾ للصلح وبكسر السين أبو بكر، وهو مؤنث تأنيث ضدها وهو الحرب ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمل إليها ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر فى جنوحهم إلى السلم فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالك، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالك.

●● ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يمكروا ويغدروا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ قواك ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعا، أو بالأنصار.

●● ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قلوب الأوس والخزرج بعد تعاديهم مائة وعشرين سنة ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: بلغت عداوتهم مبلغا لو أنفق منفق فى إصلاح ذات بينهم ما فى الأرض من الأموال لم يقدر عليه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بفضله ورحمته وجمع بين كلمتهم بقدرته فأحدث بينهم التوادّ والتحابّ وأماط عنهم التباغض والتماقت ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر من يخدعونك ﴿حَكِيمٌ﴾ ينصر من يتبعونك.

---

(١) الفلّ: هو الانهزام، وقوم فلٌّ: أى: منهزمون.

(٢) رواه الإمام مسلم.

(٣) البقرة، (الآية: ٩٨).

(٤) قال ابن حجر عنه. لم أجده هكذا.

(٥) قال ابن حجر: لم أجده أيضاً.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو بمعنى مع وما بعده منصوب، والمعنى كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرا. ويجوز أن يكون فى محل الرفع أى: كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين.

قيل: أسلم مع النبى (ﷺ) ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ التحريض المبالغة فى الحث على الأمر من الحرض، وهو أن ينهكه المرض حتى يشفى[1] على الموت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته بخلاف من يقاتل على بصيرة، وهو يرجو النصر من الله.

قيل: كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد للعشرة، ثم ثقل عليهم ذلك فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين بقوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ضعفا عاصم وحمزة ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ بالياء فيهما كوفى وافقه البصرى فى الأولى، والمراد الضعف فى البدن ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وتكرير مقاومة الجماعة، لأكثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت، إذ الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الألف وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين.

●● ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ ما صح له ولا استقام ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ أن تكون بصرى ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإثخان كثرة القتل والمبالغة فيه من الثخانة، وهى الغلظ والكثافة حتى يذل الكفر بإشاعة القتل فى أهله ويعز الإسلام بالاستيلاء والقهر، ثم الأسر بعد ذلك روى أن رسول الله (ﷺ) أتى بسبعين أسيرا فيهم العباس عمه[2] وعقيل[3] فاستشار النبى ـ عليه السلام ـ أبا بكر فيهم

(١) يشفى على الموت: أى يشرف ويقبل عليه.

(٢) هو : العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، القرشى، أبو الفضل، المكى، عم رسول الله ﷺ ، من عمالقة الإسلام وأبطال الصحابة، كان رئيسًا فى الجاهلية، وإليه العمارة والسقاية، كان أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين، وكان لا يمر بعمر وعثمان - رضى الله عنهم - وهما راكبان إلا نزلا حتى يجوز؛ إجلالاً له، وفضائله ومناقبه كثيرة ، توفى عام ٣٢هـ.
تهذيب التهذيب (٣/ ٨٣، ٨٤).

(٣) هو : عقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، أخو على ، أسلم قبل الحديبية وشهد غزوة مؤتة، وكان أسن من جعفر بعشر سنين، وكان جعفر أسن من على بعشر سنين، وكان عقيل من أنسب قريش، وأعلمهم بأيامها، وكان فصيح اللسان ، توفى عام ٦٠هـ.
تهذيب التهذيب (٤/ ١٦١).

فقال قومك وأهلك: استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك وقال عمر -رضى الله عنه-: كذبوك وأخرجوك فقدمهم واضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء مكن عليا من عقيل، وحمزة[(١)] من العباس، ومكنى من فلان لنسيب له فلنضرب أعناقهم فقال ـ عليه السلام ـ: «مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حيث قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)] ومثلك يا عمر كمثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[(٣)]. ثم قال رسول الله ﷺ لهم: «إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم». فقالوا بل نأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد[(٤)] فلما أخذوا الفداء نزلت الآية ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ متاعها يعنى الفداء سماه عرضا لقلة بقائه وسرعة فنائه ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾أى: ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان فى القتل ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقهر الأعداء﴿حَكِيمٌ﴾ فى عتاب الأولياء.

•• ﴿لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ لولا حكم من الله ﴿سَبَقَ﴾ أن لا يعذب أحدا على العمل بالاجتهاد وكان هذا اجتهادا منهم؛ لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سببا فى إسلامهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد وخفى عليهم إن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم، أو ما كتب الله فى اللوح أن لا يعذب أهل بدر، أو ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار، وفيما ذكر من الاستشارة دلالة على جواز الاجتهاد فيكون حجة على منكرى القياس. كتاب مبتدأ ومن الله صفته، أى: لولا كتاب ثابت من الله وسبق صفة أخرى له، وخبر المبتدأ محفوف أى لولا كتاب بهذه الصفة فى الوجود وسبق لا يجوز أن يكون خبرا؛ لأن لولا لا يظهر خبرها أبدا ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم وأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من فداء الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ دخل على رسول الله (ﷺ) فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال يا رسول الله: أخبرنى فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت فقال: «أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»[(٥)]. لشجرة قريبة منه. وروى أنه ـ عليه السلام ـ قال: «لو نزل عذاب من السماءلما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»[(٦)]. لقوله كان الإثخان فى العمل أحب إلىّ.

(١) هو: البطل العظيم: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم، أبو عمارة، عم الرسول ﷺ، وأحد سادة قريش فى الجاهلية، والإسلام، ولد ونشأ بمكة، هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، واستشهد فى أحد، عام ٣هـ وهو ابن ٥٧ عامًا.

الأعلام (٢/ ٢٧٨).

(٢) سورة «إبراهيم»، الآية (٣٦).

(٣) سورة «نوح»، الآية (٢٦).

(٤) رواه مسلم عن ابن عباس.

(٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده.

(٦) أخرجه الطبرى من حديث ابن إسحاق.

•• ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها فنزلت، وقيل: هو إباحة للفداء؛ لأنه من جملة الغنائم والفاء للتسبيب والسبب محذوف ومعناه: قد أحللت لكم الغنائم فكلوا ﴿حَلالاً﴾ مطلقا عن العتاب والعقاب من حل العقال، وهو نصب على الحال من المغنوم أو صفة للمصدر أى: أكلا حلالا ﴿طَيِّبًا﴾ لذيذا هنيئاً أو حلالا بالشرع طيبا بالطبع ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تقدموا على شىء لم يعهد إليكم فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإحلال ما غنمتم.

•• ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ فى ملكتكم كأن أيديكم قابضة عليهم ﴿مِّنَ الأَسْرَىٰ﴾ جمع أسير من الأسارى أبو عمر وجمع أسرى ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء، إما أن يخلفكم فى الدنيا أضعافه، أو يثيبكم فى الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ روى أنه قدم على رسول الله (ﷺ) مال البحرين ثمانون ألفا فتوضأ لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه، وأمر العباس أن يأخذ منه فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أخذ منى وأرجو المغفرة، وكان له عشرون عبدا وإن أدناهم ليتجر فى عشرين ألفا وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين، وأنا على ثقة من الآخر.

•• ﴿وَإِن يُرِيدُوا﴾ أى: الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نكث ما بايعوك عليه من الإسلام بالردة أو منع ما ضمنوه من الفداء ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ فى كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك منهم أى: أظفرك بهم كما رأيتم يوم بدر فسيمكن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمآل ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر فى الحال.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من مكة حبا لله ورسوله ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾ أى: آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى: يتولى بعضهم بعضا فى الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة دون ذوى القرابات حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾(١) وقيل: أراد به النصرة والمعاونة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ من مكة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم﴾ من توليهم فى الميراث، ولايتهم حمزة، وقيل: هما واحد ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ فكان لا يرث المؤمن الذى لم يهاجر ممن آمن وهاجر، ولما أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان وكانت الهجرة فريضة فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة دل على أن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ﴾ أى: من أسلم ولم يهاجر ﴿فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أى: إن وقع

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (٦).

بينهم وبين الكفار قتال، وطلبوا معونة فواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين ﴿إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم؛ لأنهم لا يبتدئون بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدى حد الشرع.

•• ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ظاهره إثبات الموالاة بينهم، ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضا ثم قال: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ أى: إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين، وتولى بعضهم بعضا حتى فى التوارث تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة؛ لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهرا والفساد زائد.

•• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لامنة فيه ولا تنغيص ولا تكرار؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم مع الوعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل.

•• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾ جعلهم منهم تفضلا وترغيبا ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وأولوا القرابات أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فى حكمه وقسمته أوفى اللوح، أو فى القرآن وهو آية المواريث، وهو دليل لنا على توريث ذوى الأرحام ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقضى بين عباده بما شاء من أحكامه قسم الناس أربعة أقسام؛ قسم آمنوا وهاجروا، وقسم آمنوا ونصروا، وقسم آمنوا ولم يهاجروا، وقسم كفروا ولم يؤمنوا.

سورة التوبة مدنية وهى مائة وتسع وعشرون آية كوفى ومائة وثلاثون غيره

بسم الله الرحمن الرحيم

لها أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، لأن فيها التوبة على المؤمنين؛ وهى تقشقش من النفاق أى تبرىء منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم، وفى ترك التسمية فى ابتدائها أقوال فعن على وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ أن بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان، وعن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله (ﷺ) كان إذا نزلت عليه سورة، أو آية قال: اجعلوها فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا، وتوفى رسول الله (ﷺ) ولم يبين لنا أين نضعها وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال؛ لأن فيها ذكر العهود وفى براءة نبذ العهود فلذلك قرنت بينهما وكانتا تدعيان القرينتين[(١)] وتعدان السابعة من الطوال، وهى سبع وقيل: اختلف أصحاب رسول الله (ﷺ) فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت فى القتال، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هما سورتان، وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة.

●● ﴿بَرَاءَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: هذه براءة ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من لابتداء الغاية متعلق بمحذوف وليس بصلة، كما فى قولك: برئت من الذين أى: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم كما تقول: كتاب من فلان إلى فلان، أو مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر إلى الذين عاهدتم، كقولك: رجل من بنى تميم فى الدار، والمعنى أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذى عاهدتم به المشركين وأنه منبوذ إليهم.

●● ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ فسيروا فى الأرض كيف شئتم والسيح: السير على مهل، روى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب فنكثوا إلا ناسا منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فنبذ العهد إلى الناكثين، وأمروا أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر آمنين أين شاءوا لا يتعرض لهم، وهى الأشهر الحرام فى قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد[(٢)] وأمر رسول الله (ﷺ) أبا بكر على موسم سنة تسع ثم أتبعه

(١) أخرجه أصحاب السنن وأحمد وإسحاق وأبو يعلى.

(٢) هو الصحابى؛ عتَّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية، الأموى، أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد، المكى، استعمله النبى ﷺ على مكة عام الفتح فى خروجه إلى حنين، فحج بالناس سنة ثمان، ولم يزل على مكة حتى قبض رسول الله ﷺ، وأقره أبو بكر، فلم يزل واليًا إلى أن مات، وكان من أشراف العرب ، واختلف فى سنة وفاته وفى عمره، والأرجح أنه مات عام ١٣ هـ وهو ابن ٢٥ أو ٢٦ عامًا.

تهذيب التهذيب (٤/ ٥٩، ٦٠).

عليا راكب العضباء[١] ليقرأها على أهل الموسم، فقيل له: لو بعثت بها إلى أبى بكر! فقال: لا يؤدى عنى إلا رجل منى فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء فوقف، وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله (ﷺ) فلما لحقه قال: أمير أو مأمور؟ قال: مأمور. فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر وحثهم على مناسكهم وقام على يوم النحر عند جمرة العقبة، فقال يا أيها الناس: إنى رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية، ثم قال: أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده فقالوا عند ذلك: يا على أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف. والأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، أو عشرون من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من ربيع الآخر، وكانت حرما؛ لأنهم أومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم أو على التغليب؛ لأن ذا الحجة والمحرم منها والجمهور على إباحة القتال فى الأشهر الحرم وأن ذلك قد نسخ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ﴾ مذلهم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالعذاب.

•• ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين، ثم الجملة معطوفة على مثلها، والآذان بمعنى الإيذان، وهو الإعلام كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء والفرق بين الجملة الأولى والثانية أن الأولى إخبار بثبوت البراءة والثانية إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت، وإنما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الآذان بالناس؛ لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الآذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يوم عرفة؛ لأن الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج أو يوم النحر؛ لأن فيه تمام الحج من الطواف والنحر والحلق والرمى ووصف الحج بالأكبر؛ لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: بأن الله حذفت صلة الآذان تخفيفاً ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على المنوى فى برىء، أو على الابتداء وحذف الخبر أى: ورسوله برىء، وقرىء بالنصب عطفا على اسم إن والجر على الجوار، أو على القسم كقولك، لعمرك وحكى أن أعرابيا سمع رجلا يقرؤها فقال: إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه برىء فلببه[٢] الرجل إلى عمر فحكى الأعرابى قراءته؛ فعندها أمر عمر بتعلم العربية[٣] ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الكفر والغدر ﴿فَهُوَ﴾ أى: التوبة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإصرار على الكفر ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة أو تبتم على التولى والإعراض عن الإسلام ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ﴾ غير سابقين الله ولا فائتين أخذه وعقابه ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مكان بشارة المؤمنين بنعيم مقيم.

---

(١) العضباء: ناقة مشقوقة الأذن، وهو أيضًا لقب لناقة رسول الله ﷺ على الرغم من أنها لم تكن مشقوقة الأذن. (انظر: المعجم الوسيط ٢/٦٠٦).

(٢) فلببه: أى لزمه ورافقه.

(٣) ذكره القرطبى فى التذكرة.

•• ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من قوله: فسيحوا فى الأرض، والمعنى براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فقولوا لهم: سيحوا. إلا الذين عاهدتم منهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد أى: وفوا بالعهد ولم ينقضوه، وقرىء لم ينقضوكم أى عهدكم، وهو أليق لكن المشهورة أبلغ؛ لأنه فى مقابلة التمام ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ ولم يعاونوا عليكم عدوا ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأدوه إليهم تاماً كاملا ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى تمام مدتهم والاستثناء بمعنى الاستدراك، كأنه قيل بعد أن أمروا فى الناكثين لكن الذين لم ينكثوا فأتموا إليهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفى كالغادر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعنى أن قضية التقوى ألا يسوى بين الفريقين فاتقوا الله فى ذلك.

•• ﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ مضى، أو خرج ﴿الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ التى أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين نقضوكم وظاهروا عليكم ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ من حل أوحرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم، والأخذ: الأسر ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف فى البلاد ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ كل ممر ومجتاز ترصدونهم به وانتصابه على الظرف ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الكفر والغدر بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ﴾ برفع القتل قبل الإداء بالالتزام.

•• ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ أحد مرتفع بفعل شرط مضمر يفسره الظاهر أى: وإن استجارك أحد استجارك والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعض انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن فأمّنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ﴾ بعد ذلك ﴿مَأْمَنَهُ﴾ داره التى يأمن فيها إن لم يسلم، ثم قاتله إن شئت، وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى وليس له الإقامة فى دارنا ويمكن من العود ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى الأمر بالإجارة فى قوله فأجره ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا، أو يفهموا الحق.

•• ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ كيف استفهام فى معنى الإستنكار أى: مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا فى ذلك ولا تحدثوا به نفوسكم ولا تفكروا فى قتلهم ثم استدرك ذلك بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ أى: ولكن الذين عاهدتم منهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يظهر منهم نكث كبنى كنانة وبنى ضمرة فتربصوا أمرهم ولا تقاتلوهم﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ولم يظهر منهم نكث أى: فما أقاموا على وفاء العهد﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾على الوفاء، وما شرطية أى: فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعنى أن التربص بهم من أعمال المتقين.

●● ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد وحذف الفعل لكونه معلوما أى: كيف يكون لهم عهد وحالهم أنهم إن يظهروا عليكم أى: يظفروا بكم بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ﴾ لا يراعوا حلفا ولا قرابة ﴿وَلا ذِمَّةً﴾ عهداً ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بالوعد بالإيمان والوفاء بالعهد، وهو كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان والوفاء بالعهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون العهد، أو متمردون فى الكفر لامروءة تمنعهم عن الكذب ولا شمائل تردعهم عن النكث، كما يوجد ذلك فى بعض الكفرة من التفادى عنهما.

●● ﴿اشْتَرَوْا﴾ استبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ عرضا يسيرا وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى بئس الصنيع صنيعهم.

●● ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ ولا تكرار؛ لأن الأول على الخصوص حيث قال فيكم، والثانى على العموم؛ لأنه قال فى مؤمن ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون الغاية فى الظلم والشرارة.

●● ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم على حذف المبتدأ ﴿فِي الدِّينِ﴾ لا فى النسب ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يفهمون فيتفكرون فيها وهذا اعتراض، كأنه قيل وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم تحريضاً على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

●● ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أى: نقضوا العهود المؤكدة بالأيمان ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ وعابوه ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم، وهو رؤساء الشرك، أو زعماء قريش الذين هموا بإخراج الرسول، وقالوا: إذا طعن الذمى فى دين الإسلام طعنا ظاهراً جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة. أئمة بهمزتين كوفى وشامى، الباقون بهمزة واحدة غير ممدودة بعدها ياء مكسورة أصلها أئممة؛ لأنها جمعُ إمام كعماد وأعمدة فنقلت حركة الميم الأولى إلى الهمزة الساكنة وأدغمت فىَ الميم الأخرى، فمن حقق الهمزتين أخرجهما على الأصل ومن قلب الثانية ياء فلكسرتها ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ وإنما أثبت لهم الأيمان فى قوله: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾؛ لأنه أراد أيمانهم التى أظهروها، ثم قال لا أيمان لهم على الحقيقة، وهو دليل لنا على أن يمين الكافر لا تكون يميناً ومعناه عند الشافعى - رحمه الله - أنهم لا يوفون بها؛ لأن يمينهم يمين عنده حيث وصفها بالنكث. لا إيمان شامى أى: لا إسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ متعلق بفقاتلوا أئمة الكفر وما بينهما

اعتراض أى: ليكن غرضكم فى مقاتلتهم انتهاءهم عما هم عليه بعدما وجد منهم من العظائم وهذا من غاية كرمه على المسىء، ثم حرض على القتال فقال.

●● ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التى حلفوها فى المعاهدة ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالقتال والبادىء أظلم فما يمنعكم من أن تقاتلوهم، وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد، وإخراج الرسول، والبدء بالقتال من غير موجب ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ توبيخ على الخشية منهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ بأن تخشوه فقاتلوا أعداءه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاخشوه أى: إن قضية الإيمان الكامل أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالى بمن سواه.

ولما وبخهم الله على ترك القتال جرد لهم الأمر به بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ ووعدهم النصر ليثبت قلوبهم ويصحح بيانهم بقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلا ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ أسرا ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ بغلتكم عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ طائفة منهم وهم خزاعة عيبة[1] رسول الله (ﷺ).

●● ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم من المكروه وقد حصل الله هذه المواعيد كلها فكان دليلا على صحة نبوته ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ ابتداء كلام وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضا فقد أسلم ناس منهم كأبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل[2]. وسهيل ابن عمرو[3]، وهى ترد على المعتزلة قولهم إن الله تعالى شاء أن يتوب على جميع الكفرة لكنهم لا يتوبون باختيارهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان ﴿حَكِيمٌ﴾ فى قبول التوبة.

●● ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للتوبيخ

---

(١) عيبة: أى موضع السر، وعَيْبَة رسول الله: أى: موضع سره.

(٢) هو الصحابى الجليل: عكرمة بن أبى جهل - عمرو - بن هشام بن المغيرة المخزومى، القرشى، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، ثم أسلم عكرمة يوم الفتح، وحسن إسلامه، ومنع رسول الله ﷺ صحابته من سب أبى جهل إكرامًا لعكرمة، وقال له يوم جاءه: «مرحبًا بالراكب المهاجر». توفى عطشانًا فى قصة الإيثار المشهورة هو واثنين من الصحابة، كلهم يؤثر أخويه على نفسه فى الشرب، وكان ذلك يوم اليرموك عام ١٥هـ.
تهذيب التهذيب (٤/ ١٦٣، ١٦٤).

(٣) هو الصحابى الجليل: سهيل بن عمرو بن عبد شمس، القرشى، العامرى، أبو يزيد: من مسلمة الفتح، أسر يوم بدر كافرًا، ثم فدى، وكان ممن خرج مع النبى ﷺ إلى حنين، ثم أسلم بالجعرانة، فكان صحيح الإسلام، وكان يقال له خطيب قريش، وخطب بمكة بمثل ما خطب به أبو بكر بالمدينة عند وفاة رسول الله ﷺ، وكانوا هموا أن يرتدوا، فسكن الناس، مات فى طاعون عمواس عام ١٨ هـ، وقيل غير ذلك.
تهذيب التهذيب (٢/ ٤٥١).

على وجود الحسان أى: لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلص منكم؛ وهم الذين جاهدوا فى سبيل الله لوجه الله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أى: بطانة من الذين يضادون رسول الله (ﷺ) والمؤمنين، ولما معناها التوقع وقد دلت على أن تبين ذلك متوقع كائن وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين ولم يتخذوا معطوف على جاهدوا داخل فى حيز الصلة، كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله، والمراد بنفى العلم نفى المعلوم، كقولك: ما علم الله منى ما قيل فى. تريد ما وجد ذلك منى والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر فيجازيكم عليه.

•• ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم وما استقام ﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ مسجد الله مكى وبصرى بمعنى المسجد الحرام، وإنما جمع فى القراءة بالجمع؛ لأنه قبلة المساجد وإمامها، فعامره كعامر جميع المساجد؛ ولان كل بقعة منه مسجد، أو أريد جنس المساجد وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس، وهو آكد إذ طريقه طريق الكناية كما تقول: فلان لا يقرأ كتب الله فإنه أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ باعترافهم بعبادة الأصنام وهو حال من الواو فى يعمروا والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون.

•• ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ عمارتها رَمُّ(1) ما استرم منها وقمها(2) وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا؛ لأنها بنيت للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ولم يذكر الإيمان بالرسول ـ عليه السلام ـ لما علم أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول لاقترانهما فى الآذان والإقامة وكلمة الشهادة وغيرها أوْ دل عليه بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وفى قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ تنبيه على الإخلاص، والمراد الخشية فى أبواب الدين بأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف إذا المؤمن قد يخشى المحاذير ولا يتمالك أن لا يخشاها، وقيل: كانوا يخشون الأصنام ويرجونها فأريد نفى تلك الخشية عنهم ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم فى الانتفاع بأعمالهم؛ لأن عسى كلمة إطماع والمعنى: إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتدا بها عند الله دون من سواهم.

---

(1) رَمٌّ: إصلاح.
(2) قَمٌّ: كَنْسٌ.

●● ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوقاية ولابد من مضاف محذوف، تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله، وقبل المصدر بمعنى الفاعل يصدقه قراءة ابن الزبير سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام والمعنى: إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة وأن يسوى بينهم وجعل تسويتهم ظلما بعد ظلمهم بالكفر؛ لأنهم وضعوا المدح والفخر فى غير موضعهما نزلت جوابا لقول العباس حين أسر فطفق على - رضى الله عنه - يوبخه بقتال رسول الله (ﷺ) وقطيعة الرحم تذكر مساوينا وتدع محاسننا فقيل: أولكم محاسن؟ فقال: نعمر المسجد ونسقى الحاج ونفك العانى. وقيل: افتخر العباس بالسقاية وشيبة[1] بالعمارة وعلى - رضى الله عنه - بالإسلام والجهاد فصدق الله تعالى عليا.

●● ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أولئك ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ من أهل السقاية والعمارة ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ لا أنتم والمختصون بالفوز دونهم.

●● ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ يَبْشُرهم حمزة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ تنكير المبشر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعرف ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ فى الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم.

●● ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا ينقطع.

●● لما أمر الله النبى - عليه السلام - بالهجرة جعل الرجل يقول لابنه ولأخيه ولقرابته: إنا قد أمرنا بالهجرة فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ومنهم من تتعلق به زوجته، أو ولده فيقول: تدعنا بلا شىء فنضيع فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾ أى: آثروه واختاروه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ أى: ومن يتول الكافرين ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

●● ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقاربكم وعشيراتكم أبو بكر ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وهو عذاب

---

(١) هو الصحابى الجليل: شيبة بن عثمان بن أبى طلحة، الحجبى، العبدرى، المكى، قتل أبوه يوم أحد كافرًا، وأسلم شيبة بعد الفتح، وكان ممن صبر بحنين مع النبى ﷺ وورث حجابة الكعبة عن آبائه، ولما أخذ النبى ﷺ مفتاحها منه يوم الفتح، أنزل الله قوله: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فأعطاه إياه، وقال له: «دونك هذا، فأنت أمين الله على بيته». ولا تزال فى بنيه إلى يومنا هذا، توفى عام ٥٩هـ.

تهذيب التهذيب (٢/ ٥٢١، ٥٢٢).

عاجل، أو عقاب آجل، أو فتح مكة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين إذ لا تجد عند أورع الناس ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأموال والحظوظ.

•• ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كوقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة وقيل، إن المواطن التى نصر الله فيها النبى ـ عليه السلام ـ والمؤمنين ثمانون موطنا ومواطن الحرب مقاماتها ومواقفها ﴿وَيَوْمَ﴾ أى: واذكروا يوم ﴿حُنَيْنٍ﴾ واد بين مكة والطائف كانت فيه الوقعة بين المسلمين، وهم اثنا عشر ألفا وبين هوازن وثقيف، وهم أربعة آلاف، فلما التقوا قال رجل من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة فساءت رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿إِذْ﴾ بدل من يوم ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة،وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود؛ فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقى رسول الله (ﷺ) وحده وهو ثابت فى مركزه ليس معه إلا عمه العباس آخذا بلجام دابته وأبو سفيان بن الحارث بن عمه آخذا بركابه، فقال للعباس: «صح بالناس» وكان صيتاً فنادى يا أصحاب الشجرة فاجتمعوا وهم يقولون: لبيك، لبيك ونزلت الملائكة عليهم الثياب البيض على خيول بلق[1] فأخذ رسول الله (ﷺ) كفا من تراب فرماهم به، ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة». فانهزموا وكان من دعائه ـ عليه السلام ـ يؤمئذ: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان»[2]. وهذا دعاء موسى ـ عليه السلام ـ يوم انفلاق البحر ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ما مصدرية والباء بمعنى مع، أى: مع رُحبها وحقيقته ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور فى موضع الحال، كقولك: دخلت عليه بثياب السفر أى: متلبساً بها والمعنى لم تجدوا موضعاً لفراركم من أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ثم انهزمتم.

•• ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التى سكنوا بها وأمنوا ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعنى: الملائكة وكانوا ثمانية آلاف، أو خمسة آلاف، أو ستة عشر ألفاً ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر وسبى النساء والذرارى ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

•• ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ وهم الذين أسلموا منهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ بستر كفر العدو بالإسلام ﴿رَّحِيمٌ﴾ بنصر الولى بعد الانهزام.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أى: ذوو نجس وهو مصدر، يقال: نجس نجساً

(١) بلق: أى سوداء وبيض معًا .
(القاموس ٣/ ٢١٤).
(٢) رواه مسلم من طريق الزهرى عن كثير عن عباس.

وقذر قذراً؛ لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ولأنهم لا تطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة فى وصفهم بها ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو عام تسع من الهجرة حين أمّر أبو بكر - رضى الله عنه - على الموسم ويكون المراد من نهى القربان النهى عن الحج والعمرة، وهو مذهبنا ولا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندنا، وعند الشافعى - رحمه الله - يمنعون من المسجد الحرام خاصة، وعند مالك يمنعون منه ومن غيره، وقيل: نهى المشركين أن يقربون راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أى: فقراً بسبب منع الشركين من الحج وما كان لكم فى قدومهم عليكم من الإرفاق والمكاسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من الغنائم، أو المطر والنبات، أو من متاجر حجيج الإسلام ﴿إِن شَاءَ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى تحقيق آمالكم، أو عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم، وأراد.

●● ونزل فى أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ لأن اليهود مثنية والنصارى مثلثة ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنهم فيه على خلاف ما يجب حيث يزعمون أن لا أكل فى الجنة ولا شرب ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ لأنهم لا يحرمون ما حرم فى الكتاب والسنة، أو لا يعملون بما فى التوراة والإنجيل ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ ولا يعتقدون دين الإسلام الذى هو الحق، يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين قبله وأما المجوس فملحقون بأهل الكتاب فى قبول الجزية وكذا الترك والهنود وغيرهما بخلاف مشركى العرب، لما روى الزهرى[1] أن النبى - عليه السلام - صالح عبدة الأوثان على الجزية إلا من كان من العرب[2] ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ إلى أن يقبلوها وسميت جزية؛ لأنه مما يجب على أهلها أن يجزوه أى: يقضوه، أو هى جزاء على الكفر على التحميل فى تذليل ﴿عَن يَدٍ﴾ أى: عن يد مواتية غير ممتنعة ولذا قالوا: أعطى بيده إذا انقاد وقالوا: نزع يده عن الطاعة، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة لا مبعوثاً على يد أحد ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: تؤخذ منهم على الصغار والذل وهو أن يأتى بها بنفسه ماشيا غير راكب ويسلمها، وهو قائم والمسلم

---

(١) هو الإمام العلم، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، القرشى، الزهرى، الفقيه، أبو بكر الحافظ المدنى، أحد الأئمة الأعلام، وعالم الحجاز والشام، روى عن ابن عمر ، وبعض صغار الصحابة، وروى عنه الناس، قال عنه ابن حجر: «كان إمامًا حجة فى الفقه، والحديث، متفق على جلالته، وإتقانه، وهو من رؤوس الطبقة الرابعة». ولد عام ٥٨ هـ ، ومات عام ١٢٤هـ.
تهذيب التهذيب (٥/ ٢٨٤-٢٨٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره.

جالس وأن يتلتل[1] تلتلة ويؤخذ بتلبيبه، ويقال له: أد الجزية يا ذمى وإن كان يؤديها ويزخ[2] فى قفاه وتسقط بالإسلام.

●● ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ كلهم أو بعضهم ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾مبتدأ وخبر، كقوله: المسيح ابن الله، وعزير اسم أعجمى ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه ومن نون وهم عاصم وعلى فقد جعله عربياً ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: قول لا يعضده برهان ولا يستند إلى بيان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ عن معنى تحته كالألفاظ المهملة ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ لابد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهى قولهم قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً يعنى: أن الذين كانوا فى عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهى قولهم قول قدمائهم يعنى: أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث، أو الضمير النصارى أى: يضاهى قولهم المسيح ابن الله قول اليهود: عزيز ابن الله؛ لأنهم أقدم منهم يضاهئون عاصم وأصل المضاهاة المشابهة، والأكثر ترك الهمز واشتقاقه من قولهم: امرأة ضهياء وهى التى أشبهت الرجال بأنها لا تحيض، كذا قاله الزجاج ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: هم أحقاء بأن يقال لهم هذا ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان.

●● ﴿اتَّخَذُوا﴾ أى: أهل الكتاب ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ نساكهم ﴿أَرْبَابًا﴾ آلهة ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم فى تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، كما يطاع الأرباب فى أوامرهم ونواهيهم ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على أحبارهم أى: اتخذوه ربا حيث جعلوه ابن الله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ يجوز الوقف عليه؛ لأن ما بعده يصلح ابتداء ويصلح وصفا لواحد ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن الإشراك.

●● ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ مثل حالهم فى طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد (ﷺ) بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الإشراق ليطفئه بنفخه. أجرى ويأبى الله مجرى لا يريد الله؛ ولذا وقع فى مقابلة يريدون وإلا لا يقال: كرهت، أو أبغضت إلا زيدا. ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمد ـ عليه السلام- ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ بالقرآن ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ علىّ أهل الأديان كلهم أو ليظهر دين الحق على كل دين ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ استعار الأكل

---

(١) التلتلة: التحريك والإقلاق والزعزعة، والسير الشديد. (انظر القاموس ٣/ ٣٤٠).

(٢) يزخ: يدفع.

للأخذ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أى بالرشا فى الأحكام ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ سفلتهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم: أخذ الرشا، وكنز الأموال والضن بها عن الإنفاق فى سبيل الخير، ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنفقين ويقرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظا وعن النبى (ﷺ): «ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان باطنا وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهرا»[١] ولقد كان كثير من الصحابة - رضى الله عنهم - كعبد الرحمن بن عوف وطلحة يقتنون الأموال ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية[٢]؛ لأن الإعراض اختيار للأفضل والاقتناء مباح لا يذم صاحبه ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى المعنى؛ لأن كل واحد منهما دنانير ودراهم، فهو كقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾[٣] أو أريد الكنوز والأموال، أو معناه ولا ينفقونها والذهب كما أن معنى قوله: * فإنى وقيار بها لغريب * وقيار كذلك وخصا بالذكر من بين سائر الأموال؛ لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء. وذكر كنزهما دليل على ما سواهما ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

●● ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أن النار تحمى عليها أى توقد، وإنما ذكر الفعل، لأنه مسند إلى الجار والمجرور أصله يوم تحمى النار عليها فلما حذفت النار، قيل: يحمى لانتقال الإسناد عن النار إلى عليها، كما تقول: رفعت القصة إلى الأمير فإن لم تذكر القصة قلت: رفع إلى الأمير ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وخصت هذه الأعضاء؛ لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا[٤] عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم، أو معناه يكوون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يقال لهم: هذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وهو توبيخ ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أى: وبال المال الذى كنتم تكنزونه، أو وبال كونكم كانزين.

●● ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ من غير زيادة، والمراد بيان أن أحكام الشرع تبتنى على الشهور القمرية المحسوبة بالأهلة دون الشمسية ﴿فِى كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما أثبته، وأوجبه من حكمته أو فى اللوح ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثلاثة سرد ذو القعدة للقعود عن القتال، وذو الحجة للحج، والمحرم لتحريم القتال فيه، وواحد فى فرد وهو رجب لترجيب العرب إياه أى:

---

(١) رواه البيهقى عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) القنية: ما يُكتسب.

(٣) الحجرات، الآية: ٩.

(٤) ازوروا: أى عدلوا.

لتعظيمه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: الدين المستقيم لاما يفعله أهل الجاهلية يعنى أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم ودين إبراهيم وإسماعيل، وكانت العرب تمسكت به فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسىء فغيروا ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ فى الحرم أو فى الاثنى عشر﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بارتكاب المعاصى ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ حال من الفاعل أو المفعول ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعا ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: ناصر لهم حثهم على التقوى بضمان النصرة لأهلها.

●● ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ بالهمزة مصدر نسأه إذا أخره، وهو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات فإذا جاء الشهر الحرام، وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمون مكانه شهرا آخر حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أى: هذا الفعل منهم زيادة فى كفرهم ﴿يُضَلُّ﴾ كوفى غير أبى بكر ﴿بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالنسىء والضمير فى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ للنسىء أى: إذا أحلوا شهرا من الأشهر الحرم عاما رجعوا فحرموه فى العام القابل ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا العدة التى هى الأربعة ولا يخالفوها، وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين واللام تتعلق بيحلونه ويحرمونه، أو بيحرمونه فحسب وهو الظاهر ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أى فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ زين الشيطان لهم ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ حال اختيارهم الثبات على الباطل.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾ اخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾ تثاقلتم وهو أصله إلا أن التاء أدغمت فى الثاء فصارت ثاء ساكنة فدخلت ألف الوصل لئلا يبتدأ بالساكن أى تباطأتم ﴿إِلَى الأَرْضِ﴾ ضمن معنى الميل والإخلاد فعدى بإلى أى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم وديار كم وكان ذلك فى غزوة تبوك استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم ذلك، وقيل: ما خرج رسول الله (ﷺ) فى غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا فى غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ﴾ فى جنب الآخرة.

●● ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا﴾ إلى الحرب ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم وأطوع، وأنه غنى عنهم فى نصرة دينه، لا يقدح

تثاقلهم فيها شيئا، وقيل: الضمير فى «ولا تضروه» للرسول عليه السلام؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ووعده كائن لا محالة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التبديل والتعذيب وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

●● ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد فدل بقوله: «فقد نصره الله» على أنه ينصره فى المستقبل كما نصره فى ذلك الوقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أسند الإخراج إلى الكفار؛ لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له فى الخروج فكأنهم أخرجوه ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أحد اثنين كقوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[1] وهما رسول الله وأبو بكر، وانتصابه على الحال ﴿إِذْ هُمَا﴾ بدل من إذ أخرجه ﴿فِي الْغَارِ﴾ هو نقب فى أعلى ثور وهو جبل فى يمنى مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاث ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان ﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصرة والحفظ قيل: طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر على رسول الله (ﷺ) فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله فقال ـ عليه السلام: «ماظنك باثنين الله ثالثهما»[2] وقيل: لما دخل الغار بعث الله حمامتين فباضتا فى أسفله والعنكبوت فنسجت عليه[3] وقال رسول الله (ﷺ): «اللهم أعم أبصارهم». فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون قد أخذ الله بأبصارهم[4] عنه. وقالوا: من أنكر صحبة أبى بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ما ألقى فى قلبه من الأمنة التى سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبى (ﷺ) أو على أبى بكر؛ لأنه كان يخاف ـ وكان عليه السلام ـ ساكن القلب ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة صرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه، أو أيده بالملائكة يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: دعوتهم إلى الكفر ﴿السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ دعوته إلى الإسلام ﴿هِيَ﴾ فصل ﴿الْعُلْيَا﴾ وكلمة الله بالنصب يعقوب بالعطف والرفع على الاستئناف أوجه إذ هى كانت ولم تزل عالية ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز بنصره أهل كلمته ﴿حَكِيمٌ﴾ يذل أهل الشرك بحكمته.

●● ﴿انفِرُوا خِفَافًا﴾ فى النفور لنشاطكم له ﴿وَثِقَالًا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو خفافا لقلة عيالكم وثقالا لكثرتها، أو خفافا من السلاح وثقالا منه، أو ركبانا ومشاة أو شبابا وشيوخا، أو مهازيل وسمانا أو صحاحا ومراضا ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ﴾ الجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من تركه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كون ذلك خيرا فبادروا إليه ونزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين.

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٧٣).

(٢) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، وفى الصحيحين عن أبى بكرة بألفاظ مختلفة.

(٣) رواه البزار. (٤) ذكره البغوى عن الزهرى.

•• ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً﴾ هو ما عرض لك من منافع الدنيا، يقال: الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر أى: لو كان ما دعوا إليه مغنما ﴿قَرِيباً﴾ سهل المأخذ ﴿وَسَفَراً قَاصِداً﴾ وسطا مقاربا، والقاصد والقصد المعتدل ﴿لأَتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك فى الخروج ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ المسافة الشاطة الشاقة ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ من دلائل النبوة؛ لأنه أخبر بما سيكون بعد القول فقالوا كما أخبر، وبالله متعلق بسيحلفون، أو هو من جملة كلامهم والقول مراد فى الوجهين أى: سيحلفون يعنى المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، أو سيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا، وقوله: لخرجنا سد مسد جوابى القسم ولو جميعا. ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة، أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل من سيحلفون، أو حال منه أى: مهلكين والمعنى أنهم يهلكونها بالحلف الكاذب، أو حال من لخرجنا أى: لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها فى التهلكة بما نحملها على السير فى تلك الشقة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون.

•• ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الزلة؛ لأن العفو رادف لها وهو من لطف العتاب بتصدير العفو فى الخطاب، وفيه دلالة فضله على سائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ حيث لم يذكر مثله لسائر الأنبياء، عليهم السلام ـ ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لماكنى عنه بالعفو ومعناه: مالك أذنت لهم فى القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ يتبين لك الصادق فى العذر من الكاذب فيه وقيل: شيئان فعلهما رسول الله (ﷺ) ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من الأسارى فعاتبه الله، وفيه دليل جواز الاجتهاد للأنبياء ـ عليهم السلام؛ لأنه عليه السلام إنما فعل ذلك بالاجتهاد، وإنما عوتب مع أن له ذلك لتركه الأفضل وهم يعاتبون على ترك الأفضل.

•• ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا﴾ ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ عدة لهم بأجزل الثواب.

•• ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعنى المنافقين، وكانوا تسعة وثلاثين رجلا ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شكوا فى دينهم واضطربوا فى عقيدتهم ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون لأن التردد ديدن المتحير كما أن الثبات ديدن المتبصر.

•• ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ﴾ للخروج، أو للجهاد ﴿عُدَّةً﴾ أهبة؛ لأنهم كانوا مياسير ولما كان ولو أرادوا الخروج معطيا معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ نهوضهم للخروج كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فكسلهم وضعف رغبتهم فى الانبعاث والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ أى: قال بعضهم لبعض، أو قاله الرسول عليه السلام غضبا عليهم، أو قاله الشيطان بالوسوسة ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ هو ذم لهم وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود فى البيوت ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم معكم ﴿إِلاَّ خَبَالاً﴾ إلا فسادا وشرا والاستثناء متصل؛ لأن المعنى مازادوكم شيئا إلا خبالا، والاستثناء المنقطع أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كقولك: مازادوكم خيرا إلا خبالا والمستثنى منه فى هذا الكلام غير مذكور، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الشىء فكان استثناء متصلا؛ لأن الخبال بعضه ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ ولسعوا بينكم بالتضريب والنمائم وإفساد ذات البين يقال وضع البعير وضعا إذا أسرع وأوضعته أنا، والمعنى ولأوضعوا ركائبهم بينكم والمراد الإسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشى. وخط فى المصحف: (ولا أوضعوا)؛ بزيادة الألف؛ لأن الفتحة كانت تكتب ألفا قبل الخط العربى والخط العربى اخترع قريبا من نزول القرآن وقد بقى من تلك الألف أثر فى الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفا وفتحها ألفا أخرى ونحوه: ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّه﴾[1] ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ حال من الضمير فى أوضعوا ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أى يطلبون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم فى مغزاكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أى: نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ بالمنافقين.

●● ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ بصد الناس، أو بأن يفتكوا به ـ عليه السلام ـ ليلة العقبة، أو بالرجوع يوم أحد ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ ودبروا لك الحيل والمكايد ودوّرواالآراء فى إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وغلب دينه وعلا شرعه ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أى: على رغم منهم.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي﴾ ولا توقعنى فى الفتنة، وهى الإثم بأن لا تأذن لى فإنى إن تخلفت بغير إذنك أثمت، أولا تلقنى فى الهلكة فإنى إذا خرجت معك هلك مالى وعيالى، وقيل: قال الجد بن قيس المنافق: قد علمت الأنصار إنى مستهتر بالنساء فلا تفتنى ببنات الأصفر يعنى نساء الروم ولكنى أعينك بمالى فاتركنى ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يعنى أن الفتنة هى التى سقطوا فيها وهى فتنة التخلف ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الآن؛ لأن أسباب الإحاطة معهم أو هى تحيط بهم يوم القيامة.

●● ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ فى بعض الغزوات ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ نكبة

---

(١) سورة «النمل»، الآية (٢١).

وشدة فى بعضها نحو ما جرى يوم أحد ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ الذى نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل ما وقع ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عن مقام التحدث بذلك إلى أهاليهم ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسروررون.

•• ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى: قضى من خير أو شر ﴿هُوَ مَوْلانَا﴾ أى: الذى يتولانا ونتولاه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله.

•• ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا ﴿إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما النصرة والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوءيين إما ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ وهو قارعة من السماء، كما نزلت على عاد وثمود ﴿أَوْ﴾ بعذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا ما ذكرنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

•• ﴿قُلْ أَنفِقُوا﴾ فى وجوه البر ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ طائعين، أو مكرهين نصب على الحال. كُرها حمزة وعلى وهو أمر فى معنى الخبر ومعناه ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ أنفقتم طوعا، أو كرها، ونحوه: استغفر لهم أولا تستغفر لهم ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(1) وقوله:

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

أى: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم ستغفر لهم، ولا نلومك أسأت إلينا، أو أحسنت وقد جاز عكسه فى قولك: رحم الله زيدا ومعنى عدم القبول أنه ـ عليه السلام ـ يردها عليهم ولا يقبلها أولا يثيبها الله وقوله: طوعا أى من غير إلزام من الله ورسوله وكرها أى: ملزمين، وسمى الإلزام إكراها؛ لأنهم منافقون فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عيهم كالإكراه ﴿إِنَّكُمْ﴾ تعليل لرد إنفاقهم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ متمردين عاتين.

•• ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ وبالياء حمزة وعلى ﴿إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ أنهم فاعل منع وهم وأن تقبل مفعولاه أى: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ جمع كسلان ﴿وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لأنهم لا يريدون بهما وجه الله تعالى وصفهم بالطوع فى قوله طوعا وسلبه عنهم ههنا؛ لأن المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله (ﷺ) أو من رؤسائهم وما طوعهم ذلك إلا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار.

•• ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الإعجاب بالشىء أن تسر به سرور راض به متعجب من حسنه والمعنى فلا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا فإن الله إنما أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها، أو بالإنفاق منه فى أبواب الخير وهم

(1) سورة «التوبة»، الآية (80)

كارهون له، أو بنهب أموالهم وسبى أولادهم، أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها، وكل هذا عذاب ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وتخرج أرواحهم، وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ودلت الآية على بطلان القول بالأصلح؛ لأنه أخبر أن إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب والإماتة على الكفر وعلى إرادة الله تعالى المعاصى؛ لأن إرادة العذاب بإرادة ما يعذب عليه، وكذا إرادة الإماتة على الكفر.

●● ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ لمن جملة المسلمين ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين؛ فيتظاهرون بالإسلام تقية.

●● ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا﴾ مكانا يلجئون إليه متحصنين من رأس جبل، أو قلعة أو جزيرة ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ أو غيرانا ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾ أو نفقا يندسون فيه وهو مفتعل من الدخول ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا نحوه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يسرعون إسراعا لا يردهم شيء من الفرس الجموح.

●● ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن المنافقين ﴿مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبك فى قسمة الصدقات ويطعن عليك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ إذا للمفاجاة أى: وإن لم يعطوا منها فاجؤوا السخط، وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله؛ لأنه - عليه السلام - استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ جواب لو محذوف، تقديره ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم، والمعنى ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم، وقالوا: كفانا فضل الله وصنعه وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله (ﷺ) أكثر مما آتانا اليوم، إنا إلى الله فى أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون، ثم بين مواضعها التى توضع فيها فقال.

●● ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة أى: هى مختصة بهم لا تتجاوز إلى غيرهم، كأنه قيل: إنما هى لهم لا لغيرهم، كقولك: إنما الخلافة لقريش تريد لا تتعداهم، ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا، وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنهم قالوا: فى أى صنف منها وضعتها أجزأك، وعند الشافعى - رحمه الله - لابد من صرفها إلى الأصناف - وهو المروى عن عكرمة - ثم الفقير الذى لا يسأل؛ لأن عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذى يسأل؛ لأنه لا يجد شيئا فهو أضعف حالا منه، وعند الشافعى - رحمه الله - على العكس ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ هم السعاة الذين يقبضونها ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾على الإسلام أشراف من العرب كان رسول الله (ﷺ) يتألفهم على أن يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريرا لهم على الإسلام﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾

هم المكاتبون يعانون منها ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الذين ركبتهم الديون ﴿وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله وعدل عن اللام إلى فى فى الأربعة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره؛ لأن فى للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها. وتكرير فى فى قوله وفى سبيل الله وابن السبيل فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين، وإنما وقعت هذه الآية فى تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسما لأطماعهم وإشعارا بأنهم بعداء عنها وعن مصارفها فما لهم وما لها وما سلطهم على التكلم فيها ولمن قاسمها، وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة فى صدر خلافة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ لأن الله أعز الإسلام وأغنى عنهم والحكم متى ثبت معقولا لمعنى خاص يرتفع وينتهى بذهاب ذلك المعنى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فى معنى المصدر المؤكد؛ لأن قوله: إنما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة ﴿حَكِيمٌ﴾ فى القسمة.

•• ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ الأذن: الرجل الذى يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد سمى بالجارحة التى هى آلة السماع، كأن جملته أذن سامعة وإيذاؤهم له هو قولهم فيه: هو أذن قصدوا به المذمة، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرة ففسره الله تعالى بما هو مدح له وثناءعليه فقال: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ كقولك: رجل صدق تريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نعم الأذن، ويجوز أن يريد هو أذن فى الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بأذن فى غير ذلك ثم فسركونه أذن خير بأنه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أى: يصدق بالله لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار وعدى فعل الإيمان بالباء إلى الله؛ لأنه قصد به التصديق بالله الذى هو ضد الكفر به وإلى المؤمنين باللام؛ لأنه قصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1] كيف ينبو عن الباء ﴿وَرَحْمَةٌ﴾[2] بالعطف على أذن. ورحمة حمزة عطف على خير أى هو أذن خير وأذن رحمة لا يسمع غيرهما، ولا يقبله ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أى: وهو رحمة للذين آمنوا منكم أى: أظهروا الإيمان أيها المنافقون حيث يقبل إيمانكم الظاهر ولا يكشف أسراركم ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين، أو هو رحمة للمؤمنين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان ويشفع لهم فى الآخرة بإيمانهم فى الدنيا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدارين.

•• ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن، أو

(١) سورة «يوسف»، الآية (١٧).
(٢) (ورحمة) أى: بالرفع.

يتخلفون عن الجهاد، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم فقيل لهم: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق، وإنما وحد الضمير؛ لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسول الله فكانا فى حكم شىء واحد كقولك: إحسان زيد وإجماله نعشنى، أو والله أحق أن يرضوه ورسوله، كذلك.

●● ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أن الأمر والشأن ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يجاوز الحد بالخلاف وهي مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ على حذف الخبر أى: فحق أن له ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

●● ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ خبر بمعنى الأمر أى: ليحذر المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ تنزل بالتخفيف مكى وبصرى ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والنفاق والضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت فى معناهم فهى نازلة عليهم دليله قل: «استهزءوا»، أو الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين وصح ذلك؛ لأن المعنى يقود إليه ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ مظهر ما كنتم تحذرونه أى: تحذرون إظهاره من نفاقكم وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحى فيهم وفى استهزائهم بالإسلام وأهله حتى قال بعضهم: وددت أنى قدّمت فجلدت مائة وأنه لا ينزل فينا شىء يفضحنا.

●● ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ بينا رسول الله (ﷺ) يسير فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال: احسبوا على الركب فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يا نبى الله لا والله ما كنا فى شىء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر[1]، أى: ولئن سألتهم وقلت لهم: لم قلتم ذلك لقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ لم يعبأ باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود فيهم حتى وبخوا بإخطائهم موقع الاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلى حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد ثبوت الاستهزاء.

●● ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ لاتشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ قد أظهرتم كفركم باستهزائكم ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق غير تائبين منه إن يعف تعذب طائفة غير عاصم.

---

(١) ذكره الواحدى عن قتادة.

●● ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ الرجال المنافقون كانوا ثلثمائة، والنساء المنافقات مائة وسبعين ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى: كأنهم نفس واحدة، وفيه نفى أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم فى قولهم: ويحلفون بالله إنهم لمنكم، وتقرير لقوله وما هم منكم، ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ بالكفر والعصيان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الطاعة والإيمان ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ شحا بالمبار والصدقات والإنفاق فى سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا أمره، أو أغفلوا ذكره ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم من رحمته وفضله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الكاملون فى الفسق الذى هو التمرد فى الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذى وصف به المنافقون حين بالغ فى ذمهم.

●● ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿هِيَ﴾ أى: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ فيه دلالة على عظم عذابها، وأنه بحيث لا يزاد عليه ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم معهم فى العاجل لا ينفكون عنه وهو ما يقاسونه من تعب النفاق، والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

●● الكاف فى ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ﴾ محلها رفع أى: أنتم مثل الذين قبلكم، أو نصب على فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم، وهو أنكم استمتعتم بخلاقكم كما استمتعوا بخلاقكم أى تلذذوا بملاذ الدنيا. والخلاق النصيب مشتق من الخلق، وهو التقدير أى: ما خلق للإنسان بمعنى قدر من خير ﴿وَخُضْتُمْ﴾ فى الباطل ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كالفوج الذى خاضوا أو كالخوض الذى خاضوا والخوص الدخول فى الباطل واللهو، وإنما قدم فاستمتعوا بخلاقهم وقوله: كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه ليذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة وطلب الفلاح فى الآخرة، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فى مقابلة قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ثم ذكر نبأ من قبلهم فقال.

●● ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ﴾ هو بدل من الذين ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ مدائن قوم لوط وائتفاكهن انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما صح منه أن يظلمهم

---

(١) سورة «العنكبوت»، الآية (٢٧).

بإهلاكهم؛ لأنه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر وتكذيب الرسل.

●● ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فى التناصر والتراحم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالطاعة والإيمان ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والعصيان ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهى تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد فى سأنتقم منك يوماً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شىء قادر عليه فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿حَكِيمٌ﴾ واضع كلام موضعه.

●● ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ يطيب فيها العيش وعن الحسن ـ رحمة الله ـ قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ هو علم بدليل قوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾(١) وقد عرفت أن الذى والتى وضعا لوصف المعارف بالجمل، وهى مدينة فى الجنة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وشىء من رضوان الله ﴿أَكْبَرُ﴾ من ذلك كله؛ لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وعد، أو إلى الرضوان ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وحده دون ما يعده الناس فوزاً.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فى الجهادين جميعا ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه يجاهد بالحجة وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

أقام رسول الله (ﷺ) فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم. منهم الجلاس بن سويد(٢) فقال: والله لئن كان ما يقول محمد حقا لإخواننا الذين خلفناهم وهم سادتنا فنحن شر من الحمير. فقال عامر بن قيس الأنصارى(٣) للجلاس: أجل. والله إن محمداً صادق وأنت شر من الحمار. وبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فاستحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامر يده فقال: اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب؛ فنزل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ يعنى إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من

---

(١) سورة «مريم»، الآية (٦١).

(٢) الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصارى ، أسلم نفاقًا ، ولما نزلت هذه الآية تاب وحسنت توبته.

(٣) عامر بن قيس الأنصارى ابن عم الجلاس بن سويد، آله ما يقوله المنافقون؛ فانتصر لله فصدقه الله بنزول الآية.

الحمير أو هى استهزاؤهم فقال الجلاس يا رسول الله! والله لقد قلته وصدق عامر فتاب الجلاس وحسنت توبته ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام وفيه دلالة على أن الإيمان والإسلام واحد؛ لأنه قال: وكفروا بعد إسلامهم ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ من قتل محمد ـ عليه السلام ـ أو قتل عامر لرده على الجلاس، وقيل. أرادوا أن يتوجوا ابن أبى وإن لم يرض رسول الله (ﷺ) ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله (ﷺ) المدينة فى ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأوثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى؛ فأمر رسول الله (ﷺ) بديته اثنى عشر ألفا فاستغنى ﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ عن النفاق ﴿يَكُ﴾ التوب ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهى الآية التى تاب عندها الجلاس ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾ يصروا على النفاق ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ بالقتل والنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم من العذاب.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾. روى أن ثعلبة بن حالب قال: يا رسول الله! ادع الله أن يرزقنى مالا. فقال ـ عليه السلام ـ: «يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» فراجعه وقال: والذى بعثك بالحق لئن رزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه فدعا له فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة فنزل واديا وانقطع عن الجمعة والجماعة فسأل عنه رسول الله (ﷺ) فقيل: كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال: «ياويح ثعلبة» فبعث رسول الله (ﷺ) مصدّقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال ما هذه إلاجزية، وقال: ارجعا حتى أرى رأيى فلما رجعا قال لهما رسول الله (ﷺ) قبل أن يكلماه: «ياويح ثعلبة» مرتين فنزلت؛ فجاء ثعلبة بالصدقة فقال: إن الله منعنى أن أقبل منك فجعل التراب على رأسه فقبض رسول الله (ﷺ) فجاء بها إلى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فلم يقبلها وجاء بها إلى عمر رضى الله عنه فى خلافته فلم يقبلها وهلك فى زمان عثمان ـ رضى الله عنه ـ ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ أى المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ لنخرجن الصدقة والأصل لنتصدقن ولكن التاء أدغمت فى الصاد لقربها منها ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بإخراج الصدقة.

●● ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أعطاهم الله المال ونالوا مناهم ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ مصرون على الإعراض ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم لأنه كان سببا فيه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أى: جزاء فعلهم وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين، ومنه جعل خلف الوعد ثلث النفاق.

●● ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ يعنى: المنافقين ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه من النفاق بالعزم على

إخلاف ما وعدوه ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شىء.

●● ﴿الَّذِينَ﴾ محله النصب أو الرفع على الذم، أو الجر على البدل من الضمير فى سرهم ونجواهم ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعيبون المطوعين المتبرعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ متعلق بيلمزون. روى أن رسول الله (ﷺ) حث على الصدقة فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: كان لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالى فقال ـ عليه السلام ـ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» ـ فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا، وتصدق عاصم[1] بمائة وسق من تمر ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على المطوعين ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طاقتهم وعن نافع جهدهم وهما واحد وقيل: الجهد الطاقة والجهد المشقة، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال: بت ليلتى أجر بالجرير على صاعين فتركت صاعا لعيالى وجئت بصاع فلمزهم المنافقون، وقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياء، وأما صاع أبى عقيل فالله غنى[2] عنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فيهزءون ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم، وهو خبر غير دعاء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

ولما سأل عبدالله بن عبدالله بن أبى[3] رسول الله (ﷺ) أن يستغفر لأبيه فى مرضه نزل ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وقد مر أن هذا الأمر فى معنى الخبر كأنه قيل: لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ والسبعون جار مجرى المثل فى كلامهم للتكثير وليس على التحديد والغاية إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم؛ لأنهم كفار والله لا يغفر لمن كفر به، والمعنى وإن بالغت فى الاستغفار فلن يغفر الله لهم وقد وردت الأخبار بذكر السبعين وكلها تدل على الكثرة لا على التحديد والغاية، ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد أن العدد قليل وكثير فالقليل ما دون الثلاث والكثير الثلاث فما فوقها وأدنى الكثير الثلاث وليس لأقصاه غاية، والعدد أيضا نوعان شفع ووتر، وأول الاشفاع اثنان وأول

(١) هو الصحابى، عاصم بن عدى بن الجد بن العجلان، العجلانى، القضاعى، أبو عبد الله ، حليف الأنصار، شهد أحدًا، وكان رسول الله ﷺ استعمله على أهل قباء وأهل العالية، فلم يشهد بدرًا، وضرب له بسهمه، مات - رضى الله عنه - فى ولاية معاوية ـ عام ٤٥ هـ - وهو ابن ١١٥ عامًا.
تهذيب التهذيب (٣/ ٣٦).

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس، والبزار من حديث أبى هريرة، وقصة أبى عقيل فى البخارى من حديث أبى مسعود الأنصارى .

(٣) هو الصحابى الجليل، عبدالله بن عبد الله بن أبى بن سلول، كان من فضلاء الصحابة، والده رأس النفاق: عبد الله بن أبى بن سلول، ولكن الابن كان محباً لله ورسوله ﷺ، حتى إنه استأذن النبى ﷺ أن يقتل أباه، فلم يأذن له، انظر ترجمة الأب عند تفسير الآية (١٢١)، من سورة «آل عمران».

الأوتار ثلاثة، والواحد ليس بعدد والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين؛ لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعا ثلاثة والعشرة كمال الحساب؛ لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة كقولك: اثنا عشر وثلاثة عشرة إلى عشرين، والعشرون تكرير العشرة مرتين، والثلاثون تكريرها ثلاث مرات وكذلك إلى مائة فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه، وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العد من كل وجه ولا غاية لأقصاه، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا المعنى، والله أعلم ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اليأس من المغفرة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولا غفران للكافرين ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن الإيمان ماداموا مختارين للكفر والطغيان.

●● ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ المنافقون الذين استأذنوا رسول الله (ﷺ) فأذن لهم وخلّفهم بالمدينة فى غزوة تبوك، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مخالفة له وهو مفعول له، أو حال أى: قعدوا لمخالفته أو مخالفين له ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: لم يفعلوا ما فعله المؤمنون من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان وداعى الإيقان ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال بعضهم لبعض، أو قالوا للمؤمنين تثبيطا ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ استجهال لهم؛ لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد كان أجل من كل جاهل.

●● ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ أى: فيضحكون قليلا على فرحهم بتخلفهم فى الدنيا ويبكون كثيراً جزاء فى العقبى إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره، يروى أن أهل النفاق يبكون فى النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق.

●● ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أى: ردك من تبوك وإنما قال: ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ لأن منهم من تاب من النفاق ومنهم من هلك ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة بعد غزوة تبوك ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ وبسكون الياءحمزة وعلى وأبو بكر ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ معى حفص ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أول ما دعيتم إلى غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ مع من تخلف بعد.

وسأل ابن عبدالله بن أبى ـ وكان مؤمنا ـ أن يكفن النبى (ﷺ) أباه فى قميصه ويصلى عليه فقبل فاعترض عمر ـ رضى الله عنه ـ فى ذلك فقال ـ عليه السلام ـ : «ذلك لا ينفعه وإنى أرجو أن

يؤمن به ألف من قومه»[1]. فنزل ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ من المنافقين يعنى صلاة الجنازة روى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب التبرك بثوب النبى ﷺ[2] ﴿مَّاتَ﴾ صفة لأحد ﴿أَبَدًا﴾ ظرف لتصل وكان عليه السلام إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فقيل: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليل للنهى أى أنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله.

●● ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ التكرير للمبالغة والتأكيد وأن يكون على بال من المخاطب لا ينساه وأن يعتقد أنه مهم؛ ولأن كل آية فى فرقة غير الفرقة الأخرى.

●● ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يجوز أن يراد سورة بتمامها وأن يراد بعضها كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا، وهى أن المفسرة ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ مع الذين لهم عذر فى التخلف كالمرضى والزمنى.

●● ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أى النساء جمع خالفة ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما فى الجهاد من الفوز والسعادة، وما فى التخلف من الهلاك والشقاوة.

●● ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أى: إن تخلف هؤلاء فقد نهض إلى الغزو من هو خير منهم ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ تناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ، وقيل: الحور؛ لقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾[3] ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل مطلوب.

●● ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قوله: أعد دليل على أنها مخلوقة.

●● ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ هو من عذّر فى الأمر إذا قصر فيه وتوانى، وحقيقته أن يوهم أن له عذرًا فيما فعل ولا عذر له، أو المعتذْرون بإدغام التاء فى الذال ونقل حركتها إلى العين، وهم الذين يعتذرون بالباطل قيل: هم أسد وغطفان قالوا: إن لنا عيالا وإن بنا جهدا فأذن لنا فى التخلف ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا

(١) القصة متفق عليها، ولكن اللفظ والإسناد مختلف فيهما.
(٢) رواه الطبرى عن قتادة مرسلاً.
(٣) سورة «الرحمن»، الآية (٧٠).

ولم يعتذروا فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله فى ادعائهم الإيمان ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار.

●● ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ الهرمى والزمنى ﴿وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ هم الفقراء من مزينة وجهينة وبنى عذرة ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وضيق فى التأخر ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بأن آمنوا فى السر والعلن وأطاعوا، كما يفعل الناصح بصاحبه ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ المعذورين الناصحين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ أى: لاجناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر تخلفهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

●● ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ لتعطيهم الحمولة ﴿قُلْتَ﴾ حال من الكاف فى أتوك وقد قبله مضمرة أى: إذا ما أتوك قائلا ﴿لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا﴾ هو جواب إذا ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أى: تسيل، كقولك: تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها؛ لأن العين جعلت كان كلها دمع فائض ومن للبيان، كقولك: أفديك من رجل ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز، ويجوز أن يكون قلت لا أجد استئنافاً، كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولوا فقيل: مالهم تولوا باكين، فقيل: قلت لا أجد ما أحملكم عليه إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض ﴿حَزَنًا﴾ مفعول له ﴿أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ لئلا يجدوا ما ينفقون ومحله نصب على أنه مفعول له وناصبة حزنا، والمستحملون أبو موسى الأشعرى[1] وأصحابه، أو البكاؤن وهم ستة نفر يمن الأنصار ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ فى التخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ وقوله: ﴿رَضُوا﴾ استئناف، كأنه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل: رضوا ﴿بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أى: بالانتظام فى جملة الخوالف ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

●● ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ يقيمون لأنفسهم عذراً باطلا ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السفرة ﴿قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا﴾ بالباطل ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم، وهو علة للنهى عن الاعتذار؛ لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ علة لانتفاء تصديقهم؛ لأنه تعالى إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما فى ضمائرهم لم يستقم مع ذلك تصديقهم فى معاذيرهم

---

(١) هو الصحابى الشهير: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، أبو موسى الأشعرى، مناقبه كثيرة، فهو من الفاتحين المجاهدين، وهو من العلماء العظام العاملين، وكان - رضى الله عنه - من أحسن الناس صوتًا، حتى إن الرسول ﷺ قال له : «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». وهو من أقضى الصحابة، حتى إنه كان أحد الحكمين الذين رضى بهما على ومعاوية بعد حرب صفين، أسلم قبل الهجرة، توفى بعد عام ٤٠هـ وقد تجاوز الستين، على خلاف فى ذلك .
تهذيب التهذيب (٣/ ٢٣٤، ٢٣٥).

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أتنيبون أم تثبتون على كفركم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: تردون إليه، وهو عالم كل سر وعلانية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ذلك.

●● ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتتركوهم ولا توبخوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فأعطوهم طلبهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تعليل لترك معاتبتهم أى أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم؛ لأنهم أرجاس لاسبيل إلى تطهيرهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومصيرهم النار يعنى وكفتهم النار عتاباً وتوبيخا فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: يجزون جزاء كسبهم.

●● ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾أى: غرضهم بالحلف بالله طلب رضاكم لينفعهم ذلك فى دنياهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها، وإنما قيل ذلك؛ لئلا يتوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم.

●● ﴿الأَعْرَابُ﴾ أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وبعدهم عن العلم والعلماء ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا﴾ وأحق بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعنى: حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام ومنه قوله ـ عليه السلام ـ : «إن الجفاء والقسوة فى الفدادين»(١). يعنى الأكرة؛ لأنهم يفدون أى يصيحون فى حروثهم والفديد الصياح ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى إمهالهم.

●● ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ أى: يتصدق ﴿مَغْرَمًا﴾ غرامة وخسرانا؛ لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله وابتغاء المثوبة عنده ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أى: دوائر الزمان وتبدل الأحوال بدور الأيام لتذهب غلبتكم عليه فيتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى: عليهم تدور المصائب والحروب التى يتوقعون وقوعها فى المسلمين. السُّوء مكى وأبو عمرو، وهو العذاب والسوء بالفتح ذم للدائرة، كقولك: رجل سوء فى مقابلة قولك: رجل صدق ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرونه.

●● ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ فى الجهاد والصدقات ﴿قُرُبَاتٍ﴾ أسبابا للقربة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وهو مفعول ثان ليتخذ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أى: دعاءه لأنه ـ عليه السلام ـ كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله: «اللهم صل على آل أبى أَوْفَى»(٢)

(١) هذا الحديث متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه.
(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن أبى أوفى، رضى الله عنه وعن آله.

﴿أَلا إِنَّهَا﴾ أى: النفقة أو صلوات الرسول ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ قربة نافع وهذا شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه وكذلك ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى: جنته وما فى السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر عيب المخل ﴿رَّحِيمٌ﴾ يقبل جهد المقل.

•• ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿الأَوَّلُونَ﴾ صفة لهم ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ تبيين لهم وهم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدرا، أو بيعة الرضوان ﴿وَالأَنصَارِ﴾ عطف على المهاجرين أى: ومن الأنصار وهم أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ من المهاجرين والأنصار فكانوا سائر الصحابة، وقيل: هم الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة والخبر ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ عطف على رضى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ﴾ من تحتها مكى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

•• ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يعنى: حول بلدتكم، وهى المدينة ﴿مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار، وكانوا نازلين حولها ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على خبر المبتدأ الذى هو ممن حولكم، والمبتدأ منافقون ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت ومن أهل المدينة قوم ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أى: تمهروا فيه على أن مردوا صفة موصوف محذوف، وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ودل على مهارتهم فيه بقوله: ﴿لا تَعْلَمُهُمْ﴾ أى: يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط تنوقهم(١) فى تحامى ما يشككك فى أمرهم، ثم قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أى: لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره؛ لأنهم يبطنون الكفر فى سويداء قلوبهم ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ هما القتل وعذاب القبر أو الفضيحة وعذاب القبر، أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أى: عذاب النار.

•• ﴿وَآخَرُونَ﴾ أى: قوم آخرون سوى المذكورين ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا نادمين، وكانوا عشرة فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد فقدم رسول الله (ﷺ) فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت عادته كلما قدم من سفر فرآهم موثقين فسأل عنهم فذكر

---

(١) التنوّق: المبالغة فى تجويد الشىء، يُقال: تنوّق فى ملبسه، وتنوّق فى منطقه.
(المعجم الوسيط ٢/ ٩٦٤).

له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله (ﷺ) هو الذى يحلهم فقال: وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت فأطلقهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا. فقال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[1]. ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا﴾ خروجا إلى الجهاد ﴿وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ تخلفا عنه، أو التوبة والإثم وهو من قولهم: بعت الشاء شاة ودرهما أى شاة بدرهم فالواو بمعنى الباء؛ لأن الواو للجمع والباء للإلصاق فيتناسبان، أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به، كقولك: خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه بخلاف قولك: خلطت الماء باللبن؛ لأنك جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به، وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطا بهما، كأنك قلت: خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولم يذكر توبتهم؛ لأنه ذكر اعترافهم بذنوبهم، وهو دليل على التوبة.

•• ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ كفارة لذنوبهم، وقيل: هى الزكاة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب، وهو صفة لصدقة والتاء للخطاب، أو لغيبة المؤنث والتاء فى ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ للخطاب لا محالة ﴿بِهَا﴾ بالصدقة والتزكية مبالغة فى التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة فى المال ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم والسنة أن يدعو المصدق لصاحب الصدقة إذا أخذها ﴿إِنَّ صَلاتَكَ﴾ صلاتك كوفى غير أبى بكر قيل: الصلاة أكثر من الصلوات؛ لأنها للجنس ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما فى ضمائرهم من الندم والغم لما فرط منهم.

•• ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ المراد المتوب عليهم أى: ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صحت ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ويقبلها إذا صدرت على خلوص النية وهو للتخصيص أى: إن ذلك ليس إلى رسول الله (ﷺ) إنما الله هو الذى يقبل التوبة ويردها فاقصدوه بها ووجهوها إليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير قبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ يعفو الحوبة.

•• ﴿وَقُلِ﴾ لهؤلاء التائبين ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فإن عملكم لا يخفى خيرا كان أو شرا على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم، أو غير التائبين ترغيبا لهم فى التوبة، فقد روى أنه لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا: هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فمالهم؟ فنزلت وقوله تعالى فسيرى الله. وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ما يغيب عن الناس ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما يشاهدونه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تنبئة تذكير ومجازاة عليه.

(١) انظر البيهقى فى الدلائل. والآية هى الآية التالية.

●● ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ بغير همز مدنى وكوفى غير أبى بكر مرجئون غيرهم من أرجيته وأرجأته إذا أخرته، ومنه المرجئة أى: وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا ولم يتوبوا ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا وهم ثلاثة: كعب بن مالك[1] وهلال بن أمية[2]، ومرارة بن الربيع[3]، تخلفوا عن غزوة تبوك وهم الذين ذكروا فى قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ برجائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى إرجائهم وإما للشك وهو راجع إلى العباد أى: خافوا عليهم العذاب وأرجو لهم الرحمة. وروى أنه ـ عليه السلام ـ أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل ذلك الفريق من شد أنفسهم على السوارى وإظهار الجزع والغم، فلما علموا أن أحدا لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله وأخلصوا نياتهم ونصحت توبتهم فرحمهم الله.

●● ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ تقديره ومنهم الذين اتخذوا الذين بغيرواو مدنى وشامى، وهو مبتدأ خبره محذوف، أى: جازيناهم ـ روى أن بنى عمرو بن عوف[4] لما بنو مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله (ﷺ) أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف[5] وقالوا: نبنى مسجدا ونرسل إلى رسول الله يصلى فيه ويصلى فيه أبو عامر الراهب[6] إذا قدم من الشام وهو الذى قال لرسول الله ـ عليه السلام ـ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قباء، وقالوا للنبى (ﷺ): بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة ونحن نحب أن تصلى لنا فيه فقال: «إنى على جناح سفر وإذا قدمنا من تبوك إن شاء الله

---

(١) أول الثلاثة: كعب بن مالك - واسمه عمرو - بن القين بن كعب الأنصارى، السلمى، أبو عبد الله؛ صحابى جليل، مناقبه كثيرة، فهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة، وهو أحد الشعراء الذين كانوا يهاجون عن النبى ﷺ وكانت له زلات، وهى تخلفه عن غزوة تبوك وتخلف عن بدر، ولكن الله تاب عليه، وزلاته لا تقدح فى جلالته، توفى حوالى عام ٥٠ هـ على خلاف.
تهذيب التهذيب (٤/ ٥٩٦).

(٢) والثانى: هلال بن أمية بن واقف بن امرئ القيس بن مالك، الأنصارى الأوسى، الواقفى، شهد بدرًا، وتخلف عن تبوك، وتاب الله عليه. الأنساب (٥/ ٥٦٧).

(٣) الثالث: مرارة بن الربيع العامرى شهد بدراً كذلك.

(٤) عمرو بن عوف: جد جاهلى من الأزد، وتفرعت سلالته إلى بطون.
الأعلام (٥/ ٨٢).

(٥) غنم بن عوف: جد جاهلى من الأزد، وتفرعت سلالته إلى بطون.
الأعلام (٥/ ١٢٢).

(٦) أبو عامر الراهب، اسمه: عمرو بن صيفى بن مالك بن أمية، أوسى، جاهلى ومن أهل المدينة، كان يتحنف فى الجاهلية ويتكلم عن البعث، ولما ظهر الإسلام لم يؤمن؛ حسدًا للنبى ﷺ، وقاتل مع المشركين، مات عام ٩هـ.
الأعلام (٥/ ٧٩).

صلينا فيه». فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت عليه فقال لوحشي- قاتل حمزة- ومعن بن عدى وغيرهما: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه». ففعلوا[1] وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام ﴿ضِرَارًا﴾مفعول له، وكذا ما بعد أى: مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للنفاق﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين فى مسجد قباء فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ﴾وإعداد لأجل من﴿حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾وهو الراهب أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول الله(ﷺ)وقيل: كل مسجد بنى مباهاة أو رياء أو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بحارب أى: من قبل بناء هذا المسجد يعنى يوم الخندق﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ كاذبين ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى، وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾فى حلفهم.

●● ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ اللام للابتداء، وأسس نعت له وهو مسجد قباء أسسه رسول الله (ﷺ) وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهى يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة، أو مسجد رسول الله (ﷺ) بالمدينة ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده، قيل: القياس فيه منذ لأنه لابتداء الغاية فى الزمان ومن لابتداء الغاية فى المكان، والجواب إن من عام فى الزمان والمكان ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مصليا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قيل: لما نزلت مشى رسول الله (ﷺ) ومعه المهاجرون حتى وقفوا على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس، فقال: أمؤمنون أنتم فسكت القوم، ثم أعادها فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال ـ عليه السلام ـ : «أترضون بالقضاء»؟. قالوا: نعم. : قال: «أتصبرون على البلاء؟». قالوا: نعم. قال: «أتشكرون فى الرخاء؟». قالوا: نعم. قال ـ عليه السلام: «مؤمنون أنتم ورب الكعبة». فجلس. ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذى تصنعون عند الوضوء وعند الغائط» فقالوا: يا رسول الله تتبع الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار الماء فتلا النبى عليه السلام: رجال يحبون أن يتطهروا[2]. قيل: هو عام فى التطهر عن النجاسات كلها، وقيل: هو التطهر من الذنوب بالتوبة ومعنى محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشىء ومعنى محبة الله إياهم أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه.

●● ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ وضع أساس ما يبنيه ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ هذا سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه والمعنى أفمن أسس بنيان

---

(١) أخرجه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق ، وابن أبى حاتم.

(٢) روى ذلك الطبرى والحاكم.

دينه على قاعدة محكمة، وهى تقوى الله ورضوانه خير أم من أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمساك، وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازا عما ينافى التقوى، والشفا: الحرف والشفير، وجرف الوادى: جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا، والهار الهائر، وهو المتصدع الذى أشفى على التهدم والسقوط، ووزنه فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف،وألفه ليس بألف فاعل، إنما هى عينه، وأصله هور فقلبت ألفا؛ لتحركها وانفتاح ما قبلها، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام، ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره. أفمن أسس بنيانه؛ أمن أسس شامى ونافع، جرف شامى وحمزة ويحيى، هاريًا لأمالة أبو عمرو وحمزة فى رواية ويحيى ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فطاح به الباطل فى نار جهنم، ولما جعل الجرف الهائر مجازا عن الباطل رشح المجاز فجىء بلفظ الانهيار الذى هو للجرف؛ وليصور أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف هار من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف؛ فهوى فى قعرها، قال جابر: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار(١) ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يوفقهم للخير؛ عقوبة لهم على نفاقهم.

●● ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم، لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم ﴿إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ شامى وحمزة وحفص، أى: تتقطع. غيرهم تُقطع، أى: إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء فحينئذ يسلون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، ثم يجوز أن يكون ذكر التقطع تصوير الحال زوال الريبة عنها، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم، أوفى القبور، أوفى النار، أو معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعزائمهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فى جزاء جرائمهم.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله بالشراء، وروى: تاجرهم، فأغلى لهم الثمن، وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها، ومر برسول الله (ﷺ) أعرابى وهو يقرؤها فقال: بيع والله مربح؛ لا نقيله ولا نستقيله؛ فخرج إلى الغزو واستشهد ﴿يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بيان محل التسليم ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى تارة يقتلون العدوّ وطوراً يقتلهم العدو فيقتلون. ويقتلون حمزة وعلى ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ مصدر أى: وعدهم بذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾ صفته،أخبر بأن هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت قد أثبته ﴿فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ وهو دليل على أن أهل كل ملة أمروا بالقتال ووعدوا عليه، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكريم منا فكيف بأكرم الأكرمين، ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن منه وأبلغ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى

(١) رواه الطبرى أيضًا .

بَايَعْتُم بِهِ﴾ فافرحوا غاية الفرح فإنكم تبيعون فانيا بباق ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قال الصادق: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها.

●● ﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح، أى: هم التائبون يعنى: المؤمنين المذكورين، أو هو مبتدأ خبره ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أى: الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة، وما بعده خبر بعد خبر، أى: التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال، وعن الحسن: هم الذين تابوا من الشرك وتبرءوا من النفاق ﴿الْحَامِدُونَ﴾ على نعمة الإسلام ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ـ عليه السلام ـ : «سياحة أمتى الصيام»(١). أو طلبة العلم؛ لأنهم يسيحيون فى الأرض يطلبونه فى مظانه، أو السائرون فى الأرض للاعتبار ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ المحافظون على الصلوات ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والمعرفة والطاعة ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصى، ودخلت الواو؛ للإشعار بأن السبعة عقد تام، أو للتضاد بين الأمر والنهى كما فى قوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾(٢). ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أوامر ونواهيه، أو معالم الشرع ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتصفين بهذه الصفات، وهمّ -عليه السلام- أن يستغفر لأبى طالب فنزل.

●● ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ أى ما صح له الاستغار فى حكم الله وحكمته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك.

●● ثم ذكر عذر إبراهيم فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أى: وعد أبوه إياه أن يسلم، أو هو وعد أباه أن يستغفر وهو قوله: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(٣) دليله قراءة الحسن وعدها أباه، ومعنى استغفاره سؤاله المغفرة له بعد ما أسلم، أو سؤاله إعطاء الإسلام الذى به يغفر له ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ من جهة الوحى ﴿لَهُ﴾ لإبراهيم ﴿أَنَّهُ﴾ أن أباه ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بأن يموت كافرا وانقطع رجاؤه عنه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقطع استغفاره ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ﴾ هو المتأوه شفقاً وفرقاً، ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته كان يتعطف على أبيه الكافر ﴿حَلِيمٌ﴾ هو الصبور على البلاء الصفوح عن الأذى؛ لأنه كان يستغفر لأبيه وهو يقول: ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾(٤).

●● ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أى: ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم

(١) رواه الطبرى، عن عائشة موقوفًا بلفظ: «سياحة هذه الأمة الصيام».
(٢) سورة «التحريم»، الآية (٥)
(٣) سورة «الممتحنة»، الآية (٤).
(٤) سورة «مريم»، الآية (٤٦).

للإسلام ولا يخذلهم، إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره وعلمهم بأنه واجب الاجتناب، وأما قبل العلم والبيان فلا، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين، والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهى، فأما ما يعلم بالعقل فغير موقوف على التوقيف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

•• ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

•• ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أى تاب عليه من إذنه للمنافقين فى التخلف عنه كقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾[1] ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ فيه بعث للمؤمنين على التوبة وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبى (ﷺ) والمهاجرين والأنصار ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ فى غزوة تبوك، ومعناه فى وقتها، والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق، وكانوا فى عسرة من الظهر[2]؛ يعتقب العشرة على بعير واحد، ومن الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة[3] الزنخة، وبلغت بهم الشدة حتى اقتسم التمرة اثنان، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء، ومن الماء حتى نحروا الإبل وعصروا كرشها وشربوه، وفى شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان، أو عن اتباع الرسول فى تلك الغزوة والخروج معه، وفى كاد ضمير الشأن، والجملة بعده فى موضع النصب، وهو كقولهم: ليس خلق الله مثله، أى: ليس الشأن خلق الله مثله يزيغ حمزة وحفص[4] ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

•• ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ﴾ أى: وتاب على الثلاثة وهم؛ كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وهو عطف على النبى ﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن الغزو ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أى مع سعتها وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أى: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها حرجت من فرط الوحشة والغم ﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بعد خمسين يوماً ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ليكونوا من جملة التوابين ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عن أبى بكر الوراق أنه قال: التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة.

(١) سورة «التوبة»، الآية (٤٣).

(٢) الظهر: يقصد ما يركب من الدواب مثل: الخيل والبغال والجمال. وفى الحديث: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له».

(٣) الإهالة: هى الشحم أو ما أُذيب منه، أو الزيت وكل ما ائتدم به. (القاموس ٣/ ٣٣١).

(٤) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها: (تزيغ)، بالتاء.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فى إيمانهم دون المنافقين، أو مع الذين لم يتخلفوا، أو مع الذين صدقوا فى دين الله نية وقولا وعملا. والآية تدل على أن الإجماع حجة؛ لأنه أمر بالكون مع الصادقين فلزم قبول قولهم.

●● ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ المراد بهذا النفى النهى، وخص هؤلاء بالذكر- وإن استوى كل الناس فى ذلك-، لقربهم منه ولا يخفى عليهم خروجه ﴿وَلا يَرْغَبُوا﴾ ولا أن يضنوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ عما يصيب نفسه، أى: لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه فى الشدائد، بل أمروا بأن يصحبوه فى البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه فى كل شدة ﴿ذَلِكَ﴾ النهى عن التخلف ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فى الجهاد ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يغضبهم ويضيق صدورهم ﴿وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾ ولا يصيبون منهم إصابة بقتل، أو أسر، أو جرح، أو كسر، أو هزيمة ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لكل روعة سبعون ألف حسنة، يقال: نال منه إذا رزأه ونقصه، وهو عام فى كل ما يسوءهم وفيه دليل على أن من قصد خيرا كان سعيه فيه مشكورا من قيام وقعود ومشى وكلام وغير ذلك، وعلى أن المدد يشارك الجيش فى الغنيمة بعد انقضاء الحرب؛ لأن وطء ديارهم مما يغيظهم، وقد أسهم النبى (ﷺ) لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب- والموطىء: إما مصدر كالمورد، وإما مكان فإن كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار يغيظهم وطؤه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: أنهم محسنون والله لا يبطل ثوابهم.

●● ﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ فى سبيل الله ﴿صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان -رضى الله عنه ـ فى جيش العسرة ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أى: أرضا فى ذهابهم ومجيئهم، وهو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل، وهو فى الأصل فاعل من ودى إذا سال، ومنه الودى وقد شاع فى الاستعمال بمعنى الأرض ﴿إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ من الإنفاق وقطع الوادى ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بكتب،أى: أثبت فى صحائفهم لأجل الجزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: يجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم فيلحق ما دونه به؛ توفيرا لأجرهم.

●● ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ اللام لتأكيد النفى، أى: أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح للإفضاء إلى المفسدة ﴿فَلَوْلا نَفَرَ﴾ فحين لم يكن نفير الكافة فهلا نفر ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أى: من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكلفوا الفقاهة فيه ويتجشموا المشاق فى تحصيلها ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ وليجعلوا مرمى همتهم فى التفقه إنذار قومهم وإرشادهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ دون الأغراض الخسيسة من التصدر

والترؤس والتشبه بالظلمة فى المراكب والملابس ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه، وقيل: إن رسول الله، (ﷺ) كان إذا بعث بعثا -بعد غزوة تبوك بعد ما أنزل فى المتخلفين من الآيات الشداد- استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير، وانقطعوا جميعا عن التفقه فى الدين؛ فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى سائرهم يتفقهون؛ حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذى هو الجهاد الأكبر، إذ الجهاد بالحجج أعظم أثرا من الجهاد بالنضال، والضمير فى ليتفقهوا للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم، ولينذروا قومهم، ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصّلوا فى أيام غيبتهم من العلوم، وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يقربون منكم ﴿مِّنَ الْكُفَّارِ﴾. القتال واجب مع جميع الكفرة قريبهم وبعيدهم، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب، وقد حارب النبى (ﷺ) قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وعنفا فى المقال قبل القتال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة والغلبة.

•• ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ «ما» صلة مؤكدة ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَانًا﴾ إنكارا واستهزاء بالمؤمنين، وأيكم مرفوع بالابتداء، وقيل: هو قول المؤمنين للحث والتنبيه ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقينا وثباتا، أو خشية، أو إيمانا بالسورة؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بها تفصيلا ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يعدون زيادة التكليف بشارة التشريف.

•• ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق فهو فساد يحتاج إلى علاج كالفساد فى البدن ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفرا مضموما إلى كفرهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ هو إخبار عن إصرارهم عليه إلى الموت ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ يعنى: المنافقين، وبالتاء حمزة خطاب للمؤمنين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالقحط والمرض وغيرهما ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لا يعتبرون، أو بالجهاد مع رسول الله (ﷺ) لا يتوبون بما يرون من دولة الإسلام ولاهم يذكرون بما يقع بهم من الاصطدام.

•• ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون؛ إنكارا للوحى وسخرية به قائلين: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المسلمين لننصرف فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك؛ فنخاف الافتضاح بينهم، أو إذا ما أنزلت سورة فى عيب المنافقين أشار بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد إن قمتم من حضرته ـ عليه السلام ـ ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عن حضرة النبى ـ عليه السلام ـ

مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن فهم القرآن ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا.

●● ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ محمد ـ عليه السلام ـ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشى مثلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ شديد عليه شاق ـ لكونه بعضا منكم ـ عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم الوقوع فى العذاب ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله (ﷺ).

●● ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فاستعن بالله وفوض إليه أمورك؛ فهو كافيك معرتهم وناصرك عليهم ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فوضت أمرى إليه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ هو أعظم، خلق الله مطافا لأهل السماء وقبلة للدعاء ﴿الْعَظِيمِ﴾ بالجر، وقرىء بالرفع على نعت الرب جل وعز. عن أبى[1] آخر آية نزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

---

(١) هو أبى بن كعب ، سبقت ترجمته عند تفسير سورة «البقرة»، الآية (٣٤).

(سورة يونس - عليه السلام - مائة وتسع آيات مكية)
(وكذا ما بعدها إلى سورة النور)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الر﴾ ونحوه ممال حمزة وعلى وأبو عمرو، وهو تعديد للحروف على طريق التحدى ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذى الحكمة؛ لاشتماله عليها، أو المحكم عن الكذب والاقتراف.

والهمزة فى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لإنكار التعجب والتعجيب منه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ اسم كان، وعجبا خبره، واللام فى للناس متعلق بمحذوف هو صفة لـ«عجبا» فلما تقدم صار حالا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ بأن أنذر، أو هى مفسرة؛ إذ الإيحاء فيه معنى القول ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم، ومعنى اللام فى للناس أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منه والذى تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب[1] ، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنيران ويبشر بالجنان، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشراً مثلهم، وإرسال اليتيم، أو الفقير ليس بعجب أيضا؛ لأن الله تعالى، إنما يختار للنبوة من جمع أسبابها والغنى والتقدم فى الدنيا ليس من أسبابها، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا؟! إنما العجب والمنكر فى العقول تعطيل الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة، ولما كان السعى والسبق بالقدم؛ سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما كما سميت النعمة يدا، لأنها تعطى باليد وباعا؛ لأن صاحبها يبوع بها فقيل: فلان، قدم فى الخير، وإضافتها إلى صدق دلالة على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة، أو مقام صدق، أو سبق السعادة ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [إن هذا] الكتاب لسحر مدنى وبصرى وشامى. ومن قرأ لساحر فهذه إشارة إلى رسول الله (ﷺ) وهو دليل عجزهم واعترافهم به، وإن كانوا كاذبين فى تسميته سحرا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى: استولى فقد يقدس الديان عن المكان والمعبود عن الحدود ﴿يُدَبِّرُ﴾ يقضى ويقدر على مقتضى الحكمة ﴿الْأَمْرَ﴾ أى أمر الخلق كله وأمر ملكوت السماوات والأرض والعرش. ولما

---

(١) يقصدون «محمداً» (ﷺ)، وأبو طالب: هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم ، وهو عم النبى (ﷺ) ووالد على بن أبى طالب، وهو الذى تكفل برعاية النبى (ﷺ) بعد وفاة جده، وهو الذى نصره وأيده، ومنعه من قريش ، ولم يؤمن خوفًا من أن تعيره العرب بذلك، وتوفى قبل الهجرة بثلاث سنوات، وفرح المشركون بذلك، وتجرؤوا على إيذاء الرسول (ﷺ) وحزن (ﷺ) لوفاته كثيرًا، وأطلق على هذا العام: «عام الحزن». الأعلام (١٦٦/٤).

ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السموات والأرض والاستواء على العرش أتبعها هذه الجملة؛لزيادة الدلالة على العظمة،وأنه لايخرج أمر من الأمور عن قضائه،وتقديره،وكذلك قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾دليل على عزته وكبريائه﴿ذَلِكُمُ﴾العظيم الموصوف بما وصف به.

●● ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وهو الذى يستحق العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه ولا تشركوا به بعض خلقه من إنسان، أو ملك، فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتدبرون؛ فتستدلون بوجوب المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع.

●● ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ حال أى: لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه، والمرجع الرجوع، أو مكان الرجوع ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لقوله: إليه مرجعكم ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لقوله: وعد الله ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: الحكمة بإبداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وهو متعلق بيجزى، أى: ليجزيهم بقسطه ويوفيهم أجورهم، أو بقسطهم أى: بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا؛ إذ الشرك ظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[(١)] وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ولوجه كلامى.

●● ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ الياء فيه منقلبة عن واو ضواء لكثرة ما قبلها، وقلبها قنبل[(٢)] همزة؛ لأنهما للحركة أجمل ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء أقوى من النور؛ فلذا جعله للشمس ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ وقدر القمر، أى: وقدر مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ أو وقدره ذا منازل كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾[(٣)] ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ أى: عدد السنين والشهور فاكتفى بالسنين؛ لاشتمالها على الشهور ﴿وَالْحِسَابَ﴾ وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين والشهور ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿إِلاَّ﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذى هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ مكى وبصرى وحفص، وبالنون غيرهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فينتفعون بالتأمل فيها.

●● ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فى مجىء كل واحد منهما خلف الآخر، وفى اختلاف

---

(١) سورة «لقمان»، الآية (١٣).

(٢) قنبل: هو محمد بن عبد الرحمن بن خالد بن سعيد المكى، مولى بنى مخزوم، أبو عمر، ولكنه اشتهر بلقبه «قنبل»؛ لأنه كان شديداً - فلا يكاد يعرف إلا به، وهو أحد راويى ابن كثير المكى، الذى ثانيهما (البزى) انتهت إليه مشيخة الإقراء بالحجاز فى عصره، ولد عام ١٩٥هـ، وتوفى عام ٢٩١هـ .
الأعلام (٦/ ١٩٠) ، وانظر «متن الشاطبية» ص(١٠).

(٣) سورة «يس»، الآية (٣٩).

لونيهما ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلائق ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصهم بالذكر؛ لأنهم يحذرون الآخرة؛ فيدعوهم الحذر إلى النظر.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوقعونه أصلا ولا يخطرونه بالهم؛ لغفلتهم عن التفطن للحقائق أولا يؤملون حسن لقائنا كما يؤمله السعداء؛ أو لا يخافون سوء لقائنا الذى يجب أن يخاف ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة، وآثروا القليل الفانى على الكثير الباقى ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديداً وأملوا بعيداً ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا وقف عليه؛ لأن خبر إن:

●● ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فأولئك مبتدأ، ومأواهم مبتدأ ثان، والنار خبره، والجملة خبر أولئك، والباء فى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يتعلق بمحذوف دل عليه الكلام، وهو جوزوا.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق المؤدى إلى الثواب؛ ولذا جعل ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ بيانا له وتفسيراً إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، أو يهديهم فى الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، ومنه الحديث: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له: أنا عملك فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار»(1). وهذا دليل على أن الإيمان المجرد منج حيث قال: بإيمانهم ولم يضم إليه العمل الصالح ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ متعلق بتجرى أو حال من الأنهار.

●● ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أى: دعاؤهم لأن اللهم نداء لله ومعناه اللهم إنا نسبحك أى يدعون الله بقولهم: سبحانك اللهم تلذذا بذكره لاعبادة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ أى: يحيى بعضهم بعضا بالسلام، أو هى تحية الملائكة إياهم وأضيف المصدر إلى المفعول، أو تحية الله لهم ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ وخاتمة دعائهم الذى هو التسبيح ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين، أن مخففة من الثقيلة وأصله أنه الحمد لله رب العالمين، والضمير للشأن، قيل: أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد فيبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه ويتكلمون بينهما بما أرادوا.

●● ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ أصله: ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته لهم والمراد أهل مكة، وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾(2) أى: ولو عجلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا. لقضى إليهم أجلهم شامى

(1) أخرجه الطبرى عن قتادة . (2) سورة «الأنفال» الآية (32).

على البناء للفاعل وهو الله عز وجل ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ شركهم وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ووجه اتصاله بما قبله أن قوله: «ولو يعجل الله» متضمن معنى نفى التعجيل، كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضى إليهم أجلهم فنذرهم فى طغيانهم أى: فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاما للحجة عليهم.

●● ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ﴾ أصابه والمراد به الكافر ﴿الضُّرُّ دَعَانَا﴾ أى: دعا الله لإزالته ﴿لِجَنْبِهِ﴾ فى موضع الحال بدليل عطف الحالين أى: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ عليه أى دعانا مضطجعا وفائدة ذكر هذه الأحوال أن معناه أن المضرور لايزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا فى حالاته كلها سواء كان مضطجعا عاجزاً عن النهوض، أو قاعداً لا يقدر على القيام، أو قائما لا يطيق المشى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ أزلنا ما به ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ أى: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسى حال الجهد، أو مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، والأصل كأنه لم يدعنا فخفف، وحذف ضمير الشأن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ للمجاوزين الحد فى الكفر زين الشيطان بوسوسته ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الكفر.

●● ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أشركوا، وهو ظرف لأهلكنا والواو فى ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ للحال أى ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ إن بقوا ولم يهلكوا، لأن الله علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وهو عطف على ظلموا، أو اعتراض، واللام لتأكيد النفى يعنى أن السبب فى إهلاكهم تكذيبهم للرسل، وعلم الله أنه لا فائدة فى إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء يعنى الإهلاك ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله (ﷺ).

●● ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد (ﷺ) أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكناها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أى: لننظر أتعملون خيرا أو شرا فنعاملكم على حسب عملكم، وكيف فى محل النصب بتعملون لا بننظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله والمعنى: أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار بماضيكم أو الاغترار بما فيكم، قال ـ عليه السلام ـ: «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»(١).

●● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ حال ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لما غاظهم ما فى القرآن

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى.

من ذم عبادة الأوثان والوعيد لأهل الطغيان ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما يحل لى ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ من قبل نفسى ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لا أتبع إلا وحى الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل؛ لأن الذى أتيت به من عند الله لا من عندى فأبدله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل من عند نفسى ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: يوم القيامة، وأما الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان وقد ظهر لهم العجز عنه إلا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، ويقولون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾(١) ولا يحتمل أن يريدوا بقوله: ائت بقرآن غير هذا أو بدله من جهة الوحى لقوله: إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم وغرضهم فى هذا الاقتراح الكيد، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل فلاختبار الحال وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه فيجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحا لافترائه على الله.

•• ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإظهاره أمرا عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أى لم يتعلم ولم يشاهد العلماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحا يغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم مشحونا بعلوم الأصول والفروع والإخبار عن الغيوب التى لا يعلمها إلا الله ﴿وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾ ولا أعلمكم الله بالقرآن على لسانى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل نزول القرآن أى فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفونى متعاطيا شيئا من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت موصوفا بعلم وبيان فتتهمونى باختراعه ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله لا من مثلى وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: ائت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه.

•• ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله فى أنه ذو شريك وذو ولد وأن يكون تفاديا مما أضافوه إليه من الافتراء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بالقرآن فيه بيان أن الكاذب على الله والمكذب بآياته فى الكفر سواء ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

•• ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادتها ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ﴾ أى: الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ أى: فى أمر الدنيا ومعيشتها؛ لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، أو يوم القيامة إن يكن بعث

(١) سورة «الأنفال»، الآية (٣١).

ونشور ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ﴾ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله وإذا لم يكن معلوما له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيئا وقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ تأكيد لنفيه لأن مالم يوجد فيهما فهو معدوم ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له شريك، وبالتاء حمزة وعلى، وما موصوله، أو مصدرية أى عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

•• ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك فى عهد آدم- عليه السلام- إلى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ فصاروا مللا ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيما اختلفوا فيه ولميز المحق من المبطل وسبق كلمته لحكمة وهى أن هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب وعقاب.

•• ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى آية من الآيات التى اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أى هو المختص بعلم الغيب فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير ﴿فَانتَظِرُوا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات.

•• ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ أهل مكة ﴿رَحْمَةً﴾ خصبا وسعة ﴿مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ يعنى: القحط والجوع ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ أى: مكروا بآياتنا بدفعها وإنكارها. روى أنه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون فى آيات الله ويعادون رسول الله (ﷺ) ويكيدونه فإذا الأولى للشرط والثانية جوابها وهى للمفاجأة وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾(١) أى: وإن تصبهم سيئة قنطوا وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا، والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية المكورة المطوية الخلق ومعنى مستهم خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم وإنما قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ولم يصفهم بسرعة المكر؛ لأن كلمة المفاجأة دلت على ذلك، كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكرمنهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رءوسهم من مس الضراء ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ يعنى الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إعلام بأن ما تظنونه خافيا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم وبالياء سهل.

•• ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل والدواب والفلك الجارية فى البحار أو يخلق فيكم السير، ينشركم شامى﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أى:

---

(١) سورة «الروم»، الآية (٣٦).

السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أى: السفن ﴿بِهِم﴾ بمن فيها رجوع من الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بتلك الريح للينها واستقامتها ﴿جَاءَتْهَا﴾ أى: الفلك أو الريح الطيبة أى تلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف أى: شديدة الهبوب ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ هو ما علا على الماء ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من البحر أو من جميع أمكنة الموج ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحى مثلا فى الإهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك به، لأنهم لا يدعون حينئذ معه غيره يقولون: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ الأهوال أومن هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك ولم يجعل الكون فى الفلك غاية للتسيير فى البحر ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما فى حيزها، كأنه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجىء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن بالهلاك والدعاء بالإنجاء، وجواب إذا جاءتها ودعوا بدل من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم للهلاك فهو ملتبس به.

●● ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يفسدون فيها ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ باطلا أى مبطلين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أى: ظلمكم يرجع إليكم، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[1] ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حفص أى تتمتعون متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر لبغيكم. غيره بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته، كقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[2] ومعناه إنما بغيكم على أمثالكم أو هو خبر ومتاع خبر بعد خبر، أو متاع خبر مبتدأ مضمر أى هو متاع الحياة الدنيا، وفى الحديث: «أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة»[3] - وروى «ثنتان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين»[4]. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - لو بغى جبل على جبل لدك الباغى[5]، وعن محمد بن كعب[6]: ثلاث من كن

(١) فصلت (٤٦)، والجاثية (١٥).

(٢) سورة «القصص»، الآية (٧٦).

(٣) أخرجه إسحاق فى مسنده عن مكحول رفعه.

(٤) أخرجه إسحاق فى مسنده، والطبرانى من حديث عبد الله بن أبى بكرة.

(٥) رواه البخاري فى الأدب المفرد عن ابن عباس موقوفًا، ورواه ابن المبارك فى الزهد عن مجاهد مرسلاً.

(٦) هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى، أبو حمزة، المدنى، من حلفاء الأوس، كان أبوه من سبى قريظة - لأنه كان دون البلوغ- تابعى جليل، روى عن جمع من الصحابة، قال ابن حبان: «كان من أفاضل أهل المدينة علمًا وفقهًا، وكان يقص فى المسجد، فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم سنة ١١٨هـ». اهـ.
تهذيب التهذيب (٥/٢٦٩، ٢٧٠).

فيه كن عليه البغى والنكث والمكر، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾(١) ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾(٢) ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنخبركم به ونجازيكم عليه.

●● ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾من السحاب ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أى فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ يعنى الحبوب والثمار والبقول ﴿وَالأَنْعَامُ﴾ يعنى: الحشيش ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ زينتها بالنبات واختلاف ألوانه ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ وتزينت به وهو أصله، وأدغمت التاء فى الزاى وهو كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها، وتزينت بغيرها من ألوان الزين ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من منفعتها. محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ عذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلناها زرعاً ﴿حَصِيدًا﴾ شبيها بما يحصد من الزرع فى قطعه واستئصاله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم يغن زرعها أى: لم يلبث حذف المضاف فى هذه المواضع لابد منه ليستقيم المعنى ﴿بِالأَمْسِ﴾ هو مثل فى الوقت القريب، كأنه قيل: كأن لم تغن آنفا ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينتفعون بضرب الأمثال وهذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض فى جفافه وذهابه حطاما بعد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه، وحكمة التشبيه التنبيه على أن الحياة صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها كما أن صفو الماء فى أعلى الإناء قال:

ألم تر أن العمر كأس سلافة   فأوله صفو وآخر كدْر

وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس ورياحين الرويح وزهرة الزهد وكروم الكرم وحبوب الحب وحدائق الحقيقة وشقائق الطريقة، والخبيثة تخرج خلاف الخلف وثمام(٣) الاسم وشوك الشرك وشيح الشح وحطب العطب ولعاع اللعب، ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فتزايله الحياة مغترا كما يهيج النبات مصفراً فتغيب جثة فى الرمس كأن لم تغن بالأمس إلى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث، وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليلة ويهلك كثيره، ولابد من ترك مازاد كما لابد من أخذ الزاد، وآخذ المال لا يخلو من زلة، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه فما دون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز. والجوياز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة، وهى الزكاة وعمارتها بذل الصلات فمتى اختلت

(١) سورة «فاطر»، الآية (٤٣).   (٢) سورة «الفتح»، الآية (١٠).
(٣) ثمام: نبات ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص.

القنطرة غرّقته أمواج القناطير المقنطرة وعن هذا قال ـ عليه السلام ـ : «الزكاة قنطرة الإسلام»[1]. وكذا المال يساعد الأوغاد دون الأمجاد كما أن الماء يجتمع فى الوهاد دون النجاد، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء فى الكف.

●● ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ هى الجنة أضافها إلى اسمه تعظيما لها أو السلام السلامة، لأن أهلها سالمون من كل مكروه وقيل لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[2] ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ويوفق من يشاء ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى الإسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية، والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار السلام، ولا يدخلها إلا المهديون.

●● ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ آمنوا بالله ورسله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رؤية الرب ـ عز وجل ـ كذا عن أبى بكر وحذيفة وابن عباس وأبى موسى الأشعرى وعبادة بن الصامت ـ رضى الله عنهم ـ وفى بعض التفاسير أجمع المفسرون على أن الزيادة النظر إلى الله تعالى، وعن صهيب أن النبى (ﷺ) قال: «إذا دخل أهل الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيئاً أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ ـ قال ـ :فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم». ثم تلا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[3] والعجب من صاحب الكشاف[4] أنه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة، وقال. إنه حديث مرفوع». مع أنه مرفوع قد أورده صاحب المصابيح[5] فى الصحاح وقيل: الزيادة المحبة فى قلوب العباد، وقيل: الزيادة مغفرة من الله ورضوان ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشى وجوههم ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

---

(١) قال ابن الجوزى: حديث لا يصح، فيه بقية بن الوليد، مدلس. (كنز العمال ٦/ ١٥٧٥٨).

(٢) سورة «الواقعة»، الآية (٢٦).

(٣) أخرجه مسلم عن صهيب .

(٤) صاحب الكشاف هو: محمود بن عمر بن محمد بن أحمد ، الخوارزمى الزمخشرى، المشهور بنسبه: «الزمخشرى» عالم بالتفسير واللغة، كان معتزلى المذهب، شديد الإنكار على المتصوفة، والكشاف: هو تفسيره للقرآن، وانتصر فيه للمذهب المعتزلى، ولد عام ٤٦٧هـ ، وتوفى عام ٥٣٨ هـ. الأعلام (١٧٨/٧).

(٥) صاحب المصابيح: هو : الحسين بن مسعود بن محمد، أبو محمد، البغوى، فقيه ، مفسر، محدث، والمصابيح هو كتابه: «مصابيح السنة». ولد عام ٤٣٦هـ ، وتوفى عام ٥١٠هـ . الأعلام (١٧٨/٧).

●● ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ عطف على للذين أحسنوا أى: وللذين كسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فنون الشرك ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ الباء زائدة، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(١) أو التقدير جزاء سيئة مقدر بمثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ذل وهوان ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أى: جعل عليها غطاء من سواد الليل أى هم سود الوجوه، وقطعاً جمع قطعة، وهو مفعول ثان لأغشيت. قطعا مكى وعلى من قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾(٢) وعلى هذه القراءة مظلما صفة لقطع وعلى الأول حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأن من الليل صفة لقطعا فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة أو معنى الفعل فى من الليل ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●● ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى: الكفار وغيرهم ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أى الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أَنتُمْ﴾ أكد به الضمير فى مكانكم لسده مسد قوله: الزموا ﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ عطف عليه ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ففرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطعنا أقرانهم والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ من عبدوه من دون الله من أولى العقل، أو الأصنام ينطقها الله عز وجل ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادا فأطعتموهم، وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾(٣).

●● ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: كفى الله شهيدا وهو تمييز ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ إن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة بينهما وبين النافية.

●● ﴿هُنَالِكَ﴾ فى ذلك المكان، أو فى ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾ تختبر وتذوق ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن أنافع أم ضار أمقبول أم مردود، وقال الزجاج: تعلم كل نفس ما قدمت. تتلو حمزة وعلى أى تتبع ما أسلفت، لأن عمله هو الذى يهديه إلى طريق الجنة أو النار، أو تقرأ فى صحيفتها ما قدمت من خير أو شر، كذا عن الأخفش ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ ربهم الصادق فى ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذى يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذى لا يظلم أحدا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدّعون أنهم شركاء لله أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠). (٢) هود (٨١)، والحجر (٦٥).
(٣) سورة «سبأ»، الآيتان (٤٠، ٤١).

•• ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذى سويا عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميهما من الآفات مع كثرتها فى المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شىء ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: الحيوان والفرخ والزرع والمؤمن والعالم من النطفة والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ ومن يلى تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فسيجيبونك عند سؤالك إن القادر على هذه هو الله ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ الشرك فى العبودية إذا اعترفتم بالربوبية.

•• ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ أى: من هذه قدرته هو الله ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ أى: لا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطى الحق وقع فى الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك.

•• ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ كلمات شامى ومدنى أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقت كلمة ربك ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمردوا فى كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أى حق عليهم انتفاء الإيمان أو حق عليهم كلمة الله أن إيمانهم غير كائن، أو أراد بالكلمة العدة بالعذاب وأنهم لا يؤمنون تعليل أى لأنهم لا يؤمنون.

•• ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إنما ذكر ثم يعيده وهم غير مقرين بالإعادة؛ لأنه لظهور برهانها جعل أمرا مسلما على أن فيهم من يقر بالإعادة، أو يحتمل إعادة غير البشر كإعادة الليل والنهار وإعادة الإنزال والنبات ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أمر نبيه بأن ينوب عنهم فى الجواب يعنى أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن قصد السبيل.

•• ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يرشد إليه ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾ يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين، ويقال هدى بنفسه بمعنى اهتدى، كما يقال شرى بمعنى اشترى ومنه قراءة حمزة وعلى أمن لا يهدى بمعنى يهتدى لا يهدى بفتح الياء والهاء وتشديد الدال مكى وشامى وورش، وبإشمام الهاء فتحة أبو عمرو وبكسر الهاء وفتح الياء عاصم غير يحيى والأصل يهتدى، وهى قراءة عبدالله فأدغمت التاء فى الدال وفتحت الهاء بحركة التاء وكسرت لالتقاء الساكنين، وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال يحيى لاتباع ما بعدها وبسكون الهاء وتشديد الدال مدنى غير ورش، والمعنى أن الله وحده هو الذى يهدى للحق بماركب فى المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر فى الأدلة التى نصبها

لهم، وبما وفقهم وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد يهدى إلى الحق مثل هداية الله، ثم قال: أفمن يهدى إلى الحق أحق بالاتباع أم الذى لا يهدى أى لا يهتدى بنفسه أولا يهدى غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه أم من لا يهتدى من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدى إلا أن ينقل أولا يهتدى، ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيا ناطقا فيهديه ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد الله.

●● ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فى قولهم للأصنام إنها آلهة وإنها شفعاء عند الله والمراد بالأكثر الجميع ﴿إِلاَّ ظَنًّا﴾ بغير دليل وهو اقتداؤهم بأسلافهم ظنامنهم إنهم مصيبون ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ﴾ وهو العلم ﴿شَيْئًا﴾ فى موضع المصدر أى إغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتباع الظن وترك الحق.

●● ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى افتراء من دون الله، والمعنى وما صح وما استقام أن يكون مثله فى علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وَلَكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[1] ﴿لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ داخل فى حيز الاستدراك، كأنه قال: ولكن كان تصديقا وتفصيلا منتفيا عنه الريب كائنا من رب العالمين، ويجوز أن يراد ولكن كان تصديقا من رب العالمين وتفصيلا منه لاريب فى ذلك فيكون من رب العالمين متعلقا بتصديق وتفصيل ويكون لاريب فيه اعتراضا، كما تقول زيد لاشك فيه كريم.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون مختلفة ﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أى شبيهة به فى البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلى فى العربية ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه افتراء.

●● ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن فى بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، ومعنى التوقع فى ولما يأتهم تأويله أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدا للآباء وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كرر عليهم التحدى وجربوا قواهم فى المعارضة، وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا

---

(١) سورة «النساء»، الآية (٢٤).

به بغيا وحسدا ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعنى كفار الأمم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر فى معجزاتهم، وقبل تدبرها عنادا وتقليدا للآباء ويجوز أن يكون معنى ولما يأتهم تأويله ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أى عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق يعنى أنه كتاب معجز من جهتين؛ من جهة إعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يجربوا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالنبى، أو بالقرآن أى يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند بالتكذيب.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لا يصدق به ويشك فيه، أو يكون للاستقبال أى ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيصر ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين، أو المصرين.

●● ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن تموا على تكذيبك ويئست من إجابتهم ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ جزاء عملى ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ جزاء أعمالكم ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فكل مؤاخذ بعمله.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، فهم كالصم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه[1] دوى الصوت فإذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تم الأمر.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة، ولكنهم لا يصدقون ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ أتحسب أنك تقدر على هداية العمى، ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الأعمى الذى له فى قلبه بصيرة قد يحدث، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقو كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكن الناس حمزة وعلى. أى لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال، ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جماداً، وهم أحياء.

●● ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وبالياء[2] حفص ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا أو فى قبورهم لهول ما يرون ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتفارقوا

(١) الصماخ: خرق الأذن ، وقيل: الأذن نفسها.
(مختار الصحاح).
(٢) فى مصحف النسفى : «نحشرهم» بالنون، وهى قراءة.

إلا قليلا وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم كأن لم يلبثوا حال من هم أى نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة، وكأن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أى كأنهم. يتعارفون بينهم حال بعد حال، أو مستأنف على تقديرهم يتعارفون بينهم ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هى شهادة من الله على خسرانهم والمعنى أنهم وضعوا فى تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم.

•• ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف أى: وإما نرينك بعض الذى نعدهم فى الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن نريكه فنحن نريكه فى الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها، وهو العقاب، كأنه قيل ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقيل: ثم هنا بمعنى الواو.

•• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين النبى ومكذبيه ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجى الرسول وعذب المكذبين، أو ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذب أحد بغير ذنبه، ولما قال: «وإما نرينك بعض الذى نعدهم» أى من العذاب استعجلوا لما وعدوا من العذاب نزل.

•• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أى: وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبى والمؤمنين.

•• ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ من مرض، أو فقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحة أو غنى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء منقطع أى: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكل أمة وقت معلوم للعذاب مكتوب فى اللوح فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا.

•• ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذى تستعجلونه ﴿بَيَاتًا﴾ نصب على الظرف أى وقت بيات، وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: من العذاب والمعنى أن العذاب كله مكروه موجب للنفور فأى

شيء تستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، والاستفهام فى ماذا يتعلق بأرأيتم، لأن المعنى أخبرونى ماذا يستعجل منه المجرمون، وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه ولم يقل ماذا يستعجلون منه؛ لأنه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، أو ماذا يستعجل منه المجرمون جواب الشرط نحو إن أتيتك ماذا تطعمنى، ثم تتعلق الجملة بأرأيتم أو.

•• ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراض والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، ودخول حرف الاستفهام على ثم، كدخوله على الواو والفاء فى ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾(١) ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾(٢) ﴿آلْآنَ﴾ على إرادة القول أى: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى بالعذاب تكذيباً واستهزاء. آلان بحذف الهمزة التى بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام نافع.

•• ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على قيل المضمر قبل آلآن ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك والتكذيب.

•• ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ويستخبرونك فيقولون: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِي وَرَبِّي﴾ نعم والله ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة.

•• ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كفرت وأشركت، وهو صفة لنفس أى ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ فى الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضا بمعنى فداه ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأظهروها من قولهم أسر الشيء إذا أظهره أو أخفوها عجزا عن النطق لشدة الأمر فأسر من الأضداد ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بين الظالمين والمظلومين دل على ذلك ذكر الظلم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

•• ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكيف يقبل الفداء وأنه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب، أو العقاب فهو يحق لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب أو بالعذاب ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

•• ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجى.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٩٧).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٩٨).

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد، والموعظة التى تدعو إلى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب، فما فى القرآن من الأوامر والنواهى داع إلى كل مرغوب وزاجر عن كل مرهوب، إذ الأمر يقتضى حسن المأمور به فيكون مرغوباً، وهو يقتضى النهى عن ضده وهو قبيح وعلى هذا فى النهى ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى صدوركم من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن آمن به منكم.

●● ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا بذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد، والتقدير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ماعداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، أو بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والإسلام [1]، فى الحديث: «من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه» [2]. وقرأ الآية ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وبالتاء شامى، فلتفرحوا يعقوب.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ أخبرونى ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ ما منصوب بأنزل، أو بأرأيتم أى أخبرونيه ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ فبعضتموه وقلتم هذا حلال وهذا حرام كقوله: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [3] نعم الأرزاق تخرج من الأرض، ولكن لما نيطت أسبابها بالسماء نحو المطر الذى به تنبت الأرض النبات والشمس التى بها النضج وينع الثمار أضيف إنزالها إلى السماء ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلق بأرأيتم وقيل: تكرير للتوكيد والمعنى أخبرونى الله أذن لكم فى التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أم أنتم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه، أو الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرا للافتراء، والآية زاجرة عن التجوز فيما يسئل من الأحكام وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد فى شيء جائز، أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان وإلا فهو مفتر على الديان ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ينسبون ذلك إليه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه أى أى شيء ظن المفترين فى ذلك اليوم ما يصنع بهم، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو

---

(١) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قال: بكتاب الله والإسلام. رواه ابن أبى شيبة .

(٢) لم نجده.

(٣) سورة «الأنعام»، الآية (١٣٩).

وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحى وتعليم الحلال والحرام ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ما نافية والخطاب للنبى (ﷺ) والشأن الأمر ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ﴾ من التنزيل، كأنه قيل، وما تتلو من التنزيل ﴿مِن قُرْآنٍ﴾ لأن كل جزء منه قرآن والإضمار قبل الذكر تفخيم له، أو من الله عز وجل ﴿وَلا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أى عمل ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصى عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون من أفاض فى الأمر إذا اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ وما يبعد وما يغيب، وبكسر الزاى على حيث كان ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة صغيرة ﴿فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ﴾ رفعهما حمزة على الابتداء، والخبر ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يعنى اللوح المحفوظ ونصبهما غيره على نفى الجنس وقدمت الأرض على السماء هنا وفى سبأ قدمت السماوات؛ لأن العطف بالواو وحكمه حكم التثنية.

●● ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ هم الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة، أو هم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذى آتاهم فتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه، أوهم المتحابون فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، أوهم المؤمنون المتقون بدليل الآية الثانية ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن الناس.

●● ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منصوب بإضمار أعنى، أو لأنه صفة لأولياء، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هم الذين آمنوا ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصى.

●● ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما بشر الله به المؤمنين المتقين فى غير موضع من كتابه وعن النبى (ﷺ): «هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»(١) وعنه ـ عليه السلام ـ: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءً من النبوة»(٢). وهذا لأن مدة الوحى ثلاث وعشرون سنة وكان فى ستة أشهر منها يؤمر فى النوم بالإنذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزء، أو هى محبة الناس له والذكر الحسن أولهم البشرى عند النزع بأن يرى مكانه فى الجنة ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ هى الجنة ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين فى الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وكلتا الجملتين اعتراض ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام، كما تقول: فلان ينطق بالحق والحق أبلج وتسكت.

●● ﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وإبطال أمرك ﴿إِنَّ

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجة والحاكم والبيهقى وأحمد، عن عبادة بن الصامت.

(٢) رواه ابن ماجة وأحمد وابن حبان.

﴿الْعِزَّةَ﴾ استئناف بمعنى التعليل، كأنه قيل: مالى لا أحزن فقيل إن العزة ﴿لِلَّهِ﴾ إن الغلبة والقهر فى ملكة الله جميعا لا يملك أحد شيئا منهما لاهم ولا غيرهم فهو يغلبهم وينصرك عليهم ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(١) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾(٢) أو به يتعزز كل عزيز فهو يعزك ودينك وأهلك والوقف لازم على قولهم لئلا يصير إن العزة مقول الكفار ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك.

•• ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ يعنى العقلاء وهم الملائكة والثقلان وخصهم ليؤذن أن هولاء إذا كانوا له وفى مَلَكَته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكا له فيها فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ما نافية أى وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء؛ لأن شركة الله فى الربوبية محال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ إلا ظنهم أنهم شركاء الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يحزرون ويقدّرون أن تكون شركاء تقديرا باطلا، أو استفهامية أى وأى شىء يتبعون وشركاء على هذا نصب بيدعون وعلى الأول بيتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول يدعون، أو موصولة معطوفة على من، كأنه قيل ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أى وله شركاؤهم.

•• ثم نبه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أى: جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب التردد فى النهار ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئا لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع مذكر معتبر.

•• ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجيب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علة لنفى الولد، لأنه إنما يطلب الولد ضعيف ليتقوى به، أو فقير ليستعين به، أو ذليل ليتشرف به والكل أمارة الحاجة، فمن كان غنياغير محتاج كان الولد عنه منفيا؛ ولأن الولد بعض الولد فيستدعى أن يكون مركبا وكل مركب ممكن وكل ممكن يحتاج إلى الغير فكان حادثا؛ فاستحال القديم أن يكون له ولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ملكا ولا تجتمع النبوة معه ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباءحقها أن تتعلق بقوله إن عندكم على أن يجعل القول مكانا لسلطان كقولك ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل إن عندكم فيما تقولون سلطان ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

(١) سورة «المجادلة»، الآية (٢١).
(٢) سورة «غافر» الآية، (٥١).

●● ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿لا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

●● ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أى افتراؤهم هذا منفعة قليلة فى الدنيا حيث يقيمون به رياستهم فى الكفر ومناسبة النبى (ﷺ) بالتظاهر به ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ المخلد ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم.

●● ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ واقرأ عليهم ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه والوقف عليه لازم، إذ لو وصل لصار إذ ظرفا لقوله: واتل بل التقدير واذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ عظم وثقل، كقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[(١)] ﴿مَّقَامِي﴾ مكانى يعنى نفسه كقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[(٢)] أى خاف ربه أو قيامى ومكثى بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاما أو مقامى ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بينا وكلامهم مسموعا ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى فوضت أمرى إليه ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الواو بمعنى مع أى فأجمعوا أمركم مع شركائكم ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى غما عليكم وهما والغم والغمة كالكرب والكربة أو ملتبسا فى خفية والغمة السترة من غمه إذا ستره، ومنه الحديث: «لاغمة فى فرائض الله»[(٣)] أى لا تستر ولكن يجاهر بها والمعنى ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهروننى به ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر الذى تريدون بى أى أدوا إلى ما هو حق عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه، أو اصنعوا ما أمكنكم ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلونى.

●● ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيرى ونصحى ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فأوجب التولى، أو فما سألتكم من أجر ففاتنى ذلك بتوليكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة أى ما نصحتكم إلا لله لا لغرض من أغراض الدنيا وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن والعلم الدينى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المستسلمين لأوامره ونواهيه إن أجرى بالفتح مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص.

●● ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فداموا على تكذيبه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ فى السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله (ﷺ) عن مثله وتسلية له.

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٤٥). (٢) سورة «الرحمن»، الآية (٤٦).

(٣) هذا طرف من حديث وائل بن حجر فى كتاب النبى ﷺ إلى أقيال اليمن.

●● ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح ـ عليه السلام ـ ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أى هودا وصالحا وإبراهيم ولوطا وشعيباً ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فأصروا على الكفر بعد المجيء ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ من قبل مجيئهم يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرسل وقبلها، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ من ذلك الطبع نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين الحد فى التكذيب.

●● ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبولها وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن قبولها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كفارا ذوى آثام عظام فلذلك استكبروا عنها واجترءوا على ردها.

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله ﴿قَالُوا﴾ لحبهم الشهوات ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر.

●● ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ هو إنكار ومقولهم محذوف أى هذا سحر، ثم استأنف إنكارا آخر فقال ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ خبر ومبتدأ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أى لا يظفر.

●● ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام، أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى الملك لأن الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمة والعلو ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به ويكون حماد ويحيى.

●● ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ سحار حمزة وعلى.

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ ما موصولة واقعة مبتدأ، أو جئتم به صلتها والسحر خبر أى الذى جئتم به هو السحر، لا الذى سماه فرعون وقومه سحرا من آيات الله. آلسحر بعد وقف أبو عمرو على الاستفهام، فعلى هذه القراءة ما استفهامية أىْ أىّ شيء جئتم به أهو السحر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ يظهر بطلانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبته بل يدمره.

●● ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبته ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أمره وقضاياه، أو يظهر الإسلام بعداته بالنصرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

●● ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾ فى أول أوامره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف، أو الضمير فى قومه لفرعون، والذرية مؤمن آل فرعون

وآسية امرأته وخازنه وامرأة خازنه وماشطته، والضمير فى ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون، كما يقال: ربيعة ومضر أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له، أو إلى الذرية أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى إسرائيل، لإنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم دليله قوله: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يريد أن يعذبهم فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لغالب فيها قاهر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ فى الظلم والفساد وفى الكبر والعتو بادعائه الربوبية.

●● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فإليه أسندوا أمركم فى العصمة من فرعون ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ شرط فى التوكل الإسلام وهو أن يسلموا نفوسهم، لله أى: يجعلوها له سالمة خالصة لاحظ للشيطان فيها؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط.

●● ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إنما قالوا ذلك؛ لأن القوم كانوا مخلصين، لاجرم أن الله قبل توكلهم وأجاب دعاءهم ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء فى أرضه فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ موضع فتنة لهم أى عذاب يعذبوننا، أو يفتنوننا عن ديننا أى يضلوننا، والفاتن: المضل عن الحق.

●● ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: من تعذيبهم وتسخيرهم.

●● ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تبوأ المكان اتخذه مباءة كقوله: توطنه إذا اتخذه وطنا والمعنى اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى مساجد متوجهة نحو القبلة: وهى الكعبة وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا فى أول الأمر مأمورين بأن يصلوا فى بيوتهم فى خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك فى أول الإسلام بمكة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فى بيوتكم حتى تأمنوا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يا موسى ثنى الخطاب أولا، ثم جمع، ثم وحد آخر لأن اختيار مواضع العبادة مما يفوض إلى الأنبياء، ثم جمع؛ لأن اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على الجمهور وخص موسى - عليه السلام- بالبشارة تعظيما لها وللمبشر بها.

●● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ هو ما يتزين به من لباس، أو حلى، أو فرش أو أثاث، أو غير ذلك ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أى نقدا ونعما وضيعة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ليضلوا الناس عن طاعتك كوفى ولا وقف على الدنيا؛ لأن قوله: ليضلوا متعلق بآتيت وربنا تكرار. الأول للإلحاح فى التضرع. قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله-: إذا علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا

إِثْمًا﴾[1] إنما فتكون الآية حجة على المعتزلة **﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾** أى أهلكها وأذهب آثارها؛ لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك، والطمس المحو والهلاك: قيل: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيئاتها منقوشة وقيل: وسائر أموالهم كذلك **﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾** اطبع على قلوبهم واجعلهم قاسية **﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾** جواب الدعاء الذى هو اشدد **﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** إلى أن يروا العذاب الأليم وكان كذلك فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق وكان ذلك إيمان يأس فلم يقبل، وإنما دعا عليهم بهذا لما أيس من إيمانهم وعلم بالوحى أنهم لا يؤمنون، فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء؛ لأنه أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإيمان، وهو يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرا.

●● **﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾** قيل: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمّن فثبت أن التأمين دعاء فكان اخفاؤه أولى والمعنى أن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن فى وقته **﴿فَاسْتَقِيمَا﴾** فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ **﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾** ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لا يعلمون صدق الإجابة وحكمة الإمهال فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. ولا تتبعان بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيها بنون التثنية شامى وخطأه بعضهم؛ لأن النون الخفيفة واجبة السكون، وقيل: هو إخبار عما يكونان عليه وليس بنهى أو هو حال وتقديره فاستقيما غير متبعين.

●● **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾** هو دليل لنا على خلق الأفعال **﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾** فلحقهم يقال: تبعته حتى أتبعته **﴿بَغْيًا﴾** تطاولا **﴿وَعَدْوًا﴾** ظلماً وانتصبا على الحال أو على المفعول له **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾** ولا وقف عليه؛ لأن **﴿قَالَ آمَنتُ﴾** جواب إذا **﴿أَنَّهُ﴾** ـ إنه ـ حمزة وعلى على الاستئناف بدل من آمنت، وبالفتح غيرهما على حذف الباء التى هى صلة الإيمان **﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد حيث قال: آمنت، ثم قال، وأنا من المسلمين كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات فى ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفى فى حالة الاختيار.

●● **﴿آلْآنَ﴾** أتؤمن الساعة فى وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك، قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن **﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾** من الضالين المضلين عن الإيمان. روى أن جبريل عليه السلام ـ أتاه بفتيا ما قول الأمير فى عبد لرجل نشأ فى ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماءه أن يغرق فى البحر فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل ـ عليه السلام ـ خطه فعرفه.

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٧٨).

•• ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك بنجوة من الأرض فرماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿بِبَدَنِكَ﴾ فى موضع الحال أى الحال التى لاروح فيك، وإنما أنت بدن أو ببدنك كاملا سويا لم ينقص منه شىء ولم يتغير أو عريانا لست إلا بدنا من غير لباس، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة ـ رضى الله عنه- بأبدانك وهو مثل قولهم هو بأجرامه أى ببدنك كله وافيا بأجزائه، أو بدروعك لأنه ظاهر بينها ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ لمن ورائك من الناس علامة وهم بنو إسرائيل وكان فى أنفسهم أن فرعون أعظم شأنا من أن يغرق، وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه وقيل: لمن خلفك لمن يأتى بعدك من القرون ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته وأن ما كان يدعيه من الربوبية محال وأنه مع ما كان عليه من عظم الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه فما الظن بغيره ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾.

•• ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزلا صالحا مرضياً وهو مصر والشام ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فى دينهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى التوراة وهم اختلفوا فى تأويلها كما اختلف أمة محمد (ﷺ) فى تأويل الآيات من القرآن، أو المراد العلم بمحمد واختلاف بنى إسرائيل وهم أهل الكتاب اختلافهم فى صفته أنه هو أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم أنه هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يميز المحق من المبطل ويجزى كلا جزاءه.

•• ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ لما قدم ذكر بنى إسرائيل وهم قراء الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله (ﷺ) مكتوب فى التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوته (ﷺ) ويبالغ فى ذلك فقال؛ فإن وقع لك شك فرضا وتقديرا ـ وسبيل من خالجته شبهة أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته؛ أو بمباحثة العلماء ـ فسل علماء أهل الكتاب فإنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلا عن غيرك فالمراد وصف الأخبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله ﷺ لا وصف رسول الله (ﷺ) بالشك فيه ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أى ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أن ما أتاك هو الحق الذى لا مجال فيه للشك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين ولا وقف عليه للعطف.

•• ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، أو هو على طريقة التهييج والإلهاب كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾[1] ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال ـ عليه السلام ـ عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»[2] أو خوطب رسول الله (ﷺ) والمراد أمته أى وإن كنتم فى شك مما أنزلنا إليكم كقوله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ

(١) سورة «القصص»، الآيتان (٨٦، ٨٧). (٢) أخرجه عبد الرزاق والطبرى، عن قتادة.

نوراً مُّبيناً﴾[1] أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك، كقول العرب إذا عز أخوك فهن أو إن للنفى أى فما كنت فى شك فاسأل أى لا نأمرك بالسؤال؛ لأنك شاك ولكن لتزداد يقينا كما ازداد إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمعاينة إحياء الموتى. فإن قلت إنما يجيىء إن للنفى إذا كان بعده إلا كقوله: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ﴾[2] قلت ذاك غير لازم ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾[3] فإن للنفى وليس بعده إلا.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبت عليهم قول الله الذى كتبه فى اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا، أو قوله ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[4] الآية ولا وقف على ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن.

•• ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ تتعلق بما قبلها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أى عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم، أو عند القيامة ولا يقبل منهم.

•• ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ فهلا كانت قرية واحدة من القرى التى أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعاينة، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بحتفه ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بأن تقبل الله إيمانها منها بوقوعه فى وقت الاختيار ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع أى ولكن قوم يونس، أو متصل والجملة فى معنى النفى، كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس وانتصابه على أصل الاستثناء ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روى أن يونس ـ عليه السلام ـ بعث إلى نينوى[5] من أرض الموصل[6] فكذبوه فذهب عنهم مغاضبا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح كلهم وعجوا أربعين ليلة وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرّقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها فحن بعضهم إلى بعض وأظهروا الإيمان والتوبة؛ فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى إن الرجل كان يقلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيرده، وقيل: خرجوا لما نزل بهم العذاب إلى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم: قولوا يا حى حين لا حى وياحى محيى الموتى وياحى لا إله إلا أنت فقالوها فكشف الله عنهم. وعن الفضيل[7]

---

(١) سورة «النساء»، الآية (١٧٤).   (٢) سورة «الملك»، الآية (٢٠).

(٣) سورة «فاطر»، الآية (٤١).   (٤) الأعراف (١٨)، وهود (١١٩)، والسجدة (١٣).

(٥) نينوى: هى قرية سيدنا يونس بن متى ـ عليه السلام ـ بالموصل، (معجم البلدان ٥/ ٣٩١).

(٦) الموصل: مدينة عراقية على طرف دجلة، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق. (معجم البلدان ٥/ ٢٥٨).

(٧) هو الإمام الزاهد؛ الفضيل ـ أو الفضل ـ بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى، اليربوعى، أبو على، الزاهد، الخراسانى، الإمام القدوة شيخ الإسلام، سكن مكة، وكان إمامًا ربانيًا صمدانيًا قانتًا، ثقة كبير الشأن، كان قاطع طريق، فتاب الله عليه وأصبح إمامًا، ولد عام ١٠٥ هـ، ومات بمكة عام ١٨٧ هـ. تهذيب التهذيب (٤/ ٥٠٣، ٥٠٤).

ـ قدس الله روحه ـ قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجلّ افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

●● ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه أخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته أنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم ولكنه شاء أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممن علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به، وقول المعتزلة، المراد بالمشيئة مشيئة القسر والإلجاء أى له خلق فيهم الإيمان جبرا لآمنوا لكن قد شاء أن يؤمنوا اختيارا فلم يؤمنوا دليله ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى ليس إليك مشيئة الإكراه والجبر فى الإيمان إنما ذلك إلى ـ فاسد لأن الإيمان فعل العبد وفعله ما يحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار وتأويله عندنا أن الله تعالى لطفا لو أعطاهم لآمنوا كلهم عن اختيار، ولكن علم منهم أنهم لا يؤمنون فلم يعطهم ذلك وهو التوفيق، والاستفهام فى أفأنت بمعنى النفى أى لا تملك أنت يا محمد أن تكرههم على الإيمان؛ لأنه يكون بالتصديق والإقرار ولا يمكن الإكراه على التصديق.

●● ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمشيئته أو بقضائه، أو بتوفيقه وتسهيله، أو بعلمه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أى العذاب، أو السخط، أو الشيطان أى ويسلط الشيطان ﴿عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم، ونجعل حماد ويحيى.

●● ﴿قُلِ انظُرُوا﴾ نظر استدلال واعتبار ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخرج الزروع والثمار ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ﴾ ما نافية ﴿وَالنُّذُرُ﴾ والرسل المنذورون أو الإنذارات ﴿عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون.

●● ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعنى وقائع الله فيهم، كما يقال أيام العرب لوقائعها ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

●● ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم كأنه قيل نهلك الأمم، ثم ننجى رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن آمن معهم ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى مثل ذلك الإنجاء ننجى المؤمنين منكم ونهلك المشركين، وحقا علينا اعتراض أى حق ذلك علينا حقا. ننجى بالتخفيف على وحفص.

●● ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا أهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وصحته وسداده فهذا دينى فاستمعوا وصفه، ثم وصف دينه فقال: ﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: الأصنام ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يميتكم وصفه بالتوفى ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى ويعبد

دون مالا يقدر على شيء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بأن أكون يعنى أن الله أمرنى بذلك بما ركب فىّ من العقل، وبما أوحى إلىّ فى كتابه.

●● ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أى وأوحى إلى أن أقم ليشاكل قوله: أى استقم مقبلا بوجهك على ما أمرك الله أو استقم إليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين، أو الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

●● ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذلته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فكنى عنه بالفعل إيجازا ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ إذا جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلا سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك.

●● ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ يصبك ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ لذلك الضر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فلا راد لمراده ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه والاعتماد إلا عليه ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ المكفر بالبلاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ المعانى بالعطاء أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر أن الله هو الضار النافع الذى إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذى لا شعور به، وكذا إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من الفضل والإحسان، فكيف بالأوثان وهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها، وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾[1] وإنما ذكر المس فى أحدهما والإرادة فى الآخر، كأنه أراد أن يذكر الأمرين الإرادة والإصابة فى كل واحد من الضر والخير وأنه لا راد لما يريد منهما ولا مزيل لما يصيب به منهما فأوجز الكلام بأن ذكر المس؛ وهو الإصابة فى أحدهما والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير فى قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

●● ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يا أهل مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن أو الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ اختار الهدى واتبع الحق ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فما نفع باختياره إلا لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه ودل اللام وعلى على معنى النفع والضرر ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم إنما أنا بشير ونذير.

●● ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه المطلع على السرائر فلا يحتاج إلى بينة وشهود.

---

(١) سورة «الزمر»، الآية (٣٨).

سورة هود - عليه السلام - مكية
وهى مائة وثلاث وعشرون آية
بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿الٓر كِتَابٌ﴾ أى: هذا كتاب فهو خبر مبتدأ محذوف ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ صفة له أى: نظمت نظما رصينا محكما لايقع فيه نقص ولاخلل كالبناء المحكم ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص، أو جعلت فصولا سورة سورة، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أى: بين ولخص وليس معنى ثم التراخى فى الوقت ولكن فى الحال ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة أخرى لكتاب، أو خبر بعد خبر، أو صلة لأحكمت وفصلت أى من عنده أحكامها وتفصيلها.

•• ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ مفعول له أى: لئلا تعبدوا، أو أن مفسرة؛ لأن فى تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال ألاتعبدو إلا الله، أو أمركم أن لاتعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أى من الله.

•• ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أى: أمركم بالتوحيد والاستغفار ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى: استغفروه من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ يطوّل نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن يتوفاكم ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعط فى الآخرة كل من كان له فضل فى العمل وزيادة فيه جزاء فضله لايبخس منه شيئا ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وإن تتولوا ﴿فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة.

•• ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على إعادتكم .

•• ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يزورّون عن الحق وينحرفون عنه؛ لأن من أقبل على الشىء استقبله بصدره ومن ازور عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه [(١)] ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنون على ازورارهم ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطون بها، أى: يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم كراهة لاستماع كلام الله، كقول نوح - عليه السلام - ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾[(٢)] ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى

---

(١) الكشح: اسم لما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفى، ويقال: «طوى كشحه على الأمر» أضمره وستره. القاموس (١/ ٢٤٥).

(٢) سورة «نوح» الآية (٧).

لاتفاوت فى علمه بين إسرارهم وإعلانهم فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ونفاقهم غير نافق عنده قيل: نزلت فى المنافقين ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما فيها.

●● ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تفضلاً لا وجوبا ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مكانه من الأرض ومسكنه ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ حيث كان مودعا قبل الاستقرار من صلب، أو رحم أو بيضة ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها فى اللوح يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من الأحد إلى الجمعة تعليما للتأنى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أى: فوقه يعنى ماكان تحته خلق قبل السموات والأرض إلا الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض، قيل: بدأه بخلق ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء، ثم خلق ريحا فأقر الماء على متنه ثم وضع عرشه على الماء، وفى وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأفكار ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أى: خلق السموات والأرض وما بينهما للممتحن فيهما ولم يخلق هذه الأشياء لأنفسها ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أكثر شكرا وعنه ـ عليه السلام ـ : «أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله فمن شكر وأطاع أثابه ومن كفر وعصى عاقبه» (١) ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم أى ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لأحوالكم كيف تعملون ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أشار بهذا إلى القرآن؛ لأن القرآن هو الناطق بالبعث فإذا جعلوه سحرا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره ساحر حمزة وعلى يريدون الرسول ، والساحر كاذب مبطل.

●● ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ عذاب الآخرة، أو عذاب يوم بدر ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ إلى جماعة من الأوقات ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ معلومة، أو قلائل والمعنى إلى حين معلوم ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ مايمنعه من النزول استعجالا له على وجه التكذيب والاستهزاء ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب ﴿لَيْسَ﴾ العذاب ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ويوم منصوب بمصروفاً أى ليس العذاب مصروفا عنهم يوم يأتيهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وأحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ العذاب الذى كانوا به يستعجلون، وإنما وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على وجه الاستهزاء.

---

(١) رواه الطبرى عن داود بن المجبر عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر. قال ابن حجر: داود ساقط.

●● ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسَانَ﴾ هو للجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وأمن وجدة [١] واللام فى لئن لتوطئة القسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبناه تلك النعمة، وجواب القسم ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ شديد اليأس من أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله نسّاء له.

●● ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ وسعنا عليه النعمة بعد الفقر الذى ناله ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى المصائب التى ساءتنى ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ أشر بطر ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر.

●● ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فى المحنة والبلاء ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وشكروا فى النعمة والرخاء ﴿أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعنى الجنة كانوا يقترحون عليه آيات تعنتا لا استرشاداً؛ لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة مما جاء به كافية فى رشادهم ومن اقتراحاتهم لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك وكانوا لايعتدون بالقرآن ويتهاونون به، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقى إليهم مالا يقبلونه ويضحكون منه فهيَّجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله:

●● ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ أى: لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم له وتهاونهم به ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ بأن تتلوه عليهم ولم يقل ضيق ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأنه ـ عليه السلام ـ كان أفسح الناس صدراً، ولأنه أشكل بتارك ﴿أَن يَقُولُوا﴾ مخافة أن يقولوا ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه والملائكة لنصدقه، ولِمَ أنزل عليه ما لا نريده ولانقترحه ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أى ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ولا عليك إن ردوا، أو تهاونوا ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ مايقولون وهو فاعل بهم مايجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك إليه وعليك بتبليغ الوحى بقلب فسيح وصدر منشرح غير ملتفت إلى استكبارهم ولامبال بسفههم واستهزائهم .

●●﴿ أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة ﴿افْتَرَاهُ﴾ الضمير لما يوحى إليك ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ تحداهم أولا بعشر سور، ثم بسورة واحدة كما يقول: المخابر فى الخط لصاحبه اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب فإذا تبين له العجز عن ذلك، قال : اقتصرت منك على سطر واحد﴿مِّثْلِهِ﴾ فى الحسن والجزالة ومعنى مثله أمثاله ذهاباً إلى مماثلة كل واحدة منها له ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ صفة لعشرة سور. لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله أرخى معهم العنان، وقال: هبوا أنى اختلقته من عند نفسى، فأتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء

(١) الجدة: الرزق، وهى بكسر الجيم، وضمها . القاموس (١/ ٢٨١).

مثلى ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى.

●● ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى أنزل ملتبساً بما لايعلمه إلا الله من نظم معجز للخلق وإخبار بغيوب لاسبيل لهم إليه، واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله وحده وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم،وإنما جمع الخطاب بعد إفراده، وهو قوله لكم: فاعلموا بعد قوله: قل لأن الجمع لتعظيم رسول الله ﷺ أو لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يحدثونهم، أو لأن الخطاب للمشركين والضمير فى فإن لم يستجيبوا لمن استعظم أى فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا أنما نزل بعلم الله أى بإذنه أو بأمره ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ متبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة ومن جعل الخطاب للمسلمين فمعناه فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه، وازدادوا يقيناً على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد فهل أنتم مسلمون مخلصون.

●● ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق، وهم الكفار، أو المنافقون .

●● ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وحبط فى الآخرة ماصنعوه، أو صنيعهم أى لم يكن لهم ثواب؛ لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا وقد وفى إليهم ما أرادوا ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كان عملهم فى نفسه باطلا؛ لأنه لم يعمل لغرض صحيح والعمل الباطل لاثواب له.

●● ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ أمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه أى لايعقبونهم فى المنزلة ولايقاربونهم يعنى أن بين الفريقين تباينا بينا وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة من ربه أى على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام، وهو دليل العقل ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شَاهِدٌ﴾ يشهد بصحته، وهو القرآن ﴿مِّنْهُ﴾ من الله، أومن القرآن فقد مر ذكره آنفا ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ وهو التوراة أى ويتلوا ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى ـ عليه السلام ـ ﴿إِمَامًا﴾ كتابا مؤتما به فى الدين قدوة فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم وهما حالان ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى من كان على بينة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعنى أهل مكة ومن ضامهم من المتحزبين على رسول الله ﷺ ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ مصيره ومورده ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أومن الموعد ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

●● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يحبسون فى الموقف وتعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولدا وشريكا ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الكاذبين على ربهم، والأشهاد جمع شاهد كأصحاب وصاحب، أو شهيد كشريف وأشراف.

●● ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصرفون الناس عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالاعوجاج وهى مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ هم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به .

●● ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا ﴾ أى ما كانوا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ بمعجزين الله فى الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم، وهو من كلام الأشهاد ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم أضلوا الناس عن دين الله . يضعفّ مكى وشامى ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أى استماع الحق ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ الحق.

●● ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها.

●● ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ بالصد والصدود وفى لاجرم أقوال؛ أحدها: أن لا رد لكلام سابق أى: ليس الأمر كما زعموا ومعنى جرم كسب، وفاعله مضمر، وأنهم فى الآخرة: فى محل النصب والتقدير كسب قولهم خسرانهم فى الآخرة، وثانيها: أن لاجرم كلمتان ركبتا فصار معناهما حقاً وأن فى موضع رفع بأنه فاعل لحق أى حق خسرانهم، وثالثها: أن معناه لامحالة.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهى الأرض المطمئنة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

●● ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ وفريق المؤمنين بالبصيرْ والسميع ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ يعنى الفريْقين ﴿مَثَلًا﴾ تشبيها وهو نصب علىْ التمييز ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتنتفعون بضرب المثل.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى بأنى والمعنى أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام، وهو قول :﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح فى كأن، والمعنى على الكسر وبكسرالألف شامى ونافع وعاصم وحمزة على إرادة القول.

●● ﴿أن لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّه﴾ أن مفسرة متعلقة بأرسلنا أو بنذير ﴿إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازى لوقوع الألم فيه.

●● ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِه﴾ يريد الأشراف؛ لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة؛ أو لأنهم ملئوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ أرادوا أنه كان ينبغى أن يكون ملكا أوملكا ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أخساءنا جمع الأرذال ﴿بَادِى﴾ وبالهمزة أبو عمرو ﴿الرَّأْى﴾ وبغير همز أبو عمرو أى اتبعوك ظاهر الرأى، أو أول الرأى من بدا يبدو إذا أظهر، أو بدأ يبدأ إذا فعل الشىء أولا وانتصابه على الظرف أصله وقت حدوث ظاهر رأيهم، أو أول رأيهم، فحذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه، أرادوا أن اتباعهم لك شىء عنّ لهم بديهة من غير رويّة ونظر ولو تفكروا ما اتبعوك وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية؛ لأنهم كانوا جهالا ماكانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمِّين بالإسلام يعتقدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا لايقرب أحداً من الله، وإنما يبعده ولايرفعه بل يضعه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فى مال ورأى عنوا نوحاً وأتباعه ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ أى: نوحا فى الدعوة ومتبعيه فى الإجابة والتصديق يعنى تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيباً للرياسة.

●● ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبرونى ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ برهان ﴿مِّن رَّبِّى﴾ وشاهد منه يشهد بصحة دعواى﴿وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِه﴾ يعنى النبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُم﴾ ـ فعميت ـ أى: خفيت. فعميت حمزة وعلى وحفص أى: أخفيت أى: فعميت عليكم البينة فلم تهدكم كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغيرها، وحقيقته أن الحجة كماجعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء؛ لأن الأعمى لايهتدى ولايهدى غيره ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أى الرحمة ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ لاتريدونها، والواو دخلت هنا تتمة للميم وعن أبى عمرو إسكان الميم ووجهه أن الحركة لم تكن إلااخلسة خفيفة فظنها الراوى سكونا، وهولحن؛ لأن الحركة الإعرابية لايسوغ طرحها إلا فى ضرورة الشعر.

●● ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه﴾ على تبليغ الرسالة؛ لأنه مدلول قوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِير﴾ ﴿مَالاً﴾ أجراً يثقل عليكم إن أديتم، أو علىّ إن أبيتم ﴿إِنْ أَجْرِى﴾ مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص ﴿إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِم﴾ فيشكوننى إليه إن طردتهم ﴿وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل، أو تجهلون لقاء ربكم، أو أنهم خير منكم.

●● ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّه﴾ من يمنعنى من انتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

●● ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ اللَّهِ﴾ فأدعى فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلى بقولكم: وما نرى لكم علينا من فضل ﴿وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حتى أطلع على ما فى نفوس أتباعى وضمائر قلوبهم، وهو معطوف على عندى خزائن الله أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب ﴿وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا إلى ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ﴾ ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ فى الدنيا والآخرة لهوانه عليه مساعدة لكم ونزولا على هواكم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ﴾ من صدق الاعتقاد، وإنما على قبول ظاهر إقرارهم؛ إذ لا أطلع على خفى أسرارهم ﴿إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك. والازدراء افتعال من زرى عليه إذا عابه وأصله تزترى فأبدلت التاء دالا.

●● ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى وعدك.

●● ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ﴾ أى ليس الإتيان بالعذاب إلىّ، وإنما هو إلى من كفرتم به ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أى لم تقدروا على الهرب منه.

●● ﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى﴾ هو إعلام موضع الغى ليتقى والرشد ليقتفى. ولكنى، إنى نصحى، مدنى وأبو عمرو ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ أى يضلكم، وهذا شرط دخل على شرط، فيكون الثانى مقدما فى الحكم لما عرف. تقديره: إن كان الله يريد أن يغويكم لاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم وهو دليل بين لنا فى إرادة المعاصى ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ فيتصرف فيكم على قضية إرادته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقولون افتراه ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أى إن صح أنى افتريته فعلىّ عقوبة إجرامى أى افترائى، يقال: أجرم الرجل إذا أذنب ﴿وَأَنَا بَرِىءٌ﴾ أى: ولم يثبت ذلك وأنا برىء منه ومعنى ﴿مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم فى إسناد الافتراء إلى فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم.

●● ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ إقناط من إيمانهم وأنه غير متوقع، وفيه دليل على أن للإيمان حكم التجدد، كأنه قال: إن الذى آمن يؤمن فى حادث الوقت، وعلى ذلك يخرج الزيادة التى ذكرت فى الإيمان بالقرآن ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتئاس افتعال من البؤس وهو الحزن والفقر والمعنى فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك فقد حان وقت الانتقام من أعدائك.

•• ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هو فى موضع الحال أى: اصنعها محفوظا وحقيقته ملتبسا بأعيننا كأن الله معه أعينا تكلؤه من أن يزيغ فى صنعته عن الصواب ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وإنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطير [1] ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولاتدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق وقد قضى به وجف القلم فلا سبيل إلى كفه.

•• ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ، ويقولون له: يانوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ عند رؤية الهلاك ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ منا عند رؤية الفلك، روى أن نوحا ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة من خشب الساج فى سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع، أو ألفا ومائتى ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، أو ستمائة ذراع وطولها فى السماء ثلاثون ذراعا[2] وجعل لها ثلاثة بطون فحمل فى البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب نوح ومن معه فى البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم ـ عليه السلام ـ وجعله حاجزا بين الرجال والنساء.

•• ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ من فى محل نصب بتعلمون أى: فسوف تعلمون الذى يأتيه ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويعنى به إياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وهو عذاب الآخرة .

•• ﴿حَتَّىٰ﴾ هى التى يبدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء، وهى غاية لقوله: ويصنع الفلك، أى: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد، وما بينهما من الكلام حال من يصنع أى: يصنعها، والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجواب كلما سخروا، وقال: استئناف على تقدير سؤال سائل ، أو قال: جواب وسخروا بدل من مر، أو صفة لملأ ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ هو كناية عن اشتداد الأمر وصعوبته، وقيل: معناه جاش الماء من تنور الخبز وكان من حجر لحواء فصار إلى نوح ـ عليه السلام ـ وقيل : التنور وجه الأرض﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ فى السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تفسيره فى سورة المؤمنين ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ عطف على اثنين وكذا ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أى: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر

---

(١) جؤجؤ الطائر: صدره، والجمع جآجىء.
(مختار الصحاح).
(٢) رواه الطبرى.

بتقديره وإرادته جل خالق العباد عن أن يقع فى الكون خلاف ما أراد ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال ـ عليه السلام ـ : «كانوا ثمانية نوح وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم»[1] وقل: كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة، وقيل: كانوا اثنين وسبعين رجالا ونساء وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء.

•• ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بسم الله متصل باركبوا حالا من الواو أى اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران: كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف؛ كقولهم: خفوق النجم، ويجوز أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة برأسها غير متعلقة بما قبلها، وهى مبتدأ وخبر، يعنى أن نوحا ـ عليه السلام ـ أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله، أى: باسم الله إجراؤها وإرساؤها وكان إذا أراد أن تجرى قال بسم الله فجرت وإذا أراد أن ترسو قال بسم فرست. مجريها بفتح الميم وكسر الراء من جرى، إما مصدر أو وقت حمزة وعلى وحفص ، وبضم الميم وكسر الراء أبو عمرو ، والباقون بضم الميم وفتح الراء ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث خلصهم.

•• ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها بسم الله؛ كأنه قيل فركبوا فيها يقولون: بسم الله وهى تجرى بهم أى السفينة تجرى، وهم فيها ﴿فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ يريد موج الطوفان وهو جمع موجة كتمر وتمرة، وهوما يرتفع من الماء عند اضطرابه بدخول الرياح الشديدة فى خلاله شبه كل موجة منه بالجبل فى تراكمها وارتفاعها ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقيل يام والجمهور على أنه ابنه الصلبى، وقيل: كان ابن امرأته ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عن أبيه وعن السفينة مفعل من عزله عنه إذا نحاه وأبعده، أو فى معزل عن دين أبيه ﴿يَا بُنَىَّ﴾ بفتح الياء عاصم اقتصار عليه من الألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك: يا بنيا . غيره بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الإضافة ﴿ارْكَب مَّعَنَا﴾ فى السفينة، أى: أسلم واركب ﴿وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ .

•• ﴿قَالَ سَآوِى﴾ ألجأ ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ﴾ يمنعنى من الغرق ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى، أولا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله أى إلا مكان من رحم الله من المؤمنين، وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له لايعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد ، وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم، يعنى:

(١) قال ابن حجر: لم أره مرفوعاً، وذكر الطبرى روايات عن قتادة وابن جريج أنهم ثمانية، وآخرون قالوا: سبعة، وغيرهم: عشرة. والله أعلم بعددهم.

السفينة ، أو هو استثناء منقطع؛ كأنه قيل ولكن من رحمه الله فهو المعصوم؛ كقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾(١). ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين ابنه والجبل ، أو بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ فصار أو فكان فى علم الله.

●● ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ انشفى وتشربى، والبلع: النشف ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أمسكى ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نقص من غاضه إذا نقصه وهو لازم ومتعد ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد الله نوحًا من إهلاك قومه ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة بعد أن طافت الأرض كلها ستة أشهر ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهو جبل بالموصل ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى سحقا لقوم نوح الذين غرقوا يقال: بعدا بعدا وبَعَدًا إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ولذلك خص بدعاء السوء والنظر فى هذه الآية من أربع جهات من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها، فنقول: إن الله تعالى لما أراد أن يبين معنى أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض، وأن نقضى أمرنوح وهو إنجاز ما كنا وعدناه من إغراق قومه فقضى، وأن نسوى السفينة على الجودى فاستوت وأبقينا الظلمة غرقى؛ بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذى لايتأتى منه لكمال هيبته العصيان وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ فى تكون المقصود تصويراً لاقتداره العظيم، وأن السماوات والأرض منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة لإرادته فيها تغييرا وتبديلا؛ كأنها عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه،وتحتم بذل المجهود عليهم فى تحصيل مراده، ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام، فقال عزوجل، وقيل: على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها، قول القائل وجعل قرينة المجاز الخطاب للجهاد ، وهو يا أرض ويا سماء، ثم قال مخاطبا لهما: يا أرض ويا سماء على سبيل الاستعارة للشبه المذكور، ثم استعارة لغور الماء فى الأرض البلع الذى هو أعمال الجاذبة فى المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقر خفى ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوى الأرض بالماء فى الإنبات كتقوى الآكل بالطعام، ثم قال: ماءك بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض كاتصال الملك بالمالك، ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما فى عدم التأنى، ثم قال: ﴿وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا﴾ ولم يصرح بمن أغاض الماء ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة، وقال بعداً كما لم يصرح بقائل يا أرض وياسماء سلوكًا فى كل واحد من ذلك لسبيل الكناية، وأن تلك الأمور العظام لاتتكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكون قاهر وأن فاعلها واحد لايشارك فى فعله فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ولا أن يكون الغائض والقاضى والمسوى غيره، ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكى مسلكهم فى تكذيب الرسل ظلما لأنفسهم إظهاراً لمكان السخط، وأن ذلك العذاب الشديد ما كان إلا لظلمهم.

---

(١) سورة «النساء»، الآية (١٥٧).

ومن جهة علم المعانى وهو النظر فى فائدة كل كلمة فيها وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها وذلك أنه اختير «يا» دون أخواتها لكونها أكثر استعمالا ولدلالتها على بعد المنادى الذى يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت وإبداء العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ولم يقل يا أرضى لزيادة التهاون إذ الإضافة تستدعى القرب، ولم يقل: يا أيتها الأرض للاختصار واختير لفظ الأرض والسماء لكونهما أخف وأدور، واختير ابلعى على ابتلعى لكونه أخصر وللتجانس بينه وبين أقلعى، وقيل أقلعى ولم يقل عن المطر، وكذا لم يقل يا أرض ابلعى ماءك فبلعت ويا سماء أقلعى فأقلعت اختصاراً، واختير غيض على غيّض، وقيل الماء دون أن يقول ماء الطوفان، والأمر ولم يقل أمر نوح وقومه لقصد الاختصار والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ولم يقل وسويت على الجودى، أى أقرت على نحو قيل وغيض اعتبارا لبناء الفعل للفاعل مع السفينة فى قوله وهى تجرى بهم إرادة للمطابقة ثم قيل بعداً للقوم ولم يقل ليبعد القوم؛ طلبا للتأكيد مع الاختصار هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم، وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل، فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقيل: يا أرض ابلعى وياسماء أقلعى ولم يقل ابلعى يا أرض وأقلعى يا سماء جريا على مقتضى الكلام فيمن كان مأمورا حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه فى نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء وابتدأ به، لابتداء الطوفان منها، ثم أتبع وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها، ثم ذكرما هو المقصود، وهو قوله : ﴿وقضى الأمر﴾ أى أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن معه فى الفلك وعلى هذا فاعتبر * ومن جهة الفصاحة المعنوية، وهى كما ترى نظم للمعانى لطيف وتأدية لها ملخصة مبينة لاتعقيد يعثر الفكر فى طلب المزاد ولا التواء يشيّك الطريق إلى المرتاد *

ومن جهة الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات سلسة على الأسلات، كل منها كالماء فى الملاسة، وكالعسل فى الحلاوة، وكالنسيم فى الرقة، ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية ولله در شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر ولا تظنن الآية مقصورة على المذكور فلعل المتروك أكثر من المسطور.

•• ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِ﴾ نداؤه ربه دعاؤه له، وهو قوله ربه مع ما بعده من اقتضاء وعده فى تنجية أهله ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى: بعض أهلى؛ لأنه كان ابنه من صلبه أو كان ربيبا له فهو بعض أهله ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذى لاشك فى إنجازه والوفاء به، وقد وعدتنى أن تنجى أهلى فما بال ولدى ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أى أعلم الحكام وأعدلهم؛ إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل ورب غريق فى الجهل والجور من متقلدى الحكومة فى زمانك قد لقب أقضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر .

•• ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم علل لانتفاء كونه من أهله بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب، وأن نسيبك فى دينك وإن كان حبشيا

وكنت قرشيا لصيقك، ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمسّ أقاربك رحما - فهو أبعد بعيد منك، وجعلت ذاته عملا غير صالح مبالغة فى دمه، كقولها: * فإنما هى إقبال وإدبار [١] ، أو التقدير إنه ذو عمل وفيه إشعار بأنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهله، وهذا لماانتفى عنه الصلاح لم تنفعه أبوته. عمل غير صالح على . قال الشيخ أبو منصور - رحمه الله -: كان عند نوح - عليه السلام - أن ابنه كان على دينه؛ لأنه كان يتافق وإلا لايحتمل أن يقول ابنى من أهلى ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهى عن سؤال مثله بقوله : ﴿**ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾ فكان يسأله على الظاهر الذى عنده كماكان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا - عليه السلام - ويضمرون الخلاف له ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه وقوله: ليس من أهلك أى: من الذين وعدت النجاة لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر والظاهر ﴿**فَلا تَسْأَلْن**﴾ اجتزأ بالكسرة عن الياء كوفى تسألْنى بصرى تسألنّى مدنى تسألن شامى فحذف الياء واجتزأ بالكسرة والنون نون التأكيد تسألن مكى ﴿**مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ بجوار مسألته ﴿**إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِين**﴾ هوكما نهى رسولنا بقوله : ﴿**فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِين**﴾[٢].

●● ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ**﴾ أى: من أن أطلب منك فى المستقبل مالا علم لى بصحته تأدبا بأدبك واتعاظا بموعظتك ﴿**وإلاَّ تَغْفِرْ لِى**﴾ ما فرط منى﴿**وَتَرْحَمْنِى**﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿**أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِين**﴾.

●● ﴿**قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا**﴾ بتحية منا، أو بسلامة من الغرق ﴿**وَبَرَكَاتٍ عَلَيْك**﴾ هى الخيرات النامية، وهى فى حقه بكثرة ذريته وأتباعه فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته وأئمة الدين فى القرون الباقية من نسله ﴿**وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَك**﴾ من للبيان فتراد الأمم الذين كانوا معه فى السفينة؛ لأنهم كانوا جماعات، أو قيل لهم أمم؛ لأن الأمم تتشعب منهم أو لابتداء الغاية أى على أمم ناشئة ممن معك وهى الأمم إلى آخر الدهر وهو الوجه ﴿**وَأُمَم**﴾ رفع بالابتداء ﴿**سَنُمَتِّعُهُم**﴾ فى الدنيا بالسعة فى الرزق، والخفض [٣] فى العيش صفة، والخبر محذوف تقديره وممن معك أمم سنمتعهم، وإنما حذف؛ لأن ممن معك يدل عليه ﴿**ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ أى فى الآخرة والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون ممن معك. وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح - عليه السلام - أبا الأنبياء والخلق بعد الطوفان منه وممن كان

---

(١) هذا عجز بيت للخنساء وصدره:

لا تسأم الدهر منه كلما ذكرت.

(٢) سورة «الأنعام»، الآية (٣٥).

(٣) الخفض: الدعة وسعت العيش.

(المعجم الوسيط ١/ ٢٤٦).

معه فى السفينة، وعن محمد بن كعب دخل فى ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر.

•• ﴿تلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح ـ عليه السلام ـ ومحلها الرفع على الابتداء والجمل بعدها وهى ﴿منْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ﴾ أخبار أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك مجهولة عندك وعند قومك ﴿مِن قَبْلِ هَذَا﴾ الوقت، أو من قبل إيحائى إليك وإخبارك بها ﴿فَاصْبِرْ﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبك نحو ماكان لنوح ولقومه ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ الفوز والنصر والغلبة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك.

•• ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ واحدا منهم وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحاً أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بالرفع نافع صفة على محل الجار والمجرور، وبالجر عليّ على اللفظ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ تفترون على الله الكذب باتخاذكم الأوثان له شركاء.

•• ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى﴾ مامن رسول إلا واجه قومه بهذا القول؛ لأن شأنهم النصيحة والنصيحة لايمحضها إلا حسم المطامع وما دام يتوهم شيء منها لم تنجح ولم تنفع ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ إذ تردون نصيحة من لايطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخر ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك.

•• ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ آمنوا به ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ أى المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ حال أى كثير الدور ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ إنما قصد استمالتهم إلى الإيمان بكثرة المطر وزيادة القوة؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة البطش والقوة، وقيل: أراد القوة بالمال أو على النكاح وقيل حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم فوعدهم هود ـ عليه السلام ـ المطر والأولاد على الإيمان والاستغفار ـ وعن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ أنه وفد على معاوية فلما خرج قال له بعض حجابه: إنى رجل ذو مال ولايولد لي علمنى شيئاً لعل الله يرزقنى ولدا فقال الحسن: عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر فى يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين فبلغ ذلك معاوية، فقال هلا سألته مم قال ذلك فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ وقول نوح: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿وَلا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عنى وعما أدعو إليه ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم وآثامكم.

•• ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ كذب منهم وجحود كما قالت قريش لرسول الله ﷺ ﴿لَوْلا

﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[1] مع فوت آياته الحصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ هو حال من الضمير فى تاركى آلهتنا؛ كأنه قيل: وما نترك آلهتنا صادرين عن قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيمايدعوهم إليه إقناطا له من الإجابة.

●● ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ إن حرف نفى فنفى جميع القول إلا قولا واحداً وهو قولهم اعتراك أصابك بعض آلهتنا بسوء بجنون وخبل، وتقدير ما نقول قولا إلا هذه المقالة أى قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

●● ﴿مِن دُونِهِ﴾ أى: من إشراككم آلهة من دونه، والمعنى إنى أشهد الله أنى برىء مما تشركون، واشهدوا أنتم أيضاً إنى برىء من ذلك، وجىء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى[2] بينه وبينه اشهد على أنى لا أحبك تهكما به واستهانة بحاله ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم ﴿ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ لاتمهلون فإنى لا أبالى بكم وبكيدكم ولاأخاف معرتكم وإن تعاونتم على، وكيف تضرنى آلهتكم وماهى إلا اجماد لايضر ولاينفع ، وكيف تنتقم منى إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخبلنى وتذهب بعقلى.

●● ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى مالكها، ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم وصفه بمايوجب التوكل عليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم، ومن كون كل دابة فى قبضته وملكته وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بالناصية تمثيل لذلك ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إن ربى على الحق لايعدل عنه، أو إن ربى يدل على صراط مستقيم.

●● ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ هو فى موضع فقد ثبتت الحجة عليكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ كلام مستأنف أى ويهلككم الله ويجىء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم ﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ﴾ بتوليكم ﴿شَيْئًا﴾ من ضرر قط؛ إذ لايجوز عليه المضار، وإنما تضرون أنفسكم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولايغفل عن مؤاخذتكم، أو من كان رقيبا على الأشياء كلها حافظا لها وكانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضار لم يضر مثله مثلكم.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أى: بفضل منا لا بعملهم ، أو بالإيمان الذى أنعمنا عليهم ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وتكرار نجينا للتأكيد، أو الثانية من عذاب الآخرة ولاعذاب أغلظ منه.

(١) يونس (٢٠)، والرعد (٧)، (٢٧).

(٢) يبس الثرى: أى انقطع الود، مأخوذ من جفاف الثرى فى مجرى الماء بعد انقطاعه.

•• ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم؛ كأنه قال: سيحوا فى الأرض فانظروا إليها واعتبروا، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يريد رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل؛ لأنهم الذين يجبرون الناس على الأمور ويعاندون ربهم ومعنى اتباع أمرهم طاعتهم.

•• ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لماكانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين ﴿أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ تكرار ألا مع النداء على كفرهم والدعاء عليهم؛ تهويل لأمرهم، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم والدعاء ببعد بعد هلاكهم، وهو دعاء بالهلاك للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد وفيه فائدة؛ لأن عادا عادان الأولى القديمة التى هى قوم هود والقصة فيهم والأخرى إرم.

•• ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ لم ينشئكم منها إلا هو وإنشاؤهم منها خلق آدم من التراب ثم خلقهم من آدم ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وجعلكم عمارها وأراد منكم عمارتها، أو استعمركم من العمر أى أطال أعماركم فيها وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار وعمرو الأعمار الطوال مع ما فيهم من الظلم، فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم فأوحى الله إليه أنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ فاسألوه مغفرته بالإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ دانى الرحمة ﴿مُّجِيبٌ﴾ لمن دعاه.

•• ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا﴾ فيما بيننا ﴿مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ للسيادة والمشاورة فى الأمور، أو كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ حكاية حال ماضية ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع فى الريبة من أرابه إذا أوقعه فى الريبة، وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

•• ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة أتى بحرف الشك مع أنه على يقين أنه على بينة؛ لأن خطابه للجاحدين، فكأنه قال: قدروا أنى على بينة من ربى وأننى نبى على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ فمن يمنعنى من عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فى تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بقولكم: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ بنسبتكم إياى إلى الخسار أى بنسبتى إياكم إلى الخسران.

•• ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ نصب على الحال قد عمل فيها مادل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل و«لكم» متعلق بآية حالا منها متقدمة؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أى: ليس عليكم رزقها مع أن لكم نفعها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ عقر، أو نحر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل.

•• ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يوم الأربعاء ﴿فَقَالَ﴾ صالح ﴿تَمَتَّعُوا﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ فى بلدكم وتسمى البلاد الديار؛ لأنه يدار فيها أى يتصرف أو فى دار الدنيا ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم تهلكون فهلكوا يوم السبت ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أى: غيرمكذوب فيه فاتسع فى الظرف بحذف الحرف وإجرائه مجرى المفعول به، أو وعد غير كذب على أن المكذوب مصدر كالمعقول.

•• ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب، أو عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ قال الشيخ ـ رحمه الله ـ : هذا يدل على أن من نجى إنما نجى برحمه الله تعالى لابعمله، كما قال ـ عليه السلام ـ «لايدخل أحد الجنة إلا برحمة الله».[1] ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ بإضافة الخزى إلى اليوم والجرار اليوم بالإضافة. وبفتحها[2] مدنى وعلى؛ لأنه مضاف إلى إذ وهو مبنى، وظروف الزمان إذا أضيفت إلى الأسماء المبهمة والأفعال الماضية بنيت واكتسبت البناء من المضاف إليه كقوله* على حين عاتبت المشيب على الصبا. والواو للعطف وتقديره ونجيناهم من خزى يومئذ أى من ذله وفضيحته ولاخزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه، وجاز أن يريد بيومئذ يوم القيامة كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على تنجية أوليائه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب بإهلاك أعدائه.

•• ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أى: صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ﴾ منازلهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ ميتين.

•• ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ لم يقيموا فيها ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ثمود حمزة وحفص ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾(٣) ـ لثمودٍ ـ على فالصرف للذهاب إلى الحى ، أو الأب الأكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة.

•• ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل، أو جبريل معْ أحد عشر ملكا ﴿إِبْرَاهِيمَ

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبى هريرة.
(كنز العمال ٤/ ١٠٣٨٤).

(٢) أى: فتح الميم من «يومئذ».

(٣) فى مصحف النسفى لثمود بكسر الدال مع التنوين، وهى قراءة الكسائى، وثمود بغير تنوين قراءة حفص وحمزة ويعقوب.

بِالْبُشْرَى﴾ هى البشارة بالولد أو بهلاك قوم لوط، والأول أظهر ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ سلمنا عليك سلاما ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ أمركم سلام. سلم حمزة وعلى بمعنى السلام ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ﴾ فمالبث فى المجيء به بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه، والعجل ولد البقرة وكان مال إبراهيم البقر﴿حَنِيذٍ﴾ مشوى بالحجارة المحماة.

•• ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ نكر وأنكر بمعنى وكانت عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم؛ لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه، أو لتعذيب قومه دليله قوله: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أى أضمر منهم خوفا ﴿قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالعذاب وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا ، وإنما قالوا: لاتخف؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير فى وجهه.

•• ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع تحاورهم أو على رءوسهم تخدمهم ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الخبائث أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب أو فحاضت ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ وخصت بالبشارة ؛لأن النساء أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد وهو إسماعيل ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ ومن بعده ﴿يَعْقُوبَ﴾ بالنصب شامى وحمزة وحفص بفعل مضمر دل عليه فبشرناها أى فبشرناها بإسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء إسحق وبالرفع غيرهم على الابتداء، والظرف قبله خبر ، كما تقول فى الدار زيد.

•• ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾ الألف مبدلة من ياء الإضافة وقرأ الحسن ياويلتى بالياء على الأصل ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ ابن مائة وعشرين سنة، هذا مبتدأ وبعلى خبره وشيخاً حال والعامل معنى الإشارة التى دلت عليه ذا أو معنى التنبيه الذى دل عليه هذا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أن يولد ولد من هرمين وهو استبعاد من حيث العادة.

•• ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قدرته وحكمته، وإنما أنكرت الملائكة تعجبها؛ لأنها كانت فى بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقر ولايزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب، وإلى ذلك أشارت الملائكة حيث قالوا: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالأنعام به يا أهل بيت النبوة فليست بمكان عجيب، وهو كلام مستأنف علل به إنكار التعجب؛ كأنه : قيل إياك والتعجب؛ لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم. وقيل الرحمة: النبوة، والبركات الأسباط من بنى إسرائيل؛ لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد

إبراهيم وأهل البيت نصب على النداء، أو على الاختصاص ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ محمود بتعجيل النعم ﴿مَّجِيدٌ﴾ ظاهر الكرم بتأجيل النقم.

●● ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الفزع، وهو ما أوجس من الخيفة حين نكر أضيافه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أى: لما اطمأن قلبه بعد الخوف وملىء سروراً بسبب البشرى فزع للمجادلة. وجواب لما محذوف، تقديره أقبل يجادلنا، أو يجادلنا جواب لما، وإنما جيء به مضارعا لحكاية الحال والمعنى: يجادل رسلنا ومجادلته إياهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها قالوا: لا، قال: فأربعون قالوا: لا، قال: فثلاثون قالوا: لاحتى بلغ العشرة قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا: لا فعند ذلك ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾.

●● ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على كل من أساء إليه أو كثير الاحتمال ممن آذاه، صفوح عمن عصاه ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من خوف الله ﴿مُّنِيبٌ﴾ تائب راجع إلى الله وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة، كما حمله على الاستغفار لأبيه؛ فقالت الملائكة.

●● ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قضاؤه وحكمه ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لايرد بجدال وغير ذلك عذاب مرتفع باسم الفاعل، وهو آتيهم،و تقديره وإنهم يأتيهم ، ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية إبراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ لما أتوه ورأى هيئاتهم وجمالهم ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أحزن ، لأنه حسب أنهم إنس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ تمييز أى وضاق بمكانهم صدره ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد روى أن الله تعالى قال لهم: لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما مشى معهم منطلقا بهم إلى منزله، قال لهم: أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا: وما أمرهم قال: أشهد بالله إنها لشر قرية فى الأرض عملا، قال ذلك أربع مرات،، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها.

●● ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ يسرعون كأنما يدفعون دفعا ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش حتى مرنوا عليها، وقل عندهم استقباحها فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لايكفهم حياء ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فتزوجوهن أراد أن يقى أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا فى ذلك الوقت، كماجاز فى

الابتداء فى هذه الأمة، فقد زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبى لهب[1] وأبى العاص [2] وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد لوط أن يزوجهما ابنتيه ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أحل هؤلاء مبتدأ، وبناتى عطف بيان وهن فصل، وأطهر خبر المبتدأ، أو بناتى خبر وهن أطهر مبتدأ وخبر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإيثارهن عليهم ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولاتهينونى ولاتفضحونى من الخزى، أو ولاتخجلونى من الخزاية، وهى الحياء وبالياء أبو عمرو فى الوصل ﴿فِي ضَيْفِي﴾ فى حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل، أو جاره فقد خزى الرجل وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أى رجل واحد يهتدى إلى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء.

●●﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ حاجة؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا فمذهبنا إتيان الذكران ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ عنوا إتيان الذكور ومالهم فيه من الشهوة.

●● ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ جواب لومحذوف أى: لفعلت بكم ولصنعت، والمعنى لوقويت عليكم بنفسى أو أويت إلى قوى أستند إليه وأتمنع به فيحمينى منكم فشبه القوى العزيز بالركن من الجبل فى شدته ومنعته. روى أنه أغلق بابه حين جاءوا وجعل يرادّهم ماحكى الله عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقى لوط من الكرب.

●● ﴿قَالُوا يَا لُوطُ﴾ إن ركنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه فى عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[3] فصاروا لايعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون: النجاء، النجاء فإن فى بيت لوط قوماً سحرة ﴿لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ جملة موضحة للتى قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره ﴿فَأَسْرِ﴾ ـ فاسر ـ بالوصل حجازى من سرى ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ طائفة منه أو نصفه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ بقلبه إلى ماخلف، أو لاينظر إلى ما وراءه، أو لايتخلف منكم أحد ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ مستثنى من فاسر بأهلك. وبالرفع مكى وأبو عمرو على البدل من أحد، وفى إخراجها مع أهله روايتان: روى أنه أخرجها معهم وأمر

---

(١) عتبة: هو عُتبة بن أبى لهب، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، تزوج فى الجاهلية من ابنته رقية؛ ولما نزلت سورة المسد، غضب أبو لهب وأمر ابناه «عتبة وعتيبة» أن يفارقا بنتى النبى ﷺ «رقية وأم كلثوم».

من ترجمة رقية، الأعلام (٣/ ٣١).

(٢) أبو العاص: هو القاسم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، صهر النبى ﷺ، فلقد تزوج زينب فى الجاهلية، ولما بعث النبى ﷺ فرق بينهما لكفره، فلما أسلم أعيدت إليه.

توفى ـ رضى الله عنه ـ عام ١٢هـ.

الأعلام (٥/ ١٧٦).

(٣) سورة «القمر»، الآية (٣٧).

أن لايلتفت منهم أحد إلا هى، فلما سمعت هذه العذاب التفتت، وقالت: ياقوماه فأدركها حجر فقتلها. وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فإنّ هواها إليهم فلم يسر بها واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: إن الأمر، وروى أنه قال لهم: متى موعد هلاكهم قالوا: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

●● ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ جعل جبريل -عليه السلام- جناحه فى أسفلها أى أسفل قراها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم، وذلك قوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ هى كلمة معربة من «سنك كل» بدليل قوله :﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ ﴿مَّنضُودٍ﴾ نعت لسجيل أى: متتابع أو مجموع معد للعذاب.

●● ﴿مُسَوَّمَةً ﴾ نعت لحجارة أى معلمة للعذاب قيل مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿عِندَ رَبِّكَ ﴾ فى خزائنه، أو فى حكمه ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ بشىء بعيد وفيه وعيد لأهل مكة فإن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لرسول الله ﷺ: يعنى ظالمى أمتك مامن ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة، أو الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم .

●● ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هو اسم مدينتهم، أو اسم جدهم مدين بن إبراهيم أى: وأرسلنا شعيباً إلى ساكنى مدين، أو إلى بنى مدين ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ﴾ أى: المكيل بالمكيال ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والموزون بالميزان ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ماتفعلون ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ مهلك من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾(١) وأصله من إحاطة العدو؛ والمراد عذاب الاستئصال فى الدنيا أو عذاب الآخرة.

●● ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتموهما ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل نهوا أولا عن عين القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول لزيادة الترغيب فيه، وجىء به مقيدا بالقسط أى: ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولانقصان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ البخس: النقص كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء فنهوا عن ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العثى والعيث أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل، ويجوز أن يجعل البخس والتطفيف عيثًا منهم فى الأرض.

---

(١) سورة «الكهف»، الآية (٤٢).

●● ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ ما يبقى لكم من الحلال بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا. نعم بقية الله خير للكفرة أيضاً؛ لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس والتطفيف إلا أن فائدتها تظهر مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب لاتظهر مع عدمه لانغماس صاحبها فى غمرات الكفر، وفى ذلك تعظيم للإيمان تنبيه على جلالة شأنه، أو المراد إن كنتم مصدقين لى فيما أقول لكم وأنصح به إياكم ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ لنعمه عليكم فاحفظوها بترك البخس.

●● ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ﴾ وبالتوحيد[1] كوفى غير أبى بكر ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ كان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلوات ، وكان قومه يقولون له: ما تستفيد بهذا فكان يقول: إنها تأمر بالمحاسن وتنهى عن القبائح، فقالوا على وجه الاستهزاء: أصلواتك تأمرك بترك عبادة ماكان يعبد آباؤنا، أو أن نترك التبسط فى أموالنا ما نشاء من إيفاء ونقص؟! وجاز أن تكون الصلوات آمرة مجازا كما سماها الله تعالى ناهية مجازا ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أى السفيه الضال وهذه تسمية على القلب استهزاء، أو إنك حليم رشيد عندنا ولست تفعل بنا ما يقتضيه حالك.

●● ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ من لدنه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعنى النبوة والرسالة، أومالا حلالا من غير بخس وتطفيف، وجواب أرأيتم محذوف أى: أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من ربى وكنت نبيا على الحقيقة أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى، والأنبياء لايبعثون إلا لذلك. يقال: خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده، ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: خالفنى إلى الماء يريد أنه قد ذهب إليه واردا وأنا ذاهب عنه صادرا، ومنه قوله :﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبدبها دونكم ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ظرف أى مدة استطاعتى للإصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهدا ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ وما كونى موفقاً لإصابة الحق فيما آتى وأذر إلا بمعونته وتأييده ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع فى السراء والضراء.

جرم مثل كسب فى تعديه إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، ومنه قوله: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم ﴾ أى لا يكسبنكم خلافى إصابة العذاب ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ وهو الغرق والريح والرجفة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ فى الزمان فهم أقرب

[1] التوحيد: يقصد به «الإفراد»، أى: «أصلاتك».

الهالكين منكم أو فى المكان فمنازلهم قريبة منكم، أو فيما يستحق به الهلاك ، وهو الكفر المساوى. وسوًى فى قريب وبعيد وقليل وكثير بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما.

●● ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ يغفر لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿وَدُودٌ﴾ يحب أهل الوفاء من الصالحين .

●● ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ أى: لانفهم صحة ما تقول وإلا فكيف لايفهم كلامه وهو خطيب الأنبياء ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لاقوة لك ولا عز فيما بيننا فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم، وهو شر قتلة وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى: لا تعز علينا ولاتكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك من الرجم، وإنما يعز علينا رهطك؛ لأنهم من أهل ديننا، وقد دل إيلاء ضميره حرف النفى على أن الكلام واقع فى الفاعل لافى الفعل؛ كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا.

ولذلكٌ ﴿قَالَ﴾ فى جوابهم ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ ولو قيل : وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب، وإنما قال: «أرهطى أعز عليكم من الله» والكلام واقع فيه وفى رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه؛ لأن تهاونهم به وهو نبى الله تهاون بالله وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (١) ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشىء المنبوذ وراء الظهر لايعبأ به ، والظهرى منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب، كقولهم فى النسبة إلى الأمس أمسى ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بأعمالكم علما فلايخفى عليه شىء منها.

●● ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هى بمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة ومقام ومقامة، أو مصدر من مكنه مكانة هو مكين إذا تمكن من الشىء يعنى اعملوا قارين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك، والشنآن لى ، أو أعملوا متمكنين من عداوتى مطيقين لها ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ على حسب ما يؤتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها؛ كأنه قيل: سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه أى يفضحه وأينا هو كاذب، أوموصولة قد عمل فيها؛ كأنه قيل سوف تعلمون الشقى الذى يأتيه عذاب يخزيه والذى هو كاذب فى زعمكم ودعواكم وإدخال الفاء فى سوف وصل ظاهر بحرف وضع للوصل ونزعها وصل تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر؛ كأنهم قالوا: فماذا يكون

---

(١) سورة «النساء» الآية (٨٠).

إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت فقال: سوف تعلمون، والإتيان بالوجهين للتفنن فى البلاغة وأبلغهما الاستئناف ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر، والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب بمعنى الضارب، أو بمعنى المراقب كالعشير بمعنى المعاشر أو بمعنى المرتقب كالرفيع بمعنى المرتفع.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا، وإنما ذكر فى آخر قصة عاد ومدين، ولما جاء وفى آخر قصة ثمود ولوط فلماجاء؛ لأنهما وقعا بعد ذكر الموعد وذلك قوله: إن موعدهم الصبح. ذلك وعد غيرمكذوب، فجيء بالفاء الذى هو للتسبيب، كقولك : وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت وأما الأخريان فقد وقعتا مبتدأتين فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ الجاثم اللازم لمكانه لايريم، يعنى أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو بغتة.

●● ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم يقيموا فى ديارهم أحياء متصرفين مترددين ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾ البعد بمعنى البعد وهو الهلاك كالرشد بمعنى ألا ترى إلى قوله: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ وقرىء كما بُعدت والمعنى فى البناءين واحد وهو نقيض القرب إلا أنهم فرقوا بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره فغيروا البناء، كما فرقوا بين ضمانى الخير والشر فقالوا: وعد وأوعد.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ المراد به العصا؛ لأنها أبهرها.

●● ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا﴾ أى الملأ ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ هو تجهيل لمتبعيه حيث تابعوه على أمره، وهو ضلال مبين وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم، وجاهر بالظلم والشر الذى لايأتى إلا من شيطان، ومثله بمعزل عن الألوهية وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين وعلموا أن مع موسى الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس فى أمره رشد قط، أو المراد وما أمره بصالح حميد العاقبة، ويكون قوله.

●● ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: يتقدمهم، وهم على عقبه تفسيرا له وإيضاحاً أى: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته والرشد يستعمل فى كل ما يحمد ويرتضى كما استعمل الغى فى كل ما يذم ويقال: قدم بمعنى تقدمه ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أدخلهم وجيء بلفظ الماضى؛ لأن الملضى يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لامحالة يعنى كما كان قدوة لهم فى الضلالة كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ﴾ المورد ﴿الْمَوْرُودُ﴾ الذى وردوه شبه بالفارط[1] الذى يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ الذى يردونه النار لأنه الورد إنما يراد لتسكين العطش والنار ضده.

---

(١) الفارط: أى السابق، الذى يرد الماء قبل القوم.

●● ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ أي الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يلعنون في الدنيا ويلعنون في الآخرة ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ رفدهم أبي بئس العون المعان، أو بئس العطاء المعطى.

●● ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى﴾ خبر ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصوص عليك ﴿مِنْهَا﴾ من القرى ﴿قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي بعضها باق وبعضها عافي الأثر كالزرع القائم على ساقه والذي حصد، والجملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب.

●● ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله ﴿الَّتِي يَدْعُونَ﴾ يعبدون وهي حكاية حال ماضية ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذابه، ولما منصوب بما أغنت ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ تخسير يقال: تب إذاخسر وتببه غيره أوقعه في الخسران يعني وما أفادتهم عبادة غير الله شيئاً بل أهلكتهم.

●● ﴿وَكَذَلِكَ﴾ محل الكاف الرفع أي ومثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من القرى ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ مؤلم شديد صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها فعلى كل ظالم أن يبادر التوبة ولايغتر بالإمهال .

●● ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما قص الله من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي اعتقد صحته ووجوده ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة؛ لأن عذاب الآخرة دل عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ وهو مرفوع بمجموع، كما يرفع فعله إذا قلت يجمع له الناس، وإنما آثر اسم المفعول على فعله لما في اسم المفعول من دلالته على ثبات معنى الجمع لليوم. وإنه أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لاينفكون منه يجمعون للحساب والثواب والعقاب ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، أي يشهد فيه الخلائق الموقف لايغيب عنه أحد.

●● ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: اليوم المذكور. الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، والعد، إنما هو للمدة لالغايتها ومنتهاها، فمعنى قوله: وما نؤخره ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلا لانتهاء مدة معدودة بحذف المضاف، أو ما نؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا.

●● ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ (١) وبالياء مكي وافقه أبو عمرو ونافع وعلي في الوصل، وإثبات الياء هو الأصل ، إذ لاعلة توجب حذفها وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل ونظيره

(١) بالياء: يقصد في آخر الكلمة، أي: «يأتي».

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ (١) وفاعل يأت ضمير يرجع إلى قوله يوم مجموع له الناس لا اليوم المضاف إلى يأت ، ويوم منصوب باذكر، أو بقوله: ﴿لا تَكَلَّمُ﴾ أى: لاتتكلم ﴿نَفْسٌ إلاَّ بِإِذْنِه﴾ أى: لايشفع أحد إلا بإذن الله، ﴿من ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إلاَّ بِإِذْنِه﴾(٢) ﴿فَمِنْهُم﴾ الضمير لأهل الموقف لدلالة لاتكلم نفس عليه، وقد مر ذكر الناس فى قوله: مجموع له الناس ﴿شَقِى﴾ معذب ﴿وَسَعِيد﴾ أى: ومنهم سعيد أى: منعم.

●● ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ هو أول نهيق الحمار ﴿وَشَهِيق﴾ هو آخره أو هما إخراج النفس ورده، والجملة فى موضع الحال والعامل فيها الاستقرار الذى فى النار.

●● ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْض﴾ فى موضع النصب أى مدة دوام السماوات والأرض والمراد سموات الآخرة وأرضها، وهى دائمة مخلوقة للأبد، والدليل على أن لها سماوات وأرضا، قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾(٣) وقيل: مادام فوق وتحت، ولأنه لابد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم، إما سماء، أو عرش وكل ما أظلك فهو سماء، أو هو عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع كقول العرب : مالاح كوكب، وغير ذلك من كلمات التأبيد ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّك﴾ هو استثناء من الخلود فى عذاب النار، وذلك لأن أهل النار لايخلدون فى عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وأنواع من العذاب سوى عذاب النار، أو ماشاء بمعنى من شاء، وهم قوم يخرجون من النار ويدخلون الجنة فيقال لهم، الجهنميون وهم المستثنون من أهل الجنة أيضاً لمفارقتهم إياها بكونهم فى النار أياما فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ولاسعدوا سعادة من لاتمسه النار، وهو مروى عن ابن عباس والضحاك (٤) وقتادة ـ رضى الله عنهم ـ ﴿إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ بالشقى والسعيد.

●● ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ سعدوا حمزة وعلى وحفص . سعد لازم وسعده يسعده متعد﴿فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّك﴾ هو استثناء من الخلود فى نعيم الجنة وذلك أن لهم سوى الجنة ماهو أكبر منها، وهو رؤية الله تعالى ورضوانه، أومعناه إلا من شاء أن يعذبه بقدر ذنبه قبل أن يدخله الجنة، وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال:

---

(١) سورة «الكهف»، الآية (٦٤).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٢٥٥). (٣) سورة «إبراهيم»، الآية (٤٨).

(٤) الضحاك: هو التابعى، المفسر الكبير؛ الضحاك بن مزاحم الهلالى، أبو القاسم، الخراسانى، روى عن بعض الصحابة، على خلاف، وهو إمام فى التفسير دون الحديث، صدوق، كثير الإرسال، من الخامسة توفى عام ١٠٦هـ، وقيل ١٠٥هـ، وقيل ١٠٢هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ٥٧٢، ٥٧٣).

«الاستثناء فى الآيتين لأهل الجنة»[1] ومعناه ما ذكرنا أنه لايكون للمسلم العاصى الذى دخل النار خلود فى النار حيث يخرج منها ولايكون له أيضاً خلود فى الجنة؛ لأنه لم يدخل الجنة ابتداء، والمعتزلة لما لم يروا خروج العصاة من النار ردوا الأحاديث المروية فى هذا الباب ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع ولكنه ممتد إلى غير نهاية كقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[2] وهو نصب على المصدر أى أعطوا عطاء، قيل كفرت الجهمية [3] بأربع آيات ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[4] ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾[5] ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[6] ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[7] .

لما قص الله قصص عبدة الأوثان وذكر ما أحل بهم من نقمه وما عد لهم من عذابه قال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى فلا تشك بعد ماأنزل عليك من هذه القصص فى سوء عاقبة عبادتهم لما أصاب أمثالهم قبلهم تسلية لرسول الله ﷺ وعدة بالانتقام منهم ووعيداً لهم، ثم قال ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد أن حالهم فى الشرك مثل حال آبائهم وقد بلغك مانزل بآبائهم فسينزلن بهم مثله، وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية وما فى مما وكما مصدرية، أو موصولة أى من عبادتهم وكعبادتهم، أومما يعبدون من الأوثان ومثل ما يعبدون منها ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من العذاب كما وفينا آباءهم أنصباءهم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حال من نصيبهم أى: كاملا.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ آمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف فى القرآن وهو تسلية لرسول الله ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ إنه لايعاجلهم بالعذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين قوم موسى أو قومك بالعذاب المستأصل ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو من العذاب ﴿مُرِيبٍ﴾ من راب الرجل إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازى.

●● ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه يعنى: وأن كلهم أى وأن جميع المختلفين فيه وأن مشددة ﴿لَّمَّا﴾ مخفف بصرى وعلى، ما مزيدة جىء بها ليفصل بها بين لام إن ولام

---

(١) لم نجده.

(٢) سورة «الانشقاق»، الآية (٢٥).

(٣) الجهمية: هم أصحابْ جهم بن صفوان السمرقندى، أبو محرِّز، ومن عقائدهم أن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيها، وقتل جهم فى آخر ملك بنى أمية.

(الملل والنحل - الأعلام ٢/١٤١).

(٤) سورة «هود»، الآية (١٠٨).

(٥) سورة «الرعد»، الآية (٣٥).

(٦) سورة «النحل»، الآية (٩٦).

(٧) سورة «الواقعة»، الآية (٣٣).

﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ وهو جواب قسم محذوف، واللام فى لما موطئة للقسم والمعنى وأن جميعهم والله ليوفينهم ﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى جزاء أعمالهم من إيمان وجحود وحسن وقبيح. بعكس الأولى أبو بكر، مخففان مكى ونافع على إعمال المخففة عمل الثقيلة اعتبارا لأصلها الذى هو التثقيل، ولأن إن تشبه الفعل والفعل يعمل قبل الحذف وبعده نحو لم يكن ولم يك فكذا المشبه به مشددتان غيرهم وهو مشكل، وأحسن ما قيل فيه أنه من لممت الشىء جمعته لما، ثم وقف فصار لما ثم أجرى الوصل مجرى الوقف وجاز أن يكون مثل الدعوى والثروى وما فيه ألف التأنيث من المصادر، وقرأ الزهرى ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَمًّا﴾ بالتنوين كقوله: ﴿أَكْلاً لَمًّا﴾(١) . وهو يؤيد ما ذكرنا والمعنى وأن كلا ملمومين أى مجموعين؛ كأنه قيل: وإن كلا جميعا كقوله: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٢) وقال صاحب الإيجاز(٣): لما فيه معنى الظرف وقد دخل فى الكلام اختصار كأنه قيل: وإن كلا لما بعثوا ليوفينهم ربك أعمالهم، وقال الكسائى: ليس لى بتشديد لما علم ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

•• ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التى أمرت بها غير عادل عنها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ معطوف على المستتر فى استقم، وجاز للفاصل يعنى فاستقم أنت وليستقم من تاب عن الكفر ورجع إلى الله مخلصا ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ ولاتخرجوا عن حدود الله ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو مجازيكم فاتقوه، قيل: مانزلت على رسول الله ﷺ آية كانت أشق عليه من هذه الآية؛ ولهذا قال: «شيبتنى هود»(٤) .

•• ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ولاتميلوا. قال الشيخ (٥) -رحمه الله-: هذا خطاب لأتباع الكفرة أى لاتركنوا إلى القادة والكبراء فى ظلمهم وفيما يدعونكم إليه ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ وقيل الركون إليهم الرضا بكفرهم، وقال قتادة : ولاتلحقوا بالمشركين وعن الموفق (٦) أنه صلى خلف الإمام، فلما قرأ هذه الآية غشى عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف

---

(١) سورة «الفجر»، الآية (١٩).

(٢) الحجر (٣)، ص (٧٣).

(٣) صاحب الإيجاز؛ هو محمد بن داود بن خلف الظاهرى، أبو بكر وهو ابن الإمام داود الظاهرى رأس المذهب الظاهرىّ، وله مؤلفات فى اللغة؛ منها «الإيجاز».
ولد عام ٢٥٥هـ، ومات عام ٢٩٧هـ.
(الأعلام (٦/ ١٢٠).

(٤) رواه الترمذى والبزار والبيهقى فى الدلائل. (انظر: كنز العمال ١/ ٢٥٨٦ ـ ٢٥٩٢).

(٥) الشيخ: يقصد به أبو منصور الماتريدى، سبقت ترجمته عند تفسير سورة البقرة، الآية (٧).

(٦) الموفق: هو الموفق بن أحمد المكى، الخوارزمى، أبو المؤيد، تلميذ الزمخشرى، أخذ عنه العربية بخوارزم، برع فى الفقه والأدب، وله فى ذلك مؤلفات وخطب وشعر.
الأعلام (٧/ ٣٣٣).

بالظالم، وعن الحسن جعل الله الدين بين لاءين ولاتطغوا ولاتركنوا وقال سفيان: فى جهنم واد لايسكنه إلا القراء الزائرون للملوك، وعن الأوزاعى[1] مامن شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا وقال رسول الله ﷺ: «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه» [2]، ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك فى بريّة هل يسقى شربة ماء فقال: لا، فقيل له يموت قال: دعه يموت﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حال من قوله فتمسكم النار أى: فتمسكم النار، وأنتم على هذه الحالة ومعناه: ومالكم من دون الله من أولياء يقدرون على منعكم من عذابه ولايقدر على منعكم منه غيره ﴿ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ ثم لاينصركم هو؛ لأنه حكم بتعذيبكم، ومعنى ثم الاستبعاد أى: النصرة من الله مستبعدة.

●● ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ غدوة وعشية ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ ساعات من الليل جمع زلفة، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قربه وصلاة الغدوة الفجر وصلاة العشية الظهر والعصر؛ لأن ما بعد الزوال عشى وصلاة الزلف المغرب والعشاء وانتصاب طرفى النهار على الظرف؛ لأنهما مضافان إلى الوقت كقولك: أقمت عنده جميع النهار وأتيته نصف النهار وأوله وآخره. تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إن الصلوات الخمس يذهبن الذنوب، وفى الحديث «إن الصلوات الخمس تكفر ما بينها من الذنوب» [3] أو الطاعات. قال ـ عليه السلام ـ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» [4] أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى فاستقم فمابعده أو القرآن ﴿ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ عظة للمتعظين نزلت فى عمرو بن غزية الأنصارى بائع التمر قال لامرأة: فى البيت تمر أجود، فدخلت فقبلها فندم فجاءه حاكيا باكيا فنزلت، فقال ـ عليه السلام- «هل شهدت معنا العصر» : قال نعم: قال«هى كفارة لك» فقيل أله خاصة قال:«بل للناس عامة» [5].

●● ﴿وَاصْبِرْ﴾ على امتثال ما أمرت به والانتهاء عما نهيت عنه فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فَإِنَّ

---

(١) هو الإمام العلامة الفقية؛ عبدالرحمن بن عمرو بن أبى عمرو ـ واسمه «يحمد» ـ الشامى، أبو عمرو الأوزاعى، حجة فى الفقة والتفسير، وهو من أعلام الإسلام الخالدين مثل الثورى ومالك والشافعى، كان له مذهب منتشر بالشام، وله مدرسة فقهية خاصة، ولد عام ٨٨هـ، ومات مرابطاً ببيروت عام ١٥٨هـ.

تهذيب التهذيب (٣/ ٤٠٠ ـ ٤٠٢).

(٢) رواه البيهقى فى الشعب، وأبو نعيم فى الحلية.

(٣) رواه أحمد من حديث أبى هريرة.

(٤) رواه أحمد من حديث معاذ بن جبل.

(٥) رواه الترمذى والنسائى والبزار والطبرى وأصله فى الصحيحين.

اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين﴾ جاء بماهومشتمل على جميع الأوامر والنواهى من قوله: «فاستقم» إلى قوله: واصبر، وغير ذلك من الحسنات.

•• **﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ من قَبْلِكُم﴾** فهلا كان وهو موضوع للتحضيض ومخصوص بالفعل **﴿أُولُوا بَقِيَّة﴾** أولوا فضل وخير، وسمى الفضل والجود بقية؛ لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال: فلان من بقية القوم أى من خيارهم، ومنه قوله: فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا **﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْض﴾** عجب محمدا ـ عليه السلام ـ وأمته أن لم يكن فى الأمم التى ذكر الله إهلاكهم فى هذه السورة جماعة من أولى العقل والدين ينهون غيرهم من الكفر والمعاصى **﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾** استثناء منقطع أى: ولكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى ومن فى ممن أنجينا للبيان لا للتبعيض؛ لأن النجاة للناهين وحدهم بدليل قوله: **﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾**(١) **﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾** أى: التاركون للنهى عن المنكر وهو عطف على مضمر أى إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد، واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا **﴿مَا أُتْرِفُوا فِيه﴾** أى أتبعوا ما عرفوا فيه التنعم والترفه من حب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنىء، ورفضوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم **﴿وَكَانُوا مُجْرِمِين﴾** اعتراض وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون.

•• **﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾** اللام للتأكيد النفى **﴿ بِظُلْمٍ﴾** حال من الفاعل أى: لايصح أن يهلك الله القرى ظالما لها **﴿وَأَهْلُهَا﴾** قوم **﴿ مُصْلِحُون﴾** تنزيها لذاته عن الظلم وقيل الظلم الشرك أى لايهلك القرى بسبب شرك أهلها، وهم مصلحون فى المعاملات فيما بينهم لايضمون إلى شركهم فسادا آخر.

•• **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾** أى متفقين على الإيمان والطاعات عن اختيار ولكن لم يشأ ذلك، وقالت المعتزلة: هى مشيئة قسر، وذلك رافع للابتداء ، فلايجوز **﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين﴾** فى الكفر والإيمان أى: ولكن شاء أن يكونوا مختلفين لما علم منهم اختيار ذلك.

•• **﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾** إلا ناسا عصمهم الله عن الاختلاف فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه **﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾** أى ولما هم عليه من الاختلاف فعندما خلقهم للذى علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف، أو اتفاق ولم يخلقهم لغير الذى علم أنهم سيصيرون إليه كذا فى شرح التأويلات. **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّك﴾** وهى قوله للملائكة: **﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين﴾** لعلمه بكثرة من يختار الباطل.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٦٥).

●●﴿وَكُلاًّ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه؛ كأنه قيل: وكل نبأ وهو منصوب بقوله: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ بيان لكل وقوله: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ بيان لكل وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بدل من كلا ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أى: فى هذه السورة، أو فى هذه الأنباء المقتصة ماهو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى تثبيت فؤاده زيادة يقينه؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب.

●● ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على مكانتنا.

●● ﴿وَانتَظِرُوا﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله تعالى من النقم النازلة بأشباهكم.

●● ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لاتخفى عليه خافية مما يجرى فيهما فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك فينتقم لك منهم. يرجع نافع وحفص ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾فإنه كافيك وكافلك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وبالتاء مدنى وشامى وحفص أى: أنت وهم على تغليب المخاطب، قيل: خاتمة التوراة هذه الآية، فى الحديث: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى».

(سورة يوسف - عليه السلام - مكية)

(وهى مائة وإحدى عشرة آية شامى،واثنتا عشرة مكى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ تلك إشارة إلى آيات هذه السورة، والكتاب المبين السورة أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب، أو التى تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، أو الواضحة التى لاتشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم، أو قد أبين فيها ماسألت عنه اليهود من قصة يوسف - عليه السلام - فقد روى أن علماء اليهود قالوا للمشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف، عليه السلام.

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف - عليه السلام - فى حال كونه قرآنا عربيا وسمى بعض القرآن قرآنا؛ لأنه اسم جنس يقع على كله وبعضه ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكى تفهموا معانيه، ولوجعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته.

●● ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ نبين لك أحسن البيان والقاص: الذى يأتى بالقصة على حقيقتها عن الزجاج، وقيل القصص يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص تقول : قص الحديث يقصه قصصاً ويكون فعلا بمعنى مفعول كالنقض(١) والحسب على الأول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ أى: بإيحائنا إليك هذه لسورة على أن يكون أحسن منصوبا نصب المصدر لإضافته إليه، والمقصوص محذوف؛ لأن بما أوحينا إليك هذا القرآن مغن عنه والمراد بأحسن الاقتصاص أنه اقتص على أبدع طريقة وأعجب أسلوب فإنك لاترى اقتصاصه فى كتب الأولين مقارباً لاقتصاصه فى القرآن، وإن أريد بالقصص المقصوص فمعناه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التى ليست فى غيره، والظاهر أنه أحسن ما يقتص فى بابه كما يقال. فلان أعلم الناس أى: فى فنه واشتقاق القصص من قص أثره إذا تبعه؛لأن الذى يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ ﴾ الضمير يرجع إلى ما أوحينا ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عنه إن مخففة من الثقيلة واللازم فارقة بينها وبين النافية يعنى: وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيحائنا إليك من الجاهلين به.

●● ﴿ إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتمال من أحسن القصص؛ لأن الوقت مشتمل على القصص أو التقدير اذكر إذ قال﴿ يُوسُفُ﴾ اسم عبرانى لاعربى؛ إذ لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى

---

(١) النفض: حب العنب، حين يأخذ بعضه ببعض.
المعجم الوسيط (٢/ ٩٤١).

التعريف ﴿لأَبِيهِ﴾ يعقوب ﴿يَا أَبَتِ﴾ أبتَ شامى وهى تاء تأنيث عوضت عن ياء الإضافة؛ لتناسبهما؛ لأن كل واحدة منهما زائدة فى آخر الاسم، ولهذا قلبت هاء فى الوقف وجاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر كما فى رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء، فقد حذف الألف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء فى يا غلام ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لامن الرؤية ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أسماؤها ببيان النبى - عليه السلام-: «جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والصروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين» [1] ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هما أبواه أو أبوه وخالته والكواكب إخوته، قيل: الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر وأجريت مجرى العقلاء فى ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾؛ لأنه وصفها بما هوالمختص بالعقلاء، وهو السجود وكررت الرؤيا لأن الأولى تتعلق بالذات والثانية بالحال، أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جواباً له؛كأن أباه قال له: كيف رأيتها، فقال رأيتهم لى ساجدين أى: متواضعين، وهو حال وكان ابن ثنتى عشرة سنة يومئذ، وكان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة، أوثمانون.

●● ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ بالفتح حيث كان حفص ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ هى بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربة والقربى ﴿عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ﴾ جواب النهى أى: إن قصصتها عليهم كادوك. عرف يعقوب - عليه السلام - أن الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الإخوة وإنما لم يقل فيكيدوك كما قال فكيدونى؛ لأنه ضمن معنى فعل يتعد باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ فى التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر وهو ﴿كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الاجتباء الذى دلت عليه رؤياك ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك والاجتباء الاصطفاء افتعال من جبيت الشىء إذا حصلته لنفسك وجبيت الماء فى الحوض جمعته ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حكم التشبيه؛ كأنه قيل: وهو يعلمك ﴿مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أى تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا، أو تأويل أحاديث الأنبياء وكتبْ الله، وهو اسم جمع للحديث وليسْ بجمع أحدوثة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ بأن وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أى جعلهم أنبياء فى الدنيا وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى فى الجنة وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم وأصل آل أهل بدليل تصغيره على أهيل إلا أنه لايستعمل إلا فيمن له خطر يقال: آل النبى وآل الملك ولايقال: آل

---

(١) الحديث رواه الحاكم من حديث جابر بن عبدالله.

الحجام ولكن أهله، وإنما علم يعقوب أن يوسف يكون نبيا وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب فلذا قال: وعلى آل يعقوب ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أراد الجد وأبا الجد﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ عطف بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يحق له الاجتباء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء فى مواضعها.

●● ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أى فى قصتهم وحديثهم ﴿آيَاتٌ﴾ علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته فى كل شيء . آية مكى ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ لمن سأل عن قصتهم وعرفها أو آيات على نبوة محمد ﷺ للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب،وأسماؤهم: يهوذا وروبين وشمعون ولاوى وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان ودان ونفتالى وجادوآشر من سريتين زلفة وبلهة، فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف .

●● ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لاشبهة فيه، وإنما قالوا وأخوه وهم إخوته أيضا؛ لأن أمهما كانت واحدة، وإنما قيل أحب فى الاثنين، لأن أفعل من لايفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث ولابد من الفرق مع لام التعريف وإذا أضيف ساغ الأمران والواو فى ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ للحال أى: أنه يفضلهما فى المحبة علينا وهما صغيران لاكفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غلط فى تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة فى الدين لكفروا. والعصبة العشرة فصاعدا.

●● ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ من جملة ماحكى بعد قوله: إذ قالوا؛ كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال: لاتقتلوا يوسف، وقيل: الأمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ منكورة مجهولة بعيدة عن العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها عن الوصف، ولهذا الإبهام نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لايلتفت عنكم إلى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه، وجاز أن يراد بالوجه الذات كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾(١) ﴿وَتَكُونُوا﴾ مجزوم عطفا على يخل لكم ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد يوسف أى: من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو من بعد قتله، أو طرحه فيرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا، أو اطرحوا ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تائبين إلى الله مما جنيتم عليه، أو يصلح حالكم عند أبيكم.

●● ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن القتل عظيم

(١) سورة «الرحمن»، الآية (٢٧).

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ فى قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر. غيابات وكذا ما بعده مدنى ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بعض الأقوام الذين يسيرون فى الطريق ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ به شيئاً.

●● ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾أى:لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته فى حفظه منهم، وفيه دليل على أنه أحس منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه.

●● ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ﴾ - نرتع - نتسع فى أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة ﴿وَيَلْعَبْ﴾ - ونلعب - نتفرج بما يباح كالصيد والرمى والركض. بالياء فيهما مدنى وكوفى وبالنون فيهما مكى وشامى وأبوعمرو، وبكسر العين حجازى من ارتعى يرتعى افتعال من الرعى ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

●● ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أى: يحزننى ذهابكم به واللام لا الابتداء ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه؛ لأنه كان لايصبر عنه ساعة وأنه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم.

●●﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن أكله الذئب، والواو فى ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ جواب للقسم مجزىء عن جزاء الشرط أى: إن لم تقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها، وأجابوا عن عذره الثانى دون الأول؛ لأن ذلك كان يغيظهم .

●● ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أى عزموا على إلقائه فى البئر، وهى بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - وجواب لما محذوفه تقديره فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روى أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا، فلما أرادوا إلقاءه فى الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم ودلوه فى البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكى ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام، ويروى أن إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل - عليه السلام - بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها فى عنق يوسف فأخرجه جبريل وألبسه إياه. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ قيل: أوحى إليه فى الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى- عليهما السلام - وقيل: كان إذ ذاك مدركا ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أى لتحدثن

إخوتك بما فعلوا بك﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين [1] فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع[2] فوضعه على يده، ثم نقره فطن فقال : إنه ليخبرنى هذا الجام [3] أنه كان لكم أخ من أبيكم، يقال له: يوسف وأنكم ألقيتموه فى غيابة الجب، وقلتم لأبيه: أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس، أو يتعلق وهم لايشعرون بأوحينا أى آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لايشعرون ذلك.

•• ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً ﴾ للاستتار والتجسر على الاعتذار ﴿يَبْكُونَ ﴾ حال عن الأعمش لاتصدق باكية بعد إخوة يوسف، فلما سمع صوتهم فزع وقال: ما لكم يابنى هل أصابكم فى غنمكم شيء؟ قالوا: لا قال: فما بالكم؟ وأين يوسف.

•• ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أى نتسابق فى العدو أو فى الرمى والافتعال والتفاعل يشتركان كالارتماء والترامى وغير ذلك ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا .

•• ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ ذى كذب أو وصف بالمصدر مبالغة؛ كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته. روى أنهم ذبحوا سخلة[4] ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم أن يمزقوه. وروى أن يعقوب - عليه السلام - لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال: أين القميص؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه،وقيل: كان فى قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيرا، ودليلا على براءة يوسف حين قد من دبره ومحل على قميصه النصب على الظرف؛ كأنه قيل: وجاءوا فوق قميصه بدم ﴿قَالَ﴾ يعقوب -عليه السلام- ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زينت أو سهلت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيما ارتكبتموه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ خبر أو مبتدأ لكونه موصوفا أى: فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل وهو مالاشكوى فيه إلى الخلق ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أى:أستعينه ﴿عَلَىٰ﴾ احتمال ﴿ مَا تَصِفُونَ﴾ من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه.

---

(١) ممتارين: الميرة؛ الطعام يجمع للسفر ونحوه؛ ويقصد به هنا ما ابتاعوه من أهل مصر.
المعجم الوسيط (٢/٨٩٣).
(٢) الصُّواع: الجام يشرب فيه.
(القاموس ٣/٥٣).
(٣) الجام: إناء من فضة.
(القاموس ٤/٩٢).
(٤) السَّخْلَةُ: الذكر والأُنثى من ولد الضأن والماعز ساعة يولد.
(المعجم الوسيط ١/٤٢٢).

●● ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف فى الجب فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم اسمه مالك ابن ذعر الخزاعى ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أرسل الدلو ليملأها فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ﴾ كوفى نادى البشرى؛ كأنه يقول: تعالى فهذا أوانك غيرهم بشراى على إضافتها لنفسه أو هو اسم غلامه فناداه مضافا إلى نفسه ﴿هَٰذَا غُلَامٌ﴾ قيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة، أو لأخوة يوسف فإنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه﴿بِضَاعَةً﴾ حال أى: أخفوه متاعاً للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أى قطع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بما يعمل أخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

●● ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ مبخوس ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا، أو زيف ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من ثمن ﴿ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة تعد عدا ولاتوزن؛ لأنهم كانوا يعدون مادون الأربعين ويزنون الأربعين وما فوقها وكانت عشرين درهما ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بالثمن الطفيف، أومعنى وشروه واشتروه يعنى الرفقة من أخوته وكانوا فيه من الزاهدين أى غير راغبين؛ لأنهم اعتقدوا أنه آبق ويروى أن إخوته اتبعوهم وقالوا: استوثقوا منه لايأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين أى: غير راغبين؛ لأن الصلة لاتتقدم على الموصول، وإنما هو بيان؛ كأنه قيل: فى أى شىء زهدوا فقال : زهدوا فيه.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ﴾ هو قطفير، وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر، والملك يومئذ الريان بن الوليد، وقد آمن بيوسف ومات فى حياته، واشتراه العزيز بزنته ورقاً [(١)] وحريراً ومنسكا وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ راعيل أو زليخا واللام متعلقة بقال لا باشتراه ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ اجعلى منزله ومقامه عندنا كريماً أى: حسناً مرضياً بدليل قوله: ﴿ ربى أحسن مثواى﴾ وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطىء فراشه ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ لعله إذا تدرب وراض[(٢)] الأمور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أو نتبناه ونقيمه مقام الولد، وكان قطفير عقيما وقد تفرس فيه الرشد، فقال ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ ﴾ إشارة ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه

---

(١) الورق: هو المال المصنوع من الفضة.

(٢) راض: هو فعل ماضٍ من الترويض، وهو إحكام السيطرة على الأمر.

والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أى كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز كذلك مكنا له ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أى أرض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ لايمنع عما شاء، أو على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد اخوته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

●● ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهى استعداد قوته، وهو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ حكمه وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه، أو حكما بين الناس وفقها ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان أمره.

●● ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود إذاجاء وذهب؛ كأن المعنى خادعته عن نفسه أى: فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشىء الذى لايريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهى عبارة عن التمحل لمواقعته إياها ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ ﴾ وكانت سبعة ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ هو اسم لتعال وأقبل، وهو مبنى على الفتح، هيت مكى بناه على الضم هيت مدنى وشامى، واللام للبيان؛ كأنه قيل لك أقول هذا كما تقول: هلم لك ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ أعوذ بالله معاذا ﴿إِنَّهُ ﴾ أى: إن الشأن والحديث ﴿رَبِّي ﴾ سيدى ومالكى يريد قطفير ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حين قال لك أكرمى مثواه فما جزاؤه أن أخونه فى أهله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الخائبون، أو الزناة، أو أراد بقوله إنه ربى الله تعالى؛ لأنه مسبب الأسباب.

●● ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ هم عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا ﴾ هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن، وقال الشيخ أبو منصور- رحمه الله-: وهم بها هم خطرة ولاصنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولامؤاخذة عليه، ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين: وقيل وهم بها وشارف أن يهم بها، يقال: هم بالأمر إذا قصده وعزم عليه وجواب ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ محذوف أى لكان ما كان وقيل وهم بها جوابه ولايصح؛ لأن جواب لولا لايتقدم عليها؛ لأنه فى حكم الشرط وله صدر الكلام والبرهان الحجة ويجوز أن يكون وهم بها داخلا فى حكم القسم فى قوله: ولقد همت به ويجوز أن يكون خارجا من حق القارىء إذا قدر خروجه من حكم القسم، وجعله كلاماً برأسه أن يقف على به، ويبتدىء بقوله: وهم بها وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهمين وفسر همّ يوسف بأنه حل تكةسراويله، وقعد بين شعبها الأربع (١) وهى مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتا: إياك وإياها مرتين، فسمع ثالثاً أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أنملته وهو باطل، ويدل على بطلانه قوله: «هى راودتنى عن نفسى» ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ

---

(١) الشعب: هو ما يرتكز الشىء عليه، والشعب الأربع: اليدان والقدمان.

نفسه من ذلك، وقوله: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء»، ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفا عنه وقوله: «ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب» ولو كان كذلك لخانه بالغيب وقوله: **﴿ما علمنا عليه من سوء﴾** **﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** ولأنه لو وجد منه ذلك لذكر توبته واستغفاره كما كان لآدم ونوح وذى النون وداود ـ عليهم السلام - وقد سماه الله مخلصا فعلم بالقطع أنه ثبت فى ذلك المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولى العزم ناظرا فى دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء ومحل الكاف فى **﴿كَذَلِكَ﴾** نصب أى: مثل ذلك التثبيت ثبتناه، أو رفع أى الأمر مثل ذلك **﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾** خيانة السيد **﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾** الزنا **﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾** بفتح اللام حيث كان مدنى وكوفى أى الذين أخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم أى الذين أخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا أى هو مخلص من جملة المخلصين.

●● **﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾** وتسابقا إلى الباب هى للطلب وهو للهرب على حذف الجار وإيصال الفعل، كقوله: **﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾**(١) أو على تضمين استبقا معنى ابتدارا ففر منها يوسف، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وإن كان جمعه فى قوله: **﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾** لأنه أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار، ولما هرب يوسف جعل فراش(٢) القفل يتناثر ويسقط حتى خرج **﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾** اجتذبته من خلفه فانقد أى انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه **﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾** وصادفا بعلها قطفير مقبلا يريد أن يدخل، فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعا فى أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث **﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ما نافية أى ليس جزاؤه إلا السجن، أو عذاب أليم وهو الضرب بالسياط ولم تصرح بذكر يوسف وأنه أراد بها سوءًا؛ لأنها قصدت العموم أى كل من أراد بأهلك سوءًا فحقه أن يسجن، أو يعذب؛ لأن ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه.

●● **﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾** ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها **﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾** هو ابن عم لها، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وقيل: كان ابن خال لها وكان صبيا فى المهد وسمى قوله شهادة؛ لأنه أدى مؤدى الشهادة فى أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها **﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** والتقدير وشهد شاهد

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٥٥).

(٢) فراش القفل: ما ينشب فيه (القاموس ٢/ ٢٨٢).

فقال إن كان قميصه، وإنما دل قد قميصه من قبل على أنها صادقة؛ لأنه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر فى مقادم قميصه فيشقه، ولأنه يقبل عليها وهى تدفعه عن نفسها فيتخرق قميصه من قبل، وأما تنكير قبل ودبر فمعناه من جهة يقال: لها قبل ومن جهة يقال لها دبر وإنما جمع بين إن التى للاستقبال وبين كان لأن المعنى أن يعلم أنه كان قميصه قد.

●● ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾ قطفير ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك ماجزاء من أراد بأهلك سوءًا أو إن هذا الأمر وهو الاحتيال لنيل الرجال ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ الخطاب لهاولأمتها ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنهن ألطف كيدا وأعظم حيلة بذلك يغلبن الرجال والقصريات [1] منهن معهن ما ليس مع غيرهن من البوائق وعن بعض العلماء: إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2] وقال لهن إن كيدكن عظيم.

●● ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء؛ لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الأمر واكتمه ولاتتحدث به، ثم قال لراعيل ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنب. يقال خطىء إذا أذنب متعمداً وإنما قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الإناث وكان العزيز رجلا حليما قليل الغيرة حيث اقتصر على هذا القول.

●● ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ جماعة من النساء وكن خمسا: امرأة الساقى، وامرأة الخباز، وامرأة صاحب، الدواب وامرأة صاحب السجن، وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثها غير حقيقى ولذا لم يقل قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ فى مصر ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ يردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ غلامها يقال: فتاى وفتاتى أى غلامى وجاريتى ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ لتنال شهوتها منه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تمييز أى قد شغفها حبه يعنى خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد والشغاف حجاب القلب، أوجلدة رقيقة يقال لها لسان القلب ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فىّ خطأ وبعد عن طريق الصواب.

●● ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيابهن، وقولهن: امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعانى ومقتها [3] وسمى الاغتياب مكرا؛ لأنه فى خفية وحال غيبة كما يخفى الماكر مكره وقيل:

---

(١) القصريات: يقصد به هنا؛ النساء المنعمات اللواتى يعشن فى القصور.
(٢) سورة «النساء»، الآية (٧٦).
(٣) المِقَةُ: المحبة.

كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ دعتهم قيل دعت أربعين أمرأة منهن الخمس المذكورات ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وهيأت افتعلت من العتاد ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ مايتكئن عليه من نمارق[1] قصدت بتلك الهيئة وهى قعودهن متكئات والسكاكين فى أيديهن أن يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها؛ لأن المتكيء إذا بهت لشيء وقع يده على يده ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وكانوا لا يأكلون فى ذلك الزمان إلا بالسكاكين كفعل الأعاجم ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بكسر التاء بصرى وعاصم وحمزة بضمها غيرهم ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وكان فضل يوسف على الناس فى الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وكان إذا سار فى أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران، وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وقيل ورث الجمال من جدته سارة، وقيل أكبرن: بمعنى حضن والهاء للسكت، إذ لايقال النساء قد حضنه ؛ لأنه لايتعدى إلى مفعول، يقال: أكبرت المرأة حاضت وحقيقته دخلت فى الكبر؛ لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر وكأن أبا الطيب [2] أخذ من هذا التفسير قوله:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت فى الخدور العواتق[3]

●● ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وجرحنها، كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدى تريد جرحتها أى أردن أن يقطعن الطعام الذى فى أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ حاشا كلمةتفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء، تقول: أساء القوم حاشا زيد، وهى حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة، فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله وقراءة أبى عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك؛ كأنه قال براءة ثم قال لله لبيان من يبرأ وينزه وغيره حاش لله بحذف الألف الأخيرة، والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتن بها الحكم لما ركز فى الطباع أن لا أحسن من الملك كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان.

●● ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾تقول هو ذلك العبد الكنعانى الذى صورتن فى أنفسكن

---

(١) النمارق: جمع نمرق ونمرقة، وهى: الوسادة الصغيرة.

(٢) هو عملاق الشعر العربى، أحمد بن الحسين بن الحسن، الجعفى، الكوفى، الكندى، أبو الطيب المتنبى، أحد أعلام الشعر على مدى تاريخ العرب بعد الإسلام، اشتهر بالبراعة والتمكن فى الشعر، أورثه ذلك عجباً وغروراً حتى قيل إنه ادعى النبوة، ولذلك سمى المتنبى.

ولد بالكوفة عام ٣٠٣هـ، ومات قتيلاً عام ٣٥٤.

الأعلام (١/ ١١٥).

(٣) العواتق: جمع عاتق، وهى البكر حديثة البلوغ، التى عتقت من الامتهان فى الأعمال المختلفة التى يكلف بها الصغار.

ثم لمتننى فيه تعنى إنكن لم تصورنه حق صورته وإلا لعذرتننى فى الافتتان به ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد؛ كأنه فى عصمة وهو يجتهد فى الاستزادة منها، وهذا بيان جلى على أن يوسف ـ عليه السلام ـ برىء مما فسر به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له أطع مولاتك، فقالت راعيل ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ الضمير راجع إلى ما، وهى موصولة والمعنى ما آمره به فحذف الجار، كما فى قوله: أمرتك الخير، أوما مصدرية والضمير يرجع إلى يوسف أى: ولئن لم يفعل أمرى إياه أى موجب أمرى ومقتضاه ﴿لَيُسْجَنَنَ﴾ ليحبسن والألف فى ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بدل من نون التأكيد الخفيفة ﴿مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ مع السراق والسفاك والأباق كما سرق قلبى وأبق منى وسفك دمى بالفراق ، فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعنى هنا كل ذلك، ومن لم يرض بمثلى فى الحرير على السرير أميراً حصل فى الحصير على الحصير حسيراً.

فلما سمع يوسف تهديدها ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أسند الدعوة إليهن؛ لأنهن قلن له: ما عليك لو أجبت مولاتك، أو افتتنت كل واحدة به فدعته إلى نفسها سرا فالتجأ إلى ربه، قال: رب السجن أحب إلى من ركوب المعصية ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ فزع منه إلى الله فى طلب العصمة ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهن والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا[1]؛ لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من الذين لايعملون بما يعلمون؛ لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء، أو من السفهاء، فلما كان فى قوله: وإلا تصرف عنى كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال .

•• ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ أى: أجاب الله دعاءه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحاله وحالهن.

•• ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه، وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء أى ظهر لهم رأى والضمير فى لهم للعزيز وأهله﴿مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ وهى الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الأيدى وشهادة الصبى وغير ذلك ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ لإبداء[2] عذر الحال وإرخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطواعاً لها وحميلا [3] ذلولاً زمامه فى يدها، وقد طمعت أن يذلله السجن ويسخره لها، أو خافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فألجأها الخجل من الناس، والوجل من الباس، إلى أن رضيت بالحجاب ، مكان خوف الذهاب،

---

(١) الصّبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار ومقابلتها الدبور.
(٢) لإبداء عذر: أى قبوله.
(٣) حُمَيْلاً: تصغير حمل، وهو الخروف الصغير.

لتشتفى بخبره، إذا منعت من نظره ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى زمان؛كأنها اقترحت أن يسجن زمانا حتى تبصر مايكون منه.

●● ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ عبدان للملك خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة أدخل يوسف؛ لأن مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الأمير نريد مصاحبا له فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ أى شرابيه ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أى: فى المنام وهى حكاية حال ماضية ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أى عنباً تسمية للعنب بما يؤول إليه أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ﴿وَقَالَ الآخَرُ﴾ أى خبازه ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ بتأويل مارأيناه ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا، أو من المحسنين إلى أهل السجن فإنك تداوى المريض وتعزى الحزين وتوسع على الفقير فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا، وقيل إنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى: إنى رأيت كأنى فى بستان فإذا بأصل حبلة (١) عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته، وقال الخباز: إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منها.

●● ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أى لبيان ما هيته وكيفيته؛ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ولما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترض ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بمايحمل إليهما من الطعام فى السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ويقبح إليهما الشرك وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته فى العلم فوصف نفسه بما هو بصدده، وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ إشارة لهما إلى التأويل أى: ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وأوحى به إلى ولم أقله عن تكهن وتنجم ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ وأن يكون تعليلا لما قبله أى: علمنى ذلك وأوحى به إلى؛ لأنى رفضت ملة أولئك، وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم.

●● ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وهى الملة الحنيفية وتكريرهم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبى يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما فى اتباع قوله، والمراد به ترك الابتداء لا أنه كان فيه ثم تركه ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ ما صح

(١) الحُبْلَةُ: الكرم أو أصل من أصوله.
(القاموس ٣/ ٣٥٤).

لنا معشر الأنبياء ﴿ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى شىء كان صنما أوغيره، ثم قال ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضل الله فيشركون به ولاينتهون.

●● ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يا ساكنى السجن كقوله : ﴿أَصْحَابُ النار وأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ (١) ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يريد التفرق فى العدد والتكاثر أى أن تكون أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما، أم يكون لكما رب واحد قهار لايغالب ولايشارك فى الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة اللهوحده ولعبادة الأصنام.

●● ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴾ خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ أى: سميتم مالايستحق الإلهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لاتعبدون إلا أسماء لامسميات لها،ومعنى سميتموها سميتم بها، يقال: سميته زيدًا وسميته بزيد ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا ﴾ بتسميتها ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ فى أمر العبادة والدين ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ ثم بين ماحكم به فقال ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الثابت الذى دلت عليه البراهين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أن العقوبة تلزم العبد وإن جهل إذا أمكن له العلم بطريقه، ثم عبر الرؤيا فقال.

●● ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ يريد الشرابى ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ ﴾ سيده ﴿خَمْرًا﴾ أى: يعود إلى عمله ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾ أى: الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ﴾ روى أنه قال للأول: ما رأيت من الكرمة وحسنها هوالملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى ماكنت عليه وقال للثانى: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام، ثم تخرج فتقتل ولما سمع الخباز صلبه، قال ما رأيت شيئاً فقال يوسف ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أى: قطع وتم ما تستفتيان فيه من أمركم وشأنكما أى: مايجر إليه من العاقبة وهى هلاك أحدهما ونجاة الآخر.

●● ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظان هو يوسف - عليه السلام - إن كان تأويله بطريق الاجتهاد وإن كان بطريق الوحى فالظان هو الشرابى، أو يكون الظن بمعنى اليقين ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ صفنى عند الملك بصفتى وقص عليه قصتى لعله يرحمنى ويخلصنى من هذه الورطة ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ فأنسى الشرابى ﴿ذِكْرَ رَبِّهِ﴾أن يذكره لربه، أو عند ربه،أو فأنسى يوسف ذكر الله حينَ وكل أمْره إلى غيره، وفى الحديث: «رحم الله أخى يوسف لولم يقل اذكرنى عندْ ربك لما لبث فى السجن سبعا»(٢) ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أى سبعا عند الجمهور والبضع ما بين الثلاث إلى التسع.

---

(١)سورة «الحشر»، الآية (٢٠).

(٢) رواه ابن حبان بلفظ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها «اذكرنى عند ربك» مالبث فى السجن مالبث».

•• ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته، رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد فى قومه من يحسن عبارتها، وقيل كان ابتداء بلاء يوسف فى الرؤيا، ثم كان سبب نجاته أيضاً الرؤيا، سمان: جمع سمين وسمينة، والعجاف: المهازيل والعجف الهزال الذى ليس بعده سمانة، والسبب فى وقوع عجاف جمعا لعجفاء وأفعل وفعلاء لايجمعان على فعال حمله؛ على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض، وفى الآية دلالة على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر؛ لأن الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله: وأخر يابسات بمعنى وسبعا أخر ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ اللام فى للرؤيا للبيان، كقوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (١) أو لأن المفعول به إذا تقدم على الفعل لم يكن فى قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه فعضد بها تقول: عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت أو يكون للرؤيا خبركان كقولك: كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر، أو حال، وحقيقة عبرت الرؤيا: ذكرت عاقبتها وآخر أمرها، كما تقول: عبرت النهر إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه: أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف، هو الذى اعتمده الأثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر.

•• ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أى: هى أضغاث ماجمع من أحلام أى تخاليطها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفس، أو وسوسة شيطان، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم من أنواع الحشيش، الواحد ضغث، فاستعيرت لذلك والإضافة بمعنى من أى أضغاث من أحلام، وإنما جمع وهو حلم واحد تزايدا فى وصف الحلم بالبطلان، وجاز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أرادوا بالأحلام المنامات الباطلة فقالوا: ليس لها عندنا تأويل إنما التأويل للمنامات الصحيحة أو اعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا فى تأويل الأحلام بخابرين.

•• ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا﴾ من القتل ﴿مِنْهُمَا﴾ من صاحبى السجن ﴿وَادَّكَرَ﴾ بالدال هو الفصيح وأصله أذتكر فأبدلت الذال دالا والتاء دالاً وأدغمت الأولى فى الثانية لتقارب الحرفين، وعن الحسن: واذكر ووجهه أنه قلب التاء ذالا وأدغم؛ أى: تذكر يوسف وما شاهد منه ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد

---

(١) سورة «يوسف»، الآية (٢٠).

مدة طويلة وذلك أنه حين استفتى الملك فى رؤياه وأعضل على الملك تأويلها تذكر الناجى يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِه﴾ أنا أخبركم به عمن عنده علمه ﴿ فَأَرْسِلُونِ﴾ وبالياء يعقوب، أى: فابعثونى إليه لأسأله فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال:

●● ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أيها البليغ فى الصدق، وإنما قال له ذلك؛ لأنه ذاق وتعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ إلى الملك وأتباعه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

●● ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ﴾ هو خبر فى معنى الأمر كقوله: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١) ﴿ وَتُجَاهِدُونَ﴾(٢) . دليله قوله: فذروه فى سنبله وإنمايخرج الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى وجود المأمور به فيجعل كأنه موجود فهو يخبر عنه ﴿ دَأَباً﴾ ـ دأبا ـ بسكون الهمزة وحفص يحركه وهما مصدرا دأب فى العمل، وهو حال من المأمورين أى دائبين ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ كى لا يأكله السوس ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فى تلك السنين.

●● ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ﴾ هو من إسناد المجاز، جعل كل أهلهن مسندا إليهن﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى: فى السنين المخصبة ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون وتخبئون.

●● ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ﴾ أى: من بعد أربع عشرة سنة عام ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ من الغوث أى يجاب مستغيثهم، أومن الغيث أى يمطرون، يقال: غيثت البلاد إذا مطرت ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الأشربة والأدهان. تعصرون حمزة؛ فأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب. والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحى.

●● ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى الملك ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ أى حال النسوة ﴿ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تثبت يوسف وتأنى فى إجابة الملك وقد سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عمًّا رُمى به وسجن فيه؛ لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما إلى حط منْزلته لديه؛ لئلا يقولوا ما خلد فى السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير، وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف فى مواقفها وقال ـ عليه السلام ـ: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى، ولقد

---

(١) النساء (٥٩)، والنور (٢). (٢) سورة «الصف»، الآية (١١).

عجبت منه حين أتاه الرسول، فقال: أرجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب، ولما ابتغيت العذر إن كان لحليما ذا أناة»[1]. ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أى إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهومجازيهن عليه. فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز.

ثم﴿ قَالَ﴾ لهن ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكن ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ هل وجدتن منه ميلا إليكن ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ من ذنب ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ظهر واستقر ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى قوله: هى ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ولامزيد على شهادتهم له للبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن إنه لم يتعلق بشىء مما قرف به، ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها.

فقال يوسف: ﴿ ذَلِكَ ﴾ أى امتناعى من الخروج والتثبت لظهور البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب فى حرمته وبالغيب حال الفاعل، أو المفعول على معنى: وأنا غائب عنه، أوهو غائب عنى، أو ليعلم الملك أنى لم أخن العزيز ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أى وليعلم أن الله ﴿ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لايسدده، وكأنه تعريض بامرأته فى خيانتها أمانة زوجها، ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته.

فقال : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى﴾ من الزلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها فى عموم الأحوال أو فى هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذى هو الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أراد الجنس أى إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه لما فيه من الشهوات ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ إلا البعض الذى رحمه ربى بالعصمة ويجوز أن يكون ما رحم فى معنى الزمان أى إلا وقت رحمة ربى يعنى أنها أمارة بالسوء فى كل وقت إلا وقت العصمة، أو هو استثناء منقطع أى: ولكن رحمة ربى هى التى تصرف الإساءة، وقيل: هو من كلام امرأة العزيز أى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف أنى لم أخنه، ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرىء نفسى مع ذلك من الخيانة فإنى قد خنته حين قرفته وقلت: ماجزاء من أراد بأهلك سوأ إلا أن يسجن وأودعته السجن؛ تريد الاعتذار مماكان منها إن كان نفس لأمارة بالسوء إلا

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبرى عن عكرمة.

مارحم ربى إلا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استغفرت ربها واسترحمته مما ارتكبت وإنما جعل من كلام يوسف ولادليل عليه ظاهر، لأن المعنى قود إليه وقيل: هذا من تقديم القرآن وتأخيره أى قوله ذلك ليعلم متصل بقوله فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن.

•• ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أجعله خالصا لنفسى ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وشاهد منه مالم يحتسب ﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة، أمين مؤتمن على كل شىء روى أن الرسول جاءه ومعه سبعون حاجبا وسبعون مركبا وبعث إليه لباس الملوك فقال: أجب الملك فخرج من السجن ودعا لأهله: اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ولاتعم عليهم الأخبار فهم أعلم الناس بالأخبار فى الواقعات، وكتب على باب السجن «هذه منازل البلواء وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء» ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا، فلما دخل على الملك قال: اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال لسان آبائى، وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلمة بها فأجابه بجميعها فتعجب منه وقال: أيها الصديق إنى أحب أن أسمع رؤياى منك قال: رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التى رآها الملك، وقال له: من حقك أن تجمع الطعام فى الأهراء فيأتيك الخلق من النواحى ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز مالم يجتمع لأحد قبلك، قال الملك: ومن لى بهذا؟! ومن يجمعه؟!.

•• ﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولنى على خزائن أرضك يعنى مصر ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ أمين أحفظ ما تستحفظنيه ﴿عَلِيمٌ﴾ عالم بوجوه التصرف. وصف نفسه بالأمانة والكفاية، وهما طلبة الملوك ممن يولونه، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله وإقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحدا غيره لايقوم مقامه فى ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا، وفى الحديث: «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة»(١). قالوا: وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة وإذا علم النبى، أو العالم أنه لاسبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر، أو الفاسق فله أن يستظهر به، وقيل: كان الملك يصدر عن رأيه ولايعترض عليه فى كل ما رأى وكان فى حكم التابع له.

•• ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التمكين الظاهر ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ﴾ أرض مصر وكانت أربعين فرسخا فى أربعين والتمكين الإقدار وإعطاء المكنة ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أى كل مكان أراد أن يتخذه منزلا لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه. نشاء مكى

(١) أخرجه الثعلبى عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك عنه، قال ابن حجر: وهذا إسناد ساقط.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم﴿مَن نَّشَاءُ﴾ من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فى الدنيا.

●● ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد يوسف وغيره من المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش، قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق، وتلا الآية. روى أن الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت، فقال: أما السرير فأشد به ملكك: وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك إليه أمره وعزل قطفير، ثم مات بعد فزوجه الملك امرأته، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء فولدت له ولدين إفرائيم وميشا وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الأولى حتى لم يبق معهم شىء منها، ثم بالحلى والجواهر فى الثانية، ثم بالدواب فى الثالثة، ثم بالعبيد والإماء فى الرابعة، ثم بالدور والعقار فى الخامسة ، ثم بأولادهم فى السادسة، ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعاً، ثم أعتق أهل مصر عن آخرهم ورد عليهم أملاكهم وكان لايبيع لأحد من الممتارين أكثر من حمل بعير وأصاب أرض كنعان نحو ما أصاب مصر فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا.

وذلك قوله: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بلا تعريف﴿ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لتبدل الزى؛ ولأنه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو أربعون سنة، وروى أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم: أخبرونى من أنتم وما شأنكم؟ قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادى فقالوا: معاذ الله نحن بنو نبى حزين لفقد ابن كان أحبنا إليه، وقد أمسك أخا له من أمه يستأنس به فقال: ائتونى به إن صدقتم.

●● ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ﴾ أعطى كل واحد منهم حمل بعير وقرىء بكسرالجيم شاذا ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ أتمه ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ كان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم رغبهم بهذا الكلام على الرجوع إليه.

●● ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ فلا أبيعكم طعاماً ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أى: فإن لم تأتونى به تحرموا ولاتقربوا فهو داخل فى حكم الجزاء، مجزوم معطوف على محل قوله: فلا كيل لكم، أو هو بمعنى النهى.

●● ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنخادعه عنه ونحتال حتى ننتزعه من يده ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك لامحالة لانفرط فيه ولانتوانى قال: فدعوا بعضكم رهناً فتركوا عنده شمعون، وكان أحسنهم رأيا فى يوسف.

●● ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ﴾ كوفى غير أبى بكر لفتيته غيرهم وهما جمع فتى كإخوة وإخوان فى أخ وفعلة للقلة وفعلان للكثرة أى: لغلمانه الكيالين ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم وكانت نعالا، أو أدما، أو ورقا وهو أليق بالدس فى الرحال ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ وفرغوا ظروفهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا، أو ربما لايجدون بضاعة بها يرجعون، أوما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الأمانة، أو لم ير من الكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمنا.

●● ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ﴾ بالطعام وأخبروه بما فعل ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يريدون قول يوسف فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى؛ لأنهم إذا أنذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه. يكتل حمزة وعلى أى: يكتل أخونا فينضم اكتياله إلى اكتيالنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن أن يناله مكروه.

●● ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ يعنى أنكم قلتم فى يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ كما تقولونه فى أخيه، ثم ختنتم بضمانكم فما يأمننى من مثل ذلك ، ثم قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ كوفى غير أبى بكر فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم وهو حال أو تمييز، ومن قرأ حفظاً فهو تمييز لا غير ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن ينعم علىّ بحفظه ولايجمع علىّ مصيبتين قال كعب[1]: لما قال: فالله خير حفظا. قال الله تعالى: وعزتى وجلالى لأردن عليك كليهما.

●●﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ ما للنفى أى: مانبغى فى القول ولا نتجاوز الحق، أو ما نبغى شيئا وراء ما فعل بنا من الإحسان، أو ما نريد منك بضاعة أخرى، أو للاستفهام أى: أى شيء نطلب وراء هذا ﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله مانبغى والجمل بعدها معطوفة عليها أى: أن بضاعتنا ردت إلينا فنستظهر بها ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ فى رجوعنا إلى الملك أى نجلب لهم ميرة وهى طعام يحمل من غير بلدك ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فى ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شيء مماتخافه ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ نزداد وسق بعير باستصحاب أخينا ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل عليه متيسر لايتعاظمه.

---

(١) هو العلامة المخضرم؛ كعب بن مانع، الحميرى، المعروف بـ «كعب الأحبار»، تابعى مخضرم، أدرك النبى ﷺ ولم يسلم إلا فى عهد عمر، وكان من أعلم الناس بأخبار أهل الكتاب، وكان من أصدقهم أيضاً؛ لذا فقد أخذ عنه الصحابة والتابعون، وغيرهم، توفى عام ٣٢هـ فى خلافة عثمان ـ رضى الله عنه ـ وقد تجاوز المائة عام.

تهذيب التهذيب (٤/ ٥٩٥،٥٩٦).

•• ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ وبالياء مكى ﴿مَوْثِقًا﴾ عهداً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ والمعنى حتى تعطونى ماأتوثق به من عند الله أى: أراد أن يحلفوا له بالله، وإنما جعل الحلف بالله موثقا منه؛ لأن الحلف به مما يؤكد به العهود وقد أذن الله فى ذلك فهو إذن منه ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِ﴾ جواب اليمين؛ لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتننى به.

•• ﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به فهو مفعول له والكلام المثبت وهو قوله لتأتننى به فى تأويل النفى أى: لاتمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم يعنى لاتمنعوا منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة، وهو أن يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام فى المفعول له والاستثناء من أعم العام لايكون إلا فى النفى فلابد من تأويله بالنفى ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قيل حلفوا بالله رب محمد ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ﴾ بعضهم يسكت عليه؛ لأن المعنى قال يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإعطائه ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع غير أن السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لايجوز فالأولى أن يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله.

•• ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ الجمهور على أنه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة أمرهم ولم يأمرهم بالتفرق فى الكرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين فى الكرة الأولى فالعين حق عندنا وجه بأن يحدث الله تعالى عند النظر إلى الشىء والإعجاب به نقصانا فيه وخللا وكان النبىﷺ يعوذ الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما- فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة» (١) وأنكر الجبائى(٢) العين وهو مردود بما ذكرنا، وقيل: إنه أحب أن لايفطن بهم أعداؤهم فيحتالوا لإهلاكهم ﴿وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أى: إن كان الله أراد بكم سوءا لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبكم لامحالة ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ التوكل تفويض الأمر إلى الله تعالى والاعتماد عليه.

•• ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أى: متفرقين ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم﴾ دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أى شيئا قط حيث أصابهم ماساءهم مع تفرقهم من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك وأخذ أخيهم بوجدان الصواع فى رحله وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿إِلاَّ حَاجَةً﴾ استثناء منقطع أى: ولكن حاجة ﴿فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ وهى شفقته عليهم ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ يعنى قوله: وما أغنى عنكم وعلمه بأن القدر لايغنى عنه الحذر ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ لتعليمنا إياه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

---

(١) رواه البخارى وأصحاب السنن عن ابن عباس.

(٢) الجبائى: هو محمد بن عبدالوهاب بن سلام، أبو على الجبائى، من رؤوس المعتزلة وشيوخهم على مدى العصور، وهو كذلك من رؤوس علم الكلام فى عصره.
ولد عام ٢٣٥هـ، ومات عام ٣٠٣هـ.
الأعلام (٦/ ٢٥٦).

•• ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين وروى أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم: أحسنتم فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه فقال يوسف: بقى أخوكم وحيدا فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال: له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال ومن يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ولاتعلمهم بما أعلمتك، وروى أنه قال له: فأنا لاأفارقك قال لقد علمت اغتمام والدى بى فإن حبستك ازداد غمه ولا سبيل إلى ذلك ألا أن أنسبك إلى مالا يحمد، قال: لا أبالى فافعل مابدا لك، قال: فإنى أدس صاعى فى رحلك ثم أنادى عليك بأنك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم فقال: أفعل.

•• ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ هيأ أسبابهم وأوفى الكيل لهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ السقاية هى مشربة يسقى بها، وهى الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة أو ذهب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى مناد آذنه أى: أعلمه وأذن أكثر الأعلام، ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه روى أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف - عليه السلام - حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ هى الإبل التى عليها الأحمال؛ لأنها تعير أى: تذهب وتجيء والمراد أصحاب العير ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ كناية عن سرقتهم إياه من أبيه.

•• ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ هو الصاع ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يقوله: المؤذن يريد وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى من جاء به، وأراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصل.

•• ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم حيث دخلوا وأفواه رواحلهم مشدودة لئلا تتناول زرعا، أو طعاما لأحد من أهل السوق، ولأنهم ردوا بضاعتهم التى وجدوها فى رحالهم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ وماكنا نوصف قط بالسرقة.

•• ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ الضمير للصواع أى: فما جزاء سرقته ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فى جحودكم وادعائكم البراءة منه

•• ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أى جزاء سرقته أخذ من وجد فى رحله وكان حكم

السارق فى آل يعقوب أن يسترق سنة فلذلك استفتوا فى جزائه، وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم أى: فأخذ السارق نفسه هوجزاؤه لا غير، أوجزاؤه مبتدأ، والجملة الشرطية كما هى خبره ﴿كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ﴾ أى السراق بالاسترقاق.

●● ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أى الصواع ﴿مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ ذكر ضمير الصواع مرات، ثم أنثه؛ لأن التأنيث يرجع إلى السقاية، أو لأن الصواع يذكر ويؤنث الكاف فى ﴿كَذَلِكَ﴾ فى محل النصب أى: مثل ذلك الكيد العظيم ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعنى علمناه إياه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ﴾ تفسير للكيد وبيان له؛ لأن الحكم فى دين الملك أى: فى سيرته للسارق أن يغرم مثلى ما أخذ لا أن يستعبد ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أى: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته فيه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ بالتنوين كوفى ﴿مَّن نَّشَاءُ﴾ أى: فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوقه أرفع درجة منه فى علمه أوفوق العلماء كلهم عليم هم دونه فى العلم وهو الله عزوجل.

●● ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أرادوا يوسف، قيل: دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه، وقيل: كان فى المنزل دجاجة فأعطاها السائل، وقيل: كانت منطقة [1] لإبراهيم- عليه السلام- يتوارثها أكابر ولده فورثها إسحق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده فحضنت يوسف، وهى عمته بعد وفاة أمه وكانت لاتصبر عنه فلما شب أراد يعقوب أن ينزعه منها فعمدت إلى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت: فقدت منطقة إسحق فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف، فقالت: إنه لى سلم أفعل به ما شئت فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت: وروى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رءوسهم حياء وأقبلوا عليه، وقالوا له: فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما يزال منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع فقال بنو راحيل الذين لايزال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أى: مقالتهم إنه سرق كأنه لم يسمعها ﴿يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ تمييز أى: أنتم منزلة فى السرق؛ لأنكم سرقتم أخاكم يوسف من أبيه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تقولون أو تكذبون.

●● ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فى السن وفى القدر ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ أبدله على وجه الاسترهان أو الاستبعاد فإن أباه يتسلى به عن أخيه المفقود ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتمم إحسانك، أو من عادتك الإحسان فاجر على عادتك ولاتغيرها.

(١) منطقة: قطعة ثياب.

●● ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ أى: نعوذ بالله معاذا من أن نأخذ فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من ﴿إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ إذا جواب لهم وجزاء؛ لأن المعنى إن أخذنا بدله ظلمنا وهذا؛ لأنه وجب على قضيةفتواكم أخذ من وجد الصاع فى رحله واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً فى مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم.

●● ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا﴾ يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما مر فى استعصم ﴿ مِنْهُ﴾ من يوسف وإجابته إياهم ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم ﴿ نَجِيًّا ﴾ ذوى نجوى، أو فوجا نجيًا أى: مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا، أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته فالنجىّ يكون بمعنى المناجى؛ كالسمير بمعنى المسامر، وبمعنى المصدر الذى هو التناجى، وكان تناجيهم فى تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون، وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ فى السن وهو روبيل، أو فى العقل والرأى وهو يهوذا، أو رئيسهم وهو شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ ما صلة أى ومن قبل هذا قصر تم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم، أومصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء،وخبره الظرف، وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى﴾ فى الانصراف إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى ﴾ بالخروج منها، أو بالموت، أو بقتالهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لايحكم إلا بالعدل.

●● ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ وقرىء سرِّق أى نسب إلى السرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه بالسرقة ﴿ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من سرقته وتيقنا إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق.

●● ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنى مصر أى أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة ﴿وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا فرجعوا إلى أبيهم، وقالوا له ما قال لهم أخوهم.

●● ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أردتموه وإلا فمن أدرى ذلك الرجل أن السارق يسترق لولا فتواكم وتعليمكم ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف وأخيه وكبيرهم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالى فى الحزن والأسف ﴿الْحَكِيمُ ﴾ الذى لم يبتلنى بذلك إلا لحكمة.

●● ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما جاءوا به ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أضاف الأسف، وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة والتجانس بين الأسف

ويوسف غيرمتكلف ونحوه ﴿ اثَّاقَلْتُم إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم﴾(1) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْه﴾(2) ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(3) ﴿مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ﴾(4) . وإنماتأسف دون أخيه وكبيرهم لتمادى أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده طريا ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ إذ أكثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر، وقيل: قد عمى بصره وقيل كان قد يدرك إدراكا ضعيفاً ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ لأن الحزن سبب البكاء الذى حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن، قيل: ماجفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب، ويجوز للنبى - عليه السلام - أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الحزن فلذلك حمد صبره ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم، وقال: «القلب يجزع والعين تدمع ولانقول ما يسخط الرب وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون»(5) وإنما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾(6) من كظم السقا إذا شده على ملئه.

•• ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ ﴾ أى: لا تفتأ فحذف حرف النفى؛ لأنه لايلتبس إذ لو كان إثباتاً لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لاتفتأ: لاتزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ مشفيا على الهلاك مرضا ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

•• ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ البث أصعب الهم الذى لايصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أى: ينشره أى: لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم، إنما أشكو إلى ربى داعياً له وملتجئاً إليه فخلونى وشكايتى، وروى أنه أوحى إلى يعقوب، إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وإن أحب خلقى إلىّ الأنبياء، ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين، وقيل: اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأعلم من رحمته أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب، وروى أنه رأى ملك الموت فى منامه فسأله هل قبضت روح يوسف؟ فقال : لا والله هو حى فاطلبه، وعلمه هذا الدعاء: ياذا المعروف الدائم الذى لا ينقطع معروفه أبداً، ولايحصيه غيرك فرج عنى.

(1) سورة «التوبة»، الآية (38).
(2) سورة «الأنعام»، الآية (26).
(3) سورة «الكهف»، الآية (104).
(4) سورة «النمل»، الآية (22).
(5) متفق عليه من حديث أنس، رضى الله عنه.
(6) سورة «القلم»، الآية (48).

•• ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فتعرفوا منهما وتطلبوا خبرهما، وهو تفعل من الإحساس وهوالمعرفة ﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ ولاتقنطوا من رحمة الله وفرجه ﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر والشأن ﴿لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ لأن من آمن يعلم أنه متقلب فى رحمة الله ونعمته وأما الكافر فلايعرف رحمة الله ولاتقلبه فى نعمته فييأس من رحمته فخرجوا من عند أبيهم راجعين إلى مصر.

•• ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ الهزال من الشدة والجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها من أزجيته إذا دفعته إذا دفعته وطردته، قيل: كانت دراهم زيوفا لاتؤخذ إلابوضيعة وقيل كانت صوفاً وسمنا ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ الذى هو حقنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ وتفضل علينا بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة أوزدنا على حقنا أوهب لنا أخانا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ولما قالوا: مسنا وأهلنا الضر وتضرعوا إليه وطلبو منه أن يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك أن عرفهم نفسه حيث قال:

•• ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾ أى هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف ﴿وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ لاتعلمون قبحه أو إذ أنتم فى حد السفه والطيش وفعلهم بأخيه تعريضهم إياه للغم بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

•• ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ﴾ بهمزتين كوفى وشامى ﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ اللام لام الابتداء ، وأنت مبتدأ، ويوسف خبره، والجملة خبران ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه؛ لأنه كان فى ذكر أخيه بيان لماسألوه عنه ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالألفة بعد الفرقة وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ﴾ الفحشاء ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عن المعاصى وعلى الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين، وقيل: من يتق مولاه ويصبر على بلواه لايضيع أجره فى دنياه وعقباه.

•• ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم والتقوى والصبر والحسن ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وإن شأننا وحالنا أناكنا خاطئين متعمدين للإثم لم نتق ولم نصبِر لاجرم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسكن بين يديك.

•• ﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لاتعيير عليكم ﴿الْيَوْمَ ﴾ متعلق بالتثريب أو بيغفر والمعنى لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الأيام ثم ابتدأ فقال ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك ويغفر لك على لفظ الماضى والمضارع، أو اليوم يغفر الله لكم بشارة بما جل غفران الله وروى أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتى (1) باب

الكعبة يوم الفتح فقال لقريش: «ماترونني فاعلا بكم»، قالوا: نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال: «أقول ما قال أخي يوسف لاتثريب عليكم اليوم» [٢] وروى أن أبا سفيان لماجاء ليسلم قال له العباس إذا أتيت رسول الله فاتل عليه: «قال لاتثريب عليكم اليوم» ففعل فقال رسول الله ﷺ «غفرالله لك ولمن علمك» [٣] ويروى أن إخوته لما عرفوه أرسلوا إليه: أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشياً، ونحن نستحيي منك لما فرط منا فيك، فقال يوسف: إن أهل مصر وإن ملكت فيهم فإنهم ينظرون إلى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ، ولقد شرفت الآن بكم حيث علم الناس أنى من حفدة إبراهيم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى: إذا رحمتكم وأنا الفقير القتور فما ظنكم بالغنى الغفور.

ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا: إنه عمى من كثرة البكاء قال: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ قيل هو القميص المتوارث الذى كان فى تعويذ يوسف، وكان من الجنة أمره جبريل أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة لايقع على مبتلى ولاسقيم إلا عوفى ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يصير بصيراً تقول: جاء البناء محكما، أى صار أويأت إلى وهو بصير، قال يهوذا: أنا أحمل قميص الشفاء، كما ذهبت بقميص الجفاء، وقيل: حمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان[٤] وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لينعموا بآثار ملكى كما اغتموا بأخبار هلكى.

●● ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر [٥]، يقال: فصل من البلد فصولا إذا انفصل عنه وجاوز حيطانه ﴿قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمانية أيام. ﴿ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾التفنيد النسبة إلى الفند، و وهو الخرف وإنكارالعقل من هرم، يقال: شيخ مفند والمعنى لولا تفنيدكم إياى لصدقتمونى.

---

(١) العضادة: هى الساعد، وعضادتى الباب: أى جنباه ـ اللذان يرتكز عليهما.

(٢) رواه النسائى والبيهقى من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٣) قال ابن حجر: لم أجده.

(٤) كنعان: هو من أرض مصر، وكان بين موضع يعقوب بن كنعان ويوسف بمصر مائة فرسخ، وكان مقام يعقوب بأرض نابلس، وبه الجب الذى ألقى يوسف فيه.
(معجم البلدان ٤/ ٥٤٩).

(٥) عريش مصر: مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام، قال: إنما سمى العريش؛ لأن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ لما أقحط الشام ساروا إلى مصر يمتارون، وكان ليوسف حراس على أطراف البلاد فمسكوا بالعريش، وكتب صاحب الحرس ليوسف يقول له: إن أولاد يعقوب الكنعانى قد وردوا يريدون البلد للقحط الذى أصابهم، فإلى أن أذن لهم عملوا لهم عريشاً يستظلون تحته من الشمس فسمى الموضع: العريش.
(معجم البلدان ٤/ ١٢٨).

●● ﴿ قَالُوا ﴾ أى: أسباطه ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لفى ذهابك عن الصواب قديما فى إفراط محبتك ليوسف أوفى خطئك القديم من حب يوسف ، وكان عندهم أنه قد مات .

●● ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ أى: يهوذا ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب، أو ألقاه يعقوب ﴿فَارْتَدَّ ﴾ فرجع ﴿بَصِيراً﴾ يقال: رده فارتد وارتده إذا ارتجعه ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ ﴾ يعنى قوله إنى لأجد ريح يوسف أو قوله ولاتيأسوا من روح الله وقوله ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول، أو وقع عليه والمراد قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وروى أنه سأل البشير كيف يوسف؟ قال هو ملك مصر. فقال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال: على دين الإسلام قال: الآن تمت النعمة.

●● ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أى: سل الله مغفرة ما ارتكبنا فى حقك وحق ابنك إنا تبنا واعترفنا بخطايانا .

●● ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخر الاستغفار إلى وقت السحر أو إلى ليلة الجمعة، أو ليتعرف حالهم فى صدق التوبة، أو إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم، ثم إن يوسف وجه إلى أبيه جهازا ومائتى راحلة لتجهز إليه بمن معه فلما بلغ قريباً من مصر، خرج يوسف والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا.

●● ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ﴾ ضم إليه ﴿ أَبَوَيْهِ ﴾ واعتنقهما قيل: كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما أن العم أب ومنه قوله : ﴿ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (١) ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر أنه حين استقبلهم أنزلهم فى مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم إليه أبويه ﴿وَقَالَ﴾ لهم بعد ذلك ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ من ملوكها وكانوا لايدخلونها إلا بجواز، أو من القحط ، وروى أنه لما لقيه قال يعقوب ـ عليه السلام ـ : السلام عليك يا مذهب الأحزان، وقال له يوسف: يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ فقال: بلى: ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بينى وبينك، وقيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى، وكانت الذرية ألف ألف ومائتى ألف.

●● ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ قيل: لما دخلوا مصر وجلس فى مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا إليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير وخروا له يعنى الإخوة الأحد عشر والأبوين سجدا، وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرم كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد.

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٣٣).

وقال الزجاج: سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم، وقيل: ماكانت إلاانحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه، وقيل: وخروا لأجل يوسف سجدا لله شكرا، وفيه نبوة أيضاً واختلف في استنبائهم ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا﴾ أي: الرؤيا ﴿ رَبِّي حَقًّا﴾ أي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة، أو ثمانون، أو ست وثلاثون أوثنتان وعشرون ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ يقال أحسن إليه وبه وكذلك أساء إليه وبه ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر الجب لقوله لاتثريب عليكم اليوم ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ من البادية؛ لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع [(١)] ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد بيننا وأغرى ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ أي: لطيف التدبير ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ بتأخير الآمال إلى الآجال أو حكم بالائتلاف بعد الاختلاف.

●● ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ﴾ ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ تفسيركتب الله أو تعبير الرؤيا ومن فيهما للتبعيض؛ إذ لم يؤت إلا بعض ملك الدنياوبعض التأويل ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ انتصابه على النداء ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ طلب الوفاة على الإسلام كقول يعقوب لولده ﴿ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وعن الضحاك مخلصا وعن التستري [(٢)] مسلما إليك أمري وفي عصمة الأنبياء إنما دعا به يوسف ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون العاقبة؛ لأن ظواهر الأنبياء لنظر الأمم إليهم ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي أو على العموم روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى أدخله خزانة القراطيس، قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وماكتبت إلى على ثمان مراحل، فقال: أمرني جبريل، قال: أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فاسأله فقال جبريل: الله أمرني بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب فهلا خفتني، وروى أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة، ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة، فلما تم أمره طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت، وقيل: ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيباً طاهراً فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه كل يحب أن يدفن في محلتهم، حتى هموا بالقتال فرأوا أن يعملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا حتى نقل موسى ـ عليه السلام ـ بعد أربعمائة سنة تابوته إلى بيت المقدس وولد له إفرائيم وميشا وولد

(١) المناجع: جمع نجع، وهو موضع الكلأ.

(٢) هو العالم الزاهد العابد؛ سهل بن عبدالله بن يونس، التستري، أبو محمد، من أشهر الصوفية، لا تخلو كتب الزهد والرقائق من ذكر اسمه وأحواله، ولد عام ٢٠٠هـ، وتوفي عام ٢٨٣هـ.
الأعلام (١٤٣/٣).

لإفراثيم نون، ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه .

●● ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله ﷺ وهو مبتدأ ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبران ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لدى بنى يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ عزموا على ماهموا به من إلقاء يوسف فى البئر ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف ويبغون له الغوائل، والمعنى أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحى؛ لأنك لم تحضر بنى يعقوب حين اتفقوا على إلقاء أخيهم فى البئر.

●● ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أراد العموم، أو أهل مكة أى وماهم بمؤمنين، ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم.

●● ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ، أو على القرآن ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ ماهو إلا موعظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات، أو على الأرض ويشاهدونها ﴿وَهُمْ عَنْهَا﴾ عن الآيات ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لايعتبرون بها والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

●● ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أى: وما يؤمن أكثرهم فى إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السماوات والأرض إلا وهومشرك بعبادة الوثن الجمهور على أنها نزلت فى المشركين؛ لأنهم مقرون بالله خالقهم ورازقهم وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره، ومن جملة الشرك ما يقوله القدرية [1] من إثبات قدرة التخليق للعبد، والتوحيد المحصن ما يقوله أهل السنة وهو أنه لا خالق إلا الله.

●● ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿ بَغْتَةً﴾ حال أى فجأة ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها.

●● ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ هذه السبيل التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلى، والسبيل والطريق يذكران ويؤنثان، ثم فسر سبيله بقوله ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أى أدعو إلى دينه مع حجةواضحة غير عمياء ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر فى أدعو ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ عطف عليه أى أدعو إلى سبيل الله أنا ويدعو إليه من اتبعنى، أو أنا مبتدأ وعلى بصيرة خبر مقدم، ومن اتبعنى عطف على أنا يخبر ابتداء بأنه ومن اتبعه على حجة برهان لاعلى هوى ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ وأنزهه عن الشركاء ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ مع اللهغيره.

---

(١) القدرية: جماعة يزعمون أن الله لا يقدر الشر، ويقولون إن الخير من الله، والشر من إبليس، ويزعمون أن الله قد يريد الشىء فلا يكون، ويكره كون الشىء فيكون. وهى فرقة ضالة. وتعالى الله عما يقولون.

(الملل والنحل).

•• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالا﴾ لاملائكة؛ لأنهم كانوا يقولون ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أو ليست فيهم امرأة ﴿نُّوحِى﴾ بالنون حفص ﴿ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ لأنهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ ﴾ أى ولدار الساعة الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك وآمنوا به ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ وبالياء مكى وأبو عمرو وحمزة وعلى .

•• ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ يئسوا من إيمان القوم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ ـ كذبوا ـ وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم وبالتخفيف كوفى أى: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا أى أخلفوا، أووظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل أى كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ للأنبياء والمؤمنين بهم فجأة من غير احتساب ﴿ فَنُجِّى﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامى وعاصم على لفظ الماضى المبنى للمفعول والقائم مقام الفاعل من الباقون فنجى بنونين ثانيتهما ساكنة مخفاه للجيم بعدها وإسكان الياء ﴿مَن نَّشَاءُ﴾ أى: النبى ومن آمن به ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين.

•• ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ﴾ أى فى قصص الأنبياء وأممهم ، أوفى قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ﴾ حيث نقل من غاية الحب، إلى غيابة الجب، ومن الحصير، إلى السرير، فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة، ونهاية المكر وخامة وندامة ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ ماكان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفار ﴿ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن تصديق الكتب التى تقدمته ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه فى الدين؛ لأنه القانون الذى تستند إليه السنة والإجماع والقياس﴿وَهُدًى ﴾ من الضلال ﴿وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وأنبيائه وما نصب بعد لكن معطوف على خبر كان * عن رسول الله ﷺ «علموا أرقاءكم سورة يوسف فأيما عبد تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لايحسد مسلما» (١) .

قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله - فى ذكر قصة يوسف- عليه السلام- وإخوته تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش كأنه يقول إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه فى الدين ومع الأخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك فأنت مع مخالفتهم إياك فى الدين أحرى أن تصبر على أذاهم. وقال وهب(٢): إن الله تعالى لم ينزل كتابا إلا وفيه سورة يوسف ـ عليه السلام ـ تامة كما هى فى القرآن العظيم. والله أعلم.

---

(١) لم نجده.

(١) هو الإمام العلامة: وهب بن منبه بن كامل بن سيح بن ذى كناز، اليمنى، الصنعانى، أبو عبدالله الأبناوى، تابعى علم،روى عن بعض الصحابة وعن جمع من كبار التابعين، كان يقول بالقدر، ثم تاب الله عليه وندم على ذلك، فصار ـ بفضل الله تعالى ـ من أحبار الأمة. ولد عام ٣٤هـ.

وتوفى عام ١١٤هـ.

تهذيب التهذيب (١٠٧/٦،١٠٨).

(سورة الرعد مكية، وهي ثلاث وأربعون آية كوفي، وخمس وأربعون آية شامي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الٓمٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى. عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أريد بالكتاب السورة أى تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ﴿وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: القرآن كله ﴿الْحَقُّ﴾ خبر والذى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فيقولون: تقوّله محمد.

ثم ذكر ما يوجب الإيمان فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ أى: خلقها مرفوعة لا أن تكون موضوعة فرفعها، والله مبتدأ والخبر الذى رفع السموات.

●● ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ حال وهو جمع عماد، أو عمود ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمير يعود إلى السموات أى: ترونها كذلك فلا حاجة إلى البيان أو إلى عمد فيكون فى موضع جر على أنه صفة لعمد أى: بغير عمد مرئية ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمنافع عباده ومصالح بلاده. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء الدنيا. ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أمر ملكوته وربوبيته ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يبين آياته فى كتبه المنزلة ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لابد لكم من الرجوع إليه.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ﴾ بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ﴾ جبالا ثوابت ﴿وَأَنْهَارًا﴾ جارية ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أى: الأسود والأبيض والحلو والحامض والصغير والكبير، وما أشبه ذلك ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يلبسه مكانه فيصير أسود مظلما بعد ما كان أبيض منيرا. يغشّى حمزة وعلى وأبو بكر ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن لها صانعا عليما حكيما قادرا.

●● ﴿وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة إلى سبخة وكريمة إلى زهيدة وصلبة إلى رخوة، وذلك دليل على قادر مدبر مريد موقع لأفعاله على وجه دون وجه ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ معطوفة على قطع ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع مكى وبصرى وحفص عطف على قطع، غيرهم بالجر بالعطف على أعناب، والصنوان جمع صنو، وهى النخلة لها رأسان، وأصلها واحد، وعن حفص بضم الصادوهما لغتان ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ وبالياء عاصم وشامى. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وبالياء حمزة وعلى. ﴿فِى الأُكُلِ﴾ فى الثمر وبسكون

الكاف نافع ومكى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الحسن مثل اختلاف القلوب فى آثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف القطع فى أنهارها وأزهارها وثمارها.

●● ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من قولهم فى إنكار البعث ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ خبر ومبتدأ أى: فقولهم حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك كانت الإعادة أهون شىء عليه وأيسره فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب، ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فى محل الرفع بدل من قولهم. قرأ عاصم وحمزة كل واحد بهمزتين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أولئك الكافرون المتمادون فى كفرهم ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وصف لهم بالإصرار، أو من جملة الوعيد ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دل تكرار أولئك على تعظيم الأمر.

●● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالنقمة قبل العافية، وذلك أنهم سألوا رسول الله (ﷺ) أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أى عقوبات أمثالهم من المكذبين فمالهم لم يعتبروا بها فلا يستهزءوا، والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(١) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أى: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ومحله الحال أى: ظالمين لأنفسهم، قال السدى: يعنى المؤمنين وهى أرجى آية فى كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم، وهو بدون التوبة فإن التوبة تزيلها وترفعها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على الكافرين أو هما جميعا فى المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما أى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

●● ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله (ﷺ) عنادًا فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية وإحياء الموتى فقيل لرسول الله (ﷺ) ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ إنما أنت رجل أرسلت منذرا مخوفا لهم من سوء العاقبة وناصحا كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأى آية كانت، والآيات كلها سواء فى حصول صحة الدعوى بها ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية خص بها لا بما يريدون ويتحكمون.

●● ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ ما فى هذه المواضع الثلاثة موصولة أى يعلم ما تحمله من الولد على أى حال هو ذكورة وأنوثة وتمام وخداج(٢) وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك وما تغيضه الأرحام أى: ويعلم ما تنقصه يقال: غاض الماءوغضته أنا وما تزداده، والمراد عدد الولد فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة، أو جسد الولد فإنه يكون

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

(٢) خداج: هو أى شىء ناقص، أو أخذ قبل تمامه، ويقصد به هنا: المولود قبل اكتمال شهور حمله.

تاما ومخدجا أو مدة الولادة فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عندنا، وإلى أربع عند الشافعى، وإلى خمس عند مالك، أو مصدرية أى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام وازديادها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه لقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١).

●● ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الخلق ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما شاهدوه ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذى كل شيء دونه ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المستعلى على كل شيء بقدرته، أو الذى كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها، وبالياء فى الحالين مكى.

●● ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ أى: فى عمله ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ متوار ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ذاهب فى سربه أى فى طريقه ووجهه، يقال: سرب فى الأرض سروبا. وسارب عطف على من هو مستخف لاعلى مستخف، أو على مستخف غير أن من فى معنى الاثنين.

●● والضمير فى ﴿لَهُ﴾ مردود على من كأنه قيل لمن أسر ومن جهر ومن استخفى ومن سرب ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ جماعات من الملائكة تعتقب فى حفظه، والأصل معتقبات فأدغمت التاء فى القاف، أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه؛ لأن بعضهم يعقب بعضا، أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبون ﴿مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أى قدامه ووراءه ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ هما صفتان جميعا وليس من أمر الله بصلة للحفظ؛ كأنه قيل: له معقبات من أمر الله أو يحفظونه من أجل أمر الله، أى من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصى ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ عذابا ﴿فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا يدفعه شيء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ من دون الله ممن يلى أمرهم ويدفع عنهم.

●● ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ انتصبا على الحال من البرق؛ كأنه فى نفسه خوف وطمع، أو على ذا خوف وذا طمع، أو من المخاطبين أى خائفين وطامعين والمعنى يخاف من وقوع الصواعق عند لمع البرق ويطمع فى الغيث قال أبو الطيب:

فتى كالسّحاب الجون يخشى ويرتجى ... يرجّى الحيا منه وتخشى الصواعق

أو يخاف المطر منْ له فيه ضرر كالمسافر ومن له بيت يكف ومن البلاد مالا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر ويطمع فيه من له نفع فيه ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ﴾ هو اسم جنس والواحدة سحابة ﴿الثِّقَالَ﴾ بالماء وهو جمع ثقيلة، تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال.

●● ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ قيل: يسبح سامعو الرعد من العباد الراجين للمطر أى يصيحون

---

(١) سورة «القمر»، الآية (٤٩).

بسبحان الله والحمد لله وعن النبى (ﷺ) أنه قال: «الرعد ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب»[١]. والصوت الذى يسمع زجره السحاب حتى ينتهى إلى حيث أمر ﴿وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ ويسبح الملائكة من هيبته وإجلاله ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ الصاعقة: نار تسقط من السماء. لما ذكر علمه النافذ فى كل شيء واستواء الظاهر والخفى عنده وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعنى الذين كذبوا رسول الله (ﷺ) يجادلون فى الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدوة على البعث وإعادة الخلائق بقولهم: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٢] ويرون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلونه بعض الأجسام بقولهم الملائكة بنات الله. أو الواو للحال أى فيصيب بها من يشاء من حال جدالهم، وذلك أن أريد أخا لبيد بن ربيعة العامرى[٣]، قال لرسول الله (ﷺ) حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل[٤] قاصدين لقتله فرمى الله عامرا بغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية، وأرسل على أربد صاعقة فقتله أخبرنى عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد[٥] ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أى: المماحلة وهى شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا إذا تكلف لاستعماله الحيلة واجتهد فيه، ومحل بفلان إذا كاده وسمى به إلى السلطان، والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون.

●● ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أضيفت إلى الحق الذى هو ضد الباطل للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق وأنها بمعزل من الباطل والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعى سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأنه يوجه إليه الدعاء لما فى دعوته من الجدوى والنفع بخلاف مالا ينفع ولا يجدى دعاؤه، واتصال شديد المحال وله دعوة الحق بما قبله على قصة أربد ظاهر؛ لأن إصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر وقد دعا رسول الله (ﷺ) عليه وعلى صاحبه بقوله: «اللهم أخسفهما بما شئت»[٦]. فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق

---

(١) رواه الترمذى والنسائى وأحمد من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما.

(٢) سورة «يس»، الآية (٧٨).

(٣) هو الشاعر العملاق: لبيد بن ربيعة، العامرى، أبو عقيل، أحد فطاحل الشعر الجاهلى، فهو صاحب إحدى المعلقات السبع، عاش طويلاً؛ فأدرك الإسلام، وأسلم، وهو يعد من الصحابة، ولم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً، وهو:

الحمد لله إذا لم يأتنى أجلى ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالاً

توفى عام ٤١هـ.

الأعلام (٥/ ٢٤٠).

(٤) عامر بن الطفيل بن جعفر العامرى، من بنى عامر بن صعصعة، فارس من فرسان قومه فى الجاهلية، وهو ابن عم لبيد الشاعر، مات عام ١١هـ كافراً، وقد تجاوز الثمانين.

الأعلام (٣/ ٢٥٢).

(٥) أخرجه الثعلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، ورواه البزار والبيهقى فى الدلائل.

(٦) ذكره الواحدى فى أسباب النزول.

وعلى الأول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله (ﷺ) بحلول محاله بهم وإجابة دعوة رسول الله (ﷺ) فيهم إن دعا عليهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ الاستثناء من المصدر أى: من الاستجابة التى دل عليها لا يستجيبون؛ لأن الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناءكل منها من الفعل، فصار التقدير لا يستجيبون استجابة إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء، أى: كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم. واللام فى ليبلغ متعلق بباسط كفيه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ وما الماء ببالغ فاه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ فى ضياع لا منفعة فيه؛ لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم،وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم.

•• ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ سجود تعبد وانقياد ﴿طَوْعًا﴾ حال يعنى الملائكة والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعنى المنافقين والكافرين فى حال الشدة والضيق ﴿وَظِلالُهُم﴾ معطوف على من جمع ظل ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جمع غداة كقنى وقناة ﴿وَالآصَالِ﴾ جمع أصل جمع أصيل، قيل: ظل كل شىء يسجد لله بالغدو والآصال، وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره، وظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع.

•• ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم؛ لأنه إذا قال لهم من رب السموات والأرض لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله، دليله قراءة ابن مسعود وأبى قالوا: الله، أو هو تلقين، أى: فإن لم يجيبوا فلقنهم فإنه لا جواب إلا هذا ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة ﴿لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها، أو يدفعوا ضرراً عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم، وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب، فما أبين ضلالتكم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أى: الكافر والمؤمن، أو من لا يبصر شيئاً ومن لا يخفى عليه شىء ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ ملل الكفر والإيمان. يستوى كوفى غير حفص ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بل أجعلوا ومعنى الهمزة الإنكار ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ خلقوا مثل خلقه وهو صفة لشركاء أى: أنهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هولاء على الخلق، كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد،

ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى خالق الأجسام والأعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم أن يكون له شريك فى الخلق فلا يكون له شريك فى العبادة، ومن قال إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فتشابه الخلق على قولهم ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿الْقَهَّارُ﴾ لا يغالب وما عداه مربوب ومقهور.

•• ﴿أَنزَلَ﴾ أى الواحد القهار وهو الله سبحانه ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب ﴿مَاءً﴾ مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ جمع واد، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة، وإنما نكر؛ لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذى علم الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ أى رفع ﴿زَبَدًا﴾ هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاة زبد ﴿رَّابِيًا﴾ منتفخا مرتفعا على وجه السيل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ بالياء كوفى غير أبى بكر ومن لابتداء الغاية أى: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماءأو للتبعيض أى: وبعضه زبد ﴿فِى النَّارِ﴾ حال من الضمير فى عليه، أى ومما توقدون عليه ثابتا فى النار ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ مبتغين حلية فهو مصدر فى موضع الحال من الضمير فى توقدون ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الأوانى، وما يتمتع به فى الحضر والسفر، وهو معطوف على حلية أى زينة مين الذهب والفضة ﴿زَبَدٌ﴾ خبث، وهو مبتدأ ﴿مِّثْلُهُ﴾ نعت له ومما توقدون خبر له أى لهذه الفلزّات، إذا أغليت زبد مثل زبد الماء ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أى مثل الحق والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ حال أى متلاشيا، وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمى وجفأت الرجل صرعته ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من الماءوالحلى والأوانى ﴿فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ﴾ فيثبت الماء فى العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى فى الأرض مدة طويلة ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، فمثل الحق وأهله بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى منه واتخاذ الأوانى والآلات المختلفات، وذلك ماكث فى الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماءفى منافعه، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة، وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذى يرمى به وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه إذا أذيب. قال الجمهور: وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب، والحق والباطل؛ فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان والأودية للقلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافى المنتفع به مثل الحق فكما يذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء، كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق

كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية، وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع فى الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل(١) والملل والكسل.

•• اللام فى ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أى: أجابوا متعلقة بيضرب أى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ وهى صفة لمصدر استجابوا، أى استجابوا الاستجابة الحسنى ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أى: وللكافرين الذى لم يستجيبوا أى هما مثلا الفريقين وقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ كلام مبتدأ فى ذكر ما أعد لغير المستجيبين أى: لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله، والوجه أن الكلام قد تم على الأمثال وما بعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ، خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهى الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ، خبره لو مع ما فى حيزه ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ المناقشة فيه، فى الحديث: «من نوقش الحساب عذب»(٢). ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المكان الممهد والمذموم محذوف أى جهنم.

•• دخلت همزة الإنكار على الفاء فى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ لإنكار أن تقع شبهة ما بعد ما ضرب من المثل فى أن حال من علم ﴿أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذى لم يستبصر فيستجيب، وهو المراد بقوله: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى: الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا.

•• ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ مبتدأ والخبر أولئك لهم عقبى الدار، كقوله: «والذين ينقضون عهد الله. . . أولئك لهم اللعنة»، وقيل هو صفة لأولى الألباب والأول أوجه وعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾(٣) ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص.

•• ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله (ﷺ) وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان، إنما المؤمنون إخوة بالإحسان إليهم على

---

(١) الخلل: ضد الانتظام، ومعناه: فساد فى أمر ما.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث عائشة- رضى الله عنها.

(كنزالعمال ١٤/ ٣٨٩٧٦).

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (١٧٢).

حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وإفشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أى: وعيده كله ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

•• ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ مطلق فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والأموال ومشاق التكاليف ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا لئلا يعاب فى الجزع ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ داوموا على إقامتها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أى من الحلال وإن كان الحرام رزقاً عندنا ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يتناول النوافل؛ لأنها فى السر أفضل والفرائض؛ لأن المجاهرة بها أفضل نفياً للتهمة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم، أو إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا، وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره، فهذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وهى الجنة؛ لأنها التى أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها.

•• ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من عقبى الدار ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ﴾ أى: آمن ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وقرىء صلح والفتح أفصح، ومن فى محل الرفع بالعطف على الضمير فى يدخلونها وساغ ذلك وإن لم يؤكد؛ لأن ضمير المفعول صار فاصلا وأجاز الزجاج أن يكون مفعولا معه ووصفهم بالصلاح ليعلم أن الأنساب لا تنفع بنفسها والمراد أبوا كل واحد منهم، فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ فى قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا.

•• ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ فى موضع الحال إذ المعنى قائلين سلام عليكم، أو مسلمين ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أى هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات أو على أمر الله، أو بسلام أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم، والأول أوجه ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ الجنات.

•• ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الإبعاد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه فى مقابلة عقبى الدار وأن يراد بالدار: جهنم، وبسوئها: عذابها.

•• ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: ويضيق لمن يشاء، والمعنى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدر دون غيره ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم، ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

فِى الآخِرَةِ إلاَّ مَتَاعٌ﴾ وخفى عليهم أن نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرا يتمتع به كعجلة الراكب، وهو ما يتعجله من تميرات، أو شربة سويق.

●● ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: الآية المقترحة ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ويرشد إلى دينه من رجع إليه بقلبه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم الذين،أو محله النصب بدل من مَن﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ على الدوام، أو بالقرآن، أو بوعده ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين.

●● ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره، وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيباً ومحلها النصب، أو الرفع، كقولك: طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك، واللام فى لهم للبيان مثلها فى سقيا لك والواو فى طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن، والقراءة فى ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ مرجع. بالرفع والنصب تدل على محليها.

●● ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ مثل ذلك الإرسال أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله، فقال: ﴿فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أى أرسلناك فى أمة قد تقدمتها أمم كثيرة، فهى آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا إليك ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ وحال هؤلا أنهم يكفرون ﴿بِالرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ ورب كل شىء ﴿لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى هو ربى الواحد المتعالى عن الشركاء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فى نصرتى عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعى فيثيبنى على مصابرتكم. متابى وعقابى ومآبى فى الحالين يعقوب.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مقارها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾ حتى تتصدع وتتزايل قطعا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية فى التذكير ونهاية فى الإنذار والتخويف فجواب لو محذوف، أو معناه ولو أن قرآنا وقع به تسير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيئهم لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ﴾[1]. الآية ﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شىء وهو قادر على الآيات التى اقترحوها ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أفلم يعلم، وهى لغة قوم من النخع[2]، وقيل: إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (١١١).

(٢) النخع: هو جد قبيلة من قبائل العرب، نزلت الكوفة، وجدهم اسمه: جَسْرُ بن عمرو بن عُلة بن جلد بن مالك بن أود، سمى «النخع»؛ لأنه ذهب عن قومه، وخرّجت هذه القبائل علماء أجلاء فى مجالات كثيرة. الأنساب (٥/ ٤٧٣).

لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون كما استعمل النسيان فى معنى الترك لتضمن ذلك، دليله قراءة على ـ رضى الله عنه- أفلم يتبين، وقيل: إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السنات وهذه والله فرية ما فيها مرية ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم بما حيل الله بهم فى كل وقت من صنوف البلايا والمصائب فى نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها، ويتعدى إليهم شرورها ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ أى موتهم، أو القيامة، أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة؛ لأن جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم، أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتى وعد الله أى: فتح مكة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى: لا خلف فى موعده.

•• ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإملاء الإمهال، وأن يترك ملاوة من الزمان فى خفض وأمن ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به وتسلية له.

•• ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ احتجاج عليهم فى إشراكهم بالله يعنى أفالله الذى هو رقيب ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ صالحة، أو طالحة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس كذلك، ثم استأنف، فقال. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: الأصنام ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أى: سموهم له من هم ونبئوه بأسمائهم ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ على أم المنقطعة أى بل أتنبؤنه بشركاء لا يعلمهم فى الأرض وهو العالم بما فى السموات والأرض، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء والمراد نفى أن يكون له شركاء ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ بل أتسمونهم شركاء ظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة كقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾(١) ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾(٢) ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم للإسلام بشركهم ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الله بضم الصاد كوفى وبفتحها غيرهم، ومعناه وصدوا المسلمين عن سبيل الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من أحد يقدر على هدايته.

•• ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وأنواع المحن ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشد لدوامه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ من حافظ من عذابه.

---

(١) سورة «التوبة»، الآية (٣٠). (٢) سورة «يوسف»، الآية (٤٠).

●● ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التى هى فى غرابة المثل وارتفاعه بالابتداء، والخبر محذوف أى فيما يتلى عليكم مثل الجنة، أو الخبر ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ كما تقول صفة زيد أسمر ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ ثمرها دائم الوجود لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا﴾ دائم لا ينسخ كما ينسخ فى الدنيا بالشمس ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ﴾ أى الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعنى منتهى أمرهم ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

●● ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد من أسلم من اليهود كابن سلام ونحوه ومن النصارى بأرض الحبشة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾ أى ومن أحزابهم، وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله (ﷺ) بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعانى مما هو ثابت فى كتبهم، وكانوا ينكرون نبوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾ هو جواب للمنكرين، أى قل: إنما أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله ولا أشرك به فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع إدعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ خصوصاً لا أدعو إلى غيره ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَئَابِ﴾ مرجعى وأنتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لإنكاركم.

●● ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه والإنذار بدار الجزاء ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب، وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله (ﷺ) إلى أمور يشاركهم فيها، فقيل: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾ أى لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة وإلا فكان رسول الله (ﷺ) من شدة الثبات بمكان.

●● وكانوا يعيبونه بالزواج والولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساءاً وأولاداً ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى ليس فى وسعه إتيان الآيات على ما يقترحه قومه وإنما ذلك إلى الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت حكم يكتب على العباد أى يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته.

●● ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يشاء نسخه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدله ما يشاء، أو يتركه غير منسوخ، أو يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره أو يمحو كفر التائبين ويثبت إيمانهم أو يميت من

يحان أجله وعكسه ويثبّت مدنى وشامى وحمزة وعلى ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أى أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه.

●● ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم، وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم، أو توفيناك قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ﴾ أرض الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم، فننقص دار الحرب ونزيد فى دار الإسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة، والمعنى عليك البلاغ الذى حملته، ولاتهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من النصرة والظفر ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لاراد لحكمه والمعقب الذى يكر على الشيء فيبطله، وحقيقته الذى يعقبه أى يقفيه أى بالرد والإبطال، ومنه، قيل لصاحب الحق: معقب، لأنه يقفى غريمه بالاقتضاء والطلب، والمعنى أنه يحكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس، ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال؛ كأنه قيل: والله يحكم نافذا حكمه، كما تقول جاءنى زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة له تريد حاسرا ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا.

●● ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر إرادة المكروه فى خفية، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعنى العاقبة المحمودة؛ لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها فهو المكر كله؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم فى غفلة عما يراد بهم الكافر. على إرادة الجنس حجازى وأبو عمرو.

●● ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ المراد بهم كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود قالوا: لست مرسلا ولهذا قال عطاء هى مكية إلا هذه الآية ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بما أظهر من الأدلة على رسالتى والباء دخلت على الفاعل وشهيد تمييز ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قيل: هو الله عز وجل، والكتاب: اللوح المحفوظ، دليله قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب أى ومن لدنه علم الكتابً؛ لأنه علم من علمه من فضله ولطفه، وقيل ومن هوى من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته فى كتبهم، وقال ابن سلام: فىَّ نزلت هذه الاية، وقيل: هو جبريل عليه السلام ومن فى موضع الجر بالعطف على لفظ الله أو فى موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور، إذ التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر فى الظرف فيكون فاعلا؛ لأن الظرف صلة لمن ومن هنا بمعنى الذى والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب، وهذا لأن الظرف إذا وقع صلة يعمل عمل الفعل نحو مررت بالذى فى الدار أخوه فأخوه فاعل، كما تقول بالذى استقر فى الدار أخوه، وفى القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء.

سورة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مكية: اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الر كِتَابٌ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب يعني السورة، والجملة التي هي: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ في موضع الرفع صفة للنكرة ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتيسيره وتسهيله مستعار من الإذن الذي هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ بدل من النور بتكرير العامل ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب بالانتقام ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود على الإنعام.

●● ﴿اللَّهِ﴾ بالرفع مدني وشامي على هو الله، وبالجر غيرهما على أنه عطف بيان للعزيز الحميد ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، توعد الكافرين بالويل، وهو نقيض الوأل، وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو مبتدأ وخبر، وصفة.

●● ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ويؤثرون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجا، والأصل: ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل. الذين مبتدأ خبره: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق ووصف الضلال بالبعد من الإسناد المجازي والبعد في الحقيقة للضال؛ لأنه هو الذي يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده، أو مجرور صفة للكافرين، أو منصوب على الذم، أو مرفوع على: أعني الذين، أو: هم الذين.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إلا متكلما بلغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له: لم نفهم ما خوطبنا به. فإن قلت: إن رسولنا ﷺ بعث إلى الناس جميعا بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(١) بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة، قلت: لا يخلو؛ إما أن ينزل بجميع الألسنة، أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فتعين أن ينزل بلسان واحد، وكان لسان قومه أولى بالتعيين، لأنهم أقرب إليه، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ من آثر سبب الضلالة ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من آثر سبب الاهتداء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يغالب على مشيئته ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يخذل إلا أهل الخذلان.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٥٨).

●● ﴿ولَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بأن أخرج أو أى أخرج لأن الإرسال فيه معنى القول، كأنه قيل: أرسلناه، وقلنا له: أخرج قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وأنذرهم بوقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه: أيام العرب لحروبها وملاحمها، أو بأيام الإنعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلايا ﴿شَكُورٍ﴾ على العطايا، كأنه قال لكل مؤمن إذ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ «إذ» ظرف للنعمة بمعنى الإنعام أى إنعامه عليكم ذلك الوقت، أو بدل اشتمال من نعمة الله أى: اذكروا وقت إنجائكم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ذكر فى البقرة «يذبحون» وفى الأعراف «يقتلون» بلا واو وهنا مع الواو، والحاصل أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب وبياناً له، وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث إنه زاد على جنس العذاب، كأنه جنس آخر ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى العذاب والبلاء المحنة، أو إلى الإنجاء والبلاء النعمة. ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(1).

●● ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أى آذن، ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد ولابد فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل كأنه قيل: وإذ آذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك والشبه، وهو من جملة ما قال موسى لقومه، وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم، كأنه قيل وإذ قال موسى لقومه: اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يابنى إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود، وقيل: إذا سمعت النعمة نعمة الشكر تأهبت للمزيد، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: لئن شكرتم بالجد فى الطاعة لأزيدنكم بالجد فى المثوبة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما أنعمت به عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتى أما فى الدنيا فسلب النعم، وأما فى العقبى فتوالى النقم.

●● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ﴾ يا بنى إسرائيل ﴿وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ والناس كلهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ وإن لم يحمده الحامدون وأنتم ضررتم أنفسكم حيث حرمتموها الخير الذى لابد لكم منه.

●● ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى لقومه، أو ابتداء خطاب لأهل عصر محمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ جملة من مبتدأ،

---

(1) سورة «الأنبياء»، الآية (35).

وخبر وقعت اعتراضاً، أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح، ولا يعلمهم إلا الله اعتراض، والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون، وروى أنه - عليه السلام - قال عند نزول هذه الآية: «كذب النسابون»(١). ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ الضميران يعودان إلى الكفرة أى أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجباً، أو عضوا عليها تغيظاً، أو الثانى يعود إلى الأنبياء أى رد القوم أيديهم فى أفواه الرسل كيلا يتكلموا بما أرسلوا به ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع فى الريبة.

•• ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف؛ لأن الكلام ليس فى الشك، إنما هو فى المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة، وهو جواب قولهم: وإنا لفى شك ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إذا آمنتم ولم تجىء مع من إلا فى خطاب الكافرين كقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾(٢)، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾(٣) وقال فى خطاب المؤمنين: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ إلى أن قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٤) وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء، وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين؛ ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت قد سماه وبين مقداره ﴿قَالُوا﴾ أى القوم ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لافضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ يعنى الأصنام ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتا ولجاجا.

•• ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تسليم كقولهم: إنهم بشر مثلهم. ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالإيمان والنبوة كما منَّ علينا ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ جواب لقولهم فأتونا بسلطان مبين، والمعنى أن الإتيان بالآية التى قد اقترحتموها ليس إلينا ولا فى استطاعتنا؛ وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليًا، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله فى الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وإيذائكم، ألا ترى إلى قوله:

•• ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ معناه: وأى عذر لنا فى أن لا نتوكل عليه ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾

---

(١) انظر: كنز العمال(٧/ ١٨٤٥٥).

(٢) سورة «نوح»، الآيتان (٣، ٤).

(٣) سورة «الأحقاف»، الآية (٣١).

(٤) سورة «الصف»، الآيات (١٠ - ١٢).

وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذى يجب عليه سلوكه فى الدين، قال أبو تراب[١]: التوكل طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ جواب قسم مضمر أى: حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أى فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا.

•• ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾. سبْلنا لرسْلهم أبو عمرو ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾ من ديارنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أى ليكونن أحد الأمرين إخراجكم، أو عودكم، وحلفوا على ذلك. والعود بمعنى الصيرورة، وهو كثير فى كلام العرب، أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا فى الخطاب الجماعة على الواحد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ القول مضمر أو أجرى الإيحاء مجرى القول؛ لأنه ضرب منه.

•• ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أى أرض الظالمين وديارهم. فى الحديث: «من آذى جاره ورثه الله داره»[٢]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الاهلاك والإسكان أى: ذلك الأمر حق ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفى وهو موقف الحساب، أو المقام مقحم أوخاف قيامى عليه بالعلم كقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٣] والمعنى أن ذلك حق للمتقين ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ عذابى وبالياء يعقوب.

•• ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ واستنصروا الله على أعدائهم، وهو معطوف على «أوحى إليهم» ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ وخسر كل متكبر بطر ﴿عَنِيدٍ﴾ مجانب للحق. معناه. فنصروا وظفروا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد، وهم قومهم، وقيل: الضمير للكفار، ومعناه. واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه.

•• ﴿مِّن وَرَائِهِ﴾ من بين يديه ﴿جَهَنَّمُ﴾ وهذا وصف حاله وهو فى الدنيا، لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه، وهو على شفيرها، أو وصف حاله فى الآخرة حيث يبعث ويوقف ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى ﴿مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ ما يسيل من جلود أهل النار، وصديد عطف بيان لماء؛ لأنه مبهم فبين بقوله: «صديد».

•• ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يشربه جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسيغه، فكيف تكون

---

(١) أبو تراب: هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وهى كنيته التى كناه بها رسول الله ﷺ، واشتهر بها، انظر ترجمته عند تفسير الآية (١٤٩) من سورة «آل عمران».

(٢) لم أجده فى كتب الحديث.

(٣) سورة «الرعد»، الآية (٣٣).

الإساغة كقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾[1] أى: لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى أسباب الموت من كل جهة، أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام: أى: لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكا ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لأنه لو مات لاستراح ﴿وَمِن وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أى فى كل وقت يستقبله يتلقى عذاباً أشد مما قبله وأغلظ. وعن الفضيل: «هو قطع الأنفاس وحبسها فى الأجساد».

●● ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى: فيما يتلى عليكم مثل الذين ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ والمثل مستعار للصفة التى فيها غرابة، وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول: كيف مثلهم؟ «فقيل»: أعمالهم كرماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾. الرياح مدنى. ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ جعل العصف لليوم، وهو لما فيه وهو الريح كقولك: يوم ما طر، وأعمال الكفرة المكارم التى كانت لهم من صلة الأرحام وعتق الرقاب وفداء الأسرى وعقر الإبل للأضياف وغير ذلك؛ شبهها فى حبوطها لبنائها على غير أساس، وهو الإيمان بالله تعالى - برماد طيرته الريح العاصف ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يقدر من الرماد المطير فى الريح على شىء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق، أو عن الثواب.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم؛ الخطاب لكل أحد ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خالق مضافاً حمزة وعلى ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والأمر العظيم ولم يخلقها عبثاً ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على شكلهم، أو على خلاف شكلهم إعلاما بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم.

●● ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر.

●● ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ويبرزون يوم القيامة، وإنما جىء به بلفظ الماضى؛ لأن ما أخبر به عز وجل لصدقه، كأنه قد كان ووجد. ونحوه ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[2]، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[3]، وغير ذلك، ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شىءحتى يبرز له أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك خاف علىْ الله، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية، أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ فى الرأى وهم السفلة والأتباع، وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على

(١) سورة «النور»، الآية (٤٠).
(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٤٤).
(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٥٠).

لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تابعين. جمع تابع على تبع؛ كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوى تبع والتبع الأتباع يقال تبعه تبعا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه، «مِن» الأولى للتبيين والثانية للتبعيض، كأنه قيل: فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذى هو عذاب الله، أو هما للتبعيض أى فهل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، ولما كان قول الضعفاء توبيخا لهم وعتابا على استغوائهم؛ لأنهم علموا أنهم لا يقدرون على الإغناء عنهم ﴿قَالُوا﴾ لهم مجيبين معتذرين ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان فى الدنيا لهديناكم إليه، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أى: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى أنهم يقولون فى النار: تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع، فيقولون: تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم الصبر، ثم يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، واتصاله بما قبله من حيث إن عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه، فقالوا لهم: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا؛ يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين فيها ،يقولون: ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة فى الجزع كما لا فائدة فى الصبر ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز أن يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً.

●● ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ حكم بالجنة والنار لأهليهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وروى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا على منبر من نار فيقول لأهل النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ كذبتكم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ من تسلط واقتدار ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ لكنى دعوتكم إلى الضلالة بوسوستى وتزيينى والاستثناء منقطع؛ لأن الدعاء ليس من جنس السلطان ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فأسرعتم إجابتى ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ لأن من تجرد للعداوة لا يلام إذا دعا إلى أمر قبيح، مع أن الرحمن قد قال لكم: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾(١). ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ حيث اتبعتمونى بلا حجة ولا برهان، وقول المعتزلة: هذا دليل على أن الإنسان هو الذى يختار الشقاوة، أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله إلا التمكين ولا من الشيطان إلا التزيين، باطل؛ لقوله: لو هدانا الله، أى إلى الإيمان لهديناكم كما مر ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ لا ينجى بعضنا بعضا من

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٢٧).

عذاب الله ولا يغيثه، والإصراخ: الإغاثة بمصرخيٍّ حمزة اتباعا للخاء. غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياءان بعد كسرتين، وهو جمع مصرخ فالياء الأولى ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي﴾ وبالياء بصرى، وما مصدرية ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلق بأشركتمونى أى: كفرت اليوم بإشراككم إياى مع الله من قبل هذا اليوم أى: فى الدنيا كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(١) ومعنى كفره بإشراكهم أياه: تبرؤه منه واستنكاره له كقوله: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾(٢) ومن قبل متعلق بكفرت وما موصولة أى كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله -عز وجل- تقول: أشركنى فلان أى جعلنى له شريكا ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان، وهذا آخر قول الشيطان وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قول الله عز وجل، وقيل: هو من تمام كلام إبليس وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله فى ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين.

●● ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ عطف على برزوا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بأدخل أى: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ هو تسليم بعضهم على بعض فى الجنة، أو تسليم الملائكة عليهم.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ أى وصفه وبينه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نصب بمضمر أى: جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو تفسير لقوله: ضرب الله مثلا نحو شرف الأمير زيداً كساه حلة وحمله على فرس، أو انتصب مثلا وكلمة بضرب أى: ضرب كلمة طيبة مثلا يعنى جعلها مثلا، ثم قال: كشجرة طيبة على أنها خبر مبتدأ محذوف أى هى كشجرة طيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أى فى الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وأعلاها ورأسها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان وفرعيها إقرار باللسان وأكلها عمل الأركان، وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملا فالمؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملا ولكن الأشجار لا تراد إلا للثمار فما أقوات النار إلا من الأشجار إذا اعتادت الإخفار فى عهد الاثمار، والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك، والجمهور على أنها النخلة، فعن ابن عمر أن رسول الله (ﷺ) قال ذات يوم: «إن الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبرونى ما هى» فوقع الناس فى شجر البوادىّ وكنت صبياً- فوقع فى قلبى أنها النخلة فهبت رسول الله (ﷺ) أن أقولها وأنا أصغر القوم فقال رسول الله (ﷺ): «ألا إنها النخلة» فقال عمر يا بنى: لو كنت قلتها لكانت أحب إلى من حمر النعم(٣).

---

(١) سورة «فاطر»، الآية (١٤)

(٢) سورة «الممتحنة»، الآية (٤)

(٣) متفق عليه.

•• ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ تعطى ثمرها كل وقت وقته الله لا ثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بتيسير خالقها وتكوينه ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعانى.

•• ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هى كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هى كل شجرة لا يطيب ثمرها، وفى الحديث: «أنها شجرة الحنظل»[1] ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ﴾ استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو فى مقابلة أصلها ثابت ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أى استقرار يقال قر الشىء قراراً؛ كقولك: ثبت ثبوتا شبه بها القول الذى لا يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت.

•• ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى يديمهم عليه ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ هو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حتى إذا فتنوا فى دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود وغير ذلك ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ الجمهور على أن المراد به فى القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب، فعن البراء أن رسول الله (ﷺ) ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربى الله. ودينى الإسلام. ونبيى محمد (ﷺ) فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى، فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، ثم يقول الملكان عشت سعيداً ومت حميداً نم نومة العروس»[2]. ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ فلا يثبتهم على القول الثابت فى مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شىء، وهم فى الآخرة أضل وأزل ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ فلا اعتراض عليه فى تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين.

•• ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أى شكر نعمة الله ﴿كُفْرًا﴾ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد ـ عليه السلام ـ فكفروا نعمة الله بدل مالزمهم من الشكر ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ الذين تابعوهم على الكفر ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دار الهلاك.

•• ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ وبئس المقر جهنم.

•• ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالا فى العبادة، أو فى التسمية ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ وبفتح الياء مكى وأبو عمرو ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ فى الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية، وقال ذو النون: التمتع أن يقضى العبد ما استطاع من شهوته ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ مرجعكم إليها.

---

(١) رواه ابن جرير عن مجاهد.

(٢) أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة.

●● ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خصهم بالإضافة إليه تشريفاً وبسكون الياء شامى وحمزة وعلى والأعشى ﴿يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ المقول محذوف؛ لأن قل تقتضى مقولا وهو أقيموا، وتقديره قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقو يقيموا الصلاة وينفقوا، وقيل: إنه أمر وهو المقول، والتقدير ليقيموا ولينفقوا فحذف اللام لدلالة قل عليه، ولو قيل: يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز ﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ انتصبا على الحال أى ذوى سر وعلانية يعنى مسرين ومعلنين، أو على الظرف أى وقتى سر وعلانية، أو على المصدر أى إنفاق علانية والمعنى إخفاء التطوع وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾ أى لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة والخلال المخالة وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله. بفتحهما مكى وبصرى والباقون بالرفع والتنوين.

●● ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ خبره ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب مطرا ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ من الثمرات بيان للرزق أى: أخرج به رزقاً هو ثمرات أو من الثمرات مفعول أخرج ورزقًا حال من المفعول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾.

●● ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ دائمين وهو حال من الشمس والقمر، أى يدأبان فى سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان خلفة لمعاشكم وسباتكم.

●● ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من للتبعيض أى: آتاكم بعض جميع ما سألتموه، أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه، فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية؛ لأن الباقى يدل على المحذوف كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾(١) من كلٍّ عن أبى عمرو وما سألتموه نفى ومحله النصب على الحال أى آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، أو ما موصولة، أى وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا الله ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ﴾ بظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران لها أو ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع كفار فى النعمة يجمع ويمنع والإنسان للجنس فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر إذ قال إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ أى البلد الحرام ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن والفرق بين هذه وبين ما فى البقرة أنه قد سأل فيها أن يجعله من جملة البلدان التى يأمن

---

(١) سورة «النحل»، الآية (٨١).

أهلها، وفى الثانى أن يخرجه من صفة الخوف إلى الأمن؛ كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ وبعدنى أى ثبتنى وأدمنى على اجتناب عبادتها كما قال ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾(1) أى ثبتنا على الإسلام ﴿وَبَنِيَّ﴾ أراد بنيه من صلبه ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ من أن نعبد الأصنام.

•• ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ جعلن مضلات على طريق التسبيب؛ لأن الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على ملتى وكان حنيفاً مسلما مثلى ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أى هو بعضى لفرط اختصاصه بى ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ومن عصانى عصيان شرك فإنك غفور رحيم إن تاب وآمن.

•• ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعض أولادى وهم إسماعيل ومن وُلد منه ﴿بِوَادٍ﴾ هو واد مكة ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا يكون فيه شىء من زرع قط ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ هو بيت الله سمى به؛ لأن الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه، أو لأنه لم يزل ممنعاً يهابه كل جبار، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها، أو لأنه حرم على الطوفان أى منع منه كما سمى عتيقا، لأنه أعتق منه ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ اللام متعلقة بأسكنت أى ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أفئدة من أفئدة الناس، ومن للتبعيض لما روى عن مجاهد لو قال: أفئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند، أو للابتداء كقولك: القلب منى سقيم تريد قلبى فكأنه قيل أفئدة ناس ونكرت المضاف إليه فى هذا التمثيل لتنكير أفئدة؛ لأنها فى الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم من البلاد الشاسعة وتطير نحوهم شوقاً ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ مع سكناهم واديا ما فيه شىء منها بأن تجلب إليهم من البلاد الشاسعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة فى أن يرزقوا أنواع الثمرات فى واد ليس فيه شجر ولا ماء.

•• ﴿رَبَّنَا﴾ النداء المكرر دليل التضرع واللجإ إلى الله ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلم السر كما تعلم العلن ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أو من كلام إبراهيم، ومن للاستغراق كأنه قيل: وما يخفى على الله شىء ما.

•• ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ على بمعنى مع، وهو فى موضع الحال أى وهب لى وأنا كبير ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ روى أن إسماعيل ولد له ـ وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له إسحق ـ وهو ابن مائة وثنتى عشرة سنة ـ وروى أنه ولد له إسمعيل لأربع وستين وإسحق لتسعين، وإنما ذكر حال الكبر؛ لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم؛ لأنها حال وقوع اليأس من الولادة

(1) سورة «البقرة»، الآية (١٢٨).

بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ولأن الولادة فى تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان إذا تلقاه بالإجابة والقبول، ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(١) فشكر الله ما أكرمه به من إجابته وإضافة السميع إلى الدعاء من إضافة الصفة إلى مفعولها وأصله لسميع الدعاء، وقد ذكر سيبويه فعيلا فى جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم أباه.

●● ﴿رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ وبعض ذريتى عطفا على المنصوب فى اجعلنى وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون فى ذريته كفار، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ بالياء فى الوصل والوقف مكى، وافقه أبو عمرو وحمزة فى الوصل الباقون بلا ياء أى: استجب دعائى أو عبادتى وأعتزلكم وما تدعون من دون الله.

●● ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ﴾ أى: آدم وحواء، أو قاله قبل النهى واليأس عن إيمان أبويه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يثبت أو أسند إلى الحساب قيام أهله إسنادا مجازيا مثل ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(٢) ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول ـ عليه السلام ـ وإن كان للرسول فالمراد تثبيته ـ عليه السلام- على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا، كقوله: ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾(٣) وكما جاء فى الأمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٤) وقيل المراد به الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شىء وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد، كقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(٥) ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عقوبتهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ أى: أبصارهم لا تقر فى أماكنها من هول ما ترى.

●● ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعى ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ صفر من الخير لا تعى شيئا من الخوف الهواء الخلاء الذىّ لم تشغله الأجرام فوصف به، فقيل: قلب فلان هواء إذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جراءة وقيل: جُوف لا عقول لهم.

---

(١) سورة «الصافات»، الآية (١٠٠).

(٢) سورة «يوسف»، الآية (٨٢).

(٣) سورة «القصص»، الآية (٨٨).

(٤) سورة «النساء»، الآية (١٣٦).

(٥) سورة «البقرة»، الآية (٢٨٣).

•• ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أى يوم القيامة ويوم مفعول ثان لأنذر لاظرف، إذ الإنذار لا يكون فى ذلك اليوم ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى الكفار ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ أى ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحدّ من الزمان قريب نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أى حلفتم فى الدنيا أنكم إذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرتم بالبعث، كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾(١) ومالكم جواب القسم، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله: أقسمتم ولو حكى لفظ المقسمين لقيل مالنا من زوال أو أريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فإنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب.

يقال: سكن الدار وسكن فيها، ومنه ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر؛ لأن السكنى من السكون وهو اللبث والأصل تعديته بفى نحو قر فى الدار وأقام فيها، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه، فقيل: سكن الدار، كما قيل: تبوأها، ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أى: قروا فيها واطمأنوا طيبى النفوس سائرين سيرة من قبلهم فى الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقى الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالأخبار، أو المشاهدة وفاعل تبين مضمر دل عليه الكلام، أى تبين لكم حالهم و ﴿كَيْفَ﴾ ليس بفاعل؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، وإنما نصب كيف بقوله: ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أى: أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أى: صفات ما فعلوا وما فعل بهم، وهى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

•• ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أى: مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم، وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وبطلان الإسلام ﴿وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ وهو مضاف إلى الفاعل كالأولى، والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو إلى المفعول أى عند الله مكرهم الذى يمكرهم به وهو عذابهم الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ بكسر اللام الأولى ونصب الثانية، والتقدير: وإن وقع مكرهم لزوال أمر النبى (ﷺ) فعبر عن النبى - عليه السلام - بالجبال لعظم شأنه وكان تامة وإن نافية واللام مؤكدة لها، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾(٢) والمعنى ومحال أن تزول الجبال بمكرهم على أن الجبال مثل لآيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا، دليله قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم وبفتح

(١) سورة «النحل»، الآية (٣٨).

(٢) سورة «الأنفال»، الآية (٣٣).

اللام الأولى ورفع الثانية عليٌّ، أى: وإن كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن أمكانها فإن مخففة من إن واللام مؤكدة.

●● ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ يعنى قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[١] ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[٢] مخلف مفعول ثان لتحسبن وأضاف مخلف إلى وعده وهو المفعول الثانى له والأول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وإنما قدم المفعول الثانى على الأول ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا؛ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[٣] ثم قال رسله ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

●● وانتصاب ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ على الظرف للانتقام، أو على إضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الأرض التى تعرفونها أرضا أخرى غير هذه المعروفة وتبدل السماوات غير السماوات، وإنما جذف لدلالة ما قبله عليه والتبديل التغيير وقد يكون فى الذوات، كقولك: بدلت الدراهم دنانير وفى الأوصاف، كقولك: بدلت الحلقة خاتما إذا أذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل إلى شكل واختلف فى تبديل الأرض والسماوات فقيل تبدل أوصافها وتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هى تلك الأرض، وإنما تغير. وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا وقيل تخلق بدلها أرض وسماوات أخرى وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة[٤]، وعن على ـ رضى الله عنه ـ تبدل أرضا من فضة وسماوات من ذهب[٥] ﴿وَبَرَزُوا﴾ وخرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ هو كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[٦] ؛ لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لأحد إلى غيره كان الأمر فى غاية الشدة.

●● ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض، أو مع الشياطين أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغللين ﴿فِي الأَصْفَادِ﴾ متعلق بمقرنين أى يقرنون فى الأصفاد، أو غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين، والأصفاد القيود أو الأغلال.

---

(١) سورة «غافر»، الآية (٥١).

(٢) سورة «المجادلة»، الآية (٢١).

(٣) سورة «آل عمران» (٩)، والرعد (٣١).

(٤) رواه الطبرى من طرق عدة وألفاظ متقاربة.

(٥) الطبرى عن على: الأرض من فضة، والجنة من ذهب.

(٦) سورة «غافر»، الآية (١٦).

●● ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قمصهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ فيهنأ به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته وإسراع النار فى جلودهم، واللون الوحش ونتن الريح على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكل ما وعده الله، أو أوعد به فى الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه مالا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه «من قطران» زيد عن يعقوب: نحاس مذاب بلغ حره إناه ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ تعلوها باشتعالها وخص الوجه؛ لأنه أعز موضع فى ظاهر البدن كالقلب فى باطنه ولذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾[1].

●● ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أى: يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزى كل نفس مجرمة ما كسبت، أو كل نفس من مجرمة، أو مطيعة؛ لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المؤمنين بطاعتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر.

●● ﴿هَٰذَا﴾ أى ما وصفه فى قوله: «ولا تحسبن» إلى قوله: «سريع الحساب» ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفاية فى التذكير والموعظة ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أى: لينصحوا ولينذروا ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد؛ لأن الخشية أم الخير كله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول.

---

(١) سورة «الهمزة»، الآية (٧).

(سورة الحجر تسع وتسعون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والكتاب والقرآن المبين: السورة، وتنكير القرآن للتفخيم ، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل فى كونه كتابا وأى قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال وللغرابة فى البيان.

•• ﴿رُّبَمَا﴾ بالتخفيف مدنى وعاصم. وبالتشديد غيرهما، و«ما» هى الكافة؛ لأنها حرف يجر ما بعده ويختص بالاسم النكرة؛ فإذا كفت وقع بعدها الفعل الماضى والاسم، وإنما جاز ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأن المترقب فى إخبار الله تعالى بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه، فكأنه قيل: ربما ود. ووداداتهم تكون عند النزع، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين، أو إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلما، كذا روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة؛ لأنهم مخبر عنهم كقولك: حلف بالله ليفعلن ولو قيل: حلف بالله لأفعلن ولو كنا مسلمين لكان حسنا وإنما قلل برب لأن أهوال القيامة تشغلهم عن التمنى، فإذا أفاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين، وقول من قال إن رب يعنى بها الكثرة سهو، لأنه ضد ما يعرفه أهل اللغة، لأنها وضعت للتقليل.

•• ﴿ذَرْهُمْ﴾ أمر إهانة أى: اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ ويشغلهم أملهم وأمانيهم عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

•• ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ ولها كتاب جملة واقعة صفة لقرية، والقياس أن لا تتوسط الواو بينهما كما ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾[1] وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف، إذا لصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجيء بالواو تأكيدا لذلك، والوجه أن تكون هذه الجملة حالا لقرية لكونها فى حكم الموصوفة، كأنه قيل: وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفا، وقوله: كتاب معلوم أي مكتوب معلوم، وهو أجلها الذى كتب فى اللوح المحفوظ وبين ألاّ ترى إلى قوله.

•• ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ فى موضع كتابها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أى: عنه وحذف لأنه معلوم وأنث الأمة أولا، ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ والمعنى.

•• ﴿وَقَالُوا﴾ أى: الكفار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أى: القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ يعنون

---

(١) سورة «الشعراء»، الآية (٢٠٨).

محمدا ـ عليه السلام ـ وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾(١) وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون والتعكيس فى كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢) ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(٣) والمعنى إنك لتقول قول المجانين حيث تدعى أن الله نزل عليك الذكر ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لو ركبت مع لا وما لامتناع الشيء لوجود غيره، أو للتحضيض وهل ركبت مع لا للتحضيض فحسب، والمعنى هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك، أو هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقا.

•• ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ كوفى غير أبى بكر. تُنَزَّل الملائكة أبو بكر تَنَزَّل الملائكة- أى: تتنزل غيرهم ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزيلا ملتبسا بالحكمة ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ إذا جواب لهم وجزاء الشرط مقدر، تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين إذا، وما أخر عذابهم.

•• ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ للقرآن ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وهو رد لإنكارهم واستهزائهم فى قولهم: يا أيها الذى نزل عليه الذكر؛ ولذلك قال: «إنا نحن» فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع وأنه هو الذى نزله محفوظا من الشياطين وهو حافظه فى كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيين والأحبار، فاختلفوا فيما بينهم بغيا فوقع التحريف ولم يكل القرآن إلى غير حفظه، وقد جعل قوله: «وإنا له لحافظون» دليلا على أنه منزل من عنده آية إذ لو كان من قول البشر، أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه، أو الضمير فى له لرسول الله (ﷺ) كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾(٤).

•• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا فى الفرق الأولين، والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة.

•• ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن مالا تدخل على المضارع إلا وهو فى معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعزى نبيه، عليه السلام.

•• ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: كما سلكنا الكفر، أو الاستهزاء فى شيع الأولين نسلكه أى الكفر، أو الاستهزاء فى قلوب المجرمين من أمتك من اختار ذلك يقال: سلكت الخيط فى الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها، وهو حجة على المعتزلة فى الأصلح وخلق الأفعال.

---

(١) سورة «الشعراء»، الآية (٢٧).

(٢) آل عمران (٢١)، والتوبة (٣٤)، والانشقاق (٢٤).

(٣) سورة «هود»، الآية (٨٧).

(٤) سورة «المائدة»، الآية (٦٧).

•• ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالله، أو بالذكر وهو حال ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ مضت طريقتهم التى سنها الله فى إهلاكهم حين كذبوا رسله، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم.

•• ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ولو أظهرنا لهم أوضح آية، وهو فتح باب من السماء ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون.

•• ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ حيرت أوحبست من الإبصار من السكر أو من السكر، سكرت مكى أى حبست كما يحبس النهر من الجرى، والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا: هو شىء تتخايله لا حقيقة له ولقالوا ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك، أو الضمير للملائكة أى: لو أريناهم الملائكة يصعدون فى السماء عيانا لقالوا ذلك وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون، وقال إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيرا للأبصار.

•• ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ﴾ خلقنا فيها ﴿بُرُوجًا﴾ نجوما، أو قصورا فيها الحرس، أو منازل للنجوم ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أى: السماء ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾.

•• ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أى: السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ ملعون أو مرمى بالنجوم.

•• ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أى المسموع، ومن فى محل النصب على الاستثناء ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ نجم ينقض فيعود ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين، قيل: كانوا لا يحجبون عن السماوات كلها فلما ولد عيسى ـ عليه السلام ـ منعوا من ثلاث سماوات فلما ولد محمد (ﷺ) منعوا من السماوات كلها.

•• ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها من تحت الكعبة، والجمهور على أنه تعالى مدها على وجه الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ﴾ فى الأرض جبالا ثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان أوله وزن وقدر فى أبواب المنفعة والنعمة، أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها وخص ما يوزن لانتهاء الكيل إلى الوزن.

•• ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ فى الأرض ﴿مَعَايِشَ﴾ ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة، وهى بياء صريحة بخلاف الخبائث ونحوها فإن تصريح الياء فيها خطأ ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ من فى محل النصب بالعطف على معايش، أو على محل لكم، كأنه قيل: وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين أو جعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين، وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرزاق يرزقهم وإياهم ويدخل فيه

الأنعام والدواب ونحو ذلك، ولا يجوز أن يكون محل من جراً بالعطف على الضمير المجرور فى لكم؛ لأنه لا يعطف على الضمير بالمجرور إلا بإعادة الجار.

•• ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شىء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره على كل مقدور.

•• ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ جمع لاقحة أى: وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب؛ لأنها تحمل السحاب فى جوفها كأنها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم. الريح حمزة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ فجعلناه لكم سقيا ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ نفى عنهم ما أثبته لنفسه فى قوله: وإن من شىء إلا عندنا خزائنه، كأنه قال: نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون على خلقه فى السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم.

•• ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أى: نحيى بالإيجاد ونميت بالإفناء، أو نميت عند انقضاء الآجال ونحيى لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ الواو للجمع المطلق ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلق كلهم وقيل للباقى وارث استعارة من وارث الميت؛ لأنه يبقى بعد فنائه.

•• ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من تقدم ولادة وموتا ومن تأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الإسلام، أو فى الطاعة، أو فى صف الجماعة، أو فى صف الحرب ومن تأخر.

•• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أى: هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ باهر الحكمة، واسع العلم.

•• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ اى آدم ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفة لصلصال أى: خلقه من صلصال كائن من حمإ أى طين أسود متغير ﴿مَّسْنُونٍ﴾ مصور وفى الأول كان ترابا فعجن بالماء فصار طينا، فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة فصور، ويبس فصار صلصالا فلا تناقض.

•• ﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن كآدم للناس، أوهو إبليس، وهو منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل آدم ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ من نار الحر الشديد النافذ فى المسام، قيل: هذه السموم جزء من سبعين جزأ من سموم النار التى خلق الله منها الجان.

•• ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

●● ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وجعلت فيه الروح وأحييته، وليس ثمة نفخ، وإنما هوتمثيل والإضافة للتخصيص ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ هو أمر من وقع يقع أى اسقطوا على الأرض يعنى: اسجدوا له، ودخل الفاء؛ لأنه جواب إذا، وهو دليل على أنه يجوز تقدم الأمر عن وقت الفعل.

●● ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله كلهم، وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله أجمعون.

●● ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ظاهر الاستثناء يدل على أنه كان من الملائكة؛ لأن المستثنى يكون من جنس المستثنى منه، وعن الحسن أن الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة، قلنا غير المأمور لا يصير بالترك ملعونا، وقال فى الكشاف: كان بينهم مأمورا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثنى بعد التغليب كقولك: رأيتهم إلا هندا ﴿أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ امتنع أن يكون معهم وأبى استئناف على تقدير قول قائل يقول هلا سجد فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه، وقيل: معناه ولكن إبليس أبى.

●● ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ حرف الجر مع أن محذوف تقديره مالك فى أن لا تكون مع الساجدين أى: أى غرض لك فى إبائك السجود.

●● ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفى أى: لا يصح منى أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

●● ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من السماء، أو من الجنة، أو من جملة الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون؛ لأن اللعنة هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها.

●● ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ضرب يوم الدين حدا للعنة؛ لأنه أبعد غاية يضربها الناس فى كلامهم والمراد به إنك مذموم مدعو عليك باللعنة فى السماوات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه.

●● ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ فأخرنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

●● ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم فى معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة، وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذى فيه يبعثون لئلا يموت؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب إلى ذلك وأنظر إلى آخر أيام التكليف.

●● ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم، ومعنى أقسم

بإغوائك إياى ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ المعاصى ونحوه قوله بما أغويتنى لأزين لهم. ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾(1) فى أنه إقسام إلا أن أحدهما إقسام بصفه الذات والثانى بصفة الفعل، وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون: الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين، والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين، والأصح أن الأيمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا ومالا فلا والآية حجة على المعتزلة فى خلق الأفعال. وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ فى الدنيا التى هى دار الغرور، وأراد إنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الأكل من الشجرة وهو فى السماء، فأنا على التزيين لأولاده فى الأرض أقدر ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

●● ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام بصرى ومكى وشامى استثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه.

●● ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أى: هذا طريق حق علىّ أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادى إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل: معنى على إلى على يعقوب من علو الشرف والفضل.

●● ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الضمير للغاوين.

●● ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ نصيب معلوم مفرز قيل: أبواب النار أطباقها وأدراكها فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون والثانى لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين.

●● ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وبضم العين مدنى وبصرى وحفص. المتقى على الإطلاق من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه، وقال فى الشرح: إن دخل أهل الكبائر فى قوله: لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فالمراد بالمتقين الذين اتقوا الكبائر، وإلا فالمراد به الذين اتقوا الشرك.

●● ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أى: يقال لهم ادخلوها ﴿بِسَلامٍ﴾ حال أى سالمين أو مسلماً عليكم تسلم عليكم الملائكة﴿آمِنِينَ﴾ من الخروج منهما والآفات فيها، وهوحال أخرى.

●● ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ وهو الحقد الكامن فى القلب أى: إن كان لأحدهم غل فى الدنيا على آخر نزع الله ذلك فى الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن على ـ رضى الله عنه ـ: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم(2)، وقيل: معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التواد والتحابب ﴿إِخْوَانًا﴾ حال ﴿عَلَى سُرُرٍ

(1) سورة «ص»، الآية (82).

(2) أخرجه الطبرى من طرق عدة.

﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ كذلك قيل: تدور بهم الأسرة حيثما داروا فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضاً.

●● **﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾** فى الجنة تعب **﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾** فتمام النعمة بالخلود.

●● ولما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه **﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾** تقريراً لما ذكر وتمكينا له فى النفوس، قال - عليه السلام - : «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه فى العبادة ولما أقدم على ذنب»(١).

وعطف **﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾** وأخبر أمتك. عطفه على نبىء عبادى ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الأليم **﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾** أى: أضيافه وهو جبريل - عليه السلام - مع أحد عشر ملكا والضيف يجىء واحد وجمعا؛ لأنه مصدر ضافه.

●● **﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا﴾** أى نسلم عليك سلاما، أو سلمنا سلاما **﴿قَالَ﴾** أى: إبراهيم **﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾** خائفون لامتناعهم من الأكل، أو لدخولهم بغير إذن وبغير وقت.

●● **﴿قَالُوا لا تَوْجَلْ﴾** لا تخف **﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾** استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل أى إنك مبشر آمن فلا توجل. وبالتخفيف وفتح النون حمزة **﴿بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾** هو إسحق لقوله فى سورة هود: **﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾**(٢).

●● **﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾** أى: أبشرتمونى مع مس الكبر بأن يولد لى أى: أن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر **﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾** هى ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب؛ كأنه قيل: فبأى أعجوبة تبشرون، وبكسر النون والتشديد مكى والأصل تبشروننى فأدغم نون الجمع فى نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها. تبشرون بالتخفيف نافع، والأصل تبشروننى فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين، والباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع.

●● **﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾** باليقين الذى لا لبس فيه **﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾** من الآيسين من ذلك.

●● **﴿قَالَ﴾** إبراهيم **﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾** وبكسر النون بصرى وعلى **﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾** إلا

---

(١) أخرجه الطبرى بلفظه عن قتادة، وليس فيه (فى العبادة ولما أقدم على ذنب).

(٢) سورة «هود»، الآية (٧١).

المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون كقوله: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(١) أى: لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجراها.

•• ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ فما شأنكم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

•• ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أى: قوم لوط.

•• ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ يريد أهله المؤمنين والاستثناء منقطع؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام والمستثنى ليس كذلك أو متصل فيكون استثناء من الضمير فى مجرمين، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم، والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين؛ لأن آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال، يعنى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا، ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين كإرسال السهم إلى المرمى فى أنه فى معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوماً مجرمين ولكن آل لوط أنجيناهم، وأما فى المتصل فهم داخلون فى حكم الإرسال؛ يعنى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، وإذا انقطع الاستثناء جرى ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مجرى خبر لكن فى الاتصال بآل لوط؛ لأن المعنى لكن آل لوط منجون وإذا اتصل كان كلاما مستأنفا كأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال لهم: فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم.

•• ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ﴾ مستثنى من الضمير المجرور فى لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه بأن يقول: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان؛ لأن إلا آل لوط متعلق بأرسلنا أو بمجرمين، وإلا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء. لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلى ﴿قَدَّرْنَا﴾ وبالتخفيف أبو بكر ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين فى العذاب، قيل: لو لم تكن اللام فى خبرها لوجب فتح إن لأنه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(٢) وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما يقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك.

•• ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى: لا أعرفكم أى: ليس عليكم زى السفر ولا أنتم من أهل الحضر فأخاف أن تطرقونى بِشَرٍّ.

•• ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه

---

(١) سورة «يوسف»، الآية (٨٧).

(٢) سورة «الصافات»، الآية (١٥٨).

سرورك وتشفيك من أعدائك وهو العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أى يشكون ويكذبونك.

●● ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فى الإخبار بنزوله بهم.

●● ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فى آخر الليل، أو بعد ما يمضى شىء صالح من الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وسر خلفهم لتكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التوانى والتوقف؛ لأن من يلتفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ حيث أمركم الله بالمضى إليه، وهو الشام، أو مصر.

●● ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ عدى قضينا بإلى؛ لأنه ضمن معنى أوحينا كأنه قيل وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً وفسر ذلك الأمر بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ وفى إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر ودابرهم آخرهم أى: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ وقت دخولهم فى الصبح، وهو حال من هؤلاء.

●● ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ سدوم التى ضرب بقاضيها المثل فى الجور ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بالملائكة طمعاً منهم فى ركوب الفاحشة.

●● ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفى؛ لأن من أساء إلى ضيفى فقد أساء إلى.

●● ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أى: ولا تذلونى بإذلال ضيفى من الخزى وهو الهوان. وبالياء فيهما يعقوب.

●● ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ عن أن تجير منهم أحداً أو تدفع عنهم فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان ـ عليه السلام ـ يقوم بالنهى عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾(١) أو عن ضيافة الغرباء.

●● ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزا، ولا تتعرضوا لهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم فقالت الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ :.

●● ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أى: فى غوايتهم التى أذهبت عقولهم، وتمييزهم بين الخطإ الذى هم عليه وبين الصواب الذى تشير به عليهم من ترك البنين إلى البنات ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون

---

(١) سورة «الشعراء»، الآية (١٦٧).

فيكيف يقبلون قولك: ويصغون إلى نصيحتك أو الخطاب لرسول الله (ﷺ) وهو قسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط تعظيما له والعُمر والعَمر واحد وهو البقاء إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح إيثارا للأخف لكثرة دور الحلف على ألسنتهم، ولذا حذفوا الخبر، وتقديره لعمرك قسمى.

●● ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين فى الشروق، وهو بزوغ الشمس.

●● ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ رفعها جبريل ـ عليه السلام ـ إلى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

●● ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرسين المتأملين كأنهم يعرفون باطن الشىء بسمة ظاهرة.

●● ﴿وَإِنَّهَا﴾ وإن هذه القرى يعنى آثارها ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد. وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾[1].

●● ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفعون بذلك.

●● ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وإن الأمر والشأن كان أصحاب الأيكة أى الغيضة ﴿لَظَالِمِينَ﴾ لكافرين وهم قوم شعيب، عليه السلام.

●● ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأهلكناهم لما كذبوا شعيباً ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعنى قرى قوم لوط والأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لبطريق واضح والإمام اسم ما يؤتم به فسمى به الطريق ومطمر البناء[2]؛ لأنهما مما يؤتم به.

●● ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعنى بتكذيبهم صالحاً؛ لأن كل رسول كان يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً فمن كذب واحدا منهم فكأنما كذبهم جميعاً، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين، كما قيل الخبيبون فى ابن الزبير[3] وأصحابه.

(١) سورة «الصافات»، الآيتان (١٣٧، ١٣٨).

(٢) مطمر البنَّاء: هو خيط للبناء، يقدر به.
القاموس (٢/ ٧٦).

(٣) هو الصحابى، ابن حوارى رسول الله ﷺ: عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد، الأسدى، أبو بكر، القرشى، أمه أسماء بنت أبى بكر، هاجرت به أمه جنيناً فولد بعد الهجرة؛ فكان أول مولود فى الإسلام بالمدينة من قريش، بويع له بالخلافة سنة ٦٤هـ، بعد موت يزيد بن معاوية، حتى قتل بمكة عام ٧٣هـ، وسمى لذلك عام الجماعة الثانى، لاجتماع المسلمين على خليفة واحد.
تهذيب التهذيب (٣/ ١٤١، ١٤٢).

•• ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أى: أعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها.

•• ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أى ينقبون فى الجبال بيوتاً، أو يبنون من الحجارة ﴿آمِنِينَ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها من أن تهدم ومن نقب اللصوص والأعداء، أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميهم منه.

•• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ العذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ فى اليوم الرابع وقت الصبح.

•• ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الأموال النفيسة.

•• ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقا ملتبسا بالحق لا باطلا وعبثا أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ أى: القيامة لتوقعها كل ساعة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عنهم إعراضا جميلا بحلم وإغضاء، قيل: هو منسوخ بآية السيف وإن أريد به المخالقة فلا يكون منسوخا.

•• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الذى خلقك وخلقهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم، وهو يحكم بينكم.

•• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ أى سبع آيات وهى الفاتحة أو سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة، فقيل: الأنفال وبراءة لأنهما فى حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما، وقيل: سورة يونس أو أسباع القرآن ﴿مِّنَ الْمَثَانِي﴾ هى من التثنية وهى التكرير؛ لأن الفاتحة مما يتكرر فى الصلاة، أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله والواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء، كأنها تثنى على الله وإذا جعلت السبع مثانى فمن للتبيين، وإذا جعلت القرآن مثانى فمن للتبعيض ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ هذا ليس بعطف الشىء على نفسه؛ لأنه إذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾[1] يعنى سورة يوسف، وإذا أريد به الأسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم أى الجامع لهذين النعتين وهو التثنية، أو الثناء والعظم.

•• ثم قال لرسوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أى لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعنى قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة، وهى القرآن العظيم فعليك أن تستغنى به ولا تمدن

(١) سورة «يوسف»، الآية (٣).

عينيك إلى متاع الدنيا، وفى الحديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1]. وحديث أبى بكر: «من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا»[2]. ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أى لا تتمن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام والمسلمون ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفساً عن إيمان الأغنياء.

•• ﴿وقل﴾ لهم ﴿إنى أنا النذير المبين﴾ أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم.

•• ﴿كما أنزلنا﴾ متعلق بقوله ولقد آتيناك أى: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا ﴿على المقتسمين﴾ وهم أهل الكتاب.

•• ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء، حيث قالوا بعنادهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما فاقتسموه إلى حق وباطل وعضوه، وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لى، ويقول الآخر سورة آل عمران لى، أو أريد بالقرآن ما يقرءونه من كتبهم وقد اقتسموه فاليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير أى: أنذر المعضين الذين يجزّئون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين، وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعدوا فى كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله (ﷺ) يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر ويقول الآخر كذاب والآخر شاعر فأهلكهم الله. ولا تمدن عينيك على الوجه الأول اعتراض بينهما؛ لأنه لما كان ذلك تسلية لرسول الله (ﷺ) عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار لمعنى التسلية من النهى عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الأمر بأن يقبل بكليته على المؤمنين.

•• ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين ﴿٩٢﴾ عما كانوا يعملون﴾ أقسم بذاته وربوبيته ليسألن يوم القيامة واحداً واحداً من هؤلاء المقتسمين عما قالوه فى رسول الله (ﷺ) أو فى القرآن أو فى كتب الله.

•• ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً من الصديع، وهو الفجر، أو فاصدع فافرق بين الحق والباطل من الصدع فى الزجاجة وهو الإبانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به.

•• ﴿وأعرض عن المشركين﴾ هو أمر استهانة بهم.

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة.

(٢) انظر كنز العمال ١/٢٣١٧.

•• ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ الجمهور على أنها نزلت فى خمسة نفر كانوا يبالغون فى إيذاء رسول الله (ﷺ) والاستهزاء به فأهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة[١] مر بنبّال فتعلق بثوبه سهم فأصاب عرقا فى عقبه فقطعه فمات، والعاص بن وائل[٢] دخل فى أخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات، والأسود بن المطلب[٣] عمى، والأسود بن عبد يغوث جعل[٤] ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، والحارث بن قيس[٥] استخط قيحا ومات.

•• ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم يوم القيامة.

•• ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك، أو فى القرآن، أو فى الله.

•• ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ فافزع فيما نابك إلى الله والفزع إلى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم.

•• ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ ودم على عبادة ربك ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أى: الموت يعنى ما دمت حيا فاشتغل بالعبادة، وكان رسول الله (ﷺ) إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٦].

---

(١) الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبدشمس، من سادات قريش فى الجاهلية، ومن قضاة العرب، وكان من أعداء الدعوة، ونزلت فيه آيات كثيرة، وهو والد خالد بن الوليد، رضى الله عنه مات الوليد فى السنة الأولى عن ٩٦سنة.
الأعلام (٨/ ١٢٢).

(٢) العاص بن وائل بن هاشم السهمى، القرشى، والد عمر وبن العاص ـ رضى الله عنه ـ وهو أحد الحكام فى الجاهلية أدرك الإسلام فعاداه ولم يسلم مات عام ٣هـ.
الأعلام (٣/ ٢٤٧).

(٣) الأسود بن المطلب من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى، أبو زمعة، كان من المستهزئين، دعا عليه النبى ـ ﷺ ـ بالعمى فعمى.

(٤) الأسود بن عبد يغوث: ابن خال رسول الله ـ ﷺ ـ مات من استسقاء بطنه.

(٥) الحارث بن قيس بن عدى بن سهم بن خزاعة من أشراف قومه، كان من المستهزئين بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

(٦) أخرجه الطبرى فى تفسيره من حديث حذيفة بهذا اللفظ.

(سورة النحل مكية، وهى مائة وثمان وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد؛ فقيل لهم: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى: هو بمنزلة الآتى الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن إشراكهم، فما موصولة، أو مصدرية واتصال هذا باستعجالهم من حيث إن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك.

●● ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ وبالتخفيف مكى وأبو عمرو ﴿بِالرُّوحِ﴾ بالوحى أو بالقرآن؛ لأن كلا منهما يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد، أو يحيى القلوب الميتة بالجهل ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا﴾ أن مفسرة لأن تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول، ومعنى أنذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أعلموا بأن الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته والمعنى أعلموا الناس قولى لا إله إلا أنا فاتقون: فخافون. وبالياء يعقوب.

●● ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وهو قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وبالتاء فى الموضعين حمزة وعلى، وخلق الإنسان وما يكون منه وهو قوله.

●● ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أى: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعدما كان نطفة لا حس به ولا حركة، أو فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(١) وهو وصف للإنسان بالوقاحة والتمادى فى كفران النعمة وخلق ما لابد منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وحمل أثقاله وسائر حاجاته وهو قوله.

●● ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ هى الأزواج الثمانية وأكثر ما يقع على الإبل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾(٢) أو بالعطف على الإنسان أى: خلق الإنسان والأنعام، ثم قال خلقها لكم أى ما خلقها إلا لكم يا جنس الإنسان ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر ﴿وَمَنَافِعُ﴾ وهى نسلها ودرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قدم الظرف، وهو يؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها؛ لأن الأكل منها هو الأصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجارى مجرى التفكه.

---

(١) سورة «يس»، الآية (٧٨).

(٢) سورة «يس»، الآية (٣٩).

•• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشى ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ترسلونها بالغداة إلى مسارحها مَنَّ الله تعالى بالتجمل بها كما مَنَّ بالانتفاع بها؛ لأنه من أغراض أصحاب المواشى؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس وإنما قدمت الإراحة على التسريح؛ لأن الجمال فى الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع.

•• ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ وبفتح الشين أبو جعفر، وهما لغتان فى معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقا وحقيقته راجعة إلى الشق الذى هو الصدع، وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد والمعنى، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الإبل إلا بجهد ومشقة فضلا أن تحملوا أثقالكم على ظهوركم، أو معناه لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس وقيل أثقالكم أبدانكم، ومنه الثقلان للجن والإنس ومنه ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(١) أى بنى آدم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

•• ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ عطف على الأنعام أى وخلق هذه للركوب والزينة، وقد احتج أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ على حرمة أكل لحم الخيل بأنه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعدما ذكره فى الأنعام، ومنفعة الأكل أقوى، والآية سيقت لبيان النعمة، ولا يليق بالحكيم أن يذكر فى مواضع المنة أدنى النعمتين ويترك أعلاهما، وانتصاب زينة على المفعول له عطفا على محل لتركبوها وخلق مالا تعلمون من أصناف خلائقه وهو قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ومن هذا وصفه يتعالى عن أن يشرك به غيره.

•• ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ المراد به الجنس ولذا قال ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أى: مستقيم كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق عليه كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾(٢) وليس ذلك للوجوب إذ لا يجب على الله شىء ولكن يفعل ذلك تفضلا وقيل معناه وإلى الله وقال الزجاج: معناه: وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء إليه بالحجج، ومنها جائر أى: من السبيلّ مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أراد هداية اللطف بالتوفيق والإنعام بعد الهدى العام.

•• ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ لكم متعلق بأنزل، أو خبر لشراب، وهو

---

(١) سورة «الزلزلة»، الآية (٢).

(٢) سورة «الليل»، الآية (١٢).

ما يشرب ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعنى الشجر الذى ترعاه المواشى ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ من سامت الماشية إذا رعت فهى سائمة وأسامها صاحبها، وهو من السومة، وهى العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض.

●● ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ولم يقل: كل الثمرات؛ لأن كلها لا تكون إلا فى الجنة، وإنما أنبتت فى الأرض بعض من كلها للتذكرة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته، والآية: الدلالة الواضحة.

●● ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ بنصب الكل علىٰ وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات فقط حفص. والشمس والقمر والنجومُ مسخراتُ شامى على الابتداء والخبر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جمع الآية وذكر العقل، لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

●● ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ معطوف على الليل والنهار أى: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك ﴿مُخْتَلِفًا﴾ حال ﴿أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك ووصفه بالطراوة، لأن الفساد يسرع إليه فيؤكل سريعا طريا خيفة الفساد، وإنما لا يحنث بأكله إذا حلف لا يأكل لحما، لأن مبنى الأيمان على العرف، ومن قال لغلامه: اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالإنكار ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ هى اللؤلؤ والمرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ المراد بلبسهم لبس نسائهم، ولكنهن إنما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ﴾ جوارى تجرى جريا وتشق الماء شقا والمخر شق الماء بحيزومها[1] ﴿فِيهِ﴾ فى البحر ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ هو عطف على محذوف أى: لتعتبروا، ولتبتغوا وابتغاء الفضل التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما أنعم عليكم به.

●● ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهية أن تميل بكم وتضطرب، أو لئلا تميد بكم، لكن حذف المضاف أكثر قيل: خلق الله الأرض فجعلت تميد، فقالت الملائكة: ما هى بمقر الخلد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وَأَنْهَارًا﴾ وجعل فيها أنهارا لأن ألقى فيه معنى جعل ﴿وَسُبُلاً﴾ طرقا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم أو إلى توحيد ربكم.

●● ﴿وَعَلامَاتٍ﴾ هى معالم الطرق، وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك ﴿وَبِالنَّجْمِ

---

(١) الحيزوم: الصَّدر أو وسطه. وجمعها: حيازم يقال: اشدُد للأمر حيازيمك: وطِّنْ نفسك عليه. (المعجم الوسيط ١/ ١٧١).

هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ المراد بالنجم: الجنس، أو هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى فإن قلت: وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بهم؟! قلت: كأنه أراد قريشا فلهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم؛ فخصصوا.

•• ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أى الله تعالى ﴿كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ أى الأصنام، وجىء بمن الذى هو لأولى العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم، أو لأن المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بمالا علم عنده، وإنما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق اقتضاء المقام بظاهره إياه لكونه إلزامًا للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهًا بالله لأنهم حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيهًا بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: أفمن يخلق كمن لا يخلق. هو حجة على المعتزلة فى خلق الأفعال ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون فساد ما أنتم عليه.

•• ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر، وإنما اتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيهًا على أن ما وراءها لا ينحصر ولا يعد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم.

•• ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد.

•• ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وبالتاء غير عاصم ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

•• ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أى: هم أموات ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ نفى عنهم خصائص الإلهية بنفى كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث، ومعنى أموات غير أحياء: أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أى غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك، والضمير فى يبعثون للداعين أى: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم، وفيه دلالة على أنه لابد من البعث.

•• ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أى ثبت بما مر أن الإلهية لا تكون لغير الله وأن معبودكم واحد ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ للوحدانية ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها وعن الإقرار بها.

●● ﴿لا جرم﴾ حقًا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى: سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن التوحيد يعنى المشركين.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ لهؤلاء الكفار ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ماذا منصوب بأنزل أى: شىء أنزل ربكم، أو مرفوع على الابتداء أى: أى شىء أنزله ربكم، وأساطير خبر مبتدأ محذوف، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أساطير الأولين، أى أحاديث الأولين وأباطيلهم واحدتها أسطورة، وإذا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ يخبرونهم بصدقه وأنه نبى فهم الذين قالوا خيراً(١).

●● ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ أى قالوا ذلك إضلالاً للناس، فحملوا أوزار ضلالهم كاملة وبعض أوزار من ضل بضلالهم، وهو وزر الإضلال، لأن المضل والضال شريكان، واللام للتعليل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول أى: يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاَّل ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ محل ما رفع.

●● ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أى من جهة القواعد وهى الأساطين، وهذا تمثيل يعنى أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم فى تلك المنصوبات؛ كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا، والجمهور على أن المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل، طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا، فأتى الله أى أمره بالاستئصال ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون.

●● ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلهم بعذاب الخزى سوى ما عذبوا به فى الدنيا ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم. تشاقونِ نافع أى تشاقوننى فيهم؛ لأن مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم فلا يلتفتون إليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم، أو هم الملائكة ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ الفضيحة ﴿وَالسُّوءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

●● ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ وبالياء حمزة وكذا ما بعده ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر بالله ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أى الصلح والاستسلام أى أخبتوا وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه فى الدنيا من

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ النحل (٣٠).

الشقاق وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفران والعداوة فرد عليهم أولو العلم وقالوا: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشماتة.

●● وكذلك ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جهنم.

●● ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾ وإنما نصب هذا ورفع أساطير، لأن التقدير هنا أنزل خيراً فأطبقوا الجواب على السؤال، وثمة التقدير هو أساطير الأولين فعدلوا بالجواب عن السؤال ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ أى: آمنوا وعملوا الصالحات، أو قالوا: لا إله إلا الله. ﴿حَسَنَةٌ﴾ بالرفع أى ثواب وأمن وغنيمة، وهو بدل من خيراً حكاية لقول الذين اتقوا، أى: قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيراً، ثم حكاه، أو هو كلام مستأنف عدة للقائلين وجعل قولهم من جملة إحسانهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى: لهم فى الآخرة ما هو خير منها، كقوله: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾(١) ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره.

●● ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أو هو المخصوص بالمدح ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حال ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

●● ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر، لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك، فقال: السلام عليك ياولى الله، الله يقرأ عليك السلام، ويبشره بالجنة، ويقال لهم فى الآخرة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بعملكم.

●● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظر هؤلاء الكفار ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وبالياء على وحمزة ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أى: العذاب المستأصل، أو القيامة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير.

●● ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاء استهزائهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ هذا كلام صدر منهم استهزاء ـ ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٤٨).

يعنى البحيرة والسائبة ونحوهما ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى كذبوا الرسل وحرموا الحلال، وقالوا مثل قولهم استهزاء ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ إلا أن يبلغوا الحق ويطّلعوا على بطلان الشرك وقبحه.

●● ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن وحدوه ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الشيطان يعنى طاعته ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ لاختيارهم الهدى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ أى لزمته لاختياره إياها ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث أهلكهم الله وأخلى ديارهم عنهم.

●● ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله (ﷺ) على إيمانهم وأعلمه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة، فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ بفتح الياء وكسر الدال كوفى. الباقون بضم الياء وفتح الدال والوجه فيه أن من يضل مبتدأ، ولا يهدى خبره ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذى أعد لهم.

●● ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ معطوف على: وقال الذين أشركوا. ﴿لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد النفى أى بلى يبعثهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى لأن يبعث موعد من الله وبين أن الوفاء بهذا الوعد حق ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعده حق، أو أنهم يبعثون.

●● ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلق بما دل عليه بلى أى: يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت، وهو يشمل المؤمنين والكافرين ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هو الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فى قولهم: لا يبعث الله من يموت.

●● ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى فهو يكون. وبالنصب شامى وعلى، على جواب كن. قولنا مبتدأ وأن نقول خبره وكن فيكون، من كان التامة التى بمعنى الحدوث والوجود أى إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف، وهذه عبارة عن سرعة الإيجاد تبين أن مراداً لا يمتنع عليه وأن وجوده عند إرادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاعْ إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل وْلا قول، ثم والمعنى: أن إيجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو من بعض المقدورات.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ فى حقه ولو جهه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ هم رسول الله وأصحابه ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله؛ منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر أى تبوئة حسنة،

أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهى المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ الوقف لازم عليه، لأن جواب ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ محذوف والضمير للكفار، أى لو علموا ذلك لرغبوا فى الدين، أو للمهاجرين، أى لو كانوا يعلمون لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم.

●● ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى هم الذين صبروا، أو أعنى الذين صبروا وكلاهما مدح أى صبروا على مفارقة الوطن الذى، هو حرم الله المحبوب فى كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رءوسهم وعلى المجاهدة وبذل الأرواح فى سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى يفوضون الأمر إلى ربهم ويرضون بما أصابهم فى دين الله. ولما قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً؛ نزل.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ - يوحى إليهم - على ألسنة الملائكة. نوحى حفص ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل الكتاب ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً، وقيل للكتاب: الذكر، لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

●● ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أى بالمعجزات والكتب والباء يتعلق برجالا صفة له أى رجالا ملتبسين بالبينات أو بأرسلنا مضمراً، كأنه قيل: بم أرسل الرسل؟ فقيل بالبينات: أو بيوحى أى يوحى إليهم بالبينات أو بلا تعلمون، وقوله: فاسئلوا أهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فى الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا به وأوعدوا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى تنبيهاته فيتنبهوا.

●● ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى المكرات السيئات، وهم أهل مكة وما مكروا به رسول الله - عليه السلام - ﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما فعل بمن تقدمهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى بغتة.

●● ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

●● ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ متخوفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: من حيث لا يشعرون ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم، والمعنى: أنه إذا لم يأخذكم مع ما فيكم، فإنما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم.

●● ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء حمزة وعلى وأبو بكر ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ ما موصوله بخلق الله وهو مبهم بيانه ﴿مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ﴾ أى: يرجع من موضع إلى موضع. وبالتاء بصرى ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ أى: الأيمان ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ جمع شمال ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال من الظلال. عن مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شىء ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون وهو حال من الضمير فى ظلاله؛ لأنه فى معنى

الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو والنون، لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله فيها غير ممتنعة.

•• ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ من بيان لما في السموات وما في الأرض جميعاً على أن في السموات خلقاً يدبون فيها كما تدب الأناسي في الأرض، أو بيان لما في الأرض وحده، والمراد بما في السموات: ملائكتهن وبقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم، قيل: المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم انقيادهم لإرادة الله، ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا، فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد، وجيء بما إذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولو جيء بمن لتناول العقلاء خاصة ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

•• ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ هو حال من الضمير في لا يستكبرون، أي لا يستكبرون خائفين ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ إن علقته بيخافون فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم، وإن علقته بربهم حالا منه فمعناه: يخافون ربهم غالبا لهم قاهراً كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[1] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي وأنهم بين الخوف والرجاء.

•• ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين، فقالوا عندي رجال ثلاثة؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، فأما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان. قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنيّ به منهما هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وهو من طريقة الالتفاف، وهو أبلغ في الترغيب من قوله: فإياي فارهبوا. فارهبوني يعقوب.

•• ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة ﴿وَاصِبًا﴾ واجبا ثابتا؛ لأن كل نعمة منه؛ فإطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف، أو وله الجزاء دائما، يعني: الثواب والعقاب ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

•• ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ وأي شيء اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ فهو

(١) سورة «الأنعام»، الآيتان (١٨)، و(٦١).

من الله ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ المرض والفقر والجدب ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه والجؤار :رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة.

●● ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الخطاب فى وما بكم من نعمة؛ إن كان عاما فالمراد بالفريق: الكفرة، وإن كان الخطاب للمشركين، فقوله: منكم: للبيان لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾(1).

●● ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة ثم أوعدهم فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هو عدول إلى الخطاب على التهديد.

●● ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أى: لآلهتهم ومعنى لا يعلمون: أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله، وليس كذلك؛ لأنها جماد لا تضر ولا تنفع. أو الضمير فى لا يعلمون للآلهة أى: لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيبا فى أنعامهم وزروعهم أم لا، وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا إليهم ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ وعيد ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة وأنها أهل للتقرب إليها.

●● ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خزاعة(2) وكنانة تقول:(3) الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه، أو تعجب من قولهم ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعنى: البنين، ويجوز فى ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات، و«سبحانه»: اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، أى: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور.

●● ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أى صار؛ فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة، لأن أكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتمًا، مُسْوَدَّ الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء حنقا على المرأة.

●● ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ يستخفى منهم من أجل سوء المبشر به ومن أجل تعبيرهم ويحدث نفسه وينظر ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيمسك ما بشر به على هون وذل؟ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي

(1) سورة «لقمان»، الآية (32).

(2) خزاعة: من أكبر قبائل الأزد، انتقلت من اليمن إلى مكة أيام سيل العرم، وسموا «خزاعة»؛ لأنهم انقطعوا عن بقية الأزد؛ الذين هاجروا إلى الشام وغيرها.

(3) كِنَانَة: بكسر الكاف وفتح النون الثانية، وهذه النسبة إلى عدة قبائل منهم: بنو مالك ابن كنانة وبنو ليث، وكنانة بن بكر.
(الأنساب (5/ 100).

﴿التُّرَابِ﴾ أم يئده؟ ﴿أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون الولد الذى هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

•• ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء وهى الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث، ووأدهن خشية الإملاق ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ وهو الغنى عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فى تنفيذ ما أراد ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى إمهال العباد.

•• ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ قط ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين. عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : «إن الحبارى[1] لتموت فى وكرها بظلم الظالم»[2]، وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : «كاد الجعل[3] يهلك فى جحره بذنب ابن آدم»[4]، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : من دابة من مشرك يدب ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى أجل كل أحد، أو وقت تقتضيه الحكمة، أو القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

•• ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ما يكرهونه لأنفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم، ويجعلون له أرذل أموالهم ولأصنامهم أكرمها ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ مع ذلك أى ويقولون الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، وهى الجنة إن كان البعث حقا، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[5] وأن لهم الحسنى بدل من الكذب ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مفرطون نافع مفرِّطون أبو جعفر؛ فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها، من أفرطت فلانا وفرطته فى طلب الماء إذا قدمته، أو منسيون متروكون من أفرطت فلانا خلفى إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف من الإفراط فى المعاصى والمشدد من التفريط فى الطاعات، أى التقصير فيها.

•• ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: أرسلنا رسلا إلى من تقدمك من الأمم ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من الكفر والتكذيب بالرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أى قرينهم فى الدنيا تولى

(١) الحبارى: طائر يضرب به المثل فى الغباء؛ لأنه يبنى عشه وينسى مكانه، وهو اسم للذكر والأنثى، والواحد والجمع.
القاموس (٢/٢).
(٢) أخرجه الطبرى والبيهقى فى الشعب.
(٣) الجُعَلُ: حيوان كالخنفساء، يكثر فى المناطق الندية.
(المعجم الوسيط ١/١٢٦).
(٤) أخرجه ابن أبى شيبة والحاكم والطبرانى.
(٥) سورة «فصلت»، الآية (٥٠).

إضلالهم بالغرور، أو الضمير لمشركى قريش أى: زين للكفار قبلهم أعمالهم، فهو ولى هؤلاء؛ لأنهم منهم، أو هو على حذف المضاف أى: فهو ولى أمثالهم اليوم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى القيامة.

●● ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس ﴿الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ هو البعث، لأنه كان فيهم: من يؤمن به ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذى أنزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين؛ لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

●● ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع إنصاف وتدبر، لأن من لم يسمع بقلبه فكأنه لا يسمع.

●● ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ﴾ وبفتح النون نافع وشامى وأبو بكر. قال الزجاج: سقيته وأسقيته بمعنى واحد، ذكر سيبويه الأنعام فى الأسماء المفردة الواردة على أفعال، ولذا رجع الضمير إليه مفردا، وأما فى بطونها فى سورة المؤمنين فلأن معناه الجمع، وهو استئناف، كأنه قيل: كيف العبرة؟! فقال: نسقيكم مما فى بطونه ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أى: يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر فى كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه، دما، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الفرث فى الكرش، ثم ينحدر. وفى ذلك عبرة لمن اعتبر. وسئل شقيق عن الإخلاص، فقال: تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ سهل المرور فى الحلق، ويقال: لم يغص أحد باللبن، قط ومن الأولى للتبعيض، لأن اللبن بعض ما فى بطونها والثانية لابتداء الغاية.

●● ويتعلق ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ﴾ بمحذوف تقديره: ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب، أى من عصيرهما، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير فى منه يرجع إلى المضاف المحذوف الذى هو العصير، والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكرَ سكْرًا وسُكْرًا نحو رَشِدَ رَشَدًا ورُشْدًا، ثم فيه وجهان؛ أحدهما: أن الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة، وثانيهما: أن يجمع بين العتاب والمنة. وقيل: السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبى حنيفة وأبى يوسف ـ رحمهما الله ـ إلى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله ـ عليه السلام ـ : «الخمر حرام لعينها، والسكر من كل

شراب»[1]. وبأخبار جمة ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

●● ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وألهم ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ هي أن المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول قال الزجاج: واحد النحل نحلة كنخل ونخلة، والتأنيث باعتبار هذا ومن في من الجبال ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يرفعون من سقوف البيت، أو ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تعسل فيها للتبعيض؛ لأنها لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش والضمير في يعرشون للناس وبضم الراء شامي وأبو بكر.

●● ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ابني البيوت ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ فادخلي الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تضلين فيها ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل؛ لأن الله تعالى ذللها وسهلها أو من الضمير في فاسلكي أي وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب تلقيه من فيها ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ منه أبيض وأصفر وأحمر من الشباب والكهول والشيب، أو على ألوان أغذيتها ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لأنه من جملة الأدوية النافعة وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل. وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض، كما أن كل دواء كذلك وتنكيره لتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء لأن النكرة في الإثبات تخص وشكا رجل استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام: «اسقه عسلا» فجاءه وقال: زاده شرا، فقال ـ عليه السلام ـ: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا»، فسقاه فصح[2] وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل[3] ومن بدع الروافض أن المراد بالنحل عليّ وقومه، وعن بعضهم أن رجلا قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي وحدث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عجيب أمرها فيعلمون أن الله أودعها علما بذلك وفطنها كما أعطى أولي العقول عقولهم.

●● ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بقبض أرواحكم من أبدانكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة، أو ثمانون، أو تسعون ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ لينسى ما يعلم أو لئلا يعلم زيادة علم على علمه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بحكم التحويل إلى الأرذل من الأكمل أو إلى الإفناء من الإحياء ﴿قَدِيرٌ﴾ على تبديل ما يشاء كما يشاء من الأشياء.

---

(١) رواه النسائي من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً.

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) انظر: كنز العمال (٢٨١٠٢/١٠).

•• ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أى جعلكم متفاوتين فى الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ فى الرزق يعنى الملاك ﴿بِرَادِّي﴾ بمعطى ﴿رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا فى الملبس والمطعم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ جملة اسمية وقعت فى موضع جملة فعلية فى موضع النصب؛ لأنه جواب النفى بالفاء وتقديره، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا مع عبيدهم فى الرزق، وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وبالتاء أبو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة.

•• ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد وهو الذى يحفد أى يسرع فى الطاعة والخدمة، ومنه قول القانت ـ وإليك نسعى ونحفد ـ واختلف فيه فقيل: هم الاختان على البنات وقيل أولاد الأولاد والمعنى وجعل لكم حفدة أى خدما يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: بعضها؛ لأن كل الطيبات فى الجنة وطيبات الدنيا أنموذج منها ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ هو ما يعتقدونه من منفعة الأصنام وشفاعتها ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ أى الإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أو الباطل الشيطان والنعمة محمد (ﷺ) أو الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم.

•• ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أى الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئا فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أردت المصدر نصبت به شيئاً أى لا يملك أن يرزق شيئا، وإن أردت المرزوق كان شيئا بدلا منه أى قليلا، ومن السماوات والأرض صلة للرزق إن كان مصدرا أى لا يرزق من السماوات مطرا ولا من الأرض نباتا، وصفة إن كان اسما لما يرزق والضمير فى ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لما لأنه فى معنى الآلهة بعد ما قال: لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم.

•• ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا لله مثلا فإنه لا مثل له أى: فلا تجعلوا له شركاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا مثل له من الخلق ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، أو إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك والوجه الأول.

•• ثم ضرب المثل فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا﴾ هو بدل من مثلا ﴿مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ مصدران فى موضع الحال أى: مثلكم فى إشراككم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء، وقيد بالمملوك ليميزه من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما

جميعاً إذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شيء ليمتاز من المكاتب[1] والمأذون[2] فهما يقدران على التصرف، ومن موصوفة أى: وحرا رزقناه ليطابق عبدا أو موصولة ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ جمع الضمير لإرادة الجمع أى لا يستوى القبيلان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ بأن الحمد والعبادة لله.

ثم زاد فى البيان فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الأبكم الذى ولد أخرس فلا يَفهم ولا يُفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ﴾ أى ثقل وعيال على من يلى أمره ويعوله ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يرسله ويصرفه فى مطلب حاجة، أو كفاية مهم لم ينفع ولم يأت بنجح ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير ﴿وَهُوَ﴾ فى نفسه ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته و نعمته وللأصنام التى هى أموات لا تضر ولا تنفع.

•• ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم علمه، أو أراد بغيب السموات والأرض يوم القيامة على أن علمه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ فى قرب كونها وسرعة قيامها ﴿إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ كرجع طرف، وإنما ضرب به المثل؛ لأنه لا يعرف زمان أقل منه ﴿أَوْ هُوَ﴾ أى: الأمر ﴿أَقْرَبُ﴾ وليس هذا الشك المخاطب ولكن المعنى كونوا فى كونها على هذا الاعتبار، وقيل: بل هو أقرب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق؛ لأنه بعض المقدورات.

•• ثم دل على قدرته بما بعده فقال ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وبكسر الألف وفتح الميم على اتباعاً لكسرة النون وبكسرهما حمزة والهاء مزيدة فى أمهات للتوكيد كما زيدت فى أراق فقيل أهراق وشذت زيادتها فى الواحدة ﴿لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ حال أى غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذى خلقكم فى البطون ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذى ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والأفئدة فى فؤاد كالأغربة فى غراب، وهو من جموع القلة التى جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع فى غيرها.

•• ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء شامى وحمزة ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ هو الهواء المتباعد من الأرض فى سمت العلو

(١) المكاتب: هو العبد الذى يكاتب سيده على نفسه بثمنه، فإذا سعى وأدى اعتق وصار حراً.
(٢) المأذون: هو العبد الذى يأذن له مولاه فى التجارة إذناً عاماً.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فى قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ بقدرته، وفيه نفى لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الخلق لا غنى به عن الخالق.

●● ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ هو فعل بمعنى مفعول أى: ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هى قباب الأدم(١) ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ ترونها خفيفة المحمل فى الضرب والنقض والنقل ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ بسكون العين كوفى وشامى وبفتح العين غيرهم، والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قراركم فى منازلكم والمعنى أنها خفيفة عليكم فى أوقات السفر والحضر، على أن اليوم بمعنى الوقت ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أى: أصواف الضأن ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ وأوبار الإبل ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ وأشعار المعز ﴿أَثَاثًا﴾ متاع البيت ﴿وَمَتَاعًا﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مدة من الزمان.

●● ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ كالأشجار والسقوف ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ جمع كن وهو ما سترك من كهف أوغار ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ هى القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وهى تقى البرد أيضاً، إلا أنه اكتفى بأحد الضدين، ولأن الوقاية من الحر أهم عندهم لكون البرد يسيرا محتملا ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ ودروعا من الحديد ترد عنكم سلاح عدوكم فى قتالكم، والبأس: شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد، أو غيره ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أى: تنظرون فى نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له.

●● ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: فلا تبعة عليك فى ذلك؛ لأن الذى عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت.

●● ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التى عددناها بأقوالهم فإنهم يقولون إنها من الله ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بأفعالهم حيث عبدوا غير المنعم، أو فى الشدة ثم فى الرخاء ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: الجاحدون غير المعترفين، أو نعمة الله نبوة محمد (ﷺ) كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادا وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم، و«ثم» يدل على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

●● ﴿وَيَوْمَ﴾ انتصابه باذكر ﴿نَبْعَثُ﴾ نحشر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نبياً يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والإيمان والكفر ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى الاعتذار والمعنى: لا حجة لهم

(١) الأدم: جمع «أديم» ، وهم اسم لوجه الأرض.
(المعجم الوسيط ١/ ١٠)

فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون أى: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل ومعنى، ثم أنهم يمنون أى يبتلون بعد شهادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بما هو أطم[1] وأغلب منها، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة.

●● ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أى: العذاب بعد الدخول ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون قبله.

●● ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم التى عبدوها ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا﴾ أى: آلهتنا التى جعلناها شركاء ﴿الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ أى: نعبد ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: أجابوهم بالتكذيب؛ لأنها كانت جمادا لا تعرف من عبدها ويحتمل أنهم كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله عن الشرك.

●● ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعنى الذين ظلموا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ إلقاء السلم الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار فى الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وبطل عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن لله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرءوا منهم.

●● ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى أنفسهم ﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وحملوا غيرهم على الكفر ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ أى: عذاباً بصدهم عن سبيل الله ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين الناس بالصد.

●● ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعنى نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين أما فى الأحكام المنصوصة فظاهر، وكذا فيما ثبت بالسنة، أو بالإجماع، أو بقول الصحابة، أو بالقياس؛ لأن مرجع الكل إلى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله ـ عليه السلام ـ وطاعته بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[2] وحثنا على الإجماع فيه بقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وقد رضى رسول الله (ﷺ) لأمته باتباع أصحابه بقوله: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[4] وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق الاجتهاد والقياس مع أنه أمرنا به بقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[5] فكانت السنة والإجماع وقول الصحابى

(١) (طمَّ) الشىء: كثر حتى عظم أوعَمَّ. (المعجم الوسيط ٢/٥٦٦).
(٢) النساء (٥٩)، والنور (٥٤)، ومحمد (٣٣).
(٣) سورة «النساء»، الآية (١١٥).
(٤) حديث موضوع ليس بصحيح، قال عنه البيهقى: هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة.
(٥) سورة «الحشر»، الآية (٢).

والقياس مستندة إلى تبيان الكتاب فتبين أنه كان تبيانا لكل شيء ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتسوية فى الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وإيصال كل ذى حق إلى حقه ﴿وَالإِحْسَانِ﴾ إلى من أساء إليكم أوهما الفرض والندب؛ لأن الفرض لابد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب ﴿وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء ذى القرابة وهو صلة الرحم ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ عن الذنوب المفرطة فى القبح ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ ما تنكره العقول ﴿وَالْبَغْيِ﴾ طلب التطاول بالظلم والكبر ﴿يَعِظُكُمْ﴾ حال، أو مستأنف ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بمواعظ الله، وهذه الآية سبب إسلام عثمان بن مظعون[(١)] فإنه قال: ما كنت أسلمت إلاحياء منه ـ عليه السلام ـ لكثرة ما كان يعرض على الإسلام، ولم يستقر الإيمان فى قلبى حتى نزلت هذه الآية وأنا عنده فاستقر الإيمان فى قلبى، فقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول البشر وقال أبو جهل: إن إلهه ليأمر بمكارم الأخلاق وهى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولهذا يقرؤها كل خطيب على المنبر فى آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهى.

●● ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ هى البيعة لرسول الله (ﷺ) على الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[(٢)] ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أيمان البيعة ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها باسم الله، وأكد ووكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل منها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً ورقيبا؛ لأن الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من البر والحنث فيجازيكم به.

●● ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ فى نقض الأيمان ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ كالمرأة التى أنحت[(٣)] على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿أَنكَاثًا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله، قيل: هى ريطة[(٤)] وكانت حمقاء تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن

---

(١) هو الصحابىّ المهاجر المجاهد، عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب، الجمحى، أبو السائب، صحابى قديم الإسلام، هاجر هجرتى الحبشة وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة، وهو أول من دفن بالبقيع منهم أيضاً، عام ٢هـ، رضى الله عنه.
الأعلام (٤/ ٢١٤).

(٢) سورة «الفتح»، الآية (١٠).

(٣) (نَحاَ) اللبن: نحيا: مخضه.
(ونَحا) عن الشىء: أبعده وأزاله.
(المعجم الوسيط ٢/٩٠٨).

(٤) الريطة: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة، والجمع ريط ورياط.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾ حال كأنكاثا ﴿دَخَلاً﴾ أحد مفعولى تتخذ أى: ولا تنقضوا أيمانكم متخذيها دخلا ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أى: مفسدة وخيانة ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ بسبب أن تكون أمة يعنى جماعة قريش﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ هى أزيد عدداً وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين. هى أربى مبتدأ وخبر، فى موضع الرفع صفة لأمة وأمة فاعل تكون، وهى تامة وهى ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضمير للمصدر أى: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من أيمان البيعة لرسول الله (ﷺ) أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الإسلام .

●● ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حنيفة مسلمة ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الضلالة ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من علم منه اختيار الهداية ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يوم القيامة فتجزون به ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ كرر النهى عن اتخاذ الإيمان دخلا بينهم تأكيداً عليهم وإظهارا لعظمه ﴿دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها عليها وإنما وحدت القدم ونكرت لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه فكيف بأقدام كثيرة ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ فى الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ بصدودكم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وخروجكم عن الدين، أو بصدكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فى الآخرة.

●● ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وبيعة رسول الله (ﷺ) ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ عرضا من الدنيا يسيرا، كأن قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله (ﷺ) فثبتهم الله ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

●● ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا ﴿يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ وبالنون مكى وعاصم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين ومشاق الإسلام ﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

●● ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ من مبهم يتناول النوعين، إلا أن ظاهره للذكور فبين بقوله: من ذكر أو أنثى ليعم الموعد النوعين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط الإيمان؛ لأن أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على أن العمل ليس من الإيمان ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ أى: فى الدنيا لقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ

﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾[1] وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان، أو معسرا يعيش عيشا طيبا إن كان موسرا فظاهر وإن كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى، وأما الفاجر فأمره بالعكس إن كان معسرا فظاهر وإن كان موسرا فالحرص لايدعه أن يتهنأ بعيشه، وقيل: الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة، أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والإعراض عما سوى الله.

●● ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ فإذا أردت قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فعبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل، لأنها سبب له والفاء للتعقيب؛ إذ القراءة المصدرة بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعنى إبليس ﴿الرَّجِيمِ﴾ المطرود أو الملعون. قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : قرأت على رسول الله (ﷺ) فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لى: «قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام»[2].

●● ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ﴾ لإبليس ﴿سُلْطَانٌ﴾ تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه.

●● ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يتخذونه وليا ويتبعون وساوسه ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ الضمير يعود إلى ربهم، أو إلى الشيطان أى بسببه.

●● ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها، وهو معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف مكى وأبو عمرو ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ هو جواب إذا. وقوله، والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون: إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة فى ذلك.

●● ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أى جبريل ـ عليه السلام ـ أضيف إلى القدس وهو الطهر، كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من عنده وأمره ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال أى نزله ملتبسا بالحكمة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة؛ لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير تثبيتا لهم وإرشادا وبشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وفيه تعويض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٤٨).
(٢) رواه الثعلبى.

●● ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أرادوا به غلاما كان لحويطب[1] قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه عائش، أو يعيش وكان صاحب كتب، أو هو جبر غلام رومى لعامر بن الحضرمى[2] أو عبدان: جبر، ويسار كانا يقرآن التوراة والإنجيل فكان رسول الله (ﷺ) يسمع ما يقرآن أو سلمان الفارسى[3] ﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ وبفتح الياء والحاء حمزة وعلى ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أى لسان الرجل الذى يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمى غير بين، وهذا القرآن لسان عربى مبين ذوبيان وفصاحة ردا لقولهم وإبطالا لطعنهم، وهذه الجملة أعنى لسان الذى يلحدون إليه أعجمى لا محل لها؛ لأنها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال ألحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر فى شق منه ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة، فقالوا ألحد فلان فى قوله: وألحد فى دينه ومنه الملحد؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: القرآن ﴿لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ ما داموا مختارين الكفر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة على كفرهم.

●● ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ﴾ على الله ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقابا عليه وهو رد لقولهم إنما أنت مفتر ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين لا يؤمنون أى وأولئك ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ على الحقيقة الكاملون فى الكذب، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو وأولئك هم الكاذبون فى قولهم إنما أنت مفتر.

●● جوزوا أن يكون ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ شرطا مبتدأ وحذف جوابه؛ لأن جواب من شرح دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ ساكن

(١) هو الصحابى ؛ حويطب بن عبد العزى بن عبد ود، العامرى، أبو محمد، مكى، من مسلمة الفتح، وهو من المعمرين، عاش ١٢٠عاماً، نصفها فى الجاهلية، ونصفها فى الإسلام، كان من أهل مكة فانتقل إلى المدينة، ومات بها عام ٥٤هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ٤٢، ٤٣).

(٢) عامر بن الحضرمى بن أكبر بن ربيعة، أخ العلاء وعمرو وميمون، قتل يوم بدر كافراً.
(انظر: تاريخ الإسلام).

(٣) هو الصحابى الجليل، الفارس المجاهد؛ سلمان الخير، الفارسى، أبو عبدالله، ابن الإسلام، له أصله من أصبهان، وقيل: رامهرمز، له قصة كفاح طويلة بحثاً عن الحق، حتى وصل به المطاف إلى الرسول ﷺ عند قدومه المدينة، فأسلم، وأول مشاهده الخندق، وهو صاحب فكرة الخندق، وهو سابق الفرس إلى الإسلام، توفى ما بين عامى ٣٢ إلى ٣٧هـ، ومختلف فى عمره ما بين ٨٠ إلى ٣٥٠ عاماً.
تهذيب التهذيب (٢/٣٦٨، ٣٦٩).
وانظر أعمار الأعيان لابن الجوزى، تحقيق د. محمود محمد الطناحى. ص (١١١).

به ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أى طاب به نفسا واعتقده ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأن يكون بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات الله على أن يجعل وأولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى: إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: «ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله» وأن يكون بدلا من المبتدأ الذى هو أولئك أى: ومن كفر بالله من بعد إيمانه، وأن ينتصب على الذم. روى أن ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان منهم عمار وأما أبواه ياسر[(١)] وسمية[(٢)] فقد قتلا وهما أول قتيلين فى الإسلام فقيل لرسول الله (ﷺ) إن عمارا كفر فقال: «كلا إن عماراً ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله (ﷺ) وهو يبكى فجعل رسول الله (ﷺ) يمسح عينيه وقال: «مالك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»[(٣)]. وما فعل أبو عمار أفضل؛ لأن فى الصبر على القتل إعزازا للإسلام.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا﴾ آثروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أى: بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ماداموا مختارين للكفر.

●● ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فلا يتدبرون ولا يصغون إلى المواعظ، ولا يبصرون طريق الرشاد ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أى: الكاملون فى الغفلة؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها.

●● ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ ثم يدل على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من مكة أى: أنه لهم لا عليهم يعنى أنه وليهم وناصرهم، لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميا منفوعا غير مضرور ﴿مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ بالعذاب والإكراه على الكفر فَتنوا شامى أى بعد ما عذبوا المؤمنين، ثم أسلموا ﴿ثُمَّ

---

(١) هو الصحابى المجاهد؛ ياسر بن عامر، الكنانى، المذحجى، والد عمار بن ياسر، وهو من السابقين إلى الإسلام، وهو يمانى، انتقل إلى مكة، فلما أسلم عذبه المشركون حتى مات من العذاب قبل الهجرة. الأعلام (٨/١٢٨).

(٢) هى الصحابية الشهيدة؛ سمية بنت خياط، والدة عمار، وزوجة ياسر، وهى العائلة المجاهدة التى قال النبى ﷺ فى حقها: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، وهى أول شهيدة فى الإسلام، قتلها اللعين أبو جهل بحربة قبل الهجرة. الأعلام (٣/ ١٤٠).

(٣) رواه ابن سعد عن مجاهد، وروى الحاكم عن زر عن ابن مسعود نحوه، قال ابن حجر: هكذا أورده الثعلبى عن ابن عباس بغير سند.

﴿جَاهَدُوا﴾ المشركين بعد الهجرة ﴿وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد هذه الأفعال وهى الهجرة والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية ﴿رَّحِيمٌ﴾ لا يعذبهم على ما قالوا فى حالة الإكراه.

●● ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ منصوب برحيم، أو باذكر ﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ وإنما أضيفت النفس إلى النفس؛ لأنه يقال لعين الشيء وذاته: نفسه وفى نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هى فالنفس الأولى هى الجملة، والثانية عينها وذاتها، فكأنه قيل: يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم: ﴿هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا﴾(١). ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾(٢) الآية ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٣) ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ تعطى جزاء عملها وافيا ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فى ذلك.

●● ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نقمته فيجوز أن يراد قرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ من القتل والسبى ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا يزعجها خوف؛ لأن الطمأنينة مع الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من كل بلد ﴿فَكَفَرَتْ﴾ أهلها ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ الإذاقة واللباس استعارتان والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك أن الإذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر والبشع، وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف.

●● ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أى محمد (ﷺ) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى فى حال التباسهم بالظلم قالوا إنه القتل بالسيف يوم بدر روى أن رسول الله ﷺ وجه إلى أهل مكة فى سنى القحط بطعام ففرق فيهم(٤) فقال الله لهم بعد أن أذاقهم الجوع.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٣٨).

(٢) سورة «الأحزاب»، الآية (٦٧).

(٣) سورة «الأنعام»، الآية (٢٣).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره.

●● ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على يدى محمد (ﷺ) ﴿حَلالاً طَيِّبًا﴾ بدلا عما كنتم تأكلونه حراما خبيثا من الأموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة؛ لأنها شفعاؤكم عنده.

ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم فقال ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنما للحصر أى المحرم هذا دون البحيرة وأخواتها وباقى الآية قد مر تفسيره.

●● ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ هو منصوب بلا تقولوا أى ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قوله: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾(١) من غير استناد ذلك الوصف إلى الوحى، أو إلى القياس المستنبط منه واللام مثلها فى قولك: لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله ﴿هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب ولك أن تنصب الكذب بتصف، وتجعل ما مصدرية، وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا أى، ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام، وهذا لوصف ألسنتكم الكذب أى ولا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول فى أفواهكم لا لأجل حجة وبينة، ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان، وقوله تصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام فى ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾.

●● ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف، أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم.

●● ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ فى سورة الأنعام يعنى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾(٢) الآية ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتحريم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ فى موضع الحال أى عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ بتكفير ما كثروا قبل من الجرائم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتوثيق ما وثقوا بعد من العزائم.

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (١٣٩).
(٢) سورة «الأنعام»، الآية (١٤٦).

●● ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنه كان وحده أمة من الأمم لكماله فى جميع صفات الخير كقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وعن مجاهد كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار، أو كان أمة بمعنى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ هو القائم بما أمره الله، وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ إن معاذاً كان أمة قانتاً لله، فقيل له: إنما هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: الأمة الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك[1] وقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: لو كان معاذ حيا لاستخلفته فإنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة لله قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون»[2] ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن الأديان إلى ملة الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش لزعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين.

●● ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ روى أنه كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفاً فأخر غداءه فإذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاما، فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على أنه عافانى وابتلاكم ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اختصه واصطفاه للنبوة ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى ملة الإسلام.

●● ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نبوة وأموالا وأولادا، أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه، أو قول المصلى منا كما صليت على إبراهيم ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لمن أهل الجنة.

●● ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فى ثم تعظيم منزلة نبينا ـ عليه السلام ـ وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته.

●● ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أى فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ روى أن موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا فى الأسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه، وقالوا: نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم فى السبت؛ لأن بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة فأذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد

---

(١) رواه الطبرانى والحاكم، وأبو نعيم فى الحلية.

(٢) قال ابن حجر: لم أجده، وروى الطبرى من قول ابن مسعود: أن معاذاً كان أمة قانتاً لله.

فمسخهم الله دون أولئك، وهم يحكم بينهم يوم القيامة فيجازى كل واحد من الفريقين بما هو أهله.

●● ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها، أو بالقرآن أى: ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة، أو الحكمة المعرفة بمراتب الأفعال والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والإنذار بالبشارة ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة، أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة فى الدين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل.

●● ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ سمى الفعل الأول عقوبة والعقوبة هى الثانية لازدواج الكلام، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] فالثانية ليست بسيئة والمعنى إن صنع بكم صنيع سوء من قتل، أو نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، فرأى النبى ـ عليه السلام ـ حمزة مبقور البطن فقال: «أما والذى أحلف به لأمثلن بسبعين مكانك»[2] فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده، ولا خلاف فى تحريم المثلة لورود الأخبار بالنهى عنها حتى بالكلب العقور ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ الضمير فى لهو يرجع إلى مصدر صبرتم، والمراد بالصابرين المخاطبون أى: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم؛ لأنهم صابرون على الشدائد.

ثم قال لرسول الله (ﷺ): ﴿وَاصْبِرْ﴾ أنت فعزم عليه بالصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أى: بتوفيقه وتثبيته ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكفار أن لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار فإنهم وصلوا إلى مطلوبهم ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ضيق مكى والضيق تخفيف الضيق أى: فى أمر ضيق ويجوز أن يكونا مصدرين كالقيل والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فإنه لا ينفذ عليك.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أى: هو ولى الذين اجتنبوا السيئات وولى العاملين بالطاعات، قيل: من اتقى فى أفعاله وأحسن فى أعماله كان الله معه فى أحواله. ومعيته نصرته فى المأمور وعصمته فى المحظور.

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

(٢) رواه الثعلبى.

(سورة الإسراء مكية وهى مائة و عشرة آيات بصرى وإحدى عشرة آية كوفى وشامى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿سُبْحَانَ﴾: تنزيه الله عن السوء، وهوعلم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ ﴿الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ وسرى وأسرى لغتان ﴿لَيْلاً﴾ نصب على الظرف وقيده بالليل، والإسراء لايكون إلا بالليل للتأكيد، أوليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به فى بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: أسرى به من دار أم هانىء بنت أبى طالب والمراد بالمسجد: الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الحرم كله مسجد، وقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، فقد قال عليه السلام: «بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل بالبراق وقد عرج بى إلى السماء فى تلك الليلة»(١) . وكان العروج به من بيت المقدس، وقد أخبر قريشاً عن عيرهم وعدد جمالها وأحوالها، وأخبرهم أيضا بما رأى فى السماء من العجائب وأنه لقى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة وكان فى اليقظة، وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ : أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه (٢). وعن معاوية مثله، وعلى الأول الجمهور إذ لا فضيلة للحالم ولامزيةللنائم ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ هو بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ يريد بركات الدين والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومهبط الوحى وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً عليه السلام ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السموات وما فيها من الآيات ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ للأقوال ﴿الْبَصِيرُ﴾ بالأفعال ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم، فقيل: أسرى، ثم باركنا ثم إنه هو وهى طريقة الالتفات التى هى من طرق البلاغة.

●● ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى: الكتاب، وهو التوراة ﴿هُدًى لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾ أىْ: لاتتخذوا. وبالياء أبو عمرو أى لئلا يتخذوا ﴿ مِن دُونِى وَكِيلاً﴾ ربا تكلون إليه أموركم.

●● ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نصب على الاختصاص أو على النداء فيمن قرأ لاتتخذوا بالتاء على النهى أى: قلنا لهم لاتتخذوا من دونى وكيلا ياذرية من حملنا على نوح ﴿إِنَّهُ﴾إن نوحا ـ عليه

---

(١) متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة.

(٢) رواه ابن إسحاق فى المغازى، وفيه أسرى بدل عرج.

السلام ـ ﴿كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ في السراء والضراء، والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم، وروى أنه كان لايأكل ولايشرب ولايلبس إلا قال: الحمد لله، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كماجعله آباؤكم أسوتهم، وآية رشد الأبناء صحة الاقتداء بسنة الآباء وقد عرفتم حال الآباء هنالك فكونوا أيها الأبناء كذلك.

•• ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ وأوحينا إليهم وحيا مقضيا أى: مقطوعا مبتوتا بأنهم يفسدون فى الأرض لامحالة. والكتاب: التوراة، ولتفسدن جواب قسم محذوف، أو جرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن فى الأرض ﴿مَرَّتَيْنِ ﴾ أولاهما: قتل زكرياء ـ عليه السلام- وحبس أرمياء - عليه السلام ـ حين أنذرهم سخط الله. والأخرى: قتل يحيى بن زكرياء- عليهما السلام ـ وقصد قتل عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ ولتستكبرون عن طاعة الله من قوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) والمراد به: البغى والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين.

•• ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أى وعد الله عقاب أولاهما ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ سلطنا عليكم ﴿عِبَاداً لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أشداء فى القتال، يعنى: سنجاريب وجنوده، أو بختنصر ، أو جالوت؛ قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ ترددوا للغارة فيها، قال الزجاج: الجوس طلب الشيء بالاستقصاء ﴿ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً﴾ وكان وعد العقاب وعداً لابد أن يفعل.

•• ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أى الدولة والغلبة ﴿ عَلَيْهِمْ﴾ على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو قيل: هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، وقيل: أعدنا لكم الدولة بملك طالوت، وقتل داود جالوت﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه.

•• ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ قيل: اللام بمعنى على كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(٢) والصحيح أنها على بابها؛ لأنها اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة، يعنى أن الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لايتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن على ـ رضى الله عنه ـ ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه، وتلاها. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد المرة الآخرة بعثناهم ﴿لِيَسُوؤُوا﴾ أى هؤلاء ﴿ وُجُوهَكُمْ﴾ وحذف لدلالة ذكره

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٤).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٢٨٦).

أولاً عليه أى: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها، كقوله: ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] ليسوء شامى وحمزة وأبو بكر ،والضمير لله عزوجل، أو للوعد، أوللبعث. لنسوء على ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ ماعلوا مفعول ليتبروا أى: ليهلكوا كل شىء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى مدة علوهم.

●● ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصى ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ مرة ثالثة ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعادالله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة[2]. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : سلط عليهم المؤمنون إلى يوم القيامة. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ محبسا يقال للسجن: محصر، وحصير.

●● ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها، وهى توحيد الله والإيمان برسله والعمل بطاعته أو للملة أو للطريقة ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ ويَبْشر حمزة وعلى ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿أَجْراً كَبِيراً﴾ أى: الجنة.

●● ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ﴾ وبأن الذين ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أى: أعددنا، قلبت تاء ﴿لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعنى النار، والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة.

●● ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أى: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعو لهم بالخير، أو يطلب النفع العاجل ـ وإن قل ـ بالضرر الآجل وإن جل ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع فى قلبه ويخطر بباله، لايتأنى فيه تأنى المتبصر، أو أريد بالإنسان: الكافر وأنه يدعوه بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة، وكان الإنسان عجولا يعنى: أن العذاب آتيه لامحالة فما هذا الاستعجال. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو النضر بن الحارث؛ قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[3] الآية فأجيب فضربت عنقه صبرا، وسقوط الواو من يدع فى الخط على موافقة اللفظ.

●● ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أى: الليل والنهار آيتان فى أنفسهما فتكون الإضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين، كإضافة العدد إلى المعدود أى:

---

(١) سورة «الملك»، الآية (٢٧).

(٢) الإتاوة: الجزية. والخراج، يُقال: ضُربت عليهم الإتاوة.
(المعجم الوسيط ١/ ٤).

(٣) سورة «الأنفال»، الآية (٣٢).

فمحونا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة، أو وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يرد الشمس والقمر فمحونا آية الليل التى هى القمر حيث لم نخلق له شعاعاً كشعاع الشمس فترى الأشياء به رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شيء ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى التصرف فى معايشكم ﴿ وَلِتَعْلَمُوا﴾ باختلاف الجديدين ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ يعنى: حساب الآجال ومواسم الأعمال، ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم﴿فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ بيناه بيانا غير ملتبس؛ فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجة علينا.

●● ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ عمله ﴿ فِي عُنُقِهِ ﴾ يعنى أن عمله لازم له لزوم القلادة، أو الغل للعنق لايفك عنه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ﴾ هو صفة لكتاباً. يُلقاه شامى ﴿مَنشُوراً﴾ حال من يلقاه يعنى: غير مطوى ليمكنه قراءته، أو هما صفتان للكتاب، ونقول له:

●● ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أى: كتاب أعمالك، وكل يبعث قارئاً ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ﴾ الباء زائدة أى كفى نفسك ﴿حَسِيبًا﴾ تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك: حسب عليه كذا، أو بمعنى الكافى. وضع موضع الشهيد فعدى بعلى لأن الشاهد يكفى المدعى ما أهمه، وإنما ذكر حسيبا لأنه بمنزلة الشهيد والقاضى والأمير؛ إذ الغالب أن يتولى هذه الأمور الرجال، فكأنه قيل: كفى نفسك رجلا حسيباً أو تؤول النفس بالشخص.

●● ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى: فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى كل نفس حاملة وزرا، فإنما تحمل وزرها لاوزر نفس أخرى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وما صح منا أن نعذب قوما عذاب استئصال فى الدنيا إلا بعد أن نرسل إليهم رسولا يلزمهم الحجة.

●● ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ أى أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ متنعميها وجبابرتها بالطاعة. عن أبى عمرو والزجاج: ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ أى: خرجوا عن الأمر كقولك: أمرته فعصى أو أمرنا كثرنا، دليله: قراءة يعقوب آمرنا: ومنه الحديث «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة»(١). أى: كثيرة النسل ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ فأهلكناها إهلاكا.

●● ﴿ وَكَمْ﴾ مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان لـ«كم» ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يعنى عادا وثمود وغيرهما ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ وإن أخفوها فى الصدور ﴿ بَصِيراً﴾ وإن أرخوا عليها الستور.

---

(١) انظر: (كنز العمال: ٤/ ٩٣٥٥).

●● ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ لا مايشاء ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من له بإعادة الجار، وهو بدل البعض من الكل إذ الضمير يرجع إلى من أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالفكرة تفضلنا عليه من منافعها بمانشاء لمن نريد فقيد المعجل بمشيئته، والمعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولايعطون إلابعضا منه، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض، وقد حرموه فاجتمع فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فإن أوتى حظا من الدنيا فبها وإلا فربما كان الفقر خيراً له ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ فى الآخرة ﴿يَصْلاهَا﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ممقوتاً ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله.

●● ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ هو مفعول به، أو حقها من السعى وكفاءها من الأعمال الصالحة ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق لله فى وعده ووعيده ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً عندالله مثابا عليه. عن بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا الآية. فإنه شرط فيها ثلاث شرائط فى كون السعى مشكوراً، إرادة الآخرة، والسعى فيما كلف، والإيمان الثابت.

●● ﴿كُلاًّ﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض عن المضاف إليه، وهو منصوب بقوله: ﴿نُّمِدُّ هَؤُلاءِ﴾ بدل من كلا أى: نمد هؤلاء ﴿ وَهَؤُلاءِ ﴾ أى: من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ رزقه ومن تتعلق بنمد، والعطاء اسم للمعطى أى نزيدهم من عطائنا، ونجعل الآنف منه مدًّا للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصى جميعاً على وجه التفضل ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً عن عباده وإن عصوا.

●● ﴿انظُرْ﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فى المال والجاه والسعة والكمال ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾. روى أن قوماً من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر - رضى الله عنه - فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبى سفيان، فقال سهيل بن عمرو : إنما أتينا من قبلنا . إنهم دعوا ودعينا - يعنى إلى الإسلام - فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر.

●● ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الخطاب للنبى ﷺ، والمراد به أمته ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴾ فتصير جامعاً على نفسك الذم والخذلان وقيل: مشتوما بالإهانة محروما عن الإعانة؛ إذ الخذلان ضد النصر والعون. دليله: قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾ (١) حيث ذكرالخذلان بمقابلة النصر.

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٦٠).

●● ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعا به ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ «أن» مفسرة و«لاتعبدوا» نهى أو بأن لاتعبدوا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو أن تحسنوا بالوالدين إحسانا ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ﴾ إما هى «إنْ» الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً لها؛ ولذا دخلت النون المؤكدة فى الفعل، ولو أفردت إن لم يصح دخولها لاتقول: إن تكرمن زيداً يكرمك، ولكن إما تكرمنه ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل يبلغن وهو فى قراءة حمزة وعلى: يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين ﴿أَوْ كِلاهُمَا﴾ عطف على أحدهما فاعلا وبدلا ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ مدنى وحفص. أفَّ مكى وشامى. أفُّ غيرهم،وهو صوت يدل على تضجر فالكسر على أصل التقاء الساكنين، والفتح للتخفيف والتنوين لإرادة التنكير أى: أتضجر تضجرا وتركه لقصد التعريف أى: اتضجر التضجر المعلوم ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولاتزجرهما عما يتعاطيانه مما لايعجبك والنهى والنهر أخوان ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قَوْلاً كَرِيمًا﴾ جميلاً لينا كما يقتضيه حسن الأدب، أو هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه، ولايدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء، ولابأس به فى غير وجهه كما قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: نحلنى أبو بكركذا[1]، وفائدة «عندك» أنهما إذا صارا كلاًّ على ولدهما ولا كافل لهماغيره، فهما عنده فى بيته وكنفه، وذلك أشق عليه فهو مأمور بأن يستعمل معهم لين الخلق، حتى لايقول لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما أف؛ فضلا عما يزيد عليه، ولقد بالغ ـ سبحانه ـ فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر، ومع أحوال لايكاد يصبر الإنسان معها.

●● ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ أى: اخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِـــينَ﴾ [2] فأضافه إلى الذل كما أضيف حاتم إلى الجود والمعنى: واخفض لهما جناحك الذليل ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، وقال الزجاج: وألن جانبك متذللا لهما من مبالغتك فى الرحمة لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ ولاتكتف برحمتك عليهما التى لابقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمته الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك فى صغرك وتربيتها لك، والمراد بالخطاب غيره ـ عليه السلام ـ والدعاء مختص بالأبوين المسلمين، وقيل: إذا كانا كافرين له أن يسترحم لهما بشرط الإيمان وأن يدعو الله لهما بالهداية، وعن النبى ﷺ: «رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما»[3] . وروى: «يفعل البار ماشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل

(١) انظر: موطأ مالك، ص٢٦٠. والنحل: الهبة والعطية.

(٢) سورة «الحجر»، الآية (٨٨).

(٣) رواه الحاكم والطبرانى والبيهقى فى شعبه مرفوعاً، ورواه الترمذى عن عبدالله بن عمرو موقوفاً.

العاق ماشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة»، وعنه ـ عليه السلام- : «إياكم وعقوق الوالدين فإن الجنة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولايجده عاق، ولاقاطع رحم، ولاشيخ زان، ولاجارّ إزاره خيلاء، إن الكبرياء لله رب العالمين»[(1)]. ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ بما فى ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين ومن النشاط والكرامة فى خدمتهما ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم فى حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدى إلى أذاهما ثم أبتم إلى الله واستغفرتم منها ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ الأواب: الذى إذا أذنب بادر إلى التوبة، فجاز أن يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ويندرج تحته الجانى على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

●● ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ منك ﴿حَقَّهُ﴾ أى: النفقة إذا كانوا محارم فقراء ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أى: وآت هولاء حقهم من الزكاة ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ ولاتسرف إسرافاً، قيل: التبذير تفريق المال فى غير الحل فى خير والمحل؛ فعن مجاهد: لو أنفق مدا فى باطل كان تبذيرا وقد أنفق بعضهم نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه، لاخير فى السرف فقال: لاسرف فى الخير.

●● ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم فى الشرارة وهى غاية المذمة؛ لأنه لاشر من الشيطان أوهم إخوانهم وأصدقاؤهم، لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ فما ينبغى أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله.

●● ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ وإن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ أى: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك، فسمى الرزق رحمة فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه؛ فوضع المسبب موضع السبب، يقال: يسر الأمر وعسر، مثل: سعد الرجل ونحس، فهو مفعول وقيل: معناه : فقل لهم: رزقنا الله وإياكم من فضله. على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم: كأن معناه قولاً ذا ميسور وهو اليسر أى: دعاء فيه يسر، وابتغاء مفعول له، أو مصدر فى موضع الحال، وترجوها حال.

●● ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ كل نصب على المصدر لإضافته إليه، وهذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف أمر باقتصاد الذى هو بين الإسراف والتقتير ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً﴾ فتصير ملوما عند الله؛ لأن المسرف غير مرضى عنده وعند الناس، يقول الفقير: أعطى فلانا وحرمنى، ويقول الغنى: ما يحسن تدبير أمر المعيشة، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت ﴿مَّحْسُوراً﴾ منقطعاً بك لاشيء عندك من: حسره السفر، إذا أثر فيه أثر بليغا، أو عاريا من

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط.

خسر رأسه وقد خاطرت مسلمة ضرتها اليهودية فى أنه يعنى: محمد - عليه السلام - أجود من موسى - عليه السلام - فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذى عليه فدفعه وقعد عريانا فأقيمت الصلاة فلم يخرج للصلاة فنزلت .

ثم سلى رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة بأن ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك ولكن، لان بسط الأرزاق وقدرها مفوض إلى الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فليس البسط إليك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أى هو يضيق، فلا لوم عليك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ بمصالحهم فيمضيها ﴿بَصِيرًا﴾ بحوائجهم فيقضيها.

•• ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ قتلهم أولادهم: وأدهم بناتهم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ نهاهم عن ذلك وضَمِنَ أرزاقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ إثما عظيماً يقال خطىء خطأ كأثم إثما. خَطَأ شامى، وهو ضدالصواب اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطء كالحذر والحذر، خطاء بالمد والكسر مكى .

•• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ القصر فيه أكثر والمد لغة، وقد قرىء به وهو نهى عن دواعى الزنا كالمس والقبلة ونحوهما، ولو أريد النهى عن نفس الزنا لقال: ولاتزنوا. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ معصية مجاوزة حد الشرع والعقل ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقاً طريقه .

•• ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى بارتكاب مايبيح الدم ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير مرتكب ما يبيح الدم ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ تسلطا على القاتل فى الاقتصاص منه ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ الضمير للولى أى فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين، والقاتل واحد كعادة أهل الجاهلية، أو الإسراف المثلة، أو الضمير للقاتل الأول. فلا تسرف حمزة وعلى على خطاب الولى، أو قاتل المظلوم ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ الضمير للولى أى: حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، أو للمظلوم أى: الله ناصره أوجب القصاص بقتله وينصره فى الآخرة بالثواب، أو للذى يقتله الولى بغير حق ويسرف فى قتله فإنه كان منصوراً بإيجاب القصاص على المسرف. وظاهر الآية يدل على أن القصاص يجرى بين الحر والعبد، وبين المسلم والذمى؛ لأن أنفس أهل الذمة والعبيد داخله فى الآية لكونها محرمة.

•• ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة والطريقة التى هى أحسن وهى حفظه وتثميره ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أى ثمانى عشرة سنة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ بأوامر الله تعالى ونواهيه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ مطلوبا يطلب من المعاهد أن لايضيعه ويفى به، أو إن صاحب العهد كان مسئولا .

●● ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ بكسر القاف حمزة وعلى وحفص، وهو كل ميزان صغير أو كبيرمن موازين الدراهم وغيرها، وقيل: هو القرسطون أى: القبّان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ المعتدل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فى الدنيا ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ عاقبة وهو تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه .

●● ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا تتبع مالم تعلم أى: لاتقل رأيت وما رأيت وسمعت وما سمعت، وعن ابن الحنفية: لاتشهد بالزور، وعن ابن عباس: لاترم أحدا بمالا تعلم. ولايصح التثبت به لمبطل الاجتهاد لأن ذلك نوع من العلم﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ وأقام الشارع غالب الظن مقام العلم، وأمر بالعمل به كما فى الشهادات، ولنا فى العمل بخبر الواحد لما ذكرنا ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ أولئك إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد؛ لأن أولئك كما يكون إشارة إلى العقلاء يكون إشارة إلى غيرهم كقول جرير:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام

وعنه فى موضع الرفع بالفاعلية أى كل واحد منها كان مسؤولا عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كمغضوب فى﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[1] يقال للإنسان: لم سمعت مالم يحل لك سماعه؟! ولم نظرت إلى مالم يحل لك النظر إليه؟! ولم عزمت على مالم يحل لك العزم عليه؟! كذا فى الكشاف وفيه نظر لبعضهم، لأن الجار والمجرور إنما يقومان مقام الفاعل إذا تأخر عن الفعل، فأما إذا تقدما فلا.

●● ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ هو حال أى ذا مرح ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقا بدوسك لها وشدة وطئتك ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ بتطاولك وهو تهكم بالمختال، أولن تحاذيها قوة وهو حال من الفاعل أو المفعول.

●● ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ كوفى وشامى على إضافة سىء إلى ضمير كل . سيئة غيرهم ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ذكر مكروها، لأن السيئة فى حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه، ألا تراك تقول. الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، فإن قلت: الخصال المذكورة بعضها سىء وبعضها حسن،ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالإضافة أى ماكان من المذكور سيئا كان عند الله مكروها، فما وجه قراءة من قرأ سيئة؟! قلت: كل ذلك إحاطة بمانهى عنه خاصة، لابجميع الخصال المعدودة.

●● ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ماتقدم من قوله: لاتجعل مع الله إلها آخر إلى هذه الغاية ﴿ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس بأسوته ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من الرحمة، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هذه

(١) سورة «الفاتحة»، الآية (٧).

الثماني عشرة آية كانت فى ألواح موسى ـ عليه السلام ـ أولها ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ وآخرها ﴿مَّدْحُورًا﴾، ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك، لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمة إن بذ[1] فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضل من النعم.

●● ثم خاطب الذين قالوا: الملائكة بنات الله بقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ الهمزة للإنكار يعنى: أفخصَّكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ واتخذ أدونهم وهى البنات وهذا خلاف الحكمة وماعليه معقولكم، فالعبيد لايؤثرون بأجود الأشياءوأصفاها، ويكون أردؤها وأدونها للسادات ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ حيث أضفتم إليه الأولاد، وهى من خواص الأجسام، ثم فضلتم عليه أنفسكم حيث تجعلون له ماتكرهون.

●● ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أى التنزيل، والمراد: ولقد صرفناه أى هذا المعنى فى مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم ﴿ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ وبالتخفيف حمزة وعلى أى: كررناه ليتعظوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق، وكان الثورى إذ قرأها يقول: زادنى لك خضوعا مازاد أعداءك نفوراً.

●● ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ﴾ مع الله ﴿ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وبالياء مكى وحفص ﴿ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ يعنى: لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو لتقربوا إليه، كقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾[2] وإذاً دالة على أن بعدها وهو: (لابتغوا)؛ جواب عن مقالة المشركين وجزاء لـ«لو».

●● ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ وبالتاء حمزة وعلى ﴿عُلُوًّا﴾ أى: تعاليا والمراد: البراءة من ذلك والنزاهة ﴿ كَبِيرًا ﴾ وصف العلو بالكبر مبالغة فى معنى البراءة والبعد مما وصفوه به.

●● ﴿تُسَبِّحُ﴾ وبالتاء[3] عراقى غير أبى بكر ﴿ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى: يقول: سبحان الله وبحمده. عن السدى، قال ـ عليه السلام ـ : «ما اصطيد حوت فى البحر ولاطائر يطير إلا بما يضيع من تسبيح الله تعالى»[4]. ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لاختلاف اللغات، أو لتعسر الإدراك، أو سبب لتسبيح الناظر إليه، والدال على الخير كفاعله. والوجه: الأول[5] ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن جهل العباد ﴿ غَفُورًا ﴾ لذنوب المؤمنين.

(١) البذّ: هو الأخذ مغالبة. (المعجم الوسيط ١/ ٤٥).
(٢) سورة «الإسراء»، الآية (٥٧). (٣) هذا يدل على أن النسفى يقروها: (يسبح)؛ بالياء.
(٤) رواه ابن عساكر من طريقة يزيد بن مرثد عن النبى ـ ﷺ.
(٥) والوجه؛ أى: الوجه الأصح.

•• ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ذا ستر، أوحجابا لايرى فهو مستور.

•• ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان وهو الذى يستر الشىء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلا يمنع عن الاستماع ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ يقال: وحد يحد وحدا وحدة نحو: وعد يعد وعدا وعدة، فهو مصدر سد مسد الحال، أصله: يحد وحده بمعنى: واحداً ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ رجعوا على أعقابهم ﴿نُفُورًا﴾ مصدر بمعنى التولية، أو جمع نافر كقاعد وقعود أى: يحبون أن تذكر معه آلهتهم، لأنهم مشركون فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا.

•• ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أى: نحن أعلم بالحال أو الطريقة التى يستمعون القرآن بها فالقرآن هوالمستمع وهو محذوف وبه حال وبيان لما أى يستمعون القرآن هازئين لاجادين والواجب عليهم أن يستمعوه جادين ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ نصب بأعلم أى أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ وبما يتناجون به إذهم ذوو نجوى ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ بدل من إذ هم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ سحر فجن.

•• ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ أى فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير فى أمره لايدرى ما يصنع.

•• ﴿وَقَالُوا﴾ أى: منكرو والبعث ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: مجدداً وخلقاً حال، أى: مخلوقين.

•• ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى: السموات والأرض فإنها تكبر عندكم عن قبول الحياة ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يعيدكم ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويرده إلى حال الحياة بعد ماكنتم عظاما يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحى بل هى عمود خلقه الذى يبنى عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى الحالة الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شىء من الحياة، وهو أن تكونوا حجارة ، أوحديداً لكان قادراً على أن يردكم إلى حال الحياة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ فسيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أى: البعث استبعاداً له ونفياً ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أى: هو قريب وعسى للوجوب.

•• ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ إلى المحاسبة وهو يوم القيامة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: تجيبون حامدين

والباء للحال. عن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: لبثا قليلا، أو زمانا قليلا فى الدنيا أو فى القبر.

●● ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾وقل للمؤمنين ﴿ يَقُولُوا﴾ للمشركين الكلمة ﴿ الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وألين لا يخاشنوهم وهى أن يقولو: يهديكم الله ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُم﴾ يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة. والنزغ: إيقاع الشر وإفساد ذات البين ، وقرأ طلحة ينزغ بالكسر، وهما لغتان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العدواة أو فسر التى هى أحسن بقوله.

●● ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالهداية والتوفيق ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بالخذلان أى يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولايقولوا لهم إنكم من أهل النار وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله : إن الشيطان ينزغ بينهم. اعتراض ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ حافظاً لأعمالهم وموكولا إليك أمرهم، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة.

●● ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وبأحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيه إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ دلالة على وجه تفضيله وأنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأن ذلك مكتوب فى زبور داود، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ (١) وهم محمد وأمته ولم يعرف الزبور هنا وعرفه فى قوله ولقد كتبنا فى الزبور لأنه كالعباس وعباس والفضل وفضل.

●● ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أنها آلهتكم ﴿مِّن دُونِهِ ﴾ من دون الله وهم الملائكة، أو عيسى وعزير، أو نفر من الجن عبدهم ناس من العرب، ثم أسلم الجن ولم يشعروا ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ أى: ادعوهم فهم لايستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض، أو فقر، أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر.

●● ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة أى يدعونهم آلهة، أو يعبدونهم والخبر ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يعنىّ أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهى القربة إلى الله عزوجل ﴿ أَيُّهُم﴾ بدل من واو يبتغون وأى موصولة أى يبتغى من هو ﴿أَقْرَبُ﴾ منهم الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب، أو ضمن «يبتغون الوسيلة» معنى «يحرصون»، فكأنه قيل: «يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله، وذلك بالطاعة وازدياد الخير. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبى مرسل فضلا عن غيرهم.

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (١٠٥).

•• ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قيل: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً، وعن مقاتل[1] وجدت فى كتب الضحاك فى تفسيرها أما مكة فيخر بها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، أما خراسان فعذابها ضروب، وأما بلخ فتصيبهم هدَّة فيهلك أهلها، وأما بدخشان فيخربها أقوام، وأما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون، وأما صغانيان إلى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع، وأما سمرقند، فيغلب عليها بنو قنطوراء، فيقتلون أهلها قتلا ذريعاً وكذا فرغانة، والشاش واسبيجاب وخوارزم، وأما بخارى فهى أرض الجبابرة فيموتون قحطاً وجوعاً، وأما مرو فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد، وأما هراة فيمطرون بالحيات فتأكلهم أكلا، وأما نيسابور فيصيب أهلها رعد وبرق وظلمة فيهلك أكثرهم وأما الرى فيغلب عليها الطبرية، والديلم فيقتلونهم، وأما أرمينية وأذربيجان، فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف، وأما همذان فالديلم يدخلها ويخربها، وأما حلوان فتمربها ريح ساكنة وهم نيام فيصبح أهلها قردة وخنازير، ثم يخرج رجل من جهينة، فيدخل مصر فويل لأهلها ولأهل دمشق وويل لأهل إفريقية، وويل لأهل الرملة ولايدخل بيت المقدس، وأما سجستان فيصيبهم ريح عاصف أياماً ثم هدة تأتيهم ويموت فيها العلماء، وأما كرمان وأصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاحوا صيحة تنخلع القلوب وتموت الأبدان.

•• ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ استعير المنع لترك إرسال الآيات وأن الأولى مع صلتها فى موضع النصب؛ لأنها مفعول ثان لمنعنا، وأن الثانية مع صلتها فى موضع الرفع؛ لأنها فاعل منعنا والتقدير وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين، والمراد الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وسنة الله فى الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها، ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، والمعنى وما منعنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات، إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وعذبوا العذاب المستأصل، وقد حكمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة، ثم ذكر من تلك الآيات التى اقترحها الأولون، ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة، وهى ناقة صالح ـ عليه السلام ـ، لأن آثار هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ باقتراحهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بينة ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لانرسلها ﴿إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ من نزول

(١) مقاتل: هو المفسر الكبير، مقاتل بن سليمان بن بشير، الأزدى، الخراسانى، أبو الحسن البلخى، من أعلام الإسلام فى التفسير، على إنه كان عند أهل الحديث: «ليس بشىء».
توفى عام ١٥٠هـ.
تهذيب التهذيب (٥/ ٥٢٣ ـ ٥٢٦).

العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له فإن لم يخافوا وقع عليهم، وإن أراد غيرها، فالمعنى وما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة، وهو مفعول له.

•• ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ واذكر إذا أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش علما وقدرة فكلهم فى قبضته فلا تبال بهم وامض لأمرك وبلغ ما أرسلت به، أو بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[2] فجعله كأن قد كان ووجد فقال أحاط بالناس على سنته فى إخباره ولعل الله تعالى أراه مصارعهم فى منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر: «والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» وهو يومىء إلى الأرض ويقول: «هذا مصرع فلان»[3] فتسامعت قريشا بما أوحى إلى رسول الله (ﷺ) من أمر بدر وما أرى فى منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ أى: وماجعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس فإنهم حين سمعوا بقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[4] جعلوها سخرية وقالوا إن محمد يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره إذا قالوا ذلك فإنه لايمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لاتأكله النار فوبر السمندل، وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت فى النار، فذهب الوسخ ويبقى المنديل سالما لاتعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها، وخلق فى كل شجرة نارا فلا تحرقها فجاز أن يخلق فى النار شجرة لا تحرقها، والمعنى أن الآيات إنما ترسل تخويفا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أى بمخاوف الدنيا والآخرة ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات وقيل الرؤيا هى الإسراء والفتنة ارتداد من استعظم ذلك، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء فى المنام، ومن قال كان فى اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية، وإنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها استبعادا منهم كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة كقوله ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾[5] ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾[6]، أو هى رؤيا أنه سيدخل مكة والفتنة الصد بالحديبية فإن قلت ليس فى القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم قلت معناه والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[7]

---

(١) سورة «القمر»، الآية (٤٥).
(٢) سورة «آل عمران»، الآية (١٢).
(٣) رواه مسلم عن حديث أنس، رضى الله عنه.
(٤) سورة «الدخان»، الآيتان (٤٣، ٤٤).
(٥) سورة «الصافات»، الآية (٩١).
(٦) النحل (٢٧)، والقصص (٦٢)، (٧٤).
(٧) سورة «الواقعة»، الآيات (٥١ _ ٥٣).

فوصفت بلعن أهلها على المجاز؛ ولأن العرب تقول لكل طعام مكروه ضار: ملعون؛ ولأن اللعن هوالإبعاد من الرحمة، وهى فى أصل الجحيم فى أبعد مكان من الرحمة.

●● ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ هو تمييز أو حال من الموصول والعامل فيه أأسجد على أأسجد له وهو طين أى: أصله طين.

●● ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى﴾ الكاف لاموضع لها؛ لأنها ذكرت للخطاب تأكيداً هذا مفعول به والمعنى أخبرنى عن هذا الذى ﴿ كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أى: فضلته، لم كرمته على و﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(١) فحذف ذلك اختصارا لدلالة ما تقدم عليه ثم ابتدأ فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ وبلا ياء كوفى وشامى واللام موطئة للقسم المحذوف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ لأستأصلنهم بإغوائهم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وهم المخلصون، قيل: من كل ألف واحد، وإنما علم الملعون ذلك بالإعلام، أو لأنه رأى أنه خلق شهوانى.

●● ﴿ قَالَ اذْهَبْ﴾ ليس من الذهاب الذى هو ضد المجىء وإنمامعناه امض لشأنك الذى اخترته خذلانا وتخلية، ثم عقبه بذكر ماجره سوء اختياره، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ والتقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم وانتصب ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ أى: موفراً بإضمار تجازون.

●● ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ استزل أو استخف استفزه أى استخفه والفز الخفيف ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ بالوسوسة أو بالغناء أوبالمزمار ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أجمع وصح بهم من الجلبة، وهوالصياح ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ بكل راكب وماش من أهل العيث، فالخيل الخيالة، والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب، ورجلك حفص على أن فعلا بمعنى فاعل كتعب وتاعب، ومعناه: وجمعك الرجل؛ وهذا لأن أقصى ما يستطاع فى طلب الأمور، الخيل والرجل ، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ قال الزجاج: كل معصية فى مال وولد فإبليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق فى الفسوق والإسراف ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس ﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل ونحو ذلك ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

●● ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الصالحين ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ يد بتبديل الإيمان ولكن بتسويل

(١) الأعراف (١٢)، و(ص) (٧٦).

العصيان ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ لهم يتوكلون فى الاستعاذة، منك، أو حافظا لهم عنك والكل أمرتهديد فيعاقب به، أو إهانة أى لايخل ذلك بملكى.

•• ﴿رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى﴾ يجرى ويسير ﴿لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعنى: الربح فى التجارة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾.

•• ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ﴾ أى خوف الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ذهب عن أوهامكم كل من تدعونه فى حوادثكم إلا إياه وحده فإنكم لا تذكرون سواه أوضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده الذى ترجونه على الاستثناء المنقطع ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإخلاص بعد الخلاص ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ﴾ أى: الكافر ﴿كَفُوراً﴾ للنعم.

••﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ انتصب جانب بيخسف مفعولا به كالأرض فى قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾(١) وبكم حال والمعنى أن يخسف جانب البر أى: يقلبه وأنتم عليه والحاصل أن الجوانب كلها فى قدرته سواء وله فى كل جانب براً كان أو بحرا سبب من أسباب الهلاك ليس جانب البحر وحده مختصا به بل إن كان الغرق فى جانب البحر ففى جانب البر الخسف، وهو تغييب تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ هى الريح التى تحصب،أى ترمى بالحصباء يعنى أوان لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ يصرف ذلك عنكم.

•• ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى أم أمنتم أن يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذى نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل عليكم﴿قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهى الريح التى لها قصيف، وهو الصوت الشديد، أو هوالكاسر للفلك ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفرانكم النعمة وهو إعراضكم حين نجاكم ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ مطالبا من قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٢) أى: مطالبة والمعْنى إنا نفعل مانفعل بهم ثم لاتجدوا أحداً يطالبنا بمافعلنا انتصاراً منا ودركا للثأر من جهتنا وهذا نحو قوله: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(٣) أن نخسف أونرسل أن نعيدكم فنرسل فنغرقكم بالنون مكى وأبو عمرو.

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٨١).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٧٨).

(٣) سورة «الشمس»، الآية (١٥).

●●﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ﴾ بالعقل والنطق، والخط والصورة الحسنة، والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد، والاستيلاء وتسخير الأشياء، وتناول الطعام بالأيدى، وعن الرشيد أنه أحضر طعاماً فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف - رحمه الله تعالى- فقال له: جاء فى تفسير جدك ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله تعالى: ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ باللذيذات أو بما كسبت أيديهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أى على الكل كقوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾[1] قال الحسن: أى: كلهم، وقوله : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا ﴾[2] ذكر فى الكشاف أن المراد بالأكثر الجميع وعنه ـ عليه السلام ـ: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة»[3] وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة وفى البهائم شهوة بلا عقل وفى الآدمى كلاهما فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهوشر من البهائم، ولأنه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه.

●● ﴿يَوْمَ نَدْعُو﴾ منصوب باذكر ﴿ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ الباء للحال والتقدير مختلطين بإمامهم أى: بمن ائتموا به من نبى، أو مقدم فى الدين، أو كتاب، أودين فيقال: ياأتباع فلان، يا أهل دين كذا أو كتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر ﴿فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ من هؤلاء المدعوين ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ وإنما قيل أولئك؛ لأن من فى معنى الجمع ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ولاينقصون من ثوابهم أدنى شىء .

ولم يذكر الكفار وإيتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى الآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ كذلك ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ من الأعمى أى أضل طريقاً، والأعمى مستعار بمن لايدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لايهتدى إلى طريق النجاة، أما فى الدنيا فلفقد النظر، وأما فى الآخرة؛ لأنه لاينفعه الاهتداء إليه وقد جوّزوا أن يكون الثانى بمعنى التفضيل بدليل عطف وأضل ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالا والثانى مفخما؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه فى حكم الواقعة فى وسط الكلمة فلا يقبل الإمالة وأما الأول فلم يتعلق به شىء فكانت ألفه واقعة فى الطرف فقبلت الإمالة، وأمالهما حمزة وعلى وفخمهما الباقون.

●● ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والمعنى إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من أوامرنا ونواهينا، ووعدنا وعيدنا

---

(١) سورة «الشعراء»، الآية (٢٢٣).

(٢) سورة «يونس»، الآية (٣٦).

(٣) رواه البيهقى فى الشعب، وابن ماجة عن أبى هريرة موقوفاً.

﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتتقول علينا مالم نقل يعنى: ما اقترحوه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أى: ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا، ولكنت لهم ولياً، وخرجت من ولايتى.

●● ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ لقاربت أن تميل إلى مكرهم ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ركونا قليلا وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت.

●● ﴿إِذًا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ (١) الآية. وأصل الكلام لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأن العذاب عذابان: عذاب فى الممات وهو عذاب القبر، وعذاب فى حياة الآخرة وهو عذاب النار، والعذاب يوصف بالضعف، كقوله: ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾(٢) أى: مضاعفا فكأن أصل الكلام لأذقناك عذابا ضعفا فى الحياة، وعذابا ضعفا فى الممات، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، وهو الضعف ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف، فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا وبضعف الممات مايعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، وفى ذكر الكيدودة (٣) وتقليلها مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين دليل على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله، ولمانزلت كان ـ عليه السلام ـ يقول: «اللهم لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين» (٤) ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾معيناً لك يمنع عذابنا عنك.

●● ﴿وَإِن كَادُوا﴾ أى: أهل مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ من أرض مكة﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لايبقون ﴿خِلَافَكَ﴾ بعدك أى: بعد إخراجك خلافك كوفى غير أبى بكر وشامى بمعناه ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زمانا قليلا فإن الله مهلكهم، وكان كما قال؛ فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل، أومعناه ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، أو من أرض المدينة.

●● ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم ونصبت نصب المصدر المؤكد أى: سن الله ذلك سنة ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلا.

---

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (٣٠). (٢) سورة «الأعراف»، الآية (٣٨).
(٣) الكيدودة: يعنى قوله: ﴿لقد كدت تركن﴾.
(٤) انظر كنز العمال ٢/ ٣٦٧٤.

●● ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لزوالها وعلى هذا؛ الآية جامعة للصلوات الخمس أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ هو الظلمة، وهو وقت صلاة العشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القرآن لكونها ركنا كما سميت ركوعا وسجودا وهو حجة على الأصم [1] حيث زعم أن القراءة ليست بركن، أو سميت قرآنا لطول قراءتها، وهو عطف على الصلاة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة.

●● ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ وعليك بعض الليل ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال فى النوم أيضاً تهجد ﴿بِهِ﴾ بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس وضع نافلة موضع تهجداً؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك، أو فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوع لهم ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ نصب على الظرف أى عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ويدل عليه الأخبار، أوهو مقام يعطى فيه لواء الحمد.

●● ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ هو مصدر أى: أدخلنى القبر إدخالا مرضيا على طهارة من الزلات ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أى: أخرجنى منه عند البعث إخراجا مرضيا ملقى بالكرامة آمنا من الملامة دليله ذكره على أثر ذكر البعث وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، أو هو عام فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ حجة تنصرنى على من خالفنى، أوملكا وعز قويا ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه.

●● ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ﴾ وذهب وهلك ﴿الْبَاطِلُ﴾ الشرك، أو جاء القرآن وهلك الشيطان ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ كان مضمحلا فى كل أوان.

●● ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ وبالتخفيف أبو عمرو ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ من للتبيين ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ من أمراض القلوب ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفى الحديث: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله» [2] ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ ضلالا لتكذيبهم به وكفرهم.

---

(١) الأصم: هو محمد بن يعقوب بن يوسف، السابق ترجمته عند تفسير الآية رقم (١٤٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: كنز العمال ٢٨١٠٦/١٠.

•• ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ﴾ بالصحة والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله أو أنعمنا بالقرآن أعرض ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأى بالجانب أى: يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره، أو أراد الاستكبار؛ لأن ذلك من عادة المستكبرين نأى بالإمالة حمزة وبكسرها على ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر والمرض، أو نازلة من النوازل ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

•• ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أى: كل أحد ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أسد مذهبا وطريقة.

•• ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من أمر يعلمه ربى، الجمهور على أنه الروح الذى فى الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله أى مما استأثر بعلمه، وعن أبى هريرة لقد مضى النبى ﷺ ومايعلم الروح [1]، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمال الطويلة على الخوض فيه، والحكمة فى ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز، ولذا رد ما قيل فى حده أنه جسم دقيق هوائى فى كل جزء من الحيوان، وقيل: هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: هو جبريل - عليه السلام - ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2] وعن الحسن: القرآن دليله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[3] ولأن به حياة القلوب، ومن أمر ربى أى: من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر، وروى أن اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين وعن الروح فإن أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبى وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة فندموا على سؤالهم [4]، وقيل: كان السؤال عن خلق الروح يعنى أهو مخلوق أم لا ، وقوله: من أمر ربى دليل خلق الروح فكان هذا جوابا ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ الخطاب عام فقد روى أن رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك، قال: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه فقال: «بل نحن وأنتم لم نؤتِ من العلم إلا قليلا»[5] وقيل هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبى ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[6] فقيل

(١) ذكره الواحدى فى الوسيط عن عبدالله بن بريدة بهذا فى حديث لم يسبق إسناده.
(٢) سورة «الشعراء»، الآيتان (١٩٣، ١٩٤).
(٣) سورة «الشورى»، الآية (٥٢).
(٤) ذكره ابن هشام فى السيرة.
(٥) ذكر الثعلبى.
(٦) سورة «البقرة»، الآية (٢٦٩).

لهم إن علم التوراة قليل فى جنب علم الله فالقلة والكثرة من الأمور الإضافية فالحكمة التى أوتيها العبد خير كثير فى نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله تعالى فهى قليلة.

ثم نبه على نعمة الوحى وعزاه بالصبر على أذى الجدال فى السؤال بقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لنذهبن جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط واللام الداخلة على إن توطئة للقسم، والمعنى - إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ أى: ثم لاتجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مسطوراً .

●● ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ أى: إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع أى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه ونزل جواباً لقول النضر:(١) لو نشاء لقلنا مثل هذا.

●● ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ معيناً، ولايأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جوابا للشرط، كقوله: يقول: لاغائب مالى ولاحرم● لأن الشرط وقع ماضياً أى: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الإتيان بمثله.

●● ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ رددنا وكررنا ﴿ لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى هوكالمثل فى غرابته وحسنه ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ جحودا، وإنما جاز فأبى أكثر الناس إلاكفورا، ولم يجز ضربت إلا زيداً؛ لأن أبى متأول بالنفى كأنه قيل فلم يرضوا إلاكفورا ولما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر، ولزمتهم الحجة وغلبوا، اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير.

●● ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا ﴾ وبالتخفيف كوفى ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ أى: مكة ﴿يَنبُوعاً﴾ عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لاتقطع، يفعول من نبع الماء.

●● ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ﴾ والتشديد هنا مجمع عليه ﴿الأَنْهَارَ خِلالَهَا﴾وسطها ﴿ تَفْجِيراً﴾ .

●● ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ بفتح السين مدنى وعاصم أى: قطعا يقال: أعطنى كسفة من هذا الثوب، وبسكون السين غيرهما، جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون قوله: ﴿إِن

(١) النضر: هو النضر بن الحارث، السابق ترجمته عند تفسير الآية رقم (٩٣) من سورة الأنعام.

نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[1] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ كفيلا بما تقول شاهدا بصحته والمعنى: أو تأتى بالله قبيلا وبالملائكة قبلا، كقوله: كنت منه ووالدى بريا أومقابلا كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[2] أو جماعة حالا من الملائكة.

●● ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ تصعد إليها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لأجل رقيك ﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ وبالتخفيف أبو عمرو ﴿ كِتَابًا﴾ أى: من السماء فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ صفة كتاب ﴿قُلْ﴾ قال مكى وشامى أى: قال الرسول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿ هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أى: أنا رسول كسائر الرسل بشر مثلهم، وكان الرسل لايأتون قومهم إلا بمايظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إلىّ إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرونها على.

●● ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾يعنى أهل مكة؛ ومحل ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ نصب بأنه مفعول ثان لمنع ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ النبى والقرآن ﴿ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ فاعل منع، والتقدير: ومامنعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أى: إلا شبهة تمكنت فى صدورهم وهى إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة فى أبعث الله للإنكار، وما أنكروه ففى قضية حكمته منكر.

ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ على أقدامهم كما يمشى الإنس ولايطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ حال أى: ساكنين فى الأرض قادرين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد، فأما الإنس فإنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم، وبشرا وملكا حالان من رسولا.

●● ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على أنى بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتم وعاندتم. شهيد تمييز أو حال ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خَبِيرًا﴾ عالما بأحوالهم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالهم فهومجازيهم وهذه تسلية لرسول الله - عليه السلام - ووعيد للكفرة .

●● ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾وبالياء يعقوب وسهل وافقهما أبوعمرو ومدنى فى الوصل أى من وفقه الله لقبول ماكان من الهدى فهو المهتدى عند الله﴿ وَمَن يُضْلِلْ﴾ أى: ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أى: أنصاراً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ

(١) سورة «سبأ»، الآية (٩).

(٢) سورة «الفرقان»، الآية (٢١).

﴿الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أى يسحبون عليها كقوله : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ (١) وقيل لرسول الله - عليه الصلاة السلام - : كيف يمشون علي وجوههم؟! قال: «إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم» (٢) ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ كما كانوا فى الدنيا لايستبصرون ولاينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه فهم فى الآخرة كذلك لايبصرون ما يقر أعينهم، ولايسمعون ما يلذ مسامعهم، ولاينطقون بما يقبل منهم ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ طفىء لهبها ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقدا.

●● ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: ذلك العذاب بسبب أنهم كذبوا بالإعادة بعد الإفناء فجعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها ثم يعيدها لايزالون على ذلك ليزيد فى تحسرهم على تكذيبهم البعث .

●● ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أو لم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهوالموت أو القيامة ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً مع وضوح الدليل.

●● ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تقديره لو تملكون أنتم؛ لأن لو تدخل على الأفعال دون الأسماء فلابد من فعل بعدها فأضمر تملك على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل، وهو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم لسقوط مايتصل به من اللفظ فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب،وأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ رزقه وسائر نعمه على خلقه ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ أى: لبخلتم خشية أن يفنيه الإنفاق ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ بخيلاً.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى إسرائيل ، وعن الحسن الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فقلنا له: اسأل بنى إسرائيل أى: سلهم من فرعون، وقل له: أرسل معى بنى إسرائيل وقوله: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ متعلق بقوله المحذوف، أى: فقلنا له سلهم حين جاءهم ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سحرت فخولط عقلك.

(١) سورة «القمر»، الآية (٤٨).

(٢) أخرجه الترمذى وأحمد وإسحاق والبزار من حديث أبى هريرة.
(كنز العمال ١٤/ ٣٩٥٢٤).

●● ﴿ قَالَ﴾ أى: موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يافرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالقهما ﴿بَصَائِرَ﴾ حال أى: بينات مكشوفات إلا أنك معاند ونحوه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١) علمت بالضم عليّ أى: إنى لست بمسحور كما وصفتنى، بل أنا عالم بصحة الأمر وأن هذه الآيات منزلها رب السماوات والأرض، ثم قارع ظنه بظنه بقوله: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ كأنه قال: إن ظننتنى مسحوراً فأنا أظنك مثبوراً هالكاً، وظنى أصح من ظنك؛ لأن له أمارة ظاهرة وهى إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظنك فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمرى: إنى لأظنك مسحورا قول كذب، وقال الفراء: مثبوراً مصروفاً عن الخير من قولهم: ما ثبرك عن هذا أى مامنعك وصرفك .

●● ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ يخرجهم أى: موسى وقومه ﴿ مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: أرض مصر أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه .

●● ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد فرعون ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ التى أراد فرعون أن يستفزكم منها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ أى: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ جمعاً مختلطين إياكم وإياهم، ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

●●﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة ومانزل إلا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلابالحق محفوظا بالرصد من الملائكة، ومانزل على الرسول إلامحفوظا بهم من تخليط الشياطين، قال الراوى : اشتكى محمد بن السماك (٢) فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب نصرانى، فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقى الثوب،فقال لنا: إلى أين؟! فقلنا له: إلى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك فقال: سبحان الله تستعينون على ولى الله بعدو الله: اضربوه على الأرض وارجعوا إلى ابن السماك، وقولوا له : ضع يدك على موضع الوجع وقل: وبالحق أنزلناه وبالحق نزل، ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا إلى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع، وقال ما قال الرجل وعوفى فى الوقت، وقال كان ذلك الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا ﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار.

●● ﴿ وَقُرْآنًا ﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أى: فصلناه أوفرقنا فيه الحق من الباطل ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تؤدة وتثبت ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ على حسب الحوادث.

---

(١) سورة «النمل»، الآية (١٤).
(٢) هو: محمد بن صبيح بن السمَّاك، أبو العباس، واعظ هارون الرشيد، كان يدخل عليه ليذكره، وهو من كبار الزهاد العباد.
حلية الأولياء (٢٠٣/٨).

●● ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ أى: اختاروا لأنفسكم النعيم المقيم، أو العذاب الأليم، ثم علل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أى: التوراة من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ حال.

●● ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ لقوله: آمنوا به أولا تؤمنوا أى: أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فإن خيرا منهم وهم العلماء الذين قرأوا الكتب قد آمنوا به وصدقوه، فإذا تلى عليهم خروا سجداً وسبحوا الله تعظيما لأمره ولإنجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور، إن بمعنى إنه وهى تؤكد الفعل كما أن إن تؤكد الاسم، وكما أكدت إن باللام فى ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾(1) أكدت إن باللام فى ﴿لَمَفْعُولاً﴾.

●● ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ ومعنى الخرور للذقن: السقوط على الوجه وإنما خص الذقن؛ لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن، يقال: خر على وجهه وعلى ذقنه وخر لوجهه ولذقنه أما معنى على فظاهر، وأمامعنى اللام فكأنه جعل ذقنه ووجهه للخرور؛ واختصه به إذ اللام للاختصاص، وكرر يخرون للأذقان لاختلاف الحالين، وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وخرورهم فى حال كونهم باكين ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ لين قلب ورطوبة عين.

●● ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ لماسمعه أبوجهل يقول: يا الله يارحمن، قال: إنه نهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها آخر فنزلت(2)، وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت، والدعاء بمعنى التسمية لابمعنى النداء وأو للتخيير أى: سموا بهذا الاسم أو بهذا، أو اذكروا إما هذا وإما هذا والتنوين فى ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا﴾ عوض من المضاف إليه وما زيدت للتوكيد وأيا نصب بتدعوا وهو مجزوم بأى، أى: أى هذين الاسمين ذكرتم وسميتم ﴿فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والضمير فى فله يرجع إلى ذات الله تعالى والفاء؛ لأنه جواب الشرط أى أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله: فله الأسماء الحسنى؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلهاحسن هذان الاسمان؛ لأنهما منها ومعنى كونها أحسن الأسماء إنها مستقلة بمعانى التمجيد والتقديس والتعظيم ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف؛ لأنه لايلبس إذ الجهر والمخافتة تعتقبان على الصوت لاغير، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا، فأمر بأن يخفض من صوته والمعنى

(1) سورة «الصافات»، الآية (158).

(2) أخرجه ابن مردويه وغيره عن ابن عباس.

ولاتجهر حتى تسمع المشركين ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لاتسمع من خلفك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ وسطا، أومعناه ولاتجهر بصلاتك كلها ولاتخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار، أو بصلاتك: بدعائك.

•• ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح [1] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كما زعم المشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أى: لم يذل فيحتاج إلى ناصر، أو لم يوال أحدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ وعظمه وصفه بأنه أكبر من أن يكون له ولد أو شريك.

وسمى النبى - عليه السلام - الآية آية العز وكان إذا أفصح الغلام من بنى عبدالمطلب. علمه هذه الآية[2].

---

(١) بنو مليح: واد بالطائف مر به النبى ﷺ عند انصرافه من حنين إلى الطائف. (معجم البلدان ٥/٢٢٧).

(٢) أخرجه عبدالرزاق وابن أبى شيبة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(سورة الكهف مائة وإحدى عشرة آية - بصرى - وعشر آيات كوفى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد (ﷺ) ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن، لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم، وهى نعمة الإسلام، وما أنزل على محمد (ﷺ) من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ أى: شيئا من العوج، والعوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان، يقال: فى رأيه عوج وفى عصاه عوج، والمراد: نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شىء منه من الحكمة.

●● ﴿قَيِّمًا﴾ مستقيما وانتصابه بمضمر وتقديره جعله قيما؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة، وفائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة - وفى أحدهما غنى عن الآخر - التأكيد؛ فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند التصفح، أو قيما على سائر الكتب مصدقا لها شاهدا بصحتها ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أنذر متعد إلى مفعولين كقوله: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾(١) فاقتصر على أحدهما، وأصله: لينذر الذين كفروا ﴿بَأْسًا﴾ عذابا ﴿شَدِيدًا﴾ وإنما اقتصر على أحد مفعولى أنذر؛ لأن المنذر به هو المسوق إليه فاقتصر عليه ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ صادرا من عنده ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أى: بأن لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ أى: الجنة. ويبشر حمزة وعلى.

●● ﴿مَّاكِثِينَ﴾ حال من هم فى لهم ﴿فِيهِ﴾ فى الأجر، وهو الجنة.

●● ﴿أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الأول استغناء بتقديم ذكره.

●● ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بالولد أو باتخاذه، يعنى أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط، فإن قلت: اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل: مالهم به من علم؟ قلت: معناه مالهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته، وانتفاء العلمْ بالشىء إما للجهل بالطريق الموصل إليه، أو لأنه فى نفسه محال ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ المقلدين ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة! والضمير فى كبرت يرجع إلى قولهم: اتخذ الله ولدا، وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لكلمة تفيد استعظاما

(١) سورة «النبأ»، الآية (٤٠).

لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوهوا به، بل يكظمون عليه، فكيف بمثل هذا المنكر ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ ما يقولون ذلك إلا كذبا، هو صفة لمصدر محذوف، أى: قولا كذبا.

•• ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتل نفسك ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أى: آثار الكفار، شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وماتداخله من الأسف على توليهم برجل فارقه أحبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجدا عليهم، وتلهفا على فراقهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ بالقرآن ﴿أَسَفًا﴾ مفعول له أى: لفرط الحزن، والأسف: المبالغة فى الحزن والغضب.

•• ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أى ما يصلح أن يكون زينة لها ولأهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وحسن العمل: الزهد فيها وترك الاغترار بها. ثم زهد فى الميل إليها بقوله:

••﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ من هذه الزينة ﴿صَعِيدًا﴾ أرضا ملساء ﴿جُرُزًا﴾ يابسا لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء معشبة، والمعنى: نعيدها بعد عمارتها خرابا بإماتة الحيوان وتجفيف النبات والأشجار وغير ذلك، ولما ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق فوقها من الأجناس التى لاحصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن؛ قال:

•• ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة، والكهف: الغار الواسع فى الجبل، والرقيم: اسم كلبهم، أو قريتهم، أواسم كتاب كتب فى شأنهم، أواسم الجبل الذى فيه الكهف ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أى: كانوا آية عجبا من آياتنا؛ وصفا بالمصدر، أو على ذات عجب.

•• ﴿إِذْ﴾ أى: اذكر إذ ﴿أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: رحمة من خزائن رحمتك، وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أى: الذى نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رَشَدًا﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا رشدا كله، كقولك: رأيت منك أسدا، أو يسرلنا طريق رضاك.

•• ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أى: ضربنا عليها حجابا من النوم، يعنى: أنمناهم إنامة ثقيلة لاتنبههم فيها الأصوات، فحذف المفعول الذى هو الحجاب ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ذوات عدد فهو صفة لسنين، قال الزجاج: أى تعد عددا لكثرتها؛ لأن القليل يعلم مقداره من غير عدد فإذا كثر عُدَّ؛ فأما: (دراهم معدودة) فهى على القلة؛ لأنهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير.

•• ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم من النوم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين منهم فى مدة لبثهم؛ لأنهم

لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك وذلك قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[1] وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول، أو أى الحزبين المختلفين من غيرهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ غاية وأحصى فعل ماض، وأمدا ظرف لأحصى، أو مفعول لـه، والفعل الماضى خبر المبتـدأ وهو أى، والمبتدأ مع خبره سد مسـد مفعولى نعلم والمعنى: أيهم ضبط أمداً لأوقات لبثهم وأحاط علما بأمد لبثهم، ومن قال: أحصى أفعل من الإحصاء وهو العد فقد زل؛ لأن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس، وإنما قال: لنعلم مع أنه تعالى لم يزل عالما بذلك؛ لأن المراد ما تعلق به الـعلم من ظهور الأمر لهم ليزدادوا إيمانا واعتبارا، وليكون لطفا لمـؤمنى زمانهم وآية بينة لكفاره، أو المـراد: لنعلم اختلافهما موجودا كمـا علمناه قبل وجوده.

●● ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ جمع فتى والفتوة: بذل الندى وكف الأذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم، وقيل: الفتى من لايدعى قبل الفعل، ولا يزكى نفسه بعد الفعل ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ يقينا وكانـوا من خواص دقيانوس[2] قد قذف الله فى قلوبهم الإيمان وخاف بعضهم بعضا، وقالوا: ليخـل اثنان اثنان منا فيظهر كلاهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الإيمان.

●● ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناهـا بالصبر على هـجران الأوطان والفرار بالديـن إلى بعض الغيران [3] وجسرناهم على القيام بكـلمة الحق والتظاهر بالإسلام ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدى الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مفتخرين ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولئن سميناهم آلهة ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ قولا ذا شطط، وهو الإفراط فى الظلم والإبعاد فيه؛ من شط يشط، ويشط إذا بعد.

●● ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ خبر، وهو إخبـار فى معنى الإنكار ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة ظاهرة؛ وهو تبكيت [4]؛ لأن الإتيان بالسلطان عـلى عبادة الأوثان محال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

---

(١) سورة «الكهف» الآية (١٩).

(٢) دقيانوس: اسم حاكم البلاد فى زمن وقوع قصة أصحاب الكهف.

(٣) الغيـران: جمع غار، وهو المـكان الذى يكون كالـكهف فى الجبـل. وفى المعجم: (الـغار): كل منخفض من الأرض؛ مثل البيت المنقور فى الجبل. (المعجم الوسيط ٢/ ٦٦٥).

(٤) التبكيت: هو بعث الإنسان على التحسر؛ بسبب شيء قبيح فعله، ومثله: التقريع. وهى مبالغة فى التوبيخ والمهانة بما يكره. (المعجم الوسيط ١/ ٦٦).

●● ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ نصب عطف على الضمير، أى: وإذ اعتزلتموهم، وإذا اعتزلتم معبوديهم ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾ استثناء متصل؛ لأنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه غيره كأهل مكة، أو منقطع أى: وإذ اعتزلتم الكفار والأصنام التى يعبدونها من دون الله، أو هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غير الله ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ صيروا إليه أو اجعلوا الكهف مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ من رزقه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ مَرفقا مدنى وشامى؛ وهو ما يرتفق به أى: ينتفع، وإنما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة فى رجائهم؛ لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم، أو أخبرهم به نبى فى عصرهم.

●● ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ﴾ بتخفيف الزاى كوفى، تزور شامى، تزّاور غيرهم، وأصله تتزاور فخفف بإدغام التاء فى الزاى أو حذفها، والكل من الزور وهو الميل، ومنه زاره إذا مال إليه، والزور الميل عن الصدق ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ أى: تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم أى: تتركهم وتعدل عنهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ فى متسع من الكهف، والمعنى أنهم فى ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولاغروبها، مع أنهم فى مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل: منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولايحسون كرب الغار ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ماصنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله، يعنى أن ما كان فى ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة، وقيل: باب الكهف شمالى مستقبل لبنات نعش (١) فهم فى مقنأة (٢) أبدا، ومعنى ذلك من آيات الله أن شأنهم وحديثهم من آيات الله ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ مثل ما مر فى سبحان؛ وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا فى الله وأسلموا له وجوههم فأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أى: من أضله فلا هادى له.

●● ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ بفتح السين شامى وحمزة وعاصم غير الأعشى، وهو خطاب لكل أحد ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع يقظ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام، قيل: عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قيل: لهم تقلّبتان فى السنة، وقيل: تقلبة واحدة فى يوم عاشوراء ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حالة ماضية؛ لأن اسم الفاعل لايعمل إذا كان فى

---

(١) بنات نعش: هى مجموعة من مجموعات النجوم فى السماء.

(٢) المقنأة: والمقمأة بمعنى واحد؛ وهو المكان الذى لاتطلع عليه الشمس. (المعجم الوسيط ٢/ ٧٦٠)

معنى المضى ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بالفناء أو بالعتبة ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لو أشرفت عليهم فنظرت إليهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُم﴾ لأعرضت عنهم وهربت منهم ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر؛ لأن معنى وليت منهم: فررت منهم ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾ وبتشديد اللام حجازى للمبالغة ﴿رُعْبًا﴾ تمييز. وبضم العين شامى وعلىّ وهو الخوف الذى يرعب الصدر أى: يملؤه، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة، أو لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم. وعن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: أريد أن أدخل فقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: لقد قيل لمن هو خير منك لوليت منهم فرارا فدخلت جماعة بأمره فأحرقتهم ريح (١).

•• ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وكما أنمناهم تلك النومة كذلك أيقظناهم إظهارا للقدرة على الإنامة والبعث جميعا ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضا ويتعرفوا حالهم وماصنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقينا ويشكروا ما أنعم الله به عليهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ رئيسهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ كم مدة لبثكم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ جواب مبنى على غالب الظن، وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ بمدة لبثكم إنكار عليهم من بعضهم كأنهم قد علموا بالأدلة أو بإلهام أن المدة متطاولة وأن مقدارها لا يعلمه إلا الله. وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم فى يومهم فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. وقد استدل ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ على أن الصحيح أن عددهم سبعة؛ لأنه قد قال فى الآية: قال قائل منهم كم لبثتم؟ وهذا واحد، وقالوا فى جوابه: لبثنا يوما أو بعض يوم، وهو جمع وأقله ثلاثة، ثم قال: ربكم أعلم بما لبثتم، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ كأنهم قالوا: ربكم أعلم بذلك لا طريق لكم إلى علمه فخذوا فى شىء آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أى: «يمليخا» ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ هى الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، وبسكون الراء أبو عمرو وحمزة وأبو بكر ﴿هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ هى طرطوس (٢)، وحملهم الورق عند فرارهم دليل على أن حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات، وعلى ما فى أوعية القوم من النفقات، وعن بعض العلماء أنه كان شديد الحنين إلى بيت الله ويقول: ما لهذا السفر إلا شيئان: شد الهميان (٣)، والتوكل على الرحمن

(١) هذا الحديث قال عنه ابن حجر: «أخرجه ابن أبى حاتم، وعبيد بن محمد، وأبو بكر بن أبى شيبة، عن ابن عباس، وإسناده صحيح».

(٢) طرطوس: هى مدينة بالشام، تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، أنشئت على يد سليمان ـ خادم الرشيد ـ سنة بضع وتسعين ومائة. معجم البلدان (٤/ ٣١).

(٣) الهميان: هو الجراب الذى توضع فيه النقود، ويشد على الوسط، حماية لها من الضياع أثناء السفر، والجمع: هماين.
(المعجم الوسيط ٢/ ٩٩٦).

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا﴾ أى: أهلها فحذف كما فى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (١) وأى مبتدأ، وخبره: ﴿أَزْكَى﴾ أحل وأطيب، أو أكثر وأرخص ﴿طَعَامًا﴾ تمييز ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف فيما يباشره من أمر المبايعة حتى لايغبن، أو فى أمر التخفى حتى لايعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولايفعلن ما يؤدى إلى الشعور بنا من غير قصد منه فسمى ذلك إشعاراً منه بهم؛ لأنه سبب فيه.

●● والضمير فى ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى الأهل المقدر فى أيها ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يطلعوا عليكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم أخبث القتلة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ بالإكراه، والعود بمعنى الصيرورة كثير فى كلامهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ إذاً يدل على الشرط أى: ولن تفلحوا إن دخلتم فى دينهم أبدا.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لما فى ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أى: الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ وهو البعث ﴿حَقٌّ﴾ كائن؛ لأن حالهم فى نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإنهم يستدلون بأمرهم على صحة البعث ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾ متعلق بأعثرنا أى: أعثرناهم عليهم حين يتنازع أهل ذلك الزمان ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾: أمر دينهم ويختلفون فى حقيقة البعث فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف وليتبين أن الأجساد تُبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿فَقَالُوا﴾ حين توفى الله أصحاب الكهف ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ أى: على باب كهفهم؛ لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله (ﷺ) بالحظيرة ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام فى أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ربهم أعلم بهم، أو من كلام الله عزوجل رداً لقول الخائضين فى حديثهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ على باب الكهف ﴿مَّسْجِدًا﴾ يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم. روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها، وممن شدد فى ذلك دقيانوس فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فأنطقه الله تعالى فقال: ما تريدون منى إنى أحب أحباء الله، فناموا وأنا أحرسكم. وقيل: مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله مَلَكَ مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف أهل مملكته فى البعث معترفين وجاحدين فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين

(١) سورة «يوسف»، الآية (٨٢).

لهم الحق فألقى الله فى نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سَدَّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم، فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم فى المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجداً.

•• ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير فى سيقولون لمن خاض فى قصتهم فى زمن رسول الله (ﷺ) من المؤمنين، وأهل الكتاب سألوا رسول الله (ﷺ) عنهم فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم؛ فنزلت إخبارا بما سيجرى بينهم من اختلافهم فى عددهم وأن المصيب منهم من يقول: سبعة وثامنهم كلبهم. ويروى أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبى (ﷺ) فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد ـ وكان يعقوبيا ـ: ـ كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب ـ وكان نسطوريا ـ: كانوا خمسة سادسهم كلبهم ـ: وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله (ﷺ) وبما ذكرنا من قبل. وعن على ـ رضى الله عنه ـ : هم سبعة نفر أسماؤهم: يمليخا ومكشلينا ومشلينا، هؤلاء أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوش ودبرنوش وشاذنوش، وكان يستشير هؤلاء الستة فى أمره، والسابع: الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس، واسم مدينتهم: أفسوس [1] واسم كلبهم قطمير وسين الاستقبال وإن دخل فى الأول دون الآخرين فهما داخلان فى حكم السين، كقولك: قد أكرم وأنعم تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعاً، أو أريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له. ثلاثة خبر مبتدأ محذوف أى: هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة، ورابعهم كلبهم جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة، وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم، رجما بالغيب رميا بالخبر الخفى وإتيانا به كقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [2] أى: يأتون به أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، والواو الداخلة على الجملة الثالثة هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة النكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى قولك: جاءنى رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفى يده سيف، وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هى التى آذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن

---

(١) أفسوس: هى بلد بثغور طرطوس، يقال إنها قرية أصحاب الكهف. معجم البلدان (١/ ٢٧٤).
(٢) سورة «سبأ»، الآية (٥٣).

كما رجم غيـرهم. دليله أن الله تعالى أتبـع القولين الأولين قوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، وأتبع القول الثالث قوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أى: قل ربى أعلم بعدتهم وقـد أخبركم بها بقوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال ابن عـباس ـ رضى الله عنـهما ـ أنا من ذلك الـقليل، وقيل: إلا قليل من أهل الكتاب، والضمير فى سيقولون على هذا لأهل الكتاب خاصة أى: سيقول أهل الكتاب فيهـم كذا وكذا، ولا علم بذلك إلا فى قليل منهـم، وأكثرهم على ظن وتخمين ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أصحاب الكهف ﴿إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ إلا جدالا ظاهراً غير متعمق فيه وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم، أو بمشهد من الناس ليظهر صدقك ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئا فترده عليـه وتزيف ماعنده ولا سؤال مسترشد؛ لأن الله تعالى قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.

●● ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ لأجل شيء تعـزم عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ الشيء ﴿غَدًا﴾ أى: فيما يستقبل من الزمان، ولـم يرد الغد خاصة.

●● ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن تقوله بأن يأذن ذلك لك فيـه، أو ولا تقولنه إلا بأن يشاء الله أى: إلا بمشيئته وهو فى موضع الحال أى: إلا ملتبسا بمشيئة الله قائلا إن شاء الله، وقال الزجاج: معناه ولا تقولن إنى أفعل ذلك إلا بمشيئة الله تعالى؛ لأن قول القائل أنا أفعل ذلك إن شاء الله معناه لا أفعله إلا بمشيئة الله، وهـذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهـود لقريش: سلوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وذى القرنـين، فسألوه. فقال: ائتونى غدا أخبركم، ولم يستـثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ أى: مشيئـة ربك، وقل إن شاء الله ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنـى إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فـتداركها بالذكر عن الحسن مادام فى مجلس الذكر وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستـثناء، فأما الاستثناء المغير حـكما فلا يصح إلا متصلا وحكى أنه بـلغ المنصور أن أبا حنيفة ـ رحمه الله ـ خالف ابـن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى الاستثناء المنفصل فـاستحضره لينكر عليه، فقـال له أبو حنيفة: هذا يـرجع عليك إنك تأخذ الـبيعة بالأيمان؛ أفترضـى أن يخرجوا من عندك فيستثـنوا فيخرجوا عليك؛ فاستحـسن كلامه وأمر الطاعن فيه بإخراجـه من عنده، أو معناه: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيْت كلمة الاستثناء تشديداً فى البعث على الاهتمام بها، أو: صلِّ صلاة نسيتها إذا ذكرتها، أو: إذا نسيت شيئا فاذكره ليذكرك المنسى ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ يعنى: إذا نسيت شيئا فاذكر ربك، وذكـر ربك عند نسيانه أن تقول: عسى ربى أن يهديـنى لشيء آخر بدل هذا المـنسى أقرب منه رشـداً وأدنى خيرا ومنفعـة. أن يهدين، إن ترن، أن يؤتين، أن تعلمن. مكى فى الحالين، ووافقه أبو عمرو ومدنى فى الوصل.

●● ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ يريد لبثهم فيه أحياء مضروبا على آذانهم هذه المدة وهو

بيان لما أجمل في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[1] وسنين عطف بيان لثلاثمائة. ثلاثمائة سنين بالإضافة حمزة وعليّ على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز، كقوله: ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ [2] ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي: تسع سنين لدلالة ما قبله عليه وتسعا مفعول به؛ لأن زاد تقتضي مفعولين فازداد يقتضي مفعولا واحدا.

●● ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي: هو أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما أخبرك به، أو هو حكاية لكلام أهل الكتاب، وقل الله أعلم رد عليهم، والجمهور على أن هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى أنهم لبثوا في كهفهم كذا مدة ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ذكر اختصاصه بعلم ما غاب في السماوات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: وأسمع به والمعنى ما أبصره بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع ﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ من متولٍّ لأمورهم ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا تشرك على النهي شامي، كانوا يقولون له: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، فقيل له:

●● ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل فإنه ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا يقدر أحد على تبديلها أو تغييرها، إنما يقدر على ذلك هو وحده ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ تعدل إليه إنْ هممت بذلك. ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله (ﷺ): نحِّ هؤلاء الموالي؛ وهم: صهيب وعمار وخباب [3] وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل:

●● ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ واحبسها معهم وثبتها ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ دائبين على الدعاء في كل وقت، أو بالغداة لطلب التوفيق والتيسير والعشي لطلب عفو التقصير، أو هما صلاة الفجر والعصر. بالغُدوة شامي ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ رضا الله ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تجاوز، عداه إذا جاوزه، وعدى بعن لتضمن عدا معنى نبا في قولك: نبت عنه عينه، وفائدة التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في موضع الحال ﴿وَلاَ

---

(١) سورة «الكهف»، الآية (١١).

(٢) سورة «الكهف»، الآية (١٠٣).

(٣) هو الصحابي الجليل؛ خبَّاب بن الأرَتّ بن جندلة بن سعد، التميمي، أبو عبدالله، من السابقين الأولين، وكان أول من أظهر إسلامه، وكان قيناً في الجاهلية، وكان رقيق الحال، ومع ذلك كان من كبار معلمي القرآن للصحابة، ومن كبار المجاهدين المستضعفين، شهد المشاهد كلها، نزل الكوفة، ومات بها عام ٣٧هـ، وهو ابن ٧٣ عاماً، وقيل غير ذلك.
تهذيب التهذيب (٢/ ٨١).

تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر، وهو دليل لنا على أنه تعالى خالق أفعال العباد ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ مجاوزا عن الحق.

●● ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أى: الإسلام أو القرآن، والحق خبر مبتدأ محذوف أى: هو ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أى: جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ فى طريق النجاة، أو فى طريق الهلاك وجئ بلفظ الأمر والتخيير؛ لأنه لما مُكِّنَ من اختيار أيهما شاء فكأنه مخير مأمور بأن يتخير ماشاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ للكافرين فقيد بالسياق كما تركت حقيقة الأمر والتخيير بالسياق وهو قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهى الحجرة التى تكون حول الفسطاط [1] أو هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار، أو هو حائط من نار يطيف بهم ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ هو دردى الزيت [2]، أو ما أذيب من جواهر الأرض، وفيه تهكم بهم ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ ذلك ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ من الرفق وهذه لمشاكلة قوله: وحسنت مرتفقا وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

●● وبين جزاء من اختار الإيمان فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ كلام مستأنف بيان للأجر المبهم ولك أن تجعل: (إنا لا نضيع)، و(أولئك) خبرين معا، والمراد: من أحسن منهم عملا، كقولك: السمن منوان بدرهم، أو لأن من أحسن عملا، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ينتظمهما معنى واحد فأقام من أحسن مقام الضمير ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ من للابتداء، وتنكير أساور وهى جمع أسورة التى هى جمع سوار لإبهام أمرها فى الحسن ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ من للتبيين ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ ما رق من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ماغلظ منه أى: يجمعون بين النوعين ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ خص الاتكاء؛ لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ الجنة ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنة والأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ.

●● ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾: ومثّل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين، وكانا أخوين فى بنى إسرائيل أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا، وقيل: هما المذكوران فى: «والصافات» فى قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [3] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار

---

(١) الفسطاط: هو القباء، أو الخيمة، تضرب من الشعر ونحوه.
(المعجم الوسيط ٢/٦٨٨).

(٢) دردى الزيت: هو ما يبقى أسفله.
القاموس (١/٢٩٢).

(٣) سورة «الصافات»، الآية (٥١).

فجعلاها شطرين، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال المؤمن: اللهم إن أخى اشترى أرضاً بألف دينار وأنا أشترى منك أرضاً فى الجنة بألف فتصدق به، ثم بنى أخوه داراً بألف فقال: اللهم إنى أشترى منك داراً فى الجنة بألف فتصدق به، ثم تزوَّج أخوه امرأة بألف فقال: اللهم إنى جعلت ألفا صداقاً للحور، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال: اللهم إنى اشتريت منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به، ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله ﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ بساتين من كروم ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجلعنا النخل محيطاً بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين (١) فى كرومهم أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة، يقال: حفوه إذا أطافوا به وحففته بهم أى: جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ جعلناها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه، ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

●● ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ أعطت حمل على اللفظ؛ لأن لفظ كلتا مفرد، ولو قيل آتتا على المعنى لجاز. ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ ولم تنقص من أكلها ﴿شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾ نعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما هو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به وهو النهر الجارى فيها.

●● ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ لصاحب الجنتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال؛ من ثمر ماله إذا كثره أى: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما له ثمر، وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم، وبضم الثاء وسكون الميم أبو عمرو وبضمهما غيرهما ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه الكلام من حار يحور إذا رجع يعنى قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به فى الجنتين ويريه مافيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أنصاراً وحشماً، أو أولادا ذكوراً؛ لأنهم ينفرون معه دون الإناث.

●● ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ إحدى جنتيه، أو سماهما جنة لاتحاد الحائط، وجنتين للنهر الجارى بينهما ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ ضار لها بالكفر ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ أى: أن تهلك هذه الجنة شك فى بيدودة جنته؛ لطول أمله وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك.

●● ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن فى الآخرة خيراً من جنته فى الدنيا إدعاء لكرامته عليه ومكانته عنده. منقلبا تمييز أى: مرجعاً وعاقبة.

(١) الدهاقين: جمع دهقان ـ وهى كلمة معربة ـ ومعناه: القوى على التصرف مع حدَّة، وزعيم فلاحى العجم، أو التاجر، أو الرئيس. القاموس (٤/ ٢٢٤).

•• ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أى: خلق أصلك؛ لأن خَلْقَ أصله سبب فى خلقه، وكان خلقه خلقاً له ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى: خلقك من نطفة ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ عدلك وكملك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال؛ جعله كافراً بالله لشكه فى البعث.

•• ﴿لَّكِنَّا﴾ بالألف فى الوصل شامى، الباقون بغير ألف، وبالألف فى الوقف اتفاق، وأصله: لكن أنا فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نـون لكن؛ فتلاقت النونان فأدغمت الأولى فى الثانية بعد أن سكنت ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ هو ضمير الشأن، والشأن الله ربى والجمـلة خبر أنا، والراجع منـها إليه ياء الضمير، وهو استدراك لقـوله: أكفرت قال لأخـيه: أنت كافر بالله لكنى مؤمـن موحد كما تقول: زيد غـائـب لكن عمراً حـاضر، وفيه حذف أى: أقول: هـو الله؛ بدليل عطف ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

•• ﴿وَلَوْلَا﴾ وهلا ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ما موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقـديره: الأمر ماشاء الله، أو شرطية مـنصوبة الموضع والجزاء محـذوف يعنى: أى شىء شاء الله كان، والمعـنى: هلا قلت عند دخولهـا والنظر إلى مارزقك الله منـها الأمر: ما شاء الله؛ اعترافا بأنها وكل مافيها إنمـا حصل بمشيئة الله وأن أمرها بيده إن شاء تـركها عامرة وإن شاء خربها ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبـير أمرها هو بمعونته وتأييده. من قرأ ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا﴾ بنصب أقل فقد جعل أنا فصلا، ومـن رفع ـ وهـو الكسائى ـ جعـله مبتدأ وأقـل خبره والجملة مفعولا ثانياً لترنى، وفى قـوله: ﴿وَوَلَدًا﴾ نصـرة لمن فسر النـفر بالأولاد فى قوله: وأعز نفراً.

•• ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ فى الدنيا أو فـى العقبى ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها لملاستها.

•• ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ غائرا أى: ذاهباً فى الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ فلا يتأتى منك طلبه فضلا عن الوجود، والمعنى: إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بى ومابك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيراً من جنتك، ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك.

•• ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ هو عبارة عـن إهلاكه وأصله من أحـاط به العدو؛ لأنه إذا أحاط بـه فقد ملكه واستـولى عليه، ثم استعـمل فى كل إهلاك ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أى: الكـافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ يضرب إحداهما على الأخرى ندمـاً وتحسراً، وإنما صار تقليب الكفين كناية عن الـندم والتحسر؛ لأن النادم يقلب كفـيه ظهراً لبطن كمـا كنى عن ذلك بعَضِّ الكف والـسقوط فى اليد، ولأنه فى مـعنى الندم عدى تعديته بـ «على»، كأنه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ أى: فى عمارتها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يعنى أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض، وسقطت فوقها الكروم ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ تذكر موعظة أخيه، فعلم أنه أتى من جهة كفره وطغيانه؛ فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لايهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمنى، ويجوز أن يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا فى الإيمان.

●● ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ﴾ يقدرون على نصرته ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: هو وحده القادر على نصرته لايقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لحكمة ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله.

●● ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ يكن بالياء والولاية بكسر الواو حمزة وعلى، فهى بالفتح النصرة والتولى، وبالكسر السلطان والملك، والمعنى: هنالك ـ أى فى ذلك المقام وتلك الحال ـ النصرة لله وحده لايملكها غيره ولايستطيعها أحد سواه تقريراً لقوله: ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله، أو: هنالك السلطان والملك لله لايغلب، أو: فى مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعنى أن قوله: ياليتنى لم أشرك بربى أحداً كلمة ألجىء إليها فقالها جزعاً مما دهاه من شؤم كفره، ولولا ذلك لم يقلها، أو: هناك الولاية لله ينصر فيها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم؛ يعنى أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن، وصدق قوله: فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء، ويؤيده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: لأوليائه، أو هنالك إشارة إلى الآخرة أى: فى تلك الدار الولاية لله كقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (١). الحق بالرفع أبو عمرو وعلى صفة للولاية، أو خبر مبتدأ محذوف أى: هى الحق، أو هو الحق غيرهما بالجر صفة لله. عقبا بسكون القاف عاصم وحمزة، وبضمها غيرهما، وفى الشواذ: عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة.

●● ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى: هى كماء أنزلناه ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضاً، أو أثر فى النبات الماء فاختلط به حتى روى ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً متكسراً الواحدة هشيمة ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ تنسفه وتطيره. الريح حمزة وعلى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادراً. شبه حال الدنيا فى نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والإفناء بحال النبات يكون أخضر ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن.

●● ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لازاد القبر وعدة العقبى ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان، أو الصلوات الخمس، أو سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله

(١) سورة «غافر»، الآية (١٦).

والله أكبر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ جزاء ﴿وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ لأنه وعد صادق وأكثر الآمـال كاذبة، يعنى أن صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ويصيبه فى الآخرة.

●● ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ تُسَيَّر الجبال مكى وشامـى وأبو عمرو، أى: تسير فى الجو، أو يذهب بها بأن تجعل هباءً منثوراً منبثاً ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ليس عليها مايسترها مما كان عليها مـن الجبال والأشجار ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أى: الموتى ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أى: فلم نـترك. غادره أى: تركه، ومنه الغدر ترك الوفاء، والغدير ماغادره السيل.

●● ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ مصطفين ظاهرين ترى جماعـتهم كما ترى كل واحد لا يحجب أحد أحدا، شبهت حالهم بحال الجـند المعروضين على السلطان ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أى قلنا لهم: لقد جئتمونا، وهذا المضمر يجوز أن يـكون عامل النصب فى يوم نسير ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: لقد بعثناكم كما أنشأناكم أول مرة، أو جئتمونا عراة لا شىء معكم كما خلقناكم أولا، وإنما قال: وحشرناهـم ماضيا بعد نسيـر وترى للدلالة على حشـرهم قبل التسييـر وقبل البروز ليعايـنوا تلك الأهوال، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز ماوعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور، أو مكان وعد للمحاسبة.

●● ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أى: صحف الأعمال ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً﴾ أى: لايترك شيئاً من المعاصى ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ حصرها وضبطها ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ فى الصحف عتيدا، أو جزاء ماعملوا ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه مالم يعمل أو يزيد فى عقابه أو يعذبه بغير جرم.

●● ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ سجود تحية أو سجود انقياد ﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهو مستـأنف كأن قائلا قال ما لـه لم يسجد؟ فقيـل: كان من الجن ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ خرج عما أمره ربه به من السجود، وهو دليل على أنه كان مأموراً بالسجود مع الملائكة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب كأنه قيـل أعقيب ماوجد منه تتخذونه وذريته ﴿أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ وتستـبدلونهـم بى، ومن ذريتـه لاقيس موسوس الـصلاة، والأعور صاحـب الزنا، وبتـر صاحب المصائب، ومطوس صاحب الأراجيف، وداسم يدخـل ويأكل مع من لم يُسَمِّ الله تعالى ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾أعداء ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله.

●● ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أى: إبليس وذريته ﴿خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعنى أنكم اتخذتموهم شركاء لى فى العبادة، وإنمـا يكونون شركاء فيها لو كانوا شـركاء فى الإلهية فنفى مشاركتـهم فى الإلهية

بقوله: ما أشهدتهم خلق السموات والأرض لأعتضد بهم فى خلقها، أو أشاورهم فيه، أى: تفردت بخلق الأشياء فأفردونى فى العبادة ﴿وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[1] ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أى: وما كنت متخذهم﴿عَضُدًا﴾ أى: أعوانا فوضع المضلين موضع الضمير ذمًّا لهم بالإضلال، فإذا لم يكونوا عضداً لى فى الخلق فمالكم تتخذونهم شركاء لى فى العبادة.

•• ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الله للكفار. وبالنون حمزة ﴿نَادُوا﴾ ادعوا بصوت عال ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم فيكم شركائى ليمنعوكم من عذابى وأراد الجن وأضاف الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ مهلكا من وبق يبق وبوقا إذا هلك، أو مصدر كالموعد أى: وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم، وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعاً، أو الملائكة وعزيراً وعيسى، والموبق: البرزخ البعيد، أى: وجعلنا بينهم أمداً بعيداً؛ لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان.

•• ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مخالطوها واقعون فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا﴾ عن النار ﴿مَصْرِفًا﴾ معدلا.

•• ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجون إليه ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ تمييز أى: أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحداً بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل، يعنى أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء.

•• ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ أى: سببه وهو الكتاب والرسول ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾أن الأولى نصب، والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الإيمان والاستغفار إلا انتظار أن تأتيهم سنة الأولين، وهى الإهلاك، أو انتظار أن يأتيهم العذاب أى: عذاب الآخرة ﴿قُبُلاً﴾ كوفى أى أنواعا، جمع قبيل. الباقون قِبلا أى عيانا.

•• ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يوقف عليه ويستأنف بقوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ هو قولهم للرسل: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[2]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾[3]ونحو ذلك؛ ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾

---

(١) سورة «النساء»، الآية (٢٩).

(٢) سورة «يس»، الآية (١٥).

(٣) سورة «المؤمنون»، الآية (٢٤).

«ما» موصولة والراجع من الصلة محذوف أى: وما أنذروه من العقاب، أو مصدرية أى: وإنذارهم ﴿هُزُواً﴾ موضع استهزاء. بسكون الزاى والهمزة حمزة. وبإبدال الهمزة واوا حفص. وبضم الزاى والهمزة غيرهما.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بالقرآن؛ ولذلك رجع الضمير إليها مذكراً فى قوله: أن يفقهوه ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ عاقبة ماقدمت يداه من الكفر والمعاصى غير متفكر فيها ولا ناظر فى أن المسئ والمحسن لابد لهما من جزاء، ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان وهو الغطاء ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ ثقلا عن استماع الحق وجمع بعد الإفراد حملا على لفظ من ومعناه: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ﴾ يامحمد ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ إلى الإيمان ﴿فَلَن يَهْتَدُوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء ألبتة ﴿إِذاً﴾ جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً فى انتفائه وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله: مالى لا أدعوهم حرصاً على إسلامهم؟! فقيل: وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً ﴿أَبَداً﴾ مدة التكليف كلها.

●● ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أى: ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلا مع فرط عداوتهم لرسول الله (ﷺ) ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يوم بدر ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ منجى ولا ملجأ يقال: وأل إذا نجا، ووأل إليه إذا لجأ إليه.

●● ﴿وَتِلْكَ﴾ مبتدأ ﴿الْقُرَىٰ﴾ صفة؛ لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس، والخبر ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أو «تلك القرى» نصب بإضمار «أهلكنا» على شريطة التفسير، والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم، والمراد: قوم نوح وعاد وثمود ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾-وضربنا لإهلاكهم وقتاً معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك: الإهلاك ووقته. وبفتح الميم وكسر اللام حفص. وبفتحهما أبو بكر أى: لوقت هلاكهم أو لهلاكهم، والموعد وقت أو مصدر.

●● ﴿وَإِذْ﴾ واذكر إذ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ هو يوشع بن نون، وإنما قيل فتاه؛ لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ لا أزال، وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه أما الأولى فلأنها كانت حال سفر، وأما الثانى فلأن قوله: ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ غاية مضروبة تستدعى ما هى غاية له فلابد أن يكون المعنى: لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، وهو المكان الذى

وعد فيه موسى لقاء الخضر ـ عليهما السلام ـ وهو ملتقى بحر فارس والروم، وسمى خضرا؛ لأنه أينما يصلى يخضر ما حوله ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو أسير زمانا طويلا قيل ثمانون سنة. روى أنه لما ظهر موسى ـ عليه السلام ـ على مصر مع بنى إسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه: أى عبادك أحب إليك؟ قال الذى يذكرنى ولاينسانى. قال فأى عبادك أقضى؟ قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال فأى عبادك أعلم؟ قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، فقال: إن كان فى عبادك من هو أعلم منى فدلنى عليه. قال: أعلم منك الخضر قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يارب كيف لى به؟ قال: تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع فى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه فى البحر فأتيا الصخرة فإذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال: وأنى بأرضنا السلام فعرفه نفسه، فقال: ياموسى أنا على علم علمنيه الله لاتعلمه أنت، وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا (١).

●● ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ مجمع البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أى: نسى أحدهما وهو يوشع؛ لأنه كان صاحب الزاد؛ دليله: «فإنى نسيت الحوت»، وهو كقولهم: نسوا زادهم، وإنما ينساه متعهد الزاد قيل: كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطىء عين الحياة ونام موسى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت فى الماء ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ أى: اتخذ طريقا له من البر إلى البحر ﴿سَرَبًا﴾ نصب على المصدر أى: سرب فيه سربا يعنى دخل فيه واستربه.

●● ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين، ثم نزلا وقد سارا ماشاء الله ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك.

●● ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ هى موضع الموعد ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ ثم اعتذر فقال: ﴿وَمَا أَنسَانِيهِ﴾ وبضم الهاء حفص ﴿إِلاَّ الشَّيْطَانُ﴾ بإلقاء الخواطر فى القلب ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدل من الهاء فى أنسانيه أى: وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ وهو أن أثره بقى إلى حيث سار.

●● ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نطلب وبالياء مكى، وافقه أبو عمرو وعلى ومدنى فى الوصل. وبغير ياء فيهما غيرهما اتباعا لخط المصحف، وذلك إشارة إلى اتخاذه سبيلا أىْ: ذلك الذى كنا نطلب؛ لأن ذهاب الحوت كان علما على لقاء الخضر ـ عليه السلام ـ ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه ﴿قَصَصًا﴾ يقصان قصصا أى: يتبعان آثارهما اتباعا، قال الزجاج: القصص اتباع الأثر.

---

(١) وردت هذه القصة فى صحيح البخارى باختصار عن أبىّ بن كعب، رضى الله عنه.

•• ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ أى: الخضر راقدا تحت ثوب، أو جالسا فى البحر ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هى الوحى والنبوة، أو العلم أو طول الحياة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يعنى الإخبار بالغيوب، وقيل: العلم اللدنى ما حصل للعبد بطريق الإلهام.

•• ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أى: علما ذا رشد أرشد به فى دينى، رَشَدًا أبو عمرو وهما لغتان كالبخل، وفيه دليل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

•• ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ وبفتح الياء حفص، وكذا ما بعده فى هذه السورة ﴿صَبْرًا﴾ أى: عن الإنكار والسؤال.

•• ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ تمييز نفى استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا هى فى ظاهرها مناكير، والرجل الصالح لا يتمالك أن يجزع إذا رأى ذلك فكيف إذا كان نبيا.

•• ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ من الصابرين عن الإنكار والإعراض ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فى محل النصب عطف على صابرا أى: ستجدنى صابراً وغير عاص، أو هو عطف على ستجدنى ولا محل له.

•• ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بفتح اللام وتشديد النون مدنى وشامى، وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما إجماعا ﴿عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: فمن شرط اتباعك لى أنك إذا رأيت منى شيئا وقد علمت أنه صحيح إلا أنه خفى عليك وجه صحته فأنكرت فى نفسك أن لا تفاتحنى بالسؤال ولا تراجعنى فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من أدب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع.

•• ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال أهلها: هما من اللصوص، وقال صاحب السفينة: أرى وجوه الأنبياء فحملوها بغير نول[(١)] فلما لججوا [(٢)] أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها مما يلى الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه، ثم ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ليَغرق حمزة وعلى من غرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتيت شيئاً عظيما مِنْ أمر الأمر إذا عظم.

•• ﴿قَالَ﴾ أى: الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فلما رأى موسى أن الخرق لايدخله الماء ولم يفر من السفينة.

---

(١) النوْل: مصدر «نال»، أى: أخذ. والمعنى: من غير أن يأخذوا أجرة.

(٢) لججوا: خاضوا فى الماء؛ لأن اللجة هى بركة الماء الضحلة.

•• ﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذى نسيته، أو بشىء نسيته، أو بنسيانى أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذة على الناسى، أو أراد بالنسيان الترك أى: لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة ﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه، أى: ولاتغشنى عسرا من أمرى وهو اتباعه إياه، أى: ولا تعسر على متابعتك ويسرها على بالإغضاء وترك المناقشة.

•• ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: ضرب برأسه الحائط، وقيل: أضجعه ثم ذبحه بالسكين، وإنما قال فقتله بالفاء، وقال: خرقها بغير فاء؛ لأن خرقها جعل جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه، والجزاء ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ وإنما خولف بينهما؛ لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام ﴿زَكِيَّةً﴾ زاكية حجازى وأبو عمرو، وهى الطاهرة من الذنوب، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت، أو لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى: لم تقتل نفسا فيقتص منها، وعن ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أن نجدة الحرورى[1] كتب إليه كيف جاز قتله، وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن قتل الولدان فكتب إليه: أنْ علمت من حال الولدان ما علمه موسى فلك أن تقتل[2] ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وبضم الكاف حيث كان مدنى وأبو بكر وهو المنكر، وقيل: النكر أقل من الإمر؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة، أو معناه جئت شيئاً أنكر من الأول؛ لأن الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل.

•• ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد «لك» هنا؛ لأن النكر فيه أكثر.

•• ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه الكرة أو المسألة ﴿فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أعذرت فيما بينى وبينك فى الفراق. ولدنى بتخفيف النون مدنى وأبو بكر.

•• ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هى أنطاكية[3] أو الأيلة[4] وهى أبعد أرض الله من السماء ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ استضافا ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ ضيفه أنزله وجعله ضيفه قال ـ عليه السلام ـ:

---

(١) هو: نجدة بن عامر الحرورى، الحنفى، من بنى حنيفة، من بكر بن وائل، وهو رأس الفرقة «النجدية»، وهى فرقة من فرق الخوارج، ولكنه انفرد عنهم بآراء، ولد عام ٣٦هـ، ومات عام ٦٩هـ.
الأعلام (٨/ ١٠).

(٢) أصله فى مسلم، ولكن بغير هذا السياق.

(٣) أنطاكية: مدينة من مدن الشام، فتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً بدون قتال.
(معجم البلدان ١/ ٣١٦).

(٤) الأيلة: بلدة على نهر دجلة بالبصرة، أصبحت مصراً أيام الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ونسب إليها جماعة من أهل العلم.
(معجم البلدان ١/ ٩٨).

«كانوا أهــل قرية لئــاماً». (١) وقيل: شــر القرى التــى تبخل بــالقرى ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ فى القــرية ﴿جِدَارًا﴾ طوله مــائة ذراع ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يكاد يسقــط، استعيرت الإرادة للمداناة والمــشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بيده أو مسحه بيده فقام واستوى، أو نقضه وبناه، كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة فلم يجدا مواسيا فلما أقام الجدار لم يتمــالك موسى لما رآى من الحرمان ومــساس الحاجة أن ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفــع به الضرورة. لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الــذال بصرى، وبإظهــارها مكى، وبتــشديد التاء وفــتح الخاء وإظهار الــذال حفص، وبتشديد التاء وفتح الخاء، وإدغام الذال فى التاء غيــرهم، والتاء فى تخذ أصل كما فى تبع، واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ فى شىء.

●● ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذا إشارة إلى السؤال الثالث أى: هذا الاعتراض سبب الفراق والأصل هذا فراق بينى وبيــنك وقد قرئ به فأضيف المصدر إلى الظرف كمــا يضاف إلى المفعول به ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

●● ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قيل: كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون فى البحر ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلها ذات عيب ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ أمامهم أو خلفهم، وكان طريقهم فى رجوعهم عليه، ومــا كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندى ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أى: يأخذ كل سفينة صالحة لاعيب فيها غصباً، وإن كانت معيبة تركها، وهو مصدر أو مفعول له، فــإن قلت: قوله فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغــصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب، قلت المراد به التأخير وإنما قدم للعناية.

●● ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ وكان اسمه الحسين ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمــنين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقــه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء، أو يعديهــما بدائه ويضلهما بضلالــه فيرتدا بسببه، وهو من كــلام الخضر، وإنما خشى الخضر مــنه ذلك، لأنه تعالــى أعلمه بحالــه وأطلعه علــى سر أمره، وإن كان من قول الله تــعالىَ فمعنى فخشينا فعلمنا إن عاش أن يصير سببا لكفر والديه.

●● ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ يبدّلهما ربهــما مدنى وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ طهارة ونقاء من الذنوب ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمة وعطفا وزكاة ورحما تمييــز، روى أنه ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا أو سبعين نبيا، أو أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما رُحُما شامى وهما لغتان.

---

(١) رواه النسائى، من حديث أبى بن كعب، رضى الله عنه.

●● ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ﴾ أصرم وصـريم ﴿يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هي القريـة المذكورة ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ أى: لوح من ذهب مكتـوب فيه: «عجبت لمن يؤمن بالـقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبـت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجـبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها يطـمئن إليها. لا إله إلا الله محمد رسول الله». [1] أو مال مدفون مـن ذهب وفضة، أو صحف فـيها علم، والأول أظهـر، وعن قتادة أحل الكنز لمن قبلـنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عـليهم وأحلت لنا ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا﴾ قيل جدهما السابع ﴿صَالِحًا﴾ ممن يصحبنى، وعن الحسين بن علـى ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال لبعض الخوارج فى كـلام جرى بينـهما بم حفـظ الله الغلامين؟ قـال: بصلاح أبـيهما. قـال: فأبى وجدى خـير منه﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أى: الحلم ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً﴾ مفعول لـه، أو مصدر منصوب بأراد ربك؛ لأنه فى معنى رحمهما ﴿مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ وما فعلت ما رأيت ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ عن اجتـهادى، وإنما فعلـته بأمر الله والهـاء تعود إلى الكـل أو إلى الجدار ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الأجوبة الثلاثة ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ حذف التـاء تخفيفـاً وقد زل أقدام أقوام من الـضلال فى تفضيل الـولى على النبى، وهو كـفر جلى حيث قالوا أمـر موسى بالتعلم مـن الخضر وهو ولىّ، والجواب أن الخضر نبى وإن لم يـكن كما زعم البعض فهذا ابتلاء فى حق مـوسى ـ عليه السلام ـ على أن أهل الكتاب يقولون: إن موسى هذا ليس موسى بن عمـران إنما هو موسى بن ماثان ومن المحال أن يكون الولـىّ ولياً إلا بإيمانه بالنبى، ثـم يكون النبى دون الولىّ، ولا غضـاضة فى طلب موسى العلم؛ لأن الزيادة فى العلم مطلوبـة وإنما ذكر أولا فأردت، لأنه إفساد فى الظاهر وهو فعله وثالثا فأراد ربك؛ لأنـه إنعام محض وغير مقدور البـشر، وثانيا فأردنا لأنه إفساد مـن حيث الفعل إنعام من حيث التبديل. وقال الزجاج: معنى فأردنا فأراد الله عزوجل ومثله فى القرآن كثير.

●● ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أى: اليهود على جهة الامتـحان، أو أبو جهل وأشياعه ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ هو الإسكـندر الذى ملـك الدنيا، قـيل: ملـكها مؤمـنان ذو القـرنين وسلـيمان، وكافـران نمرود وبختنصر، وكان بعد نمرود، وقيل: كان عبداً صالحا ملّكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة؛فإذا سرى يهديه النور من أمامـه وتحوطه الظلمة من ورائه، وقيل:نبيا وقيل: ملكا من الملائكـة. وعن علىّ ـ رضى الله عنـه ـ أنه قال: ليس بملـك ولا نبى ولكن كان عـبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن فى طـاعة الله فمات، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيـسر فمات فبعثه الله فسمى ذا القرنين. وفيكم مثله [2] أراد نفسه، قيل: كان يـدعوهم إلى التوحيد فيقتلـونه فيحييه الله تعالى، وقال ـ عليه السلام: ـ «سمـى ذا القرنين؛ لأنه طاف قرنى الدنيا» [3]. يعنى جانبيها شرقها

(١) فى مسند البزار من حديث أبى ذر يرفعه، بألفاظ مختلفة.

(٢) الحديث أخرجه الطبرى عن أبى الطفيل.

(٣) رواه الدارقطنى عن الزهرى فى المؤتلف.

وغربها، وقيل: كان له قرنان أي: ضفيرتان، أو انقرض في وقتـه قرنان من الناس، أو لأنه ملك الروم وفارس، أو الترك والروم، أو كان لتاجه قرنان، أو على رأسه ما يشبه القرنين، أو كان كريم الطرفين أبا وأما، وكان من الروم ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾.

•• ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا له فيـها مكانة واعتلاء ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه ﴿سَبَبًا﴾ طريقا موصلا إليه.

•• ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ والسبب مايتوصـل به إلى المقصود من علم أو قدرة، فأراد بلـوغ المغرب فأتبع سببا. يوصله إليه حتـى بلغ، وكذلك أراد المشرق فأتبع سببا وأراد بلوغ السدين فـأتبع سببا. فأتبع سببا ثم أتبع كوفـي وشامي، الباقون بوصل الألف وتشديد التاء، عن الأصـمعي أتبع لحق، واتبع اقتفى وإن لم يلحق.

•• ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: منتهى بـالعمارة نحو المغرب وكـذا المطلع قال (ﷺ): «بدء أمره أنه وجد في الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد فجعل يسير في طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين». ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة؛ من حمئت البـئر إذا صارت فيها الحمأة حامية شامي وكوفي غيـر حفص بمعنى حارة. وعن أبي ذر كنت رديف رسول الله (ﷺ) عـلى جمل فرأى الشمس حين غابـت فقال: «أتدري يا أباذر أين تغرب هذه؟». قلت: الله ورسوله أعـلم، قال: «فإنهـا تغرب في عين حـامية» [1] وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهمـا ـ عند معاوية فقرأ معاوية حامـية، فقال ابن عباس: حمئة. فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال: كما يقرأ أميـر المؤمنين، ثم وجه إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمـس تغرب؟ قال: في ماء وطين كذلـك نجده في التوراة فوافق قول ابـن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ولا تنافي، فجاز أن تكون العين جامـعة للوصفين جميعا ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ عراة من الثـياب لباسهم جلـود الصيد، وطعامهـم مالفظ البحر وكـانوا كفارا ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ إن كان نبيا فقد أوحى الله إليه بهذا وإلا فقد أوحيِ إلى نبي فأمره النبي به، أو كان إلهاما خير بين أن يعذبهم بالقتل إن أصروا على أمرهم، وبين أن يتخذ فيهم حسنا بإكرامهم وتعليم الـشرائع إن آمنوا، أو التعذيب القتل واتخاذ الحسن الأسر؛ لأنه بالنظر إلى القتل إحسان.

---

(١) متفق علـيه، دون قوله: «تغرب في عيـن حامية»، ورواه ـ كذلك ـ أبو داود، وابن أبـي شيبة، والحاكم. وفي بعضها: «على حمار»، وليس «على جمل».

●● ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في القيامة يعنى أما من دعوته إلى الإسلام فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم؛ وهو الشرك فذاك هو المعذب فى الدارين.

●● ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى: عمل ما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ فله جزاء الفعلة الحسنى التى هى كلمة الشهادة. جزاءً الحسنى كوفى غير أبى بكر أى: فله الفعلة الحسنى جزاء ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أى: ذا يسر أى لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك.

●● ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم الزنج [1] ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ من دون الشمس ﴿سِتْرًا﴾ أى: أبنية عن كعب أرضهم لاتمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوها، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم، أو الستر اللباس، عن مجاهد: من لايلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض.

●● ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى: أمر ذى القرنين كذلك أى كما وصفناه تعظيما لأمره ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿خُبْرًا﴾ نصب على المصدر؛ لأن فى أحطنا معنى خبرنا، أو بلغ مطلع الشمس مثل ذلك أى: كما بلغ مغربها، أو تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم يعنى أنهم كفرة مثلهم، وحكمهم مثل حكمهم فى تعذيبه لمن بقى منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم.

●● ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما. السَّدين وسدًا مكى وأبو عمرو وحفص السُّدين، وسدا حمزة وعلى، وبضمهما غيرهم قيل: ما كان مسدوداً خلقة فهو مضموم، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح، وانتصب بين على أنه مفعول به لبلغ كما انجر بالإضافة فى ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وكما ارتفع فى ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[2]؛ لأنه من الظروف التى تستعمل أسماء وظروفا، وهذا المكان فى منقطع أرض الترك مما يلى المشرق ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ من ورائهما ﴿قَوْمًا﴾ هم الترك ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أى: لايكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها. يُفقهون حمزة وعلى، أن لايفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه؛ لأن لغتهم غريبة مجهولة.

●● ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ هما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وهمزهما

---

(١) الزنج: هم أهل السودان، من سلالة حام.
(الأنساب ٣/ ١٧٠).

(٢) سورة «الأنعام»، الآية (٩٤).

عاصم فقط، وهما من ولد يافث، أو يـأجوج من الترك ومأجوج من الجيل(١) والديلم ﴿مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخـرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يابـسا إلا احتملوه، ولا يموت أحـدهم حتى ينظر إلـى ألف ذكر من صلبه كـلهم قد حمل السلاح، وقيل: هم على صنفين طوال مـفرطو الطول وقصار مفرطو القصر ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ خراجا حمزة وعلى، أى: جعلا نخرجه من أموالنا ونظيرهما النول والنوال ﴿عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

•• ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام وبفكه مكى ﴿ فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ أى: ماجعلنى فيه مكينا من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لـى من الخراج فلا حاجة لى إليه ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ جداراً وحاجزاً حصينا مـوثقا، والردم أكبر من السد.

•• ﴿آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد، والزبـرة القطعة الكبيرة، قيل: حفـر الأساس حتى بلغ الماء، وجعل الأساس مـن الصخر والنحاس المذاب، والبنـيان من زبر الحديد بينها الحـطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافيخ حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختـلط والتصق بعضه ببعض وصار جلداً أَوْصلدا: وقـيل: بعدما بين السدين مائة فرسخ ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بفتحتين جانبى الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أى: يتقابلان، الصُّدُفين مكى وبصرى وشامى. الصُّدْفين أبو بكر ﴿قَالَ انفُخُوا﴾أى: قال ذو القرنين للعملة انفخوا فى الحديد ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ﴾ أى: المنفـوخ فيه وهو الحـديد ﴿نَارًا﴾ كالنار ﴿قَالَ آتُونِي﴾ أعطونى ﴿أُفْرِغْ﴾ أصب ﴿عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ نحاسا مذابا؛ لأنه يقطر وهو منـصوب بأفرغ وتقديره آتونى قطرا أفرغ عليه قطـرا، فحذف الأول لدلالة الثانى عـليه. قال: ائتونى بـوصل الألف حمزة، وإذا ابتـدأ كسر الألف أى: جيئونى.

•• ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بحذف التاء للخفة؛ لأن التاء قريبة المخرج من الطاء ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾أن يعلوا السد ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أى: لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته.

•• ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أى: هذا السد نـعمة من الله ورحمة على عـباده، أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فإذا دنى مجـىء يوم القيامة وشـارف أن يأتى ﴿جَعَلَهُ﴾ أى: السد ﴿دَكَّاءَ﴾ أى: مدكوكا مبسوطا مسوى بالأرض، وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك دكاء كوفى أى: أرضا مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ آخر قول ذى القرنين.

---

(١) الجيل: قيل: إنـهم من أبناء فارس، انتقلوا مـن نواحى اصطخر، وأقاموا هنـاك، فزرعوا وحفروا وغرسوا.
(معجم البلدان ٢/ ٢٣٤).

●● ﴿وَتَرَكْنَا﴾ وجعلنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ بعض الخلق ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ يختلط ﴿فِي بَعْضٍ﴾ أي: يطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى، ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين فى البلاد. وروى أنهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس، ولايقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفا [1] فى أقفائهم فيدخل فى آذانهم فيموتون ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أي: جمع الخلائق للثواب والعقاب ﴿جَمْعًا﴾ تأكيد.

●● ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ وأظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها.

●● ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ عن آياتى التى ينظر إليها، أو عن القرآن فأذكره بالتعظيم، أو عن القرآن وتأمل معانيه ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: وكانوا صُمًّا عنه إلا أنه أبلغ إذ الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع.

●● ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أفظن الكفار اتخاذهم عبادى يعنى: الملائكة وعيسى، ـ عليهم السلام ـ أولياء نافعهم، بئس ماظنوا، وقيل: أن بصلتها سد مسد مفعولى أفحسب وعبادى أولياء مفعولا أن يتخذوا وهذا أوجه يعنى: أنهم لا يكونون لهم أولياء ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ هو ما يقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم بعذاب أليم.

●● ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ لا تمييز، وإنما جمع والقياس أن يكون٦٥٣٦٥٤﴾ مفردا لتنوع الأهواء، وهم أهل الكتاب، أو الرهبان.

●● ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ ضاع وبطل وهو فى محل الرفع أي: هم الذين ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

●● ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار.

●● ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ هى عطف بيان لجزاؤهم ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾أي: جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله.

---

(١) النغف: جمع «نغفة»، أي: «الدودة». وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم. (المعجم الوسيط ٢/١٣٧).

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ تحولا إلى غيرها رضا بما أعطوا، يقال: حال من مكانه حولا أى: لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانيهم، وهذه غاية الوصف؛ لأن الإنسان فى الدنيا فى أى نعيم كان فهو طامح مائل الطرف إلى أرفع منه، أو المراد نفى التحول وتأكيد الخلود.

●● ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أى: ماء البحر ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ قال أبو عبيدة: المداد مايكتب به أى: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها، والمراد بالبحر الجنس ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ بمثل البحر ﴿مَدَدًا﴾ لنفد أيضا والكلمات غير نافدة، ومددا تمييز نحو لى مثله رجلا، والمدد مثل المداد وهو ما يمد به. ينفد حمزة وعلى، وقيل: قال حيى بن أخطب: فى كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، ثم تقرءون وما أوتيتم من العلم إلا قليلا، فنزلت يعنى أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضا وقبول، أو فمن كان يخاف سوء لقاء ربه، والمراد باللقاء القدوم عليه، وقيل: رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا مجرى على حقيقته ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ خالصا لا يريد به إلاوجه ربه، ولا يخلط به غيره، وعن يحيى بن معاذ [1]: هو ما لا يستحيى منه ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هو نهى عن الشرك أو عن الرياء قال ﷺ: «**اتقوا الشرك الأصغر، قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء**» [2] قال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فإن يخرج الدجال فى تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال، ومن قرأ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إلى آخرها عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه، وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ[3].

---

(١) هو: يحيى بن معاذ بن جعفر، الرازى، أبو زكريا، من العباد الزهاد النساك، كان واعظ عصره، ولم يكن له كبير حظ من الحديث، فلم يذكره ابن حجر. توفى عام ٢٥٨هـ بنيسابور.
الأعلام (٨/ ١٧٢).

(٢) الحديث أخرجه ابن مردويه والثعلبى، من حديث أبى هريرة.

(٣) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١/ ٢٦٠٤).

(مريم - عليها السلام - مكية، وهى ثمان - أوتسع - وتسعون آية مدنى وشامى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال السدى: هو اسم الله الأعظم، وقيل: هو اسم للسورة، قرأ على ويحيى بكسر الهاء والياء، ونافع بين الفتح والكسر وإلى الفتح أقرب، وأبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وحمزة بعكسه، وغيرهم بفتحهما.

•• ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ أى: هذا ذكر ﴿عَبْدَهُ﴾ مفعول الرحمة ﴿زَكَرِيَّا﴾ بالقصر حمزة وعلى وحفص، وهو بدل من عبده.

﴿إِذْ﴾ ظرف للرحمة ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به، وهو أبعد عن الرياء وأقرب إلى الصفاء، أو أخفاه؛ لئلا يلام على طلب الولد فى أوان الكبر؛ لأنه كان ابن خمس وسبعين أو ثمانين سنة.

•• ﴿قَالَ رَبِّ﴾ هذا تفسير الدعاء، وأصله ياربى فحذف حرف النداء والمضاف إليه اختصارا ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ ضعف وخص العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد مافيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده؛ لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، والمراد أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ماتركب منه الجسد قد أصابه الوهن ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ تمييز أى: فشا فى رأسى الشيب، واشتعلت النار إذا تفرقت فى الْتِهَابِهَا وصارت شعلا فشبه الشيب بشواظ النار فى بياضه وانتشاره فى الشعر وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ولاترى كلاما أفصح من هذا، ألا ترى أن أصل الكلام يارب قد شخت إذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما ، وأقوى منه ضعف بدنى وشاب رأسى ففيه مزيد التقرير للتفصيل، وأقوى منه وهنت عظام بدنى ففيه عدول عن التصريح إلى الكناية فهى أبلغ منه، وأقوى منه أنا وهنت عظام بدنى، وأقوى منه إنى وهنت عظام بدنى، وأقوى منه إنى وهنت العظام من بدنى ففيه سلوك طريقى الإجمال والتفصيل، وأقوى منه إنى وهنت العظام منى ففيه ترك توسيط البدن، وأقوى منه إنى وهن العظم منى؛ لشمول الوهن العظام فردا فردا باعتبار ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد، ولهذا تركت الحقيقة فى شاب رأسى إلى أبلغ وهى الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسى، وأبلغ منه اشتعل رأسى شيبا لإسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس، إذ وزان اشتعل شيب رأسى واشتعل رأسى شيباً، وزان اشتعل النار فى بيتى واشتعل بيتى نارا والفرق نَيِّر، ولأن فيه الإجمال والتفصيل كما عرف فى طريق التمييز، وأبلغ منه واشتعل الرأس منى شيبا لما مر، وأبلغ منه واشتعل الرأس شيبا ففيه اكتفاء بعلم المخاطب إنه رأس

زكريا بقرينة العطف على وهن العظم ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول أى: بدعائى إياك ﴿رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى: كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيدا به غير شقى فيه، يقال: سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها، وشقى إذا خاب ولم ينلها، وعن بعضهم أن محتاجا سأله، وقال: أنا الذى أحسنت إلى وقت كذا فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا وقت حاجته وقضى حاجته.

●● ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ هم عصبته أخوته وبنوعمه وكانوا شرار بنى إسرائيل فخافهم أن يغيروا الدين وأن لا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبا صالحاً من صلبه يقتدى به فى إحياء الدين ﴿مِن وَرَائِي﴾ بعد موتى، وبالقصر وفتح الياء كهداى مكى، وهذا الظرف لا يتعلق بخفت؛ لأن وجود خوفه بعد موته لا يتصور ولكن بمحذوف أو بمعنى الولاية فى الموالى أى: خفت فعل الموالى وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائى، أو خفت الذين يلون الأمر من ورائى ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيما لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ اختراعا منك بلا سبب؛ لأن امرأتى لاتصلح للولادة ﴿وَلِيًّا﴾ ابنا يلى أمرك بعدى.

●● ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ برفعهما صفة لوليا أى: هب لى ولدا وارثا منى العلم، ومن آل يعقوب النبوة، ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوة تورث: وبجزمهما أبو عمرو وعلى على أنه جواب للدعاء يقال: ورثته وورثت منه ﴿مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعقوب بن إسحق ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضيا ترضاه، أو راضيا عنك وبحكمك فأجاب الله تعالى دعاءه وقال:

●● ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ تولى الله تسميته تشريفاً له. نبشرك بالتخفيف حمزة ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله، وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالأثرة، وقيل: مثلا وشبيها ولم يكن له مثل فى أنه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وأنه ولد بين شيخ وعجوز وأنه كان حصورا [1] فلما بشرته الملائكة به.

●● ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وليس هذا باستبعاد، بل هو استكشاف أنه بأى طريق يكون أيوهبُ له وهو وامرأته بتلك الحال أم يحولان شابين ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أى: بلغت عتيا، وهو اليبس والجساوة [2] فى المفاصل والعظام كالعود اليابس من

---

(١) الحصور: هو الذى يزهد فى النساء، ولا يقربهن؛ بشرط القدرة الجنسية؛ وإلا فهو العنّين.
القاموس (٢/ ١٠).

(٢) الجساوة: أى القوة والصلابة، وتستخدم هذه الكلمة كثيراً مع إبدال الواو همزة لتصبح: «الجساءة»، بنفس المعنى لدى طلاب العلوم التطبيقية الحديثة.
القاموس (٤/ ٣١٢).

أجل الكبر والطعن فى السن العالية عتيا وصليا وجثيا وبكيا [1] بكسر الأوائل حمزة وعلى وحفص إلا فى بكيا.

●● ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ الكاف رفع أى: الأمر كذلك تصديق له، ثم ابتدأ ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ أو نصب بقال، وذلك إشارة إلى مبهم يفسره ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: خلق يحيى من كبيرين سهل ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ أوجدتك من قبل يحيى. خلقناك حمزة وعلى ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾؛ لأن المعدوم ليس بشىء.

●● ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ علامة أعرف بها حبل امرأتى ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ حال من ضمير تكلم أى: حال كونك سوى الأعضاء واللسان يعنى علامتك أن تمنع الكلام فلا تطيقه وأنت سليم الجوارح مابك خرس ولا بكم، ودل ذكر الليالى هنا والأيام فى آل عمران على أن المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن، إذ ذكر الأيام يتناول ما بإزائها من الليالى، وكذا ذكر الليالى يتناول مابإزائها من الأيام عرفا.

●● ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه، ولم يقدر أن يتكلم ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أشار بإصبعه ﴿أَن سَبِّحُوا﴾ صلوا وأن هى المفسرة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ صلاة الفجر والعصر.

●● ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾ أى: وهبنا له يحيى، وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب يايحيى ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ حال أى: بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ الحكمة وهو فهم التوراة والفقه فى الدين ﴿صَبِيًّا﴾ حال، قيل: دعاه الصبيان إلى اللعب وهو صبى فقال: ما للعب خلقنا.

●● ﴿وَحَنَانًا﴾ شفقة ورحمة لأبويه وغيرهما عطفا على الحكم ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿وَزَكَاةً﴾ أى: طهارة وصلاحا فلم يعمد بذنب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مسلما مطيعا.

●● ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وبارا بهما لايعصيهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبرا ﴿عَصِيًّا﴾ عاصيا لربه.

●● ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ أمان من الله له ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من فتانى القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ من الفزع الأكبر، قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن.

●● ﴿وَاذْكُرْ﴾ يامحمد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ أى: اقرأ عليهم فى القرآن قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها ﴿إِذِ﴾ بدل من مريم بدل اشتمال، إذ الأحيان مشتملة على

---

(١) هذه الكلمات الأربع خواتيم خمس آيات من سورة مريم، عتياً (٦٩)، صلياً (٧٠)، جثياً (٦٨) و(٧٢)، بكيًا (٥٨).

مافيها وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أى: اعتزلت ﴿مَكَانًا﴾ ظرف ﴿شَرْقِيًّا﴾ أى: تخلت للعبادة فى مكـان مما يلى شرقى بيت المقدس، أو من دارها معتزلة عن الناس، وقيل: قعدت فى مشرقة [1] للاغتسال من الحيض.

•• ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ جعلت بينها وبين أهلها حجابا يسترها لتغتسل وراءه ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ والإضافة للتشريف، وإنما سمى روحا؛ لأن الدين يحيا به وبوحيه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا﴾ أى: فتمثل لها جبريل فى صورة آدمى شاب أمرد وضئ الوجه جعد الشعر ﴿سَوِيًّا﴾ مستوى الخلق، وإنما مثل لها فى صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولاتنفر عنه، ولو بدا لها فى صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه.

•• ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: إن كان يرجى منك أن تتقى الله فإنى عائذة به منك.

•• ﴿قَالَ﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ : ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أمنها مما خافت، وأخبر أنه ليس بآدمى، بل هو رسول من استعاذت به ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله تعالى، أو لأكون سببا فى هبة الغلام بالنفخ فى الدرع. ليهب لك أى: الله أبو عمرو ونافع ﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو نامياً على الخير والبركة.

•• ﴿قَالَتْ أَنَّى﴾ كيف ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ابن ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ زوج بالنكاح ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة تبغى الرجال أى: تطلب الشهوة من أى رجل كان ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هذين، والبغى فعول عند المبرد بغوى فقلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت العين اتباعا، ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق فى امرأة صبور وشكور، وعند غيره هى فعيل ولم تلحقها الهاء لأنها بمعنى مفعولة، وإن كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [2].

•• ﴿قَالَ﴾ جبريل ﴿كَذَلِكِ﴾ أى: الأمر كما قلت لم يمسسك رجل نكاحا. أو سفاحا ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: إعطاء الولد بلا أب على سهل ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ تعليل معلله محذوف أى: ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر أى: لنبين به قدرتنا، ولنجعله آية للناس أى: عبرة وبرهاناً على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ لمن آمن به ﴿وَكَانَ﴾ خلق عيسى ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً مسطوراً فى اللوح، فلما اطمأنت إلى قوله دنا منها فنفخ فى جيب درعها فوصلت النفخة إلى بطنها.

---

(١) المشرقة؛ بفتح الميم، وتثليث الراء ـ الفتح، والضم، والكسر ـ هو: مكان القعود فى الشمس. القاموس (٣/٢٤٩).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٥٦).

●● ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أى: الموهوب، وكانت سنها ثلاث عشرة سنة، أو عشرا، أو عشرين ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ اعتزلت وهو فى بطنها، والجار والمجرور فى موضع الحال، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته، وقيل: ستة أشهر، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل: حملته فى ساعة ووضعته فى ساعة ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل؛ وذلك لأنها لما أحست بالحمل هربت من قومها مخافة اللائمة.

●● ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ جاء بها وقيل: ألجأها وهو منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تراك لا تقول: جئت المكان وأجاءنيه زيد ﴿الْمَخَاضُ﴾ وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أصلها، وكانت يابسة وكان الوقت شتاء، وتعريفها مشعر بأنها كانت نخلة معروفة، وجاز أن يكون التعريف للجنس أى: جذع هذه الشجرة كأنه تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب؛ لأنه خرسة النفساء أى: طعامها ثم ﴿قَالَتْ﴾ جزعا مما أصابها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ اليوم ـ مِتُّ ـ مدنى وكوفى غير أبى بكر وغيرهم بالضم، يقال: مات يموت ومات يمات ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر. بفتح النون حمزة وحفص، بالكسر غيرهما ومعناهما واحد وهو الشىء الذى حقه أن يطرح وينسى لحقارته.

●● ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ ـ مَن ـ [1] أى: الذى تحتها؛ فـ «مَنْ» فاعل وهو جبريل ـ عليه السلام ـ لأنه كان بمكان منخفض عنها، أو عيسى ـ عليه السلام ـ لأنه خاطبها من تحت ذيلها. مِن تحتها مدنى وكوفى سوى أبى بكر، والفاعل مضمر وهو عيسى ـ عليه السلام ـ أو جبريل، والهاء فى تحتها للنخلة ولشدة مالقيت سليت بقوله ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لاتهتمى بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس، وأن بمعنى أى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ بقربك، أو تحت أمرك إن أمرته أن يجرى جرى، وإن أمرته أن يقف وقف ﴿سَرِيًّا﴾ نهراً صغيرا عند الجمهور وسئل النبى (ﷺ) عن السرى فقال: هو الجدول [2]، وعن الحسن سيداً كريما يعنى عيسى ـ عليه السلام ـ وروى أن خالد بن صفوان [3] قال له: إن العرب تسمى الجدول سرياً فقال: الحسن صدقت ورجع إلى قوله، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ضرب عيسى، أو جبريل ـ عليهما السلام ـ بعقبه الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة وأثمرت وأينعت ثمرتها، فقيل لها:

---

(١) على هذا تكون (مَنْ) اسم موصول بمعنى (الذى)، وهى قراءة.

(٢) أخرجه الطبرى عن البراء موقوفاً.

(٣) هو: خالد بن صفوان بن عبدالله بن عمرو بن الأهتم، التميمى، من علماء العربية، وهو من الفصحاء المشهورين، ولد ونشأ بالبصرة، توفى عام ١٣٣هـ.
الأعلام (٢/ ٢٩٧).

●● ﴿وَهُزِّي﴾ حركى ﴿إِلَيْكِ﴾ إلى نفسك ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ قال أبو على[1]: الباء زائدة أى: هزى جذع النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ﴾ بإدغام التاء الأولى فى الثانية[2] مكى ومدنى وشامى وأبو عمرو وعلى وأبو بكر، والأصل تتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين: حمزة، ويساقط بفتح الياء والقاف وتشديد السين يعقوب وسهل وحماد[3] ونصير[4] وتساقط حفص من المفاعلة وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع قراءات ﴿رُطَبًا﴾ تمييز، أو مفعول به على حسب القراءة ﴿جَنِيًّا﴾ طريا وقالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب، ولا للمريض من العسل.

●● ﴿فَكُلِي﴾ من الجنى ﴿وَاشْرَبِي﴾ من السرى ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالولد الرضى وعينا تمييز أى: طيبى نفسا بعيسى وارفضى عنك ما أحزنك ﴿فَإِمَّا﴾ أصله إن ما فضمت إن الشرطية إلى ما وادغمت فيها ﴿تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أى: فإن رأيت آدمياً يسألك عن حالك فقولى: إنى نذرت للرحمن صمتاً وإمساكا عن الكلام، وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الأكل والشرب، وقيل: صياما حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان التزامُه التزامَه، وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن صوم الصمت [5] فصار ذلك منسوخا فينا، وإنما أمرت أن تنذر السكوت؛ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها ولئلا تجادل السفهاء، وفيه دليل على أن السكوت عن السفيه واجب، وما قُدعَ [6] سفيه بمثل الإعراض ولا أطلق عنانه بمثل العراض،[7] وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقد تسمى الإشارة كلاماً وقولا ألا ترى إلى قول الشاعر فى وصف القبور وتكلمت عن أوجه تبلي. وقيل: كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام، أو صوغ لها هذا القدر بالنطق ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ آدميا.

●● ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا﴾ بعد ما طهرت من نفاسها ﴿تَحْمِلُهُ﴾ حال منها أى: أقبلت نحوهم حاملة إياه فلما رأوه معها ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ بديعاً عجيباً، والفرى القطع كأنه يقطع العادة.

---

(١) أبو على: هو إسماعيل بن شعيب، النهاوندى، انظر ترجمته عند تفسير الآية (٩) من سورة «البقرة».

(٢) أى: «تسَّاقط»، وهى قراءة.

(٣) حماد: هو: حماد بن أحمد بن حماد، أبو الحسن الكوفى الضرير.

(٤) نصير: هو: نصير بن يوسف بن أبى النصر الرازى، أبو المنذر البغدادى النحوى. توفى حوالى ٢٤٠هـ.

(٥) لعله يشير إلى حديث عند أبى داود، من حديث على: «لا صمت يوم إلى ليل»، وأخرج عبدالرزاق مثله من حديث جابر.

(٦) قدع: كفَّ. القاموس (٣/ ٦٥). والمعنى: «حمل السفيه على السكوت».

(٧) العراض: هو عكس الإعراض، ومعناه: التصدى والكلام الكثير. القاموس (٣٣٥).

•• ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بنى إسرائيل، أو هو أخو موسى ـ عليه السلام ـ وكانت من أعقابه وبينهما ألف سنة، وهذا كما يقال: يا أخا همدان أى: يا واحداً منهم، أو رجل صالح أو طالح فى زمانها شبهوها به فى الصلاح، أو شتموها به ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿امْرَأَ سَوْءٍ﴾ زانيا ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنة ﴿بَغِيًّا﴾ زانية.

•• ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى أن يجيبهم، وذلك أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال لها: لا تحزنى وأحيلى بالجواب على، وقيل: أمرها جبريل بذلك ولما أشارت إليه غضبوا وتعجبوا و﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ حدث ووجد ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ المعهود ﴿صَبِيًّا﴾ حال.

•• ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ولما أسكتت بأمر الله لسانها الناطق؛ أنطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية، وهو ابن أربعين ليلة، أو ابن يوم، روى أنه أشار بسبابته وقال بصوت رفيع: إنى عبد الله، وفيه رد لقول النصارى ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ روى عن الحسن أنه كان فى المهد نبياً وكلامه معجزته، وقيل: معناه أن ذلك سبق فى قضائه، أو جعل الآتى لامحالة كأنه وجد.

•• ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ نفاعا حيث كنت، أو معلما للخير ﴿وَأَوْصَانِي﴾ وأمرنى ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إن ملكت مالا وقيل: صدقة الفطر، أو تطهير البدن ويحتمل وأوصانى بأن آمركم بالصلاة والزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ نصب على الظرف أى: مدة حياتى.

•• ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ عطفاً على مباركا أى: باراً بها أكرمها وأعظمها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ متكبراً ﴿شَقِيًّا﴾ عاقا.

•• ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يوم ظرف، والعامل فيه الخبر وهو على ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه إلى إن كان حرف التعريف للعهد، وإن كان للجنس فالمعنى وجنس السلام على، وفيه تعريض باللعنة على أعداء مريم وابنها؛ لأنه إذا قال: وجنس السلام على فقد عرض بأن ضده عليكم إذ المقام مقام مناكرة وعناد فكان مئنة(1) لمثل هذا التعريض.

•• ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ ﴿عِيسَى﴾ خبره ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نعته، أو خبر ثان أى: ذلك الذى قال إنى كذا وكذا عيسى ابن مريم لا كما قالت النصارى إنه إله أو ابن الله ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله، وقيل له كلمة الله؛ لأنه ولد بقوله: كن بلا واسطة أب، وارتفاعه على أنه خبر

---

(1) مَئِنَّة: أى: علامة.

بعد خبر، أوخبر مبتدأ محذوف أو بدل من عيسى، ونصبه شامى وعاصم على المدح أو على المصدر أى: أقول قول الحق هو ابن مريم، وليس بإله كما يدعونه ﴿الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون من المرية الشك، أو يختلفون من المراء، فقالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى: ابن الله وثالث ثلاثة.

•• ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ماينبغى له ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ جىء بمن لتأكيد النفى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه ذاته عن اتخاذ الولد ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونَ﴾ بالنصب شامى أى: كما قال لعيسى كن فكان من غير أب، ومن كان متصفا بهذا كان منزها أن يشبه الحيوان الوالد.

•• ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بالكسر شامى وكوفى على الابتداء، وهو من كلام عيسى يعنى كما أنا عبده فأنتم عبيده على وعليكم أن نعبده، ومن فتح عطف على بالصلاة، أى: وأوصانى بالصلاة وبالزكاة وبأن الله ربى وربكم أو علقه بما بعده أى: ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴿هَٰذَا﴾ ذكرت ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا.

•• ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها، وهم ثلاث فرق نسطورية ويعقوبية وملكانية ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ من بين أصحابه، أو من بين قومه، أو من بين الناس وذلك أن النصارى اختلفوا فى عيسى حين رفع، ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول ثلاثة كانوا عندهم أعلم أهل زمانهم؛ وهم يعقوب ونسطور وملكان فقال يعقوب: هو الله هبط إلى الأرض، ثم صعد إلى السماء. وقال نسطور: كان ابن الله أظهره ماشاء، ثم رفعه إليه. وقال الثالث: كذبوا كان عبدا مخلوقاً نبيا فتبع كل واحد منهم قوم ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأحزاب إذ الواحد منهم على الحق ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة، أو من شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وأن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وجوارحهم بالكفر، أو من مكان الشهادة أو وقتها، أو المراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه، وجعله عظيما لفظاعة ماشهدوا به فى عيسى.

•• ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ الجمهور على أن لفظه أمر، ومعناه التعجب والله تعالى لايوصف بالتعجب، ولكن المراد أن إسماعهم وإبصارهم جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا فى الدنيا، قال قتادة: إن عموا وصموا عن الحق فى الدنيا فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لاينفعهم، وبهم مرفوع المحل على الفاعلية كأكرم بزيد فمعناه كرم زيد جدا ﴿لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أقيم الظاهر مقام المضمر، أى: لكنهم اليوم فى الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ووضعوا العبادة فى غير موضعها ﴿فِى ضَلَالٍ﴾ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر وهو اعتقادهم عيسى إلهاً معبوداً مع ظهور آثار الحدث فيه إشعاراً بأن لا ظلم أشد من ظلمهم.

●● ﴿وأَنذِرْهُم﴾خوفهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يقع فيه الندم على مافات، وفى الحديث: «إذا رأوا منازلهم فى الجنة أن لو آمنوا» (١). ﴿ إِذْ﴾ بدل من يوم الحسرة، أو ظرف للحسرة وهو مصدر ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ هنا عن الاهتمام لذلك المقام ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون به وهم وهم حالان أى: وأنذرهم على هذا الحال غافلين غير مؤمنين.

●● ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أى: نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء يعقوب، أى: يردون فيجازون جزاءً وفاقا.

●● ﴿وَاذْكُرْ﴾ لقومك ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ قصته مع أبيه ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ بغير همز، وهمزه نافع، قيل: الصادق المستقيم فى الأفعال، والصديق المستقيم فى الأحوال، فالصديق من أبنية المبالغة ونظيره الضحيك، والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله، أى: كان مصدقا لجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيا فى نفسه وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين إبراهيم وبين ماهو بدل منه وهو:

●● ﴿إِذْ قَالَ﴾ وجاز أن يتعلق إذ بكان أو بصديقا نبيا أى: كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات، والمراد بذكر الرسول إياه وقصته فى الكتاب أن يتلو ذلك على الناس ويبلغه إياهم كقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾(٢) وإلا فالله عز وعلا هو ذاكره ومورده فى تنزيله ﴿لأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ بكسر التاء وفتحها ابن عامر والتاء عوض من ياء الإضافة ولايقال: يا أبتى؛ لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ المفعول فيهما منسى غير منوى ويجوز أن يقدر أى: لا يسمع شيئاً ولا يبصر شيئاً ﴿وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ يحتمل أن يكون شيئاً فى موضع المصدر أى: شيئا من الإغناء وأن يكون مفعولا به من قولك: أغن عنى وجهك أى: بعد.

●● ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحى أو معرفة الرب ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ مافى مالا يسمع، ومالم يأتك يجوز أن تكون موصولة أو موصوفة ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ﴾ أرشدك ﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ مستقيما.

●● ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لاتطعه فيما سول من عبادة الصنم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ عاصيا.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(٢) سورة «الشعراء»، الآية (٦٩).

•• ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾ قيل: أعلم ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قرينا فى النار تليه ويليك، فانظر فى نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر، ففى الحديث: «أوحى إلى إبراهيم: إنك خليلى حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار»(١). فطلب منه أولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لإفراطه وتناهيه؛ لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة وهم الأنبياء كان محكوما عليه بالغى المبين، فكيف بمن يعبد حجرا، أو شجرا لا يسمع ذكر عابده، ولا يرى هيآت عبادته ولا يدفع عنه بلاء ولا يقضى له حاجة، ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقا به متلطفا فلم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معى شيئا من العلم ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى أنجك من أن تضل وتتيه، ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذى عصى الرحمن الذى جميع النعم منه أوقعك فى عبادة الصنم وزينها لك، فأنت عابده فى الحقيقة، ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وأن العذاب لاصق به، بل قال: أخاف أن يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل، كأنه قال: إنى أخاف أن يصيبك نَفَيان (٢) من عذاب الرحمن، وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب فى نفسه وصدر كل نصيحة بقوله: يا أبت توسلا إليه واستعطافا وإشعارا بوجوب احترام الأب وإن كان كافرا، فثم:

•• ﴿قَالَ﴾ آزر توبيخا ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ أى: أترغب عن عبادتها، فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت ببيابنى، وقدم الخبر على المبتدأ؛ لأنه كان أهم عنده ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن شتم الأصنام ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لأقتلنك بالرجام، أو لأضربنك بها حتى تتباعد، أو لأشتمنك ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عطف على محذوف يدل عليه لأرجمنك تقديره فاحذرنى واهجرنى ﴿مَلِيًّا﴾ ظرف أى: زمانا طويلا من الملاوة.

•• ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع ومتاركة، أو تقريب وملاطفة؛ ولذا وعده بالاستغفار بقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ سأسأل الله أن يجعلك من أهل المغفرة بأن يهديك للإسلام ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ملطفا بعموم النعم، أو رحيما، أو مكرما، والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة.

•• ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أراد بالاعتزال المهاجرة من أرض (٣) بابل إلى الشام (٤) ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ما تعبدون من أصنامكم ﴿وَأَدْعُو﴾ وأعبد ﴿رَبِّي﴾ ثم قال تواضعا وهضما للنفس

---

(١) رواه الترمذى فى النوادر من حديث أبى هريرة، والطبرانى فى الأوسط.

(٢) نفيان: هو: ما أسالته السحابة من مائها.
(المعجم الوسيط ٢/ ٩٤٣).

(٣) بابل: اسم ناحية من الكوفة، قيل: إن أول من سكنها: نبى الله؛ نوح، عليه السلام.
(معجم البلدان ١/ ٣٦٧).

(٤) الشام: يقصد أرض الشام المعروفة والمعهودة لنا.

ومعرضا بشقاوتهم بدعاء آلهتهم ﴿ عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أى: كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام.

●● ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فلما اعتزل الكفار ومعبودهم ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ولدا ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة ليستأنس بهما ﴿وَكُلاًّ﴾ كل واحد منهما ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أى: لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه أولادا مؤمنين أنبياء.

●● ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هى المال والولد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناء حسنا، وهو الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم فى الصلوات، وعبر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يطلق باليد، وهى العطية ﴿عَلِيًّا﴾ رفيعا مشهورا.

●● ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ كوفى غير المفضل أى: أخلصه الله واصطفاه ومخلصا، بالكسر غيرهم أى: أخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص بماله من السعادة بأصل الفطرة، ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء، والنبى الذى ينبئ عن الله عزوجل، وإن لم يكن معه كتاب كيوشع.

●● ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ هو جبل بين مصر ومدين (١) ﴿الأَيْمَنِ﴾ من اليمين أى: من ناحية اليمين، والجمهور على أن المراد أيمن موسى - عليه السلام - لأن الجبل لا يمين له، والمعنى أنه حين أقبل من مدين يريد مصر نودى من الشجرة وكانت فى جانب الجبل على يمين موسى - عليه السلام - ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان ﴿نَجِيًّا﴾ حال أى: مناجيا كنديم بمعنى منادم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا له وترؤفنا عليه ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول ﴿هَارُونَ﴾ بدل منه ﴿نَبِيًّا﴾ حال أى: وهبنا له نبوة أخيه، وإلا فهارون كان أكبر سنًا منه.

●● ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ هو ابن إبراهيم فى الأصح ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ وافيه وعد رجلا أن يقيم مكانه حتى يعود إليه فانتظره سنة فى مكانه حتى عاد، وناهيك أنه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى وقيل: لم يعد ربه موعدا إلا أنجزه، وإنما خصه بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له؛ ولأنه المشهور من خصاله ﴿وَكَانَ رَسُولاً﴾ إلى جرهم (٢) ﴿نَّبِيًّا﴾ مخبراً منذراً.

---

(١) مدين: هى أرض على بحر القلزم، فى محاذاة تبوك، وقيل: هى اسم لقبيلة. (معجم البلدان ٥/ ٩٢).

(٢) جرهم: هى قبيلة من العرب الأصليين، من اليمن، سكنت مكة لما تفجرت زمزم، وتزوج منهم نبى الله؛ إسماعيل - عليه السلام - وصار بذلك جد من أجداد العرب. القاموس (٤/ ٨٩).

•• ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أمته؛ لأن النبى أبو أمته وأهل بيته، وفيه دليل على أنه لم يداهن غيره ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يحتمل أنه إنما خصت هاتان العبادتان؛ لأنهما أما العبادات البدنية والمالية ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ قُرِئَ مرضوا على الأصل.

•• ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هو أخنوخ أول مرسل بعد آدم ـ عليه السلام ـ وأول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر فى علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بنى قابيل، وقولهم سمى به لكثرة دراسته كتب الله لايصح؛ لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد، وهو العلمية وكان منصرفا فامتناعه من الصرف دليل العجمة ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

•• ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرف النبوة والزلفى عند الله وقيل: معناه رفعته الملائكة إلى السماء الرابعة، وقد رآه النبى (ﷺ) ليلة المعراج فيها، وعن الحسن إلى الجنة لاشىء أعلى من الجنة، وذلك أنه حبب لكثرة عبادته إلى الملائكة فقال لملك الموت: أذقنى الموت يهن علىّ ففعل ذلك بإذن الله فحيى، وقال أدخلنى النار أزدد رهبة ففعل، ثم قال: أدخلنى الجنة أزدد رغبة، ثم قال: له أخرج، فقال: قد ذقت الموت ووردت النار فما أنا بخارج من الجنة، فقال الله عزوجل: بإذنى فعل وبإذنى دخل فدعه.

•• ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين فى السورة من زكرياء إلى إدريس ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ من للبيان؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ من للتبعيض، وكان إدريس من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبى نوح ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه ولد سام بن نوح ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ أى: ومن ذرية إسرائيل أى: يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى؛ لأن مريم من ذريته ﴿وَمِمَّنْ﴾ يحتمل العطف على من الأولى والثانية ﴿هَدَيْنَا﴾ لمحاسن الإسلام ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ من الأنام، أو لشرح الشريعة، وكشف الحقيقة ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن﴾ أى: إذا تليت عليهم كتب الله المنزلة، وهو كلام مستأنف أن جعلت الذين خبراً لأولئك، وأن جعلته صفة له كان خبراً. يتلىَ بالياء قتيبة[1] لوجود الفاصل مع أن التأنيث غير حقيقى ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ سقطوا على وجوههم رغبة ﴿وَبُكِيًّا﴾ باكين رهبة جمع باك كسجود وقعود فى جمع ساجد وقاعد، وفى الحديث: «اتلوا

(١) هو قتيبة بن مهران الأصبهانى، أبو عبدالرحمن، الأزاذانى، من علماء القراءات، إمام مقرئ، تلميذ الكسائى، كانت وفاته بعد عام ٢٠٠هـ.
غاية النهاية (٢/ ٢٦).

لقرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا» (١) وعن صالح المرى (٢) قرأت القرآن علـى رسول الله (ﷺ) فى المنام فقال لى: يا صالح «**هذه القراءة فأين البكاء**» ويقول فى سجود التلاوة سبحان ربى الأعلى ثلاثا.

●● ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ فجاء من بعد هؤلاء المفضلين ﴿**خَلْفٌ**﴾ أولاد سوء، وبفتح اللام العقب الخير عن ابن عبـاس هم اليهود ﴿**أَضَاعُوا الصَّلاةَ**﴾ تركوا الصـلاة المفروضة ﴿**وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**﴾ ملاذ النفوس وعن علـىّ ـ رضى الله عنه ـ من بنى الشديد، وركب المنظور، ولـبس المشهور، وعـن قتـادة ـ رضى الله عنه ـ هو فى هذه الأمة ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ جزاء غى وكل شر عند العرب غى، وكل خير رشاد، وعن ابن عباس وابن مسعود: هو واد فى جـهنم أعدّ للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور.

●● ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ**﴾ رجع عن كـفره ﴿**وَآمَنَ**﴾ بشرطه ﴿**وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ بعد إيمـانه ﴿**فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**﴾ بضم الياء وفتح الخاء مكى وبصرى وأبو بكر ﴿**وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ أى: لاينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم، أو لايظلمون شيئاً من الظلم.

●● ﴿**جَنَّاتِ**﴾ بدل من الجنة؛ لأن الجنة تشتمل علـى جنات عدن، لأنها جنس، أو نصب على المدح ﴿**عَدْنٍ**﴾ معرفة لأنهـا علم لمعنى العدن وهو الإقـامة، أو علم لأرض الجنة لكونهـا مقام إقامة ﴿**الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ**﴾ أى: عباده التائبين المؤمنين الذين يعـملون الصالحات كما سبق ذكرهم؛ ولأنه أضافهم إليه، وهو للاخـتصاص وهؤلاء أهل الاختصاص ﴿**بِالْغَيْبِ**﴾ أى: وعدها وهى غائبة عنهم غيـر حاضرة، أو هم غائبون عنها لا يـشاهدونها ﴿**إِنَّهُ**﴾ ضمير الشأن، أو ضـمير الرحمن ﴿**كَانَ وَعْدُهُ**﴾ أى: موعوده وهو الجنة ﴿**مَأْتِيًّا**﴾ أى: هم يأتونها.

●● ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا**﴾ فى الجنة ﴿**لَغْوًا**﴾ فحشاً أو كـذباً أو مالا طائل تحته مـن الكلام، وهو المطروح منه وفيه تنبـيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره الـتى لا تكليف فيها ﴿**إِلاَّ سَلامًا**﴾ أى: لكن يسمعون فيه سلاماً من الملائكة، أو من بعضهم على بعض، أو لا يسمعون فيها إلا قولاً يَسْلَمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور، وقيل: معنى السلام هو الدعاء بالسلامة، ولما كان أهل دار السلام أغنياء عـن الدعاء بالسلامة كان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا مافـيه من فائدة الإكرام ﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾ أى: يؤتون بأرزاقهم

---

(١) أورده البيهقى فى الشعب، والبزار، وأبو يعلى، وإسحاق.

(٢) هو: صالـح بن بشير بن وادع بـن أبى، أبو بشر، البـصرى القاص، المعروف بـ «المرى»، كان عابداً ناسكـاً واعظاً قارئاً، ولكنه كان يـهم فى الحديث ويغلط، فـلم يعتد به أهل الحديث؛ مـع اعترافهم بجلالته، وكان الثورى يحضر مجلسه ويمدحه؛ لحزنه. مات سنه ٧٦هـ، وقيل: ٧٢هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ٥٢٥، ٥٢٦).

على مقدار طرفى النهار من الدنيا إذ لا ليل ولانهار، ثم لأنهم فى النور أبداً، وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب، ومقدار الليل بإرخائها والرزق بالبكرة والعشى أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك، وقيل: أراد دوام الرزق كما تقول: أنا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام.

●● ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أى: نجعلها ميراث أعمالهم يعنى ثمرتها عاقبتها، وقيل: يرثون المساكن التى كانت لأهل النار لو آمنوا؛ لأن الكفر موت حكما ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ عن الشرك. عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ عليه السلام ـ قال: «يا جبريل مامنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزل[1]:

●● ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ والتنزل على معنيين معنى النزول على مهل، ومعنى النزول على الإطلاق والأول أليق هنا يعنى أن نزولنا فى الأحايين وقتا غب وقت ليس إلا بأمر الله ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أى: له ماقدامنا وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيها فلا نتمالك أن ننتقل من مكان إلى مكان إلا بأمر الملك ومشيئته، وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الأحوال، لاتجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا أن نتقلب فى ملكوته إلا إذا أذن لنا فيه.

●● ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ربك، أو خبر مبتدأ محذوف أى: هو رب السموات والأرض، ثم قال لرسوله لما عرفت أنه متصف بهذه الصفات ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ فاثبت على عبادته ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أى: صبر على مكافأة الحسود، لعبادة المعبود، واصبر على المشاق، لأجل عبادة الخلاق، أى: لتتمكن من الإتيان بها ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ شبيها ومثلا أو هل يسمى أحد باسم الله غيره؛ لأنه مخصوص بالمعبود بالحق أى: إذا صح أن لا معبود يُوجَّهُ إليه العباد العبادة إلا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها. فتهافت أبىّ بن خلف عظما وقال: أنبعث بعد ماصرنا كذا فنزل:

●● ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ والعامل فى إذا ما دل عليه الكلام وهو أبعث أى: إذا مامت أبعث، وانتصابه بأخرج ممتنع؛ لأن مابعد لام الابتداء لايعمل فيما قبلها فلا تقول اليوم لزيد قائم، ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطى معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة، فلما جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال، وما فى إذا ما للتوكيد أيضاً فكأنه قال: أحقًّا إنا سنخرج من القبور أحياء حين يتمكن فينا الموت، والهلاك على وجه الاستنكار

(١) قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد: (نا يعلى ووكيع، نا عمر بن ذر عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ....)». فذكره.
ابن كثير (٣/ ١٢٧) عند تفسير هذه الآية.

والاستبعاد، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء إنكارهم.

•• ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإنسَانُ﴾ خفيف شامى ونافع وعاصم من الذكر والسائر بتشديد الذال والكاف، وأصله يتذكر كقراءة أُبَىّ فأدغمت التاء فى الذال أى: أو لايتدبر والواو عطفت لايذكر على يقول ووسطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعنى أيقول ذلك ولايتذكر حال النشأة الأولى حتى لاينكر النشأة الأخرى فإن تلك أدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، وأما الثانية فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ هو دليل على مابينا وعلى أن المعدوم ليس بشىء خلافا للمعتزلة.

•• ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أى: الكفار المنكرين للبعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ الواو للعطف وبمعنى مع أوقع أى: يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان فى سلسلة، وفى إقسام الله باسمه مضافا إلى رسوله تفخيم لشأن رسوله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ حال جمع جاث أى: بارك على الركب ووزنه فعول؛ لأن أصله جثوو كسجود وساجد أى: يعتلون من المحشر إلى شاطىء جهنم عتلا على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم.

•• ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ طائفة شاعت، أى: تبعت غاويا من الغواة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ جرأة، أو فجوراً، أى: لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغى أعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم فى النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم، وقيل: المراد بأشدهم عتياً الرؤساء لتضاعف جرمهم لكونهم ضلالا ومضلين، قال سيبويه: أيهم مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلته، وهو هو من هو أشد، حتى لوجىء به لأعرب بالنصب، وقيل: أيهم هو أشد وهذا؛ لأن الصلة توضح الموصول وتبينه، كما أن المضاف إليه يوضح المضاف ويخصصه، فكما أن حذف المضاف إليه فى من قبل يوجب بناء المضاف وجب أن يكون حذف الصلة أو شىء منها موجبا للبناء وموضعها نصب بتنزع، وقال الخليل: هى معربة وهى مبتدأ، وأشد خبره وهو رفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتياً، ويجوز أن يكون النزع واقعا على من كل شيعة كقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾(١) أى: لننزعن بعض كل شيعة، فكأن قائلا قال: من هم؟ فقيل: أيهم أشد عتيا، وعلى يتعلق بأفعل أى: عتوهم أشد على الرحمن.

(١) سورة «مريم»، الآية (٥٠).

●● ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أحق بالنار ﴿ صِلِيًّا﴾ تمييز أى: دخولا، والباء تتعلق بأولى.

●● ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ أحد ﴿إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ داخلها والمراد النار، والورود: الدخول عند على وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ وعليه جمهور أهل السنة لقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾(١) ولقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾(٢) ولقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾(٣) إذ النجاة إنما تكون بعد الدخول، ولقوله ـ عليه السلام ـ : «الورود: الدخول، لايبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم، وتقول النار للمؤمن: جز يامؤمن فإن نورك أطفأ لهبى»(٤) وقيل: الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار لقراءة ابن عباس، وإن منهم وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات وعن عبدالله: الورود الحضور لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ (٥) وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٦) وأجيب عنه بأن المراد عن عذابها، وعن الحسن وقتادة الورود: المرور على الصراط؛ لأن الصراط ممدود عليها فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار، وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا لقوله ـ عليه السلام ـ : «الحمى حظ كل مؤمن من النار» (٧). وقال رجل من الصحابة لآخر: أيقنت بالورود؟ قال. نعم. قال: وأيقنت بالصدر؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك وفيم التثاقل ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا﴾ أى: كان ورودهم واجبا كائنا محتوما، والحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه، فسمى به الموجب كقولهم: ضرب الأمير.

●● ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ وعلى بالتخفيف ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الشرك، وهم المؤمنون ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فيه دليل على دخول الكل؛ لأنه قال: ونذر ولم يقل: وندخل، والمذهب أن صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لامحالة، وقالت المرجئة الخبيثة: لايعاقب؛ لأن المعصية لاتضر مع الإسلام عندهم، وقالت المعتزلة: يخلد.

●● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أى: القرآن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظاهرات الإعجاز أو حججا وبراهين حال مؤكدة، كقوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾(٨) إذ آيات الله لاتكون إلا واضحة وحججا ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) سورة «هود»، الآية (٩٨).
(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٩٩).
(٣) سورة «مريم»، الآية (٧٢).
(٤) رواه الإمام أحمد.
(٥) سورة «القصص»، الآية (٢٣).
(٦) سورة «الأنبياء»، الآية (١٠١).
(٧) فى مسند البزار من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٨) سورة «فاطر»، الآية (٣١).

أى : مشركو قريش ـ وقد رجلوا شعورهم وتكلفوا فى زيهم ـ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للفقراء ورسهم شعثة وثيابهم خشنة ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن أم أنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ بالفتح وهو موضع القيام، والمراد المكان والمسكن، وبالضم مكى وهو موضع الإقامة والمنزل ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلسا يجتمع القوم فيه للمشاورة، ومعنى الآية أن الله تعالى يقول: إذا أنزلنا آية فيها دلائل وبراهين أعرضوا عن التدبر فيها إلى الافتخار بالثروة والمال وحسن المنزل والحال، فقال تعالى:

●● ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ فكم مفعول أهلكنا، ومن تبيين لإبهامها أى: كثيراً من القرون أهكلنا، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ فى محل النصب صفة لكم، ألا ترى أنك لو تركت هم كان أحسن نصبا على الوصفية ﴿أَثَاثًا﴾ هو متاع البيت، أو ماجد من الفرش ﴿وَرِءْيًا﴾ منظرا وهيئة فعل بمعنى مفعول من رأيت، وريا بغير همز مشددا نافع وابن عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثم الإدغام، أو من الرى الذى هو النعمة.

●● ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ جواب من؛ لأنها شرطية. وهذا الأمر بمعنى الخبر. أى: من كفر مد له الرحمن يعنى أمهله وأملى له فى العمر ليزداد طغيانا وضلالا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[1] وإنما أخرج على لفظ الأمر إيذانا بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ هى متصلة بقوله: خير مقاما وأحسن نديا وما بينهما اعتراض، أى: لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ فى الدنيا، وهو تعذيب المسلمين إياهم بالقتل والأسر ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أى: القيامة وما ينالهم من الخزى والنكال، فهما بدلان مما يوعدون ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلا ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أعوانا وأنصارا، أى: فحينئذ يعلمون أن الأمر على عكس ماقدروه، وأنهم شر مكانا وأضعف جندا، لاخير مقاماً وأحسن نديا وأن المؤمنين على خلاف صفتهم، وجاز أن تتصل بما يليها، والمعنى إن الذين فى الضلالة ممدود لهم فى ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين أو يشاهدوا الساعة، وحتى هى التى يحكى بعدها الجمل، ألا ترى أن الجملة الشرطية واقعة بعدها وهى قوله: إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون.

●● ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ معطوف على موضع فليمدد لوقوعه موضع الخبر، تقديره: من كان فى الضلالة مد، أو يمد له الرحمن ويزيد، أى: يزيد فى ضلال الضال بخذلانه، ويزيد المهتدين أى: المؤمنين هدى ثباتا على الاهتداء أو يقينا وبصيرة بتوفيقه ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أعمال الآخرة كلها، أو الصلوات الخمس، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٧٨).

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ مما يفتخر به الكفار ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أى: مرجعا وعاقبة تهكم بالكفار؛ لأنهم قالوا للمؤمنين: أىُّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا.

•• ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ ثم. وبضم الواو وسكون اللام فى أربعة مواضع ههنا، وفى الزخرف ونوح حمزة وعلى، جمع ولد، كأسد فى أسد، أو بمعنى الولد كالعرب فى العرب، ولما كانت رؤية الأشياء طريقا إلى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت فى معنى أخبر والفاء أفادت التعقيب، كأنه قال: أخبر أيضا بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقيب حديث أولئك. وقوله: لأوتين جواب قسم مضمر.

•• ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ من قولهم: أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه، الهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل محذوفة أى: أنظر فى اللوح المحفوظ فرأى منيته؟! ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ موثقا أن يؤتيه ذلك، أو العهد كلمة الشهادة وعن الحسن نزلت فى الوليد بن المغيرة والمشهور أنها فى العاص ابن وائل، فقد روى أن خباب بن الأرت صاغ للعاص بن وائل حليا فاقتضاه الأجر، فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون وأن فى الجنة ذهبا وفضة فأنا أقضيك، ثم فإنى أوتى مالا وولدا حينئذ.

•• ﴿كَلاَّ﴾ ردع وتنبيه على الخطأ أى: هو مخطئ فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أى: قوله، والمراد: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله: لأنه كما قال كتب من غير تأخير قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(1) وهو كقوله: إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة أى: علم وتبين بالانتساب أنى لست بابن لئيمة ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ نزيده من العذاب كما يزيد فى الافتراء والاجتراء من المدد، يقال: مده وأمده ﴿مَدًّا﴾ أكد بالمصدر لفرط غضبه تعالى.

•• ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أى: نزوى (2) عنه مازعم أنه يناله فى الآخرة والمعنى مسمى ما يقول، وهو المال والولد ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ حال أى: بلا مال ولا ولد كقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾(3) فما يجدى عليه تمنيه وتألبه.

•• ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أى: اتخذ هؤلاء المشركون أصناما يعبدونها ﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أى: ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب.

•• ﴿كَلاَّ﴾ ردع لهم عما ظنوا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الضمير للآلهة أى: سيجحدون عبادتهم وينكرونها، ويقولون: والله ماعبدتمونا وأنتم كاذبون أو للمشركين أى: ينكرون أن يكونوا قد

(1) سورة «ق»، الآية (18).
(2) نزوى: أى: نجمع ونقبض.
(3) سورة «الأنعام»، الآية (94).

عبدوها كقوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] ﴿وَيَكُونُونَ﴾ أى: المعبودون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المشركين ﴿ضِدًّا﴾ خصما؛ لأن الله تعالى ينطقهم، فتقول: يارب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك، والضد يقع على الواحد والجمع، وهو فى مقابلة لهم عزا، والمراد ضد العز، وهو الذل والهوان أى: يكونون عليهم ضدا لما قصدوه أى: يكونون عليهم ذلالا لهم عزاً وإن رجع الضمير فى سيكفرون ويكونون إلى المشركين، فالمعنى ويكونون عليهم أى: أعداءهم ضد، أى: كفرة بهم بعد أن كانوا يعبدونها. ثم عجب نبيه ـ عليه السلام ـ بقوله:

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: خليناهم وإياهم ، من أرسلت البعير أطلقته أوسلطناهم عليهم بالإغواء ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ تغريهم على المعاصى إغراء والأز والهز إخوان، ومعناهما التهييج وشدة الإعاج.

●● ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء، وقرأها ابن السماك [2] عند المأمون[3] فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد.

●● ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ركبانا على نوق رحالها ذهب، وعلى نجائب [4] سروجها ياقوت.

●● ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين سوق الأنعام؛ لأنهم كانوا أضل من الأنعام ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عطاشا؛ لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش وحقيقة الورد المسير إلى الماء فيسمى به الواردون، فالوفد جمع وافد كركب وراكب، والورد جمع وارد ونصب يوم بمضمر أى: يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين مالا يوصف أى: اذكر يوم نحشر. ذكر المتقون بأنهم يجمعون إلى ربهم الذى غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلا لهم والكافرون بأنهم يساقون إلى النار، كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء استخفافا بهم.

●● ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ حال، والواو إن جعل ضميرا فهو للعباد، ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين؛ لأنهم على هذه القسمة، ويجوز أن يكون علامة للجمع كالتى فى أكلونى البراغيث

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (٢٣).

(٢) ابن السماك: هو: محمد بن صبيح. انظر ترجمته فى نهاية الجزء الثانى عند تفسير خواتيم سورة «الإسراء».

(٣) المأمون: هو اللقب الذى اشتهر به عبدالله بن هارون الرشيد، وهو من خلفاء العصر العباسى، ولد عام ١٧٠هـ، ومات عام ٢١٨هـ.
الأعلام (٤/ ١٤٢).

(٤) النجائب: جمع نجيبة، وهو الناقة.
القاموس (١/ ٣٠).

والفاعل من اتخذ؛ لأنه فى معنى الجمع ومحل من اتخذ رفع على البدل من واو يملكون، أو على الفاعلية، أو نصب على تقدير حذف المضاف: أى إلا شفاعة من اتخذ، والمراد: لا يملكون أن يشفع لهم ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ بأن آمن. فى الحديث: «من قال لا إله إلا الله كان له عند الله عهد» (١) وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبى (ﷺ) قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا». قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك، وإنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عهداً توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد؛ فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كان لهم عند الله عهد؛ فيدخلون الجنة»(٢). أو يكون من عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به أى: لا يشفع إلا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها.

●● ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أى: النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله.

●● ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات، أو أمر نبيه عليه السلام بأن يقول لهم ذلك؛ والإد العجب، أو العظيم المنكر، والإدة الشدة وأدّنى الأمر أثقلنى وعظم علىّ أدًا.

●● ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ تقرب، وبالياء نافع وعلىّ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ وبالنون بصرى وشامى وحمزة وخلف وأبو بكر. الانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شققه ﴿مِنْهُ﴾ من عظم هذا القول ﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾ تنخسف وتنفصل أجزاؤها ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ تسقط ﴿هَدًّا﴾ كسرا، أو قطعا، أوهدما، والهدة صوت الصاعقة من السماء، وهو مصدر أى: تهد هدًّا من سماع قولهم، أو مفعول له، أو حال، أى: مهدودة.

●● ﴿أَن دَعَوْا﴾ لأن سموا، ومحله جر، بدل من الهاء فى منه أو نصب مفعول له علل الخرور بالهد والهد بدعاء الولد للرحمن أو رفع فاعل هدا أى: هدها دعاؤهم ﴿ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾.

●● ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ انبغى مطاوع بغى إذ طلب أى: ما يتأتى له اتخاذ الولد، وما يتطلب لو طلب مثلا؛ لأنه محال غير داخل تحت الصحة، وهذا لأن اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة وهو منزه عنهما وفى اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان له الرحمن وحده لايستحق

(١) انظر كنز العمال (٢/ ٣٨٦٩)، واللفظ عنده، وفيه: «كتب له بها عندالله عهد».
(٢) قال ابن حجر: رواه الثعلبى.

هـذا الاسم غـيـره؛ لأن أصـول النعم وفروعها منه فلـينكشف عـن بصرك غطاؤه، فـأنت وجمـيع ماعندك عطـاؤه، فمن أضـاف إليه ولداً فقـد جعـله كبعـض خـلقه وأخرجه بذلك عـن استحقاق اسـم الرحمن.

●● ﴿إن كلُّ مَن﴾ نكرة موصوفة صفتها ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وخبر كل ﴿إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ﴾ ووحد آتى وآتيه حملا على لفظ كل، وهو اسم فاعل من أتى وهو مستقبل أى: يأتيه ﴿عَبْداً﴾ حال أى: خاضعاً ذليلا منقاداً والمعنى ما كل مـن فى السموات والأرض من الملائكة والناس إلا هو يأتى الله يوم القيامة مقراً بالعبـودية، والعبودية والبنوة تتنافيان حتى لو ملك الأب ابنـه يعتق عليه ونسبة الجميع إليه نسبة الـعبد إلى المولى فكيف يكون البعض ولداً والبـعض عبداً، وقرأ ابن مسعود: آت الرحمن على أصله قبل الإضافة.

●● ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى: حصرهم بعلمه وأحاط بهم.

●● ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أى: كل واحد منهـم يأتيه يوم القيامة مـنفرداً بلا مال ولا ولد، أو بلا معين ولا ناصر.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ مودة فى قلوب الـعباد قال الربيع[1]: يحبـهم ويحببهـم إلى الناس، وفى الحـديث: «يعطى المومـن مِقَةً[2] فى قلـوب الأبرار ومهابة فى قلوب الـفجار» وعن قتادة وهرم[3]: ما أقبل الـعبد إلى الله إلا أقبل الله بقلـوب العباد إليه، وعن كعب ما يستقر لعبد ثناء فى الأرض حتى يستقر له فى السماء.

●● ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ سهلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بلغتك حال ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ شداداً فى الخـصومة بالباطـل أى: الذين يأخذون فى كـل لديد أى: شق مـن المراء والجدال جمع ألدّ يراد به أهل مكة.

●● ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويف لهم وإنذار ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أى: هل تجد أو ترى، أو نعلم والإحساس الإدراك بالحاسة ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتاً خفياً ومنه الركاز أى: لما أتاهم عذابنا لم يـبق شخص يرى ولا صوت يسمع، يعنى هلكوا كـلهم فكذا هؤلاء إن أعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم، والله أعلم.

---

(١) هو: الربيع بـن سليمان بن عبدالجبـار بن كامل، المرادى، مولاهم، أبو محـمد المصرى، المؤذن صاحب الشافعى، وراوية كتبه عنه، وهو عند أهل الحديث: «ثقة». ولد عام ١٧٤هـ، وتوفى عام ٢٧٠هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) المقة: أى: المحبة.

(٣) هو: هرم بـن حيان، جمع بـين العلم والـعمل؛ فهـو ناسك، ومن القـادة الفاتحين، تـوفى عام ٥٢٦هـ.
الأعلام (٨/ ٨٢).

(سورة طه - صلى الله عليه وسلم - مكية، وهى مائة وخمس وثلاثون آية كوفى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿طه﴾ فخّم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء أبو عمرو، وأمالهما حمزة وعلى وخلف وأبو بكر، وفخمهما على الأصل غيرهم، وما روى عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم أن معناه يا رجل، فإن صح فظاهر وإلا فالحق ما هو المذكور فى سورة البقرة.

●● ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ إن جعلت طه تعديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام، وإن جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبراً عنها وهى فى موضع المبتدأ، والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر؛ لأنها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا، أو بقيام الليل فإنه روى أنه - عليه السلام - صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك فإن لها عليك حقا، أى: ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة.

●● ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ استثناء منقطع أى: لكن أنزلناه تذكرة، أو حال ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن يخاف الله، أو لمن يئول أمره إلى الخشية.

●● ﴿تَنزِيلاً﴾ بدل من تذكرة إذا جعل حالا، ويجوز أن ينتصب بنزل مضمرا، أو على المدح، أو بيخشى مفعولا أى: أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ﴾ من يتعلق بتنزيلا صلة له ﴿الْعُلَى﴾ جمع العليا تأنيث الأعلى، ووصف السماوات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها.

●● ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ رفع على المدح أى، هو الرحمن ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ خبر مبتدأ محذوف.

●● ﴿اسْتَوَىٰ﴾ استولى. عن الزجاج، ونبه بذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره، وقيل: لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقال: استوى فلان على العرش أى: ملك وإن لم يقعد على السرير ألبتة وهذا كقولك: يد فلان مبسوطة أى: جواد وإن لم يكن له يد رأساً، والمذهب قول على - رضى الله عنه - : الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة؛ لأنه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان.

●● ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خبر ومبتدأ ومعطوف ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: ذلك كله ملكه ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ ما تحت سبع الأراضين، أو هو الصخرة التى تحت الأرض السابعة.

●● ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ ترفع صوتك ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ ما أسررته إلى غيرك ﴿وَأَخْفَى﴾ منه وهو ما أخطرته ببالك، أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها.

●● ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: هو واحد بذاته وإن افترقت عبارات صفاته رد لقولهم: إنك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى، والحسنى تأنيث الأحسن.

●● ﴿وَهَلْ﴾ أي: وقد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ خبره قفاه بقصة موسى ـ عليه السلام ـ ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره، ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى.

●● ﴿إِذْ رَأَىٰ﴾ ظرف لمضمر أي: حين رأى ﴿نَارًا﴾ كان كيت وكيت، أو مفعول به لا ذكر. روى أن موسى ـ عليه السلام ـ استأذن شعيبا في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح؛ فصلد زنده فرأى عند ذلك ناراً ـ في زعمه ـ وكان نوراً ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أقيموا في مكانكم ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أبصرت ﴿نَارًا﴾ والإيناس رؤية شيء يؤنس به ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا﴾ بنى الأمر على الرجاء؛ لئلا يعد ماليس يستيقن الوفاء به ﴿بِقَبَسٍ﴾ نارمقتبسة في رأس عود أو فتيلة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ذوى هدى، أو قوما يهدونني الطريق، ومعنى الاستعلاء في على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها.

●● ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار وجد ناراً بيضاء تتوقد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وكانت شجرة العناب، أو العوسج ولم يجد عندها أحداً. وروى أنه كلما طلبها بعدت عنه فإذا تركها قربت منه فثم ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿يَا مُوسَىٰ﴾.

●● ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة أي نودى فقيل: يا موسى إني، أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته، وبالفتح مكي وأبو عمرو أي: نودى بأني ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾ أنا مبتدأ، أوتأكيد أو فصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة. روى أنه لما نودى يا موسى قال: مَنْ المتكلم؟ فقال الله عز وجل: أنا ربك. فعرف أنه كلام الله عز وجل بأنه سمعه من جميع جهاته الست، وسمعه بجميع أعضائه ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادى المقدس، أو لأنها كانت من جلد حمار ميت غير مدبوغ، أو لأن الحفوة تواضع لله، ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين، والقرآن يدل على أن ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما وألقاهما من وراء الوادى ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر، أو المبارك ﴿طُوًى﴾ حيث كان منوَّن شامي وكوفي؛ لأنه اسم علم للوادى وهو بدل منه وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة، وقرأ أبو زيد[1] بكسر الطاء بلا تنوين.

---

(١) أبو زيد؛ هو: سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن أبى زيد، أبو زيد الأنصارى، النحوى، البصرى، جليل القدر في اللغة والحديث، فأهل كل من الفنين يعرفون له قدره، فهو علامة في النحو، وهو ثقة في الحديث، مات سنة ٢١٥هـ، وله ٩٣عاماً، على خلاف.

تهذيب التهذيب (٢/ ٢٨٨، ٢٨٩).

●● ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة، وإنا اخترناك حمزة ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ إليك للذى يوحى ،أو للوحى واللام يتعلق باستمع أو باخترتك.

●● ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وحدنى وأطعنى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ لتذكرنى فيها؛ لاشتمال الصلاة على الأذكار، أو لأنى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالمدح والثناء أو لذكرى خاصة لا تشـوبه بذكرى غيرى، أو لتكون لى ذاكرا غـير ناس، أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾(1) وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها وذا يصح بتقدير حذف المضاف أى: لذكر صلاتى، وهذا دليل على أنه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها.

●● ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ لا محالة ﴿أَكَادُ﴾ أريد عن الأخفش وقيل :صلة ﴿أُخْفِيهَا﴾ قيل: هو من الأضداد أى: أظهرها، أو أسترها عن العباد، فلا أقـول هى آتية لإرادتى إخفاءهـا، ولولا ما فى الأخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة، وهو أنهم إذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها فى كل وقت لما أخبرت به ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلق بآتية ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ بسعيها من خير أو شر.

●● ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ فلا يصرفنك عن العمل للـساعة، أو عن إقامة الصلاة، أو عن الإيمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته ﴿مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لا يصدق بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فى مخالفة أمره ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فتهلك.

●● ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ ما مبتدأ وتلك خبره وهى بمعنى هذه، وبيمينك حال عمل فيها معنى الإشارة أى: قارة، أو مأخوذة بيمينـك، أو تلك موصول صلته بيمينك والسؤال للـتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت، أو للتوطين؛ لئلا يهوله انقلابها حية أو للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة.

●● ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أعتمد عليـها إذا أعييت أو وقفت على رأس القـطيع، وعند الطفرة ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أخبط ورق الشجر علـى غنمى لتأكل ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾ ـ ولى ـ حفص جمع مأربة ـ بالحركات الثلاث ـ وهى الحاجة ﴿أُخْرَىٰ﴾ والقياس أخر، وإنما قال: أخرى ردا إلى الجماعـة أو لنَسق الآى وكـذا: «الكبرى»، ولمـا ذكر بعضهـا شكرا أجمـل الباقى حـياء من التطويل، أو ليسأل عنـها الملك العلام فيزيد فـى الإكرام والمآرب الأخر أنها كانت تمـاشيه وتحدثه وحارب العدو والسباع وتصير رشاء(2) فتطول بطول البئر، وتصير شعبتاها دلوا، وتكونان شمعتين بالليل، وتحـمل زاده، ويركزها(3) فتثمـر ثمرة يشتهـيها، ويركزها فيـنبع الماء فإذا رفعـها نضب،

---

(1) سورة «النساء»، الآية (١٠٣).

(2) الرشاء: هو الحبل.

(3) يركزها: يغرسها فى الأرض.

وكانت تقيه الهوام والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكرا، أو لأنها جواب سؤال آخر؛ لأنه لما قال هى عصاى قيل: له: ما تصنع بها؟ فأخذ يعدد منافعها.

•• ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ اطرح عصاك لتفزع مما تتكىء عليه فلا تسكن إلا بنا وترى فيها كنه ما فيها من المآرب فتعتمد علينا فى المطالب.

•• ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ فطرحها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ تمشى سريعا، قيل: انقلبت ثعبانا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآها تبتلع كل شىء خاف، وإنما وصفت بالحية هنا وبالثعبان(١) وهو العظيم من الحيات، وبالجان(٢) وهو الدقيق فى غيرها؛ لأن الحية اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وجاز أن تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها، أو لأنها كانت فى عظم الثعبان وسرعة الجان، وقيل: كان بين لحييها أربعون ذراعا.

•• ولما ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من ذهاب خوفه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ سنردها ﴿سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ تأنيث الأول، والسيرة: الحالة التى يكون عليها الإنسان غريزية كانت أو مكتسبة، وهى فى الأصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة وانتصبت على الظرف أى: سنعيدها فى طريقتها الأولى أى: فى حال ما كانت عصا، والمعنى نردها عصا كما كانت، وأرى ذلك موسى عند المخاطبة؛ لئلا يفزع منها إذا انقلبت حية عند فرعون، ثم نبه على آية أخرى فقال:

•• ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك تحت العضد، وجناحا الإنسان جنباه والأصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين؛ لأنه يجنحهما أى: يميلهما عند الطيران، والمعنى أدخلها تحت عضدك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس يغشى البصر ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ لنبوتك، بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء صلة بيضاء، كقولك: ابيضت من غير سوء، وجاز أن ينتصب آية بفعل محذوف يتعلق به الأمر.

•• ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أى: خذ هذه الآية أيضاً بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى، أو نريك بهما الكبرى من آياتنا أو المعنى فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى.

•• ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية، ولما أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغى وعرف أنه كلف أمراً عظيما يحتاج إلى صدر فسيح.

(١) أى: فى الموضعين الأعراف (١٠٧)، والشعراء (٣٢).

(٢) أى: فى الموضعين؛ النمل (١٠)، والقصص (٣١).

●● ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾وسعه ليحتمل الوحى والمشاق وردىء الأخلاق من فرعون وجنده.

●● ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وسهل على ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون، واشرح لى صدرى آكد من اشرح صدرى؛ لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقى الإجمال والتفصيل، لأنه يقول: اشرح لى ويسر لى، علم أن ثمة مشروحا وميسراً، ثم رفع الإبهام بذكر الصدر والأمر.

●● ﴿وَاحْلُلْ﴾ افتح ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ وكان فى لسانه رتة للجمرة التى وضعها على لسانه فى صباه؛ وذلك أن موسى أخذ لحية فرعون ولطمه لطمة شديدة فى صغره؛ فأراد قتله فقالت آسية: أيها[1] الملك إنه صغير لا يعقل، فجعلت فى طشت ناراً وفى طشت يواقيت ووضعتهما لدى موسى فقصد اليواقيت فأمال الملك يده إلى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه فصار لكنة منها. وروى أن يده احترقت واجتهد فرعون فى علاجها فلم تبرأ، ولما دعاه قال: إلى أى رب تدعونى قال: إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنها ومن لسانى صفة لعقدة كأنه قيل: عقدة من عقد لسانى وهذا يشعر بأنه لم تزل العقدة بكمالها وأكثرهم على ذهاب جميعها.

●● ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ عند تبليغ الرسالة.

●● ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ ظهيراً أعتمد عليه من الوزر الثقل؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنته، أو من الوزر الملجأ؛ لأن الملك يعتصم برأيه ويلتجىء إليه فى أموره أو معينا من الموازرة وهى المعاونة فوزيرا مفعول أول لاجعل والثانى ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ أولى وزيرا مفعولاه.

●● وقوله: ﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان لوزيراً وقوله: ﴿أَخِي﴾ بدل أو عطف بيان آخر ووزيراً وهارون مفعولاه وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة.

●● ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قو به ظهرى وقيل: الأزر القوة.

●● ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ اجعله شريكى فى النبوة والرسالة. اشدد وأشركه على حكاية النفس شامى على الجواب والباقون على الدعاء والسؤال.

●● ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ نصلى لك وننزهك تسبيحا ﴿كَثِيرًا﴾.

●● ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فى الصلوات وخارجها.

●● ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا فأجابه الله تعالى حيث:

●● ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ أعطيت مسئولك فالسؤل: الطُّلْبَة؛ «فُعْل» بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز. سولك بلا همز أبو عمرو.

---

(١) هى المرأة العظيمة، الكاملة؛ آسية بنت مزاحم، امرأة فرعون، تكلم القرآن عنها، وهى رابع أربعة نسوة كاملات؛ بنص حديث رسول الله ﷺ.

●● ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَيْكَ مَرَّةً﴾ كرة ﴿أُخْرَىٰ﴾ قبل هذه ثم فسرها فقال:

●● ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ إلهاما، أو مناما حين ولدت، وكان فرعون يقتل أمثالك، وإذ ظرف لمننا ثم فسر ما يوحى بقوله:

●● ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ ألقيه ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ وإن مفسرة؛ لأن الوحي بمعنى القول ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ الجانب وسمى ساحلا؛ لأن الماء يسحله أى: يقشره والصيغة أمر؛ ليناسب ما تقدم ومعناه الإخبار أى: يلقيه اليم بالساحل ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ يعنى فرعون والضمائر كلها راجعة إلى موسى - عليه السلام - ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يفضى إلى تنافر النظم والمقذوف فى البحر والملقى إلى الساحل، وإن كان هو التابوت لكن موسى فى جوف التابوت. روى أنها جعلت فى التابوت قطناً محلوجاً فوضعته فيه وقيرته[1]، ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا بصبى أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديداً، فذلك قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ يتعلق منى بألقيت يعنى إنى أحببتك، ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد إلا أحبه، قال قتادة: كان فى عينى موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ معطوف على محذوف تقديره: وألقيت عليك محبة لتحب ولتصنع ﴿عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أى: لتربى بمرأى منى: وأصله من صنع الفرس أى: أحسن القيام عليه يعنى أنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به. (ولْتصنع) بسكون اللام والجزم يزيد؛ على أنه أمر منه.

●● ﴿إِذْ تَمْشِي﴾ بدل من إذ أوحينا؛ لأن مشى أخته كان منة عليه ﴿أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ روى أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدى امرأة فقالت: هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيربيه، وأرادت بذلك المرضعة الأم وتذكير الفعل للفظ من، فقالوا: نعم فجاءت بالأم فقبل ثديها وذلك قوله: ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ فرددناك ﴿إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ كما وعدناها بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[2] ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقك ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قبطياً كافراً ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ من القود. قيل الغم: القتل بلغة قريش، وقيل: اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[3] ونجاه من فرعون بأن ذهب به من

(١) قَيَّرته: أى: زفته، يقال فى اللغة: قيَّر الشيء: طلاه بالقار، والقار: هو الزفت. (المعجم الوسيط ٢/٧٦٩).

(٢) سورة «القصص»، الآية (٧).

(٣) سورة «القصص»، الآية (١٦).

مصر إلى مدين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ ابتليناك ابتلاء بإيقاعك فى المحن وتخليصك منها، والفتون مصدر كالقعود، أو جمع فتنة أى: فتناك ضروبا من الفتن، والفتنة المحنة، وكل ما يبتلى الله به عباده فتنة ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(١) ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ هى بلدة شعيب ـ عليه السلام ـ على ثمان مراحل من مصر، قال وهب(٢) : لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر منها مهر لصفوراء وأقام عنده ثمان عشر سنة بعدها حتى ولد له أولاد ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ أى: موعد ومقدار للرسالة وهو أربعون سنة.

●● ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ اخترتك واصطفيتك لوحيى ورسالتى لتتصرف على إرادتى ومحبتى، قال الزجاج: اخترتك لأمرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كأنى أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم.

●● ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ بمعجزاتى ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تفترا من الونى وهو الفتور والتقصير ﴿فِي ذِكْرِي﴾ أى: اتخذا ذكرى جناحا تطيران به، أو أريد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها.

●● ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ كرر؛ لأن الأول مطلق والثانى مقيد ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ جاوز الحد بادعائه الربوبية.

●● ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ الطفا له فى القول لما له من حق تربية موسى، أو كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة، أو عداه شباباً لا يهرم بعده وملكا لا ينزع عنه إلا بالموت، أو هو قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾(٣) فظاهره الاستفهام والمشورة ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يتعظ ويتأمل فيذعن للحق ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره إلى الهلكة، وإنما قال: لعله يتذكر مع علمه أنه لا يتذكر؛ لأن الترجى لهما أى: اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يطمع أن يثمر عمله، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة، وقيل: معناه لعله يتذكر متذكر، أو يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس وقيل: لعل من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر وقيل: تذكر فرعون وخشى وأراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لا يقطع أمراً دونه، وتليت عند يحيى بن معاذ(٤) فبكى، وقال: هذا رفقك بمن يقول: أنا إله فكيف بمن قال أنت الإله؟! وهذا رفقك بمن قال: أنا ربكم الأعلى فكيف بمن قال: سبحان ربى الأعلى:

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٣٥).

(٢) هو: وهب بن منبه، السابق ترجمته عند تفسير الآية رقم (١١١) من سورة «البقرة».

(٣) سورة «النازعات»، الآيتان (١٨، ١٩).

(٤) انظر ترجمته عند تفسير الآية (١١٠)، من سورة الكهف.

●● ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ يعجل علينا بالعقوبة، ومنه الفارط يقال: فرط عليه أى: عجل ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ يجاوز الحد فى الإساءة إلينا.

●● ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أى: حافظكما وناصركما ﴿أَسْمَعُ﴾ أقوالكما ﴿وَأَرَىٰ﴾ أفعالكما قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنع: لست بغافل عنكما فلا تهتما.

●● ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أى: فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: أطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتكليف المشاق ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ بحجة على صدق ما ادعيناه، وهذه الجملة جارية من الجملة الأولى وهى إنا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير والتفصيل؛ لأن دعوى الرسالة لا تثبت إلا ببينتها وهى المجىء بالآى، فقال فرعون: وما هى؟ فأخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أى: سلم من العذاب، من أسلم ـ وليس بتحية ـ وقيل: وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين.

●● ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ فى الدنيا والعقبى ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بالرسل ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان، وهى أرجى آى القرآن؛ لأنه جعل جنس السلام للمؤمن، وجنس العذاب على المكذب، وليس وراء الجنس شىء، فأتياه وأديا الرسالة وقالا له ما أمرا به.

●● ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ خاطبهما ثم نادى أحدهما؛ لأن موسى هو الأصل فى النبوة وهارون تابعه.

●● ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ خلقه أول مفعولى أعطى أى: أعطى خليقته كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أى: أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع، وكذا الأنف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها، وقرأ نصير خلَقه صفة للمضاف أو للمضاف إليه أى: أعطى كل شىء مخلوق عطاء ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة فى الدنيا والسعادة فى العقبى.

●● ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ فما حال الأمم الخالية والرمم البالية سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقى منهم وسعادة من سعد.

●● ﴿قَالَ﴾ موسى مجيبا ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ مبتدأ وخبر ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أى: اللوح خبر ثان أى: هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرنى به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله فى اللوح المحفوظ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾

أى: لا يخطىء شيئا، يقال: ضللت الشيء إذا أخطأته فى مكانه فلم تهتد له أى: لا يخطىء فى سعادة الناس وشقاوتهم ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ثوابهم وعقابهم، وقيل: لا ينسى ما علم فيذكره الكتاب ولكن ليعلم الملائكة أن معمول الخلق يوافق معلومه.

●● ﴿الَّذِي﴾ مرفوع صفة لربى، أو خبر مبتدأ محذوف، أو منصوب على المدح ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ كوفى وغيرهم مهادا، وهما لغتان لما يبسط ويفرش ﴿وَسَلَكَ﴾ أى: جعل ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طرقا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى: مطرا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء نقل الكلام من الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للافتنان، وقيل: تم كلام موسى، ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله: «فأخرجنا به»، وقيل: هذا كلام موسى أى: فأخرجنا نحن بالحراثة والغرس ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافا ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ هو مصدر سمى به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع ﴿شَتَّىٰ﴾ صفة للأزواج، أو للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى أى إنها مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها للناس وبعضها للبهائم، ومن نعمة الله تعالى أن أرزاقنا تحصل بعمل الأنعام، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجاتنا مما لا نقدر على أكله قائلين.

●● ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ حال من الضمير فى فأخرجنا، والمعنى أخرجنا أصناف النبات أذنين فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فى الذى ذكرت ﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ لذوى العقول واحدها نهية؛ لأنها تنهى عن المحظور، أو ينتهى إليها فى الأمور.

●● ﴿مِنْهَا﴾ من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أى: أباكم آدم ـ عليه السلام ـ وقيل: يعجن كل نطفة بشيء من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معاً، أو لأن النطفة من الأغذية وهى من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إذا متم فدفنتم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى، والمراد بإخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء، ويخرجهم إلى المحشر، عدد الله عليهم ما علق بالأرض من مرافقهم حيث جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات التى منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم وهى أصلهم الذى منه تفرعوا، وأمهم التى منها ولدوا وهى كفاتهم إذا ماتوا.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أى: فرعون ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وهى تسع آيات: العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل ﴿فَكَذَّبَ﴾ الآيات ﴿وَأَبَىٰ﴾ قبول الحق.

●● ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ فيه دليل على أنه خاف منه خوفاً شديدا وقوله: بسحرك تعلل، وإلا فأى ساحر يقدر أن يخرج ملكا من أرضه.

●● ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ فلنعارضنك بسحر مثل سحرك ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر بمعنى الوعد ويقدر مضاف أى: مكان موعد والضمير فى ﴿لاَّ نُخْلِفُهُ﴾ للموعد قرأ يزيد بالجزم على جواب الأمر، وغيره بالرفع على الوصف للموعد ﴿نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا﴾ هو بدل من المكان المحذوف، ويجوز أن لا يقدر مضاف ويكون المعنى اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه، وانتصب مكانا بالمصدر، أو بفعل يدل عليه المصدر ﴿سُوًى﴾ بالكسر حجازى وأبو عمرو وعلىّ وغيرهم بالضم، وهو نعت لمكانا أى: منصفا بيننا وبينك وهو من الاستواء؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية.

●● ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ مبتدأ وخبر، وهو يوم عيد كان لهم، أو يوم النيروز، أو يوم عاشوراء، وإنما استقام الجواب بالزمان، وإن كان السؤال عن المكان على التأويل الأول؛ لأن اجتماعهم يوم الزينة يكون فى مكان لا محالة فبذكر الزمان علم المكان، وعلى الثانى تقديره وعدكم وعد يوم الزينة ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أى: تجمع فى موضع رفع، أو جر عطفا على يوم أو الزينة ﴿ضُحًى﴾ أى: وقت الضحوة لتكون أبعد عن الريبة، وأبين لكشف الحق، وليشيع فى جميع أهل الوبر والمدر(١).

●● ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أدبر عن موسى معرضا ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ مكره وسحرته، وكانوا اثنين وسبعين، أو أربعمائة، أو سبعين ألفا ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ للموعد.

●● ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أى: للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ كوفى غير أبى بكر يهلككم، وبفتح الياء والحاء غيرهم، والسحت والإسحات بمعنى الإعدام. وانتصب على جواب النهى ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ من كذب على الله.

●● ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ اختلفوا أى: السحرة، فقال بعضهم: هو ساحر مثلنا، وقال بعضهم: ليس هذا بكلام السحرة أى: لا تفتروا على الله كذباً الآية ﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أى: تشاوروا فى السر، وقالوا: إن كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر، والنجوى يكون مصدرا واسما، ثم لفقوا هذا الكلام يعنى.

●● ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يعنى موسى وهارون، قرأ أبو عمرو: إن هذين لساحران ـ وهو ظاهر ـ ولكنه مخالف للإمام(٢) وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف بالنحو واللغة، إن هذان لساحران بتخفيف إن مثل قولك: إن زيد لمنطلق، واللام هى الفارقة بين إن النافية والمخففة من

(١) الوبر والمدر: يُقصد بهما: أهل البدو والحضر.

(٢) يقصد: المصحف الإمام، وهو مصحف عثمان ـ رضى الله عنه ـ الذى جمع فيه القراءات كلها، وأمر الناس بالالتزام به دون غيره، درءاً للفرقة بين المسلمين.

وقيل: هـي بمعنى ما: والـلام بمعنى إلا، أى: ما هـذان إلا ساحران، دليلـه قراءة أبى إن ذان إلا ساحران، وغيـرهم إن هذان لساحران، قيـل: هى لغة بلحـارث بن كعب وخثعم ومـراد وكنانة، فالتثنية فى لغتهم بالألف أبدا فلم يقلبوها ياء فى الجر والنصب كعصا وسعدى قال:

إن أباها وأبا أباها　　قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال الزجاج: إن بمعنى نعم، قال الشاعر:

ويقلن شيب قد علا　　ك وقد كبرت فقلت إنه

أى: نعم، والهاء للوقف، وهذانِ مبتدأ وساحران خبـر مبتدأ محذوف، واللام داخلة على المبتدأ المحذوف تقديره: هذان لهما ساحران فـيكون دخولها فى موضعها الموضـوع لها وهو الابتداء، وقد يدخل اللام فى الخبر كما يدخل فى المبتدأ قال: خـالى لأنت ومن جرير خاله. قال: فعرضته على المبرد فـرضيه، وقد زيفه أبـو علىّ ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ مصر ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ بدينكم وشريعتكم ﴿الْمُثْلَىٰ﴾ الفضلى، تأنيث الأمثل وهو الأفضل.

•• ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ فأحكموا أى: اجعلوه مجمعا عليه حتى لا تختلفوا، فأجمعوا أبو عمرو ويعضده فجمع كيده ﴿كَيْدَكُمْ﴾ هو ما يـكاد به ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ مصطفين حال أمروا بـأن يأتوا صفا؛ لأنه أهيب فى صدور الرائين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ وقد فاز من غلب، وهو اعتراض.

•• ﴿قَالُوا﴾ أى: السحرة ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك أولا ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ما معنا، وموضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر، أو رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف معناه اختر أحد الأمرين، أو الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى ألهمهم ذلك وقد وصلت إليهم بركته. وعُلِّمَ موسى اختيار إلقائهم أولا حتى:

•• ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أنتم أولا ليبـرزوا ما معهم من مكايـد السحر ويظهر الله سلـطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فـتمحقه، فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ يقال فى إذا هذه: إذا المفاجأة، والتحـقيق أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت، الطالبة ناصباً لها وجملة تضـاف إليها وخصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصا وهـو فعل المفاجأة، والجملة ابتدائيـة لا غير، والتقدير: ففاجأ موسـى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهـم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مـخيلة إليه السعى ﴿يُخَيَّلُ﴾ وبالتاء ابن ذكوان ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى موسى ﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ رفع بدل اشتـمال من الضمير فـى يخيل أى: يخيل الملقى، روى أنهم لطـخوها بالزئبق فـلما ضربت عليـها الشمس اضطـربت واهتزت فخيلت ذلك.

●● ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أضمر فى نفسه خوفاً ظناً منه أنها تقصده للجملة البشرية، أو خاف أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه.

●● ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ الغالب القاهر، وفى ذكر إن وأنت وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة.

●● ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ﴾ بسكون اللام والفاء وتخفيف القاف حفص، وتلقّف ابن ذكوان، الباقون تلقَّفْ ﴿مَا صَنَعُوا﴾ زوراً وافتعلوا أى: اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم ولم يقل: عصاك تعظيما لها أى: لا تحتفل بما صنعوا فإن ما فى يمينك أعظم منها، أو تحقيرا أى لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الذى فى يمينك فإنه بقدرتنا يتلقفها على وحدته وكثرتها ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ كوفى غير عاصم سحر بمعنى ذى سحر، أو ذوى سحر، أو هم لتوغلهم فى السحر كأنهم السحر، وكيد بالرفع على القراءتين، وما موصولة أو مصدرية، وإنما وحد ساحر ولم يجمع؛ لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أى: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أينما كان، فألقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فلعظم ما رأوا من الآية وقعوا إلى السجود فذلك قوله:

●● ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا، فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين! روى أنهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها فى السجود فرفعوا رءوسهم ثم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وإنما قدم هارون هنا وأخر فى الشعراء محافظة للفاصلة؛ ولأن الواو لا توجب ترتيبا.

●● ﴿قَالَ آمَنتُمْ﴾ بغير مد حفص، وبهمزة ممدودة بصرى وشامى وحجازى وبهمزتين غيرهم ﴿لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: لموسى يقال: آمن له وآمن به ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ لعظيمكم أو لمعلمكم، تقول أهل مكة للمعلم: أمرنى كبيرى ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ لأن كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال، ومن لابتداء الغاية؛ لأن القطع مبتدأ وناشىء من مخالفة العضو، ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعنى لأقطعنها مختلفات؛ لأنها إذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف، شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن المظروف فى الظرف فلهذا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ وخص النخل لطول جذوعها ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنا على ترك إيمانكم بى أو رب موسى على ترك الإيمان به، وقيل: يريد نفسه ـ لعنه الله ـ وموسى ـ

صلوات الله وسلامه عليه ـ بدليل قوله: آمنتم له، واللام مع الإيمان فى كتاب الله لغير الله كقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١) ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم.

●● ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ القاطعة الدالة على صدق موسى ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عطف على ما جاءنا أى: لن نختارك على الذى جاءنا ولا على الذى خلقنا، أو قسم وجوابه: لن نؤثرك مقدم على القسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ فاصنع ما أنت صانع من القتل والصلب قال: وعليهما مسرودتان قضاهما أى: صنعهما، أو احكم ما أنت حاكم ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: فى هذه الحياة الدنيا، فانتصب على الظرف أى: إنما تحكم فينا مدة حياتنا.

●● ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ ما موصولة منصوبة بالعطف على خطايانا ﴿مِنَ السِّحْرِ﴾ حال من ما، روى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: ما هذا بسحر الساحر، إذا نام بطل سحره؛ فكرهوا معارضته خوف الفضيحة، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر، وضر فرعون جهله به، ونفعهم علمهم بالسحر فكيف بعلم الشرع؟! ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ ثوابا لمن أطاعه ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ عقابا لمن عصاه، وهو رد لقول فرعون: ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى.

●● ﴿إِنَّهُ﴾ هو ضمير الشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ كافرا ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ للمجرم ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح بالموت ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

●● ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ مات على الإيمان ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعد الإيمان ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ جمع العليا.

●● ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ دائمين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من الشرك بقول لا إله إلا الله قيل: هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم، وقيل: خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية، وهو أظهر.

●● ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أمر موسى أن يخرج بهم من مصر ليلا ويأخذ بهم طريق البحر ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ اجعل لهم من قولهم: ضرب له فى ماله سهما ﴿يَبَسًا﴾ أى: يابساً وهو مصدر وصف به يقال: يبس يَبَسا ويُبْسا ﴿لَّا تَخَافُ﴾ حال من الضمير فى فاضرب أى: اضرب لهم طريقا غير خائف. لا تخف حمزة على الجواب ﴿دَرَكًا﴾ هو اسم من الإدراك أى: لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك ﴿وَلَا

---

(١) سورة «التوبة»، الآية (٦١).

﴿تَخْشَىٰ﴾ الغرق، وعلى قراءة حمزة ولا تخشى استئناف أى: وأنت لا تخشى، أو يكون الألف للإطلاق كما فى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(١) فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفا، وقد استعاروا حليهم، فركب فرعون فى ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم فذلك قوله:

●● ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ هو حال أى: خرج خلفهم ومعه جنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ﴾ أصابهم من البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ هو من جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة أى: غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله عز وجل.

●● ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ عن سبيل الرشاد ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وما أرشدهم إلى الحق والسداد، وهذا رد لقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(٢) ثم ذكر منته على بنى إسرائيل بعد ما أنجاهم من البحر وأهلك فرعون وقومه بقوله:

●● ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى، وقلنا: يا بنى إسرائيل ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ أى: فرعون ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ وذلك أن الله عزوجل وعد موسى أن يأتى هذا المكان، ويختار سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة، وإنما نسب إليهم المواعدة؛ لأنها كانت لنبيهم ونقبائهم وإليهم رجعت منافعها التى قام بها شرعهم ودينهم، والأيمن نصب؛ لأنه صفة جانب، وقرىء بالجر على الجوار ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فى التيه، وقلنا لكم:

●● ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم كوفى غير عاصم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ ولا تتعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم وتنفقوها فى المعاصى، أولا يظلم بعضكم بعضا ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ عقوبتى ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ هلك أو سقط سقوطا لانهوض بعده، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك، وتحقيقه سقط من شرف الإيمان إلى حفرة من حفر النيران. قرأ على فيحل ويحلل، والباقون بكسرهما فالمكسور فى معنى الوجوب من حل الدين يحل إذا وجب أداؤه، والمضموم فى معنى النزول.

●● ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ وحَّدَ الله تعالى وصدَّقه فيما أنزل ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أدى الفرائض ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام وثبت على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

---

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (١٠).
(٢) سورة «غافر»، الآية (٢٩).

●● ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ أى: وأى شىء عجل بك ﴿عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ : أى عن السبعين الذين اختارهم؛ وذلك أنه مضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه، وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى: «وما أعجلك» أى: أى شىء أوجب عجلتك استفهام إنكار، وما مبتدأ وأعجلك الخبر.

●● ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أى: هم خلفى يلحقون بى، وليس بينى وبينهم إلا مسافة يسيرة، ثم ذكر موجب العجلة فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ﴾ أى: إلى الموعد الذى وعدت ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ لتزداد عنى رضا، وهذا دليل على جواز الاجتهاد.

●● ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ ألقيناهم فى فتنة ﴿مِنْ بَعْدِكَ﴾ من بعد خروجك من بينهم، والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هارون ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ بدعائه إياهم إلى عبادة العجل وإجابتهم له، وهو منسوب إلى قبيلة من بنى إسرائيل يقال لها: السامرة، وقيل: كان علجا[1] من كرمان، فاتخذ عجلا واسمه موسى بن ظفر، وكان منافقا.

●● ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من مناجات ربه ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب، أو حزينا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعدهم الله أن يعطيهم التوراة التى فيها هدى ونور، وكانت ألف سورة، كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملا، ولا وعد أحسن من ذلك ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أى: مدة مفارقتى إياكم، والعهد الزمان، يقال: طال عهدى بك أى: طال زمانى بسبب مفارقتك ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: أردتم أن تفعلوا فعلا يجب به عليكم الغضب من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات ،فأخلفوا موعده باتخاذ العجل.

●● ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بفتح الميم مدنى وعاصم، وبضمها حمزة وعلى، وبكسرها غيرهم، أى: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا، أى: لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفنا موعدك، ولكنا غلبنا من جهة السامرى وكيده ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا﴾ بالضم والتشديد حجازى وشامى وحفص، وبفتح الحاء والميم مع التخفيف غيرهم ﴿أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أثقالا من حلى القبط، أو أرادوا بالأوزار أنها آثام وتبعات؛ لأنهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة أن لنا غدا عيدا، فقال السامرى: إنما حبس موسى لشؤم حُرمتها؛ لأنهم كانوا معهم فى حكم المستأمنين فى دار الحرب، وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربى، على أن الغنائم لم تكن تحل حينئذ فأحرقوها فخبأ فى حفرة النار قالب عجل فانصاغت عجلا مجوفاً فخار بدخول الريح فى مجار منه أشباه العروق،

(١) العِلج: هو الرجل الأعجمى؛ الكافر منهم.

وقيل: نفخ فيه ترابـا من موضع قوائم فرس جبريل ـ عليه السـلام ـ يوم الغرق، وهو فرس حياة، فحيي، فخار، ومالت طباعهم إلـى الذهب فعبدوه ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ فى نار السـامرى التى أوقـدها فى الحفرة وأمرنا أن نطرح فيها الحلى ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ ما معه من الحلى فى النار، أو ما معه من التراب الذى أخذه من أثر حافر فرس جبريل ـ عليه السلام.

•• ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ السامرى من الحفرة ﴿عِجْلًا﴾ خلقه الله تعالى من الحلى الـتى سبكتها النار ابتلاء ﴿جَسَدًا﴾ مجسداً ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ صوت، وكان يـخور كما تـخور العجـاجيل ﴿فَقَالُوا﴾ أى: السامرى وأتباعه ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ فأجاب عامتهم إلا اثنى عشر ألفا ﴿فَنَسِيَ﴾ أى: فنسى موسى ربه هنا وذهب يطـلبه عند الطور، أو هو ابتداء كـلام من الله تعالى أى: نسى السامرى ربه وترك ما كان علـيه من الإيمان الظاهر، أو نسى الـسامرى الاستدلال على أن العجـل لا يكون إلها بدليل قوله:

•• ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ﴾ أى: أنه لا يرجع، فـأن مخففة من الـثـقيلة ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أى: لا يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: هو عاجز عن الخطاب والضر والنـفع فكيف تتخذونه إلها؟! وقيل: إنه ما خار إلا مرة.

•• ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ﴾ لمن عبدوا العجل ﴿هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل رجوع مـوسى إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ لا العجل ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ كونوا على دينى الذى هو الحق ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فى ترك عبادة العجل.

•• ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ أى: لن نزال مقيمين علـى العجل وعبادته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظره، هل يعبده كما عبدناه؟ وهل صدق السامرى أم لا؟ فلما رجع موسى ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل.

•• ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بالياء فى الوصل والوقف مكى وافقه أبو عمرو ونافع فى الوصل، وغيرهم بلا ياء أى: مادعاك إلى ألا تتبعنى لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشىء وبين الداعى إلى تركه، وقيل: لا مزيدة والمعنى أى: شيء منعك أن تتبعنى حين لم يقبلوا قولك وتلحق بى وتخبرنى؟ أو ما منعك أن تتـبعنى فى الغضيب لله، وهلا قاتـلت من كفر بمن آمن! ومالك لم تـباشر الأمر كما كنت أباشره أنا لو كنت شاهداً ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أى: الذى أمرتك به من القـيام بمصالحهم، ثم أخذ بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا وإنكاراً عليه؛ لأن الغيرة فى الله ملكته.

•• ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ﴾ وبخفض المـيم شامى وكوفى غير حـفص، وكان لأبيه وأمه عنـد الجمهور، ولكنه ذكر الأم استعطافا وترفيقاً ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ ثم ذكر عذره فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ﴾ إن قاتلـت بعضهم بـبعض ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أو خفت أن تـقول: إن فارقتـهم

واتبعتك ولحق بى فريق، وتبع السامرى فريق: فرقت بين بنى إسرائيل ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ ولم تحفظ ﴿قَوْلِي﴾ ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾(١) وفيه دليل على جواز الاجتهاد، ثم أقبل موسى على السامرى منكراً عليه حيث:

•• ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ ما أمرك الذى تخاطب عليه ﴿يَا سَامِرِيُّ﴾.

•• ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وبالتاء حمزة وعلى، وقال الزجاج: بصر علم، وأبصر نظر، أى: علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل، قال موسى: وما ذاك؟ قال: رأيت جبريل على فرس الحياة، فألقى فى نفسى أن أقبض من أثره فما ألقيته على شىء إلا صار له روح ولحم ودم ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ القبضة المرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير، وقرىء فقبصت قبصة فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع ﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى: من أثر فرس الرسول وقرىء بها ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ فطرحتها فى جوف العجل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿لِي نَفْسِي﴾ أن أفعله ففعلته اتباعا لهواى، وهو اعتراف بالخطأ واعتذار.

•• ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿فَاذْهَبْ﴾ من بيننا طريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ ما عشت ﴿أَن تَقُولَ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلا بحالك ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أى: لا يمسنى أحد ولا أمسه؛ فمنع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته، وإذا اتفق أن يماس أحدا حم الماس والممسوس، وكان يهيم فى البرية يصيح لا مساس، ويقال: إن ذلك موجود فى أولاده إلى الآن، وقيل: أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أى: لن يخلفك الله موعده الذى وعدك على الشرك والفساد فى الأرض، ينجزه لك فى الآخرة بعدما عاقبك بذاك فى الدنيا، لن يخلفك مكى وأبو عمرو، هذا من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفا ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ وأصله ظللت فحذف اللام الأولى تخفيفاً ﴿عَاكِفًا﴾ مقيما ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ﴾ لنذرينه ﴿فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ فحرقه وذراه فى البحر فشرب بعضهم من مائه حبا له؛ فظهرت على شفاههم صفرة الذهب.

•• ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز أى: وسع علمه كل شىء.

•• ومحل الكاف فى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب أى: مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمم الماضية تكثيراً لبيناتك وزيادة فى معجزاتك ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أى: أعطيناك ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ قرآنا فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن أقبل عليه، وهو مشتمل على الأقاصيص والأخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٤٢).

•• ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن هذا الذكر ـ وهو القرآن ـ ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذى ينقض ظهره ويلقى عليه بهره[1]، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

•• ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من الضمير فى يحمل، وإنما جمع على المعنى، ووحد فى «فإنه» حملا على لفظ من ﴿فِيهِ﴾ فى الوزر أى: فى جزاء الوزر وهو العذاب ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ ساء فى حكم بئس، وفيه ضمير مبهم يفسره حملا، وهو تمييز، واللام فى لهم للبيان كما فى: ﴿هيت لك﴾، والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: ساء الحمل حملا وزرهم.

•• ﴿يَوْمَ يُنفَخُ﴾ بدل من يوم القيامة. ننفخ أبو عمرو ﴿فِي الصُّورِ﴾ القرن، أو هو جمع صورة أى ننفخ الأرواح فيها؛ دليله قراءة قتادة: (الصُّوَر) بفتح الواو جمع صورة ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ حال أى عميا كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾[2] وهذا؛ لأن حدقة من يذهب نور بصره تزرق.

•• ﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ يتسارون ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أى: يقول بعضهم لبعض سرا لهول ذلك اليوم: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ ما لبثتم فى الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ أى: عشر ليال؛ يستقصرون مدة لبثهم فى القبور أو فى الدنيا لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر؛ لأن أيام السرور قصار، أو لأنها ذهبت عنهم والذاهب وإن طالت مدته قصير بالانتهاء، أو لاستطالتهم الآخرة؛ لأنها أبدا يستقصر إليها عمر الدنيا ويتقالّ لبث أهلها فيها بالقياس إلى لبثهم فى الآخرة، وقد رجح الله قول من يكون أشد تقالاً منهم بقوله:

•• ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعد لهم قولا ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وهو كقوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾[3].

•• ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ سألوا النبى (ﷺ)؛ ما يصنع بالجبال يوم القيامة؟ وقيل: لم يسئل، وتقديره: إن سألوك ﴿فَقُلْ﴾ ولذا قرن الفاء، بخلاف سائر السؤالات مثل قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[4] وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[5] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[6]. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا

---

(١) البُهْر: تتابع النفس من الإعياء، ويقصد به هنا: الشدة وتحمل المكروه. (المعجم الوسيط ١/ ٧٣).

(٢) سورة «الإسراء»، الآية (٩٧).

(٣) سورة «المؤمنون»، الآية (١١٣).

(٤) سورة «البقرة»، الآية (٢٢٢).

(٥) سورة «البقرة»، الآية (٢٢٠).

(٦) سورة «البقرة»، الآية (٢١٩).

علمها عند ربي﴾[1] ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح﴾[2] ﴿ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو﴾[3] لأنها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء ﴿ينسفها ربي نسفا﴾ أى: يجعلها كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها كما يذرى الطعام وقال الخليل: يقلعها.

●● ﴿فيذرها﴾ فيذر مقارها، أو يجعل الضمير للأرض للعلم بها كقوله: ﴿ما ترك على ظهرها﴾[4] ﴿قاعا صفصفا﴾ مستوية ملساء.

●● ﴿لا ترى فيها عوجا﴾ انخفاضا ﴿ولا أمتا﴾ ارتفاعا والعوج بالكسر إن كان فى المعانى، كما أن المفتوح فى الأعيان والأرض عين، ولكن لما استوت الأرض استواء لا يمكن أن يوجد فيها اعوجاج بوجه ما، وإن دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعانى.

●● ﴿يومئذ﴾ أضاف اليوم إلى وقت نسف الجبال أى: يوم إذ نسفت، وجاز أن يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة ﴿يتبعون الداعي﴾ إلى المحشر أى: صوت الداعى، وهو إسرافيل حين ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمى إلى عرض الرحمن، فيقبلون من كل أوب إلى صوبه لا يعدلون عنه ﴿لا عوج له﴾ أى: لا يعوج له مدعو بل يستوون إليه من غير انحراف متبعين لصوته ﴿وخشعت﴾ وسكنت ﴿الأصوات للرحمن﴾ هيبة وإجلالا ﴿فلا تسمع إلا همسا﴾ صوتا خفيفا لتحريك الشفاه، وقيل: هو من همس الإبل، وهو صوت أخفافها إذا مشت أى: لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر.

●● ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن﴾ محل من رفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف، أى: لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن أى أذن للشافع فى الشفاعة ﴿ورضي له قولا﴾ أى: رضى قولا لأجله بأن يكون المشفوع له مسلما، أو نصب على أنه مفعول تنفع.

●● ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أى: يعلم ما تقدمهم من الأحوال وما يستقبلونه ﴿ولا يحيطون به علما﴾-أى: بما أحاط به علم الله فيرجع الضمير إلى ما، أو يرجع الضمير إلى الله؛ لأنه تعالى ليس بمحاط به.

●● ﴿وعنت﴾ خضعت وذلت ومنه قيل للأسير: عان ﴿الوجوه﴾ أى: أصحابها ﴿للحي﴾ الذى لا يموت، وكل حياة يتعقبها الموت فهى كأن لم تكن ﴿القيوم﴾ الدائم القائم على كل نفس بما كسبت، أو القائم بتدبير الخلق ﴿وقد خاب﴾ يئس من رحمة الله ﴿من حمل ظلما﴾ من حمل إلى

(1) سورة «الأعراف»، الآية (187).
(2) سورة «الإسراء»، الآية (85).
(3) سورة «الكهف»، الآية (83).
(4) سورة «فاطر»، الآية (45).

موقف القيامة شركا؛ لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه، ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه.

•• ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الصالحات الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بما جاء به محمد ـ عليه السلام ـ وفيه دليل أنه يستحق اسم الإيمان بدون الأعمال الصالحة، وأن الإيمان شرط قبولها ﴿فَلا يَخَافُ﴾ أى: فهو لا يخاف فلا يخف على النهى مكى ﴿ظُلْماً﴾ أن يزداد فى سيئاته ﴿وَلا هَضْماً﴾ ولا ينقص من حسناته، وأصل الهضم النقص والكسر.

•• ﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على كذلك نقص أى: ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ كررنا ﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ الوعيد أو القرآن ﴿ذِكْراً﴾ عظة، أو شرفا بإيمانهم به، وقيل: أو بمعنى الواو.

•• ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ ارتفع عن فنون الظنون وأوهام الأفهام، وتنزه عن مضاهاة الأنام ومشابهة الأجسام ﴿الْمَلِكُ﴾ الذى يحتاج إليه الملوك: ﴿الْحَقُّ﴾ المحق فى الألوهية، ولما ذكر القرآن وإنزاله قال ـ استطرادا ـ: وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ بقراءته ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ بالقرآن ومعانيه، وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شىء إلا فى العلم.

•• ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ﴾ أى: أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة، يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم: تقدم الملك إلى فلان وأوصى إليه وعزم عليه وعهد إليه، فعطف قصة آدم على وصرفنا فيه من الوعيد، والمعنى وأقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب الشجرة ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل وجودهم فخالف إلى ما نهى عنه كما أنهم يخالفون يعنى أن أساس أمر بنى آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه ﴿فَنَسِيَ﴾ العهد أى: النهى؛ والأنبياء ـ عليهم السلام ـ يؤاخذون بالنسيان الذى لو تكلفوا لحفظوه ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ قصدا إلى الخلاف لأمره، أو لم يكن آدم من أولى العزم. والوجود بمعنى العلم ومفعولاه له عزما، أو بمعنى نقيض العدم أى: وعد مناله عزما وله متعلق بنجد.

•• ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ منصوب باذكر ﴿لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ قيل: هو السجود اللغوى الذى هو الخضوع والتذلل، أو كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم له فيه ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن إبليس كان ملكا من جنس المستثنى منهم، وقال الحسن: الملائكة لُباب الخليقة من الأرواح، ولا يتناسلون وإبليس من نار السموم وإنما صح استثناوه منهم؛ لأنه كان يصحبهم ويعبد الله معهم ﴿أَبَى﴾ جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال: لِمَ لَمْ يسجد؟ والوجه أن لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله: فسجدوا وأن يكون معناه أظهر الإباء وتوقف.

●● ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حيث لم يسجد لك، ولم ير فضلك ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ فلا يكون سببا لإخراجكما ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ فتتعب فى طلب القوت، ولم يقل: فتشقيا مراعاة لرءوس الآى، أو دخلت تبعا، أو لأن الرجل هو الكافل لنفقة المرأة، وروى أنه أهبط إلى آدم ثور أحمر؛ وكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه.

●● ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ عن الملابس؛ لأنها معدة أبدا فيها.

●● ﴿وَأَنَّكَ﴾ بالكسر نافع وأبو بكر عطفا على إن الأولى، وغيرهما بالفتح عطفا على ألا تجوع؛ ومحله نصب بأن وجاز للفصل كما تقول: إن فى علمى أنك جالس ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ لا تعطش لوجود الأشربة فيها ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ لا يصيبك حر الشمس إذ ليس فيها شمس فأهلها فى ظل ممدود.

●● ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أى: أنهى إليه الوسوسة كأسر إليه ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها خلد بزعمه، ولا يموت ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يفنى.

●● ﴿فَأَكَلَا﴾ أى: آدم وحواء ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ عوراتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل، وهو ككاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا إلا أنه للشروع فى أول الأمر، وكاد للدنو منه، ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أى: يلزقان الورق بسوءاتهما للتستر، وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ضل عن الرأى وعن ابن عيسى(1) خاب، والحاصل أن العصيان وقوع الفعل على خلاف الأمر والنهى، وقد يكون عمدا فيكون ذنبا، وقد لا يكون عمدا فيكون زلة، ولما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من أن يكون رشدا فكان غيا؛ لأن الغى خلاف الرشد وفى التصريح بقوله: وعصى آدم ربه فغوى، والعدول عن قوله: وزل آدم مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين؛ كأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبى المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلا عن الكبائر.

●● ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ قربه إليه واصطفاه، وقرىء به وأصل الكلمة الجمع يقال: جبى إلى كذا فاجتبيته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته ﴿وَهَدَىٰ﴾ وهداه إلى الاعتذار والاستغفار.

●● ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ يعنى آدم وحواء ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ياذرية آدم ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بالتحاسد فى الدنيا والاختلاف فى الدين ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ كتاب وشريعة ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ فى الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ فى العقبى قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا

(1) انظر ترجمة ابن عيسى عند تفسير الآية رقم (١٢٨) من سورة «آل عمران».

يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، يعنى أن الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين، فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه.

●● ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ عن القرآن ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيقا، وهو مصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث، عن ابن جبير يسلبه القناعة حتى لا يشبع، فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة، ومع الإعراض الحرص والشح، فعيشه ضنك وحاله مظلمة، كما قال بعض المتصوفة: لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن الحجة عن ابن عباس أعمى البصر وهو كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾(1) وهو الوجه.

●● ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ فى الدنيا.

●● ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أى: مثل ذلك فعلت أنت، ثم فسر فقال: ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أى: أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها؛ فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين: المعيشة الضنك فى الدنيا وحشره أعمى فى العقبى، ختم آيات الوعيد بقوله: ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، أى: للحشر على العمى الذى لا يزول أبدا أشد من ضيق العيش المنقضى.

●● ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أى: الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون(2) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ﴾ حال من الضمير المجرور فى لهم ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يريد أن قريشا يمشون فى مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ لذوى العقول إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا.

●● ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أى: الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد (ﷺ) ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لازما فاللزام مصدر لزم فوصف به ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ القيامة، وهو معطوف على كلمة، والمعنى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى - وهو القيامة - لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة.

●● ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك ﴿وَسَبِّحْ﴾ وصل ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فى موضع الحال وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعنى صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ

---

(1) سورة «الإسراء»، الآية (٩٧).

(2) أى: «نهد لهم»؛ وهى قراءة.

غُرُوبِهَا﴾ يعنى الظهر والعصر؛ لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أى: وتعهد آناء الليل أى: ساعاته، وأطراف النهار مختصا لها بصلاتك، وقد تناول التسبيح فى آناء الليل صلاة العتمة، وفى أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت فى قوله: ﴿وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾(1) عند البعض، وإنما جمع وأطراف النهار وهما طرفان لأمن الإلباس، وهو عطف على قبل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ لعل للمخاطب أى: اذكر الله فى هذه الأوقات رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك. وتُرضى على وأبو بكر أى: يرضيك ربك.

●● ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أى: نظر عينيك، ومد النظر تطويله، وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به، وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك أن يباده الشىء بالنظر ثم يغض الطرف، ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة، وعدد الفسقة فى ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن: لاتنظروا إلى دقدقة(2) هماليج(3) الفسقةولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب؛ وهذا لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافا من الكفرة، ويجوز أن ينتصب حالا من هاء الضمير والفعل واقع على منهم كأنه قال: إلى الذى متعنا به، وهو أصناف بعضهم وناسا منهم ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زينتها وبهجتها وانتصب على الذم، أو على إبداله من محل به، أو على إبداله من أزواجا على تقدير ذوى زهرة ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ ثوابه وهو الجنة، أو الحلال الكافى ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ مما رزقوا.

●● ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ أمتك أو أهل بيتك ﴿بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ﴾ أنت داوم ﴿عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أى: لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم فلاتهتم لأمر الرزق، وفرغ بالك لأمر الآخرة؛ لأن من كان فى عمل الله كان الله فى عمله، وعن عروة بن الزبير(4) أنه كان إذا رأى ما عند السلاطين قرأ: «ولا تمدن عينيك». الآي، ثم ينادى الصلاة، الصلاة رحمكم الله. وكان

---

(1) سورة «البقرة»، الآية (٢٣٨).

(2) الدقدقة: من (دقدق القوم): أى: أجلبوا، والدواب: سمعت أصوات حوافرها. (المعجم الوسيط ١/ ٢٩٠).

(3) الهماليج: أى: الدواب.

(4) هو: عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى، أبو عبدالله المدنى، روى عن أبيه، وأخيه ـ عبدالله ـ وأمه ـ أسماء بنت أبى بكر ـ وجُلُّ روايته عن خالته ـ عائشة ـ وغيرهم. عالم المدينة، كان عالماً بالسيرة، حافظاً ثبتاً قواماً، متفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، من الثانية، توفى بعد عام ٩٠هـ، وقد تجاوز السبعين، على خلاف كبير فى ذلك.
تهذيب التهذيب (٤/١١٧ ـ ١١٩).

بكر بن عبدالله المزنى[1] إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا بهـذا أمر الله ورسوله، وعن مالك بن دينار مثله وفي بعض المسانيد أنـه ـ عليه السلام ـ كان إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى: وحسن العاقبة لأهل التقوى بحذف المضافين.

●● ﴿وَقَالُوا﴾ أى: الكافرون ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ هلا يأتينا محمـد بآية من ربه تدل على صحة نبوته ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ أو لم تأتهم مدنى وحفص وبصرى ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ أى: الكتب المتقدمة، يعنى أنهم اقترحوا على عادتهم فـى التعنت آية على النبوة فقيل لهم: أو لم تأتكم آية هى أم الآيـات وأعظمها فى بـاب الإعجاز يعنـى القرآن من قبـل أن القرآن برهان ما فـى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته؛ لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ من قـبل الرسول، أو الـقرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام بالفاء ﴿آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بنزول العذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ فى العقبى.

●● ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أى: كل واحـد منا ومنـكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظـر للعاقبة، وبما يؤول إلـيه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أنتم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا جاءت القـيامة ﴿مَنْ أَصْحَابُ﴾ مبتدأ وخبر ومـحلهما نصب ﴿الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى النـعيم المقيـم. قال رسول الله (ﷺ): «لا يقرأ أهل الجنة إلا سورة طه ويس»[2]. ـ والله أعلم بالصواب.

---

(١) هو التابعى الـثقة؛ بكر بن عبدالله بـن عمرو المزنى، أبو عبدالله الـبصرى، روى عن أنس وابن عباس وابـن عمر، وجمع من كـبار التابعيـن، كان تقيًا ورعـاً، وثَّقَهُ رجال الحديث، مـات عام ١٠٨هـ، وقيل: ١٠٦هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٣٠٤).

(٢) قال ابن حجر: رواه الثعلبى من رواية زياد عن الحسن مرسلاً.

(سورة الأنبياء مكية، وهى مائة واثنتا عشرة آية كوفى، وإحدى عشرة آية مدنى وبصرى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿اقْتَرَبَ﴾ دنا ﴿لِلنَّاسِ﴾ اللام صلة لاقترب، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المراد بالناس المشركون؛ لأن ما يتلوه من صفات المشركين ﴿حِسَابُهُمْ﴾ وقت محاسبة الله إياهم، ومجازاته على أعمالهم يعنى يوم القيامة، وإنما وصفه بالاقتراب لقلة ما بقى بالإضافة إلى مامضى؛ ولأن كل آت قريب ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن حسابهم وعما يفعل بهم، ثم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن التأهب لذلك اليوم فالاقتراب عام، والغفلة والإعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين، فرب غافل عن حسابه لاستغراقه فى دنياه وإعراضه عن مولاه، ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه(١) فى مولاه، وإعراضه عن دنياه فهو لا يفيق إلا برؤية المولى، والأول إنما يفيق فى عسكر الموتى، فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وتتنبه للعرض قبل أن تنبه، وتعرض عن الغافلين، وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين؛ لتفوز بلقاء رب العالمين.

●● ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ شىء من القرآن ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ فى التنزيل إتيانه مبتدأة تلاوته قريب عهده باستماعهم، والمراد به الحروف المنظومة، ولا خلاف فى حدوثها ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ﴾ من النبى - عليه السلام - أو غيره ممن يتلوه ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به.

●● ﴿لَاهِيَةً﴾ حال من ضمير يلعبون، أو وهم يلعبون ولاهية حالان من الضمير فى استمعوه، ومن قرأ: لاهية بالرفع يكون خبراً بعد خبر لقوله: وهم. وارتفعت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بلاهية وهى من لهى عنه إذا ذهل وغفل، والمعنى قلوبهم غافلة عما يراد بها، ومنها قال أبو بكر الورّاق: القلب اللاهى المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وبالغوا فى إخفاء ﴿النَّجْوَى﴾ وهى اسم من التناجى، ثم أبدل ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من واو وأسروا إيذاناً بأنهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به، أوجاء على لغة من قال: أكلونى البراغيث، أو هو مجرور المحل لكونه صفة، أو بدلا من الناس، أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى فقدم عليه أى: والذين ظلموا أسروا النجوى ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا الكلام كله فى محل النصب بدل من النجوى أى: وأسروا هذا الحديث، ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمراً، والمعنى أنهم اعتقدوا أن الرسول لا يكون إلا ملكا، وإن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر؟!.

---

(١) يقصد: استهلاك النفس.

●● ﴿قَالَ رَبِّي﴾ حمزة وعلى وحفص أى: قال محمد وغيرهم: قل ربى أى: قل يا محمد للذين أسروا النجوى ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: يعلم قول كل قائل هو فى السماء، أو الأرض سراً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما فى ضمائرهم.

●● ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أضربوا عن قولهم: هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام رآها فى نومه فتوهمها وحيا من الله إليه، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده، ثم إلى أنه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج[1] والمبطل رجاع غير ثابت على قول واحد، ثم قالوا: إن كان صادقا فى دعواه وليس الأمر كما يظن ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ بمعجزة ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ كما أرسل من قبله باليد البيضاء، والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى، وصحة التشبيه فى قوله: كما أرسل الأولون من حيث إنه فى معنى كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات ألا ترى أنه لا فرق بين قولك: أرسل محمد، وبين قولك: أتى محمد بالمعجزة فرد الله عليهم قولهم بقوله:

●● ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ صفة لقرية عند مجىء الآيات المقترحة؛ لأنهم طلبوها تعنتاً ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا مع أنهم أعنى منهم، والمعنى: أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله، فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضاً.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ هذا جواب قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم ﴿نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ نوحى[2] حفص ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ العلماء بالكتابين فإنهم يعرفون أن الرسل الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة، وكان أهل مكة يعتمدون على قولهم ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثم بين أنه كمن تقدمه من الأنبياء بقوله:

●● ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾ وحد الجسد لإرادة الجنس ﴿لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ صفة لجسدا يعنى: وما جعلنا الأنبياء قبله ذوى جسد غير طاعمين ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ كأنهم قالوا: هلا كان ملكا لا يطعم ويخلد، إما معتقدين أن الملائكة لا يموتون، أو مسمين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاولة خلودا.

●● ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ بإنجائهم والأصل فى الوعد مثل ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾[3] أى: من

(١) لجلج فلان: أى: تردد فى كلامه ولم يبن، فهو لجلاج، وفى كتاب عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى أبى موسى الأشعرى: «الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك» أى: تردد.
(المعجم الوسيط ٢/ ٨١٦).

(٢) فى بعض القراءات «يُوحَى»؛ بالبناء للمجهول؛ لذلك خص حفص بالذكر هنا مع «نوحى».

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (١٥٥).

قومه ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ مما حل بقومهم ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ هم المؤمنون ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد بالكفر، ودل الإخبار بإهلاك المسرفين على أن من نشاء غيرهم.

●● ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم إن عملتم به، أو لأنه بلسانكم، أو فيه موعظتكم، أو فيه ذكر دينكم ودنياكم، والجملة أى: فيه ذكركم صفة لكتابا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنوا.

●● ﴿وَكَمْ﴾ نصب بقوله: ﴿قَصَمْنَا﴾ أى: أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ أى: أهلها بدليل قوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كافرة وهى واردة عن غضب شديد وسخط عظيم؛ لأن القصم أفظع الكسر، وهو الكسر الذى يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم فإنه كسر بلا إبانة ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فسكنوا مساكنهم.

●● ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا﴾ أى: المهلكون ﴿بَأْسَنَا﴾ عذابنا أى: علموا علم حس ومشاهدة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ من القرية، وإذا للمفاجأة، وهم مبتدأ والخبر ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين والركض ضرب الدابة بالرجل فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، أو شبهوا فى سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فقيل لهم:

●● ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ والقائل بعض الملائكة ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ نعمتم فيه من الدنيا ولين العيش. قال الخليل: المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى: يقال لهم استهزاء بهم: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم، ومن ينفد فيه أمركم ونهيكم ويقولوا لكم: بم تأمرون، وكيف نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدمين، أو يسألكم الناس فى أنديتكم المعاون فى نوازل الخطوب، أو يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحاب أكفكم، أو قال بعضهم لبعض: لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم وأموالكم لعلكم تسألون مالا وخراجا فلا تقتلون فنودى من السماء يالثارات الأنبياء وأخذتهم السيوف فثم.

●● ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترافهم بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف.

●● ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ هى إشارة إلى يا ويلنا ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ دعاؤهم، وتلك مرفوع على أنه اسم زالت ودعواهم الخبر ويجوز العكس ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد أى: الزرع المحصود ولم يجمع كما لم يجمع المقدر ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين خمود النار وحصيدا خامدين مفعول ثان لجعل أى: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود، كقولك: جعلته حلوا حامضا أى: جعلته جامعاً للطعمين.

●● ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ اللعب فعل يروق أوله ولا ثبات له، ولاعبين حال من فاعل خلقنا، والمعنى وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلق للهو واللعب، وإنما سويناها ليستدل بها على قدرة مدبرها، ولنجازى المحسن والمسىء على ما تقتضيه حكمتنا، ثم نزه ذاته عن سمات الحدوث بقوله:

●● ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أى: ولدا أو امرأة كأنه رد على من قال: عيسى ابنه ومريم صاحبته ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ من الولدان أو الحور ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أى: إن كنا ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالته فى حقنا، وقيل: هو نفى كقوله ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾[1] أى: ما كنا فاعلين.

●● ﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ بل إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو بل من سنتنا أن نقذف أى: نرمى ونسلط ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالقرآن ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الشيطان، أو بالإسلام على الشرك، أو بالجد على اللعب ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ فيكسره ويدحض الحق الباطل، وهذه استعارة لطيفة؛ لأن أصل استعمال القذف والدمغ فى الأجسام، ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل والدمغ لإذهاب الباطل فالمستعار منه حسى والمستعار له عقلى فكأنه قيل: بل نورد الحق الشبيه بالجسم القوى على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف فيبطله إبطال الجسم القوى الضعيف ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ أى: الباطل ﴿زَاهِقٌ﴾ هالك ذاهب ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله به من الولد ونحوه.

●● ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فأنى يكون شىء منه ولداً له وبينهما تناف ويوقف على الأرض؛ لأن ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ منزلة ومكانة لا منزلا ولا مكانا يعنى: الملائكة مبتدأ خبره ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون.

●● ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ حال من فاعل يسبحون أى: تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ، أو بشغل آخر فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا، ثم أضرب عن المشركين منكراً عليهم وموبخاً فجاء بأم التى بمعنى بل والهمزة فقال:

●● ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ يحيون الموتى، ومن الأرض صفة لآلهة؛ لأن آلهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب والفضة والحجر، أو تعبد فى الأرض فنسبت إليها كقولك: فلان من المدينة أى: مدنى، أو متعلق باتخذوا ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ وفى قوله: هم ينْشرون زيادة توبيخ، وإن لم يدعوا أن أصنامهم تحيى الموتى، وكيف يدْعون ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات؛ لأنه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار؛ لأن العاجز عنه لا يصح أن يكون إلها إذ لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور والإنشار من جملة المقدورات، وقرأ الحسن ينشرون بفتح الياء، وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أى: أحياها.

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآيتان (١٠٩)، (١١١).

●● ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ﴾ أى: غير الله، وصفت آلهة بالإ كما وصفت بغير، لو قيل: آلهة غير الله، ولا يجوز رفعه على البدل؛ لأن لو بمنزلة إن فى أن الكلام معه موجب، والبدل لا يسوغ إلا فى الكلام غير الموجب كقوله تعالى: ﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾(١) ولا يجوز نصبه استثناء؛ لأن الجمع إذا كان منكراً لا يجوز أن يستثنى منه عند المحققين؛ لأنه لا عموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء، والمعنى لو كان يدبر أمر السموات والأرض آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه فى أصول الكلام، ثم نزه ذاته فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والشريك.

●● ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنه المالك على الحقيقة، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس وجواز الخطأ عليه وعدم الملك الحقيقى لاستقبح ذلك وعد سفها، فمن هو مالك الملوك ورب الأرباب وفعله صواب كله أولى بأن لا يعترض عليه ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنهم مملوكون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم فى كل شىء فعلوه، وقيل: وهم يسألون يرجع إلى المسيح والملائكة أى: هم مسئولون فكيف يكونون آلهة، والألوهية تنافى الجنسية والمسئولية.

●● ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ الإعادة لزيادة الإفادة؛ فالأول للإنكار من حيث العقل، والثانى من حيث النقل أى وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك فقيل لمحمد: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على ذلك وذا عقلى وهو يأباه كما مر، أو نقلى وهو الوحى وهو أيضا يأباه فإنكم لا تجدون كتابا من الكتب السماوية إلا وفيه توحيده وتنزيهه عن الأنداد ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعنى: أمته ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يعنى: أمم الأنبياء من قبلى، وهو وارد فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه. معى حفص، فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ أى: القرآن، وهو نصب بيعلمون وقرىء الحق أى: هو الحق ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن النظر فيما يجب عليهم.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ﴾ إلا نوحى كوفى غير(٢) أبى بكر وحماد ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وحدونى فهذه الآية مقررة لما سبقها من آى التوحيد.

●● ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ نزلت فى خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أى: بل هم عباد مكرمون مشرفون مقربون وليسوا بأولادي، إذ العبودية تنافى الولادة.

---

(١) سورة «هود»، الآية (٨١).

(٢) أى: عندهم: «يُوحَى»، على البناء للمجهول.

●● ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أى: بقولهم فأنيبت اللام مناب الإضافة، والمعنى أنهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله، ولا يتقدمون قوله بقولهم ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: كما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا مبنى على أمره لا يعملون عملا لم يؤمروا به.

●● ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: ما قدموا وأخروا من أعمالهم ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أى لمن رضى الله عنه، وقال: لا إله إلا الله ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

●● ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ﴾ من دون الله إنى مدنى وأبو عمرو ﴿فَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ أى: فذلك القائل خبره ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ وهو جواب الشرط ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين الذين وضعوا الإلهية فى غير موضعها، وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقتادة والضحاك: قد تحقق الوعيد فى إبليس فإنه ادعى الألهية لنفسه ودعا إلى طاعة نفسه وعبادته.

●● ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ألم ير مكى ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا﴾ أى: جماعة السماوات وجماعة الأرض ؛فلذا لم يقل: كن ﴿رَتْقًا﴾ بمعنى المفعول أى كانتا مرتوقتين ـ وهو مصدر ـ فلذا صلح أن يقع موقع مرتوقتين ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ فشققناهما، والفتق الفصل بين الشيئين، والرتق ضد الفتق فإن قيل: متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك قلنا: إنه وارد فى القرآن الذى هو معجزة فقام مقام المرئى المشاهد؛ ولأن الرؤية بمعنى العلم، وتلاصق الأرض والسماء وتباينهما جائزان فى العقل، فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لابد له من مخصص وهو القديم جل جلاله، ثم قيل: إن السماء كانت لاصقة بالأرض لافضاء بينهما ففتقناهما أى فصلنا بينهما بالهواء وقيل: كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين وقيل: كانت السماء رتقا لا تمطر والأرض رتقا لاتنبت، ففتق السماء بالمطر والأرض بالنبات ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى: خلقنا من الماء كل حيوان كقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾(١) أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(٢) ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بما يشاهدون.

●● ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت من رسا إذا ثبت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ لئلا تضطرب بهم فحذف لا واللام، وإنما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما تزاد لذلك فى ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾(٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ أى: طرقا واسعة، جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب عليالحال من ﴿سُبُلاً﴾ متقدمة فإن قلت: أى فرق بين قوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾(٤)

---

(١) سورة «النور»، الآية (٤٥).
(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٣٧).
(٣) سورة «الحديد»، الآية (٢٩).
(٤) سورة «نوح»، الآية (٢٠).

وبين هذه؟ قلت: الأول للإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة، والثانى لبيان أنه حين خلقها؛ خلقها على تلك الصفة؛ فهو بيان لما أبهم ثم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ليهتدوا بها إلى البلاد المقصودة.

•• ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ فى موضعه عن السقوط كما قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[1] أو محفوظا بالشهب عن الشياطين كما قال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾[2] ﴿وَهُمْ﴾ أى: الكفار ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾ عن الأدلة التى فيها كالشمس والقمر والنجوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين فيها فيؤمنون ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتتصرفوا فيه ﴿وَالشَّمْسَ﴾ لتكون سراج النهار ﴿وَالْقَمَرَ﴾ ليكون سراج الليل ﴿كُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه أى: كُلُّهم، والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع، وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم، وهو السباحة ﴿فِى فَلَكٍ﴾ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - الفلك السماء، والجمهور على أن الفلك موج مكفوف تحت السماء تجرى فيه الشمس والقمر والنجوم، وكل مبتدأ خبره ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون أى: يدورون، والجملة فى محل النصب على الحال من الشمس والقمر.

•• ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ البقاء الدائم ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ بكسر الميم مدنى وكوفى غير أبى بكر ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ والفاء الأول لعطف جملة على جملة، والثانى لجزاء الشرط، كانوا يقدرون أنه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا، أى: قضى الله أن لا يخلد فى الدنيا بشر؛ أفإن مت أنت أيبقى هؤلاء؟!

•• ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم﴾ ونختبركم، سمى ابتلاء وإن كان عالما بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم؛ لأنه فى صورة الاختبار ﴿بِالشَّرِّ﴾ بالفقر والضر ﴿وَالْخَيْرِ﴾ الغنى والنفع ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وعن ابن ذكوان ترجعون.

•• ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك ﴿إِلاَّ هُزُوًا﴾ مفعول ثان ليتخذونك. نزلت فى أبى جهل مر به النبى (ﷺ) فضحك وقال: هذا نبى بنى عبد مناف[3] ﴿أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ﴾ يعيب ﴿آلِهَتَكُمْ﴾ والذكر يكون بخير وبخلافه، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء، وإن كان عدوا فذم ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أى: بذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ لا يصدقون به أصلا فهم أحق أن يتخذوا هزوا منك فإنك محق وهم مبطلون، وقيل: بذكر

---

(١) سورة «الحج»، الآية (٦٥). (٢) سورة «الحجر»، الآية (١٧).

(٣) هذا الحديث ذكره السيوطى فى «أسباب النزول».

الرحمن أى: بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون، والجملة فى موضع الحال أى: يتخذونك هزوا وهم على حال هى أصل الهزء والسخرية، وهى الكفر بالله تعالى وكررهم للتأكيد، أو لأن الصلة حالت بينه وبين الخبر فأعيد المبتدأ.

●● ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ فسر بالجنس، وقيل: نزلت حين كان النضر بن الحارث يستعجل بالعذاب. والعجل والعجلة مصدران. وهو تقديم الشىء على وقته. والظاهر أن المراد الجنس وأنه ركب فيه العجلة فكأنه خلق من العجل، ولأنه يكثر منه، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خلق من الكرم، فقدم أولا ذم الإنسان على إفراط العجلة وأنه مطبوع عليها، ثم منعه وزجره كأنه قال: ليس ببدع منه أن يستعجل فإنه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته فقد ركب فيه وقيل: العجل الطين بلغة حمير، قال شاعرهم: والنخل ينبت بين الماء والعجل. وإنما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه، كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه؛ لأنه أعطاه القوة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة، ومن عجل حال أى: عجلا ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ نقماتى ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعباس[1] فى الوصل.

●● ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ إتيان العذاب أو القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قيل: هو أحد وجهى استعجالهم.

●● ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جواب لو محذوف، وحين مفعول به ليعلم أى: لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه بقولهم: متى هذا الوعد؟، وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم.

●● ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتحيرهم أى: لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فلا يقدرون على دفعها ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون.

●● ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ فحل ونزل ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ جزاء ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ سلى رسول الله (ﷺ) عن استهزائهم به بأن له فى الأنبياء أسوة وأن ما يفعلونه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا.

●● ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أى: من عذابه إن أتاكم ليلا أو

---

(١) هو: عباس بن الفضل، الأنصارى، الواقفى، أبو الفضل، البصرى، نزيل الموصل، له مكانته فى علوم القراءات، دون الحديث؛ فهو قارئ، بينما لم يعتد به أهل الحديث. مات بالموصل سنة ١٨٦هـ، وله ٨١ عاماً.

تهذيب التهذيب (٣/ ٨٥، ٨٦).

نهارا ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أى: بل هم معرضون عن ذكره ولا يخطرونه ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الكالىء فصلحوا للسؤال عنه، والمعنى أنه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالىء، ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم، ثم أضرب عن ذلك بقوله:

●● ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ لما فى أم من معنى بل، فقال: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا؟!، ثم استأنف بقوله: ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره، ثم قال:

●● ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أى: ما هم فيه من الحفظ والكلاءة، إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا، وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا، كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وظنوا أنهم دائمون على ذلك، وهو أمل كاذب ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أى: نقص أرض الكفر ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام، وذكر نأتى يشير بأن الله يجريه على أيدى المسلمين، وأن عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم؟! أى: ليس كذلك بل يغلبهم رسول الله (ﷺ) وأصحابه بنصرنا.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أخوفكم من العذاب بالقرآن ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ بفتح الياء والميم ورفع الصم، ولا تسمع الصم شامى على خطاب النبى (ﷺ) ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ يخوفون، واللام فى الصم للعهد، وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين، والأصل ولا يسمعون إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا ما أنذروا.

●● ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ دفعة يسيرة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ صفة لنفحة ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى: ولئن مسهم من هذا الذى ينذرون به أدنى شىء لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم وأقروا أنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا، وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة؛ لأن النفح يدل على القلة، يقال نفحه بعطية: رضخه بها مع أن بناءها للمرة، وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات؛ لأن النفح فى معنى القلة والنزارة يقال: نفحته الدابة وهو رمح لين، ونفحه بعطية رضخه والبناء للمرة.

●● ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ جمع ميزان؛ وهو ما يوزن به الشىء فتعرف كميته، وعن الحسن: هو

ميزان له كفتان ولسان، وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾(١) والوزن لصحائف الأعمال فى قوله: ﴿الْقِسْطَ﴾ وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها فى نفسها قسط، أو على حذف المضاف، أى: ذوات القسط ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لأهل يوم القيامة أى: لأجلهم ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من الظلم ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ وإن كان الشىء مثقال حبة مثقال بالرفع مدنى، وكذا فى لقمان على كان التامة ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ صفة لحبة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم: ذهبت بعض أصابعه ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ عالمين حافظين عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لأن من حفظ شيئا حسبه وعلمه.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا﴾ قيل: هذه الثلاثة هى التوراة فهى فرقان بين الحق والباطل، وضياء يستضاء به ويتوصل به إلى سبيل النجاة وذكر أى: شرف، أو وعظ وتنبيه، أو ذكر ما يحتاج الناس إليه فى مصالح دينهم، ودخلت الواو على الصفات كما فى قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾(٢) وتقول مررت بزيد الكريم والعالم والصالح، ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

●● ومحل ﴿الَّذِينَ﴾ جر على الوصفية، أو نصب على المدح أو رفع عليه ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخافونه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال أى: يخافونه فى الخلاء ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ﴾ القيامة وأهوالها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

●● ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ كثير الخير غزير النفع ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ على محمد ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ استفهام توبيخ أى: جاحدون أنه منزل من عند الله.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ هداه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل موسى وهارون أو من قبل محمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَكُنَّا بِهِ﴾ بإبراهيم أو برشده ﴿عَالِمِينَ﴾ أى: علمنا أنه أهل لما آتيناه.

●● ﴿إِذْ﴾ إما أن تتعلق بآتينا أو برشده ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أى: الأصنام المصورة على صورة السباع والطيور والإنسان، وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها ﴿الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أى: لأجل عبادتها مقيمون فلما عجزوا عن الإتيان بالدليل على ذلك.

●● ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فقلدناهم.

●● ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أراد أن المقلدين والمقلدين

---

(١) سورة «المؤمنون»، الآية (٥١).

(٢) سورة «آل عمران»، الآية (٣٩).

منخرطون فى سلك ضلال ظاهر لا يخفى على عاقل، وأكد بأنتم ليصح العطف؛ لأن العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع.

●● ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ بالجد ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ أى: أجاد أنت فيما تقول؟ أم لاعب استعظاما منهم إنكاره عليهم واستبعاد؛ لأن يكون ما هم عليه ضلالا فثم أضرب عنهم مخبراً بأنه جاد فيما قال، غير لاعب مثبتا لربوبية الملك العلام وحدوث الأصنام بقوله.

●● ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أى: التماثيل فأنى يعبد المخلوق ويترك الخالق ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم﴾ المذكور من التوحيد شاهد ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

●● ﴿وَتَاللَّهِ﴾ أصله والله، وفى التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمرود ﴿لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ لأكسرنها ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم، قال ذلك سرا من قومه فسمعه رجل واحد فعرض: بقوله إنى سقيم، أى: سأسقم ليتخلف فرجع إلى بيت الأصنام.

●● ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ قطعاً من الجذ، وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج، جذاذا بالكسر على، جمع جذيذ أى: مجذوذ كخفيف وخفاف ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ﴾ للأصنام، أو للكفار أى: فكسرها كلها بفأس فى يده إلا كبيرها، فعلق الفأس فى عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه، أو إلى إبراهيم ليحتج عليهم، أو إلى الله لما رأوا عجز آلهتهم.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى: الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك ﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: إن من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم.

●● ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ الجملتان صفتان لفتى إلا أن الأول وهو يذكرهم أى: يعيبهم لابد منه للسمع؛ لأنك لا تقول: سمعت زيداً وتسكت حتى تذكر شيئاً مما يسمع بخلاف الثانى، وارتفاع إبراهيم بأنه فاعل يقال فالمراد الاسم لا المسمى أى: الذى يقال له هذا الاسم.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى: نمرود وأشراف قومه ﴿فَأْتُوا بِهِ﴾ أحضروا إبراهيم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ فى محل الحال بمعنى معايناً مشاهداً أى: بمرأى منهم ومنظر ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما سمع منه، أو بما فعله كأنهم كرهوا عقابه بلابينة، أو يحضرون عقوبتنا له فلما أحضروه.

●● ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ عن الكسائى إنه يقف عليه أى: فعله من فعله وفيه حذف الفاعل، وإنه لا يجوز، وجاز أن يكون الفاعل مسنداً إلى الفتى

المذكور فى قوله: سمعنا فتى يذكرهم، أو إلى إبراهيم فى قوله: يا إبراهيم، ثم قال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وهو مبتدأ وخبر، والأكثر أنه لا وقف، والفاعل كبيرهم، وهذا وصف أو بدل ونسب الفعل إلى كبيرهم وقصده تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى تبكيتا لهم وإلزاما للحجة عليهم؛ لأنهم إذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم، وأنه لا يصلح إلها وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتابا بخط رشيق أنيق: أنت كتبت هذا وصاحبك أمي؟ فقلت له: بل كتبته أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي؛ لأن إثباته للعاجز منكما والأمر كائن بينكما استهزاء به وإثبات للقادر ويمكن أن يقال: غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة، وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فأسند الفعل إليه؛ لأن الفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه، ويجوز أن يكون حكاية لما يقود إلى تجويزه مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فإن من حق من يعبد ويدعى إلها أن يقدر على هذا، ويحكى أنه قال غضب أن تعبد هذه الصغار معه وهو أكبر منها فكسرهن، أو هو متعلق بشرط لا يكون وهو نطق الأصنام فيكون نفيا للمخبر عنه أى: بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون، وقوله: فاسألوهم اعتراض وقيل: عرض بالكبير لنفسه، وإنما أضاف نفسه إليهم لاشتراكهم فى الحضور ﴿فَاسْأَلُوهُمْ﴾ عن حالهم ﴿إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وأنتم تعلمون عجزهم عنه.

●● ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ فرجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، فإنه من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه الباس.

●● ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ قال أهل التفسير: أجرى الله تعالى الحق على لسانهم فى القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة أى: ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، يقال: نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه أى: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا فى المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها، والجملة سدت مسد مفعولى علمت، والمعنى لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم.

●● ﴿قَالَ﴾ محتجا عليهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ هو فى موضع المصدر أى: نفعا ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن لم تعبدوه.

●● ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أف صوت إذا صوت به علم أن صاحبه متضجر، ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم، واللام لبيان المتأفف به أى: لكم ولآلهتكم هذا التأفف، أف مدنى وحفص، أف مكى وشامى، أفٍّ غيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من هذا وصفه لا يجوز أن يكون إلها، فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب.

●● ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ بالنار؛ لأنها أهول مـا يعاقب به وأفظع ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام منه ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى: إن كنتم نـاصرين آلهتكم نصـراً مؤزرا، فاختاروا له أهول المعـاقبات وهو الإحراق بالنار وإلا فرطتم فى نصرتها، والـذى أشار بإحراقه نمرود أورجل من أكراد فارس وقيل: إنهم حين هموا بإحراقه حبسـوه ثم بنوا بيتاً بكوثى[١] وجمعوا شهراً أصنـاف الخشب، ثم أشعلوا ناراً عظيمة كادت الطيـر تحترق فى الجو من وهجها، ثم وضعوه فى المنجنيق مـقيدا مغلولا فرموا به فيها وهو يقول: حسبى الله ونعم الوكيل، وقـال له جبريل: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فسل ربك. قال: حسبى من سؤالى علـمه بحالى، وما أحرقت النار إلا وثاقه[٢]. وعن ابن - عباس - : إنما نجا بقوله: حسبى الله ونعم الوكيل.

●● ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ أى: ذات برد وسلام، فبولغ فى ذلك كأن ذاتها برد وسلام ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أراد: ابردى فيسلم منك إبراهيم، وعن ابـن عباس - رضى الله عنهما - لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها[٣] والمعنى أن الله تعالى نزع عنها طبعـها الذى طبعها عليه من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق كما كانت، وهو على كل شيء قدير.

●● ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ إحراقاً ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ فأرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم، ودخلت بعوضة فى دماغ نمرود فأهلكته.

●● ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أى: إبراهيم ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخيه هاران من العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: أرض الشام وبركتها أن أكثر الأنبياء منها فانتشرت فى العالمين آثارهم الدينية، وهى أرض خصب يطيب فيها عيش الغنى والفقير وقيل: ما من ماء عذب فى الأرض إلا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس[٤]، روى أنه نزل بفلسطـين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسـيرة يوم وليلة. وقال - عليه السلام - : «إنها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس إلى مهاجر إبراهيم»[٥].

●● ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قيل: هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق أى: وهبنا له هبة، وقيل: هى ولد الولد، وقد سـأل ولداً فأعطيه وأعطى يعقوب نافلة أى: زيادة وفضلا

---

(١) كوثى: هى أرض ببابل، وبهـا مشهد إبراهيم الخليل - عليه السلام - وفتـحها سعد بن أبى وقاص بعد القادسية.
(معجم البلدان ٤/ ٥٥٣).
(٢) أخرجه الطبرى عن السدى وكعب.
(٣) أخرجة الطبرى عن السدى.
(٤) أخرجه الطبرى عن أبى بن كعب مرفوعاً.
(٥) أخرج ابن عساكر - فى تاريخ دمشق - عن الأوزاعـى، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «سيـهاجر أهل الأرض هجـرة بعد هجرة إلى مـهاجر إبراهيـم، حتى لا يبقـى فى الأرض إلا شرار أهلها..».

من غير سؤال، وهى حال من يعقوب ﴿وَكُلاًّ﴾ أى: إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهو المفعول الأول لقوله: ﴿جَعَلْنَا﴾ والثانى ﴿صَالِحِينَ﴾ فى الدين والنبوة.

●● ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم فى الدين ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمْرِنَا﴾ بوحينا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ وهى جميع الأعمال الصالحة وأصله أن تفعل الخيرات، ثم فعلا الخيرات، ثم فعل الخيرات وكذلك وقوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ والأصل وإقامة الصلاة إلا أن المضاف إليه جعل بدلا من الهاء ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ لا للأصنام، فأنتم يا معشر العرب أولاد إبراهيم فاتبعوه فى ذلك.

●● ﴿وَلُوطًا﴾ انتصب بفعل يفسره ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهى ما يجب فعله من العمل، أو فصلا بين الخصوم أو نبوةً ﴿وَعِلْمًا﴾ فقها ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ من أهلها وهى سدوم(١) ﴿الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ اللوطة والضراط وحذف(٢) المارة بالحصى وغيرها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله.

●● ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ فى أهل رحمتنا، أو فى الجنة ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: جزاء له على صلاحه، كما أهلكنا قومه عقابا على فسادهم.

●● ﴿وَنُوحًا﴾ أى: واذكر نوحا ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أى: دعا على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أى: دعاءه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى: المؤمنين من ولده وقومه ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان.

●● ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ منعناه منهم أى: من أذاهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم.

●● ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أى: واذكرهما ﴿إِذْ﴾ بدل منهما ﴿يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ فى الزرع، أو الكرم ﴿إِذْ﴾ ظرف ليحكمان ﴿نَفَشَتْ﴾ دخلت ﴿فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ ليلا فأكلته وأفسدته، والنفش انتشار الغنم ليلا بلا راع ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أرادهما والمتحاكمين إليهما ﴿شَاهِدِينَ﴾ أى: كان ذلك بعلمنا ومرأى منا.

●● ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أى: الحكومة، أو الفتوى ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان ـ صلوات الله عليه ـ وقصته: أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بل راع ليلا؛ فتحاكما إلى

(١) سدوم: من مدائن قوم سيدنا لوط.
(معجم البلدان ٣/٢٢٦).

(٢) الحذف: الرمى أو القذف، ونستخدمها الآن بإبدال الذل دالاً، فى لغتنا العامية.

داود، فحكم بالغنم لأهل الحرث، وقد استوت قيمتاهما أى: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث، فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ :غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكمن فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث يتتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادان فقال: القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك، وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان فى شريعتهم، فأما فى شريعتنا فلا ضمان عند أبى حنيفة وأصحابه ـ رضى الله عنهم ـ بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد، وعند الشافعى ـ رحمه الله ـ يجب الضمان بالليل وقال الجصاص[1]: إنما ضمنوا؛ لأنهم أرسلوها ونسخ الضمان بقوله عليه السلام: «العجماء جبار»[2]. وقال مجاهد: كان هذا صلحا، وما فعله داود كان حكما، والصلح خير ﴿وَكُلاًّ﴾ من داود وسليمان ﴿آتَيْنَا حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ معرفة بموجب الحكم ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ وذللنا ﴿مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ وهو حال بمعنى مسبحات، أو استئناف كأن قائلا قال: كيف سخرهن؟ فقال: يسبحن ﴿وَالطَّيْرَ﴾ معطوف على الجبال أو مفعول معه، وقدمت الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل فى الإعجاز؛ لأنها جماد روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهى تتجاوبه وقيل: كانت تسير معه حيث سار ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بالأنبياء مثل ذلك، وإن كان عجبا عندكم.

●● ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أى: عمل اللبوس والدروع، واللبوس اللباس والمراد الدرع ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ شامى وحفص أى الصنعة، وبالنون أبو بكر وحماد أى: الله عز وجل، وبالياء غيرهم أى: اللبوس، أو الله عز وجل ﴿مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ من حرب عدوكم ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر أى: فاشكروا الله على ذلك.

●● ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أى: وسخرنا له الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ حال أى: شديدة الهبوب ووصفت فى موضع آخر بالرخاء؛ لأنها تجرى باختياره فكانت فى وقت رخاء فى وقت عاصفة لهبوبها على حكم إرادته ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ بأمر سليمان ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الأنهار والأشجار والثمار والمراد الشام، وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحى الأرض إليها ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وقد أحاط علمنا بكل شىء فتجرى الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا.

●● ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: وسخرنا منهم ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ فى البحار بأمره لاستخراج الدر،

---

(١) هو: أحمد بن على الرازى، أبو بكر الشهير بـ «الجصاص»، من كبار فقهاء الحنفية، وهو إمامهم فى عصره، له تآليف، أهمها: «أحكام القرآن». ولد عام ٣٠٥هـ، وتوفى عام ٣٧٠هـ. الأعلام (١/ ١٧١).

(٢) الحديث فى «كنز العمال» بأرقام (١٥/ ٣٩٨٧٢، ٣٩٨٧٤، ٣٩٨٧٥).

وما يكون فيها ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دون الغوص، وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان[1] ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه.

●● ﴿وَأَيُّوبَ﴾ أي: واذكر أيوب ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي﴾ أي: دعا بأني ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ الضر بالفتح الضرر في كل شيء، وبالضم الضرر في النفس من مرض، أو هزال ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال: أنت أهل أن ترحم، وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر الذي مسه، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض إلى الصلاة ولم يشتك، وكيف يشكو من قيل له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾[2] وقيل: إنما شكا إليه تلذذا بالنجوى، لا منه تضررا بالشكوى، والشكاية إليه غاية القرب كما أن الشكاية منه غاية البعد.

●● ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أجبنا دعاءه ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ فكشفنا ضره إنعاما عليه ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ روى أن أيوب ـ عليه السلام ـ كان روميا من ولد إسحق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة، أو ثلاث عشرة سنة، أو ثلاث سنين وقالت له امرأته يوما: لو دعوت الله عز وجل فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة. فقال: أنا أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي، فلما كشف الله عنه أحيا ولده بأعيانهم ورزقه مثلهم معهم ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هو مفعول له ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ يعني رحمة لأيوب، وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه.

●● ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم ﴿وَإِدْرِيسَ﴾ بن شيث بن آدم ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ أي: اذكرهم وهو إلياس أو زكريا أو يوشع بن نون وسمي به؛ـ لأنه ذو الحظ من الله، والكفل الحظ ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر.

●● ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ نبوتنا أو النعمة في الآخرة ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من لايشوب صلاحهم كدر الفساد.

●● ﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي: اذكر صاحب الحوت، والنون الحوت فأضيف إليه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾ حال أي: مراغما لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم

---

(١) الجفان: جمع «جفنة»، وهي: القصعة.

(٢) سورة «ص»، الآية (٤٤).

عندها: روى أنه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا، وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبا لله وبغضا للكفر وأهله، وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى فى المهاجرة عنهم فابتلى ببطن الحوت ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ نضيق ﴿عَلَيْهِ﴾ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه دخل يوما على معاوية فقال: لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا إلا بك، قال: وما هى يا معاوية؟ فقرأ الآية فقال: أو يظن نبى الله أن لا يقدر عليه؟ قال: هذا من القدر لا من القدرة ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى: فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾(1) أو ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت ﴿أَن﴾ أى: بأنه ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ﴾ أو بمعنى أى ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسى فى خروجى من قومى قبل أن تأذن لى. فى الحديث: «**ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له**»(2) وعن الحسن ما نجاه والله إلا إقراره على نفسه بالظلم.

●● ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ غم الزلة والوحشة والوحدة ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا دعونا واستغاثوا بنا. نجى شامى وأبو بكر بإدغام النون فى الجيم عند البعض؛ لأن النون لا تدغم فى الجيم، وقيل: تقديره نجى النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفا، وأسند الفعل إلى المصدر ونصب المؤمنين بالنجاء، لكن فيه إقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود المفعول وهذا لا يجوز، وفيه تسكين الياء وبابه الضرورات، وقيل: أصله ننجى من التنجية فحذفت النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت إحدى التاءين فى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾(3).

●● ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ سأل ربه أن يرزقه ولدا يرثه ولا يدعه وحيدا بلا وارث، ثم رد أمره إلى الله مستسلما فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أى: فإن لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فإنك خير وارث أى: باق.

●● ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ ولدا ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أى: بعد عقرها، أو حسنة وكانت سيئة الخلق ﴿إِنَّهُمْ﴾ أى: الأنبياء المذكورين ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: أنهم إنما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم فى تحصيلها ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أى طمعا وخوفا كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(4) وهما مصدران فى موضع الحال، أو المفعول له أى: للرغبة فينا والرهبة منا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ متواضعين خائفين.

---

(1) سورة «البقرة»، الآية (17).

(2) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (3418/2).

(3) سورة «القدر»، الآية (4).

(4) سورة «الزمر»، الآية (9).

●● ﴿وَالَّتِي﴾ أى: واذكر التى ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظتـه من الحلال والحرام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أجرينا فيها روح المسيح، أو أمرنا جبريل فنفخ فـى جيب درعها فأحدثنا بذلك النفخ عيسى فى بطنها، وإضافة الروح إليها تعالى لتشريف عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾ مفعول ثان ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ وإنما لـم يقـل آيتـين كمـا قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾[1] لأن حالهـما بمجموعهما آية واحدة؛ وهى: ولادتها إياه من غير فـحل، أو التقدير: «وجعلنا آية، وابنها كذلك؛ فـ«آية» مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ آيتين.

●● ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الأمة الملـة، وهذه إشارة إلى ملـة الإسلام، وهى ملة جـميع الأنبياء وأمة واحدة حال أى متوحدة غير متفـرقة، والعامل ما دل علـيه اسم الإشارة أى: أن ملة الإسلام هى ملتكم التى يجب أن تكونوا عليها لا تنحـرفون عنها يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أى: ربيتكم اختيارا فاعبدونى شكرا وافتخارا، والخطاب للناس كافة.

●● ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أصل الكلام وتقطعتم إلا أن الكلام صـرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، والمعنى وجعلوا أمر دينهم فيما بيـنهم قطعا وصاروا فرقا وأحزابا، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم على أعمالهم.

●● ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ شيئا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجـب الإيمان به ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أى: فإن سعيه مشكور مقبول، والكفران مثل فى حرمان الثواب كما أن الشكر مثل فى إعطائه وقد نُفِيَ نَفْيَ الجنس ليكون أبلغ ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ للسعى أى: الحفظة بأمرنا ﴿كَاتِبُونَ﴾ فى صحيفة عمله فنثيبه به.

●● ﴿وَحَرَامٌ﴾ وحِرْمٌ كوفى غـير حفص وخلف، وهما لـغتان كحل وحلال وزنا وضـده معنى والمراد بالحرام: الممتنع وجوده ﴿عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ والمعنى وممتنع على مهلك غير ممكن أن لا يرجـع إلى الله بالبعث، أو حـرام على قرية أهلـكناها أى: قدرنا إهلاكهـم أوحكمنا بإهلاكهم ذلك، وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمـل الصالح والسعى المشكور غير المكفور أنهم لا يرجعون من الكفر إلى الإسلام.

●● ﴿حَتَّىٰ﴾ هى التى يحـكى بعدها الكلام، والكـلام المحكى الجملة من الشـرط والجزاء أعنى ﴿إِذَا﴾ وما فى حـيزها ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أى: فتح سـدهما فحـذف المضاف كمـا حذف المضاف إلى قرية. فُـتِّحَتْ شامى وهما قبيلـتان من جنس الإنس، يقال: الناس عـشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج ﴿وَهُم﴾ راجع إلى الناس المـسوقين إلى المحشر، وقيل: هـم يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ نشز من الأرض أى: ارتفاع ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون.

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (١٢).

●● ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أى: القيامة وجواب إذا ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ وهى إذا المفاجأة، وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[1] فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، ولو قيل: فهى شاخصة، أو إذا هي شاخصة كان سديدا، وهى ضمير مبهم يوضحه الأبصار ويفسره ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره يقولون: يا ويلنا، ويقولون حال من الذين كفروا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة فى غير موضعها.

●● ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعنى الأصنام وإبليس وأعوانه؛ لأنهم بطاعتهم لهم واتباعهم خطواتهم فى حكم عبدتهم ﴿حَصَبُ﴾ حطب، وقرىء حطب ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فيها داخلون.

●● ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً﴾ كما زعمتم ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ ما دخلوا النار ﴿وَكُلٌّ﴾ أى: العابد والمعبود ﴿فِيهَا﴾ فى النار ﴿خَالِدُونَ﴾.

●● ﴿لَهُمْ﴾ للكفار ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين وبكاء وعويل ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾ شيئاً؛ إما لأنهم صاروا صما وفى السماع نوع أنس فلم يعطوه.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ الخصلة المفضلة فى الحسن تأنيث الأحسن وهى السعادة، أو البشرى بالثواب، أو التوفيق للطاعة فنزلت جواباً لقول ابن الزبعرى[2] عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش إنكم وما تعبدون من دون الله إلى قوله: خالدون، أليس اليهود عبدوا عزيراً والنصارى المسيح، وبنو مليح[3] الملائكة على أن قوله: وما تعبدون لا يتناولهم لأن مالمن لا يعقل إلا أنهم أهل عناد فزيد فى البيان ﴿أُوْلَئِكَ﴾ يعنى عزيزاً والمسيح والملائكة ﴿عَنْهَا﴾ عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ لأنهم لم يرضوا بعبادتهم، وقيل: المراد بقوله: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى جميع المؤمنين لما روى أن عليّا ـ رضى الله عنه ـ قرأ هذه الآية ثم قال: «أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن بن عوف»[4] وقال الجنيد رحمه الله: سبقت لهم منا العناية فى البداية فظهرت لهم الولاية فى النهاية.

---

(١) سورة «الروم»، الآية (٣٦).

(٢) هو: عبدالله بن الزبعرى بن قيس، السهمى، القرشى، أبو سعد، الشاعر الشهير، كان شديداً على المسلمين؛ يهجوهم، حتى إذا فتحت مكة هرب إلى نجران، وما لبث أن عاد خائفاً فأسلم واعتذر، ومدح النبى ﷺ؛ فنال الصحبة، ومات عام ١٥هـ.
الأعلام (٤/ ٨٧).

(٣) أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه والثعلبى، من رواية ليث بن أبى سليم، وليث ضعيف.

●● ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها الذى يحس وحـركة تلهبها، وهذه مبالغة فـى الإبعاد عنها أى: لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَالِدُونَ﴾ مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة.

●● ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ النفخـة الأخيرة ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أى: تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أى: هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم فى الدنيا.

●● العامل فى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ لا يحزنهم أو تتلقاهم، تطوى السماء يزيد، وطيها نكور نجومها ومحو رسومها أو هو ضد النشر نجمعها ونطويها ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ أى: الصحيفة ﴿لِلْكُتُبِ﴾ حمزة وعلى وحفص أى: للمكتوبات أى: لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة. وغيرهم للكتاب أى: كما يطوى الطومار[1] للكتابـة، أو لما يكتب فيه؛ لأن الكتـاب أصله المصدر كالبناء ثـم يوقع على المكتوب، وقيل: السـجل: ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه وقـيل: كاتب كان لرسول الله (ﷺ) والكتاب على هذا اسم الـصحيفة المكتوب فيها، والطى مضـاف إلى الفاعل وعلى الأول إلى المفعول ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ انتصب الكاف بفعل مضمـر يفسره نعيده، وما موصولة أى: نعيـد مثل الذى بدأناه نـعيده، وأول خلق ظرف لـبدأنا أى: أول ما خـلق: أو حال من ضـمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت فى المعنى، وأول الخلق إيجاده أى: فكما أوجده أولا يعيده ثانياً تشبيها لـلإعادة بالإبداء فى تناول القدرة لهما عـلى السواء، والتنكير فى خلق مـثله فى قولك: هو أول رجل جاءنى تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمـعنى أول الخلائق؛ لأن الخلق مصـدر لا يجمع ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله نعيده عدة للإعادة ﴿عَلَيْنَا﴾ أى: وعدا كائنا لا محالة ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك أى: محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الأعمال للخلاص من هذه الأهوال.

●● ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ كتاب داود ـ علـيه السلام ـ ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ التوراة ﴿أَنَّ الأَرْضَ﴾ أى: الشام ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيْ﴾ ساكنة الياء حمزة. غـيره بفتح الياء ﴿الصَّالِحُونَ﴾ أى: أمة محمد ـ عليه السلام ـ أو الزبور بمعنى المزبور أى: المكتوب يعنى ما أنزل علـى الأنبياء من الكتب. والذكر أم الكتاب يعنى اللوح؛ لأن الكل أخذوا منه. دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاى على جمع الزبر بمعنى المزبور، والأرض أرض الجنة.

●● ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أى: القـرآن أو فى المذكور فـى هذه السـورة من الأخبـار والوعد والوعـيد والمواعظ ﴿لَبَلاغًا﴾ لكفاية وأصله ما تبلغ به البغية ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ موحدين وهم أمة محمد ـ عليه السلام ـ.

---

(١) الطومار: هو الصحيفة. القاموس (٢/ ٧٩).

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً﴾ قال ـ عليـه السلام ـ : «إنما أنا رحمـة مهداة»(١) ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه، ومـن لم يتبع فإنما أتى من عند نفسه حيث ضيع نـصيبه منها. وقيل: هو رحمـة للمؤمنـين فى الدارين، ولـلكافرين فى الدنـيا بتأخيـر العقوبة فـيها. وقيل: هـو رحمة للمؤمنين والكافرين فى الدنيا بتأخيـر عذاب الاستئصال والمسخ والخسف. ورحمة مفعول له أو حال أى: ذا رحمة.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ إنما لقصر الحكم عـلى شىء، أو لقصر الشىءعلى حكم نـحو، إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيـد. وفاعل ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ والتقديـر يوحى إلى وحدانيـة إلهى، ويجوز أن يكون المعنى أن الذى يوحى إلىّ فتكون ما موصولة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ استفهام بمعنى الأمر أى: أسلموا. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكـم ما أمرت به ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حال أى: مستوين فى الإعلام بـه ولم أخصص بعضكم، وفيه دليل بطلان مـذهب الباطنية ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أى: لا أدرى متى يكون يوم القيامة؛ لأن الله تـعالى لم يطلعنى عليه ولكنى أعلم بأنه كائن لا محالة، أو لا أدرى متى يحل بكم العذاب إن لم تؤمنوا.

●● ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ إنه عالم بكل شىء يعلم ما تجاهروننى به من الطعن فى الإسلام وما تكتمونه فى صدوركم من الأحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه.

●● ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ وما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتيع لكم إلى الموت ليكون ذلك حجة عليكم.

●● ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكة بالعـدل، أو بما يحق عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم، كمـا قال: واشدد وطأتك على مضر(٢) قال رب حفص عـلى حكاية قول رسول الله (ﷺ). رب احكـم يزيد. ربِّىَ أَحْـكَمُ زيد عن يـعقوب ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ﴾ العاطف على خلقه ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وعن ابن ذكوان بالياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه وكانوا يطمعون أن تكون الشوكة لهم والغلبة فكذب الله ظنونهم ،وخيب آمالهم ونصر رسول الله (ﷺ) والمؤمنين وخذلهم أى: الكفار، وهو المستعان على ما يصفون.

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط، وكذا؛ البزار والحاكم.
(٢) هذا الحديث متفق عليه، من حديث أبى هريرة.

(سورة الحج مكية وهى ثمان وسبعين آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أمر بنى آدم بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذى يؤمنهم من تلك الأفزاع. والزلزلة شدة التحريك والإزعاج، وإضافة الزلزلة إلى الساعة إضافة المصدر إلى فاعله كأنها هى التى تزلزل الأرض على المجاز الحكمى أو إلى الظرف؛ لأنها تكون فيها، كقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(١) ووقتها يكون يوم القيامة، أو عند طلوع الشمس من مغربها، ولا حجة فيها للمعتزلة فى تسمية المعدوم شيئا فإن هذا اسم لها حال وجودها.

•• وانتصب ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ أى: الزلزلة، أو الساعة بقوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ تغفل. والذهول: الغفلة ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ عن إرضاعها. أو عن الذى أرضعته. وهو الطفل. وقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة، إذ المرضعة هى التى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى، والمرضع التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ أى: حبلى ﴿حَمْلَهَا﴾ ولدها قبل تمامه. عن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها لغير تمام ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ أيها الناظر ﴿سُكَارَىٰ﴾ على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة الجبروت وسرادق الكبرياء حتى قال كل نبى: نفسى نفسى ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ على التحقيق ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فخوف عذاب الله هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه. وعن الحسن وترى الناس سكارى من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب. سكرى فيهما بالإمالة حمزة وعلى: وهو كعطشى فى عطشان. روى أنه: نزلت الآيتان ليلا فى غزوة بنى المصطلق فقرأهما النبى ـ عليه السلام ـ فلم يُرَ أكثر باكيا من تلك الليلة(٢).

•• ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ فى دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال. نزلت فى النضر بن الحارث وكان جدلا يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلى. أو هى عامة فى كل من يخاصم فى الدين بالهوى ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فى ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ عات مستمر فى الشر ولا وقف على مريد؛ لأن ما بعده صفته.

•• ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضى على الشيطان ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ تبعه أى: تبع الشيطان ﴿فَأَنَّهُ﴾ فأن

---

(١) سورة «سبأ»، الآية (٣٣).

(٢) رواه الترمذى، والنسائى، والحاكم.

الشيطان ﴿يُضِلُّهُ﴾ عن سواء السبيل ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ النار. قال الزجاج: الفاء فى فأنه للعطف وأن مكررة للتأكـيد، ورد عليه أبو على، وقال: إن من إن كان للشرط فـالفاء دخل لجزاء الشرط، وإن كـان بمعنى الذى فـالفاء دخل علـى خبر المبـتدأ، والتقديـر فالأمر أنه يضـله، قال: والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الأول، والمعنى: كـتب على الشيطان إضلال من تولاه وهدايته إلى النار. ثم ألزم الحجة على منكرى البعث فقال:

•• ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ يعنى: إن ارتبتم فى البعـث فمزيل ريبكم أن تنظروا فى بدء خلقكم، وقد كنتم فى الابتداء ترابا وماء وليس سبب إنكاركم البعث إلا هذا ،وهو صيرورة الخلـق ترابا وماءً ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ أى: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خُلقتُمْ ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أى: قطعة دم جامدة ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أى: لحمة صغيرة قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ المخلقة المسواة المـلساء من النقصان والعيب، كأن الله عـز وجل يخلق المضغة متفاوتـة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيون، ومنها ما هو على عـكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم، وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتـنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا، ولا مناسبة بين التراب والماء، وقدر أن يـجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما قادر على إعادة ما بدأه ﴿وَنُقِرُّ﴾ بالرفع عند غير المفضل مستأنف بعد وقف أى: نحن نثبت ﴿فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ ثبوته ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: وقت الولادة، ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ من الرحم ﴿طِفْلًا﴾ حال وأريد به الجـنس فلذا لم يجمـع، أو أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا﴾ ثم نربيكم لتبلغوا ﴿أَشُدَّكُمْ﴾ كمال عقلكم وقوتكم، وهو من ألفاظ الجموع التى لا يـستعمل لها واحد ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قـبله أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أخسه يعنى الهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى: لكيلا يعلم شيئاً من بعد ما كان يعلمه، أو لكيلا يستفيد علما وينسى ما كان عالماً به، ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة يابسة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخـت. وربأت حيث كان يزيـد: ارتفعت ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسن سار للناظرين إليه.

•• ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: ذلك الذى ذكرنا من خـلق بنى آدم، وإحياء الأرض مع ما فى تضاعيف ذلك من أصنـاف الحكم حاصل بهذا وهو أن الله هو الحق أى: الثابت الوجود ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ كما أحيا الأرض ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

•• ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: أنه حكيم لا يخلف الميعاد، وقد وعد الساعة والبعث فلابد أن يفى بما وعد.

•• ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ فى صفاته فيصفه بغير ما هو له. نزلت فى أبى جهل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ضرورى ﴿وَلا هُدًى﴾ أى: استدلال؛ لأنه يهدى إلى المعرفة ﴿وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أى: وحى والعلم للإنسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة.

•• ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ حال أى: لاويا عنقه عن طاعة الله كبرا وخيلاء، وعن الحسن ثانى عطفه بفتح العين أى: مانع تعطفه إلى غيره ﴿لِيُضِلَّ﴾ تعليل للمجادلة. ليَضل مكى وأبو عمرو ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أى: القتل يوم بدر ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أى: جمع له عذاب الدارين.

•• ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: السبب فى عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر والتكذيب، وكنى عنها باليد؛ لأن اليد آلة الكسب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يأخذ أحدا بغير ذنب، ولا بذنب غيره وهو عطف على بما أى: وبأن الله. وذكر الظلام بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو العبيد؛ ولأن قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منا.

•• ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة، وهو حال أى: مضطربا ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ صحة فى جسمه وسعة فى معيشته ﴿اطْمَأَنَّ﴾ سكن واستقر ﴿بِهِ﴾ بالخير الذى أصابه، أو بالدين فعبد الله ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ شر وبلاء فى جسده وضيق فى معيشته ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ جهته أى: ارتد ورجع إلى الكفر كالذى يكون على طرف من العسكر فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه. قالوا: نزلت فى أعاريب قدموا المدينة مهاجرين، وكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سويا وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا إلا خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شرا وانقلب عن دينه[1] ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ حال وقد مقدرة دليله قراءة روح[2] وزيد[3]: (خاسر الدنيا

---

(١) الحديث عند البخارى، من حديث ابن عباس، بنحوه.

(٢) هو: روح بن عبدالمؤمن الهذلى، مولاهم، أبو الحسن البصرى، المقرئ، عالم له قدره فى القراءات والحديث؛ فهو قارئ، وهو ثقة توفى حوالى عام ٢٣٤هـ.
تهذيب التهذيب (٢/١٧٥).

(٣) هو: زيد بن أحمد بن أبى إسحاق، أبو على، الحضرمى، روى القراءة ـ عرضاً ـ على عمه يعقوب ابن إسحاق الحضرمى.
غاية النهاية (١/٢٩٦).

والآخرة والخسران فى الدنيا بالقتل فيها، وفى الآخرة بالخلود فى النار ﴿ذَلِكَ﴾ أى: خسران الدارين ﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر الذى لا يخفى على أحد.

●● ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعنى الصنم، فإنه بعد الردة يفعل كذلك ﴿مَا لا يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده ﴿وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾ إن عبده ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ عن الصواب.

●● ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ والإشكال أنه تعالى نفى الضر والنفع عن الأصنام قبل هذه الآية وأثبتهما لها هنا، والجواب أن المعنى إذا فهم ذهب هذا الوهم، وذلك أن الله تعالى سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا نفعا وهو يعتقد فيه أنه ينفعه، ثم قال يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ولا يرى لها أثر الشفاعة لمن ضره أقرب من نفعه ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أى الناصر الصاحب ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ المصاحب وكرر يدعو كأنه قال: يدعو يدعو من دون الله مالا يضره ومـا لا ينفعه؛ ثم قال: لمن ضره بكونه معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا وعد لمن عبَدَالله بكل حال لا لمن عبَدَالله على حرف.

●● ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ المعنى أن الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة، فمن ظن من أعاديه غير ذلك ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ إلى سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ثم ليختنق به وسمي الاختناق قطعا؛ لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه. وبكسر اللام بصرى وشامى ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ أى: الذى يغيظه، أو ما مصدرية أى: غيظه والمعنى فليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه ،وسمى فعله كيدا على سبيل الاستهزاء؛ لأنه لم يكد به محسوده، إنما كاد به نفسه والمراد ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ.

●● ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزل القرآن كله ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أى: ولأن الله يهدى به الذين يعلم أنهم يؤمنون، أو يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبيّناً.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قيل: الأديان خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن، والصابئون نوع من النصارى فلا تكون ستة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فى الأحوال والأماكن فلا يجازيهم جزاء واحدا ولا يجمعهم فى موطن واح، وخبر إن الذين آمنوا، إن الله يفصل بينهم كما تقول: إن زيدا إن أباه قائم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به حافظ له فلينظر كل امرىء معتقده وقوله وفعله، وهو أبلغ وعيد.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ قيل: إن الكل يسجد له، ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١) وقيل: سمى مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجودا له تشبيها لمطاوعته بسجود المكلف الذى كل خضوع دونه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة، أو هو مرفوع على الابتداء ومن الناس صفة له والخبر محذوف وهو مثاب ويدل عليه قوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وإبائه السجود ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾ بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ بالسعادة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإكرام والإهانة وغير ذلك، وظاهر هذه الآية والتى قبلها ينقض على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: شاء أشياء ولم يفعل، وهو يقول: يفعل ما يشاء.

●● ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أى: فريقان مختصمان، فالخصم صفة وصف بها الفريق وقوله: ﴿اخْتَصَمُوا﴾ للمعنى وهذان للفظ والمراد المؤمنون والكافرون، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ، رجع إلى أهل الأديان المذكورة فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ فى دينه وصفاته، ثم بين جزاء كل خصم بقوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو فصل الخصومة المعنى بقوله إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ كأن الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثتهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة واختير لفظ الماضى؛ لأنه كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ﴾ بكسر الهاء والميم بصرى، وبضمهما حمزة وعلى وخلف، وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم ﴿الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لأذابتها.

●● ﴿يُصْهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِ﴾ بالحميم ﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: يذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر فى الظاهر والباطن.

●● ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ﴾ سياط مختصة بهم ﴿مِنْ حَدِيدٍ﴾ تضربون بها.

●● ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ من النار ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ بدل الاشتمال من منها بإعادة الجار، أو الأولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل يعنى كلما أرادوا الخروج من النار من أجل غم يلحقهم فخرجوا ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ بالمقامع، ومعنى الخروج عند الحسن أن النار تضربهم بلهبها فتلقيهم إلى أعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ،والمراد إعادتهم إلى معظم النار لا أنهم ينفصلون

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٤٤).

عنها بالكلية، ثم يعودون إليها ﴿وَذُوقُوا﴾ أى: وقيل لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الإهلاك، ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال:

•• ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب مدنى وعاصم وعلى ويؤتون لؤلؤا، وبالجر غيرهم عطفا على من ذهب، وبترك الهمزة الأولى فى كل القرآن أبو بكر وحماد ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ إبريسم(١).

•• ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: أرشد هؤلاء فى الدنيا إلى كلمة التوحيد وإلى صراط الحميد أى: الإسلام، أو هداهم الله فى الآخرة والهمهم أن يقولوا: الحمد لله الذى صدقنا وعده وهداهم إلى طريق الجنة، والحميد الله المحمود بكل لسان.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: يمنعون عن الدخول فى الإسلام، ويصدون حال من فاعل كفروا، أى وهم يصدون، أى: الصدود منهم مستمر دائم كما يقال: فلان يحسن إلى الفقراء، فإنه يراد به استمرار وجود الإحسان منه فى الحال والاستقبال ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ مطلقا من غير فرق بين حاضر وباد، فإن أريد بالمسجد الحرام مكة ففيه دليل على أنه لا تباع دور مكة، وإن أريد به البيت فالمعنى أنه قبلة لجميع الناس ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب حفص مفعول ثان لجعلناه، أى: جعلناه مستويا ﴿الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وغير المقيم بالياء مكى وافقه أبو عمرو فى الوصل، وغيره بالرفع على أنه خبر، والمبتدأ مؤخر، أى: العاكف فيه والباد سواء، والجملة مفعول ثان وللناس حال ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ فى المسجد الحرام ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مراداً ما عادلا عن القصد ظالما، فالإلحاد العدول عن القصد ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فى الآخرة وخبرإن محذوف لدلالة جواب الشرط عليه، تقديره إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم، وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك.

•• ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ واذكر يا محمد حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة أى: مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة، وقد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله إبراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم ﴿أَن﴾ هى المفسرة للقول المقدر أى: قائلين له ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأصنام والأقذار، وبفتح الياء

---

(١) الإبريسم ـ بفتح السين، وضمها ـ هو: الحرير.
القاموس (٤/ ٧٩).

مدنى وحفص ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ لمن يطـوف به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ والمقيمين بمكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين جمع راكع وساجد.

●● ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ناد فيهم، والحج هـو القصد البليغ إلى مقـصد منيع، وروى أنه صعد أبا قبيس فقـال: يا أيها الناس حجوا بـيت ربكم فأجاب من قدر لـه أن يحج من الأصلاب والأرحام بلبيك اللهم لبيك[1] ، وعن الحسن أنه خطاب لرسـول الله (ﷺ) أمر أن يفعل ذلك فى حجة الوداع، والأول أظهر وجواب الأمر ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ حال معطوفة عـلى رجال كأنه قال: رجالا وركبانا ،والضامر البـعير المهزول، وقدم الرجال على الركبـان إظهار لفضيلة المشاة كـما ورد فى الحديث ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لكل ضامـر؛ لأنه فى معنى الجمع، وقرأ عبدالله يأتون صفة للرجال والركبان ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد قال محمد بن ياسين[2] .قال لى شيـخ فى الطواف: من أين أنت؟ فقـلت: من خراسان. قال: كم بيـنكم وبين البيت؟ قلت: مسيرة شهـرين، أو ثلاثة، قال: فأنتم جيران البيت، فقلت: أنت من أيـن جئت؟ قال: من مسيرة خمس سنوات وخرجت وأنا شاب فاكتهلت قلت: والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال:

زر من هويت وإن شطت بك الدار ... وحال من دونه حجب وأستار

لا يمنعنـك بعـدٌ عـن زيارتــه ... إن المحـب لمـن يـهواه زوَّار

والـلام فى ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا متعـلق بأن أو بيأتوك ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ نكرها؛ لأنـه أراد منافع مختصة بهذه العباد دينية ودنيوية لا توجد فـى غيرها من العبادة وهذا؛ لأن العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالـصلاة والصوم، أو بالمال كالزكاة وقد اشتـمل الحج عليهما مع ما فيـه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال وخلع الأسباب[3] وقطيعة الأصحاب وهجر البلاد والأوطان وفرقة الأولاد والخلان، والتنبيه على ما يـستمر عليه إذا انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، فـالحاج إذا دخل البادية لا يتكل فيها إلا على عتاده، ولا يأكل إلا من زاده فكذا المـرء إذا خرج من شاطىء الحياة وركب بحر الوفاة لا ينفع وحدته إلا ما سـعى فى معاشه لمعاده، ولا يؤنس وحشتـه إلا ما كان يأنس به من أوراده، وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مـرآة لما سيأتى عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيباً بالحنوط ملفقاً فى كفن غـير مخيط، ثم المحرم يكون أشعث حيرانَ، فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان، ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغبا ورهبا سائلين خوفا وطمعا وهم من بين

---

(١) أخرجه الطبرى عن ابن عباس، بلفظ: قام إبراهيم خليل الله على الحجر فنادى.

(٢) محمد بن ياسين: هذا الاسم يحمله شخصان الأول: أبو بكر الباهلى، فقيه من نيسابور. والثانى: أبو أحمد فقيه نيسابورى كذلك، ولاتوجد فى الكلام قرينة تدل على أيهما المقصود.

(٣) خَلع الأسباب: يقصد: خيار المال.

(المعجم الوسيط ١/ ٢٥٠).

مقبول ومخذول كموقف العرصات[١]، لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد، والإفاضة إلى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء، ومنى هو موقف المنى للمذنبين إلى شفاعة الشافعين، وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف والبيت الحرام الذى من دخله كان آمناً من الإيذاء والقتال، أنموذج لدار السلام التى هى من نزلها بقى سالما من الفناء والزوال، غير أن الجنة حفت بمكاره النفس العادية، كما أن الكعبة حفت بمتالف البادية، فمرحباً بمن جاوز مهالك البوادى شوقاً إلى اللقاء يوم التنادى ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند الذبح ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هى عشر ذى الحجة عند أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ وآخرها يوم النحر، وهو قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وأكثر المفسرين ـ رحمهم الله ـ وعند صاحبيه هى أيام النحر، وهو قول ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أى: على ذبحه وهو يؤيد قولهما، والبهيمة مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر فبينت بالأنعام وهى الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها، والأمر للإباحة، ويجوز الأكل من هدى التطوع والمتعة والقران؛ لأنه دم نسك فأشبه الأضحية، ولا يجوز الأكل من بقية الهدايا ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ الذى أصابه بؤس أى: شدة ﴿الْفَقِيرَ﴾ الذى أضعفه الإعسار.

●● ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم كذا قاله نفطويه[٢] قيل: قضاء التفث قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد[٣]، والتفث: الوسخ والمراد قضاء إزالة التفث وقال ابن عمر وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : قضاء التفث مناسك الحج كلها ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه: وفى بنذره وإن لم ينذر، أو ما ينذرونه من أعمال البر فى حجهم، وليوفوا بسكون اللام والتشديد أبو بكر ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طواف الزيارة الذى هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل. اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عياش وأبى عمرو ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم؛ لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم، ثم جدده إبراهيم، أو الكريم، ومنه عتاق الخيل لكرائمها، وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية، أو لأنه أعتق من الغرق لأنه رفع زمن الطوفان، أو من أيدى الجبابرة كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله، أو من أيدى الملاك فلم يملك قط وهو مطاف أهل الغبراء، كما أن العرش مطاف أهل السماء، فإن الطالب إذا

(١) العرصات: جمع عرصة، وهى ساحة الدار، والبقعة الواسعة بين الدور لابناء فيها.
(المعجم الوسيط ٢/ ٥٩٣).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة، الأزدى، العتكى، أبو عبدالله، غلب عليه لقبه: «نفطويه»، وكان إماماً فى النحو، وكان فقيهاً ظاهريًا من كبارهم، وهو فى الحديث: مسند، ثقة. ولد عام ٢٤٤هـ، وتوفى عام ٣٢٣هـ.
الأعلام (١/ ٦١).

(٣) الاستحداد: هو حلق شعر العانة، وهو من سنن الفطرة.

هاجته معية الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل فإذا عاين البيت لـم يزده التسلى به إلا اشتياقاً، ولم يفده التشفـى باستلام الحجر إلا احتراقاً فيرده الأسف لهفان، ويرده اللهف حوله فى الدوران بطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث وأولها الإحرام، وهو عقد الالتزام يشـبه الاعتصام بعروة الإسلام حتى لا يرتفض بارتـكاب ما هو محظور فيه، ويبقى عـقده مع ما يفسده وينافي، كـما أن عقد الإسلام لا ينحل بازدحام الآثـام وترتفع ألف حوبة بتوبة، وثـانيها الوقوف بعرفات بسـمة الابتهال فى صفة الاهتبـال، وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الأعمال وشواهد الأحوال.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: الأمر ذلك، أو تقديره ليفعلوا ذلك.

●● ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ الحرمة مالا يحل هتكه، وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغـيرها فيحتمل أن يكون عاما فـى جميع تكاليفه، ويحتمـل أن يكون خاصا بما يتعلق بالحج، وقيل: حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام ﴿فَهُوَ﴾ أى: التعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ ومعنى التعظيم العلـم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ أى: كلها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ آية تحريمه وذلـك قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾(1) الآية، والمعنى أن الله تعالى أحل لكم الأنـعام كلها إلا ما بين فى كتابه فحافظوا على حدوده، ولا تحرموا شيئاً مما أحل كتـحريم البعض البحيرة ونحوها، ولا تحلوا مما حرم كإحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغيرهما، ولما حث علـى تعظيم حرماته أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور بقوله : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ لأن ذلك من أعظم الحرمات وأسبقها حظراً ومن الأوثان بيان للرجس؛ لأن الرجـس مبهم يتناول غير شىء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الـذى هو الأوثان، وسمـى الأوثان رجسا عـلى طريقة التشبيه يعنى أنـكم كما تـنفرون بطباعكم عن الرجس فعليكم أن تنفروا عنها ،وجمع بين الشرك وقول الزور أى: الكذب والبهتان، أو شهادة الزور وهو من الزور وهو الانحراف؛ لأن الشرك من باب الزور إذ المشرك زاعم أن الوثن يحق له العبادة.

●● ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مسلمين ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حال كحنفاء ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سقط ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أى: تسلبه بسرعـة فتخطّفه أى: تتخطـفه مدنى ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أى: تسقطه، والهوى السقوط ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد يجوز أن يكون هذا تشبيها مركبا، ويجوز أن يكون مفرقا، فإن كان تشبيها مركـبا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعـده بأن صور حاله بصورة حال من خر من السـماء فاختطفته الطير فتـفرق قطعا فى

---

(1) سورة «المائدة»، الآية (3).

حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض الممالك البعيدة، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء، والذى أشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء المردية بالطير المتخطفة، والشيطان الذى هو يوقعه فى الضلال بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة.

•• ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الأمر ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ تعظيم الشعائر وهى الهدايا؛ لأنها من معالم الحج أن يختارها عظام الأجرام حسانا ثمانا غالية الأثمان ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أى: فإن تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات وإنما ذكرت القلوب؛ لأنها مراكز التقوى.

•• ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الركوب عند الحاجة، وشرب ألبانها عند الضرورة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أى: وقت وجوب نحرها منتهية ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ والمراد نحرها فى الحرم الذى هو فى حكم البيت إذ الحرم حريم البيت ومثله فى الاتساع قولك: بلغت البلد، وإنما اتصل مسيرك بحدوده، وقيل: الشعائر المناسك كلها وتعظيمها إتمامها، ومحلها إلى البيت العتيق يأباه.

•• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ جماعة مؤمنة قبلكم ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ حيث كان بكسر السين بمعنى الموضع على وحمزة، أى: موضع قربان وغيرهما بالفتح على المصدر أى: إراقة الدماء وذبح القرابين ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أى: عند نحرها وذبحها ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أى: اذكروا على الذبح اسم الله وحده فإن إلهكم إله واحد، وفيه دليل على أن ذكر اسم الله شرط الذبح، يعنى أن الله تعالى شرع لكل أمة أن ينسكوا له أى: يذبحوا له على وجه التقرب، وجعل العلة فى ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك وقوله: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى أخلصوا له الذكر، خاصة واجعلوه له سالما أى: خالصا لا تشوبوه بإشراك ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المطمئنين بذكر الله، أو المتواضعين الخاشعين من الخبت، وهو المطمئن من الأرض وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا وقيل: تفسيره ما بعده أى:

•• ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت منه هيبة ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المحن والمصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ فى أوقاتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

•• ﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها، وفى الشريعة يتناول الإبل والبقر وقرىء برفعها وهو كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾(١) ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أى: من أعلام الشريعة التى شرعها الله، وإضافتها إلى اسمه تعظيم لها، ومن شعائر الله ثانى مفعولى جعلنا ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾

---

(١) سورة «يس»، الآية (٣٩).

النفع فى الدنيا والأجر فى العقبى ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عند نحرها ﴿صَوَافَّ﴾ حال من الهاء أى: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ وجوب الجنوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط أى: إذا سقطت جنوبها على الأرض بعد نحرها وسكنت حركتها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ إن شئتم ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ السائل من قنعت إليه إذا خضعت له وسألته قنوعا ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذى يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل، وقيل: القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعا وقناعة، والمعتر المتعرض للسؤال ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أى: كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم، أو هو كقوله: ذلك ومن يعظم، ثم استأنف فقال: سخرناها لكم أى: ذللناها لكم مع قوتها وعظم أجرامها لتتمكنوا من نحرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكى تشكروا إنعام الله عليكم.

●● ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أى: لن يتقبل الله اللحوم والدماء ولكن يتقبل التقوى، أو لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المراقة بالنحر، والمراد أصحاب اللحوم والدماء، والمعنى لن يرضى المضحون والمقربون ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص ورعاية شروط التقوى، وقيل: كان أهل الجاهلية، إذا نحروا الإبل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت[1] ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أى: البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ لتسموا الله عند الذبح، أو لتعظموا الله ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ على ما أرشدكم إليه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الممتثلين أوامره بالثواب.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ﴾ - يدفع - مكى وبصرى، وغيرهما يدافع أى: يبالغ فى الدفع[2] عنهم ﴿عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ونحوه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ فى أمانة الله ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمة الله أى؛ لأنه لا يحب أضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها.

●● ﴿أُذِنَ﴾ مدنى وبصرى وعاصم ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ بفتح التاء مدنى وشامى وحفص، والمعنى أذن لهم فى القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله (ﷺ) كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا، وكانوا يأتون رسول الله (ﷺ) من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإنى لم أومر بالقتال حتى

---

(١) الحديث، أخرجه ابن أبى حاتم، عن ابن جريج.
(٢) سبق وأشرنا إلى أن علماء اللغة يقولون: «زيادة المبنى، تدل على زيادة المعنى».
(٣) سورة «غافر»، الآية (٥١).

هاجر؛ فأنزلت هذه الآية[1] وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ على نصر المؤمنين ﴿لَقَدِيرٌ﴾ قادر، وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة، وهو مثل قوله: إن الله يدافع عن الذين آمنوا.

•• ﴿الَّذِينَ﴾ فى محل جر بدل من للذين، أو نصب بأعنى أو رفع بإضمارهم ﴿أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ بمكة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى: بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب التمكين لا موجب الإخراج ومثله ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[2] ومحل أن يقولوا جر بدل من حق، والمعنى ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ﴾ دفاع مدنى ويعقوب ﴿النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ وبالتخفيف حجازى ﴿صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ أى: لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها، ولم يتركوا للنصارى بيعا ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات أى: كنائس وسميت الكنيسة صلاة؛ لأنها يصلى فيها، ولا للمسلمين مساجد، أو لغلب المشركون فى أمة محمد (ﷺ) على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين فى ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين، وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجوداً، أو لقربها من التهديم ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ فى المساجد، أو فى جميع ما تقدم ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ أى: ينصر دينه وأولياءه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصر أوليائه ﴿عَزِيزٌ﴾ على انتقام أعدائه.

•• ﴿الَّذِينَ﴾ محله نصب بدل من: «من ينصره» أو جر تابع للذين أخرجوا ﴿إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هو إخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين إن مكنهم فى الأرض ،وبسط لهم فى الدنيا، وكيف يقومون بأمر الدين وفيه دليل صحة أمر الخلفاء الراشدين؛ لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر مع السيرة العادلة، وعن الحسن هم أمة محمد (ﷺ) ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أى: مرجعها إلى حكمه وتقديره، وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمته.

•• ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ هذه تسلية لمحمد (ﷺ) من تكذيب أهل مكة إياه أى: لست بأوحدى فى التكذيب ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحا ﴿وَعَادٌ﴾ هودا ﴿وَثَمُودُ﴾ صالحا ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطا ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ شعيبا ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ كذبه فرعون والقبط، ولم يقل: وقوم موسى؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه، أو كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم، وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وظهور

(١) قال عنه ابن حجر: عزاه الواحدى فى «الوسيط» للمفسرين، وهو منتزع من أحاديث.
(٢) سورة «المائدة»، الآية (٥٩).

معجزاته فما ظنك بغيره ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلتهم وأخرت عقوبتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم على كفرهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكارى وتغييرى حيث أبدلتهم بالنعم نقما وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا. نكيرى بالياء فى الوصل والوقف يعقوب.

●● ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أهلكتها بصرى ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال أى: وأهلها مشركون ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة من خوى النجم إذا سقط ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ يتعلق بخاوية، والمعنى أنها ساقطة على سقوفها أى: خرت سقوفها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، ولا محل لـ: «فهى» خاوية من الإعراب؛ لأنها معطوفة على أهلكناها، وهذا الفعل ليس له محل، وهذا إذا جعلنا كأين منصوب المحل على تقدير كثيرا من القرى أهلكناها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أى متروكة لفقد دلوها ورشائها[1]، وفقد تفقدها، أو هى عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أى تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مجصص من الشيد الجص، أو مرفوع البنيان من شاد البناء رفعه، والمعنى كم قرية أهلكناها، وكم بئر عطلناها عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه، أى: أهلكنا البادية والحاضرة جميعا فخلت القصور عن أربابها، والآبار عن واردها، والأظهر أن البئر والقصر على العموم.

●● ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هذا حث على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه، ويسمعون ما يجب سماعه من الوحى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الضمير فى فإنها ضمير القصة، أو ضمير مبهم يفسره الأبصار، أى: فما عميت أبصارهم عن الإبصار، بل قلوبهم عن الاعتبار، ولكل إنسان أربع أعين عينان فى رأسه وعينان فى قلبه فإذا أبصر ما فى القلب وعمى ما فى الرأس لم يضره، وإن أبصر ما فى الرأس وعمى ما فى القلب لم ينفعه وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب؛ ولئلا يقال: إن القلب يعنى به غير هذا العضو، كما يقال: القلب لب كل شىء.

●● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآجل استهزاء ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ كأنه قال: ولم يستعجلونك به كأنهم يجوزون الفوت، وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف، ولن يخلف الله وعده وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يعدون مكى وكوفى غير عاصم، أى: كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه فى طول ألف سنة من سنيكم؛ لأن أيام الشدائد طوال.

(١) الرشاء: الحبل. أو حبل الدلو ونحوها.
(المعجم الوسيط ١/٣٤٨).

●● ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى: وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حينا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع إلى فلا يفوتنى شيء، وإنما كانت الأولى أى: فكأين معطوفة بالفاء وهذه أى وكأين بالواو؛ لأن الأولى وقعت بدلا عن: «فكيف كان نكير»، وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك.

●● ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما لم يقل: بشير ونذير لذكر الفريقين بعده؛ لأن الحديث مسوق إلى المشركين، ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم: أفلم يسيروا، ووصفوا بالاستعجال، وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا، أو تقديره نذير مبين وبشير فبشر أولا فقال:

●● ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: حسن ثم أنذر فقال:

●● ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا﴾ سعى فى أمر فلان إذا أفسده بسعيه ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ أى: القرآن ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ حال. معجزين حيث كان مكي وأبو عمرو. وعاجزه سابقه كأن كل واحد منهما فى طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به فإذا سبقه قيل، أعجزه وعجزه، والمعنى سعوا فى معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أى: النار الموقدة.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ من لابتداء الغاية ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ من زائدة لتأكيد النفى ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ هذا دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبى بخلاف ما يقول البعض إنهما واحد، وسئل النبى (ﷺ) عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا». فقيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلثمائة وثلاثة عشر»(١). والفرق بينهما أن الرسول من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبى من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله وقيل: الرسول واضع شرع، والنبى حافظ شرع غيره ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ قرأ، قال:

- تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داود الزبور على رسل

●● ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ تلاوته قالوا: إنه ـ عليه السلام ـ كان فى نادى قومه يقرأ والنجم فلما بلغ قوله: «ومناة الثالثة الأخرى». جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى(٢) وإن شفاعتهن لترتجى، ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه، وقيل: نبهه جبريل عليه السلام فأخبرهم أن ذلك كان من الشيطان، وهذا القول غير مرضى؛ لأنه لا يخلوا إما أن يتكلم النبى ـ عليه السلام ـ

(١) رواه أحمد، من حديث أبى ذر؛ أنه سأل رسول الله ﷺ... فذكره.
(٢) رواه الطبرى عن طريق سعيد بن جبير مرسلاً، وفى أسانيده كلام.

بها عمدا وإنـه لا يجوز؛ لأنه كفر، ولأنه بعث طاعـنا للأصنام لا مادحا لها، أو أجـرى الشيطان ذلك على لسان النبى ـ عليه السلام ـ جبرا بحيث لا يقدر على الامتناع منه وهو ممتنع؛ لأن الشيطان لا يقدر على ذلك فى حق غيره لـقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(1) ففى حقه أولى، أو جرى ذلك على لسانه سهوا وغفلة وهو مردود أيضـا؛ لأنه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه فى حال تبليغ الوحى، ولو جاز ذلك لبـطل الاعتماد على قوله، ولأنه تعالـى قال فى صفة المنزل عليه: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾(2) وقـال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(3) فلما بطلت هذه الوجوه لم يـبق إلا وجه واحد وهو أنه ـ عليه السـلام ـ سكت عند قوله: ومناة الثالـثة الأخرى. فتكلم الشـيطان بهذه الكلمـات متصلا بقراءة النبـى (ﷺ) فوقع عند بعضهم أنه ـ عليه الـسلام ـ هو الذى تكلم بها فيكون هذا إلقاء فى قراءة الـنبى عليه السلام، وكان الشيطان يتكـلم فى زمن النبى ـ عليـه السلام ـ ويسمع كـلامه فقد روى أنه نـادى يوم أحد ألا إن محمدا قد قـتل، وقال يوم بدر: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾(4) ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أى: يذهب به ويبطله، ويخـبر أنه من الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أى: يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما أوحى إلى نبيه وبقصد الشيطان ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يدعه حتى يكشفه ويزيله، ثم ذكر أن ذلك ليفتن الله تعالى به قوما بقوله:

•• ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ محنـة وابتلاء ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونـفاق ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون المكذبون فـيزدادوا به شكا وظلمة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المنافقين والمشركين، وأصله وإنهم فوضع الظاهر موضع الـضمير قضاء عليهم بالظلم ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق.

•• ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله وبدينـه وبالآيات ﴿أَنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿فَتُخْبِتَ﴾ فتطمئن ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيتأولون ما يتشابه فـى الدين بالتأويلات الصحيحة، ويـطلبون لما أشكل منه المحمل الـذى تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة.

•• ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، أو من الصـراط المستقيم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يعنى يـوم بدر فهو عقيـم عن أن يكون للكافرين فيه فرج، أو راحة كالريح العقيم لا تأتى بخير. أو شديد لا رحمة فيه، أو لا مثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه، وعن الضحاك أنه يوم القيامة وأن المراد بالساعة مقدماته.

---

(1) الحجر (٤٢)، والإسراء (٦٥).

(2) سورة «فصلت»، الآية (٤٢).

(3) سورة «الحجر»، الآية (٩).

(4) سورة «الأنفال»، الآية (٤٨).

●● ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، والتنـوين عوض عن الجملة أى: يوم يؤمـنون، أو يوم تزول مريتهم ﴿لِّلَّهِ﴾ فلا منـازع له فـيه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ:﴾ أى يقضـى ثم بين حكمـه فيهم بـقوله ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ثم خص قوما من الفريق الأول بفضيلة فقال:

●● ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خرجوا من أوطانهم مجاهدين ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ فى الجهاد قتّلوا شامى ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ حتف أنفهم ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ قيل: الرزق الحسن الذى لا ينـقطع أبدا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه المخترع للخلق بلا مثال، المتكفل للرزق بلا ملال.

●● ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا﴾ بفتح الميم مـدنى والمراد الجنة ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ لأن فيها ما تشـتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوال من قضى نـحبه مجاهدا، وآمال من مات وهو ينـتظر معاهدا ﴿حَلِيمٌ﴾ بإمهال من قاتلهم معاندا، روى أن طوائـف من أصحاب النبى (ﷺ) قالوا: يا نبى الله: هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخيـر ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا معك فأنزل الله هاتين الآيتين.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الأمر ذلك وما بعده مستأنف ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ سمى الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حـيث أنه سبب وذلك مسبب عنه ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أى: من جازى بمثل ما فعـل به من الظلم، ثم ظلم بعد ذلك فـحق على الله أن ينصره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ يمحو آثار الذنوب ﴿غَفُورٌ﴾ يستر أنواع العـيوب، وتقريب الوصفين بسياق الآية أن المـعاقب مبعوث من عند الله على العفو وتـرك العقوبة بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(١) ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(٢) فحيث لـم يؤثر ذلك وانتصـر فهو تارك للأفضـل وهو ضامن لنصـره فى الكرة الثانية إذا ترك العفو وانـتقم من الباغى، وعرف مع ذلـك بما كان أولى به من العفـو بذكر هاتين الصفتين، أو دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر عـلى العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده كما قيل: العفو عند القدرة.

●● ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ذلك النصر للمـظلوم بسبب أنه قادر على ما يشـاء، ومن آيات قدرته أنه يولج الليل فـى النهار، ويولج النهار فى الليل أى: يزيد من هذا فى ذلـك ومن ذلك فى هذا، أو بسبب أنه خالق الـليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجرى فيهما على أيدى عباده من الخير والشر والبغى والإنصاف، وأنه

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٢٣٧).

سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع، وإن اختلفت فى النهار الأصوات بفنون اللغات. بصير بما يفعلون، ولا يستتر عنه شيء بشيء فى الليالى وإن توالت الظلمات.

●● ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ عراقى غير أبى بكر ﴿مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أى: ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار، وإحاطته بما يجرى فيهما وإدراكه قولهم وفعلهم بسبب أن الله الحق الثابت إلهيته، وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة، وأنه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالنبات بعدما كانت مسودة يابسة، وإنما صرف إلى لفظ المضارع ولم يقل: فأصبحت ليفيد بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول: أنعم علىَّ فلان فأروح وأغدو شاكرا له، ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع، وإنما رفع فتصبح ولم ينصب جوابا للاستفهام؛ لأنه لو نصب لبطل الغرض وهذا لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار، كما تقول لصاحبك: ألم ترأنى أنعمت عليك فتشكر، إن نصبته نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه، وإن رفعته أثبت شكره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ واصل عمله، أو فضله إلى كل شيء ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالح الخلق ومنافعهم. أو اللطيف المختص بدقيق التدبير، والخبير المحيط بكل قليل وكثير.

●● ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلكا وملِكا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ المستغنى بكمال قدرته بعد فناء ما فى السماوات وما فى الأرض ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود بنعمته قبل ثناء من فى السماوات ومن فى الأرض.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من البهائم مذللة للركوب فى البر ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أى: ومن المراكب جارية فى البحر، ونصب الفلك عطفا على ما، وتجرى حال لها أى: وسخر لكم الفلك فى حال جريها ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أى: يحفظها من أن تقع ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بأمره أو بمشيئته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾ بتسخير ما فى الأرض ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإمساك السماء لئلا تقع على الأرض، عدَّد آلاءه مقرونة بأسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه. وعن أبى حنفية- رحمه الله- أن اسم الله الأعظم فى الآيات الثمانية يستجاب لقرائها ألبتة.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ فى أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لإيصال جزائكم ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم، أولا يعرف نعمة الإنشاء المبدى للوجود ولا الإفناء المقرب إلى الموعود ولا الإحياء الموصل إلى المقصود.

•• ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مر بيانه، وهو رد لـقول من يقول: إن الذبح ليس بشريعة الله إذ هو شـريعة كل أمة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ﴾ فلا يجادلنك والمعنى فلا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكنهم من أن ينازعوك ﴿فِي الأَمْرِ﴾ أمر الذبائح أو الدين. نزلت حين قال المشركون للمسلمين: مالكم تأكلون ماقـتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله يعنى الميتة ﴿وَادْعُ﴾ الناس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادة ربك ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق قويم، ولم يذكـر الواو فى لكل أمة بخلاف ما تـقدم؛ لأن تلك وقعت مع ما يـناسبها من الآى الواردة فـى أمر النسائك فعطـفت على أخواتها، وهذه وقعت مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا.

•• ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ مراء وتعنتا كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: فلا تجادلهم وادفـعهم بهذا القول، والمعـنى أن الله أعلم بأعمالكـم وما تستحقون علـيها من الجزاء فهو مجـازيكم به، وهذا وعيد وإنذار ولـكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متعنت.

•• ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا خطـاب من الله للمـؤمنين والكافرين أى: يفصل بينكم بالثواب والعقاب، ومسلاة لرسول الله (ﷺ) مما كان يلقى منهم.

•• ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى: كيف يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله أنه يعلـم كل ما يحدث فى السماوات والأرض ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الموجود فيهما ﴿فِي كِتَابٍ﴾ فى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى: علمه بجميع ذلك عليه يسير، ثم أشار إلى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله:

•• ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ يُنْزِل مكى وبصرى ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانا ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: لم يتمسكوا فـى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهـة الوحى ولا حملهم عليها دليل عقلى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ وما للذين ارتـكبوا مثل هذا الظلم من أحـد ينصرهم ويصوب مذهبهم.

•• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعنـى: القرآن ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ الإنكار بالعبوس، والكـراهة والمنكر مصدر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يبطشون، والسطـو الوثب والبطش ﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ هم النبـى (ﷺ) وأصحابه ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين وسـطوكم عليهم، أو مما أصابكم مـن الكراهة والضجر بسبب ما تـلى عليكم ﴿النَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف كأن قائـلا قال: ما هو؟ فقيل: النار أى: هو النار ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استئناف كلام ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النـار، ولما كانـت دعواهم بـأن لله تعـالى شريـكا جاريـة فى الغرابةوالشهرة مجرى الأمثال المسيرة قال الله تعالى:

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ﴾ بُيِّنَ ﴿مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ لضرب هذا المثل ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ يدعون سهل ويعقوب ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ آلهة باطلة ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ لن تأكيد نفى المستقبل، وتأكيده هنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل كأنه قال: محال أن يخلقوا، وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره، وسمى ذبابا؛ لأنه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ لخلق الذباب، ومحله النصب على الحال، كأنه قيل: مستحيل منهم أن يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزل فى تجهيل قريش حيث وصفوا بالإلهية التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا لذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا﴾ شيئا ثانى مفعولى يسلبهم ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أى: هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا. عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورءوسها بالعسل فإذا سلبه الذباب عجز الأصنام عن أخذه ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ﴾ أى: الصنم بطلب ما سلب منه ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ الذباب بما سلب، وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف، ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فإن الذباب حيوان، وهو جماد، وهو غالب وذاك مغلوب.

●● ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: إن الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيها به، أو لقوى ينصر أوليائه عزيز ينتقم من أعدائه.

●● ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي﴾ يختار ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ كجبريل وميكائيل وإسرافيل وغيرهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ رسلا كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم - عليهم السلام - . هذا رد لم أنكروه من أن يكون الرسول من البشر، وبيان أن رسل الله على ضربين ملك وبشر، وقيل: نزلت حين قالوا: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾(1) . ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره لرسالته، أو سميع لأقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير بأحوال الأمم فى الرد والقبول.

●● ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما مضى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما لم يأت، أو ما عملوه وما سيعملوه، أو أمر الدنيا وأمر الآخرة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أى: إليه مرجع الأمور كلها، والذى هو بهذه الصفات لا يُسألُ عما يفعل، وليس لأحد أن يعترض عليه فى حكمه وتدابيره واختيار رسله. (تَرْجِعُ) شامى وحمزة وعلى.

---

(1) سورة «ص»، الآية (8).

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ فى صلاتكم، وكان أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فأمروا أن تكون صلاتهم بركوع وسجود، وفيه دليل على أن الأعمال ليست من الإيمان وأن هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ قيل: لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة التى هى ذكر خالص لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾(١) ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما، ثم عم بالحث على سائر الخيرات وقيل: أريد به صلة الأرحام ومكارم الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: كى تفوزوا، أو افعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين، ولا تتكلوا على أعمالكم.

●● ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أمر بالغزو، أو مجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الأكبر، أو هو كلمة حق عند أمير جائر ﴿فِي اللَّهِ﴾ أى: فى ذات الله ومن أجله ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وهو أن لا يخاف فى الله لومة لائم يقال: هو حق عالم وجد عالم أى: عالم حقا وجدا، ومنه حق جهاده وكان القياس حق الجهاد فيه، أو حق جهادكم فيه لكن الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه، ويجوز أن يتسع فى الظرف كقوله: ويوم شهدناه سليما وعامرا. ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ اختاركم لدينه ونصرته ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضيق، بل رخص لكم فى جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالإيماء وبالقصر والإفطار، لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى اتبعوا ملة أبيكم، أو نصب على الاختصاص أى: أعنى بالدين ملة أبيكم، وسماه أبا وإن لم يكن أبا للأمة كلها، لأنه أبو رسول الله (ﷺ) فكان أبا لأمته؛ لأن أمة الرسول فى حكم أولاده؛ قال ـ عليه السلام ـ : «إنما أنا لكم مثل الوالد»(٢). ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: الله بدليل قراءة أبى: الله سماكم المسلمين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فى الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَذَا﴾ أى: فى القرآن أى: فضلكم على سائر الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنه قد بلغكم رسالة ربكم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم، وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ بواجباتها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ بشرائطها ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا بالله وتوكلوا عليه لا بالصلاة والزكاة ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ أى: مالكم وناصركم ومتولى أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أى: الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم، وقد أفلح من هو مولاه وناصره. والله الموفق للصواب.

---

(١) سورة «طه»، الآية (١٤).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقمى: (٩/ ٢٦٤٦٦، ٢٧٢٠٧).

سورة المؤمنون مكية ، وهى مائة وثمان عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد نقيضة لما هى تثبت المتوقع .ولما تنفيه، وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة، وهى الإخبار بثبات الفالح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، والفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب أى: فازوا بما طلبوا ونجوا مما هربوا، والإيمان فى اللغة التصديق، والمؤمن المصدق لغة، وفى الشرع كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن. قال ـ عليه السلام: «خلق الله الجنة فقال لها: تكلمى، فقالت: قد أفلح المؤمنون ثلاثا أنا حرام على كل بخيل مراء»[1] لأنه بالرياء أبطل العبادات البدنية، وليس له عبادة مالية.

●● ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح، وقيل: الخشوع فى الصلاة جمع الهمة لها والإعراض عما سواها وأن لا يجاوز بصره مصلاه وأن لا يلتفت ولا يعبث ولا يسدل[2] ولا يفرقع أصابعه ولا يقلب الحصى، ونحو ذلك وعن أبى الدرداء هو إخلاص المقال وإعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام. واضيفت الصلاة إلى المصلين لا إلى المصلى له لانتفاع المصلى بها وحده، وهى عدته وذخيرته، وأما المصلى له فغنى عنها.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو: كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل يعنى أن لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل، ولما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ مؤدون، ولفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف مؤدون، وقيل: الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب إلى الفقير، وعلى المعنى، وهو فعل المزكى الذى هو التزكية، وهو المراد هنا فجعل المزكين فاعلين له؛ لأن لفظ الفعل يعم جميع الأفعال كالضرب والقتل ونحوهما تقول للضارب والقاتل والمزكى فعل الضرب والقتل والتزكية، ويجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء، ودخل اللام لتقدم المفعول، وضعف اسم الفاعل فى العمل فإنك تقول: هذا ضارب لزيد ولا تقول: ضرب لزيد.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الفرج يشمل سوءة الرجل والمرأة.

●● ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ فى موضع الحال أى: إلا والين على أزواجهم، أو قوامين عليهن من قولك: كان زياد على البصرة أى: واليا عليها، والمعنى أنهم لفروجهم حافظون فى جميع الأحوال

---

(١) أخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن أنس نحوه.

(٢) يسدل: يرخى، والمراد: يرخى ثوبه.

(المعجم الوسيط ١/ ٤٢٤).

إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم أو تعلق على بمحذوف يدل عليه غير ملومين، كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أى: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه، وقال الفراء إلا من أزواجهم أى: زوجاتهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أى: إمائهم ولم يقل: من؛ لأن المملوك جرى مجرى غير العقلاء، ولهذا يباع كما تباع البهائم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أى: لا لوم عليهم إن لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم وإمائهم.

•• ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ طلب قضاء شهوة من غير هذين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الكاملون فى العدوان، وفيه دليل تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لإرادة الشهوة.

•• ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لأماناتهم مكى وسهل، سمى الشىء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[1] وإنما تؤدى العيون لا المعانى، والمراد به العموم فى كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله عز وجل ومن جهة الخلق ﴿رَاعُونَ﴾ حافظون والراعى القائم على الشىء بحفظ وإصلاح كراعى الغنم.

•• ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ صلاتهم كوفى غير أبى بكر ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يداومون فى أوقاتها وإعادة ذكر الصلاة؛ لأنها أهم ولأن الخشوع فيها غير المحافظة عليها، أو لأنها وحدت أولا ليفاد الخشوع فى جنس الصلاة أية صلاة كانت، وجمعت آخراً ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل.

•• ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الجامعون لهذه الأوصاف ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الأحقاء بأن يسموا وراثاً دون من عداهم ثم ترجم الوارثون بقوله:

•• ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ من الكفار فى الحديث: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإن مات ودخل الجنة ورث أهل النار منزلة، وإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزلة»[2]. . ﴿الْفِرْدَوْسَ﴾ هو البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، وقال قطرب: هو أعلى الجنان ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنث الفردوس بتأويل الجنة.

•• ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أى :آدم ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ من للابتداء والسلالة الخلاصة؛ لأنها تسل من بين الكدر، وقيل: إنما سمى التراب الذى خلق آدم سلالة؛ لأنه سل من كل تربة ﴿مِّن طِينٍ﴾ من للبيان كقوله :﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾[3].

•• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أى: نسله فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه؛ لأن آدم ـ عليه السلام ـ

(١) سورة «النساء»، الآية (٥٨).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٢/ ٢٩١٣).

(٣) سورة «الحج»، الآية (٣٠).

لم يصر نطفة وهو كقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[1] وقيل الإنسان بنو آدم، والسلالة النطفة والعرب تسمى النطفة سلالة، أى: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة يعنى من نطفة مسلولة من طين أى: من مخلوق من طين، وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿نُطْفَةً﴾ ماء قليلا ﴿فِي قَرَارٍ﴾ مستقر يعنى الرحم ﴿مَّكِينٍ﴾ حصين.

●●﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ﴾ أى: صيرناها بدلالة تعديه إلى مفعولين، والخلق يتعدى إلى مفعول واحد ﴿عَلَقَةً﴾ قطعة دم، والمعنى أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ لحما قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ فصيرناها عظاما ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس عظما، العظم شامى وأبو بكر عظماً العظام زيد عن يعقوب عظاما العظم عن أبى زيد وضع الواحد موضع الجمع لعدم اللبس إذ الإنسان ذو عظام كثيرة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ﴾ الضمير يعود إلى الإنسان، أو إلى المذكور ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث، جعله حيواناً وكان جماداً وناطقاً وسميعاً وبصيراً، وكان بضد هذه الصفات؛ ولهذا قلنا: إذا غصب بيضة فأفرخت عنده يضمن البيضة ولا يرد الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى أمره فى قدرته وعلمه ﴿أَحْسَنُ﴾ بدل، أو خبر مبتدأ محذوف وليس بصفة؛ لأنه نكرة ـ وإن أضيف؛ لأن المضاف إليه عوض من من ﴿الْخَالِقِينَ﴾ المقدرين أى: أحسن المقدرين تقديراً فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه، وقيل: إن عبدالله بن سعد ابن أبى سرح كان يكتب للنبى ـ عليه السلام ـ فنطق بذلك قبل إملائه فقال له رسول الله (ﷺ): «اكتب هكذا نزلت». فقال عبدالله: إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلى فارتد ولحق بمكة، ثم أسلم يوم الفتح[2]، وقيل: هذه الحكاية غير صحيحة؛ لأن ارتداده كان بالمدينة وهذه لسورة مكية وقيل: القائل عمر أو معاذ رضى الله عنهما.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد ما ذكرنا من أمركم، ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ عند انقضاء آجالكم.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ تحيون للجزاء.

●● ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ جمع طريقة وهى السموات؛ لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أراد بالخلق السموات كأنه قال: خلقناها فوقكم وما كنا غافلين عن حفظها، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها وما كان غافلا عنهم وعما يصلحهم.

●● ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة

---

(١) سورة «السجدة»، الآيتان (٧،٨).

(٢) ذكره الثعلبى عن ابن عباس وعزاه الواحدى إلى الكلبى عن ابن عباس أيضاً، رضى الله عنهما.

أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾(١) وقيل: جعلناه ثابتا فى الأرض فماء الأرض كله من السماء، ثم استأدى شكرهم بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أى: كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه فقيدوا هذه النعمة بالشكر.

•• ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ﴾ بالماء ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ فى الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى النخيل الأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: من الجنات أى: من ثمارها، ويجوز أن هذا من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يغتلها، أى: أنها طعمته وجهته التى منها يحصل رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون.

•• ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات، وهى شجرة الزيتون ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ طور سيناء وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف إليه كامرئ القيس، وهو جبل فلسطين وسيناء غير منصرف بكل حال مكسور السين كقراءة الحجازى وأبى عمرو للتعريف والعجمة، أو مفتوحها كقراءة غيرهم؛ لأن الألف للتأنيث كصحراء ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ قال الزجاج. الباء للحال أى: تنبت ومعها الدهن تُنبت مكى وأبو عمرو، إما لأن أنبت بمعنى نبت كقوله: حتى إذا أنبت البقل، أو لأن مفعوله محذوف أى: تنبت زيتونها وفيه الدهن ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ أى: إدام لهم قال مقاتل: جعل الله تعالى فى هذه إداما ودهنا، فالإدام الزيتون والدهن الزيت، وقيل: هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان، وخص هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع.

•• ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم﴾ وبفتح النون شامى ونافع وأبو بكر، وسقى وأسقى لغتان ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أى: نخرج لكم من بطونها لبنا سائغاً ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ سوى الألبان، وهى منافع الأصواف والأوبار والأشعار ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى: لحومها.

•• ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام فى البر ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ فى البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ فى أسفاركم وهذا يشير إلى أن المراد بالأنعام الإبل؛ لأنها هى المحمول عليها فى العادة فلذا قرنها بالفلك التى هى السفائن؛ لأنها سفائن البر، قال ذو الرمة(٢): سفينة برتحت يخدى زمامها. يريد ناقته.

•• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ معبود

---

(١) سورة «الزمر»، الآية (٢١).

(٢) ذو الرمة؛ هو: غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود، العدوى أبو الحارث، من مضر، شاعر كبير، من فحول الشعر فى العصر الأموى، ولد عام ٧٧هـ، وتوفى عام ١١٧هـ.
الأعلام (٥/ ١٢٤).

﴿غَيْرُهُ﴾ بالرفع علـى المحل، وبالجر علـى اللفظ، والجملـة استئناف تجرى مـجرى التعليـل للأمر بالعبادة ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أفلا تخافون عقوبة الله الذى هو ربكم وخـالقكم إذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة فى شىء.

●● ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أى: أشرافهم لعوامهم ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأكل ويشرب ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: يطلب الفضل عليكم ويترأس ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إرسال رسول ﴿لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ لأرسل ملائكة ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى: بإرسال بشر رسولا، أو بمـا يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا، والـعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية للحجر ولم يـرضوا بالنبوة للبشر ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾.

●● ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فانتظروا واصبـروا عليه إلى زمان حتى ينجلى أمره، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

●● ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فلما أيـس من إيمانهم دعا الله بـالانتقام منهـم، والمعنى أهلكهـم بسبب تكذيبهـم إياى إذ فى نصرته إهلاكـهم، أو انصرنى بدل ما كذبـون كقولك: هذا بذاك، أى: بدل ذاك والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم.

●● ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أى: أجبنا دعاءه فأوحينا إليه ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك ورؤيته إياك، أو بحفظنا وكلاءتنا كأن معك من الله حفاظاً يكلئونك بعيونهم؛ لئلا يتعرض لـك ولا يفسد عليك مفسد عملـك، ومنه قولهم :عليه من الله عـين كالئة ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أمرنا وتعليمنا إيـاك صنعتها، روى أنه أوحى إليه أن يصنعها علـى مثال جؤجؤ الطائر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى: عذابنا بأمرنا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أى: فار الماء من تـنور الخبز أى: أخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ فـى الإنذار والاعتبار. روى أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يـفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة، فلما نبـع الماء من التنور أخبرته امرأته، فركب، وكان تنور آدم فصار إلى نـوح وكان من حجارة واختلف فـى مكانه، فقيل: فـى مسجد الكوفة، وقيـل: بالشام، وقيل: بالهند ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ فأدخل فى السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ من كل أمتى زوجـين وهما أمة الذكر وأمة الأنثى كالجمال والنوق والحصن والرماك[1] ﴿اثْنَيْنِ﴾ واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة. روى أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض من كل حفص والمفضل أى: من كل أمة زوجين اثنين واثنين تأكيد وزيادة بيان ﴿وَأَهْلَكَ﴾ ونساءك وأولادك ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ من الله بإهلاكه؛ وهو ابنه وإحدى زوجتيه فجىء بعلى مع سبق الضار، كما جيء باللام مع سبق النافع فى

(١) الحُصُن: جمع «حصان»، والرماك: جمع «رمكة» أى: القرس.

قوله: ﴿ولَقَدْ سَبقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾[1] ونحوها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2] ﴿مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا تسألنى نجاة الذين كفروا فإنى أغرقهم.

•• ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ فإذا تمكنتم عليها راكبين ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم ولم يقل: فقولوا، وإن كان فإذا استويت أنت ومن معك فى معنى إذا استويتم؛ لأنه نبيهم وإمامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

•• ﴿وَقُل﴾ حين ركبت على السفينة، أو حين خرجت منها ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً﴾ أى: إنزالا أو موضع إنزال، منزلا أبو بكر أى: مكانا ﴿مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ والبركة فى السفينة النجاة فيها، وبعد الخروج منها كثرة النسل وتتابع الخيرات. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيم فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ لعبرا ومواعظ ﴿وَإِن﴾ هى المخففة من المثقلة، واللام هى الفارقة بين النافية وبينها، والمعنى وإن الشأن والقصة ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[3].

•• ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد قوم هود ويشهد له قول هود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[4] ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح فى الأعراف وهود والشعراء.

•• ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾ الإرسال يعدى بإلى، ولم يعد بفى هنا وفى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾[5] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾[6] ولكن الأمة والقرية جعلت موضعا للإرسال كقول رؤبة:

• أرسلت فيه يعصبا ذا إقحام• ﴿رَسُولاً﴾ هو هود ﴿مِّنْهُمْ﴾ من قومهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أن مفسرة لأرسلنا أى: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله.

•• ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ ذكر مقالة قوم هود فى جوابه فى الأعراف[7] وهود[8] بغير واو؛ لأنه

(١) سورة «الصافات»، الآية (١٧١).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٢٨٦).

(٣) سورة «القمر»، الآية (١٥).

(٤) سورة «الأعراف»، الآية (٦٩).

(٥) سورة «الرعد»، الآية (٣٠).

(٦) سورة «الأعراف»، الآية (٩٤).

(٧) يقصد الآية رقم (٦٦) من سورة «الأعراف».

(٨) يقصد الآية رقم (٥٣) من سورة «هود».

على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا كيت وكيت وههنا مع الواو؛ لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول، ومعناه أنه اجتمع فى الحصول هذا الحق وهذا الباطل، وليس بجواب للنبى (ﷺ) متصل بكلامه ولم يكن بالفاء وجيء بالفاء فى قصة نوح؛ لأنه جواب لقوله واقع عقيبه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ صفة للملأ أو لقومه ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ أى: بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد ﴿مَا هَذَا﴾ أى: النبى ﴿إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أى: منه فحذف لدلالة ما قبله عليه، أى: من أين يدعى رسالة الله من بينكم وهو مثلكم.

●● ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ واقع فى جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ بالانقياد لمثلكم ومن حمقهم أنهم أبو اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

●● ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بالكسر نافع وحمزة وعلى وحفص، وغيرهم بالضم ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب، وثنى أنكم للتأكيد وحسن ذلك للفصل بين الأول والثانى بالظرف، ومخرجون خبر عن الأول، والتقدير أيعدكم أنكم مخرجون إذامتم وكنتم ترابا وعظاما.

●● ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ وبكسر التاء يزيد. وروى عنه بالكسر والتنوين فيهما، والكسائى يقف بالهاء، وغيره بالتاء، وهو اسم للفعل واقع موقع بعد فاعلها مضمر، أى: بعد التصديق أو الوقوع ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب أو فاعلها ما توعدون، واللام زائدة أى: بعد ما توعدون من البعث.

●● ﴿إِنْ هِيَ﴾ هذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه وأصله إن الحياة ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ثم وضع هى موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليها ويبينها، والمعنى لا حياة إلا هذه الحياة التى نحن فيها ودنت منا وهذا؛ لأن إن النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى لنفى الجنس ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى: يموت بعض، ويولد بعض ينقرض قرن فيأتى قرن آخر، أو فيه تقديم وتأخير أى: نحيا ونموت، وهو قراءة أبى وابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

●● ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: ما هو إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه وفيما يعدنا من البعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

●● ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فأجاب الله دعاء الرسول بقوله:

●● ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ قليل صفة للزمان كقديم وحديث فى قولك: ما رأيته قديما ولا حديثا،

وفى معناه عن قريب، وما زائدة أو بمعنى شيء أو زمن وقليل بدل منها، وجواب القسم المحذوف ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ إذا عاينوا ما يحل بهم.

●● ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أى: صيحة جبريل صاح عليهم فدمرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل من الله يقال: فلان يقضى بالحق أى: بالعدل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبههم فى دمارهم بالغثاء، وهو حميل السيل مما بلى واسودّ من الورق والعيدان ﴿فَبُعْدًا﴾ فهلاكا يقال: بعد بعدا أو بعدا أى: هلك وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ﴿لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بيان لمن دعى عليه بالبعد نحو هيت لك.

●● ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ قوم صالح ولوط شعيب وغيرهم.

●● ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من صلة أى: ما تسبق أمة ﴿أَجَلَهَا﴾ المكتوب لها والوقت الذى حد لهلاكها وكتب ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا يتأخرون عنه.

●● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ فعلى والألف للتأنيث كسكرى؛ لأن الرسل جماعة ولذا لا ينون؛ لأنه غير منصرف. تترى بالتنوين مكى وأبو عمرو ويزيد على أن الألف للإلحاق كأرطى[1] وهو نصب على الحال فى القراءتين أى: متتابعين واحدا بعد واحد وتاؤها فيهما بدل من الواو، والأصل وترى من الوتر، وهو الفرد فقلبت الواو تاء كتراث ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ الرسول يلابس المرسل والمرسل إليه، والإضافة تكون بالملابسة فتصح إضافته إليهما ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ الأمم والقرون ﴿بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ فى الهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخبارا يسمع بها ويتعجب منها، والأحاديث تكون اسم جمع للحديث، ومنه أحاديث النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتكون جمعا للأحدوثة وهو ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾.

●● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ بدل من أخاه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة.

●● ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ امتنعوا عن قبول الإيمان ترفعا وتكبرا ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين مترفعين.

●● ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ البشر يكون واحدا وجمعا، ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أى: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ خاضعون مطيعون، وكل من دان لملك فهو عابد له عند العرب.

●● ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق.

---

(١) الأرطَى: هو شجر ثمره كالعناب، تأكلها الإبل غضة وعروقه حمر.
(القاموس ٢/ ٣٤٩).

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ أى: قوم موسى ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعملون بشرائعها ومواعظها.

●● ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ تدل على قدرتنا على ما نشاء؛ لأنه خلق من غير نطفة ووحد؛ لأن الأعجوبة فيهما واحدة، أو المراد وجعلنا ابن مريم آية وأمة آية فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ﴿وَآوَيْنَاهُمَا﴾ جعلنا مأواهما أى: منزلهما ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ شامى وعاصم رُبوة غيرهما أى: أرض مرتفعة وهى بيت المقدس، أو دمشق أو الرملة أو مصر ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر من أرض مستوية منبسطة أو ذات ثمار وماء، يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء ظاهر جار على وجه الأرض، وهو مفعول أى: مدرك بالعين بظهوره من عانه إذا أدركه بعينه، أو فعيل لأنه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما؛ لأنهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة، وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول فى زمانه نودى بذلك ووصى به ليعتقد السامع أن أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، أو هو خطاب لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لفضله وقيامه مقام الكل فى زمانه وكان يأكل من الغنائم، أو لعيسى ـ عليه السلام ـ لاتصال الآية بذكره وكان يأكل من غزل أمه وهو أطيب الطيبات، والمراد بالطيبات ما حل والأمر للتكليف، أو ما يستطاب ويستلذ والأمر للترفيه والإباحة ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ موافقا للشريعة ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم على أعمالكم.

●● ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ﴾ كوفى على الاستئناف، وأن حجازى وبصرى بمعنى ولأن أى: فاتقون لأن هذه. أو معطوف على ما قبله أى: بما تعلمون عليم، وبأن هذه أو تقديره واعلموا أن هذه ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أى: ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ملة واحدة وهى شريعة الإسلام، وانتصاب أمة على الحال والمعنى وإن الدين دين واحد وهو الإسلام ومثله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(١) ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ وحدى ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فخافوا عقابى فى مخالفتكم أمرى.

●● ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ تقطع بمعنى قطع أى: قطعوا أمر دينهم ﴿زُبُرًا﴾ جمع زبور أى: كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وقيل: تفرقوا فى دينهم فرقا كل فرقة تنتحل كتابا، وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعا وحرفوه وقرىء زبرا جمع زبره أى: قطعا ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الكتاب والدين، أو من الهوى والرأى

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٩).

﴿فَرِحُونَ﴾ مسروررون معتقدون أنهم على الحق ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ جهالتهم وغفلتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن يقتلون(١)، أو يموتوا.

●● ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ ما بمعنى الذى وخبر أن:

●● ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والعائد من خبر أن إلى اسمها محذوف أى: نسارع لهم به، والمعنى أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم إلى المعاصى، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم، وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح؛ لأنهم يقولون: إن الله لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين، وقد أخبر أن ذلك ليس بخير لهم فى الدين ولا أصلح ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بل استدراك لقوله: أيحسبون أى: أنهم أشباه البهائم لاشعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك أنه استدراج، أو مسارعة فى الخير، ثم بين ذكر أوليائه فقال:

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ كمشركى العرب.

●● ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أى: يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات، وقرئ يأتون ما أتوا بالقصر أى: يفعلون ما فعلوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة أن لا تقبل منهم لتقصيرهم ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ الجمهور على أن التقدير لأنهم، وخبر إن الذين.

●● ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون فى الطاعات فيبادرونها ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أى: لأجل الخيرات سابقون إلى الجنات، أو لأجلها سبقوا الناس.

●● ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: طاقتها يعنى أن الذى وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة، وكذلك كل ما كلفه عباده، وهو رد على من جوَّز تكليف مالا يطاق ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ أى: اللوح أو صحيفة الأعمال ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يقرءون منه يوم القيامة إلا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب، أو نقصان ثواب، أو بتكليف مالا وسع له به.

●● ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أى: ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك أى: لما وصف به المؤمنون ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وعليها مقيمون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

---

(١) جاءت هكذا «يقتلون» والصواب «يقتلوا» ؛ لأن الافعال الخمسة تنصب بحذف النون، وجاءت فى نسخ أخرى يقتلوا، وهو الصواب . والله أعلم.

●● ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعميهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ عذاب الدنيا وهو القحط سبع سنين حين دعا عليهم النبى - عليه الصلاة والسلام - أو قتلهم يوم بدر، وحتى هى التى يبتدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يصرخون استغاثة، والجؤار الصراخ باستغاثة فيقال لهم:

●● ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ فإن الجؤار غير نافع لكم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ أى: من جهتنا لا يلحقكم نصر أو معونة.

●● ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى: والنكوص أن يرجع القهقرى، وهو أقبح مشية؛ لأنه لا يرى ما وراءه.

●● ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ متكبرين على المسلمين حال من تنكصون ﴿بِهِ﴾ بالبيت، أو بالحرم؛ لأنهم يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأنا أهل الحرم، والذى سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، أو بآياتى؛ لأنها فى معنى كتابى ومعنى استكبارهم بالقرآن تكذيبهم به استكبارا. ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدى تعديته أو يتعلق الباء بقوله: ﴿سَامِرًا﴾ تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون، وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعرا وسحرا والسامر نحو الحاضر فى الإطلاق على الجمع وقرىء سمّارا. أو بقوله: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ وهو من الهجر الهذيان تهجرون نافع من أهجر فى منطقه إذا أفحش.

●● ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به ﴿أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروه واستبدعوه.

●● ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ محمدا بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق أى: عرفوه بهذه الصفات ﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ بغيا وحسدا.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون وليس كذلك، لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا وأثقبهم ذهنا ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ الأبلج والصراط المستقيم وبما خالف شهواتهم وأهواءهم وهو التوحيد والإسلام، ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا فلذلك نسبوه إلى الجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وفيه دليل على أن أقلهم ما كان كارها للحق بل كان تاركا للإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ وترك دين آبائه كأبى طالب.

●● ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ أى: الله ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيما يعتقدون من الآلهة ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٢٢).

﴿وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(١) ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ خص العقلاء بالذكر؛ لأن غيرهم تبع ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذى هو ذكرهم أى: وعظهم أو شرفهم؛ لأن الرسول منهم والقرآن بلغتهم، أو بالذكر الذى كانوا يتمنونه ويقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾(١) الآية ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ بسوء اختيارهم.

●● ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ حجازى وبصرى وعاصم، خرجا فخرج شامى، خراجا فخراج على وحمزة، وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل من أجرته وجعله والخرج أخص من الخراج تقول: خراج القرية وخرج الكوفة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذا حسنت القراءة الأولى يعنى أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق، فالكثير من الخالق خير ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أفضل المعطين.

●● ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام فحقيق أن يستجيبوا لك.

●● ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم.

●● ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ لما أخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز(٢)، جاء أبو سفيان إلى رسول الله (ﷺ) فقال له: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ فقال: «بلى». فقال: قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع(٣)، فنزلت الآية، والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو القحط الذى أصابهم برحمته لهم ووجدوا الخصب ﴿لَّلَجُّوا﴾ أى: لتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون، يعنى لعادوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله (ﷺ) والمؤمنين، ولذهب عنهم هذا التملق بين يديه.

●● ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ استشهد على ذلك بأنا أخذناهم أولا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة أى: خضوع ولا تضرع وقوله: وما يتضرعون عبارة عن دوام حالهم، أى: وهم على ذلك بعد؛ ولذا لمَ يقل: وما تضرعوا ووزن استكان استفعل من الكون أى: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال.

●● ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا﴾ فتّحنا يزيد ﴿عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى: باب الجوع الذى هو أشد

---

(١) سورة «الصافات»، الآية (١٦٨).

(٢) العِلْهِزُ: وهو ما تمعط من الوبر والصوف.
(القاموس ١/ ٣٢٦).

(٣) رواه البيهقى فى الدلائل.

من الأسر والقتل ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ متحيرون آيسون من كل خير، وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة فى العناد ليستعطفك، أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤى فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾(1).

●● ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خصهما بالذكر؛ لأنها يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أى: تشكرون شكرا قليلا وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا، والمعنى إنكم لم تعرفوا عظم هذه النعم ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا أبصاركم وأسماعكم فى آيات الله وأفعاله، ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيئا.

●● ﴿وهو الذي ذرأكم﴾ خلقكم وبثكم بالتناسل ﴿في الأرض وإليه تحشرون﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

●● ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أى: يحيى النسم بالإنشاء ويميتها بالإفناء ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أى مجىء أحدهما عقيب الآخر واختلافهما فى الظلمة والنور، أو فى الزيادة والنقصان وهو مختص به ولا يقدر على تصريفهما غير ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعرفوا قدرتنا على البعث، أو فتستدلوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا.

●● ﴿بل قالوا﴾ أى: أهل مكة ﴿مثل ما قال الأولون﴾ أى: الكفار قبلهم، ثم بين ما قالوا بقوله:

●● ﴿قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون﴾ متنا نافع وحمزة وعلى وحفص.

●● ﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا﴾ أى: البعث ﴿من قبل﴾ مجىء محمد ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ جمع أسطار جمع سطر، وهى ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له وجمع أسطور أوفق، ثم أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإقامة الحجة على المشركين بقوله.

●● ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ فإنهم:

●● ﴿سيقولون لله﴾ لأنهم مقرون بأنه الخالق فإذا قالوا: ﴿قل أفلا تذكرون﴾ فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها كان قادرا على إعادة الخلق وكان حقيقا بأن لا يشرك به بعض خلقه فى الربوبية. أفلا تذكرون بالتخفيف حمزة وعلى وحفص، وبالتشديد غيرهم.

●● ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم (86) سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾ أفلا تخافونه فلا تشركوا به، أو أفلا تتقون فى جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الأشياء.

---

(1) سورة «الروم»، الآية (12).

●● ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملكوت الملك، والواو والتاء للمبالغة فتنبىء عن عظم الملك ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أجرت فلانا على فلان إذا أغثته منه ومنعته، يعنى وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحد.

●● ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ تخدعون عن الحق، أو عن توحيده وطاعته، والخادع هو الشيطان والهوى الأول لله بالإجماع إذ السؤال لمن وكذا الثانى والثالث عند غير أهل البصرة على لمعنى؛ لأنك إذا قلت: من رب هذا فمعناه لمن هذا فيجاب لفلان كقول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قيل لخالد

أى: لمن المزالف، ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر لأنك إذا قلت: من رب هذا فجوابه فلان.

●● ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فى قولهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[1] ودعائهم الشريك ثم أكد كذبهم بقوله:

●● ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لأنه منزه عن النوع والجنس، وولد الرجل من جنسه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وليس معه شريك فى الألوهية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لانفرد كل واحد من الآلهة بالذى خلقه فاستبد به، ولتميز ملك كل واحد منهم عن الآخر ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شىء، ولا يقال إذا لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، وههنا وقع لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؛ لأن الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة لدلالة وما كان معه من إله عليه، وهو جواب لمن حاجه من المشركين ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد والأولاد.

●● ﴿عَالِمِ﴾ بالجر صفة لله، وبالرفع مدنى وكوفى غير حفص خبر مبتدأ محذوف ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السر والعلانية ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام وغيرها.

●● ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ ما والنون مؤكدان أى: إن كان لابد من أن ترينى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا، أو فى الآخرة.

●● ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فلا تجعلنى قرينا لهم ولا تعذبنى بعذابهم، عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ أخبره الله أن له فى أمته نقمة، ولم يخبره متى وقتها فأمر أن يدعو هذا الدعاء، ويجوز أن يسأل النبى المعصوم (ﷺ) ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارا للعبودية وتواضعا لربه، واستغفاره ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ قام من مجلسه سبعين مرة لذلك، والفاء فى فلا لجواب الشرط، ورب اعتراض بينهما للتأكيد.

---

(١) البقرة (١١٦)، ويونس (٦٨)، والكهف (٤).

●● ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملتم فما وجه هذا الإنكار.

●● ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي﴾ بالخصلة التى ﴿هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ هو أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل؛ كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى اصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هي شهادة أن لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك أو الفحش بالسلام، أو المنكر بالموعظة وقيل :هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة إذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى ثلم دين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ من الشرك، أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم فنجازيهم عليه.

●● ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ من وساوسهم ونخساتهم، والهمزة: النخس، والهمزات جمع الهمزة، ومنه مهماز الرائض، والمعنى أن الشياطين يحثون الناس على المعاصى كما تهمز الراضة الدواب حثا لها على المشى.

●● ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أمر بالتعوذ من نخاستهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من أن يحضروه أصلا، أو عند تلاوة القرآن، أو عند النزع.

●● ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ حتى تتعلق بيصفون أى: لا يزالون يشركون إلى وقت مجيء الموت، أو لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان أن يستنزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ أى: ردونى إلى الدنيا خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك.

●● ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فى الموضع الذى تركت وهو الدنيا؛ لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى، قال قتادة: ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولكن ليتدارك ما فرط. لعلى ساكنة الياء كوفى وسهل ويعقوب ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب الرجعة وإنكار واستبعاد ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ المراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض، وهو قوله: رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيها تركت ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ أى :أمامهم والضمير للجماعة ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لم يرد أنهم يرجعون يوم البعث، وإنما هو إقناط كلى لما علم أن لا رجوع بعد البعث إلا إلى الآخرة.

●● ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قيل: إنها النفخة الثانية ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وبالإدغام أبو عمرو لاجتماع المثلين، وإن كانا من كلمتين يعنى يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين، ولا يكون التواصل بينهم بالأنساب إذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، وإنما يكون بالأعمال ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا؛ لأن كلا مشغول

عن سؤال صاحبه بحاله، ولا تناقض بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾(١) فللقيامة مواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون فيتساءلون ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع موزون وهى الموزونات من الأعمال الصالحة التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(٢) ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

●● ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالسيئات والمراد الكفار ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوها ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من خسروا أنفسهم؛ ولا محل للبدل والمبدل منه؛ لأن الصلة لا محل لها، أو خبر بعد خبر لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف.

●● ﴿تَلْفَحُ﴾ أى: تحرق ﴿وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ عابسون فيقال لهم:

●● ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ أى: القرآن ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتزعمون أنها ليست من الله تعالى.

●● ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ ملكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ شقاوتنا حمزة وعلى وكلاهما مصدر، أى: شقينا بأعمالنا السيئة التى عملناها، وقول أهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح؛ لأنه إنما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم أنه يختاره، ولا يكتب غير إلى علم أنه يختاره فلا يكون مغلوباً ومضطرا فى الفعل، وهذا لأنهم إنما يقولون ذلك القول اعتذاراً لما كان منهم من التفريط فى أمره، فلا يجمل أن يطلبوا لأنفسهم عذرا فيما كان منهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق والصواب.

●● ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أى: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

●● ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت ذلة وهوان ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فى رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به، ثم ولاكلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير، أن يحضرونى ارجعونى ولا تكلمونى بالياء فى الوصل والوقف يعقوب وغيره بلا ياء.

●● ﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر والشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

●● ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ مفعول ثان، وبالضم مدنى وحمزة وعلى وكلاهما مصدر سخر كالسخر إلا أن فى ياء النسبة مبالغة، قيل: هم الصحابة، رضى الله عنهم، وقيل: أهل الصفة خاصة، ومعناه اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ﴾ بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ﴿ذِكْرِي﴾ فتركتموه أى: كان التشاغل بهم سببا لنسيانكم ذكرى ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم.

---

(١) الصافات (٢٧)، والطور (٢٥). (٢) سورة «الكهف»، الآية (١٠٥).

●● ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم ﴿أَنَّهُمْ﴾ أى: لأنهم ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفعولا ثانياً أى: جزيتهم اليوم فوزهم؛ لأن جزى يتعدى إلى اثنين ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً﴾(١) إنهم حمزة وعلى على الاستئناف أى: إنهم هم الفائزون لا أنتم.

●● ﴿قَالَ﴾ أى الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة. قل مكى وحمزة وعلى أمر لما لك أن يسألهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ فى الدنيا ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم عدد سنين لبثتم فكم نصب بلبثتم وعدد تمييز.

●● ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا بالإضافة إلى خلودهم، ولما هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الحساب أو الملائكة الذين يعدون أعمار العباد وأعمالهم، فسل بلا همز مكي وعلى.

●● ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: ما لبثتم إلا زمناً قليلا أو لبثا قليلا ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ صدقهم الله تعالى فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها. قل إن حمزة وعلى.

●● ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ حال أى: عابثين، أو مفعول له أى: للعبث ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ وبفتح التاء وكسر الجيم حمزة وعلى ويعقوب ،وهو معطوف على أنما خلقناكم، أو على عبثا أى: للعبث ولتترككم غير مرجوعين بل خلقناكم للتكليف ثم للرجوع من دار التكليف إلى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء.

●● ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ عن أن يخلق عبثاً ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذى يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، أو الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وصف العرش بالكرم؛ لأن الرحمة تنزل منه، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين ،وقرىء شاذا برفع الكريم صفة للرب تعالى.

●● ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ﴾ أى: لا حجة ﴿لَهُ بِهِ﴾ اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك: من أحسن إلى زيد ـ لا أحق بالإحسان منه ـ فإن الله مثيبه، أو صفة لازمة جيء بها للتوكيد كقولك: يطير بجناحيه لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ﴾ أى :جزاؤه، وهذا جزاء الشرط ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: فهو يجازيه لا محالة ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون، وخاتمتها إنه لا يفلح الكافرون فشتانْ ما بين الفاتحة والخاتمة، ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله:

●● ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأن رحمته إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته.

---

(١) سورة «الإنسان»، الآية(١٢).

(سورة النور مدنية، وهى ستون وأربع آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: هذه سورة ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفة لها، وقرأ طلحة سورة، على زيدًا ضربته، أو على اتل سورة، والسورة: الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة، واشتقاقها من سور المدينة ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أى: فرضنا أحكامها التى فيها. وأصل الفرض القطع أى: جعلناها مقطوعاً بها. وبالتشديد مكى وأبو عمرو للمبالغة فى الإيجاب وتوكيده، أو لأن فيها فرائض شتى، أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم ﴿وأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: دلائل واضحات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لكى تتعظوا. وبتخفيف الذال حمزة وعلى وخلف وحفص، ثم فصل أحكامها فقال:

●● ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ رفعهما على الابتداء، والخبر محذوف أى: فيما فرض عليكم الزانية والزانى أى: جلدهما، أو الخبر فاجلدوا، ودخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط، وتقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما، كما تقول: من زنى فاجلدوه. وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ وقرأ عيسى بن عمر(١) بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر، وهو أحسن من سورة أنزلناها لأجل الأمر ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الجلد ضرب الجلد وفيه إشارة إلى أنه لا يبالغ ليصل الألم إلى اللحم والخطاب للأئمة؛ لأن إقامة الحد من الدين، وهى على الكل إلا أنهم لايمكنهم الاجتماع فينوب الإمام منابهم، وهذا حكم حر ليس بمحصن إذ حكم المحصن الرجم، وشرائط إحصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والتزوج بنكاح صحيح والدخول، وهذا دليل على أن التغريب غير مشروع؛ لأن الفاء إنما يدخل على الجزاء وهو اسم للكافى والتغريب المروى منسوخ بالآية، كما نسخ الحبس والأذى فى قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾(٢) وقوله: ﴿فَآذُوهُمَا﴾(٣) بهذه الآية ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾أى: رحمة، والفتح لغة وهى قراءة مكى وقيل: الرأفة فى دفع المكروه، والرحمة فى إيصال المحبوب والمعنى أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين الله، ولا يأخذهم اللين فى استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود، أو يخففوا الضرب ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أى: فى طاعة الله أو حكمة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب التهييج وإلهاب الغضب لله ولدينه، وجواب الشرط

---

(١) هو: عيسى بن عمر، الثقفى، مولاهم، فارس من فرسان اللغة وفطاحلها على مدى العصور؛ فهو شيخ الخليل بن أحمد، وسيبويه، وكفاه ذلك، وهو أول من هذب النحو ورتبه، توفى عام ١٤٩هـ.

الأعلام (٥/١٠٦).

(٢) سورة «النساء»، الآية (١٥).

(٣) سورة «النساء»، الآية (١٦).

مضمر أي: فاجلدوا ولا تعطلوا الحد ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ وليحضر موضع حدهمـا، وتسميته عذابا دليل على أنـه عقوبة ﴿طَائِفَةٌ﴾ فرقة يمكـن أن تكون حلقة ليعـتبروا وينزجر هو، وأقلـها ثلاثة أو أربعة، وهي صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شيء، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أربعة إلى أربعين رجلا ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بالله.

●● ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: الخبيث الذى من شأنه الـزنا لايرغب فى نكـاح الصوالح من النـساء، وإنما يرغب فى خـبيثة من شكـله أو فى مشركة، والخبيثة المسافحة كذلك لايرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين، فالآية تزهيـد فى نكاح البغايا إذ الزنا عديل الشرك فى القبح، والإيمان قرين العفاف والتحصن، وهو نظير قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ (١) وقيل: كان نكاح الزانية محرما فى أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ (٢) وقيل: المراد بالنكاح الوطء؛ لأن غير الزاني يستقذر الزانية ولا يشتهيها :وهو صحيح لكنه يؤدى إلى قولك: الزاني لا يزنى إلا بزانية، والزانية لا يزنى بها إلا زان، وسئل (ﷺ) عمن زنى بامرأة، ثم تزوجها فقال: «أوله سفاح وآخره نـكاح» (٣) ومعنـى الجملة الأولـى صفة الزانـى بكونه غـير راغب فى الـعفائف ولـكن فى الفواجر، ومعنى الـثانية صفة الزانية بكونها غيـر مرغوب فيها للأعفاء ولكن للزنـاة، وهما معنيان مختلفان وقدمت الزانية عى الزاني أولا، ثم قدم عليهـا ثانيا؛ لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا، والمرأة هـى المادة التى منها نشأت تلك الجـناية؛ لأنها لو لم تطمع الـرجل ولم تومض له ولم تمكنه لـم يطمع ولم يتمكـن؛ فلما كانت أصلا فى ذلك بـدىء بذكرها، وأما الثانيـة فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه؛ لأنه الخاطب ومنه بـدء الطلب، وقرىء لا ينكح بالجزم على النهى وفى المرفـوع أيضاً معنـى النهى ولكـن أبلغ وآكد، ويجـوز أن يكون خبراً مـحضاً على مـعنى أن عادتهما جـارية على ذلك، وعلى المؤمن أن لايدخـل نفسه تحت هذه العادة ويتـصون عنها ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الزنا، أو نكـاح البغايا لقصـد التكسب بالـزنا، أو لما فيه من التـشبيه بالفسـاق وحضور مواقع التهمـة والتسبب لسوء القـالة فيه والغيبة ومـجالسة الخطائين كم فـيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب.

●● ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ وبكسر الصاد عَـلِيّ؛ أي: يقذفون بالزنا الحرائر والـعفيفات المسلمات المـكلفات، والقذف يكون بـالزنا وبغيره، والمراد هنـا: قذفهن بالزنا بأن يـقول: يازانية؛ لذكر المحصنات عقيب الزوانـى، ولاشتراط أربعة شهداء بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أى: ثم لم يأتوا بأربعـة شهود يشهدون على الزنا؛ لأن القذف بغـير الزنا بأن يقول: يافاسق، يا آكل

---

(١) سورة «النور»، الآية (٢٦).

(٢) سورة «النور»، الآية (٣٢).

(٣) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٤٥٦٥٧/١٦).

لربا يكفى فيه شاهدان وعليه التعزير، وشروط إحصان القذف: الحرية والعقل والبلوغ والإسلام والعفة عن الزنا، والمحصن كالمحصنة فى وجوب حد القذف ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ إن كان القاذف حراً، ونصب ثمانين نصب المصادر كما نصب مائة جلدة. وجلدة نصب على التمييز ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ نكر شهادة فى موضع النفى فتعم كل شهادة، ورد الشهادة من الحد عندنا ويتعلق باستيفاء الحد أو بعضه على ما عرف، وعند الشافعى- رحمه الله تعالى يتعلق رد شهادته بنفس القذف فعندنا جزاء الشرط الذى هو الرمى الجلد، ورد الشهادة عى التأبيد وهو مدة حياتهم ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كلام مستأنف غير داخل فى حيز جزاء الشرط، كأنه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطية.

●● وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أى: القذف ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أحوالهم استثناء من «الفاسقون» ويدل عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى يغفر ذنوبهم ويرحمهم، وحق الاستثناء أن يكون منصوباً عندنا؛ لأنه عن موجب: وعند من جعل الاستثناء متعلقاً بالجملة الثانية أن يكون مجروراً بدلا من هم فى لهم. ولما ذكر حكم قذف الأجنبيات بين حكم قذف الزوجات فقال:

●● ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أى: يقذفون زوجاتهم بالزنا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ أى: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ يرتفع على البدل من شهداء ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ﴾ بالرفع كوفى غير أبى بكر على أنه خبر، والمبتدأ فشهادة أحدهم وغيرهم بالنصب؛ لأنه فى حكم المصدر بالإضافة إلى المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم، وعلى هذا خبره محذوف تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع ﴿شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

●● ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ لاخلاف فى رفع الخامسة هنا فى المشهور، والتقدير والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فهى مبتدأ وخبر ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

●● ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ ويدفع عنها الحد، وفاعل يدرأ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ﴾ إن الزوج ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رمانى به من الزنا.

●●﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ أى: الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رمانى به من الزنا، ونصب حفص الخامسة عطفاً على أربع شهادات، وغيره رفعها بالابتداء وأن غضب الله خبره، وخفف نافع أن لعنة الله وأن غضب الله بكسر الضاد، وهما فى حكم المثقلة، وأن غضب الله سهل ويعقوب وحفص وجعل الغضب فى جانبها، لأن النساء يستعملن اللعن كثيراً كما ورد به الحديث فربما يجترئن على الإقدام، لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن وسقوط وقوعه عن قلوبهن،

فذكر الغضب فى جانبهن ليكون رادعا لهن، والأصل أن اللعان عندنا شهادات مؤكدات بالأيمان مقرونة باللعن قائمة مقام حد القذف فى حقه ومقام حد الزنا فى حقها؛ لأن الله تعالى سماه شهادة فإذا قذف الزوج زوجته بالزنا ـ وهما من أهل الشهادة ـ صح اللعان بينهما، وإذا التعنا كما بين فى النهر [(١)] لاتقع الفرقة حتى يفرق القاضى بينهما، وعند زفر[(٢)] ـ رحمه الله تعالى ـ :تقع بتلاعنهما، والفرقة تطليقة بائنة، وعند أبى يوسف وزفر والشافعى تحريم مؤبد، ونزلت آية اللعان فى هلال بن أمية، أو عويمر حيث قال: وجدت على بطن امرأتى [(٣)] -خولة- شريك بن سحماء [(٤)] فكذبته فلاعن النبى (ﷺ) بينهما.

●● ﴿ولَوْلا فَضْلُ اللَّهِ﴾ تفضله ﴿عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ﴾ نعمته ﴿وأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جواب لولا محذوف أى: لفضحكم، أو لعاجلكم بالعقوبة.

●● ﴿إنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإفْكِ﴾ هو أبلغ مايكون من الكذب والافتراء، وأصله الأفكُ وهو القلب؛ لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد ما أفك به على عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت عائشة: فقدت عقدا فى غزوة بنى المصطلق[(٥)] فتخلفت ولم يعرف خلو الهودج لخفتى، فلما ارتحلوا أناخ لى صفوان بن المعطل [(٦)] بعيره، وساقه حتى أتاهم بعد مانزلوا فهلك فِيَّ من هلك؛ فاعتللت شهرا وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يسأل: «كيف أنت؟» ولا أرى منه لطفا كنت أراه حتى عثرت خالة

---

(١) النهر: لعله يقصد النهر الماد، مختصر البحر المحيط فى التفسير، وهما لأثير الدين أبو حيان الأندلسى، وهو من العلماء العظام، ولد فى غرناطة، وانتقل إلى القاهرة وتوفى فيها بعد أن فقد بصره عام ٧٤٥.

(الأعلام ٧/ ١٥٢).

(٢) هو الفقيه؛ زفر بن الهذيل بن قيس، العنبرى، التميمى، أبو الهذيل، من أجل أصحاب الإمام أبى حنيفة، له آراء معتبرة فى داخل المذهب الحنفى، لم يكن له كبير حظ فى الحديث؛ فلم يذكره ابن حجر، ولد عام ١١٠هـ، وتوفى عام ١٥٨هـ.

الأعلام (٣/ ٤٥).

(٣) الأصح أنه: هلال بن أمية، انظر القصة مفصلة فى تفسير الإمام ابن كثير (٣/ ٢٥٧ ـ ٢٦٠).

(٤) هو: شريك بن عبدة بن معتب، العجلانى، وسحماء هذه أمه.

الإصابة (٣/ ٢٠٦).

(٥) غزوة بنى المصطلق: أو غزوة المريسيع، كانت فى شعبان سنة ست من الهجرة، وسببها أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضرار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله. وهذه الغزوة لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف من حيث الوجهة العسكرية، إلا أنها وقعت فيها حوادث البلبلة والاضطراب فى المجتمع الإسلامى، حيث قال المنافقون فيها الإفك.

(الرحيق المختوم ١/ ٣٢٥).

(٦) صفوان بن المعطل، صحابى جليل، كان فى آخر الجيش حتى يلقط ما يسقط من متاع الجيش، واتهم فى حديث الإفك، مات شهيداً فى خلافة معاوية.

أبى أم مسطح [١] فقالت: تعس مسطح فأنكرت عليها فأخبرتنى بالإفك، فلما سمعت ازددت مرضا وبت عند أبوى لا يرقأ لى دمع وما أكتحل بنوم، وهما يظنان أن الدمع فالق كبدى حتى قال - عليه الصلاة والسلام-: «ابشرى ياحميراء فقد أنزل الله براءتك». فقلت: بحمد الله لا بحمدك [٢] ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة العشرة إلى الأربعين، واعصوصبوا: اجتمعوا؛ وهم: عبدالله بن أُبَيّ؛ رأس النفاق وزيد بن رفاعة[٣] وحسان بن ثابت [٤] ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش [٥] ومن ساعدهم ﴿مِّنكُمْ﴾ من جماعة المسلمين وهم ظنوا أن الإفك وقع من الكفار دون من كان من المؤمنين ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أى: الإفك ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ عند الله ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن الله أثابكم عليه، وأنزل فى البراءة منه ثمانى عشرة آية، والخطاب لرسول الله (ﷺ) وأبى بكر وعائشة وصفوان ومن ساءه ذلك من المؤمنين ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أى: على كل امرىء من العصبة جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه، وكان بعضهم ضحك وبعضهم تكلم فيه وبعضهم سكت ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ أى: عظمه عبدالله بن أبىّ ﴿مِنْهُمْ﴾ أى: من العصبة ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: جهنم، يحكى أن صفوان مر بهودجها عليه وهو فى ملأ من قومه فقال: من هذه؟ فقالوا: عائشة، فقال: والله ما نجت منه ولانجا منها، ثم وبَّخ الخائضين فقال:

●● ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أى: الأفك ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالذين منهم، فالمؤمنون كنفس واحدة وهو كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [٦] ﴿خَيْرًا﴾ عفافا وصلاحا، وذلك نحو ما يروى أن عمر- رضى الله عنه- قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام: أنا قاطع بكذب المنافقين؛ لأن الله عصمك من وقوع الذباب على جلدك، لأنه يقع على النجاسات فيتلطخ بها؛ فلما عصمك الله من ذلك القدر من القذر فكيف لايعصمك عن صحبة من تكون متلطخة بمثل

(١) أم مسطح ابنة أبى رهم بن عبد مناف أمها بنت صخر بن عامر، خالة أبى بكر الصديق.

(٢) انظر حديث الإفك عند غالب كتب الحديث المعتبرة، وعلى رأسها؛ البخارى ومسلم.

(٣) زيد بن رفاعة بن عامر الأنصارى، صحابى جليل، وهو عم قتادة بن النعمان، ذكره صاحب الأعلام فى ترجمة قتادة.
(الأعلام ٥/١٨٩).

(٤) هو الصحابى الشاعر؛ حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو، الأنصارى، البخارى، أبو عبدالرحمن، المدنى، أسن من النبى ﷺ بسبع أو ثمان سنين، وجاهد مع الرسول ﷺ بنفسه ولسانه، وكان يهجو من يهجوه، حتى سمى «شاعر رسول الله ﷺ»، مات عام ٥٤ أو ٥٥ هـ، وقيل: عاش هو، وأبوه وجده ١٢٠ عاماً.
تهذيب التهذيب (١/ ٤٧١، ٤٧٢).

(٥) هى: حمنة بنت جحش، الأسدية، أخت زينب أم المؤمنين - رضى الله عنهما - كانت تحت مصعب بن عمير، فقتل عنها يوم أحد، وخلف عليها طلحة بن عبيدالله.
تهذيب التهذيب (٦/ ٥٨٩، ٥٩٠).

(٦) سورة «الحجرات»، الآية (١١).

هذه الفاحشة، وقال عثمان: إن الله ما أوقع ظلك، على الأرض لئلا يضع إنسان قدمه على ذلك الظل، فلما لم يمكن أحدا من وضع القدم على ظلك كيف يمكن أحدا من تلويث عرض زوجتك؟! وكذا قال على - رضى الله عنه -: إن جبريل أخبرك أن على نعليك قذرا، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر فكيف لا يأمرك بإخراجها؟! بتقدير أن تكون متلطخة بشىء من الفواحش، وروى أن أبا أيوب الأنصارى(1) قال لامرأته: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءًا؟ فقال: لا. قالت ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله، فعائشة خير منى، وصفوان خير منك. وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن الضمير إلى الظاهر ولم يقل ظنتم بأنفسكم خيرا وقلتم ليبالغ فى التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن، وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به، والحافظ له. وليتك تجد من يسمع فيسكت، ولا يشيع ما سمعه بإخوانه ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كذب ظاهر لايليق بهما.

●● ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ هلا جاءوا على القذف لو كانوا صادقين بأربعة شهداء ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ الأربعة ﴿فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: فى حكمة وشريعته ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى: القاذفون؛ لأن الله تعالى جعل التفصلة بين الرمى الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الأربعة وانتفاءها والذين رموا عائشة - رضى الله عنها -لم يكن لهم بينة على قولهم فكانوا كاذبين.

●● ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لولا هذه لامتناع الشىء لوجود غيره بخلاف ما تقدم، أى: ولولا أنى قضيت أن أتفضل عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من جملتها الإمهال للتوبة وأن أترحم عليكم فى الآخرة فى العفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ماخضتم فيه من حديث الإفك، يقال: أفاض فى الحديث وخاض واندفع.

●● ﴿إِذْ﴾ ظرف لـ «مَسَّكُمْ» أو لـ «أَفَضْتُمْ» ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ يأخذه بعضكم من بعض، يقال: تلقى القول وتلقنه وتلقفه ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أى: أن بعضكم كان يقول لبعض: هل بلغك حديث عائشة؟ حتى شاع فيما بينهم وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشىء المعلوم يكون علمه فى القلب،

---

(1) هو الصحابى المجاهد؛ خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف، أبو أيوب، الأنصارى، الخزرجى، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ونزل عنده النبى ﷺ حين قدم المدينة شهراً حتى بنى المسجد، فهو من أخواله بنى النجار، كانت حياته جهاداً متواصلاً حتى مات بيلاد والروم غازياً فى عهد معاوية بعد عام ٥٠هـ.
تهذيب التهذيب (٢/٥٧).

ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولا يدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (١) ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ أى: خوضكم فى عائشة ـ رضى الله عنها ـ ﴿هَيِّنًا﴾ صغيرة ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ كبيرة. جزع بعضهم عند الموت، فقيل له فى ذلك فقال: أخاف ذنبا لم يكن منى على بال، وهو عند الله عظيم.

•• ﴿وَلَوْلا﴾ وهلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ فصل بين لولا وقلتم بالظرف، لأن للظروف شأنا وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها فلذا يتسع فيها ما لا يتسع فى غيرها، وفائدة تقديم الظرف أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ماسمعوا بالإفك عن التكلم به، فلما كان ذكر الوقت أهم قدم، والمعنى هلا قلتم إذ سمعتم الإفك ما يصح لنا أن نتكلم بهذا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ للتعجب من عظم الأمر، ومعنى التعجب فى كلمة التسبيح أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه، أو لتنزيه الله من أن تكون حرمة نبيه فاجرة، وإنما جاز أن تكون امرأة النبى كافرة كامرأة نوح ولوط، ولم يجز أن تكون فاجرة، لأن النبى مبعوث إلى الكفار ليدعوهم فيجب أن لا يكون معه ما ينفرهم عنه، والكفر غير منفر عندهم، وأما الكشخنة(٢) فمن أعظم المنفرات ﴿هَذَا بُهْتَانٌ﴾ زور يبهت من يسمع ﴿عَظِيمٌ﴾ وذكر فيما تقدم هذا إفك مبين، ويجوز أن يكونوا أمروا بهما مبالغة فى التبرى.

•• ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا﴾ فى أن تعودوا ﴿لِمِثْلِهِ﴾ لمثل هذا الحديث من القذف، أو استماع حديثه ﴿أَبَدًا﴾ مادمتم أحياء مكلفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه تهييج لم ليتعظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح.

•• ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الدلالات الواضحات وأحكام الشرائع والآداب الجميلة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ يجزى على وفق أعمالكم، أو علم صدق نزاهتها وحكم ببراءتها.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: ما قبح جدا، والمعنى يشيعون الفاحشة عن قصد الإشاعة ومحبة لها ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ بالحد، ولقد ضرب النبى (ﷺ) ابن أبى وحسانا ومسطحا الحد ﴿وَالآخِرَةِ﴾ بالنار وعدها إن لم يتوبوا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بواطن الأمور وسرائر الصدور ﴿وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أنه قد علم محبة من أحب الإشاعة، وهو معاقبه عليها.

•• ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لعجل لكم العذاب، وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة فى المنة عليهم والتوبيخ لهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ﴾ حيث أظهر براءة المقذوف وأثاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بغفرانه جناية القاذف إذا تاب.

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٦٧).

(٢) الكشخنة: هى الدياثة، وعدم الغيرة. أو: الرضا بالفاحشة والمنكر.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: آثاره ووساوسه بالإصغاء إلى الإفك والقول فيه ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ فإن الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ما أفرط قبحه ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ ماتنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة المحضة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم وإخلاصهم.

●● ﴿وَلا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف من ائتلى إذا حلف افتعال من الألية، أو لا يقصر من الألو ﴿أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ فى الدين ﴿وَالسَّعَةِ﴾ فى الدنيا ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أى: لا يؤتوا إن كان من الألية ﴿أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: لا يحلفوا على أن لايحسنوا إلى المستحقين للإحسان، أولا يقصروا فى أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ العفو الستر، والصفح الإعراض أى وليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فليفعلوا بهم ما يرجون أن يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتأدبوا بأدب الله واغفروا وارحموا، نزلت فى شأن أبى بكر الصديق- رضى الله عنه- حين حلف أن لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه فى عائشة ـ رضى الله عنها ـ وكان مسكينا بدريا مهاجرا، ولما قرأها النبى (ﷺ) على أبى بكر قال: بلى أحب أن يغفر الله لى، ورد إلى مسطح نفقته.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفائف ﴿الْغَافِلاتِ﴾ السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يجربن الأمور ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بما يجب الإيمان به. عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :هن أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وقيل: هن جميع المؤمنات إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة ـ رضى الله عنها ـ وحدها، وإنما جمع؛ لأن من قذف واحدة من نساء النبى ـ عليه الصلاة والسلام - فكأنه قذفهن ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جعل القذفة ملعونين فى الدارين، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة إن لم يتوبوا.

●● والعامل: فى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ يعذبون. وبالياء حمزة وعلى ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بما أفكوا، أو بهتوا.

●● والعامل فى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ بالنصب صفة للدين، وهو الجزاء ومعنى الحق الثابت الذى هم أهله، وقرأ مجاهد بالرفع صفة لله كقراءة أُبَيّ يوفيهم الله الحق دينهم). وعلى قراءة النصب يجوز أن يكون الحق وصفا لله بأن ينتصب على المدح ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ لارتفاع الشكوك وحصول العلم الضرورى، ولم يغلظ الله تعالى فى القرآن فى شىء من المعاصى تغليظه فى إفك عائشة ـ رضى الله عنها ـ فأوجز فى ذلك، وأشبع

وفصل وأجمل وأكد وكرر وما ذاك إلا لأمر. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه: -من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض فى أمر عائشة، وهذا منه تعظيم ومبالغة فى أمر الإفك، ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف ـ عليه السلام ـ بشاهد من أهلها، وموسى ـ عليه السلام ـ من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه، ومريم ـ رضى الله عنها ـ بإنطاق ولدها، وعائشة ـ رضى الله عنها بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله، والتنبيه على إنافة محله (ﷺ) وعلى آله.

●● ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من القول تقال ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال والنساء ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ منهم يتعرضون ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من القول وكذلك ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: فيهم، وأولئك إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة ـ رضى الله عنها ـ ومارميت به من قول لايطابق حالها فى النزاهة والطيب، ويجوز أن يكون إشارة إلى أهل البيت وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك، وأن يراد بالخبيثات والطيبات النساء الخبائث يتزوجن الخباث والخباث تتزوج الخبائث، وكذا أهل الطيب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مستأنف، أو خبر بعد خبر ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فى الجنة، ودخل ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى مرضها وهى خائفة من القدوم على الله تعالى فقال: لا تخافى؛ لأنك لاتقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم، وتلا الآية فغشى عليها فرحا بما تلا، وقالت عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ: لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة، نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يتزوجنى، وتزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى، وتوفى - عليه الصلاة والسلام ـ ورأسه فى حجرى وقبر فى بيتى، وينزل عليه الوحى وأنا فى لحافه، وأنا ابنة خليفته وصديقه، ونزل عذرى من السماء، وخلقت طيبة، عند طيب ووعدت مغفرة ورزقا كريما وقال حسان معتذرا فى حقها:

،حصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَن بريبة … وتسبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس دينا ومنصبا … نبى الهدى والمكرمات الفواضل
عقيلة حىٍّ من لؤى بن غالب … كرام المساعى مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها … وطهرها من كل شين وباطل

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ أى: بيوتا لستم تملكونها ولا تسكنونها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أى: تستأذنوا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقد قرأ به: والاستئناس فى الأصل الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشىء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا، أى: حتى تستعلموا أيطلق لكم الدخول، أم لا وذلك بتسبيحة، أو بتكبيرة، أو بتحميدة، أو بتنحنح ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ والتسليم أن يقول: السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا

رجع، وقيل إن تلاقيا يقدم التسلم وإلا فالاستئذان ﴿ذَلِكُم﴾ أى: الاستئذان والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُم﴾ من تحية الجاهلية والدمور: وهو الدخول بغير إذن فكأن الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحا وحييتم مساء، ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: قيل لكم هذا لكى تذكروا وتتعظوا وتعملوا ما أمرتم به فى باب الاستئذان.

●● ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ فى البيوت ﴿أَحَدًا﴾ من الآذنين ﴿فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى تجدوا من يأذن لكم، أو فإن لم تجدوا فيها أحدا من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها؛ لأن التصرف فى ملك الغير لابد من أن يكون برضاه ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا﴾ أى: إذا كان فيها قوم فقالوا ارجعوا ﴿فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحوا فى إطلاق الإذن ولا تلجوا فى تسهيل الحجاب- ولاتقفوا على الأبواب، لأن هذا مما يجلب الكراهة فإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إليها من قرع الباب بعنف والتصبيح بصاحب الدار، وغير ذلك، وعن أبى عبيد ما قرعت بابا على عالم قط ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أى: الرجوع أطيب وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة أو أنفع وأنمى خيرا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمخاطبين بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف بجزاءه عليه.

●● ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا﴾ فى أن تدخلوا ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ استثنى من البيوت التى يجب الاستئذان على داخلها ماليس بمسكون منها كالخانات والربط وحوانيت التجار ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أى: منفعة كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع، وقيل: الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة.

●● ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ولم يدخل من هنا، لأن الزنا لارخصة فيه بوجه ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفها وقدميها - فى رواية - وإلى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: غض البصر وحفظ الفرج ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أى: أطهر من دنس الإثم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيه ترغيب وترهيب يعنى أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(١) فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذرٍ فى كل حركة وسكون.

●● ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أمرن بغض الأبصار فلا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبى إلى ما تحت سرته إلى ركبتيه وإن اشتهت غضت بصرها رأسا، ولا تنظر إلى المرأة إلا إلى مثل ذلك، وغض بصرها من الأجانب أصلا أولى بها، وإنما قدم غض

(١) سورة «غافر»، الآية (١٩)

الأبصار على حفظ الفروج، لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور؛ فبذر الهوى طموح العين ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة ما تزينت به المرأة من حلى، أو كحل أو خضاب والمعنى ولايظهرن مواضع الزينة إذ إظهار عين الزينة وهى الحلى ونحوها مباح، فالمراد بها مواضعها، أو إظهارها وهى فى مواضعها لإظهار مواضعها لا لإظهار أعيانها، ومواضعها الرأس والأذن والعنق والصدر والعضدان والذراع والساق فهى للإكليل، والقرط والقلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إلا ماجرت العادة والجبلة على ظهوره، وهو الوجه والكفان والقدمان ففى سترها حرج بيّن، فإن المرأة لا تجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليضعن من قولك ضربت بيدى على الحائط إذا وضعتها عليه ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمار ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ بضم الجيم مدنى وبصرى وعاصم كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى تغطيها ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أى: مواضع الزينة الباطنة كالصدر والساق والرأس ونحوها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ لأزواجهن جمع بعل ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم الأجداد ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارم ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ فقد صاروا محارم أيضا ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ ويدخل فيهم النوافل وسائر المحارم كالأعمام والأخوال وغيرهم. دلالة: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أى: الحرائر، لأن مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أى: إمائهن ولايحل لعبدها أن ينظر إلى هذه المواضع منها خصيًا كان، أو عنينًا أو فحلا، وقال سعيد بن المسيب: لاتغرنكم سورة النور فإنها فى الإماء دون الذكور [(١)] وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها أباحت النظر إليها لعبدها [(٢)] ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ﴾ بالنصب شامى ويزيد وأبو بكر على الاستثناء، أو الحال وغيرهم بالجر على البدل، أو على الوصفية ﴿أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ الحاجة إلى النساء قيل: هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم إلى النساء؛ لأنهم بله لا يعرفون شيئا من أمرهن، أو شيوخ صلحاء، أو العنين[(٣)] أو الخصى [(٤)] أو المخنث [(٥)] وفى الأثر أنه المجبوب [(٦)] والأول الوجه ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ حال ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ﴾ هو جنس فصلح أن يراد به

---

(١) الحديث عند أبن أبى شيبة، من رواية طارق عن سعيد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج، وقال عنه ابن حجر: هذا ملفق من أثرين؛ الأول: أخرجه البيهقى من طريق عمرو بن ميمون، وعلقه البخارى عن سليمان، والثانى: أخرجه ابن سعد عن رواية محمد بن على بن الحسين.

(٣) العنِّين: من يعجز عن إتيان النساء، أو لا يريدهن.
القاموس (٤/ ٢٤٩).

(٤) الخَصِيّ: من قطع خصيَهُ. القاموس (٤/ ٣٢٤).

(٥) المخَنَّث: هو الذكر الذى تبدو عليه علامات الأنوثة؛ فلا هو ذكر كامل أو أنثى كاملة.
القاموس (١/ ١٦٦).

(٦) المجبوب: من قطع ذكره، أو خصيَيْه.
القاموس (١/ ٤٣).

الجمع ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أى: لم يطلعوا لعدم الشهوة من ظهر على الشىء إذا أطلع عليه، أو لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان إذا قوى عليه ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال؛ فنهين عن ذلك؛ إذ سماع صوت الزينة كإظهارها ومنه سمى صوت الحلى وسواسا ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَيُّهَ شامى إتباعا للضمة قبلها بعد حذف الألف، لالتقاء الساكنين وغيره على فتح الهاء؛ لأن بعدها ألفاً فى التقدير ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ العبد لا يخلو عن سهو وتقصير فى أوامره ونواهيه؛ وإن اجتهد؛ فلذا وصى المؤمنين جميعاً بالتوبة وبتأميل الفلاح إذا تابوا، وقيل: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس له حاجة إلى التوبة،وظاهر الآية يدل على أن العصيان لا ينافى الإيمان.

•• ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ الأيامى جمع أيم وهو من لازوج له رجلا كان أو امرأة، بكراً كان أوثيبا، وأصله أيائم فقلبت ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ أى: الخيرين، أو المؤمنين والمعنى: زوجوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي: من غلمانكم وجواريكم والأمر للندب إذ النكاح مندوب إليه ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ من المال ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾بالكفاية والقناعة، أو باجتماع الرزقين، وفى الحديث «التمسوا الرزق بالنكاح»[(1)] وعن عمر ـ رضى الله عنه ـ روى مثله﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ غنى ذو سعة لايرزؤه إغناء الخلائق ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وقيل: فى الآية دليل على أن تزويج النساء والأيامى إلى الأولياء كما أن تزوج العبيد والإماء إلى الموالى، قلنا: الرجل لايلى على الرجل الأيم إلا بإذنه؛ فكذا لا يلى على المرأة إلا بإذنها، لأن الأيم ينتظمها.

•• ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ وليجتهدوا فى العفة كأن المستعف طالب من نفسه العفاف ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استطاعة تزوج من المهر والنفقة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ حتى يقدرهم على المهر والنفقة،قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر ،وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[(2)]، فانظر كيف رتب هذه الأوامر فأمر أولا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح المحصن للدين المغنى عن الحرام، ثم بعزة النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن تقدر عليه ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى: المماليك الذين يطلبون الكتابة فالذين مرفوع بالابتداء، أو منصوب بفعل يفسره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ وهو للندب ودخلت

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٦/ ٤٤٤٣٦).
(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٦/ ٨-٤٤٤).

الفاء لتضمنه معنى الشرط، والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وهو أن يقول لمملوكه: كاتبتك على ألف درهم فإن أداها عتق ومعناه: كتبت لك على نفسى أن تعتق منى إذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك، أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت علىّ العتق، ويجور حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لإطلاق الأمر ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قدرة على الكسب، أو أمانة وديانة، والندبية معلقة بهذا الشرط ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾ أمر للمسلمين على وجه الوجوب بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى: ﴿وَفِى الرِّقَابِ﴾(١) وعند الشافعى- رحمه الله -معناه حطوا من بدل الكتابة ربعاً وهذا عندنا على وجه الندب، والأول الوجه؛ لأن الإيتاء هو التمليك فلا يقع على الحط، سأل صبيح (٢) مولاه حويطبا (٣) أن يكاتبه فأبى فنزلت ـ وأعلم أن العبيد أربعة قِنٌ مقتنى للخدمة. ومأذون فى التجارة، ومكاتب، وآبق. **فمثال الأول**: ولى العزلة الذى حصل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة، **والثانى**: ولى العشرة فهو نجى الحضرة يخالط الناس للخبرة، وينظر إليهم بالعبرة، ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله (ﷺ) يحكم بحكم الله ويأخذ لله ويعطى فى الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله فالدنيا سوق تجارته، والعقل رأس بضاعته والعدل فى الغضب والرضا ميزانه، والقصد فى الفقر والغنى عنوانه والعز مفزعه ومنجاه والقرآن كتاب الإذن من مولاه، هو كائن فى الناس بظواهره بائن منهم بسرائره فقد هجرهم فيما له عليهم فى الله باطناً، ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهراً:

وما هو منهمو بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

يأكل مايأكلون ويشرب مايشربون، وما يدريهم أنه ضيف الله يرى السموات والأرض قائمات بأمره وكأنه قيل فيه.

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال(٤)

فحال ولى العزلة أصفى وأحلى، وحال ولى العشرة أو فى وأعلى، ونزل الأول من الثانى فى حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان، أما النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو كريم الطرفين ومعدن الشذرين ومجمع الحالين ومنبع الزلالين فباطن أحواله مهتدى ولى العزلة وظاهر أعماله مقتدى ولى العشرة، **والثالث**: المجاهد المحاسب العامل المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب

---

(١) البقرة (١٧٧)، والتوبة (٦٠).

(٢) مختلف فى صحبته.
الإصابة (٣/ ٢٣٥).

(٣) هو الصحابى المخضرم؛ حويطب بن عبدالعزى بن عبد ود بن نصر بن مالك، العامرى، أبو محمد، مكى من مسلمة الفتح، عاش ستين سنة فى الجاهلية، ومثلها فى الإسلام، لم يرو له الشيخان والنسائى إلا حديثاً واحداً، وَجلّ روايته عن الصحابة، فمن بعدهم. توفى عام ٥٤ هـ .
تهذيب التهذيب (٢/ ٤٢، ٤٣).

(٤) البيت من شعر المتنبى يمدح سيف الدولة الحمدانى، ومعروف أن المتنبى قد استغرق حوالى ثلث شعره فى سيف الدولة، ما بين مدح وعتاب.

عليه فى اليوم والليلة خمس، وفى المائتى درهم خمسة، وفى السنة شهر، وفى العمر زورة فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة، فيسعى فى فكاك رقبته خوفا من البقاء فى ربقة العبودية وطمعاً فى فتح باب الحرية ليسرح فى رياض الجنة فيتمتع بمناه ويفعل ما يشاؤه ويهواه، و **الرابع:** الإباق فما أكثرهم فمنهم القاضى الجائر، والعالم غير العامل، والعامل المرائى، والواعظ الذى لايفعل ما يقول ويكون أكثر أقواله الفضول، وعلى كل مالا ينفعه يصول فضلا عن السارق والزانى والغاصب فعنهم أخبر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن الله لينصر هذا الدين بقوم لاخلاق لهم فى الآخرة»(١) ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ كان لابن أبى ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء، وضرب عليهن الضرائب، فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فنزلت (٢) ، ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والأمة، والبغاء: الزنا للنساء خاصة وهو مصدر لبغت ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً عن الزنا، وإنما قيده بهذا الشرط، لأن الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصن فآمر المطيعة للبغاء لايسمى مكرها ولا أمره إكراها؛ ولأنها نزلت على سبب فوقع النهى على تلك الصفة وفيه توبيخ للموالى أى إذا رغبن فى التحصن فأنتم أحق بذلك ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لهن، وفى مصحف ابن مسعود كذلك، وكان الحسن يقول لهن والله، لهن والله ولعل الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة، وهو الذى يخاف منه التلف فكانت آثمة أو لهم إذا تابوا.

●● ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الياء حجازى وبصرى وأبو بكر وحماد؛ والمراد الآيات التى بينت فى هذه السورة، وأوضحت فى معانى الأحكام والحدود، وجاز أن يكون الأصل مبينا فيها فاتسع فى الظرف، أى: أجرى مجرى المفعول به، كقوله ويوم شهدناه وبكسرها غيرهم أى بينت هى الأحكام والحدود جعل الفعل لها مجازاً، أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل: قد بين الصبح لذى عينين. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ ومثلا من أمثال من قبلكم أى: قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم، يعنى قصة عائشة ـ رضى الله عنها ـ ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ما وعظ به من الآيات والمثل من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾. ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾(٣) ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هم المنتفعون بها وإن كانت موعظة للكل نظير قوله.

●● ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع قوله مثل نوره ويهدى الله لنوره قولك زيد كرم وجود، ثم

---

(١) لم أعثر على أصله.

(٢) الحديث رواه الثعلبى، من طريق مقاتل.

(٣) سورة «النور» الآيات (٢)، (١٢)، (١٦)، (١٧).

تقول ينعش الناس بكرمه وجوده، والمعنى ذو نور السموات ونور السموات والأرض الحق شبهه بالنور فى ظهوره وبيانه كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[1] أى: من الباطل إلى الحق، وأضاف النور إليهما للدلالة على سعة إشراقه وفشو إضاءته حتى تضىء له السموات والأرض، وجاز أن المراد أهل السموات والأرض وأنهم يستضيئون به ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أى: صفة نوره العجيبة الشأن فى الإضاءة ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ كصفة مشكاة وهى الكوة فى الجدار غير النافذة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أى: سراج ضخم ثاقب ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ فى قنديل من زجاج شامى بكسر الزاى ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضى بضم الدال وتشديد الياء منسوب إلى الدر، لفرط ضيائه وصفائه، وبالكسر والهمزة عمرو وعلى كأنه يدرأ الظلام بضوئه، وبالضم والهمزة أبو بكر وحمزة شبه فى زهرته بأحد الكواكب الدرارى كالمشترى والزهرة ونحوهما ﴿يُوقَدُ﴾ ـ توقد ـ بالتخفيف حمزة وعلى وأبو بكر الزجاجة، ويوقد بالتخفيف شامى ونافع وحفص، وتوقد بالتشديد مكى وبصرى أى هذا المصباح ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أى: ابتدأ ثقوبه من زيت شجرة الزيتون، يعنى رويت ذبالته[2] بزيتها ﴿مُّبَارَكَةٍ﴾ كثيرة المنافع، أو لأنها نبتت فى الأرض التى بورك فيها للعالمين، وقيل: بارك فيها سبعون نبياً منهم إبراهيم -عليه السلام- ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من شجرة نعتها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أى: منبتها الشام، يعنى: ليست من المشرق ولامن المغرب بل فى الوسط منهما وهو الشام وأجود الزيتون زيتون الشام، وقيل: ليست مما تطلع عليه الشمس فى وقت شروقها، أو غروبها فقط بل يصيبها بالغداة والعشى جميعا فهى شرقية وغربية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ دهنها ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وصف الزيت بالصفاء والوميض وأنه لتلألئه يكاد يضىء من غير نار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أى هذا النور الذى شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوى النور؛ وهذا لأن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فإن الضوء ينتشر فيه، والقنديل أعون شىء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه وضرب المثل يكون بدنىء محسوس معهود لا يعلى غير معاين ولا مشهود فأبو تمام[3] لما قال فى المأمون[4]:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٥٧).

(٢) الذُّبالةُ: الفتيلة التى تُسرج.

(المعجم الوسيط ١/ ٣٠٩).

(٣) هو الشاعر الكبير، حبيب بن أوس بن الحارث، الطائى، أبو تمام، الأديب، أحد أمراء البيان فى العصر العباسى، وعلى مدى العصور، ولد فى حوران عام ١٨٨هـ، وتوفى فى الموصل عام ٢٣١هـ. الأعلام (٢/ ١٦٥).

(٤) هو الخليفة المأمون، من خلفاء بنى العباس، سبق ترجمته عند تفسير الآية (٨٤) من سورة «مريم».

قيل له إن الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلا:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

●● ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ أى: لهذا النور الثاقب ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده أى: يوفق لإصابة الحق من يشاء من عباده بإلهام من الله، أو بنظره فى الدليل ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريباً إلى أفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيبين كل شىء بما يمكن أن يعلم به، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ: مثل نوره أى نور الله الذى هدى به المؤمن، وقرأ ابن مسعود- رحمه الله- مثل نوره فى قلب المؤمن كمشكاة، وقرأ أبىّ مثل نور المؤمن.

●● ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ يتعلق بمشكاة أى: كمشكاة فى بعض بيوت الله، وهى المساجد؛ كأنه قيل مثل نوره كما يرى فى المسجد نور المشكاة التى من صفتها كيت وكيت، أو بتوقد أى توقد فى بيوت، أو بيسبح أى يسبح له رجال فى بيوت، وفيها تكرير فيه توكيد نحو زيد فى الدار جالس فيها أو بمحذوف أى: سبحوا فى بيوت ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ أى: أمر ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ تبنى كقوله: ﴿بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[(١)] ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾[(٢)] أو تعظم من الرفعة، وعن الحسن: ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يتلى فيها كتابه أو هو عام فى كل ذكر ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ أى: يصلى له فيها بالغداة صلاة الفجر، وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين، وإنما وحد الغدو؛ لأن صلاته صلاة واحدة، وفى الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل، وهو العشى.

●● ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل يسبح، يسبح شامى وأبو بكر ويسند إلى أحد الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو، ورجال مرفوع بمادل عليه يسبح أى: يسبح له ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ﴾ لاتشغلهم ﴿تِجَارَةٌ﴾ فى السفر ﴿وَلا بَيْعٌ﴾ فى الحضر، وقيل: التجارة الشراء إطلاقا لاسم الجنس على النوع، أو خص البيع بعد ماعم، لأنه أوغل فى الإلهاء من الشراء؛ لأن الربح فى البيعة الرابحة متيقن وفى الشراء مظنون ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ باللسان والقلب ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ﴾ أى: وعن إقامة الصلاة، التاْء فى إقامة عوض من العين الساقطة للإعلال، والأصل إقوام فلما قلبت الواو ألفاً اجتمع ألفان فحذفت إحداهما، لالتقاء الساكنين فأدخلت التاء عوضاً عن المحذوف، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام التاء فأسقطت

---

(١) سورة «النازعات»، الآيتان (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (١٢٧).

﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أى: وعن إيتاء الزكاة والمعنى لاتجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك: وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها غير متثاقلين كأولياء العشرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أى: يوم القيامة، ويخافون حال من الضمير فى تلهيهم، أوصفة أخرى لرجال ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ ببلوغها إلى الحناجر ﴿وَالأَبْصَارُ﴾ بالشخوص والزرقة[1]، أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران والأبصار إلى العيان بعد إنكاره للطغيان كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

●● ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أى: يسبحون ويخافون؛ ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم، أى: ليجزيهم ثوابهم مضاعفا، ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلا ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل فى حساب الخلق، هذه صفات المهتدين بنور الله، فأما الذين ضلوا عنه فالمذكورون فى قوله.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ﴾ هو ما يرى فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب على وجه الأرض؛ كأنه ماء يجرى ﴿بِقِيعَةٍ﴾ بقاع، أو جمع قاع وهو المنبسط المستوى من الأرض كجيرة فى جار ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ﴾ يظنه العطشان ﴿مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ أى: جاء إلى ما توهم أنه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ كما ظنه ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ﴾ أى: جزاء الله كقوله: ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3] أى: يجد مغفرته ورحمته ﴿عِندَهُ﴾ عند الكافر ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أى: أعطاه جزاء عمله وافيا كاملا، وحد بعد تقدم الجمع حملا على كل واحد من الكفار ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه لايحتاج إلى عد وعقد ولا يشغله حساب عن حساب، أو قريب حسابه، لأن ما هو آت قريب شبه ما يعمله من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق من الأعمال الصالحة التى يحسبها تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه، ثم يخيب فى العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة[4]، وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى

---

(١) الشخوص: هو فتح العينين وعدم الطرف بها للتأمل أو الانزعاج، والزرقة: انقلاب العين وظهور بياضها.
(المعجم الوسيط ١/ ٤٧٥).
(٢) سورة «ق»، الآية (٢٢).
(٣) سورة «النساء» الآية (١١٠).
(٤) الساهرة: هى الأرض سريعة النبات، كأنها سهرت بالنبات. ومنها الساهرة التى يحشر الناس عليها.
(المعجم الوسيط ١/ ٤٥٨).

جهنم فيسقونه الحميم والغساق، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[1]. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2] قيل: نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية[3]، كان يترهب ملتمسا للدين فى الجاهلية فلما جاء الإسلام كفر.

●● ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ﴾ أو هنا كأو فى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾[4] ﴿لُّجِّيٍّ﴾ عميق كثير الماء منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر ﴿يَغْشَاهُ﴾ يغشى البحر أومن فيه أى: يعلوه ويغطيه ﴿مَوْجٌ﴾ هو ما ارتفع من الماء ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أى: من فوق الموج موج آخر ﴿مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ من فوق الموج الأعلى سحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ أى: هذه ظلمات ظلمة السحاب، وظلمة الموج، وظلمة البحر ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على الموج، وظلمة السحاب على الموج ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ﴾ أى: الواقع فيه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ مبالغة فى لم يرها أى: لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها، شبه أعمالهم أولا ـ فى فوات نفعها وحضور ضررها ـ بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئاً، ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، وشبهها ثانيا فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفى خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر، والأمواج، والسحاب ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ من لم يهده الله لم يهتد عن الزجاج فى الحديث: «خلق الله الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»[5].

●● ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان فى الإيقان ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ﴾ عطف على من ﴿صَافَّاتٍ﴾ حال من الطير، أى: يصففن أجنحتهن فى الهواء ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ الضمير فى علم لكل، أو لله وكذا فى صلاته وتسبيحه والصلاة الدعاء ولم يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لايعزب عن علمه شىء.

●● ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه خالقهما ومن ملك شيئا فبتمليكه إياه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الكل.

---

(١) سورة «الغاشية»، الآية (٣).

(٢) سورة «الكهف»، الآية (١٠٤).

(٣) هو: عتبة بن ربيعة بن أمية، أحد سادات قريش وكبرائها فى الجاهلية، وهو الذى أنهى حرب الفجار، أدرك الإسلام ولم يسلم؛ بل عاند وعادى دعوة الإسلام، قتل فى غزوة بدر الكبرى عام ٢هـ. الأعلام (٤/ ٢٠٠)

(٤) سورة «البقرة»، الآية (١٩).

(٥) الحديث فى كنز العمال، برقم (١/ ٥٨٤، و١٣١٤).

•• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي﴾ يسوق إلى حيث يريد ﴿سَحَابًا﴾ جمع سحابة دليله ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ وتذكيره للفظ أى: يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكما بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال فى جَبل ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ وينزل مكى ومدنى وبصرى ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ لابتداء الغاية؛ لأن ابتداء الإنزال من السماء ﴿مِن جِبَالٍ﴾ من للتبعيض؛ لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التى ﴿فِيهَا﴾ فى السماء ﴿مِن بَرَدٍ﴾ للبيان أو الأوليان للابتداء والآخرة للتبعيض، ومعناه: أنه ينزل البرد من السماء من جبال فيها، وعلى الأول مفعول ينزل من جبال أى بعض جبال فيها، ومعنى من جبال فيها من برد أن يخلق الله فى السماء جبال برد كما خلق فى الأرض جبال حجر، أو يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبالا من ذهب ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ بالبرد ﴿مَن يَشَاءُ﴾ أى: يصيب الإنسان وزرعه ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ فلا يصيبه، أو يعذب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوئه ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ يخطفها به يذهب يزيد على زيادة الباء.

•• ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يصرفهما فى الاختلاف طولا وقصرا والتعاقب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فى إزجاء السحاب، وإنزال الودق والبرد، وتقليب الليل والنهار ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لذوى العقول وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسبيح من فى السماوات والأرض، وما يطير بينهما، ودعاءهم له وتسخير السحاب، إلى آخر ما ذكر، فهى براهين لائحة على وجوده ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر، ثم بين دليلا آخر فقال تعالى.

•• ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ﴾خالق كل حمزة وعلى ﴿دَابَّةٍ﴾ كل حيوان يدب على وجه الأرض ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ أى: من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، أو من ماء مخصوص، وهو النطفة، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها أناسى، وهو كقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾(١) وهذا دليل على أن لها خالقا ومدبرا وإلا لم تختلف؛ لاتفاق الأصل، وإنما عرف الماء فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(٢) لأن المقصود، ثم أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وأنه هو الأصل وإن تخللت بينه وبينها وسائط. قالوا: إن أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين فخلق من النار الجن ومن الريح الملائكة ومن الطين آدم ودواب الأرض، ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون فمن ثم قيل ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية والحوت، وسمى الزحف على البطن مشيا استعارة كما يقال فى الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر، أو على طرائق المشاكلة لذكر الزاحف

(١) سورة «الرعد»، الآية (٤).

(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٣٠).

مع الماشين ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم، وقدم ماهو أعرق فى القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو غيرها، ثم الماشى على رجلين، ثم الماشى على أربع ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ كيف يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لايتعذر عليه شىء.

●● ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بلطفه ومشيئته ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى دين الإسلام الذى يوصل إلى جنته والآيات لإلزام حجتة لما ذكر إنزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس إلى ثلاث فرق، فرقة صدقت ظاهراً وكذبت باطناً وهم المنافقون، وفرقة صدقت ظاهراً وباطناً وهم المخلصون، وفرقة كذبت ظاهراً وباطناً وهم الكافرون. على هذا الترتيب وبدأ بالمنافقين فقال:

●● ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ بألسنتهم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ الله والرسول ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أى: من بعد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المخلصين وهو إشارة إلى القائلين آمنا وأطعنا لا إلى الفريق المتولى وحده، وفيه إعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان؛ لاعتقادهم مايعتقد هؤلاء والإعراض، وإن كان من بعضهم فالرضا بالإعراض من كلهم.

●● ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى: إلى رسول الله كقولك أعجبنى زيد وكرمه، تريد كرم زيد ﴿لِيَحْكُمَ﴾ الرسول ﴿بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أى: فاجأ من فريق منهم الإعراض، نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض، فجعل اليهودى يجره إلى رسول الله (ﷺ) والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ويقول إن محمداً يحيف علينا.

●● ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ أى إذا كان الحق لهم على غيرهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ إلى الرسول ﴿مُذْعِنِينَ﴾ حال، أى: مسرعين فى الطاعة طلباً لحقهم لارضاً بحكم رسولهم، قال الزجاج الإذعان الإسراع مع الطاعة، والمعنى أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحق المر والعدل البحت يمتنعون عن المحاكمة إليك إذا ركبهم الحق؛ لئلا تنتزعه من أحداقهم بقضائك عليهم لخصومهم، وإن ثبت لهم حق علىْ خصم أسرعوا إليك ولم يرضوا إلا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجبْ لهم فى ذمة الخصم.

●● ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ قسم الأمر فى صدودهم عن حكومته إذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين فى أمر نبوته أو خائفين الحيف فى قضائه، ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم

وذلك شيء لايستطيعونه فى مجلس رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام- فمن ثم يأبون المحاكمة إليه.

•• ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعن الحسن قول بالرفع والنصب أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف، وأن يقولوا أوغل بخلاف قول المؤمنين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ النبى- عليه الصلاة والسلام- ليحكم أى: ليفعل الحكم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بحكم الله الذى أنزل عليه ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ قوله ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمره ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون.

•• ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ فى فرائضه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ فى سننه ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما مضى من نوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وعن بعض الملوك أنه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية، وهى جامعة لأسباب الفوز، ويتقه بسكون الهاء أبو عمرو وأبو بكر بنية الوقف، وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة حفص وبكسر القاف والهاء غيرهم.

•• ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى: حلف المنافقون بالله جهد اليمين؛ لأنهم بذلوا فيها مجهودهم، وجهد يمينه مستعار من جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها، وذلك إذا بالغ فى اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها [(١)] وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :من قال بالله فقد جهد يمينه، وأصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهدا، فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافا إلى المفعول كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[(٢)] وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال جاهدين أيمانهم ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أى: لئن أمرنا محمد بالخروج إلى الغزو لغزونا، أو بالخروج من ديارنا لخرجنا ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لاتحلفوا كاذبين؛ لأنه معصية ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أي الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لايشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين: لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم ما فى ضمائركم ولا يخفى عليه شيء من سرائركم، وإنه فاضحكم لامحالة ومجازيكم على نفاقكم.

•• ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ يريد فإن تتولوا فما ضررتموه، وإنما ضررتم أنفسكم، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء

---

(١) الوكادة: السير، يستخدم فى الشد، والجمع «وكائد».
القاموس (١/ ٣٤٦).
(٢) سورة «محمد»، الآية (٤).

الرسالة فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقي بالقبول والإذعان فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: وإن أطعتموه فيما يأمركم وينهاكم فقد أحرزتم نصيبكم من الهدى؛ فالضرر فى توليكم والنفع عائدان إليكم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ وما على الرسول إلا أن يبلغ ما له نفع فى قلوبكم ولا عليه ضرر فى توليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ كالأداء بمعنى التأدية، والمبين الظاهر لكونه مقرونا بالآيات والمعجزات ثم ذكر المخلصين فقال.

●● ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخطاب للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولمن معه، ومنكم للبيان، وقيل: المراد به المهاجرون ومن للتبعيض ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي: أرض الكفار وقيل: أرض المدينة والصحيح أنه عام لقوله ـ عليه الصلاة والسلام- :«ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل». ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ استخلف أبو بكر ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ وليبدلنهم بالتخفيف مكى وأبو بكر ﴿مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وعدهم الله أن ينصر الإسلام على الكفر، ويورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببنى إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة، وأن يمكن الدين المرتض-، وهو دين الإسلام -وتمكينه تثبيته وتعضيده، وأن يؤمن سربهم، ويزيل عنهم الخوف الذى كانوا عليه، وذلك أن رسول الله (ﷺ) وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا تغبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة»(١) فأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الأكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا، والقسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم محذوف تقديره وعدهم الله، وأقسم ليستخلفنهم، أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم، كأنه قيل أقسم الله ليستخلفنهم ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ إن جعلته استئنافا فلا محل له، كأنه قيل مالهم يستخلفون ويؤمنون، فقال: يعبدوننى موحدين ويجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى، وإن جعلته حالا عن وعدهم أى: وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم فمحله النصب ﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حال من فاعل يعبدون أى يعبدوننى موحدين ويجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أى: بعد الوعد، والمراد كفران النعمة كقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾(٢) ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هم الكاملون فى فسقهم حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة وجسروا على غمطها، قالوا أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان ـ رضى الله عنه ـ فاقتتلوا بعدما

---

(١) انظر الحديث مع القصة فى تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٠، ٢٩١) وفيه: «ليست فيه حديدة».
(٢) سورة «النحل»، الآية (١١٢).

كانوا إخوانا وزال عنهم الخوف، والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ أجمعين ـ لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم.

●● ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ معطوف على أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولايضر الفصل وإن طال ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يدعوكم إليه وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى: لكى ترحموا فإنها من مستجلبات الرحمة، ثم ذكر الكافرين فقال.

●● ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أى: فائتين الله بأن لا يقدر عليهم فيها فالتاء خطاب للنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو الفاعل والمفعولان الذين كفروا ومعجزين وبالياء شامى وحمزة، والفاعل النبى (ﷺ) لتقدم ذكره، والمفعولان الذين كفروا ومعجزين ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ معطوف على لا تحسبن الذين كفروا معجزين كأنه، قيل: الذين كفروا لايفوتون الله ومأواهم النار ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: المرجع النار.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أمر بأن يستأذن العبيد والإماء ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أى: الأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار وقرئ بسكون اللام تخفيفا ﴿ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾ فى اليوم والليلة وهى ﴿مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ وهى نصف النهار فى القيظ؛ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ أى: هى أوقات ثلاث عورات فحذف المبتدأ والمضاف. وبالنصب كوفى غير حفص بدلا من ثلاث مرات أى: أوقات ثلاث عورات، وسمى كل واحد من هذه الأحوال عورة؛ لأن الإنسان يختل تستره فيها، والعورة: الخلل ومنها الأعور المختل العين. دخل غلام من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر ـ رضى الله عنه ـ وقت الظهيرة وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ: وددت أن الله نهى عن الدخول فى هذه الساعات إلا بالإذن، فانطلق إلى النبى (ﷺ) وقد نزلت عليه الآية[1] ثم عذرهم فى ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أى: لا إثم عليكم ولا على المذكورين فى الدخول بغير استئذان بعدهن، ثم بين العلة فى ترك الاستئذان فى هذه الأوقات بقوله ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ أى: هم طوافون بحوائج البيت ﴿بَعْضُكُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ تقديره بعضكم طائف على بعض، فحذف طائف لدلالة طوافون عليه، ويجوز أن تكون

---

(١) نقله الثعلبى والواحدى والبغوى عن ابن عباس بغير سند كما قال ابن حجر.

الجملة بدلا من التى قبلها وأن تكون مبينة مؤكدة، يعنى أن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوع فى الشرع بالنص ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ أى: كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من الآيات التى احتجتم إلى بيانها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده﴿حَكِيمٌ﴾ فى بيان مراده.

●● ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ﴾ أى: الأحرار دون المماليك ﴿الْحُلُمَ﴾ أى: الاحتلام أى إذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ فى جميع الأوقات ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال، أو الذين ذكروا من قبلهم فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾[(١)] الآية، والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم بلغوا بالاحتلام، أو بالسن وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن والناس عن هذا غافلون، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ثلاث آيات جحدهن الناس الإذن كله وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(٢)] ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾[(٣)] وعن سعيد بن جبير يقولون هى منسوخة والله ما هى بمنسوخة وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح الأنام ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يبين من الأحكام.

●● ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ جمع قاعد لأنها من الصفات المختصة بالنساء كالطالق والحائض أى اللاتى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ حال﴿اللاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه وهي فى محل الرفع صفة للمبتدأ، وهى القواعد والخبر﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ إثم، ودخلت الفاء لما فى المبتدأ من معنى الشرط بسبب الألف واللام﴿أَن يَضَعْنَ﴾ في أن يضعن﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ أى :الظاهرة كالملحفة والجلبات الذى فوق الخمار﴿غَيْرَ﴾ حال﴿مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي :غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق، ونحو ذلك أى: لا يقصدن بوضعها التبرج ولكن التخفيف، وحقيقة التبرج: تكلف وإظهار ما يجب إخفاؤه ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أى: يطلبن العفة عن وضع الثياب فيسترن وهو مبتدأ خبره﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يعلنّ ﴿عَلِيمٌ﴾بما يقصدن.

●● ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ قال سعيد بن

---

(١) سورة «النور»، الآية (٢٧).

(٢) سورة «الحجرات»، الآية (١٣).

(٣) سورة «النساء»، الآية (٨).

المسيب[1] :كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو مع النبى (ﷺ) وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والمريض والأعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون : نخشى أن لاتكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت الآية رخصة لهم ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أى حرج ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أى : بيوت أولادكم، لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ولذا لم يذكر الأولاد فى الآية، وقد قال- عليه الصلاة والسلام ـ :«أنت ومالك لأبيك» [2] أو بيوت أزواجكم، لأن الزوجين صارا كنفس واحدة فصار بيت المرأة كبيت الزوج ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ جمع مفتح وهو ما يفتح به الغلق، قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ: هو وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته له أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته، وأريد بملك المفاتح كونها فى يده وحفظه، وقيل: أريد به بيت عبده؛ لأن العبد وما فى يده لمولاه ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعنى أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا : وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك، وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ماشاء فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك، فأما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ متفرقين جمع شت، نزلت فى بنى ليث بن عمرو،[3] وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل فإن لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة، أو فى قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم، أو تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل وزيادة بعضهم على بعض ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت لتأكلوا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أى فابدءوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة، أو بيوتا فارغة، أو مسجدا فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴿تَحِيَّةً﴾ نصب بسلموا لأنها فى معنى تسليما نحو قعدت جلوسا ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى: ثابتة بأمره مشروعة من لدنه، أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والمحيا من عند الله ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصفها

---

(١) هو سيدُ التابعين؛ سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب، القرشى، المخزومى، روى عن أبى بكر مرسلاً، وعن عمر، وعثمان، وعلى، وغيرهم من كبار الصحابة، وكان زوج ابنة أبى هريرة، وهو ثقة ثبت حجة فى كل ما يرويه، وتلقى جميع العلماء مرسلاته بالقبول، مناقبه كثيرة، توفى عام ٩٣هـ، وهو ابن ٨٠عاماً.

تهذيب التهذيب (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٨).

(٢) الحديث رواه أبو داود، وابن ماجة، وفيه الحجاج بن أرطأة؛ وهو مدلس.

(٣) بنو ليث بن عمرو: بطن من بطون العرب، من كنانة.

بالبركة والطيب؛ لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكى تعقلوا وتفهموا.

●● ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أى : الذى يجمع له الناس نحو الجهاد والتدبير فى الحرب وكل اجتماع فى الله حتى الجمعة والعيدين ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أى : ويأذن لهم، ولما أراد الله عزوجل أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله (ﷺ) بغير إذنه إذا كانوا معه على أمر جامع، جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الإيمان بالله والإيمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بإنما وإيقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول أحاطت صلته بذكر الإيمانين، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر، وهو قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وضمنه شيئا آخر، وهو أنه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الإيمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذاً (١) ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ﴾ فى الانصراف ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أمرهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه رفع شأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أن الأفضل أن لا يستأذن ، قالوا : وينبغى أن يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولايتفرقون عنهم إلا بإذن، قيل: نزلت يوم الخندق كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان.

●● ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أى : إذا احتاج رسول الله (ﷺ) إلى اجتماعكم عنده لأمر فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعى، أو لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا ويناديه باسمه الذى سماه به أبواه فلا تقولوا: يا محمد، ولكن يانبى الله يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ يخرجون قليلا قليلا ﴿مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ حال أى: ملاوذين، اللواذ والملاوذة هو أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا أى ينسلون عن الجماعة فى الخفية على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أى : الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون. يقال: خالفه إلى الأمر إذا ذهب إليه دونه ومنه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(٢) وخالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه والضمير فى أمره لله سبحانه أو للرسول- عليه الصلاة والسلام- والمعنى عن طاعته ودينه ومفعول يحذر ﴿أَن

---

(١) لواذاً؛ أى: يلوذ بعضهم ببعض،أو يستتر بعضهم ببعض فى الخروج. «كلمات القرآن، حسنين محمد مخلوف :(القاهرة : دار الفكر)ص ٢٠٧.

(٢) سورة «هود»، الآية (٨٨).

﴿تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة فى الدنيا، أو قتل أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو قسوة القلب عن معرفة الرب أو إسباغ النعم استدراجا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب.

•• ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ألا تنبيه على أن لا يخالفوا أمر من له ما فى السماوات والأرض ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أدخل قد ليؤكد علمه بماهم عليه من المخالفة عن الدين، ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد، والمعنى، أن جميع ما فى السماوات والأرض مختص به خلقا وملكا وعلما فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن كانوا يجهدون فى سترها ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وبفتح الياء وكسر الجيم يعقوب أى ويعلم يوم يردون إلى جزائه، وهو يوم القيامة والخطاب والغيبة فى قوله : قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه، يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه، يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بما أبطنوا من سوء أعمالهم ويجازيهم حق جزائهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه خافية، وروى أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما - قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت، والله أعلم.

(سورة الفرقان مكية، وهى سبع وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة وهى كثرة الخير وزيادته، ومعنى تبارك الله : تزايد خيره وتكاثر، أو تزايد عن كل شىء وتعالى عنه فى صفاته وأفعاله، وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله وحده، والمستعمل منه الماضى فحسب ﴿الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ هو مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما، وسمى به القرآن؛ لفصله بين الحق والباطل والحلال والحرام، أو لأنه لم ينزل جملة ولكن مفرقا مفصولا بين بعضه وبعض فى الإنزال؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾(1) ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد، أو الفرقان ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس، وعموم الرسالة من خصائصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿نَذِيرًا﴾ منذرًا أى : مخوفا، أو إنذارا كالنكير بمعنى الإنكار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾(2).

●● ﴿الَّذِي﴾ رفع على أنه خبر مبتدإ محذوف، أو على الإبدال من الذى نزل، وجوز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله : ليكون؛ لأن المبدل منه صلته نزل، «وليكون» تعليل له، فكأن المبدل منه لم يتم إلا به، أو نصب على المدح ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ على الخلوص ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ﴾ كما زعمت الثنوية (3) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى أحدث كل شىء وحده لا كما يقوله المجوس والثنوية من النور والظلمة ويزدان وآهرمن (4) ،ولا شبهة فيه لمن يقول : إن الله شىء ويقول بخلق القرآن؛ لأن الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعولا له، على أن لفظ شىء اختص بما يصح أن يخلق بقرينة وخلق، وهذا أوضح دليل لنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه، كما أنه خلق الإنسان على هذا الشكل الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى الدين والدنيا، أو قدره للبقاء إلى أمد معلوم.

●● ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ الضمير للكافرين؛ لاندراجهم تحت العالمين، أو لدلالة «نذيرا» عليهم؛ لأنهم المنذرون ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أى الأصنام ﴿لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى : أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لايقدرون على خلق شىء وهم يُخلقون

---

(1) سورة «الإسراء»، الآية (106).

(2) سورة «القمر»، الآيات (16)، (18)، (21)، (30).

(3) الثنوية: انظر التعريف بهم عند تفسير أول سورة «الأنعام».

(4) يزداد وأهرمن: الأولى إله النور، والثانى إله الظلام.

﴿وَلا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ إماتة ﴿وَلا حَيَاةً﴾ أى : إحياء ﴿وَلا نُشُورًا﴾ إحياء بعد الموت، وجعلها كالعقلاء؛ لزعم عابديها.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلاَّ إِفْكٌ﴾ كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أى : اليهود وعداس[1] ويسار، وأبو فكيهة الرومى، قاله النضر بن الحارث ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا إخبار من الله ردًا للكفرة؛ فيرجع الضمير إلى الكفار، وجاء يستعمل فى معنى فعل فيعدى تعديتها، أو حذف الجار أوصل الفعل، أى : بظلم وزور، وظلمهم: أن جعلوا العربى يتلقن من العجمى الرومى كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب، والزور: أن بهتوه بنسبة ما هو برىء منه إليه.

●● ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أى : هو أحاديث المتقدمين وما سطروه كرستم وغيره جمع أسطار وأسطورة كأحدوثة ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى : تلقى عليه من كتابه ﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿وَأَصِيلاً﴾ آخره فيحفظ ما يملى عليه، ثم يتلوه علينا.

●● ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنزَلَهُ﴾ أى : القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى يعلم كل سر خفى فى السماوات والأرض، يعنى : أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التى يستحيل عادة أن يعلمها محمد - عليه الصلاة والسلام - من غير تعليم، دل ذلك على أنه من عند علام الغيوب ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، وإن استوجبوها بمكابرتهم.

●● ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ﴾ وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء، وخط المصحف سنة لا تغير، وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم، كأنهم قالوا : أى : شىء لهذا الزاعم أنه رسول ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ حال، والعامل فيها هذا ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أى : إن صح أنه رسول الله فمابالة يأكل الطعام كما نأكل ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد، يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش، ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح إلى أن يكون إنسانا معه ملك حتى يتساندا فى الإنذار والتخويف، ثم نزلوا إلى أن يكون مرفوداً بكنز يلقى إليه من السماء يستظهر به، ولا يحتاج إلى تحصيل المعاش، ثم نزلوا إلى أن يكون رجلا له بستان يأكل هو منه كالمياسير، أو نأكل نحن كقراءة على وحمزة. وحسن عطف المضارع وهو يلقى وتكون- على أنزل- وهو ماض- لدخول المضارع وهو فيكون بينهما، وانتصب فيكون على القراءة المشهورة؛ لأنه جواب لولا بمعنى هلا،

---

(١) عداس؛ غلام عتبة بن ربيعة، وهو الذى التقى مع النبى(ﷺ) حين صدَّه أهل الطائف وجلس تحت شجرة، فكلمه عداس، وتأثر بكلامه، وأهداه قطفاً من العنب.

أما يسار، وأبو فكيهة الرومى؛ فلم أعثر لهما على ترجمة.

وحكمه حكم الاستفهام، وأراد بالظالمين فى قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ إياهم بأعيانهم غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا، وهم كفار قريش ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ سحر فجن، أو ذا سحر وهو الرئية، عنوا أنه بشر لا ملك.

●● ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا﴾ بينوا ﴿لَكَ الأَمْثَالَ﴾ الأشباه، أى : قالوا فيك تلك الأقوال واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال من المفترى والمملى عليه والمسحور ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فلا يجدون طريقا إليه.

●● ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ أى : تكاثر خير الذى إن شاء وهب لك فى الدنيا خيرا مما قالوا، وهو أن يعجل لك مثل ماوعدك فى الآخرة من الجنات والقصور، وجنات بدل من خيرا، ويجعل بالرفع مكى وشامى وأبو بكر؛ لأن الشرط إذا وقع ماضيا جاز فى جزائه الجزم والرفع.

●● ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ عطف على ما حكى عنهم، يقول : بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالساعة، أو متصل بما يليه، كأنه قال : بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وهم لا يؤمنون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وهيأنا للمكذبين بها نارا شديدة فى الاستعار.

●● ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أى : النار أى قابلتهم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أى إذا كانت منهم بمرأى الناظرين فى البعد ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أى : سمعوا صوت غليانها، وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر، أو إذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على الكفار.

●● ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ من النار ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ضيقًا مكى فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة؛ ولذا وصفت الجنة بأن عرضها السماوات والأرض وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: أنه يضيق عليهم كما يضيق الزج [1] فى الرمح ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أى : وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرّنون فى السلاسل، قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال، أو يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الأصفاد ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ حينئذ ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكا أى قالوا:«واثبوراه»، أى تعال ياثبور فهذا حينك فيقال لهم.

●● ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أى : إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا إنما هو ثبور كثير.

---

(١) الزُّجُّ: الحديدة فى أسفل الرمح.
القاموس (١/ ١٩١).

●● ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى : المذكور من صفة النار خير ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى : وعدها فالراجع إلى الموصول محذوف وإنما قال أذلك خير، ولا خير فى النار توبيخا للكفار ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ ثوابا ﴿وَمَصِيراً﴾ مرجعا، وإنما قيل كانت؛ لأن ما وعد الله كأنه كان؛ لتحققه. أو كان ذلك مكتوبا فى اللوح قبل أن أخلقهم.

●● ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أى : ما يشاؤونه ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من الضمير فى يشاؤون والضمير فى ﴿كَانَ﴾ لما يشاؤون ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ أى : موعوداً ﴿مَّسْئُولاً﴾ مطلوباً أو حقيقا أن يُسْأل أو قد سأله المؤمنون والملائكة فى دعواتهم ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[1] ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[2] ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم﴾[3].

●● ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ - ويوم نحشرهم - للبعث عند الجمهور وبالياء مكى ويزيد ويعقوب وحفص ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير، وعن الكلبى يعنى الأصنام ينطقها الله، وقيل: عام و«ما» يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنه قيل ومعبوديهم ﴿فَيَقُولُ﴾ وبالنون شامى ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ والقياس ضلوا عن السبيل، إلا أنهم تركوا الجار كما تركوه فى هداه الطريق، والأصل إلى الطريق، أو للطريق وضل مطاوع أضله، والمعنى : أأنتم أوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق بإدخال الشبه أم هم ضلوا عنه بأنفسهم، وإنما لم يقل أأضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل وزيد أنتم، وهم؛ لأن السؤال ليس عن الفعل ووجوده، لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوليه فلابد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام ليعلم أنه المسئول عنه، وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسئول عنه أن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فتزيد حسرتهم.

●● ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تعجب منهم مما قيل لهم وقصدوا به تنزيهه عن الأنداد وأن يكون له نبى أو ملك أو غيرهما ندا، ثم قالوا : ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى : ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتولى أحدا دونك فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك. نُتخذ يزيد واتخذ يتعدى إلى مفعول واحد نحو اتخذ وليا، وإلى مفعولين نحو اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ﴾[4]. وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[5] فالقراءة الأولى

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٩٤).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٢٠١).

(٣) سورة «غافر»، الآية (٨).

(٤) سورة «الأنبياء»، الآية (٢١).

(٥) سورة «النساء»، الآية (١٢٥).

من المتعدى لواحد وهو من أولياء والأصل: أن تتخذ أولياء وزيدت «من» لتأكيد معنى النفى، والقراءة الثانية من المتعدى إلى المفعولين، فالمفعول الأول ما بنى له الفعل، والثانى من أولياء ومن للتبعيض أى: لانتخذ بعض أولياء؛ لأن «من» لاتزاد فى المفعول الثانى بل فى الأول تقول: ما اتخذت من أحد وليا، ولا تقول ما اتخذت أحدا من ولى ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ بالأموال والأولاد وطول العمر والسلامة من العذاب ﴿حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أى: ذكر الله والإيمان به والقرآن والشرائع ﴿وَكَانُوا﴾ عند الله ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ أى هلكى جمع بائر كعائذ وعوذ، ثم يقال للكافر بطريق الخطاب عدولا عن الغيبة:

●● ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ وهذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونظيرها: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[1] وقول القائل:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بقولكم فيهم إنهم آلهة والباء على هذا كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾[2] والجار والمجرور بدل من الضمير، كأنه قيل فقد كذبوا بما تقولون، وعن قنبل بالياء ومعناه: كذبوكم بقولهم ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ والباء على هذا كقولك كتبت بالقلم ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ - فما يستطيعون - أى فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو ينصروكم. وبالتاء حفص أى: فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم ولا نصر أنفسكم، ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أى: يشرك لأن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم يؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3] ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ فسر بالخلود فى النار وهو يليق بالمشرك دون الفاسق إلا على قول المعتزلة والخوارج.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كسرت إن لأجل اللام فى الخبر، والجملة بعد إلا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أى من المرسلين ونحوه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[4] أى: ومامنا أحد، قيل: هو احتجاج على من قال: «ما لهذا الرسول يأكل

(١) سورة «المائدة»، الآية (١٩).
(٢) سورة «ق~»، الآية (٥).
(٣) سورة «لقمان»، الآية (١٣).
(٤) سورة «الصافات»، الآية (١٦٤).

الطعام ويمشي في الأسواق» وتسلية للنبي - عليه الصلاة والسلام - ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: محنة وابتلاء، وهذا تصبير لرسول الله (ﷺ) عما عيروه به من الفقر ومشيه في الأسواق يعني أنه جعل الأغنياء فتنة للفقراء فيغني من يشاء ويفقر من يشاء ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم، وحكى أن بعض الصالحين تَبَرَّمَ بضنك عيشه، فخرج ضجراً، فرأى خصياً في مواكب ومراكب فخطر بباله شيء، فإذا بمن يقرأ هذه الآية، فقال: بلى فصبرا ربنا. أو: جعلتك فتنة لهم؛ لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا، أو ممزوجة بالدنيا فإنما بعثناك فقيراً لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ عالماً بالصواب فيما يبتلى به، أو بمن يصبر ويجزع.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ﴾ لا يأملون ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخير لأنهم كفرة لا يؤمنون بالبعث، أو لايخافون عقابنا، إما لأن الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف، أو لأن الرجاء في لغة تهامة الخوف ﴿لَوْلا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ﴾ رسلا دون البشر، أو شهوداً على نبوته ودعوى رسالته ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ جهرة فيخبرنا برسالته واتباعه ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم ﴿وَعَتَوْا﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم ﴿عُتُوًّا كَبِيراً﴾ وصف العتو بالكبر فبالغ في إفراطه، أي: أنهم لم يجسروا على هذا القول العظيم إلا أنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو، واللام في لقد جواب قسم محذوف.

●● ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ أي: يوم الموت أو يوم البعث ويوم منصوب بما دل عليه ﴿لا بُشْرَىٰ﴾ أي: يوم يرون الملائكة، يمنعون البشرى وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مؤكد ليوم يرون، أو بإضمار اذكر أي اذكر يوم يرون الملائكة، ثم أخبر فقال. لا بشرى بالجنة يومئذ ولا ينتصب بيرون؛ لأن المضاف إليه لايعمل في المضاف ولا بشرى، لأنها مصدر والمصدر لايعمل فيما قبله، ولأن المنفى بلا لا يعمل فيما قبل لا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ظاهر في موضع ضمير أو عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكافرون، لأن مطلق الأسماء يتناول أكمل المسميات ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة ﴿حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ حراماً محرماً عليكم البشرى، أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنما البشرى للمؤمنين والحجر مصدر، والكسر والفتح لغتان وقرئ بهما وهو من حجره إذا منعه، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها ومحجوراً لتأكيد معنى الحجر كما قالوا موت مائت.

●● ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ هو صفة، ولا قدوم هنا ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف وقرى ضيف، ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه وعصاه فقدم إلى أشيائه وقصد إلى ما تحت يديه فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثراً، والهباء: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار والمنثور

المفرق، وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع. ثم بين فضل أهل الجنة على أهل النار فقال:

●● ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ تمييز، والمستقر المكان الذى يكونون فيه أكثر أوقاتهم يتجالسون ويتحادثون ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكانا يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم، ولا نوم فى الجنة، ولكنه سمى مكان استراحتهم إلى الحور مقيلا على طريق التشبيه. وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار وفى لفظ الأحسن تهكم بهم.

●● ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ والأصل تتشقق فحذف التاء كوفى وأبو عمرو. وغيرهم أدغمها فى الشين ﴿بِالْغَمَامِ﴾ لما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء كما تقول شققت السنام بالشفرة فانشق بها ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وننزل الملائكة مكى، وتنزيلا على هذا مصدر من غير لفظ الفعل، والمعنى أن السماء تنفتح بغمام أبيض يخرج منها، وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى أيديهم صحائف أعمال العباد.

●● ﴿الْمُلْكُ﴾ مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه ﴿الْحَقُّ﴾ نعته ومعناه الثابت؛ لأن كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى إلا ملكه ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ خبره ﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديداً يقال عسر عليه فهو عسير وعسر ويفهم منه يسره على المؤمنين ففى الحديث: «يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم أخف من صلاة مكتوبة صلوها فى الدنيا».

●● ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة، لأنه من روادفها فتذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به فى طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة مالا يجده عند لفظ المكنى عنه، واللام فى الظالم للعهد وأريد به عقبة[1] لما تبين، أو للجنس فيتناول عقبة وغيره من الكفار ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ﴾ فى الدنيا ﴿مَعَ الرَّسُولِ﴾ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً إلى النجاة والجنة وهو الإيمان.

●● ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾ وقرئ يا ويلتى بالياء. وهو الأصل؛ لأن الرجل ينادى ويلته وهى هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك، وإنما قلبت الياء ألفا كما فى صحارى ومدارى ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ فلان كناية عن الأعلام فإن أريد بالظالم عقبة لما روى أنه اتخذ ضيافة فدعا إليها رسول الله ـ عليه

(١) هو: عقبة بن أبى معيط، أبان بن ذكوان بن أمية بن عبدشمس، من رؤوس الكفر، كان شديد العداء للإسلام والمسلمين؛ بل ولشخص الرسول ﷺ، أسره المسلمون ـ يوم بدر ـ فقتلوه وصلبوه؛ فكان أول مصلوب فى الإسلام.
الأعلام (٤/ ٢٤٠).

الصلاة والسلام ـ فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل، فقال له أبيّ بن خلف [(١)] وهو خليله ـ : وجهى من وجهك حرام إلا أن ترجع فارتد، فالمعنى ياليتنى لم أتخذ أبيا خليلا فكنى عن اسمه، وإن أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لا محالة فجعل كناية عنه، وقيل: هو كناية عن الشيطان.

●● ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أى : عن ذكر الله أو القرآن أو الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ من الله ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ أى : خليله سماه شيطانا؛ لأنه أضله كما يضله الشيطان أو إبليس لأنه الذى حمله على مخالَّة المضل ومخالفة الرسول ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ المطيع له ﴿خَذُولًا﴾ هو مبالغة من الخذلان أى من عادة الشيطان ترك من يواليه وهذا حكاية كلام الله أو كلام الظالم.

●● ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ أى محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الدنيا ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشاً ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ متروكا أى : تركوه ولم يؤمنوا به من الهجران، وهو مفعول ثان لاتخذوا فى هذا تعظيم للشكاية وتخويف لقومه، لأن الأنبياء إذا شكوا إليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا، ثم أقبل عليه مسلياً ووعده النصرة عليهم فقال:

●● ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أى : كذلك كان كل نبى قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بى هادياً إلى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرا لك عليهم والعدو، يجوز أن يكون واحدا وجمعا والباء زائدة أى وكفى ربك هاديا وهو تمييز.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : قريش أو اليهود ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ حال من القرآن أى مجتمعا ﴿وَاحِدَةً﴾ يعنى هلا أنزل عليه دفعة واحدة فى وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل على التفاريق،وهو فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته؛ لأن زمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة، أو متفرقا، ونزل هنا بمعنى أنزل، وإلاَّ لكان متدافعا بدليل جملة واحدة، وهذا اعتراض فاسد؛ لأنهم تحدوا بالإتيان بسورة واحدة من أصغر السور فأبرزوا صفحة عجزهم[(٢)] حتى لاذوا بالمناصبة وفزعوا إلى المحاربة وبذلوا المهج وما مالوا إلى الحجج ﴿كَذَلِكَ﴾ جواب لهم أى كذلك أنزل مفرقا فى عشرين سنة، أو فى ثلاث وعشرين، وذلك فى كذلك إشارة إلى مدلول قوله: «لولا نُزِّل عليه القرآن جملة»؛ لأن معناه لم أنزل عليك القرآن

(١) هو: أبى بن خلف، من كبار زعماء قريش، بالغ فى تعذيب المسلمين، وخاصة؛ العبيد الذين كانوا عنده، ومنهم «بلال»، وقتله النبى ﷺ بيده الشريفة يوم أحد.

(٢) أبرز صفحة عجزه؛ أى: بدا عجزه واضحاً، لا يستطيع أن يخفيه.

مفرقا فاعلم أن ذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾ بتفريقه ﴿فُؤَادَكَ﴾ حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء وجزأ عقيب جزء ولو ألقى عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه، أو لتثبت به فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول؛ لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ معطوف على الفعل الذى تعلق به كذلك، كأنه قال : كذلك فرقناه ورتلناه أى قدرناه آية بعد آية ووقفة بعد وقفة، أو أمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[1] أى : اقراه بترسل وتثبت أو بيناه تبيينا، والترتيل التبيين فى ترسل وتثبت.

•• ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل فى البطلان ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ إلا أتيناك بالجواب الحق الذى لا محيد عنه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن معنى ومؤدى من مثلهم أى من سؤالهم، وإنما حذف من مثلهم؛ لأن فى الكلام دليلا عليه كما لو قلت رأيت زيدا وعمرا وإن عمراً أحسن وجها كان فيه دليل على أنك تريد من زيد، ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت، كما قيل معناه كذا وكذا، أو لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا أنزل عليك القرآن جملة؛ إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك فى حكمتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته، يعنى أن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل فى الإعجاز من أن ينزل كله جملة.

•• ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ﴾ الذين مبتدأ، وأولئك مبتدأ ثان، وشر خبر أولئك وأولئك مع شر خبر الذين، أو التقدير هم الذين، أو أعنى الذين وأولئك مستأنف ﴿مَّكَانًا﴾ أى : مكانة ومنزلة، أو مسكنا ومنزلا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أى : وأخطأ طريقا وهو من الإسناد المجازى، والمعنى إن حاملكم على هذه السؤالات أنكم تضلون سبيله وتحقرون مكانه ومنزلته، ولو نظرتم بعين الإنصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم لعلمتم أن مكانكم شر من مكانه، وسبيلكم أضل من سبيله وفى طريقته قوله : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[2] الآية وعن النبى (ﷺ) «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب، وصنف على أرجلهم، وصنف على وجوههم» قيل: يارسول الله كيف يمشون على وجوههم؟! فقال ـ عليه الصلاة والسلام: الذى أمشاكم على أقدامكم يمشيهم على وجوههم»[3].

•• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة كما آتيناك القرآن ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ﴾ بدل أو

---

(١) سورة «المزمل»، الآية (٤). (٢) سورة «المائدة»، الآية (٦٠).

(٣) الحديث عن البيهقى عن أبى هريرة؛ يرفعه.

عطف بيان ﴿وَزِيراً﴾ هو فى اللغة من يرجع إليه من الوزر، وهـو الملجأ والوزارة لا تنافى النبوة فقد كان يبعث فى الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يؤازر بعضهم بعضا.

●● ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إلى فرعون وقومه، وتقديـره فذهبا إليهم وأنذرا فكذبوهما ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ التدمير الإهلاك بأمر عجيب أراد اختصار القصة فذكر أولها وآخرها، لأنهما المقصود من القصة أعنى إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم.

●● ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أى: ودمرنا قوم نوح ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ يعنى : نوحا وإدريس وشيثا، أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم، أو ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ لقوم نوح وأصله وأعتدنا لهم إلا أنه أراد تظليمهم فأظهر، أو هو عام لكل من ظـلم ظلم شرك ويتناولهم بعمومه ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أى : النار.

●● ﴿وَعَاداً﴾ دمرنا عاداً ﴿وَثَمُودَ﴾ حمزة وحفص على تأويل القبـيلة. وغيرهما: وثمودا على تأويل الحى، أو لأنـه اسم الأب الأكبر ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ هم قوم شعيب كانـوا يعبدون الأصنام فكذبوا شعيبا فبيناهم حول الرس وهى البئر غير مطوية أنهارت بهم فخسف بهم وبديارهم، وقيل: الرس قرية قتلـوا نبيهم فهلكوا، أو هم أصـحاب الأخدود، والرس : الأخدود ﴿وَقُرُوناً﴾ وأهلكنا أمما ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَثِيراً﴾ لا يعلمها إلا الله أرسل إليهم فكذبوهم فأهلكوا.

●● ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ بينا له القصص العـجيبة من قصص الأولين ﴿وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ أى : أهلكنا إهلاكا، وكـلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمـثال، وهو أنذرنا، أو حذرنا والثانى بتبرنا، لأنه فارغ له.

●● ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعنى : أهل مـكة ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ سدوم وهى أعـظم قرى قوم لـوط وكانت خمسا أهلك الله أربعا مـع أهلها وبقيت واحدة ﴿الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أى : أمطر الله عليها الحجارة يعـنى أن قريشا مروا مـرارا كثيرة فى متاجـرهم إلى الشام على تـلك القرية التـى أهلكت بالحجارة من الـسماء، ومطر السوء مفعـول ثان، والأصل أمطرت القرية مطـرا، أو مصدر محذوف الزوائد أى إمطـار السوء ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أما شاهـدوا ذلك بأبصارهـم عند سفرهـم الشام فيتفكروا فيؤمنوا ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ بل كانوا قـوما كفرة بالبـعث لا يخافون بعـثا فلا يؤمنون، أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم فى الوصول إلى ثواب أعمالهم.

●● ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ إن نافية ﴿إِلاَّ هُزُواً﴾ اتخذه هزوا فى معنى استهزأ به، والأصل اتخذه موضع هزؤ أو مهزوءًا به ﴿أَهَذَا الَّذِي﴾ محكى بعد القول المضمر، وهذا استصغار واستهزاء أى: قائلين أهذا الذى ﴿ بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ والمحذوف حال، والعائد إلى الذى محذوف، أى بعثه.

●● ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أن مخففة من الثقيلة، واللام فارقة وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله (ﷺ) فى دعوتهم وعرض المعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ هو وعيد ودلالة على أنهم لا يفوتونه، وإن طالت مدة الأمهال ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وهو كالجواب عن قولهم إن كاد ليضلنا؛ لأنه نسبة لرسول الله (ﷺ) إلى الضلال إذ لايضل غيره إلا من هو ضال فى نفسه.

●● ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: من أطاع هواه فيما يأتى ويذر فهو عابد هواه وجاعله إلهه فيقول الله تعالى لرسوله هذا الذى لا يرى معبودا إلا هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى. يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأوّل وعبد الثانى، وعن الحسن هو فى كل متبع هواه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ أى: حفيظا تحفظه من متابعة هواه وعبادة مايهواه أفأنت تكون عليه موكلا فتصرفه عن الهوى إلى الهدى، عرفه أن إليه التبليغ فقط.

●● ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أم منقطعة، معناه: بل أتحسب كأن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهى كونهم مسلوبى الأسماع والعقول؛ لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا ومشبهين بالأنعام التى هى مثل فى الغفلة والضلالة فقد ركبهم الشيطان بالاستذلال لتركهم الاستدلال، ثم هم أرجح ضلالة منها؛ لأن الأنعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ،تطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم، ولايطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى، وقالوا: للملائكة روح وعقل، وللبهائم نفس وهوى، والآدمى مجمع الكل ابتلاء فإن غلبته النفس والهوى فضلته الأنعام ،وإنْ غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام، وإنما ذكر الأكثر؛ لأن فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا حب الرياسة وكفى به داءً عضالاً، ولأن فيهم من آمن.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أى: بسطه فعم الأرض وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس فى قول الجمهور؛ لأنه ظل ممدود لا

شمس معه ولا ظلمة، وهو كما قال فى ظل الجنة ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[1] إذ لا شمس معه ولا ظلمة ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى: دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ على الظل ﴿دَلِيلًا﴾لأنه بالشمس يعرف الظل ولولا الشمس لما عرف الظل فالأشياء تعرف بأضدادها.

●●﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أى: أخذنا ذلك الظل الممدود﴿إِلَيْنَا﴾ إلى حيث أردنا ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلا غير عسير، أو قليلا قليلا أى جزءاً فجزءاً بالشمس التى تأتى عليه وجاء بثم لتفاضل ما بين الأمور، فكأن الثانى أعظم من الأول والثالث أعظم من الثانى، شبه تباعد ما بينهما فى الفضل بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة لأبدانكم وقطعا لأعمالكم والسبت القطع والنائم مسبوت، لأنه انقطع عمله وحركته، وقيل: السبات الموت والمسبوت الميت، لأنه مقطوع الحياة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾[2] ويعضده ذكر النشور فى مقابلته ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ إذ النشور انبعاث من النوم كنشور الميت أى ينشر فيه الخلق للمعاش، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه، لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية، وفى النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر، وقال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ الريح ـ مكى والمراد به الجنس ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف بُشُر جمع بشور ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى قدام المطر؛ لأنه ريح، ثم سحاب، ثم مطر وهذه استعارة مليحة ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مطرا ﴿طَهُورًا﴾ بليغا فى طهارته والطهور صفة كقولك ماء طهور، أى: طاهر واسم كقولك لما يتطهر به طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار، ومصدر بمعنى التطهر كقولك تطهرت طهورا حسنا، ومنه قوله ـ عليه الصلاة والسلام :ـ «لا صلاة إلا بطهور»[3] أى بطهارة، وما حكى عن ثعلب[4] هو ما كان طاهرا فى نفسه مطهرا لغيره، وهو مذهب الشافعى -رحمه الله تعالى- إن كان هذا بيان زيادة الطهارة فحسن ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾[5] ولا فليس فعول من التفعيل فى شىء، وقياسه على ما هو مشتق من

---

(١) سورة «الواقعة»، الآية (٣٠).　　(٢) سورة «الأنعام»، الآية (٦٠).

(٣) الحديث عند الترمذى عن ابن عمر، ولفظة: «لا تقبل صلاة إلا بطهور».

(٤) ثعلب: هو أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، الشيبانى، مولاهم، أبو العباس، من أئمة الكوفيين فى اللغة وعلومها، ولد عام ٢٠٠هـ، وتوفى عام ٢٩١هـ.

الأعلام (٢٦٧/١).

(٥) سورة «الأنفال»، الآية (١١).

الأفعال المتعدية كقطوع ومنوع غير سديد؛ لأن بناء الفعـول للمبالغة فإن كان الفعل متعديا فالفعول متعد، وإن كان لازما فلازم.

●● ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾ بالمطر ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ذكّر ميتا على إرادة البلد أو المكان ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أى: ونسقى المـاء البهائم والناس ومما خـلقنا حال من أنعـاما وأناسى أى: أنعاما وأناسى مما خلقنا، وسقى أو أسقى لغتان، وقرأ المفـضل والبرجمى ونَسقيه، والأناسى جمع إنسى على الـقياس ككرسى وكـراسى، أو إنسان وأصلـه أناسين كسرحـان وسراحين فأبدلت الـنون ياء وأدغمت وقدم إحيـاء الأرض على سقى الأنعام والأناسى؛ لأن حيـاتها سبب لحياتهمـا وتخصيص الأنعام من الحيوان الشارب؛ لأن عامـة منافع الأناسى متعلقه بها فكأن الإنعام عـليهم بسقى الأنعام كالإنعام بسقيهم، وتنكير الأنعام والأناسى ووصفـها بالكثرة، لأن أكثر الناس منيخون بالقرب من الأودية والأنهار فيهم غنية عن سقى السماء وأعقابـهم وبقاياهم وهم كثير يعيشون بما ينزل الله من رحمته، وتنكير البلدة؛ لأنه يريد بعض بلاد هـؤلاء المتبعدين عن مظان الماء ولما كان سقى الأناسى من جملة ما أنـزل له الماء وصفه بالطهور إكرامـا لهم، وبيان أن من حقهم أن يؤثـروا الطهارة فى بواطنهم وظواهرهم، لأن الطهورية شرط الإحياء.

●● ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ـ ليذكُروا ـ حمزة وعلى؛ يريد: ولقد صرفنا هذا القول بين الناس فـى القرآن وفى سائر الـكتب المنزلة عـلى الرسل، وهو ذكر إنـشاء السحاب وإنزال الـقطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفـوا حق النعمة فيه فيشكروا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فأبى أكثرهم إلا كفران النعـمة وجحودها وقلة الاكتـراث لها، أو صرفنا المطر بـينهم فى البلدان المخـتلفة والأوقات المتغايرة وعـلى الصفات المتفاوتة مـن وابل وطل وجود ورذاذ وديمة فأبوا إلا الكـفور، وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالـى ورحمته. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :ما من عام أقل مطراً من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء، وقرأ الآية (١) .وروى أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره فى كل عام، لأنه لايـختلف ولكن يختلف فيه البلاد وينتزع مـن هنا جواب فى تنكير البلدة والأنعام والأناسى، ومن نسب الأمطـار إلى الأنواء وجحد أن تكون هى والأنواء من خلق الله تعالى كفر؛ وإن رأى أن الله تعالى خالقها وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها لم يكفر.

●● ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا فى كل قرية نبيا ينـذرها ولكن شئنا أنْ تجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة إلى كـافة العالمين فقصرنا الأمر عليـك وعظمناك به فتكون وحدك ككـلهم، ولذا خوطب بالجمع ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ (٢) فقابل ذلك بالشـكر والصبر والتشدد فلا تطع الكافريـن فيما يدعونك إليه من موافـقتهم ومداهنتهم، وكـما آثرتك على جميـع الأنبياء فآثر رضائى علـى جميع الأهواء،

(١) الحديث أخرجه الحاكم.

(٢) سورة «المؤمنون»، الآية (٥١).

وأريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أى: بالله يعنى بعونه وتوفيقه أو بالقرآن أى: جادلهم به وقرعهم بالعجز عنه ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ عظيما موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق، ويجوز أن يرجع الضمير فى به إلى مادل عليه ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه نذير كافة القرى؛ لأنه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من أجل ذلك وعظم، فقال له: وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاّهما متجاورين متلاصقين تقول مرجت الدابة إذا خليتها ترعى وسمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين ﴿هَذَا﴾ أى: أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ صفة لعذب أى شديد العذوبة حتى يقرب إلى الحلاوة ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ صفة لملح أى شديد الملوحة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حائلا من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج فهما فى الظاهر مختلطان، وفى الحقيقة منفصلان ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وسترا ممنوعا عن الأعين كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1].

●● ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ﴾ أى: النطفة ﴿بَشَرًا﴾ إنسانا ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أراد تقسيم البشر قسمين ذوى نسب أى: ذكورا ينسب إليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر، أى: إناثا يصاهر بهن كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾[2]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا نوعين ذكرا وأنثى، وقيل: فجعله نسبا أى قرابة وصهرا مصاهرة يعنى: الوصلة بالنكاح من باب الأنساب؛ لأن التواصل يقع بها وبالمصاهرة؛ لأن التوالد يكون بهما.

●● ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ﴾ على معصية ربه ﴿ظَهِيرًا﴾ معينا ومظاهرا وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز، والظهير والمظاهر كالعوين والمعاون والمظاهرة المعاونة، والمعنى: أن الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن.

●● ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ منذرا للكافرين.

●● ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ والمراد إلا فعل من شاء، واستثناؤه من الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره بصورة الثواب، كأنه يقول: إن حفظت مالك اعتدّ حفظك بمنزلة

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٤٥). (٢) سورة «القيامة»، الآية (٣٩).

الثواب لى ورضائى به كرضا المثاب بالثواب ولعمرى إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أمته بهذا الصدد، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلا: تقربهم إليه بالإيمان والطاعة، أو بالصدقة والنفقه، وقيل: المراد: لكن من شاء أن يتخذ بالإنفاق إلى رضاء ربه سبيلا فليفعل وقيل تقديره لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجرا إلا اتخاذ المدعو سبيلا إلى ربه بطاعته فذلك أجرى، لأن الله يأجرنى عليه.

•• ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ﴾ اتخذ من لا يموت وكيلا لايكلك إلى من يموت ذليلا يعنى ثق به وأسند أمرك إليه فى استكفاء شرورهم ولا تتكل على حى يموت، وقرأها بعض الصالحين، فقال: لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق، والتوكل: الاعتماد عليه فى كل أمر ﴿وَسَبِّحْ﴾ من لا يكل إلى غيره من توكل عليه ﴿بِحَمْدِهِ﴾ بتوفيقه الذى يوجب الحمد، أو قل سبحان الله وبحمده، أو نزهه عن كل العيوب بالثناء عليه ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أى: كفى الله خبيرا بذنوب عباده، يعنى: أنه خبير بأحوالهم كاف فى جزاء أعمالهم.

•• ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أى: فى مدة مقدار هذه المدة، لأنه لم يكن حينئذ ليل ونهار روى عن مجاهد أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وإنما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ أى: هو الرحمن، فالرحمن خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من الضمير فى استوى، أو الذى خلق مبتدأ، والرحمن خبره ﴿فَاسْئَلْ﴾ بلا همزة مكى وعلى ﴿بِهِ﴾ صلة سل كقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[(١)] كما تكون عن صلته فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[(٢)] فاسأل به كقولك اهتم به واشتغل به وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش عنه. أو صلة ﴿خَبِيرًا﴾ ويكون خبيرا مفعول سل أى: فاسأل عنه رجلا عارفا يخبرك برحمته، أو فاسأل رجلا خبيرا به وبرحمته، أو الرحمن اسم من أسماء الله تعالى مذكور فى الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبر من أهل الكتب حتى يعرف من ينكره، ومن ثم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا الذى باليمامة يعنون مسيلمة، وكان يقال له رحمان اليمامة.

•• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أى: إذا قال محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ للمشركين: ﴿اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ صلوا لله واخضعوا له ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أى: لا نعرف الرحمن فنسجد له فهذا سؤال عن المسمى به؛ لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم، والسؤال عن المجهول بما أو عن معناه؛ لأنه لم يكن مستعملا فى كلامهم كما استعمل الرحيم والراحم والرحوم ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ للذى تأمرنا بالسجود له، أو لأمرك بالسجود يا محمد من غير علم منا به. يأمرنا على وحمزة كأن بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد، أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولانعرف ما هو فقد عاندوا؛ لأن معناه

(١) سورة «المعارج»، الآية (١).

(٢) سورة «التكاثر»، الآية (٨).

عند أهل اللغة: ذو الرحمة التى لا غاية بعدها فى الرحمة؛ لأن فعلان من أبنية المبالغة تقول: رجل عطشان إذا كان فى نهاية العطش﴿وَزَادَهُمْ﴾ قوله اسجدوا للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ تباعدا عن الإيمان.

•• ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ هى منازل الكواكب السيارة لـكل كوكب بيتان يقوى حاله فيهما. وللشمس بيت وللقمر بيت. فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيـتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشـمس، والقوس والحوت بيتا المشترى، والجدى والدلـو بيتا زحل. وهذه البروج مقسـومة على الطبائع الأربع فيـصيب كل واحد منها ثـلاثة بروج: فالحمل والأسـد والقوس مثلثة نـارية، والثور والسنـبلة والجدى مثلـثة أرضية، والجوزاء والميزان والـدلو مثلثة هـوائية، والسرطان والـعقرب والحوت مثلـثة مائية. سمـيت المنازل بالبروج التى هى القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره، وقال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج هى النجوم الكبار؛ لظهورها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ فى السماء ﴿سِرَاجًا﴾ يعنى الشمس لتوقدها. سُرُجًا حمزة وعلى أى نجوما ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ مضيئا بالليل.

•• ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ فعلة من خـلف كالركبة من ركب وهـى الحالة التى يخلف عليـها الليل والنهار كل واحد منهـما الآخر والمعنى: جعلهما ذوى خلفـة، يخلف أحدهما الآخر عند مضيـه أو يخلفه فى قضاء مـا فاته من الورد ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يتدبر فى تسخيرهما واختلافهما فيعرف مدبرهما. يذكر حمزة وخلف أى: يذكر الله أو المنسى فيقضى ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أى: يشكر نعمة ربه عليه فيهما.

•• ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مبتدأ خبره ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ أو أولئك يجزون والذين يمشون وما بعدهما صفة، والإضافـة إلى الرحمن للتـخصيص والتفـضيل. وصف أولياءه بعـدما وصف أعداءه ﴿عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ حال، أو صفة للـمشى أى هينين أو مشيـا هينا، والهون: الرفق والـلين أى يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مـرح واختيال وتكبر فلا يضربون بأقدامهم ولا يخـفقون بنعالهم أشرا وبطرا؛ ولذا كره بـعض العلماء الركوب فـى الأسواق ولقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾(١) ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أى: السفهاء بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ سدادا من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإفك، أو تسلماً منكم نتـارككم ولانجاهلكم فأقيم السلام مقام التسلم، وقيـل: نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك فالإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعًا ومروءة. هذا وصف نهارهم، ثم وصف ليلهم بقوله:

•• ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ جمع ساجد ﴿وَقِيَامًا﴾ جمع قائم، والبيـتوتة خلاف الظلول وهى أن يدركك الليل نمت أو لم تنم، وقالوا: من قرأ شيئا من القرآن فى صلاة وإن قل فقد بات

---

(١) سورة «الفرقان»، الآية (٢٠).

ساجدا وقائما، وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء، والظاهر أنه وصف لهم بإحياء الليل، أو أكثره.

●● ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ هلاكا لازما، ومنه الغريم لملازمته. وصفهم بإحياء الليل ساجدين قائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون إلى الله فى صرف العذاب عنهم.

●● ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى: إن جهنم. وساءت فى حكم بئست، وفيها ضمير مبهم يفسره مستقراً، والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى، وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم إن وجعلها خبرا لها، أو بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقرا حال، أو تمييز ويصح أن يكون التعليلان متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم.

●● ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾لم يجاوزوا الحد فى النفقة، أو لم يأكلوا للتنعم ولم يلبسوا للتصلف. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - لم ينفقوا فى المعاصى فالإسراف مجاوزة القدر، وسمع رجل رجلا يقول: لاخير فى الإسراف، فقال: لا إسراف فى الخير، وقال - عليه الصلاة والسلام: «من منع حقا فقد قتر، ومن أعطى فى غير حق فقد أسرف» (١). ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بضم التاء كوفى وبضم الياء وكسر التاء مدنى وشامى وبفتح الياء وكسر التاء مكى وبصرى، والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الإسراف ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أى: الإسراف والإقتار ﴿قَوَامًا﴾ أى: عدلا بينهما فالقوام العدل بين الشيئين والمنصوبان، أى: بين ذلك قواما خبران وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر - عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾(٢) الآية. وسأل عبدالملك بن مروان (٣) عمر بن عبدالعزيز عن نفقته حين زوجه ابنته فقال الحسنة بين السيئتين، فعرف عبدالملك أنه أراد ما فى هذه الآية، وقيل: أولئك أصحاب محمد - عليه الصلاة والسلام - كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة، ولكن لسد الجوعة وستر العورة ودفع الحر والقر، وقال عمر - رضى الله عنه -: كفى سرفا أن لا يشتهى الرجل شيئا إلا أكله.

●● ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أى: لا يشركون. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أى: حرمها يعنى حرم قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بقود، أو رجم، أو ردة، أو شرك، أو سعى فى الأرض

---

(١) لم أعثر على أصله.

(٢) سورة «الإسراء»، الآية (٢٩).

(٣) هو الخليفة الأموى الأشهر؛ عبدالملك بن مروان بن الحكم، الأموى، أبو الوليد، المدنى، ثم الدمشقى، هو أول من سمى عبدالملك فى الإسلام، كان ولداً نجيباً؛ فجالس العلماء من صغره، وهو تابعى؛ فلقد سمع من الصحابة، وكان عابداً ناسكاً، توفى عام ٨٦هـ، وقد تجاوز الستين.

تهذيب التهذيب (٣/ ٥١٣، ٥١٤).

بالفساد، وهو متعلق بالقتل المحذوف، أو بلا يقتلون ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾ ونفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين طهرهم الله مما أنتم عليه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أى: المذكور ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء الإثم.

•• ﴿يُضَاعَفْ﴾ بدل من يلق؛ لأنهما فى معنى واحد إذ مضاعفة العذاب هى لقاء الآثام كقوله:

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا   تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فجزم تلمم؛ لأنه بمعنى تأتنا إذ الإتيان هو الإلمام. يضعَّفْ مكى ويزيد ويعقوب. يضعَّفُ شامى يضاعفُ أبو بكر على الاستئناف، أو على الحال، ومعنى يضاعف ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: يعذب على مرور الأيام فى الآخرة عذابا على عذاب، وقيل: إذا ارتكب المشرك معاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه ﴿وَيَخْلُدْ﴾ جزمه يضاعف ورفعه رافعه؛ لأنه معطوف عليه ﴿فِيهِ﴾ فى العذاب فيهى مكى وحفص بالإشباع، وإنما خص حفص الإشباع بهذه الكلمة مبالغة فى الوعيد، والعرب تمد للمبالغة مع أن الأصل فى هاء الكناية الإشباع ﴿مُهَانًا﴾ حال أى: ذليلا.

•• ﴿إِلاَّ مَن تَابَ﴾ عن الشرك وهو استثناء من الجنس فى موضع النصب ﴿وَآمَنَ﴾ بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ بعد توبته ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أى: يوفقهم للمحاسن بعد القبائح، أو يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات ـ الإيمان والطاعة ـ ولم يرد به أن السيئة بعينها حسنة ولكن المراد ما ذكرنا. يبدل مخففا البرجمى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ يكفر السيئات ﴿رَّحِيمًا﴾ يبدلها بالحسنات.

•• ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أى: ومن تاب وحقق التوبة بالعمل الصالح فإنه يتوب بذلك إلى الله تعالى متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب.

•• ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أى: الكذب يعنى ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر وأهله، إذ مشاهدة الباطل شركة فيه، وكذلك النظارة إلى مالم تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الآثام؛ لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا، وسبب وجود الزيادة فيه، وفى مواعظ عيسى ـ عليه السلام: إياكم ومجالسة الخاطئين. أو لا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف، وعن قتادة المراد مجالس الباطل، وعن ابن الحنفية لا يشهدون اللهو والغناء ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ بالفحش وكل ما ينبغى أن يلغى ويطرح، والمعنى وإذا مروا بأهل

اللغو والمشتغلين به ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين مكرمين أنفسهم عن التلوث به كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[1] وعن الباقر [2] -رضي الله عنه- إذا ذكروا الفروج كنوا عنها.

●● ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قرئ عليهم القرآن، أو وعظوا بالقرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذا ليس بنفي الخرور بل هو إثبات له، ونفى الصمم والعمى، ونحوه: لا يلقاني زيد مسلما؛ هو نفى للسلام لا للقاء يعنى أنهم إذ اذكروا بها خروا سجدا وبكيا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون واعية لما أمروابه ونهوا عنه لا كالمنافقين وأشباههم دليله قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [3].

●● ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ من للبيان، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بينت القرة وفسرت بقوله :من أزواجنا ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ ومعناه أن يجعلهم الله لهم قرة أعين، وهو من قولهم: رأيت منك أسدا أى: أنت أسد، أو للابتداء على معنى هب لنا من جهتهم ما تَقَرُّ به عيوننا من طاعة وصلاح. وذريتنا أبو عمر وكوفى غير حفص لإرادة الجنس وغيرهم ذرياتنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وإنما نكر لأجل تنكير القرة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قال: هب لنا منهم سرورا وفرحا، وإنما قيل: أعين على القلة دون عيون؛ لأن المراد أعين المتقين وهى قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[4]. ويجوز أن يقال فى تنكير أعين: إنها أعين خاصة، وهى أعين المتقين، والمعنى أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله تعالى، يسرون بمكانهم وتَقَرُّ بهم عيونهم، وقيل: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى، وعن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أى: أئمة يقتدون بنا فى الدين، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس، أو واجعل كل واحد منا إماما. قيل: فى الآية ما يدل على أن الرياسة فى الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها.

●● ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أى: الغرفات، وهى العلالى فى الجنة، فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس دليله قوله: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[5] ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: بصبرهم على

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٥٥).

(٢) هو التابعى الشريف؛ محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، أبو جعفر، الباقر، روى عن أبيه، وجديه؛ الحسن والحسين، وروى عن جد أبيه «على» مرسلاً، وروى عن جل كبار التابعين، وهو: «ثقة، فاضل، من الرابعة». ولد عام ٥٦هـ، وتوفى عام ١١٤هـ.
تهذيب التهذيب (٥/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٣) سورة «مريم»، الآية (٥٨).

(٤) سورة «سبأ»، الآية (١٣).

(٥) سورة «سبأ»، الآية (٣٧).

الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم، وعلى الفقر وغير ذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ - ويلقَوْن - كوفى غير حفص ﴿تَحِيَّةً﴾ دعاء بالتعمير ﴿وَسَلَامًا﴾ ودعاء بالسلامة يعنى أن الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم، أو يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه.

•• ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال ﴿حَسُنَتْ﴾ أى: الغرفة ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ موضع قرار وإقامة، وهى فى مقابلة: «ساءت مستقراً ومقاما».

•• ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُم﴾ ماتضمنة لمعنى الاستفهام، وهى فى محل النصب، ومعناه مايصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام، أو لولا عبادتكم له أى: أنه خلقكم لعبادته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١) أى: الاعتبار عند ربكم لعبادتكم، أو ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة، وهو كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾(٢) ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ رسولى يا أهل مكة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزَامًا﴾ أى: ذا لزام، أو ملازما وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل، وقال الضحاك: ما يعبأ: ما يبالى بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه إلها آخر.

---

(١) سورة «الذاريات»، الآية (٥٦).

(٢) سورة «النساء»، الآية (١٤٧).

سورة الشعراء مكية، وهي مائتان وعشرون وسبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿طسٓمٓ﴾ طس ويس وحم ممالة كوفى غير الأعشى والبرجمى، وحفص. ويظهر النون عند الميم يزيد وحمزة. وغيرهما يدغمها.

●● ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه، وصحة أنه من عند الله، والمراد به السورة أو القرآن، والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

●● ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ قاتل ولعل للإشفاق﴿نَّفْسَكَ﴾ من الحزن يعنى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على ما فاتك من إسلام قومك ﴿أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفة أن لا يؤمنوا.

●● ﴿إِن نَّشَأْ﴾ إيمانهم ﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ دلالة واضحة ﴿فَظَلَّتْ﴾ أى: فتظل؛ لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضى فى معنى المستقبل، تقول: إن زرتنى أكرمتك أى: أكرمك كذا قاله الزجاج ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ رؤساوهم ومقدموهم، أو جماعاتهم يقال: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ منقادين، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ نزلت فينا وفى بنى أمية فتكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أى: وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرا إلا جددوا إعراضا عنه وكفرا به.

●● ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ محمدا (ﷺ) فيما أتاهم به ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ فسيعلمون ﴿أَنْبَاءُ﴾ أخبار ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا وعيد لهم وإنذار بأنهم سيعلمون إذا مسهم عذاب الله يوم بدر، أو يوم القيامة ما الشىء الذى كانوا يستهزءون به وهو القرآن، وسيأتيهم أنباؤه وأحواله التى كانت خافية عليهم.

●● ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا﴾ كم نصب بأنبتنا ﴿فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام كالرجل الكريم الذى نفعه عام، وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والإحاطة أن كلمة كل تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، وكم تدل على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة وبه نبه على كمال قدرته.

●● ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى: إن فى إنبات تلك الأصناف لآية على أن مبنتها قادر على إحياء الموتى وقد علم الله أن أكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجى إيمانهم.

●● ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى انتقامه من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن آمن منهم ووحد آية مع الإخبار

بكثرتها؛ لأن ذلك مشار به إلى مصدر أنبتنا، أو المراد إن فى كل واحد من تلك الأزواج لآية أى: آية.

●● ﴿وَإِذْ﴾ مفعول به أى: اذكر إذ ﴿نَادَى﴾ دعا ﴿رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ﴾ إن بمعنى أى ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر، وبنى إسرائيل بالاستعباد وذبح الأولاد، سجل عليهم بالظلم، ثم عطف.

●● ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ عليهم عطف البيان، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون، وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ أى: ائتهم زاجرا فقد آن لهم أن يتقوا، وهى كلمة حث وإغراء، ويحتمل أنه حال من الضمير فى الظالمين أى: يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الإنكار على الحال.

●● ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ﴾ الخوف غم يلحق الإنسان لأمر سيقع ﴿أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم إياى مستأنف، أو عطف على أخاف ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بأن تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال وبنصبهما يعقوب عطفا على يكذبون فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ أى: أرسل إليه جبريل، واجعله نبيا يعيننى على الرسالة، وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبيا بالشام، ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقفا فى الامتثال بل التماس عون فى تبليغ الرسالة، وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الأمر ليس بتوقف فى امتثال الأمر، وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل.

●● ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ أى: تبعة ذنب بقتل القبطى فحذف المضاف، أو سمى تبعة الذنب ذنبا كما سمى جزاء السيئة سيئة ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أى يقتلونى به قصاصا، وليس هذا تعللا أيضا بل استدفاع للبلية المتوقعة، وفرق من أن يقتل قبل أداء الرسالة؛ ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردع وجمع له الاستجابتين معا فى قوله:

●● ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا﴾ لأنه استدفعه بلاءهم فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف، والتمس منه رسالة أخيه فأجابه بقوله: اذهبا أى: جعلته رسولا معك فاذهبا، وعطف فاذهبا على الفعل الذى يدل عليه كلا، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهارون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مع آياتنا، وهى اليد والعصا وغير ذلك ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ أى: معكما بالعون والنصرة ومع من أرسلتما إليه بالعلم والقدرة ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ خبر لإن ومعكم لغو، أو هما خبران أى: سامعون والاستماع فى غير هذا الإصغاء للسماع، يقال: استمع فلان إلى حديثه أى: أصغى إليه، ولايجوز حمله ههنا على ذلك فحمل على السماع.

●● ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يثن الرسول كما ثـنى فى قوله: إنا رسولا ربك؛ لأن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة؛ فَجُعل ثمة بمعنى المرسل، فلم يكن بد من تثنيته، وجعل هـنا بمعنى الـرسالة فيسـتوى فى الوصف بـه الواحد والتثـنية والجمع، أو لأنــهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنهما رسول واحد، أو أريد إن كل واحد منا.

●● ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ بمعنى أى: أرسل لتـضمن الرسول معنى الإرسال وفيــه معنى القول ﴿مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يريد: خلهم يذهبوا معـنا إلى فلسطين، وكانت مسكنهما فأتيا بـابه فلم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إن ههنا إنسانا يـزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له لعلـنا نضحك منه فأديا إليه الرسالة فعرف فرعون موسى فعند ذلك:

●● ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ وإنما حذف فأتيا فرعون، فقال اختـصارا، والوليد الصبى لقرب عهده من الولادة أى: ألم تكن صغيرا فربيناك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل: ثلاثين سنة.

●● ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعنى قتل القبـطى فعرض إذ كان ملكا ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمـتى حيث قتلت خـبازى، أو كنت على دينـنا الذى تسميه كـفرا، وهذا افتراء منه عـليه؛ لأنه معصوم من الكفر، وكان يعايشهم بالتقية.

●● ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أى: إذ ذاك ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الجاهلين بأنها تبـلغ القتل والضال عن الشـىء هو الذاهـب عن مـعرفتـه، أو الناسـين من قـوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾(1) فدفع وصف الكفر عن نفسه ووضع الضـالين موضع الكافرين، وإذا جواب وجزاء معا وهذا الكلام وقـع جوابا لفرعون وجزاء لـه؛ لأن قول فرعون: وفعلت فعلتـك معناه أنك جازيت نعمتى بما فعلت فقال له موسى: نعم فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله؛ لأن نعمته كانت جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء.

●● ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ إلى مـدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتـلونى وذلك حـين قال له مؤمـن من آل فرعون: ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾(2) الآية ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ نبوة وعلما فزال عنى الجهل والضلالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ من جملة رسله.

●● ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كر على امتنـانه عليه بالتربية فـأبطله من أصله وأبى أن تسمى نعمة؛ لأنـها نقمة حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تـعبيد بنى إسرائيل؛ لأن تعبيدهم وقصدهم بذبـح أبنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيتـه ولو تركهم لرباه أبواه، فكأن

(1) سورة «البقرة»، الآية (٨٢).

(2) سورة «القصص»، الآية (٢٠).

فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه إذا حققت، وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا، ووحد الضمير فى تمنها وعبدت وجمع فى منكم وخفتكم؛ لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملإه المؤتمرين بقتله بدليل قوله: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. وأما الامتنان فمنه وحده، وكذا التعبيد وتلك إشارة إلى خصلة شنعاء مبهمة لايدرى ماهى إلا بتفسيرها، ومحل أن عبدت الرفع عطف بيان لتلك أى: تعبيدك بنى إسرائيل نعمة تمنها على.

●● ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: إنك تدعى أنك رسول رب العالمين فما صفته، لأنك إذا أردت السؤال عن صفة زيد تقول: ما زيد تعنى أطويل أم قصير؟ أفقيه أم طبيب؟ نص عليه صاحب الكشاف وغيره.

●● ﴿قَالَ﴾ موسى مجيبا له على وفق سؤاله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: وما بين الجنسين ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى: إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلا، أو إن كان يرجى منكم الإيقان الذى يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب وإلا لم ينفع والإيقان العلم الذى يستفاد بالاستدلال، ولذا لا يقال: الله موقن.

●● ﴿قَالَ ﴾ أى: فرعون ﴿لِمَن حَوْلَه﴾ من أشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ معجبا قومه من جوابه؛ لأنهم يزعمون قدمهما وينكرون حدوثهما وأن لهما رباً فاحتاج موسى إلى أن يستدل بما شاهدوا حدوثه وفناءه فاستدل حيث:

●● ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: هو خالقكم وخالق آبائكم فإن لم تستدلوا بغيركم فبأنفسكم، وإنما قال: رب آبائكم؛ لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

●● ﴿قَالَ﴾ أى: فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث يزعم أن فى الوجود إلها غيرى ،وكان فرعون ينكر إلهية غيره.

●● ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتستدلون بما أقول فتعرفون ربكم، وهذا غاية الإرشاد حيث عمم أولا بخلق السماوات والأرض وما بينهما، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه وما شاهد من أحواله من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما استدل به، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الرحمن عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان، وقيل: سأله فرعون عن الماهية جاهلا عن حقيقة سؤاله، فلما أجاب موسى بحقيقة الجواب وقع عنده أن موسى حاد عن الجواب حيث سأله عن الماهية، وهو يجيب عن ربوبيته وآثار صنعه، فقال معجبا لهم من جواب موسى: ألا تستمعون، فعاد موسى إلى مثل قوله الأول، فجننه فرعون

زاعما أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثا إلى مثل كلامه الأول مبينا أن الفرد الحقيقى إنما يعرف بالصفات، وأن السؤال عن الماهية محال، وإليه الإشارة فى قوله تعالى: إن كنتم تعقلون أى: إن كان لكم عقل علمكم أنه لاتمكن معرفته إلا بهذا الطريق، فلما تحير فرعون، ولم يتهيأ له أن يدفع ظهور آثار صنعه...

●● ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي﴾ أى: غيرى إلهاً ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ أى : لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى، وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض بعيدة العمق فردا لا يبصر فيها ولايسمع فكان ذلك أشد من القتل، ولو قيل: لأسجننك لم يؤد هذا المعنى، وإن كان أخصر.

●● ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو للحال دخلت عليها همزه الاستفهام أى: أتفعل بى ذلك ولو جئتك ﴿بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أى: جائيا بالمعجزة.

●● ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ﴾ بالذى يبين صدقك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أن لك بينة وجواب الشرط مقدر أى: فأحضره .

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الثعبانية لا شيء يشبه الثعبان كما تكون الأشياء المزورة بالشعوذة والسحر، روى أن العصا ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون وجعلت تقول: ياموسى مرنى بما شئت، ويقول فرعون: أسألك بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها فعادت عصا.

●● ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ فيه دليل على أن بياضها كان شيئا يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة، وكان بياضها نوريا روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده فقال لفرعون: ما هذه؟ قال فرعون: يدك، فأدخلها فى إبطه، ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسد الأفق.

●● ﴿قَالَ﴾ أى: فرعون ﴿لِلْمَلإِ حَوْلَهُ﴾ هو منصوب نصبين، نصب فى اللفظ والعامل فيه ما يقدر فى الظرف، ونصب فى المحل، وهو النصب على الحال من الملإ أى: كائنين حوله والعامل فيه قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر، ثم أغوى قومه على موسى بقوله:

●● ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا﴾ منصوب؛ لأنه مفعول به من قولك: أمرتك الخير ﴿تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون فى أمره من حبس، أو قتل من المؤامرة وهى المشاورة، أو من الأمر الذى هو ضد النهى لما تحير فرعون برؤية الآيتين وزل عنه ذكر دعوى الالهية وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصه خوفا طفق يؤامر قومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم، أو جعلهم آمرين ونفسه مأمورا.

●● ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أخر أمرهما، ولا تباغت قتلهما خوفا من الفتنة ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ شرطا يحشرون السحرة وعارضوا قول فرعون: إن هذا لساحر عليهم بقولهم:

●● ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاؤوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه.

●● ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى: يوم الزينة وميقاته وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله تعالى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾(١) والميقات ما وقت به أى: حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام.

●● ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ أى: اجتمعوا وهو استبطاء لهم فى الاجتماع، والمراد منه استعجالهم.

●● ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ فى دينهم ﴿إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ أى: غلبوا موسى فى دينه، وليس غرضهم اتباع السحرة، وإنما الغرض الكلى أن لايتبعوا موسى فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى.

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ﴾ وبكسر العين على، وهما لغتان ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: قال فرعون: نعم لكم أجر عندى وتكونون مع ذلك من المقربين عندى فى المرتبة والجاه فتكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج، ولما كان قولهم؛ أئن لنا لأجرا فى معنى جزاء الشرط لدلالته عليه، وكان قوله: وإنكم إذا لمن المقربين معطوفا عليه دخلت إذا قارة فى مكانها الذى تقضيه من الجواب والجزاء.

●● ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من السحر فسوف ترون عاقبته.

●● ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ﴾ سبعين الف حبل ﴿وَعِصِيَّهُمْ﴾ سبعين ألف عصا، وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا، وكذا العصى ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ أقسموا بعزته قوته وهو من أيمان الجاهلية.

●● ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ويزوّرونه ويخيلون فى حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى.

●● ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ عبر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة؛ لأنه ذكر مع الإلقاءات، ولأنهم لسرعة ماسجدوا صاروا كأنهم ألقوا.

●● ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن عكرمة ـ رضى الله عنه ـ أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

---

(١) سورة «طه»، الآية (٥٩).

•• ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عطف بيان لرب العالمين؛ لأن فرعـون كان يدعى الربوبية فأرادوا أن يعزلوه، وقيل: إن فـرعون لما سمع منهم آمنا بـرب العالمين قال: إياى عنيتم؟ قالوا: رب موسى وهارون.

•• ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ بذلك ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقد تواطأتم على أمر ومكر ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم ثم صرح فقال:

•• ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ من أجل خلاف ظهـر منكم ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم فى الإيمان.

•• ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ لاضرر، وخبر لا محذوف أى: فى ذلك، أو علينا ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

•• ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا﴾ لأن كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من أهل المشهد، أو من رعية فرعون. أراد والأضرر علينـا فى ذلك بل لنا أعظم النفع لما يحصل لنا فـى الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، أو لا ضير علينا فيما تـتوعدنا به، إنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسـبابه وأرجاها، أو لا ضير علينا فى قتلك إنك إن قتـلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من يطمع فى مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ﴾ وبوصل الهـمزة حجازى ﴿بِعِبَادِي﴾ بنى إسرائيل سـماهم عباده لإيمانهم بنبيه أى: سر بهم ليلا، وهذا بعد سنين من إيمان السحرة ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وقومه علل الأمر بالإسراء باتـباع فرعون وجنوده آثارهم يعنى إنى بنيت تدبـير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويـتبعوكم حتى يدخـلوا مدخلكم من طريق الـبحر فأهلكهم، وروى أنـه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوتهم ولد فاشتـغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه، وروى أن الله تعالى أوحى إلى مـوسى أن اجمع بـنى إسرائيـل كل أربعة أبـيات فى بيـت، ثم اذبح الجداء واضـربوا بدمائهم على أبوابكم فإنى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط واخبزوا خبزا فطيرا فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادى حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى.

•• ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أى: جامعين للناس بعنف فلما اجتمعوا قال:

•• ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة الطائـفة القليلة ذكرهم بالاسم الدال عـلى القلة، ثم جعلهم قليلابالوصـف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليـلا، واختار جمع السلامة الذى هو للقلة، أو أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد، أى: أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا تتوقع غلبتهم، وإنما استقل قوم موسى وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفـا لكثرة من معه، فعن الضحاك كانوا سبعة آلاف ألف.

•• ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أى: أنهم يفعلون أفعالا تغيظـنا وتضيق صدورنا وهى خروجهم من مصرنا وحملهم حلينا وقتلهم أبكارنا.

•• ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ شامى وكوفى. وغيرهم حذرون، فالحذر: المتيقظ، والحاذر: الذى يجدد حذره، وقيل: المؤدى فى السلاح، وإنما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه يعنى ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور.

•• ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ وأنهار جارية.

•• ﴿وَكُنُوزٍ﴾ وأموال ظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزا، لأنهم لا ينفقون منها فى طاعة الله تعالى ﴿وَمَقَامٍ﴾ ومنزل ﴿كَرِيمٍ﴾ بهى بهيج وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ المنابر.

•• ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يحتمل النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذى وصفنا، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى: الأمر كذلك ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ عن الحسن لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وأموالهم.

•• ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ فلحقوهم. فاتَّبَعُوهم يزيد ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ حال أى: داخلين فى وقت شروق الشمس، وهو طلوعها أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس.

•• ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أى: تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، والمراد بنو إسرائيل والقبط ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أى: قرب أن يلحقنا عدونا وأمامنا البحر.

•• ﴿قَالَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ثقة بوعد الله إياه ﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ﴾ معىَ حفص ﴿رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أى: سيهدينى طريق النجاة من إدراكهم، وإدرارهم سيهدينى بالياء يعقوب.

•• ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أى: القلزم، أو النيل ﴿فَانفَلَقَ﴾ أى: فضرب فانفلق وانشق فصار اثنى عشر فرقا على عدد الأسباط ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أى: جزء تفرق منه ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل المنطاد فى السماء.

•• ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ حيث انفلق البحر ﴿الْآخَرِينَ﴾ قوم فرعون أى: قربناهم من بنى إسرائيل، أو من البحر.

•• ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من الغرق.

•• ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ فرعون وقومه، وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب فى الآجال وغيرها من الحوادث فإنهم اجتمعوا فى الهلاك مع اختلاف طوالعهم. روى أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان

بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبنى إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط، فيقول: رويدكم يلحق آخركم بأولكم، فلما انتهى موسى إلى البحر قال يوشع لموسى: أين أُمِرْت؟ فهذا البحر أمامك وغشيك آل فرعون قال موسى: ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا. وروى أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال عند ذلك: يا من كان قبل كل شىء، والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء.

•• ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: فيما فعلنا بموسى وفرعون ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة عجيبة لا توصف ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أى: المغرقين ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ قالوا: لم يؤمن منهن إلا آسية وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم التى دلت موسى على قبر يوسف.

•• ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالانتقام من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإنعام على أوليائه.

•• ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ على مشركى قريش ﴿نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ خبره.

•• ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم أو قوم الأب ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أى: أى شىء تعبدون وإبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم أنهم عبدة الأصنام، ولكنه سألهم ليريهم أن مايعبدونه ليس بمستحق للعبادة.

•• ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ وجواب ما تعبدون أصناما كـ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[1] ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾[2] لأنه سؤال عن المعبود لا عن العبادة، وإنما زادوا نعبد فى الجواب افتخارا ومباهاة بعبادتها، ولذا عطفوا على نعبد ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ فنقيم على عبادتها طول النهار، وإنما قالوا فنظل؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، أو معناه الدوام.

•• ﴿قَالَ﴾ أى: إبراهيم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف لدلالة ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه.

•• ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إن عبدتموها ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ إن تركتم عبادتها.

•• ﴿قَالُوا بَلْ﴾ إضراب أى: لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولا نعبدها لشىء من ذلك، ولكن ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فقلدناهم.

•• ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون.

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢١٩).

(٢) سورة «سبأ»، الآية (٢٣).

●● ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أى: الأصنام ﴿عَدُوٌّ لِّي﴾ العدو والصديق يجيئان فى معنى الوحدة والجماعة، يعنى: لو عبدتهم لكانوا أعداء لى فى يوم القيامة كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[1] وقال الفراء: هو من المقلوب أى فإنى عدوهم وفى قوله عدو لى دون لكم زيادة نصح ليكون أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع، لأنه لم يدخل تحت الأعداء، كأنه قال:

●● لكن رب العالمين ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾ بالتكوين فى القرار المكين ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لمناهج الدنيا ولمصالح الدين والاستقبال فى يهدينى مع سبق العناية؛ لأنه يحتمل يهدينى للأهم الأفضل والأتم الأكمل، أوالذى خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدينى إلى آداب خلته.

●● ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي﴾ أضاف الإطعام إلى ولى الإنعام؛ لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام ﴿وَيَسْقِينِ﴾ قال ابن عطاء: هو الذى يحيينى بطعامه ويروينى بشرابه.

●● ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وإنما لم يقل أمرضنى؛ لأنه قصد الذكر بلسان الشكر فلم يضف إليه ما يقتضى الضر، قال ابن عطاء: وإذا مرضت برؤية الخلق ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ بمشاهدة الحق، قال الصادق: إذا مرضت برؤية الأفعال فهو يشفين بكشف منة الإفضال.

●● ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ولم يقل إذا مت؛ لأنه الخروج من حبس البلاء ودار الفناء إلى روض البقاء لوعد اللقاء، وأدخل ثم فى الإحياء لتراخيه عن الإفناء، وأدخل الفاء فى الهداية والشفاء لأنهما يعقبان الخلق والمرض لامعا معا.

●● ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ﴾ طمع العبيد فى الموالى بالإفضال لاعلى الاستحقاق بالسؤال ﴿أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ قيل هو قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[2] ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾[3] ﴿هَذَا رَبِّي﴾[4] للبارغ هى أختى لسارة وما هى إلا معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمم فى طلب المغفرة ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

●● ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ حكمة، أو حكما بين الناس بالحق، أو نبوة؛ لأن النبى ـ عليه السلام ـ ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أى: الأنبياء ولقد أجابه حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5] ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أى: ثناء حسنا

---

(١) سورة «مريم» الآية (٨٢). (٢) سورة «الصافات»، الآية (٨٩).
(٣) سورة «الأنبياء»، الآية (٦٣).
(٤) سورة «الأنعام»، الآيات (٧٦)، (٧٧)، (٧٨).
(٥) سورة «العنكبوت»، الآية (٢٧).

وذكرا جميلا فى الأمم التى تجىء بعدى فأعطى ذلك فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه، ووضع اللسان موضع القول، لأن القول يكون به.

●● ﴿وَاجْعَلْنِي مِن﴾ يتعلق بمحذوف أى: وارثا من ﴿وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى: من الباقين فيها.

●● ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام، وكان وعده الإسلام يوم فارقه ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الكافرين.

●● ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ الإخزاء من الخزى وهو الهوان، أو من الخزاية وهو الحياء وهذا نحو الاستغفار كما بينا ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير فيه للعباد، لأنه معلوم، أو للضالين، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه أى: ولا تخزنى فى يوم يبعث الضالون وأبى فيهم.

●● ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ هو بدل من يوم الأول ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أحدا.

●● ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ عن الكفر والنفاق فقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(1) أى: إن المال إذا صرف فى وجوه البر وبنوه صالحون فإنه ينتفع به وبهم سليم القلب، أو جعل المال والبنون فى معنى الغنى، كأنه قيل يوم لاينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما أن غناه فى دنياه بماله وبنيه، وقد جعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فى طاعة الله ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع، ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين، وقد صوب الجليل استثناء الخليل إكراما له، ثم جعله صفة له فى قوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(2) وما أحسن ما رتب -عليه السلام- كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم حتى تخلّص منها إلى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته مع ما يرجّى فى الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا.

●● ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: قربت عطف جملة على جملة أى: تزلف من موقف السعداء فينظرون إليها.

---

(1) البقرة(١٠)، والمائدة (٥٢)، والأنفال (٤٩)، والتوبة (١٢٥)، والأحزاب (١٢)، و(٦٠)، ومحمد (٢٠)، و(٢٩)، والمدثر (٣١).

(2) سورة «الصافات»، الآيتان (٨٣، ٨٤).

●● ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أى: أظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ للكافرين.

●● ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ يوبخون على إشراكهم فيقال لهم: أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم، لأنهم وآلهتهم وقود النار.

●● ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ أنكسوا وطرح بعضهم على بعض ﴿فِيهَا﴾ فى الجحيم ﴿هُمْ﴾ أى: الآلهة ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم، والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى، كأنه إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة إثر مرة حتى يستقر فى قعرها نعوذ بالله منها.

●● ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ شياطينه، أو متبعوه من عصاة الإنس والجن.

●● ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين.

●● ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ نعدلكم أيها الأصنام ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فى العبادة.

●● ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ أى: رؤساؤهم الذين أضلوهم، أو إبليس وجنوده ومن سنّ الشرك.

●● ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الأنبياء والأولياء والملائكة.

●● ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء إذ لايتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم التعادى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(١) أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. والحميم ـ من الاحتمام وهو الاهتمام ـ الذى يهمه ما يهمك، أو من الحامّة بمعنى الخاصة، وهو الصديق الخاص، وجمع الشافع ووحد الصديق، لكثرة الشفعاء فى العادة، وأما الصديق ـ وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك ـ فقليل، وسئل حكيم عن الصديق فقال: اسم لا معنى له، وجاز أن يراد بالصديق الجمع.

●● ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وجواب لو محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت، أو لو فى مثل هذا بمعنى التمنى كأنه قيل: فليت لنا كرة لما بين معنى لو وليت من التلاقى.

---

(١) سورة «الزخرف»، الآية (٦٧).

●● ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر من الأنباء ﴿لآيَةً﴾ أى: لعبرة لمن اعتبر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فيه أن فريقا منهم آمنوا.

●● ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم ممن كذب إبراهيم بنار الجحيم ﴿الرَّحِيمُ﴾ المسلم كل ذى قلب سليم إلى جنة النعيم.

●● ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ القوم يذكر ويؤنث قيل: ولد نوح فى زمن آدم ـ عليه السلام ـ ونظيرقوله المرسلين، والمراد نوح عليه السلام قولك: فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة، أو برد أو كانوا ينكرون بعث الرسل أصلا فلذا جمع، أو لأن من كذب واحدا منهم فقد كذب الكل، لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل وكذا جميع ما فى هذه السورة.

●● ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نسبا لا دينا ﴿نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾ خالق الأنام فتتركوا عبادة الأصنام.

●● ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ كان مشهور بالأمانة فيهم كمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى قريش.

●● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الحق.

●● ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على هذا الأمر ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جزاء﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ بالفتح مدنى وشامى وأبو عمرو وحفص ﴿إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلذلك أريده.

●● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرره ليقرروه فى نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة فعلة الأول كونه أمينا فيهما بينهم، وعلة الثانى حسم طمعه منهم، كأنه قال: إذا عرفتم رسالتى وأمانتى فاتقوا الله، ثم إذا عرفتم احترازى من الأجر فاتقوا الله.

●● ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ﴾ الواو للحال وقد مضمرة بعدها دليله قراءة يعقوب وأتباعك جمع تابع كشاهد وأشهاد، أوتبع كبطل وأبطال ﴿الأَرْذَلُونَ﴾ السَّفلة والرذالة الخسة والدناءة، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقله نصيبهم من الدنيا وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنيئة والصناعة لاتزرى بالديانة، فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى، ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا، ومازالت أتباع الأنبياء كذلك.

●● ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي﴾ وأى شىء أعلم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الصناعات، إنما أطلب منهم الإيمان، وقيل: إنهم طعنوا مع استرذالهم فى إيمانهم، وقالوا: إن الذين آمنوا بك ليس فى قلوبهم ما يظهرونه فقال: ما علىَّ إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر.

●● ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أن الله يحاسبهم على ما فى قلوبهم.

●● ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعا فى إيمانكم.

●● ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما علىَّ إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذى يتميز به الحق من الباطل، ثم أنتم أعلم بشأنكم.

●● ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما تقول ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المقتولين بالحجارة.

●● ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ليس هذا إخبارا بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد أنهم كذبونى فى وحيك ورسالتك.

●● ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أى: فاحكم بينى وبينهم حكما، والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق، كما سمى فيصلا؛ لأنه يفصل بين الخصومات ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي﴾ معىَ حفص ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عذاب عملهم.

●● ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ الفلك السفينة، وجمعه فُلْك فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء، ومنه شحنة البلد أى: الذى يملؤه كفاية.

●● ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أى: بعد إنجاء نوح ومن آمن ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه.

●● ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم بإهانة من جحد وأصر ﴿الرَّحِيمُ﴾ المنعم بإعانة من وحد وأقر.

●● ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ هى قبيلة وفى الأصل اسم رجل هو أبو القبيلة.

●● ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى تكذيب الرسول الأمين ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

●● ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿آيَةً﴾ برج حمام، أو بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مرَّ بهم ﴿تَعْبَثُونَ﴾ تلعبون.

●● ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ مآخذ الماءأو قصورا مشيدة، أو حصونا ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ترجون الخلود فى الدنيا.

●● ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ أخذتم أحدًا بعقوبة ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب.

●● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى البطش ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه.

●● ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من النعم، ثم عددها عليهم فقال:

●● ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ قرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها.

●● ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إن عصيتمونى.

●● ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أى: لا نقبل كلامك ودعوتك وعظت أم سكتَّ، ولم يقل أم لم تعظ لرءوس الآى.

●● ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت واتخاذ الابتناء إلا عادة الأولين، أو مانحن عليه دين الأولين. إلا خَلْقُ الأولين مكى وبصرى ويزيد، وعلى أى ماجئت به اختلاق الأولين وكذب المتنبئين قبلك كقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾(1) أو خلقنا كخلق الأولين نموت ونحيا كما حيوا.

●● ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فى الدنيا ولا بعث ولاحساب.

●● ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى: هودا ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بريح صرصر عاتية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

●● ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ﴾ إنكار، لأن يتركوا خالدين فى نعيمهم لا يزالون عنه ﴿فِي مَا هَاهُنَا﴾ فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ﴿آمِنِينَ﴾ من العذاب والزوال والموت، ثم فسره بقوله:

●● ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا أيضا إجمال، ثم تفصيل:

●● ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ﴾ وعطف نخل على جنات مع أن الجنة تتناول النخل أول شىء تفضيلا للنخل على سائر الشجر ﴿طَلْعُهَا﴾ هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿هَضِيمٌ﴾ لين نضيج، كأنه قال: ونخل قد أرطب ثمره.

●● ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ تنقبون ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ شامى وكوفى حاذقين حال وغيرهم فرهين أشرين والفراهة: الكيس(2) والنشاط.

●● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الكافرين أو التسعة الذين عقروا الناقة، جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمى، والمراد الآمر وهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول، كقولهم: أنبت الربيع البقل.

●● ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالظلم والكفر ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾ بالإيمان والعدل والمعنى أن فسادهم مصمت ليس معه شىء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

---

(1) الأنعام (٢٥)، والأنفال (٣١)، والمؤمنون (٨٣)، والفرقان (٥)، والنمل (٦٨).

(2) الكياسة: وضع الشىء فى محله، مثل الحكمة.

●● ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحر الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله، وقيل هو من السحر الرئة وأنه بشر.

●● ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى دعوى الرسالة.

●● ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لاتزاحمكم هى فيه، روى أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا [1] فجعل صالح يتفكر، فقال له جبريل: صل ركعتين واسأل ربك الناقة ففعل، فخرجت الناقة ونتجت سقبا مثلها فى العظم وصدرها ستون ذراعا، وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء، وهذا دليل على جواز المهايأة [2]؛ لأن قوله: لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، من المهايأة.

●● ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد.

●● ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقرها قدار ولكنهم راضون به فأضيف إليهم، روى أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون أترضين فتقول نعم، وكذلك صبيانهم ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عقرها خوفا من نزول العذاب بهم لا ندم توبة، أو ندموا حين لا ينفع الندم وذلك عند معاينة العذاب، أو على ترك الولد.

●● ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المقدم ذكره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

●● ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أراد بالعالمين الناس أتطؤون الذكور من الناس مع كثرة الإناث، أو أتطؤون أنتم من بين مَن عداكم من العالمين الذكران، أى أنتم مختصون بهذه الفاحشة، والعالمين على هذا كل ما ينكح من الحيوان.

(١) السقب: اسم لولد الناقة؛ الذكر خاصة، أو ساعة يولد.
القاموس (١/ ٨٢).
(٢) المهايأة: الاتفاق على تنظيم أمرٍ ما.
القاموس (١/ ٣٤).

•• ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ من تبيين لما خلق أو تبعيض، والمراد بما خلق العضو المباح منهن وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات، ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيما ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ العادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد، أى: بل أنتم قوم أحق بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

•• ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال.

•• ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ هو أبلغ من أن يقول قال فقولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. والقلى: البغض يقلى الفؤاد والكبد وفيه دليل على عظم المعصية؛ لأن قلاه من حيث الدين.

•• ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من عقوبة عملهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ يعنى بناته ومن آمن معه.

•• ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هى امرأة لوط وكانت راضية، بذلك، والراضى بالمعصية فى حكم العاصى، واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للاشتراك فى هذا الاسم وإن لم تشاركهم فى الإيمان ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ صفة لها أى: فى الباقين فى العذاب فلم تنج منه، والغابر فى اللغة الباقى كأنه قيل: إلا عجوزا غابرة أى: مقدرا غبورها إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم.

•• ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ والمراد بتدميرهم الائتفاك[1] بهم.

•• ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ عن قتادة أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم الله، وقيل: لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرا من حجارة ﴿فَسَاءَ﴾ فاعله ﴿مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ والمخصوص بالذم وهو مطرهم محذوف ولم يرد بالمنذرين قوما بأعيانهم، بل المراد جنس الكافرين.

•• ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ بالهمزة والجر هى غيضة تنبت ناعم الشجر عن الخليل ليكة حجازى وشامى وكذا فى ص[2] علم لبلد قيل: أصحاب الأيكة هم أهل مدين التجؤوا إلى غيضة إذ ألح عليهم الوهج، والأصح أنهم غيرهم نزلوا غيضة بعينها بالبادية، وأكثر شجرهم المقل بدليل أنه لم يقل هنا

---

(١) الائتفاك بهم: أى قلب الأرض، والمؤتفكات هى الرياح التى تقلب الأرض.
(القاموس٣/ ٢٩٢).

(٢) يقصد؛ سورة «ص»، الآية (١٣).

أخوهم شعيب، لأنه لم يكن من نسبهم بل كان من نسب أهل مدين، ففي الحديث أن شعيبا أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة[1] ﴿الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

●● ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم فالكيل واف وهو مأمور به وطفيف، وهو منهى عنه وزائد وهو مسكوت عنه فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن، وإن لم يفعل فلا شيء عليه.

●● ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وبكسر القاف كوفى غير أبى بكروهو الميزان أو القبان فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي.

●● ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ يقال: بخسته حقه إذا نقصته إياه ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تبالغوا فيها فى الإفساد نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع، وكانوا يفعلون ذلك فَنُهُوا عنه يقال: عثا فى الأرض إذا أفسد، وعثى فى الأرض لغة فى عثا.

●● ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الجبلة عطف على كم أى اتقوا الذى خلقكم وخلق الجبلة ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ الماضين.

●● ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ إدخال الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما مناف الرسالة عندهم: التسحير والبشرية وتركها فى قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا، ثم كرر بكونه بشرا مثلهم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إن مخففة من الثقيلة، واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية وإنما تفرقتا على فعل الظنّ وثانى مفعوليه؛ لأن أصلهما أن يتفرقا على المبتدإ والخبر كقولك إن زيدا لمنطلق، فلما كان بابا كان وظننت من جنس باب المبتدإ والخبر فعل ذلك فى البابين، فقيل إن كان زيد لمنطلقا وإن ظننته لمنطلقا.

●● ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ كِسَفا حفص وهما [2] جمعا كسفة، وهى القطعة وكَسَفَه: قَطَعَه ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: السحاب أو الظلة ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: إن كنت صادقا أنك نبى فادع اللهَ أن يسقط علينا كسفا من السماء أى قطعا من السماء عقوبة.

●● ﴿قَالَ رَبِّي﴾ بفتح الياء حجازى وأبو عمرو وبسكونها غيرهم ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: إن

---

(١) الراجح أن أهل مدين هم أصحاب الأيكة ـ وهى شجرة كانوا يعبدونها وصفوا فى كل موضع بصفة، ووهم البعض فزعم أن شعيبا -عليه السلام- بعث إلى قومين، وقال بعضهم: بل ثلاثة. انظر ـ للإيضاح ـ تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٤) عن تفسير هذه الآية.

(٢) يقصد: «كِسَفًا» و«كِسْفًا»؛ قراءتان.

الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها مـن العذاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة.

●● ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ هى سحابة أظلتهم بعدمـا حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر سبعة أيام فاجتمعوا تحتها مستجيرين بـهاىما نالهم من الحر فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وقد كرر فى هذه السورة فى أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريرا لمعانيها فى الصدور ليكون أبلغ فى الوعظ والـزجر؛ ولأن كل قصة منها كتنزيـل برأسه وفيها من الاعتبار مثـل ما فى غيرها فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما اختتمت به.

●● ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ منزل منه.

﴿نَزَلَ بِهِ﴾ مخفف والـفاعل ﴿الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ أى: جبريل، لأنـه أمين على الوحى الـذى فيه الحياة. حجازى وأبو عمرو وزيد وحفص. وغيرهم بالتشديد ونصب الروح والفاعل هو الله تعالى أى: جعل الله الروح نازلا به، والباء على القراءتين للتعدية.

●● ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أى: حفـظك وفهمـك إياه وأثبتـه فى قلبـك إثبات ما لا يـنسى كقـوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾(١). ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

●● ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ بلغة قريش وجرهم ﴿مُّبِينٍ﴾ فصيح ومصحح عما صحفته العامة والباء، إما أن يتعـلق بالمنـذرين، أى: لتـكون من الـذين أنذروا بـهذا اللسـان وهم هود وصـالح وشعـيب وإسماعيـل ـ عليهـم السلام ـ أو بنزل أى نزله بلسان عربى لتنذر به؛ لأنه لـو نزله بلسان أعجمى لتجافـوا عنه أصلا ولقالـوا ما نصنع بما لا نفـهمه فيتعذر الإنـذار به و ، فى هذا الوجه أن تـنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له عـلى قلبك؛ لأنك تفهمه وتفهّمه قومك، ولو كان أعجمـيا لكان نازلاً عـلـى سمعك دون قلبـك، لأنك تسمع أجراس حـروف لا تفهم معانـيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات فإذا كلم بلغته التى نشأ عليها لم يكن قلبه ناظرا إلا إلى معانى الكلام وإن كلم بغيرها كان نظره أولا فى ألفاظـها، ثم فى معانيها، وإن كان ماهرا بمعرفتها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربى مبين.

●● ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ يعنى: ذكره مثبت فى سائر الكـتب السماوية وقيل إن معانيه فيها وفيـه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية فـيكون دليلا على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة.

●● ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾ ولم تكن لهـم ءايةٌ شامى جعلت آية اسـم كان وخبره ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ أى: القرآن لوجود ذكره فى التـوراة، وقيل فى تكن ضمير القصة وآية خبر مقـدم والمبتدأ أن يعلمه

---

(١) سورة «الأعلى»، الآية (٦).

والجملة خبر كان، وقيل: كان تامة والفاعل آية وأن يعلمه بـدل منها، أو خبر مبتدأ محذوف أى: أولم تحصل لـهم آية وغيره يكـن بالتذكير وآية بـالنصب على أنـها خبره وأن يعلـمه هو الاسم، وتقديره أولم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل آية ﴿عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كعبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[1] وخط فى المصحف: (علماؤا) بواو قبل الألف.

●● ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جمع أعجم وهو الذى لايفصح، وكذلك الأعجمى إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيـادة تأكيد، ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهـم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعـجمى شبهوه بمـن لا يفصح ولا يبين، والـعجمى الذى مـن جنس العجم أفـصح أولم يفصح، وقرأ الحسن الأعـجميين، وقيل: الأعجمـين تخفيف الأعجـميين كما قالـوا الأشعرون أى الأشعريـون بحذف ياء النـسبة، ولولا هذا الـتقدير لم يـجز أن يجمع جـمع السلامة، لأن مـؤنثه عجماء.

●● ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى أنا أنزلـنا القرآن على رجل عربى مبـين ففهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز، وانضم إلى ذلك اتفاق علـماء أهل الكتاب قبله على أن البشارة بإنزاله وصفته فى كتبهم، وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا فلم يومـنوا به، وسموه شعرا تارة وسحرا أخـرى وقالوا هذا من افتراء محمد ـ عـليه الصلاة والسلام ـ ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذى لايحسن الـعربية فضلا أن يقدر على نظم مثله فقرأه عليهم هكذا معجزا لكفروا به كما كفروا ولتمحلوا لجحودهم عذرا ولسموه سحرا، ثم قال:

●● ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أى: أدخلنا التكذيب، أو الكفر وهو مدلول قوله ما كانوا به مؤمنين ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين الـذين علمنا منهـم اختيار الكفر والإصرار عـليه يعنى مثل هـذا السلك سلكناه فى قلوبهم وقررناه فيها فكيفما فعل بهم وعلى أى وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به والتكذيب له كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2] وهو حجتنا على المعتزلة فـى خلق أفعال العباد خيرها وشرها.

●● وموقع قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن من قـوله سلكناه فى قلوب المجرمـين موقع الموضح والملخص، لأنه مسوق لثبات كـونه مكذبا مجحودا فى قلـوبهم فأتبع ما يقرر هذا المـعنى من أنهم لايزالون على التكـذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعـيد، ويجوز أن يكون حالا أى: سلكناه فيها غير مؤمن به ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ المراد معاينة العذاب عـند الموت، ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم.

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٥٣). (٢) سورة «الأنعام»، الآية (٧).

●● ﴿فيأْتيَهم بَغْتَة﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُون﴾ بإتيانه.

●● ﴿فَيقُولُوا﴾ وفيأتيهم معطوفان على يروا ﴿هَلْ نَحنُ مُنظَرُونَ﴾ يسألون النظِرة والإمهال طرفة عين فلا يجابون إليها.

●● ﴿أَفبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ توبيخ لهم وإنكار عليهم قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. ونحو ذلك.

●● ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ قيل: هى سنو مدة الدنيا.

●● ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.

●● ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ به فى تلك السنين والمعنى أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال فى سلامة وأمن، فقال الله تعالى: (أفبعذابنا يستعجلون). أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل، ثم قال: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم، قال يحيى بن معاذ: أشد الناس غفلة من اغتر بحياته والتذّ بمراداته وسكن إلى مألوفاته، والله تعالى يقول: «أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون»، وعن ميمون بن مهران[2] أنه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال: عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون: قد وعظت فأبلغت. وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم.

●● ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ رسل ينذرونهم ولم تدخل الواو على الجملة بعد إلا كما فى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾[3] لأن الأصل عدم الواو إذ الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف.

●● ﴿ذِكْرَىٰ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة؛ لأن أنذر وأذكر متقاربان، فكأنه قيل مذكرون تذكرة، أو حال من الضمير فى منذرون أى: ينذرونهم ذوى تذكرة، أو مفعول له أى: ينذرون، لأجل التذكرة والموعظة أو مرفوعة على أنها خبر مبتدإ محذوف بمعنى هذه ذكرى، والجمله اعتراضية، أو صفة

(١) سورة «الأنفال»، الآية (٣٢).

(٢) هو التابعى، الفقيه، الثقة؛ ميمون بن مهران الجزرى، أبو أيوب الرقى الفقيه، نشأ بالكوفة ثم نزل الرقة، روى عن عمر، والزبير مرسلاً، وعن أبى هريرة وعائشة وابن عمر، وغيرهم من الصحابة، وكبار التابعين، «ثقة، فقيه، وكان يرسل، من الرابعة». توفى عام ١١٧هـ، وهو ابن ثمانين عاماً.
تهذيب التهذيب (٥/ ٥٩٢، ٥٩٣).

(٣) سورة «الحجر»، الآية (٤).

بمعنى منذرون ذوو ذكرى، أو تكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له، والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فتهلك قوما غير ظالمين، ولما قال المشركون: إن الشياطين تلقى القرآن على محمد أنزل:

●● ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾أى: القرآن ﴿الشَّيَاطِينُ﴾.

●● ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يتسهل لهم ولا يقدرون عليه.

●● ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ لممنوعون بالشهب.

●● ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ مورد النهى لغيره على التعريض والتحريك له على زيادة الإخلاص.

●● ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ خصهم لنفى التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئا وأن النجاة فى اتباعه دون قربه، ولما نزلت صعد الصفا ونادى الأقرب بالأقرب، وقال: «يا بنى عبد المطلب، يا بنى هاشم، يا بنى عبد مناف، يا عباس عم النبى، يا صفية عمة رسول الله، إنى لا أملك لكم من الله شيئا»(١).

●● ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وألن جانبك وتواضع، وأصله أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من عشيرتك وغيرهم.

●● ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعنى: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره.

●● ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم، والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره، وقالوا: المتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية الله، وقال الجنيد - رضى الله عنه -: التوكل أن تقبل بالكلية على ربك، وتعرض بالكلية عما دونه، فإن حاجتك إليه فى الدارين. فتوكل مدنى وشامى عطف على فقل أو فلا تدع.

●● ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ متهجدا.

●● ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ أى: ويرى تقلبك ﴿فِي السَّاجِدِينَ﴾ فى المصلين. أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح

(١) الحديث عند ابن حبان، عن أبى هريرة.

أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لايشعرون، وليعلم أنهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم، وقيل: معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة، وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة: هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن؟ فقال: لا يحضرنى فتلا له هذه الآية.

●● ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمله هوّن عليه معاناة مشاق العبادات حيث أخبر برؤيته له إذ لا مشقة على من يعلم أنه يعمل بمرأى مولاه، وهو كقولك: بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى، نزل جوابا لقول المشركين: إن الشياطين تلقى السمع على محمد (ﷺ).

●● ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أى: هل أخبركم أيها المشركون ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾؟ ثم نبّأ فقال:

●● ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ مرتكب للآثام: وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح [1] وطليحة[2] ومسيلمة[3]، ومحمد (ﷺ) يشتم الأفاكين ويذمهم فكيف تنزل الشياطين عليه.

●● ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملإ الأعلى فيحفظون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يوحون به إلى أوليائهم. ويلقون حال، أى: تنزل ملقين السمع أو صفة لكل أفاك؛ لأنه فى معنى الجمع فيكون فى محل الجزاء أو استئناف فلا يكون له محل كأنه قيل: لم تنزل على الأفاكين فقيل يفعلون كيت وكيت ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمع أى: المسموع من الملائكة وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين ويتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم، والأفاك الذى يكثر الإفك، ولايدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى وأكثرهم مفتر عليه، وعن الحسن وكلهم، وإنما فرق بين وإنه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين، وهل أنبئكم على من تنزل الشياطين، وهن أخوات، لأنه إذا فرق بينهن بآيات ليست منهن ثم رجع إليهن مرة بعد مرة دل ذلك على شدة العناية بهن، كما إذا حدثت حديثا وفى صدرك اهتمام بشىء فتعيد ذكره ولا تنفك عن الرجوع

---

(١) سطيح؛ كاهن جاهلى اسمه: ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدى بن الذئب، من بنى مازن، الأزدى، الغسانى، مات بعد عام الفيل بنحو عام.

الأعلام (٣/ ١٤).

(٢) هو: طليحة بن خويلد، الأسدى ـ أسد خزيمة ـ أسلم ثم ارتد وتنبأ، ثم تاب وأسلم، وحسن إسلامه، وشارك فى كثير من الفتوح. توفى عام ٢١هـ.

الأعلام (٣/ ٢٣٠).

(٣) مسيلمة: انظر ترجمته عند تفسير أول سورة «فاتحة الكتاب».

إليه ونزل فيمن كان يقول الشعر ويقول: نحن نقول كما يقول محمد (ﷺ)، واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم.

●● ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ مبتدأ خبره ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أى: لايتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب ومدح من لايستحق المدح ولايستحسن ذلك منهم إلا الغاوون أى السفهاء، أو الراوون أو الشياطين، أو المشركون، قال الزجاج: إذا مدح، أو هجا شاعر بمالا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون يتبعهم نافع.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهِيمُونَ﴾ خبر أن أى فى كل فن من الكذب يتحدثون أو فى كل لغو وباطل يخوضون، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له، وهو تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول، واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة[١] وأبخلهم على حاتم[٢].

عن الفرزدق[٣] أن سليمان بن عبدالملك[٤] سمع قوله.

فبتن بجانبىَّ مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال: وجب عليك الحد، فقال: قد درأ الله عنى الحد بقوله:

●● ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ حيث وصفهم بالكذب والخلف فى الوعد: ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله.

●● ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كعبد الله بن رواحة [٥] وحسان بن ثابت[٦] وكعب

---

(١) هو الفارس الجاهلى والشاعر الأشهر؛ عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد، العبسى، من فطاحل الشعر فى الجاهلية؛ فهو واحد من شعراء المعلقات، وهو كذلك أشجع وأعظم فرسان العرب فى الجاهلية، مات قبل البعثة بنحو عشر سنين.
الأعلام (٥/ ٩١).

(٢) هو أجود العرب، حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج، الطائى القحطانى الشهير بـ: «حاتم الطائى»، أبو عدى بن حاتم؛ صحابى، كانت العرب تضرب بحاتم المثل فى الجود والسخاء، وأكرم النبى ﷺ ولده «عدى» لذلك، وكان فارساً كذلك. مات بعد الفيل بنحو سبع سنين.
الأعلام (٢/ ١٥١).

(٣) هو الشاعر العملاق؛ همام بن غالب بن صعصعة، التميمى، الدارى، أبو فراس، الشهير بلقبه «الفرزدق»، من أشهر شعراء العصر الأموى، استشهد بشعره علماء اللغة.
توفى عام ١١٠هـ.
الأعلام (٨/ ٩٣).

(٤) هو الخليفة الأموى؛ سليمان بن عبدالملك بن مروان، أبو أيوب، من الخلفاء الفاتحين، تميز بالفطنة والكياسة، وكذلك الفصاحة ولد عام ٥٤هـ، وتوفى عام ٩٩هـ.
الأعلام (٣/ ١٣٠).

(٥) هو الصحابى الشهيد، عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس، الأنصارى، الخزرجى، أبو محمد المدنى، شهد بدراً والعقبة، وهو أحد النقباء، وأحد الأمراء فى غزوة مؤتة عام ٨ هـ، وبها استشهد، كان له نصيب من الشعر والفصاحة.
تهذيب التهذيب (٣/ ١٤٠).

(٦) حسان بن ثابت، انظر ترجمته عند تفسير الآية (١١) من سورة «النور».

ابن زهير[١] وكعب بن مالك[٢] - رضى الله عنهم - ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ أى: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعرا قالوه فى توحيد الله تعالى والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأدب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الأمة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب، وقال أبو يزيد[٣] : الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة؛ لكنه بالحضور ﴿وَانتَصَرُوا﴾ وهجوا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ هجوا أى: ردوا هجاء من هجا رسول الله (ﷺ) والمسلمين، وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله (ﷺ) وهجاه وعن كعب بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال له: «اهجهم فو الذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل»[٤] وكان يقول لحسان: «قل وروح القدس معك»[٥] ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبرين وهو قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه، وقوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ وإبهامه، وقد تلاها أبو بكر لعمر - رضى الله تعالى عنه - حين عهد إليه وكان السلف يتواعظون بها، قال ابن عطاء: وسيعلم المعرض عنا ما الذى فاته منا، وأىّ منصوب ينقلبون على المصدر لا بيعلم؛ لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها أى: ينقلبون أىّ انقلاب.

---

(١) هو: كعب بن زهير بن أبى سلمى، المازنى، من عائلة غنية بالشعراء؛ فهو وأبوه، وولده، وحفيده من كبار الشعراء فى مختلف العصور.
توفى عام٢٦هـ.
الأعلام (٥/ ٢٢٦).

(٣) هو الصحابى الشاعر التائب، كعب بن مالك، أحد الثلاثة الذين خلفوا، وتاب الله عليهم، انظر ترجمته عند تفسير الآية (١١٨) من سورة «التوبة».

(٣) هو: طيفور بن عيسى، أبو يزيد البسطامى، زاهد من كبار الصوفية، مذكور فى كتبهم، لم يكن له من الحديث كبير حظ؛ فلم يذكره ابن حجر. ولد عام ١٨٨هـ، وتوفى عام ٢٦١هـ.
الأعلام (٣/ ٢٣٥).

(٤) الحديث فى مسند عبدالرزاق، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه.

(٥) الحديث فى الصحيحين، وغيرهما.

(سورة النمل مكية وهى ثلاث وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أى: وآيات كتاب مبين وتلك إشارة إلى آيات السورة، والكتاب المبين: اللوح، وآياته أنه قد خط فيه كل ماهوكائن فهو يبين للناظرين فيه آياته، أو القرآن وآياته إنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم، وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى نحو هذا فعل السخى والجواد ونكر الكتاب ليكون أفخم له، وقيل: إنما نكر الكتاب هنا وعرفه فى الحجر وعرف القرآن هنا ونكره ثَمَّ؛ لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد - عليه الصلاة والسلام - ووصفان له، لأنه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف.

●● ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ فى محل النصب على الحال من آيات أى: هداية وبشارة فالعامل فيها ما فى تلك من معنى الإشارة، أو الجر على أنه بدل من كتاب، أو صفة له أو الرفع على هى هدى وبشرى، أو على البدل من آيات، أو على أن يكون خبرا بعد خبر لتلك أى تلك آيات وهادية من الضلالة ومبشرة بالجنة، وقيل: هدى لجميع الخلق وبشرى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ خاصة.

●● ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ يديمون على فرائضها وسننها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يؤدون زكاة أموالهم ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من جملةصلة الموصول ويحتمل أن تتم الصلة عنده وهو استئناف، كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، ويدل عليه أنه عقد جملة اسمية وكررفيها المبتدأ الذى هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسنا كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾(١) ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون فى ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطريق.

●● ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ أشد الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله.

---

(١) سورة «فاطر»، الآية (٨).

●● ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ من عند أىّ حكـيم وأىّ عليم وهذا معنى تنكيرهما وهذه الآية بساط وتمهيـد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه.

●● ﴿إِذْ﴾ منصوب باذكر، كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ لزوجتـه ومن معه عـند مسيـره من مدين إلـى مصر ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ أبصرت ﴿ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حـال الطريق، لأنـه كان قد ضـله ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ﴾ بالتنوين كوفى أى شـعلة مضيئة ﴿قَبَسٍ﴾ نار مقبوسـة بدل، أوصفة. وغيرهم بشهـابِ قبسٍ على الإضافة لأنه يكون قبسا وغير قبس ولا تدافع بين قولـه: «سآتيكم» هنا «ولعلى» آتيكم فى القصص مع أن أحدهما ترج والآخر تيقن؛ لأن الراجى إذا قوى رجـاؤه يقول سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة ومجيئه بسين التسويف عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة وبأو، لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جمـيعاً لم يعدم واحدة منهما، إما هداية الطريق وإما اقتباس النار ولم يدر أنه ظافر على النار بحاجتـيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة واختلاف الألفاظ فى هاتين السورتين والقصـة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى، وجواز الـنكاح بغير لفظ التزوج ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذى أصـابكم والطاء بدل من تاء افتعل لأجل الصاد.

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أى: النـار التى أبصـرها ﴿نُودِيَ﴾ موسى ﴿أَن بُورِكَ﴾ مخففة من الـثقيلة وتقديره نودى بأنه بورك والـضمير ضمير الشأن وجاز ذلك من غير عـوض وإن منعه الزمخشرى؛ لأن قوله بورك دعاء والدعاء يخـالف غيره فى أحكام كثيرة، أو مفسرة، لأن فى الـنداء معنى القول أى قيل له بورك أى قدس أو جعل فـيه البركة والخير﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى بورك من فى مكان النـار، وهم الملائكة ومن حول مـكانها أى موسى لحدوث أمـر دينى فيها، وهو تـكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هو من جملـة ما نودى فقد نزه ذاته عما لايليق به من التشبيه وغيره.

●● ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الضمير فـى إنه للشأن والشأن أنا الله مـبتدأوخبر، والعزيز الحكيم صفتـان للخبر، أو يرجع إلىّ ما دل عليه ما قبله أى إن مـكلمك أنا والله بيان لأنا والعزيز الحكيم صفتان للمبين وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات.

●● ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ لتعلـم معجزتك فتأنس بـها وهو عطف على بورك، لأن المـعنى نودى أن بورك من فى النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لـنودى،والمعنى قيل له بورك من فى النار وقيل له ألق عصاك ويدل عليه مـا ذكر فى سورة القصص ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾(1) بعد قوله : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي

(1) سورة «القصص»، الآية (31).

﴿أَنَا اللَّهُ﴾[1] على تكرير حرف التفسير ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك حال من الهاء فى رآها ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حية صغيرة حال من الضمير فى تهتز ﴿وَلَّىٰ﴾ موسى ﴿مُدْبِراً﴾ أدبر عنها وجعلها تلى ظهره خوفا من وثوب الحية عليه ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يلتفت أو لم يرجع يقال: قد عقب فلان إذارجع يقاتل بعد أن ولى فنودى ﴿يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: لا يخاف عندى المرسلون حال خطابى إياهم، أو لا يخاف لدى المرسلون من غيرى.

●● ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ أى: لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لايظلمون أو لكن من ظلم منهم من زل من المرسلين فجاء غير ما أذنت له مما يجوز على الأنبياء، كما فرط من آدم ويونس وداود وسليمان ـ عليهم السلام ـ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أى: أتبع توبة ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ زلة ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أقبل توبته وأغفر زلته وأرحمه فأحقق أمنيته وكأنه تعريض بما قال موسى حين قتل القبطى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾[2] .

●● ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك وأخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ نيرة تغلب نور الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص «وبيضاء» و«من غير سوء» حالان ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ كلام مستأنف وفى يتعلق بمحذوف أى اذهب فى تسع آيات، أو وألق عصاك وأدخل يدك فى جملة تسع آيات ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ إلى يتعلق بمحذوف أى مرسلا إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن أمر الله كافرين .

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ أى: معجزاتنا ﴿مُبْصِرَةً﴾ حال أى ظاهرة بينة، جعل الإبصار لها وهو فى الحقيقة لمتأمليها؛ لملابستهم إياها بالنظر والتفكر فيها، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى، لأن الأعمى لايقدر على الاهتداء فضلا أن يهدى غيره، ومنه قولهم كلمة عيناء وعوراء، لأن الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوى ﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر لمن تأمله وقد قوبل بين المبصرة والمبين.

●● ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ قيل الجحود لايكون إلا من علم من الجاحد وهذا ليس بصحيح، لأن الجحود هو الإنكار وقد يكون الإنكار للشىء للجهل به وقد يكون بعد المعرفة تعنتا، كذا ذكر فى شرح التأويلات، وذكر فى الديوان[3] يقال: جحد حقه وبحقه بمعنى والواو فى ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا﴾ للحال وقد بعدها مضمرة والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ أى: جحدوها بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم وضمائرهم ﴿ظُلْمًا﴾ حال من الضمير فى وجحدوا وأى ظلم أفحش من ظلم

(١) سورة «القصص» الآية (٣٠).

(٢) سورة «القصص»، الآية (١٦).

(٣) الديوان: يقصد به: كتاب «التبيان فى شرح ديوان أبى الطيب المتنبى» لأبى البقاء العكبرى.

من استيقن أنـها آيات من عند الله، ثم سماها سـحرا بينا ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعا عن الإيمـان بما جاء به موسى ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق هنا والإحراق ثمة.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم أو علمـا سنيا غزيرا، المراد علم الدين والحكم ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والآيات حجة لـنا على المعتزلة فى ترك الأصلح وهنا محذوف ليصح عـطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء كقولك أعطـيته فشكر، وتقديره: آتيناهما عـلما فعملا به وعلماه وعرفا حق الـنعمة فيه وقالا الحمد لله الذى فضلنا، والكثير المفضل عليه مـن لم يؤت علما، أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثيـر وفضل عليهما كثير، وفى الآية دليل على شرف العـلم وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجـلّ النعم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثيـر من عباده، وما سماهم رسول الله، ﷺ ورثة الأنـبياء [(١)] إلا لمداناتهم لهـم فى الشرف والمنزلة؛ لأنهم القـوام بمابعثوا من أجله وفيها أنه يلزمـهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتـوه وإن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقـد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر ـ رضـى الله عنه ـ كل الناس أفقه من عمر [(٢)]، رضى الله عنه.

●● ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: ورِثَ منه النـبوة والملك دون سائر بنـيه وكانوا تسعة عـشر قالوا أوتى النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لاتورث ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ تشهيرا لنعمة الله تعالى واعترافـا بمكانها، ودعاء للناس إلى التـصديق بذكر المعجزة التى هـى علم منطق الطير والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفـيد وغير المفيد، وكان سليمان -عليه السلام- يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض. روى أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقـوا وصاح طاوس، فقال: يقول كـما تدين تدان، وصاح هـدهد فقال: يقول استـغفروا الله يا مذنبين، وصاح خطاف، فقال: يقول قـدموا خيراً تجدوه، وصاحت رخمة فقال: تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضـه، وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربـى الأعلى وقال: الحدأة تقول كل شيء هـالك إلا الله. والقطـاة تقول: من سكـت سلم. والديك يـقول اذكروا الله ياغـافلين، والنسر يقول: يا ابن آدم عش مـا شئت آخرك الموت، والعـقاب يقول: فى البعد مـن الناس أنس والضفدع يقول: سبحان ربى القدوس ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ المراد به كثرة ما أوتى كما تقول فلان يعلم كل شيء ومثله﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٣)] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ قوله وارد على سبيل

---

(١) الحديث عند أبى داود والترمذى وابن ماجة، وغيرهم، من حديث أبى الدرداء.

(٢) الحديث رواه أصحاب السـنن، وغيرهم، بأسانيد مختـلفة أقواها «من طريق محمـد بن سيرين عن أبى العجفاء».

(٣) سورة «النمل»، الآية (٢٣).

الشكر كقوله: «أنا سيد ولد آدم ولافخر»[1] أى: أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخرا. والنون فى علمنا وأوتينا نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا فكلم أهل طاعته على الحال التى كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك.

●● ﴿وَحُشِرَ﴾ وجمع ﴿لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ روى أن معسكره كان مائة فرسخ فى مائة فرسخ، خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية، وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وإبريسم [2] فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لايقع عليه حر الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر، ويروى أنه كان يأمرالريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو يسير بين السماء والأرض إنى قد زدت فى ملكك أن لايتكلم أحد بشىء. إلا ألقته الريح فى سمعك، فيحكى أنه مر بحراث فقال: لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقه الريح فى أذنه فنزل ومشى إلى الحراث، وقال: إنى جئت إليك لئلا تتمننى مالا تقدر عليه، ثم قال: لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم أى يوقف سلاف[3] العسكر حتى يلحقهم التوالى ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة. والوزع: المنع، ومنه قول عثمان ـ رضى الله عنه ـ ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن.

●● ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أى: ساروا حتى إذا بلغوا وادى النمل، وهو واد بالشام كثير النمل وعدى بعلى؛ لأن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ عرجاء تسمى طاخية، أو منذرة وعن قتادة: أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم، فسأله أبو حنيفة -رضى الله عنه -وهو شاب- عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فأفحم، فقال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ : كانت أنثى فقيل له: بماذا عرفت فقال: بقوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال: قال نملة، وذلك أن النملة مثل الحمامة فى وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهى ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ ولم يقل: ادخلن؛ لأنّه لما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كمّا يكون فى أُوْلِى العقل أجرى خطابهّن مجرى خطابهم ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لايكسرنكم، والحطم الكسر، وهو نهى مستأنف وهو فى الظاهر

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الدلائل من رواية سهيل عن أبيه عن أبى هريرة.

(٢) الإبريسم: أحسن الحرير.

(المعجم الوسيط ١/٢).

(٣) سلف كل شىء؛ سابقه وأوله.

نهى لسليمان عن الحطم وفى الحقيقة نهى لهن عن البروز والوقوف على طريقة لا أرينك ها هنا أى: لاتحضر هذا الموضع، وقيل: هو جواب الأمر وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لأنه من ضرورات الشعر ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ قيل: أراد لايحطمنكم جنود سليمان فجاء بماهو أبلغ ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون بمكانكم أى: لو شعروا لم يفعلوا قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال.

•• ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ متعجبا من حذرها واهتدائها لمصالحها، ونصيحتها للنمل، أو فرحا لظهور عدله. وضاحكا حال مؤكدة لأن تبسم بمعنى ضحك وأكثر ضحك الأنبياء التبسم كذا قاله الزجاج ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمنى وحقيقته كفنى عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ من النبوة والملك والعلم ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ فى بقية عمرى ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ وأدخلنى الجنة برحمتك لا بصالح عملى إذ لايدخل الجنة أحد إلابرحمته كماجاء فى الحديث ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: فى زمرة أنبيائك المرسلين، أو مع عبادك الصالحين. روى أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم فى الهواء، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة.

•• ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ﴾ مكى وعلى وعاصم، وغيرهم بسكون الياء. والتفقد طلب ما غاب عنك ﴿لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أم بمعنى بل والمعنى: أنه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد، فقال: مالى لا أراه على معنى أنه لايراه وهو حاضر لساتر ستره، أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول بل هو غائب، وذكر أن سليمان ـ عليه السلام ـ لما حج خرج إلى اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلى فلم يجد الماء، وكان الهدهد قُنَّاقنه (١) وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء فى الزجاجة فتستخرج الشياطين الماء فتفقده لذلك، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليّ به، فارتفع فنظر فإذا هو مقبل فقصده فناشده الله فتركه فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض، وقال: يانبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله فارتعد سليمان وعفا عنه.

•• ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بنتف ريشه وإلقائه فى الشمس، أو بالتفريق بينه وبين إلفه أوبإلزامه خدمة أقرانه،أو بالحبس مع أضداده وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد ، أو بإيداعه القفص، أو بطرحه بين يدى النمل ليأكله وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة

(١) القناقن: البصير بالماء.
القاموس (٤/ ٢٦١).

كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بالنون الثقيلة ليشاكل قوله لأعذبنه وحذف نون العماد للتخفيف . ليأتينني بنونين مكى؛ الأولى للتأكيد، والثانية للعماد ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة له فيها عذر ظاهر علـى غيبته والإشكـال أنه حلف على أحد ثـلاثة أشياء: اثنان مـنها فعله ولامـقال فيه والثالث: فعل الهـدهد وهو مشكل؛ لأنه مـن أين درى أنه يأتى بسـلطان حتى قال والله ليـأتينى بسلطان، وجوابه: أن معنى كـلامه ليكونن أحـد الأمور يعنى إن كان الإتـيان بالسلطـان لم يكن تعذيب ولاذبح، وإن لم يكن كان أحدهما وليس فى هذا ادعاء دراية.

•• ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد بعد تفقد سليمان إياه، وبضـم الكاف غير عاصم وسهل ويعقوب، وهما لغتان ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أى: مكثاً غير طويل، أو غير زمان بعيد كـقوله عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان فلما رجع سأله عما لقى فى غيبته ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ علمت شيئاً من جميع جهاته ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ ألهم الله الهدهد فكافح سلـيمان بهذا الكلام مع ما أوتى من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له فى علـمه، وفيه دليل بطلان قول الرافضه أن الإمام لايخفى عليه شيء ولايكون فى زمـانه أحد أعلم منه ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ ـ سبَأَ ـ غير منـصرف. أبو عمرو جعله اسما للقـبيلة، أو المدينة وغيره بالتنوين جعلـه اسما للحى، أو الأب الأكبر ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبإٍ بنبإٍ من محاسن الـكلام، ويسمى البديع وقد حسن وبدع لفظا، ومعنى ها هنا ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما فى النبإ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال.

•• ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً﴾ هى بلقيس بنت شراحيل وكان أبـوها ملك أرض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس، والضمير فى ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ راجع إلى سبأ على تأويل القوم، أو أهل المدينة ﴿ وَأُوتِيَتْ﴾ حال، وقد مقدرة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا مايـليق بحالها ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير عظيم ﴿عَظِيمٌ﴾ كبير قيل كـان ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعـا وطوله فى الهواء ثـمانون ذراعا وكان من ذهب وفـضة وكان مرصعا بـأنواع الجواهر وقوائمـه من ياقوت أحمر وأخـضر و در وزمرد، وعليـه سبعة أبواب عـلى كل بيت باب مـغلق، واستصغر حـالها إلى حال سليمان فـاستعظم عرشها لـذلك، وقد أخفى الله تعالى علـى سليمان ذلك لمصلحة رآها، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام.

•• ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أى: سبيل التوحيد ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق ولا يبعد من الهدهـد التهدى إلى معرفة

الله تعالى وووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس إلهاما من الله له كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التى لايكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها.

●● ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد أى: فصدهم عن السبيل، لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن وأدغمت النون فى اللام، ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لايهتدون إلى أن يسجدوا وبالتخفيف يزيد وعلى وتقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا فألا للتنبيه، ويا حرف نداء ومناداه محذوف، فمن شدد لم يقف إلا على العرش العظيم، ومن خفف وقف على فهم لايهتدون ثم ابتدأ ألا يسجدوا أو وقف على ألا يا ابتدأ اسجدوا وسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعًا بخلاف ما يقوله الزجاج إنه لايجب السجود مع التشديد؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح للآتى بها أو ذم لتاركها وإحدى القراءتين أمر والأخرى ذم للتارك ﴿لِلَّهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ سمى المخبوء بالمصدر ﴿فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قتادة خبء السماء المطر وخبء الأرض النبات ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وبالتاء [1] فيهما على وحفص.

●● ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وصف الهدهد عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ماخلق من السماوات والأرض ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك إلى ههنا كلام الهدهد ، فلما فرغ من كلامه؛

●● ﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذى هو التأمل ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرت ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهذا أبلغ من أم كذبت ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا لامحالة وإذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به، ثم كتب سليمان كتابا صورته: «من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ: بسم الله الرحمن الرحيم. السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وآتونى مسلمين» وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد:

●● ﴿اذْهَب بِّكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِه﴾ بسكون الهاء تخفيفا أبو عمرو وعاصم وحمزة. ويختلسها كسرا لتدل الكسرة على الياء المحذوفة يزيد وقالون ويعقوب. فألقهى بإثبات الياء غيرهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معها فى قوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولايرونك ليكون ما يقولونه بمسمع منك ﴿فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ما الذى يردونه من الجواب فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ودخل عليها من كوة فطرح الكتاب على نحرها وهى راقدة، وتوارى فى الكوة فانتبهت فزعة، أو أتاها والجنود حواليها فرفرف ساعة وألقى الكتاب فى حجرها، وكانت قارئة فلما رأت الخاتم؛

---

(١) يتضح من ذلك أنه يقرأ بالقراءة الأخرى، بالياء؛ أى: «يخفون»، «يعلنون».

•• ﴿قَالَت﴾ لقومها خاضعة خائفة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي﴾ وبفتح الياء مدنى ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مضمونه وما فيه، أو مختوم. قال - عليه الصلاة والسلام -: «كرم الكتاب ختمه»(١) وقيل من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به، أو مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم، أو لأنه من عند ملك كريم.

•• ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هو تبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت إنى ألقى إلى كتاب كريم، قيل لها: ممن هو؟ وماهو؟ فقالت: إنه من سليمان، وإنه كيت وكيت.

•• وأن فى ﴿أَلاَّ تَعْلُوا﴾ لا ترفعوا ﴿عَلَيَّ﴾ولا تتكبروا كما يفعل الملوك مفسرة كقوله: «وانطلق الملأ منهم أن امشوا» يعنى أى امشوا» ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين، وكتب الأنبياء مبنية على الإيجاز والاختصار.

•• ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أشيروا على فى الأمر الذى نزل بى والفتوى: الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء فى السن، والمراد هنا بالفتوى الإشارة عليها بماعندهم من الرأى وقصدها بالرجوع إلى استشارتهم تطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ فاصلة، أو ممضية حكما ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ بكسر النون، والفتح لحن، لأن النون إنما تفتح فى موضع الرفع، وهذا فى موضع النصب وأصله تشهدوننى فحذفت النون الأولى للنصب والياء لدلالة الكسرة عليها وبالياء فى الوصل والوقف يعقوب أى: تحضروني، أو تشيروني، أو تشهدوا أنه صواب أى: لا أبت إلا بمحضركم وقيل كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كل واحد على عشرة آلاف.

•• ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أرادوا بالقوة: قوة الأجساد والآلات، وبالبأس النجدة والبلاء فى الحرب ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أى: موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولانخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة وأنت ذات الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نتبع رأيك، فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب فزيفت أولاً ماذكروه وأرتهم الخطأ فيه حيث...

•• ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وقهرا ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ خربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ثم قالت ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أرادت وهذه عادتهم المستمرة التى لاتتغير؛ لأنها كانت فى بيت الملك القديم

---

(١) الحديث عند الطبرانى فى المعجم الأوسط من حديث ابن عباس.

فسمعت نحو ذلك ورأت، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد، وقيل: هو تصديق من الله لقولها واحتج الساعى فى الأرض بالفساد بهذه الآية. ومن استباح حراما فقد كفر، وإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين.

•• ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ أى: مرسلة رسلا بهدية ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ فمنتظرة ﴿بِمَ﴾ أى بما؛ لأن الألف تحذف مع حرف الجر فى الاستفهام ﴿يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ بقبولها أم بردها، لأنها عرفت عادة الملوك وحسن مواقع الهدايا عندهم فإن كان ملكا قبلها وانصرف وإن كان نبيا ردها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه، فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسمائة جارية على رماك [1] فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجا مكللا بالدر والياقوت، وحقا فيه درة عذراء، وجزعة[2] معوجة الثقب، وبعثت رسلا وأمرت عليهم المنذر بن عمرو بدليل قوله تعالى: بم يرجع المرسلون. وكتبت كتابا فيه نسخة الهدايا، وقالت فيه: إن كنت نبيا فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما فى الحق واثقب الدرة ثقبا واسلك فى الخرزة خيطاً، ثم قالت للمنذر إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره وإن رأيته بشاشا لطيفا فهو نبى، فأقبل الهدهد وأخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والإنس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا ولما وقفوا بين يديه نظرإليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحق فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها [3] ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى، ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية، وقال للمنذر ارجع إليهم.

•• ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ رسولها المنذر بن عمرو ﴿سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ بنونين وإثبات الياء فى الوصل والوقف مكى وسهل وافقهما مدنى وأبو عمرو فى الوصل أتمدونى حمزة ويعقوب فى الحالين. وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما والخطاب للرسل ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ من النبوة والملك والنعمة. وبفتح الياء مدنى وأبو عمرو وحفص ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ من زخارف الدنيا ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

(١) الرماك؛ جمع «رمكة»، أنثى الفرس الأعجمى.

(٢) جزعة: كل ما اجتمع فيه بياض وسود.
(المعجم الوسيط ١/ ١٢١).

(٣) قوله «فيها»، أى: فى الخرزة المارّ ذكرها.

﴿تَفْرَحُونَ﴾ الهدية اسم المهدى كما أن العطية اسم المعطى فتضاف إلى المهدى والمهدى له تقول هذه هدية فلان تريد هى التى أهداها، أو أُهديت إليه، والمعنى: إن ما عندى خير مما عندكم، وذلك أن الله آتانى الدين الذى فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع، وآتانى من الدنيا ما لايستزاد عليه فكيف يرضى مثلى بأن يُمَدَّ بمال بل أنتم قوم لاتعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فلذلك تفرحون بما تزادون ويُهدَى إليكم، لأن ذلك مبلغ همتكم، وحالى خلاف حالكم، وما أرضى منكم بشيء، ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية، والفرق بين قولك: أتمدوننى بمال وأنا أغنى منكم وبين أن تقوله بالفاء أنى إذا قلته بالواو جعلت مخاطبى عالماً بزيادتى فى الغنى وهو مع ذلك يمدنى بمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى فأنا أخبره الساعة بمالا أحتاج معه إلى إمداده كأنى أقول له أنكر عليك ما فعلت فإنى غنى عنه وعليه ورد فما آتانى الله، ووجه الإضراب أنه لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذى حملهم عليه وهو أنهم لايعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التى لايعلمون غيرها.

•• ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ خطاب للرسول، أو الهدهد محملاً كتاباً آخر إليهم: ائت بلقيس وقومها ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: لا طاقة لهم بها وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أى لايقدرون أن يقابلوهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ من سبأ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الذل أن يذهب عنهم ماكانوا فيه من العز والملك، والصغار أن يقعوا فى أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا وقص عليها القصة قالت: هو نبى وما لنا به طاقة، ثم جعلت عرشها فى آخر سبعة أبيات وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه، وبعثت إلى سليمان إنى قادمة إليك لأنظر ما الذى تدعو إليه، وشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قيل(1) تحت كل قيل ألوف فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان.

•• ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان، أو أراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها وهذا بعيد عند أهل التحقيق، أوأراد أن يؤتى به فيُنَكَّر ويغير، ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختبارا لعقلها.

•• ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وهو الخبيث المارد واسمه ذكوان ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ مجلس حكمك وقضائك ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ على حمله ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ آتى به كما هو لا آخذ منه شيئاً ولا أبدله، فقال سليمان - عليه السلام - : أريد أعجل من هذا.

•• ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أى ملك بيده كتاب المقادير أرسله الله تعالى عند قول العفريت، أو جبريل - عليه السلام - والكتاب على هذا اللوح المحفوظ، أو الخضر، أو آصف بن

---

(1) القَيْل: من ملوك اليمن فى الجاهلية، دون الملك الأعظم.
(المعجم الوسيط ٢/٧٦٧).

برخيا كاتب سليمان، وهو الأصح، وعليه الجمهور وكان عنده اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وهو: ياحى يا قيوم ياذا الجلال والإكرام، أو ياإلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت، وقيل: كان له علم بمجارى الغيوب إلهاما ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ بالعرش وآتيك فى الموضعين يجوز أن يكون فعلا، أو اسم فاعل ومعنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك، ويروى أن آصف قال لسليمان - عليه السلام - : مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمن قدعا آصف فغار العرش فى مكانه، ثم نبع عند مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل أن يرتد طرفه ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ أى: العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ ثابتا لديه غير مضطرب ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أى حصول مرادى وهو حضور العرش فى مدة ارتداد الطرف ﴿مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ علىَّ وإحسانه إلىَّ بلا استحقاق منى بل هو فضل خال من العوض صاف عن الغرض ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ ليمتحننى آأشكر إنعامه ﴿أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ويستجلب به المزيد وترتبط به النعمة، فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة. وفى كلام بعضهم: إن كفران النعمة بوار، وقلما أقشعت نافرة فرجعت فى نصابها فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار. وأعلم أن سبوغ ستر الله تعالى متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقارا أى لم تشكر لله نعمة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بترك الشكر على النعمة ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن الشكر ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته، قال الواسطى: ماكان منا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا وله المنة والفضل علينا.

•• ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ غيروا أى: اجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على الجواب ﴿أَتَهْتَدِي﴾ إلى معرفة عرشها، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

•• ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ ها للتنبيه والكاف للتشبيه وذا اسم إشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فأجابت أحسن جواب، فلم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع فى المحتمل للأمرين، أو لما شبهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها، كأنه هو مع أنها علمت أنه عرشها ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من كلام بلقيس أى وأوتينا العلم بقدرة الله تعالى وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة أى إحضار العرش، أو من قبل هذه الحالة ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لك مطيعين لأمرك، أو من كلام سليمان وملإه عطفوا على كلامها قولهم: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة ماجاء من عنده قبل علمها، أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وكنا مسلمين موحدين خاضعين.

●● ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ متصل بكلام سليمان أى وصدها عن العلم بماعلمناه، أو عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين أظهر الكفرة، ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ أو كلام مبتدأ، أى قال الله تعالى وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل أو صدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل.

●● ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أى القصر، أو صحن الدار ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء عظيما ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ سأقيها بالهمزة مكى . روى أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره فى صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره وتحقيقا لنبوته، وقيل: إن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم: لأنها كانت بنت جنية، وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد فقالوا له: إن فى عقلها شيئاً، وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدما إلا أنها شعراء فصرف بصره ﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس مستو ومنه الأمرد ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت لها الشياطين النورة فأزالته، فنكحها سليمان وأحبها وأقرها على ملكها وكان يزوها فى الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال المحققون لايحتمل أن يحتال سليمان لينظر إلى ساقيها وهى أجنبية فلا يصح القول بمثله.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ فى النسب ﴿صَالِحًا﴾ بدل ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بكسر النون فى الوصل عاصم وحمزة وبصري، وبضم النون غيرهم اتباعا للباء، والمعنى بأن اعبدوا الله وحده ﴿فَإِذَا﴾ للمفاجأة ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿فَرِيقَانِ﴾ خبر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ صفة وهى العامل فى إذا والمعنى فإذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق الحق معى وهو مبين فى قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(١). وقال الفريق الكافر: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب الذى توعدون ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالإجابة.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآيتان (٧٥، ٧٦). (٢) سورة «الأعراف»، الآية (٧٧).

•• ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ تشاءمنا بك لأنهم قحطوا عند مبعثه لتكذيبهم فنسبوه إلى مجيئه والأصل تطيرنا - وقرىء به - فأدغمت التاء فى الطاء وزيدت الألف لسكون الطاء ﴿وَبِمَن مَّعَكَ﴾ من المؤمنين ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أى: سببكم الذى يجيء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته، أو عملكم مكتوب عند الله فإنما نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة، ومنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾(١) وأصله أن المسافر إذا مر بطائر فيزجره فإن مر سانحا تيامن، وإذا مر بارحا تشاءم فلما نسبو الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو من عمل العبد الذى هو السبب فى الرحمة والنقمة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون أو تعذبون بذنبكم.

•• ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مدينة ثمود وهى الحجر ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ هو جمع لا واحد له ولذا جاز تمييز التسعة به فكأنه قيل تسعة أنفس وهو من الثلاثة إلى العشرة، وعن أبي دؤاد (٢): رأسهم قدار ابن سالف، وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا أبناء أشرافهم ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعنى أن شأنهم الإفساد البحت لايخلط بشيء من الصلاح، كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح، وعن الحسن: يظلمون الناس ولايمنعون الظالمين من الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معايب الناس ولايسترون عوراتهم.

•• ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ تحالفوا خبر فى محل الحال بإضمار قد أى: قالوا متقاسمين، أو أمر أى: أمر بعضهم بعضا بالقسم ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ لنقتلنه بياتا أى: ليلا ﴿وَأَهْلَهُ﴾ ولده وتبعه ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ لولى دمه لَتُبَيِّتُنَّهُ بالتاء وبضم التاء الثانية، ثم لتقولن بالتاء وضم اللام حمزة وعلى ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ ماحضرنا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ حفص. مهلَك أبو بكر وحماد، والمفضل من هلك فالأول موضع الهلاك، والثانى المصدر. مُهلَك غيرهم من أهلك وهو الإهلاك، أو مكان الإهلاك أى لم نتعرض لأهله فكيف تعرضنا له أو ماحضرنا موضع هلاكه فكيف توليناه ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما ذكرنا.

•• ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مكرهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ومكر الله إهلاكهم من حيث لايشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. روى أنه كان لصالح مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثالث فخرجوا إلى الشعب، وقالوا إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلاً منهم فى مكانه ونَجَّا صالحا - عليه السلام - ومن معه.

(١) سورة «الإسراء»، الآية (١٣).

(٢) لم أعثر له على ترجمة.

●● ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بفتح الألف كوفى وسهل وبكسرها غيرهم على الاستئناف ومن فتحه رفعه على أنه بدل من العاقبة، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هى تدميرهم، أو نصبه على معنى لأنا، أو على أنه خبركان أى فكان عاقبة مكرهم الدمار ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالصيحة.

●● ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط أوخالية من الخواء، وهى حال عمل فيها ما دل عليه تلك ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعل بثمود ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قدرتنا فيتعظون.

●● ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بصالح ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ترك أوامره وكانوا أربعة آلاف نجوا مع صالح من العذاب.

●● ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ﴾ واذكر لوطا، وإذ بدل من لوطا أى واذكر وقت قول لوط ﴿لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أى: إتيان الذكور ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها من بصر القلب، أو يرى ذلك بعضهم من بعض لأنهم كانوا يرتكبونها فى ناديهم معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض مجانة وانهماكاً فى المعصية، أو تبصرون آثار العصاة قبلكم ومانزل بهم، ثم صرح فقال:

●● ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بهمزتين كوفى وشامى ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ للشهوة ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى أن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى، فهى مضادة لله فى حكمته ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو أريد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها وقد اجتمع الخطاب والغيبة فى قوله: «بل أنتم قوم تجهلون» و«بل أنتم قوم تفتنون» فغلب الخطاب على الغيبة، لأنه أقوى إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين.

●● ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ أى: لوطا ومتبعيه فخبركان جواب. واسمه أن قالوا ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: يتنزهون عن القاذورات: ينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم، وقيل: هو استهزاء كقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (١).

●● ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم ﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا﴾ بالتشديد سوى حماد وأبى بكر أى: قدرنا كونها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ من الباقين فى العذاب.

(١) سورة «هود»، الآية (٨٧).

●● ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حجارة مكتوبا عليها اسم صاحبها ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار.

●● ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أمر رسوله محمداً الله ﷺ بتحميده ثم بالصلاة على المصطفين من عباده توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شيء وهو تعليم لكل متكلم فى كل أمر ذى بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما، أو هو خطاب للوط - عليه السلام - بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بالياء بصرى وعاصم، ولاخير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شيء، وإنما هو إلزام لهم وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة، فقيل لهم مع العلم بأنه لاخير فيما آثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير، ولكن هوى وعبثا لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط وليعلمو أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا قرأها قال: «بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم» (١) ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله فقال:

●● ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والفرق بين أم وأم فى أما يشركون، وأمن خلق السموات أن تلك متصلة، إذ المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة، ولما قال آلله خير أم الآلهة قال بل أمن خلق السموات والأرض خير تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خيرمن جماد لايقدر على شيء ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل بذاته وإيذانا بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال مع حسنها بماء واحد لايقدر عليه إلا هو وحده ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿حَدَائِقَ﴾ بساتين، والحديقة: البستان وعليه حائط من الإحداق، وهو الإحاطة ﴿ذَاتَ﴾ ولم يقل ذوات، لأن المعنى جماعة حدائق كما تقول النساء ذهبت ﴿ بَهْجَةٍ﴾ حسن ، لأن الناظر يبتهج به، ثم رشح معنى الاختصاص بقوله ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ ومعنى الكينونة الانبغاء أراد أنَّ تأتى ذلك محال من غيره ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكا له ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، أو يعدلون عن الحق الذى هو التوحيد وبل هم بعد الخطاب أبلغ فى تخطئة رأيهم.

●● ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ﴾ وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه ﴿قَرَارًا﴾ دحاها وسواها للاستقرار عليها ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾ ظرف أى وسطها ، وهو المفعول الثانى والأول ﴿أَنْهَارًا﴾

(١) الحديث أخرجه البيهقى فى «الشعب».

وبين البحرين مثله ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ للأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالا تمنعها عن الحركة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ العذب والمالح ﴿ حَاجِزًا﴾ مانعا أن يختلطا ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ التوحيد فلا يؤمنون.

●● ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الاضطرار افتعال من الضرورة، وهى الحالة المحوجة إلى اللجأ يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر الذى أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله، أوالمذنب إذا استغفر ، أو المظلوم إذا دعا، أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ الضر أو الجور ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أى: فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن، أو أراد بالخلافة الملك والتسلط ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وبالياء أبو عمرو وبالتخفيف حمزة وعلى وحفص ومامزيدة أى تذكرون تذكرا قليلا.

●● ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ يرشدكم بالنجوم ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ليلا وبعلامات فى الأرض نهارا ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ الريح مكى وحمزة وعلى ﴿بُشْرًا﴾ من البشارة وقد مر فى الأعراف ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام المطر ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

●● ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشىء الخلق﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وإنما قيل لهم ثم يعيده وهم منكرون للإعادة؛ لأنه أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار فلم يبق لهم عذر فى الإنكار ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى المطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ أى: ومن الأرض النبات ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على إشراككم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى دعواكم أن مع الله إلهاً آخر.

●● ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ من فاعل يعلم، والغيب هوما لم يقم عليه دليل ولا أطلع عليه مخلوق مفعول والله بدل من من، والمعنى: لايعلم أحد الغيب إلا الله، نعم إن الله تعالى يتعالى عن أن يكون ممن فى السموات والأرض، ولكنه جاء على لغة بنى تميم حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل، ويجيزون النصب والبدل فى المنقطع كما فى المتصل ويقولون: ما فى الدار أحد إلا حمار، وقالت عائشة - رضى الله عنها -: «من زعم أنه يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾». (١) وقيل نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وما يعلمون ﴿ أَيَّانَ﴾ متى ﴿ يُبْعَثُونَ﴾ ينشرون.

●● ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ أدرك مكى وبصرى ويزيد والمفضل، أى: انتهى وتكامل من أدركت الفاكهة تكاملت نضجا، بل ادَّركَ عن الأعشى افتعل بل إدارك غيرهم استحكم وأصله تدارك فأدغمت التاء

---

(١) أخرجه الطبرى عن مسروق عن عائشة، رضى الله عنها.

فى الدال وزيد ألف الوصل ليمكن التكلم بها ﴿عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أى فى شأن الآخرة ومعناها، والمعنى أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون، وذلك قوله ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم وتكرير لجهلهم وصفهم أولا بأنهم لايشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة، ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأه فلذا عداه بمن دون عن؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى منعهم عن التدبر والتفكر، ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية وهو وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب وأن العباد لا علم لهم بشىء منه أنه لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب، وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفا لقصور علمهم وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه وهو أنهم يقولون للكائن الذى لابد من كونه، وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به، وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكما بهم، كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك على سبيل الهزؤ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذى الطريق إلى علمه مسلوك فضلا أن يعرفوا وقت كونه الذى لاطريق إلى معرفته، ويجوز أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسَّرها الحسن باضمحل علمهم فى الآخرة وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا فى الهلاك.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من قبورنا أحياء وتكرير حرف الاستفهام فى أئذا وأئنا فى قراءة عاصم وحمزة وخلف، إنكار بعد إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه، والعامل فى إذا مادل عليه لمخرجون وهو نخرج، لأن اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام، أو إن أو لام الابتداء لايعمل فيما قبله فكيف إذا اجتمعن والضمير فى إنالهم ولآبائهم؛ لأن كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم لكنه غلبت الحكاية على الغائب وآباؤنا عطف على الضمير فى كنا، لأن المفعول جرى مجرى التوكيد.

●● ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ أى: البعث ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل محمد (ﷺ) قدم هنا هذا على نحن وآباونا وفى المؤمنون نحن وآباؤنا على هذا ليدل على أن المقصود بالذكر هو العبث هنا وثمة المبعوثون ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم.

●● ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: آخر أمر الكافرين، وفى ذكر الإجرام لطف بالمسلمين فى ترك الجرائم كقوله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾(١) وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾(٢).

---

(١) سورة «الشمس»، الآية (١٤).

(٢) سورة «نوح»، الآية (٢٥).

●● ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأجل أنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ فى حرج صدر ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ من مكرهم وكيدهم لك فإن الله يعصمك من الناس يقال ضاق الشىء ضيقا بالفتح وهو قراءة غير ابن كثير وبالكسر وهو قراءته.

●● ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أى وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بالمكذب.

●● ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ استعجلوا العذاب الموعود، فقيل لهم: عسى أن يكون ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام، للتأكيد، كالباء فى ولا تلقوا ﴿بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(١) أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم، ومعناه تبعكم ولحقكم، وعسى ولعل وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده.

●● ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أى إفضال ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بترك المعاجلة بالعذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه فيستعجلون العذاب بجهلهم.

●● ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تخفى ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من القول فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم ولكن له وقت مقدر، أو أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله (ﷺ) ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه وقرئ تَكُنُّ يقال كننت الشىء، وأكننته إذا سترته وأخفيته.

●● ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سمى الشىء الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية، والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية ونظائرهما الرمية والذبيحة والنطيحة فى أنها أسماء غير صفات، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية كأنه قال: وما من شىء شديد الغيبوبة إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته فى اللوح المحفوظ، والمبين الظاهر البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة.

●● ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: يبين لهم ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فإنهم اختلفوا فى المسيح فتحزبوا فيه أحزابا ووقع بينهم التناكر فى أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد اليهود والنصارى.

●● ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن ﴿لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمن أنصف منهم وآمن أى من بنى إسرائيل، أو منهم ومن غيرهم.

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٩٥).

●● ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بعدله لأنه لايقضى إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكما، أو بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمن يقضى له وبمن يقضى عليه أو العزيز فى انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

●● ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج، وهو الدين الواضح الذى لا يتعلق به شك وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته.

●● ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس، وبالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون، وبالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم هداة بصراء إلا الله تعالى، ثم أكد حال الصم بقوله إذا ولوا مدبرين، لأنه إذا تباعد عن الداعى بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن إدراك صوته، ولا يسمع الصُّمُّ مكى وكذا فى الروم وما أنت تهدى العمى، وكذا فى الروم حمزة ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أى: ما يجدى إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أى: يصدقون بها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون من قوله ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾(١) يعنى: جعله سالماً لله خالصاً له.

●● ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ سمى معنى القول ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ هى الجساسة، فى الحديث: طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان(٢) وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيّل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرة، وذنب كبش، وخف بعير، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ أى: لا يوقنون بخروجى، لأن خروجها من الآيات وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين، أو تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام، أو بأن هذا مؤمن وهذا كافر، وفتح أن كوفى وسهل على حذف الجار أى: تكلمهم بأن وغيرهم كسروا، لأن الكلام بمعنى القول أو بإضمار القول أى: تقول الدابة ذلك، ويكون المعنى بآيات ربنا أو حكاية لقول الله تعالى عند ذلك. ثم ذكر قيام الساعة فقال:

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١١٢).

(٢) أخرجه الثعلبى من حديث حذيفة بن اليمان.

●● ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ من للتبعيض أى واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم زمرة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾ من للتبيين ﴿بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على أنبيائنا ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، ثم يساقون إلى موضع الحساب وهذه عبارة عن كثرة العدد وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة.

●● ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ حضروا موقف الحساب والسؤال ﴿قَالَ﴾ لهم تعالى تهديدا ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ المنزلة على رسلى ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال كأنه قال أكذبتهم بآياتى بادى الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق، أو بالتكذيب ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حيث لم تتفكروا فيها فإنكم لم تخلقوا عبثا.

●● ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ أى يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾(١).

●● ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حال، جعل الإبصار للنهار وهو لأهله والتقابل مراعى من حيث المعنى، لأن معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون فيعتبرون، وفيه دليل على صحة البعث لأن معناه: ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواما لمعاشهم فى الدنيا ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثا بل محنة وابتلاء ولابد عند ذلك من ثواب وعقاب؟! فإذا لم يكونا فى هذه الدار فلابد من دار أخرى للثواب والعقاب.

●● ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن، أو جمع صورة والنافخ إسرافيل - عليه السلام - ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ اختير فزع على يفزع للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت - عليهم السلام - وقيل الشهداء وقيل الحور وخزنة النار وحملة العرش، وعن جابر رضى الله عنه منهم موسى - عليه السلام - لأنه صعق مرة، ومثله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾(٢) ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾ حمزة وحفص وخلف، آتوه غيرهم وأصله آتيوه ﴿دَاخِرِينَ﴾ حال أى صاغرين ومعنى الإتيان حضورهم الموقف ورجوعهم إلى أمره تعالى وانقيادهم له.

●● ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا﴾ بفتح السين شامى وحمزة ويزيد وعاصم وبكسرها غيرهم حال من المخاطب ﴿جَامِدَةً﴾ واقفة ممسكة عن الحركة من جمد فى مكانه إذا لم يبرح ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ حال من

---

(١) سورة «المرسلات»، الآية (٣٥). (٢) سورة «الزمر»، الآية (٦٨).

الضمير المنصوب فى تحسبها ﴿مَرَّ السَّحَابِ﴾ أى مثل مر السحاب والمعنى أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة فى مكان واحد لعظمها وهى تسير سيرا سريعا كالسحاب إذا ضربته الريح، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها كما قال النابغة[1] فى صفة جيش.

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج[2]

•• ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ مصدر عمل فيه ما دل عليه تمر، لأن مرورها كمر السحاب من صنع الله فكأنه قيل صنع الله ذلك صنعا وذكر اسم الله لأنه لم يذكر قبل ﴿الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى أحكم خلقه ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يفعلون مكى وبصرى غير سهل وأبو بكر غير يحيى وغيرهم بالتاء أى أنه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك، ثم لخص ذلك بقوله:

•• ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أى بقول لا إله إلا الله عند الجمهور ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أى فله خير حاصل من جهتها، وهو الجنة وعلى هذا لا يكون خير بمعنى أفضل ويكون منها فى موضع رفع صفة لخبر أى بسببها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ كوفى أى من فزع شديد مفرط الشدة وهو خوف النار، أو من فزع ما وإن قل، وبغير تنوين غيرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كوفى ومدنى، وبكسر الميم غيرهم، المراد يوم القيامة ﴿آمِنُونَ﴾ أمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[3].

•• ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالشرك ﴿فَكُبَّتْ﴾ ألقيت ﴿وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ﴾ يقال: كببت الرجل ألقيته على وجهه أى ألقوا على رؤوسهم فى النار، أو عبر عن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها أى ألقوا فى النار ويقال لهم تبكيتا عند الكب ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا من الشرك والمعاصى.

•• ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا﴾ جعلها حرما آمنا يأمن فيها اللاجئ إليها ولا يختلى خلاها ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ مع هذه البلدة فهو مالك الدنيا والآخرة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين له.

•• ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ من التلاوة أو من التلو كقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[4] أمر رسوله بأن يقول أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكا كما فعلت قريش وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام وأن أتلو القرآن، لأعرف الحلال والحرام وما يقتضيه الإسلام

---

(١) النابغة: شاعر جاهلى مشهور، يسمى النابغة الذبيانى، عرف بالقصائد ذات الأغراض المختلفة واشتهر بالاعتذار، حتى قيل: والنابغة إذا اعتذر. أى أن أجود شعره فى الاعتذار. وكانت تضرب له قبة خضراء فى سوق عكاظ للحكم على أجود الشعراء.

(٢) تهملج: تذل. القاموس (١/ ٢١٣).

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٩٩).

(٤) سورة «الأحزاب»، الآية (٢).

وخص مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها، لأنها أحب بلاده إليه وأعظمها عنده وأشار إليها بقوله هذه إشارة تعظيم لها وتقريب دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه، ووصف ذاته بالتحريم الذى هو خاص وصفها وجعل دخول كل شىء تحت ربوبيته وملكوته، كالتابع لدخولها تحتهما ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ باتباعه إياى فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفى الشركاء عنه والدخول فى الملة الحنيفية واتباع ما أنزل علىّ من الوحى ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ﴾ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إلىّ ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أى ومن ضل ولم يتبعنى فلا علىّ، وما أنا إلا رسول منذر وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

●● ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ ثم أمره أن يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التى لا توازيها نعمة وأن يهدد أعداءه بما سيريهم الله من آياته فى الآخرة فيستيقنون بها وقيل هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله فى الدنيا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء مدنى وشامى وحفص ويعقوب خطاب لأهل مكة. وبالياء غيرهم أى كل عمل يعملونه فإن الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لايجوزان عليه.

سورة القصص مكية ثمانون وثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿طسٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يقال بان الشيء وأبان بمعنى واحد، ويقال: أبنته فأبان لازم ومتعد أى: مبين خيره وبركته أو مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والإخلاص والتوحيد.

●● ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ نقرأ عليك أى: يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أى نتلو عليك بعض خبرهما ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال أى: محقين ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لمن سبق فى علمنا أنه مؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم.

●● ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للجمل كأن قائلا قال: وكيف كان نبؤهما فقال: إن فرعون ﴿عَلَا﴾ طغى وجاوز الحد فى الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسى العبودية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أى أرض مملكته يعنى مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فرقاً يشيعونه على مايريد ويطيعونه، لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه، أو فرقا مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم القبطى وأهان الإسرائيلى ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أى: يترك البنات أحياء للخدمة، وسبب ذبح الأبناء أن كاهنا قال له يولد مولود فى بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل على حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل وإن كذب فما معنى القتل، ويستضعف حال من الضمير فى وجعل، أو صفة لشيعا، أو كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: إن القتل ظلما إنما هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته صدق الكاهن، أو كذب.

●● ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ نتفضل وهو دليل لنا فى مسألة الأصلح وهذه الجملة معطوفة على إن فرعون علا فى الأرض؛ لأنها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون واقتصاصا له، أو حال من يستضعف أى يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم، وإرادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ﴿عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة يقتدى بهم فى الخير، أو قادة إلى الخير أو ولاة وملوكا ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أى: يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم.

●● ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ مكن له إذا جعل له مكانا يقعد عليه أو يرقد، ومعنى التمكين ﴿لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أرض مصر والشام أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ويسلطهم وينفذ أمرهم ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ بضم النون ونصب فرعون وما بعده، وبالياء ورفع فرعون وما بعده على وحمزة أى يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم، ويرى نصب

عطف على المنصوب قبله كقراءة النون، أو رفع على الاستئناف ﴿مِنْهُم﴾ من بنى إسرائيل، ويتعلق بنرى دون يحذرون؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ الحذر: التوقى من الضرر.

•• ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ بالإلهام، أو بالرؤيا أو بإخبار ملك كما كان لمريم وليس هذا وحى رسالة ولا تكون هى رسولا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أن بمعنى أى: أو مصدرية ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من القتل بأن يسمع الجيران صوته فينمو عليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ البحر، قيل هو نيل مصر ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ من الغرق والضياع ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ بفراقه ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ بوجه لطيف لتربيته ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وفى هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به فنهيت عنهما وبشرت برده إليها وجعله من المرسلين. وروى أنه ذبح فى طلب موسى تسعون ألف وليد، وروى أنها حين ضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ودخل حبه قلبها فقالت: ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله فاحفظيه، فلما خرجت القابلة جاءت عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا، فلم يلقوا شيئا فخرجوا وهى لا تدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار بردا وسلاما فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى إليها بإلقائه فى اليم فألقته فى اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

•• ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أخذه، قال الزجاج: كان فرعون من أهل فارس من اصطخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أى: ليصير الأمر إلى ذلك لا أنهم أخذوه لهذا كقولهم للموت ما تلده الوالدة وهى لم تلد، لأن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك، كذا قاله الزجاج، وعن هذا قال المفسرون: إن هذه لام العاقبة والصيرورة. وقال صاحب الكشاف: هى لام كى التى معناها التعليل كقولك جئتك لتكرمنى، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز، لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعى الذى يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذى هو نتيجة المجىء ﴿وَحَزَنًا﴾ وحُزنا علىّ وحمزة وهما لغتان كالعدم والعدْم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ خاطين تخفيف خاطئين أبو جعفر، أى: كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم، أو كانوا خاطئين فى كل شىء فليس خطؤهم فى تربية عدوهم ببدع منهم.

•• ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ روى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحه فإذا

بصبى نوره بين عينيه فأحبوه، وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت إلى وجهه فبرئت، فقالت الغواة من قومه: هو الـذى نحذر منه فأذن لنا فـى قتله فهم بذلك فـقالت آسية: قرة عين لى ولـك فقال فرعون: لك، لا لى وفى الحديث لو قال كما قالت، لهداه الله تعالى كما هداها[1] وهذا على سبيل الفرض أى لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان أسلم كما أسلمت، وقرة خبر مبتدأ محذوف، أى: هو قرة .ولى ولك صفتان لقرة ﴿لا تَقْتُلُوهُ﴾ خاطبته خطاب الملوك أو خاطبت الغواة ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ فإن فيـه مخايل اليمـن ودلائل النفع، وذلـك لما عاينت من الـنور وبرء البرصاء ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أو نتبناه فإنه أهل؛ لأن يـكون ولدا للملوك ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ حال، وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يـشعرون أنهم عـلى خطأ عظـيم فى التقاطـه ورجاء النفع مـنه وتبنيـه، وقوله: ﴿إن فرعون...﴾ الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعانى والبيان.

●● ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ صفرا مـن العقل لما دهـمها من فـرط الجزع لما سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ لتظهر به والضمير لموسى، والمراد بأمره وقصته وأنه ولدها. قيل: لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كـادت تصيح وتقول: وا ابناه وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله فكادت تقول: وا ابـناه شفقة عليه وإن مخففة من الثقيلة أى إنها كادت ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ لولا ربطنا على قـلبها والربط على القلب تقـويته بإلهام الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقـين بوعدنا وهو إنا رادوه إليك وجـواب لولا محذوف أى لأبدته، أو فارغا من الهم حين سمعت أن فرعون تبـناه إن كادت لتبدى بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سـمعت لولا أنا طأمنا[2] قلبها وسكنا قلـقه الذى حدث به من شدة الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بـتبنى فرعون، قال يوسـف بن الحسين[3] :أمرت أم موسى بشيئين، ونهيت عن شيئين، وبشرت ببشارتين فلم يـنفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها.

---

(١) الحديث عند النسائى، من حديث ابن عباس.

(٢) من المعروف عـند أهل اللغة أن هـناك كلمات تستـعمل بعد قلب بـعض حروفها، وتعـطى نفس المعنى، ومنها: «يئس ـ أيس»، «جذب ـ جبذ»، «طمأن ـ طأمن»...

(٣) هو: يوسف بن الحسين بن على، أبو يعقوب الـراى، زاهد، عابد، من كبار الصوفية، كان كذلك أديباً عالماً، كان شيخ الرى والجبال فى وقته.
توفى عام ٣٠٤هـ.
الأعلام (٨/ ٢٢٧).

●● ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ مريم ﴿قُصِّيهِ﴾ اتبعى أثره لتعلمى خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أى: أبصرته ﴿عَن جُنُبٍ﴾ عن بعد حال من الضمير فى به، أو من الضمير فى بصرت ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته.

●● ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ تحريم منع لاتحريم شرع أى: منعناه أن يرضع ثديا غير ثدى أمه، وكان لا يقبل ثدى مرضع حتى أهمهم ذلك. والمراضع: جمع مرضع، وهى المرأة التى ترضع، أو جمع مرضع، وهو موضع الرضاع، وهو الثدى، أو الرضاع ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل قصها أثره، أو من قبل أن نرده على أمه ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثديا ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أرشدكم ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ أى: موسى ﴿لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ النصح إخلاص العمل من شائبة الفساد، روى أنها لما قالت وهم له ناصحون قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون، فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبى على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكى يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك، فقالت: إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا قبلنى، فدفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله وعده فى الرد فعندها ثبت واستقر فى علمها أنه سيكون نبيا وذلك قوله.

●● ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بالمقام معه ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى: وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبرا، وقوله: ولا تحزن معطوف على تقر وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار كل يوم كما قال السدى، لأنه مال حربى لا أنه أجرة على إرضاع ولدها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو داخل تحت علمها أى لتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون؛ ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت.

●● ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل، وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ واعتدل وتم استحكامه وهو أربعون سنة ويروى أنه لم يبعث نبى إلا على رأس أربعين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ فقها أو علما بمصالح الدارين ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: كما فعلنا بموسى وأمه نفعل بالمؤمنين. قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان، لأنهما يؤديان إلى الجنة التى هى جزاء المحسنين والعالم الحكيم من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(1) فجعلهم جهالا إذ لم يعملوا بالعلم.

●● ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ أى: مصر ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ حال من الفاعل أى مختفيا وهو ما بين العشاءين، أو وقت القائلة يعنى انتصاف النهار، وقيل: لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على تغفل ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ ممن شايعه

---

(1) سورة «البقرة»، الآية (١٠٢).

على دينه من بنى إسرائيل، قيل: هو السامرى، وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من مخالفيه من القبط وهو فاتون، وقيل: فيهما هذا وهذا وإن كانا غائبين على جهة الحكاية أى إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ فاستنصره ﴿الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ ضربه بجمع كفه أو بأطراف أصابعه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتله ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه؛ لأنه كان مستأمنا فيهم ولا يحل قتل الكافر الحربى المستأمن، أو لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل، وعن ابن جريج ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

•• ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يارب ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بفعل صار قتلا ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ زلتى ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ زلته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ بإقالة الزلل ﴿الرَّحِيمُ﴾ بإزالة الخجل.

•• ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معينا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ للكافرين، وبما أنعمت على قسم جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين، أو استعطاف، كأنه قال: رب اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون إن عصمتنى ظهيراً للمجرمين، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد.

•• ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ على نفسه من قتله القبطى أن يؤخذ به ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ حال أى يتوقع المكروه، وهو الاستفادة منه، أو الأخبار أو ما يقال فيه، وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه يترقب نصرة ربه، وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه لا يسوغ الخوف من دون الله ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ إذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ ﴿اسْتَنصَرَهُ﴾ أى: موسى ﴿بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيثه، والمعنى أن الإسرائيلى الذى خلصه موسى استغاث به ثانيا من قبطى آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ أى: للإسرائيلى ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: ضال عن الرشد ظاهر الغى فقد قاتلت بالأمس رجلا فقتلته بسببك، والرشد فى التدبير أن لا يفعل فعلا يفضى إلى البلاء على نفسه وعلى من يريد نصرته.

•• ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي﴾ بالقبطى الذى ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيلى؛ لأنه ليس على دينهما، أو لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل ﴿قَالَ﴾ الإسرائيلى لموسى ـ عليه السلام ـ وقد توهم أنه أراد أخذه لا أخذ القبطى، إذ قال له إنك لغوى مبين ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعنى القبطى ﴿بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ﴾ ما تريد ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ

﴿جبَّارًا﴾ أى: قتالا بالغضب ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فى كظم الغيظ، وكان قتل القبطى بالأمس قد شاع ولكن خفى قاتله، فلما أفشى على موسى ـ عليه السلام ـ علم القبطى أن قاتله موسى فأخبر فرعون فهموا بقتله.

●● ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لرجل أو حال من رجل؛ لأنه وصف بقوله: من أقصى المدينة ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أى: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك أو يتشاورون بسببك والائتمار التشاور يقال الرجلان يتآمران ويأتمران؛ لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشىء، أو يشير عليه بأمر ﴿فَاخْرُجْ﴾ من المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ لك بيان وليس بصلة الناصحين؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول كأنه قال إنى من الناصحين، ثم أراد أن يبين فقال لك كما يقال سقيا لك ومرحبا لك.

●● ﴿فَخَرَجَ﴾ موسى ﴿مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ التعرض له فى الطريق، أو أن يلحقه من يقتله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: قوم فرعون.

●● ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ نحوها، والتوجه الإقبال على الشىء، ومدين قرية شعيب ـ عليه السلام ـ سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: خرج ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى: وسطه ومعظم نهجه فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين.

●● ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ وصل ﴿مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ماءهم الذى يسقون منه وكان بئرا ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ على جانب البئر ﴿أُمَّةً﴾ جماعة كثيرة ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ من أناس مختلفين ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ فى مكان أسفل من مكانهم ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تطردان غنمهما عن الماء؛ لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا تتمكنان من السقى، أو لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم، والذود: الطرد والدفع ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أى ما مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطباً ﴿قَالَتَا لا نَسْقِي﴾ غنمنا ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ مواشيهم يَصدر شامى ويزيد وأبو عمرو أى يرجع، والرعاء جمع راع كقائم وقيام ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ﴾ لا يمكنه سقى الأغنام ﴿كَبِيرٌ﴾ فى حاله، أو فى السن لا يقدر على رعى الغنم، أبدتا إليه عذرهما فى توليهما السقى بأنفسهما.

●● ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ فسقى غنمهما لأجلهما رغبة فى المعروف وإغاثة للملهوف، روى أنه نحى القوم عن رأس البئر وسألهم دلوا فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا بالبركة، وترك المفعول فى يسقون وتذودان ولا نسقى وفسقى؛ لأن الغرض هو الفعل لا المفعول ألا ترى أنه إنما رحمهما، لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقى

ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا وكذا في لا نسقى وفسقى فالمقصود هو السقى لا المسقى، ووجه مطابقة جوابها سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب فى ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحى من الاختلاط بهم فلابد لنا من تأجير السقى إلى أن يفرغوا، وإنما رضى شعيب ـ عليه السلام ـ لابنتيه بسقى الماشية؛ لأن هذا الأمر فى نفسه ليس بمحظور والدين لا يأباه وأما المروءة فعادات الناس فى ذلك متباينة، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ أى ظل سمرة(١) وفيه دليل جواز الاستراحة فى الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة. ولما طال البلاء عليه أنس بالشكوى إذ لا نقص فى الشكوى إلى المولى ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا﴾ لأى شىء ﴿أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل، أو كثير غث، أو سمين ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج، وعدى فقير باللام؛ لأنه ضمن معنى سائل وطالب، قيل: كان لم يذق طعاما سبعة أيام وقد لصق بظهره بطنه، ويحتمل أن يريد أنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلى من خير الدين وهو النجاة من الظالمين؛ لأنه كان عند فرعون فى ملك وثروة قال ذلك رضا بالبدل السنى وفرحا به وشكرا له، وقال: ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الأنوار.

●● ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ على استحياء فى موضع الحال أى: مستحية وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا فأتته مستحية قد استترت بكم درعها، وما فى «ما سقيت» مصدرية أى جزاء سقيك روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حُفّل(٢) قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لإحداهما: اذهبى فادعيه لى، فتبعها موسى ـ عليه السلام ـ فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها: امشى خلفى وانعتى لى الطريق ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أى: قصته وأحواله مع فرعون، والقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص ﴿قَالَ﴾ له ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا، وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد، ولو عبدا، أو أنثى، والمشى مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف فقيل. إنه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى ـ عليه السلام ـ على أنه روى إنها لما قالت ليجزيك كره ذلك، وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأن للقاصد حرمة ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع، فقال شعيب: ألست جائعا؟ قال: بلى. ولكن أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمنا، فقال شعيب ـ عليه السلام ـ : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فأكل.

---

(١) سَمُرَة: ضرب من شجر الطلح.

(٢) حُفُّل؛ أى: ضروعها مملوءة باللبن.

•• ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ اتخذه أجيراً لرعى الغنم. روى أن كبراهما كانت تسمى صفراء والصغرى صفيـراء، وصفراء هى التى ذهبت به وطلبت إلى أبيهـا أن يستأجره، وهى التى تزوجها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ فقال: وما علمك بقوته وأمـانته فذكرت نزع الدلو وأمرها بالمشى خلفه، وورد الفعل بلفظ الماضى للدلالة على أن أمانته وقوته أمران متحققان، وقولها إن خير من استأجرت القوى الأمين كلام جامع، لأنه إذا اجتـمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك، وقيل: الـقوى فى دينه الأمين فى جوارحه وقد استغنت بهذا الكلام الجارى مجرى المثل عن أن تقول استـأجره لقوته وأمانته. وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أفرس الناس ثلاث: بنت شعيب، وصاحب يوسف فى قولـه عسى أن ينفعنا، وأبو بكر فى عمر.

•• ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ أزوجك ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ قوله هاتين يدل على أنه كان له غيرهمـا وهذه مواعدة منه ولم يـكن ذلك عقد نكاح إذ لـو كان عقدا لقال قد أنـكحتك ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾ تكون أجيراً لى من أجرته إذا كنت له أجيرا ﴿ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ ظرف والحجة السنة وجمعها حجج، والتـزوج على رعى الغنـم جائز بالإجماع لأنـه من باب القيام بـأمر الزوجية فلا مـناقضة بخلاف التزوج على الخدمة ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أى: عمل عشر حجج ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ فذلك تفضل منك ليس بواجب عليك، أو فإتمامه من عندك ولا أحتمه عليك، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام أتم الأجلين، وحقيقة قولهم: شـققت عليه وشق عليه الأمر أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنـك باثنين تقول تارة أطيقه وطورا لا أطيقه ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فى حسن المـعاملة والوفاء بالعـهد، ويجوز أن يراد الصلاح علـى العموم، ويدخل تحته حسن المعاملة، والمراد باشتـراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح: الاتكال على توفيقه فيه ومعونته؛ لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك.

•• ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ وهو إشارة إلى ما عاهـده عليه شعيب والخبر ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ يعنى ذلك الذى قلته وعاهدتنى فيه وشارطتنى عليـه قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا فيما شرطت على ولا أنت فيما شـرطت على نفسك، ثم قال: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ أى: أى أجل قضيت من الأجـلين يعنى العشرة، أو الثمـانية وأى نصب بقضيت وما زائـدة ومؤكدة لإبهام أى، وهى شرطية وجوابها ﴿فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أى: لا يعتدى على فى طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوان عليه فـى أيهما، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كـالأتم فى الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذا طلب الزيادة على الأقل ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هو من وكل إليه الأمر، وعدى بعلى، لأنه استـعمل فى موضع الشاهد والرقيب. روى أن شعيـبا كانت عنده عصىّ الأنبياء ـ عليهم السـلام ـ فقال لموسى بالليل، أدخل ذلك البيت فخذ عصـا من تلك العصى فأخذ

عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال: خذ غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأنا، ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنينا أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا التنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك، ولما رجع إلى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء[1] فأوحى إليه في المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل، ثم سقى فوضعت كلهن أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه.

●● ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ قال عليه السلام: «قضى أوفاهما وتزوج صغراهما»[2] وهذا بخلاف الرواية التي مرت ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ بامرأته نحو مصر. قال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن الطريق، لأنه قد ضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

●● ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ بالنسبة إلى موسى﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾بتكليم الله تعالى فيها ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ العناب أو العوسج ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾ أن مفسرة أو مخففة من الثقيلة ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال جعفر: أبصر ناراً دلته على الأنوار، لأنه رأى النور في هيئة النار فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مكـلما شريفا أعطى ما سأل وأمن مما خاف، والجذوة باللغات الثلاث وقرىء بهن، فعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمها، وغيرهم بكسرها العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن، ومن الأولى والثانية لابتداء الغاية أي: أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة ومن الشجرة بدل من شاطىء الواد بدل الاشتمال، لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء أي: الجانب.

●● ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ونودي أن ألق عصاك فألقاها فقلبها الله ثعبانا ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حية في سعيها وهي ثعبان في جثتها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يرجع فقيل له ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

(١) الأَدْرَع: ما اسود رأسه، وابيض سائر جسده من الغنم.
دَرْعاء: مؤنثه.

(٢) الحديث عند الطبراني، والبزار.

●● ﴿اسْلُكْ﴾ أدخل ﴿يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ جيب قميصك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ برص ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ حجازى بفتحتين وبصرى [(١)]. الرَّهْب حفص الرُّهْب غـيرهم، ومعنى الكل الخوف، والمعنى واضمم يدك إلى صدرك يـذهب ما بك من فرق، أى: لأجل الحية. عن ابن عباس ـ رضى الله عنهـما ـ: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه. وقيل: معنى ضم الجناح أن الله تعالى لما قلـب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشىء فقيل له أن اتقاءك بيدك فيه غـضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها، ثم أخـرجها بيضاء ليحصل الأمران اجتناب ماهو غضاضة عليك وإظهـار معجزة أخرى، والمراد بالجناح اليد لأن يدى الإنسان بمنـزلة جناحى الطائر وإذا أدخل يده اليمـنى تحت عضده اليسرى فقد ضـم جناحه إليه، أو أريد بضم جنـاحه إلى تجلده وضبطه نفسه عند انـقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعـارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخـاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران ومـعنى من الرهب من أجل الرهب أى إذا أصـابك الرهب عنـد رؤية الحية فاضـمم إليك جنـاحك، جعل الرهـب الذى كان يصيبه سببا وعلة فيما أمـر به من ضم جناحه إليه ومعنى: «واضمم إليك جناحك» «واسلك يدك فى جيبك» على أحد الـتفسيرين واحد، ولكن خولف بين العبارتـين لاختلاف الغرضين إذ الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء، وفـى الثانى إخفاء الرهب، ومعنى ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾[(٢)] فى «طه» أدخل يمناك تحت يسراك ﴿فَذَانِكَ﴾ مخففا مثنى ذاك ومشددا مـكى وأبو عمرو مثنى ذلك فإحدى الـنونين عوض من اللام المحـذوفة، والمراد اليد والـعصا ﴿بُرْهَانَانِ﴾ حجتان نيرتـان بينتان وسميت الحجة برهانا، لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ كافرين.

●● ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ به بغير ياء وبالياء يعقوب.

●● ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ حفص ﴿رِدْءًا﴾ حال أى: عونا، يقال: ردأته أعنته وبـلا همز مدنى ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ عاصم وحمزة صـفة أى ردءاً مصدقاً لى وغيرهـما بالجزم جواب لأرسله، ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان فى مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت، ألا ترى إلى قوله: هو أفصح منى لسانا فأرسله وفضل الفصاحة إنما

---

(١) أى: «الرَّهَب».

(٢) سورة «طه»، الآية (٢٢).

يحتاج إليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان [(١)] وباقل[(٢)] فيه يستويان ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ يكذبونى فى الحالين يعقوب.

●● ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به إذ اليد تشد بشدة العضد لأنه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ غلبة وتسلطا وهيبة فى قلوب الأعداء ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ الباء تتعلق بيصلون أى: لايصلون إليكما بسبب آياتنا وتم الكلام، أو بنجعل لكما سلطانا أى نسلطكما بآياتنا، أو بمحذوف أى اذهبا بآياتنا، أو هو بيان للغالبون لا صلة، أو قسم جوابه لا يصلون مقدما عليه ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أى: سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله، أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ حال منصوبة عن هذا أى كائنا فى زمانهم يعنى ما حدثنا بكونه فيهم.

●● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: ربى أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعنى نفسه، ولو كان كما تزعمون ساحرا مفتريا لما أهله لذلك، لأنه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة لقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾[(٣)] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران. (قال موسى) بغير واومكى [(٤)] وهو حسن، لأن الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام سحرا مفترى، ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك، وقال موسى: هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر، ربى أعلم حجازى وأبو عمرو ومن يكون حمزة وعلى.

●● ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قصد بنفى علمه بإله غيره نفى

---

(١) سحبان: رجل يضرب به المثل فى الفصاحة والبيان.
القاموس (١/ ٨١).

(٢) باقل: رجل يضرب به المثل فى العى، وذلك لأنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً، فسئل عن ثمنه ففتح كفيه ـ أصابعه العشرة ـ وأخرج لسانه ليدل على الرقم (١١) فانفلت.
القاموس (٣/ ٣٣٦).

(٣) سورة «الرعد»، الآيتان (٢٢، ٢٣).

(٤) بذلك تصبح الآية جواب موسى على قول قومه. أما «بالواو»؛ فتصير جملة معطوفة على جملة سابقة.

وجوده أى ما لكم من إله غيرى، أو هو على ظاهره وأن إلها غيره غير معلوم عنده ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أى: اطبخ لى الآجر واتخذه، وإنما لم يقل مكان الطين هذا، لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة، ولأنه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة إذ أمر هامان وهو وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل التعظم والتجبر ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ قصرا عاليا ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ﴾ أى: أصعد والاطلاع الصعود ﴿إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ حسب أنه تعالى فى مكان كما كان هو فى مكان ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أى :موسى ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فى دعواه أن له إلهـا وأنه أرسله إلينا رسولا، وقد تناقض المخذول فإنه قال: «ما علمت لكم من إله غيرى» ثم أظهر حاجته إلى هامان وأثبت لموسى إلها وأخبر أنه غير متيقن بكذبه وكأنه تحصن من عصا موسى - عليه السلام - فلبّس وقال: لعلى أطلع إلى إله موسى. روى أن هامان جمع خمسين ألف بناء وبنى صرحا لم يبلغه بناء أحد من الخلق فضرب الصرح- جبريل عليه السلام -بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا هلك.

●● ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾ تعظم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: بالباطل فالاستكبار بالحق لله تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة أى المتبالغ فى كبرياء الشأن كما حكى رسولنا عن ربه: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ،فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار(1) »وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ يَرجعون نافع وحمزة وعلى وخلف ويعقوب.

●● ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ من الكلام المفخم الذى دل به على عظمة شأنه شبههم استقلالا لعددهم وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن فى البحر ﴿فَانظُرْ﴾ يامحمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وحذر قومك فإنك منصور عليهم.

●● ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ قادة ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: عمل أهل النار قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم فى ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة خلق أفعال العباد ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من العذاب.

●● ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ ألزمناهم طردا وإبعادا عن الرحمة، وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المطرودين المبعدين أو المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ويوم ظرف للمقبوحين.

---

(1) الحديث عند الإمام مسلم عن أبى هريرة، وأبى سعيد، كلاهما عن النبى ﷺ عن رب العزة، سبحانه.

•• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ حال من الكتاب، والبصيرة نور القلب الذى يبصر به الرشد والسعادة، كما أن البصر نور العين الذى يبصر به الأجساد. يريد آتيناه التوراة أنوارا للقلوب، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل ﴿وَهُدًى﴾ وإرشادا، لأنهم كانوا يخبطون فى ضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

•• ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿الْغَرْبِيِّ﴾ وهو المكان الواقع فى شق الغرب وهو الذى وقع فيه ميقات موسى ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ أى: كلمناه وقربناه نجيا ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ من جملة الشاهدين للوحى إليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى فى ميقاته.

•• ﴿وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا﴾ بعد موسى ﴿قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أى: طالت أعمارهم وفترت النبوة وكادت الأخبار تخفى، واندرست العلوم ووقع التحريف فى كثير منها، فأرسلناك مجددا لتلك الأخبار مبينا ما وقع فيه التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى، كأنه قال: وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب اختصارا فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيما ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ تقرؤها عليهم تعلما منهم يريد الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه وتتلو فى موضع نصب خبر ثان، أو حال من الضمير فى ثاويا ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها.

•• ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة ﴿وَلَٰكِن﴾ أعلمناك وأرسلناك ﴿رَّحْمَةً﴾ للرحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فى زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

•• ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والظلم ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى نسبت الأعمال إلى الأيدى وإن كانت من أعمال القلوب تغليبا للأكثر على الأقل عند العذاب ﴿فَيَقُولُوا﴾ عند العذاب ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لولا الأولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء الأولى للعطف والثانية جواب لولا لكونها فى حكم الأمر، إذ الأمر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد، والفاء تدخل فى جواب الأمر، والمعنى ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى

هلا أرسلت إلينا رسولا محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعنى أن إرسال الرسول إليهم، إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1] فإن قلت: كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هى السبب فى الإرسال لا القول لدخول لولا الامتناعية عليها دونه. قلت: القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال ولكن العقوبة لما كانت سبباً للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فأدخلت عليها لولا وجىء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤول معناه إلى قولك ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا.

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أى: القرآن أو الرسول المصدق بالكتاب المعجز ﴿قَالُوا﴾ أى: كفار مكة ﴿لَوْلا أُوتِيَ﴾ هلا أعطى ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا﴾ يعنى: أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة فى زمن موسى - عليه السلام - ﴿بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبل القرآن ﴿قَالُوا﴾ فى موسى وهارون ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [ساحران تظاهرا] [2] تعاونا - سحران كوفى أى ذوا سحر، أو جعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر - ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ﴾ بكل واحد منهما ﴿كَافِرُونَ﴾ وقيل: أن أهل مكة كما كفروا بمحمد - عليه السلام - وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة، وقالوا فى موسى ومحمد: ساحران تظاهرا، أو فى التوراة والقرآن سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فأخبروهم أنه فى كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك: ساحران تظاهرا.

●● ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مما أنزل على موسى ومما أنزل على ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب فأتوا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى أنهما سحران.

●● ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: لا أحد أضل ممن اتبع فى الدين هواه وبغير هدى حال أى: مخذولا يخلى بينه وبين هواه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

●● ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ التوصيل تكثير الوصل وتكريره يعنى أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا.

---

(١) سورة «النساء»، الآية (١٦٥).

(٢) دلَّ ذلك على أن النسفى يقرأ بهذه القراءة؛ لأنه قال: سحران، كوفى...

●● ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن وخبر الذين ﴿هُم بِهِ﴾ بالقرآن ﴿يُؤْمِنُون﴾ نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب.

●● ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ القرآن ﴿عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل نزول القرآن ﴿مُسْلِمِين﴾ كائنين على دين الإسلام مؤمنين بمحمد ـ عليه السلام ـ، وقوله: إنه تعليل للإيمان به، لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به، وقوله: إنا بيان لقوله آمنا، لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن إيمانهم به متقادم.

●● ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن، أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون﴾ يزكون.

●● ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الباطل، أو الشتم من المشركين ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا﴾ للاغين ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِين﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم.

●● ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر أن تدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين﴾ بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات. قال الزجاج: أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب وذلك أنه قال عند موته: يا معشر بنى هاشم صدقوا محمد تفلحوا فقال ـ عليه السلام ـ : «يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك»، قال: فما تريد يا ابن أخى؟، قال: «أريد منك أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله» قال: يا ابن أخى أنا قد علمت أنك صادق ولكنى أكره أن يقال جزع عند الموت.(١) وإن كانت الصيغة عامة والآية حجة على المعتزلة، لأنهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم ،فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية، وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة.

●● ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ قالت قريش: نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم فى الحرم الذى أمنه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته، والثمرات تجبى إليه من كل أوب وهم كفرة فأنى يستقيم أن يعرضهم للتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام، وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ﴾

---

(١) انظر قصة وفاة أبى طالب فى الصحيحين، وغيرهما، بأكثر من سياق.

وبالتاء مدني ويعقوب وسهل أي: تجلب وتجمع ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معنى الكليـة الكثرة كقوله: ﴿وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ هو مصدر، لأن معنى يجبـى إليه يرزق، أو مفعول له أو حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصصها بـالإضافة، كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ متعلق بمن لدنا أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لايعلمون ذلك، ولو علموا أنـه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولَما خافوا التخطف إذا آمنوا به.

●● ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا فى مثل حالهم بـإنعام الله عليهم فلم يشـكروا النعمة، وقابلوها بـالبطر فأهلكوا، وكم نصـب بأهلكنا ومعيشتها بحـذف الجار، وإيصال الفعل أى: فى معيشـتها والبطر سوء احتمـال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ منازلهم باقية الآثار يشاهـدونها فى الأسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ حال والعامل فيها الإشارة ﴿مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ من السكنى أى: لم يسكنها إلا المسافر ومـار الطريق يوما أو ساعة﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ لتلك المساكن من ساكنيها أى لايملك التصرف فيها غيرنا.

●● ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ فى كـل وقت ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ وبكسر الهـمزة حمزة وعلى أى فى القرية التى هى أمها أى أصلها ومعظمها ﴿رَسُولاً﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة أو وما كان فى حكم الله وسابق قضـائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أم الـقرى ـ يعنى مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ـ رسولا، يعنى محمداً ـ عليه السلام ـ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أى: وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو إصرارهم على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم بعد الإعذار إليهم.

●● ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ وأى شىء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياما قلائل وهى مدة الحياة الفانية ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ وهو ثوابه ﴿خَيْرٌ﴾ فى نفسه من ذلك ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه دائم ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقى خير من الفانى، وخير أبو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لا غير ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :أن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف: المؤمن والمنافق والكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع، ثم قرر هذه الآية بقوله.

●● ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أى: الجنة فلا شىء أحـسن منها، لأنها دائمـة؛ ولذا سميت الجنة بالحسنى ﴿فَهُوَ لاقِيهِ﴾ أى رائيه ومدركه ومـصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا النار، ونحوه ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[2] نزلت فى

(١) سورة «النمل»، الآية (٢٣).

(٢) سورة «الصافات»، الآية (١٢٧).

رسول الله (ﷺ) وأبى جهل لعنه الله، أو فى على وحمزة وأبى جهل، أو فى المؤمن والكافر، ومعنى الفاء الأولى أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله: «أفمن وعدناه» أى أبعد هذا التفاوت الجلى يسوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة والفاء الثانية للتسبيب، لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد، وثم لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع، ثم هو علىّ كما قيل عضّد فى عضد شبه المنفصل بالمتصل.

•• ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ينادى الله الكفار نداء توبيخ وهو عطف على يوم القيامة، أو منصوب باذكر ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بناء على زعمهم ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ومفعولا تزعمون محذوفان تقديره كنتم تزعمونهم شركائى ويجوز حذف المفعولين فى باب ظننت ولا يجوز الاقتصار على أحدهما.

•• ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: الشياطين، أو أئمة ،الكفر ومعنى «حق عليهم القول»: وجب عليه مقتضاه وثبت وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أى: دعوناهم إلى الشرك وسولنا لهم الغى صفة والراجع إلى الموصول محذوف والخبر ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ والكاف فى ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فَغَوَواَ غياً مثل ما غوينا، يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب وهو كقوله فَغَوَواَ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾[2] ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ بل يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى.

•• ﴿وَقِيلَ﴾ للمشركين ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أى: الأصنام لتخلصكم من العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ وجواب لو محذوف أى لما رأوا العذاب.

•• ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين أرسلوا إليكم حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين، أو أئمة الكفر عند توبيخهم، لأنهم إذا وبخوا بعبادة

(١) سورة هود (١١٩)، والسجدة (١٣).

(٢) سورة «إبراهيم»، الآية (٢٢).

الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم، ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل.

●● ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار، وقيل: خفى عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة، لأنهم يتساوون فى العجز عن الجواب.

●● ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَآمَنَ﴾ بربه وبما جاء من عنده ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أى: فعسى أن يفلح عند الله، وعسى من الكرام تحقيق، وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب للكافرين على الإيمان، ونزل جوابا لقول الوليد بن المغيرة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(1) يعنى نفسه أو أبا مسعود (2).

●● ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وفيه دلالة خلق الأفعال، يوقف على ﴿وَيَخْتَارُ﴾ أى: وربك يخلق ما يشاء، وربك يختار ما يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أى: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما وله الخيرة عليهم ولم يدخل العاطف فى ما كان لهم الخيرة، لأنه بيان لقوله ويختار إذ المعنى أن الخيرة لله، وهو أعلم بوجوه الحكمة فى أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ومن وصل على معنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة فقد أبعد بل ما لنفى اختيار الخلق تقريراً لاختيار الحق، ومن قال ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال. والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر، وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: الله برىء من إشراكهم وهو منزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار.

●● ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ تضمر ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من عداوة رسول الله (ﷺ) وحسده ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من مطاعنهم فيه ،وقولهم هلا اختير عليه غيره فى النبوة.

●● ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير لذلك كقولك القبلة الكعبة لا قبلة إلا هى ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ﴾ الدنيا ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ هو قولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾(3) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(4) ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(5)

---

(1) سورة «الزخرف»، الآية (31).

(2) هو الصحابى الشهيد؛ عروة بن مسعود بن معتب، أبو مسعود الثقفى، من كبار رجالات الطائف، دعا قومه إلى الإسلام فخالفوه وقتلوه.
الأعلام (4/227).

(3) سورة «فاطر»، الآية (34).

(4) سورة «الزمر»، الآية (74).

(5) سورة «الزمر»، الآية (75).

والتحميد ثمة علـى وجه اللذة لا الكلفة ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء بين عباده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والنشور. وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أريتم محذوف الهمزة على ﴿إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ هو مفعول ثان لجعل أي: دائما من السـرد وهو المتابعة، ومنه قولهـم في الأشهر الحرم: ثلاثة سـرد وواحد فرد، والميم مزيدة ووزنه فعمل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ والمعنى: أخبرونى من يقدر على هذا.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال بليل تسكنون فيه؛ بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المـنزلة، ومن ثم قرن بالضـياء أفلا تسمعون، لأن الـسمع يدرك مالا يدركه البـصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون، لأن غـيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

●● ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى: لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله فى النهـار فيكون من باب اللف والنشر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه، وقال الزجاج: يجـوز أن يكون معناه لتسكـنوا فيهما ولتبتـغوا من فضل الله فيهما، ويـكون المعنى جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه.

●● ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخل فى مرضاته من توحيده.

●● ﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعنى نبـيهم؛ لأن الأنبياء للأمم شهـداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿فَقُلْنَا﴾ للأمم ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسل ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ التوحيد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم غيبة الشىء الضائع ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من ألوهية غير الله والشفاعة لهم.

●● ﴿إِنَّ قَارُونَ﴾ لا ينصرف لـلعجمة والتعريـف ولو كان فاعولا من قرنت الـشىء لا نصرف ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان إسرائيليا ابن عم لموسى، فهـو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ومـوسى بن عمران بن قاهـث،وكان يسمى المنور، لحـسن صورته وكان أقرأ بنـى إسرائيل للتوراة ولكنه نافـق كما نافق السامرى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من البغى وهو الظلم قـيل ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهـم، أو من البغى الكبر تكبر عليهم بكثرة مالـه وولده، أو زاد عليهم فى الثياب شبرا ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ ما بمعنى الذى فى موضع نصب بآتينا وإن واسمها وخبرها

صلة الذى ولهذا كسرت، إن والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به، أو مفتح بالفتح، وهو الخزانة، والأصوب أنها المقاليد ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال: ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبة: الجماعة الكثيرة، وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاء لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود ﴿أُولِي الْقُوَّةِ﴾ الشدة ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أى: المؤمنون، وقيل، القائل موسى ـ عليه السلام ـ ومحل إذ نصب بتنوء ﴿لا تَفْرَحْ﴾ لاتبطر بكثرة المال كقوله ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾(١) ولا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ البطرين بالمال.

•• ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى والثروة ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم وتصرف إلى أبواب الخير ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك وقيل: معناه واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أو أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليك بالإنعام ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ بالظلم والبغى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

•• ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ أى: المال ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أى: على استحقاق لما فى من العلم الذى فضلت به الناس، وهو علم التوراة أو علم الكيمياء، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا، أو العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة، وعندى صفة لعلم قال سهل: ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه فى جميع الأفعال والأقوال، والشقى من زين فى عينه أفعاله وأقواله وأحواله ولم يفتح له سبيل رؤية منة الله فافتخر بها وادعاها لنفسه فشؤمه يهلكه يوما، كما خسف بقارون لما ادّعى لنفسه فضلا ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ قارون ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ هو إثبات لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى؛ لأنه قد قرأه فى التوراة، كأنه قيل: أو لم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته، أو نفى لعلمه بذلك، لأنه لما قال أوتيته على علم عندى، قيل: أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعا. ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال أو أكثر جماعة وعددا ﴿وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب، أو يعترفون بها بغير سؤال، أو يعرفون بسيماهم فلا يسئلون، أو لا يسئلون لتعلم من جهتهم بل يسئلون سؤال توبيخ، أو لا يسئل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة.

•• ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ فى الحمرة والصفرة، وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء

---

(١) سورة «الحديد»، الآية (٢٣).

عليها الأرجوان وعـليها سرج من ذهب، ومعه أربعـة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثـلثمائة غلام، وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عـليهن الحلىّ والديباج، وفى زينته حال من فاعل خرج أى: متزينا ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ قيل: كانوا مسلمين، وإنما تمنوا علـى سبيل الرغبة فى اليـسار كعادة البشر، وقيـل كانوا كفارا ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ قالوه غبطة والـغابط هو الذى يتمنى مثـل نعمة صاحبه من غير أن تـزول عنه كهذه الآية، والحاسد هو الذى يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1]. وقيل لـرسول الله (ﷺ): هل تضر الـغبطة؟ قال: «لا إلا كمـا يضر العضاة[2] الخبط»[3] ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ الحظ: الجد وهو البخت والدولة.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالثـواب والعقاب وفناء الـدنيا وبقاء الـعقبى لغابـطى قارون ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أصل ويلـك الدعاء بالـهلاك، ثم استـعمل فى الـزجر والردع والبـعث على تـرك مالا يرضى، وفى التبيان فى إعراب القرآن[4] هو مفعول فعل محذوف أى: ألزمكم الله ويلكم ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا﴾ أى: لا يلقـن هذه الكلـمة وهى ثواب الله خـير ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير.

●● ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ كان قارون يؤذى موسى ـ عليـه السلام ـ كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينـهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينـار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، فحسبه فاستكثره فشحت به نفـسه فجمع بنى إسرائيل، وقال: إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا: أنت كبيرنا فمر بما شئت، قال نبرطل فلانة البغى حتى ترميه بنفسها، فترفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألـف دينار أوطستا من ذهب، أو حكمها فلما كان يـوم عيد قام موسى فقال: يابنى إسـرائيل من سرق قطعـناه، ومن افترى جلدناه، ومـن زنى وهو غير محصـن جلدناه، وإن أحصـن رجمناه، فـقال قارون: وإن كنـت أنت؟! قال: وإن كـنت أنا، قال: فـإن بنى إسرائـيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت فناشدهـا بالذى فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق، فقالت جعل لى قارون جـعلا على أن أقذفك بنفسـى، فخر موسى ساجدا يبكـى، وقال يارب: إن كنت رسولك فاغـضب لى، فأوحى الله إليـه أن مر الأرض بما شئت فإنـها مطيعة لـك فقال: يا بنى إسرائيل إن الله بعثـنى إلى قارون كما بعثنى إلى فـرعون، فمن كان معه فليلـزم مكانه، ومن كان

---

(١) سورة «النساء»، الآية (٣٢).

(٢) العضاة: ما صغر من شجر الشوك ونحوه.

(المعجم الوسيط ٢/٦٠٧)

(٣) قال ابن حجر: ذكر ثابت السرقسطى بغير إسناد.

(٤) لأبى البقاء العـكبرى كتاب شهير فى إعراب الـقرآن، عرف بين الناس باسم «التـبيان فى إعراب القرآن» واسمه «إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن».

معى فليعتزل، فاعتزلوا جميعا غير رجلين، ثم قال: يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب، ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله، والرحم وموسى لايلتفت إليهم لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم فانطبقت عليهم، فقال الله تعالى: استغاث بك مرارا فلم ترحمه فوعزتى لو استرحمنى مرة لرحمته، فقال بعض بنى إسرائيل، إنما أهلكه ليرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه [(١)] ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ من المنتقمين من موسى، أو من الممتنعين من عذاب الله، يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه منه فامتنع.

●● ﴿وَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ منزلته من الدنيا ﴿بِالأَمْسِ﴾ ظرف لتمنوا ولم يرد به اليوم الذى قبل يومك، ولكن الوقت القريب استعارة ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ «وى» منفصلة عن كأن عند البصريين قال سيبويه: «وى» كلمة تنبه على الخطأ وتندم يستعملها النادم بإظهار ندامته، يعنى أن القوم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وقولهم ياليت لنا مثل ما أوتى قارون وتندموا ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بصرف ما كنا نتمناه بالأمس ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ [لَخُسِفَ] وبفتحتين[(٢)] حفص ويعقوب وسهل وفيه ضمير الله تعالى ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: تندموا. ثم قالوا: كأنه لا يفلح الكافرون.

●● ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ تلك تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعنى تلك التى سمعت بذكرها وبلغك وصفها وقوله: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبر تلك والدار نعتها ﴿لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ بغيا ابن جبير، وظلما الضحاك، أو كبرا ﴿وَلا فَسَادًا﴾ عملا بالمعاصى، أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[(٣)] فعلق الوعيد بالركون، وعن على ـ رضى الله عنه ـ: أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها [(٤)] وعن الفضيل أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأمانى ههنا. وعن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يرددها حتى قبض وقال بعضهم: حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثا بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾[(٥)] ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ [(٦)] ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ مر فى النمل[(٧)].

---

(١) انظر تفسير الطبرى عند هذه الآية؛ فيه هذا الحديث ـ وأوسع منه ـ عن ابن عباس، وفيه القصة مفصلة.

(٢) يدل ذلك على أن النسفى يقرأ بالبناء للمجهول «خُسِفَ»، وهى قراءة.

(٣) سورة «هود»، الآية (١١٣).

(٤) فى تفسير الطبرى ـ أيضا ـ عن على بن أبى طالب.

(٥) سورة «القصص»، الآية (٤). (٦) سورة «القصص»، الآية (٧٧).

(٧) أى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة «النمل»؛ فليرجع إليه.

●● ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ معناه: فلا يجزون فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير؛ لأن فى إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملـون و،من فضله العظيم أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة.

●● ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليـغه والعمل بما فيه ﴿لَرَادُّكَ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أىّ معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر فلذا نكره، أو المراد به مكة والمراد رده إليها يوم الفتح؛ لأنها كانت فى ذلك اليوم معـادا له شأن ومرجعا له اعتداد لغلبة رسول الله وقهره لأهلهـا ولظهور عـز الإسلام وأهله وذل الـشرك وحزبه، والـسورة مكيـة، ولكن هذه الآيـة نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمديـنة حين اشتاق إلى مولده ومـولد آبائه، ولما وعد رسوله الـرد إلى معاده قال: ﴿قُل﴾ للمشركين ﴿رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ﴾ يعنى نفسه وما لـه من الثواب فى معاده ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ يعنى المشـركين وما يستحقونه مـن العذاب فى معادهم، من فـى محل نصب بفعل مضمر أى يعلم.

●● ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ﴾ يوحى ﴿إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ هو محمول على المعنى، أى: وما ألقى إلـيك الكتاب إلا رحمة مـن ربك أو إلا بمعنى لكـن للاستدراك أى: ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك الكتاب ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ معيناً لهم على دينهم.

●● ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ هو على الجمع أى: ألا يمنعنك هؤلاء عـن العمل بآيات الله أى القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ الآيات أى بـعد وقت إنزالـه، وإذ يضاف إلـيه أسماء الـزمان كقولك: حينئذ ويومئذ ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

●● ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ قال ابن عباس ـ رضـى الله عنهما ـ :الخطاب فى الظاهر للنبى (ﷺ) والمراد أهل دينه؛ ولأن العـصمة لاتمنع النهى. والوقف على آخـر لازم، لأنه لو وصل لصار ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ صفة لإلها آخر وفيه مـن الفساد ما فيه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ أى: إلا إياه فالوجه يعبر بـه عن الذات، وقال مجاهد: يعنى عـلم العلماء إذا أريـد به وجه الله ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء فى خلقه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَرجِعون بفتح التاء وكسر الجيم يعقوب، والله أعلم.

(سورة العنكبوت مكية وهى تسع وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن، بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما، ولا يصح تعليقهما بمعانى المفردات ولكن بمضامين الجمل فلو قلت: حسبت زيدا وظننت الفرس لم يكن شيئا حتى تقول: حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا، لأن قولك زيد عالم والفرس جواد كلام دال على مضمون، فإذا أردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين أدخلت على شطرى الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك، والكلام الدال على المضمون الذى يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لايفتنون، وذلك أن تقديره أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولى حسب، ولقولهم: آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك؛ لأنه من الترك الذى هو بمعنى التصيير كقول عنترة:

❊ فتركته جزر السباع ينشنه ❊

ألا ترى أنك قبل المجىء بالحسبان تقدر أن تقول تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام، وهو استفهام توبيخ، والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم، وروى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله (ﷺ) قد جزعوا من أذى المشركين، أو فى عمار بن ياسر وكان يعذب فى الله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ اختبرنا وهو موصول بأحسب أو بلا يفتنون ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنواع الفتن فمنهم من يوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من يمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه [1] ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فى الإيمان ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجودا عند وجوده كما علمه قبل وجوده أنه يوجد، والمعنى: وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر فى أيام الرخاء وصبر فى أيام البلاء فهو من الصادقين، ومن بطر فى أيام الرخاء وجزع فى أيام البلاء فهو من الكاذبين.

●● ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: الشرك والمعاصى ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ أى: يفوتونا يعنى أن الجزاء يلحقهم لامحالة، واشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد مفعولين كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾[2] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة، ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول؛ لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظن أنه

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى من حديث خباب بن الأرت.

(٢) البقرة (٢١٤)، وآل عمران (١٤٢).

لايجازى بمساويه ،وقالوا الأول فى المؤمنين وهذا فى الكافرين ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ما فى موضع رفع على معنى ساء الحكم حكمهم أو نصب على معنى ساء حكما يحكمون والمخصوص بالذم محذوف أى بئس حكما يحكمونه حكمهم.

●● ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أى: يأمل ثوابه أو يخاف حسابه فالرجاء يحتملهما ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق أمله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقوله عباده ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يفعلونه فلا يفوته شىء ما، وقال الزجاج: من للشرط ويرتفع بالابتداء وجواب الشرط: «فإن أجل الله لآت»؛ كقولك: إن كان زيد فى الدار فقد صدق الوعد.

●● ﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله، أو الشيطان بدفع وساوسه، أو الكفار ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم، وإنما أمر ونهى رحمة لعباده.

●● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: الشرك والمعاصى بالإيمان والتوبة ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: أحسن جزاء أعمالهم فى الإسلام.

●● ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وصى حكمه حكم أمر فى معناه وتصرفه يقال وصيت زيدا بأن يفعل خيرا كما تقول أمرته بأن يفعل ومنه قوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾[1] أى: وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيدا بعمرو معناه وصيتة بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك، وكذلك معنى.« قوله ووصينا الإنسان بوالديه حسنا» وصيناه بإيتاء والديه حسنا، أو بإيلاء والديه حسنا أى: فعلا ذا حسن أو ماهو فى ذاته حسن لفرط حسنه كقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[2] ويجوز أن يجعل حسنا من باب قولك زيدا بإضمار اضرب إذا رأيته متهيئا للضرب فتنصبه بإضمار، أولهما أو افعل بهما، لأن التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كأنه قال قلنا أولهما معروفا ولا تطعهما فى الشرك إذا حملاك عليه، وعلى هذا التفسير إن وقف على بوالديه وابتدئ حسنا حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لابد من إضمار القول معناه وقلنا : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أيها الإنسان ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى لاعلم لك بإلهيته، والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كأنه قال لتشرك بى شيئا لايصح أن يكون إلها ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فى ذلك فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم، حق جزائكم وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٣٢). (٢) سورة «البقرة»، الآية (٨٣).

على الثبات والاستقامة فى الدين، روى أن سعد بن أبى وقاص لما أسلم نذرت أمه أن لا تأكل ولا تشرب حتى يرتد فشكا إلى النبى (ﷺ) فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان[1] والتى فى الأحقاف[2].

•• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هو مبتدأ والخبر ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ فى جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الأنبياء - عليهم السلام - قال سليمان - عليه السلام - ﴿بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[3] وقال يوسف - عليه السلام - : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[4] أو فى مدخل الصالحين وهو الجنة. ونزلت فى المنافقين.

•• ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أى: إذا مسه أذى من الكفار ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أى: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أى: وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: إنا كنا معكم أى متابعين لكم فى دينكم ثابتين عليه بثباتكم فأعطونا نصيبنا من الغنم ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أى: هو أعلم بما فى صدور العالمين من العالمين بما فى صدرهم، ومن ذلك ما فى صدور هؤلاء من النفاق وما فى صدور المؤمنين من الإخلاص، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله.

•• ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أى: حالهما ظاهرة عند من يملك الجزاء عليهما.

•• ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أمروهم باتباع سبيلهم وهى طريقتهم التى كانوا عليها فى دينهم وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الأمر على الأمر وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم، والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع أى: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم، وهذا قول صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم: لانبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإنا نتحمل عنكم الإثم ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشىء وفى قلوبهم نية الخلف.

•• ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أى: أثقال أنفسهم، يعنى أوزارهم بسبب كفرهم ﴿وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أى: أثقالا أخر غير الخطايا التى ضمنوا للمؤمنين حملها وهى أثقال الذين كانوا سببا فى ضلالهم،

---

(١) الآية (١٥).

(٢) الآية (١٥).

(٣) سورة «النمل»، الآية (١٩).

(٤) سورة «يوسف»، الآية (١٠١).

وهو كما قال: « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامـة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون من الأكاذيب والأباطيل.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين، ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة فقال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمرا كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلت وخرجت، ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة؛ لأنه لو قيل كذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره وهذا التوهم زائل هنا فكأنه قيل: تسعمائـة وخمسين سنة كاملة وافية العدد إلا أن ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفـائدة؛ ولأن القصة سيقت لما ابتلى به نوح ـ عليه السـلام ـ من أمته وما كابده من طـول المصابرة تسلية لنـبينا ـ عليه السـلام ـ فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلـى الغرض، وجيءَ بالممـيز أولا بالسنة ثم بـالعام لأن تكرار لفـظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ هو ما أطاف وأحاط بكثـرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسهم بالكفر.

●● ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أى: نوحـا ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ وكانوا ثـمانية وسبعـين نفساً نصفـهم ذكور ونصفهم إناث منهم: أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أى: السفينة أو الحادثة أو القصة ﴿ آيَةً﴾ عبرة وعظة ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتعظون بها.

●● ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ نصب بإضمـار اذكر وأبدل عنه ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيـان تشتمل على ما فيها أو معطوف على نوح أى: وأرسلنا إبراهيم، أو ظرف لأرسلنـا يعنى أرسلناه حين بلغ من السن أو العلم مبلغـا صلح فيه لأن يعظ قومه ويأمرهم بالعبادة والتقـوى، وقرأ إبراهيم النخعى وأبو حنيفة رضى الله عنهما: وإبراهيم بالرفع على معنى: ومن المرسلين إبراهيم ﴿لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من الكفر ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.

●● ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أصناما ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ وتكذبون، أو تصـنعون، وقرأ أبو حنيفةِ والسلمى (١) -رضى الله عنهما -وتُـخَلِّقُون من خلق بمعنى التكـثير فى خِلق ﴿إِفْكًا﴾ وقرىء أَفِكا وهو مصدر نـحو كذب ولعب والإفك مخفف منـه كالكذب واللعب من أصلهـما، واختلاقهم

(١) السلمى: هو محمد بن الحسين بن محمـد بن موسى، الأزدى، النيسابورى، أبو عبدالرحمن، من كبار الصوفية. قال الذهبى: «شيخ الصوفية، وصاحـب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم». ولد عام ٣٢٥هـ، وتوفى عام ٤١٢هـ.
الأعلام (٦/ ٩٩).

الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لايستطيعون أن يرزقوكم شيئا من الرزق ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كله فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب.

•• ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: وإن تكذبونى فلا تضرونى بتكذيبكم فإن الرسل قبلى قد كذبتهم أممهم وما ضروهم، وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب تكذيبهم، وأما الرسول فقد تم أمره حيث بلغ البلاغ المبين الذى زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته، أو وإن كنت مكذبا فيما بينكم فلى فى سائر الأنبياء أسوة حيث كذبوا، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب، وهذه الآية والآيات التى بعدها إلى قوله: «فما كان جواب قومه» محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم - عليه السلام - لقومه والمراد بالأمم قبله قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله (ﷺ) وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها، فإن قلت فالجمل الاعتراضية لابد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول مكة وزيد قائم خير بلاد الله، قلت: نعم وبيانه أن إيراد قصة إبراهيم - عليه السلام - ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله (ﷺ) وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم - عليه السلام، كان مبتلى بنحو ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: «وإن تكذبوا» على معنى: إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها لأن قوله: « فقد كذب أمم من قبلكم» لابد من تناوله لأمة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متصل ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه.

•• ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وبالتاء كوفى غير حفص ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أى: قد رأوا ذلك وعلموه وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس بمعطوف على يبدىء وليست الرؤية واقعة عليه وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت كما وقع النظر فى قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ على البدء دون الإنشاء بل هو معطوف على جملة قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أى: الإعادة ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

•• ﴿قُلْ﴾ يا محمد وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره وأوحينا إليه أن قل ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة وبدأ وأبدأ بمعنى ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ أى: البعث، وبالمد [١] حيث كان مكى وأبو عمرو وهذا دليل على أنهما نشأتان وأن كل واحدة منهما إنشاء أى ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى

(١) قوله: «وبالمد»، أى: مد الشين بعد تحريكها، لتصبح: «النشاءة».

الوجود غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله، والأولى ليست كذلك، والقياس أن يقال كيف بدأ الله الخلق، ثم ينشىء النشأة الآخرة؛ لأن الكلام معهم وقع فى الإعادة فلما قررهم فى الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب أن لايعجزه الإعادة، فكأنه قال: ثم ذلك الذى أنشأ النشأة الأولى هو الذى ينشىء النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

●● ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ بالهداية، أو بالحرص والقناعة أو بسوء الخلق وحسنه أو بالإعراض عن الله وبالإقبال عليه، أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون وترجعون.

●● ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم أى: لاتفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ التى هى أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يتولى أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ولا ناصر يمنعكم من عذابى.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ﴿وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ جنتى ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

●● ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم: وكان الباقون راضين فكانوا جميعا فى حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ حين قذفوه فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما فعلوا به وفعلنا ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ روى أنه لم ينتفع فى ذلك اليوم بالنار يعنى يوم ألقى إبراهيم فى النار وذلك لذهاب حرها.

●● ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حمزة وحفص، مودةً بينكم مدنى وشامى وحماد ويحيى وخلف، مودةُ بينكم مكى وبصرى وعلى، مودةٌ بينكم الشمونى(١) والبرجمى، النصب على وجهين على التعليل أى: لتتوادوا بينكم وتتواصلو لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم، وأن يكونْ مفعولا ثانيا كقوله: ﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾(٢) وما كافة أى: اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف، أو اتخذتموها مودة بينكم أى: مودة بينكم كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(٣) وفى الرفع وجهان أن يكون خبراً لإن وما

---

(١) الشمونى: هو محمد بن حبيب، يكنى أبا جعفر الشمونى، كوفى، مشهور بالضبط.
(٢) سورة «الفرقان»، الآية (٤٣). (٣) سورة «البقرة»، الآية (١٦٥).

موصولة، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أى: هى مودة بينكم والمعنى أن الأوثان مودة بينكم أى مودودة أو سبب مودة، ومن أضاف المودة جعل بينكم اسما لا ظرفا كقوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُم﴾(١) ومن نوّن مودة ونصب بينكم فعلى الظرف ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ تتبرأ الأصنام من عابديها ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أى: يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الأتباع القادة ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أى: مأوى العابد والمعبود، والتابع والمتبوع ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ثمة.

●● ﴿فَآمَنَ لَهُ﴾ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿لُوطٌ﴾ هو ابن أخى إبراهيم وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من «كوثى» وهى من سواد الكوفة إلى حران، ثم منها إلى فلسطين وهى من برية الشام ومن ثم قالوا لكل نبى هجرة ولإبراهيم هجرتان، وكان معه فى هجرته لوط وسارة وقد تزوجها إبراهيم ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى حيث أمرنى ربى بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى يمنعنى من أعدائى ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى لا يأمرنى إلا بما هو خير.

●● ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولد ولد ولم يذكر إسماعيل لشهرته ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ أى: فى ذرية إبراهيم فإنه شجرة الأنبياء ﴿وَالْكِتَابَ﴾ والمراد به الجنس يعنى: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أى: إبراهيم ﴿أَجْرَهُ﴾ الثناء الحسن والصلاة عليه إلى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له، أو هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لغيره ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ فيه دليل على أنه تعالى قد يعطى الأجر فى الدنيا ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: من أهل الجنة عن الحسن.

●● ﴿وَلُوطًا﴾ أى: واذ كر لوطا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة فى القبح وهى اللواطة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة كأن قائلا قال لم كانت فاحشة؟! فقيل: لأن أحدا قبلهم لم يقدم عليها قالوا: لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط.

●● ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾بالقتل وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق، وقيل: اعتراضهم السابلة بالفاحشة ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ مجلسكم ولا يقال للمجلس ناد إلا مادام فيه أهله ﴿الْمُنكَرَ﴾ أى: المضارطة والمجامعة والسباب والفحش فى المزاح والحذف (٢) بالحصى ومضغ العلك والفرقعة والسواك بين الناس﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب. إنكم أئنكم شامى وحفص،وهو الموجود فى الإمام(٣)

(١) سورة «المائدة»، الآية (١٠٦).

(٢) الحذف: الرمى والقذف، ونستخدمها فى لغتنا العامية بإبدال الذال دالاً من قبيل التسهيل.

(٣) الإمام: أى المصحف الإمام، وهو مصحف عثمان، الذى جمع فيه كل القراءات، وجمع الناس عليه.

وكل واحدة بهمزتين كوفى غير حفص. أنكم آينكم بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة أبو عمرو أينكم أينكم بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة مكى ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد.

●● ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِى﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصى والفواحش.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بالبشارة لإبراهيم بالولد والنافلة يعنى إسحق ويعقوب ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ إضافة مهلكوا لم تفد تعريفا، لأنها بمعنى الاستقبال والقرية سدوم التى قيل فيها أجور من قاضى سدوم وهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ قالوا إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أى: الظلم قد استمر منهم فى الأيام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وأنواع معاصيهم.

●● ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أى: أتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم وهو لوط ﴿قَالُوا﴾ أى: الملائكة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ لنُنْجينه يعقوب وكوفى غير عاصم ﴿وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين فى العذاب، ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم بقوله.

●● ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ ساءه مجيئهم وأن صلة أكدت وجود الفعلين مرتبا أحدهما على الآخر كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان، كأنه قيل كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومهم أن يتناولوهم بالفجور، سُيء [(١)] بهم مدنى وشامى وعلى ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أى: طاقته وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع إذا كان مطيقا، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع، فضرب ذلك مثلا فى العجز والقدرة وهو نصب على التمييز ﴿وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ وبالتخفيف مكى وكوفى غير حفص ﴿وَأَهْلَكَ﴾ الكاف فى محل الجر ونصب أهلك بفعل محذوف أى :وننجى أهلك ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ مُنزِّلون شامىْ ﴿عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله.

●● ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا﴾ من القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ هى آثار منازلهم الخربة، وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض ﴿لِّقَوْمٍ﴾ يتعلق بتركنا، أو ببينة﴿يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) سُيء: أى بإشمام كسرة السين الضمة؛ لتكون حركة وسط بين الكسر والضم.

•• ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به الثواب فى العاقبة أو خافوه ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قاصدين الفساد.

•• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، أو صيحة جبريل ـ عليه السلام ـ؛ لأن القلوب رجفت بها ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ فى بلدهم وأرضهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين.

•• ﴿وَعَادًا﴾ منصوب بإضمار أهلكنا؛ لأن قوله: «فأخذتهم الرجفة» يدل عليه، لأنه فى معنى الإهلاك ﴿وَثَمُودَ﴾ حمزة وحفص وسهل ويعقوب ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ ذلك يعنى ماوصفه من إهلاكهم ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها، وكان أهل مكة يمرون عليها فى أسفارهم فيبصرونها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السبيل الذى أمروا بسلوكه هو الإيمان بالله ورسله ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا.

•• ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ أى: وأهلكناهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه.

•• ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هى ريح عاصف فيها حصباء وهى لقوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ هى لمدين وثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾ يعنى: قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعنى: قوم نوح وفرعون ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعاقبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والطغيان.

•• ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: آلهة يعنى مثل من أشرك بالله الأوثان فى الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أى: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت فإن ذلك بيتٍ لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقى ما تقى البيوت فكذلك الأوثان لاتنفعهم فى الدنيا والآخرة، وجعل حاتم[1] اتخذت حالا ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهنّ من بيتها. عن علىّ ـ رضىّ الله عنه ـ طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن، وقيل، معنى الآية مثل المشرك الذى يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذى يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالإضافة إلى رجل يبنى بيتا بآجر وجص، أو ينحته من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا

(١) هو: حاتم بن إسحاق بن حاتم، أبو قبيصة، الموصلى، الضرير، قرأ على عامر بن عمر. غاية النهاية (١/ ٢٠١).

بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. وقال الزجاج: فى جماعة تقدير الآية مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء بصرى وعاصم، وبالتاء غيرهما غير الأعشى[1] والبرجمى، وما بمعنى الذى وهو مفعول يعلم ومفعول يدعون مضمر أى: يدعونه يعنى يعبدونه ﴿مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ من فى من شىء لـلتبيين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الـذى لا شريك له ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى ترك المعاجلة بالعقوبة وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شىء، الحكيم الذى لايفعل كل شىء إلا بحكمة وتدبير.

●● ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ الأمثال نعت، والخبر ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها ﴿لِلنَّاسِ﴾ كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك، فلذلك قال ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ به وبأسمائه وصفاته، أى لايعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى الطرق إلى المعانى المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد، وعن النبى (ﷺ) أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه» ودلت الآية على فضل العلم على العقل.

●● ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: محقا يعنى لم يخلقهما باطلا بل لحكمة وهى أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته ،ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها.

●● ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقربا إلى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أى: دم على إقامة الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ الفعلة القبيحة كالزنا مثلا ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ هو ما ينكره الشرع والعقل قيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك إلى أن ينتهى عن السيئات يوما ما فقد روى أنه قيل يوما لرسول الله (ﷺ): إن فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال: «إن صلاته لتردعه»[2] روى أن فتى من الأنصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصف له، فقال: «إن صلاته ستنهاه»، فلم يلبث أن تاب[3] ، وقال ابن عوف: إن الصلاة تنهى إذا كنت فيها فأنت فى معروف وطاعة وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. وعن الحسن؛ من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة، وهى وبال

---

(١) الأعشى؛ هو: عثمان بن المغيرة، الثقفى، مولاهم، أبو المغيرة الكوفى، وهو «عثمان الأعشى»، وهو «عثمان بن أبى زرعة»، عالم فى اللغة والقراءات، وهو فى الحديث: «ثقة، من السادسة». تهذيب التهذيب (٤/١٠١).

(٢) الحديث عند الإمام أحمد وغيره، من حديث أبى هريرة.

(٣) لم أعثر على أصله.

عليه ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وإنما قال ولذكر الله ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر، لأنها ذكر الله. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته، وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له الآن ؛لأن ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأمانى، ولأن ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى؛ وقال سلمان ذكر الله أكبر من كل شىء وأفضل، فقد قال ـ عليه السلام ـ «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: وما ذاك يارسول الله قال: «ذكر الله»(١) وسئل أى الأعمال أفضل؟ قال: «أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله» (٢) أو ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم، أو ذكر الله أكبر من تلقى معه معصية، أو ذكر الله أكبر فى النهى عن الفحشاء والمنكر من غيره ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والطاعة فيثيبكم أحسن الثواب.

●● ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التى هى أحسن للثواب وهى مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم كما قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فأفرطوا فى الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة، وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله (ﷺ) أو إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة، أو معناه ولا تجادلوا الداخلين فى الذمة المؤدين للجزية إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فمجادلتهم بالسيف، والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة فى الدين وعلى جواز تعلم علم الكلام الذى به تتحقق المجادلة وقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ من جنس المجادلة بالأحسن. وقال ـ عليه السلام ـ: «ماحدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلا لم تصدقوهم وإن كان حقا لم تكذبوهم»(٤).

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أى: أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية، أو كما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هم عبد الله بن سلام ومن معه ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أى: من أهل مكة ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أو أراد بالذين أوتوا الكتابَ الذين تقدموا عهد رسول الله (ﷺ) من أهل الكتاب، ومن هؤلاء الذين كانوا فى عهد رسول الله (ﷺ) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ إلا المتوغلون فى الكفر المصممون عليه ككعب بن الأشرف وأضرابه.

---

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٧٦٧/١).

(٢) لم أعثر على أصله.

(٣) سورة المؤمنون (٩٦)، وسورة فصلت (٣٤).

(٤) الحديث أخرجه أبو داود، وأحمد، وغيرهما، من طريق الزهرى، عن ابن أبى نملة، عن أبيه.

●● ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن ﴿مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ خص اليمين، لأن الكتابة غالبا تكون باليمين أى: ما كنت قرأت كتابا من الكتب ولا كنت كاتبا ﴿إِذًا﴾ أى: لو كان شىء من ذلك أى من التلاوة ومن الخط ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذى نجد نعته فى كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه، أو كتبه بيده وسماهم مبطلين لإنكارهم نبوته. وعن مجاهد والشعبى (١) ما مات النبى (ﷺ) حتى كتب وقرأ.

●● ﴿بَلْ هُوَ﴾ أى: القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أى: فى صدور العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الإعجاز وكونه محفوظا فى الصدور، بخلاف سائر الكتب فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ الواضحة ﴿إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أى: المتوغلون فى الظلم.

●● ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ آية بغير ألف مكى وكوفى غير حفص أرادوا هلا أنزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى ـ عليهم السلام ـ ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ ينزل أيتها شاء ولست أملك شيئاً منها ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كلفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس لى أن أقول أنزل على آية كذا دون آية كذا مع علمى أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة، والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك.

●● ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها، أو تكون فى مكان دون مكان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى: فى مثل هذه الآية الموجودة فى كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون المتعنتين.

●● ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أى: شاهدا بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال القرآن على وبتكذيبكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو مطلع على أمرى وأمركم وعالم بحقى وباطلكم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ منكم وهو ما يعبدون من دون الله ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف

(١) هو التابعى العلامة؛ عامر بن شراحيل بن عبد، وقيل: عامر بن بن عبدالله بن شراحيل، الشعبى، الحميرى، أبو عمرو، الكوفى، من شعب همدان، روى عن جمع من الصحابة بلغوا ٥٠٠، كان غزير العلم: بليغاً، عاقلاً، عالماً عاملاً. ولد عام ١٩هـ، وتوفى عام ١٠٣هـ، على خلاف.
تهذيب التهذيب (٣/ ٤٦ ـ ٤٩).

كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1] وروى أن كعب بن الأشرف[2] وأصحابه قالوا: يا محمد من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت.

●● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[3] الآية ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة أو يوم بدر أو وقت فنائهم بآجالهم، والمعنى :ولولا أجل قد سماه الله وبينه فى اللوح لعذبهم، والحكمة تقتضى تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلا ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم﴾ العذاب عاجلا، أو ليأتينهم العذاب فى الأجل المسمى ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه.

●● ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: ستحيط بهم.

●● ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[4] ولا وقف على بالكافرين، لأن يوم ظرف إحاطة النار بهم ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء[5] كوفى ونافع وقوله :﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: جزاء أعمالكم.

●● ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ وبسكون الياء بصرى وكوفى غير عاصم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ وبفتح الياء شامى، يعنى أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلبا وأصح دينا وأكثر عبادة، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كثيرا، وقالوا: لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الدينى من مكة ـ حرسها الله تعالى ـ وعن سهل إذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين، وعن رسول الله (ﷺ): «من فر بدينه من أرض إلي أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب الجنة»[6] ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ وبالياء يعقوب وتقديره فإياى اعبدوا فاعبدونى وجيء بالفاء فى فاعبدون لأنه جواب شرط محذوف؛ لأن المعنى إن أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها، ثم حذف الشرط وعوض عن حذفه تقديم المفعول مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص، ثم شجع المهاجر بقوله.

●● ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أى: واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق لأنها إذا

---

(١) سورة «سبأ»، الآية (٢٤).

(٢) كعب بن الأشرف، انظر ترجمته عند تفسير الآية رقم (٧٨)، من سورة «آل عمران».

(٣) سورة «الأنفال»، الآية (٣٢).

(٤) سورة «الزمر»، الآية (١٦).

(٥) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها بالتاء؛ «تقول».

(٦) قال ابن حجر: أخرجه الثعلبى، ومن رواته عباد بن منصور الناجى، عن الحسن مرسلاً.

تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب يرجعون، يحيى ترجعون يعقوب.

•• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ لننزلنهم من الجنة علالى، لنثوينهم كوفى غير عاصم من الثواء، وهو النزول للإقامة وثوى غير متعد فإذا تعدى بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولا واحدا والوجه فى تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف، إما إجراؤه مجرى لننزلنهم، أو لنؤينهم، أو حذف الجار وإيصال الفعل، أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ويوقف على العاملين على أن.

•• ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: هم الذين صبروا على مفارقة الأوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى، والوصل أجود ليكون الذين نعتا للعالمين ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولم يتوكلوا فى جميع ذلك إلا على الله، ولما أمر رسول الله (ﷺ) من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت.

•• ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ﴾ أى: وكم من دابة وكائن بالمد والهمز مكى والدابة كل نفس دبت على وجه الأرض عقلت أم لم تعقل ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أى: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله ولا يرزقكم أيضا أيها الأقوياء إلا هو، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التى لاتحمل، وعن الحسن لاتحمل رزقها لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله، وقيل لا يدخر شيء من الحيوان قوتا إلا ابن آدم والفأرة والنملة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم نخشى الفقر والعيلة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما فى ضمائركم.

•• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السموات والأرض على كبرهما وسعتهما ،ومن الذى سخر الشمس والقمر ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله.

•• ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أى: لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لأن من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهما مثله. قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم فى الحديث: «إن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك»(١).

••﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى هم

---

(١) لم أعثر على أصله.

مقرون بذلك ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إنزاله الماء لإحياء الأرض، أو على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به ثم نفعه ذلك فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه، ولم يكن إقرارا عاطلا كإقرار المشركين ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما تريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات أولا يعقلون ما تريد بقولك الحمدلله.

●● ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أى: وما هى لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون وفيه ازدراء بالدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لايصغرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة، واللهو ما يتلذذ به الإنسان فيلهيه ساعة ثم ينقضى ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أى: الحياة أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لاموت فيها فكأنها فى ذاتها حياة، والحيوان: مصدر حي وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا، ولم يقل لهى الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، والحياة حركة والموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة، ويوقف على الحيوان لأن التقدير ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى، ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقا بشرط علمهم ذلك وليس كذلك.

●● ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ هو متصل بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ماوصفوا به من الشرك والعناد فإذا ركبوا فى الفلك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كائنين فى صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلها آخر ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ وأمنوا ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ عادوا إلى حال الشرك.

●● ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعمة، قيل: هى لام كى وكذا فى ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ فيمن قرأها بالكسر أي: لكى يكفروا وكى يتمتعوا، والمعنى: يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لاغير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة لا إلى التلذذ والتمتع، وعلى هذا لاوقف على يشركون ومن جعله لام الأمر متبثا بقراءة ابن كثير وحمزة وعلى، وليتمتعوا بسكون اللام على وجه التهديد كقوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١) وتحقيقه فى أصول الفقه يقف عليه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء تدبيرهم عند تدميرهم.

●● ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ أى: أهل مكة ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بلدهم ﴿حَرَمًا﴾ ممنوعا مصونا ﴿آمِنًا﴾ يأمن داخله ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يستلبون قتلا وسبيا ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: أبالشيطان والأصنام ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أى: بمحمد ـ عليه السلام ـ والإسلام.

●● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن جعل له شريكا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ بنبوة محمد

---

(١) سورة «الكهف»، الآية (٢٩).

ـ عليه السـلام ـ والكتاب ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أى: لم يتلعثموا فى تـكذيبه حين سمعوه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ هذا تقرير لثوائهم فى جهنم؛ لأن همزة الإنكار إذا أدخلت على النفى صار إيجابا يعنى ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو ألم يصح عندهم أن فى جهـنم مثوى للكافرين حين اجترءوا مثل هذه الجراءة، وذكـر المثوى فى مقابلة لنبوئنهم يؤيد قراءة الثانى.

●● ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أطلق المجاهـدة ولم يقيدها بمـفعول ليتنـاول كل ما تجب مجاهـدته من النفس والشيطان وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ فى حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبْلنا أبو عمرو أى: لنزيـدنهم هداية إلى سبل الخير وتوفـيقا. وعن الدارانى [1] :والذين جاهدوا فيما علموا لنهـدينهم إلى مالم يعلموا، فقـد قيل: من عمل بما علم وفق لما لا يـعلم. وقيل: إن الذى نرى من جهلـنا بما لا نعلم إنما هو لتـقصيرنا فيما نـعلم. وعن فضيل: والذين جـاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سـبل العمل به. وعن سهل: والذين جاهدوا فى إقامة السنة لـنهدينهم سبل الجنة. وعن ابن عـطاء: جاهدوا فـى رضانا لنـهدينهم الـوصول إلى محـل الرضوان. وعن ابـن عباس: جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا. وعن الجنيد: جاهدوا فى التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، أو جاهدوا فى خدمـتنا لنفتحن علـيهم سبل المناجاة معـنا والأنس بنا، أو جاهدوا فى طلـبنا تحريا لرضانا لنـهدينهم سبل الوصـول إلينا. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنـصرة والمعونة فى الـدنيا، وبالثواب والمغفرة فى العقبى.

---

(١) هو الصوفـى الكبير؛ عبـدالرحمن بن أحمد بـن عطية، العنسـى، المذحجى،أبو سلـيمان، زاهد مشهور، من كبار الصوفية، اشتهر بلقبه «الدارانى» فلا يكاد يعرف إلا به.
الأعلام (٣/ ٢٩٣).

سورة الروم مكية وهى ستون أو تسع وخمسون آية

والاختلاف فى بضع سنين

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ أى: غلبت فارس الروم.

●●﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أى: فى أقرب أرض العرب؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم والمعنى غلبوا فى أدنى أرض العرب منهم وهى أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه أى: فى أدنى أرضهم إلى عدوهم ﴿وَهُم﴾ أى: الروم ﴿مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أى غلبة فارس إياهم، وقرئ بسكون اللام فالغلب والغلب مصدران وقد أضيف المصدر إلى المفعول ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ فارس ولا وقف عليه لتعلق.

●●﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ به وهو ما بين الثلاث إلى العشرة، قيل: احتربت فارس والروم بين أذرعات[1] وبصرى[2] فغلبت فارس الروم والملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز، فبلغ الخبر مكة فشق على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب وفرح المشركون وشمتوا، وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت، فقال لهم أبو بكر، والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف: كذبت فناحبه[3] على عشر قلائص[4] من كل واحد منهما وجعل الأجل ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول الله ﷺ فقال ـ عليه السلام ـ: «زد فى الخطر وأبعد فى الأجل» فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبى من جرح رسول الله ﷺ وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر[5] من ذرية أبى فقال- عليه السلام-: «تصدق به»[6] وهذه آية بينة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار عن قتادة، ومن مذهب أبى حنيفة ومحمد أن العقود

---

(١) أذرعات: بلد مشهور، فى أطراف الشام.
معجم البلدان (١/ ١٥٨).

(٢) بصرى: هى قصبة كورة حوران، من أعمال دمشق.
(معجم البلدان ١/ ٥٢٢).

(٣) النحب: المراهنة، ناحَبَهُ، أى: راهنَهُ.
القاموس (١/ ١٣٠).

(٤) القلائص: جماعة الإبل الشابة؛ الإناث خاصة، والمفرد: «قلوص».
القاموس (٢/ ٣١٤).

(٥) الخطر: اسم من أسماء الرهان.
القاموس (٢/ ٢٢).

(٦) الحديث عند الترمذى؛ من حديث عكرمة.

الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار، وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أى: من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء أو حين غلبوا أو حين يغلبون، كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعنى أن كونهم مغلوبين، أولاً وغالبين آخرًا ليس إلا بأمر الله وقضائه، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1] ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

●●﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم والباء يتصل بيفرح فيوقف على الله لا على المؤمنين ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ العاطف على أوليائه.

●● ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون وعد من الله للمؤمنين فقوله: وعد الله بمنزلة وعد الله المؤمنين وعداً ﴿لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بنصر الروم على فارس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

●● ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من لا يعلمون وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا وقوله: ﴿ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهرًا وباطنًا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة وبالأعمال الصالحة، وتنكير الظاهر يفيد أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من جملة ظواهرها ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ هم الثانية مبتدأ، وغافلون خبره، والجملة خبرهم الأولى وفيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها.

●● ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ يحتمل أن يكون ظرفًا، كأنه قيل: أو لم يثبتوا التفكر فى أنفسهم أى: فى قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون إلا فى القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده فى قلبك وأن يكون صلة للتفكر نحو تفكر فى الأمر وأجال فيه فكره ومعناه على هذا، أو لم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها.فيتدبروا ما أودعها الله ظاهرًا وباطنًا.من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال، وأنه لابد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه على الإحسان إحسانًا وعلى الإساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة فى التدبير، وأنه لابد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ متعلق بالقول المحذوف معناه، أو لم يتفكروا فيقول هذا القول، وقيل معناه فيعلموا ؛ لأن

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٤٠).

فى الكلام دليلاً عليه ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: ما خلقها باطلاً وعبثًا بغير حكمة بالغة ولا لتبقى خالدة إنما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة، وبتقدير أجل مسمى لابد لها من أن تنتهى إليه، وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب ألا ترى إلى قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[1] كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثًا ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء ﴿لَكَافِرُونَ﴾ لجاحدون، وقال الزجاج: أى لكافرون بلقاء ربهم.

●●﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هو تقرير لسيرهم فى البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية، ثم وصف حالهم فقال: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ وحرثوها ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ أى: المدمرون ﴿أَكْثَرَ﴾ صفة مصدر محذوف وما مصدرية في ﴿مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أى: من عمارة أهل مكة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وتقف عليها لحق الحذف أى: فلم يؤمنوا فأهلكوا ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فما كان تدميره إياهم ظلمًا لهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

●●﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ﴾ بالنصب شامى وكوفى ﴿الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى﴾ تأنيث الأسوأ، وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن، ومحلها رفع على أنها اسم كان عند من نصب عاقبة على الخبر، ونصب عند من رفعها، والمعنى: أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم السوأى إلا أنه وضع المظهر وهو الذين أساءوا موضع المضمر، أى: العقوبة التى هى أسوأ العقوبات فى الآخرة وهى النار التى أعدت للكافرين ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ لأن كذبوا أو بأن وهو يدل على أن معنى أساءوا كفروا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعنى: ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها.

●● ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وبالياء أبو عمرو وسهل.

●●﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ﴾ ييأس ويتحير، يقال: ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المشركون.

●● ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله. وكتب ﴿شُفَعَاءُ﴾ فى المصحف بواو قبل الألف كما كتب علماء بنى إسرائيل، وكذلك كتبت السوأى بالألف قبل الياء إثباتًا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أى: يكفرون بآلهتهم ويجحدونها، أو وكانوا فى الدنيا كافرين بسببهم.

---

(١) سورة «المؤمنون»، الآية (١١٥).

•• ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ الضمير فى يتفرقون للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه حيث قال:

••﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ أى: بستان وهى الجنة والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون يقال: حبره إذا سره سروراً تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار فقيل: يكرمون وقيل: يحلون، وقيل: هو السماع فى الجنة.

•• ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ أى: البعث ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مقيمون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنه كقوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾(١) . لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجى من الوعيد فقال.

•• ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ والمراد بالتسبيح ظاهره الذى هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير فى هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة ، أو الصلاة فقيل لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن؟ فقال :نعم وتلا هذه الآية، وهو نصب على المصدر والمعنى نزهوه عما لا يليق به، أوصلوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر.

•• ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ اعتراض ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمدوه، وفى السموات حال من الحمد ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر وهو معطوف على حين تمسون، وقوله عشيًا متصل بقوله حين تمسون: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، أظهر أى: دخل فى وقت الظهيرة، والقول الأكثر أن الصلوات الخمس فرضت بمكة.

•• ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الطائر من البيضة، أو الإنسان من النطفة أو المؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أى: البيضة من الطائر، أو النطفة من الإنسان، أو الكافر من المؤمن، والميت بالتخفيف فيهما مكى وشامى وأبو عمرو وأبو بكر وحماد وبالتشديد غيرهم ﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ تَخرجون حمزة وعلى وخلف أى ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم، والكاف فى محل النصب بتخرجون، والمعنى أن الإبداء والإعادة يتساويان فى قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحى وعكسه. روى ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «من قرأ فسبحان الله حين تمسون إلى الثلاث وآخر سورة والصفات دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الأمطار وورق الأشجار وتراب الأرض، فإذا مات أجرى له بكل حرف عشر حسنات فى قبره». قال عليه السلام: «من قرأ حين يصبح: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته فى يومه، ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته»(٢).

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٣٧).

(٢) قال ابن حجر: قال البخارى: لايصح.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ومن علامات ربوبيته وقدرته ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أى: إياكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾ أى: آدم وذريته ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ تتصرفون فيما فيه معاشكم، وإذا للمفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين فى الأرض.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أى: حواء خلقت من ضلع آدم - عليه السلام - والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال، أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون ،وما بين الجنسين المختلفين من التنافر يقال: سكن إليه إذا مال إليه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أى :جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج، وعن الحسن المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد، وقيل المودة للشابة والرحمة للعجوز، وقيل: المودة والرحمة من الله، والفرك[1] من الشيطان أى: بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن قوام الدنيا بوجود التناسل.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أى: اللغات أو أجناس النطق وأشكاله ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ كالسواد والبياض وغيرهما ولاختلاف ذلك وقع التعارف وإلا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت المصالح، وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وهم على الكثرة التى لا يعلمها إلا الله متفاوتون ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [للعالمين] جمع عالَم وبكسر اللام حفص جمع عالِم ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2].

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ هذا من باب اللف، وترتيبه من آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين، أو المراد منامكم فى الزمانين وابتغاؤكم فيهما، والجمهور على الأول، لتكرره فى القرآن وأسد المعانى ما دل عليه القرآن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أى: يسمعون سماع تدبر بآذان واعية.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ فى يريكم وجهان إضمار أن كما فى حرف[3] ابن مسعود - رضى الله عنه - وإنزال الفعل منزلة المصدر، وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدي[4] خير من أن تراه أى: أن تسمع أو سماعك ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وَطَمَعًا﴾ فى الغيث، أو خوفًا للمسافر وطمعًا للحاضر، وهما منصوبان على المفعول له على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أى: إرادة خوف وإرادة طمع أو على الحال أى: خائفين وطامعين ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾

(١) الفَرك: البغضاء، والشحناء. المعجم الوسيط (٢/ ٦٨٧).

(٢) سورة «العنكبوت»، الآية (٤٣).

(٣) يقصد: «قراءة عبدالله بن مسعود».

(٤) المُعَيْدِىُّ: تصغير لكلمة المعيد، وهو الأسد، ويطلق هذا المثل فى التخويف من الشدائد.

وبالتخفيف مكى وبصرى ﴿مَاءً﴾ مطرًا ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتفكرون بعقولهم.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ﴾ تثبت بلا عمد ﴿السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بإقامته وتدبيره، وحكمته ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم هذا كقوله: يريكم فى إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض واستمساكها بغير عمد، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا، والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف، وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بثم بيانًا لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر كما قال: ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وإذا الأولى للشرط والثانية للمفاجأة، وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط، ومن الأرض متعلق بالفعل لا بالمصدر، وقولك دعوته من مكان كذا، يجوز أن يكون مكانك ويجوز أن يكون مكان صاحبك.

●● ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه أو مقرون بالعبودية.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أن ينشئهم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ للبعث ﴿وَهُوَ﴾ أى: البعث ﴿أَهْوَنُ﴾ أيسر ﴿عَلَيْهِ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء فلم أنكرتم الإعادة، وأخرت الصلة فى قوله، وهو أهون عليه وقدمت فى قوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾(١) لقصد الاختصاص هناك وأما هنا فلا معنى للاختصاص، وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما: الأهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾(٢) كما قالوا الله أكبر أى كبير، والإعادة فى نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء، أو هو أهون على الخلق من الإنشاء ؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفًا، ثم علقًا ثم مضغًا إلى تكميل خلقهم ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: الوصف الأعلى الذى ليس لغيره وقد عرف به ووصف فى السموات والأرض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وهو أنه القادر الذى لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قوله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: القاهر لكل مقدور ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس- رضى الله عنهما -: ﴿لَيْسَ

---

(١) سورة «مريم»، الآيتان (٩)، (٢١).

(٢) سورة النساء (٣٠)، (١٦٩)، سورة والأحزاب (١٩)، (٣٠).

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] . وعن مجاهد: هو قول لا إلـه إلا الله ، ومعناه وله الوصف الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية ويعضده قوله.

●● ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فهذا مثل ضـربه الله -عز وجل- لمن جعل له شـريكًا من خلقه ومن للابتداء كأنه قال: أخذ مثلاً وانتـزعه من أقرب شيء منكم وهـى أنفسكم ﴿هَل لَّكُم﴾ معاشر الأحرار ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ عبيدكم ومن للتبعيض ﴿مِّن شُرَكَاءَ﴾ من مزيدة؛ لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفي، ومعناه هل ترضون لأنفسـكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد أن يشارككم بعضهم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها ﴿فَأَنتُمْ﴾ معاشر الأحرار والعبيد ﴿فِيهِ﴾ فى ذلـك الرزق ﴿سَوَاءٌ﴾ من غيـر تفصلة بين حـر وعبد يحكم ممـاليككم فى أمـوالكم كحكمكم ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ حال من ضمير الـفاعل فى سواء، أى: متساوون خائفًا بـعضكم بعضًا مشاركته فى المال والمعنى: تخافون معاشرة السادة عبيدكم فيها فلا تمضون فيها حكمًا دون إذنهم خوفًا من لائمة تلحقكم من جهتهم ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعنى: كما يخاف بعض الأحرار بعضًا فيما هـو مشترك بينـهم، فإذا لم ترضوا بـذلك لأنفسكم فـكيف ترضون لرب الأربـاب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بـعض عبيده له شركاء ﴿كَذَلِكَ﴾ موضع الكاف نصب أى: مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نبينها لأن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبرون فى ضرب الأمثال فلما لم ينزجروا أضرب عنهم فقال.

●● ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بما أشركوا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] ﴿أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: اتبعوا أهواءهـم جاهلين ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أى أضلـه الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ من العذاب .

●● ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فقوم وجهك له وعد له غير ملتفـت عنه يمينًا ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقوم لـه وجهه ﴿حَنِيفًا﴾ حال من المأمـور أو من الدين ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أى: الزموا فـطرة الله والفطرة: الخلـقة، ألا ترى إلى قـوله: «لا تبديل الخـلق الله» فالمعنى أنه خلـقهم قابلين للـتوحيد والإسلام غير نائين عنه ولاه منكـرين له لكونه مجاوبًا للعقل مساوقًا للنظـر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينًا آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الجن والإنس،ومنه قوله ـ عليه السلام ـ: «كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الـشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بى غيرى»[3] وقولـه

(١) سورة «الشورى»، الآية (١١).

(٢) سورة «لقمان»، الآية (١٣).

(٣) الحديث عند الإمام مسلم، من حديث عياض بن حمار.

ـ عليه السلام ـ: «كـل مولود يولد على الفطرة حـتى يكون أبواه هما اللذان يهـودانه وينصرانه»(١) وقال الزجاج: معناه أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به على ما جاء فى الحديث: «إن الله عز وجل أخرج من صلب آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم»(٢) فقال: ﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ (٣) وكل مولود هو من تـلك الذرية التى شهدت بأن الله تعـالى خالقها، فمعنى فطرة الله دين الله ﴿الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أى: خلق ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ أى: ما ينبغى أن تبدل تلك الـفطرة، أو تغير وقال الزجاج معـناه لا تبديل لدين الله ويدل عليـه ما بعده، وهو قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى: المستقيم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ذلك.

●● ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إلـيه وهو حال من الضـمير فى الزمـوا وقوله: واتقوه وأقـيموا ولا تكونوا معطوف علـى هذا المضمر، أو من قوله: فأقم وجهـك؛ لأن الأمر له ـ عليه السـلام ـ أمر لأمته فكأنه قال: فأقيمـوا وجوهكم منيبين إليه، أو التقـدير كونوا منيـبين دليله قولـه ولا تكونوا ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أى أدوها فى أوقاتها ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره فى العبادة.

●● ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بدل من المشركـين بإعادة الجار ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ جعلوه أديانًا مختلفة لاختلاف أهوائهم فارقوا حمزة وعلي(٤) وهى قراءة علي(٥) -رضي الله عنه- أى: تركوا دين الإسلام ﴿وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ فرقًا كل واحدة تشايع إمـامها الذى أضلها ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقًا.

●● ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدة من هـزال، أو مرض، أو قحط، أو غـير ذلك ﴿دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أى: خلاصًا من الشدة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فى العبادة.

●● ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ هذه لام كـى وقيل لام الأمـر للوعـيد ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النـعم ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بكفركم قليلاً أمر وعيد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال تمتعكم.

●●﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ وتكلمه مجاز كما تقول كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الشهادة كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ما مصدرية أى بكـونهم بالله يشركون، أو موصولة، ويرجـع الضمير إليها أى فهو يـتكلم بالأمر الذى بسببـه يشركون، أو معنى الآيـة: أم أنزلنا عليهم ذا سـلطان، أى: ملكاً معه بـرهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذى بسببه يشركون.

---

(١) الحديث عند البخارى ومسلم، من حديث أبى هريرة.

(٢) أورده البيهقى، من حديث عمر بن الخطاب، وبه زيادات.

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (١٧٢).

(٤) على بن حمزة، الكسائى. انظر ترجمته عند تفسير الآية (٤) من سورة «الفاتحة».

(٥) هو أمير المؤمنيـن، على بـن أبى طالـب، انظر ترجمتـه عنـد تفسيـر الآية (١٤٩) من سـورة «آل عمران».

●● ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أى: نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطروا بسببها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى: بلاء من جدب أو ضيق، أو مرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب شؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ من الرحمة، وإذا لمفاجأة جواب الشرط نابت عن الفاء لتآخيهما فى التعقيب.

●● ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه القابض الباسط فما لهم يقنطون من رحمته، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصى التى عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد إليهم رحمته، ولما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك فقال.

●● ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ أعط قريبك ﴿حَقَّهُ﴾ من البر والصلة ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ نصيبهما من الصدقة المسماة لهما ،وفيه دليل وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: إيتاء حقوقهم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أى: ذاته أى يقصدون بمعروفهم إياه خالصًا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

●● ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ يريد: وما أعطيتم أكلة الربا من ربا ليربوا فى أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه، وقيل: هو من الربا الحلال أى: وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثر منها فلا يربوا عند الله لأنكم لم تريدوا بذلك وجه الله ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ صدقة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصًا لا تطلبون به مكافأة ولا رياء ولاسمعة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات، ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار. أتيتم من ربا بلا مد مكى أى وما غشيتموه من إعطاء ربا لتُربوا مدني، أى لتزيدوا فى أموالهم وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾، التفات حسن، لأنه يفيد التعميم، كأنه قيل من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين، والمعنى: المضعفون به؛ لأنه لابد له من ضمير يرجع إلى ما الموصولة وقال الزجاج فى قوله فأولئك هم المضعفون: أى فأهلها هم المضعفون، أى هم الذين يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر أمثالها، ثم أشار إلى عجز آلهتهم فقال.

●● ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى هو المختص بالخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أى: أصنامكم التى زعمتم أنهم شركاء لله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ أى: من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أى: شيئًا من تلك الأفعال فلم يجيبوا عجزًا فقال استبعادًا ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ومن الأولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم.

●●﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ نحو القحط وقلة الأمطار والريع فى الزراعات والربح فى التجارات، ووقوع الموتان فى الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شيء ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بسبب معاصيهم وشركهم كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1] . ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أى، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة، وبالنون عن قنبل ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من المعاصي، ثم أكد تسبب المعاصى لغضب الله ونكاله بقوله.

●●﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ حيث أمرهم بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم.

●● ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة الذى لا يتأتى فيه عوج ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ هو مصدر بمعنى الرد ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يتعلق بيأتى والمعنى من قبل أن يأتى من الله يوم لا يرده أحد كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾[2] أو بمرد على معنى لا يرده هو بعد أن يجيء به ولا رد له من جهته ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون، أى، يتفرقون ثم أشار إلى غناه عنهم فقال:

●● ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أى، وبال كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أى، يسوون لأنفسهم ما يسويه لنفسه الذى يمهد لنفسه فراشه ويوطئه لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتوء وغيره، والمعنى أنه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم فأضيف إليهم، وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر، ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزه.

●●﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بيمهدون تعليل له وتكرير ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أى عطائه. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: ومن آيات قدرته ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ هى الجنوب والشمال والصبا وهى رياح الرحمة، وأما الدبور فريح العذاب، ومنه قوله عليه السلام: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»[3] وقد عدد الفوائد فى إرسالها فقال: ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ أى: أرسلها للبشارة بالغيث ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ ولإذاقة الرحمة وهى نزول المطر وحصول الخصب الذى يتبعه، والروح الذى مع هبوب الريح وزكاه الأرض وغير ذلك، و«ليذيقكم» معطوف على مبشرات على المعنى، كأنه قيل:

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٣٠).

(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٤٠).

(٣) أخرج الشافعى عن ابن عباس مرفوعاً نحوه.

ليبشركم وليذيقكم ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ فى البحر عند هبوبها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أى: بتدبيره أو بتكوينه كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾[1] الآية ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يريد تجارة البحر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمة الله فيها.

•• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ويدل على هذا الإضمار قوله ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ أى: كفروا بالإهلاك فى الدنيا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: وكان نصر المؤمنين حقًا علينا بإنجائهم مع الرسل وقد يوقف على حقًا ومعناه: وكان الانتقام منهم حقًا، ثم تبدئ علينا نصر المؤمنين والأول أصح.

•• ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ الريح مكى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ﴾ أى: السحاب ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أى فى سمت السماء وشقها كقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[2] ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ناحية الشمال أو الجنوب أو الدبور أو الصبا ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قطعا جمع كسفة أى: يجعلها منبسطًا يأخذ وجه السماء مرة ويجعله قطعًا متفرقة غير منبسطة مرة. كسْفا يزيد وابن ذكوان ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ﴾ فى التارتين جميعًا ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ وسطه ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بالودق ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يريد إصابة بلادهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون.

•• ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾المطر﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ كرر للتأكيد كقوله: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾[3] ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم بأسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ آيسين.

•• ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ﴾ شامي وكوفي غير أبى بكر. وغيرهم أثر ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أى: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات وأنواع الثمار ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أى: الله ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ يعنى أن ذلك القادر الذى يحيي الأرض بعد موتها، هو الذى يحيى الناس بعد موتهم فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: وهو على كل شيء من المقدورات قادر ،وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أى: الدبور ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أى: أثر رحمة الله ، لأن رحمة الله هى الغيث وأثرها النبات، ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلىّ معناه؛ لأن معنى آثار الرحمة النْبات واسم النبات يقع على القليل والكثير؛ لأنه مصدر سمى به ما ينبت ﴿مُصْفَرًّا﴾ بعد اخضراره وقال مصفرًا؛ لأن تلك صفرة حادثة، وقيل، فرأوا السحاب مصفرًا؛ لأن السحاب الأصفر لا يمطر،

---

(١) سورة «يس»، الآية (٨٢).

(٢) سورة «إبراهيم»، الآية (٢٤).

(٣) سورة «الحشر»، الآية (١٧).

واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط ، وسد مسد جوابى القسم والشرط ﴿لَّظَلُّوا﴾ ومعناه ليظلن ﴿مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أى، من بعد اصفراره، أو من بعد الاستبشار؛ ذَمَّهُم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقناهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا، فإذا أرسل ريحًا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله، فهم فى جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ففرحوا، وأن يصبروا على بلائه فكفروا.

●● ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ أى: موتى القلوب، أو هؤلاء فى حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ مكى ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن قلت: الأصم لا يسمع مقبلا أو مدبرًا فما فائدة هذا التخصيص؟! قلت: هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة.

●● ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ أى: عمى القلوب، وما أنت تَهْدى العمى حمزة ﴿عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ أى: لا يمكنك أن تهدى الأعمى إلى طريق قد ضل عنه بإشارة منك له إليه ﴿ إِن تُسْمِعُ﴾ ما تسمع ﴿إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لأوامر الله تعالى.

●● ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ من النطف كقوله : ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾(١) ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعنى: حال الشباب وبلوغ الأشد ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ يعنى حال الشيخوخة والهرم ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ضعف وقوة وشباب وشيبة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ﴿الْقَدِيرُ﴾ على تغييرهم وهذا الترديد فى الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير . فتح الضاد فى الكل عاصم وحمزة، وضم غيرهما، وهو اختيار حفص- وهما لغتان ـ والضم أقوى فى القراءة، لما روى عن ابن عمر قال: «قرأتها على رسول الله ﷺ: (من ضَعف) فأقرأنى: (من ضُعف)»(٢).

●● ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: القيامة سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنها تقع بغتة كما تقول فى ساعة لمن تستعجله وجرت علمًا لها كالنجم للثريا ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يحلف الكافرون ولا وقف عليه لأن ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فى القبور أو فى الدنيا ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ جواب القسم استقلوا مدة لبثهم فى القبور أو فى الدنيا لهول يوم القيامة وطول مقامهم فى شدائدها، أو ينسون، أو يكذبون ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أى: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق إلى الكذب فى الدنيا ويقولون: ما هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

(١) سورة «المرسلات»، الآية (٢٠).
(٢) الحديث عند أبى داود والترمذى، وغيرهما، من طريق عطية، عن ابن عمر.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾ هم الأنبياء والملائكة والمؤمنون ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فى علم الله المثبت فى اللوح أو فى حكم الله وقضائه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ فى الدنيا ﴿لا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه والفاء لجواب شرط يدل عليه الكلام تقديره: إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه.

●● ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ﴾ بالياء[1] كوفى ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عذرهم ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة من قولك: استعتبنى فلان فأعتبته، أى استرضانى فأرضيته.

●● ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ أى: ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور وباطل.

●● ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرق خلق الله فى تلك الصفة.

●● ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذاهم أو عداوتهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرتك على أعدائك وإظهار دين الإسلام على كل دين ﴿حَقٌّ﴾ لابد من إنجازه والوفاء به ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ أى: لايحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة فى الدعاء عليهم بالعذاب، أو لايحملنك على الخفة والقلق جزعًا مما يقولون ويفعلون فإنهم ضلال شاكون لا يستبدع منهم ذلك. ولا يستخفْنك بسكون النون عن يعقوب. والله الموفق للصواب.

---

(١) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها بالتاء؛ «لا تنفع».

سورة لقمان مكية وهى ثلاث أو أربع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ذى الحكمة، أو وصف بصفة الله ـ عز وجل ـ على الإسناد المجازى.

•• ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالان من الآيات، والعامل معنى الإشارة فى تلك حمزة بالرفع على أن تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبره، وهدى خبر بعد خبر أو خبر مبتدإٍ محذوف، أى هو أو هى هدىً ورحمة ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للذين يعملون الحسنات المذكورة فى قوله:

•• ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ونظيره قول أوس[1]:

الألمعيّ الذى يظن بك الظـ ... ـن كأن قد رأى وقد سمعا

أو للذين يعملون جميع ما يحسن ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاثة لفضلها.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ مبتدأ وخبر﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ صفة لهدى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ عطف عليه.

•• ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ نزلت فى النضر بن الحارث وكان يشترى أخبار الأكاسرة من فارس ويقول: إن محمداً يقص طرفًا من قصة عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث الأكاسرة، فيميلون إلى حديثه ويتركون استماع القرآن. واللهو كل باطل أَلْهَىَ عن الخير وعما يعنى، ولهو الحديث: نحو السمر بالأساطير التى لا أصل لها والغناء ،كان ابن مسعود وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ يحلفان أنه الغناء، وقيل: الغناء مفسدة للقلب منفدة للمال مسخطة للرب، وعن النبى ﷺ : «ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت»[2] والاشتراء من الشراء كما روى عن النضر، أو من قوله اشتروا الكفر بالإيمان أى: استبدلوه منه واختاروه عليه ، أى: يختارون حديث الباطل على حديث الحق وإضافة اللهو إلى الحديث للتبيين بمعنى من ؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبيّن بالحديث، والمراد بالحديث الحديث المنكر كما جاء فى الحديث: «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»[3] أو للتبعيض كأنه قيل ومن الناس من يشترى بعض الحديث الذى هو اللهو منه ﴿لِيُضِلَّ﴾ أى: ليصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع القرآن؛ لَيَضل مكى وأبو عمرو أى:

---

(١) هو الشاعر الجاهلى الكبير؛ أوس بن حجر بن مالك، التميمى، أبو شريح، شاعر تميم فى الجاهلية، وهو من كبار شعرائها، توفى بعد البعثة بنحو ١٠سنين، وقد تعدى ٩٥عاماً.
الأعلام (٢/ ٣١).

(٢) أخرجه أبو يعلى وإسحاق من طريق أبى أمامة.

(٣) أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن الحسن بن على.

ليثبت على ضلالـه الذى كان عليه ويزيد فيه ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دين الإسـلام والقرآن ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى: جهلاً منه بما عـليه من الوزر به ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ أى السبيل بالنصـب كوفى غير أبى بكر عطفًا على ليضل، ومن رفع عطفه على يشترى ﴿هُزُوًا﴾ بسكون الزاى والهمزة حمزة، وبضم الزاى بلا همـز حفص، وغيرهـم بضم الزاى والـهمزة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: يهينـهم ومن لإبهامه يقع على الواحد والجمع أى النضر وأمثاله.

●●﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أعرض عن تدبرها متكبرًا رافعًا نفسه عن الإصغاء إلى القرآن ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو حال من مستكبر، والأصل كأنه والضمير ضمير الشأن﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ ثقلاً وهو حال من لم يسـمعها أذْنيه نافع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ ولا وقف عليه لأن .

●● ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمـير فى لهم ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكـدان الأول مؤكد لنفسه والثانى مؤكد لغيره إذ لهم جنات النعيم فى معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد، وحقًا يـدل على معنى الثبات فأكد به مـعنى الوعد ومؤكدهما لهم جـنات النعيم ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذى لا يغلبه شيء فيهين أعداءه بالعذاب المهين ﴿الْحَكِيمُ﴾ بما يفعل فيثبت أولياءه بالنعيم المقيم.

●● ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ جمع عـماد ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الضمـير للسموات وهو استـشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله: بغير عمد، كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح ترانى ولا محل لها من الإعراب؛ لأنها مستأنفة أو فى محل الجر صفة لعمد أى بغير عمد مرئية، يعنى أنه عمدها بعمد لا ترى وهى إمساكها بقدرته ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم ﴿ وَبَثَّ﴾ ونشر ﴿ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن .

●● ﴿ هَٰذَا﴾ إشارة إلى مـا ذكر من مخلـوقاته ﴿ خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى: مخلوقه﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ يعنى آلهتـهم، بكتّهم بأن هذه الأشياء الـعظيمة مما خلقه الله فأرونـى ما خلقته آلهتكم حـتى استوجبوا عندكـم العبادة ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أضرب عن تبكـيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورط فى ضلال ليس بعده ضلال.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ وهو لقمان ابن باعوراء ابن أخت أيوب، أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر وعاش ألف سنـة ،وأدرك داود -عليه السلام -وأخذ منه العلم، وكـان يفتى قبل مبعث داود ـ عليه السلام ـ فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفى إذا كُفيت؟! وقيل:

كان خياطًا وقيل: نجارًا ، وقيل راعيًا، وقيل: كان قاضيًا فى بنى إسرائيل، وقال عكرمة والشعبى: كان نبيًا، والجمهور على أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا، وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، وهى الإصابة فى القول والعمل، وقيل: تتلمذ لألف وتتلمذ له ألف نبي. وأن فى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ مفسرة والمعنى: أى اشكر لله لأن إيتاء الحكمة فى معنى القول، وقد نبه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له؛ حيث فسر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر، وقيل: لا يكون الرجل حكيمًا حتى يكون حكيمًا فى قوله وفعله ومعاشرته وصحبته، وقال السرى السقطي[1]: الشكر أن لا تعصى الله بنعمه. وقال الجنيد: أن لا ترى معه شريكًا فى نعمه . وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر، والحاصل أن شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة ورؤية العجز فى الكل دليل قبول الكل ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعته تعود إليه فهو يريد المزيد ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعمة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ غير محتاج إلى الشكر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بأن يحمده وإن لم يحمد أحد.

●● ﴿وَإِذْ﴾ أى: واذكر إذ ﴿قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ أنعم أو أشكم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ﴾ بالإسكان مكى يا بنى حفص بفتحه فى كل القرآن ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا وهى منه ومن لا نعمة له أصلاً .

●● ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أى: حملته تهن وهنا على وهن أى تضعف ضعفًا فوق ضعف أى: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلاً وضعفًا ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أى: فطامه عن الرضاع لتمام عامين ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ هو تفسير لوصينا أى وصيناه بشكرنا وبشكر والديه، وقوله: حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر، لأنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق فى حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيرًا بحقها العظيم مفردًا. وعن ابن عيينة[2]: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين فى أدبار الصلوات الخمس فقد شكرهما ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أى: مصيرك إلى وحسابك علي.

●● ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أراد بنفي العلم به نفيه أى: لا تشرك بى ما ليس بشيء يريد الأصنام ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فى الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صفة مصدر محذوف، أى: صحابًا معروفًا حسنًا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أى: سبيل المؤمنين فى دينك ولا تتبع سبيلهما فيه وإن كنت مأمورًا بحسن مصاحبتهما

---

(١) هو إمام الصوفية الأول؛ السرى بن المغلس، السقطى، أبو الحسن، خال الجنيد ومعلمه، ولد ببغداد. وتوفى عام ٢٤٦هـ.
الأعلام (٣/ ٨٢).

(٢) هو الإمام؛ سفيان بن عيينة، سبقت ترجمته عند تفسير الآية (١٣٦)، من سورة «آل عمران».

فى الدنيا، وقال ابن عطاء: صاحب من ترى عليه أنوار خدمتي. ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك، يعنى: إنا وصيناه بوالديه وأمرناه أن لا يطيعهما فى الشرك وإن جهدا كل الجهد لقبحه.

●● ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ بالرفع مدنى والضمير للقصة وأنث المثقال لإضافته إلى الحبة كما قال.

* كما شرقت صدر القناة من الدم *

وكان تامة والباقون بالنصب والضمير للهنة من الإساءة والإحسان، أى: وإن كانت مثلاً فى الصغر كحبة خردل ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ﴾ أى: فكانت مع صغرها فى أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى والأكثر على أنها التى عليها الأرض، وهى السجين يكتب فيها أعمال الفجار وليست من الأرض ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يوم القيامة فيحاسب بها عاملها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بتوصل علمه إلى كل خفى ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه، أو لطيف باستخراجها خبير بمستقرها.

●● ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ فى ذات الله تعالى إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر أو على ما أصابك من المحن فإنها تورث المنح ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذى وصيتك به ﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أى: مما عزمه الله من الأمور أى: قطعه قطع إيجاب وإلزام، أى: أمر به أمرًا حتمًا وهو من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الأمور أى: مقطوعاتها ومفروضاتها، وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورًا بها فى سائر الأمم.

●● ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أى: ولا تعرض عنهم تكبرًا، تصاعر أبو عمر ونافع وحمزة وعلي، وهو بمعنى تصعّر والصعر داء يصيب البعير يلوى منه عنقه، والمعنى: أقبل على الناس بوجهك تواضعًا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: تمرح مرحًا أو أوقع المصدر موقع الحال أى: مرحًا أو ولا تمش لأجل المرح والأشر ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبر ﴿ فَخُورٍ﴾ من يعدد مناقبه تطاولاً.

●● ﴿وَاقْصِدْ ﴾ القصد التوسط بين العلو والتقصير ﴿ فِي مَشْيِكَ ﴾ أى: اعدل فيه حتى يكون مشيًا بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين وثوب الشطار قال- عليه السلام- : «سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن»(١) وأما قول عائشة فى عمر - رضى الله عنه - كان إذا مشى أسرع(٢) فإنما أرادت

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وابن عمر. وفى إسناده عمار بن مطرد، وهو متروك. كذا قال ابن حجر.

(٢) ذكره ابن سعد فى طبقاته، وابن الأثير فى النهاية.

السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت - وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: كانوا ينهون عن خبب اليهود، ودبيب النصارى ولكن مشيًا بين ذلك، وقيل: معناه وانظر موضع قدميك متواضعًا **﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾** وانقص منه أى: أخفض صوتك **﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾** أى: أوحشها **﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾** لأن أوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار، وعن الثورى صياح كل شيء تسبيح إلا الحمار فإنه يصيح لرؤية الشيطان؛ ولذلك سماه الله منكرًا وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على أن رفع الصوت فى غاية الكراهة، يؤيده ما روى أنه عليه السلام كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت، وإنما وحد صوت الحمير ولم يجمع، لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع؛ بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده.

●● **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾** يعنى: الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك **﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾** يعنى البحار والأنهار والمعادن والدواب وغير ذلك **﴿وَأَسْبَغَ﴾** وأتم **﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾** مدنى وأبو عمرو وسهل وحفص . نعمة غيرهم والنعمة كل نفع قصد به الإحسان **﴿ظَاهِرَةً﴾** بالمشاهدة **﴿وَبَاطِنَةً﴾** ما لا يعلم إلا بدليل ثم قيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل، والفهم وما أشبه ذلك، ويروى فى دعاء موسى ـ عليه السلام ـ: إلهى دلنى على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتى عليهم النفس. وقيل: تخفيف الشرائع، وتضعيف الذرائع، والخَلْق والخُلُق، ونيل العطايا، وصرف البلايا، وقبول الخلق، ورضا الرب، وقال ابن عباس: الظاهرة ما سوّى من خلقك، والباطنة ما ستر من عيوبك **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾** نزلت فى النضر بن الحارث وقد مر فى الحج.

●● **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾** معناه: أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أى فى حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب.

●●**﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾** عدى هنا بإلى، وفي**﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾**(1) باللام فمعناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالمًا لله أى: خالصًا له، ومعناه مع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه، والمراد التوكل عليه والتفويض إليه **﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾** فيما يعمل **﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾** تمسك وتعلق **﴿بِالْعُرْوَةِ﴾** هى ما يعلق به الشيء **﴿الْوُثْقَىٰ﴾** تأنيث الأوثق مثل حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه **﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾** أى: هى صائرة إليه فيجازى عليها.

---

(1) سورة «البقرة»، الآية (١١٢).

•• ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يسلم وجهه لله ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ من حزن، يُحزنك نافع من أحزن أى: لا يهمنك كفر من كفر ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ فنعاقبهم على أعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله يعلم ما فى صدور عباده فيفعل بهم على حسبه.

•• ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ زمانًا ﴿قَلِيلًا﴾ بدنياهم ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد شبه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم إياه باضطرار المضطر إلى الشيء والغلظ مستعار من الأجرام الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذب.

•• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلزام لهم على إقرارهم بأن الذى خلق السموات والأرض هو الله وحده، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وأن لا يعبد معه غيره، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نهبوا عليه لم يتنبهوا.

•• ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمدوه. قال المشركون: إن هذا أى الوحى كلام سينفد فأعلم الله أن كلامه لا ينفد بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ والبحر بالنصب أبو عمرو ويعقوب عطفًا على اسم أن وهو ما، والرفع على محل أن ومعمولها أى، ولو ثبت كون الأشجار أقلامًا وثبت البحر ممدودًا بسبعة أبحر، أو على الابتداء، والواو للحال على معنى ولو أن الأشجار أقلام فى حال كون البحر ممدودًا وقرئ يُمِدُّه، وكان مقتضى الكلام أن يقال ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد لكن أغنى عن ذكر المداد قوله، لأنه من قولك مد الدواة وأمدها جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادًا فهى تصب فيه مدادها أبدًا صبا لا ينقطع، والمعنى ولو أن أشجار الأرض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الأقلام والمداد كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[1] فإن قلت زعمت أن قوله والبحر يمده حال فى أحد وجهى الرفع وليس فيه ضمير راجع إلى ذى الحال، قلت: هو كقولك جئت والجيش مصطف، وما أشبه ذلك من الأحوال التى حكمها حكم الظروف، وإنما ذكر شجرة على التوحيد، لأنه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا وقد بريت أقلامًا وأوثر الكلمات وهى جمع قلة على الكلم وهى جمع كثرة، لأن معناه أن كلماته لا تفى بكتبتها البحار فكيف بكلمه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج من علمه وحكمته شيء فلا تنفد كلماته وحكمه.

•• ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة فحذف للعلم به أى سواء فى قدرته القليل والكثير فلا يشغله شأن عن شأن ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول المشركين إنه لا بعث ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال فيجازيهم.

---

(١) سورة «الكهف»، الآية (١٠٩).

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار إذا أقبل الليل ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمنافع العباد ﴿كُلٌّ﴾ أى: كل واحد من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ فى فلكه ويقطعه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة، أو إلى وقت معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبالياء عياش دل أيضًا بتعاقب الليل والنهار، وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين فى فلكيهما على تقدير وحساب وبإحاطته بجميع أعمال الخلق على عظم قدرته وكمال حكمته.

●● ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء عراقى غير أبى بكر ﴿مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أى: ذلك الوصف الذى وصف به من عجائب قدرته وحكمته التى يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذى يدعونه من دون الله، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت الإلهية وأن من دونه باطل الإلهية، وأنه هو العلى الشأن الكبير السلطان.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ﴾ وقرئ الفلك وكل فُعل يجوز فيه فُعُل كما يجوز فى كل فُعُل فُعْل ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه ورحمته، أو بالريح، لأن الريح من نعم الله ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ عجائب قدرته فى البحر إذا ركبتموها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه وهما صفتا المؤمن فالإيمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر ، فكأنه قال إن فى ذلك لآيات لكل مؤمن.

●● ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أى: الكفار ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ الموج يرتفع فيعود مثل الظلل والظلة كل ما أظلك من جبل، أو سحاب أو غيرهما ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾أى: باق على الإيمان والإخلاص الذى كان منه ولم يعد إلى الكفر أو مقتصد فى الإخلاص الذى كان عليه فى البحر، يعنى أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط والمقتصد قليل نادر ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ أى: بحقيقتها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار، الختر أقبح الغدر﴿كَفُورٍ﴾ لربه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ لا يقضى عنه شيئًا والمعنى لا يجزى فيه فحذف﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه؛ لأن الجملة الإسمية آكد من الجملة الفعلية؛ وقد انضم إلى ذلك قوله: هو، وقوله: مولود، والسبب فى ذلك أن الخطابات للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر فأريد حسم أطماعهم أن ينفعوا آباءهم بالشفاعة فى الآخرة ، ومعنى التأكيد فى لفظ المولود أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه لم تقبل شفاعته فضلاً أن يشفع لأجداده، إذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك كذا فى الكشاف ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والجزاء ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزينتها فإن نعمتها دانية، ولذتها فانية ﴿وَلَا

يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الشيطان، أو الدنيا، أو الأمل ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: وقت قيامها ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد شامى ومدنى وعاصم وهو عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل تقديره إن الله يثبت علم الساعة وينزل ﴿الْغَيْثَ﴾ فى إبّانه من غير تقديم ولا تأخير ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى وتام أم ناقص ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ برة أو فاجرة ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر فعملت خيرًا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أى: أين تموت، وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحها فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها . روى أن ملك الموت مر على سليمان، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل: من هذا؟ قال له: ملك الموت، قال: كأنه يريدنى وسأل سليمان ـ عليه السلام ـ أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظرى إليه تعجبًا منه لأنى أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك[١] ، وجعل العلم لله والدراية للعبيد لما فى الدراية من معنى الختل والحيلة، والمعنى أنها لا تعرف وإن أعملت حيلها ما يختص بها، ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته، فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان معرفة ما عداهما أبعد، وأما المنجم الذى يخبر بوقت الغيث والموت فإنه يقول بالقياس والنظر فى الطالع، وما يدرك بالدليل لا يكون غيبًا على أنه مجرد الظن والظن غير العلم، وعن النبى ﷺ: «مفاتح الغيب خمس» وتلا هذه الآية[٢] وعن ابن عباس -رضى الله عنهما-: من ادّعى علم هذه الخمسة فقد كذب . ورأى المنصور[٣] فى منامه صورة ملك الموت، وسأله عن مدة عمره فأشار بأصبعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ هو إشارة إلى هذه الآية فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالغيوب ﴿خَبِيرٌ﴾ بما كان ويكون وعن الزهرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ: أكثروا قراءة سورة لقمان فإن فيها أعاجيب والله أعلم.

(١) الحديث عند أحمد فى الزهد.

(٢) الحديث عند البخارى، من حديث ابن عمر.

(٣) المنصور: الخليفةالعباسى، أبو جعفر المنصور، انظر ترجمته عند تفسير الآية رقم (١٢٩) من سورة «الأنعام».

(سورة السجدة مكية وهي ثلاثون آية مدني وكوفي، وتسع وعشرون آية بصري)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الٓمٓ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ، وخبره.

●● ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ وإن جعلتها تعديدًا للحروف ارتفع تنزيل بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ خبره ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أو يرتفع بالابتداء وخبره ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له، والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل لا ريب في ذلك أى في كونه منزلاً من رب العالمين، لأنه معجز للبشر ومثله أبعد شيء من الريب، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أى: اختلقه محمد؛ لأن أم هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل، والهمزة معناه بل أيقولون افتراه إنكارًا لقولهم وتعجيبًا منهم لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ولم يفتره محمد ﷺ كما قالوا تعنتًا وجهلاً ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أى: العرب ﴿مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ما للنفى والجملة صفة لقومًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على الترجي من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتذكر على الترجي من موسى وهارون.

●● ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استولى عليه بإحداثه ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ أى: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليًا أى: ناصرًا ينصركم ولا شفيعًا يشفع لكم ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾تتعظون بمواعظ الله.

●● ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى: أمر الدنيا ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾ إلى أن تقوم الساعة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كله أى: يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيام الدنيا ولا تمسّك للمشبهة بقوله إليه في إثبات الجهة لأن معناه إلى حيث يرضاه، أو أمره كما لا تشبث لهم بقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾(١) ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾(٢) ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾(٣) ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾أى: الموصوف بما مر عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ البالغ لطفه وتيسيره، وقيل: لا وقف عليه لأن:

---

(١) سورة «الصافات»، الآية (٩٩). (٢) سورة «العنكبوت»، الآية (٢٦).

(٣) سورة «النساء»، الآية (١٠٠).

●● ﴿الَّذِي﴾ صفته ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى: حسنه لأن كل شيء مرتب على ما اقتضته الحكمة ﴿خَلَقَهُ﴾ كوفى ونافع وسهل على الوصف، أى: كل شيء خلقه فقد أحسن خلقه غيرهم على البدل أى: أحسن خلق كل شيء ﴿وَبَدأَ خَلْقَ الإِنسَانِ﴾ آدم ﴿مِن طِينٍ﴾.

●● ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذريته ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ من نطفة ﴿مِّن مَّاءٍ﴾ أى: منى وهو بدل من سلالة ﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيف حقير.

●● ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ قومه كقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(1) ﴿وَنَفَخَ﴾ أدخل ﴿فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ الإضافة للاختصاص كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذى اختص هو به وبعلمه ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: تشكرون قليلاً ﴿وَقَالُوا﴾ القائل أبى بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: صرنا ترابًا وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء فى اللبن، أو غبنا فى الأرض بالدفن فيها. وقرأ على ضللنا بكسر اللام، يقال: ضل يضل وضل يضَل وانتصب الظرف فى أئذا ضللنا بما يدل عليه ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو نبعث ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ جاحدون لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة لا بالبعث وحده.

●● ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم ثم ترجعون إلى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله. والتوفى: استيفاء النفس، وهى الروح أى يقبض أرواحكم أجمعين من قولك: توفيت حقى من فلان إذا أخذته وافيًا كملا من غير نقصان، وعن مجاهد: حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء، وقيل: ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، والله تعالى هو الآمر لذلك كله وهو الخالق لأفعال المخلوقات وهذا وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾(2)وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾(3) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ولو امتناعية والجواب محذوف أى: لرأيت أمرًا عظيمًا ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ هم الذين قالوا أئذا ضللنا فى الأرض، ولو وإذ للمضى وإنما جاز ذلك لأن المترقب من الله بمنزلة الموجود ولا يقدر لترى ما يتناوله كأنه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذ ظرف له ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ﴾ من الذل والحياء والنّدم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عند حساب ربهمْ ويوقف عليه لحق الحذف إذ التقدير يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ صدق وعدك ووعيدك ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك أو كنا عميًا وصمًا فأبصرنا وسمعنا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أى: الإيمان والطاعة ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب الآن.

---

(1) سورة «التين»، الآية (٤). (2) سورة «الأنعام»، الآية (٦١).
(3) سورة «الزمر»، الآية (٤٢).

•• ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ فى الدنيا أى: لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذى لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا، لكن لم تعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة فإن عندهم شاء الله أن يعطى كل نفس ما به اهتدت وقد أعطاها لكنها لم تهتد وهم أولوا الآية بمشيئة الجبر، وهو تأويل فاسد لما عرف فى تبصر الأدلة ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولكن وجب القول منى بما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنم، وهو ما علم منهم أنهم يختارون الرد والتكذيب، وفى تخصيص الإنس والجن إشارة إلى أنه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم.

•• ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ﴾ بما تركتم من عمل لقاء ﴿يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وهو الإيمان به ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم في العذاب كالمنسى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أى: العذاب الدائم الذى لا انقطاع له ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أى: وعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ سجدوا لله تواضعًا وخشوعًا وشكرًا على ما رزقهم من الإسلام ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ونزهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه حامدين له ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والسجود له.

•• ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ ترتفع وتنتحى ﴿جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ عن الفرش ومضاجع النوم. قال سهل: وهب لقوم هبة وهو أن أذن لهم فى مناجاته وجعلهم من أهل وسيلته، ثم مدحهم عليه فقال: تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴿يَدْعُونَ﴾ داعين ﴿رَبَّهُمْ﴾ عابدين له ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مفعول له، أى لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته وهم المتهجدون، وعن النبى ﷺ فى تفسيرها: «قيام العبد من الليل»[(١)]، وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة وطلبت بساط القربة يعنى صلاة الليل. وعن أنس: كان أناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة فنزلت فيهم[(٢)]، وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فى طاعة الله تعالى.

•• ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ ما بمعنى الذى أخفى على حكاية النفس[(٣)]، حمزة ويعقوب ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أى: لا يعلم أحد ما أعد لهؤلاء من الكرامة ﴿جَزَاءً﴾ مصدر أى: جوز وجزاء ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن الحسن- رضى الله عنه- أخفى القوم أعمالاً فى الدنيا فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وفيه دليل على أن المراد الصلاة فى جوف الليل ليكون الجزء وفاقًا، ثم

---

(١) الحديث عند الإمام أحمد، من رواية شهر بن حوشب، من حديث معاذ. وعند الحاكم من رواية أبى وائل عن معاذ مرفوعاً، بنحوه.

(٢) وروى أبو داود عن أنس نحوه.

(٣) يقصد بقوله: «على حكاية النفس أى: استتار ضمير المتكلم، لتصبح «أُخْفِيْ».

بين أن من كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوى مع من هو فى ظلمة الكفر والعصيان بقوله: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا﴾ أى: كافرًا وهما محمولان على لفظ من، وقوله: ﴿لا يستوون﴾على المعنى بدليل قوله.

●● ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى﴾ هى نوع من الجنان تأوى إليها أرواح الشهداء وقيل هى عن يمين العرش ﴿ نزلا بما كانوا يعملون﴾ عطاء بأعمالهم والنزل: عطاء النازل، ثم صار عامًا.

●● ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أى: ملجؤهم ومنزلهم ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم﴾ أى: تقول لهم خزنة النار ﴿ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون﴾ وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذا التكذيب يقابل الإيمان.

●● ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ أى: عذاب الدنيا من الأسر، وما محنوا به من السنة[1] سبع سنين ﴿دون العذاب الأكبر﴾ أى: عذاب الآخرة أى: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة، وعن الداراني: العذاب الأدنى الخذلان، والعذاب الأكبر الخلود فى النيران، وقيل: العذاب الأدنى عذاب القبر ﴿ لعلهم﴾ لعل المعذبين بالعذاب الأدنى ﴿ يرجعون﴾ يتوبون عن الكفر.

●● ﴿ومن أظلم ممن ذكر﴾ وعظ ﴿ بآيات ربه﴾ أى: بالقرآن﴿ ثم أعرض عنها﴾ أى: فتولى عنها ولم يتدبر فيها، وثم للاستبعاد أى أن الإعراض عن مثل هذه الآيات فى وضوحها، وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها استبعادًا لتركه الانتهاز ﴿ إنا من المجرمين منتقمون﴾ ولم يقل منه، لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

●● ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ التوراة ﴿ فلا تكن فى مرية﴾ شك ﴿ من لقائه﴾ من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى ليلة المعراج ، أو يوم القيامة، أو من لقاء موسى ربه فى الآخرة كذا عن النبى ﷺ ﴿ وجعلناه هدى لبنى إسرائيل﴾ وجعلنا الكتاب المنزل على موسى لقومه هدى.

●●﴿وجعلنا منهم أئمة ﴾ بهمزتين كوفى وشامى ﴿يهدون﴾ بذلك الناس ويدعونهم إلى ما فى التوراة من دين الله وشرائعه ﴿بأمرنا﴾ إياهم بذلك ﴿لما صبروا﴾ حين صبروا على الحق بطاعة الله أو عن المعاصى، لما صبروا حمزة وعلى أى: لصبرهم عن الدنيا، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس ﴿وكانوا بآياتنا﴾ التوراة ﴿ يوقنون﴾ يعلمون علمًا لا يخالجه شك.

---

(١) السَّنَةُ: القحط، والجدب.
(المعجم الوسيط ١/٤٥٦).

●● ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يقضى ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بين الأنبياء وأممهم، أو بين المؤمنين والمشركين ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحق من المبطل.

●●﴿أَوَ لَمْ ﴾ الواو للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف أى: أو لم يدع ﴿يَهْدِ﴾ يبين والفاعل الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب نهد ﴿لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿كَمْ﴾ لا يجوز أن يكون كم فاعل يهدى، لأن كم للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله ومحله نصب بقوله: ﴿ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ كعاد وثمود وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أى: أهل مكة يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ فيتعظوا ﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ نجرى المطر والأنهار ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أى: الأرض التى جرز نباتها أى: قطع إما لعدم الماء أو لأنه رعى، ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز بدليل قوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ من عصفه[1] ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حبه ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بأعينهم فيستدلوا به على قدرته على إحياء الموتى.

●● ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ النصر أو الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾[2] وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين أو يفتح بيننا وبينهم؛ فإذا سمع المشركون ذلك قالوا: متى هذا الفتح، أى فى أى وقت يكون ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى أنه كائن.

●● ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أى: يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم، أو يوم نصرهم عليهم، أو يوم بدر، أو يوم فتح مكة ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وهذا الكلام لم ينطبق جوابًا على سؤالهم ظاهرًا ولكن لما كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا، فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الإيمان أو استنظرتم فى إدراك العذاب فلم تنظروا، ومن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر فهو يريد المقتولين منهم فإنهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند الغرق.

●● ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ﴾ النصرة وهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم، وكان -عليه السلام- لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة، وتبارك الذى بيده الملك[3] وقال: «من قرأ ألم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام»[4] وعن ابن مسعود -رضى الله- عنه قال: سورة آلم تنزيل هى المانعة تمنع من عذاب القبر. والله أعلم.

---

(١) العصف: هو بقل الزرع. القاموس (٣/ ١٧٥).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٨٩).

(٣) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٧/ ١٨٢٥٢).

(٤) فى «كنز العمال» (١/ ٢٤١٣) بنحوه.

(سورة الأحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ لـ «زر»: كَمْ تعدون سورة الأحزاب؟ قال: ثلاثا وسبعين، قال: فوالذى يحلف به أبى إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله والله عزيز حكيم، أراد أبى أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن[1]، وأما ما يحكى أن تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة ـ رضى الله عنها- فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِي﴾ وبالهمز نافع أى: يا أيها المخبر عنا، المأمون على أسرارنا، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا، وإنما لم يقل يا محمد كما قال يا آدم يا موسى؛ تشريفا له وتنويها بفضله وتصريحه باسمه فى قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾[2] ونحوه لتعليم الناس بأنه رسول الله ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ اثبت على تقوى الله ودم عليه وازدد منه فهو باب لايدرك مداه ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ولاتساعدهم على شيء واحترس منهم فإنهم أعداء الله والمؤمنين، وروى أن أبا سفيان وعكرمة بن أبى جهل وأبا الأعور السلمى [3] قدموا المدينة بعد قتال أحد، فنزلوا على عبدالله بن أبى، وأعطاهم النبى الأمان على أن يكلموه فقال: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تنفع وتشفع، ووازرهم المنافقون على ذلك فَهَمَّ المسلمون بقتلهم[4] فنزلت، أى: اتق الله فى نقض العهد ولاتطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخبث أعمالهم ﴿حَكِيمًا﴾ فى تأخير الأمر بقتالهم.

●● ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فى الثبات على التقوى وترك طاعة الكافرين والمنافقين ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الذى يوحى إليك ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى: لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم وقيل: إنما جمع ؛ لأن المراد بقوله اتبع هو وأصحابه وبالياء أبو عمرو أى بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم.

●● ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أسند أمرك إليه وكله إلى تدبيره ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ حافظا موكولا إليه كل أمر، وقال الزجاج: لفظه وإن كان لفظه الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلاً.

●● ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا

---

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٢/ ٤٥٥٠). وعند أحمد والحاكم عن عاصم بن بهدلة عن زر ابن حبيش.

(٢) سورة «الفتح»، الآية (٢٩).

(٣) هو الصحابى؛ عمرو بن سفيان، أبو الأعور، السلمى، ليس من مشاهير الصحابة، ولكنه قاتل مع معاوية فى صفين، وتوفى فى خلافة معاوية.

(٤) قال ابن حجر: ذكره الثعلبى والواحدى بغير سند.

جعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أى: ما جمع الله قلبين فى جوف، ولازوجية وأمومة فى امرأة، ولابنوة ودعوة فى رجل، والمعن: ى أنه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين - لأنه لايخلوا إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر فعلا من أفعال القلوب فأحدهما فضلة غير محتاج إليه وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا فى حالة واحدة - لم يحكم أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أُمًّا لرجل؛ زوجاً له؛ لأن الأم مخدومة، والمرأة خادمة وبينهما منافاة، وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له، لأن البنوة أصالة فى النسب والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولايجتمع فى الشيء الواحد أن يكون أصيلا غير أصيل. وهذا مثل ضربه الله تعالى فى زيد بن حارثة (١) وهو رجل من كلب سبى صغير فاشتراه حكيم بن حزام (٢) لعمته خديجة(٣) فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه، وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبى ﷺ زينب(٤) وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله هذه الآية، وقيل كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه، وقيل: كان أبو معمر أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلبين فأكذب الله تقولهم وضربه مثلا فى الظهار والتبني. والتنكير فى رجل وإدخال من الاستغراقية على قلبين وذكر الجوف للتأكيد. اللائى بياء بعد الهمزة حيث كان كوفى وشامي. اللاء نافع ويعقوب وسهل، وهى جمع. التى تظاهرون عاصم من ظاهر إذا قال لامرأته أنت عَلَيَّ كظهر أُمِّى تظاهرون على وحمزة وخلف، تظَّاهرون شامى من اظَّاهر بمعنى تظاهر، غيرهم تَظهَّرون من اظَّهَّر بمعنى تظهر وعدى بمن لتضمنه معنى البعد لأنه كان طلاقا فى

(١) هو حِبُّ رسول الله ﷺ؛ زيد بن حارثة بن شراحيل، الكلبى، مولى رسول الله ﷺ، وهو ابنه بالتبنى قبل التحريم، من أقدم من أسلم، وكان من الرماة المذكورين، شهد المشاهد كلها، استشهد فى غزوة مؤتة عام ٨هـ، وهو ابن ٥٥ عاماً.
تهذيب التهذيب (٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) هو الصحابى الجليل؛ حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى، القرشى، الأسدى، أبو أسامة المكى، تمنى رسول الله ﷺ له الإسلام، فاستجاب الله له، فأسلم يوم الفتح، وعاش ١٢٠عاماً، نصفها فى الجاهلية، ونصفها فى الإسلام، اشتهر بعلم النسب، وتوفى عام ٥٤هـ، على خلاف.
تهذيب التهذيب (١/ ٥٨٦، ٥٨٧).

(٣) هى أم المؤمنين، وأكمل نساء العالمين؛ خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى، من قريش، أول من أسلم على الإطلاق، صاحبة المواقف النبيلة مع النبى ﷺ؛ أولى أزواجه، وأم أولاده - إلا إبراهيم ابن مارية - أسن من النبى ﷺ بـ١٥ عاماً، توفيت فى مكة عام ٣هـ.
الأعلام (٢/ ٣٠٢).

(٤) هى أم المؤمنين، زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر، أمها أميمة بنت عبدالمطلب - عمة رسول الله ﷺ - أنكحها النبى ﷺ زيداً، ثم طلقها وتزوجها بأمر من الله لتحريم التبنى، وكانت أول نساء النبى ﷺ موتاً بعده عام ٢٠هـ، وقد تعدت الخمسين.
تهذيب التهذيب (٦/ ٥٩٥، ٥٩٦).

الجاهلية، ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد عدى بمن؛ وإلا فـ «آلى» فى أصله الذى هو معنى حلف وأقسم ليس هذا بحكمه، والدعى فعيل بمعنى مفعول، وهو الذى يدعى ولدا وجمع على أفعلاء شاذا لأن بابه ماكان منه بمعنى فاعل كتقى وأتقياء، وشقى وأشقياء ولايكون ذلك فى نحو رَمِى وسَمِيٌّ للتشبيه اللفظى ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أى: أن قولكم للزوجة هى أم وللدعى هو ابن قول تقولونه بألسنتكم لاحقيقة له، إذ الإبن يكون بالولادة وكذا الأم ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أى: ماحق ظاهره وباطنه﴿وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ﴾ أى: سبيل الحق، ثم قال ماهو الحق وهدى إلى ما هو سبيل الحق وهو قوله.

●● ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ وبين أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين فى القسط والعدل، وقيل: كان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل ضمه إلى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده من ميراثه، وكان ينسب إليه فيقال فلان بن فلان، ثم انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجملة الطلبيةثم فصل الخبرية عنها ووصل بينهما، ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها، ثم فصل بالطلبية ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾أى: فهم إخوانكم فى الدين وأولياؤكم فى الدين، فقولوا هذا أخى وهذا مولاى ويا أخى ويا مولاي، يريد الأخوة فى الدين والولاية فيه ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أى: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهى ﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولكن الإثم عليكم فيما تعمدتموه بعد النهى . أو لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم يا بنى على سبيل الخطإ وسبق اللسان، ولكن إذا قلتموه متعمدين وما فى موضع الجر عطف على ما الأولى، ويجوز أن يراد العفو عن الخطإ دون العمد على سبيل العموم، ثم تناول لعمومه خطأ التبنى وعمده، وإذا وجد التبنى فإن كان المتبنى مجهول النسب وأصغر سنا منه ثبت نسبه منه وعتق إن كان عبدا له، وإن كان أكبر سنا منه لم يثبت النسب، وعتق عند أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبنى وعتق إن كان عبدا ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ لايؤاخذكم بالخطإ ويقبل التوبة من المتعمد .

●● ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: أحق بهم فى كل شىء من أمور الدين والدنيا وحكمه أنفذ عليهم من حكمها فعليهم أن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه، أوهو أولى بهم أى أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١) وفى قراءة ابن مسعود النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم، وقال مجاهد: كل نبى أبو أمته ولذلك صار المؤمنون إخوة، لأن النبى ﷺ أبوهم فى الدين ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ فى تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات؛ ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ﴾

---

(١) سورة «التوبة»، الآية (١٢٨).

وذووا القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فى التوراث، وكـان المسلمون فى صدر الإسـلام يتوارثون بالولاية فى الدين وبالهجرة لا بالقرابة، ثم نسخ ذلك وجعل التوارث بحق القرابة ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فى حكمه وقضائه، أو فى اللوح المحفوظ ، أو فيما فرض الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً لأولى الأرحام أى الأقـرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بـعضا من الأجانب وأن يكون لابتداء الـغاية ، أى أولو الأرحام بحق القرابـة أولى بالميراث من المؤمنـين أى الأنصار بحق الولاية فى الدين ومن المهاجـرين بحق الهجرة ﴿ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ الاستثناء من خلاف الجنس أى لكن فعلكـم إلى أوليائكم معروفا جائز، وهو أن توصوا لمـن أحببتم من هؤلاء بشيء فـيكون ذلك بالـوصية لا بالمـيراث. وعدى تفعـلوا بإلى ؛ لأنه فـى معنى تـسدوا، والمراد بالأولياء المؤمنون والمهاجرون للـولاية فى الدين ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أى: التوارث بالأرحام كان مسطوراً فى اللوح.

●● ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ واذكر حين أخذنـا من النبيين ميثـاقهم بتبليـغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم ﴿وَمِنكَ﴾ خصوصا وقدم رسول الله على نـوح ومن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضـيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم وأصحـاب الشرائع، فلما كان محمـد ﷺ أفضل هؤلاء قدم عليهم ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وثيقا وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف إليه. وإنما فعلنا ذلك...

●● ﴿لِّيَسْأَلَ﴾ الله ﴿الصَّادِقِينَ﴾ أى: الأنبـياء ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾ عمـا قالوه لقـومهم، أو ليـسأل المصدقـين للأنبياء عن تـصديقهم، لأن من قـال للصادق صدقت كـان صادقاً فى قوله، أو لـيسأل الأنبياء ما الذى أجابتهم أممهم وهو كقوله، : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ (١) ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالرسل ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عطـف على أخذنـا؛ لأن المعنى أن الله أكـد على الأنبـياء الدعوة إلـى دينه لأجل إثابـة المؤمنين، وأعد لـلكافرين عذابـا أليما، أو علـى ما دل عليه لـيسأل الصادقين كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين.

●●﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أى: ما أنعم الله به علـيكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق وكان بعد حرب أحد بسنة ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أى: الأحزاب وهم قريش(٢) وغطفان(٣)

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (١٠٩).

(٢) قريش: سميت بهذا الاسم، لأنهم تجمعوا على قُصـيٍّ بن كلاب وهى أشهر قبيلة عربية، ومنها سيدنا رسول الله ﷺ.

(٣) غطفان: قبيلة من قيس، نزلت الكوفة.

وقريظة (١) والنضير ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أى: الصبا قال -عليه السلام- «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(٢) ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة وكانوا ألفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم(٣) وأسفت التراب فى وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب(٤) وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها فى بعض، وقذف فى قلوبهم الرعب، وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فانهزموا من غير قتال، وحين سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان، ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذرارى والنسوان فرفعوا فى الآطام (٥) واشتد الخوف، وكانت قريش قد أقبلت فى عشرة آلاف من الأحابيش، وبنى كنانة وأهل تهامة (٦) وقائدهم أبو سفيان، وخرج غطفان فى ألف ومن تابعهم من أهل نجد (٧). وقائدهم عيينة بن حصن (٨)، وعامر بن الطفيل فى هوازن (٩) وضامنهم اليهود من قريظة والنضير، ومضى على الفريقين قريب من شهر لاحرب بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق والثبات على معاونة النبى ﷺ ﴿بَصِيرًا﴾ وبالياء أبو عمرو، أى بمايعمل الكفار من البغى والسعى فى إطفاء نور الله .

•• ﴿إِذْ جَاءُوكُم﴾ بدل من إذ جاءتكم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى: من أعلى الوادى من قبل المشرق بنو غطفان ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفل الوادى من قبل المغرب قريش ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة أو عدلت عن كل شىء فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة رأس الغلصمة ، وهى منتهى الحلقوم، والحلقوم: مدخل الطعام

---

(١) قريظة: هو اسم لرجل نزل قلعة حصينةبقرب المدينة فنسبت إليه، وقريظة والنضير أخوان من أولاد هارون، عليه السلام.

(٢) الحديث متفق عليه، من حديث ابن عباس.

(٣) الخَصَرُ: البارد.

(٤) الأطناب: حبال طويلة؛ يشد بها الوتد.
القاموس (١/٩٨).

(٥) الآطام: البيت المربع، أو الحصن يبنى بحجارة.

(٦) تهامة: يحدها من الغرب بحر القلزم، ومن الشرق سلسلة جبال متصلة، وفى شمالها مكة وحدها، وجنوبها صنعاء.

(٧) نجد: هى الأرض العريضة التى أعلاها تهامة، واليمن، وأسفلها العراق والشام.
(مجعم البلدان ٥/٣٠٣).

(٨) هو الصحابى، عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، كان فى صفوف المشركين يوم الأحزاب، وكان من كبارهم، أسلم قبيل الفتح، ارتد وتبع طليحة الأسدى المتنبئ، ثم تاب ورجع، رضى الله عنه.

(٩) هوازن: اسم لقبيلة من بطن قيس غيلان من العدنانية.

والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئة مـن شدة الفزع، أو الغضب ربت وارتفع القلـب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وقيل: هو مثل فى اضطراب القلوب وإن لـم تبلغ الحناجر حقيقة. روى أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شى نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال: «نعم قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»[1]. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ خطاب للذين آمنوا ومنـهم الثبت القلوب والأقدام والضعاف القلوب الذين هـم على حرف، والمنافقون فظن الأولون بالله أنه يبتلـيهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عـنهم. قرأ أبو عمرو وحمزة «الظنونَ» بغير ألف فى الوصل والوقف، وهو القياس وبالألف فيهما مدنى وشامى وأبو بكر إجراءً للوصل مجرى الوقف ، وبالألف فى الوقف مكى وعلي وحفص ومثله: الرسولا والسبيلا زادوها فى الفاصلة، كما زادها فى القافية من قال:

* أقلى اللوم عاذلٌ والعتابا *

وهُنَّ كلهن فى الإمام [2] بالألف.

●● ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ امتحـنوا بالصبر عـلى الإيمان ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ وحركوا بالخوف تحريكاً بليغا.

●● ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عطف عـلى الأول ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قيل: هـو وصف المنافقين بالواو كقوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم.

وقيل: هم قوم لا بـصيرة لهم فى الدين كـان المنافقون يستميـلونهم بإدخال الشبـه عليهم ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ روى أن معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قـال: يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لايقدر أن يتبرز فرقا ماهذا إلا وعد غرور.

●● ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين وهم عـبدالله بن أبى وأصحابه ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هم أهل المدينة ﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾وبضم الميم حفص[3]، أى: لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقومون فيه، أو تقيمون ﴿فَارْجِعُوا﴾ عن الإيمان إلى الكفر أو من عسكر رسول الله إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ أى: بنو حارثة [4] ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أى: ذات عورة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ العَوْرة، الخلل والعَـورة ذات العورة،و وهى قراءة ابن عباس، يقال: عـوِر المكان عوراً إذا بدا منه خلل يخاف منه العدو والسارق، ويجوز أن يكـون عَوْرة تخفيف عَوِرة اعتذروا أن بيوتهم عرضة للعدو والسـارق؛ لأنها غير مـحصنة فاستـأذنوه ليحصنـوها، ثم يرجعوا إلـيه فأكذبهم الله بـأنهم

---

(١) الحديث عند أحمد، بنحوه.

(٢) الإمام: هو مصحف عثمان.

(٣) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها «لا مَقَامَ».

(٤) بنو حارثة: هم بطن من الأوس من الأزد القحطانية.

لايخافون ذلك، وإنما يريدون الفرار من القتال ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ المدينة أو بيوتهم من قولك: دخلت على فلان داره ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها أى: ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يفرون خوفا منها مدينتهم، أو بيوتهم من نواحيها كلها وانثالت [1] على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ عند ذلك الفزع ﴿الْفِتْنَةَ﴾ أى: الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين ﴿لآتَوْهَا﴾ لأعطوها. لأتوها بلا مد حجازى أى: لجاؤها وفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بإجابتها ﴿إِلاَّ يَسِيراً﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف، أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيراً فإن الله يهلكهم. والمعنى: أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين وعن مصافة الأحزاب الذين ملئوهم هولا ورعبا، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر، وقيل لهم: كونوا على المسلمين لسارعوا إليه وما تعللوا بشىء وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام وحبهم الكفر.

●● ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أى: بنو حارثة من قبل الخندق، أو من قبل نظرهم إلى الأحزاب ﴿لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ مطلوبا مقتضى حتى يوفى به.

●● ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفررتم لم تمتعوا فى الدنيا إلا قليلا، وهو مدة أعماركم وذلك قليل. وعن بعض المروانية [2] أنه مر بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية، فقال: ذلك القليل نطلب.

●● ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: مما أراد الله إنزاله بكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ فى أنفسكم من قتل، أو غيره ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أى: إطالة عمر فى عافية وسلامة أى: من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة لما فى العصمة من معنى المنع ﴿وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ ناصراً.

●● ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أى: من يعوق عن نصرة رسول الله ﷺ أى يمنع، وهم المنافقون ﴿وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ﴾ فى الظاهر من المسلمين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أى: قربوا أنفسكم إلينا ودعوا محمداً وهى لغة أهل الحجاز فإنهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة، وأما تميم فيقولون: هلم يا رجل وهلموا يا رجال وهو صوت سُمِّىَ به فعل متعد نحو أحضر وقرب ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ أى:

(١) انثالت: انصبت، وتكالبت.
القاموس (٤/ ٥٤).
(٢) المروانية: نسبة إلى مروان بن الحكم وقيل نسبة إلى مروان بن غيلان الضبى. هكذا فى الأنساب.

الحرب ﴿إلاَّ قَلِيلا﴾ إلا إتيانا قليلا أى: يحضرون ساعة رياء ويقفون قليلا مقدار ما يرى شهودهم، ثم ينصرفون.

●● ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح وهو البخيل نصب على الحال من الضمير فى يأتون، أى: يأتون الحرب بخلاء ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالظفر والغنيمة ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ من قبل العدو أو منه عليه السلام ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فى تلك الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يمينا وشمالاً ﴿كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفاً ولواذا[1] بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ زال ذلك الخوف وأمنوا وحيزت الغنائم ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ خاطبوكم مخاطبة شديدة وآذوكم بالكلام. خطيب مِسْلَق: فصيح ورجل مسلاق مبالغ فى الكلام، أى يقولون: وفروا قسمتنا فَإنَّا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أى: خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة، وأشحة حال من فاعل سلقوكم ﴿أُوْلَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ فى الحقيقة بل بالألسنة ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ إحباط أعمالهم ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينا.

●● ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أى: لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع أنهم قد انصرفوا ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كرة ثانية ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الْأَعْرَابِ﴾ البادون جمع البادى أى يتمن المنافقون ـ لجبنهم ـ أنهم خارجون من المدينة إلى البادية حاصلون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه الخوف من القتال ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ عن أخباركم وعما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾ ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وسمعة.

●● ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بالضم حيث كان عاصم أى: قدوة وهو المؤتسى به أى المقتدى به، كما تقول فى البيضة عشرون منا[2] حديدا أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد، أو فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها حيث قاتل بنفسه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أى يخاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو يأمل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر. قالوا: «لمن» بدل من «لكم»، وفيه ضعف؛ لأنه لايجوز البدل من ضمير المخاطب، وقيل «لمن» يتعلق بحسنة أى أسوة حسنة كائنة لم كان ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أى: فى الخوف والرجاء والشدة والرخاء.

(١) لواذاً؛ يقال: لاَذَ بالشىء- لَوْذا: لجأ إليه واستتر به وتحصن، ويقال: لجأ إليه واستغاث به وامتنع. المعجم الوسيط ٢/ ٨٤٥.
القاموس (١/ ٣٥٨).
(٢) مَنّا: ما يوزن به.

●● ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ وعدهم الله أن يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ [١] إلى قوله: قريب فلما جاء الأحزاب واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وعلموا أن الغلبة والنصرة قد وجبت لهم، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «إن الأحزاب سائرون إليكم فى آخر تسع ليال أو عشر» فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد قالوا ذلك وهذا إشارة إلى الخطب والبلاء ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم ﴿إِلاَّ إِيمَانًا﴾ بالله وبمواعيده ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضائه وقدره .

●● ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أى: فيما عاهدوه عليه فحذف الجار كما فى المثل: صدقنى سن بكرة أى صدقنى فى سن بكرة[٢] بطرح الجار وإيصال الفعل. نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حربا مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم: عثمان بن عفان وطلحة وسعيد بن زيد [٣] وحمزة ومصعب وغيرهم ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أى: مات شهيدا كحمزة ومصعب . وقضاء النحب صار عبارة عن الموت، لأن كل حى من المحدثات لابد له أن يموت فكأنه نذر لازم فى رقبته، فإذا مات فقد قضى نحبه أى نذره ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الموت أى على الشهادة كعثمان وطلحة ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ العهد ﴿تَبْدِيلاً﴾ ولا غيروه لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة، وفيه تعريض لم بدلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب كمامر فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ .

●● ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ بوفائهم بالعهد ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ بقبول التوبة ﴿رَّحِيمًا﴾ بعفو الحوبة. جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم؛ لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا فى طلبها والسعى فى تحصيلها.

●● ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال أى: مغيظين كقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[٤] ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ ظفرا أى: لم يظفروا بالمسلمين، وسماه خيراً بزعمهم وهو حال

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢١٤). (٢) البكرة: الفتية من إناث الإبل.

(٣) هو الصحابى الجليل؛ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، العدوى، أبو الأعور، أحد العشرة، أبوه كان من الحنفاء فى الجاهلية، وهو زوج فاطمة بنت الخطاب، وهو وزوجه سبب إسلام عمر ـ على قول ـ أسلم قديماً، وهاجر، وشهد المشاهد كلها ـ إلا بدراً؛ لمهمة كان فيها ـ توفى عام ٥١هـ، وهو ابن بضع وسبعين عاماً.

تهذيب التهذيب (٢/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٤) سورة «المؤمنون»، الآية (٢٠).

أى: غير ظافرين ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قادرا غالبا.

●● ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ عاونوا الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ من بنى قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم. الصيصية: ما تحصن به روى أن جبريل -عليه السلام- أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب ورجع المسلمون إلى المدينة ووضعوا سلاحهم، على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج، فقال: ماهذا ياجبريل قال: من متابعة قريش فقال: يارسول الله إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فإن الله داقهم دق البيض على الصفا، وإنهم لكم طعمة، فأذن فى الناس، أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلى العصر إلا فى بنى قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة، فقال رسول الله ﷺ، تنزلون على حكمى فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به، فقال سعد: حكمت فيهم: أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم؛ فكبر النبى ﷺ وقال: « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»، ثم استنزلهم وخندق فى سوق المدينة خندقا وقدمهم فضرب أعناقهم وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة، وقيل: كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير[1] ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف وبضم العين شامى وعلى ونصب ﴿فَرِيقًا﴾ بقوله: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرجال ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم النساء والذرارى.

●● ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أى: المواشى والنقود والأمتعة روى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون، الأنصار، وقال لهم: إنكم فى منازلكم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ بقصد القتال وهى مكة، أو فارس والروم، أو خيبر، أو كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادرا.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أى: السعادة فى الدنيا وكثرة الأموال ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أصل تعال أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان المستوطيء، ثم كثر حتى استوى فى استعماله الأمكنة ومعنى تعالين: أَقْبِلْنَ بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين، ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن كقوله: قام يهددنى ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطكن متعة الطلاق وتستحب المتعة لكل مطلّقة إلا المفوضة[2] قبل الوطء ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ وأطلقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرار فيه. أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغم ذلك رسول الله ﷺ فنزلت فبدأ -بعائشة - رضى الله عنها - وكانت أحبهن إليه فخيرها، وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله

---

(١) انظر فى ذلك كتب السيرة، عند ذكر غزوة بنى قريظة.

(٢) المفوِّضة: هى التى طلقها قبل الدخول، ولم يسمِّ لها مهراً، ومتعتها واجبة، لأنها بدل عن نصف مهر المثل.

والدار الآخرة فرؤى الفرح فى وجه رسول الله ﷺ ثم اختار جميعهن اختيارها (١) ، وروى أنه قال لعائشة: إنى ذاكر لك أمراً ولا عليك أن لا تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ثم قرأ عليها القرآن، فقالت: أفى هذا أستأمر أبوي؟! فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، (٢) وحكم التخيير فى الطلاق أنه إذا قال لها اختارى فقالت: اخترت نفسى أن تقع تطليقة بائنة، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء وعن على ـ رضى الله عنه ـ إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة.

•• ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُن﴾ من للبيان لا للتبعيض ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

•• ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ سيئة بليغة فى القبح ﴿ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهر فحشها . من بيّن بمعنى تبيَّن وبفتح الياء مكى وأبو بكر، قيل: هى عصيانهن رسول الله ﷺ ونشوزهن، وقيل: الزنا، والله عاصم رسوله من ذلك ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ﴾ يضعّف لها العذاب مكى وشامى يضعّف أبو عمرو ويزيد ويعقوب ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفى عذاب غيرهن من النساء؛ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبى ﷺ؛ ولذا كان الذم للعاصى العالم أشد من العاصى الجاهل؛ لأن المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الأحرار على العبيد ولايرجم الكافر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أى: تضعيف العذاب عليهن ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينا.

•• ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ القنوت: الطاعة ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا﴾ وبالياء فيهما حمزة وعلى ﴿أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مثلى ثواب غيرها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ جليل القدر وهو الجنة .

•• ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أى: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل .وأحد فى الأصل بمعنى وحد، وهو الواحد، ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ إن أردتن التقوى أو إن كنتن متقيات ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أى: إذ كلمتن الرجال من وراء الحجاب فلا تجئن بقولكن خاضعا أى: لينا خنثا مثل كلام المريبات ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب على جواب النهى ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ريبة وفجور ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسنا مع كونه خشنا.

•• ﴿وَقَرْنَ﴾ مدنى وعاصم غير هبيرة، وأصله اقررن فحذفت الراء تخفيفاً وألقيت فتحتها على ما قبلها، أو من قار يقار إذا اجتمع والباقون قرن من وقر يقر وقاراً، أو من قَرَّ يَقِرُّ حذفت الأولى

(١) انظر القصة ورواياتها، فى تفسير الطبرى، وابن كثير.
(٢) الحديث متفق عليه، من حديث عائشة.

من راءى اقورن فرارا من التكرار ونقلت كسرتها إلى القاف ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بضم الباء بصرى ومدنى وحفص ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أى: القديمة والتبرج: التبختر فى المشى وإظهار الزينة، والتقدير: ولاتبرجن تبرجاً مثل تبرج النساء فى الجاهلية الأولى: وهى الزمان الذى ولد فيه إبراهيم أو ما بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ أو زمن داود سليمان، والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد -عليهما السلام ـ أو الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ خص الصلاة والزكاة بالأمر، ثم عم بجميع الطاعات تفضيلاً لهما ؛ لأن من واظب عليهما جرتاه إلى ما ورائهما ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نصب على النداء ، أو على المدح، وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. وقال: عنكم؛ لأنه أريد الرجال والنساء من آله بدلالة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ من نجاسة الآثام، ثم بين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم وليتصونوا عنها بالتقوى واستعار للذنوب الرجس، وللتقوى الطهر لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض منها نقى كالثوب الطاهر، وفيه تنفير لأولى الباب عن المناهى وترغيب لهم فى الأوامر.

●● ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ أى: السنة، أو بيان معانى القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالما بغوامض الأشياء ﴿خَبِيرًا﴾ عالما بحقائقها أى هو عالم بأفعالكن وأقوالكن فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله. ولما نزل فى نساء النبى ﷺ ما نزل قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شيء، فنزلت:

●● ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ المسلم: الداخل فى السلم بعد الحرب المنقاد، الذى لايعاند، أو المفوض أمره إلى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه إلى الله ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين بالله ورسوله وبما يجب أن يصدق به ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ﴾ القائمين بالطاعة ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ فى النيات والأقوال والأعمال ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾على الطاعات وعن السيئات ﴿وَالْخَاشِعِينَ﴾ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أوالخائفين ﴿وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فرضا ونفلا ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ فرضاونفلا وقيل: من تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومن صام البيض [1] من كل شهر فهو من الصائمين ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عما لايحل ﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر، والمعنى والحافظات فروجهن ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه، والفرق بين عطف الإناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين ؛ لأن

(١) أى: الأيام البيض، وهى أيام ١٣، ١٤، ١٥، سميت كذلك لأن القمر يسطح فى لياليها بدراً.

الأول نظير قوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾[1] فى أنهما جنسان مختلفان واشتركا فى حكم واحد فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما، وأما الثانى فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع، ومعناه أن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعاتهم . خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته أميمة [2] على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبدالله [3] فنزلت:

●● ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أى: وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى رسول الله ﴿أَمْرًا﴾ من الأمور ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يختاروا من أمرهم ماشاءوا بل من حقهم يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه واختيارهم تلواً لاختياره، فقالا: رضينا يا رسول الله؛ فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها، وإنما جمع الضمير فى لهم، وإن كان من حقه أن يوحد؛ لأن المذكورين وقعا تحت النفى فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير إلى المعنى لا إلى اللفظ. ويكون بالياء كوفي، والخيرة ما يتخير ودل ذلك على أن الأمر للوجوب ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال وكفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطإ وفسق.

●● ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام الذى هو أجل النعم ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق والتبنى فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله، وهو زيد بن حارثة ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينب بنت جحش، وذلك أن رسول الله ﷺ أبصرها بعد ما أنكحها إياه فوقعت فى نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب، وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن، وألقى الله فى نفسه كراهة صحبتها، والرغبة عنها لرسول الله فقال لرسول الله ﷺ : إنى أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: ما لك أرابك منها شيء؟ قال: لا والله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى فقال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»[4] ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فلا تطلقها. وهو نهى تنزيه إذ الأولى أن لايطلق، أو واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أى: تخفى فى نفسك نكاحها إن طلقها زيد وهو الذي أبداه الله تعالى، وقيل الذى أخفى فى نفسه تعلق قلبه بها ومودة مفارقة زيد إياها. والواو فى وتخفى فى نفسك ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أى: قالة الناس إنه نكح امرأة ابنه ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾

---

(١) سورة «التحريم»، الآية (٥).

(٢) هى أميمة بنت عبدالمطلب.

(٣) هو الصحابى المهاجر؛ عبدالله بن جحش، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، استشهد فى أحد عام ٣هـ.

(٤) أخرج الطبرى عن الحسن نحوه.

واو الحال أى: تقول لزيد: أمسك عليك زوجك مخفيا فى نفسك إرادة أن لا يمسكها، وتخفى خاشيا قالة الناس، وتخشى الناس حقيقا فى ذلك بأن تخشى الله. وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: «لوكتم رسول الله شيئاً مما أوحى إليه لكتم هذه الآية»(1) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الوطر الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل: قضى منه وطره والمعنى: فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطلقها وانقضت عدتها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ روى أنها لما اعتدت قال رسول الله ﷺ لزيد: ما أجد أحداً أوثق فى نفسى منك، اخطب علَىَّ زينب. قال زيد: فانطلقت وقلت: يا زينب أبشرى إن رسول الله ﷺ يخطبك ففرحت وتزوجها رسول الله ﷺ ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار(2) ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ قيل: قضاء الوطر إدراك الحاجة وبلوغ المراد منه ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الذى يريد أن يكونه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكونا لامحالة، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب.

●● ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أحل له وأمر له، وهو نكاح زينب امرأة زيد، أو قدر له من عدد النساء ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ اسم موضوع موضع المصدر كقولهم: ترابا وجندلا مؤكد لقوله: ماكان على النبى من حرج، كأنه قيل: سن الله ذلك سنة فى الأنبياء الماضين، وهو أن لايحرج عليهم فى الإقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره، وقد كانت تحتهم المهائر والسرارى، وكانت لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية، ولسليمان ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ فى الأنبياء الذين مضوا من قبل ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً وحكما مبتوتا. ولاوقف عليه إن جعلت...

●● ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ بدلا من الذين الأول، وقف إن جعلته فى محل الرفع، أو النصب على المدح أى: هم الذين يبلغون، أو أعنى الذين يبلغون ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وصف الأنبياء بأنهم لايخشون إلا الله تعريض بعد التصريح فى قوله: وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف، ومحاسباً على الصغيرة والكبيرة، فكان جديراً بأن تخشى منه.

●● ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أى: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح، والمراد من رجالكم البالغين، والحسن والحسين لم يكونا بالغين حينئذ، والطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم توفوا صبيانا ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ اللَّهِ﴾ وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا فى سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء، وزيد واحد من رجالكم

(1) الحديث متفق عليه، من حديث عائشة.

(2) الحديث عند مسلم، والنسائى، وأحمد ـ بنحوه ـ من حديث أنس.

الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه كحكمكم، والتبنى من باب الاختصاص والتقريب لاغير ﴿وخاتم النبيين﴾ بفتح التاء عاصم بمعنى الطابع، أى: آخرهم يعنى: لا يُنَبَّأ أحد بعده وعيسى ممن نُبِّئَ قبله وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد ﷺ كأنه بعض أمته. وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع: وفاعل الختم وتقويه قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين ﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾.

•• ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء وأكثروا ذلك.

•• ﴿وسبحوه بكرة﴾ أول النهار ﴿وأصيلا﴾ آخر النهار وَخُصَّا بالذكر؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما، وعن قتادة قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول وقوة إلا بالله العلى العظيم، والفعلان أى اذكروا الله وسبحوه موجهان إلى البكرة والأصيل؛ كقولك: صم وصل يوم الجمعة، والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختص من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة إبانة لفضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه تنزيه ذاته عما لايجوز عليه من الصفات، وجاز أن يراد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والعبادات فإنها من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بُكْرَةً وهى صلاة الفجر، وأصيلا وهى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أو صلاة الفجر والعشاءين.

•• ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته﴾ لماكان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حُنُوًّا عليه وتَرَؤُّفاً كعائد المريض فى انعطافه عليه والمرأة فى حُنُوِّها على ولدها، ثم كثر حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ومنه قولهم صلى الله عليك أى: ترحم عليك وترأف، والمراد بصلاة الملائكة قولهم: اللهم صل على المؤمنين جعلوا، لكونهم مستجابى الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة، والمعنى هو الذى يترحم عليكم ويترأف حين يدعوكم إلى الخير ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ هو دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة، وروى أنه لما نزل: (إن الله وملائكته يصلون على النبى) قال أبو بكر: ماخصك الله يارسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه؛ فنزلت:

•• ﴿تحيتهم﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أى: تحية الله لهم ﴿يوم يلقونه﴾ يرونه ﴿سلام﴾ يقول الله تبارك وتعالى: السلام عليكم ﴿وأعد لهم أجرا كريما﴾ يعنى الجنة.

•• ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا﴾ على من بعثت إليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أى مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم، وهو حال مقدرة كما: تقول مررت برجل معه صقر صائدا به، أى: مقدرا به الصيد غدا ﴿ومبشرا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿ونذيرا﴾ للكافرين بالنار.

●● ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ بأمره أو بتيسيره، والكل منصوب على الحال ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ جلا به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به، والجمهور على أنه القرآن، فيكون التقدير وذا سراج منير، أو وتاليا سراجاً منيرا، ووصف بالإنارة ؛لأن من السرج مالا يضيء إذا قل سليطة [1] ودقت فتيلته،أو شاهدا بوحدانيتنا ومبشرا برحمتنا ونذيرا بنقمتنا وداعيا إلى عبادتنا وسراجا وحجة ظاهرة لحضرتنا.

●● ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ ثواباً عظيما.

●● ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المراد به التهييج أو الدوام والثبات على ماكان عليه ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ هو بمعنى الإيذاء فيحتمل أن يكون مضافا إلى الفاعل أى: اجعل إيذاءهم إياك فى جانب ولاتبال بهم ولاتخف من إيذائهم، أو إلى المفعول أى: دع إيذاءك إياهم مكافأة لهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه يكفيكهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى به مفوضا إليه، وقيل: إن الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله: وبشرالمؤمنين؛ لأنه يكون شاهدا على أمته وهم يكونوا شهداء على سائر الأمم: وهو الفضل الكبير والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة والنذير يدع أذاهم؛ لأنه إذا ترك أذاهم فى الحاضر والأذى لابد له من عقاب عاجل، أو آجل كانوا منذرين به فى المستقبل، والداعى إلى الله بتيسيره بقوله: وتوكل على الله فإنه من توكل على الله يسر عليه كل عسير، والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا؛ لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفى به عن جميع خلقه.

●●﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى: تزوجتم، والنكاح هو الوطء فى الأصل وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث إنه طريق إليه؛ كتسمية الخمر إثماً؛ لأنها سببه، وكقول الراجز: * أسنمة الآبال فى سحابه *

سمى الماء بأسنمة الآبال؛ لأنه سبب سمن الآبال وارتفاع أسنمتها ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب الله تعالى إلا فى معنى العقد؛ لأنه فى معنى الوطء من باب التصريح به، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة، والقربان والتغشى والإتيان وفى تخصيص المؤمنات مع أن الكتابيات تساوى المؤمنات فى هذا الحكم إشارة إلى أن الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ والخلوة الصحيحة كالمس ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فيه دليل على أن العدة تجب على النساء للرجال، ومعنى تعتدونها تستوفون عددها تفتلعون من العد ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ والمتعة تجب للتى طلقها قبل الدخول بها ولم يسم لها مهر دون غيرها ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أى: لاتمسكوهن ضرارا وأخرجوهن من منازلكم إذ لا عدة لكم عليهن.

---

(١) السليط: هو الزيت، وكذلك أى دهن عصر من حب. القاموس (٢/ ٣٦٥).

●●﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُن﴾ مهورهن إذ المهر أجر على البضع؛ ولهذا قال الكرخي: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز. وقلنا: التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة وبينهما منافاة، وإيتاؤها إعطاؤها عاجلا، أو فرضها وتسميتها فى العقد ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ وهى صفية [1]، وجويرية[2] فأعتقهما وتزوجهما ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ و«مع» ليس للقران بل لوجودها فحسب، كقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [3] وعن أم هانىء بنت أبى طالب خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت فعذرنى فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه[4].

●●﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ولاتطلب مهرا من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ولذا نكرها، قال ابن عباس: هو بيان حكم فى المستقبل، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة، وقيل: الواهبة نفسها ميمونة بنت الحارث [5]، أو زينب بنت خزيمة، [6] أو أم شريك بنت جابر، [7] أوخولة بنت حكيم [8]، وقرأ الحسن أن بالفتح على

---

(١) هى أم المؤمنين، صفية بنت حيى بن أخطب بن سعيد بن ثعلبة، الإسرائيلية، أبوها سيد قومها، سباها رسول الله ﷺ يوم خيبر، ثم أعتقها وتزوجها، يرجح نسبها إلى هارون بن عمران عليه السلام، توفيت عام ٥٠هـ.
تهذيب التهذيب (٦/ ٦٠١)

(٢) هى أم المؤمنين؛ جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، الخزاعية، المصطلقية، سباها رسول الله ﷺ فى غزوة المسيح، وكان اسمها «برة»، فسماها «جويرية»، وتزوجها.
توفيت عام ٥٦هـ.
تهذيب التهذيب (٦/ ٥٨٦، ٥٨٧).

(٣) سورة «النمل»، الآية (٤٤).

(٤) الحديث عند الترمذى والحاكم، من رواية السدى عن أبى صالح، عن أم هانئ.

(٥) هى أم المؤمنين؛ ميمونة بنت الحارث، العامرية، الهلالية، تزوجها النبى ﷺ سنة ٧هـ وهى آخر أزواجه، توفيت عام ٥١هـ، وقالت عنها عائشة: «كانت من أتقانا».
تهذيب التهذيب (٦/ ٦١٦).

(٦) هى أم المؤمنين؛ زينب بنت خزيمة بن الحارث، الهلالية، تزوجها النبى ﷺ عام ٣هـ وتوفيت بعدها بعام.
الأعلام (٣/ ٦٦).

(٧) هى: أم شريك، العامرية، ويقال: الأنصارية، ويقال: الدوسية، وقيل غير ذلك، يقال: هى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ.
تهذيب التهذيب (٦/ ٦٢٩).

(٨) هى: خولة بنت حكيم بن أمية بن حارثة، السلمية، أم شريك، امرأة عثمان بن مظعون، ويقال لها - خويلة - كانت صالحة فاضلة، وهى من اللاتى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ، وفرق البعض بين خولة وخويلة، فجعلهما اثنتين.
تهذيب التهذيب (٦/ ٥٩٢).

التعليل بتقدير حذف اللام، وقرأ ابن مسعود - رضى الله عنه - بغير أن﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ استنكاحها: طلب نكاحها والرغبة فيه، وقيل: نكح واستنكح بمعنى. والشرط الثانى تقييد للشرط الأول شرط فى الإحلال هبتها نفسها، وفى الهبة إرادة استنكاح رسول الله ﷺ كأنه قال: أحللناها لك إن وهبت لك نفسها وأنت تريد أن تستنكحها؛ لأن إرادته هى قبول الهبة وما به تتم، وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة؛ لأن رسول الله ﷺ وأمته سواء فى الأحكام إلا فما خصه الدليل ﴿خَالِصَةً﴾ بلا مهر حال من الضمير فى وهبت ، أو مصدر مؤكد أى: خلص لك إحلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصا، والفاعلة فى الصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة ﴿لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يجب المهر لغيرك وإن لم يسمه ، أو نفاه. عدل عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله: إن أراد النبى ، ثم رجع إلى الخطاب ليؤذن أن الاختصاص تكرمة له لأجل النبوة وتكريره أى: تكرير النبى تفخيم له ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أى: ما أوجبنا من المهور على أمتك فى زوجاتهم، أو ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضيق متصل بخالصة لك من دون المؤمنين وقوله: قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وماملكت أيمانهم جملة اعتراضية ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بالتوسعة على عباده.

●● ﴿تُرْجِي﴾ بلا همز مدنى وحمزة وعلى وخلف وحفص. وبهمز غيرهم : تؤخر ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ تضم بمعنى تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء، أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء، أو لا تقسم لأيتهن شئت وتقسم لمن شئت، أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك وتتزوّج من شئت، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض؛ لأنه إما أن يطلق وإما أن يمسك فإذا أمسك ضاجع، أو ترك وقسم أو لم يقسم وإذا طلق وعزل، فإما أن يخلى المعزولة لايبتغيها، أو يبتغيها. وروى أنه أرجى منهن جويريه وسودة (١) وصفية وميمونة وأم حبيبة (٢) وكان يقسم لمن ما شاء كما شاء، وكانت ممن آوى إليه عائشة وحفصة، وأم سلمة (٣) وزينب أرجى

(١) هى أم المؤمنين؛ سودة بنت زمعة بن قيس بن عبدشمس، العامرى، القرشية، تزوجها النبى ﷺ بعد خديجة، وقبل عائشة، كانت تقية صالحة؛ إلا إن بها حدة، توفيت عام ٥٤هـ.
تهذيب التهذيب (٦/٥٩٩، ٦٠٠).

(٢) هى أم المؤمنين، رملة بنت أبى سفيان - صخر - بن حرب أمية، اشتهرت بكنيتها «أم حبيبة»، أسلمت قديماً هى وأمها صفية بنت العاص بن أمية، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها «عبيدالله بن جحش»، ومات هناك، فتزوجها رسول الله ﷺ وهى هناك سنة ٦هـ أو ٧هـ، كانت تقية، ورعة، مجاهدة. توفيت عام ٤٢هـ أو ٤٤هـ.
تهذيب التهذيب (٦/ ٥٩٤).

(٣) هى أم المؤمنين؛ هند بنت أبى أمية - حذيفة، ويقال: سهيل - بن المغيرة المخزومية، اشتهرت بكنيتها «أم سلمة» كانت من أعلم نساء النبى ﷺ، وأفقههن، ومن المكثرات من الحديث، توفيت عام ٦٠هـ على الراجح.
تهذيب التهذيب (٦/٦١٨).

خمسا وآوى أربعا، وروى أنه كان يسوى مع ما أطلق له وخير فيه إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة، وقالت: لاتطلقنى حتى أحشر فى زمرة نسائك ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أى: ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء فلا ضيق عليك فى ذلك، أى: ليس إذا عزلتها لم يجز لك ردها إلى نفسك. ومن رفع بالابتداء وخبره فلا جناح ﴿ذَلِكَ﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أى: أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا؛ لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون. كلهن بالرفع تأكيد لنون يرضين وقريء ويرضين كلهن بماآتيتهن على التقديم، وقريء شاذا كلهن بالنصب تأكيدا لـ «هُنَّ» فى آتيتهن ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك، وفوض إلى مشيئة رسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لايعاجل بالعقوبة فهوحقيق بأن يتقى ويحذر.

•• ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ بالتاء أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتذكير؛ لأن تأنيث الجمع غير حقيقي، وإذاجاز بغير فصل فمع الفصل أجوز ﴿مِن بَعْدُ﴾ من بعد التسع؛ لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج كما أن الأربع نصاب أمته ﴿وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بالطلاق، والمعنى وأن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا أخر بكلهن، أو بعضهن كرامة لهن وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسول الله ﷺ عليهن وهن التسع اللاتى مات عنهن: عائشة، حفصة، أم حبيبة، سودة، أم سلمة، صفية، ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية. ومن فى من أزواج لتأكيد النفى وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فى موضع الحال من الفاعل وهو الضمير فى تبدل أى: تتبدل لا من المفعول الذى هو من أزواج لتوغله فى التنكير، وتقديره مفروضا إعجابك بهن، وقيل: هى أسماء بنت عميس[1] امرأة جعفر بن أبى طالب [2] فإنها ممن أعجبه حسنهن، وعن عائشة وأم سلمة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء يعنى [3] أن الآية نسخت ونسخها إما بالسنة، أو بقوله: إنا أحللنا لك أزواجك وترتيب النزول

(١) هى أسماء بنت عميس، الخثعمية، أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، كانت تحت جعفر بن أبى طالب فمات عنها، ثم أبو بكر كذلك، ثم على كذلك، وولدت لهم، مشتهرة فى كتب الحديث، وكانت على قدر من العلم والفقة، هاجرت الهجرتين، وصلت إلى القبلتين.

تهذيب التهذيب (٦/ ٥٨١).

(٢) هو الصحابى المجاهد، الشهيد، جعفر بن أبى طالب، أبو عبدالله، الطيار، أسلم قديماً ـ رقم ٣٢ فى الإسلام ـ واستعمله النبى ﷺ على غزوة مؤتة فاستشهد فيها عام ٨هـ، ولم يكن جعفر أقل قدراً من أخيه على ـ رضى الله عنهما ـ كان سنه يوم استشهد ٤١عاماً.

تهذيب التهذيب (١/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٣) الحديث عند الترمذى وأحمد والنسائى من حديث عائشة.

ليس على ترتيب المصحف ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثنى ممن حرم عليه الإماء، ومحل «ما» رفع بدل من النساء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظاً، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده .

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أن يؤذن لكم في موضع الحال أي: لاتدخلوا إلا مأذونا لكم، أو في معنى: الظرف تقديره إلا وقت أن يؤذن لكم، وغير ناظرين حال من لاتدخلوا وقع الاستثناء على الحال والوقت معا كأنه قيل: لاتدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن ولاتدخلوها إلا غير ناظرين أي: غيرمنتظرين، وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه ، ومعناه لاتدخلوا يا أيها المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه وإنى الطعام إدراكه يقال: أَنَى الطعام إنَىً كقولك: قلاه قِلَىً وقيل: إناه وقته أي: غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله، وروى أن النبي ﷺ أَوْلَمَ على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنسا أن يدعو بالناس فترادفوا أفواجا يأكل فوج ويخرج، ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أجداً أدعوه فقال: «ارفعوا طعامكم» . وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا فطاف رسول الله ﷺ بالحجرات وسلم عليهن ودعون له ورجع، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء فتولى فلما رأوه متوليا خرجوا ونزلت (١) . ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ فتفرقوا ﴿وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو مجرور معطوف على ناظرين، أو منصوب أي: ولاتدخلوها مستأنسين؛ نُهُوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ من إخراجكم ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه، ولما كان الحياء مما يمنع الحَيِيَّ من بعض الأفعال؛ قيل: «لا يستحيي من الحق» أي: لا يمتنع منه ولايتركه ترك الحَيِيِّ منكم هذا أدب أدب الله به الثُّقَلاء، وعن عائشة ـ رضي الله عنها – حسبك في الثُّقَلاء أن الله تعالى لم يحتملهم وقال: فإذا طُعمتم فانتشروا ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء رسول الله ﷺ، لدلالة بيوت النبي؛ لأن فيها نساءه ﴿مَتَاعًا﴾ عارية، أو حاجة ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ﴾ المتاع ﴿مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من خواطر الشيطان وعوارض الفتن، وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يحب ضرب الحجاب عليهن ويود أن ينزل فيه، وقال: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجرْ فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجابْ فنزلت(٢) . وذكر أن بعضهم قال: أَنُنْهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟! لئن مات محمد لأتزوجن فلانة؛ فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أي: وما صح لكم إيذاء رسول الله ﷺ ولا نكاح أزواجه من بعد موته ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنبا عظيما .

(١) الحديث متفق عليه من حديث أنس، بألفاظ مقاربة.
(٢) الحديث متفق عليه من طريق مجاهد، عن عائشة.

•• ﴿إن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ من إيذاء النبى ﷺ أو من نكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ فى أنفسكم من ذلكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعاقبكم به، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يارسول الله ﷺ، أَوَ نَحْنُ أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟! فنزل:

•• ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ﴾ أى: نساء المؤمنات ﴿وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أى: لا إثم عليهن فى ألا يحتجبن من هؤلاء، ولم يذكر العم والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين، وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾[1] وإسماعيل عم يعقوب. وعبيدهن عند الجمهور كالأجانب، ثم نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وفى هذا النقل فضل تشديد، كأنه قيل: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار واحتطن فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ عالما قال ابن عطاء: الشهيد الذى يعلم خطرات القلوب كمايعلم حركات الجوارح.

•• ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أى: قولوا: اللهم صل على محمد ، أو صلى الله على محمد ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى: قولوا: اللهم سلم على محمد ، أو انقادوا لأمره وحكمه انقياداً، وسئل عليه السلام عن هذه الآية، فقال: «إن الله وكَّل بى ملكين فلا أذكر عند عبد مسلم فيصلى علىَّ إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين، ولاأذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىَّ إلا قال ذانك الملكان: لاغفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذنيك الملكين: آمين، ثم هى واجبة مرة عند الطحاوى [2] ، وكلما ذكر اسمه عند الكرخى، وهو الاحتياط، وعليه الجمهور وإن صلى على غيره على سبيل التبع كقوله صلى الله على النبى وآله، فلا كلام فيه، وأما إذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه، وهو من شعائر الروافض.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: يؤذون رسول الله، وذكراسم الله للتشريف، أو عبر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به الله ورسوله كالكفر وإنكار النبوة مجازاً، وإنما جعل مجازاً فيهما، وحقيقة الإيذاء يتصور فى رسول الله ؛ لئلا يجتمع المجاز والحقيقة فى لفظ واحد ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ طردهم الله عن رحمته فى الدارين﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فىَ الآخرة.

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٣٣).

(٢) هو الإمام الطحاوى؛ أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة، الأزدى، من كبار الأحناف فى عصره، ورئيسهم بمصر، له مصنفات فى الفقه الحنفى، وفى العقيدة على المذهب الحنفى، ولد عام ٢٣٩هـ، وتوفى عام ٣٢١هـ.
الأعلام (١/ ٢٠٦).

●● ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن ذاك يكون غير حق أبدا ، وأما هذا فمنه حق كالحد والتعزير، ومنه باطل، قيل: نزلت فى ناس من المنافقين يؤذون عليا ـ رضى الله عنه ـ ويسمعونه، وقيل : فى زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات، وعن الفضيل لايحل لك أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ تحملوا ﴿بُهْتَانًا﴾ كذبا عظيما ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ الجلباب ما يستر الكل مثل الملحفة. عن المبرد. ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زلّ الثوب عن وجه المرأة أدنى ثوبك على وجهك، ومن للتبعيض أى: ترخى بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الأمة، أو المراد أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب وأن لا تكون المرأة متبذلة فى درع وخمار كالأمة ولها جلبابان فصاعدا فى بيتها، وذلك أن النساء كن فى أول الإسلام على هِجِّيراهن[1] فى الجاهلية متبذلات تبرز المرأة فى درع وخمار لا فصل بين الحرة والأمة، وكان الفتيان يتعرضون إذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن فى النخيل والغيطان للإماء،وربما تعرضوا للحرة لحسبان الأمة، فأمرن أن يخالفن بزيهن عن زى الإماء بلبس الملاحف وستر الرؤوس والوجوه؛ فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله : ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أى: أولى وأجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رَّحِيمًا﴾ بتعليمهن آداب المكارم.

●● ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ فجور، وهم الزناة من قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[2] ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ فيقولون: هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين، يقال: أرجف بكذا إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة وهى الزلزلة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنك بقتالهم،أو لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ فى المدينة، وهو عطف على لنغرينك؛ لأنه يجوز أن يجاب به القسم لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لايجاورونك ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم ، لبعد حاله عن حال المعطوف عليه ﴿فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً قليلا، والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عدواتهم وكيدهم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء، لنأمرنك بأن تفعل الأفعال التى تسوؤهم، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة وإلى أن لايساكنوك فيها إلا زماناً قليلا ريثما يرتحلون، فسمى ذلك إغراء وهو التحريش على سبيل المجاز.

---

(١) هِجِّيراهن: عادتهن ودأبهن.
القاموس: (٢/١٥٨).

(٢) سورة «الأحزاب» الآية (٣٢).

●● ﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم، أو الحال أى: لايجاورنك إلا ملعونين، فالاستثناء دخل على الظرف والحال معا كما مرَّ، ولا ينتصب عن أخذوا؛ لأن ما بعد حروف الشرط لايعمل فيما قبلها ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿ أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ والتشديد يدل على التكثير.

●● ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ فى موضع مصدر مؤكد أى: سن الله فى الذين ينافقون الأنبياء أن يقتلوا أينما وجدوا ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ أى: لايبدل الله سنته بل يجريها مجرىً واحداً فى الأمم .

●● ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء، واليهود يسألونه امتحانا؛ لأن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب، فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به، ثم بين لرسوله أنها قريبة الوقوع تهديدا للمستعجلين وإسكانا للممتحنين بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ شيئاً قريبا، أو لأن الساعة فى معنى الزمان.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ نارا شديدة الاتقاد.

●● ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ هذا يرد مذهب الجهمية؛ لأنهم يزعمون أن الجنة والنار تفنيان، ولا وقف على سعيرا؛ لأن قوله: خالدين فيها حال عن الضمير فى «لهم» ﴿ لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ ناصرا يمنعهم.

●● اذكر﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تصرف فى الجهات كما ترى البضعة [(١)] فى القدر إذا غلت وخصصت الوجوه؛ لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده، أو يكون الوجه عبارة عن الجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ حال ﴿ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ فنتخلص من هذا العذاب فتمنوا حين لاينفعهم التمني.

●● ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ جمع سيد. ساداتنا شامى وسهل ويعقوب جمع الجمع، والمراد رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ ذوى الأسنان منا، أو علماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ يقال: ضل السبيل، وأصله إياه وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآى كقوافى الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف.

●●﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ للضلال والإضلال ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ بالباء[(٢)] عاصم

---

(١) البَضعة: قطعة اللحم.
القاموس (٣/ ٥).

(٢) بالباء؛ أى: «كبيراً». وغيره بالثاء؛ أى: «كثيراً».

ليدل على أشد اللعن وأعظمه. وغيره بالثاء تكثيراً لأعداد اللعائن، ونزل فى شأن زيد وزينب، وما سمع فيه من قالة بعض الناس.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، وأيهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول، ومؤداه وهوالأمر المعيب وأذى موسى - عليه السلام- هو حديث المومسة التى أرادها قارون على قذفه بنفسها، أو اتهامهم إياه بقتل هارون فأحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءة موسى - عليه السلام - كما برأ نبينا - عليه السلام - بقوله: ما كان محمد أبا أحد من رجالكم. ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا جاه ومنزلة مستجاب الدعوة، وقرأ ابن مسعود والأعمش: وكان عبداً لله وجيها.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ صدقا وصوابا، أو قاصدا إلى الحق. والسداد، القصد إلى الحق والقول بالعدل والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول والبعث على أن يسددوا قولهم فى كل باب ؛ لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس كل خير ولا تقف على «سديدا»؛ لأن جواب الأمر قوله:

●● ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يقبل طاعتكم، أو يوفقكم لصالح العمل ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أى: يمحها، والمعنى راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والإثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها. وهذه الآية مقررة للتى قبلها بنيت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺوهذه على الأمر باتقاء الله فى حفظ اللسان ليترادف عليهم النهى والأمر مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه. ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أتبعه قوله:

●● ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ وهو يريد بالأمانة الطاعة لله، وبحمل الأمانة الخيانة يقال: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها أى: لايؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته إذ الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حاملها ، ولهذا يقال: ركبته الديون، ولى عليه حق. فإذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها، يعنى أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها، وهو مايأتى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التى تليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا وتكوينا وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة كما قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(١). وأخبر أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»(٢)وأما الإنسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ويليق به من

---

(١) سورة «فصلت»، الآية (١١). (٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

الانقياد لأوامر الله ونواهـيه، وهو حيوان عاقل صالح للتـكليف مثل حال تلك الجمـادات فيمايصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أى: أبين الخيانة فيها وأن لا يؤدينها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وخفن من الخيـانة فيها ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ أى: خان فيها وأبى أن لايؤديها ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ لكونه تاركا لأداء الأمانة ﴿جَهُولاً﴾ لاخطائه ما يساعده مع تمكنه منه وهو أداؤهـا قال الزجاج: الكافر والمنـافق حملا الأمانة أى: خانـا ولم يطيعا، ومـن أطاع من الأنبياء والمؤمنين فلا يقال: كان ظلوما جهولا. وقيـل: معنى الآية أن ماكلفه الإنسان بلغ من عظمه أنه عرض على أعـظم ماخلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حـمله وأشفق منه وحملـه الإنسان على ضعفه إنه كان ظلوما جهولا حيث حمل الأمانة ، ثم لـم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها، ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب، وما جـاء القرآن إلا على أساليبهم. من ذلك قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال أسوى العوج.

●● واللام فـى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ للتعـليل؛ لأن التعذيـب هنا نظير التأديـب فى قولك: ضربه للـتأديب فلا تقف عـلى جهولا ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وقرأ الأعمش ويـتوب الله بالرفع؛ ليجعـل العلة قاصرة على فـعل الحامل ويبتدىء: ويتوب الله. ومعنـى المشهورة [1]: ليعذب الله حـامل الأمانة ويتوب على غـيره ممن لم يحملها؛ لأنه إذ تيـب على الوافى كان نوعا من عذاب الغادر، أو للعاقبـة أى: حملها الإنسان فآل الأمر إلى تعذيـب الأشقياء وقبول توبـة السعداء ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ للتـائبين ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده المؤمنين. والله الموفق للصواب.

---

(١) يقصد: القراءة المشهورة، وهى ضد القراءة الشاذة التى لم تستكمل شروط القراءة الصحيحة. وهى هنا: ﴿ويتوب﴾ بالفتح.

سورة سبأ مكية ، وهى أربع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الْحَمْدُ﴾ إن أجرى على المعهود فهو مما حمد به نفسه محمود، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق ﴿لِلَّهِ﴾ بلام التمليك؛ لأنه خالق ناطق الحمد أصلا فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلا ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ خلقا وملكا وقهرا فكان حقيقا بأن يحمد سرا وجهرا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ كما هو له فى الدنيا إذا النعيم، فى الدارين من المولى، غير أن الحمد هنا واجب؛ لأن الدنيا دار تكليف وثم لا، لعدم التكليف، وإنما يحمد أهل الجنة سرورا بالنعيم وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(1) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾(2) ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ بتدبير ما فى السماء والأرض ﴿الْخَبِيرُ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض..

●● ﴿يَعْلَمُ﴾ مستأنف ﴿مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِي الأَرْضِ﴾ من الأموات والدفائن ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وجواهر المعادن ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأمطار وأنواع البركات ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يصعد إليها من الملائكة والدعوات ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بإنزال مايحتاجون إليه ﴿الْغَفُورُ﴾ لمايجترئون عليه.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: منكرو البعث ﴿لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ فى للبعث وإنكار لمجيء الساعة ﴿قُلْ بَلَى﴾ أوجب ما بعد النفى ببلى على معنى أن ليس الأمر إلا إتيانها ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ثم أعيد إيجابه مؤكدا بماهو الغاية فى التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عزوجل، ثم أمد التوكيد القسمى بما أتبع المقسم به من الوصف بقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ لأن عظمة حال المقسم به تؤذن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته؛ لأنه بمنزلة الاستشهاد على الأمر، وكلما كان المستشهد به أرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه أثبتت وأرسخ ، ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب، وأدخلها فى الخفية كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحق . عالم الغيب مدنى وشامى، أى: هو عالم الغيب، علام الغيب حمزة وعلىٌ على المبالغة ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ وبكسرالزاى على يقال: عزب يعْزب ويعزب إذا غاب وبعد ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ﴾ من مثقال ذرة ﴿وَلا أَكْبَرُ﴾ من مثقال ذرة ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ إلا فى اللوح المحفوظ، ولا أصغر ولا أكبر بالرفع عطف على مثقال ذرة، ويكون إلا بمعنى لكن، أو رفعا بالابتداء والخبر فى كتاب.

---

(1) سورة «الزمر»، الآية (٧٤). (2) سورة «فاطر»، الآية (٣٤).

●● واللام فى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما قصروا فيه من مدارج الإيمان ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان متعلق بلتأتينكم تعليلا له.

●● ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ جاهدوا فى رد القرآن ﴿ مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين ظانين أنهم يفوتوننا. معجزين مكى وأبو عمرو أى: مثبطين الناس عن اتباعها وتأملها، أوناسبين الله إلى العجز ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع أليم مكى وحفص ويعقوب صفة لعذاب أى: عذاب أليم من سيء العذاب قال قتادة: الرجز سوء العذاب، وغيرهم بالجر صفة لرجز.

●●﴿وَيَرَى﴾ فى موضع الرفع بالاستئناف أى: ويعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعنى: أصحاب رسول الله ﷺ ومن يطأ أعقابهم من أمته، أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه، والمفعول الأول ليرى ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يعنى: القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ أى: الصدق وهو فصل، والحق مفعول ثان، أو فى موضع النصب معطوف على ليجزى، وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق علما لايزاد عليه فى الإيقان ﴿وَيَهْدِي﴾ الله، أو الذى أنزل إليك ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو دين الله.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقال قريش بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً ﷺ وإنما نكروه مع أنه كان مشهورا علما فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم تجاهلا به وبأمره، وباب التجاهل فى البلاغة وإلى سحرها ﴿ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاقا وترابا ويمزق أجسادكم البلى كل ممزق أى: يفرقكم كل تفريق؛ فالممزق مصدر بمعنى التمزيق، والعامل فى إذا ما دل عليه إنكم لفى خلق جديد، أى: تبعثون، والجديد فعيل بمعنى فاعل عند البصريين تقول: جد فهو جديد كقل فهو قليل ، ولايجوز إنكم بالفتح للام فى خبره.

●● ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ والهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ثم قال سبحانه وتعالى: ليس محمد من الافتراء والجنون فى شيء وهومبرأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون فى عذاب النار وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق، وهم غافلون عن ذلك، وذلك أجن الجنون جعل وقوعهم فى العذاب رسيلا[1] لوقوعهم فى الضلال كأنهما كائنان فى وقت واحد؛ لأن الضلال لماكان العذاب من لوازمه جعلا كأنهما مقترنان، ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازى؛ لأن البعيد صفة الضال إذا بعد عن الجادة.

(١) رسيلاً: أى سبباً.

●●﴿أَفَلَمْ يرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ﴾ وبالإدغام علىٌّ؛ للتقارب بين الفاء والباء، وضعفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء ﴿الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ﴾ الثلاثة (١) بالياء كوفى غير عاصم لقوله: أفترى على الله كذبا ﴿عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾(٢) كسفا حفص ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى: أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وأنهما حيثما كانوا، وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطتان بهم لايقدرون أن ينفذوا من أقطارهما وأن يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله ولم يخافوا أن يخسف الله بهم، أو يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لآيَةً﴾ لدلالة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه مطيع له إذ المنيب لايخلو من النظر فى آيات الله على أنه قادر على كل شيء من البعث ومن عقاب من يكفر به.

●●﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ﴾ بدل من فضلا، أو من آتينا بتقدير قولنا: يا جبال، أو قلنا: يا جبال ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ من التأويب رجعى معه التسبيح، ومعنى تسبيح الجبال أن الله يخلق فيها تسبيحا فيسمع منها كما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على محل الجبال، والطير عطف على لفظ الجبال، وفى هذا النظم من الفخامة مالايخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى؛ ولو قال: آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وجعلناه له لينا كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولاضرب بمطرقة وقيل: لأن الحديد فى يده لما أوتى من شدة القوة.

●● ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾ أن بمعنى أى، أو أمرناه أن اعمل ﴿سَابِغَاتٍ﴾ دروعا واسعة تامة من السبوغ، وهو أول من اتخذها وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء، وقيل: كان يخرج متنكراً فيسأل الناس عن نفسه، ويقول لهم: ما تقولون فى داود؟ فيثنون عليه فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال: نعم الرجل لولا خصلة فيه وهو أنه يطعم عياله من بيت المال، فسأل عند ذلك ربه أن يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ لاتجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتفصم الحلق، والسرد: نسج الدروع ﴿وَاعْمَلُوا﴾ الضمير لداود وأهله ﴿صَالِحًا﴾ خالصا يصلح للقبول ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

●●﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ أى: وسخرنا لسليمان الريح، وهى الصبا، ورفع الريح أبو بكر وحماد

---

(١) يقصد الكلمات: ﴿يروا﴾، ﴿نشأ﴾، ﴿نخسف﴾.

(٢) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها: «كِسْفًا».

والفضل أى: ولسليمان الريح مسخرة ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريها بالغداة مسيرة شهر، وجريها بالعشى كذلك، وكان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر فارس [١] وبينهما مسيرة شهر، ويروح من اصطخر [٢] فيبيت بكابل [٣] وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وقيل: كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أى: معدن النحاس فالقطر النحاس وهو الصفر ولكنه أساله وكان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكان قبل سليمان لايذوب، وسماه عين القطر باسم ما آل إليه ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ﴾ من فى موضع نصب أى: وسخرنا من الجن من يعمل ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمر ربه ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل منهم ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ الذى أمرنا به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان عليه السلام، ضربه ضربة أحرقته.

●● ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ أى: مساجد أو مساكن ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ أى: صور السباع والطيور، وروى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه، ونسرين فوقه فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما وكان التصوير مباحا حينئذ ﴿وَجِفَانٍ﴾ جمع جفنة ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جمع جابية، وهى الحياض الكبار قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل. وكالجوابى فى الوصل والوقف مكى ويعقوب وسهل ،وافق أبو عمرو فى الوصل ، الباقون بغير ياء اكتفاء بالكسرة ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ ثابتات على الأثافى لاتنزل عنها لعظمها، وقيل : إنها باقية باليمن، وقلنا لهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أى: ارحموا أهل البلاد واسألوا ربكم العافية عن الفضيل، وشكرا مفعول له، أو حال أى: شاكرين، أو اشكروا شكرا؛ لأن اعملوا فيه معنى اشكروا من حيث إن العمل للمنعم شكر له، أو مفعول به يعنى إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ماشئتم فاعملوا أنتم شكرا، وسئل الجنيد عن الشكر فقال: بذل المجهود بين يدى المعبود ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ بسكون الياء حمزة وغيره بفتحها ﴿الشَّكُورُ﴾ المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه؛ اعتقادا واعترافا وكدحا وعن ابن عباس، - رضى الله عنه -، من يشكر على أحواله كلها. وقيل: من يشكر على الشكر، وقيل: من يرى عجزه عن الشكر، وحكى عن - داود عليه السلام - أنه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى.

---

(١) اصطخر: بلدة بفارس، وهى من أقدم وأشهر مدنها، فتحت فى خلافة عثمان - رضى الله عنه - (معجم البلدان ١/ ٢٤٩).

(٢) كابل: ولاية كبيرة بين هند وغزنة، ولعلها «كابول» عاصمة أفغانستان الآن. معجم البلدان (٤/ ٤٨٣).

(٣) الأثافى: ما يوضع عليه القدر لإنضاج الطعام، المفرد «أثفية».

●● ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أى: على سليمان﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أى: الجن وآل داود ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أى: الأرضة وهى دويبة يقال: لها سرفة، والأرض فعلها فأضيفت إليه، يقال: أرضت الخشبة أرضا إذا أكلتها الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ والعصا تسمى منسأة؛ لأنه ينسأ بها أى: يطرد،ومنساته بغير همز مدنى وأبو عمرو ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقط سليمان ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمت الجن كلهم علما بينا بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا﴾ بعد موت سليمان ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾وروى أن داود ـ عليه السلام ـ أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى - عليه السلام ـ فمات قبل أن يتمه فوصى به إلى سليمان فأمر الشياطين بإتمامه، فلما بقى من عمره سنة، سأل ربه أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه، ولتبطل دعواهم علم الغيب، وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة، ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقى فى ملكه أربعين سنة، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه، وروى أن أفريدون جاء ليصعد كرسيه، فلما دنا ضرب الأسدان ساقه فكسرها فلم يجسر أحد بعده أن يدنو منه.

●● ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بالصرف بتأويل الحى ، وبعدمه أبو عمرو بتأويل القبيلة ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ حمزة وحفص، مسكِنهم على وخلف وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التى كانوا مقيمين فيها باليمن، أو مسكن كل واحد منهم ، غيرهم مساكنهم ﴿آيَةٌ﴾ اسم كان ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من اية، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره الآية جنتان، ومعنى كونهما آية أن أهلها لما أعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتعظوا فلايعودوا إلى ماكانوا عليه من الكفر وغمط النعم، أوجعلهما آية أى: علامة دالةعلى قدرة الله وإحسانه ووجوب شكره ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم، وأخرى عن شمالها، وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بساتين البلاد العامرة، أو أراد بستانى كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون إليهم، أو لما قال لهم لسان الحال، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك، ولماأمرهم بذلك أتبعه قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أى: هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة، وربكم الذى رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره. قال ابن عباس : كانت سبأ على ثلاث فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها، وتسير بين تلك الشجر فيمتلىء المكتل مما يتساقط فيه من الثمر وطيبها، ليس فيها بعوض ولا ذباب ولابرغوث ولاعقرب ولاحية، ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هوائها.

●● ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن دعوة أنبيائهم فكذبوهم، وقالوا مانعرف لله علينا نعمة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أى: المطر الشديد، أو العرم اسم الوادى، أو هو الجرذ الذى نقب عليهم السكر لما

طغوا سلط الله عليهم الجرذ فنقبه من أسفل فغرقهم ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المذكورتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وتسمية البدل جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1] ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأكل الثمر يثقل ويخفف وهو قراءة نافع ومكى، والخمط شجر الأراك وقيل: كل شجر ذى شوك ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ الأثل شجر يشبه الطرفاء[2] أعظم منه وأجود عودا، ووجه من نون الأكل، وهو غير أبى عمرو أن أصله ذواتى أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل: ذواتى أكل بشع، ووجه أبى عمر أن أكل الخمط فى معنى البرير وهو ثمر الأراك إذا كان غضا، فكأنه قيل ذواتى برير، والأثل والسدر معطوفان على أكل لا على خمط؛ لأن الأثل لا أكله له، وعن الحسن: قال السدر؛ لأنه أكرم ما بدلوا ، لأنه يكون فى الجنان.

•• ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ أى: جزيناهم ذلك بكفرهم فهو مفعول ثان مقدم ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ كوفى غير أبى بكر، وهل يجازى إلا الكفور غيرهم، يعنى وهل نجازى مثل هذا الجزاء إلامن كفر النعمة ولم يشكرها، أو كفر بالله أو هل يعاقب لأن الجزاء وإن كان عاما يستعمل فى معنى المعاقبة وفى معنى الإنابة لكن المراد الخاص وهو العقاب، وعن الضحاك كانوا فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما السلام .

•• ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين سبإ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعةعلى أهلها فى النعم والمياه وهى قرى الشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لأعين الناظرين، أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، وهى أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ إلى الشام ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أى: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر فى قرية ويروح فى أخرى إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ وقلنا لهم: سيروا، ولا قول ثمة ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه فكأنهم أمروا بذلك ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أى: سيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات، أى: سيروا فيها آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعًا ولا عطشًا وإن تطاولت مدة سفركم وامتدت أيامًا وليالى.

•• ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا: يا ليتها كانت بعيدة فنسير على نجائبنا وتربح التجارات ونفاخر فى الدواب والأسباب بطروا النعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب، بعد مكى وأبو عمرو ﴿وَظَلَمُوا﴾ بما قالوا ﴿أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وفرقناهم تفريقًا اتخذه الناس مثلاً مضروبًا يقولون: ذهبوا أيدى

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

(٢) الطرفاء: نوع من الشجر، يطلق على الواحد والجمع.

سبأ وتفرقوا أيادى سبأ، فلحق غسان بالشام، وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والأزد بعمان ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ عن المعاصى ﴿شَكُورٍ﴾ للنعم أو لكل مؤمن؛ لأن الإيمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر.

•• ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ بالتسديد كوفى أى: حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقًا وبالتخفيف غيرهم أى: صدق فى ظنه﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ الضمير فى عليهم واتبعوه لأهل سبأ، أو لبنى آدم وقلل المؤمنين بقوله: ﴿إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لقلتهم بالإضافة إلى الكفار، ولا تجد أكثرهم شاكرين.

•• ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم﴾ لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقًا ﴿ مِّن سُلْطَانٍ﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ موجودًا ما علمناه معدومًا، والتغير على المعلوم لا على العلم ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظ عليه، وفعيل ومفاعل متآخيان.

•• ﴿ قُلِ﴾ لمشركى قومك ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: زعمتموهم آلهة من دون الله فالمفعول الأول الضمير الراجع إلى الموصول، وحذف كما حذف فى قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾(١) لطول الموصول بصلته والمفعول الثانى آلهة وحذف ؛ لأنه موصوف صفته من دون الله. والموصوف يجوز حذفه وإقامة الصفة مقامه إذا كان مفهومًا، فإذًا مفعولاً زعم محذوفان بسببين مختلفين، والمعنى ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة وسميتموهم باسمه والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته، ثم أجاب عنهم بقوله: ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر، أو نفع، أو ضر ﴿فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ وما لهم فى هذين الجنسين من شركة فى الخلق ولا فى الملك ﴿ وَمَا لَهُ ﴾ تعالى ﴿مِنْهُم﴾ من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴾ من عوين يعينه على تدبير خلقه، يريد أنهم على هذه الصفة من العجز فكيف يصح أن يدعو كما يدعى ويرجوا كما يرجى.

•• ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أى: أذن الله يعنى إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله وهى اللام الثانية فى قولك: أذن لزيد لعمرو، أى لأجله، وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء: شفعاؤنا عند الله ، أذن له كوفى غير عاصم إلا الأعشى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أى: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن، وفَزَّع شامى أى: الله تعالى والتفريع إزالة الفزع، وحتى غاية لما فهم من أن ثم انتظارًا للإذن، وتوقفًا وفزعًا من

---

(١) سورة «الفرقان»، الآية (٤١).

الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أو لا يؤذن لهم، كأنه قيل يتربصون ويتوقعون مليًا فزعين حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴿قَالُوا﴾ سأل بعضهم بعضًا ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ قال﴿الْحَقَّ﴾ أى: القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبى أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه وأن يشفع إلا لمن ارتضى.

•• ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ أمره بأن يقررهم بقوله: من يرزقكم، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم: الله؛ وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأنهم إن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم فما لكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق، وأمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام الذى إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ومعناه: وإن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك. وفى درجه بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك للكاذب إن أحدنا لكاذب. وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الهدى والضلال، لأن صاحب الهدى، كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء، والضال كأنه ينغمس فى ظلام لا يرى أين يتوجه.

•• ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخل فى الإنصاف من الأول حيث أسند الإجرام إلى المخاطبين، وهو مزجور عنه محظور. والعمل إلى المخاطبين وهو مأمور به مشكور.

•• ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ بلا جور ولا ميل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالحكم.

•• ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أى: ألحقتموهم ﴿ بِهِ﴾ بالله ﴿ شُرَكَاءَ﴾ فى العبادة معه ومعنى قوله: أروني، وكان يراهم أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء بالله وأن يطلعهم على حالة الإشراك به ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه أى: ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى تدبيره.

•• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن تخرج منها أحد منهم وقال الزجاج: معنى الكافة فى اللغة الإحاطة، والمعنى أرسلناك جامعًا للناس فى الإنذار والإبلاغ، فجعله حالاً من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كتاء الرواية

والعلامة ﴿بَشِيرًا﴾ بالفضل لمن أقر ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعدل لمن أصر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

●● ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أى: القيامة المشار إليها فى قوله: قل يجمع بيننا ربنا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

●● ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ الميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان ويدل عليه قراءة من قرأ ميعادٌ يومٌ فأبدل منه اليوم، وأما الإضافة فإضافة تبيين كما تقول: بعير سانية[1] ﴿لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أى: لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم إليه بالاستعجال، ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتًا لا استرشادًا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقًا للسؤال على الإنكار والتعنت وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخرًا عنه، ولا تقدمًا عليه.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أبو جهل وذووه ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: ما نزل قبل القرآن من كتب الله، أو القيامة والجنة والنار حتى إنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله، وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ﴾ يرد ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ فى الجدال أخبر عن عاقبة أمرهم مآلهم فى الآخرة فقال لرسول الله ﷺ أو للمخاطب: ولو ترى فى الآخرة موقفهم، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ أى: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: للرءوس والمقدمين ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله.

●● ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ﴾ أولى الاسم أى: نحن حرف الإنكار؛ لأن المراد إنكار أن يكون هم الصادين لهم عن الإيمان، وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم آتوا من قبل اختيارهم ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ إنما وقعت إذ مضافًا إليها، وإن كانت إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية، لأنه قد اتسع فى الزمان ما لم يتسع فى غيره فأضيف إليها الزمان ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين لاختياركم وإيثاركم الضلال على الهدى لابقولنا وتسويلنا.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لم يأت بالعاطفة فى: «قال الذين استكبروا» وأتى به فى: «وقال الذين استضعفوا» لأن الذين استضعفوا مر أولاً كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم

(١) بعير سانية: أى: الناقة التى يستقى عليها.

فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بل مكرهم بنا بالليل والنهار فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، إضافة المكر إليه، وجعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي، أى الليل والنهار مكرًا بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على الحق ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أشباهًا والمعنى أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم: أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: بل كنتم مجرمين أن ذلك بكسبهم واختيارهم، كر عليهم المستضعفون بقولهم: بل مكر الليل والنهار، فأبطلوا إضرابهم بأضرابهم، كأنهم قالوا ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائبًا ليلاً ونهارا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أضمروا أو أظهروا وهو من الأضداد، وهم الظالمون فى قوله: «إذ الظالمون موقوفون» يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ الجحيم ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: فى أعناقهم فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا.

•• ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبي ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ متنعموها ورؤساؤها ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ هذه تسلية للنبى ﷺ مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به، وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهل مكة وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد كما قال.

•• ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرًا إلى أحوالهم فى الدنيا وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولوا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء فربما وسع على العاصى وضيق على المطيع، وربما عكس وربما وسع عليهما، أو ضيق عليهما فلا ينقاس عليهما أمر الثواب وذلك قوله.

•• ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ قدر الرزق تضييقه قال الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾(1) ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

•• ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أى: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتى تقربكم؛ وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث الزلفى والزلفة كالقربى والقربة، ومحلها النصب على المصدر، أى: تقربكم قربة كقوله: ﴿أَنبَتَكُم

(1) سورة «الطلاق»، الآية (7).

مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾[1] ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الاستثناء من كم فى تقربكم يعنى أن الأموال لا تقرب أحدًا إلا المؤمن الصالح الذى ينفقها فى سبيل الله ، والأولاد لا تقرب أحدًا إلا من علمهم الخير وفقههم فى الدين ورشحهم للصلاح والطاعة، وعن ابن عباس إلا بمعنى لكن ومن شرط جوابه ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف، ثم جزاءه الضعف، ثم جزاءه الضعف، ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرًا، وقرأ يعقوب جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء ﴿ بِمَا عَمِلُوا﴾ بأعمالهم ﴿ وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ﴾ أى: غرف منازل الجنة، الغرفة حمزة ﴿ آمِنُونَ ﴾ من كل هائل وشاغل.

●● ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِى آيَاتِنَا﴾ فى إبطالها ﴿مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

●● ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسع ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم﴾ ما شرطية فى موضع النصب ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بيانه ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ يعوضه لا معوض سواه إما عاجلاً بالمال أو آجلاً بالثواب جواب الشرط ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ المطعمين، لأن كل ما رزق غيره من سلطان أو سيد أو غيرهما فهو من رزق الله أجراه على أيدى هؤلاء، وهو خالق الرزق وخالق الأسباب التى بها ينتفع المرزوق بالرزق وعن بعضهم : الحمد لله الذى أوجدنى وجعلنى ممن يشتهى ، فكم من مشته لا يجد وواجد لا يشتهي.

●● ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ وبالياء[2] فيهما حفص ويعقوب هذا خطاب للملائكة وتقريع للكفار وارد على المثل السائر

* إياك أعنى وأسمعى يا جارة *

ونحوه قوله ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾[3] الآية :﴿قَالُوا﴾ أى: الملائكة ﴿ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك أن يعبد معك غيرك ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الموالاة خلاف العادة وهى مفاعلة من الولى وهو القرب والولى يقع على الموالى والموالى جميعًا والمعنى أنت الذى نواليه ﴿ مِن دُونِهِم﴾ إذ لا موالاة بيننا وبينهم فبينوا بإثبات موالاة الله ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم، لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أى: الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله، أو كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها، أو صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا هذه صور الملائكة فاعبدوها ﴿ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الإنس أو الكفار ﴿ بِهِم﴾ بالجن ﴿ مُّؤْمِنُونَ ﴾.

---

(١) سورة «نوح»، الآية (١٧).

(٢) هذا يدل على أن النسفى يقرؤهما بالنون: ﴿نحشرهم﴾، ﴿نقول﴾.

(٣) سورة «المائدة»، الآية (١١٦).

●● ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ لأن الأمر فى ذلك اليـوم لله وحده لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد؛ لأن الداردار ثواب وعقـاب والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها خلاف حال الدنيا التى هى دار تكليف، والناس فيها مخلى بينهم يتضارون ويتنافعون، والمراد أنه لا ضار ولا نافع يـومئذ إلا هو. ثم ذكر عـاقبة الظالمين بـقوله: ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بوضع العبادة فى غـير موضعها معطـوف على لا يملك ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فى الدنيا.

●● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أى: إذا قرئ عليهم القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ﴿قَالُوا﴾ أى: المشركون ﴿ مَا هَٰذَا﴾ أى: محمد ﴿ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا﴾ أى: القرآن ﴿ إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: وقالوا والعدول عنه دليل على إنكار عظيم وغضب شديد ﴿لِلْحَقِّ﴾ للقرآن، أولأمر الـنبوة كله ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وعجزوا عن الإتيـان بمثله ﴿ إِنْ هَٰذَا﴾ أى: الحق ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بتوه على أنه سحر، ثم بتوه علـى أنه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحرا.

●● ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أى: ما أعطينا مشركى مكة كتـباً يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله.

●● ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: وكذب الذين تقـدموهم من الأمم الماضية والقـرون الخالية الرسل، كما كذبوا ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أى: وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتى الأولون من طول الأعمـال وقوة الأجرام وكثـرة الأموال والأولاد ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للمكذبين الأولين فليحذروا من مثله وبالياء[1] فى الوصل، والوقف يعقوب أى: فـحين كذبوا رسلهم جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم يغن عنهم اسـتظهارهم بما هم مستظهرون فما بال هؤلاء، وإنما قال: فكذبوا وهـو مستغنى عنه بـقوله: وكذب الذين من قبـلهم؛ لأنه لما كان معنـى قوله: وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب وأقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسبباً عنه، وهو كقول القائل أقدم فلانعلى الكفر فكفر بمحمد (ﷺ).

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ بخصلة واحدة، وقد فسرها بقوله: ﴿أَن تَقُومُوا﴾ على أنه عطف بيان لهـا، وقيل هو بدل وعلى هذيـن الوجهين هو فى محـل الجر، وقيل هو فى محل الـرفع على

(١) أى: فى الآخر؛ لتصبح «نكيرى».

تقدير وهى أن تقوموا، والنصب على تقدير أعنى وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله (ﷺ) وتفرقهم عن مجتمعهم عنده، أو قيام القصد إلى الشىء دون النهوض والانتصاب، والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهى أن تقوموا ﴿لِلَّهِ﴾ أى: لوجه الله خالصاً لا لحمية ولا عصبية بل لطلب الحق ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين ﴿وَفُرَادَىٰ﴾ فردا فردا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فى أمر محمد (ﷺ) وما جاء به، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، وكذلك الفرد يتفكر فى نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله، ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمى البصائر ويمنع من الروية ويقل الإنصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب، وتتفكروا معطوف على تقوموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ يعنى: محمداً (ﷺ) ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون، والمعنى: ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدام عذاب شديد، وهو عذاب الآخرة، وهو كقوله ـ عليه السلام ـ: «بعثت بين يدى الساعة»[1]. ثم بين أنه لا يطلب أجراً على الإنذار بقوله.

●● ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على إنذارى وتبليغى الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ جزاء الشرط تقديره أىّ شىء سألتكم من أجر كقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾[2]. ومعناه نفى مسألة الأجر رأساً نحو مالى فى هذا فهو لك، أى ليس لى فيه شىء ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مدنى وشامى وأبو بكر وحفص وبسكون الياء غيرهم ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيعلم أنى لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلا منه.

●● ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ بالوحى، والقذف: توجيه السهم، ونحوه بدفع واعتماد ويستعار لمعنى الإلقاء ومنه وقذف فى ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[3] ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾[4] ومعنى يقذف بالحق يلقيه وينزله إلى أنبيائه، أو يرمى به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ مرفوع على البدل من الضمير فى يقذف، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف.

●● ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام والقرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أى زال الباطل وهلك؛ لأن الإبداء والإعادة من صفات الحى فعدمهما عبارة عن الهلاك، والمعنى جاء الحق وزهق الباطل كقوله. جاء الحق ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾[5]. وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ دخل النبى (ﷺ) مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، جاء

(١) الحديث عند أحمد، وفى «كنز العمال»، برقم (١٠٥٢٨/٤).
(٢) سورة «فاطر»، الآية (٢).
(٣) الأحزاب (٢٦)، والحشر (٢).
(٤) سورة «طه»، الآية (٣٩).
(٥) سورة «الإسراء»، الآية (٨١).

الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[1] وقيل: الباطل الأصنام وقيل إبليس لأنه صاحب الباطل، أو لأنه هالك كما قيل له الشيطان من شاط إذا هلك أى لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحداً ولا يبعثه فالمنشىء والباعث هو الله، ولما قالوا قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى.

●● ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحق ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ إن ضللت فمنى وعلىّ ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أى: فبتشديده بالوحى إلى وكان قياس التقابل أن يقال وإن اهتديت فإنما أهتدى لها كقوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[2] ولكن هما متقابلان معنى؛ لأن للنفس كل ما عليها وضار لها فهو بها وبسببها؛ لأنها الأمارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسوله أن يسنده إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ منى ومنكم يجازينى ويجازيكم.

●● ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ جوابه محذوف أى لرأيت أمراً عظيما وحالا هائلة ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾ عند البعث، أو عند الموت، أو يوم بدر ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا مهرب، أو فلا يفوتون الله ولا يسبقونه ﴿وَأُخِذُوا﴾ عطف على فزعوا أي فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم، أو على لا فوت على معنى إذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا، أو من صحراء بدر إلى القليب[3].

●● ﴿وَقَالُوا﴾ حين عاينوا العذاب ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ بمحمد -عليه السلام -لمرور ذكره فى قوله ما بصاحبكم من جنة، أو بالله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التناوش: التناول أى كيف يتناولون التوبة، وقد بعدت عنهم، يريد أن التوبة كانت تقبل منهم فى الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة، وقيل: هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت كما نفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشىء من غلوة[4] كما يتناول الآخر من قيس ذراع[5]. التناوش بالهمزة أبو عمرو وكوفى غيرحفص، همزت الواو؛ لأن كل واو مضمومة ضمتها لازمة إن شئت أبدلتها همزة، وإن شئت لم تبدل نحو قولك أدور وتقاوم[6]. وإن شئت قلت: أدؤر وتقاؤم وعن ثعلب التناؤش بالهمز التناول من بعد وبغير همز التناول من قرب: .

---

(١) الحديث متفق عليه، ووعند البخاري: «حول الكعبة ستون وثلاثمائة نصب».

(٢) سورة «الزمر»، الآية (٤١).

(٣) القليب: قيل هو جبل لبنى عامر، وقيل: هو المكان الذى دفن فيه قتلى بدر من المشركين. (معجم البلدان ٤/٤٤٧).

(٤) الغلوة: مقدار رمية.

(٥) الذراع: مقياس.

(٦) أدوُر: جمع دار، تقاوم: أى قام بعضهم لبعض فى الحرب.

•• ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ من قبل العذاب أو فى الدنيا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعنى: وكانوا يتكلمون بالغيب، أبو بالشىء الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق، أو عن الحق والصواب، أو هو قولهم فى رسول الله، (ﷺ) شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفى؛ لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعراً ولا كذباً، وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله؛ لأن أبعد شىء مما جاء به السحر والشعر وأبعد شىء من عاداته التى عرفت بينهم وجربت الكذب ويقذفون بالغيب. عن أبى عمرو على البناء للمفعول أى: تأتيهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فعلقه بقوله وقالوا آمنا به على أنه مثّلهم فى طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان فى الدنيا بقولهم آمنا فى الآخرة، وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للظن فى لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه بعيداً ، ويجوز أن يكون الضمير فى آمنا به للعذاب الشديد فى قوله: بين يدى عذاب شديد. وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب، ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قائسين أمر الآخرة على أمر الدنيا، فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لأن دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

•• ﴿وَحِيلَ﴾ وحجز ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة، أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم بقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾. والأفعال التى هى فزعوا وأخذوا وحيل كلها للمضى، والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباههم من الكفرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ﴾ من أمر الرسل والبعث ﴿مُّرِيبٍ﴾ موقع فى الريبة من أرابه إذا أوقعه فى الريبة، هذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم.

• • •

(سورة فاطر مكية وهي خمس وأربعون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد ذاته تعليما وتعظيما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدئها ومبتدعها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى اختصم إلىَّ أعرابيان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. أى: ابتدأتها ﴿وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ إلى عباده ﴿أُوْلِي﴾ ذوى اسم جمع لذو وهو بدل من رسلا أو نعت له ﴿أَجْنِحَةٍ﴾ جمع جناح ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ صفات لأجنحة، وإنما لم تنصرف لتكرر العدل فيها، وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ أخر، كما عدل عمر عن عامر، وعن تكرير إلى غير تكرير، وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه، والمعنى أن الملائكة طائفة أجنحتهم اثنان اثنان أى: لكل واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعل الثالث يكون فى وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ أى: يزيد فى خلق الأجنحة وغيره ﴿مَا يَشَاءُ﴾ وقيل: هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن، والملاحة فى العينين ،الآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام فى الأعضاء، وقوة فى البطش، وحصافة فى العقل، وجزالة فى الرأى، وذلاقة فى اللسان، ومحبة فى قلوب المؤمنين، وما أشبه ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر.

●● ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ نكرت الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال من آية رحمة رزق، أو مطر، أو صحة، أو غير ذلك ﴿فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها واستعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ يمنع ويحبس ﴿فَلا مُرْسِلَ لَهُ﴾ مطلق له ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة، ثم ذكره حملا على اللفظ المرجع إليه إذ لا تأنيث فيه؛ لأن الأول فسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثانى فترك على أصل التذكير، وعن معاذ مرفوعا: «لا تزال يد الله مبسوطة علىَ هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم، ويعظم برهم فاجرهم، وتعن قراؤهم أمراءهم على معصية الله فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم»(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذى يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة إرساله وإمساكه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا﴾ باللسان والقلب ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهى التى تقدمت من بسط الأرض كالمهاد ورفع السماء بلا عماد وإرسال الرسل لبيان السبيل دعوة إليه وزلفة لديه والزيادة فى الخلق وفتح أبواب الرزق، ثم نبه على رأس النعم، وهو اتحاد المنعم بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ

ـ(١) لم أعثر على أصله.

﴿اللَّهِ﴾ برفع غير على الوصف؛ لأن خالق مبتدأ خبره محذوف أى لكم، وبالجر على وحمزة على الوصف لفظاً ﴿يَرْزُقُكُم﴾ يجوز أن يكون مستأنفاً، ويجوز أن يكون صفة لخالق ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ بأنواع النبات ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ جملة مفصولة لا محل لها ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فبأى وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

•• ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها، وسلى رسوله بأن له فى الأنبياء قبله أسوة؛ ولهذا نكر رسل أى رسل ذوو عدد كبير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم؛ لأنه أسلى له، وتقدير الكلام: وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك؛ لأن الجزاء يتعقب الشرط ولو أجرى على الظاهر يكون سابقاً عليه ووضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن السبب، أى بالتكذيب عن التأسى ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة الكذّب والمكذَّب بما يستحقانه، ترجع بفتح التاء شامى وحمزة وعلى ويعقوب وخلف وسهل.

•• ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾ كائن ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أى: الشيطان فإنه يمنيكم الأمانىّ الكاذبة، ويقول: إن الله غنى عن عبادتك وعن تكذيبك.

•• ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فى عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدنّ منكم إلا ما يدل على معاداته فى سركم وجهركم، ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذى يؤمه فى دعوة شيعته، هو أن يوردهم مورد الهلاك بقوله ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ثم كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه فقال.

•• ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: فمن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه أى أتباعه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ولم يجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لكبر جهادهم ولما ذكر الفريقين قال لنبيه ـ عليه السلام.

•• ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ بتنزيين الشيطان كمن لم يزين له فكأن رسول الله (ﷺ) قال لا، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وذكر الزجاج أن المعنى أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه، أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فإن الله يضل من يشاء

ويهدى من يشاء علـيه فلا تُذهب نفسك يريد أى: لا تهـلكها حسرات مفعول له يعـنى فلا تهلك نفسك للحـسرات، وعليهم صلة تذهب كما تـقول هلك عليه حبا ومات علـيه حزناً، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

●● ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ الريح مكى وحـمزة وعلى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد مدنى وحمزة وعلى وحـفص، وبالتخفيف غيرهم ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بالمطر لتقـدم ذكره ضمناً ﴿الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسهـا، وإنما قيل فتثيـر لتحكى الحال التى تـقع فيها إثارة الريـاح السحاب وتستحضر تلك الصورة الـدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فـيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب وكذلـك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بـعد موتها لما كان من الدليل على القدرة الباهـرة، قيل: فسقنا وأحيينا معدولا بهما عن لفـظ الغيبة إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عـليه ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ الكـاف فى محل الـرفع، أى: مثل إحيـاء الموات نشور الأموات، قيل: يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمنى الرجال تنبت منه أجساد الخلق.

●● ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أى: العزة كلـها مختصة بالله، عزة الـدنيا وعزة الآخرة وكان الـكافرون يتعـززون بالأصنام كـما قال: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾(١) والذين آمنوا بألسـنـتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعـززون بالشركين كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٢) . فبين أن لا عزة إلا بالله والمعنى فليطلبـها عند الله فوضع قوله لله العزة جميعا موضعه استـغناء عنه به لدلالته عليه؛ لأن الـشىء لا يطلب إلا عند صاحـبه ومالكه، ونظيره قـولك: من أراد النصيحة فـهى عند الأبرار. تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه، وفي الحديث، «إن ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الـدارين فليطع العزيز»(٣) . ثم عرف أن ما يطلـب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ومعنى قوله إليه إلى محل القبول والـرضا وكل ما اتصـف بالقبول وصف بـالرفعة والصعـود، أو إلى حيث لا ينفـذ فيه إلا حكمه والكلم الطيـب كلمات التوحيد أى لا إله إلا الله وكان القياس الطيبـة ولكن كل جمع ليسّ بينه وبين واحده إلا الـتّاء يذكر ويؤنث، والعمل الصالـح العْبادة الخالصة، يعنى والـعمل الصالحْ يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفـوع العمل؛ لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد، وقيل: الرافع الله والمرفوع العمل أى العمل الصالح يرفعه الله وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع والكلم

(١) سورة «مريم»، الآية (٨١).
(٢) سورة «النساء»، الآية (١٣٩).
(٣) لم أعثر على أصله.

لطيب يصعد بنفسه وقيل: العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه، أى من أراد العزة فليعمل عملا صالحا فإنه هو الذى يرفع العبد ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ هى صفة لمصدر محذوف أى: المكرات السيئات؛ لأن مكر فعل غير متعد، لا يقال مكر فلان عمله والمراد مكر قريش به، عليه السلام، حين اجتمعوا فى دار الندوة كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾(١) الآية ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ ﴿هُوَ﴾ فصل ﴿يَبُورُ﴾ خبر أى ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصة يبور أى يفسد ويبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(٢) وقوله ﴿بِأَهْلِهِ﴾(٣).

•• ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم﴾ أى: أباكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ﴾ أنشأكم ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافا أو ذكرانا وإناثا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ هو فى موضع الحال أى إلا معلومة له ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أى: وما يعمر من أحد، وإنما سماه معمرا بما هو صائر إليه ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعنى: اللوح، أو صحيفة الإنسان ولا يَنْقُصُ زيد، فإن قلت الإنسان إما معمر أى طويل العمر، أو منقوص العمر أى قصيره، فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره، قلت هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة فى تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم، وأنه لا يلتبس عليهم إحالة الطول والقصر فى عمر واحد، وعليه كلام الناس يقولون: لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق. أو تأويل الآية أنه يكتب فى الصحيفة عمره كذا كذا سنة، ثم يكتب فى أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتى على آخره فذلك نقصان عمره وعن قتادة المعمر من يبلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أى: إحصاءه أو زيادة العمر ونقصانه ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل.

•• ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا﴾ أى أحدهما ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، وقيل: هو الذى يكسر العطش ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ مرىء سهل الانحدار لعذوبته وبه ينتفع شرابه ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة وقيل هو الذى يحرق بملوحته ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهى اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ فى كل ﴿مَوَاخِرَ﴾ شواقّ للماء بجريها يقال مخرت السفينة الماء أى شقته وهى جمع ماخرة ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ من فضل الله ولم يجر له ذكر فى الآية ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر لم يشكل لدلالة

---

(١) سورة «الأنفال»، الآية (٣٠).

(٢) سورة «الأنفال»، الآية (٣٠).

(٣) سورة «فاطر»، الآية (٤٣).

المعنى عليه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على ما آتاكم من فضله. ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد فى صفة البحرين وما علّق بهما من نعمته وعطائه ويحتمل غير طريقة الاستطراد، وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين، ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب فى منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه، والكافر حلو من النفع فهو فى طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ ثم قال: وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله[1].

•• ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل من ساعات أحدهما فى الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعا ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى: ذلل أضواء صوره لاستواء سيره ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: يوم القيامة ينقطع جريهما ﴿ذَلِكُمُ﴾ مبتدأ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أخبار مترادفة، أو الله ربكم خبر إن وله الملك جملة مبتدأة واقعة فى قران قوله ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى الأصنام التى تعبدونها من دون الله يدعون قتيبة[2] ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ هى القشرة الرقيقة الملتفة على النواة.

•• ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ أى الأصنام ﴿لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهية ويتبرءون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم ويقولون ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[3] ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بخبايا الأمور، وتحقيقه ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به، يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به، والمعنى: أن هذا الذى أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأنى خبير بما أخبرت به.

•• ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ قال ذو النون: الخلق محتاجون إليه فى كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن الأشياء أجمع ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود بكل لسان ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء؛ ولهذا وصف نفسه بالغنى الذى هو مطعم الأغنياء، وذكر الحميد ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه، والجواد

(١) سورة «البقرة»، الآية (٧٤).
(٢) هو: قتيبة بن مهران، انظر ترجمته عند تفسير الآية (٥٨) من سورة «مريم».
(٣) سورة «يونس»، الآية (٢٨).

المنعم عليهم إذ ليس كل غنى نافعا بغناه إلا إذا كان الغنى جوادا منعما وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم. قال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى حجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغى للعبد أن يكون مفتقرا بالسر إليه ومنقطعا عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محصنة فالعبودية هى الذل والخضوع وعلامته أن لا يسأل من أحد. وقال الواسطى: من استغنى بالله لا يفتقر ومن تعزز بالله لا يذل. وقال الحسين[1]: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنيا بالله، وكلما ازداد افتقارا ازداد غنى. وقال يحيى: الفقر خير للعبد من الغنى؛المذلة فى الفقر والكبر فى الغنى،والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال، وقيل :صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله فى كل شىء ، والفقر إليه فى كل شىء ، والرجوع إليه من كل شىء وقال الشبلي: الفقر يجر البلاء وبلاؤه كله عز .

●● ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلكم إلى العدم فإن غناه بذاته لا بكم فى القدم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد.

●● ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإنشاء والإفناء ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع، وعن ـ ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئا.

●● ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى والوزر والوقر أخوان، ووزَر الشىء إذا حمله والوازرة صفة للنفس، والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولى بالولى والجار بالجار، وإنما قيل وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى؛ لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها وقوله. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2] وارد فى الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم، وذلك كله أوزارهم ما فيها شىء من وزر غيرهم ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى فى قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ بقوله ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾[3] ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أى: نفس مثقلة بالذنوب أحدا ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ثقلها أى: ذنوبها ليتحمل عنها بعض ذلك ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ أى: المدعو وهو مفهوم من قوله: وإن تدع ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ والفرق بين معنى قوله:«ولا تزر وازرة وزر أخرى، ومعنى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء أن الأول دال على عدل الله فى حكمه وأن لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها، والثانى فى بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى إن نفسا قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أى: إنما ينتفع بإنذارك هؤلاء ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل، أو المفعول أى: يخشون ربهم غائبين عن عذابه، أو يخشون عذابه غائبا عنهم، وقيل

---

(١) الحسين: هو أحد الزهاد الصالحين إلا أنه لم يتسير الحصول على ترجمة له.

(٢) سورة «العنكبوت»، الآية (١٣).

(٣) سورة «العنكبوت»، الآية (١٢).

بالغيب فـى السر حيث لا اطلاع للغـير عليه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ فى مواقيتها ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصى ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة؛ لأنهما من جملة التزكى ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع وهو وعد للمتزكى بالثواب.

●● ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للكافر والمؤمن أو للجاهل والعالم.

●● ﴿وَلا الظُّلُمَاتُ﴾ مثل للكفر ﴿وَلا النُّورُ﴾ للإيمان.

●● ﴿وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾ الحق والباطل أو الجنة والنار والحـرور الريح الحار كالسموم إلا أن السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار. عن الفراء.

●● ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ مثل للذيـن دخلوا فى الإسلام والذين لم يـدخلوا فيه وزيادة لا لتأكيد معنى الـنفى، والفرق بين هذه الواوات أن بعضها ضمت شفعـا إلى شفع وبعضها وترا إلى وتر ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ يعنى: أنه قد علم من يدخل فى الرسلام ممـن لا يدخل فيه فيـهدى من يشاء هدايته، وأما أنت فخفـى عليك أمرهم؛ فـلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين. شبه الكفار بالموتى حيث لا ينتفعون بمسموعهم.

●● ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أى: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر، فإن كـان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك.

●● ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين يعنى مـحقا، أو محقين أو صفة للمصدر أى إرسالا مصحوبا بالحق ﴿بَشِيرًا﴾ بالوعد ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالوعيد ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ وما من أمة قبل أمتك. والأمة: الجماعة الكثيرة، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾(١) ويقال لأهل كل عصـر أمة والمراد هنا أهل العصر، وقد كانت آثار النـذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد ـ عليهمـا السلام ـ فلم تخل تلك الأمم من نذير وحين اندرست آثار نذارة عيسى ـ عليه السلام ـ بعث محمد ـ عليه السلام ﴿إِلاَّ خَلا﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخوفهم وخامة الطغيان وسوء عاقبة الكفـران واكتفى بالنذير عن البشير فى آخر الآية بعد ما ذكرهما؛ لأن النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة.

●● ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال وقد مـضمرة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى التوراة والإنجيل والزبور، ولما كانت هذه الأشياء فى جنسـهم أسند المجىء بها إليهم إسنادا مطلقا، وإن كان بعـضها فى جميعهم وهى البينات وبعضها فى بعضهم، وهى الزبر والكتاب، وفيه مسلاة لرسول الله (ﷺ).

●● ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ عاقبت ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العـقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكارى عليهم وتعذيبى لهم.

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٢٣).

•• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر، أوهيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ طرق مختلفة اللون جمع جدة مدة ومدد ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ جمع غربيب وهو تأكيد للأسود، يقال: أسود غربيب وهو الذى أبعد فى السواد وأغرب فيه ومنه الغراب، وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد، كقولك أصفر فاقع إلا أنه أضمر المؤكد قبله والذى بعده تفسير للمضمر، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقى الإظهار والإضمار جميعا، ولابد من تقدير حذف المضاف فى قوله ومن الجبال جدد، أى ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول إلى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال ثمرات مختلفا ألوانها.

•• ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يعنى: ومنهم بعض مختلف ألوانه ﴿كَذَلِكَ﴾ أى كاختلاف الثمرات والجبال. ولما قال ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى: العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن ازداد علما به ازداد منه خوفا ومن كان علمه به أقل كان آمن وفى الحديث: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»(١) وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم، ولو عكس لكان المعنى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾(٢) وبينهما تغاير، ففى الأول بيان أن الخاشين هم العلماء، وفى الثانى بيان أن المخشى منه هو الله تعالى. وقرأ أبو حنيفة وابن عبدالعزيز وابن سيرين - رضى الله عنهم- إنما يخشى الله من عباده العلماء، والخشية فى هذه القراءة استعارة، والمعنى إنما يعظم الله من عباده العلماء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على تلاوة القرآن ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أى: مسرين النفل ومعلنين الفرض يعنى: لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن ﴿تِجَارَةً﴾ هى طلب الثواب بالطاعة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لن تكسد يعنى تجارة ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله.

•• ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلق بلن تبور أى: ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم، أو بتضعيف حسناتهم، أو

---

(١) الحديث عند البخارى بألفاظ مقاربة.

(٢) سورة «الأحزاب»، الآية (٣٩).

بتحقيق وعد لقائه. أو يرجون في موضع الحال أي راجين. واللام في ليوفيهم تتعلق بيتلون وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة إقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض، وخبر إنّ ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لفرطاتهم ﴿شَكُورٌ﴾ أي: غفور لهم شكور لأعمالهم أي: يعطي الجزيل على العمل القليل.

●● ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن. ومن للتبيين ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة؛ لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ فعلمك وأبصر أحوالك، ورآك أهلا لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

●● ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ أي: أوحينا إليك القرآن، ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأن الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسله، ثم رتبهم على مراتب فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو المرجأ لأمر الله ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئاً ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهذا التأويل يوافق التنزيل فإنه تعالى قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾[1] الآية وقال بعده: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾[2]. الاية وقال بعده: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾[3]. الآية والحديث، فقد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية قال رسول الله (ﷺ): **«سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»**[4]. وعنه - عليه السلام - : **«السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن أنه لا ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة»**[5]. رواه أبو الدرداء. والأثر فعن ابن عباس- رضى الله عنهما- السابق المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة، وقول السلف، فقد قال الربيع بن أنس[6] :الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد صاحب الصغائر، والسابق المجتنب لهما وقال الحسن البصري: الظالم من رجحت سيئاته،

---

(١) سورة «التوبة»، الآية (١٠٠).

(٢) سورة «التوبة»، الآية (١٠٢).

(٣) سورة «التوبة»، الآية (١٠٦).

(٤) الحديث في «كنز العمال»، برقم (٢/ ٢٩٢٥، ٤٥٦٢، ٤٥٦٣).

(٥) الحديث في «كنز العمال»، برقم (٢/ ٤٥٦٧).

(٦) هو التابعي؛ الصدوق؛ الربيع بن أنس، البكرى، ويقال: الحنفى، البصرى، ثم الخراساني، روى عن أنس بن مالك والحسن البصرى، وثقه البعض، وتوقف فيه البعض، وأجمعوا على أنه صدوق، توفى عام ١٣٩هـ أو ١٤٠هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ١٤٢).

والسابق من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وسئل أبو يوسف ـ رحمه الله ـ عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون، وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله: والذين كفروا لهم نار جهنم. وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده، فإنه قال فمنهم ومنهم ومنهم والكل راجع إلى قوله الذين اصطفينا من عبادنا وهم أهل الإيمان، وعليه الجمهور، وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وأن المقتصدين قليلا بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل، وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله وقيل إنما قدمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه، وقيل: إن أول الأحوال معصية، ثم توبة، ثم استقامة، وقال سهل: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل وقال أيضا: السابق الذى اشتغل بمعاده، والمقتصد الى اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم الذى اشتغل بمعاشه عن معاده، وقيل: الظالم الذى يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد الذى يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق، وقيل الظالم من أخذ الدنيا حلالا كانت أو حراما، والمقتصد من يجتهد أن لا يأخذها إلا من حلال، والسابق من أعرض عنها جملة، وقيل: الظالم طالب الدنيا، والمقتصد طالب العقبى والسابق طالب المولى ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره، أو بعلمه، أو بتوفيقه ﴿ذَلِكَ﴾ أى: إيراث الكتاب ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

●● ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر ثان لذلك، أو خبر مبتدأ محذوف، أو متبدأ، والخبر ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أى الفرق الثلاثة يُدخَلونها أبو عمرو ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة جمع سوار ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى: من ذهب مرصع باللؤلؤ ولؤلؤا بالنصب والهمزة نافع وحفص عطفا على محل من أساور أى يحلون أساور ولؤلؤا ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لما فيه من اللذة والزينة.

●● ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ خوف النار. أو خوف الموت. أو هموم الدنيا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل الطاعات وإن قلت.

●● ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ أى: الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها يقال: أقمت إقامة ومقاما ومقامة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من عطائه وإفضاله لا باستحقاقنا ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة ﴿وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب وفترة. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى[1] لغوب ـ بفتح اللام ـ وهو شيء يلغبْ منه أى، لا نتكلف عملا يلغبنا.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ جواب النفى ونصبه بإضمار أن أى

(١) هو التابعى القارئ؛ عبدالله بن حبيب بن ربيعة ـ بالتصغير ـ، أبو عبدالرحمن السلمى، الكوفى، لأبيه صحبة، روى عن جماعة من كبار الصحابة، هو علم فى القراءات، وهو فى الحديث ثقة.
مات بعد عام ٧٠هـ، وهو ابن ٩٠ عاماً.
تهذيب التهذيب (٣/ ١٢١، ١٢٢).

لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب نار جهنم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ يجزى كل كفور أبو عمرو.

●● ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون فهو يفتعلون من الصراخ، وهو الصياح بجهد ومشقة واستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث ﴿رَبَّنَا﴾ يقولون ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أى: أخرجنا من النار ردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر، ونطع بعد المعصية ،فيجاوبون بعد فدر عمر الدنيا ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ يجوز أن يكون ما نكرة موصوفة أى تعميرا يتذكر فيه من تذكر، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه، وإن قصر إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم، ثم قيل: هو ثمان عشرة سنة وقيل: أربعون وقيل: ستون سنة ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الرسول ـ عليه السلام- أو المشيب، وهو عطف على معنى، أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه إخبار، كأنه قيل قد عمرناكم وجاءكم النذير ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ناصر يعينهم.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما عنكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالتعليل؛ لأنه إذا علم ما فى الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب فى العالم، وذات الصدور مضمراتها وهى تأنيث ذو فى نحو قول أبى بكر- (رضى الله عنه)-: ذو بطن خارجةَ جاريةٌ أى ما فى بطنها من الحبل؛ لأن الحبل يصحب البطن، وكذا المضمرات تصحب الصدور، وذو موضوع لمعنى الصحبة.

●● ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾ يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف، والمعنى أنه جعلكم خلفاء فى أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله وخسار الآخرة، كما قال :﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا﴾ وهو أشد البغض ﴿وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾ هلاكا وخسرانا.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ آلهتكم التى أشركتموهم فى العبادة ﴿الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أرونى بدلْ من أرأيتم؛ لأن معنى أرأيتم أخبرونى، كأنه قيل: أخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزء من أجزاء الأرض استبدوا بخلقه دون الله ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم مع الله شركة فى خلق السموات ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. بينات على وابن عامر ونافع وأبو بكر ﴿بَلْ إِن يَعِدُ﴾ ما يعد ﴿الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم﴾

بدل من الظالمـون، وهم الرؤساء ﴿بَعْضًا﴾ أى: الأتباع ﴿إِلاَّ غُرُوراً﴾ هو قولهم: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[1].

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ يمنعـهما من أن تزولا؛ لأن الإمسـاك منع ﴿وَلَئِن زَالَتَا﴾ على سبيل الفرض ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفى والثانية للابتداء ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانـتا جديرتين بأن تهدا هداً لعظم كلـمة الشرك كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾[2] الآية.

●● ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصب عـلي المصدر أى : إقسامـا بليغا أو عـلى الحال أى جاهدين فى أيمانهم ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ بلغ قريشا قبل مبعث النبى (ﷺ) أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتـانا رسول لنـكونن أهدى من إحـدى الأمم، أى من الأمة التى يـقال فيهـا هى إحدى الأمم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامـة، كما يقال للداهية العظيمة هى إحدى الدواهى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ فلـما بعـث رسول الله (ﷺ) ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ أى: ما زادهم مجـيء الرسول (ﷺ) إلا تباعدا عن الحق وهو إسناد مجازى.

●● ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ﴾ مفـعول لـه وكذا ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ والمعـنى ومـازادهم إلا نـفورا للاستكبار ومكر الـسيء، أو حال يعنى مستكبرين وماكريـن برسول الله (ﷺ) وأصل قوله: ومكر السيء وأن مكروا السيء أى: المكر السيء، ثم ومكراً الـسـيء، ثم ومكر السيء، والدليل عليه قوله ﴿وَلا يَحِيقُ﴾ يحيط وينزل ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ ولقد حاق بـهم يوم بدر وفى المثـل من حفر لأخيه جبا وقع فـيه مكبا ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ وهو إنزال الـعذاب على الذيـن كذبوا برسلهم من الأمم قبلهـم ، المعنى: فهل ينظرون بعد تكذيبك إلا أن ينـزل بهم العذاب مثل الذى نزل بمن قبـلهم من مكذبى الـرسل جعل استقبالـهم لذلك انتظارا لـه منهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ بين أن سنته التى هى الانتقام من مكذبى الرسل سنة لا يبدلها فى ذاتها، ولا يحولها عن أوقاتها وأن ذلك مفعول لا محالة.

●● ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهد عليهم بما كانوا

---

(١) سورة «يونس»، الآية (١٨).

(٢) سورة «مريم»، الآية (٩٠).

يشاهدونـه فى مسايرهم إلى الـشام، واليمن والعراق مـن آثار الماضين وعلامات هلاكـهم ودمارهم ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ من أهل مـكة ﴿قُوَّةً﴾ اقتدارا فلم يتمـكنوا من الفرار ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ ليسبقه ويفوته ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أىّ شىء ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم ﴿قَدِيرًا﴾ قادرا عليهم.

●● ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ بما اقترفوا من المعاصى ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على ظهر الأرض؛ لأنه جرى ذكر الأرض فى قوله ليعـجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أى: لم تخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم، والله الموفق للصواب.

سورة يس مكية وهى ثلاث وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿يسٓ﴾ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - معناه: يا إنسان فى لغة طيئ، وعن ابن الحنفية: يا محمد، وفي الحديث: «إن الله سمانى فى القرآن بسبعة أسماء: محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبدالله» (١). وقيل: يا سيد ياسين بالإمالة علىّ وحمزة وخلف وحماد ويحيى.

●● ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ قسم ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذى الحكمة، أو لأنه دليل ناطق بالحكمة، أولأنه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلم به.

●● ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم وهو رد على الكفار حين قالوا: لست مرسلاً.

●● ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر أو صلة للمرسلين أى: الذين أرسلوا على صراط مستقيم أى: طريقة مستقيمة وهو الإسلام .

●● ﴿تَنزِيلَ﴾ بنصب اللام شامى وكوفى غير أبى بكر على اقرأ تنزيل ، أو على أنه مصدر أى نزل تنزيل ، وغيرهم بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى: هو تنزيل ، والمصدر بمعنى المفعول ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوى العناد ﴿الرَّحِيمِ﴾ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولى الرشاد.

●● واللام فى ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متصل بمعنى المرسلين أى: أرسلت لتنذر قوما ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ما نافية عند الجمهور أى: قوما غير منذر آباؤهم على الوصف بدليل قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾(٢) - ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ (٣) أو موصولة منصوبة على المفعول الثانى أى: العذاب الذى أنذره آباؤهم كقوله : ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾(٤) أو مصدرية أى: لتنذر قوما إنذار آبائهم أى: مثل إنذار آبائهم ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ إن جعلت ما نافية فهو متعلق بالنفى أى: لم ينذروا فهم غافلون، وإلا فهو متعلق بقوله: إنك لمن المرسلين لتنذر ، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل، أو فهو غافل.

●● ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعنى قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(٥). أى: تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر، ثم مَثَّلَ تصميمهم على الكفر، وأنه لاسبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين

---

(١) لم أعثر على أصله.
(٢) القصص (٤٦)، والسجدة (٣).
(٣) سورة «سبأ»، الآية (٤٤).
(٤) سورة «النبأ»، الآية (٤٠).
(٥) هود (١١٩)، السجدة (١٣).

فى أنهم لايلتفتون إلى الحق ولايعطفون أعناقهم نحوه ولايطأطئون رءوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لايبصرون ما قدامهم، ولا ماخلفهم فى أن لا تَأَمُّلَ لهم ولاتبصر، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ﴾ معناه فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ مرفوعة رءوسهم، يقال : قَمَحَ البعير فهو قامح إذا روى فرفع رأسه وهذا؛ لأن طوق الغل الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجا من الحلقة إلى الذقن فلايخليه يطأطىء رأسه فلا يزال مقمحا.

●● ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ بفتح السين حمزة وعلىّ وحفص، وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله كالجبل،ونحوه فبالضم ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ فأغشينا أبصارهم أى غطيناها وجعلنا عليها غشاوة ﴿فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ الحق والرشاد ، وقيل : نزلت فى بنى مخزوم وذلك أن أباجهل حلف لئن رأى محمدا يصلى ليرضخن رأسه، فأتاه وهويصلى ومعه حجر ليدمغه به فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكّوه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم فقال مخزومى آخر: أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله بصره [1].

●● ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أى سواء عليهم الإنذار وتركه والمعنى من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار، وروى أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدرى[2]، فقال: كأنى لم أقرأها أشهدك أنى تائب عن قولى فى القدر، فقال عمر: اللهم إن صدق فتب عليه وإن كذب فسلط عليه من لايرحمه؛ فأخذه هشام بن عبدالملك [3] من عنده فقطع يديه ورجليه وصلبه على باب دمشق ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أى: إنما ينتفع بإنذارك من اتبع القرآن ﴿وَخَشِىَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ وخاف عقاب الله ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ وهى العفو عن ذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أى الجنة.

●● ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَىٰ﴾ نبعثهم بعد مماتهم، أو نخرجهم من الشرك إلى الإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ماهلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو حبيس حبسوه، أو رباط، أو مسجد صنعوه، أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلمة، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يستن بها ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(٢) هو: غيلان بن مسلم الدمشقى، أبو مروان، يعرف بـ «غيلان القدرى»، وهو من رؤوس القدرية، الذين يقولون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُفٌ، نَاظَرَه الأوزاعى فأفتى بقتله؛ فصلب على باب كيسان بدمشق. الأعلام (٥/ ١٢٤).

(٣) هو الخليفة الأموى الشهير؛ هشام بن عبدالملك بن مروان، امتاز بحسن السياسة، ولم يكن له قدر كبير فى العلم والأدب، ولد عام ٧١هـ بدمشق، وبويع عام ١٠٥هـ، وتوفى عام ١٢٥هـ. الأعلام (٨/ ٨٦).

﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾(١) قدَّم من أعماله وأخَّر من آثاره، وقيل: هى خطاهم إلى الجمعة، أو إلى الجماعة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ عددناه وبيناه ﴿فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعنى: اللوح المحفوظ؛ لأنه أصل الكتب ومقتداها.

●● ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ومثل لهم من قولهم عندى من هذا الضرب كذا أى من هذا المثال وهذه الأشياء على ضرب واحد أى على مثال واحد، والمعنى واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية أى أنطاكية أى اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية والمثل الثانى بيان للأول، وانتصاب﴿إِذْ﴾ بأنه بدل من أصحاب القرية ﴿جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ رسل عيسى - عليه السلام - إلى أهلها بعثهم دعاة إلى الحق،وكانوا عبدة أوثان.

●● ﴿إِذْ﴾ بدل من إذ الأولى ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ﴾ أى أُرسل عيسى بأمرنا ﴿اثْنَيْنِ﴾صادقا وصدوقا، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار فسأل عن حالهما فقالا: نحن رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال: أمعكما آية فقالا: نشفى المريض ونبرىء الأكمة والأبرص، وكان له ابن مريض مدة سنتين فمسحاه فقام، فآمن حبيب ، وفشا الخبر فشفى على أيديهما خلق كثير فدعاهما الملك، وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا قالا: نعم - من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس وضربوهما، وقيل : حبسا، ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكراوعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا به ورفعواخبره إلى الملك، فأنس به فقال له ذات يوم: بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت قولهما قال لا فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما ؟ قالا: الله الذى خلق كل شىء ورزق كل حى وليس له شريك فقال: صفاه وأوجزا قالا يفعل مايشاء ويحكم ما يريد قال: وما آيتكما قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام: أكمه فدعوا الله فأبصر الغلام فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال الملك: ليس لى عنك سر إن إلهنا لايسمع ولايبصر ولايضر ولا ينفع، ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال: إنى أدخلت فى سبعة أودية من النار لمامت عليه من الشرك وأنا أحذركم ماأنتم فيه فآمنوا. وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك ومن هم؟ قال: شمعون وهذان فتعجب الملك، فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه؛ فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل فهلكوا ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذب أصحاب القرية الرسولين﴿فَعَزَّزْنَا﴾ فقويناهما، فعزَزنا أبو بكر من عزّه يعزّه إذا غلبه أى فغلبنا وقهرنا ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون وترك ذكر المفعول به؛ لأن المراد ذكر المعزز به وهو شمعون وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وذل الباطل، وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مرفوض ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم

(١) سورة «القيامة»، الآية (١٣).

مُرْسَلُونَ﴾ أى: قال الثلاثة لأهل القرية ﴿قَالُوا﴾ أى: أصحاب القرية ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ رفع بشر هنا ونصب فى قوله :﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ (١) لانتقاض النـفى بإلا فلم يبق لما شبـه بليس ، وهو الموجب لعمله ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ أى: وحيا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ ماأنتم إلا كذبة.

●● ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أكد الثانى باللام دون الأول؛ لأن الأول ابتداء إخبار، والثانى جـواب عن إنكار فيحـتاج إلى زيادة تأكيد، وربـنا يعلم جار مـجرى القسم فى الـتوكيد، وكذلك قولهم شهد الله وعلم الله.

●● ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: التبليغ الظاهر المكشـوف بالآيات الشاهدة بصحته ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بـكم، وذلك أنهم كرهوا دينـهم ونفرت منه نفوسـهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه وقـبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنـه وكرهوه فإن أصابهم بلاء أو نعمة ، قالوا بشؤم هذا وبـركة ذلك، وقيل : حبس عنهم المـطر فقالوا ذلك ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ لنقتلـنكم أو لنطردنكم أو لنشـتمنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وليصيبنكم عذاب النار وهو أشد عذاب.

●● ﴿قَالُوا طَائِرُكُم﴾ أى: سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ وهو الكفر ﴿أَئِن﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط كوفـى وشامى ﴿ذُكِّرْتُم﴾ وعظـتم ودعيتـم إلى الإسلام وجـواب الشرط مـضمر وتقـديره تطيرتم، آين بهمزة ممـدودة بعدها ياء مكسورة أبو عمـرو، وأين بهمزة مقصورة بعدهـا ياء مكسورة مكى ، ونافع، ذكرتم بالتخفيف يزيد ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحد فى العصيان، فمن ثم أتاكم الشؤم من قبلكم لا مـن قبل رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم مسرفون فـى ضلالكم وغيكم حيث تتشاءمون ممن يجب التبرك به من رسل الله .

●● ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب النجار وكان فى غار من الجبل يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه وقال: أتسألون على ماجئتم به أجرا؟ قالوا لا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ .

●● ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أى الرسل، فـقالوا: أو أنت عـلى دين هؤلاء؟ فـقال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقـنى ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه مرجعكم، ومـالى حمزة ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ بهمزتـين كوفى ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعنـى الأصنام ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ شرط جوابه ﴿لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾ من مكروه ، ولا يـنقذونى فاسمعونى فى الحالين يعقوب.

---

(١) سورة «يوسف»، الآية (٣١).

●● ﴿إِنِّي إِذًا﴾ أى: إذا اتخذت ﴿لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر بيِّنٌ، ولما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم.

●● ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أى: اسمعوا إيمانى لتشهدوا لى به ولما قتل.

●● ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وقبره فى سوق أنطاكية ولم يقل قيل له؛ لأن الكلام سيق لبيان المقول لا لبيان المقول له مع كونه معلوما، وفيه دلالة أن الجنة مخلوقة. وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه وهو فى الجنة ولايموت إلا بفناء السموات والأرض، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

●● ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أى: بمغفرة ربى لى أو بالذى غفر لى ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بالجنة .

●● ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ ما نافيه ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ قوم حبيب ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أى: من بعد قتله، أو رفعه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لتعذيبهم﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وماكان يصح فى حكمتنا أن نُنْزِلَ فى إهلاك قوم حبيب جندا من السماء؛ وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك.

●● ﴿إِن كَانَتْ﴾ الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح جبريل - عليه السلام - صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون كما تخمد النار، والمعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ولم ينزل لإهلاكهم جندا من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق.

●● ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الحسرة شدة الندم، وهذا نداء للحسرة عليهم، كأنما قيل لها تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها، وهى حال استهزائهم بالرسل، والمعنى أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

●● ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ كم نصب بأهلكنا ويروا معلق عن العمل فى كم؛ لأن كم لايعمل فيها عامل قبلها كانت للاستفهام، أو للخبر، لأن أصلها الاستفهام إلا أن معناه نافذ فى الجملة وقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من كم أهلكنا على المعنى لاعلى اللفظ تقديره ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم.

●●﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ لما بالتشديد شامى وعاصم وحمزة بمعنى إلا وإن نافية، وغيرهم بالتخفيف على أن ما صلة للتأكيد وإن مخففة من الثقيلة، وهى متلقاة باللام لامحالة ، والتنوين فى كل عوض من المضاف إليه والمعنى إن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب أو معذبون، وإنما أخبر عن كل بجميع؛ لأن كلا يفيد معنى الإحاطة والجميع فعيل بمعنى مفعول ومعناه الاجتماع يعنى أن المحشر يجمعهم.

●● ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ مبتدأ وخبر أى: وعلامة تدل على أن الله يبعث الموتى إحياء الأرض الميتة، ويجوز أن يرتفع آية بالابتداء، ولهم صفتها، وخبرها ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ اليابسة وبالتشديد مدنى ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر وهو استئناف بيان لكون الأرض الميتة آية، وكذلك نسلخ، ويجوز أن توصف الأرض والليل بالفعل؛ لأنه أريد بهما جنسان مطلقان لا أرض وليل بأعيانهما فَعُوملا معاملة النكرات فى وصفهما بالأفعال ونحوه.

* وقد أمر على اللئيم يسبنى *

●● ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ أريد به الجنس ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم الظرف ليدل على أن الحب هو الشىء الذى يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر، وإذا فقد حضر الهلاك ونزل البلاء.

●● ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ فى الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ من زائدة عند الأخفش وعند غيره المفعول محذوف تقديره ما ينتفعون به.

●● ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ والضمير لله تعالى أى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر. من ثمره حمزة وعلىّ ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: ومما عملته أيديهم من الغرس والسقى والتلقيح وغير ذلك من الأعمال إلى أن يبلغ الثمر منتهاه، يعنى أن الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه وفيه آثار من كد بنى آدم، وأصله من ثمرنا كما قال: وجعلنا وفجرنا فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريق الالتفات، ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها فى حكم النخيل مما علق به من أكل ثمره ويجوز أن يراد من ثمر المذكور وهو الجنات كما قال رؤبة.

فيها خطوط من بياض وبلق (١) كأنه فى الجلد توليع البهق(٢).

فقيل له فقال: أردت كأن ذاك، وما عملت كوفى غير حفص وهى فى مصاحف أهل الكوفة كذلك وفى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام مع الضمير، وقيل: ما نافيه على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدى الناس ولايقدرون عليه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استبطاء وحث على شكر النعمة.

●● ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النخيل والشجر والزرع والثمر ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ولاتوصلوا إلى معرفتها؛ ففى الأودية والبحار أشياء لا يعلمها الناس.

●● ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نخرج منه النهار إخراجاً لايبقى معه شىء من ضوء النهار؛ أو ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض فيعرى نفس الزمان كشخص زنجى أسود لأن أصل

---

(١) البَلَق: من بَلِقَ الفرس ونحوه: كان فيه سواد وبياض (المعجم الوسيط ١/ ٧٠).

(٢) البَهَق: داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بُقع بيض.
(المعجم الوسيط ١/ ٧٤).

ما بين السماء والأرض من الهواء الظلمة فاكتسى بعضه ضوء الشمس كبيت مظلم أُسْرِجَ فيه فإذا غاب السراج أظلم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلون فى الظلام .

●● ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى﴾ وآية لهم الشمس تجرى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحد لها موقت مقدر تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لحد لها من مسيرها كل يوم فى مرائى عيوننا وهو المغرب، أو لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا ﴿ذَلِكَ﴾ الجرى على ذلك التقدير والحساب الدقيق ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل معلوم ﴿وَالْقَمَرَ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ وبالرفع مكى ونافع وأبو عمرو وسهل على الابتداء، والخبر قدرناه، أو على وآية لهم القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لايتخطاه ولايتقاصر عنه على تقدير مستو يسير فيها من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين، ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر، ولا بد فى : قدرناه منازل من تقدير مضاف؛ لأنه لامعنى لتقدير نفس القمر منازل أى قدرنا نوره فيزيد وينقص ، أو قدرنا مسيره منازل فيكون ظرفاً فإذا كان فى آخر منازلة دق واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ هو عود الشمراخ إذا يبس واعوج، ووزنه فعلون من الانعراج، وهو الانعطاف ﴿الْقَدِيمِ﴾ العتيق المحول وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

●● ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا﴾ أى: لايتسهل لها ولايصح ولايستقيم ﴿أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فتجتمع معه فى وقت واحد وتداخله فى سلطانه فتطمس نوره؛ لأن لكل واحد من النيرين سلطاناً على حياله فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ولايسبق الليل النهار أى آية الليل النهار، وهما النيران ولايزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم القيامة فيجمع الله بين الشمس والقمر وتطلع الشمس من مغربها ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه أى وكلهم، والضمير للشموس والأقمار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون.

●●﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ذرياتهم مدنى وشامى ﴿فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى: المملوء والمراد بالذرية الأولاد ومن يهمهم حمله، وكانوا يبعثونهم إلى التجارات فى بر أو بحر، أو الآباء لأنها من الأضداد والفلك على هذا سفينة نوح - عليه السلام - وقيل : معنى حمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفى أصلابهم هم وذرياتهم. وإنما ذكر ذرياتهم دونهم؛ لأنه أبلغ فى الامتنان عليهم.

●● ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل وهى سفائن البر.

●● ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ فى البحر ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث، أو فلا إغاثة ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ لاينجون.

●● ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: ولاينقذون إلا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل، فهما منصوبان على المفعول له.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أى: ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر مما أنتم تعملون من بعد، أو من مثل الوقائع التى ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة، أو فتنة الدنيا وعقوبة الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا على رجاء رحمة الله وجواب إذا مضمر أى أعرضوا، وجاز حذفه لأن قوله .

●● ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يدل عليه ومن الأولى لتأكيد النفى والثانية: للتبعيض أى: ودأبهم الإعراض عند كل آية وموعظة.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لمشركى مكة ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى: تصدقوا على الفقراء.

●● ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين، قالوا: لا والله . أيفقره الله ونطعمه نحن؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قول الله لهم، أو حكاية قول المؤمنين لهم، أوهو من جملة جوابهم للمؤمنين.

●● ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أى: وعدالبعث والقيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تقولون خطاب للنبى وأصحابه .

●● ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هى النفخة الأولى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾حمزة بسكون الخاء وتخفيف الصاد من خصمه إذا غلبه فى الخصومة،وشدد الباقون الصاد أى يخصّمون بإدغام التاء فى الصاد لكنه مع فتح الخاء مكى بنقل حركة التاء المدغمة إليها، وبسكون الخاء مدنى وبكسر الياء والخاء يحيى فأتبع الياء الخاء فى الكسر وبفتح الياء وكسر الخاء غيرهم، والمعنى تأخذهم وبعضهم يخصم بعضا فى معاملاتهم.

●● ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ فلا يستطيعون أن يوصوا فى شىء من أمورهم توصية ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولايقدرون على الرجوع إلى منازلهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

●● ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هى النفخة الثانية والصور القرن، أو جمع صورة ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أى القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يعدون بكسر السين وضمها.

●● ﴿ قَالُوا﴾ أى الكفار ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا﴾ من أنشرنا ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ أى: مضجعنا، وقف لازم عن حفص، وعن مجاهد للكفار مضجعة يجدون فيها طعم النوم فإذا صيح بأهل القبور قالوا: من

بعثنا ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ كلام الملائكة، أو المتقين، أو الكافرين يتذكرون ما سمعوه من الرسل فيجيبون به أنفسهم، أو بعضهم بعضا، وما مصدرية ومعناه هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، أو موصولة وتقديره هذا الذى وعده الرحمن والذى صدقه المرسلون أى: والذى صدق فيه المرسلون.

•• ﴿إِن كَانَتْ﴾ النفخة الأخيرة ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب ثم ذكر ما يقال لهم فى ذلك اليوم.

•• ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ﴾ بضمتين كوفى وشامى، وبضمة وسكون مكى ونافع وأبو عمرو، والمعنى فى شغل فى أى شغل وفى شغل لايوصف، وهو افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار، أو ضرب الأوتار، أو ضيافة الجبار ﴿فَاكِهُونَ﴾ خبر ثان فكهون يزيد، والفاكه والفكه: المتنعم المتلذذ ومنه الفاكهة، لأنها مما يتلذذ به وكذا الفكاهة.

•• ﴿هُمْ﴾ مبتدأ ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ عطف عليه ﴿فِي ظِلالٍ﴾ حال جمع ظل وهو الموضع الذى لاتقع على الشمس كذئب ذئاب أو جمع ظلة كبرمة وبرام[1] دليله قراءة حمزة وعلى، ظلل جمع ظلة وهى ما سترك عن الشمس ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ جمع الأريكة وهى السرير فى الحجلة [2]، أو الفراش فيها ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبر، أو فى ظلال خبروعلى الأرائك مستأنف.

•• ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يفتعلون من الدعاء أى كل ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم أو يتمنون من قولهم ادع على ما شئت أى تمنه علىَّ، عن الفراء هو من الدعوى ولايدعون مالا يستحقون.

•• ﴿سَلامٌ﴾ بدل مما يدعون كأنه قال لهم سلام يقال لهم ﴿قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة، أو بغير واسطة تعظيما لهم وذلك متمناهم ولهم ذلك لايمنعونه. قال ابن عباس: والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين.

•• ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لايرى ولايرى أبدا ويقول لهم يوم القيامة.

•• ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ العهد الوصية وعهد

---

(١) البرمة: اسم لإناء الطعام؛ كالقدر.

(٢) الحجلة: موضع يزين بالثياب للعروس.
القاموس (٣/ ٣٥٥).

إليه إذاوصاه وعهد الله إليهم ما ركـزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم مـن دلائل السمع وعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه.

●● ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدونى وأطيعونى ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم مـن معصية الشيطان وطاعة الرحمن ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: صراط بليغ فى استقامته ولا صراط أقوم منه.

●● ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ بكسر الجيم والباء والتشديد مدنى وعاصم وسهل جبلا بضم الجيم والباء، والتشديد يعقـوب جبلا مخففا شامى وأبو عمرو، وجبلا بضم الجـيم والباء وتخفيف اللام غيرهم وهذه لغات فى معنى الخلق ﴿كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تقريع على تركهم الانتفاع بالعقل.

●●﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها .

●● ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ادخلوا بكفركم وإنكاركم لها.

●● ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: نمنعهـم من الكلام ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يروى أنهم يجحـدون ويخاصمون فتشهد علـيهم جيرانهم وأهاليهـم وعشائرهم فيحلفـون ما كانوا مشركين فحـينئذ يختم على أفواهـهم وتكلم أيديهم وأرجلـهم، وفى الحديث: يقول العبـد يوم القيامة: إنى لاأجيـز على إلاشاهدا من نفسـى، فيختم علىٰ فيـه ويقال لأركانه: أنطقـى؛ فتنطق بـأعماله ثـم يخلى بينه وبين الكـلام فيقول: بعـداً لكُنَّ وسحـقاً فعنكـن كنت أناضل[1].

●●﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم والطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ على حذف الجاروإيـصال الفعل والأصل فاستبـقوا إلى الصراط ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يبصرون حينئذ وقد طمسنا أعينهم.

●● ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قردة، أو خنازيـر، أو حجارة ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ على مكاناتهم أبو بكر وحماد والمكـانة والمكان واحد كالمقاومة والمقام ، أى: لـمسخناهم فى منازلهم حـيث يجترحون المآثم﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فلم يـقدروا على ذهاب ولامـجىء، أو مضيا أمـامهم لاِ يرجعون خلفهم.

●●﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ﴾ عاصم وحمزة، والتنـكيس: جعل الشىء أعلاه أسفله البـاقون ننكسه ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ أى: نقلبه فيه بمعنى من أطلنا عمره نكسـنا خلقه فصار بدل القوة ضعفا وبدل الشباب هرما وذلك أنا خلقناه عـلى ضعف فى جسده وخلو من عقل وعلم، ثم جعلـناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ماله وما عليه، فإذا انتهى نكسناه فى الخلق فجعلناه يتناقص حتى

(١) الحديث عند مسلم والنسائى من حديث أنس.

يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبى فى ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كماينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله، قال عزوجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(١) ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويبعثهم بعد الموت، وبالتاء مدنى ويعقوب وسهل وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ شاعر فنزل.

•• ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أى: وما علمنا النبى - عليه السلام - قول الشعراء، أو وما علمناه بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر فهو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزون وأين التقفية، فلا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققته ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ وما يصح له ولايليق بحاله ولايتطلب لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل ، كما جعلناه أميا لايهتدى إلى الخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله:

أنا النبى لاكذب　　　　أنا ابن عبدالمطلب (٢)

وقوله:

هل أنت إلا أصبع دميت　　　　وفى سبيل الله مالقيت (٣)

فما هوإلا من جنس كلامه الذى كان يرمى به على السليقة من غير صنعة فيه ولاتكلف إلا أنه اتفق من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه أن جاء موزوناً كما يتفق فى خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة ولايسميها أحد شعراً، لأن صاحبه لم يقصد الوزن ولابد منه على أنه - عليه السلام -- قال لقيت بالسكون، وفتح الباء فى كذب، وخفض الباء فى المطلب والمنفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى: المعلم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ماهو إلا ذكر من الله يوعظ به الإنس والجن، وماهو إلا قرآن كتاب سماوى يقرأ فى المحاريب ويتلى فى المتعبدات وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذى هو من همزات الشياطين.

•• ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآن أو الرسول لتنذر مدنى وشامى وسهل ويعقوب ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلا متأملا؛ لأن الغافل كالميت، أو حيا بالقلب ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين لايتأملون وهم فى حكم الأموات.

••﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أى: مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على

---

(١) سورة «الحج»، الآية (٥).

(٢) الحديث متفق عليه من حديث البراء بن عازب.

(٣) الحديث متفق عليه من حديث جندب بن سفيان.

توليه غيرنا ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أى: خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع بها، أو فهم لها ضابطون قاهرون.

●● ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيرناها منقادة لهم وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله تعالى وتسخيره لها؛ ولهذا ألزم الله سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾(١) ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وهوما يركب﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أى: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها.

●● ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود والأوبار وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن وهو جمع مشرب وهو موضع الشرب أو الشراب﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ الله على أنعام الأنعام.

●● ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لعل أصنامهم تنصرهم إذا حزبهم أمر.

●● ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أى: آلهتهم ﴿نَصْرَهُمْ﴾ نصر عابديهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ﴾ أى: الكفار للأصنام ﴿جُندٌ﴾ أعوان وشيعة ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ يخدمونهم ويذبون عنهم، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم، والأمر خلاف ما توهموا حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقود النار.

●● ﴿فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وبضم الياء وكسر الزاى نافع من حزنه وأحزنه يعنى: فلا يهمك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وإنا مجازوهم عليه فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر فى نفسه صورة حاله وحالهم فى الآخرة حتى ينقشع عنه الهم ولايرهقه الحزن، ومن زعم أن من قرأ أنا نعلم بالفتح فسدت صلاته، وإن اعتقد معناه كفر فقد أخطأ؛ لأنه يمكن حمله على حذف لام التعليل وهو كثير فى القرآن والشعر وفى كل كلام وعليه تلبية رسول الله (ﷺ) أن الحمد والنعمة لك، كسرأبو حنيفة وفتح الشافعى - رحمه الله عليهما - وكلاهما تعليل، فإن قلت: إن كان المفتوح بدلا من قولهم كأنه قيل: فلايحزنك أنا نعلم ما يسرون ومايعلنون ففساده ظاهر قلت : هذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول فقد تبين أن تعلق الحزن بكون الله عالما وعدم تعلقه لايدوران على كسر إن وفتحها، وإنما يدوران على تقديرك فتفصل إن فتحت بأن تقدر معنى التعليل، ولاتقدر معنى البدل كماأنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولاتقدر معنى المفعولية، ثم إن قدرته كاسراً أو فاتحا على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل فما فيه إلا نهى رسول الله (ﷺ) عن الحزن على علمه تعالى بسرهم وعلانيتهم، والنهى عن حزنه ليس إثباتا لحزنه بذلك كما فى قوله :﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾(٢) ﴿وَلا

(١) سورة «الزخرف»، الآية (١٣).
(٢) سورة «القصص»، الآية (٨٦).

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] ﴿وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[2] ونزل فى أبى بن خلف حين أخذ عظما باليا وجعل يفته بيده ويقول : يا محمد أترى الله يحيى هذا بعدما رَمَّ، فقال رسول الله (ﷺ): «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم »[3] .

●●﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مذرة [4] خارجة من الإحليل الذى هو قناة النجاسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بين الخصومة أى: فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصد لمخاصمةربه وينكرقدرته على إحياء الميت بعد مارمت عظامه، ثم يكون خصامه فى ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات وهو ينكر إنشاء من موات وهو غاية المكابرة.

●● ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ بفته العظم ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ من المنى فهو أغرب من إحياء العظم، المصدر مضاف إلى المفعول أى: خلقنا إياه ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ هو اسم لمابلى من العظام غير صفة كالرمة والرفات؛ ولهذا لم يؤنث، وقد وقع خبراً لمؤنث،ومن يثبت الحياة فى العظام ويقول إن عظام الميتة نجسة؛ لأن الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها يتشبث بهذه الآية، وهى عندنا طاهرة وكذا الشعر والعصب لأن الحياة لاتحلها فلا يؤثر فيها الموت والمراد بإحياء العظام فى الآية ردها إلى ما كانت عليه غضة رطبة فى بدن حى حساس.

●● ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ خلقها ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى ابتداء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ لاتخفى عليه أجزاؤه وإن تفرقت فى البر والبحر فيجمعه ويعيده كما كان .

●● ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقدحون ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهى الزناد التى تورى بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار وفى أمثالهم فى كل شجر نار واستمجه المرخ والعفار؛ لأن المرخ: شجر سريع الورى، والعفار: شجر تقدح منه النار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهى أنثى - فتنقدح النار بإذن الله، وعن ابن عباس -رضى الله عنهما - ليس من شجر إلا وفيها النار إلا العناب لمصلحة الدق للثياب، فمن قدر على جمع الماء النار فى الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة فى البشر، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل فى العقل من الجمع معا بلا ترتيب، والأخضر على اللفظ، وقرىء الخضراء على المعنى، ثم بين أن من قدر على خلق السموات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسى أقدر بقوله .

(١) الأنعام (١٤)، ويونس (١٠٥)، والقصص (٨٧).

(٢) سورة «القصص»، الآية (٨٨).

(٣) لم أجد الحديث فى كتب الحديث، ولكن فى كتب السير، على خلاف فى الفاعل؛ هل هو أبى، أو أبو جهل، أو العاص بن وائل.

(٤) مذرة: مهينة.

●● ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ فى الصغر بالإضافة إلى السموات والأرض، أو أن يعيدهم لأن المعاد مثل للمبتدأ ، أو ليس به ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى قل بلى هو قادر على ذلك ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ﴾ الكثير المخلوقات ﴿ الْعَلِيمُ﴾ الكثير المعلومات.

●● ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شأنه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن﴾ أن يكونه ﴿فَيَكُونُ﴾ فيحدث أى فهو كائن موجود لامحالة فالحاصل أن المكونات بتخليقه وتكوينه ولكن عبر من إيجاده بقوله كن من غيرأن كان منه كاف ونون، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد كأنه يقول كما لايثقل قول كن عليكم فكذا لايثقل على الله ابتداء الخلق وإعادتهم، فيكون شامى وعلى عطف على يقول، وأما الرفع فلإنها جملة من مبتدأ وخبر؛ لأن تقديرها فهو يكون معطوفة على مثلها وهى أمره أن يقول له كن.

●● ﴿فَسُبْحَانَ﴾ تنزيه مما وصفه به المشركون وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا ﴿الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: ملك كل شيء وزيادة الواو والتاء للمبالغة يعنى هو مالك كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعادون بعد الموت بلا فوت، ترجعون يعقوب. قال - عليه السلام - :«إن لكل شيء قلبا وإن قلب القرآن يس، من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة»، وقال : عليه السلام : «من قرأ يس أمام حاجته قضيت له» .وقال: عليه السلام - «من قرأها إن كان جائعا أشبعه الله، وإن كان ظمآن أرواه الله، وإن كان عريانا ألبسه الله وإن كان خائفا أمنه الله، وإن كان مستوحشا آنسه الله وإن كان فقيرا أغناه الله، وإن كان فى السجن أخرجه الله، وإن كان أسيراً خلصه الله، وإن كان ضالا هداه الله، وإن كان مديونا قضى الله دينه من خزائنه». وتدعى الدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة .والله أعلم.

(سورة الصافات مكية، وهي مائة واثنتان وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة، أو بنفوسهم الصافات أقدامها فى الصلاة، فالزاجرات السحاب سوقاً، أو عن المعاصى بالإلهام، فالتاليات كلام الله من الكتب المنزلة وغيرها وهو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد، أوبنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله والدارسات شرائعه، أو بنفوس الغزاة فى سبيل الله التى تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد وتتلو الذكر مع ذلك، وصفا مصدر مؤكد، وكذلك زجرا والفاء تدل على ترتيب الصفات فى التفاصيل فتفيد الفضل للصف،ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو على العكس، وجواب القسم.

●● ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قيل هو جواب قولهم أجعل الآلهة إلها واحدا.

●● ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف أى: هو رب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أى: مطالع الشمس وهى ثلثمائة وستون مشرقاً، وكذلك المغارب تشرق الشمس كل يوم فى مشرق منها وتغرب فى مغرب منها ولاتطلع ولاتغرب فى واحد يومين، وأما ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] فإنه أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما، وأما ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [2] فإنه أراد به الجهة فالمشرق جهه والمغرب جهة.

●● ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القربى منكم تأنيث الأدنى ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ حفص وحمزة على البدل من زينة، والمعنى إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب،بزينة الكواكب أبو بكر على البدل من محل بزينة، أو على إضمار أعنى، أو على إعمال المصدر منونا فى المفعول، بزينة الكواكب غيرهم بإضافة المصدر إلى الفاعل أى: بأن زانتها الكواكب وأصله بزينة الكواكب، أو على إضافته إلى المفعول أى: بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها إنما زينة السماء لحسنها فى أنفسها وأصله بزينة الكواكب لقراءة أبى بكر.

●● ﴿وَحِفْظًا﴾ محمول على المعنى، لأن المعنى إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من الشياطين كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾[3] أو الفعل المعلل مقدر، كأنه قيل: وحفظا من كل شيطان قد زيناها بالكواكب ، أومعناه حفظناها حفظا ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ خارج من الطاعة والضمير فى.

---

(١) سورة «الرحمن»، الآية (١٧).

(٢) الشعراء (٢٨)، والنمل (٩).

(٣) سورة «الملك»، الآية (٥).

●● ﴿لا يَسَّمَّعُون﴾ لكل شيطان؛ لأنه فى معنى الشياطين، يسمعون كوفى غيرأبى بكر وأصله يتسمعون، والتسمع: تطلب السماع يقال تسمع فسمع، أو فلم يسمع وينبغى أن يكون كلاما منقطعا مبتدأ اقتصاصا ماعليه حال المسترقة للسمع، وأنهم لايقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو يتسمعوا، وقيل: أصله لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت فى جئتك أن تكرمنى فبقى أن لايسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها كما فى قوله (١).

* ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى*

وفيه تعسف يجب صون القرآن عن مثله فإن كل واحد من الحذفين غير مردود على انفراده ولكن اجتماعهما منكر، والفرق بين سمعت فلانا يتحدث وسمعت إليه يتحدث وسمعت حديثه وإلى حديثه أن المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ﴿إِلَى الْمَلأِ الأَعْلَى﴾ أى: الملائكة؛ لأنهم يسكنون السموات، والإنس والجن هم الملأ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يرمون بالشهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جميع جوانب السماء من أى جهة صعدوا للاستراق ﴿دُحُوراً﴾ مفعول له أى ويقذفون للدحور وهو الطرد، أومدحورين على الحال، أو لأن القذف والطرد متقاربان فى المعنى فكأنه قيل يدحرون، أو قذفا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ دائم من الوصوب أى: أنهم فى الدنيا مرجومون بالشهب وقد أعد لهم فى الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع ومن فى.

●● ﴿إِلاَّ مَنْ﴾ فى محل الرفع بدل من الواو لايسمعون أى: لايسمع الشياطين إلا الشيطان الذى ﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أى: سلب السلبة يعنى أخذ شيئا من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ لحقه﴿شِهَابٌ﴾ أى نجم رجم ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضىء.

●● ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ فاستخبر كفار مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أى: أقوى خلقا من قولهم شديد الخلق وفى خلقه شدة، أو أصعب تخلقا وأشقه على معنى الرد لإنكارهم البعث وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ يريد ما ذكر من خلائقه من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما وجىء بمن تغليبا للعقلاء على غيرهم، ويدل عليه قراءة من قرأ أم من عددنا بالتشديد والتخفيف﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ لاصق، أو لازم، وقرىء به وهذا شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة، أو احتجاج عليهم بأن الطين لازب الذى خلقوا منه تراب فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾(٢) وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث.

●● ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم منك ومن تعجبك و عجبت من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث، بل عجبتُ حمزة وعلى أى استعظمت والعجب

---

(١) هو الشاعر الجاهلى العملاق، طرفة بن العبد، صاحب المعلقة، وهذا بيت منها، وتمامه:

وأن أشهد اللذات هل أنت مخلد

(٢) الرعد (٥) ، والنمل ((٦٧)

روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشىء فجرد لمعنى الاستعظام فى حقه تعالى؛ لأنه لايجوز عليه الروعة، أو معناه قل يا محمد بل عجبت.

●● ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ﴾ ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشىء لايتعظون به.

●● ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة كانشقاق القمر ونحوه﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يستدعى بعضهم بعضا أن يسخر منها، أو يبالغون فى السخرية.

●●﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا﴾ ما هذا﴿إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر.

●● ﴿أَئِذَا﴾ استفهام إنكار﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أى: أنبعث إذا كنا ترابا وعظاما

●● ﴿أَوَ آبَاؤُنَا﴾ معطوف على محل أن واسمها، أو على الضمير فى مبعوثون، والمعنى: أيبعث أيضاً آباؤنا على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل، أو آباؤنا بسكون الواو ومدنى وشامى أى: أيبعث واحد منا على المبالغة فى الإنكار ﴿الأَوَّلُونَ﴾ الأقدمون.

●● ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تبعثون. نعم على وهما لغتان ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون.

●● ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ جواب شرط مقدر تقديره إذا كان كذلك فما هى إلا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهى لاترجع إلى شىء، إنما هى مبهمة موضحها خبرها، ويجوز فإنما البعثة زجرة واحدة وهى النفخة الثانية، والزجرة: الصيحة من قولك زجر الراعى الإبل أو الغنم إذا صاح عليها ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أحياء بصراء ﴿ يَنظُرُونَ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو ينتظرون مايحل بهم ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أى: اليوم الذى ندان فيه أى: نجازى بأعمالنا.

●● ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلال ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ثم يحتمل أن يكون هذا يوم الدين إلى قوله احشروا من كلام الكفرة بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون يا ويلنا هذا يوم الدين من كلام الكفرة، وهذا يوم الفصل من كلام الملائكة جواباً لهم﴿احْشُرُوا﴾ خطاب الله للملائكة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أى وأشباههم وقرناءهم من الشياطين، أو نساءهم الكافرات، والواو بمعنى مع وقيل: للعطف وقرىء بالرفع عطفا على الضمير فى ظلموا ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

●● ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: الأصنام ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دلوهم، عن الأصمعى(١) هديته فى الدين هدى وفى الطريق هداية ﴿إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ طريق النار.

---

(١) هو الشاعر الأديب الكبير، عبدالملك بن قُرَيْب بن عبدالملك بن على بن أصمع، أبو سعيد، الأصمعى، أحد الأعلام فى الحديث والأدب واللغة، أثنى عليه أهل هذه العلوم، ولد عام ١٢٢هـ، وتوفى عام ٢١٦ هـ على خلاف فى ذلك.

تهذيب التهذيب (٣/٩٠٩، ٥١٠).

●● ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عن أقوالهم وأفعالهم.

●● ﴿مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: لاينصر بعضكم بعضاً وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا متناصرين فى الدنيا، وقيل: هو جواب لأبى جهل حيث قال يوم بدر ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ (١) وهو فى موضع النصب على الحال أى مالكم غير متناصرين.

●● ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون، أو قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر.

●● ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: التابع على المتبوع ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتخاصمون.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى: الأتباع للمتبوعين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن القوة والقهر إذ اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش أى: أنكم كنتم تحملوننا على الضلال وتقسروننا عليه.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى: الرؤساء ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر غير ملجئين.

●● ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ بل كنتم قوماً مختارين الطغيان.

●● ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ فلزمنا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ يعنى: وعيد الله بأنا ذائقون لعذابه لامحالة لعلمه بحالنا، ولو حكى الوعيد كما هو لقال: إنكم لذائقون ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم ونحوه قوله.

* فقد زعمت هو ازن قل مالى *

ولوحكى قولها لقال قل مالك ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ فدعوناكم إلى الغى ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإن الأتباع والمتبوعين جميعاً ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين فى الغواية.

●● ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ أى: بالمشركين إنا مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم.

●● ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إنهم كانوا إذاسمعوا بكلمة التوحيد استكبروا وأبوا إلا الشرك.

●● ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا﴾ بهمزتين شامى وكوفى ﴿لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون محمداً - عليه السلام - .

●● ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾رد على المشركين﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(١).

---

(١) سورة «القمر»، الآية (٤٤).

●● ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلا زيادة.

●● ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام كوفى ومدنى وكذا ما بعده أى: لكن عباد الله على الاستثناء المنقطع ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ﴾ فسر الرزق المعلوم بالفواكه وهى كل ما يتلذذ به ولايتقوت لحفظ الصحة يعنى أن رزقهم كله فواكه، لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد فما يأكلونه للتلذذ، ويجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليهامن طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر، وقيل: معلوم الوقت كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[2] والنفس إليه أسكن ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ منعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يجوز أن يكون ظرفا وأن يكون حالا وأن يكون خبراً بعد خبر وكذا﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ التقابل أتم للسرور وآنس.

●● ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ بغيرهمز أبو عمرو وحمزة فى الوقف، وغيرهما بالهمزة يقال للزجاجة: فيها الخمر كأس، وتسمى الخمر نفسها كأساً، وعن الأخفش: كل كأس فى القرآن فهى الخمر وكذا فى تفسير ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب معين، أومن نهر معين وهوالجارى على وجه الأرض الظاهر للعيون وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾[3] .

●● ﴿بَيْضَاءَ﴾ صفة للكأس ﴿لَذَّةٍ﴾ وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها، أوذات لذة ﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾.

●●﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أى: لا تغتال عقولهم كخمور الدنيا وهومن غاله يغوله غولا إذا أهلكه وأفسده ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكرون من نزف الشارب إذا ذهب عقله ويقال للسكران نزيف يُنْزِفون، ينزفون على و حمزة أى لايسكرون أولا ينزف شرابهم من أنزف الشارب إذا ذهب عقله، أو شرابه.

●● ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن لايمددن طرفا إلى غيرهم ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء أى: نجلاء واسعة العين.

●●﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ مصون شبههن ببيض النعام المكنون فى الصفاء وبها تشبه العرب النساء وتسميهن بيضات الخدور. وعطف...

---

(١) البقرة (٩٧)، وآل عمران (٣)، وغيرهما.

(٢) سورة «مريم»، الآية (٦٢).

(٣) سورة «محمد»، الآية (١٥).

●● ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعنى: أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عطف على يطاف عليهم والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب كعادة الشراب قال:

وما بقيت من اللذات إلا ... أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا إلا أنه جيء به ماضيا على ما عرف فى أخباره.

●● ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ﴾ بهمزتين شامى وكوفى ﴿لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ بيوم الدين.

●● ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون من الدين وهو الجزاء.

●● ﴿قَالَ﴾ ذلك القائل ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين قيل: إن فى الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. أو قال الله تعالى لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون إلى النار فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.

●●﴿فَاطَّلَعَ﴾ المسلم ﴿فَرَآهُ﴾ أى: قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ فى وسطها.

●● ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ إن مخففة من الثقيلة وهى تدخل على كاد كما تدخل على كان، واللام هى الفارقة بينها وبين النافية والإرداء الإهلاك. وبالياء فى الحالين يعقوب.

●● ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ وهى العصمة والتوفيق فى الاستمساك بعروة الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك.

●● ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الفاء للعطف على محذوف تقديره أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين ولا معذبين، والمعنى: أن هذه حال المؤمنين وهو أن لايذوقوا إلا الموتة الأولى بخلاف الكفار فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة. وقيل لحكيم: ما شر من الموت؟ قال: الذى يتمنى فيه الموت. وهذا قول يقوله المؤمن تحدثا بنعمة الله بمسمع من قرينه ليكون توبيخا له وزيادة تعذيب. وموتتنا نصب على المصدر، والاستثناء متصل تقديره ولانموت إلا مرة، أو منقطع وتقديره لكن الموتة الأولى قد كانت فى الدنيا، ثم قال لقرينه تقريعا له:

●● ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أى: الأمر الذى نحن فيه ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ثم قال الله عزوجل.

●● ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ وقيل: هو أيضاً من كلامه.

●● ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ تمييز ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أى: نعيم الجنة وما فيها من اللذات والطعام والشراب خيرنزلا أم شجرة الزقوم خير نزلا والنزل ما يقام للنازل بالمكان من الرزق. والزقوم: شجرة مُرّ يكون بتهامة.

●● ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ محنة وعذابا لهم فى الآخرة، أو ابتلاء لهم فى الدنيا وذلك أنهم قالوا: كيف يكون فى النار شجرة والنار تحرق الشجر فكذبوا.

●● ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ قيل: منبتـها فى قعر جهنم وأغصانـها ترتفع إلى دركاتها.

●● ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها وشبه برءوس الشياطين للدلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض، وقيل: الشيطان حية عرفاء قبيحة المنظر هائلة جدا.

●● ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرة أى من طلعها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فمالئون بطونهم لمايغلبهم من الجوع الشديد.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ على أكلها ﴿لَشَوْبًا﴾ لخلطا ولمزاجا ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ماء حار يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم، كما قال فى صفة شراب أهل الجنة ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾[1] والمعنى: ثم إنهم يملؤون البطون من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم ويعطشهم فلايسقون إلا بعد ملىء تعذيباً لهم بذلك العطش، ثم يسقون ماهو أحر؛ وهو الشراب المشوب بالحميم.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى: أنهم يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم، وهى الدركات التى أسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا ويسقون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخى فى ذلك ظاهر.

●● ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد بتقليد الآباء فى الدين واتباعهم إياهم فى الضلال وترك اتباع الدليل . والإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يحثون حثًا.

●● ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك قريش ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنى الأمم الخالية بالتقليد وترك النظر والتأمل.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنبياء حذروهم العواقب.

●● ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: الذين أنذروا وحذروا أى: هلكوا جميعا.

●● ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: إلا الذين آمنوا منهم وأخلصوا لله دينهم أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين. ولما ذكر إرسال المنذرين فى الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين أتبع ذلك ذكر نوح ودعاءه إياه حين أيس من قومه بقوله:

●● ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ دعانا لننجيه من الغرق، وقيل: أريد به قوله: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[2]

---

(١) سورة «المطففين»، الآية (٢٧).

(٢) سورة «القمر»، الآية (١٠).

﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ اللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ولقد نادانا نوح فوالله لنعم المجيبون نحن، والجمع دليل العظمة والكبرياء، والمعنى: إنا أجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون.

•• ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ ومن آمن به وأولاده ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الغرق.

•• ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ وقد فنى غيرهم قال قتادة: الناس كلهم من ذرية نوح، وكان لنوح – عليه السلام – ثلاثة أولاد سام، وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام، وهوأبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث، وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهى ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ يعنى: يسلمون عليه تسليما ويدعون له، وهو من الكلام المحكى كقولك قرأت سورة أنزلناها ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ أى: ثبت هذه التحية فيهم جميعاولايخلو أحد منهم منهاكأنه قيل: ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم.

•• ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ علل مجازاته بتلك التكرمة السنية بأنه كان محسنا .

•• ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبدا مؤمنا ليريك جلالة محل الإيمان وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم.

•• ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى: الكافرين.

•• ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ أى: من شيعة نوح أى ممن شايعه على أصول الدين، أو شايعه على التصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين، وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة وماكان بينهما إلا نبيان هود وصالح.

•• ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ إذ تعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة يعنى وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك ، أو من آفات القلوب لإبراهيم ، أوبمحذوف وهو اذكر، ومعنى المجىء بقلبه ربه أنه أخلص لله قلبه وعلم الله ذلك منه فضرب المجىء مثلاً لذلك.

•• ﴿إِذْ﴾ بل من الأولى ﴿قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ائفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دون الله إفكا وإنما قدم المفعول به للعناية، وقدَّم المفعول له على المفعول به، لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم، ويجوز أن يكون إفكا مفعولا به أى: أتريدون إفكا، ثم فسر الإفك بقوله: آلهة دون الله على أنها إفك فى نفسها، أو حالا أى: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

•• ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أى: شىء ظنكم﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنتم تعبدون غيره وما رفع بالابتداء والخبر ظنكم، أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره وعلمتم أنه المنعم على الحقيقة فكان حقيقا بالعبادة.

●● ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أى: نظر فى النجوم راميا ببصره إلى السماء متفكرا فى نفسه كيف يحتال، أو أراهم أنه ينظر فى النجوم لاعتقادهم علم النجوم فأوهمهم أنه استدل بأمارة على أنه يسقم .

●● ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الإسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه فى بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالأصنام مافعل، وقالوا علم النجوم كان حقا، ثم نسخ الاشتغال بمعرفته والكذب حرام إلا إذا عرض، والذى قاله إبراهيم - عليه السلام - معراض من الكلام أى سأسقم ، أو من الموت فى عنقه سقيم ومنه المثل كفى بالسلامة داء. ومات رجل فجأة فقالوا مات وهو صحيح، فقال أعرابى: أصحيحٌ مَن الموت فى عنقه؟! أو أراد إنى سقيم النفس لكفركم كما يقال أنا مريض القلب من كذا.

●● ﴿فَتَوَلَّوْا﴾ فأعرضوا ﴿عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أى: مولين الأدبار.

●● ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ فمال إليهم سرا ﴿فَقَالَ﴾ استهزاء ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وكان عندها طعام.

●● ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ والجمع بالواو والنون لما أنه خاطبها خطاب من يعقل.

●● ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ فأقبل عليهم مستخفيا كأنه قال فضربهم ضربا لأن راغ عليهم معنى ضربهم أوفراغ عليهم يضربهم ضربا أى ضاربا ﴿بِالْيَمِينِ﴾ أى: ضربا شديدا بالقوة؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما أو بالقوة والمتانة، أو بسبب الحلف الذى سبق منه، وهو قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾(١) .

●● ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرعون من الزفيف وهو الإسراع. يُزِفُّون حمزة من أزف إذا دخل فى الزفيف إزفافاً، فكأنه قد رآه بعضهم يكسرها وبعضهم لم يره فأقبل من رآه مسرعا نحوه، ثم جاء من لم يره يكسرها فقال لمن راه ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢) فأجابوه على سبيل التعريض بقولهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾(٣) ثم قالوا بأجمعهم نحن نعبدها وأنت تكسرها فأجابهم بقوله .

●● ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم.

●● ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وخلق ما تعملونه من الأصنام، أو ما مصدرية أى وخلق أعمالكم، وهو دليلنا فى خلق الأفعال أى: الله خالقكم وخالق أعمالكم فلم تعبدون غيره.

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٥٧).

(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (٥٩).

(٣) سورة «الأنبياء»، الآية (٦٠).

●● ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ﴾ أى: لأجله ﴿بُنْيَانًا﴾ من الحجر طوله ثلاثـون ذراعا وعرضه عشرون ذراعاً ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ فى النار الشديدة، وقيل: كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم.

●● ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾بإلقائه فى النار ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ المقهورين عنـد الإلقاء فخرج من النار.

●● ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إلى موضع أمرنى بالذهاب إليه ﴿ سَيَهْدِينِ﴾ سيرشدنى إلى ما فيه صلاحى فى دينى ويعصمنى ويوفقنى. سيهدينى فيهما يعقوب.

●● ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: بعض الصالحين؛ يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب فى الولد.

●● ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ انطوت البشـارة على ثلاث على أن الولد غلام ذكـر وأنه يبلغ أوان الحلم؛ لأن الصبى لايوصف بـالحلم وأنه يكون حليما وأى حلم أعظم من حلـمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. ثم استسلم لذلك.

●● ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ بلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه. ومعه لايتعلق بـ«بلغ»؛ لاقتضائه بلوغهما معا حد السعى. ولا بالسعى؛ لأن صلة المصدر لا تتقدم عليه فبقى أن يكون بيانا كأنه لما قال: فلما بلغ السعى أى الحد الذى يقدر فيه على السعى قيل مع من قال مع أبيه، وكان إذ ذاك ابن ثـلاث عشرة سـنة ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ حفص. والباقون بـكسر الياء﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ وبفتح الياء فيهما حجازى وأبو عمرو قـيل له فى المنام: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى الـيقظة، وإنما لم يقل رأيت، لأنه رأى مـرة بعد مرة فقد قيل: رأى ليلـة التروية كأن قائلا يقـول لـه: إن الله يـأمـر بذبح ابنك هذا فلما أصبح روّى فى ذلـك من الصباح إلـى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان، فمن ثم سمى يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله فمن ثم سـمى يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلـك فى الليلة الثالـثة فهم بنحره فسـمى اليوم يوم النحر ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأى على وجـه المشاورة لا من رؤية العين ولم يشـاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ولكن ليعلم أيجزع أم بناصيتى. تُرِى على وحمزة أى: ماذا تصبر من رأيك وتبديه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: ما تؤمر به وقرىء به ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ على الذبح روى أن الـذبيح قال لأبـيه: يا أبت خـذ بناصيتـى واجلس بيـن كتفى حـتى لا أوذيك إذا أصابتنى الشفرة، وَلاتذبحنى وأنت تنظـر فى وجهى عسى أن ترحمنى واجعل وجهى إلى الأرض، ويروى لذبحنى وأنا ساجد واقرأ على أمى السلام، وإن رأيـت أن ترد قميصى علىّ أمى فافعل فإنه عسى أن يكون أسهل لها.

●● ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ انقادا لأمر الله وخضعا، وعن قتادة أسـلم هذا ابنه وهذا نفسه ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على جبينه ووضـع السكين على حلقه فلم يعمل، ثم وضع السـكين،ونودى: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، روى أن ذلك المكان عند الصخرة التى بمنى، وجواب لما محذوف تقديره فلما أسلما وتله للجبين.

•• ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أى: حققت ما أمرناك به فى المنام من تسليم الولد للذبح كان ماكان مما ينطق بها الحال ولايحيط به الوصف من استبشارهما وحمدهما لله وشكرهما على ماأنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلول، أو الجواب قبلنا منه وناديناه معطوف عليه ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة.

•• ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم، أو المحنة البينة.

•• ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ﴾ هو ما يذبح، وعن ابن عباس: هو الكبش الذى قربه هابيل فقبل منه، وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به إسماعيل، وعنه: لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنة وذبح الناس أبناءهم ﴿عَظِيمٍ﴾ ضخم الجثة سمين، وهى السنة فى الأضاحى،وروى أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقيت سنة فى الرمى، وروى أنه لما ذبحه قال جبريل: الله أكبر الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة، وقد استشهد أبو حنيفة- رضى الله عنه - بهذه الآية فمن تذرذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة، والأظهر أن الذبيح إسماعيل، وهو قول أبى بكر وابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين - رضى الله عنهم - لقوله - عليه السلام -:«أنا ابن الذبيحين» (1) فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبدالله وذلك أن عبدالمطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقربا وكان عبدالله آخرا ففداه بمائة من الإبل، ولأن قرنى الكبش كانا منوطين فى الكعبة فى أيدى بنى إسماعيل إلى أن احترق البيت فى زمن الحجاج (2) وابن الزبير،وعن الأصمعى أنه قال سألت أبا عمرو بن العلاء(3) عن الذبيح، فقال: يا أصمعى أين عزب عنك عقلك ومتى كان إسحق بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة، وعن على وابن مسعود والعباس وجماعة من التابعين - رضى الله عنهم- أنه إسحق ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف - عليهما السلام- : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله (4) وإنما قيل: وفديناه وإن كان الفادى إبراهيم - عليه السلام- والله تعالى هو المفتدى منه ، لأنه الآمر بالذبح، لأنه تعالى وهب

(1) لم أعثر عليه فى كتب الحديث.

(2) هو الأمير الداهية؛ حجاج بن يوسف بن أبى عقيل، الثقفى، من أشهر الولاة فى العصر الأموى، ظل فى الولاية نحواً من ٢٠ سنة، واتسم بالعلم والبلاغة، إلى جانب المكر والدهاء، وسفك الدماء، قتل أكثر من ١٢٠ ألف نفس، ولكنه كان يتأول فى ذلك؛ لذلك اكتفى بعض العلماء بتفسيقه؛ بينما كفّره جماعة، ولد عام ٤٥هـ، وتوفى عام ٩٥هـ.
تهذيب التهذيب (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥١).

(3) هو: زبّان بن عمار التميمى، المازنى، البصرى، أبو عمرو، يلقب أبوه «ابن العلاء»، وهو أحد أئمة علوم القراءات واللغة والأدب. وهو أحد القراء السبعة، ولد عام ٧٠هـ، وتوفى عام ١٥٤هـ.
الأعلام (٣/ ٤١).

(4) الحديث موضوع. قاله أبو الحسن الدارقطنى.

له الكبش ليفتدى به، وههنا إشكال وهو أنه لايخلو إما أن يكون ما أتى به إبراهيم - عليه السلام - من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه فى حكم الذبح أم لا، فإن كان فى حكم الذبح فما معنى الفداء، والفداء هو التخليص من الذبح ببدل وإن لم يكن فما معنى قوله قد صدقت الرؤيا، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح أصلا أو بدلا ولم يصح، والجواب أنه - عليه السلام - قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح ولكن الله تعالى جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه وهذا لايقدح فى فعل إبراهيم، ووهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة فى نفس إسماعيل بدلا منه، وليس هذا بنسخ منه للحكم كما قال البعض بل ذلك الحكم كان ثابتاً إلا أن المحل الذى أضيف إليه لم يحله الحكم على طريق الفداء دون النسخ وكان ذلك إبتلاء ليستقر حكم الأمر عند المخاطب فى آخر الحال على أن المبتغى منه فى حق الولد أن يصير قرباناً بنسبة الحكم إليه مكرماً بالفداء الحاصل لمعرة الذبح مبتلى بالصبر والمجاهدة إلى حال المكاشفة، وإنما النسخ بعد استقرار المراد بالأمر لا قبله، وقد سمى فداء فى الكتاب لا نسخاً

•• ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ ولا وقف عليه؛ لأن. . .

•• ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ مفعول وتركنا.

•• ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل إنا كذلك هنا كما فى غيره؛ لأنه قد سبق فى هذه القصة فاستخف بطرحه اكتفاء بذكره مرة عن ذكره ثانية.

•• ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾ حال مقدرة من إسحق ولابد من تقدير مضاف محذوف أى: وبشرناه بوجود إسحق نبيًا أى بأن يوجد مقدرة نبوته فالعامل فى الحال الوجود لا البشارة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبى لابد وأن يكون من الصالحين.

••﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أى: أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقيل باركنا على إبراهيم فى أولاده وعلى إسحق بأن أخرجنا من صلبه ألف نبى أولهم يعقوب وآخرهم عيسى - عليه السلام - ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مؤمن ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ كافر ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر، أو محسن إلى الناس وظالم على نفسه بتعديه عن حدود الشرع، وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لايجرى أمرهما على العرق والعنصر فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر وعلى أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولانقيصة وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ماوجد من أصله وفرعه.

•• ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ بالنبوة .

•• ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بنى إسرائيل﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق أومن سلطان فرعون وقومه وغشمهم .

•• ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ أى: موسى وهارون وقومهما ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ على فرعون وقومه.

••﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ البليغ فى بيانه وهو التوراة.

•• ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صراط أهل الإسلام وهى صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عيهم ولا الضالين .

•• ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين من ولد هارون أخى موسى، وقيل: إدريس النبى - عليه السلام - وقرأ ابن مسعود - رضى الله عنه - وإن إدريس فى موضع إلياس.

•• ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ﴾ الا تخافون.

•• ﴿أَتَدْعُونَ﴾ أتعبدون ﴿بَعْلاً﴾ هو علم لصنم كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء، وكان موضعه يقال له بك فركب وصار بعلبك وهو من بلاد الشام، وقيل فى إلياس والخضر، إنهما حيان، وقيل: إلياس وكل بالفيافى كما وكل الخضر بالبحار، والحسن يقول قد هلك إلياس والخضر، ولاتقول كما يقول الناس إنهما حيان ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وتتركون عبادة الله الذى هو أحسن المقدرين.

•• ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ بنصب الكل عراقى غير أبى بكر وأبى عمرو على البدل من أحسن، وغيرهم بالرفع على الابتداء.

•• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ فى النار ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ من قومه.

•• ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ أى: إلياس وقومه المؤمنين كقولهم الخبيبون، يعنى: أبا خبيب عبدالله بن الزبير وقومه آل ياسين شامى ونافع؛ لأن ياسين اسم أبى إلياس فأضيف إليه الآل.

•• ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٥) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ فى الباقين.

•• ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿الآخَرِينَ﴾.

•• ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين فى الصباح.

•• ﴿وَبِاللَّيْلِ﴾ والوقف عليه مطلق ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يعنى: تمرون على منازلهم فى متاجركم إلى الشام ليلا ونهاراً فما فيكم عقول تعتبرون بها؛ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كماختم

قصة من قبلهما؛ لأن الله تعالى قد سلم على جميع المرسلين فى آخر السورة فاكتفى بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ الإباق: الهرب إلى حيث لايهتدى إليه الطلب، فسمى هربه من قومه بغير إذن ربه إباقاً مجازاً ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء وكان يونس - عليه السلام - وعد قومه العذاب فلما تأخر العذاب عنهم خرج كالمستور منهم فقصد البحر وركب السفينة فوقفت، فقالوا: ههنا عبد آبق من سيده وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر فاقترعوا: فخرجت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق وزج بنفسه فى الماء؛ فذلك قوله:

●● ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارعهم مرة أو ثلاثا بالسهام. والمساهمة: إلقاء السهام على جهة القرعة ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ المغلوبين بالقرعة.

●● ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ فابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل فى الملامة.

●● ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، أو من القائلين. ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) أومن المصلين قبل ذلك: وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: كل تسبيح فى القرآن هو صلاة(٢). ويقال : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

●● ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الظاهر لبثه حيا إلى يوم البعث، وعن قتاده لكان بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة، وقد لبث فى بطنه ثلاثة أيام أو سبعة أو أربعين يوماً، وعن الشعبى التقمه ضحوة ولفظه عشية.

●● ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ فألقيناه بالمكان الخالى الذى لاشجر فيه ولانبات ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ عليل مما ناله من التقام الحوت وروى أنه عاد بدنه كبدن الصبى حين يولد ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾ أى أنبتناها فوقه مظلة له كما يطنب البيت على الإنسان ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾ الجمهور على أنه القرع وفائدته أن الذباب لايجتمع عنده وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً وارتفاعاً وقيل لرسول الله (ﷺ): إنك لتحب القرع قال: «أجل هى شجرة أخى يونس»(٣).

●● ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ﴾ المراد به القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام فتكون قد مضمرة ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ فى مرأى الناظرْ أى: إذا رآها الرائى قال هى مائة ألف أو أكثر، وقال الزجاج: قال غيرواحد معناه بل يزيدون قال ذلك الفراء وأبو عبيدة، ونقل عن ابن عباس كذلك.

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٨٧).

(٢) لم أجده فى كتب الحديث، ولكن أورده الطبرى.

(٣) لم أعثر على أصله.

●● ﴿فَآمَنُوا﴾ به وبما أرسل به ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى منتهى آجالهم.

●● ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ معطوف على مثله فى أول السورة أى على فاستفتهم أهم أشد خلقاً وإن تباعدت بينهما المسافة. أمر رسول الله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا، ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها حيث جعلوا لله تعالى الإناث ولأنفسهم الذكور فى قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن.

●● ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ حاضرون تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم وتجهيل لهم؛ لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه فى قلوبهم ولا بإخبار صادق ولابطريق استدلال ونظر أومعناه أنهم يقولون ذلك عن طمأنية نفس لإفراط جهلهم كأنهم شاهدوا خلقهم.

●● ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فى قولهم.

●● ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ بفتح الهمزة للاستفهام، وهو استفهام توبيخ وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام.

●● ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الفاسد.

●● ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حمزة وعلى وحفص.

●● ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ حجة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله.

●● ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ الذى أنزل عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى دعواكم.

●● ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾ بين الله ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ الملائكة لاستتارهم ﴿نَسَبًا﴾ وهو زعمهم أنهم بناته، أو قالوا: إن الله تزوج من الجن فولدت له الملائكة ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون فى النار.

●● ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نزه نفسه عن الولد والصاحبة.

●● ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع من المحضرين، معناه ولكن المخلصين ناجون من النار وسبحان الله اعتراض بين الاستثناء وبين ماوقع منه، ويجوز أن يقع الاستثناء من واو يصفون، أى يصفه هؤلاء بذلك ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

●● ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبوديكم.

●● ﴿مَا أَنتُمْ﴾ وهم جميعا ﴿عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿ بِفَاتِنِينَ﴾ بمضلين.

●● ﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام أى: لستم تضلون أحداً إلا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها يقال: فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه، وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذى تعبدونه من الأصنام ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً إلا من قدر عليه أن يصلى الجحيم أى: يدخل النار. وقيل: ما أنتم بمضلين إلا من أوجبت عليه الضلال فى السابقة، و«ما» فى «ما أنتم»: نافية ومن فى موضع النصب بفاتنين، وقرأ الحسن صال الجحيم بضم اللام ووجهه أن يكون جمعاً فحذفت النون للإضافة وحذفت الواو لالتقاء الساكنين هى واللام فى الجحيم، ومن موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه.

●● ﴿وَمَا مِنَّا﴾ أحد ﴿ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فى العبادة لايتجاوزه فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

●●﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ نصف أقدامنا فى الصلاة، أو نصف حول العرش داعين للمؤمنين.

●● ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون، أو المصلون والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله: «سبحان الله عما يصفون» من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم فى قوله ولقد علمت الجنة، كأنه قيل ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم فى مناسبة رب العزة وقالوا سبحان الله فنزهوه عن ذلك واستثنوا عباد الله المخلصين وبرَّؤوهم منه وقالوا للكفرة فإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لاتقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه وتضلوه إلا من كان من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه لكل منا مقام معلوم من الطاعة لايستطيع أن يزل عنه ظفرا خشوعاً لعظمته، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته مسبحين ممجدين كما يجب على العباد لربه، وقيل: هومن قول رسول الله (ﷺ) يعنى ومامن المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله من قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ـ[1] ثم ذكر أعمالهم وأنهم الذين يصطفون فى الصلاة ويسبحون الله وينزهونه عما لايجوز عليه.

●● ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ أى: مشركو قريش مبعثه، عليه السلام.

●● ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل .

●● ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا ولما خالفنا كما خالفوا فجاءهم الذكر الذى هوسيد الأذكار والكتاب الذى هو معجز من بين الكتب.

●● ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مغبة تكذيبهم مايحل بهم من الانتقام ، وإن مخففة من الثقيلة، واللام هى الفارقة وفى ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه فكم بين أول أمرهم وآخره.

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٧٩).

●● ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ الكلمة قوله.

●● ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وإنما سماها كلمة وهى كلمات لأنها لما انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم فى مقام الحجاج وملاحم القتال فى الدنيا وعلوهم عليهم فى الآخرة، وعن الحسن ما غلب نبى فى حرب، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إن لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى العقبى، والحاصل أن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والعبرة للغالب.

●● ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة يسيرة وهى المدة التى أمهلوا فيها، أو إلى يوم بدر أو إلى فتح مكة ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أى: أبصر ما ينالهم يومئذ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ذلك وهو للوعيد لا للتبعيد، أوانظر إليهم إذا عذبوا فسوف يبصرون ما أنكروا، أو أعلمهم فسوف يعلمون.

●● ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ قبل حينه.

●● ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ صباحهم واللام فى المنذرين مبهم فى جنس من أنذروا، لأن ساء وبئس يقتضيان ذلك، وقيل: هونزول رسول الله (ﷺ) يوم الفتح بمكة. مثّل العذاب النازل بهم بعدما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصّاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحا،وإن وقعت فى وقت آخر.

●● ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وإنما ثنى ليكون تسلية على تسلية وتأكيدا لوقوع الميعاد إلى تأكيد وفيه فائدة زائدة، وهى إطلاق الفعلين معا عن التقييد بالمفعول وأنه يبصر وهم يبصرون ما لايحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة، وقيل: أريد بأحدهما عذاب الدنيا وبالآخر عذاب الآخرة.

●● ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل ذو العزة كما تقول صاحب صدق لاختصاصه بالصدق، ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد إلّا وهو ربها ومالكها كقوله : ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾[1] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولد والصاحبة والشريك.

●● ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ عم الرسل بالسلام بعد ماخص البعض فى السورة، لأن فى تخصيص كل بالذكر تطويلاً.

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (٢٦).

●● ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك الأعداء ونصرة الأنبياء اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون فى الله ونسبوه إليه مما هو منزه عنه، وما عاناه المرسلون من جهتهم، وما خولوه فى العاقبة من النصرة عليهم فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون، والتسليم على المرسلين، والحمد لله رب العالمين على ما قيض لهم من حسن العواقب، والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولايخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد، وعن على - رضى الله عنه - من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه «سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين»[1].

(١) الحديث فى مسند عبدالرزاق، موقوفاً على علىّ بن أبى طالب.

(سورة ص مكية، وهى ثمان وثمانون آية كوفى، وتسع بصرى،وست مدنى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿ص﴾ ذكر هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدى، والتنبيه على الإعجاز، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب؛ لدلالة التحدى عليه كأنه قال: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾أى: ذى الشرف إنه لكلام معجز، ويجوز أن يكون ص خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم للسورة كأنه قال: هذه ص أى هذه السورة التى أعجزت العرب، والقرآن ذى الذكركما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله، وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال أقسمت بص والقرآن ذى الذكر إنه لمعجز، ثم قال.

●● ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ تكبر عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلاف الله ولرسوله، والتنكير فى عزة وشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقمهما، وقرىء فى غرة أى فى غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

●● ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وعيد لذوى العزة والشقاق ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ من قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ من أمة ﴿فَنَادَوْا﴾ فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب ﴿وَلَاتَ﴾ هى لا المشبهة بـ«ليس» زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتوكيد، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان، ولم يبرز إلا أحد مقتضييها إما الاسم أو الخبر، وامتنع بروزهما جميعاً وهذا مذهب الخليل وسيبويه،وعند الأخفش أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الأحيان وقوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾ منجىً منصوب بها كأنك قلت ولاحين مناص لهم، وعندهما أن النصب على تقدير ولات الحين حين مناص أى: وليس الحين حين مناص ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم﴾ من أن جاءهم ﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رسول من أنفسهم ينذرهم يعنى استبعدوا أن يكون النبى من البشر ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ولم يقل وقالوا إظهاراً للغضب عليهم ودلالة على أن هذا القول لايجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون فى الكفر المنهمكون فى الغى، إذلا كفر أبلغ من أن يسموا من صدقه الله كاذباً ساحراً، ويتعجبوا من التوحيد وهو الحق الأبلج ولا يتعجبوا من الشرك وهو باطل لجلج. وروى أن عمر - رضى الله عنه - لما أسلم فرح به المؤمنون وشق على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفساً من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا: أنت كبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء، يريدون الذين دخلوا فى الإسلام وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله (ﷺ) فقال: يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء فلا تمل كل الميل على قومك. فقال - عليه السلام - : ماذا يسألوننى؟ فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال - عليه السلام - : «أتعطونى كلمة واحدة

تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم. قالوا: نعم وعشراً؛ أى: نعطيكها وعشر كلمات معها، فقال: قولوا: «لا إله إلا اللـه» فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحـداً؟! أى: أصيرّ إن هذا لشيء عجاب [1] أى بليغ فى العجب، وقيل: العجيب ما له مثل والعجاب مالا مثل له.

●● ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ وانطلق أشراف قريش عن مجلس أبـى طالب بعدما بكتهم رسول الله(ﷺ) بالجواب العـتيد قائلين بعضهـم لبعض أن امشوا، وأن بمعنى أى ؛ لأن المنـطلقين عن مجلس الـتقاول لابدلهم من أن يتكـلموا ويتـناوضوا فيما جـرى لهم فكان انطلاقهم مـتضمنا معنى القول ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى﴾ عبادة ﴿آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا﴾ الأمر﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أى: يريده الله تـعالى ويحكم بإمضائه فلا مرد له ولاينفع فيه إلا الـصبر، أو إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يرادبنا فلا انفكاك لنا منه.

●● ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالتوحيد ﴿فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ فى ملـة عيسى الـتى هى آخر المـلل؛ لأن النصارى مـثلثة غير مـوحدة؛ أو فى ملة قريش الـتى أدركنا عليـها آباءنا ﴿إِنْ هَذَا﴾ ما هـذا ﴿إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه.

●●﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ القرآن﴿مِنْ بَيْنِنَا﴾ أنكروا أن يختص بالشرف مـن بين أشرافهم وينزل عليه الكتاب من بينهم حسدا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ من القرآن ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ بل لم يذوقوا عذابى بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهـم من الشك والحسد حينئذ أى: أنهم لايصدقون به إلا أن يمسهم العذاب فيصدقون حينئذ.

●●﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ يعنى ماهم بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصرفوها عـمن شاؤوا، ويتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ويتـرفعوا بها عن محمد، وإنما الذى يمـلك الرحمةوخزائنـها العزيز القاهر عـلى خلقه الوهاب الـكثير المواهب المصـيب بها مواقعها الذى يقسمها على ما تقتضيه حكمته. ثم رشح هذا المعنى فقال:

●● ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حتى يتكـلموا فى الأمور الربانيـة والتدابير الإلهية التى يختص بها رب العزة والكبرياء، ثم تهـكم بهم غاية التهكم فقال: فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصـرف فى قسمة الرحمة ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ فليصعدوا فـى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى السماء حتى يدبروا أمر الـعالم وملكوت الله وينزلوا الوحى إلى من يختارون. ثم وعد نبيه - عليه السلام - النصرة عليهم بقوله:

●● ﴿جُندٌ﴾ مبتدأ ﴿مَّا﴾ صلة مقوية للنكرة المبتدأة ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى بدر ومصارعهم، أو إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القـول العظيم من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من

---

(١) قال ابن حجر: ذكره الثعلبى بغير سند، رواه الـترمذى والنسائى وابن حبان وأحمد والطبرى وابن أبى حاتم وغيرهم، وليس فيه أوله.

أهله: لست هنالك. خبر المبتدأ: ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور﴿مِّنَ الأَحْزَابِ﴾ متعلق بجند، أو بمهزوم يريد ما هم إلا جند من الكفار المتحزبين على رسول الله مهزوم عما قريب فلا تبال بما يقولون ولاتكثرت لما به يهذون.

●● ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحا ﴿وَعَادٌ﴾ هودا ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿ذُو الأَوْتَادِ﴾ قيل: كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه، وقيل: يوتد من يعذب بأربعة أوتاد فى يديه ورجليه ﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح صالحا ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ لوطا ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ الغيضة شعيبا ﴿أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ أراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب.

●● ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ ذكر تكذيبهم أولاً فى الجملة الخبرية على وجه الإبهام حيث لم يبين المكذب، ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها وبين المكذب وهم الرسل، وذكر أن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل؛ لأن فى تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتحاد دعوتهم وفى تكريرالتكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا، وبالاستثنائية ثانياً وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه، ثم قال ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أى فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم. عذابى وعقابى فى الحالين يعقوب.

●● ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ﴾ وما ينتظر أهل مكة، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أى: النفخة الأولى وهى الفزع الأكبر ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ وبالضم حمزة وعلى أى مالها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلبتى الحالب أى إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: ما لها من رجوع وترداد من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة، وفواق الناقة ساعة يرجع الدر إلى ضرعها، يريد أنها نفخة واحدة فحسب لاتثنى ولاتردد.

●● ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ حظنا من الجنة؛ لأنه - عليه السلام - ذكر وعد الله المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزء: عجل لنا نصيبنا منها، أو نصيبنا من العذاب الذى وعدته كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾(١) . وأصل القط: القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه من قطه إذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط؛ لأنها قطعة من القرطاس ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

●● ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فيك وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ وكرامته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقى من عتاب الله ما لقى ﴿ذَا الأَيْدِ﴾ ذا القوة فى الدين وما يدل على أن الأيد القوة فى الدين قوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى

(١) الحج (٤٧)، والعنكبوت (٥٣).

رجّاع إلى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لذى الأيد، روى أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أشد الصوم ويقوم نصف الليل.

●● ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا﴾ ذللنا ﴿الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ قيل: كان تسخيرها أنها تسير معه إذا أراد سيرها إلى حيث يريد ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ فى معنى مسبحات على الحال، واختار يسبحن على مسبحات ليدل على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ أى: فى طرفى النهار والعشى وقت العصر إلى الليل والإشراق وقت الإشراق، وهو حين تشرق الشمس أى تضيء، وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها تقول شرقت الشمس ولما تشرق، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية.

●● ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ وسخرنا الطير مجموعة من كل ناحية، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود أى لأجل تسبيحه مسبح؛ لأنها كانت تسبح لتسبيحه ووضع الأواب موضع المسبح؛ لأن الأواب وهو التواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله ويديم تسبيحه وتقديسه وقيل: الضمير لله أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مُرَجِّع للتسبيح.

●● ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه قيل: كان يبيت حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل يحرسونه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ الزبور وعلم الشرائع وقيل: كل كلام وافق الحق فهو حكمة ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ علم القضاء، وقطع الخصام، والفصل بين الحق والباطل، والفصل هو التمييز بين الشيئين، وقيل للكلام البين: فصل بمعنى المفصول كضرب الأمير وفصل الخطاب البين من الكلام الملخص الذى يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، وجاز أن يكون الفصل بمعنى الفاصل كالصوم والزور، والمراد بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذى يفصل بين الصحيح والفاسد والحق والباطل، وهو كلامه فى القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات. وعن على - رضى الله عنه - هو الحكم بالبينة على المدعى واليمين على المدعى عليه وهو من الفصل بين الحق والباطل، وعن الشعبى هو قوله أما بعد، وهو أول من قال أما بعد فإن من تكلم فى الأمرالذى له شأن يفتتح بذكر الله وتحميده فإذا أراد أن يخرجَ إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله بقوله أما بعد.

●● ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة، والخصم الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع؛ لأنه مصدر فى الأصل تقول خصمه خصما وانتصاب ﴿ إِذْ﴾ بمحذوف تقديره وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم، أو بالخصم لما فيه من معنى الفعل ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ تصعدوا سوره ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع، والمحراب الغرفة، أو المسجد، أو صدر المسجد.

●● ﴿إِذْ﴾ بدل من الأولى ﴿دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ روى أن الله تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب فلم يشعر إلاوهما بين يديه جالسان، ففزع منهم لأنهم دخلوا عليه المحراب فى غير يوم القضاء؛ ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفى يوم الاحتجاب والحرس حوله لايتركون من يدخل عليه ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى نحن خصمان ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تعدى وظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولاتجر من الشطط، ومن مجاوزة الحد وتخطى الحق ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجته والمراد عين الحق ومحضه. روى أن أهل زمان داود- عليه السلام - ؛كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك فاتفق أن داود - عليه السلام - وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها فسأله النزول له منها فاستحى أن يرده ففعل فتزوجها، وهى أم سليمان فقيل له، إنك مع عظم منزلتك وكثرة نسائك لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول عنها لك بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به، وقيل: خطبها أوريا، ثم خطبها داود فآثره أهلها فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه، وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتل ليتزوجها فلايليق من المتسمين بالصلاح من أفنان المسلمين فضلا عن بعض أعلام الأنبياء، وقال على - رضى - الله عنه - : من حدثكم بحديث داود - عليه السلام- على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء، [1] وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها وأعظم بأن يقال غير ذلك،وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه فما ينبغى إظهارها عليه ، فقال عمر: لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس والذى يدل عليه المثل الذى ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التعريض لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع فى نفسه وأشد تمكنا من قلبه وأعظم أثراً فيه مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة.

●●﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ هو بدل من هذا، أو خبر لإن، والمراد أخوة الدين، أو أخوة الصداقة والألفة، أوأخوة الشركة والخلطة لقوله وإن كثيرا من من الخلطاء ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ولِيَ حفص والنعجة كناية عن المرأة ولماكان هذا تصويراً للمسألة وفرضاً لها لايمتنع أن يفرض الملائكة فى أنفسهم كمن تقول لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها،وما لكما من

(١) لم أعثر على أصله.

الأربعين أربعة ولا ربعها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وعن ابن عباس -رضى الله عنه - اجعلها كفلى أى نصيبى ﴿وَعَزَّنِي﴾ وغلبني يقال عزه يعزه ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ فى الخصومة أى: أنه كان أقدر على الاحتجاج منى، وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل، أو أراد خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطاباً، أى: غالبنى فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دوني، ووجه التمثيل أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة، ولخليطه تسع وتسعون فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع فى نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه وحاجَّهُ فى ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه ليحكم بما حكم به من قوله:

●● ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ حتى يكون محجوجاً بحكمه، وهذا جواب قسم محذوف وفى ذلك استنكار لفعل خليطه، والسؤال مصدر مضاف إلى المفعول وقد ضمن معنى الإضافة فعدى تعديتها كأنه قيل بإضافة نعجتك إلى نعاجه على وجه السؤال والطلب، وإنما ظلَّم الآخر بعد ما اعترف به خصمه، ولكنه لم يحك فى القرآن، لأنه معلوم. ويروى أنه قال أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجى مائة فقال داود: إن رمت ذلك ضربنا منك هذا، وهذا وأشار إلى طرف الأنف والجبهة، فقال: يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحدا فعرف ما وقع فيه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشركاء والأصحاب ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المستثنى منصوب، وهومن الجنس والمستثنى منه بعضهم ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ما للإبهام، وهم مبتدأ وقليل خبره ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ﴾ أى: علم وأيقن ، وإنما استعير له؛ لأن الظن الغالب يدانى العلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لزلته ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أى: سقط على وجهه ساجداً لله، وفيه دليل على أن الركوع يقوم مقام السجود فى الصلاة إذا نوى لأن المراد مجرد ما يصلح تواضعاً عند هذه التلاوة والركوع فى الصلاة يعمل هذا العمل بخلاف الركوع فى غير الصلاة ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة، وقيل: إنه بقى ساجداً أربعين يوماً وليلة لايرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة، أو ما لابد منه، ولايرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع .

●● ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ أى: زلته ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع وهو الجنة.

●● ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أى: استخلفناك على الملك فى الأرض، أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أى: بحكم الله إذ كنت خليفته أو بالعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أى: هوى النفس في قضائك ﴿ فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ أى: بنسيانهم يوم الحساب.

•• ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ﴿بَاطِلًا﴾ خلقا باطلا لا لحكمة بالغة ، أو مبطلين عابثين كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾(١) وتقديره ذوى باطل، أو عبثا فوضع باطلا موضعه أى: ماخلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ولكن للحق المبين، هو أنا خلقنا نفوساً أودعناها العقل ومنحناها التمكين وأزحنا عللها، ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم ﴿ذَلِكَ﴾إشارة إلى خلقها باطلا ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظن بمعنى المظنون أى: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما لقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢) ؛ لأنه لماكان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه؛ لأن الجزاء هو الذى سبقت إليه الحكمة فى خلق العالم فمن جحده فقد جحد الحكمة فى خلق العالم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ .

•• ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ أم منقطعة، ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد أنه لو بطل الجزاء كمايقول الكفار لاستوت أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر. ومن سوى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.

•• ﴿كِتَابٌ﴾ أى: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة أخرى ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾وأصله ليتدبروا، قرىء به، ومعناه ليتفكروا فيها فيقفوا على ما فيه ويعملوا به، وعن الحسن قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله حفظوا حروفه وضيعوا حدوده لتدبَّروا على الخطاب بحذف إحدى التاءين يزيد ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ وليتعظ بالقرآن أولو العقول ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أى: سليمان، وقيل: داود وليس بالوجه فالمخصوص بالمدح محذوف ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وعلل كونه ممدوحاً بكونه أواباً أى: كثير الرجوع إلى الله تعالى.

•• ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ على سليمان ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ الخيول القائمة على ثلاث قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف حافر ﴿الْجِيَادُ﴾ السراع جمع جواد؛ لأنه يجود بالركض وصفها بالصفون؛ لأنه لايكون فى الهجان وإنما هو فى العراب (٣) وقيل وصفها بالصفون والجودة

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (١٦).

(٢) لقمان (٢٥)، والزمر (٣٨).

(٣) العراب: هى الخيول العربية الأصيلة، المشهورة بخفتها ورشاقتها وجمالها. القاموس (١/ ١٠٢).

ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية يعنى: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً فى جريها، وقيل: الجياد الطوال الأعناق من الجيد وروى أن سليمان - عليه السلام - غزا أهل دمشق ونصيبين[1] فأصاب ألف فرس، وقيل: ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة وقيل: خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوماً بعد ما صلى الظهر على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، وكانت فرضاً عليه، فاغتم لما فاته فاستردها وعقرها تقرباً لله فبقى مائة، فما فى أيدى الناس من الجياد فمن نسلها، وقيل: لما عقرها أبدله الله خيراً منها وهى الريح تجرى بأمره.

●● ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أى: آثرت حب الخيل عن ذكر ربي، كذا عن الزجاج فأحببت بمعنى آثرت كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2] وعن بمعنى على وسمى الخيل خيراً كأنها نفس الخير لتعلق الخير بها كما قال - عليه السلام - : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» [3] . وقال أبو علي: أحببت بمعنى جلست من إحباب البعير وهو بروكه. حب الخير أى المال مفعول له مضاف إلى المفعول ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ والذى دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشي، ولا بد للضمير من جرى ذكر، أودليل ذكر، أو الضمير للصافنات أى حتى توارت بحجاب الليل يعنى الظلام.

●● ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أى: قال للملائكة ردوا الشمس على لأصلى العصر فردت الشمس له وصلى العصر، أو ردوا الصافنات ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعل يمسح مسحاً أى يمسح السيف بسوقها، وهى جمع ساق كدار ودور وأعناقها يعنى يقطعها؛ لأنها منعته عن الصلاة، تقول: مسح غلاوته إذا ضرب عنقه، ومسح المسقر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه، وقيل: إنما فعل ذلك كفارة لها أو شكرا لرد الشمس، وكانت الخيل مأكولة فى شريعته فلم يكن إتلافاً وقيل: مسحها بيده استحسانا لها وإعجاباً بها.

●● ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ﴾ سرير ملكه ﴿جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله، قيل: فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة فسبيلنا أن نقتله، أونخبله فعلم ذلك سليمان - عليه السلام - فكان يغذوه فى السحابة خوفاً من مضرة الشياطين فألقى ولده ميتاً على كرسيه فتنبه على زلته فى أن لم يتوكل فيه على ربه، وروى عن النبى (ﷺ) : «قال سليمان

(١) نصيبين: هى مدينة من بلاد الجزيرة العربية، على طريق القوافل من الموصل إلى الشام، وهى مدينة عامرة، فتحت عام ١٧هـ.
معجم البلدان (٥/ ٢٣٣).

(٢) سورة «فصلت»، الآية (١٧).

(٣) الحديث متفق عليه من حديث عبدالله بن عمر، رضى الله عنهما.

لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة منهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع فى حجره، فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون»(١).

وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن فى بيت سليمان - عليه السلام - فمن أباطيل اليهود.

●● ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قدم الاستغفار على استيهاب الملك جريا على عادة الأنبياء - عليهم السلام - والصالحين فى تقديم الاستغفار على السؤال﴿لَّا يَنبَغِي﴾ لايتسهل ولا يكون ﴿لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ أى: دونى. ويفتح الياء مدنى وأبوعمرو، وإنما سأل بهذه الصفة؛ ليكون معجزة له لاحسداً؛ وكان قبل ذلك لم يسخر له الريح والشياطين فلما دعا بذلك سخرت له الريح والشياطين ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

●● ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ الرياح أبو جعفر ﴿تَجْرِي﴾ حال من الريح ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بأمر سليمان ﴿رُخَاءً﴾ لينة طيبة لاتزعزع، وهو حال من ضمير تجرى ﴿حَيْثُ﴾ ظرف تجري﴿أَصَابَ﴾ قصد وأراد. والعرب تقول أصاب الصواب فأخطأ الجواب.

●● ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على الريح أى: سخرنا له الشياطين ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ بدل من الشياطين كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ﴿وَغَوَّاصٍ﴾ أى: ويغوصون له فى البحر لإخراج اللؤلؤ، وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر، والمعنى وسخرنا له كل بناء وغواص من الشياطين.

●● ﴿وَآخَرِينَ﴾ عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ وكان يقرن مردة الشياطين بعضهم مع بعض فى القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد. والصفد: القيد وسمى به العطاء؛ لأنه ارتباط للمنعم عليه ومنه قول على - رضى الله عنه -: «من برّك فقد أسرك، ومن جفاك فقد أطلقك».

●● ﴿هَذَا﴾ الذى أعطيناك من الملك والمال والبسطة ﴿عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ فأعط منه ما شئت من المنة وهى العطاء ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عن العطاء وكان إذا أعطى أجر وإن منع لم يأثم بخلاف غيره ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ متعلق بعطاؤنا، وقيل: هو حال أى: هذا عطاؤنا جما كثيراً لايكاد يقدر على حصره، أو هذه التسخير عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق أو أمسك من شئت منهم فى الوثاق بغير حساب أى لاحساب عليك فى ذلك.

●● ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ لزلفى اسم إن والخبر له والعامل فى عند الخبر.

---

(١) الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

●● ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو بدل من عبدنا أو عطف بيان ﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال منه ﴿نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ دعاه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ﴾ بأنى مَسَّنِى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بأنه مسه، لأنه غائب ﴿الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ قراءة العامة. بِنُصُب يزيد. تثقيل نُصْب بنَصَب كرُشْد ورَشَد يعقوب. بنصْب على أصل المصدر هبيرة - والمعنى واحد، وهو التعب والمشقة ﴿وَعَذَابٍ﴾ يريد مرضه وما كان يقاسى فيه من أنواع الوصب، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع فالتجأ إلى الله فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق فى دفعه ورده بالصبر الجميل، وروى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لايبتلى الأنبياء والصالحين، وذكر فى سبب بلائه أنه ذبح شاة فأكلها وجاره جائع، أو رأى منكراً فسكت عنه، أو ابتلاه الله لرفع الدرجات بلا زلة سبقت منه.

●● ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية ما أجيب به أيوب - عليه السلام - أى: أرسلنا إليه جبريل - عليه السلام - فقال له: اركض برجلك أى: اضرب برجلك الأرض، وهى أرض الجابية [(١)] فضربها فنبعت عين فقيل ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أى: هذا ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك وقيل: نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله تعالى.

●● ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قيل: أحياهم الله تعالى بأعيانهم وزاده مثلهم ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مفعول لهما أى: الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب؛ لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره رغبهم فى الصبر على البلاء.

●● ﴿وَخُذْ﴾ معطوف على اركض ﴿بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ حزمة صغيرة من حشيش، أو ريحان، أو غير ذلك، عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قبضة من الشجر ﴿فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وكان حلف فى مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه وهذه الرخصة باقية، ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة والسبب فى يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة فى حاجة فخرج صدره، وقيل باعت ذؤابتيها برغيفين، وكانتا متعلق أيوب - عليه السلام - إذا قام ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ علمناه ﴿صَابِرًا﴾ على البلاء نعم قد شكا إلى الله ما به واسترحمة لكن الشكوى إلى الله لاتسمى جزعا فقد قال يعقوب - عليه السلام - : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[(٢)] على أنه - عليه السلام - كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة حيث كان

---

(١) الجابية: هى قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان.
معجم البلدان (٢/١٠٦).

(٢) سورة «يوسف»، الآية (٨٦).

الشيطان يوسوس إليهم أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به، وإرادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

•• ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ عبدنا مكى ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فمن جمع؛ فإبراهيم ومن بعده عطف بيان على عبادنا، ومن وحد فإبراهيم وحده عطف بيان له ثم عطف ذريته على عبدنا، ولما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدى غلبت فقيل فى كل عمل هذا مما عملت أيديهم وإن كان عملا لا تتأتى فيه المباشرة بالأيدي، أو كان العمال جذماً لا أيدى لهم وعلى هذا ورد قوله: ﴿أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي: أولى الأعمال الظاهرة والفكر الباطنة كأن الذين لايعملون أعمال الآخرة ولايجاهدون فى الله ولايتفكرون أفكار ذوى الديانات فى حكم الزَّمْنَى الذين لايقدرون على إعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لااستبصار لهم، وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ولا من المستبصرين فى دين الله،وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما.

•• ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم﴾ جعلناهم لنا خالصين ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ بخصلة خالصة لاشوب فيها ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ذكرى فى محل النصب، أو الرفع بإضمار أعني، أو هي، أو الجر على البدل من بخالصة والمعنى إنا أخلصناهم بذكرى الدار، والدار هنا: الدار الآخرة يعنى جعلناهم لنا خالصين بأن جعلناهم يذكرون الناس الدار الآخرة ويزهدونهم فى الدنيا كما هو ديدن الأنبياء- عليهم السلام - أو معناه أنهم يكثرون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله وينسون ذكر الدنيا. بخالصةِ ذكرى الدار على الإضافة مدنى ونافع ، وهى من إضافة الشيء إلى ما يبينه؛ لأن الخالصة تكون ذكرى وغير ذكرى وذكرى مصدر مضاف إلى المفعول أى بإخلاصهم ذكرى الدار، وقيل: خالصة بمعنى خلوص فهى مضافة إلى الفاعل أى بأن خلصت لهم ذكرى الدار على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهَمٍّ آخر، إنما همهم ذكرى الدار لاغير، وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل فى الدنيا وهذا شيء قد أخلصهم به فليس يذكر غيرهم فى الدنيا بمثل ما يذكرون به يقويه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(1).

•• ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ المختارين من بين أبناءجنسهم ﴿الْأَخْيَارِ﴾ جمع خَيِّر أو خَيْر على التخفيف كأموات فى جمع ميِّت أو مَيْت ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ كأن حرف التعريف دخل على يسع ﴿وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أى وكلهم﴿مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾.

•• ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبداً. إن لهم مع ذلك لحسن مرجع يعنى يذكرون فى الدنيا بالجميل ويرجعون فى الآخرة إلى مغفرة رب جليل، ثم بين كيفية حسن ذلك المرجع فقال:

---

(1) سورة «مريم»، الآية (50).

●● ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل من حسن مآب ﴿مُّفَتَّحَةً﴾ حال من جنات؛ لأنها معرفة لإضافتها إلى عدن وهو علم والعامل فيها ما فى لـلمتقين من معنى الفعل ﴿لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ ارتفاع الأبواب بأنها فاعل مفتحة والعائد محذوف أى: مفتحة لهم الأبواب منها فحذف كما حذف فى قوله: ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1] أى: لهم أو أبوابها إلا أن الأول أجود أو هى بدل من الضمير فى مفتحة وهو ضمير الجنات تقديره مفتحة هى الأبواب وهو من بدل الاشتمال.

●● ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من المجرور فى لـهم والعامل مفتحة ﴿فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ أى: وشراب كثير فحذف اكتفاء بالأول.

●● ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: قصرن طرفهن على أزواجهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ لدات أسنانهن كأسنانهم لأن التحاب بين الأقران أثبت كأن اللدات سمين أتراباً؛ لأن التراب مسهن فى وقت واحد.

●● ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ وبالياء مكى وأبو عمرو ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: ليوم تجزى كل نفس بما عملت.

●● ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ من انقطاع والجملة حال من الرزق والعامل الإشارة.

●● ﴿هَذَا﴾ خبر، والمبتدأ محذوف أى الأمر هذا، أو هذا كما ذكر ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ مرجع.

●● ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل منه ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم.

●● ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أى: هذا حميم وغساق فليذوقوه فهذا مبتدأ، وحميم خبره، وغساق بالتشديد حمزة وعلى وحفص، والغساق بالتشديد والتخفيف: مايغسق من صديد أهل النار، يقال: غسقت العين إذا سال دمعهما وقيل الحميم يحرق بحره، والغساق يحرق ببرده ﴿وَآخَرُ﴾ أى وعذاب آخر أو مذوق آخر ﴿مِن شَكْلِهِ﴾ من مثل العذاب المذكور وأُخَر بصرى أى: ومذوقات أُخَر من شكل هذا المذوق فى الشدة والفظاعة ﴿أَزْوَاجٌ﴾ صفة لآخر؛ لأنه يجوز أن يكون ضروباً.

●● ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار أى دخل النار فى صحبتكم والاقتحام: الدخول فى الشيء بشدة، والقحمة: الشدة، وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض أى: يقولون هذا والمراد بالفوج أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة فيقتحمون معهم العذاب ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دعاء منهم على أتباعهم تقول لمن تدعوا له مرحباً أى: أتيت رحباً من البلاد لا

---

(١) سورة «النازعات» الآية (٣٩)

ضيقاً، أو رحبت بلادك رحباً ثم تدخل عليه لا فى دعاء السوء، وبهم بيان لـلمدعو عليهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ﴾أى داخلوها،وهو تعليـل لاستيجابهم الدعاء عليهم وقيل هذا فـوج مقتحم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى أتبـاعهم،ولا مرحبا بهم إنهم صالوا النار كلام الـرؤساء، وقيل: هذا كله كلام الخزنة.

●● ﴿ قَالُوا﴾ أى: الأتباع ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: الدعاء الذى دعوتم به علـينا أنتم أحق به، وعللوا ذلك بقوله: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ والضمير لـلعذاب أو لصليهم أى أنكم دعـوتمونا إليه فكفرنا باتباعكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أى النار.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى:الأتباع ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أى: مضاعفاً ﴿فِي النَّارِ﴾ ومعناه ذا ضعف. ونحوه قوله: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾(١) وهو أن يزيد على عذابه مثله.

●● ﴿وَقَالُوا﴾ الضمير لرؤساء الكفرة ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً﴾ يعنون فقراء المسلمين ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ فى الدنيا ﴿مِّنَ الأَشْرَارِ﴾ من الأرذال الذين لاخير فيهم ولاجدوى.

●● ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بلفظ الإخبار عراقى غير عاصم علـى أنه صفة لرجالا مثل كنا نعدهم من الأشرار - وبهمزة الاستفهـام غيرهم على أنه إنكار على أنفسهم فى الاستـسخار منهم. سُخريا مدنى وحمزة وعلى وخلف والمفضل ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت ﴿عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ هو متصل بقوله ما لنا أى مالنا لانراهم فى النار كأنهم ليسوا فيها بل أزاغـت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار، إلا أنه خفى عليهم مكانهم.

●● ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذى حكينا عنهم ﴿لَحَقٌّ ﴾ لصدق كائن لا محالة لابد أن يتكلموا به، ثم بين ما هو فقال: هو ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ولما شبه تقاولهم وما يجـرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين سماه تخاصما، ولأن قول الرؤساء : لامرحبا بهم، وقول أتباعهم: بل أنتم لامرحباً بكـم من باب الخصومة فسمى التـقاول كله تخاصما لاشتمـاله على ذلك ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركى مكة: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ ما أنا إلا رسول منذر أنذركم عذاب الله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ وأقول لكـم إن دين الحق توحـيد الله وأن تعتـقدوا أن لا إله إلا الله ﴿الْوَاحِدُ﴾ بلا نِدٍّ ولاشريك ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء.

●● ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ له الملك والربوبيـة فى العالم كله﴿الْعَزِيزُ﴾ الذى لا يغلب إذا عاقب ﴿الْغَفَّارُ﴾ لذنوب من التجأ إليه.

●● ﴿ قُلْ هُوَ﴾ أى: هذا الذى أنـبأتكم به من كـونى رسولا منذراً وأن الله واحد لاشـريك له ﴿نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ لايعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة. ثم...

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٣٨).

●● ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ غافلون .

●● ﴿مَا كَانَ لِيَ﴾ حفص ﴿مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ احتج لصحة نبوته بأن ما ينبيء به عن الملإ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذى يسلكه الناس فى علم ما لم يعلموا، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب فعلم أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحى من الله تعالى.

●● ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: لأنما أنا نذير مبين ومعناه ما يوحى إلى إلا للإنذار فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه، ويجوز أن يرتفع على معنى ما يوحى إلي إلا هذا وهو أن أنذر وأبلغ ولا فرط فى ذلك أى ما أومر إلا بهذا الأمر وحده وليس لى غير ذلك، وبكسر إنما يزيد على الحكاية أى إلا هذا القول وهو أن أقول لكم إنما أنا نذير مبين ولا أدعى شيئاً آخر، وقيل: النبأ العظيم قصص آدم والإنباء به من غير سماع من أحد ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - القرآن، وعن الحسن يوم القيامة والمراد بالملإ الأعلى أصحاب القصة: الملائكة وآدم وإبليس؛ لأنهم كانوا فى السماء وكان التقاول بينهم وإذ يختصمون متعلق بمحذوف إذ المعنى ما كان لى من علم بكلام الملإ الأعلى وقت اختصامهم.

●● ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدل من إذ يختصمون أى: فى شأن آدم حين قال تعالى على لسان ملك ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾(١) .

●● ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ فإذا أتممت خلقته وعدلته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الذى خلقته وأضافه إليه تخصيصاً كبيت الله وناقة الله،والمعنى أحييته وجعلته حسَّاسًا متنفساً ﴿فَقَعُوا﴾ أمرمن وقع يقع أى اسقطوا على الأرض، والمعنى اسجدوا ﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ قيل كان انحناء يدل على التواضع وقيل كان سجدة لله، أو كان سجدة التحية.

●● ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ كل للإحاطة وأجمعون للاجتماع فأفاد أنهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرقين فى أوقات.

●● ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظم عن السجود ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وصار من الكافرين بإباء الأمر ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ ما منعك عن السجود ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أى: بلا واسطة امتثالا لأمرى وإعظاماً لخطابي، وقد مر أن ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيده فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التى تباشر بغيرهما، حتى قيل فى عمل القلب هو ماعملت يداك وحتى قيل لمن لايدين له: يداك أو كتا وفوك نفخ. وحتى لم يبق فرق بين قولك هذا مما عملته وهذا مما عملته يداك

(١) سورة «البقرة»، الآية (٣٠).

ومنه قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾(١) و(لماخلقــت بيدى) ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ استفهــام إنكار ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ممن علوت وفقت، وقيل: أستكبرت الآن أمن لم تزل مذ كنت من المستكبرين.

●● ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ يعنى: لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له؛ لأنه مخلوق مثلى فكيف أسجد لمن هو دوني؛ لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهى خلقتنى من نار مجرى المعطوف عطف البيان والإيضاح.

●● ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة، أومن السموات، أو من الخلقة التى أنت فيها؛ لأنه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته واسودَّ بعد ما كان أبيض وقبح بعدما كان حسناً، وأظلم بعدما كان نورانيا ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مرجوم أى مطرود تكبر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين وزل عنه أن الله أمر به ملائكته واتبعوا أمره إجلالا لخطابه وتعظيماً لأمره فصار مرجوماً معلوناً بترك أمره.

●● ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ بفتح الياء مدنى أى: إبعادى من كل الخير ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أى: يوم الجزاء ولا يظن أن لعنته غايتها يوم الدين، ثم تنقطع ؛ لأن معناه أن عليه اللعنة فى الدنيا وحدها فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب فينقطع الانفراد، أو لما كان عليه اللعنة فى أوان الرحمة فأولى أن تكون عليه فى غير أوانهاوكيف تنقطع وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(٢)

●● ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ فأمهلنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الوقت المعلوم الوقت الذى تقع فيه النفخة الأولى ويومه اليوم الذى وقت النفخة جزء من أجزائه، ومعنى المعلوم أنه معلوم عند الله معين لايتقدم ولايتأخر.

●●﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أقسم بعزة الله وهى سلطانه وقهره.

●● ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وبكسر اللام مكى وبصرى وشامى.

●● ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ بالرفع كوفى غير عَلِيٍّ على الابتداء أى: الحق قسمى، أو على الخبر أى أنا الحق. وغيرهم بالنصب على أنه مقسم به كقولك الله لأفعلن كذا يعنى حذف عنه الباء فانتصب، وجوابه لأملأن ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراض بين المقسم والمقسم عليه، منصوب بأقول ومعناه ولا أقول إلا الحق، والمراد بالحق إما اسمه عزوجل الذى فى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾(٣) أو الحق الذى هو نقيض الباطل عظمه الله بإقسامه به.

---

(١) سورة «يس»، الآية (٧١).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٤٤).

(٣) سورة «النور»، الآية (٢٥).

●● ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ من جنسك وهم الشياطين ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من ذرية آدم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أى: لأملان جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحدًا.

●● ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الضمير للقرآن، أو للوحى ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله وما عرفتمونى قط متصنعاً ولامدعياً بما ليس عندى حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن.

●● ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين أُوحِيَ إِلَيَّ فأنا أبلغه. وعن رسول الله (ﷺ): «للمتكلف ثلاث علامات ينازع من فوقه ويتعاطى ما لا ينال ويقول مالايعلم»[1].

●● ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ نبأ القرآن وما فيه من الوعد والوعيد وذكر البعث والنشور ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت، أو يوم بدر، أو يوم القيامة. ختم السورة بالذكر كما افتتحها بالذكر، والله الموفق.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(سورة الزمر مكية إلا قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ إلى قوله ﴿تَشْعُرُونَ﴾ وهي خمس وسبعون آية كوفي، وثنتان بصري ومدني)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن مبتدأ خبره ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نزل من الله ، أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل، أو غير صلة بل هو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ في سلطانه ﴿الْحَكِيمِ﴾ في تدبيره.

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هذا ليس بتكرار؛ لأن الأول كالعنوان للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا﴾ حال ﴿لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر فالدين منصوب بمخلصاً، وقرىء الدين بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً.

●● ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار، وعن قتادة الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله، وعن الحسن الإسلام ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: آلهة، وهو مبتدأ محذوف الخبر تقديره والذين عبدوا الأصنام يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ مصدر أي: تقريباً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين المسلمين والمشركين ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، والمعنى أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لايهدي من هو في علمه أنه يختار الكفر يعني: لايوفقه للهدى ولايعينه وقت اختياره الكفر ولكنه يخذله، وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء بنات الله، ولذا عقبه محتجا عليهم بقوله:

●● ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو جاز اتخاذ الولد على ما تظنون لاختار مما يخلق ما يشاء لا ما تختارون أنتم وتشاؤون ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له أخذ ما نسبوا إليه من الأولياء والأولاد، ودل على ذلك بقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني أنه واحد متبرىء عن انضمام الأعداد متعال عن التجزؤ والولاد، قهار غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم فأنى يكون له أولياء وشركاء، ثم دل بخلق السموات والأرض وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر، وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام على أنه واحد لايشارك قهار لايغالب بقوله:

●● ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ والتكوير اللف واللى يقال: كار العمامة على رأسه وكورها، والمعنى أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه، فشبه فى تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، أو أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعاً، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أى: يوم القيامة﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب من لم يعتبر بتسخير الشمس والقمر فلم يؤمن بمسخرهما ﴿الْغَفَّارُ﴾ لمن فكر واعتبر فآمن بمدبرهما.

●● ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: آدم - عليه السلام- ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أى: حواء من قصيراه [1]، قيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ﴾ أى: جعل عن الحسن أو خلقها فى الجنة مع آدم - عليه السلام - ثم أنزلها، أو لأنها لاتعيش إلا بالنبات، والنبات لايقوم إلا بالماء، وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ذكرا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز كما بين فى سورة الأنعام[2] والزوج اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووتر ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ثم علقه، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو ظلمة الصلب والبطن والرحم ﴿ذَلِكُمُ﴾ الذى هذه مفعولاته هو ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره، ثم بين أنه غنى عنهم بقوله:

●●﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾عن إيمانكم وأنتم محتاجون إليه لتضرركم بالكفر وانتفاعكم بالإيمان ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لأن الكفر ليس برضا الله تعالى، وإن كان بإرادته﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أى يرضى الشكر لكم؛ لأنه سبب فوزكم فيثيبكم عليه الجنة. يرضهُ بضم الهاء والإشباع مكى وعلى. يرضه بضم الهاء بدون الإشباع نافع وهشام وعاصم غير يحيى وحماد. وغيرهم يرضه ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أى: لايؤاخذ أحد بذنب آخر ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ إلى جزاء ربكم رجوعكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بخفيات القلوب.

●●﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ﴾ هو أبو جهل، أوْ كل كافر ﴿ضُرٌّ﴾ بلاء وشدة، والمسّ فى الأعراض مجاز﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إلى الله بالدعاء لايدعو غيره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه ﴿ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾

---

(١) القُصَيْرَان: ضلعان يليان الترقوتين.
القاموس (١١٨/٢).

(٢) يشير إلى الآيتين (١٤٣)، (١٤٤).

من الله عزوجل ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: نسى ربه الذى كان يتضرع إليه، وما بمعنى من كقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾[1] أو: نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى كشفه ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالا ﴿لِّيُضِلَّ﴾ ليَضل مكى وأبو عمرو ويعقوب ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: الإسلام ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿تَمَتَّعْ﴾ أمر تهديد ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ أى فى الدنيا ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ من أهلها.

●● ﴿أَمَّنْ﴾ قرأ بالتخفيف مكى ونافع وحمزة على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد غيرهم على إدخال أم عليه، ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره أمن ﴿هُوَ قَانِتٌ﴾ كغيره أى أمن هو مطيع كمن هو عاص، والقانت المطيع لله ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جرى ذكر الكافر قبله،وقوله بعده: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاته﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حالان من الضمير فى قانت ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾ أى: عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى الجنة ، ودلت الآية على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء يرجو رحمته لا عمله، ويحذر عقابه؛ لتقصيره فى عمله، ثم الرجاء إذا جاوز حده يكون أمنا والخوف إذا جاوز حده يكون إياسا وقد قال الله تعالى ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[3] فيجب أن لايجاوز أحدهما حده ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى يعلمون ويعملون به كأنه جعل من لايعمل غير عالم وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لايقنتون ويفتنون فيها، ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ، أو أريد به التشبيه أى كما لايستوى العالم والجاهل كذلك لايستوى المطيع والعاصى ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ جمع لب أى إنما يتعظ بوعظ الله أولو العقول.

●●﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بلا ياء عند الأكثر ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أى: أطاعوا الله فى الدنيا وفى يتعلق بأحسنوا؛ معناه: الذين أحسنوا فى هذه الدنيا فلهمم حسنة فى الآخرة، وهى: دخول الجنة؛ أى: حسنة لاتوصف، وقد علقه السدى بحسنة ففسر الحسنة بالصحة والعافية، ومعنى ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أى لاعذر للمفرطين فى الإحسان ألبتة حتى إن اعتلوا بأنهم لايتمكنون فى أوطانهم من التوفر على الإحسان ، قيل لهم فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فتحولوا إلى بلاد أُخَر. واقتدوا بالأنبياء والصالحين فى مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مفارقة أو طانهم وعشائرهم، وعلى غيرها من تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله وازدياد الخير ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لايهتدى إليه حساب الحسَّاب ولايعرف. وهو حال من الأجر أى موفرا.

(١) سورة «الليل»، الآية (٣).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٩٩).

(٣) سورة «يوسف»، الآية (٨٧).

●● ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ بأن أعبد الله ﴿مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: أمرت بإخلاص الدين.

●● ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين أى: مقدمهم وسابقهم فى الدنيا والآخرة، والمعنى أن الإخلاص له السبقة فى الدين فمن أخلص كان سابقاً، فالأول أمْرٌ بالعبادة مع الإخلاص والثانى بالسبق فلاختلاف جهتيهما نزلا منزلة المختلفين، فصح عطف أحدهما على الآخر.

●● ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك وذلك أن كفار قريش قالوا له – عليه السلام – : ألا تنظر إلى أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فنزلت ردًا عليهم.

●● ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ وهذه الآية إخبار بأنه يخص الله وحده بعبادته مخلصاً له دينه دون غيره، والأولى إخبار بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فالكلام أولا واقع فى نفس الفعل وإثباته وثانياً فيما يفعل الفعل لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله:

●● ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ وهذا أمر تهديد، وقيل له – عليه السلام–: إن خالفت دين آبائك فقد خسرت فنزلت ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أى: الكاملين فى الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بإهلاكها فى النار ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ أى وخسروا أهليهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم أضلوهم فصاروا إلى النار، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة فى قوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ حيث صدر الجملة بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر عرف الخسران ونعته بالمبين؛ وذلك لأنهم استبدلوا بالجنة ناراً وبالدرجات دركات.

●● ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق ﴿مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار وهى ظلل لآخرين أى النار محيطة بهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذى وصف من العذاب أو ذلك الظلل ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ليؤمنوا به ويجتنبوا مناهيه ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ ولاتتعرضوا لما يوجب سخطى خوفهم بالنار، ثم حذرهم نفسه.

●● ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الشياطين فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلبا بتقديم اللام على العين أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكون الطاغوت مصدراً، وفيها مبالغات، وهى التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأن البناء بناء مبالغة فإن الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب، وهو للاختصاص، إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها ههنا الجمع وقرىء الطواغيت ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل الاشتمال من الطاغوت أى عبادتها ﴿وَأَنَابُوا﴾ رجعوا ﴿إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ هى البشارة بالثواب تتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين وحين يحشرون.

●● ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

●● ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ هم الذين اجتنبوا وأنابوا، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة فوضع الظاهر موضع الضمير أراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب، وكذا المباح والندب حراصا على ما هو أقرب عندالله وأكثر ثواباً، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن أو يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو ونحو ذلك أو يستمعون الحديث مع القوم فيه محاسن ومساو فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أى المنتفعون بعقولهم.

●● ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ أصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب أى وجب أفأنت تنقذه جملة شرطية دخلت عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف تقديره أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هى الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار، ووضع من فى النار موضع الضمير أى تنقذه فالآية على هذا جملة واحدة، أو معناه أفمن حق عليه كلمة العذاب ينجو منه أفأنت تنقذه أى لايقدر أحد أن ينقذ من أضله الله وسبق فى علمه أنه من أهل النار.

●● ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أى: لهم منازل فى الجنة رفيعة وفوقها منازل أرفع منها يعنى للكفار ظلل من النار وللمتقين غرف ﴿مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: من تحت منازلها ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ وعد الله مصدر مؤكد، لأن قوله لهم غرف فى معنى وعدهم الله ذلك.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعنى المطر، وقيل: كل ماء فى الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه الله ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فأدخله ﴿يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ عيوناً ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجساد وينابيع نصب على الحال، أو على الظرف وفى الأرض صفة لينابيع ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض، أو أصنافه من بر وشعير وسمسم وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يجف ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد نضارته وحسنه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ فتاتاً متكسراً، فالحطام ما تفتت وتكسر من النبت وغيره ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فى إنزال الماء وإخراج الزرع ﴿لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ لتذكيراً وتنبيها على أنه لابد من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن إهمال وتعطيل.

●● ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ أى: وسع صدره ﴿لِلْإِسْلَامِ﴾ فاهتدى، وسئل رسول الله (ﷺ) عن الشرح، فقال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، فقيل: فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم.

الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت (١) ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان وبصيرة والمعنى أفمن شرح الله صدره فاهتدى كمن طبع على قلبه فقسا قلبه فحذف؛ لأن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ يدل عليه ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: من ترك ذكر الله، أو من أجل ذكر الله أى: إذا ذكر الله عندهم أو آياته ازدادت قلوبهم قساوة كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾(٢). ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ غواية ظاهرة.

●● ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ فى إيقاع اسم الله مبتدأ وبناء نزل عليه تفخيم لأحسن الحديث ﴿كِتَابًا﴾ بدل من أحسن الحديث أو حال منه ﴿مُّتَشَابِهًا﴾ يشبه بعضه بعضاً فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة والإعجاز وغير ذلك ﴿مَّثَانِيَ﴾ نعت كتابا جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه، فهو بيان لكونه متشابها؛ لأن القصص المكررة وغيرها لا تكون إلا متشابهة، وقيل: لأنه يثنى فى التلاوة فلايمل، وإنما جاز وصف الواحد بالجمع؛ لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هى جملته ألا تراك تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات فكذلك تقول أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات، أو منصوب على التمييز من متشابها كما تقول رأيت رجلا حسناً شمائل والمعنى متشابهة مثانيه ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تضطرب وتتحرك ﴿مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يقال: اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضاً شديداً والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم وفى الحديث: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتَّتْ عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» (٣) ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى إذا ذكرت آيات الرحمة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ماكان بها من الخشية والقشعريرة. وعدى بإلى لتضمنه معنى فعل متعد بإلى، كأنه قيل: اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير متقبضة، واقتصر على ذكر الله. من غير ذكر الرحمة، لأن رحمته سبقت غضبه فلأصالة رحمته إذا ذكر الله لم يخطر بالبال إلا كونه رؤوفا رحيما وذكرت الجلود وحدها أولاً، ثم قرنت بها القلوب ثانيا؛ لأن محل الخشية القلب فكان ذكرها يتضمن ذكر القلوب ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب وهو ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده وهو من علم اختيار الاهتداء ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يخلق الضلالة فيه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إلى الحق.

●● ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كمن أمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف فى نظائره، وسوء العذاب شدته، ومعناه: أن الإنسان إذا لقى مخوفاً من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقى بها وجهه؛ لأنه أعز أعضائه عليه، والذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه

(١) رواه الحاكم، والبيهقى فى «شعب الإيمان»، من حديث ابن مسعود، وفى سنده مقال.
(٢) سورة «التوبة»، الآية (١٢٥).
(٣) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٣/ ٥٨٧٩).

فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلابوجهه الذى كان يتقى المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أى: تقول لهم خزنة النار ﴿ذُوقُوا﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أى: كسبكم.

•• ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التى لايحتسبون ولايخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بيناهم آمنون إذ فوجئوا من مأمنهم.

•• ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ونحو ذلك من عذاب الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لآمنوا.

•• ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليتعظوا .

•• ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة كما تقول جاءنى زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلا فتذكر رجلا أو إنساناً توكيداً، أو نصب على المدح ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف ولم يقل مستقيما للإشعار بأن لايكون فيه عوج قط، وقيل: المراد بالعوج الشك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر.

•• ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً﴾ بدل ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ متنازعون ومختلفون ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا﴾ مصدر سلم والمعنى ذا سلامة ﴿لِّرَجُلٍ﴾ أى: ذا خلوص له من الشركة. سالماً مكى وأبو عمروأى خالصاً له ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ صفة، وهو تمييز والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالاهما، وإنما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقريء مثلين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذى لا إله إلا هو ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره. مثل الكافر ومعبوديه بعبد اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، وكل واحد منهم يدعى أنه عبده فهم يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهن شتى،وهو متحير لايدرى أيهم يرضى بخدمته وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته، وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه فهمه شعاع وقلبه أوزاع والمؤمن يعبد له سيد واحد فهمه واحد وقلبه مجتمع.

•• ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أى: ستموت ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وبالتخفيف من حل به الموت، قال الخليل (١) أنشد أبو عمرو:

وتسألنى تفسير ميت وميت ... فدونك قد فسرت إن كنت تعقل
فمن كان ذا روح فذلك ميت ... وما الميت إلا من إلى القبر يحمل

كانوا يتربصون برسول الله (ﷺ) موته فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنى للتربص وشماتة

---

(١) هو العلامة؛ الخليل بن أحمد الفراهيدى، راجع ترجمته عند تفسير الآية (١)، من سورة «الفاتحة».

الفانى بالفانى، وعن قتادة نعى إلى نبيه نفسه ونعى إليكم أنفسكم أى: إنك وإياهم فى عداد الموتى؛ لأن ماهو كائن فكأن قد كان.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أى: إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا واجتهدت فى الدعوة فلجوا فى العناد ويعتذرون بما لاطائل تحته تقول الأتباع: أطعنا ساداتنا وكبراءنا، وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون قال الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - :ماخصومتنا ونحن إخوان، فلما قتل عثمان - رضى الله عنه - قالوا: هذه خصومتنا، وعن أبى العالية نزلت فى أهل القبلة وذلك فى الدماء والمظالم التى بينهم، والوجه هو الأول ألا ترى إلى قوله:

●● ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقوله: والذى جاء بالصدق وصدق به وما هو إلا بيان وتفسير للذين تكون بينهم الخصومة. كذب على الله افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ بالأمر الذى هو الصدق بعينه وهو ماجاء به محمد (ﷺ) ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية أو اهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أى لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام فى للكافرين إشارة إليهم.

●● ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هو رسول الله (ﷺ) جاء بالحق وآمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه فى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(١) فلذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقال الزجاج، روى عن على - رضى الله عنه - أنه قال: والذى جاء بالصدق محمد رسول الله (ﷺ) والذى صدق به أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وروى أن الذى جاء بالصدق محمد رسول الله (ﷺ) والذى صدق به المؤمنون والكل صحيح كذا قالوا: قالوا: والوجه فى العربية أن يكون جاء وصدق لفاعل واحد؛ لأن التغاير يستدعى إضمار الذى وذا غير جائز، أو إضمار الفاعل من غير تقدم الذكر وذا بعيد.

●● ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إضافة أسوأ وأحسن من إضافة الشىء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك: الأشج(٢) أعدل بنى مروان.

●● ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفى فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها ﴿عَبْدَهُ﴾ أى محمداً (ﷺ). عباده حمزة وعلى أى الأنبياء والمؤمنين وهو مثل ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ

---

(١) سورة «المؤمنون»، الآية (٤٩).

(٢) الأشج: يقصد به عمر بن عبدالعزيز، راجع ترجمته عند تفسير الآية (١)، من سورة «الفاتحة».

﴿الْمُسْتَهْزِئِين﴾[1]. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِه﴾ أى بالأوثان التى اتخذوها آلهة من دونه، وذلك أن قريشا قالت لرسول الله(ﷺ) إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وإنا نخشى عليك مضرتها لعيبك إياها ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد﴾ .

●● ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ بغالب منيع ﴿ذِى انتِقَام﴾ ينتقم من أعدائه، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم وينصرهم عليهم. ثم أعلم بأنهم مع عبادتهم الأوثان مقرون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض بقوله:

●● ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّه﴾ بفتح الياء سوى حمزة ﴿بِضُر﴾ مرض، أو فقر أو غير ذلك ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّه﴾ دافعات شدته عنى ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَة﴾ صحة أو غنى أو نحوهما ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِه﴾ كاشفات ضره، وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل بصرى، وفرض المسألة فى نفسه دونهم، لأنهم خوفوه معرة الأوثان وتخبيلها فأمر بأن يقررهم أولا بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم بعد التقرير فإن أرادنى خالق العالم الذى أقررتم به بضر أو برحمة هل يقدرون على خلاف ذلك، فلما أفحمهم قال الله تعالي: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّه﴾ كافياً لمعرة أوثانكم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون﴾ يروى أن النبى (ﷺ) سألهم فسكتوا فنزل قل حسبى الله، وإنما قال: كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله: ويخوفونك بالذين من دونه؛ لأنهن إناث وهن اللات والعزى ومناة، وفيه تهكم بهم وبمعبوديهم.

●● ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُم﴾ على حالكم التى أنتم عليها وجهتكم من العداوة التى تمكنتم منها، والمكانة بمعنى المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث للزمان وهما للمكان ﴿إِنِّى عَامِل﴾ أى على مكانتى وحذف للاختصار تولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأن حالته تزداد كل يوم قوة لأن الله تعالى ناصره ومعينه... ألا ترى إلى قوله:

●● ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيم﴾ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم فى الدنيا والآخرة، لأنهم إذا أتاهم الخزى والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه وبذل ذليل من أعدائه، ويخزيه صفة للعذاب كمقيم أى عذاب مُخْزٍ له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم وهو عذاب النار. مكاناتكم أبو بكر وحماد.

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَاب﴾ القرآن ﴿لِلنَّاس﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينذروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ﴿بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِه﴾ فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن اختار الضلالة فقد ضرها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيل﴾ بحفيظ. ثم أخبر بأنه الحفيظ القدير عليهم بقوله:

---

(1) سورة «الحجر»، الآية (٩٥).

●● ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الأنفس الجمل كما هى وتوفيها إماتتها، وهو أن يسلب ماهى به حية حساسة دراكة ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها أى يتوفاها حين تنام تشبيها للنائمين بالموتى حيث لايميزون ولايتصرفون كما أن الموتى كذلك، ومنه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾(١) ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ﴾ قُضِىَ حمزة وعلى ﴿عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ الحقيقى أى: لايردها فى وقتها حية ﴿وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ﴾ النائمة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت ضربه لموتها، وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها ويقبضها، وهى الأنفس التى تكون معها الحياة والحركة، ويتوفى الأنفس التى لم تمت فى منامها وهى أنفس التمييز، قالوا: فالتى تتوفى فى المنام هى نفس التمييز لانفس الحياة؛ لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس، ولكل إنسان نفسان إحداهما نفس الحياة، وهى التى تفارق عند الموت، والأخرى نفس التمييز وهى التى تفارقه إذا نام، وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما- فى ابن آدم نفس وروح بينهما شعاع مثل شعاع الشمس، فالنفس هى التى بها العقل، والتمييز والروح هى التى بها النفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه، وعن على - رضى الله عنه - قال: تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها فى الجسد فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى جسده بأسرع من لحظة، وعنه: ما رأت نفسه النائم فى السماء فهى الرؤيا الصادقة، ومارأت بعد الإرسال فيلقنها الشيطان فهى كاذبة، وعن سعيد بن جبير أن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقى فى المنام فيتعارف منها ما شاء أن يتعارف، فيمسك التى قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجسادها إلى انقضاء مدة حياتها، وروى أن أرواح المؤمنين تعرج عند النوم فى السماء فمن كان منهم طاهرا أذن له فى السجود ومن لم يكن منهم طاهرا لم يؤذن له فيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أن فى توفى الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل ﴿لَآيَاتٍ﴾ على قدرة الله وعلمه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون.

●● ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من دونه إذنه ﴿شُفَعَاءَ﴾ حين قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (٢) ولايشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه أيشفعون ولو كانوا لايملكون شيئاً قط ولاعقل لهم.

●● ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أى: هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه، وانتصب جميعاً على الحال ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقرير لقوله: لله الشفاعة جميعاً، لأنه إذا كان له

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (٦٠).

(٢) سورة «يونس»، الآية (١٨).

الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكًا لها ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ متصل بما يليه معناه له ملك السموات والأرض اليوم، ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك فى ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرة.

●● ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ مدار المعنى على قوله وحده أى إذا أفرد الله بالذكر ولم تذكر معه آلهتهم ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾ أى: نفرت وانقبضت ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ يعنى آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لافتتانهم بها، وإذا قيل لا إله إلا الله وحده لاشريك له نفروا؛ لأن فيه نفيا لآلهتهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية فى بابه، فالاستبشار أن يمتلىء قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز أن يمتلىء غما وغيظا حتى يظهر الانقباض فى أديم وجهه ، والعامل فى إذا ذكر هو العامل فى إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجئوا وقت الاستبشار.

●● ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: يا فاطر وليس بوصف كما يقوله المبرد والفراء ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ السر والعلانية ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾ تقضى ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وقيل هذه محاكمة من النبى للمشركين إلى الله، وعن ابن المسيب لا أعرف آية قرئت فدعى عندها إلا أجيب سواها، وعن الربيع بن خثيم وكان قليل الكلام أنه أخبر بقتل الحسين [(١)] -رضى الله عنه - وقالوا الآن يتكلم فما زاد أن قال: آه أو قد فعلوا وقرأ هذه الآية، وروى أنه قال على أثره: قتل من كان (ﷺ) يجلسه فى حجره ويضع فاه على فيه.

●● ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ الهاء تعود إلى ما ﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ شدته ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ وظهر لهم من سخط الله وعذابه مالم يكن قط فى حسبانهم ولا يحدثون به نفوسهم، وقيل: عملوا أعمالا حسبوها حسنات فإذا هى سيئات ، وعن سفيان الثورى أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر [(٢)] عند موته فقيل له فقال: أخشى آية من كتاب الله وتلاها فأنا أخشى أن يبدو لى من الله مالم أحتسبه.

---

(١) هو السبط الشهيد، الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - أبو عبدالله المدنى، ريحانة رسول الله ﷺ وحفيده، وأحد سيدى شباب أهل الجنة، مناقبه - هو وأخوه - كثيرة مشهورة، وقصة جهادهما منشورة. ولد عام ٤هـ - بعد الحسن بنحو عام - واستشهد عام ٦١هـ بكربلاء، العراق.
تهذيب التهذيب (٥٢٧/١ - ٥٣٤).

(٢) هو الإمام العلم؛ محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير، التيمى، أبو عبدالله، روى عن بعض الصحابة، وعن جمع من كبار التابعين، وروى عنه الناس، كان إماماً فى الحديث، وكذا فى الزهد والورع، «ثقة فاضل، حديثه فى الكتب الستة، من الثالثة».
ولد عام ٥٤هـ، وتوفى عام ١٣٠هـ.
تهذيب التهذيب (٣٠٢/٥و ٣٠٣).

●● ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: سيئات أعمالهم التى كسبوها، أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائف أعمالهم وكانت خافية عليهم، أو عقاب ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم وأحاط ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاء هزئهم.

●● ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاه﴾ أى: أعطيناه تفضلايقال خولنى إذا أعطاك على غير جزاء ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ ولاتقف عليه، لأن جواب إذا ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منى أنى سأعطاه لما فِىَّ من فضل واستحقاق، أو على علم منى بوجوه الكسب كما قال قارون ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى﴾[1] وإنما ذكر الضمير فى أوتيته وهو للنعمة نظرا إلى المعنى؛ لأن قوله نعمة منا شيئاً من النعمة وقسما منها، وقيل: ما فى إنما موصولة لا كافة فيرجع الضمير إليها أى إن الذى أوتيته على علم ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ إنكار له كأنه قال: ماخولناك من النعمة لما تقول بل هى فتنة أى ابتلاء وامتحان لك أتشكر أم تكفر، ولما كان الخبر مؤنثا أعنى فتنة ساغ تأنيث المبتدإ لأجله، وقرىء بل هو فتنة على وفق إنما أوتيته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنها فتنة،والسبب فى عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها فى أول السورة بالواو أن هذه وقعت مسببة عن قوله وإذا ذكر اللهوحده اشمأزت على معنى أنهم يشمئزون من ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز بذكره دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآى اعتراض، فإن قلت حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه قلت ما فى الاعتراض من دعاء الرسول (ﷺ) ربه بأمر من الله، وقوله : أنت تحكم بين عبادك، ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيد لأنكار اشتمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله فى الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل قل يارب لايحكم بينى وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجرأة إلا أنت، وقوله: ولو أن للذين ظلموا. متناول لهم، ولكل ظالم إن جعل عاماً، أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل: ولو أن لهؤلاء الظالمين ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به حين حكم عليهم بسوء العذاب. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هى إلا جملةناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو نحو قام زيد وقعد عمرو، وبيان وقوعها مسببة أنك تقول: زيد يؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه، فهذا تسبيب ظاهر، ثم تقول: زيد كافر بالله فإذ مسه ضر التجأ إليه، فتجىء بالفاء مجيئك بها ثمة كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان فى جعله سببا فى الالتجاء.

●● ﴿قَدْ قَالَهَا﴾ هذه المقالة وهى قوله: إنما أوتيته على علم ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قارون وقومه حيث قال: إنما أوتيته عل علم عندى وقومه راضون بها، فكأنهم قالوها، ويجوز أن يكون فى الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا وما يجمعون منها.

---

(١) سورة «القصص»، الآية (٧٨).

●● ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: جزاء سيئات كسبهم، أو سمى جزاء السيئة سيئة للازدواج كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(1). ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿مِنْ هَؤُلاءِ﴾ أى: من مشركى قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: سيصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين من عذاب الله، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم.

●● ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق وقيل يجعله على قدر القوت ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه لا قابض ولا باسط إلا الله عزوجل.

●● ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ وبسكون الياء بصرى وحمزة وعلى ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف فى المعاصى والغلو فيها ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ لاتيأسوا، وبكسر النون على وبصرى ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بالعفو عنها إلا الشرك، وفى قراءة النبى - عليه السلام - يغفر الذنوب جميعاً ولايبالى، ونظير نفى المبالاة نفى الخوف فى قوله: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾(2). قيل: نزلت فى وحشى (3) قاتل حمزة - رضى الله عنه -، وعن رسول الله (ﷺ): «ما أحب أن لى الدنيا ومافيها بهذه الآية»(4). ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ بستر عظائم الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب.

●●﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ وأخلصوا له العمل ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب.

●● ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(5) وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ أى: يفجؤكم وأنتم غافلون كأنكم لاتخشون شيئاً لفرط غفلتكم.

●● ﴿أَن تَقُولَ﴾ لئلا تقول ﴿نَفْسٌ﴾ إنما نكرت؛ لأن المراد بعض الأنفس وهى نفس الكافر، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج فى الكفر شديد، أو بعذاب عظيم، ويجوز أن

---

(1) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

(2) سورة «الشمس»، الآية (١٥).

(3) هو الصحابى التائب؛ وحشى بن حرب، الحبشى، أبو دَسَمَة، ويقال: أبو حرب، وهو قاتل حمزة، استأجرته لذلك هند زوج أبى سفيان، وأسلم يوم الفتح، وقدم مع وفد الطائف على رسول الله ﷺ، فاستوصفه عن كيفية قتل حمزة، فذكره له؛ فقال له: غيب وجهك عنى. فكان لا يريه وجهه. حسن إسلامه وجهاده، وشارك فى قتل مسيلمة الكذاب؛ ففرح وقال: قتلت أفضل الناس، وأحقر الناس. يقصد أنه كفَّر عن ذنبه. توفى فى حمص بعد عام ٢٠هـ.
تهذيب التهذيب (٦/ ٧٤).

(4) الحديث عند الطبرانى فى «المعجم الأوسط»، وعند غيره، وفيه ضعف.

(5) سورة «الزمر»، الآية (١٨).

يراد التكثير ﴿يَا حَسْرَتَىٰ﴾ الألف بدل من ياء المتكلم، وقرىء : ياحسرتى على الأصل وياحسرتاى على الجمع بين العوض والمعوض منه ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ قصرت وما مصدرية مثلها فى ﴿بِمَا رَحُبَت﴾(١) ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ فى أمر الله أو فى طاعة الله، أو فى ذاته،وفى حرف عبد الله فى ذكر الله، والجنب الجانب يقال: أنا فى جنب فلان وجانبه وناحيته، وفلان لين الجانب والجنب، ثم قالوا: فرط فى جنبه وفى جانبه يريدون فى حقه، وهذا من باب الكناية؛ لأنك إذا أثبت الأمر فى مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه، ومنه الحديث: من الشرك الخفى أن يصلى الرجل لمكان الرجل، أى لأجله (٢)، وقال الزجاج: معناه فرط فى طريق الله، وهو توحيده والإقرار بنبوة محمد (ﷺ). ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ المستهزئين. قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها، ومحل وإن كنت النصب على الحال كأنه قال: فرطت وأنا ساخر أى فرطت فى حال سخريتى.

●● ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ أى: أعطانى الهداية ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ من الذين يتقون الشرك. قال الشيخ الإمام أبو منصور - رحمه الله تعالى - : هذا الكافر أعرف بهداية الله من المعتزلة، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتباعهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُم﴾(٣) يقولون: لو وفقنا الله للهداية وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه ولكن علم منا اختيار الضلالة والغواية فخذلنا ولم يوفقنا،والمعتزلة يقولون: بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لم يهتدوا والحاصل أن عند الله لطفا من أعطى ذلك اهتدى، وهو التوفيق والعصمة، ومن لم يعطه ضل وغوى، وكان استحبابه العذاب وتضييعه الحق بعدما مكن من تحصيله لذلك.

●● ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الموحدين.

●● ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بلى رد من الله عليه كأنه يقول: بلى قد جاءتك آياتى وبينت لك الهداية من الغواية وسبيل الحق من الباطل ومكنتك من اختيار الهداية على الغواية واختيار الحق على الباطل، ولكن تركت ذلك وضيعته واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الضلالة على الهدى، واشتغلت بضد ما أمرت به، فإنما جاء التضييع من قبلك فلا عذر لك، وبلى جواب لنفى تقديرى، لأن المعنى لو أن الله هدانى ما هديت، وإنما لم يقرن الجواب به، لأنه لابد من حكاية أقوال النفس على ترتيبها، ثم الجواب من بينها عما اقتضى الجواب.

---

(١) سورة «التوبة»، الآيتان (٢٥)، و(١١٨).

(٢) الحديث عند أحمد والحاكم، وعند البيهقى.

(٣) سورة «إبراهيم»، الآية (٢١).

•• ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ وصفوه بما لايجوز عليه من إضافة الشريك والولد إليه، ونفى الصفات عنه ﴿وُجُوهُهُم﴾ مبتدأ ﴿ مُسْوَدَّةٌ﴾والجملة فى محل النصب على الحال إن كان ترى من رؤية البصر وإن كان من رؤية القلب فمفعول ثان ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ منزل ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هو إشارة إلى قوله واستكبرت .

••﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ وينجى روح ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ من الشرك﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه وتفسير المفازة: ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ النار﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء أى ينجيهم بنفى السوء والحزن عنهم. أى لايمس أبدانهم أذى ولا قلوبهم خزى أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾(١) أى بمنجاة منه ؛ لأن النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح، ولهذا فسر ابن عباس - رضى الله عنهما - المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز بسبب فلاحهم؛ لأن العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة ، ويجوز أن يسمى العمل الصالح فى نفسه مفازة؛ لأنه سببها، ولامحل لـ«لا يمسهم» على التفسير الأول لأنه كلام مستأنف ومحله النصب على الحال على الثانى. بمفاراتهم كوفى غير حفص.

•• ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ رد على المعتزلة والثنوية ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾حافظ.

•• ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو مالك أمرهم وحافظها وهو من باب الكناية لأن حافظ الخزائن ومدبرأمرها هو الذى يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك، وهى المفاتيح واحدها مقليد، وقيل: لا واحد لها من لفظها، والكلمة أصلها فارسية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هو متصل بقوله: «وينجى الله الذين اتقوا» أى ينجى الله المتقين بمفازاتهم، والذى كفروا هم الخاسرون واعترض بينهما بأنه خالق كل شىء، فهو مهيمن عليه، فلايخفى عليه شىء من أعمال المكلفين فيها ومايجزون عليها أوبما يليه على أن كل شىء فى السموات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون، وقيل: سأل عثمان رسول الله (ﷺ) عن تفسير قوله: له مقاليد السموات والأرض فقال: «يا عثمان ما سألنى عنها أحد قبلك، تفسيرها لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولاحول ولاقوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير(٢) »وتأويله على هذا أن لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون.

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٨٨).
(٢) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة، ولكن ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات.

●● ﴿قُل﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾ تأمرونِّيَ مكى، تأمروننى على الأصل شامى، تأمرونِيَ مدنى، وانتصب أفغير الله بأعـبد وتأمرونى اعتراض ومعناه أفغير الله أعبد بأمركم بعد هذا البيان ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ بتوحيد الله.

●● ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبـياء - عليهـم السلام - ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الذى عملت قبل الشرك ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإنما قال: لئن أشـركت على التوحيد والموحى إليهم جماعة؛ لأن معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك مثـله، واللام والأولى موطئة للقـسم المحذوف، والثانية لام الجواب، وهـذا الجواب ساد مسد الجوابين أعنى جوابى القسم والشرط، وإنما صح هذا الـكلام مع علمه تعالى بأن رسله لايشركون؛ لأن الخطاب للـنبى- عليه الـسلام - والمراد به غيره، ولأنه عـلى سبيل الفـرض. والمحالات يصح فرضها، وقيل لئن طالعت غيرى فى السر ليحبطن ما بينى وبينك من السر.

●● ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ رد لماأمروه به من عبادة آلهتهم كأنـه قال : لاتعبد ما أمروك بعبادته بل إن عبدت فاعبد الله؛ فـحذف الشرط وجعل تقديم المفـعول عوضا عنه ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم.

●● ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عظـموه حق عظمتـه إذ دعوك إلى عبادة غيـره، ولما كان العظيم مـن الأشياء إذا عرفه الإنسان حق مـعرفته وقدره فى نفسه حـق تقديره عظمه حق تـعظيمه قيـل: وما قدروا الله حـق قدره، ثم نـبههـم على عـظمته وجـلالة شأنـه على طـريقة الـتخييل فقال: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ والمراد بهذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملـته ومجموعه تصوير عظمته والتـوقيف على كنه جلاله لاغير من غيـر ذهاب بالقبضة ولاباليمين إلى جهة حقيقة أوجهة مجاز والمـراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك قوله جميعاً، وقوله والسموات، ولأن الموضع موضع تعظيم فهو مقـتض للمبالغة، والأرض مبتدأ وقبضته الخبر، وجميعا منصوب عـلى الحال أى والأرض إذا كانت مجتمعة قبضته يوم القيـامة، والقَبْضة: المرة من القبض. والقُبْضة: المقدار المقبوض بالكف، ويقال: أعطنـى قبضة من كذا تريد معنى القَبْضة تسمية بالمصدر،وكلا المعنيين محتمل، والمعنى والأرضون جمـيعاً قَبضته أى: ذوات قبضته يقبضهن قبضةً واحدة يعنى أن الأرضين مع عظـمهن وبسطهن لايبلغن إلا قبضة واحدة من قبضـاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول الجزور أكلة لقمان أى لاتفى إلا بأكلة فذة من أكلاته، وإذا أريد معنى القبضة فظاهر؛ لأن المعنى أن الأرضين بجملتهـا مقدار ما يقبضه بكف واحدة، والمطويات من الطى الذى هو النشـر كما قال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[1] وعادة طاوى السجل أن

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (١٠٤).

يطويه بيمينه، وقيل: قبضته ملكه بلا مدافع ولامنازع وبيمينه بقدرته، وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه؛ لأنه أقسم أن يفنيها ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

•• ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾ مات ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ أى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وقيل: هم حملة العرش، أو رضوان والحور العين ومالك والزبانية ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ هى فى محل الرفع؛ لأن المعنى ونفخ فى الصور نفخةواحدة، ثم نفخ فيه نفخة أخرى، وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة بذكرها فى غير مكان ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب أو ينظرون أمر الله فيهم، ودلت الآية على أن النفخة اثنتان: الأولى للموت، والثانية للبعث، والجمهور على أنها ثلاث: الأولى للفزع، كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾(١) ،والثانية للموت والثالثة للإعادة.

••﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾ أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أى بعدله بطريق الاستعارة. يقال للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك. كما يقال: أظلمت البلاد بجور فلان، وقال -عليه الصلاة والسلام -: «الظلم ظلمات يوم القيامة»(٢) . وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها ولاترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه، وقال الإمام أبو منصور - رحمه الله -: يجوز أن يخلق الله نوراً فينوز به أرض الموقف، وإضافته إليه تعالى للتخصيص كبيت الله وناقة الله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أى صحائف الأعمال، ولكنه اكتفى باسم الجنس. ، أو اللوح المحفوظ ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ ليسألهم ربهم عن تبليغ الرسالة وما أجابهم قومهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ الحفظة، وقيل: هم الأبرار فى كل زمان يشهدون على أهل ذلك الزمان ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين العباد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ ختم الآية بنفى الظلم كما افتتحها بإثبات العدل.

•• ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أى: جزاءه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من غير كتاب ولاشاهد، وقيل: هذه الآية تفسيرقوله وهم لا يظلمون. أى: وفيت كل نفس ماعملت من خير وشر لايزاد فى شر ولاينقص من خير.

•• ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقا عنيفاً، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ﴿زُمَرًا﴾ حال أى أفواجاً متفرقة بعضها فى أثر بعض ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ﴾ بالتخفيف فيهما كوفى ﴿أَبْوَابُهَا﴾ وهى سبعة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أى حفظة

---

(١) سورة «النمل»، الآية (٨٧).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٣/ ٧٦٣٧).

جهنم، وهم الملائة الموكلون بتعذيب أهلها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من بنى آدم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى: وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأن جهنم بسوء أعمالنا كما قالوا: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾[1] فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال.

●● ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة أى: مقدرين الخلود ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس، لأن مثوى المتكبرين فاعل بئس وبئس فاعلها اسم معرف بلام الجنس، أو مضاف إلى مثله والمخصوص بالذم محذوف تقديره فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

●● ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ المراد سوق مراكبهم؛ لأنه لايذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على بعض الملوك. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ هى التى تحكى بعدها الجمل، والجملة المحكية بعدها هى الشرطية إلا أن جزاءها محذوف، وإنما حذف؛ لأنه فى صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شىء لايحيط به الوصف، وقال الزجاج: تقديره حتى إذا جاءوها ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ دخلوها فحذف دخلوها؛ لأن فى الكلام دليلا عليه، وقال قوم: حتى إذا جاءوها جاءوها وفتحت أبوابها فعندهم جاءوها محذوف، والمعنى: حتى إذا جاءوها وقع مجيئهم مع فتح أبوابها، وقيل: أبواب جهنم لاتفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾[2] فلذلك جىء بالواو كأنه قال: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها طبتم من دنس المعاصى، وطهرتم من خبث الخطايا، وقال الزجاج: أى كنتم طيبين فى الدنيا ولم تكونوا خبيثين أى: لم تكونوا أصحاب خبائث، وقال ابن عباس: طاب لكم المقام، وجعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة؛ لأنها دار الطيبين ومثوى الطاهرين قد طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قذر، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها.

●● ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أنجزنا ما وعدنا فى الدنيا من نعيم العقبى ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أرض الجنة وقد أورثوها أى ملكوها وجعلوا ملوكها، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاءون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ حال ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: يكون لكل واحد منهم جنة لاتوصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ أى فيتخذ متبوأ ومقرا من جنته حيث يشاء ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فى الدنيا الجنة.

---

(١) سورة «المؤمنون»، الآية (١٠٦).
(٢) سورة «ص» ، الآية (٥٠).

•• ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ﴾ حال من الملائكة ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أى: محدقين من حوله، ومن لابتداءالـغاية أى ابتداء حفوفـهم من حول العرش إلـى حيث شاء الله ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حال من الضمير فى حافين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى: يقولون : سبحـان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر، أو سبوح قدوس رب الملائكة والروح، وذلك للتلذذ دون التعبد لزوال التكليف ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الأنبياء والأمم، أو بين أهـل الجنة والنار ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: يقول أهل الجنة شكراً حين دخولها، و تم وعد الله لهم كما قال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] وكان رسول الله (ﷺ) يقرأ كل ليلة: بنى إسرائيل والزمر [2].

[الحواميم السبع كلها مكية. عن ابن عباس، رضى الله عنهما].

---

(١) سورة «يونس»، الآية (١٠).

(٢) الحديث عند النسائى، من حديث عائشة، رضى الله عنها.

(سورة المؤمن(1) مكية وهى خمس وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿حمٓ﴾ وما بعده بالإمالة حمزة وعلى وخلف ويحيى وحماد، وبين الفتح والكسر مدنى، وغيرهم بالتفخيم، وعن ابن عباس أنه اسم الله الأعظم.

•• ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ أى: هذا تنزيل الكتاب ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أى المنيع بسلطانه عن أن يتقول عليه متقول ﴿ الْعَلِيمِ﴾ بمن صدق به وكذب، فهو تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين.

•• ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ ساتر ذنب المؤمنين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ قابل توبة الراجعين ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِى الطَّوْلِ﴾ ذى الفضل على العارفين، أو ذى الغنى عن الكل، وعن ابن عباس: غافر الذنب وقابل التوب لمن قال لا إله إلا الله، شديد العقاب لمن لا يقول لا إله إلا الله. والتوب والثوب والأوب أخوات فى معنى الرجوع، والطول الغنى والفضل، فإن قلت: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنكيراً والموصوف معرفة؟ قلت: أما غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان؛ لأنه لم لم يرد بهما حدوث الفعلين حتى يكونا فى تقدير الانفصال فتكون إضافتهما غير حقيقية، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه، وأما شديد العقاب فهو فى تقدير شديد عقابه فتكون نكرة، فقيل: هو بدل، وقيل: لما وجدت هذه النكرة بين هذه المعارف آذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف وإدخال الواو فى وقابل التوب لنكتة؛ وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محّاءة للذنوب كأن لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول، وروى أن عمر - رضى الله عنه - افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع فى هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. بسم الله الرحمن الرحيم حم إلى قوله إليه المصير. وختم الكتاب، قال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدنى الله أن يغفر لى وحذرنى عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى. ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته. فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشياطين عليه ﴿لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ صفة أيضاً لذى الطول. ويجوز أن يكون مستأنفا ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع.

•• ﴿مَا يُجَادِلُ فِى آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ما يخاصم فيها بالتكذيب بها والإنكار لها، وقد دل على ذلك فى قوله: وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق؛ فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها واستنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها فأعظم جهاد فى سبيل الله ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى

---

(1) من أسماء سورة «غافر»، سميت بذلك لأن فيها ذكر قصة مؤمن آل فرعون.

﴿الْبِلَادِ﴾ بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة سالمين غانمين فإن عاقبة أمرهم إلى العذاب، ثم بين كيف ذلك فأعلم أن الأمم الذين كذبت قبلهم أهلكت فقال:

●● ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحا ﴿وَالْأَحْزَابُ﴾ أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هذه الأمم التى هى قوم نوح والأحزاب ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه فيقتلوه. والأخيذ: الأسير ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بالكفر ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليبطلوا به الإيمان ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ مظهر مكى وحفص يعنى أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذ الرسل أن أخذتهم فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وبالياء يعقوب. أى فإنكم تمرون على بلادهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

●● ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كلمات ربك مدنى وشامى ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فى محل الرفع بدل من كلمة ربك أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار، ومعناه كما وجب إهلاكهم فى الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار فى الآخرة. أو فى محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل، والذين كفروا: قريش، ومعناه: كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء؛ لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار، ويلزم الوقف على النار؛ لأنه لو وصل لصار...

●● ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ يعنى حاملى العرش والحافين حوله وهم الكروبيون سادة الملائكة صفة لأصحاب النار وفساده ظاهر. روى أن حملة العرش أرجلهم فى الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرقت العرش، وهم خشوع لا يرفعون طرفهم، وفى الحديث: «**إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة**[(١)]» وقيل: حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين، ومن ورائهم سبعون ألف صف من الملائكة قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم يهللون ويكبرون، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ وهو الذين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أى مع حمده إذ الباء تدل على أن تسبيحهم بالحمدلة ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وفائدته مع علمنا بأن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمده مؤمنون إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء فى غير موضع بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[(٢)] فأبان بذلك فضل

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(٢) سورة «البلد»، الآية (١٧).

الإيمان، وقد روعى التناسب فى قوله: ويؤمنون به ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنه قيل: ويؤمنون به ويستغفرون لمن فـى مثل حالهم، وفيه دليل على أن الاشتراك فـى الإيمان يجب أن يكون أدعى شىء إلى النصيحة والشفقة، وإن تباعدت الأجناس والأماكن ﴿رَبَّنَا﴾ أى يقولون ربنا وهذا المحذوف حال ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ والرحمة والعـلم هما اللذان وسعا كل شـىء فى المعنى، إذ الأصل وسع كل شىء رحمتك وعلمك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز مبالغة فى وصفه بالرحمة والعلم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أى: للذين علمت منهم التوبـة لتناسب ذكر الرحمة والعلم ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: طريق الهدى الذى دعوت إليه ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

●● ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ «من» فى موضـع نصب عطف علـى هم فى وأدخلهم، أو في وعـدتهم، والمعنى: وعـدتهم ووعدت من صلح مـن آبائهم ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى الملك الذى لا يغلب، وأنت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً خالياً عن الحكمة وموجب حكمتك أن تفى بوعدك.

●● ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى جزاء السيئـات وهو عذاب النار ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ﴾ أى رفع العذاب ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ أى يوم القيـامة إذا دخلوا النار ومقتـوا أنفسهم فيناديـهم خزنة النار:

●● ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى لمقت الله أنـفسكم أكبر مـن مقتكم أنفـسكم، فاستغنى بذكرها مرة، والمـقت أشد البغض، وانتصاب ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ﴾ بالمقت الأول عند الزمخشرى، والمعنى أنه يـقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمـارة بالسوء والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأبون قبوله وتختارون عيه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم وأنتم فى النار إذا وقعتـم فيها باتباعكـم هواهن، وقيل: معناه لمـقت الله إياكم الآن أكبر من مقـت بعضكم لبعض كقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[1] وإذ تدعون تعليل، وقال جامع العـلوم وغيره: إذ منصوب بفعل مـضمر دل عليه لمقت الله أى: يمقـتهم الله حين دعوا إلى الإيمان فكفروا، ولا ينـتصب بالمقت الأول، لأن قوله لمقت الله مبتدأ وهـو مصدر وخبره أكبرٌ من مقتكم أنفسكم، فلا يعمل فى إذ تدعـون؛ لأن المصدر إذا أخبر عنه لم يجز أن يتعلّق به شىء يكون فى صلته، لأن الإخبار عنه يؤذن بتمامه، وما يـتعلق به يؤذن بنقصانه، ولا بالثانى لاختلاف الزمانين، وهذا لأنهم مـقتوا أنفسهم فى النار وقد دعوا إلـى الإيمان فى الدنيا ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ فتصرون على الكفر.

(١) سورة «العنكبوت»، الآية (٢٥).

•• ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أى إماتتين وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، وأراد بالإماتتين خلقهم أمواتاً أولا وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وصح أن يسمى خلقهم أمواتاً إماتة، كما صح أن يقال: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وليس ثمة نقل من كبر إلى صغر، ولا من صغر إلى كبر، والسبب فيه أن الصغروالكبر جائزان على المصنوع الواحد، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه. وبالإحياءتين: الإحياءة الأولى فى الدنيا، والإحياءة الثانية البعث، ويدل عليه قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[1] وقيل: الموتة الأولى فى الدنيا، والثانية فى القبر بعد الإحياء للسؤال، والإحياء الأول إحياؤه فى القبر بعد موته للسؤال، والثانى للبعث ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ لما رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أن الله قادر على الإعادة كما هو قادر على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التى اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ من النار. أى إلى نوع من الخروج سريع أو بطئ لنتخلص ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ قط أم اليأس واقع دون ذلك فلا خروج ولا سبيل إليه، وهذا كلام من غلب عليه اليأس، وإنما يقولون ذلك تحيراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله:

•• ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أى ذلكم الذى أنتم فيه وأن لاسبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله وإيمانكم بالإشراك به ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد ﴿الْعَلِيِّ﴾ شأنه، فلا يرد قضاؤه ﴿الْكَبِيرِ﴾ العظيم سلطانه، فلا يحد جزاؤه، وقيل: كأن الحرورية أخذوا قولهم: لاحكم إلا لله من هذا. وقال قتادة: لما خرج أهل حروراء قال على - رضى الله عنه -: من هؤلاء؟ قيل: المحكمون. أى يقولون: لا حكم إلا لله، فقال على - رضى الله عنه -: كلمة حق أريد بها باطل.

•• ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وبالتخفيف مكى وبصرى ﴿رِزْقًا﴾ مطراً؛ لأنه سبب الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا يتذكر ولا يتعظ، ثم قال للمنيبين:

•• ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم.

•• ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾ ثلاثة أخبار لقوله هو مرتبة على قوله: الذى

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٨).

يريكم. أو أخبار مبتدأ محذوف، ومعنى رفيع الدرجات: رافع السموات بعضها فوق بعض، أو رافع درجات عباده فى الدنيا بالمنزلة، أو رافع منازلهم فى الجنة، وذو العرش: مالك عرشه الذى فوق السموات خلقه مطافاً للملائكة إظهاراً لعظمته مع استغنائه فى مملكته، والروح جبريل - عليه السلام - أو الوحى الذى تحيا به القلوب ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من أجل أمره أو بأمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ﴾ أى الله أو الملقى عليه وهو النبى - عليه السلام - ويدل عليه قراءة يعقوب: (لتنذر) ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يوم القيامة، لأنه يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض والأولون والآخرون. التلاقى: مكى ويعقوب.

●● ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ ظاهرون لا يسترهم شىء من جبل أو أكمة أو بناء ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أى: من أعمالهم وأحوالهم ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أى: يقول الله تعالى ذلك حين لا أحد يجيبه، ثم يجيب نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى الذى قهر الخلق بالموت، وينتصب اليوم بمدلول لمن أى لمن ثبت الملك فى هذا اليوم، وقيل ينادى مناد فيقول: لمن الملك اليوم؟! فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار.

●● ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لما قرر أن الملك لله وحده فى ذلك اليوم عدد نتائج ذلك، وهى أن كل نفس تجزى بما كسبت عملت فى الدنيا من خير وشر، وأن الظلم مأمون منه؛ لأنه ليس بظلام للعبيد، وأن الحساب لا يبطئ؛ لأنه لا يشغله حساب عن حساب، فيحاسب الخلق كله فى وقت واحد وهو أسرع الحاسبين.

●● ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أى القيامة سميت بها لأزوفها أى لقربها، ويبدل من يوم الآزفة ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ أى التراقى يعنى ترتفع قلوبهم عن مقارها فتلصق بحناجرهم فلا هى تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا ﴿كَاظِمِينَ﴾ ممسكين بحناجرهم. من كظم القربة شد رأسها، وهو حال من القلوب محمول على أصحابها، أو إنما جمع الكاظم جمع السلامة؛ لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ محب مشفق ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أى يشفع وهو مجاز عن الطاعة؛ لأن الطاعة حقيقة لا تكون إلا لمن فوقك، والمراد: نفى الشفاعة والطاعة كما فى قوله: ولا ترى الضب بها ينجحر. يريد نفى الضب وانجحاره، وإن احتمل اللفظ انتفاء الطاعة دون الشفاعة، فعن الحسن: والله ما يكون لهم شفيع ألبتة.

●● ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وما تسره من أمانة وخيانة، وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة، ثم يتفكر بقلبه فى جمالها ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته والله يعلم ذلك كله ويعلم خائنة الأعين خبر من أخبار هو فى قوله: هو الذى يريكم آياته. مثل يلقى الروح ولكن يلقى الروح قد علل بقوله: لينذر يوم التلاق، ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ولا شفيع يطاع فبعد لذلك عن أخواته.

•• ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أى والذى هذه صفاته لا يحكم إلا بالعدل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ وآلهتهم لا يقضون بشىء، وهذا تهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضى أو لا يقضى. تدعون نافع ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لقوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دونه، وأنها لا تسمع ولا تبصر.

•• ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: آخر أمر الذين كذبوا الرسل من قبلهم ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ «هم» فصل، وحقه أن يقع بين معرفتين إلا أن «أشد منهم» ضارع المعرفة فى أنه لا تدخله الألف واللام، فأجرى مجراه. منكم شامى ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أى حصوناً وقصوراً ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ عاقبهم بسبب ذنوبهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ولم يكن لهم شىء يقيهم من عذاب الله.

•• ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أى الأخذ بسبب أنهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ قادر على كل شىء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب.

•• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة ظاهرة.

•• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا﴾ هو ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ فسموا السلطان المبين سحراً وكذبا.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالنبوة ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أى أعيدوا عليهم القتل كالذى كان أولا ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ ضياع يعنى أنهم باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغنى عنهم هذا القتل الثانى، وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان، فلما بعث موسى - عليه السلام - وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم غيظاً وظنا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى - عليه السلام - وما علم أن كيده ضائع فى الكرتين جميعاً.

•• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان إذا همّ بقتله كفوه بقولهم: ليس بالذى تخافه، وهو أقل من ذلك، وما هو إلا ساحر، وإذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أن فرعون قد استيقن أنه نبى وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر، ولكن كان فيه خِبٌّ (١) وكان قتالا سفاكا للدماء فى أهون شىء، فكيف لا يقتل من أَحَسَّ

---

(١) الخِبّ: الخدَّاع، والغشَّاش، ونحوه.
القاموس (١/ ٥٩).

بأنه هو الذى يهدم ملكه، ولكن كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك، وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه، وكان قوله: ذرونى أقتل موسى تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما فى نفسه من هول الفزع ﴿إِنِّى أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه. وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾ موسى ﴿فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ بضم الياء ونصب الدال مدنى وبصرى وحفص وغيرهم بفتح الياء ورفع الدال، والأول أولى لموافقة يبدل. والفساد فى الأرض: التقاتل والتهايج الذى يذهب معه الأمن، وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ويهلك الناس قتلا وضياعاً، كأنه قال: إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه، وقرأ غير أهل الكوفة: وأن، ومعناه إنى أخاف فساد دينكم ودنياكم معا.

•• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما سمع بما أجراه فرعون من حديث قتله لقومه ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وفى قوله وربكم بعث لهم على أن يقتدوا به فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، وقال: من كل متكبر لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار، وأدل عى دناءة صاحبه وعلى فرط ظلمه، وقال: لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأنه إذا اجتمع فى الرجل التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها، و«عُذْتُ»، و«لُذْتُ» ولذت أخوان. وعُتُّ بالإدغام أبو عمرو وحمزة وعلى.

•• ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ قيل: كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا، ومن آل فرعون صفة لرجل، وقيل: كان إسرائيليا، ومن آل فرعون صلة ليكتم، أى يكتم إيمانه من آل فرعون: واسمه سمعان، أو حبيب، أو خربيل، أو حزبيل، والظاهر الأول ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم كأنه قيل: أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل نفس محرمة وما لكم علة فى ارتكابها إلا كلمة الحق، وهى قوله ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وهو ربكم أيضا لا ربه وحده ﴿وَقَدْ جَاءَكُم﴾ الجملة حال ﴿بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعنى أنه لم يحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة ولكن ببينات من عند من نسب إليه الربوبية، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ احتج عليهم بطريق التقسيم فإنه لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن يك كاذباً فعليه وبال كذبه ولا يتخطاه. وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم من العذاب، ولم يقل كل الذى يعدكم مع أنه وعد من نبى صادق القول مداراة لهم وسلوكا لطريق الإنصاف فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له وليس فيه نفى إصابة

الكل، فكأنه قال لهم: أقل ما يكون فى صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل وفى ذلك هلاككم، وكان وعدهم عذاب الدنيا والآخرة، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل أيضا، وتفسير البعض بالكل مزيف ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مجاوز للحد ﴿كَذَّابٌ﴾ فى ادعائه، وهذا أيضاً من باب المجاملة، والمعنى أنه إن كان مسرفا كذاباً خذله الله وأهلكه فتتخلصون منه، أو لو كان مسرفا كذاباً لما هداه الله بالنبوة ولما عضده بالبينات، وقيل: أوهم أنه عنى بالمسرف موسى، وهو يعنى به فرعون.

•• ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ عالين وهو حال من كم فى: لكم ﴿فِى الأَرْضِ﴾ فى أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ يعنى أن لكم ملك مصر، وقد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله أى عذابه، فإنه لا طاقة لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد، وقال: ينصرنا، وجاءنا، لأنه منهم فى القرابة، وليعلمهم بأن الذى ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ﴾ أى: ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله يعنى: لا أستصوب إلا قتله، وهذا الذى تقولونه غير صواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأى ﴿إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ طريق الصواب والصلاح، أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر. يعنى أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول، وقد كذب؛ فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى ـ عليه السلام ـ ولكنه كان يتجلد، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة.

•• ﴿وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ أى مثل أيامهم؛ لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوله:

•• ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ولم يلتبس أن كل حزب منهم كان له يوم دمار اقتصر على الواحد من الجمع، ودأب هؤلاء دءوبهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصى، وكون ذلك دائباً دائما منهم لا يفترون عنه، ولابد من حذف مضاف، أى مثل جزاء دأبهم، وانتصاب مثل الثانى بأنه عطف بيان لمثل الأول ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: وما يريد الله أن يظلم عباده فيعذبهم بغير ذنبه أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب. يعنى: أن تدميرهم كان عدلا، لأنهم استحقوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(١) حيث جعل المنفى إرادة ظلم منكّر ومن بَعُدَ عن إرادة ظلم مّا لعباده كان عن الظلم أبعد وأبعد،

---

(١) سورة «فصلت»، الآية (٤٦).

وتفسير المعتزلة بأنه لا يريد لهم أن يظلموا بعيد، لأن أهل اللغة قالوا: إذا قال الرجل لآخر: لا أريد ظلماً لك معناه لا أريد أن أظلمك. وهذا تخويف بعذاب الدنيا، ثم خوفهم من عذاب الآخرة بقوله:

●● ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أى يوم القيامة. التنادى مكى ويعقوب فى الحالين، وإثبات الياء هو الأصل وحذفها حسن، لأن الكسرة تدل على الياء وآخر هذه الآى على الدال، وهو ما حكى الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾(١) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾(٢) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾(٣) وقيل: ينادى مناد: ألا إن فلانا سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ألا إن فلاناً شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

●● ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ منحرفين عن موقف الحساب إلى النار ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع ودافع ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مرشد.

●● ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هو يوسف بن يعقوب، وقيل: يوسف بن إفرايم ابن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا عشرين سنة، وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمنه، وقيل: هو فرعون آخر وبخهم بأن يوسف أتاكم من قبل موسى بالمعجزات ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حكما من عند أنفسكم من غير برهان. أى أقمتم على كفركم وظننتم أنه لايجدد عليكم إيجاب الحجة﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أى مثل هذا الإضلال يضل الله كل مسرف فى عصيانه مرتاب شاك فى دينه.

●● ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ بدل من مَن هو مسرف وجاز إبداله منه وهو جمع؛ لأنه لا يريد مسرفا واحداً بل كل مسرف ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ فى دفعها وإبطالها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا﴾ أى عظم بغضاً، وفاعل كبر ضمير من هو مسرف، وهو جمع معنى وموحد لفظا فحمل البدل على معناه، والضمير الراجع إليه على لفظه، ويجوز أن يرفع الذين على الابتداء، ولابد فى هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير فى كبر تقديره: جدال الذين يجادلون كبر مقتاً ﴿عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قلب بالتنوين أبو عمرو، وإنما وصف القلب بالتكبر والتجبر، لأنه منبعهما كما تقول: سمعت الأذن وهو كقوله: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾(٤) وإن كان الآثم هو الجملة.

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٤٤).
(٢) سورة «الأعراف»، الآية (٥٠).
(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٤٨).
(٤) سورة «البقرة»، الآية (٢٨٣).

•• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ تمويهاً على قومه أو جهلا منه ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا﴾ أى قصراً وقيل: الصرح: البناء الظاهر الذى لا يخفى على الناظر وإن بعد، ومنه يقال: صرّح الشيء إذا ظهر ﴿لَعَلِّي﴾ وبفتح الياء حجازى وشامى وأبو عمرو ﴿أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ ثم أبدل منها تفخيما لشأنها وإبانة أنه يقصد أمراً عظيما.

•• ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أى طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب حفص على جواب الترجى تشبيهاً للترجى بالتمنى. وغيره بالرفع عطفاً على أبلغ ﴿إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ والمعنى فأنظر إليه ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ أى موسى ﴿كَاذِبًا﴾ فى قوله له إله غيرى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين وذلك الصد ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ المستقيم وبفتح الصاد كوفى ويعقوب أى غيره صدا، أو هو بنفسه صدوداً والمزين الشيطان بوسوسته كقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾(١) أو الله تعالى، ومثله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾(٢) ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ خسران وهلاك.

•• ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾ اتبعونى فى الحالين مكى ويعقوب وسهل ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وهو نقيض الغى وفيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغى. أجمل أولا، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها بقوله:

•• ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ تمتع يسير، فالإخلاد إليها أصل الشر ومنبع الفتن وثنى بتعظيم الآخرة وبين أنها هى الوطن والمستقر بقوله: ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾. ثم ذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف بقوله:

•• ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يُدخلون مكى وبصرى ويزيد وأبو بكر. ثم وازن بين الدعوتين، دعوته إلى دين الله الذى ثمرته الجنات، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذى عاقبته النار بقوله:

•• ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي﴾ وبفتح الياء حجازى وأبو عمرو ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ أى الجنة ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

•• ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ هو بدل من تدعوننى الأول يقال: دعاه إلى كذا ودعاه له كما يقال:

---

(١) النمل (٢٤)، والعنكبوت (٣٨).

(٢) سورة «النمل»، الآية (٤).

هداه إلى الطريق وهداه له ﴿وأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: بربوبيته، والمراد بنفى العلم: نفى المعلوم كأنه قال: وأشرك به ما ليس بإله وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها؟! ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى، وتكرير النداء لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه وأنه من آل فرعون، وجئ بالواو فى النداء الثالث دون الثانى، لأن الثانى داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له بخلاف الثالث.

●● ﴿لا جَرَمَ﴾ عند البصريين لا رد لما دعاه إليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وأن مع ما فى حيزه فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾ معناه أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط. أى: من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته وما تدعون إليه وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدعى الربوبية أو معناه: ليس له استجابة دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة، أو دعوة مستجابة؛ جعلت الدعوة التى لا استجابة لها ولامنفعة كلا دعوة، أو سميت الاستجابة باسم الدعوة كما سمى الفعل المجازى عليه بالجزاء فى قوله: كما تدين تدان. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ وأن رجوعنا إليه ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وأن المشركين ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

●● ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾أى: من النصيحة عند نزول العذاب ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ وأسلم ﴿أَمْرِي﴾ وبفتح الياء مدنى وأبو عمرو ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنهم توعدوه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بأعمالهم ومآلهم.

●● ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، وقيل: إنه خرج من عندهم هارباً إلى جبل فبعث قريباً من ألف فى طلبه فمنهم من أكلته السباع ومن رجع منهم صلبه فرعون ﴿وَحَاقَ﴾ ونزل ﴿بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

●● ﴿النَّارُ﴾ بدل من سوء العذاب أو خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار، أو مبتدأ خبره: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وعرضهم عليها إحراقهم بها يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أى: فى هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر، أو ينفس عنهم، ويجوز أن يكون غدوا وعشيا عبارة عن الدوام، هذا في الدنيا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يقال لخزنة جهنم ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ من الإدخال مدنى وحمزة وعلى وحفص وخلف ويعقوب. وغيرهم ادخلوا أى يقال لهم: ادخلوا يا آل فرعون ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى عذاب جهنم. وهذه الآية دليل على عذاب القبر.

●● ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ واذكر وقت تخاصمهم ﴿فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعنى الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تباعا كخدم فى جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جزءاً ﴿مِنَ النَّارِ﴾.

●● ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ التنوين عوض من المضاف إليه أى إنـا كلنا فيها لايغنى أحد عن أحد ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ قضى بينهم بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للقوّام بتعذيب أهلهـا، وإنما لم يقل لخزنتها؛ لأن فى ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا، ويحتمل أن جهنم هـى أبعد النار قعراً من قولهم: بئر جهنّام: بعيدة القعر، وفيها أعتى الكفار وأطغاهم فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ بقدر يوم من الدنيا ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى الخزنة توبيخا لهـم بعد مدة طويلة: ﴿أَوَلَمْ تَكُ﴾ أى: أو لم تك قصـة وقوله ﴿تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ تفسير للقصة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا﴾ أى: الكفار ﴿بَلَىٰ قَالُوا﴾ أى الخزنة تهكما بهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم ولا استجابة لدعائكم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ بطلان وهو من قول الله تعالى، ويحتمل أن يكون من كلام الخزنة.

●● ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة يعنى أنه يغلـبهم فى الدارين جميعا بالحجة والظـفر على مخالفيهم وإن غلبوا فـى الدنيا فى بعض الأحايين امـتحانا من الله والعـاقبة لهم، ويتـيح الله من يقتص مـن أعدائهم ولو بعـد حين، ويوم نصب محمول على موضع الجار والمجرور كما تقول: جئتك فى أمس واليوم، والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب يريد الأنبياء والحفظة، فالأنبياء يشهدون عند رب العزة على الكفرة بالتكذيب، والحفظة يشهدون على بنى آدم بما عملوا من الأعمال. تقوم بالتاء الرازى[(١)] عن هشام [(٢)].

●● ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ هذا بدل مـن يوم يقوم أى لايقـبل عذرهم، لا يـنفع [(٣)] كوفى ونافع ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البـعد من رحـمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أى سـوء دار الآخرة وهـو عذابها.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ يريد به جـميع ما أتى به فى بـاب الدين من المعجزات والتوراة

---

(١) هو العلامة المقرئ؛ أحمد بن محمد بن عثمان بن شبيب، أبو بكر الرازى، من كبار القراء، نزل مصر، وكان مـن رؤوس علماء عصره، وأُخـذت عنه الحروف. توفى بمـصر عام ٣١٢هـ، لم يكـن له فى الحديث كبير نصيب.

غاية النهاية (١/ ١٢٣).

(٢) هو: هشام بن عمار بن نصير، أبو الوليد، السلـمى، الدمشقى، من أكابر علماء دمشق، وإمامهم فى عصره، ولد عام ١٥٣هـ، وتوفى عام ٢٤٥هـ.

غاية النهاية (٢/ ٣٥٤ _ ٣٥٦).

(٣) هذا يدل على أن النسفى يقرؤها: «لاتنفع»، بالتاء.

والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ أى التوراة والإنجيل والزبور، لأن الكتاب جنس أى تركنا الكتاب من بعد هذا إلى هذا.

●● ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ إرشادا وتذكرة وانتصابهما على المفعول له، أو على الحال ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوى العقول.

●● ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مايجرعك قومك من الغصص ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعنى: إن ماسبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أى لذنب أمتك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أى: دم على عبادة ربك والثناء عليه، وقيل: هما صلاتا العصر والفجر، وقيل: قل سبحان الله وبحمده.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ لاوقف عليه، لأن خبر إن: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تعظم وهو إرادة التقدم والرياسة وأن لايكون أحد فوقهم فلهذا عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك، لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة، أو إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسدا وبغيا ويدل عليه قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾(١). أو إرادة دفع الآيات بالجدل ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ ببالغى موجب الكبر ومقتضيه وهو متعلق إرادتهم من الرياسة، أو النبوة، أو دفع الآيات ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجئ إليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما تعمل ويعملون؛ فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

●● ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ لما كانت مجادلتهم فى آيات الله مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها حجوا(٢) بخلق السموات الأرض؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها فإن من قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم.

●● ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ «لا» زائدة ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بتاءين كوفى، وبياء وتاء غيرهم، وقليلا صفة مصدر محذوف أى: تذكرا قليلا يتذكرون، وما صلة زائدة.

●● ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لابد من مجيئها وليس بمرتاب فيها، لأنه لابد من جزاء لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لايصدقون بها.

---

(١) سورة «الأحقاف»، الآية (١١).
(٢) حُجُّوا: أى لزمتهم الحجة، وأبطلت رأيهم.
يقال: حاجَّ فلان، إذا ناظره، وحجَّه؛ إذا غلبه، وظهر عليه.

•• ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي﴾ اعبدونى ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثبكم فالدعاء بمعنى العبادة كثير فى القران ويدل عليه قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وقال عليه السلام: «الدعاء هو العبادة». وقرأ هذه الآية(ﷺ)(١). وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :وحدونى أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء هو العبادة، ثم للعبادة بالتوحيد وقيل: سلونى أعطكم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ سيُدخلون مكى وأبو عمرو ﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين.

•• ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هو من الإسناد المجازى أى مبصرا فيه، لأن الإبصار فى الحقيقة لأهل النهار وقرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال ولم يكونا حالين أو مفعولا لهما رعاية لحق المقابلة، لأنهما متقابلان معنى، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر، ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى، ولو قيل: ساكنا لم تتميز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج أى: ساكن لاريح فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ولم يقل: لمفضل أو لمتفضل؛ لأن المراد تنكير الفضل وأن يجعل فضلا لايوازيه فضل وذلك إنما يكون بالإضافة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: ولكن أكثرهم حتى لايتكرر ذكر الناس لأن فى هذا التكرير تخصيصا لكفران النعمة بهم وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولايشكرونه كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(٣).

•• ﴿ذَلِكُمُ﴾ الذى خلق لكم الليل والنهار ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة أى هو الجامع لهذه الأوصاف من الربوبية والإلهية وخلق كل شىء والوحدانية ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان؟!.

•• ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يطلب الحق أفك كما أفكوا.

•• ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ مستقرا ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفا فوقكم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ قيل لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان، وقيل لم يخلقهم منكوسين كالبهائم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللذيذات ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

•• ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: الطاعة من الشرك والرياء

---

(١) الحديث عند أصحاب السنن، عن النعمان بن بشير.

(٢) سورة «الحج»، الآية (٦٦).

(٣) سورة «إبراهيم»، الآية (٣٤).

قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين[1] ولما طلب الكفار منه ـ عليه السلام ـ عبادة الأوثان نزل:

•• ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ هى القرآن، وقيل: العقل والوحى ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ أستقيم وأنقاد ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

•• ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ أى أصلكم ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ اقتصر على الواحد، لأن المراد بيان الجنس ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ثم يبقيكم لتبلغوا وكذلك: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ وبكسر الشين مكى وحمزة وعلى وحماد ويحيى والأعشى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى من قبل بلوغ الأشد، أو من قبل الشيوخة ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ معناه: ويفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى، وهو وقت الموت أو يوم القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما فى ذلك من العبر والحجج.

•• ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى فإنما يكونه سريعا من غير كلفة.

•• ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ ذكر الجدال فى هذه السورة فى ثلاثة مواضع فجاز أن يكون فى ثلاثة أقوام، أو ثلاثة أصناف، أو للتأكيد ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من الكتاب ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

•• ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ «إذ» ظرف زمان ماض والمراد به هنا الاستقبال كقوله: فسوف يعلمون. وهذا، لأن الأمور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله تعالى مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطف على الأغلال والخبر فى أعناقهم والمعنى إذ الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ﴿يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ﴾ يجرون فى الماء الحار ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود، ومعناه أنهم فى النار فهى محيطة بهم وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم.

•• ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ أى: تقول لهم الخزنة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعنى الأصنام التى تعبدونها ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا كما تقول: حسبت أن فلانا شىء فإذا هو ليس بشىء إذا خبرته فلم تر عنده خيرا ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادقوا. أو كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين.

---

(١) الحديث عند الحاكم، والبيهقى فى الأسماء.

•• ﴿ذَلِكُم﴾ العـذاب الذى نزل بـكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الأوثان فيقال لهم:

•• ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ السبعة المقسومة لكم. قال الله تعالى: ﴿لها سبعة بواب لكباب منهم جزء مقسوم﴾(١) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾عن الحق؛ جهنم.

•• ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بإهلاك الكفار﴿حَقٌّ﴾ ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: فـإن نريك ومامزيدة لتوكيد معنى الشرط ولذلك ألحقـت النون بالفعل، ألا تراك لاتقول: إن تكرمنى أكرمك ولكن: إما تكـرمنى أكرمك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ هذا الجزاء متـعلق بتوفينك وجزاء نرينك محذوف وتقديره وإما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب وهو القتل يوم بدر فذاك أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام.

•• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أممهم ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ قيل بعث الله ثمانية آلاف نبى: أربعة آلاف من بنى إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن على - رضى الله عنه - :إن الله تعالى بعث نبيا أسوداً (٢) فهو ممن لم تذكر قصته فى القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهذا جواب اقتراحهم الآيات عنـادا يعنى إنا قد أرسلنا كثيـراً من الرسل وما كان لـواحد منهم أن يـأتى بآية إلا بإذن الله فـمن أين لى بأن آتى بـآية مما تقترحونه إلا أن يشـاء الله ويأذن فى الإتيان بها ؟!﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى يوم القيامـة وهو وعيد ورد عقيب اقتراحهم الآيات ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون الذين اقترحوا الآيات عنادا.

•• ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ﴾خلق ﴿لَكُمُ الأَنْعَامَ﴾ الإبل ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾أى: لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها.

•• ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى الألبان والأوبار ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى: لتبلغوا عليها ما تحتاجون إليه من الأمور ﴿وَعَلَيْهَا﴾ وعلى الأنعام ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أى: على الأنعام وحدها لاتحملون ولكن عليها وعلى الفلك فى البر والبحر.

•• ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أنها من عند الله و«أى» نصـب بتنكرون وقد جاءت على اللغة المستفـيضة وقولك: فأية آيات الله قليل؛ لأن التفرقة بين المـذكر والمؤنث فى الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب، وهى فى «أى» أغرب لإبهامه.

•• ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ عـددا ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ بدنا ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ قصورا ومصانع ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ «ما» نافـية ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

---

(١) سورة «الحجر»، الآية (٤٤).

(٢) الحديث عند الطبرانى فى المعجم الأوسط.

•• ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ يريد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال: ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[1].

فلما جاءتهم الرسل بعلوم الديانات وهى أبعد شئ من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملاذ والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به، أو علم الفلاسفة والدهريين فإنهم كانوا إذا سمعوا بوحى الله دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط أنه سمع بموسى - عليه السلام - وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا، أو المراد: فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه، واستهزاء به كأنه قال: استهزءوا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحى فرحين مرحين، ويدل عليه قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أو الفرح للرسل أى: الرسل لما رأوا جهلهم واستهزاءهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

•• ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

•• ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أى: فلم يصح ولم يستقم أن ينفعم إيمانهم ﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾ بمنزلة وعد الله ونحوه من المصادر المؤكدة ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أن الإيمان عند نزول العذاب لاينفع وأن العذاب نازل بمكذبى الرسل ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ هنالك مكان مستعار للزمان والكافرون خاسرون فى كل أوان ولكن يتبين خسرانهم إذا عاينوا العذاب، وفائدة ترادف الفاءات فى هذه الآيات: أن فما أغنى عنهم نتيجة قوله كانوا أكثر منهم وفلما جاءتهم رسلهم كالبيان والتفسير لقوله: فما أغنى عنهم، كقولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء، وفلما رأوا بأسنا تابع لقوله: فلما جاءتهم، كأنه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا، وكذلك فلم يك ينفعهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله، والله أعلم.

---

(١) سورة «الروم»، الآية (٧).

(سورة فصلت مكيه وهى ثلاث وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿حم﴾ إن جعلته اسما للسورة كان مبتدأ.

●● ﴿تنزيل﴾ خبره وإن جعلته تعديدا للحروف كان تنزيل خبراً لمبتدإ محذوف، وكتاب بدل من تنزيل، أو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف، أو تنزيل مبتدأ ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ صفته.

●● ﴿كِتَابٌ﴾ خبره ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ ميزت وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الاختصاص والمدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت، أو على الحال أى فصلت آياته فى حال كونه قرآنا عربيا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى، ولقوم يتعلق بتنزيل، أو بفصلت أى: تنزيل من الله لأجلهم، أو فصلت آياته لهم والأظهر أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب.

●● ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان لقرآنا ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أى لايقبلون من قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه.

●● ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان وهو الغطاء ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثقل يمنع من استماع قولك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ ستر وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها فى غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ومج إسماعهم له كأن بها صمما عنه ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وماهم عليه وبين رسول الله (ﷺ) وما هو عليه حجابا ساترا وحاجزا منيعا من جبل أو نحوه؛ فلا تلاقى ولا ترائى ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا، أو فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك. وفائدة زيادة «من» أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لافراغ فيها، ولو قيل: بيننا وبينك حجاب لكان المعنى أن حجابا حاصل وسط الجهتين.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا جواب لقولهم: قلوبنا فى أكنة ووجهه أنه قال لهم: إنى لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم، وقد أوحى إلى دونكم فصحت نبوتى بالوحى إلى وأنا بشر، وإذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى وفيما يوحى إلى أن إلهكم إله واحد ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينا ولاشمالا ولا ملتفتين إلى ما يسول لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

●● ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لايؤمنون بوجوب الزكاة ولايعطونها أولا يفعلون ما يكونون به

أزكياء وهو الإيمان ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ﴾ بالبعث والثواب والعقاب ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة، لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته وصدق نيته ونصوع طويته وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلُمْظَةَ[1] من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم، وما ارتدت بنو حنيفة[2] إلا بمنع الزكاة وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع، قيل: نزلت فى المرضى والزمنى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

•• ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الأحد والإثنين تعليما للأناة، ولو أراد أن يخلقها فى لحظة لفعل ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء وأشباها ﴿ذَلِكَ﴾ الذى خلق ما سبق ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع الموجودات وسيدها مربيها.

•• ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ فى الأرض ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ إنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع الجبال ظاهرة لطالبيها وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك وهو الله عز وجل ﴿وَبَارَكَ﴾ بالماء والزرع والشجر والثمر ﴿فِيهَا﴾ فى الأرض، وقيل: وبارك فيها وأكثر خيرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، وقرأ ابن مسعود - رضى الله عنه -: وقسم فيها أقواتها ﴿فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ فى تتمة أربعةأيام يريد بالتتمة اليومين تقول: سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة وإلى الكوفة فى خمسة عشر أى: تتمة خمسة عشر ولابد من هذا التقدير، لأنه لو أجرى على الظاهر لكانت ثمانية أيام، لأنه قال خلق الأرض فى يومين، ثم قال وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام، ثم قال ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[3] فيكون خلاف قوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فى موضع آخر[4]،وفى الحديث: إن الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد والإثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والعمران والخراب، فتلك أربعة أيام، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة وخلق آدم - عليه السلام - فى آخر ساعة من يوم الجمعة[5]، قيل: هى الساعة التى تقوم فيها القيامة ﴿سَوَاءً﴾ - سواءٍ - يعقوب صفة للأيام أى فى أربعة أيام مستويات تامات. سواءٌ بالرفع

(١) اللمظة: بقية الشيء القليل، يقال: ما الدنيا إلا لماظة أيام.
(المعجم الوسيط ٢/ ٨٣٩).

(٢) بنو حنيفة؛ هى قبيلة مسيلمة الكذاب؛ أسلمت، فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت، وتزعمها مسيلمة وادعى النبوة، فحاربهم على ذلك أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وكانوا ذوى شوكة، فطالت الحروب، وانتهت بقتل مسيلمة ورجوع بنى حنيفة إلى الإسلام.

(٣) سورة «فصلت»، الآية (١٢).

(٤) مواضع كثيرة؛ منها: الأعراف (٥٤)، ويونس (٣)، وهود (٧).

(٥) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٦/ ١٥١٢١، ١٥٢٥١).

يزيد أي هي سواء. غيرهما سواءً على المصدر أي: استوت سواء أي استواء، أو على الحال ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ متعلق بقدر أي قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها والمحتاجين إليها، لأن كلا يطلب القوت ويسأله أو بمحذوف، كأنه، قيل: هذا الحصر لأجل من سأل: في كم خلقت الأرض وما فيها؟!.

●● ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ هو مجاز عن إيجاد الله تعالى السماء على ما أراد، تقول العرب: فعل فلان كذا ثم استوى إلى عمل كذا يريدون أنه أكمل الأول وابتدأ الثاني ويفهم منهم أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض، وبه قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وعنه أنه قال: أول ما خلق الله تعالى جوهرة طولها وعرضها مسيرة ألف سنة في مسيرة عشرة آلاف سنة، فنظر إليها بالهيبة فذابت واضطربت، ثم ثار منها دخان بتسليط النار عليها فارتفع واجتمع زبد فقام فوق الماء فجعل الزبد أرض والدخان سماء، ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالها أنه أراد أن يكونهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع، وإنما ذكر الأرض مع السماء في الأمر بالإتيان: والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين، لأنه قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوة، ثم دحاها بمدخلق الماء كما قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾(١) فالمعنى أن ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف، ائتي يا أرض مدحوة قرارا ومهاد لأهلك، وائتي ياسماء مقبية سقفا لهم، ومعنى الإتيان: الحصول والوقوع كما تقول:أتي عمله مرضيا، وقوله طوعا وكرها لبيان تأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال كما تقول لمن تحت يدك: لتفعلن هذا شئت أو أبيت ولتفعلنه طوعا أو كرها، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين، وإنما لم يقل طائعتين على اللفظ، أو طائعات على المعنى، لأنهما سموات وأرضون، لأنهن لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكرة قيل: طائعين في موضع طائعات كقوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾(٢).

●● ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ فأحكم خلقهن. قال: ● وعليهما مسرودتان قضاهما● والضمير يرجع إلى السماء؛ لأن السماء للجنس، ويجوز أن يكون ضميراً مبهما مفسرا بقوله ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ والفرق بين النصبين في سبع سموات: أن الأول على الحال، والثاني على التمييز ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في يوم الخميس والجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيران وغير ذلك ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبة من الأرض ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بكواكب ﴿وَحِفْظًا﴾وحفظناها من المسترقة بالكواكب حفظا ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿الْعَلِيمِ﴾ بمواقع الأمور.

●● ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿صَاعِقَةً﴾ عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة وأصلها: رعد معه نار ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

●● ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي أتوهم من كل جانب وعملوا فيهم كل

(١) سورة «النازعات»، الآية (٣٠).

(٢) الحجر (٢٩)، وص (٧٢).

حيلة فلم يروا منهم إلا الإعراض، وعن الحسن: أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ﴿أن﴾ بمعنى أى أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا﴾ أى القوم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل فمفعول شاء محذوف ﴿لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾معناه: فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة فإنا لانؤمن بكم وبما جئتم به وقوله أرسلتم به ليس بإقرار بالإرسال، وإنما هو على كلام الرسل وفيه تهكم؛كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1]. وقولهم: فإنا بما أرسلتم به كافرون. خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم، روى أن قريشا بعثوا عتبة بن ربيعة وكان أحسنهم حديثا ليكلم رسول الله (ﷺ) وينظر ما يريد فأتاه وهو فى الحطيم[2] فلم يسأل شيئا إلا أجابه، ثم قرأ - عليه السلام - السورة إلى قوله: مثل صاعقة عاد وثمود فناشده بالرحم وأمسك على فيه ووثب مخافة أن يصب عليهم العذاب. فأخبرهم به، وقال لقد عرفت السحر والشعر فوالله ماهو بساحر ولا بشاعر فقالوا: لقد صبأت أما فهمت منه كلمة فقال: لا ولم أهتد إلى جوابه فقال عثمان بن مظعون: ذلك والله لتعلموا أنه من رب العالمين، ثم بين ما ذكر من صاعقة عاد وثمود فقال:

●● ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى تعظموا فيها على أهلها بما لايستحقون به التعظيم، وهو القوة وعظم الأجرام، أو: استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أو لم يعلموا علما يقوم مقام العيان ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أوسع منهم قدرة، لأنه قادر على كل شيء وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوف على فاستكبروا أى: كانوا يعرفون أنها حق، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة.

●● ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ عاصفة تصرصر أى تصوت فى هبوبها من الصرير، أو باردة تحرق بشدة بردها تكرير لبناء الصر وهو البرد، قيل إنها الدبور ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ مشؤومات عليهم. نحْسات مكى وبصرى ونافع، ونُحِس نحسا نقيض سُعِدَ سَعْداً، وهو نَحس، وأما نحس فإما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر، وكانت من الأربعاء فى آخر شوال إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا فى الأربعاء ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف العذاب إلى الخزى وهو الذل على أنه وصف للعذاب، كأنه قال عذاب: خزى كما تقول: فعل السوء. تريد الفعل السيء ويدل عليه قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو من الإسناد المجازى ووصف العذاب

(١) سورة «الشعراء»، الآية (٢٧).

(٢) الحَطِيم: ما بين المقام إلى الباب. قاله أنس بن مالك. معجم البلدان (٢/ ٣١٥).

بالخزى أبلغ من وصفهم به فشتان مـا بين قوليك: هو شاعر. وله شعر شاعر ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ ومن الأصنام التى عبدوا على رجاء النصر لهم.

•• ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالـرفع علـى الابتـداء وهو الفـصيح لـوقوعه بـعد حـرف الابتداء والخـبر ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وبالنصب المفضل بإضمار فعل يفسره فهديناهم أى: بينا لهم الرشد ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الكفر على الإيمان ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ داهية العذاب ﴿الْهُونِ﴾ الهوان وصف به العذاب مبالـغة، أو أبدله منه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بكسبهم وهو شركـهم ومعاصيهم، وقال الشيخ أبـو منصور: يحتمل ما ذكر مـن الهداية التبين كمـا بينا ويحتمل خلق الاهـتداء فيهم فصاروا مهتـدين، ثم كفروا بعد ذلك وعقروا الـناقة، لأن الهدى المضاف إلى الخالق يـكون بمعنى البيان والتوفيق وخلـق فعل الاهتداء فأما الهدى المضاف إلى الخلق يكون بمـعنى البيان لاغير، وقال صاحب الكشاف فيه: فإن قـلت: أليس معنى قوله هديته جعلت فيه الهـدى ، والدليل عليه قولك هديته فاهـتدى بمعنى تحصيل البغـية وحصولها كما تقـول: ردعته فارتدع فكيف ساغ استعماله فى الدلالة المجردة؟! قلت: للدلالة على أنه مكنهم فأزاح علـلهم ولم يبق لهم عذر فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها، وإنمـا تمحل بهذا لأنه لا يتمكن من أن يفسره بخلق الاهتداء، لأنه يخالف مذهبه الفاسد.

•• ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: اختاروا الهدى على العمـى من تلك الصاعقة ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اختيار العمى على الهدى.

•• ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ أى: الكفار من الأولين والآخرين. نـحشر أعداءنا نافع ويعقوب ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم أى يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم وهى عبارة عن كثرة أهل النار وأصله: من وزعته أى كففته.

•• ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ صاروا بحـضرتها، و«ما» مزيـدة للتأكيـد ومعنى التأكـيد أن وقت مجيئهم النار لامحالة أن يكون وقت الـشهادة عليهم ولا وجه لأن يخلو منها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ شهـادة الجلود بملامـسة الحرام، وقيـل: هى كناية عن الفروج.

•• ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لما تعاظمهم من شهادتها عليهم ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان والمعنى أن نـطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذى قـدر على إنطاق كل حيوان ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهو قادر علـى إنشائكم أول مرة وعلـى إعادتكم ورجوعكم إلى جزائه.

•• ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى: أنكم كنتم تستترون بالحيـطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ومـا كان استاركم ذلك خيفة أن يشـهد عليكم جوارحكم؛ لأنكم كنتم غير عالمين بشهادتها عليكم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا ﴿وَلَٰكِن

ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولكنكم إنما استترتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما كنتم تعملون، وهو الخفيات من أعمالكم.

●● ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ وذلك الظن هو الذى أهلككم، «ذلكم» مبتدأ، وظنكم خبر، والذى ظننتم بربكم صفته، وأرداكم خبر ثان أو ظنكم بدل من ذلك، وأرداكم الخبر ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

●● ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أى: فإن يصبروا لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء[1] فى النار ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ وإن يطلبوا الرضا فماهم من المرضيين، أو إن يسألوا العُتْبَى وهى الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مماهم فيه لم يعتبوا لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها.

●● ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أى قدرنا لمشركى مكة، يقال هذان ثوبان قيضان أى: مثلان والمقايضة المعاوضة، وقيل: سلطنا عليهم ﴿قُرَنَاءَ﴾ أخدانا من الشياطين جمع قرين كقوله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[2] ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: ما تقدم من أعمالهم وماهم عازمون عليها، أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات وما خلفهم من أمر العاقبة وأن لابعث ولا حساب ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿فِي أُمَمٍ﴾ فى جملة أمم ومحله النصب على الحال من الضمير فى عليهم أى حق عليهم القول كائنين فى جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ قبل أهل مكة ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ هو تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير لهم وللأمم.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ إذا قرئ ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وعارضوه بكلام غير مفهوم حتى تشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته، واللغو: الساقط من الكلام الذى لاطائل تحته.

●● ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يجوز أن يريد بالذين كفروا هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة، ولكن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أعظم عقوبة على أسوإ أعمالهم، وهو الكفر.

●● ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ ذلك إشارة إلى الأسوإ، ويجب أن يكون التقدير: أسوأ جزاء الذى كانوا يعملون حتى تستقيم هذه الإشارة ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء، أو خبر مبتدأ محذوف ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أى النار فى نفسها دار الخلد كما تقول لك فى هذه الدار دار السرور وأنت تعنى الدار بعينها ﴿جَزَاءً﴾ أى جوزوا بذلك جزاء ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

---

(١) الثواء: الإقامة، ومنه: قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أى: مقيماً.
(٢) سورة «الزخرف»، الآية (٣٦).

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا﴾ وبسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا فى فخذ فخذ مكى وشامى أبو بكر. وبالاختلاس أبو عمرو ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ أى الشيطانين اللذين أضلانا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ لأن الشيطان على ضربين جنى وإنسى، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[1] ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ فى النار جزاء إضلالهم إيانا.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى نطقوا بالتوحيد ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، وعن الصِّدِّيق - رضى الله عنه -: استقاموا فعلا كما استقاموا قولا، وعنه أنه تلاها، ثم قال: ما تقولون فيها قالوا لم يذنبوا قال: حملتم الأمر على أشده، قالوا: فما تقول قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان، وعن عمر- رضى الله عنه - :لم يروغوا روغان الثعالب أى لم ينافقوا، وعن عثمان - رضى الله عنه - أخلصوا العمل،وعن على - رضى الله عنه -: أدوا الفرائض، وعن الفضيل: زهدوا فى الفانية ورغبوا فى الباقية، وقيل: حقيقة الاستقامة القرار بعد الإقرار لا الفرار بعد الإقرار ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَن﴾ بمعنى أى أو مخففة من الثقيلة وأصله: بأنه ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ والهاء ضمير الشأن أى لاتخافوا ما تقدمون عليه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم فالخوف غم يلحق الإنسان لتوقع المكروه والحزن غم يلحق لوقوعه من فوات نافع، أو حصول ضار، والمعنى أن الله كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فى الدنيا، وقال محمد بن على الترمذى[2]: تتنزل عليهم ملائكة الرحمن عند مفارقة الأرواح الأبدان أن لاتخافوا سلب الإيمان ولا تحزنوا على ما كان من العصيان، وأبشروا بدخول الجنان التى كنتم توعدون فى سالف الزمان.

●● ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ كما أن الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم فى الدارين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ من النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تتمنون.

●● ﴿نُزُلًا﴾ هو رزق نزيل، وهو: الضيف، وانتصابه على الحال من الهاء المحذوفة أو من «ما». ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ نعت له.

●● ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى عبادته هو رسول الله؛ دعا إلى التوحيد ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ خالصا ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخرا بالإسلام ومعتقدا له. أو أصحابه - عليه السلام - أو المؤذنون أو جميع الهداة والدعاة إلى الله.

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (١١٢).

(٢) هو الحكيم الصوفى؛ محمد بن على الترمذى، أبو عبدالله، من كبار العلماء الصوفيين، برع فى علوم العقيدة والحديث، مختلف فى زمن وفاته اختلافاً كبيراً ما بين ٢٥٥ إلى ٣١٨هـ.
الأعلام (٦/ ٢٧٢).

●● ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما فخذ بالحسنة التي هى أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التى ترد أعدائك من بعض عليك كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتى هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه، أو يقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل الولى الحميم مصافاة لك. ثم قال:

●● ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا﴾ أى وما يلقى هذه الخصلة التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ إلا أهل الصبر ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير، وإنما لم يقل: فادفع بالتى هى أحسن لأنه على تقدير قائل قال: فكيف أصنع؟ قيل: ادفع بالتى هى أحسن، وقيل: لامزيدة للتأكيد، والمعنى لاتستوى الحسنة والسيئة وكان القياس على هذا التفسير أن يقال: ادفع بالتى هى حسنة ولكن وضع التى هى أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ فى الدفع بالحسنة لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: بالتى هى أحسن: الصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة وفسر الحظ بالثواب، وعن الحسن: والله ما عظم حظ دون الجنة، وقيل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب وكان عدوا مؤذيا للنبى (ﷺ) فصار وليا مصافيا.

●● ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ النزع شبه النخس، والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه؛ يبعثه على ما لا ينبغى، وجعل النزغ نازغا، كما قيل جد جده، أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أو لتسويله، والمعنى: وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره وامض على حلمك لا تطعه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنزغ الشيطان.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته: ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ فى تعاقبهما على حد معلوم وتناوبهما على قدر مقسوم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ فى اختصاصهما بسير مقدر ونور مقرر ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الضمير فى خلقهن للآيات أو الليل والنهار والشمس والقمر؛ لأن حكم جماعة مالا يعقل حكم الأنثى أو الإناث، تقول: الأقلام بريتها وبريتهن ولعل ناسا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله تعالى فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصا إن كانوا إياه يعبدون، وكانوا موحدين غير مشركين فإن من عبد مع الله غيره لايكون عابدا لله.

●● ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أى الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ لايملون والمعنى: فإن استكبروا ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله خالصا فدعهم وشأنهم فإن الله تعالى لايعدم عابداً وساجداً بالإخلاص وله

العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد وعند ربك عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة وموضع السجدة عندنا: لايسأمون، وعند الشافعي - رحمه الله - :عند تعبدون. والأول أحوط.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة مغبرة والخشوع التذلل فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لانبات فيها ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت.

●● ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيكون قادرا على البعث ضرورة.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يميلون عن الحق في أدلتنا بالطعن، يقال: ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فاستعير لحال الأرض إذا كانت ملحودة فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. يلحدون حمزة ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ وعيد لهم على التحريف ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذا تمثيل للكافر والمؤمن ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ هذا نهاية في التهديد ومبالغة في الوعيد ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ بالقرآن لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرفوا تأويله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حين جاءهم وخبر إن محذوف أي يعذبون، أو هالكون، أو أولئك ينادون من مكان بعيد وما بينهما اعتراض ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي منيع محمي بحماية الله.

●● ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾التبديل، أو التناقض ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ مستحق للحمد.

●● ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ ما يقول لك كفار قومك ﴿إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ ورحمة لأنبيائه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائهم، ويجوز أن يكون ما يقول لك الله إلا مثل ما قال للرسل من قبلك، والمقول هو قوله: إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم.

●●﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي الذكر ﴿قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي بلغة العجم كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم؟! فقيل في جوابهم: لو كان كما يقترحون ﴿لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي بينت بلسان العرب حتى نفهمها تعنتا ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بهمزتين كوفي غير حفص والهمزة للإنكار يعني لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي. الباقون بهمزة واحدة ممدودة مستفهمة والأعجمي الذي لايفصح ولا يفهم كلامه سواء كان من العجم أو العرب، والعجمي منسوب إلى أمة العجم فصيحا كان أو غير فصيح، والمعنى: أن آيات الله على أي طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتا، لأنهم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم، وفيه إشارة إلى أنه لو أنزله بلسان العجم لكان قرآنا فيكون دليلا لأبي حنيفة - رضي الله عنه - في جواز الصلاة إذا قرأ بالفارسية ﴿ قُلْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ إرشاد إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من

الشك؛ إذ الشك مرض ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ فى موضع الجر لكونه معطوف على للذين آمنوا أى هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو للذين لايؤمنون فى آذانهم وقر أى صمم، إلا أن فيه عطفا على عاملين وهو جائز عند الأخفش، أو الرفع وتقديره والذين لايؤمنون هو فى آذانهم وقر على حذف المبتدأ وفى آذانهم منه وقر ﴿وَهُوَ﴾ أى القرآن ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ ظلمة وشبهة ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعنى أنهم لعدم قبولهم وانتفاعهم كأنهم ينادون إلى الإيمان بالقرآن من حيث لايسمعون لبعد المسافة، وقيل : ينادون فى القيامة من مكان بعيد بأقبح الأسماء.

●● ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: هو حق وقال بعضهم: هو باطل كما اختلف قومك فى كتابك ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكهم إهلاك استئصال وقبل: الكلمة السابقة هى العدة بالقيامة وأن الخصومات تفصل فى ذلك اليوم ولولا ذلك لقضى بينهم فى الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن الكفار ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع فى الريبة .

●● ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ فنفسه نفع ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فنفسه ضر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيعذب غيرالمسىء .

●● ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى علم قيامها يرد إليه أى يجب على المسؤول أن يقول: الله يعلم ذلك ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ﴾ مدني وشامي وحفص، وغيرهم بغير ألف ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أوعيتها قبل أن تنشق؛ جمع كم ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى﴾ حملها ﴿وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أى مايحدث شىء من خروج ثمرة ولاحمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام، والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح، وغير ذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أضافهم إلى نفسه على زعمهم وبيانه فى قوله: أين شركائى الذين زعمتم وفيه تهكم وتقريع ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أعلمناكم، وقيل: أخبرناك وهو الأظهر إذ الله تعالى كان عالما بذلك وإعلام العالم محال أما الإخبار للعالم بالشىء فيتحقق بما علم به إلا أن يكون المعنى: إنك علمت من قلوبنا الآن إنا لنشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أى مامنا أحد اليوم يشهد بأن لك شريكا وما منا إلا من هو موحد لك، أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلواعنهم وضلت عنهم آلهتهم لايبصرونها فى ساعة التوبيخ، وقيل: هو كلام الشركاء أى مامنا مَن شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركاء.

●● ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن قَبْلُ﴾ فى الدنيا ﴿وَظَنُّوا﴾ وأيقنوا ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب.

●● ﴿لا يَسْأَمُ﴾ لايمل ﴿الإِنسَانُ﴾ الكافر بدليل قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾(١) ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة فى المال والنعمة، والتقدير: من دعائه الخير فحذف الفاعل وأضيف إلى المفعول ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ الفقر ﴿ فَيَئُوسٌ﴾ من الخير﴿قَنُوطٌ﴾ من الرحمة، بولغ فيه من طريقين:

(١) سورة «الكهف»، الآية (٣٦).

من طريق بناء فعول ومن طريق التكرير والقنوط: أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر أى يقطع الرجاء من فضل الله وروحه، وهذا صفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

●● ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى﴾ وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض، أو سعة بعد ضيق قال: هذا لى أى: هذا حقى وصل إلىَّ؛ لأنى استوجبته بما عندى من خير وفضل وأعمال برّ، أو: هذا لى لايزول عنى ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى ما أظنها تكون قائمة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى﴾ كما يقول المسلمون ﴿إِنَّ لِى عِندَهُ﴾ عند الله ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى الجنة، أو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة قائساً أمر الآخرة على أمر الدنيا ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد لايفتر عنهم.

●● ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ﴾ هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة فنسى المنعم، وأعرض عن شكره ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ وتباعد عن ذكر الله ودعائه، أو ذهب بنفسه وتكبر وتعظم وتحقيقه: أن يوضع جانبه موضع نفسه؛ لأن مكان الشىء وجهته ينزل منزلة نفسه، ومنه قول الكتاب: كتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته، فكأنه قال: ونأى بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضر والفقر ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير أى: أقبل على دوام الدعاء وأخذ فى الابتهال والتضرع ، وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام كما استعير الغلظ لشدة العذاب، ولا منافاة بين قوله فيئوس قنوط وبين قوله فذو دعاء عريض؛ لأن الأول فى قوم والثانى فى قوم، أو قنوط فى البر وذو دعاء عريض فى البحر، أو قنوط بالقلب ذو دعاء عريض باللسان، أو قنوط من الصنم ذو دعاء لله تعالى.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبرونى ﴿إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ ثم جحدتم أنه من عند الله ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ منكم إلا أنه وضع قوله: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ موضع منكم؛ بيانا لحالهم وصفتهم.

●● ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ﴾ من فتح البلاد شرقا وغربا ﴿وَفِى أَنفُسِهِمْ﴾ فتح مكة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أى القرآن، أو الإسلام ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ موضع بربك الرفع على أنه فاعل ، والمفعول محذوف وقوله: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، تقديره: أو لم يكفهم أن ربك على كل شىء شهيد أى: أو لم تكفهم شهادة ربك على كل شىء، ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد.

●● ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية؛ فيجازيهم على كفرهم ومريتهم فى لقاء ربهم.

---

(١) سورة «يوسف» الآية (٨٧).

(سورة شورى مكية وهى ثلاث وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● فصل ﴿حم﴾ من ﴿عسق﴾ كتابة مخالفا لكهيعص تلفيقا بأخواتها ، ولأنه آيتان وكهيعص آية واحدة.

●● ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ أى مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وإلى الرسل من قبلك ﴿اللَّهُ﴾ يعنى أن ما تضمنته هذه السورة من المعانى قد أوحى الله إليك مثله، وفى غيرها من السور، وأوحاه إلى من قبلك يعنى إلى رسله، والمعنى: أن الله كرر هذه المعانى فى القرآن وفى جميع الكتب السماوية لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :ليس من نبى صاحب كتاب إلا أوحى إليه بحم عسق. يوحى بفتح الحاء مكي. ورافع اسم الله على هذه القراءة ما دل عليه يوحى كأن قائلا قال: من الموحي؟ فقيل: الله ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب بقهره ﴿الْحَكِيمُ﴾ المصيب فى فعله.

●● وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ مُلْكا ومِلْكا ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ شأنه ﴿الْعَظِيمُ﴾ برهانه.

●● ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وبالياء نافع وعلى ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ يتشققن، ، ينفطرن بصرى وأبو بكر، ومعناه يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته يدل عليه مجيئه بعد قوله: العلى العظيم، وقيل: من دعائهم له ولدا كقوله﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ منه﴾[1] ومعنى من فوقهن أى يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية، وكان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر؛ لأنها جاءت من الذين تحت السموات ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التى فوقهن دع الجهة التى تحتهن ، وقيل: من فوقهن من فوق الأرض فالكناية راجعة إلى الأرض؛ لأنه بمعنى الأرضين، وقيل: يتشققن لكثرة ما على السموات من الملائكة، قال ـ عليه السلام -: «أطت السماء أطًا وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد»[2]. ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خضوعا لما يرون من عظمته ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ أى: للمؤمنين منهم كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ للذين آمنوا﴾[3] خوفا عليهم من سطواته، أو يوحدون الله وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات حامدين له علىٰ ما أولاهم من ألطافه متعجبين مما رأوا من تعرضهم لسخط الله تعالى ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض الذين تبرؤوا من تلك الكلمة، أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لهم .

---

(١) سورة «مريم»، الآية (٩٠).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٠/ ٢٩٨٣٠، ٢٩٨٦٥).

(٣) سورة «غافر»، الآية (٧).

●● ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: جعلوا له شركاء وأندادا ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أقوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء فيجازيهم عليها ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكل عليهم ولا مفوض إليك أمرهم، إنما أنت منذر فحسب.

●● ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية التى قبلها من أن الله رقيب عليهم لا أنت بل أنت منذر، لأن هذا المعنى كرره الله فى كتابه، أو هو مفعول به لأوحينا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به أى أوحيناه إليك وهو قرآن عربى بين ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ أى مكة، لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها أشرف البقاع، والمراد: أهل القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة؛ لأن الخلائق تجتمع فيه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له يقال: أنذرته كذا، وأنذرته بكذا، وقد عدى لتنذر أم القرى إلى المفعول الأول، وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثانى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أى: منهم فريق فى الجنة ومنهم فريق فى السعير والضمير للمجموعين؛ لأن المعنى يوم جمع الخلائق.

●● ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى مؤمنين كلهم ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أى يكرم من يشاء بالإسلام ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ والكافرون ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ شافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع.

●● ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الفاء لجواب شرط مقدر كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه: إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولى بالحق، وهو الذى يجب أن يتولى وحده لا ولى سواه ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء.

●● ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله (ﷺ) للمؤمنين أى ما خالفتكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين ﴿فَحُكْمُهُ﴾ أى حكم ذلك المختلف فيه مفوض ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين، ومعاقبة المبطلين ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم ﴿اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فيه رد كيد أعداء الدين ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع فى كفاية شرهم وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح وغيره.

●● ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ارتفاع على أنه أحد أخبار «ذلكم»، أو خبر مبتدإ محذوف ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ خلق لكم من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى وخلق للأنعام أيضا من أنفسها أزواجا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثركم يقال: ذرأ الله الخلق: بثهم وكثرهم ﴿فِيهِ﴾ فى

هذا التدبير، وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا حتى كـان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل، واختير فيه علـى به؛ لأنه جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير، والـضمير فى يذرؤكم يرجع إلى المخاطـبين، والأنعام مغلباً فيه المخـاطبون العقلاء على الغيـب مما لا يعقل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ قيل: إن كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفى التماثل وتقديره ليس مثله شيء، وقيل: المثل زيادة وتقديره ليس كهو شيء كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾(١)، وهذا لأن المراد نفى المثلية وإذا لم تجعل الكاف أو المثـل زيادة كان إثبات المثل وقيل: المراد ليس كذاتـه شيء؛ لأنهم يقولون مثلك لا يبخـل يريدون به نفى البخل عن ذاته ويقـصدون المبالغة فى ذلك بسلوك طـريق الكناية، لأنهم إذا نفوه عمـن يسد مسده فقد نفوه عنه فـإذا علم أنه من باب الكناية لم يـقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء وبـين قوله: ليس كمثله شـيء إلا ما تعطيه الكنـاية من فائدتها وكأنهـما عبارتان معتقبتان على معنى واحد وهو نفى المماثلة عن ذاته ونحوه ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٢) فمعناه: بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسـط لها، لأنها وقعت عبارة عن الجود حتى إنهم استـعملوها فيمن لا يد له فكذلك استعمل هذا فـيمن له مثل ومن لا مثل له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات بلا أذن ﴿الْبَصِيرُ﴾ لجميع المرئيات بلا حدقة، وكأنه ذكرهما لئلا يتوهم أنه لا صفة له كما لا مثل له.

●● ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مر فى الزمر ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى يضيق ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

●● ﴿شَرَعَ﴾ بين وأظهر ﴿لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أى: شرع لكم مـن الدين دين نوح ومحمـد ومن بينهما مـن الأنبياء - عليهم السلام - ثم فسر المشروع الذى اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ والمراد إقامة دين الإسلام الذى هـو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبـه وبيوم الجزاء وسائر ما يكون المرء بإقامته مسلماً ولم يرد به الـشرائع فإنها مختلفة قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٣). ومحـل أن أقيمـوا نصب بـدل من مفعول شـرع والمعطـوفين علـيه، أو رفع عـلى الاستئناف كأنه قيل : وما ذلك المشروع؟! فقيل: هو إقامة الدين ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا فى الدين قال على - رضى الله عنه -: لا تتفرقوا فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهـم وشق عليهم ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله والـتوحيد ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ يجتلب ويجمع ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الدين بالتوفيق والتسديد ﴿مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يقبل على طاعته.

●● ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أى: أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلال وأمـر متوعد عليه على ألسنة الأنبيـاء - عليهم السلام - ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٣٧).
(٢) سورة «المائدة»، الآية (٦٤). (٣) سورة «المائدة»، الآية (٤٨).

وطلباً للرياسة والاستطالة بغير حق ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهى ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[1] ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ لأهلكوا حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله (ﷺ) ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان ﴿مُرِيبٍ﴾ مدخل فى الريبة، وقيل: وما تفرق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث رسول الله (ﷺ) كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[2] ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم. هم المشركون أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوارة والإنجيل .

●● ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعبا ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القوية ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ كما أمرك الله ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ بأى كتاب صح أن الله تعالى أنزله يعنى: الإيمان بجميع الكتب المنزلة، لأن المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[3] إلى قوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[4] ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ فى الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلى ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أى كلنا عبيده ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ هو كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[5] ويجوز أن يكون معناه إنا لا نؤاخذ بأعمالكم وأنتم لا تؤاخذون بأعمالنا ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أى لا خصومة ، لأن الحق قد ظهر وصرتم محجوبين به فلا حاجة إلى المحاجة ، ومعناه: لا إيراد حجة بيننا، لأن المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع لفصل القضاء فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم .

●● ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون فى دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ من بعد ما استجاب له الناس دخلوا فى الإسلام ليردوهم إلى دين الجاهلية كقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾[6] . كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فنحن خير منكم وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجيب لمحمد ـ عليه السلام ـ دعاؤه على المشركين يوم بدر ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ باطلة وسماها حجة وإن كانت شبهة؛ لزعمهم أنها حجة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فى الآخرة.

---

(١) سورة «القمر»، الآية (٤٦).
(٢) سورة «البينة»، الآية (٤).
(٣) سورة «النساء»، الآية (١٥٠).
(٤) سورة «النساء»، الآية (١٥١).
(٥) سورة «الكافرون»، الآية (٦).
(٦) سورة «البقرة»، الآية (١٠٩).

●● ﴿اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ أى جنس الكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، أو ملتبسا به ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ والعدل والتسوية ومعنى إنزال العدل أنه أنزله فى كتبه المنزلة ، وقيل : هو عين الميزان أنزله فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أى: لعل الساعة قريب منك وأنت لا تدرى والمراد مجىء الساعة ، والساعة فى تأويل البعث، ووجه مناسبة اقتراب الساعة مع إنزال الكتب والميزان أن الساعة يوم الحساب ووضع الموازين بالقسط فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع فاعملوا بالكتاب والعدل قبل أن يفاجئكم يوم حسابكم ووزن أعمالكم.

●● ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ خائفون ﴿مِنْهَا﴾ وجلون لهولها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ﴾ المماراة: الملاحَّة؛ لأن كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه ﴿لَفِى ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق؛ لأن قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله تعالى. وقد دَلَّ الكتاب والسنة على وقوعها والعقول تشهد على أنه لابد من دار جزاء.

●● ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ فى إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو بر بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم، وقيل: هو من لطف بالغوامض علمه وعظم عن الجرائم حلمه، أو من ينشر المناقب ويستر المثالب، أو يعفو عمن يهفو أو يعطى العبد فوق الكفاية ويكلفه الطاعة دون الطاقة. وعن الجنيد: لطف بأوليائه فعرفوه ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ أى يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته فيه، فى الحديث: إن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك. ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شىء ﴿الْعَزِيزُ﴾ المنيع الذى لا يغلب.

●● ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ سمى ما يعمله العامل مما يبتغى به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿نَزِدْ لَهُ فِى حَرْثِهِ﴾ بالتوفيق فى عمله ، أو التضعيف فى إحسانه، أو بأن ينال به الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ أى من كان عمله للدنيا ولم يؤمن بالآخرة ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أى شيئا منها، لأن "من" للتبعيض وهو رزقه الذى قسم له "لا ما يريده ويبتغيه ﴿وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وما له نصيب قط فى الآخرة وله فى الدنيا نصيب ولم يذكر فى عامل الآخرة أن رزقه المقسوم يصل إليه للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه فى المآب .

●● ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ قيل: هى «أم» المنقطعة وتقديره بل ألهم شركاء . وقيل: هى المعادلة لألف الاستفهام، وفى الكلام إضمار تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين لهم آلهة ﴿شَرَعُوا لَهُم

مّنَ الدّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: لم يأمر به ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أى: القضاء السابق بتأجيل الجزاء أى ولولا العـدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو لعجلت لهم العقوبة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وإن المشركين لهم عذاب أليم فى الآخرة وإن أخر عنهم فى دار الدنيا.

●● ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ المشركين فى الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من جزاء كفرهم ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ نازل بهم لا محالة؛ أشفقوا، أو لم يشفقوا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عند نصب بالظرف لا بـ «يشاؤون». ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ على العمل القليل.

●● ﴿ذَلِكَ﴾ أى: الفضل الكبير ﴿الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ يَبْشُرُ مكى وأبو عمرو وحمزة وعلى ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى به عباده الـذين آمنوا فحذف الجـار، ؛كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾(١) ثم حـذف الراجع إلى الموصول كقـوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾(٢). ولما قال المشركون: أيبتغى محمد على تبليغ الرسالة أجرا؟! نزل ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على التبليغ ﴿أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ يجوز أن يكـون استثناء متصـلا أى لا أسألكم عليـه أجرا إلا هذا وهو أن تودوا أهل قرابتى ، ويجوز أن يكون منقطعـا: أى: لا أسألكم أجرا قط، ولكنى أسألكم أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم ، ولم يقـل إلا مودة القربى أو المودة للقربى ، لأنهم جعلوا مكانا للمودة ومقـرا لها كقولك : لى فى آل فلان مودة ولى فيهم حب شـديد، تريد: أحبهم وهم مكان حبـى ومحله، وليسـت فى بصلة للمـودة كاللام إذا قلت إلا المودة للـقربى، إنما هى متـعلقة بمحذوف تعلق الظرف به فى قولك: المال فى الكيس ، وتقديره: إلا المودة ثابتة فى القربى ومتمكنة فيها، والقربى مصـدر كالزلفى والبشرى بمعنى القرابة، والمراد فى أهـل القربى وروى أنه لما نزلت قيل: يا رسـول الله من قرابتك هؤلاء الـذين وجبت علينـا مودتهم قال: عـلى وفاطمة وابنـاهما. وقيل: مـعناه: إلا أن تودونى لقـرابتى فيكم ولا تـؤذونى ولا تهيجـوا على إذ لم يكن مـن بطون قريش إلا بين رسول الله وبينهم قرابة. وقيل : القربى: التقرب إلى الله تعالى أى إلا أن تحبوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾يكتسب طاعة. عن السدى: أنها المودة فى آل رسول الله(ﷺ) نزلت فى أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ومودته فيهم والظاهر العموم فى أى حسنة كانت إلا أنها تتناول المودة تناولا أولـيا لذكرها عقيب ذكر المودة فى القربى ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾أى نضاعفها كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(٣)

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٥٥).

(٢) سورة «الفرقان»، الآية (٤١).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (٢٤٥).

وقرىء حُسْنَى، وهو مصدر ، كالبشرى والضمير يعود إلى الحسنة، أو إلى الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنب بطوله ﴿ شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بفضله وقيل: قابل للتوبة حامل عليها. وقيل: الشكور فى صفة الله تعالى عبارة عن الاعتداد بالطاعة وتوفية ثوابها والتفضل على المثاب.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم» منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأفحشها ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ قال مجاهد : أى يربط على قلبك بالصبر على أذاهم وعلى قولهم: افترى على الله كذبا لئلا تدخله مشقة بتكذيبهم ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ أى الشرك وهو كلام مبتدأ غير معطوف على يختم ؛ لأن محو الباطل غير متعلق بالشرط بل هو وعد مطلق دليله: تكرار اسم الله تعالى ورفع ويحق، وإنما سقطت الواو فى الخط كما سقطت فى ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾(١) و﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾(٢) على أنها مثبتة فى مصحف نافع ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ ويظهر الإسلام ويثبته ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بما أنزل من كتابه على لسان نبيه ـ عليه السلام ـ وقد فعل الله ذلك فمحا باطلهم وأظهر الإسلام ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: عليم بما فى صدرك وصدورهم فيجزى الأمر على حسب ذلك.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ يقال: قبلت منه الشيء إذا أخذته منه وجعلته مبدأ قبولى ويقال: قبلته عنه أى عزلته عنه وأبنته عنه، والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعود وإن كان لعبد فيه حق لم يكن بد من التفصى على طريقه، وقال على ـ رضى الله عنه ـ :هو اسم يقع عل ستة معان؛ على الماضى من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم وإذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. وعن السدي: هو صدق العزيمة على ترك الذنوب والإنابة بالقلب إلى علام الغيوب. وعن غيره: هو أن لا يجد حلاوة الذنب فى القلب عند ذكره. وعن سهل: هو الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة. وعن الجنيد: هو الإعراض عما دون الله ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ وهو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء كوفى غير أبى بكر أى من التوبة والمعصية، ولا وقف عليه للعطف عليه واتصال المعنى.

●● ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أى إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوه وزادهم على مطلوبهم واستجاب وأجاب بمعنى والسين فى مثله لتوكيد الفعل كقولك تعظم واستعظم، والتقدير: ويجيب الله الذين آمنوا ، وقيل: معناه: ويستجيب

(١) سورة «الإسراء»، الآية (١١).
(٢) سورة «العلق»، الآية (١٨).

للذين فحذف اللام. مَـنَّ عليهم بأن يقبل توبتهـم إذا تابوا ويعفوا عن سيآتهم ويستجيب لهم إذا دعوه ويزيدهم على ما سألوه، وعن إبراهيم بن أدهـم أنه قيل له: ما بالنا ندعوه فلا نجاب؟! قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة.

●● ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: لو أغناهم جـميعا ﴿لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ من البغي وهو الظلم أي لبغى هذا على ذاك وذاك عـلى هذا؛ لأن الغنى مبطرة مأشرة وكفـى بحال قارون وفرعون عبرة؛ أو من البغي وهو الـكبر أي: لتكبروا في الأرض ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ﴾ بالتخفيف مكى وأبو عمرو ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ بتقدير يقال: قدره قَدْراً وقَدَرا. ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم أحوالهم فيقدر لهم ما تقتضيـه حكمته فيفقر ويغـنى، ويمنع ويعطى، ويقبض ويـبسط، ولو أغناهم جميعـا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وما ترى من البسط على من يـبغى ومن البغي بدون البسط فهو قليل، ولا شك أن البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب.

●● ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ بالتشديد مدنى وشامى وعاصم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وقرىء قَنِطوا ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي بركات الغيث ومـنافعه وما يحصل به من الخصب ، وقـيل لعمر ـ رضى الله عنه ـ : اشتد القحط وقنط الناس فقال مطروا إذاً أراد هذه الآية، أو أراد رحمته في كل شيء ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذى يتولى عباده بإحسانه ﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي علامات قدرته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مع عظمهما ﴿وَمَا بَثَّ﴾ فرق ، وما يجوز أن يـكون مرفوعاً ومجرورا حـملا على المضاف أو المـضاف إليه ﴿فِيهِمَا﴾ من السموات والأرض ﴿ مِن دَابَّةٍ﴾ الدواب تكون فـى الأرض وحدها، لكن يجـوز أن ينسب الشيء إلـى جميع المذكور وإن كان ملتبسا ببعضه كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد، وإنما هو فى فخذ من أفخاذهم ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (١)، وإنما يخرج من الملح ولا يبعد أن يخلق من السموات حـيوانات يمشون فيها مـشى الأناسي على الأرض، أو يكـون للملائكة مشى مـع الطيران فوصفوا بالدبيـب كما وصف به الأناسي ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ «إذا» تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾(٢).

●● ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾: غم وألم ومكروه ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي بجناية كسبتموها عقوبة عليـكم. بما كسبت بغير الفاء مدنـى وشامى على أن «ما» مبتدأ، وبما كسبـت خبره من غير تضمين مـعنى الشرط ومن أثبـت الفاء فعلى تـضمين معنى الشـرط. وتعلق بهذه الآيـة من يقول بالتناسخ (٣)، وقال: لو لم يكـن للأطفال حالة كانوا عليـها قبل هذه الحالة لما تألمـوا وقلنا: الآية

(١) سورة «الرحمن»، الآية (٢٢). (٢) سورة «الليل»، الآية (١).

(٣) التناسخ: هو عودة أرواح الموتى فى أجساد أخرى، أي: تـعيش الروح أكثر من حياة فى أكثر من جسد.

مخصومة بالمكلفين بالسباق والسياق وهو ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ أى من الذنوب فلا يعاقب عليه، أو عن كثير من الناس فلا يعاجلهم بالعقوبة، وقال ابن عطاء: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه وأن ما عفا عنه مولاه أكثر كان قليل النظر فى إحسان ربه إليه، وقال محمد بن حامد[1]: العبد ملازم للجنايات فى كل أوان وجناياته فى طاعته أكثر من جناياته فى معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله فى القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك فى أول خطوة، وعن على ـ رضى الله عنه ـ: هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن؛ لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب ثانيا وإذا عفا لا يعود.

●● ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بفائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ متول بالرحمة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ناصر يدفع عنكم العذاب إذا حل بكم.

●● ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهى السفينة. الجوارى فى الحالين مكى وسهل ويعقوب وافقهم مدنى وأبو عمر فى الوصل ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال.

●● ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ الرياح مدنى ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجرى ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه أى: لكل مؤمن مخلص فالإيمان نصفان نصف شكر ونصف صبر، أو صبار على طاعته شكور لنعمته.

●● ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن فهو عطف على يسكن، والمعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ منها فلا يجازى عليها، وإنما أدخل العفو فى حكم الإيباق حيث جزم جزمه؛ لأن المعنى: أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم.

●● ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بالنصب على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أى فى إبطالها ودفعها. ويعلمُ مدنى وشامى على الاستئناف ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من عذابه.

●● ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ «ما» الأولى ضمنت معنى الشرط فجاءت الفاء فى جوابها بخلاف الثانية نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين تصدق بجميع ماله؛ فَلَامَهُ الناس.

---

(١) محمد بن حامد؛ أبو عبدالله الحامدى، شاعر وأديب من أعيان خوارزم، غير معروف تاريخ ولادته، وتوفى نحو عام ٤٠٥هـ. الأعلام (٦/ ٧٧).

●● ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على الذين آمـنوا، وكذا ما بعده ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ أى الكبائر من هذا الجنس، كبيرَ الإثم على وحمزة، وعن ابن عباس: كبير الإثم هو الشرك ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ قيل: ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنا ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ من أمور دنياهم ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى هم الأخصاء بالغفران فى حال الغضب والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ، وإسناد يغفرون إليه لهذه الفائدة ومثله: هم ينتصرون.

●● ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت فـى الأنصار دعاهم الله ـ عـزوجل ـ للإيمان به وطـاعته فاستجابوا له بـأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ وأتموا الصلـوات الخمس ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: ذو شورى لا ينفردون برأى حتى يجتمعوا عليه، وعن الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم[1]، والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصدقون.

●● ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾: الظلم ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾: ينتقمون ممن ظلـمهم أى يقتصرون فى الانتصار على ما جعلـه الله تعالى لهم ولا يعتدون وكانوا يكرهون أن يذلوا أنـفسهم فيجترىء عليهم الفساق، وإنما حمدوا على الانتصـار؛ لأن من انتصر وأخذ حقه ولم يجاوز فى ذلك حد الله فلم يسرف فى القتل إن كان ولى دم فهو مطيع لله، وكل مطيع محمود. ثم بين حد الانتصار فقال:

●● ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فالأولى سيئة حقيقة والثانية لا، وإنما سميت سيئة؛ لأنها مجازاة السوء، أو لأنها تـسوء من تنزل به، ولأنه لو لم تكـن الأولى لكانت الثانية سيـئة؛ لأنها إضرار، وإنما صارت حسنة لغيرها، أو فى تسمية الثانيـة سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه، والمعنى أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عدة مبهمة لا يقـاس أمرها فى العظم ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يبدؤون بالظلم، أو الذيـن يجاوزون حد الانتصار. فى الحديث: «ينادى مناد يـوم القيامة: من كان له أجر على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا»[2].

●● ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أى: أخذ حقـه بعد ما ظـلم على إضافـة المصدر إلى المـفعول ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى معنى من دون لفظه ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ للمعاقب ولا للمعاتب والمعايب.

●● ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وفسر السبيل بالتبعة والحجة.

●● ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولـم ينتصر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أى: الصبر والغفران

---

(١) الخبر عند البخارى فى الأدب المفرد.

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٣/٨٠٠٧).

منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أى: من الأمور التى ندب إليـها، أو مما ينبغى أن يوجبه العاقـل على نفسه ولا يترخص فى تركه وحـذف الراجع أى منه؛ لأنه مفهوم كما حذف من قولـهم: السمن منوان[1] بدرهم، وقال أبو سعيد القرشى[2]: الصبر عل المكـاره من علامات الانتباه فمن صبـر على مكروه يصيبه ولم يجزع أورثه الله تعالى حال الرضـا، وهو أجل الأحوال، ومن جزع من المصيبات وشكا وكله الله تعالى إلى نفسه، ثم لم تنفعه شكواه.

●● ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ فما له من أحد يلى هـدايته من بعد إضلال الله إياه ويمنعه من عذابه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ حين يرون العذاب، واختير لفظ الماضى للتحقيق ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ يسألون ربهم الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا به.

●● ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار؛ إذ العذاب يدل عليها ﴿خَاشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ﴾ إلى النار ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ضعيف بمسارقة كـما ترى المصبور ينظر إلى السيف ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يوم متعلق بـ «خسروا» وقـول المؤمنين واقع فى الدنيا، أو يقال: أى يقولون يـوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ دائم.

●● ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ من دون عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة.

●● ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ أى أجيبوه إلى مـا دعاكم إليه ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أى يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ «من» يتصل بـ «لا مَرَدَّ» أى: لا يرده الله بعد ما حكم به أو يأتى أى من قبل أن يأتى من الله يوم لا يـقدر أحد على رده ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أى ليس ليكم مخلـص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيـئاً مما اقترفتموه ودوّن فى صحـائف أعمالكم، والنكير الإنكار.

●● ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيبا ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ما عليك إلا تبليغ الرسالة ـ وقد فعلت ـ ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ المراد الجمع لا الواحد ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمـة و سعة وأمنـا وصحة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ بطر لأجـلها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلاء كالمرض والـفقر

---

(١) منوان: مثنى «منا»، وهو كيل، أو ميزان.
القاموس (٤/ ٣٩٢).

(٢) أبو سعيد القرشى، ذكره أبو نعيم فى الحلية، فقال: «كان عالماً بالعلل والآفات عارفاً، وعنها ناهياً واقفاً» أ هـ. ولم أجد له ترجمة فى كتب تراجم أهل الحديث.
حلية الأولياء (١٠/ ٣٤٢).

ونحوها. وتوحيد فرح باعتبار اللفظ والجمع فى: «وإن تصبهم» باعتبار المعنى ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب معاصيهم ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ ولم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١) والكفور: البليغ الكفران، والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها، قيل: أريد به كفران النعمة، وقيل: أريد به الكفر بالله تعالى.

●● ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أى: يقرنهم ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها؛ أتبع ذلك أن له تعالى الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء؛ فيخص بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور؛ وبعضاً بالصنفين جميعا، ويجعل البعض عقيما، والعقيم: التى لا تلد، وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له وقدم الإناث أولاً على الذكور؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل لما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة مالا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم وليلى الجنس الذى كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء، ولما أخر الذكور وهم أحقاء بالتقديم تدارك تأخيرهم بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال: ذكرانا وإناثا. وقيل: نزلت فى الأنبياء - عليهم السلام - حيث وهب للوط وشعيب إناثا ولإبراهيم ذكور ولمحمد (ﷺ) ذكورا وإناثا وجعل يحيى وعيسى - عليهما السلام - عقيمين ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شىء ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على كل شىء.

●● ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ أى: إلهاما كما روى: نفث فى روعي(٢). أو رؤيا فى المنام كقوله - عليه السلام -: «رؤيا الأنبياء وحى»(٣). وهو كأمر إبراهيم - عليه السلام - بذبح الولد ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى: يسمع كلاما من الله كما سمع موسى - عليه السلام - من غير أن يبصر السامع من يكلمه. وليس المراد به حجاب، الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب ولكن المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية فى الدنيا ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ أى يرسل ملكا ﴿فَيُوحِيَ﴾ أى الملك إليه، وقيل: وحيا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة، أو يرسل رسولا أى: نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. ووحيا وأن يرسل مصدران واقعان موقع الحال، لأن أن يرسل فى معنى إرسالا ومن وراء حجاب ظرف واقع موقع الحال كقوله: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾(٤) والتقدير: وما صح أن يكلم أحدا إلا

(١) سورة «إبراهيم»، الآية (٣٤).
(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٤/٩٣١١).
(٣) الحديث عند الحاكم فى «المستدرك»، من حديث ابن عباس، رضى الله عنه.
(٤) سورة «آل عمران»، الآيتان (١٩١).

موحيا، أو مسمعا من وراء حجاب، أو مرسلا. ويجوز أن يـكون المعنى: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحى، أو أن يـسمع من وراء حجاب، أو أن يـرسل رسولا. وهو اختيـار الخليل، أو يرسلُ رسولا فيوحى بـالرفع نافع على تقـدير، أو هو يرسل ﴿بِإِذْنِهِ﴾ إذن الله ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ من الوحى ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ﴾ قاهر فلا يمانع ﴿حَكِيمٌ﴾ مصيب فى أقواله وأفعاله فلا يعارض.

●● ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أى: كما أوحينـا إلى الرسل قبلك أو كمـا وصفنا لك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إيحاء كذلك ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يريد مـا أوحى إليه؛ لأن الخلق يـحيون به فى دينـهم كما يحيـا الجسد بالروح ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ الجملة حال من الكاف فى إليك ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ القرآن ﴿وَلا الإِيمَانُ﴾ أى: شرائعه أو ولا الإيمان بالكـتاب؛ لأنه إذا كان لايعلـم بأن الكتاب ينزل عـليه لم يكن عـالما بذلك الكتاب، وقيل: الإيمـان يتناول أشياء؛ بعضها الطريـق إليه العقل، وبعضها الطريـق إليه السمع؛ فعنى به ما الطريق إليـه السمع دون العقل، وذاك ما كان لـه فيه علم حتى كسبه بالوحى ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أى: الكتاب ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَـاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ لتدعوا، وقرىء به ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: الإسلام.

●● ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ بدل ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ مُلْكا ومِلْكا ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ هو وعيد بالجحيم، ووعد بالنعيم، والله أعلم بالصواب.

(سورة الزخرف تسع وثمانون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿حم ⓵ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ صيرناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ جوابا للقسم، وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه، والمبين البين للذين أنزل عليهم، لأنه بلغتهم وأساليبهم، أو الواضح للمتدبرين ، أو الذى أبان طرق الهدى من طرق الضلالة وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة فى أبواب الديانة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكى تفهموا معانيه.

●● ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ وإن القرآن مثبت عند الله فى اللوح المحفوظ، دليله قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾(١) وسمى أم الكتاب؛ لأنه الأصل الذى أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ. إم الكتاب بكسر الألف على وحمزة ﴿لَعَلِيٌّ﴾ خبر إن أى فى أعلى طبقات البلاغة، أو رفيع الشأن فى الكتب لكونه معجزا من بينها ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة.

●● ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ افننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر إنكارا، لأن يكون الأمر على خلاف ما قدم من إنزاله الكتاب وجعله قرآنا عربيا ليعقلوه وليعلموا بمواجبه ﴿صَفْحًا﴾ مصدر من صفح عنه إذا أعرض منتصب على أنه مفعول له على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضا عنكم، ويجوز أن يكون مصدرا على خلاف الصدر، لأنه يقال: ضربت عنه أى أعرضت عنه. كذا قاله الفراء ﴿أَن كُنتُمْ﴾ لأن كنتم. إن كنتم مدنى وحمزة، وهو من الشرط الذى يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفنى حقى، وهو عالم بذلك ﴿قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ مفرطين فى الجهالة مجاوزين الحد فى الضلالة.

●● ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أى كثيرا من الرسل أرسلنا إلى من تقدمك.

●● ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هى حكاية حال ماضية مستمرة أى: كانوا على ذلك وهذه تسلية لرسول الله (ﷺ) عن استهزاء قومه.

●● ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ تمييز والضمير المسرفين؛ لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله (ﷺ) يخبره عنهم ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى سلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التى حقها أن تسير مسير المثل وهذا وعد لرسول الله (ﷺ) ووعيد لهم.

---

(١) سورة «البروج»، الآيتان (٢١، ٢٢).

●● ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أى المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

●● ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ كوفى وغيره مهادا أى موضع قرار ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ طرقا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكى تهتدوا فى أسفاركم.

●● ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يسلم معه العباد ويحتاج إليه البلاد ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ فأحيينا؛ عدول من المغايبة إلى الإخبار لعلم المخاطب بالمراد ﴿بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يريد ميّتا ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء. تَخرجون حمزة وعلى ولا وقف على العليم؛ لأن الذى صفته، وقد وقف عليه أبو حاتم [1] على تقدير: هو الذى، لأن هذه الأوصاف ليست من مقول الكفار؛ لأنهم ينكرون الإخراج من القبور فكيف يقولون كذلك تخرجون؛ بل الآية حجة عليهم فى إنكار البعث.

●● ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى تركبونه يقال: ركبوا فى الفلك وركبوا الأنعام، فغلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة فقيل: تركبونه.

●● ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ بقلوبكم ﴿نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا﴾ بالسنتكم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ذلل لنا هذا المركوب ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين يقال: أقرن الشىء إذا أطاقه وحقيقة أقرنه وجده قرينته؛ لأن الصعب لايكون قرينة للضعيف.

●● ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ لراجعون فى المعاد قيل: يذكرون عند ركوبهم مراكب الدنيا آخر مركبهم منها وهو الجنازة. وعن النبى (ﷺ) أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله. فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخرلنا هذا إلى قوله: لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا» [2] وقالوا: إذا ركب فى السفينة قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [3] وحكى أن قوما ركبوا وقالوا: سبحان الذى سخر لنا هذا... الآية وفيهم رجل على ناقة لاتتحرك هزالا فقال إنى مقرن لهذه فسقط منها لوثبتها واندقت عنقه وينبغى أن لايكون ركوب العاقل للتنزه والتلذذ بل للاعتبار، ويتأمل عنده أنه هالك لامحالة ومنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه.

●● ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ولئن سألتهم أى: ولئن سألتهم عن خالق

---

(١) أبو حاتم السجستانى، راجع ترجمته عند تفسير الآية (٢٠) من سورة «آل عمران».

(٢) الحديث عند أبى داود والترمذى والنسائى، وغيرهم، من حديث على.

(٣) سورة «هود»، الآية (٤١).

السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عبـاده جزء أى قالوا: الملائكة بنات الله فجـعلوهم جزء له وبعـضا منه كما يكون الـولد جزءاً لوالده جزُوًا أبو بـكر وحماد ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ لجحود للنعمـة ظاهر جحوده؛ لأن نسبة الولد إليه كفر والـكفر أصل الكفران كله.

●● ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ أى: بل أتخذ والـهمزة للإنكار تجهـيلا لهم وتعجيبا من شأنهم حيث ادعوا أنه اختار لنفسه المنزلة الأدنى ولهم الأعلى.

●● ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ بالجنس الذى جعله له مثلا أى شبها؛ لأنه إذا جعل الملائكة جزءاً لله وبعضا منه فقد جعلـه من جنسه ومماثلاً له؛ لأن الولد لايكون إلا من جنس الوالد ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعنى أنهم نسبوا إليـه هذا الجنس ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قـد ولدت لك بنت؛ اغتم واربـد وجهه غيظا وتأسـفا، وهو مملوء من الكـرب، والظلول بمعنى الصيرورة.

●● ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومـة صفته، وهو أنه ينشأ فى الحلـية أى يتربى فى الزينة والنعـمة، وهو إذا احتاج إلى مجانـاة الخصوم ومجاراة الرجـال كان غير مبين لـيس عنده بيان ولا يـأتى ببرهان وذلك لـضعف عقولهن. قال مـقاتل: لاتتكلم المرأة إلا وتأتى بالحجـة عليها. وفيه أنه جعل النشـأة فى الزينة من المعايب فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويتزين بلباس التقوى، ومن منصوب المحل، والمعنى أوَجَعلوا من ينشأ فى الحـلية يعنى البنات لله عزوجل. يُـنَشَّأ حمزة وعلى وحفص أى يربـى قد جمعوا فى كفرهـم ثلاث كفرات، وذلك أنهـم نسبوا إلى الله الولـد ونسبوا إليـه أخس النوعين وجعـلوه من الملائكة المكرمين فاستخفوا بهم.

●● ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أى سموا وقالوا إنهم أنـاث. عند الرحمن مكى ومـدنى وشامى أى عنديـة منزلة ومكانـة لامنزل ومكان، والعـباد جمع عبد، وهـو ألزم فى الحجاج مع أهل العناد لتـضاد بين العبودية والولاد ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وهذا تهكم بهـم يعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علـم فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك ولا تطرقوا إليه باستدلال ولا أحاطوا بـه عن خبر يوجب العلم، ولم يـشاهدوا خلقهم حتى يخـبروا عن المشاهدة ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التى شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنها، وهذا وعيد.

●● ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أى الملائكة. تعلقت المعـتزلة بظاهر هذه الآية فى أن الله تعالى لـم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شـاء الإيمان فإن الكفار ادعوا أن الله شاء منهم الكفر وما شاء منهم تـرك عبادة الأصنام، حيث قالوا: لو شـاء الرحمن ماعبدناهم أى لو شـاء منا أن نترك عبادة الأصـنام لمنعـنا عن عبادتـها ولكن شاء مـنا عبادة الأصـنام، والله تعالى رد عـليهم قـولهم

واعتقادهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ﴾ المقول ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أى يكذبون، ومعنى الآية عندنا أنهم أرادوا بالمشيئة الرضا، وقالوا لو لم يرض بذلك لعجل عقوبتنا، أو لمنعنا عن عبادتها منع قهر واضطرار وإذ لم يفعل ذلك فقد رضى بذلك، فرد الله تعالى عليهم بقوله: مالهم بذلك من علم الآية، أو قالوا هذا القول استهزاءً لاجدا واعتقادا فأكذبهم الله تعالى فيه وجهلهم حيث لم يقولوا عن اعتقاد؛ كما قال مخبرا عنهم ﴿أنطعم مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[1] وهذا حق فى الأصل ولكن لما قالوا ذلك استهزاءً كذبهم الله بقوله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[2] وكذلك قال الله تعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾[3] ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[4] لأنهم لم يقولوه عن اعتقاد وجعلوا المشيئة حجة لهم فيما فعلوا باختيارهم وظنوا أن الله لايعاقبهم على شىء فعلوه بمشيئته وجعلوا أنفسهم معذورين فى ذلك فرد الله تعالى عليهم.

●● ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن أو من قبل قولهم هذا ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ آخذون عاملون، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: أشهدوا خلقهم أم آتيناهم كتابا من قبله فيه أن الملائكة إناث؟!

●● ﴿بَلْ قَالُوا﴾ بل لا حجة لهم يتمسكون بها لا من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث السمع إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ على دين فقلدناهم، وهى من الأم، وهو القصد فالأمة الطريقة التى تؤم أى تقصد ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الظرف صلة المهتدون، أو هما خبران.

●● ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ نبى ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أى متنعموها وهم الذين أترفتهم النعمة، أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهى ويعافون مشاق الدين وتكاليفه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ وهذا تسلية للنبى (ﷺ) وبيان أن تقليد الآباء داء قديم.

●● ﴿قَالَ﴾ شامى وحفص أى النذير، قل غيرهما أى قيل للنذير قل: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أى أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟! ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

●● ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فعاقبناهم بما استحقوه على إصرارهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ أى واذكر إذ قال ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ أى برئ وهو مصدر يستوى

(١)، (٢) سورة «يس»، الآية (٤٧).
(٣)، (٤) سورة «المنافقون»، الآية (١).

فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، كما تقول: رجل عدل، وامرأة عدل، وقوم عدل، والمعنى: ذو عدل وذات عدل ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع كأنه قال: لكن الذى فطرنى ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتنى على الهداية.

●● ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلمة التوحيد التى تكلم بها، وهى قوله: إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. والترجى لإبراهيم.

●● ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعنى أهل مكة وهم من عقب إبراهيم بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ أى القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أى محمد ـ عليه السلام ـ ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح الرسالة بما معه من الآيات البينة.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

●● ﴿وَقَالُوا﴾ فيه متحكمين بالباطل: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ فيه استهانة به ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أى رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(١) أى من أحدهما، والقريتان: مكة والطائف. وعنوا بعظيم مكة: الوليد بن المغيرة (٢) وبعظيم الطائف: عروة بن مسعود الثقفى (٣) وأرادوا بالعظيم من كان ذا مال وذا جاه ولم يعرفوا أن العظيم من كان عند الله عظيما.

●● ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أى النبوة، والهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من تحكمهم فى اختيار من يصلح للنبوة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ما يعيشون به وهو أرزاقهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى لم نجعل قسمة الأدون إليهم وهو الرزق فكيف النبوة، أو كما فضلت البعض على البعض فى الرزق فكذا أخص بالنبوة من أشاء ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أى: جعلنا البعض أقوياء وأغنياء وموالى، والبعض ضعفاء وفقراء وخدماء ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليصرف بعضهم بعضا فى حوائجهم ويستخدموهم فى مهنهم ويتسخروهم فى أشغالهم، حتى يتعايشوا ويصلوا إلى منافعهم هذا بماله وهذا بأعماله ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أى النبوة، أو دين الله وما

---

(١) سورة «الرحمن»، الآية (٢٢).

(٢) انظر ترجمة «الوليد بن المغيرة» عند تفسير الآية (٩٥)، من سورة « الحجر».

(٣) انظر ترجمة «عروة بن مسعود»، عند تفسير الآية (٦٧)، من سورة «القصص».

يتبعه من الفوز فى المآب ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مما يجمع هؤلاء من حطام الدنـيا. ولما قلل أمر الدنيا وصغرها أردفه بما يقرر قلة الدنيا عنده فقال:

●● ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولولا كراهة أن يـجتمعوا على الـكفر ويطبقـوا عليه ﴿لَّجَعَلْنَا﴾ لحقارة الدنيـا عندنا ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا﴾ أى لجعلنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسرراً كلها من فضة، وجعـلنا لهم زخرفا أى زينـة من كل شىء والزخرف الذهب والـزينة، ويجوز أن يكون الأصل سـقفا من فضة وزخرف أى بعـضها من فضة وبعضـها من ذهب فنصب عطـفا على محل من فـضة لبيوتهـم بدل اشتمال من لمن يـكفر. سَقْفًا علـى الجنس مكى وأبو عـمرو ويزيد، والمعارج جمع معرج، وهى المصاعد إلى العلالى، عليها يظهرون على المعارج يظهرون السطوح أى يعلونها ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إن نافية، ولما بمعنى إلا أى ومـا كل ذلك إلا متاع الحياة الدنـيا وقد قرىء به. وقرأ لَمَـا غير عاصم وحمزة عـلى أن اللام هى الفارقة بـين إن المخففة والنافية، و«ما» صلة أى: وإن كل ذلك لمتاع الحياة الدنيا ﴿وَالآخِرَةُ﴾ أى ثواب الآخرة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن يتقى الشرك.

●● ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وقرىء ومن يعـشَ، والفرق بينهمـا أنه إذا حصلت الآفة فى بـصره، قيل: عشى يعشى وإذا نظر نظـر العشى ولا آفة به قيل عشا يعشو ومعنى الـقراءة بالفتح ومن يعم ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[1] ومعنى القراءة بالضم: ومن يتعام عن ذكره أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل كقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[2] ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهـما ـ :نسلطه عليه فهو معه فى الـدنيا والآخرة يحمله على المعاصى، وفيه إشارة إلى أن من داوم عليه[3] لم يقرنه الشيطان.

●● ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أى: الشياطين ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ ليمنعون العاشين ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الهدى ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أى: العاشون ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وإنما جمع ضمير من وضمير الشيطان؛ لأن من مبهم فى جنس العاشى وقد قيض له شيطان مبهم فى جنسه فجاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا.

●● ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ على الواحد عراقـى غير أبى بكر أى العاشى جاآنا غـيرهم أى: العاشى وقرينه ﴿قَالَ﴾ لشيطانه ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب فغلب كما قيل: العمران والقمران والمراد بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت.

---

(١) سورة «البقرة»، الآيتان (١٨)، و(١٧١).

(٢) سورة «النمل»، الآية (١٤).

(٣) الضمير فى «عليه»، يعود على «القرآن»؛ «الذكر».

●● ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ إذ صح ظلمكم أى كفركم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة فى أنكم كنتم ظالمين، وإذ بدل من اليوم ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أنكم فى محل الرفع على الفاعلية أى: ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب، أو كونكم مشتركين فى العذاب كما كان عموم البلوى يطيب القلب فى الدنيا كقول الخنساء(١):

ولولا كثرة الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلت نفسى
ولا يكون مثل أخى ولكن ... أعزى النفس عنه بالتأسى

أما هؤلاء فلا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ماهم فيه وقيل: الفاعل مضمر أى ولن ينفعكم هذا التمنى أو الاعتذار؛ لأنكم فى العذاب مشتركون لاشتراككم فى سببه وهو الكفر ويؤيده قراءة من قرأ إنكم بالكسر.

●● ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أى من فقد سمع القبول ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ أى من فقد البصر ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ومن كان فى علم الله أنه يموت على الضلال ﴿فَإِمَّا﴾ دخلت ما على إن توكيدا للشرط، وكذا النون الثقيلة فى ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أى: نتوفينك قبل أن ننصرك عليهم ونشفى صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أشد الانتقام فى الآخرة.

●● ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ قبل أن نتوفاك، يعنى يوم بدر ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قادرون، وصفهم بشدة الشكيمة فى الكفر والضلال بقوله أفأنت تسمع الصم الآية، ثم أوعدهم بعذاب الدنيا والآخرة بقوله. فإما نذهبن بك. . . الآيتين.

●● ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ فتمسك ﴿بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن واعمل به ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: على الدين الذى لا عوج له.

●● ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن الذى أوحى إليك ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف لك ﴿وَلِقَوْمِكَ﴾ ولأمتك ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وعن شكركم هذه النعمة.

●● ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ليس المراد بسؤال

---

(١) هى شاعرة العرب الأولى، تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السلمية، أشهر وأشعر نساء العرب فى الجاهلية والإسلام، ملأت الدنيا رثاءً على أخيها «صخر» فى الجاهلية، ولما أسلمت واستشهد أبناؤها الأربعة فى معركة القادسية، قالت: «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأسأل الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته». ولقبت «أم الشهداء»، وهى مخضرمة، توفيت عام ٢٤هـ.
الأعلام (٢/٨٦).

الرسل حقيقة السؤال ولكنه مجاز عن النظر فى أديانهم والفحص عن مللهم؛ هل جاءت عبادة الأوثان قط فى ملة من ملل الأنبياء!! وكفاه نظرا وفحصا نظره فى كتاب الله المعجز المصدق لما بين يديه وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا، وهذه الآية فى نفسها كافية لاحاجة إلى غيرها، وقيل: إنه ـ عليه السلام ـ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء فأمهم، وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين أى التوراة والإنجيل، وإنما يخبرونه عن كتب الرسل فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء، ومعنى هذا السؤال التقرير لعبدة الأوثان أنهم على الباطل. وسل بلا همزة مكى وعلى رسلنا أبو عمرو. ثم سلى رسوله (ﷺ) بقوله:

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ما أجابوه به عند قوله: إنى رسول رب العالمين محذوف دل عليه قوله:

●● ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون منها ويهزؤون بها ويسمونها سحرا، وإذا للمفاجأة وهو جواب فلما؛ لأن فعل المفاجأة معها مقدر، وهو عامل النصب فى محل إذا كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضحكهم.

●● ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قرينتها وصاحبتها التى كانت قبلها فى نقض العادة وظاهر النظم يدل على أن اللاحقة أعظم من السابقة، وليس كذلك بل المراد بهذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر ولا يكدن يتفاوتن فيه، وعليه كلام الناس يقال: هما أخوان كل واحد منهما أكرم من الآخر ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وهو ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾(١) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾(٢) الآية ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإيمان.

●● ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لتعظيمهم علم السحر. يا أيُّهُ الساحر بضم الهاء بلا ألف شامى ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف فلما سقطت لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من أن دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك وهو النبوة، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن اهتدى ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ مؤمنون به.

●● ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون العهد بالإيمان ولا يفون به.

---

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٣٠).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (١٣٣).

●● ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ نادى بنفسه عظماء القبط أو أمر منـاديا فنادى كقولك: قطع الأمير اللص إذا أمر بقطعه[1] ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ جعلهم محلا لندائه وموقعا له ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أى أنهار النيل ومعظمها أربعة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ من تحت قصرى، وقيل: بين يدى فى جنانى، والواو عاطفة لـلأنهار على ملك مصر وتجرى نصب على الحال مـنها أو الواو للحال واسم الإشارة مـبتدأ والأنـهار صـفة لاسم الإشـارة وتجرى خبـر للمـبتدأ، وعـن الرشـيد أن لما قـرأها قال: لأولينها أخس عبيدى فولاها الخصيب وكان خادمه على وضوئه، وعن عبدالله بن طاهر[2] أنه وليها فخرج إليـها فلما شارفها قال: أهى القريـة التى افتخر بها فرعون حتى قـال: أليس لى ملك مصر؟ والله لهى أقل عندى من أن أدخلها فثنى عنانه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قوتى وضعف موسى وغناى وفقره.

●● ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ أم منقطعـة بمعنى بل والهمزة كأنـه قال: أثبت عندكم واستقـر أنى أنا خير وهذه حالى ﴿مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حـقير ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكـلام لما كان بـه من الرتة[3].

●● ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾ حفص ويعقوب وسهل جمع سوار. غيرهم أساورة جمع أسورة وأساوير جمع أسوار، وهو السوار حذف الياء من أساوير وعوض منها التاء ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ أراد بإلقـاء الأسورة عليه إلقـاء مقاليد الملـك إليه، لأنهم كانـوا إذا أرادوا تسويد الرجل سـوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يمشون معه يقترن بعضـهم ببعض ليكونوا أعضاده وأنصاره وأعوانه.

●● ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ استفزهم بالقول واستنزلهم وعمل فـيهم كلامه، وقيل: طلب منهم الخفة فى الطاعة وهى الإسراع ﴿فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن دين الله.

●● ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ آسف منقول من أسف أسـفا إذا اشتد غضبه ومعناه أنهم أفرطوا فى المعاصى فاستوجبوا أن يعجل لهم عذابنا وانتقامنا وأن لانحلم عنهم.

●● ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ جمع سالف كخادم وخدم. سُلُفا حمـزة وعلى، جمع سليف أى فريق قد سلف ﴿وَمَثَلًا﴾ وحديثا عجيب الشأن سائرا مسير المثل يضرب بهم الأمثال، ويقال: مثلكم مثل قوم

---

(١) قطعه: أى: قطع يده. وهذا ما يسميه علماء البلاغة: إطلاق الكلية على الجزئية.

(٢) هو الوالى العباسى؛ عبدالله بن طاهر بـن الحسين بن مصعب بن رزيق، الخزاعى، مولاهم، من أشهر ولاة العصر العباسى، ولد عام ١٨٢هـ، وتوفى عام ٢٣٠هـ.
الأعلام (٤/ ٩٣).

(٣) الرتة: عدم وضوح الكلام.

فرعون ﴿لِلْآخِرِينَ﴾ لمن يجئ بعدهم، ومعناه فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار يقتدون بهم فى استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم لإتيانهم بمثل أفعالهم ومثلا يحدثون به.

●● ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ لما قرأ رسول الله (ﷺ) على قريش: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(١)، غضبوا، فقال ابن الزبعرى: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ـ عليه السلام ـ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، فقال: ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبى وتثنى عليه وعلى أمه خيرا، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما وعزير يعبد، والملائكة يعبدون. فإن كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا، وسكت النبى (ﷺ) فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾(٢) ونزلت هذه الآية والمعنى: ولما ضرب ابن الزبعرى(٣) عيسى ابن مريم مثلا لآلهتهم وجادل رسول الله (ﷺ) بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات النبى (ﷺ) بجدله. يصُدون مدنى وشامى والأعشى وعلى من الصدود أى من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وقيل: من الصديد وهو الجلبة، وأنهما لغتان نحو يعكف ويعكُف.

●● ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى فإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أى ماضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول لا لطلب الميز بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لُدٌّ، شداد الخصومة دأبهم اللجاج، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، لم يرد به إلا الأصنام، لأن ما لغير العقلاء، إلا أن ابن الزبعرى بخداعه لما رأى كلام الله محتملا لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لاغير وجد للحيلة مساغا فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريق اللجاج والجدال وحب المغالبة والمكابرة، وتوقح فى ذلك؛ فتوقر رسول الله (ﷺ) حتى أجاب عنه ربه.

●● ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العبيد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنى إسرائيل.

●● ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أى بدلا منكم: كذا قاله الزجاج، وقال جامع العلوم: لجعلنا بدلكم، ومن بمعنى البدل ﴿يَخْلُفُونَ﴾ يخلفونكم فى الأرض أو يخلف الملائكة بعضهم

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٨٩).

(٢) سورة «الأنبياء»، الآية (١٠١).

(٣) ابن الزبعرى، انظر ترجمته عند تفسير الآية (١٠١)، من سورة «الأنبياء».

بعضا وقيل: ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الأمور لجعلنا منكم لولّدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم كما ولّدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعلموا أن الملائكة أجسام لاتتولد إلا من أجسام والقديم متعال عن ذلك.

●● ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ وإن عيسى مما يعلم به مجىء الساعة، وقرأ ابن عباس: لعلم للساعة، وهو العلامة أى وإن نزوله علم للساعة ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكن فيها من المرية وهو الشك ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ وبالياء فيهما سهل ويعقوب أى: واتبعوا هداى وشرعى، أو رسولى، أو هو أمر لرسول الله (ﷺ) أن يقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه.

●● ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ عن الإيمان بالساعة أو عن الاتباع ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة؛إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور.

●● ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أى الإنجيل والشرائع ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الدين لا أمر الدنيا ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا تمام كلام عيسى، عليه السلام.

●● ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم اليعقوبية والنسطورية والملكانية والشمعونية[(١)] ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حيث قالوا فى عيسى ما كفروا به ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة.

●● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ الضمير لقوم عيسى أو للكفار ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة أى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أى وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم كقوله: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[(٢)] ﴿الأَخِلاَّءُ﴾ جمع خليل ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى المؤمنين، وانتصاب يومئذ بعدو أى: تنقطع فى ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين فى غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتا إلا خلة المتصادقين فى الله فإنها الخلة الباقية.

●● ﴿يَا عِبَادِ﴾ بالياء[(٣)] فى الوصل والوقف مدنىّ وشامى وأبو عمرو، وبفتح الياء أبوّ بكر.

---

(١) الشمعونية: هم أتباع شمعون الصفا، العالم الزاهد الأديب، كان من الحواريين، ويقولون عنه: إنه بعد قتل المسيح وصلبه، نزل ورآه شمعون هذا، وكلمه المسيح وأوصى إليه ثم صعد إلى السماء.
(انظر الفصل الثانى من كتاب الملل والنحل).

(٢) سورة «يس»، الآية (٤٩).

(٣) بالياء، أى: «ياعبادى».

الباقون بحذف الياء ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هو حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ.

●● ﴿الَّذِينَ﴾ منصوب المحل صفة لعبادى؛ لأنه منادى مضاف ﴿آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ صدقوا بآياتنا ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ لله منقادين له.

●● ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ المؤمنات فى الدنيا ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره على وجوهكم.

●● ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ جمع صحفة ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أى من ذهب أيضا والكوب الكوز لا عروة له ﴿وَفِيهَا﴾ وفى الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾ مدنى وشامى وحفص بإثبات الهاء العائدة إلى الموصول. وحذفها غيرهم لطول الموصول بالفعل والفاعل والمفعول ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنها إما مشتهيات فى القلوب، أو مستلذة فى العيون ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●● ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تلك إشارة إلى الجنة المذكورة وهى مبتدأ والجنة خبر والتى أورثتموها صفة الجنة، أو الجنة صفة للمبتدأ الذى هو اسم الإشارة، والتى أورثتموها خبر المبتدأ، أو التى أورثتموها صفة المبتدأ وبما كنتم تعملون الخبر، والباء تتعلق بمحذوف أى: حاصلة أو كائنة كما فى الظروف التى تقع أخبارا، وفى الوجه الأول تتعلق بأورثتموها وشبهت فى بقائها على أهلها بالميراث الباقى على الورثة.

●● ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ «من» للتبعيض أى لا تأكلون إلا بعضها وأعقابها باقية فى شجرها فهى مزينة بالثمار أبدا، وفى الحديث: لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلاها(١).

●● ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ خبر بعد خبر.

●● ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ خبر آخر أى لايخفف ولا ينقص ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ فى العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من الفرج متحيرون.

●● ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ «هم» فصل.

●● ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ لما آيسوا من فتور العذاب نادوا يامالك وهو خازن النار وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ يا مال، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾

---

(١) الحديث عند البزار، عن ثوبان.

ليمتنا من قضى عليه إذا أماته ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1] والمعنى: سل ربك أن يقضى علينا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ لابثون فى العذاب لاتتخلصون عنه بموت ولا فتور.

●● ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ كلام الله تعالى، ويجب أن يكون فى قال ضمير الله لما سألوا مالكا أن يسأل الله القضاء عليهم أجابهم الله بذلك، وقيل: هو متصل بكلام مالك[2] والمراد بقوله: جئناكم: الملائكة؛ إذ هم رسل الله وهو[3] منهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ لاتقبلونه وتنفرون منه، لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب.

●● ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ أم أحكم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم بمحمد (ﷺ) ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم،وكانوا يتنادون فيتناجون فى أمر رسول الله (ﷺ) فى دار الندوة.

●● ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ مايتحدثون فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ أى الحفظة ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ عندهم يكتبون ذلك، وعن يحيى بن معاذ: من ستر من الناس عيوبه وأبداها لمن لاتخفى عليه خافية فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من أمارات النفاق.

●● ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾وصح ذلك ببرهان ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ فانا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد إليه كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض، والمراد: نفى الولد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد، وهى محال فى نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها، ونظيره: قول سعيد بن جبير للحجاج حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى لو عرفت أن ذلك إليك ماعبدت إلها غيرك، وقيل: إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين أى: الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه، وقيل: إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد وقرئ العَبِدين، وقيل: هى إن النافية أى ما كان للرحمن ولد فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد. وروى أن النضر قال: الملائكة بنات الله فنزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه صدقنى؟ فقال له الوليد ماصدقك، ولكن قال ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له. وُلد حمزة وعلى، ثم نزه ذاته عن اتخاذ الولد فقال:

●● ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: هو رب السموات والأرض والعرش فلا يكون جسما إذ لو كان جسما لم يقدر على خلقها وإذا لم يكن جسما لايكون له ولد، لأن التولد من صفة الأجسام.

---

(١) سورة «القصص»، الآية (١٥).

(٢) أى: القائل هو مالك أيضاً، فالكلام إكمال لكلام مالك فى الآية السابقة.

(٣) يقصد: «مالك».

•• ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ فى باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أى القيامة، وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب.

•• ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ ضمن اسمه تعالى معنى وصف فلذلك علق به الظرف فى قوله: فى السماء وفى الأرض كما تقول: هو حاتم فى طيّ وحاتم فى تغلب على تضمين معنى الجواد الذى شهر به، كأنك قلت هو جواد فى طيّ جواد فى تغلب، وقرىء وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله، ومثله قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الأَرْضِ﴾[1] فكأنه ضمن معنى المعبود والراجع إلى الموصل محذوف لطول الكلام كقولهم: ما أنا بالذى قائل لك شيئا والتقدير وهو الذى هو فى السماء إله، وإله يرتفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ولا يرتفع إله بالابتداء وخبره فى السماء، لخلو الصلة حينئذ من عائد يعود إلى الموصول ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فى أقواله وأفعاله ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون.

•• ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى علم قيامها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يرجعون مكى وحمزة وعلى.

•• ﴿وَلا يَمْلِكُ﴾ آلهتهم ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أى يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أى ولكن من شهد بالحق بكلمة التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله ربهم حقا ويعتقدون ذلك هو الذى يملك الشفاعة وهو استثناء منقطع أو متصل لأن فى جملة الذين يدعون من دون الله الملائكة.

•• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أى المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لا الأصنام والملائكة ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فكيف، أو من أين يصرفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟!

•• ﴿وَقِيلِهِ﴾ بالجر عاصم وحمزة أى: وعنده علم الساعة وعلم قيله ﴿يَا رَبِّ﴾ والهاء يعود إلى محمد (ﷺ) لتقدم ذكره فى قوله: قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين. وبالنصب الباقون عطفا على محل الساعة أى: يعلم الساعة، ويعلم، قيله أى قيل محمد يارب والقيل والقول والقال والمقال واحد، ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه. وجواب القسم ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ كأنه قيل: وأقسم بقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه التجائه إليه.

•• ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائسا عن إيمانهم وودعهم وتاركهم ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلامٌ﴾ أى: تسلم منكم ومتاركة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله(ﷺ). وبالتاء مدنى وشامى.

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (٣).

(سورة الدخان تسع وخمسون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

في الخبر: من قرأها ليلة جمعة أصبح مغفورا له(١).

●● ﴿حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: القرآن، الواو فى والكتاب واو القسم إن جعلت حم تعديدا للحروف، أو اسما للسورة مرفوعا على خبر الابتداء المحذوف، وواو العطف إن كانت حم مقسما بها، وجواب القسم:

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أى ليلة القدر، أو ليلة النصف من شعبان، وقيل: بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة، والجمهور على الأول لقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(٢) وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾(٣) وليلة القدر فى أكثر الأقاويل فى شهر رمضان ثم قالوا: أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل فى وقت وقوع الحاجة إلى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وقيل: ابتداء نزوله فى ليلة القدر، والمباركة الكثيرة الخير لما ينزل فيها من الخير والبركة ويستجاب من الدعاء، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

●● ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ﴾ هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان فسر بهما جواب القسم كأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالنا إياه فى هذه الليلة خصوصا؛ لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم ومعنى يفرق: يفصل ويكتب كل أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى ليلة القدر التى تجىء فى السنة المقبلة ﴿حَكِيمٍ﴾ ذى حكمة أى مفعول على ما تقتضيه الحكمة، وهو من الإسناد المجازى؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجازا.

●● ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص جعل كل أمر جزلا فخامة بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جزالة وفخامة بأن قال: أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من إنا كنا منذرين.

●● ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول له على معنى إنا أنزلنا القرآن، لأن من شأننا وعادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم أو تعليل لقوله: أمرا من عندنا، ورحمة مفعول به، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به فى قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾(٤)

---

(١) الحديث - بنحوه - فى «كنز العمال»، برقم (١/ ٢٦٣٣).

(٢) سورة «القدر»، الآية (١).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (١٥٨).

(٤) سورة «فاطر»، الآية (٢).

والأصل إنا كنا مرسلين رحمة منا فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانا بأن الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم ﴿رَبِّ﴾ كوفى بدل من ربك وغيرهم بالرفع أى: هو رب ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ ومعنى الشرط أنهم كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربا وخالقا فقيل لهم: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم الذى أنتم مقرّون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان كما تقول: إن هذا إنعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه، إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

•• ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هو ربكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ عطف عليه، ثم رد أن يكونوا موقنين بقوله.

•• ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وإن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن؛ بل قول مخلوط بهزؤ ولعب.

•• ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ يأتى من السماء قبل يوم القيامة،يدخل فى أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ (١) ويعترى المؤمن منه كهيئة الزكام،وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص(٢) وقيل: إن قريشا لما استعصت على رسول الله (ﷺ) دعا عليهم فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»(٣) فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف والعلهز (٤) وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان، وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر حاله لايشك أحد فى أنه دخان.

•• ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يشملهم ويلبسهم وهو فى محل الجر صفة لدخان وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ اى سنؤمن إن تكشف عنا العذاب، منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون، ويقولون منصوب المحل على الحال أى قائلين ذلك.

•• ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أى وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل فى

---

(١) الحنيذ: اسم للشاة إذا أعدت للشواء، وفى التنزيل العزيز ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.
(المعجم الوسيط ١/٢٠٢).

(٢) خصاص: بيت من القصب، أو بيت يسقف بالخشب أهـ. ويعرفها العامة باسم «الخوص»، وخاصة فى الريف.
القاموس (٢/ ٣٠١).

(٣) الحديث متفق عليه.

(٤) العلهز: الوبر والدم.

وجوب الاذّكار من كشف الدخان وهو ما ظهر على رسول الله (ﷺ) من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأن عدّاسا غلاما أعجميا لبعض ثقيف هو الذى علمه ونسبوه إلى الجنون.

●● ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً﴾ زمانا قليلا أو كشفا قليلا ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر الذى كنتم فيه، أو إلى العذاب.

●● ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ هى يوم القيامة، أو يوم بدر ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ أى: ننتقم منهم فى ذلك اليوم، وانتصاب يوم نبطش باذكر، أو بما دل عليه إنا منتقمون وهو ننتقم لابمنتقمون؛ لأن مابعد إن لايعمل فيما قبلها.

●● ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء المشركين أى: فعلنا بهم فعل المختبر ليظهر منهم ما كان باطنا ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله وعلى عباده المؤمنين، أو كريم فى نفسه حسيب نسيب، لأن الله تعالى لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم.

●● ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ﴾ هى أن المفسرة؛ لأن مجىء الرسول إلى من بعث إليهم متضمن لمعنى القول؛ لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله، أو المخففة من الثقيلة ومعناه: وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا إلىَّ سلّموا إلى ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ هو مفعول به وهم بنو إسرائيل يقول: أدوهم إلى وأرسلوهم معى كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [1] ويجوز أن يكون نداء لهم على معنى أدوا إلى ياعباد الله ما هو واجب لى عليكم من الإيمان لى وقبول دعوتى واتباع سبيلى، وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أى على رسالتى غير متهم.

●● ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أن هذه مثل الأولى فى وجهيها أى لاتستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووحيه، أو لا تستكبروا على نبى الله ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة تدل على أنى نبى.

●● ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ مدغم أبو عمرو وحمزة وعلى ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أن تقتلونى رجما ومعناه: أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه من الرجم والقتل.

●● ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أى إن لم تؤمنوا لى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن فتنحوا عنى، أو فخلونى كفافا لا لى ولا علىّ ولاتتعرضوا لى بشركم أذاكم فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم ذلك. ترجمونى، فاعتزلونى فى الحالين يعقوب.

---

(١) سورة «طه»، الآية (٤٧).

●● ﴿فَدَعَا رَبَّه﴾ شاكيا قومه ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ بأن هؤلاء أى دعا ربه بذلك، قيل: كان دعاؤه: اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم، وقيل: هو قوله: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١) وقرىء: إن هؤلاء بالكسر على إضمار القول أى فدعا ربه فقال: إن هؤلاء.

●● ﴿فَأَسْرِ﴾ من أسرى. فاسر بالوصل حجازى من سرى والقول مضمر بعد الفاء أى فقال: أسر ﴿بِعِبَادِي﴾ أى: بنى إسرائيل ﴿لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أى دبر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده فينجى المتقدمين ويغرق التابعين.

●● ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ساكنا أراد موسى - عليه السلام - لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق فأمر بأن يتركه ساكنا على هيئته قارا على حاله من انتصاب الماء، وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا، ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم، وقيل: الرهو: الفجوة الواسعة أى اتركه مفتوحا على حاله منفرجا ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ بعد خروجكم من البحر. وقرىء بالفتح أى لأنهم.

●● ﴿كَمْ﴾ عبارة عن الكثرة منصوب بقوله: ﴿تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ هو ما كان لهم من المنازل الحسنة، وقيل: المنابر.

●● ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ تنعم ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ متنعمين.

●● ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: الأمر كذلك؛ فالكاف فى موضع الرفع على أنه خبر مبتدإ مضمر ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم فى شىء من قرابة ولا دين ولاولاء، وهم بنو إسرائيل.

●● ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ لأنهم ماتوا كفارا، والمؤمن إذا مات تبكى عليه السماء والأرض؛ فيبكى على المؤمن من الأرض مصلاه ومن السماء مصعد عمله، وعن الحسن: أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أى لم ينظروا إلى وقت آخر ولم يمهلوا.

●● ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أى الاستخدام والاستعباد وقتل الأولاد.

●● ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب المهين بإعادة الجار كأنه فى نفسه كان عذابا مهينا لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم، أو خبر مبتدأ محذوف أى: ذلك من فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبرا ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ خبر ثان أى: كان متكبرا مسرفا.

●● ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ أى: بنى إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من ضمير الفاعل أى عالمين بمكان الخيرة، وبأنهم أحقاد بأن يختاروا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمى زمانهم.

---

(١) سورة «يونس»، الآية (٨٥).

•• ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ نعمة ظاهرة، أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون.

•• ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾يعنى كفار قريش﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ﴾ما الموتة ﴿إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ والإشكال أن الكلام وقع فى الحياة الثانية لا فى الموت، فهلا قيل: إن هى إلا حياتنا الأولى، وما معنى ذكر الأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى جحدوها وأثبتوا الأولى، والجواب أنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة وذلك قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾(١) فقالوا: إن هى إلا موتتنا الأولى يريدون ما الموتة التى من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله: ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾(٢) فى المعنى، ويحتمل أن يكون هذا إنكارا لما فى قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾(٣)، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين يقال: أنشر الله الموتى، ونشرهم إذا بعثهم.

•• ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور من رسول الله (ﷺ) والمؤمنين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلا على أن ما تدعونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ فى القوة والمنعة. ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبع الحميرى؛كان مؤمنا وقومه كافرين وقيل: كان نبيا وفى الحديث: ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى (٤) ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مرفوع بالعطف على قوم تبع ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين منكرين للبعث.

•• ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: وما بين الجنسين ﴿لاعِبِينَ﴾ حال ولو لم يكن بعث ولا حساب ولا ثواب كان خلق الخلق للفناء خاصة فيكون لعبا.

•• ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ بالجد ضد اللعب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أنه خلق لذلك.

•• ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل وهو يوم القيامة ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقت موعدهم كلهم.

•• ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ أىّ ولى كان عن أى ولى كان شيئا من إغناء أى:

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٨).

(٢) الأنعام (٢٩)، والمؤمنون (٣٧)، والجاثية (٢٤).

(٣) سورة «غافر»، الآية (١١).

(٤) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٢/ ٣٤٠٨٦، ٣٤٠٨٧).

قليلا منه ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير للمولى؛ لأنهم فى المعنى كثير لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى.

●● ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ في محل الرفع على البدل من الواو في «ينصرون» أى لا يمنع منى العذاب إلا من رحمه الله ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ لأوليائه.

●● ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ هى على صورة شجرة الدنيا لكنها فى النار، والزقوم ثمرها، وهو كل طعام ثقيل.

●● ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ هو الفاجر الكثير الآثام وعن أبى الدرداء أنه كان يقرىء رجلا فكان يقول: طعام اليتيم فقال: قل طعام الفاجر يا هذا، وبهذا تستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها، ومنه أجاز أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدى القارئ المعانى كلها على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا، قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إحازة، لأن فى كلام العرب خصوصا فى القرآن الذى هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعانى والدقائق ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها ويروى رجوعه إلى قولهما [1] وعليه الاعتماد.

** ﴿كَالْمُهْلِ﴾ هو دردى الزيت [2]، والكاف رفع خبر بعد خبر ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ بالياء مكى وحفص [وقرئ بالتاء] فالتاء للشجرة والياء للطعام.

●● ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أى الماء الحار الذى انتهى غليانه ومعناه غليا كغلى الحميم فالكاف منصوب المحل، ثم يقال للزبانية:

●● ﴿خُذُوهُ﴾ أى الأثيم ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة. فاعتُلوه مكى ونافع وشامى وسهل ويعقوب ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى وسطها ومعظمها.

●● ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ المصبوب هو الحميم لا عذابه؛ إلا أنه إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدته وصب العذاب استعارة ويقال له:

●● ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ على سبيل الهزؤ والتهكم. أنك أى لأنك على.

●● ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أى العذاب أو هذا الأمر هو ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ بالفتح وهو موضع القيام، والمراد: المكان وهو من الخاص الذى وقع مستعملا فى معنى العموم. وبالضم مدنى وشامى، وهو موضع الإقامة ﴿أَمِينٍ﴾ من أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة؛ لأن المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.

---

(١) يقصد الصاحبين، أي: أبي يوسف ومحمد.

(٢) دردى الزيت: ما يبقى أسفله.

القاموس (١/ ٢٩٢).

●● ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من مقام أمين.

●● ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ ما رَقّ من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غَلُظَ منه وهو تعريب «استبر» واللفظ إذا عرب خرج من أن يكون أعجميا؛ لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه وتغييره عن منهاجه وإجرائه على أوجه الإعراب، فساغ أن يقع فى القرآن العربى ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ فى مجالسهم وهو أتم للأنس.

●● ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف مرفوعة أى الأمر كذلك ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرناهم ولهذا عدى بالباء ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء وهى الشديدة سواد العين والشديدة بياضها ﴿عِينٍ﴾ جمع عيناء وهى الواسعة العين.

●● ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يطلبون فى الجنة ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ من الزوال والانقطاع وتولد الضرر من الإكثار.

●● ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ أى فى الجنة ﴿الْمَوْتَ﴾ ألبتة ﴿إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ أى: سوى الموتة الأولى التى ذاقوها فى الدنيا، وقيل: لكن الموتة قد ذاقوها فى الدنيا ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

●● ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى للفضل؛ فهو مفعول له، أو مصدر مؤكد لما قبله، لأن قوله: ووقاهم عذاب الجحيم تفضل منه لهم، لأن العبد لايستحق على الله شيئا ﴿ذَلِكَ﴾ أى: صرف العذاب ودخول الجنة ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

●● ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أى الكتاب، وقد جرى ذكره فى أول السورة ﴿بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

●● ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون مايحل بك من الدوائر.

(سورة الجاثية مكية، وهى سبع وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿حم﴾ إن جعلتها اسماً للسورة فهو مرفوعة بالابتداء، والخبر:

●● ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ صلة للتنزيل، وإن جعلتها تعديدا للحروف كان تنزيل الكتاب مبتدأ والظرف خبرا ﴿الْعَزِيزِ﴾ فى انتقامه ﴿الْحَكِيمِ﴾ فى تدبيره.

●● ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ﴾ لدلالات على وحدانيته، ويجوز أن يكون المعنى: إن فى خلق السموات والأرض لآيات ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليله قوله:

●● ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ويعطف ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ على الخلق المضاف؛ لأن المضاف إليه ضمير مجرور متصل قبح العطف عليه ﴿آيَاتٌ﴾ حمزة وعلى بالنصب. وغيرهما بالرفع مثل قولك إن زيدا فى الدار وعمراً فى السوق، أو وعمرو فى السوق ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

●● ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أى: مطر وسمى به، لأنه سبب الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ الريح حمزة وعلى ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بالنصب على وحمزة، وغيرهما بالرفع وهذا من العطف على عاملين سواء نصبت، أو رفعت فالعاملان إذا نصبت إنّ وفى. أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر فى واختلاف الليل والنهار، والنصب فى آيات. وإذا رفعت فالعاملان الابتداء، وفى عملت الواو الرفع فى آيات والجر فى واختلاف، هذا مذهب الأخفش، لأنه يجوز العطف على عاملين، وأما سيبويه فإنه لا يجيزه، وتخريج الآية عنده أن يكون على إضمار فى والذى حسنه تقديم ذكر فى فى الآيتين قبل هذه الآية ويؤيده قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وفى اختلاف الليل والنهار، ويجوز أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفا على ما قبله، أو على التكرير توكيدا لآيات الأولى، كأنه قيل: آيات آيات ورفعها بإضمار هى، والمعنى فى تقديم الإيمان على الإيقان وتوسيطه وتأخير الآخر أن المنصفين من العباد إذا نظروا فى السموات والأرض نظرا صحيحا علموا أنها مصنوعة وأنه لابد لها من صانع فآمنوا بالله، فإذا نظروا فى خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال، وفى خلق ما ظهر على الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا وأيقنوا، فإذا نظروا فى سائر الحوادث التى تتجدد فى كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها وتصريف الرياح جنوبا وشمالا وقبولا ودبوراً عقلوا، واستحكم علمهم، وخلص يقينهم.

●● ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المتقدمة أى: تلك الآيات ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿نَتْلُوهَا﴾ فى محل الحال أى: متلوة ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ

﴿بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ أى بعد آيات الله كقولهم: أعجبنى زيد وكرمه، يريدون: أعجبنى كرم زيد ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ حجازى وأبو عمرو وسهل وحفص، وبالتاء غيرهم على تقدير: قل يا محمد.

●● ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ متبالغ فى اقتراف الآثام.

●● ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فى موضع جر صفة ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال من آيات الله ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقبل على كفره ويقيم عليه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات والإذعان لما تنطق به من الحق مزدريا لها معجبا بما عنده، قيل: نزلت فى النضر بن الحارث وما كان يشترى من أحاديث العجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، والآية عامة فى كل من كان مضارا لدين الله. وجئ بثم؛ لأن الإصرار على الضلالة والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعد فى العقول ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ كأن مخففة، والأصل: كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن، ومحل الجملة النصب على الحال: أى يصر مثل غير السامع ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأخبره خبرا يظهر أثره على البشرة.

●● ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شىء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿اتَّخَذَهَا﴾ اتخذ الآيات ﴿هُزُوًا﴾ ولم يقل اتخذه للإشعار بأنه إذا أحس بشىء من الكلام أنه من جملة الآيات خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات، ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه. ويجوز أن يرجع الضمير إلى شىء، لأنه فى معنى الآية كقول أبى العتاهية(١):

نفسى بشىء من الدنيا معلقة ... الله والقائم المهدى يكفيها

حيث أراد عتبة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى كل أفاك أثيم لشموله الأفاكين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مخز.

●● ﴿مِن وَرَائِهِمْ﴾ من قدامهم، الوراء: اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو قدام ﴿جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا﴾ من الأموال ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ ما فيهما مصدرية، أو موصولة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فى جهنم.

●● ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ إشارة إلى القرآن ويدل عليه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ لأن آيات ربهم هى القرآن أى: هذا القرآن كامل فى الهداية كما تقول: زيد رجل أى كامل فى الرجولية ﴿لَهُمْ

---

(١) هو الشاعر الكبير، إسماعيل بن القاسم بن سويد العينى، العنزى، مولاهم اشتهر بكنيته «أبو العتاهية»، أحد فطاحل الشعر فى العصر العباسى الأول، كان فى أول أمره يبيع الجرار، ولما نبغ فى الشعر سلك مسلك الشعراء، فقال فى جميع الأغراض، ولما قارب الخمسين، اقتصر على الزهد والتذكير بالموت، فأبدع فيه، حتى قال بعض النقاد عنه: «إنه أشعر الناس». توفى عام ٢١١هـ، وقد جاوز الثمانين.

الأعلام (١/ ٣٢١).

عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ هو أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع مكى ويعقوب وحفص صفة لعذاب وغيرهم بالجر صفة لرجز.

•• ﴿اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطرى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

•• ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هو تأكيد ما فى السموات وهو مفعول سخر، وقيل: جميعا نصب على الحال ﴿مِّنْهُ﴾ حال أى سخر هذه الأشياء كائنة منه حاصلة من عنده، أو خبر مبتدأ محذوف أى: هذه النعم كلها منه، أو صفة للمصدر أى: تسخيرا منه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

•• ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ أى: قل لهم: اغفروا يغفروا فحذف المقول، لأن الجواب يدل عليه ومعنى: يغفروا يعفوا ويصفحوا؛ وقيل: إنه مجزوم بلام مضمر تقديره: ليغفروا فهو أمر مستأنف، وجاز حذف اللام للدلالة على الأمر ﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لايتوقعون وقائع الله بأعدائه من قولهم لوقائع العرب أيام العرب، وقيل: لا يؤملون الأوقات التى وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل: نزلت فى عمر - رضى الله عنه - حين شتمه رجل من المشركين من بنى غفار فهم أن يبطش به ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة أى: إنما أمروا بأن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير ﴿قَوْمًا﴾ على المدح لهم كأنه قيل: ليجزى أيما قوم وقوما مخصوصين بصبرهم على أذى أعدائهم. لنجزى شامى وحمزة وعلى. لِيُجْزَى قوما يزيد أى ليجزى الخير قوما فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه كما أضمر الشمس فى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) لأن قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾(٢) دليل على توارى الشمس وليس التقدير ليجزى الجزاء قوما، لأن المصدر لايقوم مقام الفاعل ومعك مفعول صحيح، أما إقامة المفعول الثانى مقام الفاعل فجائز وأنت تقول: جزاك الله خيرا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الإحسان.

•• ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أى: لها الثواب وعليها العقاب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى: إلى جزائه.

•• ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة والفقه أو فصل الخصومات بين الناس؛ لأن الملك كان فيهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ خصها بالذكر لكثرة الأنبياء - عليهم السلام - فيهم ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله لهم وأطاب من الأرزاق ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمى زمانهم.

---

(١) سورة «ص»، الآية (٣٢).

(٢) سورة «ص»، الآية (٣١).

•• ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ﴾ آيات ومعجزات ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ من أمر الدين ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فما وقع الخلاف بينهم فى الدين ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى: إلا من بعد ما جاءهم ماهو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لبغى حدث بينهم أى: لعداوة وحسد بينهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قيل: المراد اختلافهم فى أوامر الله ونواهيه فى التوراة حسدا وطلباً للرياسة لاعن جهل يكون الإنسان به معذور.

•• ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ﴾ بعد اختلاف أهل الكتاب ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ على طريقة ومنهاج ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ من أمرالدين ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج والدلائل ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولاتتبع مالا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم المبنى على هوى وبدعة، وهم رؤساء قريش حين قالوا: ارجع إلى دين آبائك.

•• ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن هؤلاء الكافرين ﴿لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهم موالوه، وما أبين الفضل بين الولايتين.

•• ﴿هَٰذَا﴾ أى: القرآن ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ جعل مافيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل روحا وحياة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لمن آمن وأيقن بالبعث.

•• ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ اكتسبوا المعاصى والكفر، ومنه: الجوارح وفلان جارحة أهله أى كاسبهم ﴿ أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم وهو من جعل المتعدى إلى مفعولين؛فأولهما الضمير، والثانى الكاف فى ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والجملة التى هى: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ بدل من الكاف؛ لأن الجملة تقع مفعولا ثانيا فكانت فى حكم المفرد. سواء على وحمزة وحفص بالنصب على الحال من الضمير فى نجعلهم، ويرتفع محياهم ومماتهم بسواء، وقرأ الأعمش: ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج أى سواء فى محياهم وفى مماتهم، والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيا وأن يستووا مماتا، لافتراق أحوالهم أحياء؛حيث عاش هولاء على القيام بالطاعات وأولئك على اقتراف السيئات، ومماتا حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة وأولئك على اليأس من الرحمة والندامة، وقيل: معناه إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة فى الرزق والصحة، وعن تميم الدارى(1) ـ رضى الله عنه ـ أنه كان يصلى ذات ليلة عند المقام فبلغ هذه الآية

(1) هو الصحابى الجليل؛ تميم بن أوس بن خارجة بن سود، أبو رقية، الدارى، من لخم، أسلم عام ٩هـ، وروى عن النبى ﷺ، وروى عنه الصحابة والتابعون، قال قتادة: «كان من علماء أهل الكتابين». انتقل إلى الشام بعد قتل عثمان، ونزل بيت المقدس، وهو أول من أسرج السراج بالمسجد، توفى عام ٤٠هـ.

تهذيب التهذيب (١/ ٣٢٢، ٣٢٣).

فجعل يبكى ويردد إلى الصباح، وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكى ويقول: يافضيل ليت شعرى من أى الفريقين أنت ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس مايقضون إذا حسبوا أنهم كالمؤمنين فليس من أقعد على بساط الموافقة كمن أقعد على مقام المخالفة، بل نفرق بينهم فنعلى المؤمنين ونخزى الكافرين.

•• ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليدل على قدرته ﴿وَلِتُجْزَى﴾ معطوف على هذا المعلل المحذوف ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

•• ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: هو مطواع لهوى النفس يتبع ماتدعوه إليه فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منه باختياره الضلال، أو أنشأ فيه فعل الضلال على علم منه بذلك ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يقبل وعظا ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعتقد حقا ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ فلايبصر عبرة. غَشْوَةً حمزة وعلى ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ من بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتخفيف حمزة وعلى وحفص وغيرهم بالتشديد؛ فأصل الشر: متابعة الهوى والخير كله فى مخالفته فنعم ما قال:

إذا طلبتك النفس يوما بشهوة ... وكان إليها للخلاف طريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما ... هواك عدو والخلاف صديق

•• ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ أى: ما الحياة، لأنهم وعدوا حياة ثانية ﴿إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ التى نحن فيها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ نموت نحن ونحيا ببقاء أولادنا أو يموت بعض ويحيا بعض، أو نكون مواتا نطفا فى الأصلاب، ونحيا بعد ذلك أو يصيبنا الأمران الموت والحياة، يريدون الحياة فى الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة، وقيل: هذا كلام من يقول بالتناسخ أى: يموت الرجل، ثم تجعل روحه فى موات فيحيا به ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالى هو المؤثر فى هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بإذن الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ : «لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»(١) أى: فإن الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر.

•• ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ وما يقولون ذلك من علم ويقين ولكن من ظن وتخمين.

•• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أى: القرآن يعنى مافيه من ذكر البعث ﴿بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ وسمى قولهم «حجة» وإن لم يكن حجة؛ لأنه فى زعمهم حجة ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ أى:

---

(١) الحديث متفق عليه، من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، وهو بهذا اللفظ عند مسلم.

أحيوهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى البعث، وحجتهم خبـر كان واسمها: أن قالوا، والمعنى: ما كان حجتهم إلا مـقالتهم: ائتوا بآبائنا، وقـرئ: (حُجَّتُهُم) بالرفع على أنـها اسم كان، وأن قالوا الخبر.

•• ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القـيامة جميعا، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا عـلى الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: فـي الجمـع ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قدرة الله عـلى البـعث لإعراضهم عن التفكر في الدلائل.

•• ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ عامل النصب في يوم تقوم يخسر، ويومئذ بدل من يوم تقوم.

•• ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ جالسة على الـركب، يقال: جثا فلان يجثو إذا جلس عـلى ركبتيه وقيل: جاثية: مجتمعة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ بالرفع على الابتداء. كل بالفتح يعقوب على الإبدال من كل أمة ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إلى صحائف أعمالها فاكتـفى باسم الجنس فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

•• ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا﴾ أضيف الكتاب إليهم لملابسته إياهم لأن أعـمالهم مثبتة فيه وإلى الله تعالى، لأنه مالـكه والآمر ملائكتـه أن يكتـبوا فيه أعمـال عباده ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم﴾ يشهد عـليكم بما عمـلتم ﴿بِالْحَقِّ﴾ من غـير زيادة ولا نقـصان ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نستكتـب الملائكة أعمالكم، وقيل: نسخت واستنسخت بمعنى، وليس ذلك بنقل من كتاب؛ بل معناه نثبت.

•• ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنـته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

•• ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى: ألم يأتكم رسلي فلم تكـن آياتي تتلى علـيكم فحذف المعطـوف عليه ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمـان بهـا ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين.

•• ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالجزاء ﴿حَقٌّ وَالسَّاعَةُ﴾ بالرفع عـطف على محل إن واسـمها. والساعةَ حمزة عطف على وعدالله ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصله نظن ظنـا ومعناه إثبات الظن فحسـب، فأدخل حرف النفي والاستثنـاء ليفاد إثبات الظن مع نفي ماسواه، وزيد نفي ما سوى الظن توكيدا بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

•• ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهر لهؤلاء الكفار ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ قبائح أعمالهم أو عقوبات أعمالهم السيئات كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1]. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ونزل بهم جزاء استهزائهم.

•• ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أى: نترككم فى العذاب كما تركتم عدة لقاء يومكم، وهى الطاعة. وإضافة اللقاء إلى اليوم كإضافة المكر فى قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾[2] أى: نسيتم لقاء الله تعالى فى يومكم هذا ولقاء جزائه ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أى: منزلكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

•• ﴿ذَلِكُم﴾ العذاب ﴿بِأَنَّكُمُ﴾ بسبب أنكم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ لايخرجون حمزة وعلى ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى: يرضوه.

•• ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى فاحمدوا الله الذى هو ربكم ورب كل شيء من السموات والأرض والعالمين، فإن مثل هذه الربوبية العامة توجب الحمد والثناء على كل مربوب.

•• ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكَبِّروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته فى السموات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى أحكامه.

---

(١) سورة «الشورى»، الآية (٤٠).

(٢) سورة «سبأ»، الآية (٣٣).

سورة الأحقاف مكية وهى خمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ملتبسا بالحق ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقدير: أجل مسمى ينتهى إليه، وهو يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ عما أنذروه من هول ذلك اليوم الذى لابد لكل مخلوق من انتهائه إليه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لايؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له، ويجوز أن تكون ما مصدرية أى عن إنذارهم ذلك اليوم.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ أخبرونى ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعبدونه من الأصنام ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أى شيء خلقوا مما فى الأرض إن كانوا آلهة؟! ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ شركة مع الله فى خلق السموات والأرض ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أى من قبل هذا الكتاب، وهو القرآن يعنى أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله أمركم بعبادة الأوثان.

●● ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: أبدا.

●● ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أى الأصنام لعبدتها ﴿وَكَانُوا﴾ أى الأصنام ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بعبادة عبدتهم ﴿كَافِرِينَ﴾ يقولون: ما دعوناهم إلى عبادتنا، ومعنى الاستفهام فى من أضل إنكار أن يكون فى الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأوثان حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على كل شيء، ويدعون من دونه جمادا لا يستجيب لهم ولاقدرة له على استجابة أحد منهم مادامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة، وإذا قامت القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا عليهم ضدا فليسوا فى الدارين إلا على نكد ومضرة لا تتولاهم فى الدنيا بالاستجابة وفى الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم، ولما أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والغفلة، قيل: من وهم ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها ونحوه قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(1).

●● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ جمع بينة وهى الحجة والشاهد، أو واضحات مبينات ﴿قَالَ

---

(1) سورة «فاطر»، الآية (١٤).

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ المراد بالحق الآيات وبالذين كفروا المتلو عليهم فوضع الظاهران موضع الضميرين للتسجيل عليهم بالكفر وللمتلو بالحق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى بادهوه(١) بالجحود ساعة أتاهم وأول ماسمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره فى البطلان لا شبهة فيه.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم إن محمدا ـ عليه السلام ـ افتراه أى: اختلقه وأضافه إلى الله كذبا والضمير للحق والمراد به: الآيات ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: إن افتريته على سبيل الفرض عاجلنى الله بعقوبة الافتراء عليه فلا تقدرون على كفه عن معاجلتى ولا تطيقون دفع شىء من عقابه فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لى بالصدق والبلاغ ويشهد عليكم بالجحود والإنكار، ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ موعدة بالغفران والرحمة إن تابوا عن الكفر وآمنوا.

●● ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى: بديعا كالخف بمعنى الخفيف، والمعنى إنى لست بأول مرسل فتنكروا نبوّتى ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أى: ما يفعل الله بى وبكم فيما يستقبل من الزمان. وعن الكلبى(٢) قال له أصحابه ـ وقد ضجروا من أذى المشركين ـ :حتى متى نكون على هذا؟ فقال: ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم أأترك بمكة أم أؤمر بالخروج إلى أرض قد رفعت لى ورأيتها يعنى فى منامه ذات نخيل وشجر، و«ما» فى «ما يفعل» يجوز أن تكون موصولة منصوبة وأن تكون استفهامية مرفوعة، وإنما دخل لافى قوله ولابكم مع أنّ يفعل مثبت غير منفى لتناول النفى فيما أدرى ما وما فى حيزه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هو عبدالله بن سلام عند الجمهور؛ ولهذا قيل: إن هذه الآية مدنية لأن إسلام ابن سلام بالمدينة. روى أنه لما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة نظر إلى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب، قال له: إنى سائلك عن ثلاث لايعلمهن إلا نبى؛ ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟! فقال رسول الله (ﷺ): أما أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه

---

(١) أى: واجهوه.

(٢) قال أحمد فى «تفسير الكلبى»: من أوله إلى آخره كذب، قيل له: أفيحل النظر فيه؟ قال: لا. (انظر أسنى المطالب).

وإن سبق ماء المرأة نزعته فقال: أشهد أنك رسول الله حقا [1] ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ الضمير للقرآن أى: مثله فى المعنى وهو ما فى التوراة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك، ويجوز أن يكون المعنى: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعنى كونه من عند الله ﴿فَآمَنَ﴾ الشاهد ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين؟! ويدل على هذا المحذوف ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط، وكذلك الواو الأخيرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد، وأما الواو فى وشهد فقد عطفت جملة قوله شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم على جملة قوله: «كان من عند الله وكفرتم به» والمعنى: قل أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفر كم به واجتمع شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله فإيمانه به مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ألستم أضل الناس وأظلمهم.

●● ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: لأجلهم وهو كلام كفار مكة قالوا: إن عامة من يتبع محمدا السقاط يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ لو كان ماجاء به محمد خيرا ماسبقنا إليه هؤلاء ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ العامل فى إذ محذوف؛ لدلالة الكلام عليه تقديره: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبب عنه وقولهم إفك قديم أى كذب متقادم كقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[2].

●● ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أى: القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أى: التوراة وهو مبتدأ، ومن قبله ظرف واقع خبرا مقدما عليه، وهو ناصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال نحو فى الدار زيد قائما، ومعنى إماماً: قدوة يؤتم به فى دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى، أو لما بين يديه وتقدمه من جميع الكتب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير الكتاب فى مصدق والعامل فيه مصدق، أو من كتاب لتخصصه بالصفة ويعمل فيه معنى الإشارة، وجوز أن يكون مفعولا لمصدق أى يصدق ذا لسان عربى وهو الرسول ﴿لِّيُنذِرَ﴾ أى الكتاب. لتنذر حجازى وشامى ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ فى محل النصب معطوف على محل لينذر؛ لأنه مفعول له ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ للمؤمنين المطيعين.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على توحيد الله وشريعة نبيه محمد (ﷺ) ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فى القيامة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عند الموت.

---

(١) الحديث عند البخارى، من حديث أنس، رضى الله عنه.
(٢) مواضع كثيرة؛ منها: الأنعام (٢٥)، والأنفال (٣١)، والنحل (٢٤).

●● ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من أصحاب الجنة، والعامل فيه معنى الإشارة الذى دل عليه أولئك ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء مصدر لفعل دل عليه الكلام أى: جوزوا جزاء.

●● ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ كوفى أى وصيناه بأن يحسن بوالديه إحساناً. حُسْنا غيرهم أى: وصيناه بوالديه أمرا ذا حسن أو بأمر ذى حسن فهو فى موضع البدل من قوله بوالديه وهو من بدل الاشتمال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وبفتح الكافين حجازى وأبو عمرو، وهما لغتان فى معنى المشقة وانتصابه على الحال أى: ذات كره، أو على أنه صفة للمصدر أى: حملا ذا كره ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ ومدة حمله وفطامه ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(١) بقيت للحمل ستة أشهر وبه قال أبو يوسف ومحمد ـ رحمهما الله ـ وقال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ: المراد به الحمل بالأكف. وفَصْلُهُ يعقوب والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ هو جمع لا واحد له من لفظه، وكان سيبويه يقول: واحده شدة وبلوغ الأشد أن يكهل ويستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين، وعن قتادة ثلاث وثلاثون سنة، ووجهه أن يكون ذلك أول الأشد وغايته الأربعون ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمنى ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ المراد به: نعمة التوحيد والإسلام وجمع بين شكرى النعمة عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليهما نعمة عليه ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ قيل: هى الصلوات الخمس ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أى: اجعل ذريتى موقعا للصلاح ومظنة له ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من كل ذنب ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المخلصين.

●● ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ حمزة وعلى وحفص. يُتَقَبَّل ويُتَجاوز أَحْسَنُ غيرهم ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ هو كقولك: أكرمنى الأمير فى ناس من أصحابه تريد أكرمنى فى جملة من أكرم منهم ونظمنى فى عدادهم، ومحله النصب على الحال على معنى كائنين فى أصحاب الجنة ومعدوين فيهم ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله: يتقبل ويتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز، قيل: نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وفى أبيه أبى قحافة وأمه أم الخير وفى أولاده، واستجابة دعائه فيهم فإنه آمن بالنبى (ﷺ) وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، ودعا لهما وهو ابن أربعين سنة، ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار، أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فى الدنيا.

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٣٣).

●● ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ مبتدأ خبره أولئك الذين حق عليهم القول، والمراد بالذى قال: الجنس القائل ذلك القول ولذلك وقع الخبر مجموعا، وعن الحسن: هو فى الكافر العاق لوالديه الكذب بالبعث، وقيل: نزلت فى عبدالرحمن بن أبى بكر[1] - رضى الله عنه - قبل إسلامه ويشهد لبطلانه كتاب معاوية [2] إلى مروان [3] ليأمر الناس بالبيعة [4] ليزيد فقال عبدالرحمن بن أبى بكر: لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم، فقال مروان: يا أيها الناس هذا الذى قال الله تعالى فيه. والذى قال لوالديه أف لكما. فسمعت عائشة - رضى الله عنها - فغضبت وقالت: والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميته، ولكن الله تعالى لعن أباك وأنت فى صلبه، فأنت فضض من لعنة الله[5] أى قطعة ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ مدنى وحفص، أفَّ مكى وشامى، أف غيرهم وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال: حس علم أنه متوجع، واللام للبيان أى هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غير كما ﴿أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ﴾ أن أبعث وأخرج من الأرض ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ ولم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا﴾ أبواه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يقولان: الغياث بالله منك ومن قولك، وهو استعظام لقوله ويقولان له ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لاحقيقة الهلاك ﴿آمِنْ﴾ بالله وبالبعث ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ صدق ﴿فَيَقُولُ﴾ لهما: ﴿مَا هَذَا﴾ القول ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) هو الصحابى، ابن الصديق؛ عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق، أبو محمد، أكبر ولد أبى بكر، أسلم قبل الفتح، كان من الأبطال الفاتحين، شهد مع خالد اليمامة فقتل سبعة من أكابرهم، واشتهر - كذلك - بالصدق.

توفى عام ٥٣هـ على الراجح.

تهذيب التهذيب (٣/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) هو أمير المؤمنين، الصحابى ابن الصحابى؛ معاوية بن أبى سفيان، أبو عبدالرحمن، القائد المغوار، والفاتح العظيم، من دواهى العرب، أخته «أم حبيبة» أم المؤمنين، أسلم يوم الفتح، ولاه عمر بن الخطاب الشام، وأقره عثمان، واختلف مع على على دم عثمان، وولى الخلافة عام ٤١هـ، وقيل: كان أميراً ٢٠سنة، وخليفة ٢٠سنة.

توفى عام ٦٠هـ، وقد قارب الثمانين.

تهذيب التهذيب (٥/ ٤٧٨).

(٣) هو: مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، أبو عبدالملك، كان والياً فبويع بالخلافة بعد موت معاوية بن يزيد، وهو أول من ملك من بنى أمية، وإليه ينسب «بنو مروان». توفى عام ٦٥هـ.

تهذيب التهذيب (٥/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٤) هو: الخليفة الأموى؛ يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، بويع بالخلافة بعد وفاة والده عام ٦٠هـ، فعارضه عبدالله بن الزبير ولاذ بمكة، والحسين بن على ونهض إلى الكوفة، ولكنه تغلب عليهما وتسبب فى قتلهما، وغيرهما كثير من الصحابة والتابعين، حتى توفى عام ٦٤هـ، ولم يكمل الأربعين.

تهذيب التهذيب (٦/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٥) الحديث عند النسائى، والحاكم، بنحوه،

●● ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[1] ﴿فِي أُمَمٍ﴾ فى جملة أمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

●● ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الجنسين المذكورين؛ الأبرار والفجار ﴿دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: منازل ومراتب من جزاء ماعملوا من الخير والشر، أو من أجل ماعملوا منهما، وإنما قال: درجات وقد جاء «الجنة درجات والنار دركات». على وجه التغليب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ بالياء مكى وبصرى وعاصم ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: وليوفيهم أعمالهم ولايظلمهم حقوقهم، قدّر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات فاللام متعلقة بمحذوف.

●● ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ عرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم: عرض بنو فلان على السيف إذا قتلوا به، وقيل: المراد عرض النار عليهم من قولهم: عرضت الناقة على الحوض يريدون عرض الحوض عليها فقلبوا ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أى: يقال لهم: أذهبتم وهو ناصب الظرف ﴿طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أى: ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه فى دنياكم وقد ذهبتم به وأخذ تموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شىء منها، وعن عمر - رضى الله عنه - :لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكنى أستبقى طيباتى ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ بالطيبات ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أى: الهوان. وقرئ به ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتكبرون ﴿فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أى: باستكباركم وفسقكم.

●● ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أى: هودا ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشىء إذا أعوج. عن ابن عباس - رضى الله عنهما - :هو واد بين عمان ومهرة ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ﴾ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من قبل هود ومن خلف هود، وقوله: وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه وقع اعتراضا بين أنذر قومه وبين ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والمعنى: واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم، وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك.

●● ﴿قَالُوا﴾ أى: قوم هود ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفنا فالأفك: الصرف يقال: أفكه عن رأيه ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى وعيدك.

●● ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ بوقت مجىء العذاب ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ ولا علم لى بالوقت الذى يكون فيه تعذيبكم ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ وبالتخفيف أبو عمرو أى: الذى هو شأنى أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أى: ولكنكم جاهلون لاتعلمون أن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

---

(١) هود (١١٩)، والسجدة (١٣).

●● ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير يرجع إلى ما تعدنا، أو هو مبهم وضح أمره بقوله: ﴿عَارِضًا﴾ إما تمييزا، أو حالا والعارض: السحاب الذى يعرض فى أفق السماء ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ روى أن المطر قد احتبس عنهم فرأوا سحابة استقبلت أوديتهم فقالوا: هذا سحاب يأتينا بالمطر، وأظهروا من ذلك فرحا، وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفا للنكرة ﴿بَلْ هُوَ﴾ أى قال هود بل هو، ويدل عليه قراءة من قرأ، قال هود: بل هو ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ من العذاب، ثم فسره فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

●● ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير فعبر عن الكثرة بالكلية ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ رب الريح ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ عاصم وحمزة وخلف أى لا يرى شىء إلا مساكنهم. غيرهم لا تَرى إلا مساكنهم والخطاب للرائى من كان ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: مثل ذلك نجزى من أجرم مثل جرمهم، وهو تحذير لمشركى العرب. عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: اعتزل هود ـ عليه السلام ـ ومن معه فى حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلذه الأنفس، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة.

●● ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ إن نافية أى فيما مامكناكم فيه إلا أن إن أحسن فى اللفظ لما فى مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع ألا ترى أن الأصل فى مهما: ما ما؛ فلبشاعة التكرير قلبوا الألف هاء وقد جعلت إن صلة وتؤول بأنا مكناهم فى مثل ما مكناكم فيه والوجه هو الأول لقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾(١) ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا﴾(٢) وما بمعنى الذى أو نكرة موصوفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أى: آلات الدرك والفهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ أى من شىء من الإغناء وهو القليل منه ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إذ نصب بقوله: فما أغنى وجرى مجرى التعليل لاستواء مؤدى التعليل والظرف فى قولك ضربته لإساءته وضربته إذا أساء، لأنك إذا ضربته فى وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه إلا أن إذ وحيث غلبتا دون سائر الظروف فى ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جزاء استهزائهم، وهذا تهديد لكفار مكة، ثم زادهم تهديدا بقوله:

●● ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ نحو حجر ثمود وقرى قوم لوط والمراد: أهل القرى، ولذلك قال: ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: كررنا عليهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان فلم يرجعوا.

---

(١) سورة «مريم»، الآية (٧٤).

(٢) سورة «غافر»، الآية (٨٢).

•• ﴿فَلَوْلا﴾ فهلا ﴿نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ القربان: ما تقرب به إلى الله تعالى أى اتخذوهم شفعاء متقربا بهم إلى الله تعالى حيث قالوا: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[1] وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين محذوف أى: اتخذوهم والثانى آلهة، وقربانا حال ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرتهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وذلك إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم أى: وذلك أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب.

•• ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا﴾ أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك، والنفر: دون العشرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ جن نصيبين ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أى الرسول (ﷺ) أو القرآن أى كانوا منه بحيث يسمعون ﴿قَالُوا﴾ أى قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا﴾ اسكتوا مستمعين. روى أن الجن كانت تسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا: ما هذا إلا لنبأ حدث، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا إلى وادى نخلة فوافوا رسول الله (ﷺ) وهو قائم فى جوف الليل يصلى، أو فى صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته [2] وعن سعيد بن جبير، ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم وإنما كان يتلو فى صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر، فأنبأه الله باستماعهم[3]، وقيل: بل الله أمر رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرا منهم فقال: إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى قالها ثلاثا فأطرقوا إلا عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون فخط لى خطا وقال: لا تخرج منه حتى أعود إليك، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا فقال لى رسول الله (ﷺ) هل رأيت شيئا قلت نعم رجالا سودا فقال أولئك جن نصيبين، وكانوا اثنى عشر ألفا والسورة التى قرأها عليهم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[4] ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى فرغ النبى (ﷺ) من القراءة ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إياهم.

•• ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وإنما قالوا: من بعد موسى، لأنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ إلى الله تعالى ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

•• ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أى محمد (ﷺ) ﴿وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ

---

(١) سورة «يونس»، الآية (١٨).

(٢) الحديث متفق عليه بمعناه دون بعض ألفاظه ـ من حديث ابن عباس.

(٣) الحديث متفق عليه من رواية سعيد بن جبير.

(٤) سورة «العلق»، الآية (١).

عذابٍ أليمٍ﴾ قال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ : لاثواب لهم إلا النجاة من النار لهذه الآية، وقال مالك وابن أبى ليلى وأبو يوسف ومحمد ـ رحمهم الله ـ : لهم الثواب والعقاب، وعن الضحاك: أنهم يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌ﴾(١).

●● ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ أى: لا ينجى منه مهرب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

●● ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ هو كقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾(٢) ويقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه ﴿بِقَادِرٍ﴾ محله الرفع، لأنه خبر أن يدل عليه قراءة عبدالله: «قادر»، وإنما دخلت الباء لاشتمال النفى فى أول الآية، على أن وما فى حيزها وقال الزجاج: لو قلت ما ظننت أن زيدا بقائم جاز، كأنه قيل: أليس الله بقادر. ألا ترى إلى وقوع بلى مقررة للقدرة على كل شىء من البعث وغيره لا لرؤيتهم ﴿عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ﴾ هو جواب للنفى ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

●● ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ وناصب الظرف القول المضمر، وهذا إشارة إلى العذاب ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم فى الدنيا.

●● ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾ أولو الجد والثبات والصبر ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ من للتبعيض، والمراد بأولى العزم ما ذكر فى الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (٣) ويونس ليس منهم لقوله ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾(٤) وكذا آدم لقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (٥) أو للبيان فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب أى: لا تدع لهم بتعجيله فإنه نازل بهم لا محالة، وإن تأخر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ أى: أنهم يستقصرون حينئذ مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوها ساعة من نهار ﴿بَلاغٌ﴾ هذا بلاغ أى: هذا الذى وعظتم به كفاية فى الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ هلاك عذاب، والمعنى: فلن يهلك بعذاب الله ﴿إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى المشركون الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه قال ـ عليه السلام ـ : «من قرأ سورة الأحقاف كتب الله له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا».

(١) سورة «الرحمن»، الآيتان (٥٦)، (٧٤).

(٢) سورة «ق»، الآية (٣٨).

(٣) سورة «الأحزاب»، الآية (٧).

(٤) سورة «القلم»، الآية (٤٨).

(٥) «طه»، الآية (١١٥).

(سورة محمد - صلى الله عليه وسلم - وقيل: سورة القتال، مدنية، وقيل: مكية، وهى ثمان وثلاثون آية، أو تسع وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: أعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام أو صدوا غيرهم عنه. قال الجوهرى[1]: صد عنه يصد صدودا: أعرض، وصده عن الأمر صدا منعه وصرفه عنه وهم المطعمون يوم بدر، أو أهل الكتاب، أو عام فى كل من كفر وصد ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها وأحبطها وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل، وأعمالهم ما عملوه فى كفرهم من صلة الأرحام وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام، أو ما عملوه من الكيد لرسول الله (ﷺ) والصد عن سبيل الله.

•• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هم ناس من قريش، أو من الأنصار، أو من أهل الكتاب، أو عام ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظم شأنه، وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية، وهى قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أى: القرآن، وقيل: إن دين محمد هو الحق إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصى لرجوعهم عنها وتوبتهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أى حالهم وشأنهم بالتوفيق فى أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

•• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ذلك مبتدأ وما بعده خبره أى ذلك الأمر، وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثانى، والإصلاح كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل، وهو الشيطان، وهؤلاء الحق، وهو القرآن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ أى يبين الله ﴿لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ والضمير راجع إلى الناس، أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم، وقد جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكافرين، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين، أو جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار، وتكفير السيئات مثلا لفوز الأبرار.

---

(١) هو: إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، من كبار علماء اللغة، له مؤلفات، وهو أول من حاول الطيران، ومات فى محاولة له عام ٣٩٣هـ.
الأعلام (١/ ٣١٣).

●● ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أصله: فاضربوا الرقاب ضربا؛ فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابُهُ مضافاً إلى المفعول، وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التى فيه، وضرب الرقاب عبارة عن القتل لا أن الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء، ولأن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته فوقع عبارة عن القتل وإن ضرب غير رقبته ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به والمعنى: فشدوا وثاق الأسارى حتى لا يفلتوا منكم ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ أى: بعد أن تأسروهم ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ منا وفداء منصوبان بفعليهما مضمرين أى: فإما تمنون منا، أو تفدون فداء والمعنى: التخيير بين الأمرين بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم. وحكم أسارى المشركين عندنا القتل أو الاسترقاق، والمن والفداء المذكوران فى الآية منسوخ بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾[1] لأن سورة براءة من آخر ما نزل، وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب العنق، أو المراد بالمن أن يمن عليهم بترك القتل ويسترقوا، أو يمن عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية، وبالفداء أن يفادى بأساراهم أسارى المسلمين. فقد رواه الطحاوى[2] مذهبا عن أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ وهو قولهما. والمشهور أنه لايرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لئلا يعودوا حربا علينا، وعند الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ :للإمام أن يختار أحد الأمور الأربعة القتل والاسترقاق والفداء بأسارى المسلمين والمن ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أثقالها وآلاتها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع[3]، وقيل: أوزارها آثامها يعنى: حتى يترك أهل الحرب ـ وهم المشركون ـ شركهم بأن يسلموا وحتى لايخلو من أن يتعلق بالضرب والشد، أو بالمن والفداء فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعى ـ رحمه الله ـ : أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة، وقيل: إذا نزل عيسى ـ عليه السلام ـ، وعند أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ:إذا علق بالضرب والشد فالمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار وذلك حين لاتبقى شوكة للمشركين، وإذا علق بالمن والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادوا حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المن والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادوا حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الأمر ذلك فهو مبتدأ وخبر،أو افعلوا بهم ذلك فهو فى محل النصب ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لانتقم منهم بغير قتال ببعض أسباب الهلاك كالخسف، أو الرجفة، أو غير ذلك ﴿وَلَٰكِن﴾ أمركم بالقتال ﴿لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أى المؤمنين بالكافرين تمحيصا للمؤمنين وتمحيقا للكافرين ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا﴾بصرى وحفص. قاتلوا غيرهم﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

---

(١) سورة «التوبة»، الآية (٥).

(٢) الإمام الطحاوى، انظر ترجمته عند تفسير الآية (٥٦)، من سورة «الأحزاب».

(٣) الكراع: اسم للخيل.

(المعجم الوسيط ٢/ ٧٨٣).

●● ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى طريق الجنة أو إلى الصواب في جواب منكر ونكير ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يرضى خصماءهم ويقبل أعمالهم.

●● ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ عن مجاهد: عرفهم ومساكنهم فيها حتى لايحتاجون أن يسألوا، أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة.

●● ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ أي دين الله ورسوله ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في مواطن الحرب، أو على محجة الإسلام.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء والخبر: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ وعطف قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ على العمل الذي نصب تعسا، لأن المعنى: فقال: تعسا لهم والتعس: العثور وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يريد في الدنيا القتل، وفي الآخرة التردي في النار.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التعس والضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي القرآن ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

●● ﴿فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفار أمتك ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مشركي قريش ﴿أَمْثَالُهَا﴾ أمثال تلك الهلكة؛ لأن التدمير يدل عليها.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي نصر المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليهم وناصرهم ﴿ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم فإن الله مولى العباد جميعا من جهة الاختراع، وملك التصرف فيهم، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياما قلائل ﴿وَيَأْكُلُونَ﴾ غافلين غير متفكرين في العاقبة ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ في معالفها ومسارحها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزل ومقام.

●● ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من قرية للتكثير وأراد بالقرية أهلها، ولذلك قال: أهلكناهم ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أي كانوا سبب خروجك ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم.

●● ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي على حجة من عنده وبرهان، وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات يعني رسول الله (ﷺ) ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله، وقال: سوء عمله ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾؛ للحمل على لفظ من ومعناه.

●● ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة العجيبة الشأن ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ داخل فى حكم الصلة كالتكرير لها، ألا ترى إلى صحة قولك: التى فيها أنهار، أو حال أى: مستقرة فيها أنهار ﴿مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ غير متغير اللون والريح والطعم، يقال: أسن الماء إذا تغير طعمه وريحه أَسن مكى ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة وغيرها ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ تأنيث لذ وهو اللذيذ ﴿لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ مثل مبتدأ خبره ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ حاراً فى النهاية ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ والتقدير: أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار، وهو كلام فى صورة الإثبات ومعناه النفي؛ لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله فى حيزه وهو قوله: أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله. وفائدة حذف حرف الإنكار زيادة تصوير لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التى تجرى فيها تلك الأنهار وبين النار التى يسقى أهلها الحميم.

●● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله (ﷺ) فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالا تهاونا منهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة: ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ .

●● ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بالإيمان واستماع القرآن ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ أى: بصيرة وعلما، أو شرح صدورهم ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أعانهم عليها، أو آتاهم جزاء تقواهم، أو بين لهم ما يتقون.

●● ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أى: ينتظرون ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ أى إتيانها فهو بدل اشتمال من الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ علاماتها وهو مبعث محمد (ﷺ) وانشقاق القمر والدخان، وقيل: قطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ قال الأخفش: التقدير: فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم.

●● ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ﴾ أن الشأن ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ والمعنى فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك، وفى شرح التأويلات: جاز أن يكون له ذنب فأمره بالاستغفار له ولكنا لا نعلمه، غير أن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح وذنوبنا مباشرة القبائح، من الصغائر والكبائر، وقيل: الفاآت فى هذه الآيات لعطف جملة على جملة بينهما اتصال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ فى معايشكم ومتاجركم ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ ويعلم حيث تستقرون من منازلكم أو متقلبكم فى حياتكم ومثواكم فى القبور، أو متقلبكم فى أعمالكم ومثواكم فى الجنة والنار، ومثله حقيق بأن يتقى

ويخشى وأن يستغفر، وسئل سفيان ابن عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله: «فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك؟! فأمر بالعمل بعد العلم.

●● ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر الجهاد ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فى معنى الجهاد ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ مبينة غير متشابهة لاتحتمل وجها إلا وجوب القتال، وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة؛ لأن النسخ لا يرد عليها من قبل أن القتال نسخ ما كان من الصفح والمهادنة وغير منسوخ إلى يوم القيامة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أى أمر فيها بالجهاد ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق أى: رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أى: تشخص أبصارهم جبنا وجزعا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيد بمعنى فويل لهم، وهو أفعل من الولى وهو القرب ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

●● ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف أى: طاعة وقول معروف خير لهم ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ فإذا جد الأمر ولزمهم فرض القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فى الإيمان والطاعة ﴿لَكَانَ﴾ الصدق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من كراهة الجهاد. ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب بضرب من التوبيخ والإرهاب فقال:

●● ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أى: فلعلكم إن أعرضتم عن دين رسول الله (ﷺ) وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات، وخبر عسى: أن تفسدوا، والشرط اعتراض بين الاسم والخبر، والتقدير: فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم إن توليتم.

●● ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى.

●● ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فيعرفوا ما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لايجسروا على المعاصى، وأم فى ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لايتوصل إليها ذكر، ونكرت القلوب؛ لأن المراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك، والمراد بعض القلوب وهى قلوب المنافقين وأضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأن المراد الأقفال: المختصة بها وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح نحو الرين[(١)] والختم والطبع.

---

(١) الرَّين: الغطاء والحجاب الكثيف، والدنس وقسوة الطبع، وبخاصة بعد الذنب. (المعجم الوسيط ١/ ٣٨٦).

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أى: المنافقون رجعوا إلى الكفر سرا بعد وضوح الحق لهم﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ﴾ زين ﴿لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وقعت خبرا لإن نحو: إنَّ زيدا عمرو مر به ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّلهم فى الآمال والأمانى أُمْلِيَ أبو عمرو أى أمهلوا ومد فى عمرهم.

●● ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أى المنافقون قالوا لليهود: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أى: عدواة محمد والقعود عن نصرته ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ على المصدر من أسر، حمزة وعلى وحفص. أسرارهم غيرهم جمع سر.

●● ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أى: فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ؟! ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: لا يتوفى أحد على معصية إلا يضرب من الملائكة فى وجهه ودبره.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿بِأَنَّهُمُ﴾ بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ من معاونة الكافرين ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ من نصرة المؤمنين ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

●● ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم، والمعنى: أظن المنافقون أن الله تعالى لا يبرز بغضهم وعداوتهم للمؤمنين؟!

●● ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ لعرّفناكهم ودللناك عليهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم، وهو أن يَسِمُهُم الله بعلامة يعلمون بها وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ: ما خفى على رسول الله (ﷺ) بعد هذه الآية أحد من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم[1] ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فى نحوه وأسلوبه الحسن من فحوى كلامهم لأنهم كانوا لايقدرون على كتمان ما فى أنفسهم، واللام فى «فلعرفتهم» داخلة فى جواب «لو» كالتى فى «لأريناكهم» كررت فى المعطوف، وأما اللام فى «ولتعرفنهم» فواقعة مع من النون فى جواب قسم محذوف ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيميز خيرها من شرها.

●● ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالقتال إعلاما لا استعلاما أو نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ فى إظهار العدل ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على الجهاد أى نعلم كائنا ما علمناه له سيكون ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أسراركم وليبلونكم حتى يعلم ويبلو أبو بكر، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ وعادوه يعنى: المطعمين يوم بدر وقد مر﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنه الحق وعرفوا الرسول ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ التى عملوها فى مشاقة الرسول أى: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بالنفاق، أو بالرياء.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قيل: هم أصحاب القليب، والظاهر: العموم.

●● ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا ولا تذلوا للعدو ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ وبالكسر حمزة وأبو بكر، وهما المسالمة أى: ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أى: الأغلبون، وتدعوا مجزوم لدخوله فى حكم النهى ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بالنصرة أى: ناصركم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن ينقصكم أجر أعمالكم.

●● ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تنقطع فى أسرع مدة ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الشرك ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أى: لايسألكم جميعها بل ربع العشر، والفاعل الله أو الرسول، وقال سفيان بن عيينة: غيضا من فيض.

●● ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أى يجهدكم ويطلبه كله والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شئ يقال: أحفاه فى المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح، وأحفى شاربه إذا استأصله ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ﴾ أى الله، أو البخل ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾ عند الامتناع، أو عند سؤال الجميع، لأنه عند مسألة المال تظهر العداوة والحقد.

●● ﴿هَا أَنتُمْ﴾ «ها» للتنبيه ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿تُدْعَوْنَ﴾ أى: أنتم اللذين تدعون ﴿لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هى النفقة فى الغزو، أو الزكاة، كأنه قيل: الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بالرفع؛ لأن من هذه ليست للشرط أى فمنكم ناس يبخلون به ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة وأداء الفريضة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى يبخل عن داعى نفسه لا عن داعى ربه، وقيل: يبخل على نفسه، يقال: بخلت عليه وعنه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أى: أنه لا يأمر بذلك لحاجته إليه؛ لأنه غنى عن الحاجات ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته وطاعة رسوله والإنفاق فى سبيله، وهو معطوف على وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يخلق قوما خيرا منكم وأطوع، وهم فارس: «وسئل رسول الله (ﷺ) عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخده، وقال: «هذا وقومه، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناله رجال من فارس»[1] ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ أى: ثم لايكونوا فى الطاعة أمثالكم؛ بل أطوع منكم.

---

(١) الحديث عند الترمذى، والحاكم، وغيرهما، من حديث أبى هريرة.

سورة الفتح مدنية، وهى تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: الظفر بالبلد عنوة، أو صلحا بحرب، أو بغير حرب؛ لأنه مغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به فقد فتح، ثم قيل: هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي؛ لأنها فى تحققها بمنزلة الكائنة وفى ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر عنه وهو الفتح مالا يخفى، وقيل: هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة فرمى المسلمون المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وسألوا الصلح. فكان فتحا مبينا وقال الزجاج: كان فى فتح الحديبية آية للمسلمين عظيمة، وذلك أنه نزح مآوها ولم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله (ﷺ) ثم مجه فى البئر فدرت بالماء حتى شرب جميع الناس(1)، وقيل: هو فتح خيبر وقيل: معناه قضينا لك قضاء بينا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة، وهى الحكومة.

•• ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ قيل: الفتح ليس بسبب للمغفرة والتقدير: إنا فتحنا لك فتحا مبينا فاستغفر ليغفر لك الله ومثله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾(2) ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث إنه جهاد للعدو سببا للغفران، وقيل: الفتح لم يكن ليغفر له بل لإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، ولكنه لما عدد عليه هذه النعم وصلها بما هو أعظم النعم، كأنه قيل: يسّرنا لك فتح مكة أو كذا لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ يريد جميع ما فرط منك أو ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء دينك وفتح البلاد على يدك ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويثبتك على الدين المرضي.

•• ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ قويا منيعا لا ذُلَّ بعده أبدا.

•• ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ السكينة للسكون كالبهيتة للبهتان أى: أنزل الله فى قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح ليزدادوا يقينا إلى يقينهم، وقيل: السكينة الصبر على ما أمر الله والثقة بوعد الله والتعظيم لأمر الله.

•• ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أى: ولله جنود السموات والأرض يسلط

---

(1) الحديث متفق عليه، من حديث البراء.

(2) سورة «النصر»، الآيات (1 ـ 3).

بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيثيبهم، ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وقع السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده، يقال: فعل سوء أى مسخوط فاسد، والمراد: ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرا ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ـ السُّوء ـ مكى وأبو عمرو أى ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم، والسوء: الهلاك والدمار. وغيرهما دائرة السوء بالفتح أى الدائرة التى يذمونها ويسخطونها السوء، والسوء: كالكره والكره والضعف، والضعف إلا أن المفتوح غلب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء، وأما السوء فجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم.

●● ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادى نبيه ـ عليه السلام ـ والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالبا فلا يرد بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر.

●● ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ تشهد على أمتك يوم القيامة وهذه حال مقدرة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين من النار.

●● ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والخطاب لرسول الله (ﷺ) ولأمته ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقووه بالنصر ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظموه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح، أو من السبحة، والضمائر لله عزوجل، والمراد بتعزير الله: تعزير دينه ورسوله، ومن فرق الضمائرفجعل الأولين للنبى (ﷺ) فقد أبعد. ليؤمنوا مكى وأبو عمرو، والضمير للناس وكذا الثلاثة الأخيرة بالياء عندهما ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصلوات الأربع.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أى: بيعة الرضوان ولما قال: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أكده تأكيدا على طريقة التخييل فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد أن يد رسول الله (ﷺ) التى تعلو أيدى المبايعين هى يد الله والله منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[1] وإنما يبايعون الله خبر إن ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال جابر بن عبدالله: بايعنا رسول الله (ﷺ) تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفر فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس، وكان منافقا اختبأ تحت بطن بعيره ولم يسر

---

(١) سورة «النساء» الآية (٨٠).

مع القوم[1]. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ﴾ يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به ومنه قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[2] ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾[3]. ﴿عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ حفص ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾. وبالنون حجازى وشامى ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنة.

●● ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين خلفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار[4] ومزينة[5] وجهينة[6] وأسلم[7] وأشجع[8] والدئل[9] وذلك أنه - عليه السلام - حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادى ليخرجوا معه حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، وأحرم هو (ﷺ) وساق معه الهدى ليعلم أنه لايريد حربا فتثاقل كثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قوم غزوه فى عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة[10] ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ هى جمع أهل اعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ ليغفر لنا الله تخلفنا عنك ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب لهم فى اعتذارهم وأن الذى خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو الشك فى الله والنفاق؛ فطلبهم الاستغفار أيضا ليس بصادر عن حقيقة ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله وقضائه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة. ضُرًّا حمزة وعلى ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ من غنيمة وظفر ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

---

(١) الحديث عند مسلم، مع اختلاف فى المتن.

(٢) سورة «المائدة»، الآية (١).

(٣) سورة «البقرة»، الآية (١٧٧).

(٤) غِفار: قبيلة تنسب إلى غفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر، ومنها الصحابى الجليل؛ أبو ذر الغفارى.
الأنساب (٤/ ٣٠٤).

(٥) مزينة: قبيلة تنسب إلى مزينة بن أد بن طابخة بن إلياس.
الأنساب (٥/ ٢٧٧).

(٦) جهينة: اسم لقبيلة أيضاً. ومن بطونها غطفان.

(٧) أسلم: اسم لقبيلة كذلك.

(٨) أشجع: قبيلة تنسب إلى أشجع بن رَيث بن غطفان،
القاموس (٣/ ٤٣).

(٩) الدئل: حى من كنانة، ينسب إلى الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومنهم، أبو الأسود الدؤلى، العالم اللغوى الأشهر.
الأنساب (٢/ ٥٠٨).

(١٠) لم أجده فى كتب الحديث، ولكن رواه البيهقى فى الدلائل.

•• ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ زينه الشيطان ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ من علو الكفر وظهور الفساد ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ جمع بائر كعائذ وعوذ من بار الشيء: هلك وفسد أى: وكنتم قوما فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم، أو هالكين عند الله مستحقين لسخطه وعقابه.

•• ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ أى لهم فأقيم الظاهر مقام الضمير للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله والإيمان برسوله فهو كافر، ونكر، ﴿سَعِيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة كما نكر ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[1].

•• ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره تدبير قادر حكيم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يغفر ويعذب بمشيئته وحكمته، وحكمته: المغفرة للمؤمنين والتعذيب للكافرين ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ سبقت رحمته غضبه.

•• ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى غنائم خيبر ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ كلِم الله حمزة وعلى أى: يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين لايصيبون منهم شيئاً ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر وهو إخبار من الله بعدم اتباعهم، ولايبدل القول لديه ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ من قبل انصرافهم إلى المدينة إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية دون غيرهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أى: لم يأمركم الله به بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنيمة ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ من كلام الله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا شيئا قليلا يعنى مجرد القول والفرق بين الإضرابين: أن الأول: رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد، والثانى إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

•• ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنى: بنى حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردة الذين حاربهم أبو بكر - رضى الله عنه - لأن مشركى العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام، أو السيف. وقيل: هم فارس وقد دعاهم عمر - رضى الله عنه - ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أى يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة، أو الإسلام، ومعنى يسلمون على هذا التأويل: ينقادون؛ لأن فارس مجوس تقبل منهم الجزية، وفى الآية دلالة صحة خلافة الشيخين حيث وعدهم الثواب على طاعة الداعى عند دعوته بقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ من دعاكم إلى قتاله ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ فوجب أن يكون الداعى مفترض الطاعة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أى عن الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فى الآخرة.

---

(١) سورة «الليل»، الآية (١٤).

•• ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفى الحرج عن ذوى العاهات فى التخلف عن الغزو ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى الجهاد وغير ذلك ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تدخله ونعذبه مدنى وشامي.

•• ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هى بيعة الرضوان، سميت بهذه الآية وقصتها أن النبى (ﷺ) حين نزل بالحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعى رسولا إلى مكة فهموا به فمنعه الأحابيش، فلما رجع دعا بعمر ليبعثه فقال: إنى أخافهم على نفسى لما عرف من عداوتى إياهم فبعث عثمان بن عفان فخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرا للبيت فوقروه واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال رسول الله (ﷺ): «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه على أن يناجزوا قريشا ولا يفروا تحت الشجرة، وكانت سمرة، وكان عدد المبايعين ألفا وأربعمائة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾ وجازاهم ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة.

•• ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هى مغانم خيبر وكانت أرضا ذات عقار وأموال فقسمها عليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعا فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم فلا يعارض.

•• ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هى ما أصابوه مع النبى (ﷺ) وبعده إلى يوم القيامة ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾ المغانم يعنى: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعنى أيدى أهل خيبر وحلفائهم من أسد[1] وغطفان[2]، حين جاءوا لنصرتهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب فانصرفوا. وقيل: أيدى أهل مكة بالصلح ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله عزوجل بمكان وأنه ضامن نصرتهم والفتح عليهم فعل ذلك ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينا وثقة بفضل الله.

•• ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ معطوفة على هذه أى: فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى هى مغانم هوازن فى غزوة حنين[3] ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لما كان فيها من الجولة ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أى قدر عليها

---

(١) أسد: اسم لأكثر من قبيلة، منها ما ينسب إلى أسد بن عبدالعزى بن قصى، ومنها ما ينسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار، ومنها ما ينسب إلى أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس.
الأنساب (١/١٣٨).

(٢) غطفان: قبيلة من قيس عيلان، نزلت بالكوفة، وهى بطن من جهينة.
(انظر الأنساب).

(٣) غزوة حنين: هى غزوة وقعت عام ٨هـ، بعد الفتح، بمكان يقال له: حنين، واد على ثلاث ليالٍ=

واستولى وأظهركم عليها، ويجوز فى أخرى النصب بفعل مضمر يفسره: قد أحاط الله بها تقديره: وقضى الله أخرى قد أحاط بها، وأما لم تقدروا عليها فصفة لأخرى، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا، وقد أحاط الله بها خبر المبتدأ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ قادرا.

•• ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا، أو من حلفاء أهل خيبر ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ﴾ لغلبوا وانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلى أمرهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم.

•• ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ فى موضع المصدر المؤكد أى: سن الله غلبة أنبيائه سنة وهو قوله ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[1] ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييرا.

•• ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ أى: أيدى أهل مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ عن أهل مكة يعنى قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة، وذلك يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة - رضى الله عنه - على أن مكة فتحت عنوة لا صلحا. وقيل: كان فى غزوة الحديبية لما روى أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائه فبعث رسول الله (ﷺ) من هزمه وأدخله حيطان مكة، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أظهر المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أى بمكة أو بالحديبية، لأن بعضها منسوب إلى الحرم ﴿مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أقدركم وسلطكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وبالياء أبو عمرو.

•• ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ﴾ هو ما يهدى إلى الكعبة ونصبه عطفا على «كم» فى «صدوركم» أى: وصدوا الهدى ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ﴾ محبوسا أن يبلغ، ومعكوفا حال. وكان - عليه السلام - ساق سبعين بدنة ﴿مَحِلَّهُ﴾ مكانه الذى يحل فيه نحره أى يجب وهذا دليل على أن المحصر محل هديه الحرم، والمراد: المحل المعهود وهو منى ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ بمكة ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للرجال والنساء جميعا ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾ بدل اشتمال منهم، أو من الضمير المنصوب فى تعلموهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ إثم وشدة، وهى مفعلة من عرَّهُ بمعنى عَرَاهُ إذا دهاه ما يكرهه ويشق عليه، وهو الكفارة إذا قتله خطأ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والإثم إذا قصر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بأن تطئوهم يعنى أن تطئوهم غير عالمين بهم، والوطء: عبارة عن الإيقاع والإبادة، والمعنى: أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين

=من مكة، وسببها أن قبائل من العرب أرادت الفتك بالمسلمين؛ فلما علم رسول الله ﷺ جهز الجيش، وكان المسلمون كثر، فأعجبوا بكثرتهم فكادوا أن ينهزموا، لولا عناية الله، وكان ذلك درساً لهم.

راجع كتب السير فى ذلك.

(١) سورة «المجادلة»، الآية (٢١).

ظهرانى المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاككم مكروه ومشقه لما كف أيديكم عنهم، وقوله ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ تعليل لما دلت عليه الآيةوسيقت له من كف الأيدى عن أهل مكة والمنع عن قتلهم صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين، كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله فى رحمته أى فى توفيقه، لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم، أو ليدخل فى الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين، وجواب لولا محذوف أغنى عنه جواب لو، ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا رجال مؤمنون؛ لمرجعهما إلى معنى واحد ويكون ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الجواب تقديره: ولولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾. والعامل فى. . .

●● ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: قريش لعذبنا أى لعذبناهم فى ذلك الوقت أو اذكر ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بحمية الذين كفروا وهى الأنفة وسكينة المؤمنين، وهى الوقار: ما يروى أن رسول الله (ﷺ) لما نزل بالحديبية بعث قريش سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزى ومكرز بن حفص على أن يعرضوا على النبى (ﷺ) أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا. فقال: ـ عليه السلام ـ لعلى ـ رضى الله عنه ـ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل وأصحابه ما نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم، ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله (ﷺ) أهل مكة. فقالوا لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله أهل مكة فقال ـ عليه السلام ـ: اكتب ما يريدون فأنا أشهد أنى رسول الله ﷺ وأنا محمد بن عبدالله، فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ الجمهور على أنها كلمة الشهادة وقيل بسم الله الرحمن الرحيم، والإضافة إلى التقوى باعتبار أنها سبب التقوى وأساسها، وقيل: كلمة أهل التقوى ﴿وَكَانُوا﴾ أى المومنون ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بتأهيل الله إياهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجرى الأمور على مصالحها.

●● ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أى: صدق فى رؤياه ولم يكذبه ـ تعالى الله عن الكذب ـ فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]. روى أن رسول الله (ﷺ) رأى قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم وقالوا: إن رؤيا رسول الله (ﷺ) حق فلما تأخر ذلك قال عبدالله بن أبى وغيره: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت

(١) سورة «الأحزاب»، الآية (٢٣).

﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بصدق أى صدقه فيما رأى وفى كونه وحصـوله صدقا ملتبسا بالحق أى: بالحكمة البالغة، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييـز بين المؤمن الخالص وبين من فى قلبه مرض، ويجوز أن يكون بـالحق قَسما إما بـالحق الذى هو نقيـض الباطل، أو بالحـق الذى هو من أسمائـه، وجوابه ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وعلى الأول هو جواب قـسم محذوف ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ حكاية من الله تعالى ما قال رسوله لأصحابه وقص عليهم، أو تعليم لعباده أن يقولوا فى عداتهم مثل ذلك متأدبين بأدب الله ومقتديـن بسنته ﴿آمِنِينَ﴾ حال والشرط مـعترض ﴿مُحَلِّقِينَ﴾ حال من الضمـير فى آمنين ﴿رُءُوسَكُمْ﴾ أى: جميع شعورها ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بعض شعورها ﴿لا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أى من دون فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

●● ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ بالتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جنس الـدين يريد الأديان المختلفـة من أديان المشركين وأهل الكـتاب ولقد حقق ذلك سبحانه فـإنك لا ترى دينا قط إلا وللإسلام دونه العزة والغلبـة، وقيل: هو عند نزول عيسى ـ عـليه السلام ـ حين لا يـبقى على وجه الأرض كافـر، وقيل: هو إظهاره بـالحجج والآيات ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن مـا وعده كائن، وعن الحسـن: شهد على نفـسه أنه سيظهـر دينه، والتقدير: وكفاه الله شهيدا و«شهيداً» تمييز، أو حال.

●● ﴿مُحَمَّدٌ﴾ خبر مبتـدأ أى: هو محمد لتقدم قـوله: هو الذى أرسل رسوله، أو مبـتدأ خبره ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ وقف عليه نصير ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أى أصحابه مبـتدأ والخبر ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أو محمد مـبتدأ، ورسول الله عطف بيـان، والذين معه عطف علـى المبتدأ، وأشداء خبر عـن الجميع ومعناه غلاظ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ متعاطفون، وهو خبر ثان، وهمـا جمعا شديد ورحيم ونحوه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] وبلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم، أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا﴾ راكعين ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال كما أن ركعا وسجدا كذلك ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ﴾ علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أى من التأثير الذى يؤثره السـجود، وعن عطاء: استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالـليل لقوله ـ عليه

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (٥٤).

السلام ـ : من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[1] ﴿ذَلِكَ﴾ أى المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ وعليه وقف ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه، يقال: أشطأ الزرع إذا فرخ ﴿فَآزَرَهُ﴾ قواه ـ فأزره شامى ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الرقة إلى الغلظ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه. جمع ساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يتعجبون من قوته، وقيل: مكتوب فى الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبى بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلى ـ رضوان الله عليهم ـ وهذا مثل ضربه الله تعالى لبدء الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم، لأن النبى (ﷺ) قام وحده، ثم قواه الله تعالى بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتولد منها حتى يعجب الزراع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ تعليل لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم فى الزيادة والقوة، ويجوز أن يعلل به ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم فى الآخرة مع ما يعزهم به فى الدنيا غاظهم ذلك ومن فى منهم للبيان كما فى قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[2] يعنى: فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان، وقولك: أنفق من الدراهم أى اجعل نفقتك هذا الجنس، وهذه الآية ترد قول الروافض إنهم كفروا بعد وفاة النبى (ﷺ)؛ إذ الوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم إنما يكون أن لو ثبتوا على ما كانوا عليه فى حياته.

(١) الخبر من قول شريك. قاله الجمهور. ولكن رواه ابن ماجة بسنده عن جابر، يرفعه.
(٢) سورة «الحج»، الآية (٣٠).

(سورة الحجرات مدنية، وهي ثماني عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا﴾ قدّمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قدمه إذا تقدمه فى قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾(١) وحذف المفعول ليتناول كل ماوقع فى النفس مما يقدم من القول أو الفعل، وجاز أن لا يقصد مفعول والنهى متوجه إلى نفس التقدمة كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾(٢) أو هو من قدم بمعنى تقدم كوجه بمعنى توجه، ومنه مقدمة الجيش وهى الجماعة المتقدمة منه ويؤيده قراءة يعقوب لا تقدّموا بحذف إحدى تاءى تتقدموا ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقيقة قولهم جلست بين يدى فلان أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه فسميت الجهتان يدين؛ لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما توسعا، كما يسمى الشىء باسم غيره إذا جاوره، وفى هذه العبارة ضرب من المجاز الذى يسمى تمثيلا، وفيه فائدة جليلة وهى تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة، ويجوز أن يجرى مجرى قولك: سرنى زيد وحسن حاله أى سرنى حسن حال زيد، فكذلك هنا المعنى: بين يدى رسول الله (ﷺ)، وفائدة هذا الأسلوب الدلالة على قوة الاختصاص ولما كان رسول الله (ﷺ) من الله بالمكان الذى لا يخفى سلك به هذه المسلك، وفى هذا تمهيد لما نقم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته ـ عليه السلام ـ لأن من فضله الله بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت وعن الحسن أن أناسا ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة فنزلت، وأمرهم رسول الله (ﷺ) أن يعيدوا ذبحا آخر(٣) وعن عائشة رضى الله عنها ـ أنها نزلت فى النهى عن صوم يوم الشك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهى عنها ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما تقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تعملون وحق مثله أن يتقى.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد وتحريك منهم لئلا يغفلوا عن تأملهم ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أى إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامه وجهره باهرا لجهركم حتى تكون مزيته عليكم لائحة وسابقته لديكم واضحة ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أى إذا كلمتموه ـ وهو صامت ـ فإياكم والعدول عما

---

(١) سورة «هود»، الآية (٩٨).

(٢) سورة «غافر»، الآية (٦٨).

(٣) الحديث فى مسند عبدالرزاق عن معمر، عن الحسن.

نهيتم عنه من رفع الصوت بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم وأن تتعمدوا فى مخاطبته القول اللين المقرب من الهمس الذى يضاد الجهر،أولا تقولوا: له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة والسكينة والتعظيم، ولما نزلت هذه الآية ما كلم النبى ﷺ أبو بكر[1] وعمر[2] إلا كأخى السرار، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها نزلت ثابت بن قيس بن شماس وكان فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت وكان إذا كلم رفع صوته وربما كان يكلم النبى (ﷺ) فيتأذى بصوته[3] وكاف التشبيه فى محل النصب أى: لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض وفى هذا أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص؛ أعنى: الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منه فيما بينهم وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ منصوب الموضع على أنه المفعول له متعلق بمعنى النهي، والمعنى: انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم أى لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ تم اسم إن عند قوله ـ رسول الله. والمعنى: يخفضون أصواتهم فى مجلسه تعظيما له ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ خبره ﴿الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وتم صلة الذين عند قوله للتقوى، وأولئك مع خبره خبر إن والمعنى: أخلصها للتقوى من قولهم امتحن الذهب وفتنه إذا أذابه فخلص ابريزه من خبثه ونقاه وحقيقته عاملها معاملة المختبر فوجدها مخلصة وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أذهب الشهوات عنها والامتحان: افتعال من محنه، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾جملة أخرى. قيل:نزلت فى الشيخين ـ رضى الله عنهما ـ لما كان منهما من غض الصوت وهذه الآية ـ بنظمها الذى رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لإن المؤكدة، وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا والمبتدأ اسم الإشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهما أمره ـ دالة على غاية الاعتداد والارتضاء بفعل الخافضين أصواتهم وفيها تعريض لعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ نزلت فى وفد بني[4] تميم أتوا رسول الله (ﷺ). وقت الظهيرة وهو راقد وفيهم الأقرع بن حابس[5] وعيينة بن حصن ونادوا النبى (ﷺ) من وراء

---

(١) الحديث أخرجه البزار، عن أبى بكر.

(٢) الحديث عند البخارى، من حديث أبى الزبير.

(٣) لم أجده فى كتب الحديث بلفظه.

(٤) بنو تميم: قبيلة مشهورة، تنسب إلى تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر. الأنساب (١/٤٧٨).

(٥) هو الصحابى الجليل، الأقرع بن حابس بن عقال، المجاشعى، الدارمى، التميمى، كان زعيماً فى قومه، ومن رؤوس العرب فى الجاهلية، شهد حنيناً والفتح وغيرهما، حتى استشهد بالجوزجان عام ٣١هـ. الأعلام (٥/٢).

حجراته وقالوا: اخرج إليـنا يا محمد فإن مدحنا زين وذمنا شين، فاستيقظ وخرج. والوراء الجهة التى يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام، ومن لابتداء الغاية، وأن المناداة نشأت من ذلك المكان، والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها وهى فعلة بمعنى مفعولة كالقبضة وجمعهـا الحجرات بضمتين، والحجـرات بفتح الجيم، وهى قـراءة يزيد والمـراد: حجـرات نسـاء رسول الله (ﷺ) وكانـت لكل منهن حـجرة، ومناداتهم مـن ورائها لعلـهم تفرقوا علـى الحجرات متطلبين له، أو نادوه من وراء الحجرة، التى كان ـ عليه السلام ـ فيها ولكنها جمعت إجلالا لرسول الله (ﷺ) والفعل وإن كان مسندا إلى جميعهم فإنـه يجوز أن يتولاه بعضهم، وكان الباقون راضين فكأنهم تولوه جميعا ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل أن يكـون فيهم من قصد استثنـاؤه ويحتمل أن يكون المراد النفى العام إذ القلة تقع موقع الـنفي، وورود الآية على النمط الذى وردت عليه فيه مالا يخفى مـن إجلال محل رسول الله (ﷺ) منها: الـتسجيل عل الصائـحين به بالسفه والجهـل ومنها إيقاع لفظ الحجرات كنايـة عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه، ومـنها: التعريف باللام دون الإضافة ولو تأمل متأمل من أول السورة إلى آخر هذه الآية لوجدها كذلك فتأمل كيف ابتدأ بإيجاب أن تكون الأمور التى تنتمى إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير تقييد، ثم أردف ذلك النهى عـما هو من جنس التقـديم من رفع الصوت والجهر كـأن الأول بساط للثاني، ثم أثـنى على الغاضين أصواتـهم ليدل على عظيـم موقعه عند الله ثم عقـبه بما هو أطم وهجنتـه أتم من الصياح برسول الله (ﷺ) فى حال خلوته مـن وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدرا لينبـه على فظاعة ما جسروا عليه؛ لأن من رفع الله قـدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع هؤلاء مـن المنكر الذى بلغ فى التفاحش مبلغا.

•• ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ أى: ولو ثبـت صبرهم، ومحـل أنهم صبروا الرفـع على الفاعـلية، والصبر: حبـس النفس عن أن تنازع إلى هواهـا قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[1] وقولهم صبر عن كذا محذوف منه المفعول. وهـو النفس وقيل: الصبر مر لايتجرعه إلا حرّ وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ يفيد أنه لو خـرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلـهم للزمهم أن يصبروا إلـى أن يعلموا أن خروجـه إليهم ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فى دينـهم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ الغفران والرحمة واسعهما فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ أجمعوا أنها نزلت فـى الوليد بن عقبة[2] وقد

(١) سورة «الكهف»، الآية (٢٨).

(٢) هو الصحابى، الوليد بن عقبة بن أبى معيط، القرشى، الأموى، أخو عثمان بن عفان لأمه، زسلم يوم الفتح، وبـعثه النبى ﷺ على صـدقات بنى المصطلق، وولاه عـمر صدقات بنى تغلـب، وولاه عثمان الكوفة، ثم عزله، فلما قـتل عثمان تحول إلى الرقة فنزلها، واعتزل عليًا ومـعاوية حتى مات بها عام ٦١هـ وكان ـ رضى الله عنه ـ من فتيان قريش وشعرائهم.

تهذيب التهذيب (٦/ ٩٢، ٩٣).

بعثه رسول الله (ﷺ) مصدقا إلى بنى المصطلق[1] وكانت بينه وبينهم إحنة فى الجاهلية فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله (ﷺ): قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد[2] فوجدهم يصلون فسلموا إليه الصدقات، فرجع[3]. وفى تنكير الفاسق والنبأ شياع فى الفساق والأنباء، كأنه قال: أى فاسق جاءكم بأى نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ولا تعتمدوا قول الفاسق؛ لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه، وفى الآية دلالة قبول خبر الواحد العدل؛ لأنا لو توقفنا فى خبره لسوينا بينه وبين الفاسق ولخلا التخصيص به عن الفائدة، والفسوق الخروج من الشيء يقال: فسقت الرطبة عن قشرها، ومن مقلوبه فقست البيضة إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، ومن مقلوبه أيضا: قفست الشيء إذا أخرجته من يد مالكه مغتصبا له عليه ثم استعمل فى الخروج عن القصد بركوب الكبائر - حمزة وعلى: فتثبتوا والتثبت والتبين متقاربان، وهما طلب الثبات والبيان والتعرف ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ لئلا تصيبوا ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ حال يعنى جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الندم ضرب من الغم وهو أن تغتم على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا فإن الله يخبره فينهتك ستر الكاذب أو: فارجعوا إليه واطلبوا رأيه، ثم قال مستأنفا: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم فى الجهد والهلاك وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله (ﷺ) الإيقاع ببنى المصطلق وتصديق قول الوليد وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ وقيل: هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، ولما كانت صفة الذين حبب الله إليهم الإيمان غايرت صفة المتقدم ذكرهم وقعت لكن فى حاقّ موقعها من الاستدراك وهو مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ وهو الخروج عن محجة الإيمان بركوب الكبائر ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ وهو ترك الانقياد بما أمر به الشارع ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أى: أولئك المستثنون هم الراشدون، يعنى: أصابوا طريق الحق ولم يميلوا عن الاستقامة، والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة. وهى: الصخرة.

---

(١) بنو المصطلق: قبيلة تنسب إلى المصطلق، وهو سعد بن عمرو.
الأنساب (٥/ ٣١٢).

(٢) هو سيف الله المسلول؛ خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله، أبو سليمان، من دواهى العرب فى الحرب والسياسة، لا يشق له غبار فى المعارك، أسلم بعد الحديبية، وشهد مؤتة، وكان الورقة الرابحة فيها، ويومئذ سماه النبى ﷺ سيف الله، توفى عام ٢١هـ.
تهذيب التهذيب (٢/ ٧٥،٧٦).

(٣) الحديث عند الطبرانى، من حديث أم سلمة.

●● ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام والانتصاب على المفعول له أى حبب وكره للفضل والنعمة﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حين يفضل وينعم بالتوفيق على الأفاضل.

●● ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وقف رسول الله (ﷺ) على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار فأمسك ابن أبى بأنفه وقال: خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه فقال عبدالله بن رواحة: والله إن بول حماره لأطيب من مسكك. ومضى رسول الله (ﷺ) وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصي. وقيل: بالأيدى والنعال والسعف فرجع إليهم رسول الله (ﷺ) فأصلح بينهم. ونزلت[1]. وجمع اقتتلوا حملا على المعنى؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس وثنى فى فأصلحوا بينهما نظرا إلى اللفظ ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ﴾ البغي: الاستطالة والظلم وإباء الصلح ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ﴾ أى ترجع والفيء: الرجوع، وقد سمى به الظل والغنيمةلأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس والغنيمة ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين، وحكم الفئة الباغية وجوب قتالها ما قاتلت فإذا كفت وقبضت عن الحرب أيديها تركت﴿إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ المذكور فى كتابه من الصلح وزوال الشحناء ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ عن البغى إلى أمر الله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَأَقْسِطُوا﴾واعدلوا وهو أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به فى إصلاح ذات البين﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين والقسط: الجور، والقسط: العدل، والفعل منه أقسط وهمزته للسلب أى: أزال القسط، وهو الجور.

●● ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق ما إن لم يفضل الإخوة لم ينقص عنها، ثم قد جرت العادة على أنه إذا نشب مثل ذلك بين الأخوين[2] ولادا لزم السائر أن يتناهضوا فى رفعه وإزاحته بالصلح بينهما، فالإخوة فى الدين أحق بذلك. إخوتكم يعقوب ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى واتقوا الله فالتقوى تحملكم على التواصل والائتلاف وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة الله إليكم مرجوا، والآية تدل على أن البغى لايزيل اسم الإيمان، لأنه سماهم مؤمنين مع وجود البغي.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ القوم: الرجال خاصة، لأنهم القوام بأمور النساء، قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ

---

(١) الحديث متفق عليه، من حديث أنس.

(٢) ولاداً؛ أي: الأشقاء وغير الأشقاء.

﴿قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[1] وهو فى الأصل جمع قائم كصوم وزور فـى جمع صائم وزائر، واختصاص القوم بالرجا صريح فى الآية إذ لو كانت النساء داخلة فى قوم لم يقل ولا نساء وحقق ذلك زهير[2] فى قوله:

وما أدرى ولست أخال أدرى　　　أقوم آل حصن أم نساء

وأما قولهـم فى قوم فرعون وقوم عاد: هـم الذكور والإناث فليس لفـظ القوم بمتعاط للـفريقين ولكن قصد ذكر الـذكور وترك ذكر الإناث، لأنهن توابع لرجـالهن، وتنكير القوم والنـساء يحتمل معنيين أن يراد: لايسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، وأن يقصد إفادة الشياع وإن يصير كل جماعة مـنهم منهية عن الـسخرية، وإنما لم يقل رجـل من رجل ولا امرأة من امرأة على الـتوحيد إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائـهم على السخرية، واستفظاعا للشأن الذى كانوا عليه، وقوله: عسـى أن يكونوا خيرا منهم؛ كلام مستأنف ورد مورد جواب المـستخبر عن علة النهـى، وإلا فقد كان حقه أن يـوصل بما قبلـه بالفاء، والمعـنى: وجوب أن يعتقـد كل واحد أن المسخور منه ربما كان عند الله خيرا من الساخر إذ لا اطلاع للـناس إلا على الظواهر، ولا علم لهم بالسرائر والذى يزن عند الله خلوص الضمائر فينبغى أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة فى بـدنه، أو غير لبيق فى محادثته فلعلـه أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضد صـفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تـعالى، وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ :البلاء موكـل بالقول لو سخرتمن كلب لخشـيت أن أحول كلبا ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ولا تطعنوا أهل دينكم، واللمز: الطعن والضرب بالـلسان ولا تلمزُوا يعقوب وسهل، والمؤمنون كنفس واحدة فإذا عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه، وقيل: معناه لا تفعلوا ما تلمزون به، لأن من فعل ما استحـق به اللمز فقـد لمز نفسه حقـيقة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ التنابز بالألقـاب التداعى بها، والنبز: لقب السوء والتلقيب المنهى عنه هو ما يتداخل المدعو به كراهة لكونه تقصيرا به وذما له فأما ما يحبه فلا بأس به، وروى أن قوما من بنى تميم اسـتهزؤوا ببلال وخباب وعمار وصهيب فنزلت. وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت تسـخر مـــن زينب بنت خزيمة وكانت قصـيرة، وعـن أنس ـ رضـى الله عنه ـ :عيرت نساء النبى (ﷺ) أم سلمة بـالقصر، وروى أنها نزلت فى ثابت بن قيس وكان به وقر فكانوا يوسعون له فى مجلس رسول الله (ﷺ) لـيسمع فأتى يقول: وهو يقول تفسحوا حتى انتـهى إلى رسول الله (ﷺ) فقال لرجـل: تنح فلم يفـعل فقال: من هذا؟ فقـال: الرجل أنا فلان فقال: بل أنت ابن فلانة يـريد أمًّا كان يعير بها فى الجاهلية؛ فخجـل الرجل. فنزلت. فقال ثابت: لا أفخر على أحد فى الحسب بعدها أبدا[3] ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ الاسم ههنا

---

(1) سورة «النساء»، الآية (٣٤).

(2) هو الشاعر الجـاهلى العملاق؛ زهير بن أبى سـلمى، واسمه: ربيعة بن رياح، المـزنى، من أكابر الشعراء فى الجاهلية، قال فى معظم أغراض الشعر، وبرع فى شعر الحكمة، توفى حوالى وقت البعثة. الأعلام (٣/ ٥٢).

(3) لم أعثر عليه فى كتب الحديث.

بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم، وحقيقته ما سما من ذكره وارتفع بين الناس كأنه قيل: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق وقوله: بعد الإيمان استقباح للجمع بين الإيمان وبين الفسق الذى يحظره الإيمان كما تقول: بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة، وقيل: كان فى شتائمهم لمن أسلم من اليهود: يا يهودى يا فاسق فنهوا عنه، وقيل لهم: بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وحد وجمع للفظ من ومعناه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾ يقال: جنبه الشر إذا أبعده عنه وحقيقته: جعله فى جانب فيعدى إلى مفعولين، قال الله تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾(1) ومطاوعه اجتنب الشر فنقص مفعولا والمأمور باجتنابه بعض الظن وذلك البعض موصوف بالكثرة ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قال الزجاج: هو ظنك بأهل الخير سوءاً فأما أهل الفسق فلنا أن نظن فيهم مثل الذى ظهر منهم، أو معناه: اجتنابا كثيرا أو احترزوا من الكثير ليقع التحرز عن البعض، والإثم: الذنب الذى يستحق صاحبه العقاب، ومنه قيل لعقوبته الأثام فعال منه كالنكال والعذاب ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾ أى لاتتبعوا عورات المسلمين ومعايبهم يقال: تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه تفعل من الجس، وعن مجاهد: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر الله وقال سهل: لا تبحثوا عن طلب معايب ماستره الله على عباده ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً﴾ الغيبة: الذكر بالعيب فى ظهر الغيب وهى من الاغتياب كالغيلة من الاغتيال وفى الحديث هو أن تذكر أخاك بما يكره؛ فإن كان فيه فهو غيبة وإلا فهو بهتان(2)، وعن ابن عباس الغيبة إدام كلاب الناس ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾ ميّتا مدنى وهذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه وفيه مبالغات منها: الاستفهام الذى معناه التقرير، ومنها: جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ومنها: إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لايحب ذلك ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا ومنها أن لم يقتصر على لحم الأخ حتى جعل ميتا، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي، وانتصب ميتا على الحال من اللحم أو من أخيه، ولما قررهم بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أى فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل فليتحقق أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ التواب: البليغ فى قبول التوبة، والمعنى: واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين، وروى أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوى لهما طعامهما؛ فنام عن شأنه يوما فبعثاه إلى

(1) سورة «إبراهيم»، الآية (35).

(2) الحديث متفق عليه، من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

رسول الله (ﷺ) يبغى لهما إداما، وكان أسامة[1] على طعام رسول الله (ﷺ) فقال: ما عندى شيء فأخبرهما سلمان فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها فلما جاءا إلى رسول الله (ﷺ) قال لهما: مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما. فقالا: ما تناولنا لحما، قال: إنكما قد اغتبتما، ومن اغتاب مسلما فقد أكل لحمه. ثم قرأ الآية[2]، وقيل: غيبة الخلق إنما تكون من الغيبة عن الحق.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ من آدم وحواء، أو كل واحد منكم من أب وأم فما منكم من أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر سواء بسواء فلا معنى للتفاخر والتفاضل فى النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب، وهى الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة؛ فالشعب، يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصى بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وسميت الشعوب، لأن القبائل تشعبت منها ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أى إنما رتبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسب بعض فلا يعتزى إلى غير آبائه لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد وتدعوا التفاضل فى الأنساب، ثم بين الخصلة التى يفضل بها الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند الله فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فى الحديث: «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله[3]». وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: كرم الدنيا الغنى، وكرم الآخرة التقوى. وروى أنه (ﷺ) طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الحمد لله الذى أذهب عنكم عِبية الجاهلية وتكبرها يا أيها الناس، إنما الناس رجلان مؤمن تقى كريم على الله وفاجر شقى هين على الله. ثم قرأ الآية[4]، وعن يزيد بن شجرة[5] مر رسول الله (ﷺ) فى سوق المدينة فرأى غلاما أسود يقول: من اشترانى فعلى شرط أن لا يمنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول الله (ﷺ) فاشتراه بعضهم فمرض فعاده رسول الله (ﷺ) ثم توفى فحضر دفنه فقالوا فى ذلك شيئا، فنزلت[6] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ كرم القلوب وتقواها ﴿خَبِيرٌ﴾ بهمّ النفوس فى هواها.

●● ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ أى بعض الأعراب، لأن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر وهم: أعراب بنى أسد قدموا المدينة فى سنة جدبة فأظهروا الشهادة يريدون الصدقة ويمنون عليه ﴿آمَنَّا﴾ أى

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، انظر ترجمته عند تفسير الآية (١٢)، من سورة «الحجرات».

(٢) لم أجده فى كتب الحديث.

(٣) الحديث عند الحاكم والبيهقى، وغيرهما، من حديث ابن عباس، وبه زيادات.

(٤) الحديث عند الترمذى، من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٥) هو الأمير الفاتح، يزيد بن شجرة الرهاوى، شهد فتوحات وغزوات كثيرة، وأبدى فيها براعة وشجاعة، إلى أن قتل فى إحدى الغزوات عام ٥٨هـ.

الأعلام (٨/ ١٨٤).

(٦) لم أجده فى كتب الحديث.

ظاهرا وباطنا ﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ لم تصدقوا بقلوبكم ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمان هو التصديق، والإسلام الدخول فى السلم والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاعلم أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان وهذا من حيث اللغة، وأما فى الشرع: فالإيمان والإسلام واحد لما عرف، وفى لما معنى التوقع وهو دال على أن بعض هؤلاء قد آمنوا فيما بعد، والآية تنقض على الكرامية مذهبهم أن الإيمان لا يكون بالقلب ولكن باللسان، فإن قلت: مقتضى نظم الكلام أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم قلت أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أولا فقيل: قل لم تؤمنوا مع أدب حسن فلم يقل كذبتم تصريحا ووضع لم تؤمنوا الذى هو نفى ما ادعوا إثباته موضعه، واستغنى بقوله: لم تؤمنوا عن أن يقال: لا تقولوا آمنا لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهى عن القول بالإيمان، ولم يقل ولكن أسلمتم ليكون خارجا مخرج الزعم والدعوى كما كان قولهم آمنا كذلك، ولو قيل: ولكن أسلمتم لكان كالتسليم والاعتداد بقولهم وهو غير معتد به، وليس قوله ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم تكريراً لمعنى قوله: لم تؤمنوا، فإن فائدة قوله: لم تؤمنوا؛ تكذيب لدعواهم، وقوله: ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم، لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى قولوا ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى السر بترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ لا يألتكم بصرى ﴿مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينقصكم من ثواب حسناتكم شيئاً ألت يألت وألات يليت ولات يليت بمعنى وهو النقص ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بستر الذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهدايتهم للتوبة عن العيوب. ثم وصف المؤمنين المخلصين فقال:

●● ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه فى الشك مع التهمة، والمعنى أنهم آمنوا ثم لم يقع فى نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لما صدقوه ولما كان الإيقان وزوال الريب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان تنبيها على مكانه وعطف على الإيمان بكلمة التراخى إشعارا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المجاهد منويا، وهو العدو المحارب، أو الشيطان، أو الهوى وأن يكون جاهد مبالغة فى جهد، ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس: الغزو وأن يتناول العبادات بأجمعها وبالمجاهدة بالمال: نحو صنيع عثمان فى جيش العسرة وأن يتناول الزكاة وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر، وخبر المبتدأ الذى هو المؤمنون: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أى الذين صدقوا فى قولهم آمنا ولم يكذبوا كما كذب أعراب بنى أسد، أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وحق وقوله. الذين آمنوا صفة لهم. ولما نزلت هذه الآية جاءوا وحلفوا أنهم مخلصون فنزل:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أى: أتخبرونه بتصديق قلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من النفاق والإخلاص وغير ذلك.

●● ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ﴾ أى بأن ﴿أَسْلَمُوا﴾ يعنى بإسلامهم، والمن: ذكر الأيادى تعريضا للشكر ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ أى: المنة لله عليكم ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ بأن هداكم أو لأن ﴿لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن صح زعمكم وصدقت دعواكم إلا أنكم تزعمون وتدعون ما الله عليم بخلافـه، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبلـه عليه تقديره: إن كنتم صـادقين فى ادعائكم الإيمان بالله فلله المنة عليكم. وقريء: إن هداكم.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبالياء مكـى وهذا بيان لكونهـم غير صادقين فى دعـواهم يعنى أنه تـعالى يعلم كـل مستترٍ فى الـعالم ويبصر كـل عمل تعملونه فى سركم وعلانيتكم، لا يخفى عليه مـنه شيء؛ فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم، وهو علام الغيوب؟!

سورة ق مكية، وهى خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● الكلام فى ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا﴾ كالكلام فى ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] سواء بسواء لالتقائهما فى أسلوب واحد والمجيد: ذو المجد والشرف على غيره من الكتب، ومن أحاط علما بمعانيه وعمل بما فيه مجد عند الله وعند الناس وقوله بل عجبوا أى كفار مكة ﴿أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: محمد (ﷺ) إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحا لقومه خائفاً أن ينالهم مكروه، وإذا علم أن مخوفا أظلهم لزمه أن ينذرهم فكيف بما هو غاية المخاوف، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة الله تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما وعلى اختراع كل شيء، وإقرارهم بالنشأة الأولى مع شهادة العقل بأنه لابد من الجزاء، ثم عول على أحد الإنكارين بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ - مُتْنَا - دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل فى الاستبعاد وأحق بالإنكار ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم فى قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم، وهذا إشارة إلى الرجع، وإذا منصوب بمضمر معناه: أحين نموت ونبلى نرجع؟! مِتنا نافع وعلى وحمزة وحفص ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ مستبعد مستنكر كقولك: هذا قول بعيد أى: بعيد من الوهم والعادة، ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب ويكون من كلام الله تعالى استبعادا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث والوقف على ترابا على هذا حسن، وناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع ما دل عليه المنذر من المنذر به، وهو البعث.

●● ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ رد لاستبعادهم الرجع؛ لأن من لطف علمه حتى علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم كان قادرا على رجعهم أحياءً كما كانوا ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ محفوظ من الشياطين ومن التغير وهو اللوح المحفوظ، أو حافظا لما أودعه وكتب فيه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضراب أتبع الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أقطع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذى هو النبوة الثابتة بالمعجزات فى أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر ﴿فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطرب يقال: مرج الخاتم فى الإصبع إذا اضطرب من سعته فيقولون تارة شاعر وطورا ساحر ومرة كاهن؛ لايثبتون على شيء واحد، وقيل: الحق القرآن وقيل الإخبار بالبعث، ثم دلهم على قدرته على البعث فقال:

●● ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى فى خلق

---

(١) سورة «ص»، الآيتان (١، ٢).

العالم ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ رفعناها بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالنيرات ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ من فتوق وشقوق أى: أنها سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل.

•• ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ دحوناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثوابت لـولا هى لمالت ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ﴾ يبتهج به لحسنه.

•• ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى﴾ لنبصر به ونذكر ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه مفكر فى بدائع خلقه.

•• ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أى: وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالحنطة والشعير وغيرهما.

•• ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالا فى السماء ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ هو كل ما يطلع من ثمر النخيل ﴿نَّضِيدٌ﴾ منضود بعضه فوق بعض لكثرة الطلع وتراكمه، أو لكثرة ما فيه من الثمر.

•• ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: أنبتناها رزقاً للعباد، لأن الإنبات فى معنى الرزق فيكون رزقا مصدرا من غير لفظـه، أو هو مفعول له أى: أنبتنـاها لرزقهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قد جف نباته ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أى: كما حييت هذه البلدة الميتة كـذلك تخرجون أحياء بعد موتكم، لأن إحياء الموات كإحياء الأموات والكاف فى محل الرفع على الابتداء.

•• ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قـريش ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ هو بئـر لم تطو، وهـم قوم باليمامة[1]، وقيل: أصحاب الأخدود ﴿وَثَمُودُ﴾.

•• ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعون قومـه كقوله: ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾[2] لأن المعطوف عـليه قوم نوح، والمعطوفات جماعات ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ سماهم إخوانه. لأن بينهم وبينه نسبا قريبا ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو ملك باليمن أسلم ودعا قومه إلى الإسلام فكذبوه وسمى به لكثرة تبعه ﴿كُلٌّ﴾ أى: كل واحد منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ لأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجب وحل وعيدى، وفيه تسلية لرسول الله (ﷺ) وتهديد لهم.

•• ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عى بالأمر إذا لم يهتد لوجه عـمله والهمزة للإنكار ﴿بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أى أنا لم نعجز عـن الخلق الأول فكيف نـعجز عن الثانـي، والاعتراف بذلك اعتـراف بالإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ فى خلط وشبهة قد لبـس عليهم الشيطان وحيرهم وذلك تسويلـه إليهم أن إحياء الموتى أمر

---

(1) اليمـامة: هى مدينـة من مدن نجد، بيـنها وبين البـحرين نحو عـشرة أيام، وكان اسمـها «جوّا»، وسميت باسم اليمامة بنت سهم بن طسم، فتحها خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ عام ١٢هـ.
معجم البلدان (٥/ ٥٠٥).

(2) سورة «يونس»، الآية (٨٣).

خارج عن العادة فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح، وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد الموت وإنما نكر الخلق الجديد ليدل على عظمة شأنه، وأن حق من سمع به أن يخاف ويهتم به.

●● ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ الوسوسة: الصوت الخفى، ووسوسة النفس: ما يخطر ببال الإنسان ويهجس فى ضميره من حديث النفس، والباء مثلها فى قوله صوت بكذا ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ المراد: قرب علمه منه ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هو مثل فى فرط القرب والوريد: عرق فى باطن العنق، والحبل: العرق، والإضافة للبيان كقولهم: بعير سانية.

●● ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعنى الملكين الحافظين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ التلقى: التلقن بالحفظ والكتابة، والقعيد: المقاعد كالجليس بمعنى المجالس، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقين، فترك أحدهما لدلالة الثانى عليه كقوله[1]:

رمانى بأمر كنت منه ووالدى بريئا ومن أجل الطوى رماني

أى: رمانى بأمر كنت منه بريئا وكان والدى منه بريئا. وإذ منصوب بأقرب لما فيه من معنى يقرب، والمعنى: إنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس ولا شيء أخفى منه وهو أقرب من الإنسان من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه وكيف لايستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات، وإنما ذلك لحكمة وهو ما فى كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم القيامة من زيادة لطف له فى الانتهاء عن السيئات والرغبة فى الحسنات.

●● ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به وما يرمى به من فيه ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حافظ ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضر ثم قيل: يكتبان كل شيء حتى أنينه فى مرضه، وقيل: لايكتبان إلا ما فيه أجر أو وزر، وقيل: إن الملكين لايجتنبانه إلا عند الغائط والجماع. لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بقدرته وعلمه أعلمهم أن ما أنكروه هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضى وهو قوله:

●● ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ أى: شدته الذاهبة بالعقل ملتبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾أى: بحقيقة الأمر أو بالحكمة ﴿ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ﴾ الإشارة إلى الموت، والخطاب للإنسان فى قوله: ولقد خلقنا الإنسان على طريق الالتفات ﴿تَحِيدُ﴾ تنفر وتهرب.

●● ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعنى: نفخة البعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أى: وقت ذلك يوم الوعيد على حذف المضاف، والإشارة إلى مصدر نفخ.

---

(١) القائل هو الفرزدق، انظر ترجمته عند تفسير الآية (٢٢٥)، من سورة «الشعراء».

●● ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى: ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله، ومحل معها سائق النصب على الحال من كل لتعرفه بالإضافة إلى ما هو فى حكم المعرفة.

●● ﴿لَقَدْ كُنتَ﴾ أى: يقال لها: لقد كنت ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ النازل بك اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ أى: فأزلنا غفلتك بما تشاهده ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لايبصر شيئا، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها فيبصر مالم يبصره من الحق ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته حديدا لتيقظه.

●● ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ الجمهور على أنه الملك الكاتب الشهيد عليه ﴿هَذَا﴾ أى: ديوان عمله، مجاهد: شيطانه الذى قيض له فى قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾(١) هذا أى الذى وكلت به ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا مبتدأ، وما نكرة بمعنى: شيء والظرف بعده وصف له وكذلك عتيد، وما وصفتها خبر هذا والتقدير: هذا شيء ثابت لديّ عتيد، ثم يقول الله تعالى.

●● ﴿أَلْقِيَا﴾ والخطاب للسائق والشهيد، أو لمالك، وكأن الأصل ألق ألق فناب ألقيا عن ألق ألق لأن الفاعل كالجزء من الفعل فكانت تثنية الفاعل نائبة عن تكرار الفعل وقيل: أصله ألقين والألف بدل من النون إجراءً للوصل مجرى الوقف، دليله: قراءة الحسن: ألقين ﴿فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بالنعم والمنعم ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند مجانب للحق معاد لأهله.

●● ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه، أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالم متخط للحق ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاك فى الله وفى دينه.

●● ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أو بدل من كل كفار وفألقياه تكرير للتوكيد ولا يجوز أن يكون صفة لكفار؛ لأن النكرة لاتوصف بالموصول.

●● ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أى: شيطانه الذى قرن به وهو شاهد لمجاهد، وإنما أخليت هذه الجملة عن الواو دون الأولى، لأن الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول أعنى مجيء كل نفس مع الملكين، وقول قرينة ما قال له، وأما هذه فهى مستأنفة كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول. كما فى مقاولة موسى وفرعون، فكأن الكافر قال: رب هو أطغان فقال قرينه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: ما أوقعته فى الطغيان ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى.

---

(١) سورة «الزخرف»، الآية (٣٦).

●● ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا﴾ هو استئناف مثل قوله تعالى: «قال قرينه» كأن قائلا قال: فماذا قال الله؟! فقيل: قال: لا تختصموا ﴿لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أى: لا تختصموا فى دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة فى اختصامكم ولا طائل تحته وقد أوعدتكم بعذابى على الطغيان فى كتبى وعلى ألسنة رسلى فما تركت لكم حجة عليّ، والباء فى بالوعيد مزيدة كما فى قوله: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾(1) أو معدية على أن قدم مطاوع بمعنى تقدم.

●● ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أى: لا تطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى بإدخال الكفار فى النار ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا أعذب عبدا بغير ذنب وقال: بظلام على لفظ المبالغة، لأنه من قولك: هو ظالم لعبده وظلام لعبيده.

●● ﴿يَوْمَ﴾ نصب بظلام، أو بمضمر هو اذكر وأنذر ﴿نَقُولُ﴾ ـ يقول ـ نافع وأبو بكر أى يقول الله ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهو مصدر كالمجيد، أى أنها تقول بعد امتلائها: هل من مزيد؟! أى: هل بقى فيّ موضع لم يمتلىء يعنى قد امتلأت، أو أنها تستزيد، وفيها موضع للمزيد، وهذا على تحقيق القول من جهنم وهو غير مستنكر كإنطاق الجوارح، والسؤال لتوبيخ الكفرة لعلمه تعالى بأنها امتلأت أم لا.

●● ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ «غير» نصب على الظرف أى: مكانا غير بعيد، أو على الحال وتذكيره، لأنه على زنة المصدر كالصليل، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث، أو على حذف الموصوف أى: شيئاً غير بعيد ومعناه التوكيد كما تقول: هو قريب غير بعيد وعزيز غير ذليل.

●● ﴿هَذَا﴾ مبتدأ وهو إشارة إلى الثواب، أو إلى مصدر أزلفت ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ صفته وبالياء مكى ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاع إلى ذكر الله، خبره: ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظ لحدوده، جاء فى الحديث: من حافظ على أربع ركعات فى أول النهار كان أوابا حفيظا(2).

●● ﴿مَّنْ﴾ مجرور المحل بدل من أواب، أو رفع بالابتداء، وخبره: ادخلوها على تقدير: يقال لهم: ادخلوها بسلام، لأن «من» فى معنى الجمع ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ الخشية، انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة وقرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة للثناء البليغ على الخاشى وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أثنى عليه بأنه خاش مع أن المخشى منه غائب ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المفعول أى خشية، وهو غائب، أو صفة لمصدر خشى أى: خشية خشية ملتبسة بالغيب حيث

---

(1) سورة «البقرة»، الآية (195).

(2) الحديث ـ بنحوه ـ فى «كنز العمال»، برقم (7/ 19355).

خشى عقابه وهو غائب. الحسن: إذا أغلق الباب وأرخى الستر ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله، وقيل: بسريرة مرضية وعقيدة صحيحة.

●● ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أى: سالمين من زوال النعم وحلول النقم ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى: يوم تقدير الخلود كقوله: فادخلوها خالدين[1]. أى: مقدرين الخلود.

●● ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ على ما يشتهون والجمهور على أنه رؤية الله تعالى بلا كيف.

●● ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبل قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ من القرون الذين كذبوا رسلهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم﴾ من قومك ﴿بَطْشًا﴾ قوة وسطوة ﴿فَنَقَّبُوا﴾ فخرقوا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ وطافوا والتنقيب التنقير عن الأمر والبحث والطلب، ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله: هم أشد منهم بطشا أى: شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب وقوتهم عليه، ويجوز أن يراد فنقب أهل مكة فى أسفارهم ومسايرهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم؟! ويدل عليه قراءة من قرأ: فنقبوا على الأمر ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من الله، أو من الموت.

●● ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وموعظة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ واع؛ لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أصغى إلى المواعظ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب.

●● ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: إعياء، قيل: نزلت فى اليهود - لعنت - تكذيبا لقولهم: خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش، وقالوا: إن الذى وقع من التشبيه فى هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ وأنكر اليهود التربيع فى الجلوس، وزعموا أنه جلس تلك الجلسة يوم السبت.

●● ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أى على ما يقول اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه، أو على ما يقول المشركون فى أمر البعث، فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منه ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حامدا ربك والتسبيح محمول على ظاهره، أو على الصلاة؛ فالصلاة ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾: الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر.

●● ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ العشاءان أو التهجد ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ التسبيح فى آثار الصلوات والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل: النوافل بعد المكتوبات أو الوتر بعد العشاء،

---

(١) سورة «الزمر»، الآية (٧٣).

والأدبار جمع دبر، وإدبار حجازى وحمزة وخلف من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت، ومعناه: وقت انقضاء السجود كقولهم: آتيك خفوق النجم.

●● ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ لما أخبرك به من حال يوم القيامة، وفى ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به. وقد وقف يعقوب عليه، وانتصب: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ بما دل عليه ذلك يوم الخروج أى: يوم ينادى المنادى يخرجون من القبور وقيل: تقديره: واستمع حديث يوم ينادى المنادي. المنادى بالياء فى الحالين مكى وسهل ويعقوب. وفى الوصل مدنى وأبو عمرو. وغيرهم بغير ياء فيهما، والمنادى إسرافيل ينفخ فى الصور وينادى: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، وقيل: إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من صخرة بيت المقدس وهى أقرب من الأرض إلى السماء باثنى عشر ميلاً وهى وسط الأرض.

●● ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ بدل من يوم ينادي. الصيحة: النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بالصيحة والمراد به البعث والحشر للجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من القبور.

●● ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي﴾ الخلق ﴿وَنُمِيتُ﴾ أى: نميتهم فى الدنيا ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: مصيرهم.

●● ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ خفيف[1] كوفى وأبو عمرو. وغيرهم بالتشديد ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أى: تتصدع الأرض فتخرج الموتى من صدوعها ﴿سِرَاعًا﴾ حال من المجرور؛ أى مسرعين ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين وتقديم الظرف يدل على الاختصاص، أى لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذى لا يشغله شأن عن شأن.

●● ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك وفينا تهديد لهم وتسلية لرسول الله (ﷺ) ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ كقوله: ﴿بِمُسَيْطِرٍ﴾[2] أى ما أنت بمسلط عليهم إنما أنت داع وباعث، وقيل: هو من جبره على الأمر بمعنى أجبره أى: ما أنت بسوال عليهم تجبرهم على الإيمان ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[3] لأنه لا ينفع إلا فيه، والله أعلم.

---

(١) أى: الشين.

(٢) سورة «الغاشية»، الآية (٢٢).

(٣) سورة «النازعات»، الآية (٤٥).

(سورة الذاريات مكية، وهى ستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرياح، لأنها تذرو التراب وغيره، وبإدغام التاء فى الذال حمزة وأبو عمرو ﴿ذَرْوًا﴾ مصدر، والعامل فيه اسم الفاعل.

●● ﴿فَالْحَامِلاتِ﴾ السحاب، لأنها تحمل المطر ﴿وِقْرًا﴾ مفعول الحاملات.

●● ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ الفلك ﴿يُسْرًا﴾ جريا ذا يسر أى: ذا سهولة.

●● ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة؛ لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرهما، أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك، أو تتولى تقسيم أمر العباد، فجبريل للغلظة، وميكائيل للرحمة، وملك الموت لقبض الأرواح، وإسرافيل للنفخ، ويجوز أن يراد الرياح لا غير؛ لأنها تنشيء السحاب وتقله وتصرفه وتجرى فى الجوّ جريا سهلا وتقسم الأمطار بتصريف السحاب، ومعنى الفاء على الأول أنه أقسم بالرياح فبالسحاب التى تسوقه فبالفلك التى تجريها بهبوبها فبالملائكة التى تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعها، وعلى الثانى أنها تبتديء فى الهبوب فتذرو التراب والحصباء فتقل السحاب فتجرى فى الجو باسطة له فتقسم المطر.

●● ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جواب القسم، وما موصولة، أو مصدرية والموعود البعث ﴿لَصَادِقٌ﴾ وعد صادق كعيشة راضية أى: ذات رضا.

●● ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الجزاء على الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لكائن.

●● ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ هذا قسم آخر ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الطرائق الحسنة مثل ما يظهر على الماء من هبوب الريح، وكذلك حبك الشعر آثار تثنيه وتكسره، جمع حبيكة كطريقة وطرق، ويقال: إن خلقة السماء كذلك، وعن الحسن حبكها نجومها جمع حباك.

●● ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أى: قولهم فى الرسول ساحر وشاعر ومجنون، وفى القرآن سحر وشعر وأساطير الأولين.

●● ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ الضمير للقرآن، أو الرسول أى: يصرف عنه من صرف، الصرف الذى لا صرف أشد منه وأعظم، أو يصرفُ عنه من صرف فى سابق علم الله أى: علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوي، ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون، أو للدين، أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق، ثم أقسم بالسماء على أنهم فى قول مختلف فى وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد، ثم قال: يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو مأفوك.

●● ﴿قُتِلَ﴾ لعن وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى لعن ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابون

المقدرون مالايصح، وهم أصحاب القول المختلف، واللام إشارة إليهم، كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون.

●● ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ فى جهل يغمرهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

●● ﴿يَسْأَلُونَ﴾ فيقولون ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أى: متى يوم الجزاء وتقديره أيان وقوع يوم الدين؛ لأنه إنما تقع الأحيان ظروفا للحدثان، وانتصب اليوم الواقع فى الجواب بفعل مضمر دل عليه السؤال أى يقع.

●● ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ويجوز أن يكون مفتوحا لإضافته إلى غير متمكن، وهو الجملة ومحله نصب بالمضمر الذى هو يقع، أو رفع على هو يوم هم على النار يفتنون يحرقون ويعذبون.

●● ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أى: تقول لهم خزنة النار ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار ﴿هَذَا﴾ مبتدأ خبره ﴿الَّذِي﴾ أى: هذا العذاب هو الذى ﴿كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فى الدنيا بقولكم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[1] ثم ذكر حال المؤمنين فقال.

●● ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أى: وتكون العيون وهى الأنهار الجارية بحيث يرونها وتقع عليها أبصارهم لا أنهم فيها.

●● ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلين لكل ما أعطاهم من الثواب راضين به، وآخذين حال من الضمير فى الظرف، وهو خبر إن ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ قبل دخول الجنة فى الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم وتفسير إحسانهم ما بعده.

●● ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ينامون وما مزيدة للتوكيد ويهجعون خبر كان، والمعنى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل، أو مصدرية، والتقدير: كانوا قليلا من الليل هجوعهم فيرتفع هجوعهم لكونه بدلا من الواو فى كانوا لا بقليلا، لأنه صار موصوفا بقوله من الليل خرج من شبه الفعل وعمله باعتبار المشابهة، أى: كان هجوعهم قليلا من الليل، ولايجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله؛ لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها لا تقول زيدا ما ضربت.

●● ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم، والسحر السدس الأخير من الليل.

●● ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ أى: الذى يتعرض ولا يسأل حياء.

---

(١) الأعراف (٧٠)، وهود (٣٢)، والأحقاف (٢٢).

●● ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ﴾ تدل عى الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هى مدحوة كالبساط لما فوقها وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها، وهى مجزأة فمن سهل[1] ومن جبل[2] وصلبة ورخوة وعذاة [3] وسبخة[4] وفيها عيون متفجرة ومعادن مفتنة[5] ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال متباينة الهيئات والأفعال ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصّل إلى المعرفة فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها فازدادوا إيقانا على إيقانهم.

●● ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفى بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما فى تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له وما سوى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى فإنه إذا جسا منها شيء جاء العجز وإذا استرخى أناخ الذل فتبارك الله أحسن الخالقين وما قيل إن التقدير أفلا تبصرون فى أنفسكم ضعيف؛ لأنه يفضى إلى تقديم ما فى حيز الاستفهام على حرف الاستفهام ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

●● ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أى: المطر، لأنه سبب الأقوات، وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة فهى على ظهر السماء السابعة تحت العرش، أو أراد أن ما ترزقونه فى الدنيا وما توعدونه فى العقبى كله مقدور مكتوب فى السماء.

●● ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ الضمير يعود إلى الرزق أو إلى ما توعدون ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ بالرفع كوفى غير حفص صفة للحق أى حق مثل نطقكم، وغيرهم بالنصب أى أنه لحق حقا مثل نطقكم، ويجوز أن يكون فتحا لإضافته إلى غير متمكن وما مزيدة، عن الأصمعى أنه قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود فقال: من الرجل؟ فقلت: من بنى أصمع قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الله، قال: اتل عليَّ فتلوت والذاريات، فلما

---

(١) السَّهْلُ: أرض منبسطة لاتبلغ الهضبة. والجمع: سهول.
(المعجم الوسيط ١/٤٥٨).

(٢) الجَبَلُ: ماعلا من سطح الأرض واستطال وجاوز التل ارتفاعاً. والجمع: أجبل وجبال.
(المعجم الوسيط ١/١٠٥)

(٣) الأرض العذاة: هى الأرض التى لا تسقى إلاَّ بماء المطر.

(٤) الأرض السبخة: هى الأرض المالحة التى لا يصلح فيها زرع.

(٥) الفتنة: هو العرض على النار لاختبار أصالة المعدن، و«صخور مفتنة»؛ أى: مصهورة.

بلغت قـوله: «وفى السماء رزقـكم، قال: حسبك، فقـام إلى ناقته فنـحرها ووزعها علـى من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقـوسه فكسرهما وولي، فلما حججت مع الرشـيد وطفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيـق فالتفت فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر فسـلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صـاح وقال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، ثم قال: وهـل غير هذا، فقرأت «فورب السماء والأرض إنه لحق» فصاح وقال: يا سبحان الله مـن ذا الذى أغضب الجليل حتـى حلف لم يصدقوه بقوله حتى حلف، قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه.

•• ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تفخيـم للحديث وتنـبيه على أنه لـيس من علم رسول الله (ﷺ) وإنمـا عرفه بالوحى وانتظامها بما قبلها باعتبار أنه قال وفى الأرض آيات وقال فى آخر هذه القصة وتركنا فيها آية ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الضيف للواحـد والجماعة كالصوم والزور؛ لأنه فى الأصـل مصدر ضافه وكانوا اثنـى عشر ملكا، وقـيل: تسعة عاشرهـم جبريل وجعلهـم ضيفا؛ لأنهم كـانوا فى صورة الضيف حيث أضافهم إبراهيم، أو لأنهم كانوا فـى حسبانه كذلك ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ عند الله لـقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾(1) وقيل: لأنه خدمهم بنفسه وأخدمهم امرأته وعجل لهم القرى.

•• ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبـراهيم لهم وإلا فبإضمار اذكر ﴿فَقَالُوا سَلامًا﴾ مصدر سادٌ مسد الفعل مستغنى به عنه وأصله نسلم عليكم سلاما ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ أى: عليكم سلام فهو مرفوع على الابتداء وخبره محذوف، والعدول إلى الرفع للدلالة على إثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به أخذا بأدب الله وهذا أيضا من إكرامه لهم. حمزة وعلي: سلم والسلم السلام ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أى أنتم قوم منكرون فعرفونى من أنتم.

•• ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ فذهب إليهم فـى خفية من ضيوفه ومن أدب المضـيف أن يخفى أمره وأن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف حذرا من أن يكفه وكان عامة مال إبراهيم ـ عليه السلام ـ البقر ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

•• ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ليأكلوا منه فلم يأكلوا ﴿قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ﴾ أنكر عليهم ترك الأكل، أوحثهم عليه.

•• ﴿فَأَوْجَسَ﴾ فاضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفا لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهـما ـ وقع فى نفسه أنهم ملائكـة أرسلوا للعذاب ﴿قَالُوا لا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله، وقيل: مسح جبريل الـعجل فقام ولحق بأمه ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ أى: يبلغ ويعلم والمبشر به إسحق عند الجمهور.

•• ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ فى صيـحة من صر الـقلم والبـاب، قال الزجاج: الـصرة شدة

---

(1) سورة «الأنبياء»، الآية(26).

الصياح ههنا ومحله النصب على الحال أى فـجاءت صارة، وقيل: فأخذت فى صياح وصرتها قولها يا ويلتا ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت ببسط يـديها. وقيل: فضربت بأطراف أصابعها جـبهتها فعل المتعجب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أى: أنا عجوز فكيف آلد كما قال فى موضع آخر ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[1].

●● ﴿قَالُوا كَذَلِكِ﴾ مثل ذلك الذى قلـنا وأخبرنا به ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أى: إنما نخـبرك عن الله تعالي، والله قادر على مـا تستبعدين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ فى فعـله ﴿الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عـليه شيء وروى أن جبريل قال لها حين استبعدت: انظرى إلى سقف بيتك فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة، ولما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بأمر الله رسلا فى بعض الأمور.

●● ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أى: فما شأنكـم وما طلبتكم وفيـم أرسلتم ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أرسلتم بالبشارة خاصة، أو لأمر آخر أولهما.

●● ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أى: قوم لوط.

●● ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أريد السجيل وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر حتى صار فى صلابة الحجارة.

●● ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة من السـومة، وهى العلامة على كل واحد منهـا اسم من يهلك به ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ فى ملكه وسلطانه ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ سماهم مسرفين كما سماهـم عادين لإسرافهم وعدوانهم فى عملهم حيث لم يقتنعوا بما أبيح لهم.

●● ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ فى القرية ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى لوطا ومن آمن به.

●● ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: غير أهل بـيت وفيه دليل عـلى أن الإيمان والإسلام واحد؛ لأن الملائكة سموهم مؤمنين ومسلمين هنا.

●● ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ فى قراهم ﴿آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم، قيل: هى ماء أسود منتن.

●● ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ معطوف عْلى وفـى الأرض آيات، أو على قولهْ وتركنا فيها آيـة على معنى وجعلنا فى موسى آية كقوله ✽ علفتها تبنا وماد باردا ✽[2]

●● ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة ظاهرة وهى اليد والعصا.

---

(١) سورة «هود»، الآية (٧٢).

(٢) أى: وسقيتها ماءً بارداً. وحذف الفعل للدلالة عليه عرفاً.

●● ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فأعرض عن الإيمان ﴿بِرُكْنِهِ﴾ بما كان يتقوى به من جنوده وملكه والركن ما يركن إليه الإنسان من مال وجند ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أى هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

●● ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آت بما يلام عليه من كفره وعناده، وإنما وصف يونس ـ عليه السلام ـ به فى قوله: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾(1) لأن موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم فراكب الكفر ملوم على مقداره وراكب الكبيرة والصغيرة والذلة كذلك، والجملة مع الواو حال من الضمير فى فأخذناه.

●● ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ هى التى لا خير فيها من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر وهى ريح الهلاك واختلف فيها والأظهر أنها الدبور لقوله ـ عليه السلام ـ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»(2).

●● ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ هو كل ما رم أى بلى وتفتت من عظم، أو نبات أو غير ذلك والمعنى ما تترك من شيء هبت عليه من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم إلا أهلكته.

●● ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ آية أيضا ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾(3).

●● ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ العذاب وكل عذاب مهلك صاعقة. الصعقة علي. وهى المرة من مصدر صعقتهم الصاعقة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ لأنها كانت نهارا يعاينونها.

●● ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أى: هرب، أو هو من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعين من العذاب، أو لم يمكنهم مقابلتنا بالعذاب، لأن معنى الانتصار المقابلة.

●● ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أى: وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه أو واذكر قوم نوح. وبالجر أبو عمرو وعلى وحمزة أى: وفى قوم نوح آية ويؤيده قراءة عبدالله وفى قوم نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ كافرين.

●● ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ نصب بفعل يفسره ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوة والأيد القوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون من الوسع وهى الطاقة والموسع القوى على الإنفاق، أو لموسعون ما بين السماء والأرض.

---

(1) سورة «الصافات»، الآية (142).

(2) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (11/ 31925، 32071).

(3) سورة «هود»، الآية (65).

●● ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ بسطناها ومهدناها وهى منصوبة بفعل مضمر أى فرشنا الأرض فرشناها ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ نحن.

●● ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحيوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذكرا وأنثي، وعن الحسن السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر والموت والحياة فعدد أشياء، وقال: كل اثنين منها زوج والله تعالى فرد لا مثل له ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج لتتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

●● ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾أى: من الشرك إلى الإيمان بالله أو من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن، أو مما سواه إليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

●● ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والتكرير للتوكيد والإطالة فى الوعيد أبلغ.

●● ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر مثل ذلك وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحرا أو مجنونا، ثم فسر ما أجمل بقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من قبل قومك ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا﴾ هو ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ رموهم بالسحر أو الجنون لجهلهم.

●● ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ الضمير للقول أى: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: لم يتواصلوا به؛ لأنهم لم يتلاقوا فى زمان واحد بل جمعتهم العلة الواحدة وهى الطغيان والطغيان هو الحامل عليه.

●● ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عن الذين كررت عليهم الدعوة فلم يجيبوا عنادا ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فلا لوم عليك فى إعراضك بعدما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك فى البلاغ والدعوة.

●● ﴿وَذَكِّرْ﴾ وعظ بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن تزيد فى عملهم.

●● ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة إن حملت على حقيقتها فلا تكون الآية عامة بل المراد بها المؤمنون من الفريقين دليله السياق أعنى وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقراءة ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين وهذا؛ لأنه لا يجوز أن يخلق الذين علم منهم أنهم لا يؤمنون للعبادة؛ لأنه إذا خلقهم للعبادة وأراد منهم العبادة فلابد أن توجد منهم فإذا لم يؤمنوا علم أنه خلقهم لجهنم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾(١) وقيل: إلا لآمرهم بالعبادة وهو منقول عن على ـ رضى الله عنه ـ وقيل: إلا ليكونوا عبادا لى والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد فقد قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :كل عبادة فى القرآن

---

(١) سورة الأعراف»، الآية (١٧٩).

فهى توحيد والكل يوحدونه فى الآخرة لما عـرف أن الكفار كلهم مؤمنون موحدون فى الآخرة دليلة قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾[1] نعم قد أشرك البعض فى الدنيا لكن مدة الدنيـا بالإضافة إلى الأبد أقل من يوم، ومن اشـترى غلاما وقال ما اشتريته إلا لـلكتابة كان صادقا فى قوله ما اشتريته إلا للكتابة، وإن استعمله فى يوم من عمره لعمل آخر.

●● ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ ما خلـقتهم ليرزقـوا أنفسهم أو واحدا مـن عبادى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ قال ثعلب: أن يطعموا عبادى وهى إضافة تخـصيص كقوله ـ عليه السلام ـ خبرا عن الله تعالى: «من أكرم مؤمنا فقد أكرمنى، ومن آذى مؤمنا فقد آذانى»[2].

●● ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ الشديد القـوة والمتين بالرفع صفة لـذو وقرأ الأعمش بالجر صفة للقوة على تأويل الاقتدار.

●● ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ رسول الله بالتكذيب من أهل مكة ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ نصيبا من عذاب الله مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم مـن القرون المهلكة: قال الزجاج: الذنوب فى اللغة النصيب ﴿فَلا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ نزول العذاب: وهذا جواب النضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

●● ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أى: من يوم الـقيامة وقيل مـن يوم بدر. ليعبدوني، أن يطعموني. فلا يستعجلونى بالياء فى الحالين يعقوب وافقه سهل فى الوصل. الباقون بغير ياء، والله أعلم.

---

(١) سورة «الأنعام»، الآية (٢٣).

(٢) الحديث ضعيف، أورده العقيلى فى الضعفاء.

(سورة الطور مكية، وهى تسع وأربعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿وَالطُّورِ﴾ هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى وهو بمدين.

•• ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ هو القرآن أنكر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب أو اللوح المحفوظ، أو التوراة.

•• ﴿فِي رَقٍّ﴾ هو الصحيفة، أو الجلد الذى يكتب فيه ﴿مَّنشُورٍ﴾ مفتوح لا ختم عليه، أو لائح(١).

•• ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ أى: الضراح وهو بيت فى السماء حيال الكعبة وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة، روى أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ويخرجون، ثم لا يعودون إليه أبدا. وقيل: الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار.

•• ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أى: السماء، أو العرش.

•• ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء، أو الموقد والواو الأولى للقسم، والبواقى للعطف وجواب القسم.

•• ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ أى: الذى أوعد الكفار به ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لنازل قال جبير بن مطعم: أتيت رسول الله (ﷺ) أكلمه فى الأسارى فلقيته فى صلاة الفجر يقرأ سورة الطور فلما بلغ «إن عذاب ربك لواقع» أسلمت خوفا من أن ينزل العذاب(٢).

•• ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ لا يمنعه مانع والجملة صفة لواقع أى: واقع غير مدفوع، والعامل فى يوم لواقع أى: يقع فى ذلك اليوم، أو اذكر ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ تدور كالرحى مضطربة ﴿السَّمَاءُ مَوْرًا﴾.

•• ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ فى الهواء كالسحاب، لأنها تصير هباء منثورا.

•• ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ غلب الخوض فى الاندفاع فى الباطل والكذب ومنه قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾(٣).

•• ويبدل ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ من يوم تمور، والدع: الدفع العنيف، وذلك أن

---

(١) لائح: أى: ظاهر.
(انظر المعجم الوسيط ٢/ ٨٤٥).
(٢) الحديث فى الصحيح، باختلاف فى تفاصيل القصة.
(٣) سورة «المدثر»، الآية (٤٥).

خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعونهم إلى النار دفعا على وجوههم وزخا فى أقفيتهم فيقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فى الدنيا.

●● ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ هذا مبتدأ وسحر خبره يعنى كنتم تقولون للوحى هذا سحر أفسحر هذا يريد أهذا المصداق أيضا سحر، ودخلت الفاء لهذا المعنى ﴿أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ كما كنتم لاتبصرون فى الدنيا يعنى أم أنتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر وهذا تقريع وتهكم.

●● ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ خبر سواء محذوف أى: سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه، وقيل: على العكس وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن الصبر، إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة فلا مزية له على الجزع.

●● ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾ فى أية جنات ﴿وَنَعِيمٍ﴾ أى: وأى نعيم بمعنى الكمال فى الصفة أو فى جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة.

●● ﴿فَاكِهِينَ﴾ حال من الضمير فى الظرف، والظرف خبر أى متلذذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وعطف قوله: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ على فى جنات أى إن المتقين استقروا فى جنات... ووقاهم ربهم، أو على آتاهم ربهم على أن تجعل ما مصدرية، والمعنى فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم ﴿عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أو الواو للحال وقد بعدها مضمرة يقال لهم.

●● ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أكلا وشربا هنيئاً أو طعاما وشراباً هنيئا وهو الذى لا تنغيص فيه.

●● ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من الضمير فى كلوا واشربوا ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ موصول بعضها ببعض ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرناهم ﴿بِحُورٍ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٍ﴾ عظام الأعين حسانها.

●● ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ وألحقنا بهم خبره ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ﴾ وأتبعناهم أبو عمرو ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ أولادهم ﴿بِإِيمَانٍ﴾ حال من الفاعل ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى: نلحق الأولاد بإيمانهم وأعمالهم درجات الآباء وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء، وقيل إن الذرية وإن لم يبلغوا مبلغا يكون منهم الإيمان استدلالا، وإنما تلقنوا منهم تقليدا فهم يلحقون بالآباء. ذريتُهم ذرياتُهم مدنى ذرِّيتِهم ذرياتِهم أبو عمرو، ذرياتُهم ذرياتهم شامى ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وما نقصناهم من ثواب عملهم من شىء. ألِتناهم مكى ألت يألت ألِت يألَت لغتان من الأولى متعلقة بـألتناهم، والثانية زائدة ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أى: مرهون فنفس المؤمن مرهونة بعمله وتجازى به.

●● ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ وزدناهم فى وقت بعد وقت ﴿ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وإن لم يقترحوا.

●● ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ خمرا أى يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم يتناول هذا الكأس من يد هذا وهذا من يد هذا ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ فى شربها ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أى: لا يجرى بينهم ما يلغى يعنى لا يجرى بينهم باطل ولا ما فيه إثم لو فعله فاعل فى دار التكليف من الكذب والشتم ونحوهما كشاربى خمر الدنيا؛ لأن عقولهم ثابتة فيتكلمون بالحكم، والكلام الحسن لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ مكى وبصري.

●● ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ مملوكون لهم مخصوصون بهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ من بياضهم وصفائهم ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ فى الصدف لأنه رطبا أحسن وأصفى، أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالى القيمة فى الحديث: إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه: لبيك لبيك[1].

●● ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله.

●● ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أى: فى الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقاء القلوب من خشية الله أو خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان، أو من رد الحسنات والأخذ بالسيئات.

●● ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ هى الريح الحارة التى تدخل المسام فسميت بها نار جهنم؛ لأنها بهذه الصفة.

●● ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه يعنون فى الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده ولا نعبد غيره ونسأله الوقاية ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ المحسن ﴿الرَّحِيمُ﴾ العظيم الرحمة الذى إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب. أنه بالفتح مدنى وعلى أى بأنه، أو لأنه.

●● ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ كما زعموا وهو فى موضع الحال، والتقدير لست كاهنا ولا مجنونا ملتبسا بنعمة ربك.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ ﴾ هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ حوادث الدهر أى: ننتظر نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة[2]. وأم فى أوائل هذه الآى منقطعة بمعنى بل والهمزة.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(٢) هو الشاعر الجاهلى العملاق؛ زياد بن معاوية بن ضباب، الذبيانى، الغطفانى، المضرى،=

●● ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

●● ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَا﴾ التناقض فى القول وهو قولهم كاهن وشاعر مع قولهم مجنون وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد فى العناد مع ظهور الحق لهم وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

●● ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿بَل﴾ رد عليهم أى ليس الأمر كما زعموا ﴿ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن مع علمهم ببطلان قولهم، وأنه ليس بمتقول لعجز العرب عنه وما محمد إلا واحد من العرب.

●● ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ مختلق ﴿مِّثْلِهِ﴾ مثل القرآن ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ فى أن محمدا تقوله من تلقاء نفسه؛ لأنه بلسانهم وهم فصحاء.

●● ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ أم أحدثوا وقدروا التقدير الذى عليه فطرتهم ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير مقدر ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم حيث لايعبدون الخالق وقيل أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب أم هم الخالقون فلا يأتمرون.

●● ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فلا يعبدون خالقهما ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أى لايتدبرون فى الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض.

●● ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ من النبوة والرزق، وغيرهما فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على مشيئتهم. وبالسين مكى وشامي.

●● ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب يرتقون به إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم فى العاقبة دونه كما يزعمون، قال الزجاج: يستمعون فيه أى عليه ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم.

●● ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ثم سفه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون وهم حكماء عند أنفسهم.

●● ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على التبليغ والإنذار ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ المغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه أى: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم فزهدهم ذلك فى اتباعك.

=الشهير بـ «النابغة الذبيانى» يدل على علو قدره أن الشعراء كانوا يتحاكمون إليه فى شعرهم ليفاضل بينهم فى ملتقى الشعراء، وهو من الطبقة الأولى، توفى قبل البعثة بنحو ٥ سنوات.
الأعلام (٣/ ٥٤).

•• ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أى: اللوح المحفوظ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لم نعذب.

•• ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم فى دار الندوة برسول الله وبالمؤمنين ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارة إليهم، أو أريد بهم كل من كفر بالله تعالى ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم وذلك أنهم قتلوا يوم بدر، أو المغلوبون فى الكيد من كايدته فكدته.

•• ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾يمنعهم من عذاب الله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

•• ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ﴾ والكسف: القطعة وهو جواب قولهم أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب ﴿مَّرْكُومٌ﴾ قد ركم أى جمع بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب.

••﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ بضم الياء عاصم وشامي، الباقون بفتح الياء، يقال: صعقه فصعق وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

•• ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون يوم القيامة وهو القتل ببدر والقحط سبع سنين وعذاب القبر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ثم أمره بالصبر إلى أن يقع بهم العذاب فقال.

•• ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وبما يلحقك فيه من المشقة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بحيث نراك ونكلؤك وجمع العين، لأن الضمير بلفظ الجماعة ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾(١) ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ للصلاة وهو ما يقال بعد التكبير سبحانك اللهم وبحمدك أو من أى: مكان قمت أو من منامك.

•• ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل وأدبار زيد أى فى أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت، والمراد الأمر بقول: سبحان الله وبحمده فى هذه الأوقات، وقيل: التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ومن الليل صلاة العشاءين وإدبار النجوم صلاة الفجر، وبالله التوفيق.

---

(١) سورة «طه»، الآية (٣٩).

(سورة النجم اثنتان وستون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالنَّجْمِ﴾ أقسم بالثريا، أو بجنس النجوم ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غرب. أو انتثر يوم القيامة وجواب القسم.

●● ﴿مَا ضَلَّ﴾ عن قصد الحق ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ أى: محمد (ﷺ) والخطاب لقريش ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ فى اتباع الباطل وقيل الضلال نقيض الهدى والغى نقيض الرشد، أى: هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى.

●● ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه إنما هو وحى من عند الله يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية من لايرى الاجتهاد للأنبياء - عليهم السلام - ويجاب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد وقررهم عليه كان كالوحى لا نطقا عن الهوى.

●● ﴿عَلَّمَهُ﴾ علم محمدا - عليه السلام - ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ملك شديد قواه والإضافة غير حقيقية؛ لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها وهو جبريل - عليه السلام - عند الجمهور ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء، ثم قلبها وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين.

●● ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو منظر حسن عن ابن عباس ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورة نفسه الحقيقة دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى، وكان ينزل فى صورة دحية[(١)] وذلك أن رسول الله (ﷺ) أحب أن يراه فى صورته التى جبل عليها فاستوى له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق[(٢)] وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء - عليهم السلام - فى صورته الحقيقية سوى محمد (ﷺ) مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء.

●● ﴿وَهُوَ﴾ أى: جبريل - عليه السلام - ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ مطلع الشمس ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من رسول الله (ﷺ)﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فزاد فى القرب، والتدلى هو النزول بقرب الشىء.

●● ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدار قوسين عربيتين وقد جاء التقدير بالقوس والرمح والسوط والذراع والباع ومنه: «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين»[(٣)] وفى الحديث: «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها»[(٤)] والقد: السوط وتقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل

(١) انظر ترجمة الصحابى دحية الكلبى عند تفسير الآية (٩) من سوره «الأنعام».

(٢) فى الصحيحين والترمذى بألفاظ مختلفة، من رواية مسروق عن عائشة.

(٣) الحديث رواه الحاكم والدارقطنى باختلاف فى السند والمتن، واتفاق فى المعنى.

(٤) الحديث عند البخارى - وفيه زيادات - من حديث أنس.

قاب قوسين فحذفت هذه المضافات ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ أى: على تقديركم كقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1] وهذا، لأنهم خوطبوا على لغتهم ومقدار فهمهم وهم يقولون هذا قدر رمحين، أو أنقص وقيل بل أدنى.

●● ﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ إلى عبدالله وإن لم يجر لاسمه ذكر، لأنه لا يلتبس كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾[2] ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى إليه، قيل: أوحى إليه إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك[3].

●● ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ فؤاد محمد ﴿مَا رَأَى﴾ ما رآه ببصره من صورة جبريل ـ عليه السلام ـ أى ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا، لأنه عرفه يعنى أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك فى أن ما رآه حق وقيل المرئى هو الله سبحانه، رآه بعين رأسه وقيل بقلبه.

●● ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾ أفتجادلونه من المراء، وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه، أفتمرونه حمزة وعلى وخلف ويعقوب أفتغلبونه فى المراء من ماريته فمريته، ولما فيه من معنى الغلبة قال: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ فعدى بعلى كما تقول غلبته على كذا وقيل أتمرونه أفتجحدونه يقال مريته حقه إذا جحدته، وتعديته بعلى لاتصح إلا على مذهب التضمين.

●● ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ رأى محمد جبريل ـ عليهما السلام ـ ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذى هو مرة، لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت فى حكمها أى نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ نزلة أخرى فى صورة نفسه فرآه عليها وذلك ليلة المعراج.

●● ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ الجمهور على أنها شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش، والمنتهى بمعنى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها فى منتهى الجنة وآخرها، وقيل: لم يجاوزها أحد. وإليها ينتهى علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها، وقيل: تنتهى إليها أرواح الشهداء.

●● ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أى: الجنة التى يصير إليها المتقون، وقيل: تأوى إليها أرواح الشهداء.

●● ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ أى: رآه إذ يغشى السدرة ما يغشى، وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف، وقد قيل: يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله تعالى عندها، وقيل: يغشاها فراش من ذهب.

●● ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ بصر رسول الله (ﷺ) ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما جاوز ما أمر برؤيته.

---

(١) سورة «الصافات»، الآية (١٤٧).

(٢) سورة «فاطر»، الآية (٤٥).

(٣) فى كنز العمال ـ بنحوه ـ برقم (١١/ ٣١٩٥٣).

●● ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ الآيات التى هى كبراها وعظماها يعنى حين رقى به إلى السماء فأرى عجائب الملكوت.

●● ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ﴾ أى أخبرونا عن هذه الأشياء التى تعبدونها من دون الله عزوجل هل لها من القدرة والعظمة التى وصف بها رب العزة اللات والعزى ومناة أصنام لهم، وهى مؤنثات فاللات كانت لثقيف[1] بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعبدها قريش وهى فعلة من لوى، لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة، والعزى كانت لغطفان وهى ثمرة وأصلها تأنيث الأعز وقطعها خالد بن الوليد، ومناة صخرة كانت لهذيل[2] وخزاعة، وقيل: لثقيف وكأنها سميت مناة لأن دماء النسائك كانت تمنى عندها أى: تراق، ومناءة مكى مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ هى صفة ذم أى المتأخرة الوضيعة المقدار، كقوله: ﴿أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾[3] أى: وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم، ويجوز أن تكون الأولية والتقدم عندهم للات والعزى كانوا يقولون: إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله مع وأدهم البنات وكراهتهم لهن فقيل لهم.

●● ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أى جعلكم لله البنات ولكم البنين قسمة ضيزى أى جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه وضيزى فعلى إذ لا فعلى فى النعوت فكسرت الضاد للياء كما قيل بيض وهو بوض مثل حمر وسود، ضئزى بالهمز مكى من ضأزه مثل ضازه.

●● ﴿إِنْ هِيَ﴾ ما الأصنام ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ ليس تحتها فى الحقيقة مسميات؛ لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشد منافاة لها ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أى: سميتم بها يقال سميته زيدا وسميته بزيد ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا توهم أن ما هم عليه حق ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾ وماتشتهيه أنفسهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ الرسول والكتاب فتركوه ولم يعملوا به.

●● ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ هى أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار أى: ليس للإنسان يعنى الكافر ما تمنى من شفاعة الأصنام، أو من قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[4] وقيل: هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبى.

---

(١) ثقيف: قبيلة كبيرة مشهورة، تنسب إلى: ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر. أكثرها فى الطائف، وتفرق بعضها فى أماكن أخرى. الأنساب (١/ ٥٠٨).

(٢) هذيل: قبيلة تنسب إلى: هذيل بن مدركة بن إلياس، وهى قبيلة كبيرة، منتشرة البطون. الأنساب (٥/ ٦٣١).

(٣) سورة «الأعراف»، الآية (٣٨).

(٤) سورة «فصلت»، الآية (٥٠).

●● ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ أى: هو مالكهما وله الحكم فيهما يعطى النبوة والشفاعة من شاء وارتضى لا من تمنى.

●● ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ يعنى: أن أمر الشفاعة ضيق فإن الملائكة مع قربتهم وكثرتهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم شيئا قط ولا تنفع إلا إذا شفعوا من بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له، فكيف تشفع الأصنام إليه لعبدتهم.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ﴾ أى: كل واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ﴾ لأنهم إذا قالوا للملائكة بنات الله فقد سموا كل واحد منهم بنتا وهى تسمية الأنثى.

●● ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بما يقولون وقرئ بها أى بالملائكة، أو التسمية ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ هو تقليد الآباء ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: إنما يعرف الحق الذى هو حقيقة الشىء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظن والتوهم.

●● ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ فأعرض عمن رأيته معرضا عن ذكر الله أى القرآن ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: اختيارهم الدنيا والرضا بها ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ منتهى علمهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أى هو أعلم بالضال والمهتدى ومجازيهما.

●● ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾بعقاب ما عملوا من السوء أو بسبب ما عملوا من السوء ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾بالمثوبة الحسنى وهى الجنة، أو بسبب الأعمال الحسنى، والمعنى: أن الله عزوجل إنما خلق العالم وسوى هذه الملكوت ليجزى المحسن من المكلفين والمسئ منهم إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء.

●● ﴿الَّذِينَ﴾ بدل أو فى موضع رفع على المدح أى هم الذين ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ أى الكبائر من الإثم، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر، والكبائر، الذنوب التى يكبر عقابها، كبير حمزة وعلى أى: النوع الكبير منه ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ مافحش من الكبائر، كأنه قال والفواحش منها خاصة، قيل: الكبائر ما أوعد الله عليه النار، والفواحش ما شرع فيها الحد ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ أى الصغائر والاستثناء منقطع، لأنه ليس من الكبائر والفواحش وهو كالنظرة والقبلة واللمسة والغمزة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾ أى: أباكم ﴿مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا

﴿أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير والطاعات، أو إلى الزكاة والطهارة من المعاصى ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكى منكم والتقى أولا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم ـ عليه السلام ـ وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم، وقيل: كان ناس يعملون أعمالا حسنة، ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت. وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب، أو الرياء لاعلى سبيل الاعتراف بالنعمة فإنه جائز؛ لأن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ فاكتفوا بعلمه عن علم الناس وبجزائه عن ثناء الناس.

●● ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الإيمان.

●● ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ قطع عطيته وأمسك، وأصله إكداء الحافر وهو أن تلقاه كدية وهى صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فيمن كفر بعد الإيمان، وقيل فى الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله (ﷺ) فعيره بعض الكافرين وقال له: تركت دين الأشياخ وزعمت أنهم فى النار، قال: إنى خشيت عذاب الله فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ففعل وأعطى الذى عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل به ومنعه.

●● ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ فهو يعلم أن ما ضمنه من عذاب الله حق.

●● ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ يخبر ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أى: التوراة.

●●﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أى: وفى صحف إبراهيم ﴿الَّذِى وَفَّىٰ﴾ أى وفر وأتم كقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾[1] وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفيه وقرئ مخففا والتشديد مبالغة فى الوفاء وعن الحسن ما أمره الله بشئ إلا وفى به، وعن عطاء بن السائب [2] عهد أن لا يسأل مخلوقا فلما قذف فى النار قال له جبريل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وعن النبى (ﷺ):«وفى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار[3] »وهى صلاة الضحى، وروى «ألا أخبركم لم سمى الله خليله الذى وفى؟ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾[4]» وقيل[5] وفى سهام

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٢٤).

(٢) هو التابعى الجليل؛ عطاء بن السائب بن مالك، الثقفى، من أئمة التابعين فى الحديث، فهو «ثقة، ثقة، رجل صالح». إلا إنه اختلط فى آخر عمره. توفى عام ١٣٧هـ على خلاف.

تهذيب التهذيب (٤/ ١٣٠ ـ ١٣٣).

(٣) لم أجده فى كتب الحديث.

(٤) سورة «الروم»، الآيتان (١٧، ١٨).

(٥) الحديث عند أحمد والطبرانى.

الإسلام وهى ثلاثون: عشرة فى التوبة ﴿التَّائِبُونَ﴾[1] وعشرة فى الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] وعشرة فى المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[3] ثم أعلم بما فى صحف موسى وإبراهيم فقال.

●● ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تزر من وزر يزر إذا اكتسب وزرا وهو الإثم، وأن مخففة من الثقيلة، والمعنى أنه لا تزر والضمير ضمير الشأن، ومحل أن وما بعدها الجر بدلا من ما فى صحف موسى أو الرفع على هو أن لا تزر كأن قائلا قال: وما فى صحف موسى وإبراهيم، فقيل: ألا تزر وازرة وزر أخرى، أى: لاتحمل نفس ذنب نفس.

●● ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ إلا سعيه وهذه أيضا مما فى صحف إبراهيم وموسى، وأما ما صح فى الأخبار من الصدقة عن الميت والحج عنه، فقد قيل: إن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنيا على سعى نفسه وهو أن يكون مؤمنا كان سعى غيره كأنه سعى نفسه لكونه تابعاً له وقائما بقيامه، ولأن سعى غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه.

●● ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أى: يرى هو سعيه يوم القيامة فى ميزانه.

●● ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ ثم يجزى العبد سعيه يقال: جزاه الله عمله وجزاه على عمله بحذف الجار وإيصال الفعل، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ثم فسره بقوله: ﴿الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ أو أبدله عنه.

●● ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ هذا كله فى الصحف الأولى: والمنتهى مصدر بمعنى الانتهاء أى ينتهى إليه الخلق ويرجعون إليه كقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[4].

●● ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق الضحك والبكاء، وقيل: خلق الفرح والحزن وقيل: أضحك المؤمنين فى العقبى بالمواهب وأبكاهم فى الدنيا بالنوائب.

●● ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ قيل أمات الآباء وأحيا الأبناء، أو أمات بالكفر وأحيا الإيمان، أو أمات هنا وأحيا ثمة.

●● ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تدفق فى الرحم، يقال: منى وأمنى.

●● ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ﴾ الإحياء بعد الموت.

---

(١) سورة «التوبة»، الآية (١١٢).

(٢) سورة «الأحزاب»، الآية (٣٥).

(٣) سورة «المؤمنون»، الآيات (١ ـ ١١).

(٤) آل عمران (٢٨)، والنور (٤٢)، وفاطر (١٨).

●● ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القنية وهـي المال الذى تأثلته[1] وعزمت أن لا تخـرجه من يدك.

●● ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء فى شـدة الحر، وكانت خزاعة تعبدها فأعلم الله أنه رب معبودهم هذا.

●● ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ هم قوم هود وعـاد الأخرى إرم. عاد الُولى مدنى وبـصرى غير سهل بإدغام التنوين فى اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف.

●● ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ حمزة وعاصم الباقون وثمودا، وهو معـطوف على عادا ولا ينصب بفما أبقى؛ لأن ما بعد الـفاء لايعمل فيما قبله لا تقـول زيدا فضربت، وكذا ما بعد النفى لايـعمل فيما قبله، والمعنى: وأهلك ثمود فما أبقاهم.

●● ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أى: أهلك قـوم نوح ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عـاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من عاد وثمـود، لأنهم كانوا يضربـونه حتى لايكون بـه حراك وينفرون عنه حـتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه.

●● ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التى ائـتفكت بأهلها أى: انقـلبت وهم قوم لوط يقال أفـكه فائتفك ﴿أَهْوَىٰ﴾ أى: رفعها إلى السماء على جناح جبريـل، ثم أهواها إلى الأرض أى: أسقطها والمؤتفكة منصوب بأهوى.

●● ﴿فَغَشَّاهَا﴾ ألبسها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ تهويل وتعظـيم لما صب عليها من العذاب وأمطـر عليها من الصخر المنضود.

●● ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكـك بما أولاك من النعم أو بمـا كفاك من النقم، أو بأى نعم ربك الدالة على وحدانيته وربوبيته تشكك.

●● ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ أى: محمد منذر ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ من المنذرين الأولـين، وقال الأولى على تأويل الجماعة، أو هذا القرآن نذير من النذر الأولى أى: إنذار منْ جنس الإنذارات الأولى التى أنذر بها من قبلكم.

●● ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ قربت الموصوفة بالقرب فى قوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[2].

---

(١) تأثلته: أى: اكتسبته.

(٢) سورة «القمر»، الآية (١).

•• ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: ليس لها نفس كاشفة أى مبينة متى تقوم كقوله: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾[1] أو ليس لها نفس كاشفة أى قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله تعالى غير أنه لا يكشفها.

•• ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ أى: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارا.

•• ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ خشوعا.

•• ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ غافلون أو لاهـون لاعبون، وكانوا إذا سمـعوا القرآن عارضوه بـالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه.

•• ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاسجدوا لله واعبدوه ولاتعبدوا الآلهة، والله أعلم.

(١) سورة «الأعراف»، الآية (١٨٧).

(سورة القمر خمس وخمسون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ نصفين، وقرىء، وقد انشق أى: اقتربت الساعة، وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق كما تقول أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه، قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ رأيت حراء بين فلقتى القمر، وقيل: معناه ينشق يوم القيامة والجمهور على الأول وهو المروى فى الصحيحين ولا يقال لو انشق لما خفى على أهل الأقطار ولو ظهر عندهم لنقلوه متواترا لأن الطباع جبلت على نشر العجائب؛ لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم.

•• ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ يعنى: أهل مكة ﴿آيَةً﴾ تدل على صدق محمد (ﷺ) ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن الإيمان به ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ محكم قوى من المرة القوة، أو دائم مطرد، أو مار ذاهب يزول ولا يبقى.

•• ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النبى (ﷺ) ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ وعدهم الله ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ كائن فى وقته، وقيل: كل ما قدر واقع وقيل كل أمر من أمرهم واقع مستقر أى: سيثبت ويستقر عند ظهور العقاب والثواب.

•• ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ أهل مكة ﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة وما وصف من عذاب الكفار ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجار عن الكفر تقول زجرته وازدجرته أى: منعته، وأصله ازتجر ولكن التاء إذا وقعت بعد زاى ساكنة أبدلت دالا، لأن التاء حرف مهموس والزاى حرف مجهور فأبدل من التاء حرف مجهور، وهو الدال ليتناسبا وهذا فى آخر كتاب سيبويه.

•• ﴿حِكْمَةٌ﴾ بدل من ما، أو على هو حكمة ﴿بَالِغَةٌ﴾ نهاية الصواب، أو بالغة من الله إليهم ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ ما نفى والنذر جمع نذير وهم الرسل أو المنذر به أو النذر مصدر بمعنى الإنذار.

•• ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك أن الإنذار لايغنى فيهم نصب ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ بيخرجون أو بإضمار اذكر. الداعى، إلى الداعى سهل ويعقوب ومكى فيهما وافق مدنى وأبو عمرو فى الوصل، ومن أسقط الياء اكتفى بالكسرة عنها وحذف الواو من يدعو فى الكتاب لمتابعة اللفظ والداعى إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ منكر فظيع تنكره النفوس، لأنها لم تعهد بمثلة وهو هول يوم القيامة نكْر بالتخفيف مكى.

•• ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ ـ خاشعا ـ عراقى غير عاصم، وهو حال من الخارجين وهو فعل للأبصار وذكر كما تقول: يخشع أبصارهم غيرهم خشعا على يخشعن أبصارهم، وهى لغة من يقول أكلونى

البراغيث، ويجوز أن يكـون فى خشعا ضميرهم وتقع أبصارهم بدلا عنـه، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة؛ لأن ذلة الذلـيل وعزة العزيز تظهران فى عـيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ فى كثرتهم وتفرقهم فى كل جهة، والجراد مثل فى الكثرة والتموج، يقال فى الجيش الكثير المائج بعضه فى بعض جاءوا كالجراد.

●● ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادى أعنـاقهم إليه ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب شديد.

●● ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحا ـ عليه السلام ـ ومعنى تكرار التكذيب أنهم كذبوه تكذيبا على عقب تكذيـب كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبت قوم نـوح الرسل فكذبوا عبدنـا أى: لما كانوا مكذبين بالـرسل جاحدين للنبـوة رأسا كذبوا نوحا، لأنه من جملة الرسل ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ أى: هو مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ زجر عن أداء الرسالة بالشتم وهدد بالقتل أو هو من جملة قيلهم أى قالـوا: هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه.

●● ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي﴾ أى: بأنى ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبنى قومى فلم يسمـعوا منى واستحكم اليأس من إجابتهم لى ﴿فَانتَصِرْ﴾ فانتقم لى منهم بعذاب تبعثه عليهم.

●● ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ ففتّحنا شامى ويـزيد وسهل ويعقوب ﴿بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ منصب فى كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما.

●● ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر وهو أبلغ من قولك وفجرنا عيون الأرض ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أى: مياه السـماء والأرض وقرئ الماءان أى النوعان من المـاء السماوى والأرضى ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدرها الله كيف شاء أو علـى أمر قد قدر فى اللوح المحفوظ أنه يكون وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

●● ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أراد السفينة وهى من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدى مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها، ونحوه: ولكن قميصى مسرودة من حديد أراد ولكن قميـصى درع ألا ترى أنك لو جمعت بين السـفينة وبين هذه الصفة لـم يصح وهذا من فصيـح الكلام وبديعه، والـدسر جمع دسار وهـو المسمار فعـال من دسره إذا دفعه؛ لأنه يـدسر به منفذه.

●● ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا أو بحفظـنا أو بأعيننا حال من الضمـيـر فى تجرى أى: محفوظة بنا ﴿جَزَاءً﴾ مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده أى فعلنا ذلك جزاء ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾

وهو نوح ـ عليه السلام ـ وجعله مكفورا، لأن النبى نعمة من الله ورحمة قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١) فكان نوح نعمة مكفورة.

●● ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾ أى: السفينة، أو الفعلة أى جعلناها ﴿آيَةً﴾ يعتبر بها وعن قتادة أبقاها الله بأرض الجزيرة. وقيل: على الجودى(٢) دهرا طويلا حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ يتعظ ويعتبر وأصله مذتكر بالذال والتاء ولكن التاء أبدلت منها الدال والدال والذال من موضع فأدغمت الذال فى الدال.

●● ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ جمع نذير وهو الإنذار ونذرى يعقوب فيهما وافقه سهل فى الوصل غيرهما بغيرياء وعلى هذا الاختلاف ما بعده إلى آخر السورة.

●● ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سهلناه للادّكار والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ يتعظ، وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه فهل من طالب لحفظه ليعان عليه، ويروى أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل والزبور لا يتلوها أهلها إلا نظرا ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن.

●● ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أى: وإنذاراتى لهم بالعذاب قبل نزوله أو وإنذاراتى فى تعذيبهم لمن بعدهم.

●● ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة أو شديدة الصوت ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ دائم الشر فقد استمر عليهم حتى أهلكهم وكان فى أربعاء فى آخر الشهر.

●● ﴿تَنزِعُ النَّاسَ﴾ تقلعهم عن أماكنهم وكانوا يصطفون آخذا بعضهم بأيدى بعض ويتداخلون فى الشعاب ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه وشبهوا بأعجاز النخل، لأن الريح كانت تقطع رءوسهم فتبقى أجسادا بلا رءوس فيتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال كأنهم أعجاز نخل، وهى أصولها بلا فروع وذكر صفة نخل على اللفظ ولو حملها على المعنى لأنث كما قال ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾(٣).

●● ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

●● ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا﴾ انتصب بشرا بفعل يفسره ﴿نَّتَّبِعُهُ﴾ تقديره أنتبع بشرا منا واحدا ﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ كأن يقول إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق، وسعر ونيران جمع سعير فعكسوا عليه، فقالوا: إن اتبعناك كنا إذا كما تقول، وقيل:

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (١٠٧).

(٢) الجودى: جبل بأرض الجزيرة رست عليه سفينة نوح ـ عليه السلام ـ وهذا الجبل قرب الموصل. (صفوة التفاسير ٢/ ١٣).

(٣) سورة «الحاقة»، الآية (٧).

الضلال الخطأ والبعد عن الصواب، والسعر: الجنون، وقولهم: أبشرا إنكار، لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية وطلبوا أن يكون من الملائكة وقالوا منا، لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى وقالوا واحدا إنكارا، لأن تتبع الأمة رجلا واحدا أو أرادوا واحدا من أفنائهم ليس من أشرفهم وأفضلهم ويدل عليه قوله.

●● ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أى: أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ بطرمتكبر حمله بطره وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك.

●● ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ أصالح أم من كذبه. ستعلمون شامى وحمزة على حكاية ما قال لهم صالح مجيبا لهم أو هو كلام الله على سبيل الالتفات.

●● ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحانا لهم وابتلاء وهو مفعول له أو حال ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمرى.

●● ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم وقال بينهم تغليبا للعقلاء ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ محضور يحضر القوم الشرب يوما وتحضر الناقة يوما.

●● ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ ﴾ فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له ﴿فَعَقَرَ﴾ الناقة، أو فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف، وإنما قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾(١) فى آية أخرى لرضاهم به، أو لأنه عقر بمعونتهم.

●● ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فى اليوم الرابع من عقرها ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بهم جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر والمحتظر: الذى يعمل الحظيرة ومايحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم وقرأ الحسن بفتح الظاء، وهو موضع الاحتظار أى الحظيرة.

●● ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعنى على قوم لوط ﴿حَاصِبًا﴾ ريحا تحصبهم بالحجارة أى: ترميهم ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾ ابنتيه ومن آمن معه ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ من الأسحار ولذا صرفه، ويقال: لقيته بسحر إذا لقيته فى سحر يومه، وقيل: هما سحران فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر والآخر عند انصداعه.

●● ﴿نِعْمَةً﴾ مفعول له أى إنعاما ﴿مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمة الله بإيمانه وطاعته.

(١) سورة «الأعراف»، الآية (٧٧).

•• ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوط ـ عليـه السلام ـ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين.

•• ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ طلبوا الفاحـشة من أضيافه ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم وقيل مسحناها وجعلـناها كسائر الوجه لا يرى لها شق، روى أنهم لما عالجـوا باب لوط ـ عليه السلام ـ ليدخلوا قالت المـلائكة: خـلهم يدخلوا إنا رســل ربك لن يصلوا إليك، فصفقهـم جبريل ـ عليه السلام ـ بجـناحه صفقة فتـركهم يترددون ولا يهـتدون إلى الباب حتى أخـرجهم لوط ﴿فَذُوقُوا﴾ فقلت لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

•• ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ثابت قد استقر علـيهم إلى أن يفضى بهم إلى عذاب الآخرة وفائدة تكرير.

•• ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وهذا حكم التكرير فى قوله ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١) عند كل نعمة عدها وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(٢) عند كل آية أوردهـا وكذلك تكرير الأنباء والـقصص فى أنفسها لـتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية فى كل أوان.

•• ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ موسى وهرون وغيـرهما من الأنبياء أو هو جـمع نذير وهو الإنذار.

•• ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شىء.

•• ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ﴾ الكفار المعدودين قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، أى: أهم خير قوة وآلـة ومكانة فى الدنيا أو أقل كفرا وعنادا، يعـنى أن كفاركم مثل أولئك بل شر منهم ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم أنزلت عليكم يا أهل مكة براءة فى الكتب المتقدمة أن من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنا من عذاب الله فأمنتم بتلك البراءة.

•• ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعة أمرنا ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نرام ولانضام.

•• ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ جمع أهل مكة ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أى: الأدبار كما قال: • كلوا فى بعض بطنكم تعفّوا • أى ينصرفون منهزمين يعنى يوم بدر وهذه من علامات النبوة.

•• ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عـذابهم بعـد بدر ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى﴾ أشد من مـوقف بدر، والداهية: الأمر المنكر الذى لا يهتدى لدوائه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقا من عذاب الدنيا، أو أشد من المرة.

---

(١) سورة «الرحمن»، الآية (١٣)، وغيرها.

(٢) سورة «المرسلات»، الآية (١٥)، وغيرها.

●● ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق فى الدنيا ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران فى الآخرة، أو فى هلاك ونيران.

●● ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ﴾ يجرون فيها ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب، لأن النار إذا أصابتهم بحرها فكأنها تمسهم مسا بذلك، وسقر غير منصرف للتأنيث والتعريف؛ لأنها علم لجهنم من سقرته النار إذا لوحته.

●● ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كل منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر، وقرئ بالرفع شاذا والنصب أولى؛ لأنه لو رفع لأمكن أن يكون خلقناه فى موضع الجر وصفا لشىء ويكون الخبر بقدر وتقديره إنا كل شىء مخلوق لنا كائن بقدر، ويحتمل أن يكون خلقناه هو الخبر، وتقديره إنا كل شىء مخلوق لنا بقدر فلما تردد الأمر فى الرفع عدل إلى النصب، وتقديره إنا خلقنا كل شىء بقدر فيكون الخلق عاما لكل شىء وهو المراد بالآية، ولا يجوز فى النصب أن يكون خلقناه صفة لشىء، لأنه تفسير الناصب والصفة لاتعمل فى الموصوف. والقدر والقدَر التقدير أى: بتقدير سابق أو خلقنا كل شىء مقدرا محكما مرتبا على حسب ما اقتضته الحكمة أو مقدرا مكتوبا فى اللوح معلوما قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه، قال أبو هريرة: جاء مشركو قريش إلى النبى (ﷺ) يخاصمونه فى القدر فنزلت الآية،(1) وكان عمر يحلف أنها نزلت فى القدرية.

●● ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إلا كلمة واحدة أى: وما أمرنا لشىء نريد تكوينه إلا أن نقول له كن فيكون ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ على قدر ما يلمح أحدكم ببصره، وقيل: المراد بأمرنا القيامة كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾(2).

●● ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم فى الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ.

●● ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أى: أولئك الكفار أى: وكل شىء مفعول لهم ثابت ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ فى دواوين الحفظة، ففعلوه فى موضع جر نعت لشىء، وفى الزبر خبر لكل.

●● ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال ومن كل ما هو كائن ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور فى اللوح.

●● ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ وأنهار اكتفى باسم الجنس، وقيل هو السعة والضياء ومنه النهار.

●● ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ فى مكان مرضى ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ عندية منزلة وكرامة لامسافة ومماسة ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ قادر وفائدة التنكير فيهما أن يعلم أن لا شىء إلا هو تحت ملكه وقدرته وهو على كل شىء قدير.

---

(1) لم أجده فى كتب الحديث، لكن عند الطبرى، من حديث أبى هريرة.

(2) سورة «النحل»، الآية (٧٧).

سورة الرحمن - جل وعلا - مكية، وهى ست وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ أى: الجنس، أو آدم، أو محمدا ـ عليهما السلام.

●● ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ عدّد الله عز وجل آلاءه فأراد أن يقدم أول شىء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وصنوف نعمائه وهى نعمة الدين فقد تم من نعمة الدين ما هو سنام فى أعلى مراتبها وأقصى مراقيها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه؟ لأنه أعظم وحى الله رتبة وأعلاه منزلة وأحسنه فى أبواب الدين أثرا وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار[1] عليها، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره، ثم أتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين، وليحيط علما بوحيه وكتبه وقدمّ ما خلق الإنسان من أجله عليه ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير، والرحمن مبتدأ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه.

●● ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بحساب معلوم وتقدير سوى يجريان فى بروجهما ومنازلهما، وفى ذلك منافع للناس منها علم السنين والحساب.

●● ﴿وَالنَّجْمُ﴾ النبات الذى ينجم من الأرض لاساق له كالبقول ﴿وَالشَّجَرُ﴾ لذى له ساق، وقيل: النجم نجوم السماء ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما خلقا له تشبيها بالساجد من المكلفين فى انقياده واتصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنوى لما علم أن الحسبان حسبانه والسجود له لا لغيره، كأنه قيل الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له، ولم يذكر العاطف فى الجمل الأولى، ثم جىء به بعد؛ لأن الأولى وردت على سبيل التعديد تبكيتا لمن أنكر آلاءه كما يبكت منكر أيادى المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه فى المثال المذكور، ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت فى وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعطف، وبيان التناسب أن الشمس والقمر سماويان، والنجم والشجر أرضيان فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل. وإن السماء والأرض لا تزالان تذكران قريتين وإن جرى الشمس والقمر يحسبان من جنس الانقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود النجم والشجر.

●● ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة مسموكة حيث جعلها منشأ أحكامه ومصدر قضاياه ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه، ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أى: كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان.

---

(١) أى: المهيمن. والأكثر تميزاً.

وقَرَسْطون[١]، ومكيال ومقياس أى: خلقه موضوعا على الأرض حيث علق به أحكام عباده من التسوية، والتعديل فى أخذهم وإعطائهم.

●● ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لئلا تطغوا، أو هى أن المفسرة.

●● ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ وقوّموا وزنكم بالعدل ﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذى هو اعتداء وزيادة، وعن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان، وكرر لفظ الميزان تشديدا للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه.

●● ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوّة على الماء ﴿لِلأَنَامِ﴾ للخلق وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة، وعن الحسن الإنس والجن فهى كالمهاد لهم يتصرفون فوقها.

●● ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ ضروب مما يتفكه به ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ هى أوعية الثمر الواحد كم بكسر الكاف، أو كل ما يكم أى يغطى من ليفه وسعفه وكفُراه[٢]، وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجمّاره[٣] وجذوعه.

●● ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع، أو التبن ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الرزق وهو اللب أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه، والجامع بين التلذذ والتغذى هو ثمر النخل وما يتغذى به وهو الحب. والريحان بالجر حمزة وعلى أى والحب ذو العصف الذى هو علف الأنعام، والريحان الذى هو مطعم الأنام، والرفع على وذو الريحان فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: معناه وفيها الريحان الذى يشم والحبَّ ذا العصف والريحانَ شامى أى وخلق الحب والريحان، أو وأخص الحب والريحان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ﴾ أى النعم مما عدد من أول السورة جمع ألَى وإلَى ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للثقلين بدلالة الأنام عليهما.

●● ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ طين يابس له صلصلة ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ أى: الطين المطبوخ بالنار، وهو الخزف ولا اختلاف فى هذا وفى قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٤] ﴿مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾[٥] من تراب[٦] لاتفاقها معنى؛ لأنه يفيد أنه خلقه من تراب ثم جعله طينا، ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا.

●● ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أبا الجن قيل: هو إبليس ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ هو اللهب الصافى الذى لادخان فيه،

---

(١) قرطسون: قبَّان.

(٢) كفّراه: أوعية طلع النخل.

(٣) الجمَّار: هو شحم النخلة.

القاموس (١/ ٣٩٣).

(٤) سورة «الحجر»، الآيات (٢٦)، (٢٨)، (٣٣).

(٥) سورة «الصافات»، الآية (١١).

(٦) مواضع كثيرة؛ منها: آل عمران (٥٩)، والكهف (٣٧).

وقيل: المختلط بسواد النار من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط ﴿مِّن نَّارٍ﴾ هو بيان لمارج كأنه قيل من صاف من نار أو مختلط من نار أو أراد من نار مخصوصة كقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ﴾[1] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أراد مشرقى الشمس فى الصيف والشتاء ومغربيهما ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أى أرسل البحر الملح البحر العذب متجاورين متلاقيين لافصل بين الماءين فى مرأى العين.

●● ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوزان حديهما ولا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿يَخْرُجُ﴾ يخرج مدنى وبصرى ﴿مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ بلا همز أبو بكر ويزيد، وهوكبار الدر ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ صغاره، وإنما قال منهما وهما يخرجان من الملح، لأنهما لما التقيا وصارا كالشىء الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما، كما يقال يخرجان من البحر ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه وتقول: خرجت من البلد، وإنما خرجت من محلة من محاله، وقيل: لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿وَلَهُ﴾ ولله ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن جمع جارية قال الزجاج: الوقف عليها بالياء، والاختيار وصلها، وإن وقف عليها واقف بغير ياء فذا جائز على بعد ولكن يروم الكسر فى الراء؛ ليدل على حذف الياء ﴿الْمُنشَآتُ﴾ المرفوعات الشرعُ المنشآت بكسر الشين حمزة ويحيى الرافعات الشرع، أو اللاتى ينشئن الأمواج بجريهن ﴿فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ جمع علم وهو الجبل الطويل ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ على الأرض ﴿فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاته ﴿ذُو الْجَلالِ﴾ ذو العظمة والسلطان وهو صفة الوجه ﴿وَالإِكْرَامِ﴾ بالتجاوز والإحسان، وهذه الصفة من عظيم صفات الله وفى الحديث: «ألظّوا بياذا الجلال والإكرام»[2]، وروى أنه ـ عليه السلام ـ مر برجل وهو يصلى ويقول: ياذا الجلال والإكرام فقال: قد استجيب لك[3].

●● ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة فى الفناء باعتبار أن المؤمنين به يصلون إلى النعيم السرمد، وقال يحيى بن معاذ: حبذا الموت فهو الذى يقرب الحبيب إلى الحبيب.

---

(١) سورة «الليل»، الآية (١٤).

(٢) الحديث عند الترمذى، من حديث أنس.

(٣) الحديث عند الترمذى وأحمد، وعند البخارى فى «الأدب المفرد».

●● ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقف عليها نافع كل من أهل السموات والأرض مفتقرون إليه فيسأله أهل السموات ما يتعلق بدينهم وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم، وينتصب ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظرفا بمادل عليه ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أى: كل وقت، وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا، كما روى أنه - عليه السلام - تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين»[1] وعن ابن عيينة: الدهر عند الله يومان أحدهما اليوم الذى هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، والآخر: يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب، وقيل: نزلت فى اليهود حين قالوا إن الله لا يقضى يوم السبت شأنا، وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية فاستمهله إلى الغد وذهب كئيبا يفكر فيها فقال غلام له أسود: يا مولاى أخبرنى ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدى فأخبره فقال: أنا أفسرها للملك فأعلمه فقال: أيها الملك شأن الله أنه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، ويشفى سقيما ويسقم سليما، ويبتلى معافى ويعافى مبتلى، ويعز ذليلا ويذل عزيزا، ويفقر غنيا ويغنى فقيرا، فقال الأمير: أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة، فقال: يا مولاى هذا من شأن الله، وقيل: سوق المقادير إلى المواقيت، وقيل: إن عبدالله ابن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت علىّ ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لى قوله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[2] وقد صح أن الندم توبة[3] وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة[4] وقوله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[5] فما بال الأضعاف فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة فى تلك الأمة وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله، وكذا قيل وأن ليس للإنسان إلا ما سعى مخصوص بقوم إبراهيم وموسى - عليهما السلام - وأما قوله: كل يوم هو فى شأن فإنها شئون يبديها لاشئون يبتديها فقام عبدالله وقبل رأسه وسوغ خراجه[6] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده سأفرغ لك يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنه، والمراد: التوفر على النكاية فيه والانتقام منه، ويجوز أن يراد ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التى أرادها بقوله كل يوم هو فى شأن فلا يبقى إلى

---

(١) الحديث عند ابن ماجة وابن حبان، وغيرهما، من حديث أبى الدرداء.

(٢) سورة «المائدة»، الآية (٣١).

(٣) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٤/١٠٣٠١، ١٠٣٠٣).

(٤) الحديث عند النسائى، من حديث أبى هريرة.

(٥) سورة «النجم»، الآية (٣٩).

(٦) سوَّغ: أراحه منه، وأسقطه عنه.

شأن واحد وهو جزاؤكم، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل. سيفرغ حمزة وعلى أى الله تعالى ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ الإنس والجن سميا بذلك؛ لأنهما ثقلا الأرض ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ هو كالترجمة لقوله أيها الثقلان ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ أى: إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هربا من قضائى فاخرجوا، ثم قال: ﴿لا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ بقوة وقهر وغلبة وأنى لكم ذلك، وقيل: دلهم على العجز عن قوتهم للحساب غدا بالعجز عن نفوذ الأقطار اليوم، وقيل: يقال لهم هذا يوم القيامة حين تحدق بهم الملائكة فإذا رآهم الجن والإنس هربوا فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة احتاطت به ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ وبكسر الشين مكى وكلاهما اللهب الخالص ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أى: دخان ونحاس مكى وأبو عمرو فالرفع عطف على شواظ والجر على نار والمعنى: إذا خرجتم من قبوركم يرسل عليكما لهب خالص من النار ودخان يسوقكم إلى المحشر ﴿فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تمتنعان منهما ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ انفك بعضها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر، وقيل: أصل لون السماء الحمرة ولكن من بعدها ترى زرقاء ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت كما قال: ﴿كَالْمُهْلِ﴾(١) وهو دردى الزيت وهو جمع دهن، وقيل: الدهان الأديم الأحمر ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أى: فيوم تنشق السماء ﴿لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ﴾ أى: ولا جن فوضع الجان الذى هو أبو الجن موضع الجن كما يقال هاشم ويراد ولده والتقدير: لا يسأل إنس ولا جان عن ذنبه، والتوفيق بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢) وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾(٣) أن ذلك يوم طويل، وفيه مواطن فيسئلون فى موطن ولا يسئلون فى آخر، وقال قتادة: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وقيل لا يسئل عن ذنبه ليعلم من جهته ولكن يسئل للتوبيخ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ أى: يؤخذ تارة بالنواصى وتارة بالأقدام ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ ماء حار قد انتهى

---

(١) سورة «المعارج»، الآية (٨). (٢) سورة «الحجر»، الآية (٩٢).
(٣) سورة «الصافات»، الآية (٢٤).

حره أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والنعمة فى هذا نجاة الناجى منه بفضله ورحمته، وما فى الإنذار به من التنبيه.

•• ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة فترك المعاصى، أو فأدى الفرائض، وقيل: هو مقحم كقوله ونفيت عنه مقام الذنب أى نفيت عنه الذنب ﴿جَنَّتَانِ﴾ جنة الإنس وجنة الجن؛ لأن الخطاب للثقلين وكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان جنة للخائف الإنسى وجنة للخائف الجنى ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

•• ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أغصان جمع فنن وخص الأفنان؛ لأنها هى التى تورق وتثمر فمنها تمتد الظلال ومنها تجتنى الثمار أو ألوان جمع فن أى له فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين قال:

ومن كل أفنان اللذاذة والصبا   لهوت به والعيش أخضر ناضر

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

•• ﴿فِيهِمَا﴾ فى الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاءوا فى الأعالى والأسافل، وعن الحسن: تجريان بالماء الزلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

•• ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان صنف معروف وصنف غريب ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

•• ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ نصب على المدح للخائفين، أو حال منهم؛ لأن من خاف فى معنى الجمع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ جمع فراش ﴿بَطَائِنُهَا﴾ جمع بطانة ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ ديباج ثخين، وهو معرب قيل: ظهائرها من سندس، وقيل: لا يعلمها إلا الله ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ وثمرها قريب يناله القائم والقاعد والمتكىء ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

•• ﴿فِيهِنَّ﴾ فى الجنتين لاشتمالهما على أماكن وقصور ومجالس، أو فى هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ بكسر الميم الدورى، وعلى بضم الميم، والطمث: الجماع بالتدمية ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ وهذا دليل على أن الجن يطمثون كما يطمث الإنس ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

•• ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ﴾ صفاء ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ بياضا فهو أبيض من اللؤلؤ ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ﴾ فى العمل ﴿إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ فى الثواب وقيل ما جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة، وعن إبـراهيم الخواص[١]: فيـه هل جزاء الإسلام إلا دار السـلام ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ ومن دون تيـنك الجنتين الموعودتين للمـقربين ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونهـم من أصحاب اليمين ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ سوداوان مـن شدة الخضـرة قال الخلـيل: الـدهمة الـسواد ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء لا تنقطعان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ ألوان الفواكه ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ والرمان والتـمر ليسا من الفواكـه عند أبى حنيفة ـ رضى الله تعالى عـنه ـ للعطف، ولأن التمر فاكهة وغذاء والرمان فاكـهة ودواء فلم يخلصا للتفكه وهـما قالا إنما عطفا على الفـاكهة لفضلهما كأنهـما جنسان آخران لما لهما مـن المزية كقوله ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[٢] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ أى: خيرات فخففت وقرىء خيّـرات على الأصل والمعنى فاضلات الأخلاق حسان الخلق ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ أى: مخدرات يقال: امرأة قصيـرة ومقصورة أى مخدرة قيل: الخيام من الدر المجوف ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ قبل أصحاب الجنتين ودل عليهم ذكر الجنتين ﴿وَلا جَانٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

●● ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ نصب علـى الاختصاص ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ هو كل ثـوب عريض، وقيل: الـوسائد ﴿خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ ديباج، أو طنافس ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأولين حتى قيل ومن دونهمـا، لأن مدهامتان دون ذواتا أفنان ونضاختان دون تجريان وفاكهة دون كل فاكهة وكذلك صفة الحور والمتكأ.

---

(١) هو الصوفى الـشهير، إبراهيم بن أحمد بـن إسماعيل، أبو إسحاق، الشهـير بـ «الخوّاص»، من كبار الصوفية على مدى عصورها، ورأسهم فى عصره، زاهد من أقران الجنيد. توفى عام ٢٩١هـ. الأعلام (١/ ٢٨).

(٢) سورة «البقرة»، الآية (٩٨).

•• ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ﴾ ذى العظمة ذو الجلال شامى صفة للاسم ﴿وَالإِكْرَامِ﴾ لأوليائه بالإنعام، روى جابر أن النبى (ﷺ) قرأ سورة الرحمن فقال: «مالى أراكم سكوتا الجن كانوا أحسن منكم ردا ما أتيت على قول الله فبأى آلآءربكما تكذبان إلا قالوا: ولا بشىءمن نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ولك الشكر»[1]. وكررت هذه الآية فى هذه السورة إحدى وثلاثين مرة ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عاد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية فى وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فتحت له أبواب الجنة وأغلقت عنه أبواب جهنم نعوذ بالله منها، والله أعلم.

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١/ ٢٨٢٣، ٤١٤٦).

(سورة الواقعة ـ سبع وتسعون آية ـ مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة، وقيل: وصفت بالوقوع؛ لأنها تقع لا محالة فكأنه قيل: إذا وقعت الواقعة التى لابد من وقوعها ووقوع الأمر نزوله يقال وقع ما كنت أتوقعه أى نزل ما كنت أترقب نزوله وانتصاب إذا بإضمار اذكر.

●● ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ نفس كاذبة أى: لا تكون حين تقع نفس تكذب على الله وتكذب فى تكذيب الغيب؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات، واللام مثلها فى قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[1].

●● ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أى: هى خافضة رافعة ترفع أقواما وتضع آخرين.

●● ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ حركت تحريكا شديدا حتى ينهدم كل شىء فوقها من جبل وبناء، وهو بدل من إذا وقعت، ويجوز أن ينتصب بخافضة رافعة أى تخفض وترفع وقت رجّ الأرض وبسّ الجبال.

●● ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ وفتتت حتى تعود كالسويق أو سيقت من بس الغنم إذا ساقها كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾[2].

●● ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ غبارا ﴿مُّنبَثًّا﴾ متفرقا.

●● ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافا يقال للأصناف التى بعضها من بعض، أو يذكر بعضها مع بعض أزواج ﴿ثَلَاثَةً﴾ صنفان فى الجنة وصنف فى النار ثم فسر الأزواج فقال.

●● ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ وخبر، وهما خبر المبتدأ الأول وهو تعجيب من حالهم فى السعادة وتعظيم لشأنهم كأنه قال: ما هم وأى شىء هم؟.

●● ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أى: الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة من قولك فلان منى باليمين. وفلان منى بالشمال إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة؛ وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل، وقيل: يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين، ويأهل النار ذات الشمال ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أى أىُّ شىء هم، وهو تعجيب من حالهم بالشقاء.

---

(١) سورة «الفجر»، الآية (٢٤).

(٢) سورة «النبأ»، الآية (٢٠).

●● ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ مبتدأ ﴿السَّابِقُونَ﴾ خبره تقديره السابقون إلى الخيرات السابقون إلى الجنات وقيل الثانى تأكيد للأول والخبر ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ والأول أوجه ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى: هم فى جنات النعيم.

●● ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ أى: هم ثلة: والثلة: الأمة من الناس الكثيرة والمعنى أن المسابقين كثير من الأولين وهم الأمم من لدن آدم إلى نبينا محمد ـ عليه السلام ـ وقليل من الآخرين وهم أمة محمد (ﷺ) وقيل من الأولين من متقدمى هذه الأمة ومن الآخرين من متأخريها وعن النبى (ﷺ): «الثلتان جميعا من أمتى»(١).

●● ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ جمع سرير ككثيب وكثب ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مرمولة ومنسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت.

●● ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من الضمير فى على وهو العامل فيها أى استقروا عليها متكئين ﴿عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم فى وجوه بعض ولا ينظر بعضهم فى أقفاء بعض، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة ومتقابلين حال أيضاً.

●● ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يخدمهم ﴿وِلْدَانٌ﴾ غلمان جمع وليد ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مبقون أبدا على شكل الولدان لا يتحولون عنه، وقيل مفرطون والخلدة القرط قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها وفى الحديث: أولاد الكفار خدام أهل الجنة»(٢).

●● ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ جمع كوب وهى آنية لا عروة لها ولا خرطوم ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق وهو ماله خرطوم وعروة ﴿وَكَأْسٍ﴾ وقدح فيه شراب وإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمر تجرى من العيون.

●● ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أى: بسببها وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها أولا يفرقون عنها ﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ ولا يسكرون نزف الرجل ذهب عقله بالسكر ولا ينزفون بكسر الزاى كوفى أى لا ينفد شرابهم، يقال: أنزف القوم إذا فنى شرابهم.

●● ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخذون خيره وأفضله ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يتمنون.

●● ﴿وَحُورٌ﴾ جمع حوراء ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء أى: وفيها حور عين أو ولهم حور عين، ويجوز أن يكون عطفا على ولدان، وحورٍ يزيد وحمزة وعلى عطفا على جنات النعيم كأنه قال هم فى جنات النعيم وفاكهة ولحم وحورٍ ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ فى الصفاء والنقاء ﴿الْمَكْنُونِ﴾ المصون، وقال الزجاج: كأمثال الدر حين يخرج من صدفه لم يغيره الزمان واختلاف أحوال الاستعمال ﴿جَزَاءً بِمَا

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

(٢) الحديث عند الطبرانى فى «الأوسط»، وعند البزار، من حديث سمرة بن جندب، رضى الله عنه.

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء مفعول له أى يفعل بهم ذلك كله لجزاء أعمالهم، أو مصدر أى يجزون جزاء.

●● ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿لَغْوًا﴾ باطلا ﴿وَلا تَأْثِيمًا﴾ هذيانا ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ إلا قولا ذا سلامة، والاستثناء منقطع وسلاما بدل من قيلا أو مفعول به لقيلا، أى: لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما، والمعنى: أنهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاما بعد سلام.

●● ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر شجر النبق والمخضود الذى لا شوك له كأنما خضد شوكه.

●● ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجر الموز والمنضود الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة.

●● ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتد منبسط كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

●● ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ جار بلا حد ولاخد أى يجرى على الأرض فى غير أخدود.

●● ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى: كثيرة الأجناس ﴿لا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع فى بعض الأوقات كفواكه الدنيا بل هى دائمة ﴿وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ لاتمنع عن متناولها بوجه، وقيل: لا مقطوعة بالأزمان ولا ممنوعة بالأثمان.

●● ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر، أو نضدت حتى ارتفعت، أو مرفوعة على الأسرة، وقيل: هى النساء؛ لأن المرأة يكنى عنها بالفراش مرفوعة على الأرائك قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾(١) ويدل عليه قوله.

●● ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ ابتدأنا خلقهن ابتداء من غير ولادة فإما أن يراد اللاتى ابتدئ انشاؤهن، أو اللاتى أعيد انشاؤهن وعلى غير هذا التأويل أضمر لهن، لأن ذكر الفرش وهى المضاجع دل عليهن.

●● ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا.

●● ﴿عُرُبًا﴾ عرباً حمزة وخلف ويحيى وحماد جمع عروب، وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات فى السن بنات ثلاث وثلاثين وأزواجهن كذلك، واللام فى ﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ من صلة أنشأنا.

●● ﴿ثُلَّةٌ﴾ أى: أصحاب اليمين ثلة ﴿مِّنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ فإن قلت كيف قال قبل هذا وقليل من الآخرين، ثم قال هنا وثلة من الآخرين قلت ذاك فى السابقين، وهذا فى أصحاب اليمين وأنهم يتكاثرون من الأولين والآخرين جميعا، وعن الحسن: سابقوا الأمم أكثر من سابقى أمتنا وتابعو الأمم مثل تابعى هذه الأمة.

---

(١) سورة «يس»، الآية (٥٦).

●● ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ الشمال والمشأمة واحدة ﴿فِي سَمُومٍ﴾ فى حر نار ينفذ فى المسام ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء حار متناهى الحرارة ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخان أسود ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نفى لصفتى الظل عنه يريد أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال سماه ظلاثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه من يأوى إليه من أذى الحر، وذلك كرمه ليمحق ما فى مدلول الظل من الاسترواح إليه، والمعنى أنه ظل حار ضار.

●● ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعمين فمنعهم ذلك من الانزجار وشغلهم عن الاعتبار ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ يداومون ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أى: على الذنب العظيم أو على الشرك، لأنه نقض عهد الميثاق والحنث نقض العهد المؤكد باليمين أو الكفر بالبعث بدليل قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾(1) ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تقديره أنبعث إذا متنا وهو العامل فى الظرف وجاز حذفه إذ مبعوثون يدل عليه ولا يعمل فيه مبعوثون، لأن إن والاستفهام يمنعان أن يعمل ما بعدهما فيما قبلهما ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف وحسن العطف على المضمر فى لمبعوثون من غير توكيد بنحن للفاصل الذى هو الهمزة كما حسن فى قوله: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾(2) لفصل لا المؤكدة للنفى. أو آباؤنا مدنى وشامى.

●● ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ماوقتت به الدنيا من يوم معلوم، والإضافة بمعنى من كخاتم فضة والميقات ماوقت به الشىء أى حد ومنه مواقيت الإحرام وهى الحدود التى لا يجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما.

●● ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن الهدى ﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبعث وهم أهل مكة ومن فى مثل حالهم ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ﴾ من لابتداء الغاية ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ من لبيان الشجر ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ أنث ضمير الشجر على المعنى وذكره على اللفظ فى منها وعليه ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ﴾ بضم الشين مدنى وعاصم وحمزة وسهل وبفتح الشين غيرهم، وهما مصدران ﴿الْهِيمِ﴾ هى إبل عطاش لاتروى جمع أهيم وهيماء، والمعنى: أنه يسلط عليهم من الجوع مايضطرهم إلى أكل الزقوم الذى هو كالمهل، فإذا ملئوا منه البطون سلط عليهم من العطش مايضطرهم إلى شرب الحميم الذى يقطع أمعاءهم فيشربونه شرب الهيم، وإنما صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة وصفتان متفقتان؛ لأن كونهم شاربين للحميم على ماهو عليه من

(1) سورة «النحل»، الآية (38).

(2) سورة «الأنعام»، الآية (148).

تناهى الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضا فكانتا صفتين مختلفتين.

●● ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ﴾ هو الرزق الذى يعد للناس تكرمة له ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء.

●● ﴿نحنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا﴾ فهلا ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيض على التصديق إما بالخلق؛ لأنهم وإن كانوا مصدقين به إلا أنه لما كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به وإما بالبعث، لأن من خلق أولا لم يمتنع عليه أن يخلق ثانيا.

●● ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تمنونه أى: تقذفونه فى الأرحام من النطف ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ تقدرونه وتصورونه وتجعلونه بشرا سويا ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

●● ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ تقديرا قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط ـ قدرنا بالتخفيف مكى. سبقته بالشىء إذا أعجزته عنه وغلبته عليه فمعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ إنا قادرون على ذلك لاتغلبوننا عليه وأمثالكم جمع مثل أى على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وعلى أن ننشئكم فى خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها، يعنى: أنا نقدر على الأمرين جميعا على خلق ما يماثلكم ومالا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم، ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل أى على أن نبدل ونغير صفاتكم التى أنتم عليها فى خلقكم وأخلاقكم وننشئكم فى صفات لا تعلمونها.

●● ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ﴾ النشاءة مكى وأبو عمرو ﴿فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ أن من قدر على شىء مرة لم يمتنع عليه ثانيا وفيه دليل صحة القياس حيث جهلهم فى ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى.

●● ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ما تحرثونه من الطعام أى تثيرون الأرض وتلقون فيها البذر ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تنبتونه وتردونه نباتا ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون، وفى الحديث: «لايقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت»(١) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ هشيماً متكسرا قبل إدراكه ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبون أو تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه أو على ما اقترفتم من المعاصى التى أصبتم بذلك من أجلها ﴿إِنَّا﴾ أى: تقولون إنا، أئنا أبو بكر ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا، أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام وهو الهلاك ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قوم ﴿مَحْرُومُونَ﴾ محارفون محدودون لا مجدودون لاحظ لنا ولابخت لنا ولو كنا مجدودين لما جرى علينا هذا.

---

(١) الحديث عند الطبرانى، وغيره، من حديث أبى هريرة.

●● ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي: الماء العذب الصالح للشرب ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ السحاب الأبيض، وهو أعذب ماء ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ بقدرتنا ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ملحا، أو مرا لا يقدر على شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلا تشكرون، ودخلت اللام على جواب لو في قوله: «لجعلناه حطاما» ونزعت منه هنا لأن لو لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مخلصة الشرط كإن ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك، ولما شهر موقعه لم يبال بإسقاطه عن اللفظ لعلم كل أحد به وتساوي حالي حذفه وإثباته على أن تقدم ذكرها والمسافة قصيرة مغن عن ذكرها ثانية، ولأن هذه اللام تفيد معنى التأكيد لامحالة فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن المطعوم مقدم على أمر المشروب، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب.

●● ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمون الأعلى الزند والأسفل الزندة شبهوهما بالفحل والطروقة (١) ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ التي منها الزناد ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ الخالقون لها ابتداء ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ أي: النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكيرا لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعاش وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به ﴿وَمَتَاعًا﴾ ومنفعة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرين النازلين في القواء وهي القفر، أو للذين خلت بطونهم، أو مزاودهم من الطعام من قولهم أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها، بدأ بذكر خلق الإنسان فقال أفرأيتم ما تمنون، لأن النعمة فيه سابقة على جميع النعم، ثم بما فيه قوامه وهو الحب فقال: أفرأيتم ما تحرثون، ثم بما يعجن به ويشرب عليه وهو الماء، ثم بما يخبز به وهو النار فحصول الطعام بمجموع الثلاثة ولا يستغني عنه الجسد مادام حيا ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فنزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل، أو أراد بالاسم الذكر أي فسبح بذكر ربك ﴿الْعَظِيمِ﴾ صفة للمضاف، أو للمضاف إليه وقيل: قل سبحان ربي العظيم وجاء مرفوعا أنه لما نزلت هذه الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم»(٢).

●● ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ أي فأقسم ولا مزيدة مؤكدة مثلها في قوله ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾(٣) وقرىء فلأقسم ومعناه فلأنا أقسم اللام لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر وهي أنا أقسم، ثم

---

(١) الفحل: الذكر البالغ من الحيوان، المأكول منه غالباً.
الطروقة: أنثاه البالغة.

(٢) الحديث عند الحاكم في «المستدرك»، وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

(٣) سورة «الحديد»، الآية (٢٩).

حذف المبتدأ، ولا يصح أن تكون اللام لام القسم، لأن حقها أن تقرن بها النون المؤكدة ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها ومغاربها بموقع حمزة وعلى، ولعل الله تعالى فى آخر الليل إذا انحطت النجوم إلى المغرب أفعالا مخصوصة عظيمة أو للملائكة عبادات موصوفة، أو لأنه وقت قيام المتهجدين ونزول الرحمة والرضوان عليهم فلذلك أقسم بمواقعها واستعظم ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وهو اعتراض فى اعتراض؛ لأنه اعترض به بين القسم والمقسم عليه وهو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ حسن مرضى، أو نفاع جم المنافع، أو كريم على الله واعترض بلو تعلمون بين الموصوف وصفته ﴿فِي كِتَابٍ﴾ أى: اللوح المحفوظ ﴿مَّكْنُونٍ﴾ مصون عن أن يأتيه الباطل، أو من غير المقربين من الملائكة لا يطلع عليه من سواهم ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ من جميع الأدناس أدناس الذنوب وغيرها إن جعلت الجملة صفة لكتاب مكنون وهو اللوح، وإن جعلتها صفة للقرآن فالمعنى لا ينبغى أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، والمراد مس المكتوب منه ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفة رابعة للقرآن أى منزل ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أو وصف بالمصدر، لأنه نزل نجوما من بين سائر كتب الله فكأنه فى نفسه تنزيل؛ ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه فقيل جاء فى التنزيل كذا ونطق به التنزيل، أو هو تنزيل على حذف المبتدأ.

●● ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أى: القرآن ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ متهاونون به كمن يدهن فى بعض الأمر أى بلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاونا به ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أى: تجعلون شكر رزقكم التكذيب أى: وضعتم التكذيب موضع الشكر، وفى قراءة على - رضى الله عنه - وهى قراءة رسول الله (ﷺ): وتجعلون شكركم أنكم تكذبون، أى تجعلون شكركم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به، وقيل نزلت فى الأنواء ونسبتهم السقيا إليها والرزق المطر أى وتجعلون شكر ما يرزقكم الله من الغيث أنكم تكذبون بكونه من الله حيث تنسبونه إلى النجوم.

●● ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس أى: الروح عند الموت ﴿الْحُلْقُومَ﴾ ممر الطعام والشراب ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ الخطاب لمن حضر الميت تلك الساعة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر ﴿مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ لاتعقلون ولا تعلمون.

●● ﴿فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ تردون النفس وهى الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنكم غير مربوبين مقهورين فلولا فى الآيتين للتحضيض يستدعى فعلا وذا قوله ترجعونها واكتفى بذكره مرة، وترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين، وفلولا الثانية مكررة للتأكيد، ونحن أقرب إليه منكم يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا، أو بملائكة الموت، والمعنى أنكم فى جحودكم آيات الله فى كل شىء، إن أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم سحر وافتراء وإن أرسل إليكم رسولا صادقا

قلتم ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرا يحييكم بـه قلتم صدق نوء كذا على مذهب يؤدى إلى الإهمال والتعطيل، فما لكـم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يـكن ثمة قابض وكنتم صادقين فى تعطيلكم وكفركم بالمحيى المميت المبدئ المعيد.

•• ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من السابـقين من الأزواج الثلاثة المـذكورة فى أول السورة ﴿فَرَوْحٌ﴾ فله استراحة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

•• ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أى: فسلام لك ياصاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين أى: يسلمون عليك كقوله ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾(١).

•• ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة وهم الذين قيل لهم فى هذه السورة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾(٢) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أى إدخال فيها وفى هذه الآيات إشارة إلى أن الكفر كله ملـة واحدة وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين؛ لأنهم غير مكذبين.

•• ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذى أنزل فى هذه السورة ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أى الحق الثابت من اليقين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ روى أن عثمان بن عـفان ـ رضى الله عنه ـ دخل على ابـن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فى مرض موته فقـال له: ما تشتكى فقال: ذنوبى فقال: ما تشـتهى؟ قال: رحمة ربى، قال: أفلا تدعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضنى، فقال، ألا نأمر بعطائك؟ قال، لا حاجة لى فيه، قال: ندفعه إلى بناتك، قال: لا حاجة لهن فيه قد أمـرتهن أن يقرأن سورة الواقعة، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مـن قرأ سورة الواقعـة فى كل ليلـة لم تصبه فـاقة أبدا»(٣) وليس فى هـذه السور الثلاث ذكر الله: اقتربت، الرحمن، الواقعة، والله أعلم.

---

(١) سورة «الواقعة»، الآية (٢٦).

(٢) سورة «الواقعة»، الآية (٥١).

(٣) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١/ ٢٦٤٠١،٢٧٠١).

(سورة الحديد مكية، وهى تسع وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جاء فى بعض الفواتح سبح بلفظ الماضى، وفى بعضها بلفظ المضارع، وفى بنى إسرائيل بلفظ المصدر، وفى الأعلى بلفظ الأمر استيعادا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهى أربع: المصدر والماضى والمضارع والأمر، وهذا الفعل قد عدى باللام تارة وبنفسه أخرى فى قوله ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾[1] وأصله التعدى بنفسه، لأن معنى سبحته بعدته من السوء منقول من سبح إذا ذهب وبعد، فاللام إما أن تكون مثل اللام فى نصحته ونصحت له، وإما أن يراد بسبح الله اكتسب التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصا ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما يتأتى منه التسبيح ويصح ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المنتقم من مكلف لم يسبح له عنادا ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى مجازاة من سبح له انقيادا.

•• ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا لغيره وموضع ﴿يُحْيِي﴾ رفع أى هو يحيى الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء، أو نصب أى له ملك السموات والأرض محييا ومميتا ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

•• ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ هو القديم الذى كان قبل كل شىء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذى يبقى بعد هلاك كل شىء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ بالأدلة الدالة عليه ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس وإن كان مرئيا، والواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين فهو مستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية، والآتية وهو فى جميعها ظاهر وباطن، وقيل: الظاهر العالى على كل شىء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه، الباطن الذى بطن كل شىء أى علم باطنه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

•• ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عن الحسن من أيام الدنيا ولو أراد أن يجعلها فى طرفة عين لفعل ولكن جعل الستة أصلا ليكون عليها المدار ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ استولى ﴿عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ ما يدخل فى الأرض من البذر والقطر والكنوز والموتى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات وغيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأمطار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأعمال والدعوات ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بالعلم والقدرة عموما وبالفضل والرحمة خصوصا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

---

(١) سورة «الفتح»، الآية (٩).

●● ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يدخل الليل فى النهار بأن ينقص من الليل ويزيد فى النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

●● ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا﴾ يحتمل الزكاة والإنفاق فى سبيل الله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعنى أن الأموال التى فى أيديكم إنما هى أموال الله بخلقه وإنشائه لها، وإنما مولكم إياها للاستمتاع بها وجعلكم خلفاء فى التصرف فيها فليست هى بأموالكم فى الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة الوكلاء والنواب فأنفقوا منها فى حقوق الله تعالى، وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أذن له فيه، أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما فى أيديكم بتوريثه إياكم وسينقله منكم إلى من بعدكم فاعتبروا بحالهم ولا تبخلوا به ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله ﴿مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

●● ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ هو حال من معنى الفعل فى مالكم كما تقول مالك قائما بمعنى ما تصنع قائما، أى ومالكم كافرين بالله، والواو فى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال فهما حالان متداخلتان، والمعنى وأى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(1) أو بما ركب فيكم من العقول ومكنكم من النظر فى الأدلة فإذا لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول فما لكم لا تؤمنون ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا الموجب لا مزيد عليه أخذ ميثاقكم أبو عمرو.

●● ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد (ﷺ) ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعنى القرآن ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله تعالى، أو محمد بدعوته ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ﴾ بالمد والهمزة حجازى وشامى وحفص ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرأفة أشد الرحمة.

●● ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا﴾ فى أن لا تنفقوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كل شىء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره، يعنى: وأى غرض لكم فى ترك الإنفاق فى سبيل الله والجهاد مع رسوله والله مهلككم فوارث أموالكم، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق فى سبيل الله ثم بين التفاوت بين المنفقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أى فتح مكة قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس فى دين الله أفواجا، ومن أنفق من بعد الفتح فحذف، لأن قوله من الذين أنفقوا من بعد يدل عليه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين قال فيهم النبى (ﷺ): «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»(2).

---

(1) سورة «الأعراف»، الآية (١٧٢).

(2) الحديث متفق عليه، من حديث أبى سعيد الخدرى.

•• ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً﴾ أى: كل واحد من الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: المثوبة الحسنى، وهى الجنة مع تفاوت الدرجات، وكلا مفعول أول لوعد والحسنى مفعول ثان، وكل شامى أى وكل وعده الله الحسنى. نزلت فى أبى بكر - رضى الله عنه - لأنه أول من أسلم وأول من أنفق فى سبيل الله وفيه دليل على فضله وتقدمه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم.

•• ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ بطيب نفسه والمراد الإنفاق فى سبيله، واستعير لفظ القرض ليدل على التزام الجزاء ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أى: يعطيه أجره على إنفاقه أضعافا مضاعفة من فضله ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أى: وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم فى نفسه فيضعّفُهُ مكى، فيضعّفَهُ شامى، فيضاعفَهُ عاصم وسهل، فيضاعفُهُ غيرهم فالنصب على جواب الاستفهام، والرفع على فهو يضاعفه، أو عطف على يقرض.

•• ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله وله أجر كريم أو منصوب بإضمار اذكر تعظيما لذلك اليوم ﴿يَسْعَىٰ﴾ يمضى ﴿نُورُهُم﴾ نور التوحيد والطاعات وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم فيجعل النور فى الجهتين شعارا لهم وآية، لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون سعى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ أى: دخول جنات، لأن البشارة تقع بالأحداث دون الجثث ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

•• ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ هو بدل من يوم ترى ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾أى انتظرونا؛ لأنه يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة. أنظرونا حمزة من النظرة وهى الإمهال جعل اتئادهم فى المضى إلى أن يلحقوا بهم إنظارا لهم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به ﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ طردلهم وتهكم بهم أى تقول لهم الملائكة أو المؤمنون ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك فمن ثم يقتبس، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الإيمان ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار، قيل: هو الأعراف ﴿لَّهُ﴾ لذلك السور ﴿بَابٌ﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطن السور، أو الباب، وهو الشق الذى يلى الجنة ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أى: النور أو الجنة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ ماظهر لأهل النار ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ من عنده ومن جهته ﴿الْعَذَابُ﴾ أى: الظلمة، أو النار.

●● ﴿يُنَادُونَهُم﴾ أى ينادى المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُم﴾ يريدون مرافقتهم فى الظاهر ﴿قَالُوا﴾ أى: المؤمنون ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُم﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككتم فى التوحيد ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ طول الآمال والطمع فى امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لايعذبكم أو بأنه لابعث ولا حساب.

●● ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ وبالتاء شامى ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ مرجعكم ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ هى أولى بكم وحقيقة مولاكم محراكم أى مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما يقال هو مئنة للكرم أى مكان لقول القائل إنه لكريم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار.

●● ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ من أنى الأمر يأنى إذا جاء إناه أى وقته قيل: كانوا مجدبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت، وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين،(١) وعن ابن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ إن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة فبكوا بكاء شديدا فنظر إليهم فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾بالتخفيف نافع وحفص الباقون نزّل، وما بمعنى الذى والمراد بالذكر وما نزل من الحق القرآن، لأنه جامع للأمرين للذكر والموعظة، وأنه حق نازل من السماء ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ القراءة بالياء عطف على تخشع وبالتاء ورش على الالتفات، ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب بعد أن وبخوا، وذلك أن بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ الأجل، أو الزمان ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضون لما فى الكتابين أى وقليل منهم مؤمنون.

●● ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قيل هذا تمثيل لأثر الذكر فى القلوب وأنه يحييها كما يحيى الغيث الأرض.

●● ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ بتشديد الدال وحده مكى وأبو بكر وهو اسم فاعل من صدق وهم الذين صدقوا الله ورسوله يعنى المؤمنين. الباقون بتشديد الصاد والدال وهو اسم فاعل من

---

(١) الحديث عند مسلم، وكذا الحاكم؛ أبو عبدالله.

تصدق فأدغمت التاء فى الصاد وقرئ على الأصل ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هو عطف على معنى الفعل فى المصدقين، لأن اللام بمعنى الذين واسم الفاعل بمعنى الفعل وهو اصدقوا، كأنه قيل: إن الذين اصدّقوا وأقرضوا والقرض الحسن أن يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ يضعّف مكى وشامى ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أى الجنة.

•• ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يريد أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أى: مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم، ويجوز أن يكون والشهداء مبتدأ ولهم أجرهم خبره ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

•• ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الفتيان ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدهقان[1] ﴿فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أى مباهاة بهما والتكاثر ادعاء الاستكثار ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ متفتتا شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة حدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى وقوى وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين، وقيل: الكفار الزراع ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ للمؤمنين يعنى أن الدنيا وما فيها ليست إلا من محقرات الأمور وهى اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هى إلا أمور عظام وهى العذاب الشديد والمغفرة والرضوان من الله الحميد، والكاف فى كمثل غيث فى محل رفع على أنه خبر بعد خبر أى الحياة الدنيا مثل غيث ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ لمن ركن إليها واعتمد عليها، قال ذو النون: يامعشر المريدين لا تطلبوا الدنيا وإن طلبتموها فلا تحبوها فإن الزاد منها والمقيل فى غيرها، ولما حقر الدنيا وصغر أمرها وعظم أمر الآخرة بعث عباده على المسارعة إلى نيل ما وعد من ذلك وهى المغفرة المنجية من العذاب الشديد والفوز بدخول الجنة بقوله.

•• ﴿سَابِقُوا﴾ أى: بالأعمال الصالحة ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وقيل: سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم فى المضمار ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال السدى: كعرض سبع السموات وسبع الأرضين، وذكر العرض دون الطول لأن كل ماله عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله فإذا

---

(١) الدهقان: معانٍ عدة تدور حول؛ القائد، الزعيم، المسيطر، والتاجر. والجمع «دهاقنة»، و«دهاقين».

القاموس (٤/ ٢٢٤).

وصف عرضه بالبسطة عرف أن طوله أبسط، أو أريد بالعرض البسطة، وهذا ينفى قول من يقول إن الجنة فى السماء الرابعة، لأن التى فى إحدى السموات لاتكون فى عرض السموات والأرض ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا دليل على أنها مخلوقة ﴿ذَلِكَ﴾ الموعود من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون، وفيه دليل على أنه لايدخل أحد الجنة إلا بفضل الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ثم بين أن كل كائن بقضاء الله وقدره بقوله.

●● ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ من الجدب وآفات الزروع والثمار، وقوله فى الأرض فى موضع الجر أى ما أصاب من مصيبة ثابتة فى الأرض ﴿وَلا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ فى اللوح وهو فى موضع الحال أى إلا مكتوبا فى اللوح ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ من قبل أن نخلق الأنفس ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إن تقدير ذلك وإثباته فى كتاب ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عسيرا على العباد، ثم علل ذلك وبين الحكمة فيه بقوله.

●● ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا﴾ تحزنوا حزنا يطغيكم ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من الدنيا وسعتها أومن العافية وصحتها ﴿وَلا تَفْرَحُوا﴾ فرح المختال الفخور ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ أعطاكم من الإيتاء. أبو عمرو أتاكم أى جاءكم من الإتيان يعنى أنكم إذا علمتم أن كل شىء مقدر مكتوب عند الله قل أساكم على الفائت وفرحكم على الآتى، لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده، لأنه وطن نفسه على ذلك، كذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله، ليس أحد إلا وهو يفرح عند منفعة تصيبه ويحزن عند مضرة تنزل به، ولكن ينبغى أن يكون الفرح شكرا والحزن صبرا، وإنما يذم من الحزن الجزع المنافى للصبر، ومن الفرح الأشر المطغى الملهى عن الشكر ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأن من فرح بحظ من الدنيا وعظم فى نفسه اختال وافتخر به وتكبر على الناس.

●● ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من كل مختال فخور كأنه قال لا يحب الذين يبخلون يريد الذين يفرحون الفرح المطغى إذا رزقوا مالا وحظا من الدنيا فلحبهم له وعزته عندهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويحضون غيرهم على البخل ويرغبونهم فى الإمساك ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعرض عن الإنفاق، أو عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن جميع المخلوقات فكيف عنه ﴿الْحَمِيدُ﴾ فى أفعاله. فإن الله الغنى بترك هو مدنى وشامى.

●● ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ يعنى أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج والمعجزات

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى: الوحى، وقيل الرسل: الأنبياء والأول أولى لقوله معهم؛ لأن الأنبياء ينزل عليهم الكتاب ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ روى أن جبريل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح وقال: مر قومك يزنوا به ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ ليتعاملوا بينهم إيفاء واستيفاء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ولا يظلم أحد أحدا ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد: السندان[1] والكلبتان[2] والميقعة[3] والمطرقة، والإبرة، وروى ومعه المرّ والمسحاة [4]، وعن الحسن وأنزلنا الحديد خلقناه ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القتال به ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ فى مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم فما من صناعة إلا والحديد آلة فيها أو ما يعمل بالحديد ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح فى مجاهدة أعداء الدين، وقال الزجاج: ليعلم الله من يقاتل مع رسوله فى سبيله ﴿بِالْغَيْبِ﴾ غائبا عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ﴿عَزِيزٌ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته، والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة أن الكتاب قانون الشريعة ودستور الأحكام الدينية يبين سبل المراشد والعهود، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود، ويأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن البغى والطغيان، واستعمال العدل والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة يقع بها التعامل ويحصل بها التساوى والتعادل، وهى الميزان. ومن المعلوم أن الكتاب الجامع للأوامر الإلهية والآلة الموضوعة للتعامل بالتسوية إنما تحض العامة على اتباعهما بالسيف الذى هو حجة الله على من جحد وعنَدَ، ونزع عن صفقة الجماعة اليد. وهو الحديد الذى وصف بالبأس الشديد.

●● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ خصا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أولادهما ﴿ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الوحى وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الخط بالقلم يقال كتب كتابا وكتابة ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن الذرية، أو من المرسل إليهم، وقد دل عليهم ذكر الإرسال والمرسلين ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا تفصيل لحالهم أى: فمنهم من اهتدى باتباع الرسل ومنهم من فسق أى خرج عن الطاعة والغلبة للفساق.

---

(١) السندان: من أدوات الحدادين، وهى كتلة حديدية يطرق الحديد عليها.

(٢) الكلبتان: مثّل «الكلابتان»، وهى ما يستخدمه الحداد فى التقاط قطع الحديد الساخنة. القاموس (١/ ١٢٥).

(٣) الميقعة: المسن الطويل.

(٤) المر: يعنى: الحبل.

المسحاة: كل خشبة طويلة فى السفينة.

(المعجم الوسيط: ٢/ ٨٦٨).

●● ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أى: نوح وإبراهيم ومن مضى من الأنبياء ﴿بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ مودة ولينا ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعطفا على إخوانهم كما قال فى صفة أصحاب النبى (ﷺ) ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ هى ترهبهم فى الجبال فارّين من الفتنة فى الدين مخلصين أنفسهم للعبادة وهى الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشى، وانتصابها فعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ أى: أخرجوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أى ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره، لأن عهد مع الله لايحل نكثه ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أى أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى ـ عليه السلام ـ أو الذين آمنوا بمحمد (ﷺ) ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الكافرون.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخطاب لأهل الكتاب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد (ﷺ) ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم بمحمد (ﷺ) وإيمانكم بمن قبله ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ وهو النور المذكور فى قوله يسعى نورهم الآية ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

●● ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ﴾ ليعلم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين لم يسلموا ولامزيدة ﴿أَلاَّ يَقْدِرُونَ﴾ أن مخففة من الثقيلة، أصله أنه لا يقدرون يعنى أن الشأن لا يقدرون ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أى لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضل الله من الكفلين والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله (ﷺ) فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلا قط ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ﴾ عطف على أن لايقدرون ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ أى فى ملكه وتصرفه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والله أعلم.

---

(١) سورة «الفتح»، الآية (٢٩).

(سورة المجادلة مدنية وهى اثنتان وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ تحاورك، وقرئ بها، وهى خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت[١] أخى عبادة، رآها وهى تصلى - وكانت حسنة الجسم - فلما سلمت راودها فأبت فغضب، فظاهر منها، فأتت رسول الله (ﷺ) فقالت: إن أوسا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى - أى كثر ولدى - جعلنى عليه كأمه وروى أنها قالت: إن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا. فقال (ﷺ): «ما عندى فى أمرك شيء». وروى أنه قال لها: «حرمت عليه» فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقا، وإنما هو أبو ولدى وأحب الناس إلىّ فقال: «حرمت عليه» فقالت أشكو إلى الله فاقتى ووجدى كلما قال رسول الله (ﷺ): «حرمت عليه» هتفت وشكت، فنزلت[٢] ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ فى شأنه ومعناه ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تظهر ما بها من المكروه ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ مراجعتكما الكلام من حار إذا رجع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع شكوى المضطر ﴿بَصِيرٌ﴾ بحاله.

●● ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ عاصم يظَّهَّرون حجازى وبصرى غيرهم يَظَّاهرون وفى ﴿مِنكُم﴾ توبيخ للعرب؛ لأنه كان من أيمان أهل جاهليتهم خاصة دون سائر الأمم ﴿مِّن نِّسَائِهِم﴾ زوجاتهم ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ أمهاتُهم المفضل، الأول حجازى والثانى تميمى ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ يريد أن الأمهات على الحقيقة الوالدات والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع، وكذا أزواج رسول الله (ﷺ) لزيادة حرمتهن وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة فلذا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾ تنكره الحقيقة والأحكام الشرعية ﴿وَزُورًا﴾ وكذبا باطلا منحرفا عن الحق ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لما سلف منهم.

●● ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ بين فى الآية الأولى أن ذلك من قائله منكر وزور، وبين فى الثانية حكم الظهار ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ العود الصيرورة ابتداء أو بناء فمن الأول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[٣] ومن الثانى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾[٤] ويعدى بنفسه: كقولك عدته إذا أتيته وصرت إليه، وبحرف الجر بإلى وعلى، وفى واللام كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[٥] ومنه ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أى يعودون لنقض ما قالوا، أو لتداركه على حذف المضاف

(١) انظر ترجمة «أوس بن الصامت»، عند تفسير الآية (٤)، من سورة «لقمان».

(٢) الحديث عند الحاكم والدارقطنى.

(٣) سورة «يس»، الآية (٣٩).

(٤) سورة «الإسراء»، الآية (٨).

(٥) سورة «الأنعام»، الآية (٢٨).

وعن ثعلبة يعودون لتحليل ما حرموا علـى حذف المضاف أيضا غير أنه أراد بما قالوا ما حرموه على أنفسهم بلفظ الظهار تنزيلا للقول منزلة المقول فيه كقوله: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾[1] أراد المقول فيه وهو المال والولد، ثـم اختلفوا أن النقض بمـاذا يحصل فعندنـا بالعزم على الوطء، وهو قـول ابن عباس والحسن وقتادة، وعند الشافعى بمجرد الإمساك وهو أن لايطلقها عقيب الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فعليه إعتاق رقبة مؤمنة، أو كافرة ولم يجز المدبر وأم الولد والمكاتب الذى أدى شيئا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ الضمير يرجع إلى مادل عـليه الكلام من المظاهر والمظاهر منها والمماسة الاسـتمتاع بها من جماع أو لمس بشهوة أونظر إلى فرجها بشهوة ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحكم ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجنايـة فيجب أن تتعظوا بـهذا الحكم حتى لاتعودوا إلـى الظهار وتخافوا عقـاب الله عليه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والظهـار أن يقول الرجـل لامرأته: أنت عـلىَّ كظهـر أمى، وإذا وضع موضع أنت عضـوا منها يعبر به عـن الجملة أو مكان الظهـر عضوا آخر يحرم النظـر إليه من الأم كالبطن والـفخذ، أو مكان الأم ذات رحم محرم مـنه بنسب أو رضاع أو صهر أو جـماع، نحو أن يقول: أنت علىّ كظهر أختى من الرضاع، أو عـمتى من النسب أو امرأة ابنى أو أبى أو أم امرأتى أو ابنتها فهو مظاهـر، وإذا امتنع المظاهر من الكفارة للمرأة أن ترافعه وعلـى القاضى أن يجبره على أن يكفر وأن يحبسه ولا شىء من الكفارات يجبر عليه ويحبس إلا كفارة الظهار، لأنه يضر بها فى ترك التكفير والامتناع من الاستمتاع، فإن مس قـبل أن يكفر استغفر الله ولا يعود حتى يكفر، وإن أعتق بعض الرقبة ثم مس عليه أن يستأنف عند أبى حنيفة ـ ،رضى الله عنه.

•• ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ فعليه صيام شهرين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ﴾ فعليه إطعام ﴿سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكل مسكين نـصف صاع من بر أوصاع من غـيره، ويجب أن يقـدمه على المسيـس ولكن لا يستـأنف إن جامع فى خـلال الإطعام ﴿ذَلِكَ﴾ البيان والتعـليم للأحكام ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ لتصدقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فى العـمل بشرائعـه التى شرعها من الظهار وغيره ورفض ما كنـتم عليه فى جاهليتكم ﴿وَتِلْكَ﴾ أى الأحكام التى وصفنا فى الظهار والكفارة ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ التى لا يجوز تعديها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين لا يتبعونها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادون ويـشاقون ﴿كُبِتُوا﴾ أخزوا وأهـلكوا ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من أعداء الرسل ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تدل على صدق الـرسول وصحة ما جاء به ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بهذه الآيات ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يذهب بعزهم وكبرهم.

---

(١) سورة «مريم»، الآية (٨٠).

●● ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوب بمهين أو بإضمار اذكر تعظيما لليوم ﴿اللَّهُ جَمِيعًا﴾ كلهم لا يترك منهم أحدا غير مبعوث، أو مجتمعين فى حال واحدة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ تخجيلاً لهم وتوبيخا وتشهيرا بحالهم، يتمنون عنده المسارعة بهم إلى النار لما يلحقهم من الخزى على رءوس الأشهاد ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عددا لم يفته منه شىء ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه، وإنما تحفظ معظمات الأمور ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لايغيب عنه شىء.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ﴾ من كان التامة أى ما يقع ﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ النجوى التناجى، وقد أضيفت إلى ثلاثة أى من نجوى ثلاثة نفر ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أى الله ﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ﴾ ولا أقل ﴿مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يتناجون به ولا يخفى عليه ماهم فيه، وقد تعالى عن المكان علوا كبير، وتخصيص الثلاثة والخمسة، لأنها نزلت فى المنافقين وكانوا يتحلقون للتناجى مغايظة للمؤمنين على هذين العددين، وقيل: ما يتناجى منهم ثلاثة ولاخمسة ولا أدنى من عدديهم ولا أكثر إلا والله معهم يسمع ما يقولون، ولأن أهل التناجى فى العادة طائفة من أهل الرأى والتجارب، وأول عددهم الاثنان فصاعدا إلى خمسة إلى ستة إلى ما اقتضته الحال فذكر عزوعلا الثلاثة والخمسة، وقال: «ولا أدنى من ذلك» فدل على الاثنين والأربعة، وقال: «ولا أكثر» فدل على ما يقارب هذا العدد ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ويريدون أن يغيظوهم ويوهموهم فى نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأن أقاربهم قتلوا فنهاهم رسول الله (ﷺ) فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته، ويتنجون حمزة وهو بمعنى الأول ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ يعنى أنهم يقولون فى تحيتك: السام عليك يامحمد. والسام: الموت، والله تعالى يقول: وسلام على ﴿عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾(١)، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾(٢) و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾(٣) ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أى: ويقولون فيما بينهم لو كان نبيا لعاقبنا الله بما نقوله، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذابا ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال أى: يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع جهنم.

---

(١) سورة «النمل»، الآية (٥٩).

(٢) سورة «المائدة»، الآيتان (٤١)، و(٦٧).

(٣) مواضع كثيرة؛ منها: التوبة (٧٣)، والممتحنة (١٢).

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بألسنتهم وهو خطاب للمنافقين، والظاهر أنه خطاب للمؤمنين ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أى: إذا تناجيتم فلا تشبهوا باليهود والمنافقين فى تناجيهم بالشر ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ بأداء الفرائض والطاعات ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ وترك المعاصى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للحساب فيجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر.

●● ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ﴾ بالإثم والعدوان ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ من تزيينه ﴿لِيَحْزُنَ﴾ أى: الشيطان وبضم الياء نافع ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ﴾ الشيطان أو الحزن ﴿بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه وقضائه وقدره ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: يكلون أمرهم إلى الله ويستعيذون به من الشيطان.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِى الْمَجَالِسِ﴾ [فى المجلس] توسعوا فيه ، فى المجالس عاصم ونافع والمراد مجلس رسول الله (ﷺ) وكانوا يتضامون فيه تنافسا على القرب منه وحرصا على استماع كلامه وقيل هو المجلس من مجالس القتال وهى مراكز الغزاة كقوله: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[(١)] مقاتل فى صلاة الجمعة ﴿فَافْسَحُوا﴾ فوسعوا ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلق فى كل ما يبتغى الناس الفسحة فيه من المكان والرزق والصدر والقبر وغير ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا﴾ انهضوا للتوسعة على المقبلين، أو انهضوا عن مجلس رسول الله (ﷺ) إذا أمرتم بالنهوض عنه أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وأعمال الخير ﴿فَانشُزُوا﴾ بالضم فيهما مدنى وشامى وعاصم غير حماد ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ بامتثال أوامره وأوامر رسوله ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ والعالمين منهم خاصة ﴿دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وفى الدرجات قولان أحدهما فى الدنيا فى المرتبة والشرف والآخر فى الآخرة، وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أنه كان إذا قرأها قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم، وعن النبى ـ(ﷺ): «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[(٢)] وعنه (ﷺ) «عبادة العالم يوما واحدا تعدل عبادة العابد أربعين»[(٣)] سنة وعنه (ﷺ): «يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[(٤)] فأعظم بمرتبة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله (ﷺ) وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : خير سليمان ـ عليه السلام ـ بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك[(٥)] معه، وقال (ﷺ): «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم إنى عليم أحب كل عليم»[(٦)] وعن بعض الحكماء: ليت

---

(١) سورة «آل عمران»، الآية (١٢١).
(٢) الحديث عند أصحاب السنن، من حديث أبى الدرداء.
(٣) لم أجده فى كتب الحديث.
(٤) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٤/ ٧٢ ٣٩٠٧٢).
(٥) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.
(٦) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

شعرى أى شئ أدرك من فاته العلم، وأى شئ فات من أدرك العلم. وعن الزبيرى[1]: العلم ذكر فلا يحبه إلا ذكورة الرجال، والعلوم أنواع فأشرفها أشرفها معلوما.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ إذا أردتم مناجاته ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ أى: قبل نجواكم، وهى استعارة ممن له يدان كقول عمر ـ رضى الله عنه ـ من أفضل ما أوتيت العرب الشعر يقدمه الرجل أمام حاجته فيستمطر به الكريم ويستنزل به اللئيم، يريد قبل حاجته ﴿ذَلِكَ﴾ التقديم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فى دينكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لأن الصدقة طهرة ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فى ترخيص المناجاة من غير صدقة قيل كان ذلك عشر ليال، ثم نسخ، وقيل: ما كان إلا ساعة من نهار، ثم نسخ، وقال على ـ رضى الله عنه ـ :هذه آية من كتاب الله ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى كان لى دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت بدرهم وسألت رسول الله (ﷺ) عشر مسائل فأجابنى عنها قلت: يا رسول الله ما الوفاء، قال: التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله. قلت: وما الفساد؟ قال: الكفر والشرك بالله. قلت: وما الحق قال: الإسلام والقرآن والولاية إذا انتهت إليك. قلت: وما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة. قلت: وما علىّ: قال: طاعة الله وطاعة رسوله قلت وكيف أدعو الله تعالى؟ قال: بالصدق واليقين، قلت: وماذا أسأل الله؟ قال: العافية. قلت: وما أصنع لنجاة نفسى؟ قال: كل حلالا وقل صدقا: قلت وما السرور قال: الجنة قلت وما الراحة؟ قال: لقاء الله. فلما فرغت منها نزل نسخها [2] ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أخفتم تقديم الصدقات لما فيه من الإنفاق الذى تكرهونه ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به وشق عليكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى خفف عنكم وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة كما أزال المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فلا تفرطوا فى الصلاة والزكاة وسائر الطاعات ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعد ووعيد.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم فى قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[3] وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ يا مسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من اليهود كقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[4] ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أى: يقولون والله إنا لمسلمون لا منافقون ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون منافقون.

(١) هو الفقيه الشافعى؛ أحمد بن سليمان، أبو عبدالله، البصرى، الشهير بـ «الزبيرى»، له مؤلفات فى المذهب، توفى عام ٣١٧هـ.
الأعلام (١/ ١٣٢).
(٢) الحديث عند الحاكم.
(٣) سورة «المائدة»، الآية (٦٠). (٤) سورة «النساء»، الآية (١٤٣).

●● ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعا من العذاب متفاقما ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: إنهم كانوا فى الزمان الماضى مصرين على سوء العمل أو هى حكاية ما يقال لهم فى الآخرة.

●● ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الكاذبة ﴿جُنَّةً﴾ وقاية دون أموالهم ودمائهم ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس فى خلال أمنهم وسلامتهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن طاعته والإيمان به ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعدهم العذاب المخزى لكفرهم وصدهم كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾[1].

●● ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿شَيْئًا﴾ قليلا من الإغناء ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

●● ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أى: لله فى الآخرة أنهم كانوا مخلصين فى الدنيا غير منافقين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ فى الدنيا على ذلك ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ فى الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من النفع، أو يحسبون أنهم على شىء من النفع، ثم بأيمانهم الكاذبة كما انتفعوا ههنا ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ حيث استوت حالهم فيه فى الدنيا والآخرة.

●● ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ استولى عليهم ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ قال شاه الكرمانى:[2] علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس ويشغل قلبه عن التفكر فى آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان، ويشغل له عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنده ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ فى جملة من هو أذل خلق الله تعالى لا ترى أحدا أذل منهم.

●● ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ فى اللوح ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ بالحجة والسيف، أو بأحدهما ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب غير مغلوب.

●● ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ هو مفعول ثان لتجد، أو حال، أو صفة

---

(١) سورة «النحل»، الآية (٨٨).

(٢) هو الفقيه الحنفى؛ عبدالرحمن بن محمد بن أميرويه، أبو الفضل، الكرمانى، اشتهر بلقبه «شاه»، فغلب عليه، انتهت إليه رئاسة الحنفية بخراسان فى عصره، ولد فى «كرمان» عام ٤٥٧هـ، وتوفى بـ «مرو» عام ٥٤٣هـ.

الأعلام (٣/ ٣٢٧).

لقوما وتجد بمعن تصادف على هذا ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ خالفه وعاداه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ أى: من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والمراد أنه لاينبغى أن يكون ذلك وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال مبالغة فى الزجر عن مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم وزاد ذلك تأكيدا وتشديدا بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وبقوله ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ أى أثبته فيها وبمقابلة قوله أولئك حزب الشيطان بقوله أولئك حزب الله ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أى بكتاب أنزله فيه حياة لهم، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان أى بروح من الإيمان على أنه فى نفسه روح لحياة القلوب به. وعن الثورى أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت فيمن يصحب السلطان، وعن عبدالعزيز بن أبى رواد[1] أنه لقيه المنصور فلما عرفه هرب منه وتلاها، وقال سهل من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس بمبتدع ولايجالسه ويظهر له من نفسه العداوة، ومن داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنن، ومن أجاب مبتدعا لطلب عز الدنيا أوغناها أذله الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ومن لم يصدق فليجرب ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بتوحيدهم الخالص وطاعتهم﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه الجسيم فى الآخرة أو بما قضى عليهم فى الدنيا ﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أنصار حقه ودعاة خلقه ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الباقون فى النعيم المقيم الفائزون بكل محبوب الآمنون من كل مرهوب.

(١) هو: عبدالعزيز بن أبى رواد، واسمه؛ميمون، وقيل غير ذلك روى عن جمع من التابعين، اشتهر بالرواية والعبادة، : «صدوق، عابد، رمى بالإرجاء». توفى سنة بضع وخمسين ومائة، على خلاف. تهذيب التهذيب (٣/ ٤٦١، ٤٦٢).

(سورة الحشر مدنية، وهى أربع وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روى أن هذه السورة نزلت بأسرها فى بنى النضير، وذلك أن النبى (ﷺ) حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله (ﷺ) على أن لا يكونوا عليه ولا له، فلما ظهر يوم بدر قالوا: هو النبى الذى نعته فى التوراة، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة فخالف أبا سفيان عند الكعبة فأمر (ﷺ) محمد بن مسلمة الأنصاري[1] فقتل كعبا غيلة، ثم خرج (ﷺ) مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقطع نخيلهم، فلما قذف الله الرعب فى قلوبهم طلبوا الصلح فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات[2].

●● ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعنى يهود بنى النضير ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ بالمدينة، واللام فى ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ تتعلق بأخرج، وهى اللام فى قوله تعالي: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[3]. وقولك: جئته لوقت كذا. أى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر، ومعنى أول الحشر أن هذا أول حشرهم إلى الشام وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشأم، أو هذا أول حشرهم، وآخر حشرهم إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام،أو آخر حشرهم حشر يوم القيامة، قال ابن عباس -رضى الله عنهما- من شك أن المحشر بالشأم فليقرأ هذه الآية فهم الحشر الأول وسائر الناس الحشر الثاني، وقال لهم رسول الله (ﷺ) لما خرجوا: «امضوا فإنكم أول الحشر ونحن على الأثر». قتادة: إذا كان آخر الزمان جاءت نار من قبل المشرق فحشرت الناس إلى أرض الشام، وبها تقوم عليهم القيامة. وقيل: معناه أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله (ﷺ) ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، والفرق بين هذا التركيب

---

(١) هو الصحابى الأمير؛ محمد بن مسلمة بن سلمة بن حريش، الأنصارى، الحارثى، الخزرجى، أبو عبدالله المدنى، استخلفه النبى ﷺ فى بعض غزواته على المدينة، وهو أحد الثلاثة الذين قتلوا كعب بن الأشرف، آخى النبى ﷺ بينه وبين أمين الأمة؛ أبى عبيدة بن الجراح، لم يشهد الجمل ولا صفين، توفى عام ٤٣هـ، وهو ابن ٧٧ عاماً.

تهذيب التهذيب (٥/ ٢٩٠).

(٢) أريحا: مكان من أرض الأردن.

أذرعات: مكان فى أطراف الشام.

(٣) سورة «الفجر»، الآية (٢٤).

وبين النظم، الذى جاء عليه أو فى تقديم الخبر على المبتدأ دليلا على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفى تصيير ضميرهم اسما؛ لأن إسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة لا يبالى معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع فى مغازاتهم، وليس ذلك فى قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أمر الله وعقابه، وفى الشواذ فآتاهم الله أى فآتاهم الهلاك ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من حيث لم يظنوا ولم يخطر ببالهم، وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه رضاعا ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخربون أبو عمرو، والتخريب والإخراب الإفساد بالنقض والهدم، والخَرْبة الفساد، وكانوا يخرِّجون بواطنها، والمسلمون ظواهرها لما أراد الله من استئصال شأفتهم وأن لاتبقى لهم بالمدينة دار ولا منهم ديّار، والذى دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة وأن لا يتحسروا بعد جلائهم على بقائها مساكن للمسلمين وأن ينقلوا معهم ما كان فى أبنيتهم من جيد الخشب والساج، وأما المؤمنون فداعيهم إلى التخريب إزالة متحصنهم وأن يتسع لهم مجال الحرب، ومعنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين أنهم لما عرضوهم بنكث العهد لذلك، وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: فتأملوا فيما نزل بهؤلاء، والسبب الذى استحقوا به ذلك فاحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتعاقبوا بمثل عقوبتهم، وهذا دليل على جواز القياس.

●● ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة ﴿وَلَهُمْ﴾ سواء أجلوا أو قتلوا ﴿فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ الذى لا أشد منه.

●● ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أى إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم ﴿شَاقُّوا اللَّهَ﴾ خالفوه ﴿وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ ورسوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

●● ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ هو بيان لما قطعتم، ومحل ما نصب بقطعتم، كأنه قيل أى شيء قطعتم، وأنث الضمير الراجع إلى ما فى قوله: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنه فى معنى اللينة، واللينة: النخلة من الألوان، وياؤها عن واو قلبت لكسرة ما قبلها، وقيل: اللينة النخلة الكريمة كأنهم اشتقوها من اللين ﴿قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فقطعها وتركها بإذن الله ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ وليذل اليهود ويغيظهم أذن فى قطعها.

●● ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ جسمه فيئا له خاصة ﴿مِنْهُمْ﴾ من بنى النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فلم يكن ذلك بإيجاف خيل أو ركاب منكم على ذلك، والركاب الإبل والمعنى فما أوجفتم على تحصيله وتغنيمه خيلا ولا ركابا ولا تعبتم فى القتال عليه، وإنما مشيتم إليه

على أرجلكم، لأنه على ميلين من المدينة وكان (ﷺ) على حمار فحسب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ يعنى أن ما خوّل الله رسوله من أموال بنى النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة ولكن سلطة الله عليهم وعلى ما فى أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم فالأمر فيه مفوض إليه يضعه حيث يشاء ولا يقسمه قسمة الغنائم التى قوتل عليها وأخذت عنوة وقهرا فقسمها بين المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة منهم لفقرهم(١) ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

●● ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إنما لم يدخل العاطف على هذه الجملة، لأنها بيان للأولى فهى منها غير أجنبية عنها بين لرسول الله (ﷺ) ما صنع بما أفاء الله عليه وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم مقسوما على الأقسام الخمسة، وزيف هذا القول بعض المفسرين، وقال: الآية الأولى نزلت فى أموال بنى النضير، وقد جعلها الله لرسوله خاصة وهذه آية فى غنائم كل قرية تؤخذ بقوة الغزاة وفى الآية بيان مصرف خمسها فهى مبتدأة ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ تكون دولة يزيد على كان التامة، والدولة: ما يدول للإنسان أى يدور من الجد، ومعنى قوله كيلا يكون دولة ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ كيلا يكون الفيء الذى حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدا بين الأغنياءيتكاثرون به ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ أى: أعطاكم من قسمة غنيمة أو فيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه منها ﴿فَانتَهُوا﴾ عنه ولا تطلبوه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالف رسول الله (ﷺ) والأجود أن يكون عاما فى كل ما آتى رسول الله (ﷺ) ونهى عنه وأمر الفيء داخل فى عمومه.

●● ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ بدل من قوله ولذى القربى والمعطوف عليه والذى منع الإبدال من لله وللرسول وإن كان المعنى لرسول الله إن الله عزوجل أخرج رسوله من الفقراء فى قوله وينصرون الله ورسوله، وأنه يترفع برسول الله عن التسمية بالفقير وأن الإبدال على ظاهر اللفظ من خلاف الواجب فى تعظيم الله عزوجل ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بمكة وفيه دليل على أن الكفار يملكون بالاستيلاء أموال المسلمين؛ لأن الله تعالى سمى المهاجرين فقراء مع أنه كانت لهم ديار وأموال ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أى: يطلبون الجنة ورضوان الله ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: ينصرون دين الله ويعينون رسوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ فى إيمانهم وجهادهم.

●● ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على المهاجرين وهم الأنصار ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ توطنوا المدينة ﴿وَالْإِيمَانَ﴾ وأخلصوا الإيمان كقوله

* علفتها تبنا وماء باردا *

---

(١) الثلاثة هم: سهل بن حنيف، وأبو دجانة، ونقل سيف بن أبى الحقيق سعد بن معاذ.

أو وجعلوا الإيمان مستقرا ومتـوطنا لهم لتمكنهم واستقامتهم عليه كـما جعلوا المدينة كذلك، أو أراد دار الهجرة ودار الإيمان فأقـام لام التعريف فى الدار مقام المضاف إلـيه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضاف إليه مقامه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل المهاجرين؛ لأنهم سبقوهم فى تبوىء دار الهجرة والإيمـان، وقيل: من قبل هـجرتهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى شاطروهـم أموالهم وأنزلوهم منازلهم ونزل من كانت له امرأتان عن إحداهما حتى تزوج بها رجل من المهاجرين ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ ولا يعلمون فى أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتى المهاجرون من الفىء وغيره والمحتاج إليه يسمى حاجة يعنى أن نفوسهم لم تتبع ما أعطوا ولم تطمح إلى شيء منه تحتاج إليه، وقيل: حاجة حسدا مما أعطـى المهاجرون من الفيء حيث خصهم النبى (ﷺ) به، وقيل: لا يجدون فى صدورهم مس حاجة من فقد ما أوتوا فحذف المضافان ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فقر وأصلهـا خصاص البيت وهى فروجه، والجمـلة فى موضع الحال أى مفروضة خصـاصتهم روى أنه نزل برجل مـنهم ضيف فنوّم الصـبية وقرّب الطعام وأطفـأ المصباح ليشبع ضيفه ولا يأكل هو، وعن أنس أهدى لبـعضهم رأس مشوى، وهو مجهود فوجهه إلى جاره فتداولته تسعة أنفس حتى عاد إلى الأول، أبو زيد[1] قال لى شاب من أهل بلـخ: ما الزهد عندكم قلت إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا، فقال هكذا عندنا كلاب بلخ بل إذا فقدنا صبرنا وإذا وجدنا آثرنا ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بما أرادوا والشح اللؤم وأن تكون نفس الرجل كزة حريـصة على المنع، وأما البـخل فهو المنع نفسـه، وقيل: الشح أكل مال أخيـك ظلما والبخل منع مالك،عن كسرى الشح أضر من الفقر، لأن الفقير يتسع إذا وجد بخلاف الشحيح.

●● ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ عطف أيضا على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد، وقيل: التابعون بإحسان، وقيل: من بعدهم إلى يوم القيامة قال عمر ـ رضى الله عنه ـ دخل فى هذا الفيء كل من هو مـولود إلى يوم القيامـة فى الإسلام، فجعل الواو للـعطف فيهما، وقـرىء للذين فيهما ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ قيل هم المهاجرون والأنصار عائشة ـ رضى الله عنها ـ أمروا بأن يستغـفروا لهم فسبوهم ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حقدا ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى الصحابة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقيل لسعيد بن المسيب: ما تقول فى عثمان وطلحة والزبير، قال أقول ما قولنيه الله وتلى هذه الآية، ثم عجب نبيه بقوله.

●● ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أى: ألم تر يا مـحمد إلى عبدالله بن أبـى وأشياعه ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعنى بنى النضير، والمراد إخوة الكفر ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من

---

(١) لعله يقصـد «أبو يزيد البسطامى»، وإن كان؛ فـانظر ترجمته عند تفـسير الآية (٢٢٧)، من سورة «الشعراء».

دياركم ﴿لَنخْرُجَنَّ معكُمْ﴾ روى أن ابن أبى وأصحابه دسوا إلى بنى النضير حين حاصرهم النبى (ﷺ): لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ﴿وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ فى قتالكم ﴿أَحدًا أبدًا﴾ من رسول الله والمسلمين إن حملنا عليه أو فى خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة ﴿وإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فى مواعيدهم لليهود، وفيه دليل على صحة النبوة، لأنه إخبار بالغيب.

●● ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ إنما قال: ولئن نصروهم بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم على الفرض والتقدير كقوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] وكما يعلم ما يكون فهو يعلم مالا يكون لو كان كيف يكون والمعنى ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك أى: يهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين.

●● ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أى: أشد مرهوبية مصدر رهب المبنى المفعول وقوله ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دلالة على نفاقهم يعنى أنهم يظهرون لكم فى العلانية خوف الله وأنتم أهيب فى صدورهم ﴿مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ لايعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته.

●● ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لايقدرون على مقاتلتكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين يعنى اليهود والمنافقين ﴿إِلاَّ﴾ كائنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخنادق والدروب ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ بدار مكى وأبو عمرو ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعنى: أن البأس الشديد الذى يوصفون به، إنما هو بينهم إذا اقتتلوا لو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن عند محاربة الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ﴾ أى: اليهود والمنافقين ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ذوى ألفة واتحاد ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متفرقة لا ألفة بينها يعنى أن بينهم إحنا وعدوات فلا يتعاضدون حق التعاضد، وهذا تحسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم ﴿ذَلِكَ﴾ التفرق ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ أن تشتت القلوب مما يوهن قواهم ويعين على أرواحهم.

●● ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى مثلهم كمثل أهل بدر فحذف المبتدأ ﴿قَرِيبًا﴾ أى: استقروا من قبلهم زمنا قريبا ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله (ﷺ) من قولهم كلأ وبيل وخيم سيء العاقبة يعنى ذاقوا عذاب القتل فى الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى ولهم مع ذلك فى بالآخرة عذاب النار.

●● ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: مثل المنافقين فى إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر، ثم متاركتهم لهم

(١) سورة «الزمر»، الآية (٦٥).

وإخلافهم كمثل الشيطان إذا استغوى الإنسان بكيده، ثم تبرأ منه فى العاقبة، وقيل: المراد استغواؤه قريشا يوم بدر وقوله لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾(١).

•• ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ عاقبتهما خبر كان مقدم وأن مع اسمها وخبرها أى فى النـار فى موضع الرفع على الاسم وخالدين حال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى أوامره فلا تخالفوها ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ نكر النفس تقليلا للأنفس النواظر فيما قدّمن للآخرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعنى يوم القيامة سمـاه باليوم الذى يلى يومك تقريبا له، أو عبر عـن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد، وتنكـيره لتعظيم أمره أى لغد لايعرف كنهه لعظـمه، وعن مالك بن دينار مكتوب على باب الجنة: وجدنا مـا عملنا ربحنا ما قدمنا خسرنا ما خلفنا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ كرر الأمر بالتقوى تأكيدا أو اتقوا الله فى أداء الواجبات؛ لأنه قرن بما هو عمل واتقوا الله فى ترك المعاصي، لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وفيه تحريض عـلى المراقبة لأن من علم وقت فـعله أن الله مطلع على مـا يرتكب من الذنوب يمتنع عنه.

•• ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ تركوا ذكر الله عزوجل وما أمرهم به ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الخارجون عن طاعة الله.

•• ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ هذا تنبيـه للناس وإيذان بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم فى العاقـبة، وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات، كأنهم لا يـعرفون الفرق بين الجـنة والنار والبون العـظيم بين أصحابـهما، وأن الفوز العـظيم مع أصحاب الجنة والعذاب الأليم مع أصحاب النار فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه، كما تقول لمن عقّ أباه هو أبوك، تجعله بمـنزلة من لا يعرفه، فتنبهه بذلك على حـق الأبوّة الذى يقتضى البر والتعطف، وقد استدلت الشافعية بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر وأن الكافر لايملك مالك المسلم بالاستيلاء وقد أجبنا عن مثل هذا فى أصول الفقه والكافي.

•• ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى: من شأن القرآن وعظمتـه أنه لو جعل فى الجبـل تمييز وأنزل عليه الـقرآن لخشع أى: لخضع وتطـأطأ وتصدع أى: تشقق من خشية الله، وجائز أن يكون هذا تمثيلا كما فى قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾(٢) ويدل عليه

---

(١) سورة «الأنفال»، الآية (٤٨).

(٢) سورة «الأحزاب»، الآية (٧٢).

قوله ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ﴾ وهى إشارة إلى هذا المثل وإلى أمثاله فى مواضع من التنزيل والمراد توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره، ثم رد على من أشرك وشبهه بخلقه فقال.

●● ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، أو الدنيا والآخرة أو المعدوم والموجود ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

●● ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ﴾ الذى لايزول ملكه ﴿الْقُدُّوسُ﴾ المنزه عن القبائح وفى تسبيح الملائكة سبوح قدوس رب الملائكة والروح ﴿السَّلامُ﴾ الذى سلم الخلق من ظلمه، عن الزجاج ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ واهب الأمن وعن الزجاج الذى آمن الخلق من ظلمه، أو المؤمن من عذابه من أطاعه ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على كل شيء الحافظ له: مفيعل من الأمن إلا أن همزته قلبت هاء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب غير المغلوب ﴿الْجَبَّارُ﴾ العالى العظيم الذى يذل له من دونه، أو العظيم الشأن فى القدرة والسلطان، أو القهار ذو الجبروت ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغ الكبرياء والعظمة ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عما يصفه به المشركون.

●● ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ المقدر لما يوجده ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ فى الأرحام ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على الصفات العلا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ختم السورة بما بدأ به، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - سألت حبيبى رسول الله (ﷺ) عن الاسم الأعظم فقال: «عليك بآخر الحشر فأكثر قراءته». فأعدت عليه فأعاد عليّ، فأعدت عليه فأعاد عليّ[(1)].

---

(1) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة لكن رواه الثعلبى بسنده، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة.

(سورة الممتحنة مدنية، وهى ثلاث عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

روى أن مولاة لأبى عمرو بن صيفى بن هاشم يقال لها: سارة أتت رسول الله (ﷺ) بالمدينة وهو يتجهز للفتح فقال لها: أمسلمة جئت قالت: لا. قال: أفمهاجرة جئت. قالت: لا. قال: فما جاء بك. قالت: احتجت حاجة شديدة فحث عليها بنى عبدالمطلب فكسوها وحملوها وزودوها، فأتاها حاطب بن أبى بلتعة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها بردا واستحملها كتابا إلى أهل مكة نسخته: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة اعلموا أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله (ﷺ) عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها، فأدركوها فجحدت وحلفت فهموا بالرجوع، فقال على: والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله (ﷺ) وسل سيفه، وقال: أخرجى الكتاب أو تضعى رأسك فأخرجته من عقاص شعرها[1]، وروى أن رسول الله (ﷺ) أمن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة، هى أحدهم[2] فاستحضر رسول الله (ﷺ) حاطبا وقال: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكنى كنت امرءاً ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري، فخشيت على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يدا، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئا، فصدقه، وقبل عذره، فقال عمر - رضى الله عنه - : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال (ﷺ): «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» ففاضت عينا عمر - رضى الله عنه -[3] فنزل.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ عدى اتخذ إلى مفعوليه وهما عدوى وأولياء، والعدو فعول من عدا كعفوّ من عفا، ولكنه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد، وفيه دليل على أن الكبيرة لاتسلب اسم الإيمان ﴿تُلْقُونَ﴾ حال من الضمير فى لا تتخذوا والتقدير لا تتخذوهم أولياء ملقين ﴿إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أو مستأنف بعد وقف على التوبيخ والإلقاء عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم، والباء فى بالمودة زائدة مؤكدة للتعدى كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا

(١) هذا يخالف ما فى الصحيحين، من حديث على بن أبى طالب.

(٢) عند البيهقى فى «الدلائل»، والثلاثة الباقون هم: عبد العزى بن حنظل، ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح.

(٣) لم أجده فى كتب الحديث، لكن رواه الطبرى - بألفاظ مقاربة - عن على، وغيره.

﴿بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]. أو ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف معناه تلقون إليهم إخبار رسول الله (ﷺ) بسبب المودة التى بينكم وبينهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ حال من لا تتخذوا، أو من تلقون أى لا تتولوهم، أو توادونهم وهذه حالهم ﴿بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ دين الإسلام والقرآن ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوه، أو حال من كفروا ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ تعليل ليخرجون أى: يخرجونكم من مكة لإيمانكم ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلق بلا تتخذوا أى لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى وقول النحويين فى مثله، وهو شرط جواب محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ مصدر فى موضع الحال أى إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى ﴿وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ ومبتغين مرضاتى ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أى: تفضون إليهم بمودتكم سرا أو تسرون إليهم أسرار رسول الله (ﷺ) بسبب المودة، وهو استئناف ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ والمعنى أى طائل لكم فى أسراركم، وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان فى علمى وأنا مطلع رسولى على ما تسرون ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ أى: هذا الإسرار ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

●● ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ خالصى العداوة ولا يكونوا لكم أولياء كما أنتم ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ بالقتل والشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا لو ترتدون عن دينكم فإذاً موادة أمثالهم خطأ عظيم منكم. والماضي وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع ففيه نكتة كأنه: قيل: ودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم يعنى أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض وردكم كفارا أسبق المضار عندهم وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذالون لها دونه والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أهم شيء عند صاحبه.

●● ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون الكفار من أجلهم وتتقربون إليهم محاماة عليهم، ثم قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[2] الآية فمالكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرّ منكم غدا. يَفْصِلُ عاصم. يُفَصِّلُ حمزة وعلي، والفاعل هو الله عزوجل يُفَصَّلُ ابن ذكوان غيرهم يُفْصَلُ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

●● ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ﴾ قدوة فى التبرى من الأهل ﴿حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: فى أقواله، ولهذا استثنى منها إلا قول إبراهيم ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين وقيل كانوا أنبياء ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ جمع بريء كظريف وظرفاء ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٩٥).

(٢) سورة «عبس»، الآية (٣٤).

وبينكم العداوة﴾ بالأفعال ﴿والبغضاء﴾ بالقلوب ﴿أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ فحينئذ نترك عداوتكم ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك﴾ وذلك لموعدة وعدها إياه أى اقتدوا به فى أقواله ولا تأتسوا به فى الاستغفار لأبيه الكافر ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ أى: من هداية ومغفرة وتوفيق، وهذه الجملة لا تليق بالاستثناء ألا ترى إلى قوله: ﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئا﴾(١) ولكن المراد استثناء جملة قوله لأبيه والقصد إلى موعد الاستغفار له وما بعده تابع له، كأنه قال: أستغفر لك وما فى طاقتى إلا الاستغفار ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ متصل بما قبل الاستثناء، وهو من جملة الأسوة الحسنة، وقيل: معناه قولوا ربنا فهو ابتداء أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه ﴿وإليك أنبنا﴾ أقبلنا ﴿وإليك المصير﴾ المرجع.

●● ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أى: لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أى: الغالب الحاكم.

●● ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ ثم كرر الحث على الائتساء بإبراهيم عليه السلام وقومه تقريرا وتأكيدا عليهم؛ ولذا جاء به مصدرا بالقسم، لأنه الغاية فى التأكيد وأبدل من قوله لكم قوله لمن كان يرجو الله أى ثوابه أى يخشى الله وعقبه بقوله: ﴿ومن يتول﴾ يعرض عن أمرنا ويوال الكفار ﴿فإن الله هو الغني﴾ عن الخلق ﴿الحميد﴾ المستحق للحمد فلم يترك نوعا من التأكيد إلاجاء به إلا ولما أنزلت هذه الآيات وتشدد المؤمنون فى عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين أطمعهم فى تحول الحال إلى خلافه فقال.

●● ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم﴾ أى من أهل مكة من أقربائكم ﴿مودة﴾ بأن يوفقهم للإيمان، فلما يسر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيتهم فأسلم قومهم وتم بينهم التحاب، وعسى وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون فى بعض الحوائج عسى أو لعل فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك، أو أريد به إطماع المؤمنين ﴿والله قدير﴾ على تقليب القلوب وتحويل الأحوال وتسهيل أسباب المودة ﴿والله غفور رحيم﴾ لمن أسلم من المشركين.

●● ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم﴾ تكرموهم وتحسنوا إليهم قولا وفعلا ومحل أن تبروهم جر على البدل من الذين لم يقاتلوكم وهو بدل اشتمال، والتقدير عن بر الذين ﴿وتقسطوا إليهم﴾ وتقضوا إليهم بالقسط ولا تظلموهم وإذا نهى عن الظلم فى حق المشرك فكيف فى حق المسلم ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.

●● ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على

---

(١) سورة «الفتح»، الآية (١١).

﴿إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ هو بدل من الذين قاتلوكم والمعنى لاينهاكم عن مبرة هؤلاء وإنما ينهاكم عن تولى هؤلاء ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث وضعوا التولى غير موضعه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ سماهن مؤمنات لنطقهن بكلمة الشهادة، أو لأنهن مشارفات لثبات إيمانهن بالامتحان ﴿مُهَاجِرَاتٍ﴾ نصب على الحال ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فابتلوهن بالنظر فى الأمارات ليغلب على ظنونكم صدق إيمانهن، وعن ابن عباس امتحانها أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ منكم فإنكم وإن رزتم[1] أحوالهن لاتعلمون ذلك حقيقة وعند الله حقيقة العلم به ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلم الذى تبلغه طاقتكم، وهو الظن الغالب بظهور الأمارات وتسمية الظن علما يؤذن بأن الظن الغالب، وما يفضى إليه القياس جار مجرى العلم وصاحبه غير داخل فى قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2] ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أى: لا حل بين المؤمنة والمشرك لوقوع الفرقة بينهما بخروجها مسلمة ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور نزلت الآية بعد صلح الحديبية، وكان الصلح قد وقع على أن يرد على أهل مكة من جاء مؤمنا منهم فأنزل الله هذه الآية بيانا، لأن ذلك فى الرجال لا فى النساء، لأن المسلمة لا تحل للكافر وقيل نسخت هذه الآية الحكم الأول ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ثم نفى عنهم الجناح فى تزوج هؤلاء المهاجرات ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أى مهورهن؛ لأن المهر أجر البضع وبه احتج أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ على أن لا عدة على المهاجرة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ ولا تمسكوا بصرى ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ العصمة ما يعتصم به من عقد وسبب والكوافر جمع كافرة وهى التى بقيت فى دار الحرب، أو لحقت بدار الحرب مرتدة أى لا يكن بينكم وبينهن عصمة ولا علقة زوجية. قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ: من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّن بها من نسائه، لأن اختلاف الدارين قطع عصمتها منه ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوجها ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ أى: جميع ما ذكر فى هذه الآية ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنف، أو حال من حكم الله على حذف الضمير أى يحكمه الله، أو جعل الحكم حاكما على المبالغة وهو منسوخ فلم يبق سؤال المهر لا منا ولا منهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

●● ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ وإن انفلت أحد منهن إلى الكفار، وهو فى قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أحد ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فأصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم عن الزجاج ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ فاعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ولحقن

---

(١) رازه؛ أى: جربه، وقيّمه، ونظر إليه بعين الخبرة.
القاموس (٢/١٧٧).

(٢) سورة «الإسراء»، الآية (٣٦).

بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: هذا الحكم منسوخ أيضا.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ حال ﴿عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد وأد البنات ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذبا، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ طاعة الله ورسوله ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ﴾ عما مضى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ بتمحيق ما سلف ﴿رَّحِيمٌ﴾ بتوفيق ما ائتنف، وروى أن رسول الله (ﷺ) لما فرغ من فتح مكة من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه يبايعهن عنه بأمره ويبلغهن عنه، وهند بنت عتبة[1] امرأة أبى سفيان متقنعة متنكرة خوفا من رسول الله (ﷺ) أن يعرفها لما صنعت بحمزة فقال ـ عليه السلام ـ: أبا يعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً. فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئا فقال ـ عليه السلام ـ: ولا يسرقن فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنى أصبت من ماله هنات، فقال أبو سفيان ما أصبت فهو لك حلال فضحك رسول الله (ﷺ) وعرفها فقال لها: إنك لهند. قالت: نعم فاعف عما سلف يا نبى الله عفا الله عنك فقال: ولا يزنين. فقالت: أو تزنى الحرة فقال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم ـ وكان ابنها حنظلة قد قتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى وتبسم رسول الله (ﷺ) فقال: ولا يأتين ببهتان. فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق فقال: ولا يعصينك فى معروف فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء[2] وهو يشير إلى أن طاعة الولاة لا تجب فى المنكر.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختم السورة بما بدأ به قيل هم المشركون ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ من ثوابها؛ لأنهم ينكرون البعث ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾ أى كما يئسوا إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يرجعوا إليهم، أو كما يئس أسلافهم الذين هم فى القبور من الآخرة أى هؤلاء كسلفهم، وقيل: هم اليهود أى لا تتولوا قوما مغضوبا علهم قد يئسوا من أن يكون لهم حظ فى الآخرة لعنادهم رسول الله (ﷺ) وهم يعلمون أنه الرسول المنعوت فى التوراة كما يئس الكفار من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء، وقيل: من أصحاب القبور بيان للكفار أى كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة؛ لأنهم تبينوا قبح حالهم وسوء منقلبهم، والله أعلم.

---

(١) هى: هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، قرشية، حسيبة نسيبة، زوج أبى سفيان، وأم معاوية، حرضت وحشيًا على قتل حمزة، وتابت وأسلمت، وحسن إسلامها، وشهدت اليرموك، وحرضت على قتال الروم، وتوفيت عام ١٤هـ.

الأعلام (٨/ ٩٨).

(٢) لم أجده فى كتب الحديث.

سورة الصف مدنية، وهى أربع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روى أنهم قالوا قبل أن يؤمروا بالجهاد لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه، فنزلت آية الجهاد[1] فتباطأ بعضهم، فنزلت.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لم هى لام الإضافة داخلة على ما الاستفهامية كما دخل عليها غيرها من حروف الجر فى قولك بم وفيم ومم وعم وإلام وعلام، وإنما حذفت الألف؛ لأن ما واللام أو غيرها كشىء واحد وهو كثير الاستعمال فى كلام المستفهم، وقد جاء استعمال الأصل قليلا قال على ما قام يشتمنى جرير والوقف على زيادة هاء السكت، أو الإسكان ومن أسكن فى الوصل فلإ جرائه مجرى الوقف.

●● ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قصد فى كبر التعجب من غير لفظه كقوله غلت ناب كليب بواؤها، ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شىء خارج عن نظائره وأسند إلى أن تقولوا ونصب مقتا على التمييز، وفيه دلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لاشوب فيه، والمعنى كبر قولكم مالا تفعلون مقتا عند الله واختير لفظ المقت، لأنه أشد البغض. وعن بعض السلف أنه قيل له حدثنا فقال: أتأمروننى أن أقول مالا أفعل فأستعجل مقت الله، ثم أعلم الله عز وجل ما يحبه فقال.

●● ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ أى: صافين أنفسهم مصدر وقع موقع الحال ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ لاصق بعضه ببعض، وقيل: أريد به استواء نياتهم فى حرب عدوهم حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة كالبنيان الذى رص بعضه إلى بعض، وهو حال أيضا.

●● ﴿وَإِذْ﴾ منصوب باذكر ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بجحود الآيات والقذف بما ليس فى ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ﴾ فى موضع الحال أى لم تؤذوننى عالمين علما يقينا ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقضية علمكم بذلك توقيرى وتعظيمى لا أن تؤذونى ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ مالوا عن الحق ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ من الهداية، أو لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم أو فلما اختاروا الزيغ أزاغ الله قلوبهم أى: خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: لا يهدى من سبق فى علمه أنه فاسق.

●● ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل يا قوم كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له

---

(١) الحديث عند الدارمى، والترمذى، وأحمد، والحاكم، . . . كلهم عن الأوزاعى ـ بسنده ـ عن عبدالله بن سلام، رضى الله عنه.

فيهم فيكونوا قومه ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أى: أرسلت إليكم فى حال تصديقى ما تقدمنى من التوراة، وفى حال تبشيرى برسول يأتى من بعدى يعنى أن دينى التصديق: التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر. بعدىّ حجازى وأبو عمرو وأبو بكر، وهو اختيار الخليل وسيبويه، وانتصب مصدقا ومبشرا بما فى الرسول من معنى الإرسال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ عيسى، أو محمد ـ عليهما السلام ـ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ساحر حمزة وعلى.

●● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وأىّ الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذى له فيه سعادة الدارين فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذى هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر، والسحر كذب وتمويه.

●● ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ هذا تهكم فى إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم فى القرآن هذا سحر مثلت حالهم بحال من ينفخ فى نور الشمس بفيه ليطفئه، والمفعول محذوف، واللام للتعليل، والتقدير يريدون الكذب ليطفئوا نور الله بأفواههم أى بكلامهم ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ مكى وحمزة وعلى وحفص، متمٌّ نورَه غيرهم أى: متم الحق ومبلغه غايته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

●● ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أى: الملة الحنيفية ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ على جميع الأديان المخالفة له: ولعمرى لقد فعل فما بقى دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، وعن مجاهد إذا نزل عيسى لم يكن فى الأرض إلا دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تنجيكم شامى.

●● ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنهم قالوا: كيف نعمل؟ فقال: تؤمنون، وهو بمعنى آمنوا عند سيبويه؛ ولهذا أجيب بقوله يغفر لكم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا، وإنما جىء به علىّ لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ﴾ أى: ما ذكر من الإيمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالكم وأنفسكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم كان خيرا لكم حينئذ؛ لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم فتفلحون وتخلصون.

●● ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾

أى: إقامة وخلود يقال: عدن بالمكان إذا أقام به كذا قيل ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب فى الآجلة نعمة أخرى عاجلة محبوبة إليكم، ثم فسرها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أى: عاجل وهو فتح مكة والنصر على قريش، أو فتح فارس والروم وفى تحبونها شىء من التوبيخ على محبة العاجل، وقال صاحب الكشف:[1] معناه هل أدلكم على تجارة تنجيكم وعلى تجارة أخرى تحبونها، ثم قال: نصر أى هى نصر ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على تؤمنون؛ لأنه فى معنى الأمر، كأنه قيل: آمنوا وجاهدوا يثبكم الله وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك، وقيل: هو عطف على قل مرادا قبل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾ أى: أنصار دينه أنصارا لله حجازى وأبو عمرو ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى من أنصارى إلى الله، ولكنه محمول على المعنى أى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: من أنصارى إلى الله، ومعناه من جندى متوجها إلى نصرة الله ليطابق جواب الحواريين، وهو قوله: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أى: نحن الذين ينصرون الله، ومعنى من أنصارى من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معى فى نصرة الله والحواريون أصفياؤه، وهم أول من آمن به وكانوا اثنى عشر رجلا وحوارى الرجل صفيه وخالصه من الحور، وهو البياض الخالص، وقيل: كانوا قصارين يحورون الثياب أى يبيضونها ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعيسى ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ به ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ فقوينا مؤمنيهم على كفارهم ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فغلبوا عليهم والله ولى المؤمنين، والله أعلم.

---

(١) صاحب الكشف؛ هو: أحمد بن إبراهيم الثعلبى، واسم الكتاب: «الكشف والبيان فى تفسير القرآن».

سورة الجمعة مدنية وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقة يعنى إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقته على وحدانية الله تعالى وتنزيهه عن الأشباه، أو تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه فى كل شىء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ألا ترى إلى قوله. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [١] أو تسبيح ضرورة بأن يجرى الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفة له بذلك.

•• ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾ أرسل ﴿فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ أى بعث رجلا أميا فى قوم أميين وقيل: منهم؛ كقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [٢] يعلمون نسبه وأحواله الأمى منسوب إلى أمة العرب؛ لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يقرءون من بين الأمم، وقيل بدئت الكتابة بالطائف وهم أخذوها من أهل الحيرة [٣]، وأهل الحيرة من أهل الأنبار [٤] ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة، أو الفقه فى الدين ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ من قبل محمد (ﷺ) ﴿لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ كفر وجهالة وإن مخففة من الثقيلة، واللام دليل عليها أى كانوا فى ضلال لا ترى ضلالا أعظم منه.

•• ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ مجرور معطوف على الأميين يعنى أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده وفى آخرين من الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أى: لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أو هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم الدين، وقيل: هم العجم، أو منصوب معطوف على المنصوب فى ويعلمهم أى يعلمهم ويعلم آخرين؛ لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندا إلى أوله فكأنه هو الذى تولى كل ما وجد منه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فى تمكينه رجلا أميا من ذلك الأمر العظيم وتأييده عليه واختياره إياه من بين كافة البشر.

•• ﴿ذَلِكَ﴾ الفضل الذى أعطاه محمدا وهو أن يكون نبى أبناء عصره ونبى أبناء العصور الغوابر هو ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ اعطاءه وتقتضيه حكمته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٤٤). (٢) سورة «التوبة»، الآية (١٢٨).

(٣) الحيرة: مدينة قرب الكوفة ـ على بعد ثلاثة أميال ـ وإليها رحل جزء كبير من العرب اليمنيين لما انهدم سد مأرب، وأقاموا فيها دولة، وكانت لهم بها ملوك، منهم الملك الشهير: النعمان بن المنذر. معجم البلدان (٢/ ٣٧٦).

(٤) الأنبار: مدينة قرب «بلخ»، فتحها خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ صلحاً عام ١٢هـ.
معجم البلدان (١/ ٣٠٥).

•• ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أى: كلفوا علمها والعمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثم لم يعملوا بها فكأنهم لم يحملوها ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ جمع سفر، وهو الكتاب الكبير، ويحمل فى محل النصب على الحال، أو الجر على الوصف؛ لأن الحمار كاللئيم فى قوله.

* ولقد أمر على اللئيم يسبنى*

شبه اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ثم لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بآياتها، وذلك أن فيها نعت رسول الله (ﷺ) والبشارة به فلم يؤمنوا به بالحمار حمل كتبا كبارا من كتب العلم فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بئس مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، أو بئس مثل القوم المكذبين مثلهم وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد (ﷺ) ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى وقت اختيارهم الظلم أو لا يهدى من سبق فى علمه أنه يكون ظالما.

•• ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ هاد يهود إذا تهود ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ كانوا يقولون ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1] أى: إن كان قولكم حقا وكنتم على ثقة فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا إلى دار كرامته التى أعدها لأوليائه، ثم قال.

•• ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أى: بسبب ما قدموا من الكفر، ولا فرق بين لا ولن فى أن كل واحدة منهما نفى للمستقبل إلا أن فى لن تأكيدا وتشديدا، ليس فى لا فأتى مرة بلفظ التأكيد ولن يتمنوه، ومرة بغير لفظه ولا يتمنونه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم.

•• ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ﴿فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ لا محالة والجملة خبر إن ودخلت الفاء لتضمن الذى معنى الشرط ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم بما أنتم أهله من العقاب.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ النداء الأذان، ومن بيان لإذا وتفسير له ويوم الجمعة سيد الأيام وفى الحديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر[2]». ﴿فَاسْعَوْا﴾ فامضوا، وقرئ بها وقال الفراء: السعى والمضى والذهاب واحد وليس المراد به السرعة فى المشىْ ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: إلى الخطبة عند الجمهور، وبه استدل أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ على أن الخطيب إذا اقتصر على الحمد لله جاز ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أراد الأمر بترك ما يذهل عن ذكر الله من شواغل الدنيا، وإنما خص البيع من بينها؛ لأن يوم الجمعة يتكاثر فيه البيع والشراء

---

(١) سورة «المائدة»، الآية (١٨).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٧/ ٢١٠٨٣، ٢١٠٨٤).

عند الزوال فقيل: لهم: بادروا تجارة الآخرة واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر الله الذى لا شيء أنفع منه وأربح، وذروا البيع الذى نفعه يسير ﴿ذَلِكُمْ﴾ أى: السعى إلى ذكر الله ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البيع والشراء ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

●● ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ أى: أديت ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أمر إباحة ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ الرزق، أو طلب العلم، أو عيادة المريض، أو زيارة أخ فى الله ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ واشكروه على ما وفقكم لأداء فرضه ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

●● ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ تفرقوا عنك إليها وتقديره وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أولهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه، وإنما خص التجارة؛ لأنها كانت أهم عندهم، روى أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء فقدم دحية بن خليفة بتجارة من زيت الشام والنبى (ﷺ) يخطب يوم الجمعة فقاموا إليه فما بقى معه إلا ثمانية، أو اثنا عشر فقال (ﷺ): «والذى نفس محمد بيده لو خرجوا جميعا؛ لأضرم عليهم الوادى نارا[1]. وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق فهو المراد باللهو ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ على المنبر ﴿قَائِمًا﴾ تخطب، وفيه دليل على أن الخطيب ينبغى أن يخطب قائما ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أى: لا يفوتهم رزق الله بترك البيع فهو خير الرازقين، والله أعلم.

---

(١) فى مسند عبدالرزاق - بنحوه -، وروى الطبرى القصة مختصرة وهو - بمعناه - فى الصحيحين، من حديث جابر.

(سورة المنافقين(١) إحدى عشرة آية، مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أرادوا شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ أى: والله يعلم أن الأمر كما يدل عليه قولهم إنك لرسول الله ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فى ادعاء المواطأة أو إنهم لكاذبون فيه؛ لأنه إذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة فهم كاذبون فى تسميته شهادة، أو إنهم لكاذبون عند أنفسهم لأنهم كانوا يعتقدون أن قولهم إنك لرسول الله كذب، وخبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه.

●● ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقاية من السبى والقتل، وفيه دليل على أن أشهد يمين ﴿فَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الإسلام بالتنفير وإلقاء الشبه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله وفى ساء معنى التعجب الذى هو تعظيم أمرهم عند السامعين.

●● ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى قوله ساء ما كانوا يعملون أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالا ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ أو إلى ما وصف من حالهم فى النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان أى ذلك كله بسبب أنهم آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام، ثم كفروا، ثم ظهر كفرهم بعد ذلك بقولهم إن كان ما يقوله محمد حقا فنحن حمير، ونحو ذلك، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾(٢) الآية ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فختم عليها حتى لا يدخلها الإيمان جزاء على نفاقهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يتدبرون، أو لا يعرفون صحة الإيمان، والخطاب فى.

●● ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لرسول الله أو لكل من يخاطب ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ كان ابن أبىّ رجلا جسيما صبيحا فصيحا وقوم من المنافقين فى مثل صفته، فكانوا يحضرون مجلس النبى (ﷺ) فيستندون فيه ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن، فكان النبى (ﷺ) ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم، وموضع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ رفع على هم كأنهم خشب، أو هو كلام مستأنف لا محل له ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ إلى الحائط شبهوا فى استنادهم ـ وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير ـ بالخشب المسندة إلى الحائط، لأن الخشب إذا انتفع به كان فى

---

(١) هذا على الرأى القائل بإعراب الأسماء إذا وقعت علماً، ولكننا نميل إلى الرفع دائماً على الحكاية، فنقول: «سورة المنافقون»، ولا نجرها بالإضافة؛ فتصير: «المنافقين»؛ لكى لا نغير الاسم الذى أصبح علماً.

(٢) سورة «البقرة»، الآيات (١٤)، و(٧٦).

سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكا غير منتفع به أسند إلى الحائط فشبهوا به فى عدم الانتفاع، أو لأنهم أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام، خشْب أبو عمرو غير عباس وعلى، جمع خشبة كبدنة وبدون وخشب كثمرة وثمر ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ كل صيحة مفعول أول، والمفعول الثانى عليهم، وتم الكلام أى يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم لخيفتهم ورعبهم، يعنى إذا نادى مناد فى العسكر، أو انفلتت دابة، أو أنشدت ضالة ظنوه إيقاعا بهم ثم قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أى هم الكاملون فى العداوة، لأن أعدى الأعداء العدو المداجى(١) الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ ولا تغترر بظاهرهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يعدلون عن الحق تعجباً من جهلهم وضلالتهم.

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها وأمالوها إعراضا عن ذلك واستكبارا لوَوا بالتخفيف نافع ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار والاستغفار روى أن رسول الله (ﷺ) حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد أجير لعمر وسنان الجهنى حليف لابن أبى واقتتلا؛ فصرخ جهجاه يا للمهاجرين، وسنان يا للأنصار فأعان جهجاها جعال من فقراء المهاجرين ولعلم سنانا فقال عبدالله لجعال وأنت هناك، وقال: ما صحبنا محمداً إلا لنلطم والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل عنى بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله (ﷺ) ثم قال لقومه: والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد فسمع بذلك زيد بن أرقم(٢) وهو حدث فقال أنت والله الذليل القليل المبغض فى قومك، ومحمد على رأسه تاج المعراج فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين، فقال عبدالله: اسكت، فإنما كنت ألعب فأخبر زيد رسول الله (ﷺ) فقال عمر - رضى الله عنه - دعنى أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله، فقال: إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب. قال: فإن كرهت أن يقتله مهاجرى فأمر به أنصاريا. قال: فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، وقال - عليه الصلاة والسلام - لعبد الله: أنت صاحب الكلام الذى بلغنى. قال: أى والله الذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإن زيدا لكاذب فهو قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ فقال الحاضرون: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام

---

(١) المداجى: المستتر. مأخوذ من «الدجى»، وهو وقت الظلمة.

(٢) هو الصحابى الجليل؛ زيد بن أرقم بن زيد بن قيس، الأنصارى، الخزرجى، أبو عمرو، مجاهد، غزا مع النبى ﷺ ١٧ غزوة، أول مشاهده الخندق، وكان استصغر يوم أحد، وشهد صفين مع على، وكان من خواصه، توفى - رضى الله عنه - بالكوفة عام ٦٨هـ، على الراجح.
تهذيب التهذيب (٢/ ٢٣٠، ٢٣١).

غلام عسى أن يكون قد وهم فلما نزلت قال رسول الله (ﷺ) لزيد: «يا غلام إن الله قد صدقك وكذب المنافقين[1] ». فلما بان كذب عبدالله قيل له قد نزلت فيك آى شداد فاذهب إلى رسول الله (ﷺ) يستغفر لك فلوى رأسه فقال أمرتمونى أن أومن فآمنت وأمرتمونى أن أزكى مالى فزكيت، وما بقى لى إلا أن أسجد لمحمد، فنزل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات[2].

•• ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أى: ما داموا على النفاق والمعنى سواء عليهم الاستغفار وعدمه؛ لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم، أو لأن الله لا يغفر لهم وقرىء استغفرت على حذف حرف الاستفهام، لأن أم المعادلة تدل عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

•• ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ يتفرقوا ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: وله الأرزاق والقسم فهو رازقهم منها وإن أبى أهل المدينة أن ينفقوا عليهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ ولكن عبدالله وأضرابه جاهلون لا يفقهون ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان.

•• ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا﴾ من غزوة بنى المصطلق ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ الغلبة والقوة ﴿وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولمن أعزه الله وأيده من رسوله، ومن المؤمنين، وهم الأخصاء بذلك، كما أن المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين، وعن بعض الصالحات ـ وكانت فى هيئة رثة ـ: ألست على الإسلام، وهو العز الذى لا ذل معه، والغنى الذى لا فقر معه، وعن الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيها. قال: ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا هذه الآية. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

•• ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾ والتصرف فيها والسعى فى تدبير أمرها بالنماء وطلب النتاج ﴿وَلا أَوْلادُكُمْ﴾ وسروركم بهم وشفقتكم عليهم والقيام بمؤنهم ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى عن الصلوات الخمس، أو عن القرآن ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يريد الشغل بالدنيا عن الدين وقيل من يشتغل بتثمير أمواله عن تدبير أحواله وبمرضاة أولاده عن إصلاح معاده ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فى تجارتهم حيث باعوا الباقى بالفانى.

•• ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ من للتبعيض والمراد بالإنفاق الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ

---

(١) أصل القصة فى الصحيحين، من حديث زيد.

(٢) لم أجده فى كتب الحديث.

﴿الْمَوْتُ﴾ أى من قبل أن يرى دلائـل الموت ويعاين ما ييأس مـعه من الإمهال ويتعذر عـليه الإنفاق ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي﴾ هل أخرت موتى ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمان قليل ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدق وهو جواب لولا ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المؤمنين والآية فى المؤمنـين، وقيل: فى المنافقين وأكون أبو عمرو بالنصب عطفا على اللفظ والجزم على موضع فأصدق كأنه قيل إن أخرتنى أصدق وأكن.

●● ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ عن الموت ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المكتوب فى اللوح المحفوظ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعملون حماد ويـحيى، والمعنى أنكم إذا علمتم أن تأخـير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه، وأنه هاجم لا محالة، وأن الله عليم بأعمالكم فمجاز عليهم من منع واجب وغيره لم يبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجب والاستعداد للقاء الله تعالى، والله أعلم بالصواب.

(سورة التغابن ثماني عشرة آية مختلف فيها)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدم الظرفان ليدل بتقديم ما على اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل وذلك؛ لأن الملك على الحقيقة له؛ لأنه مبدىء كل شىء والقائم به، وكذا الحمد لأن أصول النعم وفروعها منه، وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء وحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده.

●● ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أى: فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان وفاعل له ويدل عليه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم، والمعنى هو الذى تفضل عليكم بأصل النعم الذى هو الخلق والإيجاد من العدم وكان يجب أن تكونوا بأجمعكم شاكرين، فما بالكم تفرقتم أمما فمنكم كافر ومنكم مؤمن وقدم الكفر، لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم، وهو رد لقول من يقول بالمنزلة بين المنزلتين وقيل هو الذى خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية(١)، ومنكم مؤمن به.

●● ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة وهو أن جعلها مقار المكلفين ليعلموا فيجازيهم ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى: جعلكم أحسن الحيوان كله وأبهاه بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب، ومن كان دميما مشوه الصورة سمج الخلقة فلا سماجة ثم، ولكن الحسن على طبقات فلا نحطاطها عما فوقها لا تستملح ولكنها غير خارجة عن حد الحسن، وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما، الجمال والبيان ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائركم كما أحسن صوركم.

●● ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ نبه بعلمه ما فى السموات والأرض، ثم بعلمه بما يسره العباد ويعلنونه، ثم بعلمه بذات الصدور أن شيئا من الكليات والجزئيات غير خاف عليه فحقه أن يتقى ويحذر، ولا يجترأ على شىء مما يخالف رضاه، وتكرير العلم فى معنى تكرير الوعيد، وكل ما ذكره بعد قوله فمنكم كافر ومنكم مؤمن فى معنى الوعيد على الكفر وإنكار أن يعصى الخالق ولا تشكر نعمته.

---

(١) الدهرية: فرقة ضالة، يقولون: الطبع محيى، والدهر مفنى.

وينكرون البعث والإعادة، وملخص قولهم:

«إن هى إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع».

(الملل والنحل ـ الباب السادس ـ الفصل الأول).

●● ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطاب لكفار مكة ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ يعنى قوم نـوح وهود وصالح ولوط ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أى ذاقوا وبال كفرهم فى الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فى العقبى.

●● ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكـر من الوبال الذى ذاقوه فى الـدنيا وما أعد لهم مـن العذاب فى الآخرة ﴿بِأَنَّهُ﴾ بأن الـشأن والحـديث ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعـجزات ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكروا الرسـالة للبشر ولم يـنكروا العبادة لـلحجر ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالـرسل ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أطلق ليتنـاول كل شىء، ومن جملته إيمانهـم وطاعتهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَمِيدٌ﴾ على صنعه.

●● ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أهل مكـة، والزعم ادعاء العلـم ويتعدى تعدى الـعلم ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ أن مع ما فى حيزه قائم مقام المفعولين وتقديره أنهم لن يبعثوا ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ هو إثبات لما بعد لن، وهو البعث ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أكد الإخبار باليمين ـ فإن قلت: ما معنى اليمين على شىء أنكروه ـ قلت هو جائز لأن التـهديد به أعظم موقعا فى القلـب فكأنه قيل لهم ما تنكرونـه كائن لا محالة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ﴾ البعث ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هين.

●● ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد (ﷺ) ﴿وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا﴾ يعنى القرآن لأنه يبين حقيقة كل شىء فيهتدى به كما بالنور ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فراقبوا أموركم.

●● ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ انتصب الظرف بقوله لـتنبؤن، أو بإضمار اذكر ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ليوم يجمع فيه الأولون والآخرون ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ وهو مستعـار من تغابن القوم فى التـجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضا لنـزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لـو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل الـسعداء التى كـانوا ينزلونـها لو كانوا أشـقياء، كما ورد فـى الحديث[1] ومعنـى ذلك يوم التغابن، وقـد يتغابن الناس فى غيـر ذلك اليوم استعظام له وأن تـغابنه هو التغابن فـى الحقيقة لا التغابن فى أمور الدنيا ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ صفة للمصدر أى عملا صالحا ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ﴾ وبالنون فيهما مدنى وشامى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

●● ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ شدة ومرض وموت أهل أو شىء يقتضى همّاً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه وتقديره ومشيئته كأنه أذن لـلمصيبة أن تصيبه ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للاسترجاع عند المصيبة

---

(١) حديثان؛ أحدهما متفق عليه، من حديث أنس، والآخر عند البخارى، من حديث أبى هريرة.

حتى يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] أو يشرحه للازدياد من الطاعة والخير، أو يهد قلبه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه[2]. وعن مجاهد إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن ظلم غفر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

●● ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أى: فعليه التبليغ وقد فعل.

●● ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بعث لرسول الله (ﷺ) على التوكل عليه حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ أى: إن من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهن ويخاصمنهم، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقّونهم ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدو أو للأزواج والأولاد جميعا أى: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوٍّ فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عنهم إذا اطلعتم منهم على عداوة ولم تقابلوهم بمثلها ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ تعرضوا عن التوبيخ ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ تستروا ذنوبهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم ويكفر عنكم سيئاتكم، قيل: إن ناسا أرادوا الهجرة عن مكة فثبطهم أزواجهم وأولادهم، وقالوا: تنطلقون وتضيعوننا فرقوا لهم ووقفوا لما هاجروا بعد ذلك، ورأوا الذين سبقوهم قد فقهوا فى الدين أرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم فزين لهم العفو[3].

●● ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ بلاء ومحنة؛ لأنهم يوقعون فى الإثم والعقوبة ولا بلاء أعظم منهما ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أى: فى الآخرة وذلك أعظم من منفعتكم بأموالكم وأولادكم ولم يدخل فيه من كما فى العداوة؛ لأن الكل لا يخلو عن الفتنة وشغل القلب وقد يخلو بعضهم عن العداوة.

●● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ جهدكم ووسعكم، قيل: هو تفسير لقوله ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[4] ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما توعظون به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما تؤمرون به وتنهون عنه ﴿وَأَنفِقُوا﴾ فى الوجوه التى وجبت عليكم النفقة فيها ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أى: انفاقا خيرا لأنفسكم. وقال الكسائى: يكن الإنفاق خيرا لأنفسكم والأصح أن تقديره ائتوا خيرا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها، وهو تأكيد

(١) سورة «البقرة»، الآية (١٥٦).

(٢) الحديث عند الطبرى، من حديث ابن عباس.

(٣) الحديث عند الطبرى، من حديث ابن عباس، بنحوه.

(٤) سورة «آل عمران»، الآية (١٠٢).

للحث على امتثال هذه الأوامر وبيان؛ لأن هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ أى: البخل بالزكاة والصدقة الواجبة ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

●● ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بنية وإخلاص وذكر القرض تلطف فى الاستدعاء ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يكتب لكم بالواحدة عشرا، أو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقبل القليل ويعطى الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ يقيل الجليل من ذنب البخيل أو يضعف الصدقة لدافعها ولا يعجل العقوبة لمانعها.

●● ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ أى: يعلم ما استتر من سرائر القلوب ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ أى ما انتشر من ظواهر الخطوب ﴿الْعَزِيزُ﴾ المعز بإظهار السيوب[1] ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى الإخبار عن الغيوب، والله أعلم.

(١) السيوب: الركاز، أى: المعادن المدفونة، والكنوز المستخرجة من باطن الأرض. القاموس (١/ ٨٤).

{سورة الطلاق مدنية، وهي اثنتا عشرة آية}

{بسم الله الرحمن الرحيم}

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خص النبى (ﷺ) بالنداء، وعم بالخطاب؛ لأن النبى إمام أمته وقدوتهم كما يقال لرئيس القوم: يا فلان افعلوا كذا إظهارا لتقدمه واعتبارا لترؤسه وأنه قدوة قومه، فكان هو وحده فى حكم كلهم وسادّا مسد جميعهم، وقيل: التقدير يا أيها النبى والمؤمنون، ومعنى إذا طلقتم النساء إذا أردتم تطليقهن وهممتم به على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه كقوله – عليه السلام – :«من قتل قتيلا فله سلبه»(١). ومنه : كان الماشى إلى الصلاة والمنتظر لها فى حكم المصلى. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فطلقوهن مستقبلات لعدتهن وفى قراءة رسول الله (ﷺ) فى قبل عدتهن وإذا طلقت المرأة فى الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها والمراد أن تطلق المدخول بهن من المعتدات بالحيض فى طهر لم يجامعهن فيه، ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن، وهذا أحسن الطلاق ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لانقصان فيهن وخوطب الأزواج لغفلة النساء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتى تنقضى عدتهن ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن التى يسكنها قبل العدة، وهى بيوت الأزواج وأضيفت إليهن لاختصاصها بهن من حيث السكنى، وفيه دليل على أن السكنى واجبة وأن الحنث بدخول دار يسكنها فلان بغير ملك ثابت فيما إذا حلف لايدخل داره، ومعنى الإخراج أن لايخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن، أو لحاجة لهم إلى المساكن وأن لايأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك إيذانا بأن إذنهم لا أثر له فى رفع الحظر ﴿وَلا يَخْرُجْنَ﴾ بأنفسهن إن أردن ذلك ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قيل: هى الزنا، أى إلا أن يزنين فيخرجن لإقامة الحد عليهن، وقيل: خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة فى نفسه ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: الأحكام المذكورة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي﴾ أيها المخاطب ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ بأن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه فيراجعها، والمعنى فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ولاتخرجوهن من بيوتهن لعلكم تندمون فتراجعون.

●● ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن آخر العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أى: فأنتم بالخيار إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف والإحسان وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتقاء الضرار، وهو أن يراجعها فى آخر عدتها، ثم يطلقها تطويلا للعدة عليها وتعذيبا لها ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ يعنى عند الرجعة والفرقة جميعا، وهذا الإشهاد مندوب إليه لئلا يقع بينهما التجاحد

(١) الحديث متفق عليه، من حديث أبى قتادة.

﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ من المسلمين ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ لوجهه خالصا وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر ﴿ذَلِكُمْ﴾ الحث على إقامة الشهادة لوجه الله، ولأجل القيام بالقسط ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى: إنما ينتفع به هؤلاء ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ هذه جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجرام أمر الطلاق على السنة، والمعنى ومن يتق الله فطلق للسنة ولم يضار المعتدة ولم يخرجها من مسكنها واحتاط فأشهد؛ يجعل الله له مخرجا مما فى شأن الأزواج من الغموم والوقوع فى المضايق ويفرج عنه ويعطه الخلاص.

●● ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ من وجه لايخطر بباله ولايحتسبه، ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله : ذلكم يوعظ بـه. أى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة، وعن النبى (ﷺ) أنه قرأها فقال: «مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة» (1). وقال (ﷺ) :«إنى لأعلم آية لوأخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله. فمازال يقرؤها ويعيدها» (2)، وروى أن عوف بن مالك أسر المشركون ابنا له فأتى رسول الله (ﷺ): فقال: أسر ابنى وشكا إليه الفاقة فقال:«ما أمسى عند آل محمد إلا مد فاتق الله اصبر وأكثر من قول لاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم». فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إن رسول الله أمرنى وإياك أن نستكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، فقالت : نعم ما أمرنا به، فجعلا يقولان ذلك فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها(3). فنزلت هذه الآية ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يكل أمره إليه عن طمع غيره وتدبير نفسه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كافية فى الدارين ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ حفص أى: منفذ أمره، غيره بالغ أمره أى يبلغ ما يريد لايفوته مراد ولايعجزه مطلوب ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديرا وتوقيتا، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه؛ لأنه إذا علم أن كل شىء من الرزق ونحوه لايكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل.

●● ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ روى أن ناسا قالوا قد عرفنا عدة ذوات الأقراء فما عدة اللائى لم يحضن فنزلت ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أى: أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أى: فهذا حكمهن، وقيل إن ارتبتم فى دم البالغات مبلغ اليأس وقد قدروه بستين سنة وبخمس وخمسين أهو دم حيض أو استحاضة؟ فعدتهن ثلاثة أشهر، وإذا كانت عدة

---

(1) لم أجده فى كتب الحديث.

(2) الحديث عند أحمد ـ فى الزهد ـ وابن ماجة والحاكم، كلهم من حديث أبى ذر، يرفعه.

(3) لم أجده فى كتب الحديث.

المرتاب بها فغير المرتاب بها أولى بذلك ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ هن الصغائر وتقديره واللائى لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر، فحذفت الجملة لدلالة المذكور عليها ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ عدتهن ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ والنص يتناول المطلقات والمتوفى عنهم أزواجهن، وعن على وابن عباس - رضى الله عنهم - عدة الحامل المتوفى عنها زوجها أبعد الأجلين (١). ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ييسر له من أمره ويحلل من عقده بسبب التقوى.

●● ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أى: ما علم من حكم هؤلاء المعتدات ﴿أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فى العمل بماأنزله من هذه الأحكام وحافظ على الحقوق الواجبة عليه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ ثم بين التقوى فى قوله ومن يتق الله، كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات؟ فقيل.

●● ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وكذا وكذا ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ هى من التبعيضية مبعضها محذوف أى أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم أى: بعض مكان سكناكم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ هو عطف بيان لقوله ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسير له، كأنه قيل: أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه، الوجد: الوسع والطاقة. وقرىء بالحركات الثلاث والمشهور الضم والنفقة والسكنى واجبتان لكل مطلقة وعند مالك والشافعى لانفقة للمبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس أن زوجها أبت طلاقها فقال رسول الله (ﷺ): «لا سكنى لك ولا نفقة»(٢)، وعن عمر-رضى الله عنه- لاندع كتاب ربنا وسنة نبينا بقول امرأة لعلها نسيت، أو شبه لها سمعت النبى (ﷺ) يقول لها السكنى والنفقة (٣) ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ ولاتستعملوا معهن الضرار ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فى المسكن ببعض الأسباب من إنزال من لايوافقهن أو يشغل مكانهن أو غير ذلك حتى تضطروهن إلى الخروج ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أى: المطلقات ﴿أُولَاتِ حَمْلٍ﴾ ذوات أحمال ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وفائدة اشتراط الحمل أن مدة الحمل ربما تطول فيظن ظان النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحامل، فنفى ذلك الوهم ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعنى هؤلاء المطلقات إن أرضعن لكم ولدا من ظئرهن، أو منهن بعد انقطاع عصمة الزوجية ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فحكمهن فى ذلك حكم الأظآر ولايجوز الاستجار إذا كان الولد منهن مالم يبن خلافا للشافعى - رحمه الله - ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم﴾ أى: تشاوروا على التراضى فى الأجرة أو ليأمر بعضكم بعضا والخطاب للآباء والأمهات ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بمايليق بالسنة، ويحسن فى المروءة فلا يماكس(٤)

(١) الحديث عند البخارى.

(٢) الحديث عند مسلم، من أكثر من طريق، عن فاطمة بنت قيس.

(٣) الحديث عند مسلم وأبى داود والنسائى.

(٤) يماكس: يبخل.

لأب ولاتعاسر الأم، لأنه ولدهما وهما شريكان فيه،وفى وجوب الإشفاق عليه ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ تضايقتم فلم ترض الأم بما ترضع به الأجنبية ولم يزد الأب على ذلك ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ فستوجد ولاتعوذ مرضعة غير الأم ترضعه وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة وقوله له أى للأب أى سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه.

●● ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أى لينفق كل واحد من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه يريد ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ومعنى قدر عليه رزقه ضيق أى رزقه الله على قدر قوته ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ أعطاها من الرزق ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ بعد ضيق فى المعيشة سعة وهذا وعد لذى العسر باليسر.

●● ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿عَتَتْ﴾ أى: عصت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أعرضت عنه على وجه العتو العناد﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والمناقشة ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ نكرا مدنى وأبو بكر منكرا عظيما.

●● ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أى: خساراً وهلا كا، والمراد حساب الآخرة وعذابها، وما يذوقون فيها من الوبال ويلقون من الخسر وجيء به على لفظ الماضى؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى فى الحقيقة وما هو كائن فكأن قد.

●●﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد وبيان لكونه مترقباً، كأنه قال أعد الله لهم هذا العذاب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فليكن لكم ذلك يا أولى الألباب من المؤمنين لطفا فى تقوى الله وحذر عقابه، ويجوز أن يراد إحصاء السيئات واستقصاؤها عليهم فى الدنيا وإثباتها فى صحائف الحفظة وما أصيبوا به من العذاب فى العاجل وأن يكون عتت، وما عطف عليه صفة للقرية، وأعد الله لهم جوابا لكأين ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أى القرآن.

●● وانتصب﴿رَسُولاً﴾ بفعل مضمر تقديره أرسل رسولا، أو بدل من ذكرا كأنه فى نفسه ذكرا وعلى تقدير حذف المضاف، أى قد أنزل الله إليكم ذا ذكر رسولا، أو أريد بالذكر الشرف كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(١) أى: ذا شرف ومجد عند الله وبالرسول جبريل، أو محمد - عليهما السلام -﴿يَتْلُو﴾ أى: الرسول أو الله عزوجل ﴿عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ﴾ الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ليحصل لهم ما هم عليه الساعة من الإيمان والعمل الصالح، أو ليخرج الذين علم أنهم يؤمنون﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر أو الجهل، إلى نور الإيمان، أو العلم ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وبالنون مدنى وشامى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

(١) سورة «الزخرف»، الآية (٤٤).

االأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وحد وجمع حملا على لفظ من ومعناه ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب.

●● ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أجمع المفسرون على أن السموات سبع ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب عطفا على سبع سموات، قيل: ما فى القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه الآية، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وغلظ كل سماء كذلك والأرضون مثل السموات، وقيل الأرض واحدة إلا أن الأقاليم سبعة ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أى: يجرى أمر الله وحكمه بينهن وملكه ينفذ فيهن ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللام يتعلق بخلق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ هو تمييز، أو مصدر من غير لفظ الأول أى قد علم كل شىء علما، وهو علام الغيوب.

(سورة التحريم مدنية، وهى اثنتا عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روى أن رسول الله (ﷺ) خلا بمارية فى يوم عائشة - رضى الله عنها - وعلمت بذلك حفصة فقال لها: «اكتمى على وقد حرمت مارية على نفسى، وأبشرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدى أمر أمتى، فأخبرت به عائشة ، وكانتا مصادقتين [(١)] وقيل: خلابها فى يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم[(٢)] فطلقها واعتزل نساءه ومكث تسعا وعشرين ليلة فى بيت مارية فنزل جبريل - عليه السلام - وقال: راجعها فإنها صوامة قوامة، وإنها لم نسائك فى الجنة [(٣)] لمن وروى أنه شرب عسلا فى بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة وقالتا له: إنا نشم منك ريح المغافير [(٤)] وكان يكره رسول الله (ﷺ) [(٥)] التفل فحرم العسل [(٦)] فمعناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين، أو من العسل ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لتحرم، أو حال ، أو استئناف وكان هذا زلة منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ قد غفر لك ما زللت فيه ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رحمك فلم يؤاخذك به.

●● ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد قدر الله لكم ما تحللون به أيمانكم وهى الكفارة، أو قد شرع لكم تحليلها بالكفارة، أو شرع الله لكم الاستثناء فى أيمانكم من قولك حلل فلان فى يمينه إذا استثنى فيها، وذلك أن يقول إن شاء الله عقيبها حتى لا يحنث، وتحريم الحلال يمين عندنا وعن مقاتل أن رسول الله (ﷺ) أعتق رقبة فى تحريم مارية وعن الحسن أنه لم يكفر؛ لأنه كان مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وإنما هو تعليم للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ سيدكم متولى أموركم، وقيل: مولاكم أولى بكم من أنفسكم فكانت نصيحته أنفع لكم من نصائحكم أنفسكم ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أحل وحرم.

●● ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعنى: حفصة ﴿حَدِيثًا﴾ حديث ماريةوإمامة الشيخين ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أفشته إلى عائشة ـ رضى الله عنها ـ ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾وأطلع النبى (ﷺ) على إفشائها الحديث على لسان جبريل ـ عليه السلام - ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أعلم ببعض الحديث ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ فلم يخبر به تكرما قال سفيان: مازال التغافل من فعل الكرام، عرف بالتخفيف على أى جازى عليه من قولك للمسىء لأعرفن لك ذلك، وقيل: المعروف حديث الإمام والمعرض عنه

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(٢) لم أجده فى كتب الحديث.

(٣) الحديث عند الحاكم.

(٤) ريح المغافير: ما يخرج من النبات

(٥) التفل: تغير الرائحة.

(٦) الحديث متفق عليه، من حديث عمر، باختلاف طفيف.

حديث مارية، وروى أنه قال لها: ألم أقل لك اكتمى علـى، قالت: والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى فرحا بالكرامـة التى خص الله بها أباها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ نبأ النبى حفصة بما أفشت من السر إلى عائشة ﴿قَالَتْ﴾ حفصة لـلنبى (ﷺ) ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ﴾ بالسرائر﴿ الْخَبِيرُ﴾ بالضمائر.

●●﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتـفات ليكون أبلغ فى معاتبتهما، وجواب الشرط محذوف والـتقدير إن تتوبا إلى الله فهو الـواجب ودل على المحذوف ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ مالت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الواجب فـى مخالصة رسول الله (ﷺ) من حـب مايحبه وكراهة مـا يكرهه ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ بالتخفيف كـوفى وإن تعاونا عليه بما يسوءه من الإفراط فـى الغيرة وإفشاء سره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ وليه وناصـره. وزيادة هو إيذان بأنه يتولـى ذلك بذاته ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ أيضاً وليه ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن صلح من المؤمـنين أى كل من آمن وعمل صالحا، وقـيل: من برىء من النفاق، وقيل: الصحـابة، وقيل: واحد أريد به الجمع كقولك لايفعل هذا الـصالح من الناس تريد الجنس، وقيل : أصله صالحو المؤمنين فحذفت الواو من الخط موافقة للفظ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ على تكاثر عددهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد نصرة الله وجبريـل وصالحى المؤمنين ﴿ظَهِيرٌ﴾ فوج مظاهر له فـما يبلغ تظاهر امرأتيـن على من هؤلاء ظهراؤه، ولما كانت مـظاهرة الملائكة من جملة نـصرة الله قال بعد ذلك تعظيما لنصرتهم ومظاهرتهم.

●● ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ﴾ يبدّله مدنـى وأبو عمرو فالتشديـد للكثرة ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فإن قلت كيف تكون المبدلات خيرا منهـن ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟! قلت: إذا طلقهن رسول الله (ﷺ) لإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة وكان غيرهن من الموصـوفات بهذه الأوصـاف خيرا منـهن ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ﴾ مقـرات مخلـصات ﴿قَانِتَاتٍ﴾ مطيـعات فالقـنوت هو القـيام بطاعـة الله وطاعة اللـه فى طاعة رسـوله ﴿تَائِبَاتٍ﴾ من الـذنوب، أوراجعات إلى الله وإلـى أمر رسوله ﴿عَابِدَاتٍ﴾ لله ﴿ سَائِحَاتٍ﴾ مهاجرات، أو صائـمات وقيل للصائم سـائح، لأن السائح لازاد معه فلا يـزال ممسكا إلى أن يجد ما يـطعمه فشبه به الـصائم فى إمساكه إلى أن يـجىء وقت إفطاره ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ إنما وسط العاطف بيـن الثيبات والأبكار دون سائر الصفات؛ لأنهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصى وفعل الطاعات ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ نوعا من النار لاتتقد إلا بالناس والحجارة كما يتقد غيرها من النيران بالحطب ﴿عَلَيْهَا﴾ يلى أمرها وتعذيب أهلها ﴿ مَلَائِكَةٌ﴾ يعنى الزبانية التسعة

عشر وأعوانهم ﴿غِلاظٌ شِدادٌ﴾ فى أجرامهم غلظة وشدة، أوغلاظ الأقوال شداد الأفعال ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ﴾ فى موضع الرفع على النعت ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ فى محل النصب على البدل أى لايعصون ما أمر الله أى أمره، كقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾[1] أو لايعصونه فيما أمرهم ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وليست الجملتان فى معنى واحد إذ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به ولا يتثاقلون عنه ولايتوانون فيه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا أى يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لاتعتذروا ؛ لأنه لاعذر لكم، أو لأنه لاينفعكم الاعتذار .

●● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ صادقة عن الأخفش - رحمه الله - وقيل : خالصة يقال عسل ناصح إذا خلص من الشمع، وقيل: نصوحاً من نصاحة الثوب أى توبة ترفو خروقك فى دينك وترم خللك، ويجوز أن يراد توبة تنصح الناس أى تدعوهم إلى مثلها لظهور أثرها فى صاحبها واستعماله الجد والعزيمة فى العمل على مقتضياتها، وبضم النون حماد ويحيى، وهو مصدر أى ذات نصوح، أوتنصح نصوحا وجاء مرفوعا.«إن التوبة النصوح أن يتوب ثم لايعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن فى الضرع»[2] وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشرأن يتوب عن الذنب، ثم يعود فيه. وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: هى الاستغفار باللسان والندم بالجنان والإقلاع بالإركان ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ هذا على ماجرت به عادة الملوك من الإجابةبعسى ولعل، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ونصب ﴿يَوْمَ﴾ بيدخلكم ﴿لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فيه تعريض بمن أخزاهم الله من أهل الكفر﴿نُورُهُمْ﴾ مبتدأ ﴿يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ فى موضع الخبر ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ يقولون ذلك إذا انطفأ نور المنافقين﴿وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

●● ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالقول الغليظ والوعد البليغ، وقيل : بإقامة الحدود عليهم﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾. على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة باللسان ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

●● ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ مثل الله عزوجل حال الكفار فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين لا محاباة، لا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان

---

(١) سورة «طه»، الآية (٩٣).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٤/١٠٢٨٣، ١٠٣٠٢، ١٠٣٠٤).

بينهم وبينهم من النسب والمصاهرة، وإن كان المؤمن الذى يتصل به الكافر نبيا بحال امرأة نوح وامرأة لوط لما نافقتا وخانتا الرسولين بإفشاء أسرارهما، فلم يغن الرسولان عنهما - أى عن المرأتين بحق ما بينهما وبينهما من الزواج إغناء ما من عذاب الله ، وقيل لهما : عند موتهما، أو يوم القيامة ادخلا النار مع سائر الداخلين الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط.

●● ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ هى آسية بنت مزاحم آمنت بموسى فعذبها فرعون بالأوتاد الأربعة ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ وهى تعذب ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فكأنها أرادت الدرجة العالية؛ لأنه تعالى منزه عن المكان فعبرت عنها بقولها عندك ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أى عمل فرعون، أو من نفس فرعون الخبيثة وخصوصا من عمله وهو الكفر والظلم والتعذيب بغير جرم ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ من القبط كلهم وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه مسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين.

●● ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا﴾ فنفخ جبريل بأمرنا ﴿فِيهِ﴾ فى الفرج ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ المخلوقة لنا ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أى: بصحفه التى أنزلها على إدريس وغيره ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بصرى وحفص، يعنى الكتب الأربعة ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ لما كان القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين غلب ذكوره على إناثه ومن للتبعيض، ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين؛ لأنها من أعقاب هارون أخى موسى - عليهما السلام - ومثل حال المؤمنين فى أن وصلة الكافرين لاتضرهم ولاتنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله مع كونها زوجة أعدى أعداء الله، ومريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين مع أن قومها كانوا كفارا. وفى طى هذين التمثيلين تعريض بأمى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله (ﷺ) بماكرهه، وتحذير لهما على أغلظ وجه وإشارة إلى أن من حقهما أن يكونا فى الإخلاص كهاتين المؤمنتين وأن لايتكلا على أنهما زوجا رسول الله (ﷺ).

سورة الملك مكية، وهى ثلاثون آية، وتسمى الواقية والمنجية لأنها تقى قارئها من عذاب القبر وجاء مرفوعا من قرأها فى ليلة فقد أكثر وأطيب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿تَبَارَكَ﴾ تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين ﴿الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أى: بتصرفه الملك والاستيلاء على كل موجود وهو مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المقدورات، أو من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر على الكمال.

●● ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أوبدل من الذى قبله ﴿وَالْحَيَاةَ﴾ أى مايصح بوجوده الإحساس والموت ضده، ومعنى خلق الموت والحياة إيجاد ذلك المصحح وإعدامه ، والمعنى خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليمتحنكم بأمره ونهيه فيما بين الموت الذى يعم الأمير والأسير والحياة التى لاتفى بعليل ولا طبيب فيظهر منكم ما علم أنه يكون منكم فيجازيكم على عملكم لا على علمه بكم ﴿أَيُّكُمْ﴾ مبتدأ وخبره ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أى: أخلصه وأصوبه فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السنة والمراد أنه أعطاكم الحياة التى تقدرون بها على العمل وسلط عليكم الموت الذى هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح فما وراءه إلا البعث والجزاء الذى لابد منه. وقدم الموت على الحياة؛ لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم؛ لأنه فيما يرجع إلى المسوق له الآية أهم ولما قدم الموت الذى هو أثرصفة القهر على الحياة التى هى أثر اللطف قدم صفة القهرعلى صفة اللطف بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أى: الغالب الذى لايعجزه من أساء العمل ﴿الْغَفُورُ﴾ الستور الذى لاييأس منه أهل الإساءة والزلل.

●● ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذاخصفها طبقا على طبق، وهذا وصف بالمصدر، أو على ذات طباق أو على طوبقت طباقا، وقيل: جمع طبق كجمل وجمال. الخطاب ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ﴾ للرسول ، أو لكل مخاطب ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ تفوت حمزة وعلى ومعنى البناءين واحد كالتعاهد والتعهد أى من اختلاف واضطراب.. وعن السدى من عيب ، وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولايلائمه، وهذه الجملة صفة لطباقا، وأصلها ما ترى فيهن من تفاوت فوضع خلق الرّحمن موضع الضمير تعظيما لخلقهن وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ رده إلى السماء حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة فلا تبقى معك شبهة فيه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ صدوع وشقوق جمع فطر وهو الشق.

(١) الحديث عند الحاكم فى مستدركه، ووافقه الذهبى.

●● ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كرر النظر مرتين أى كرتين مع الأولي، وقيل: سوى الأولى فتكون ثلاث مرات، وقيل: لم يرد الاقتصار على مرتين بل أراد به التكرير بكثرة أى كرر نظرك ودققه هل ترى خللا أو عيبا وجواب الأمر ﴿ يَنقَلِبْ﴾ يرجع ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذليلا أوبعيداً مما تريد وهو حال من البصر ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل معى ولم ير فيها خللا.

●●﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القربى أى: السماء الدنيا منكم ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بكواكب مضيئة كإضاءة الصبح، والمصابيح السرج فسميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بإيقاد المصابيح، فقيل : ولقد زينا سقف الدار التى اجتمعتم فيها بمصابيح أى بأى مصابيح لاتوازيها مصابيحكم إضاءة ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ أى لأعدائكم الذين يخرجونكم من النور إلى الظلمات، قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث؛ زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف مالا علم له [١] به، والرجوم جمع رجم، وهو مصدر سمى به ما يرجم به ومعنى كونها رجوما للشياطين أن ينفصل عنها شهاب قبس يؤخذ من نار فيقتل الجني، أو يخبله؛ لأن الكواكب لاتزول عن أماكنها، لأنها قارة فى الفلك على حالها ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ للشياطين﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ فى الآخرة بعد الإحراق بالشهب فى الدنيا .

●● ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطين المرجومون مخصوصون بذلك ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع جهنم.

●● ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ طرحوا فى جهنم كما يطرح الحطب فى النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ صوتا منكرا كصوت الحمير شبه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلى بهم غليان المرجل بما فيه.

●● ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أى: تتميز يعنى تتقطع وتتفرق ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ على الكفار فجعلت كالمغتاظة عليهم استعارة لشدة غليانها بهم ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفار ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مالك وأعوانه من الزبانية توبيخا لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾رسول يخوفكم من هذا العذاب.

●● ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعتراف منهم بعدل الله وإقرار بأنه تعالى أزاح عللهم ببعث الرسل وإنذارهم ما وقعوا فيه ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ أى: فكذبناهم ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما تقولون من وعد ووعيد وغير ذلك ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أى: قال الكفار للمنذرين ما أنتم إلا فى خطأ عظيم، فالنذير بمعنى الإنذار، ثم وصف به منذروهم لغلوهم فى الإنذار كأنهم ليسوا إلا إنذارا، وجازأن يكون هذا كلام الخزنة للكفار على إرادة القول ومرادهم بالضلال الهلاك، أو سموا

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث. لكن عند الطبرى ـ بسنده ـ وأتم منه.

جزاء الضلال باسمه كما سمى جزاء السيئة والاعتداء سيئة واعتداء، ويسمى المشاكلة فى علم البيان، أو كلام الرسل لهم حكوه للخزنة أى قالوا لنا هذا فلم نقبله.

●● ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذار سماع طالب الحق ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أى نعقله عقل متأمل ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فى جملة أهل النار وفيه دليل على أن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وأنهما حجتان ملزمتان ،

●●﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ بكفرهم فى تكذيبهم الرسل ﴿فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وبضم الحاء يزيد وعلي، فبعدا لهم عن رحمة الله وكرامته اعترفوا أو جحدوا فإن ذلك لاينفعهم وانتصابه على أنه مصدر وقع موقع الدعاء.

●● ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ قبل معاينة العذاب ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أى: الجنة.

●● ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ ظاهره الأمر بأحد الأمرين الإسرار والإجهار، ومعناه ليستو عندكم إسراركم وإجهاركم فى علم الله بهما. روى أن مشركى مكة كانوا ينالون من رسول الله (ﷺ) فيخبره جبريل بما قالوه فيه ونالوه منه فقالوا فيما بينهم أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فنزلت، ثم علله بقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها فكيف لايعلم ما تكلم به.

●● ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ من فى موضع رفع بأنه فاعل يعلم ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أنكر أن لايحيط علما بالمضمر والمسر والمجهر من خلقها، وصفته أنه اللطيف أى العالم بدقائق الأشياء الخبير العالم بحقائق الأشياء، وفيه إثبات خلق الأقوال فيكون دليلا على خلق أفعال العباد، وقال أبو بكر بن الأصم [(١)] وجعفر بن حرب[(٢)]: من مفعول والفاعل مضمر وهو الله تعالي، فاحتا لا بهذا لنفى خلق الأفعال.

●● ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾ لينة سهلة مذللة لاتمنع المشى فيها ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبها استدلالا واسترزاقا أوجبالها أو طرقها ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ أى: من رزق الله فيها ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أى: وإليه نشوركم فهو سائلكم عن شكر ما أنعم به عليكم.

●● ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ أى: من ملكوته فى السماء لأنها مسكن ملائكته ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه، فكأنه قال أأمنتم خالق السماء وملكه ، أو لأنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه فى السماء وأن الرحمة والعذاب يتزلان منه، فقيل لهم على حسب اعتقادهم، أأمنتم من تزعمون

(١) ليس له ذكر فيما بين أيدينا من مصادر.

(٢) هو: جعفر بن حرب الهمدانى، البغدادى، من أئمة المعتزلة، كان له باع طويل فى علم الكلام دون الحديث، له مؤلفات.

ولد عام ١٧٧هـ، وتوفى عام ٢٣٦هـ. الأعلام (٢/ ١٢٣).

أنه فى السماء، وهو متعال عن المكان ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ كماخسف بقارون ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب وتتحرك.

•• ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ حجارة أن يرسل بدل من بدل الاشتمال، وكذا أن يخسف ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أى: إذا رأيتم المنذر به علمتم كيف إنذارى حين لاينفعكم العلم.

•• ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قومك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى إنكارى عليهم إذ أهلكتم،و ثم نبه على قدرته على الخسف وإرسال الحاصب بقوله.

•• ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ جمع طائر ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فى الهواء ﴿صَافَّاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانهن ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن، ويقبضن معطوف على اسم الفاعل حملا على المعنى أى يصفقن ويقبضن، أوصافات وقابضات، واختيار هذا التركيب باعتبار أن أصل الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والهواء للطائر كالماء للسابح، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطاريء على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بماهو طارىء بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عن الوقوع عند القبض والبسط ﴿إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ بقدرته وإلا فالثقيل يتسفل طبعا ولا يعلو، وكذا لو أمسك حفظه وتدبيره عن العالم لتهافتت الأفلاك، وما يمسكهن مستأنف، وإن جعل حالا من الضمير فى يقبضن يجوز ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.

•• ﴿أَمَّنْ﴾ مبتدأ خبره ﴿هَذَا﴾ ويبدل من هذا ﴿الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ ومحل ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ رفع نعت لجند محمول على اللفظ، والمعنى من المشار إليه بالنصر غير الله تعالى ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ﴾ أى: ماهم إلا فى غرور.

•• ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أم من يشار إليه، ويقال: هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه وهذا على التقدير، ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأوثان، لاعتقادهم أنهم يحفظون من النوائب ويرزقون ببركة آلهتهم فكأنهم الجند الناصر والرازق، فلما لم يتعظوا أضرب عنهم فقال: ﴿بَل لَّجُّوا﴾ تمادوا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ إستكبار عن الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ وشراد عنه لثقله عليهم فلم يتبعوه، ثم ضرب مثلا للكافرين والمؤمنين فقال.

•• ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ أى: ساقطا على وجهه يعثر كل ساعة ويمشى معتسفا، وخبر من ﴿أَهْدَى﴾ أرشد. وأكب مطاوع كبه يقال كبيته فأكب ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مستويا منتصبا سالما من العثور والخرور ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ على طريق مستو وخبر من محذوف لدلالة أهدى عليه وعن الكلبى، عنى بالمكب أبو جهل وبالسوى النبى - عليه السلام -.

●● ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم ابتداء ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ خصها لأنها آلات العلم ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم، لأنكم تشركون بالله ولا تخلصون له العبادة، والمعنى تشكرون شكرا قليلا وما زائدة، وقيل القلة عبارة عن العدم.

●● ﴿قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿فِى الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾للحساب والجزاء.

●● ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أى: الكافرون للمؤمنين استهزاء ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذى تعدوننا به يعنى العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى كونه فأعلمونا زمانه.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ﴾ أى: علم وقت العذاب ﴿عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ مخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ أبين لكم الشرائع.

●● ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾أى: الوعد يعنى العذاب الموعود ﴿زُلْفَةً﴾ قريبا منهم وانتصابها على الحال ﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن علتها الكآبة والمساءة وغشيتها القترة والسواد ﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي﴾ القائلون الزبانية ﴿كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء أى تسألون تعجيله وتقولون ائتنا بما تعدنا، أو هو من الدعوى أى كنتم بسببه تدعون أنكم لاتبعثون، وقرأ يعقوب تدعون.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ أى: أماتنى الله كقوله: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾[1] ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من أصحابى ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أو أخر فى آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ ينجى ﴿الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم كان كفار مكة يدعون على رسول (ﷺ) وعلى المؤمنين بالهلاك فأمر بأن يقول لهم نحن مؤمنون متربصون لإحدى الحسنيين إما أن نهلك كما تتمنون فنتقلب إلى الجنة، أو نرحم بالنصرة عليكم كما نرجو فأنتم ما تصنعون مَنْ مجيركم، وأنتم كافرون من عذاب النار لابد لكم منه.

●● ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ أى: الذى أدعوكم إليه الرحمن ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ صدقنا به ولم نكفر به كما كفرتم ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فوضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب وبالياء على ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ نحن أم أنتم.

●● ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرا ذاهبا فى الأرض لاتناله الدلاء، وهو وصف بالمصدر كعدل بمعنى عادل ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ جار يصل إليه من أراده وتليت عند ملحد فقال يأتى بالمعول والمعْن فذهب ماء عينه فى تلك الليلة وعمى، وقيل: إنه محمد بن زكريا[1] المتطبب، زادنا الله بصيرة.

---

(١) سورة «النساء»، الآية (١٧٦).

(٢) هو العلامة؛ محمد بن زكريا، أبو بكر الرازى، برع فى علوم كثيرة؛ منها: الطب والفلسفة، إلى جانب العلوم الشرعية، ولد عام ٢٥١هـ، وتوفى عام ٣١٣هـ، على خلاف كبير فى ذلك.
الأعلام (٦/ ١٣٠).

سورة «ن» مكية، وهى اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿نٓ﴾ الظاهر أن المراد به هذا الحرف من حروف المعجم، وأما قول الحسن إنه الدواة، وقوله ابن عباس: إنه الحوت الذى عليه الأرض واسمه بهموت فمشكل؛ لأنه لابد له من الإعراب سواء كان اسم جنس، أو اسم علم فالسكون دليل على أنه من حروف المعجم ﴿وَالْقَلَمِ﴾ أى ما كتب به اللوح، أو قلم الملائكة، أو الذى يكتب به الناس أقسم به لما فيه من المنافع والفوائد التى لايحيط بها الوصف ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أى: ما يسطره الحفظة أو ما يكتب به من الخير من كتب، وما موصولة، أو مصدرية. وجوب القسم.

●● ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أى: بإنعامه عليك بالنبوة وغيرها فأنت اسم ما وخبرها ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ وبنعمة ربك اعتراض بين الاسم والخبر والباء فى بنعمة ربك تتعلق بمحذوف، ومحله النصب على الحال والعامل فيها بمجنون وتقديره ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفى وهو جواب قولهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(١).

●● ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ على احتمال ذلك والصبر عليه ﴿لَأَجْرًا﴾ لثوابا ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، أو غير ممنون عليك به.

●● ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل هو ما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(٢) وقالت عائشة - رضى الله عنها-: كان خلقه القرآن(٣)، أى ما فيه من مكارم الأخلاق وإنما استعظم خلقه، لأنه جاد بالكونين وتوكل على خالقهما.

●● ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أى عن قريب ترى ويرون، وهذا وعد له ووعيد لهم.

●● ﴿بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ المجنون، لأنه فتن أى محن بالجنون والباء مزيدة، أو المفتون مصدر كالمعقول أى بأيكم الجنون، وقال الزجاج: الباء بمعنى فى تقول كنت ببلد كذا أى فى بلد كذا وتقديره فى أيكم المفتون أى فى أى الفريقين منكم المجنون فريق الإسلام، أو فريق الكفر.

●● ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أى: هو أعلم بالمجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيلة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى: هو أعلم بالعقلاء وهم المهتدون.

●● ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ تهييج للتصميم على معاصاتهم، وقد أرادوه على أن يعبد الله مدة وآلهتم مدة ويكفوا عنه غوائلهم.

---

(١) سورة «الحجر»، الآية (٦).

(٢) سورة «الأعراف»، الآية (١٩٩).

(٣) الحديث عند مسلم، من رواية سعد بن هشام.

●● ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ لو تلين لهم ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلينون لك، ولم ينصب بإضمار أن وهو جواب التمنى، لأنه عدل به إلى طريق آخر وهو أن جعل خبر مبتدأ محذوف أى فهم يدهنون أى فهم الآن يدهنون لطمعهم فى ادهانك.

●● ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف فى الحق والباطل وكفى به مزجر لمن اعتاد الحلف ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير فى الرأى والتمييز من المهانة وهى القلة والحقارة، أو كذاب، لأنه حقير عند الناس.

●● ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب طعان مغتاب ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ نقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد بينهم، والنميم والنميمة: السعاية.

●● ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾بخيل، والخير: المال أو مناع أهله من الخير، وهو الإسلام والمراد الوليد بن المغيرة عند الجمهور، وكان يقول لبنيه العشرة من أسلم منكم منعته رفدى ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوز فى الظلم حده ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

●● ﴿عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عد له من المثالب ﴿زَنِيمٍ﴾ دعى، وكان الوليد دعيا فى قريش ليس من سنخهم(١) ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة من مولده، وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية، والنطفة إذا خبثت خبث الناشىء منها، روى أنه دخل على أمه وقال: إن محمدا وصفنى بعشر صفات وجدت تسعا فى فأما الزنيم فلا علم لى به فإن أخبرتنى بحقيقته وإلا ضربت عنقك، فقالت: إن أباك عنين وخفت أن يموت فيصل ماله إلى غير ولده فدعوت راعيا إلى نفسى فأنت من ذلك الراعى.

●● ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ متعلق بقوله: ولا تطع أى: ولا تطعه مع هذه المثالب؛ لأن كان ذا مال أى ليساره وحظه من الدنيا، ويجوز أن يتعلق بما بعده أى لأن كان ذا مال ﴿وَبَنِينَ﴾ كذب بآياتنا يدل عليه.

●● ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أى: القرآن ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولا يعمل فيه قال؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله أأن حمزة وأبو بكر أى ألأن كان ذا مال كذب؟ آأن شامى ويزيد ويعقوب وسهل، قالوا لما عاب الوليد النبى (ﷺ) كاذباً باسم واحد وهو المجنون سماه الله تعالى بعشرة أسماء صادقاً، فإن كان من عدله أن يجزى المسىء إلى رسول الله (ﷺ) بعشرة كان من فضله أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشرا.

●● ﴿سَنَسِمُهُ﴾ سنكويه ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ على أنفه مهانة له وعلما يعرف به وتخصيص الأنف بالذكر؛ لأن الوسم عليه أبشع، وقيل: خطم بالسيف يوم بدر فبقيت سمة على خرطومه.

●● ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ امتحنا أهل مكة بالقحط والجوع حتى أكلوا الجيف والرمم بدعاء النبى (ﷺ) حيث قال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسنى يوسف(٢) ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ

---

(١) ليس من سنخهم؛ أى: ليس من أنسابهم. (٢) الحديث متفق عليه.

﴿الْجَنَّةِ﴾ هم قوم من أهل الصلات كانت لأبيهم هذه الجنة بقرية يقال لها ضروان[1]، وكانت إلى فرسخين من صنعاء وكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقى على الفقراء فلما مات قال بنوه: إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر، ونحن أولوا عيال؛ فحلفوا ليصرمنها مصبحين فى السدف[2] خيفة من المساكين، ولم يستثنوا فى يمينهم فأحرق الله جنتهم، وقال الحسن: كانوا كفارا والجمهور على الأول ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمرها ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين فى الصبح قبل انتشار الفقراء حال من فاعل ليصرمنها.

•• ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون إن شاء الله، وسمى استثناء وإن كان شرطاً صورة، لأنه يؤدى مؤدى الاستثناء من حيث إن معنى قولك لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد.

•• ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل عليها بلاء قيل أنزل الله تعالى عليها نارا فأحرقتها ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أى فى حال نومهم.

•• ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ فصارت الجنة ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كالليل المظلم أى احترقت فاسودت، أو كالصبح أى صارت أرضا بيضاء بلا شجر، وقيل: كالمصرومة أى كأنها صرمت لهلاك ثمرها.

•• ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ نادى بعضهم بعضا عند الصباح.

•• ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ باكروا ﴿ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ ولم يقل إلى حرثكم؛ لأن الغدو إليه ليصرموه كان غدواً عليه، أو ضمن الغدو معنى الإقبال أى فأقبلوا على حرثكم باكرين ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ مريدين صرامه.

•• ﴿ فَانطَلَقُوا﴾ ذهبوا ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتسارّون فيما بينهم لئلا يسمعوا المساكين.

•• ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ أى: الجنة وإن مفسرة، وقرئ بطرحها بإضمار القول أى يتخافتون يقولون لا يدخلها ﴿الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ والنهى عن دخول المساكين نهى عن التمكين أى لا تمكنوه من الدخول.

•• ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على جد فى المنع ﴿قَادِرِينَ﴾ عند أنفسكم على المنع كذا عن نفطويه، أو الحرد القصد والسرعة أى وغدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وزى[3] منفعتها عن المساكين، أو هو علم الجنة أى غدوا على تلك الجنة قادرين على صرامها عند أنفسهم.

---

(١) ضروان بلد صغير، أرضه مستوية، قرب صنعاء، يسمى باسم وادٍ على طرفه.
معجم البلدان (٣/ ٥١٨).

(٢) السدف: وقت اختلاط النور بالظلمة، أى: طرفى النهار.
القاموس (٣/ ١٥١).

(٣) زى: قبض، ومنع، حوّل وجهة الشيء.

•• ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أى: جنتهم محترقة ﴿قَالُوا﴾ فى بديهة وصولهم ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أى: ضللنا جنتنا وماهى بها لما رأوا من هلاكها فلما تأملوا، وعرفوا أنها هى قالوا.

•• ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا.

•• ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ هلا تستثنون إذ الاستثناء التسبيح لالتقائهما فى معنى التعظيم لله؛ لأن الاستثناء تفويض إليه، والتسبيح تنزيه له وكل واحد من التفويض والتنزيه تعظيم، أو لولا تذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم، كان أوسطهم قال لهم حيث عزموا على ذلك: اذكروا الله وانتقامه من المجرمين وتوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة فعصوه فعيرهم؛ ولهذا.

•• ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فتكلموا بعد خراب البصرة بما كان يدعوهم إلى التكلم به أولا، وأقروا على أنفسهم بالظلم فى منع المعروف وترك الاستثناء ونزهوه عن أن يكون ظالما.

•• ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضا بما فعلوا من الهرب من المساكين ويحيل كل واحد منهم اللائمة على الآخر، ثم اعترفوا جميعا بأنهم تجاوزوا الحد بقوله.

•• ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ بمنع حق الفقراء وترك الاستثناء ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا﴾ وبالتشديد مدنى وأبو عمرو ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ من هذه الجنة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ طالبون منه الخير راجون لعفوه، عن مجاهد تابوا فأبدلوا خيرا منها، وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - بلغنى أنهم أخلصوا فأبدلهم بها جنة تسمى الحيوان فيها عنب يحمل البغل منه عنقودا.

•• ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أى: مثل ذلك العذاب الذى ذكرناه من عذاب الدنيا لمن سلك سبيلهم ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لما فعلوا ما يفضى إلى هذا العذاب ثم ذكر ما عنده للمؤمنين فقال.

•• ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى: فى الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص بخلاف جنات الدنيا.

•• ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ استفهام إنكار على قولهم: لو كان ما يقول محمد حقا فنحن نعطى فى الآخرة خيراً مما يعطى هو ومن معه كما فى الدنيا، فقيل لهم: أنحيف فى الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين ثم قيل لهم على طريقة الالتفات.

•• ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الأعوج، وهو التسوية بين المطيع والعاصى كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم.

•• ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرءون فى ذلك الكتاب.

•• ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أى: إن ما تختارونه وتشتهونه لكم والأصل تدرسون أن لكم ما تخيرون بفتح أن، لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه، وإنما كسرت لمجئ اللام، ويجوز أن يكون

حكاية للمدروس كما هو كقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾[1]. وتخير الشيء واختاره أخذ خيره.

●● ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ عهود مؤكدة بالأيمان ﴿بَالِغَةٌ﴾ نعت أيمان ويتعلق ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ببالغة أى أنها تبلغ ذلك اليوم وتنتهى إليه وافرة لم تبطل منها يمين إلى أن يحصل المقسم عليه من التحكيم، أو بالمقدر فى الظرف أى هى ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لانخرج عن عهدتها إلا يومئذ إذا حكمنا كم وأعطينا كم ما تحكمون ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ به لأنفسكم، وهو جواب القسم؛ لأن معنى أم لكم أيمان علينا أم أقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد.

●● ﴿سَلْهُمْ﴾ أى: المشركين ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحكم ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل بأنه يكون ذلك.

●● ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أى: ناس يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم فيه ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فى دعواهم يعنى أن أحدا لايسلم لهم هذا ولا يساعدهم عليه كما أنه لا كتاب لهم ينطق به، ولا عهد لهم به عند الله، ولا زعيم لهم يضمن لهم من الله بهذا.

●● ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ناصب الظرف فليأتوا، أو اذكر مضمرا، والجمهور على أن الكشف عن الساق عبارة عن شدة الأمر وصعوبة الخطب، فمعنى يوم يكشف عن ساق يوم يشتد الأمر ويصعب ولا كشف ثمة ولا ساق، ولكن كنى به عن الشدة، لأنهم إذا ابتلوا بشدة كشفوا عن الساق وهذا كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة ولايد ثمة ولا غل، وإنما هو كناية عن البخل، وأما من شبه فلضيق عطنه[2] وقلة نظره فى علم البيان ولو كان الأمر كما زعم المشبه لكان من حق الساق أن يعرف؛ لأنها ساق معهودة عنده ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ أى: الكفار ثمة ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ لاتكليفا ولكن توبيخا على تركهم السجود فى الدنيا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك؛ لأن ظهورهم تصير كصياصى البقر[3] لا تنثنى عند الخفض والرفع.

●● ﴿خَاشِعَةً﴾ ذليلة حال من الضمير فى يدعون ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ أى: يدعون فى حال خشوع أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم صغار ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ﴾ على ألسن الرسل ﴿إِلَى السُّجُودِ﴾ فى الدنيا ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أى: وهم أصحاء فلا يسجدون فلذلك منعوا عن السجود ثم.

●● ﴿فَذَرْنِي﴾ يقال ذرنى وإياه أى كله إلى فإنى أكفيكه ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ معطوف على المفعول، أو مفعول معه ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ بالقرآن والمراد كل أمره إلىَّ وخل بينى وبينه فإنى عالم بما ينبغى أن يفعل به مطيق له فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل على فى الانتقام منه تسلية لرسول الله (ﷺ)

---

(١) سورة «الصافات»، الآيتان (٧٨، ٧٩).

(٢) ضاق عطن الرجل؛ إذا ضاق مشربه، وهو تعبير يطلق على من أبدى جهلاً، وفعلاً قبيحاً. القاموس (٢٤٨/٤).

(٣) صياصيى البقر: قرونها.
القاموس (٣٠٧/٢).

وتهديد للمكذبين ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة، يقال: استدرجه إلى كذا أى استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه، واستدراج الله تعالى العصاة أن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصى ﴿مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التى لايشعرون أنه استدراج، قيل: كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها، قال - عليه السلام -: «إذا رأيت الله تعالى ينعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج». وتلا الآية.

•• ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ قوى شديد فسمى إحسانه وتمكينه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد حيث كان سببا للهلاك. والأصل أن معنى الكيد والمكر والاستدراج هو الأخذ من جهة الأمن، ولايجوز أن يسمى الله كائدا وما كرا ومستدرجا.

•• ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ غرامة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ فلا يؤمنون استفهام بمعنى النفى أى لسبت تطلب أجرا على تبليغ الوحى فيثقل عليهم ذلك فيمتنعوا لذلك.

•• ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أى: اللوح المحفوظ عند الجمهور ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به.

•• ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم؛ لأنهم وإن أمهلوا لم يهملوا ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ كيونس - عليه السلام - فى العجلة والغضب على القوم حتى لا تبتلى ببلائه. والوقف على الحوت؛ لأن إذ ليس بظرف لما تقدمه إذ النداء طاعة فلا ينهى عنه بل مفعول محذوف أى اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعاء ربه فى بطن الحوت بـ﴿لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١) ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظا من كظم السقاء إذا ملأه.

•• ﴿لَّوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ﴾ رحمة ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: لولا أن الله أنعم عليه بإجابة دعائه وقبول عذره ﴿لَنُبِذَ﴾ من بطن الحوت ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالفضاء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معاتب بزلته لكنه رحم فنبذ غير مذموم.

•• ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ اصطفاه لدعائه وعذره ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من المستكملين لصفات الصلاح ولم يبق له زلة، وقيل: من الأنبياء، وقيل: من المرسلين، والوجه هو الأول؛ لأنه كان مرسلا ونبيا قبله لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾(٢). الآيات.

•• ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ وبفتح الياء مدنى، إن مخففة من الثقيلة، واللام علمها زلقه وأزلقه أزاله عن مكانه، أى: قارب الكفار من شدة نظرهم إليك شزرا بعيون العداوة أن يزيلوك بأبصارهم عن مكانك، أو يهلكوك لشدة حنقهم عليك. وكانت العين فى بنى أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شىء فيقول فيه لم أر كاليوم مثله إلا هلك،

---

(١) سورة «الأنبياء»، الآية (٨٧).

(٢) سورة «الصافات»، الآيتان (١٣٩، ١٤٠).

فأريد بعض العيانـين على أن يقول فى رسول الله (ﷺ) مثل ذلك فقال: لم أر كـاليوم مثله رجلا فعصـمه الله من ذلك، وفـى الحديث: العـين حق[1]، وإن العيـن لتدخل الجـمل القدر والـرجل القبر[2]. وعن الحسن رقية الـعين هذه الآية ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حسدا على ما أوتيت من النبوة ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ إن محمداً لمجنون حيرة فى أمره وتنفيرا عنه.

●● ﴿وَمَا هُوَ﴾ أى: القـرآن ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنـس يعنى أنهم جـننوه لأجل القرآن، وما القرآن إلا موعظة للعالمين فكيف يجنن من جاء بمثله، وقيل، لما سمعوا الذكر أى ذكره - عليه السلام - وما هو أى محمد - عليه السـلام - إذا ذكر شرف للعالمين فكيف ينسب إليه الجنون، والله أعلم.

---

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٦/ ١٧٦٥٦).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٦/ ١٧٦٦٠).

سورة الحاقة إحدى وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿الْحَاقَّةُ﴾ الساعه الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التى هي آتية لا ريب فيها من حق يحق بالكسر أى: وجب.

•• ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ مبتدأ وخبر وهما خبر الحاقة والأصل الحاقة ماهى أى أىّ شىء هى تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها أى حقها أن يستفهم عنها لعظمها فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

•• ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأى شىء أعلمك ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ يعنى أنك لاعلم لك بكنهها ومدى عظمها، لأنه من العظم والشدة بحيث لا تبلغه دراية المخلوقين. وما رفع بالابتداء وأدراك الخبر، والجملة بعده فى موضع نصب؛ لأنها مفعول ثان لأدرى.

•• ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ أى: بالحاقة فوضعت القارعة موضعها؛ لأنها من أسماء القيامة، وسميت بها؛ لأنها تقرع الناس بالأفزاع والأهوال، ولما ذكرها وفخمها أتبع ذكر ذلك ذكر من كذب بها وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرا لأهل مكة وتخويفا لهم من عاقبة تكذيبهم.

•• ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد فى الشدة. واختلف فيها فقيل: الرجفة وقيل: الصيحة، وقيل: الطاغية مصدر كالعافية أى بطغيانهم ولكن هذا لايطابق قوه.

•• ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾ أى: بالدبور لقوله (ﷺ): «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[1]. ﴿صَرْصَرٍ﴾ شديدة الصوت من الصرة الصيحة، أو باردة من الصر كأنها التى كرر فيها البرد وكثر فهى تحرق بشذة بردها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديد العصف، أو عتت على خزانها فلم يضبطوها بإذن الله غضبا على أعداء الله.

•• ﴿سَخَّرَهَا﴾ سلطها ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وكان ابتداء العذاب يوم الأربعاء آخر الشهر إلى الأربعاء الأخرى ﴿حُسُومًا﴾ أى: متتابعة لا تنقطع جمع حاسم كشهود تمثيلا لتتابعها بتتابع فعل الحاسم فى إعادة الكى على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم، وجاز أن يكون مصدرا أى تحسم حسوما بمعنى تستأصل استئصالا ﴿فَتَرَى﴾ أيها المخاطف ﴿الْقَوْمَ فِيهَا﴾ فى مهابها أو فى الليالى والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾ حال جمع صريع ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال أخرى ﴿أَعْجَازُ﴾ أصول ﴿نَخْلٍ﴾ جمع نخلة.﴿خَاوِيَةٍ﴾ ساقطة أو بالية.

•• ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ من نفس باقية، أو من بقاء كالطاغية بمعنى الطغيان.

•• ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ ومن تقدمه من الأمم. ومن قبله بصرى وعلى أن ومن عنده من

---

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١١/ ٣١٩٢٥، ٣٢٠٧١).

أتباعه ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرى قوم لوط فهى ائتفكت أى انقلبت بهم ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفعلة، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم.

●● ﴿فَعَصَوْا﴾ أى: قوم لوط ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ لوط ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ شديدة زائدة فى الشدة كما زادت قبائحهم فى القبح.

●● ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ ارتفع وقت الطوفان على أعلى جبل فى الدنيا خمسة عشر ذراعا ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أى آباءكم ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ فى سفينة نوح - عليه السلام.

●● ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أى: الفعلة وهى إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عبرة وعظة ﴿وَتَعِيَهَا﴾ وتحفظها ﴿أُذُنٌ﴾ بضم الذال غير نافع ﴿وَاعِيَةٌ﴾ حافظة لما تسمع، قال قتادة: وهى أذن عقلت عن الله وانتفعت بما سمعت.

●● ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هى النفخة الأولى ويموت عندها الناس، والثانية يبعثون عندها.

●● ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رفعتا عن موضعهما ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ دقتا وكسرتا أى ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا وهباء منبثا.

●● ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ نزلت النازلة وهى القيامة وجواب إذا وقعت ويومئذ بدل من إذا.

●● ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ فتحت أبوابا ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ مسترخية ساقطة القوة بعد ما كانت محكمة.

●● ﴿وَالْمَلَكُ﴾ للجنس بمعنى الجمع، وهو أعم من الملائكة ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ جوانبها واحدها رجا مقصور، لأنها إذا انشقت وهى مسكن الملائكة فيلجؤن إلى أطرافها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملك الذين على أرجائها ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ منهم واليوم تحمله أربعة، وزيدت أربعة أخرى يوم القيامة، وعن الضحاك ثمانية صفوف، وقيل: ثمانية أصناف.

●● ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ للحساب والسؤال شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرّف أحواله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرة وحال كانت تخفى فى الدنيا وبالياء كوفى غير عاصم وفى الحديث يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعندها تطير الصحف فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك كتابه بشماله[1].

●● ﴿فَأَمَّا﴾ تفصيل للعرض ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ﴾ سرورا به لما يرى فيه من الخيرات خطابا لجماعته ﴿هَاؤُمُ﴾ اسم للفعل أى: خذوا ﴿اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ تقديره هاؤم كتابى اقرؤا كتابيه فحذف الأول لدلالة الثانى عليه، والعامل فى كتابيه اقرءوا عند البصريين؛ لأنهم يعملون الأقرب

(١) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٤/ ٣٨٩٣٧).

والهاء فى كتابيه وحسابيه وماليه وسلطانيه للسكت وحقها أن تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل وقد استحب إيثار الوقف إيثار لثباتها لثبوتها فى المصحف.

●● ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ علمت، وإنما أجرى الظن مجرى العلم؛ لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم فى العادات والأحكام، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر وهى تفضى إلى الظنون فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لايخلو عنه ﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ معاين حسابى.

●● ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضا يرضى بها صاحبها كلابن[1].

●● ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ رفيعة المكان، أو رفيعة الدرجات، أو رفيعة المبانى والقصور وهو خبر بعد خبر.

●● ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمارها قريبة من مريدها ينالها القائم والقاعد والمتكئ، يقال لهم.

●● ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أكلا وشربا هنيئا لامكروه فيهما ولا أذى أو هنئتم هنيئاً على المصدر ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ الماضية من أيام الدنيا، وعن ابن عباس هى فى الصائمين أى كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله.

●● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ لما يرى فيها من الفضائح.

●● ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ أى: ياليتنى لم أعلم ما حسابى.

●● ﴿يَا لَيْتَهَا﴾ ياليت الموتة التى متها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أى: القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها ولم ألق ما ألقى.

●● ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ أى: لم ينفعنى ما جمعته فى الدنيا فما نفى، والمفعول محذوف أى شيئا.

●● ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ضلت عنى حجتى أى بطلت حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا، فيقول الله تعالى لخزنة جهنم.

●● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أى: اجمعوا يديه إلى عنقه.

●● ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أى أدخلوه يعنى ثم لاتصلوه إلا الجحيم، وهى النار العظمى، أو نصب الجحيم بفعل يفسره صلوه ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ طولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بذراع الملك عن ابن جريج[2] وقيل: لايعرف قدرها إلا الله ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية.

---

(١) رجل لابن؛ أى كثير اللبن، ومثله أيضاً: «تامر»؛ أى: كثير التمر.

(٢) هو فقيه الحرم المكى؛ عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، الأموى، مولاهم، أبو الوليد، علامة فى الحديث والفقه، وكذا الورع والعلم والعمل، قال فيه أحمد: «من أوعية العلم»، وقال الذهبى: «أحد الأعلام الثقات». وقال ابن سعد: «كان ثقة، كثير الحديث». =

•• ﴿إِنَّهُ﴾ تعليل كأنه قيل ماله يعذب هذا العذاب الشديد، فأجيب بأنه ﴿كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ على بذل طعام المسكين، وفيه إشارة إلى أنه كان لا يؤمن بالبعث لأن الناس لايطلبون من المساكين الجزاء فيما يطعمونهم، وإنما يطعمونهم لوجه الله ورجاء الثواب فى الآخرة، فإذا لم يؤمن بالبعث لم يكن له ما يحمله على إطعامهم أى أنه مع كفره لا يحرّض غيره على طعام المحتاجين، وفيه دليل قوى على عظم جرم حرمان المسكين؛ لأنه عطفه على الكفر وجعله دليل عليه وقرينة له، ولأنه ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق، وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فلنخلع نصفها بهذا، وهذه الآيات ناطقة على أن المؤمنين يرحمون جميعا والكافرين لايرحمون؛ لأنه قسم الخلق نصفين فجعل صنفا منهم أهل اليمين ووصفهم بالإيمان فحسب بقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ وصنفا منهم أهل الشمال، ووصفهم بالكفر بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ وجاز أن الذى يعاقب من المؤمنين، إنما يعاقب قبل أن يؤتى كتابه بيمينه ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريب يرفع عنه ويحترق له قلبه ﴿وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار فعلين من الغسل والنون زائدة وأريد به هنا ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ﴿لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ الكافرون أصحاب الخطايا، وخطئ الرجل إذا تعمد الذنب.

•• ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من الأجسام والأرض والسماء ﴿وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ من الملائكة والأرواح فالحاصل أنه أقسم بجميع الأشياء ﴿إِنَّهُ﴾ أى: إن القرآن ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أى: محمد -ﷺ- أو جبريل - عليه السلام - أى: يقوله ويتكلم به على وجه الرسالة من عند الله.

•• ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تدعون ﴿قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تقولون ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وبالياء فيهما مكى وشامى ويعقوب وسهل. وبتخفيف الذال كوفى غير أبى بكر، والقلة فى معنى العدم يقال هذه أرض قلما تنبت أى لا تنبت أصلا، والمعنى لا تؤمنون ولا تذكرون البتة ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو تنزيل بيانا؛ لأنه قول رسول نزل عليه ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾ ولو ادعى علينا شيئاً لم نقله ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لقتلناه صبرا كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته، وخاصة اليمين؛ لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب فى قفاه أخذ بيساره وإذا

= ولد عام ٨٠هـ، وتوفى عام ١٥٠هـ.

تهذيب التهذيب (٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٣).

أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه، ومعنى ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ لأخذنا بيمينه، وكذا ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ لقطعنا وتينه وهو نياط القلب إذا قطع مات صاحبه ﴿فَمَا مِنكُم﴾ الخطاب للناس، أو للمسلمين ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ من زائدة ﴿عَنْهُ﴾ عن قتل محمد وجمع ﴿حَاجِزِينَ﴾ وإن كان وصف أحد؛ لأنه فى معنى الجماعة ومنه قوله تعالى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(١).

●● ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ لعظة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ به المكذبين له إذا رأوا ثواب المصدقين به ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن القرآن ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لعين اليقين ومحض اليقين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم، وهو قوله سبحان الله(٢).

---

(١) سورة «البقرة»، الآية (٢٨٥).

(٢) مواضع متعددة؛ منها: المؤمنون (٩١)، والقصص (٦٨).

(سورة المعارج مكية وهى أربع وأربعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ هو النضر بن الحارث قال: ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١) أوهو النبى (ﷺ) دعا بنزول العذاب عليهم، ولما ضمن سأل معنى دعا عدى تعديته كأنه قيل دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ من قولك دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ومنه قوله تعالي: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾(٢) . وسال بغير همز مدنى وشامى وهو من السؤال أيضاً إلا أنه خفف بالتليين، وسائل مهموز إجماعا.

●● ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ صفة لعذاب أى: بعذاب واقع كائن للكافرين ﴿لَيْسَ لَهُ﴾ لذلك العذاب ﴿دَافِعٌ﴾ راد.

●● ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ متصل بواقع أى واقع من عنده. أو بدافع أى ليس له دافع من جهته تعالى إذا جاءوقته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أى مصاعد السماءللملائكة جمع معرج وهو موضع العروج، ثم وصف المصاعد وبعد مداها فى العلو والارتفاع فقال.

●● ﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد وبالياء على ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ أى جبريل - عليه السلام - خصه بالذكر بعد العموم لفضله وشرفه، أوخلق هم حفظة على الملائكة كما أن الملائكة حفظة علينا، أو أرواح المؤمنين عند الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه ومهبط أمره ﴿فِي يَوْمٍ﴾ من صلة تعرج ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سنى الدنيا لو صعد فيه غير الملك، أو من صلة واقع أى يقع فى يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنيكم وهو يوم القيامة فإما أن يكون استطالة له لشدته على الكفار، أولأنه على الحقيقة كذلك، فقد قيل فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة، وما قدر ذلك على المؤمن إلا كما بين الظهر والعصر.

●● ﴿فَاصْبِرْ﴾ متعلق بسأل سائل لأن استعجال النضر بالعذاب، إنما كان على وجه الاستهزاء برسول الله (ﷺ) والتكذيب بالوحى وكان ذلك مما يضجر رسول الله(ﷺ) فأمر بالصبر عليه ﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾ بلا جزع ولاشكوي.

●● ﴿إِنَّهُمْ﴾ إن الكفار ﴿يَرَوْنَهُ﴾ أى العذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ مستحيلا.

●● ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ كائنا لامحال فالمراد بالبعيد البعيد من الإمكان وبالقريب القريب منه.

●● نصب ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ﴾ بقريبا أى يمكن فى ذلك اليوم، أو هو بدل عن فى يوم فيمن علقه بواقع﴿كَالْمُهْلِ﴾ كدردى الزيت، أو كالفضة المذابة فى تلونها.

---

(١) سورة «الأنفال»، الآية (٣٢). (٢) سورة «الدخان»، الآية (٥٥).

●● ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال جدد [1] بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، فإذا بست [2] وطيرت فى الجو أشبهت العهن المنفوش إذاطيرته الريح ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ لايسأل قريب عن قريب لاشتغاله بنفسه، وعن البزي[3] والبرجمي[4] بضم الياء أى ولايُسأل قريب عن قريب أى لايطالب به ولايؤخذبذنبه.

●● ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صفة أى: حميما مبصرين معرفين إياهم أومستأنف كأنه لما قال ولايسأل حميم حميما قيل: لعله لايبصره فقيل يبصرونهم ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم، والواو ضمير الحميم الأول، وهم ضمير الحميم الثانى أى يبصر الأحماء الأحماء فلايخفون عليهم، وإنما جمع الضميران وهما للحميمين، لأن فعيلا يقع موقع الجمع ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ يتمنى المشرك وهو مستأنف، أوحال من الضمير المرفوع، أو المنصوب من يبصرونهم ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ وبالفتح مدنى وعلى على البناء للإضافة إلى غير متمكن ﴿بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ﴾ وزوجته ﴿وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الأدنين ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ تضمه انتماء إليها، وبغير همز يزيد ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الناس ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ الافتداء عطف على يفتدي.

●● ﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتنبيه على أنه لاينفعه الانتداء ولاينجيه من العذاب ﴿إِنَّهَا﴾ إن النار ودل ذكر العذاب عليها أوهو ضمير مبهم ترجم عنه الخبر أو ضمير القصة ﴿لَظَى﴾ علم للنار.

●●﴿نَزَّاعَةً﴾ حفص والمفضل على الحال المؤكدة أو على الاختصاص للتهويل. وغيرهما بالرفع خبر بعد خبر ، لإن أو على هى نزاعة ﴿لِلشَّوَى﴾ لأطراف الإنسان كاليدين والرجلين أو جمع شواة وهى جلدة الرأس تنزعها نزعا فتفرقها ثم تعود إلى ماكانت.

●● ﴿تَدْعُوا﴾ بأسمائهم يا كافر يا منافق إلىّ إلىّ أو تهلك من قولهم دعاك الله أى أهلكك، أو لما كان مصيره إليها جعلت كأنها دعته ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة .

●●﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَى﴾ فجعله فى وعاء ولم يؤد حق الله منه.

---

(١) جَدَدٌ: طرائق تخالف لون الجبل.
القاموس (١/ ٢٨١).
(٢) بُسَّت: زُجرت
القاموس (٢/ ٢٠٠).
(٣) البزى؛ هو أحمد بن محمد بن عبدالله، أبو الحسن البزى، شاعر، لغوى، أديب، من رؤوس شعراء أهل مكة فى عصره. ولد عام ١٧٠هـ، وتوفى عام ٢٤٣هـ.
الأعلام (١/ ٢٠٤).
(٤) البرجمى: انظر ترجمته عند تفسير الآية (٢٠)، من سورة «البقرة».

●● ﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ أريد به الجنس ليصح استثناء المصلين منه﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ عن ابن عباس - رضى الله عنهما - تفسيره ما بعده.

●● ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا*وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ والهلع: سرعة الجزع عند مس المكروه وسرعة المنع عند مس الخير. وسأل محمد بن عبدالله بن طاهر[1] ثعلبا عن الهلع، فقال: قد فسره الله تعالي، ولايكون تفسير أبين من تفسيره، وهو الذى إذا ناله شر أظهر شدة الجزع وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس، وهذا طبعه وهو مأمور بمخالفة طبعه وموافقة شرعه والشر: الضروالفقر. والخير: السعة والغني، أو المرض والصحة.

●● ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّين * الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ﴾ أى: صلواتهم الخمس ﴿دَائِمُونَ﴾ أى يحافظون عليها فى مواقيتها، وعن ابن مسعود - رضى الله عنه -.

●● ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ يعنى الزكاة لأنها مقدرة معلومة أو صدقة يوظفها الرجل على نفسه يؤديها فى أوقات معلومة ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ الذى يسأل ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذى يتعفف عن السؤال فيحسب غنيا فيحرم.

●● ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أى: يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون واعترض بقوله.

●● ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ بالهمز سوى أبى عمرو أى لاينبغى لأحد وإن بالغ فى الاجتهاد والطاعة أن يأمنه وينبغى أن يكون مترجحا بين الخوف والرجاء.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ نسائهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أى إمائهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على ترك الحفظ.

●● ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ طلب منكحا ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أى غير الزوجات والمملوكات ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المتجاوزون عن الحلال إلى الحرام. وهذه الآية تدل على حرمة المتعة، ووطء الذكران والبهائم، والاستمناء بالكف.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ﴾ لأمانتهم مكى وهى تتناول أمانات الشرع وأمانات العباد ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أى: عهودهم ويدخل فيها عهود الخلق والنذور والإيمان ﴿رَاعُونَ﴾ حافظون غير خائنين ولا ناقضين. وقيل: الأمانات ما تدل عليه العقول والعهد ما أتى به الرسول.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ بشهادتهم سهل وبالألف حفص ويعقوب ﴿قَائِمُونَ﴾ يقيمونها

---

(١) هو الأمير الأديب؛ محمد بن عبدالله بن طاهر، أبو العباس، الخزاعى، أمير حازم، كان أديباً، فاضلاً، شجاعاً، كان يجالس أهل العلم والأدب لينهل من معينهم، ولد عام ٢٠٩هـ، وتوفى عام ٢٥٣هـ. الأعلام (٦/ ٢٢٢).

عند الحكام بلاميل إلى قريب وشريف وترجيح للقوى على الضعيف إظهارا للصلابة فى الدين، ورغبة فى إحياء حقوق المسلمين.

●● ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كرر ذكر الصلاة لبيان أنها أهم، أو لأن إحداهما للفرائض والأخرى للنوافل وقيل الدوام عليها الاستكثار منها والمحافظة عليها أن لاتضيع عن مواقيتها، أو الدوام عليها أداؤها فى أوقاتها والمحافظة عليها حفظ أركانها وواجباتها وسننها وآدابها.

●● ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أصحاب هذه الصفات ﴿فِى جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ هما خبران.

●● ﴿فَمَالِ﴾ كتب مفصولا اتباعا لمصحف عثمان - رضى الله عنه - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ﴾ نحوك معمول ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين حال من الذين كفروا .

●● ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ عن يمين النبى (ﷺ) وعن شماله ﴿عِزِينَ﴾ حال أى فرقاشتى جمع عزة وأصلها عزوة كأن كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى فهم مفترقون كان المشركون يحتفون حول النبى (ﷺ) حلقا حلقا وفرقا فرقا يستمعون ويستهزئون بكلامه ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد فلندخلنها قبلهم، فنزلت.

●● ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء سوى المفضل ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالمؤمنين.

●● ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن طمعهم فى دخول الجنة ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أى: من النطفة المذرة لذلك أبهم إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ويقولون لندخلن الجنة قبلهم، أومعناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ومن حكمنا أن لايدخل أحد الجنة إلا بالإيمان فلم يطمع أن يدخلها من لا إيمان له.

●● ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ مطالع الشمس ﴿وَالْمَغَارِبِ﴾ ومغاربها ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ على أن نهلكهم ونأتى بخلق أمثل منهم وأطوع لله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بعاجزين.

●● ﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدع المكذبين ﴿يَخُوضُوا﴾ فى باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فيه العذاب .

●● ﴿يَوْمَ﴾بدل من يومهم﴿يَخْرُجُونَ﴾ بفتح الياء، وضم الراء سوى الأعشى ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ القبور ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع حال أى إلى الداعى ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ حال ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ شامى وحفص وسهل. نصب المفضل . نصب غيرهم، وهو كل مانصب وعبد من دون الله﴿يُوفِضُونَ﴾يسرعون .

●● ﴿خَاشِعَةً﴾ حال من ضمير يخرجون أى ذليلة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ يعنى لا يرفعونها لذلتهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ فى الدنيا، وهم يكذبون به.

سورة نوح - عليه السلام - مكية وهى ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قيل معناه بالسريانية الساكن ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ﴾ خوف أصله بأن أنذر فحذف الجار وأوصل الفعل، ومحله عند الخليل جر وعند غيره نصب، أو أن مفسرة بمعنى أى؛ لأن فى الإرسال معنى القول﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب الآخرة، أو الطوفان .

●● ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه إظهارا للشفقة ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ مخوف ﴿مُّبِينٌ﴾ أبين لكم رسالة الله بلغة تعرفونها.

●● ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه وأن هذه نحو أن أنذر فى الوجهين ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ واحذروا عصيانه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، وإنما أضافه إلى نفسه، لأن الطاعة قد تكون لغير الله تعالى بخلاف العبادة.

●● ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ جواب الأمر ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ للبيان كقوله :﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾(١) أو للتبعيض، لأن ما يكون بينه وبين الخلق يؤاخذ به بعد الإسلام كالقصاص، وغيره كذا فى شرح التأويلات (٢) ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقت موتكم ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ أى: الموت ﴿إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لو كنتم تعلمون مايحل بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم، قيل: إن الله تعالى قضى مثلا أن قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة وإن لم يؤمنوا أهلكهم على رأس تسعمائة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى أى تبلغوا ألف سنة، ثم أخبر أن الأجل إذا جاء لايؤخركما يؤخر هذا الوقت، وقيل: إنهم كانوا يخافون على أنفسهم الإهلاك من قومهم بإيمانهم وإجابتهم لنوح – عليه السلام – فكأنه – عليه السلام – أمنهم من ذلك ووعدهم أنهم بإيمانهم يبقون إلى الأجل الذى ضرب لهم لو لم يؤمنوا، أى أنكم إن أسلمتم بقيتم إلى أجل مسمى آمنين من عدوكم.

●● ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ دائبا بلا فتور ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ عن طاعتك ونسب ذلك إلى دعائه لحصوله عنده وإن لم يكن الدعاء سببا للفرار فى الحقيقة وهو كقوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾(٣) والقرآن لايكون سببا لزيادة الرجس، وكان الرجل يذهب بابنه إلى نوح – عليه السلام – فيقول: احذر هذا فلا يغرنك فإن أبى قد وصانى به.

---

(١) سورة «الحج»، الآية (٣٠).

(٢) يقصد: كتاب «شرح التأويلات» للماتريدي.

(٣) سورة «التوبة» ، الآية (١٢٥).

•• ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان بك ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أى: ليؤمنوا فتغفر لهم فاكتفى بذكر المسبب ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامى ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطوا بثيابهم لئلا يبصرونى كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم فى دين الله ﴿وَأَصَرُّوا﴾ وأقاموا على كفرهم ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾وتعظموا عن إجابتي، وذكر المصدر دليل على فرط استكبارهم.

•• ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ مصدر فى موضع الحال أى: مجاهرا، أو مصدر دعوتهم كقعد القرفصاء؛ لأن الجهار أحد نوعى الدعاء يعنى أظهرت لهم الدعوة فى المحافل.

•• ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أى: خلطت دعاءهم بالعلانية بدعاء السر فالحاصل أنه دعاهم ليلا ونهارا فى السر، ثم دعاهم جهارا، ثم دعاهم فى السر والعلن، وهكذا يفعل الآمر بالمعروف يبتديء بالأهون، ثم بالأشد فالأشد فافتتح بالمناصحة فى السر؛ فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان، وثم تدل على تباعد الأحوال، لأن الجهار أغلظ من الإسرار ، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما.

•• ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة فإن كان المستغفر كافرا فهو من الكفر، وإن كان عاصياً مؤمنا فهو من الذنوب ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ لم يزل غفارا لذنوب من ينيب إليه ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كثيرة الدرور ومفعال يستوى فيه المذكر والمؤنث ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ يزدكم أموالا وبنين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ جارية لمزارعكم وبساتينكم، وكانوا يحبون الأموال والأولاد فحر كوا بهذا على الإيمان، وقيل: لما كذبوه بعد طول تكرير الدعوة حبس الله عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة أو سبعين، فوعدهم أنهم إن آمنوا رزقهم الله الخصب ورفع عنهم ما كانوا فيه. وعن عمر - رضى الله عنه - أنه خرج يستسقى فما زاد على الاستغفار فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟! فقال: لقد استسقيت بمجاديح [(١)] السماء التى يستنزل بها المطر[(٢)]. شبه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التى لاتخطيء، وقرأ الآيات، وعن الحسن أن رجلا شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه فأمرهم كلهم بالاستغفار ، فقال له الربيع بن صبيح [(٣)] : أتاك رجال يشكون أبوابا فأمرتهم كلهم بالاستغفار فتلا الآيات.

---

(١) مجاديح السماء: أنواء السماء. القاموس (١ / ٢١٧).

(٢) الحديث عند الطبراني، وفى مسند عبدالرزاق.

(٣) هو الزاهد المجاهد، الربيع بن صبيح السعدي، أبو بكر، البصري، عن الشافعي: «كان غزَّاءً». وعن أحمد: «لا بأس به، رجل صالح». وعن شعبة: «الربيع من سادات المسلمين». كان عابداً، صالحًا، مجاهداً، ولكن الحديث لم يكن صناعته، فكان يهم كثيراً. قال ابن سعد: «خرج غازياً إلى السند؛ فمات فى البحر فدفن فى جزيرة». عام ١٦٠ هـ. وهو أول من صنف بالبصرة.
تهذيب التهذيب (٢/١٤٧،١٤٨).

●● ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لاتخافون لله عظمة . عن الأخفش قال: والرجاء هنا الخوف، لأن مع الرجاء طرفا من الخوف ومن اليأس والوقار العظمة، أولاتأملون له توقيرا أى تعظيما. والمعنى: ما لكم لاتكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله إياكم فى دار الثواب ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فى موضع الحال أى مالكم لاتؤمنون بالله، والحال هذه، وهى حال موجبة للإيمان به؛ لأنه خلقكم أطوارا أى تارات وكرات خلقكم أولا نطفا ثم خلقكم علقا، ثم خلقكم مضغا، ثم خلقكم عظاما ولحما. نبههم أولا على النظر فى أنفسكم؛ لأنها أقرب، ثم على النظر فى العالم وما سوى فيه من العجائب الدالة على الصانع بقوله.

●● ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضا على بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أى: فى السموات وهو فى السماء الدنيا؛ لأن بين السموات ملابسة من حيث إنها طباق فجاز أن يقال فيهن كذا وإن لم يكن فى جميعهن كما يقال فى المدينة كذا، وهو فى بعض نواحيها وعن ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم - أن الشمس والقمر وجوههما مما يلى السموات وظهورهما مما يلى الأرض فيكون نور القمر محيطا بجميع السموات؛ لأنها لطيفة لاتحجب نوره ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ مصباحا يبصر أهل الدنيا فى ضوئها كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج ما يحتاجون إلى إبصاره وضوء الشمس أقوى من نور القمر، وأجمعوا على أن الشمس فى السماء الرابعة ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أنشأكم استعير الإنبات للإنشاء ﴿نَبَاتًا﴾ فنبتم نباتا ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِخْرَاجًا﴾ أكده بالمصدر أى: إخراج ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مبسوطة ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾ لتتقلبوا عليها كما يتقلب الرجل على بساطه ﴿سُبُلاً﴾ طرقا ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة، أومختلفة .

●● ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به من الإيمان والاستغفار ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أى: السفلة والفقراء ﴿ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ﴾ أى: الرؤساء وأصحاب الأموال والأولاد. ووُلْده مكى وعراقى غير عاصم وهو جمع ولد كأسد وأسد ﴿إِلاَّ خَسَارًا﴾ فى الآخرة ﴿وَمَكَرُوا﴾ معطوف على لم يزده، وجمع الضمير وهو راجع إلى من؛ لأنه فى معنى الجمع، والماكرون هم الرؤساء ومكرهم احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح وتحريش الناس على أذاه وصدهم عن الميل إليه ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ عظيما وهو أكبر من الكبار، وقرئ به وهوأكبر من الكبير .

●● ﴿وَقَالُوا﴾ أى: الرؤساء لسفلتهم ﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ على العموم أى عبادتهم ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ بفتح الواو وضمها وهو قراءة نافع لغتان: صنم على صورة رجل ﴿وَلا سُوَاعًا﴾ هو على صورة امرأة ﴿وَلا يَغُوثَ﴾ هو على صورة أسد ﴿وَيَعُوقَ﴾ هو على صورة فرس وهما لاينصرفان

للتعريف، ووزن الفعل إن كانا عربيين، وللتعريف والعجمة إن كانا أعجميين ﴿وَنَسْرًا﴾ هو على صورة نسر أى هذه الأصنام الخمسة على الخصوص، وكأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم فخصوها بعد العموم، وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب فكان ود لكلب،[1] وسواع لهمدان،[2] ويغوث لمذحج [3] ويعوق لمراد[4]ونسر لحمير [5] وقيل: هى أسماء رجال صالحين كان الناس يقتدون بهم بين آدم ونوح، فلما ماتوا صوروهم ليكون ذلك أدعى لهم إلى العبادة فلما طال الزمان قال لهم إبليس إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم.

●● ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أى: الأصنام: كقوله﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾[6] ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس أو الرؤساء ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ عطف على رب إنهم عصونى على حكاية كلام نوح - عليه السلام - بعد قال وبعد الواو النائبة عنه، ومعناه: قال رب إنهم عصونى ، وقال: لاتزد الظالمين أى قال هذين القولين وهما فى محل النصب؛ لأنهما مفعولا قال ﴿إِلَّا ضَلَالًا﴾ هلاكا كقوله ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ خطاياهم أبو عمرو أى ذنوبهم ﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ عظيمة وتقديم مما خطيئاتهم لبيان أن لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم فى النيران إلا من أجل خطيئاتهم، وأكد هذا المعنى بزيادة ما، وكفى بها مزجرة لمرتكب الخطايا فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم وإن كانت كبراهن، والفاء فى فأدخلوا للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق فيكون دليلا على إثبات عذاب القبر ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله.

●● ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أى أحد يدور فى الأرض وهو فيعال من الدور، وهو من الأسماء المستعملة فى النفى العام ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ ولاتهلكهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ يدعوهم إلى الضلال ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إلا من إذا بلغ فجر وكفر، وإنما قال ذلك، لأن الله تعالى أخبره بقوله: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾[7] .

●● ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وكانا مسلمين واسم أبيه لمك واسم أمه شمخاء، وقيل هما آدم

(١) كلب: اسم لقبيلة عربية، تنسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب. الأنساب (٥ / ٨٧).

(٢) همدان: قبيلة عربية كبيرة، تنسب إلى همدان، واسمه: أوسَلَة بن خيار بن كهلان بن سبأ. أصلها من اليمن، نزلت الكوفة، وتشعبت إلى بطون كثيرة. الأنساب (٥ / ٦٤٧).

(٣) مذحج: قبيلة أصيلة من اليمن، وهى تعد من العرب الأصليين، تشعبت إلى فروع وبطون كثيرة، مدحها النبى ﷺ. الأنساب (٥/ ٢٤٠).

(٤) مراد: إحدى فروع قبيلة مذحج؛ فهى تنسب إلى مراد؛ واسمه: يحابر بن مذحج. الأنساب (٥ / ٢٤٧).

(٥) حمْيَر: قبيلة من عرب اليمن الأصليين، تنسب إلى حمير بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدى ابن مالك. معجم البلدان (٢ / ٣٥٢).

(٦) سورة «إبراهيم» ، الآية (٣٦).   (٧) سورة «هود» الآية (٣٦).

وحواء، وقريء ولولدى يريـد ساما وحاما ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ منزلي، أو مسجـدي، أو سفينتى ﴿مُؤْمِنًا﴾ لأنه علـم أن من دخل بيته مـؤمنا لايعود إلى الـكفر ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى يوم القيامة خص أولا من يتصل به؛ لأنهم أولـى وأحق بدعائه، ثم عم المؤمنين والمؤمنات ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: الكافرين ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكا فأهلكوا قال ابن عباس - رضى الله عنهما - دعا نوح - عليه السلام - بدعوتـين إحداهما للمؤمنـين بالمغفرة، وأخرى على الـكافرين بالتبار، وقـد أجيبت دعوته فى حق الكفار بالتبار فاستحال أن لاتستجاب دعوته فى حق المؤمنين، واختلف فى صبيانهم حين أغرقوا، فقيل: أعقم الله أرحـام نسائهم قبل الطوفان بأربعين سنة فلـم يكن معهم صبى حين أغرقوا، وقيل: علم الله براءتهم فأهلكوا بغير عذاب، والله أعلم.

(سورة الجن مكية، وهى ثمان وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ أن الأمر والشأن أجمعوا علـى فتح أنه؛ لأنه فاعل أوحي، أن لو استقاموا وأن المساجـد للعطف على أنه استمع، فأن مخففة من الـثقيلة،وأن قدأبلغوا لتعدى يعلـم إليها وعلى كسر مابعد فـاء الجزاء وبعد القول، نحو فإن له نار جـهنم، وقالوا : إنا سمعنا؛ لأنه مبتدأ محـكى بعد القول، واختلفوا فى فتح الهمزة وكسرهـا من «أنه تعالى جد ربنا» إلى «وأنا منا المسلمون» ففـتحهما شامى وكوفى غير أبى بكر عطفا علـى أنه استمع، أو على محل الجار و المجرور فى آمنا به تقديـره صدقناه، وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وأنه كان يـقول سفيهنا إلى آخرها، وكسرها غيرهم عطفا على إنا سـمعنا ، وهم يقفون على آخر الآيات ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ جماعة من الثلاثة إلى العشرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ جن نصيبين ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجعوا إلـيهم من استماع قراءة النبى (ﷺ) فى صلاة الفجر ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ عجيبا بديعا مباينا لسائر الكتب فى حسن نظمه وصحة معانيه، والعجب ما يكون خارجا عن العادة، وهو مصدر وضع موضع العجيب.

●● ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ يدعو إلى الصواب، أو إلى التوحيد والإيمان ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن، ولما كان الإيمان به إيمانا بالله وبوحدانيته وبراءة من الشرك، قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ من خلقه، وجاز أن يكون الضمير فى به لله تعالى، لأن قوله بربنا يفسره.

●● ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمته يقال: جد فلان فى عينى أى عظم، ومنه قول عمر، أو أنس، كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فـينا أى: عظم فى عيوننا ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾ زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ كما يقول كفار الجن والإنس .

●● ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلنا، أو إبليس؛ إذ لـيس فوقه سفيه ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ كفرا لبعـده عن الصواب من شطـت الدار أى بعدت، أو قولا يـجوز فيه عن الحـق وهو نسبة الصـاحبة والولد إليه، والشطط مجاوزة الحد فى الظلم وغيره.

●● ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قولا كذبا، أو مكذويـا فيه، أو نصب على المصدر؛ إذ الكذب نوع من القول أى كان فى ظننا أن أحداً لن يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه فكنا نصدقـهم فيما أضافوا إليه حتى تبين لنا بالقرآن كـذبهم، كان الرجل من العرب إذا نزل بمخوف من الأرض قال أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه يريد كبير الجن فقال.

●● ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ أى: زاد الإنس الجـن باستعاذتهم بهم ﴿رَهَقًا﴾ طغيانا وسـفها وكبرا بأن قالوا: سدنا الجـن الإنس، أو فزاد الجن الإنس رهقا إثما لاستعاذتهم بهم وأصل الرهق غشيان المحظور.

●● ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأن الجن ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد الموت أى أن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم بسماع القرآن اهتدوا وأقروا بالبعث فهلا أقررتم كما أقروا.

●● ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء واستماع أهلها، واللمس : المس فاستعير للطلب؛ لأن الماس طالب متعرف ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ جمعا أقوياء من الملائكة يحرسون، جمع حارس ونصب على التمييز، وقيل: الحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام، ولذا وصف بشديد ولو نظر إلى معناه لقيل شدادا ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شهاب أى: كواكب مضيئة.

●● ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ من السماء قبل هذا ﴿مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ لاستماع أخبار السماء، يعنى كنا نجد بعض السماء خالية من الحرس والشهب قبل المبعث ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾يرد الاستماع ﴿الْآنَ﴾ بعد المبعث ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ لنفسه ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ صفة لشهابا بمعنى الراصد، أى: يجد شهابا راصدا له ولأجله، أو هو اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم،وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع،و الجمهور على أن ذلك لم يكن قبل مبعث محمد (ﷺ) كان الرجم فى الجاهلية ولكن الشياطين كانت تسترق السمع فى بعض الأوقات فمنعوا من الاستراق أصلابعد مبعث النبى (ﷺ).

●● ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ﴾ عذاب ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ بعدم استراق السمع ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيرا ورحمة .

●● ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ الأبرار المتقون ﴿وَمِنَّا﴾ قوم ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فحذف الموصوف وهم المقتصدون فى الصلاح غير الكاملين فيه، أو أرادوا غير الصالحين ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ بيان للقسمة المذكورة أى: كنا ذوى مذاهب متفرقة، أو أديان مختلفة، والقدد: جمع قدة وهى القطعة من قددت السير أى قطعته.

●● ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أيقنا ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ﴾ لن نفوته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال أى: لن نعجزه كائنين فى الأرض أينما كنا فيها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ مصدر فى موضع الحال، أى: ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء، وهذه صفة الجن وماهم عليه من أحوالهم وعقائدهم.

●● ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ القرآن ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن، أو بالله ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لايخاف مبتدأ وخبر ﴿بَخْسًا﴾ نقصا من ثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أى: ولا ترهقه ذلة من قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾(١) وقوله : ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾(٢) وفيه دليل على أن العمل ليس من الإيمان.

---

(١) سورة «يونس» ، الآية (٢٧).

(٢) سورة «يونس» ، الآية (٢٦).

●● ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ المؤمنون ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الكافرون الجائرون عن طريق الحق، قسط: جار وأقسط عدل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ طلبوا هدى، والتحرى: طلب الأحرى أى الأولي.

●● ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا﴾ فى علم الله ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقودا، وفيه دليل على أن الجنى الكافر يعذب فى النار ويتوقف فى كيفية ثوابهم.

●● ﴿وَأَن﴾ مخففة من الثقيلة يعنى وأنه وهى من جملة الموحى أى أوحى إلى أن الشأن ﴿لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ أى: القاسطون ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ طريقة الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ كثيرا، والمعنى لَوَسَّعْنَا عليهم الرزق وذكر الماء الغدق، لأنه سبب سعة الرزق ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فتختبرهم فيه كيف يشكرون ماخولوا منه ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ القرآن، أو التوحيد، أو العبادة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياء عراقى غير أبى بكر يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقا مصدر صعد يقال: صعدا وصعودا فوصف به العذاب؛ لأنه يتصعد المعذب أى يعلوه ويغلبه فلايطيقه، ومنه قول عمر - رضى الله عنه -ما تصعدنى شيء ما تصعدتنى خطبة النكاح [1]. أى ماشق عليّ.

●● ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ من جملة الموحى أى: أوحى إلى أن المساجد أى البيوت المبنية للصلاة فيها لله، قيل: معناه ولأن المساجد لله فلا تدعوا على أن اللام متعلقة بلا تدعوا أى ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فى المساجد، لأنها خالصة لله ولعبادته، وقيل: المساجد أعضاء السجود وهى الجبهة واليدان والركبتان والقدمان.

●● ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ محمد ـ عليه السلام ـ إلى الصلاة وتقديره وأوحى إلى أنه لما قام عبدالله ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده ويقرأ القرآن ولم يقل نبى الله أو رسول الله، لأنه من أحب الأسماء إلى النبى (ﷺ)؛ ولأنه لما كان واقعا فى كلامه (ﷺ) عن نفسه جيء به على ما يقتضيه التواضع، أو لأن عبادة عبدالله لله ليست بمستبعد حتى يكونوا لبدا ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ جماعات جمع لبدة تعجبا مما رأوا من عبادته واقتداء أصحابه به وإعجابا بما تلاه من القرآن لأنهم رأوا مالم يروا مثله.

●● ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ وحده . قال غير عاصم وحمزة ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ فى العبادة فلم تتعجبون وتزدحمون علي.

●● ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ مضرة ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ نفعا أو أراد بالضر الغى بدليل قراءة أبى غيا ولا رشدا يعنى لا أستطيع أن أضركم وأن أنفعكم؛ لأن الضار والنافع هو الله ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ لن يدفع عنى عذابه أحد إن عصيته كقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي

(١) الخبر فى «كنز العمال»، برقم (١٦ / ٤٥٦١٨).

مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾[١] ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ ﴿إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ﴾ استثناء من لا أملك أى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا إلا بلاغا من الله، و«قل إنى لن يجيرنى» اعتراض لتأكيد نفى الاستطاعة عن نفسه وبيان عجزه، وقيل: بلاغا بدل من ملتحدا أى لن أجد من دونه منجى إلا أن أبلغ عنه ما أرسلنى به يعنى لاينجينى إلا أن أبلغ عن الله ماأرسلت به فإن ذلك ينجيني، وقال الفراء: هذا شرط وجزاء وليس باستثناء وإن منفصلة من لا وتقديره أن لاأبلغ بلاغا أى إن لم أبلغ لم أجد من دونه ملتجأ ولا مجيرا لى كقولك: إن لاقياما فقعودا، والبلاغ فى هذه الوجوه بمعنى التبليغ ﴿وَرِسَالاتِهِ﴾ عطف على بلاغا كأنه قيل: لا أملك لكم إلا التبليغ والرسالات أى إلا أن أبلغ عن الله فأقول قال الله كذا ناسباً لقوله إليه، وأن أبلغ رسالته التى أرسلنى بها بلا زيادة ونقصان، ومن ليست بصلة للتبليغ؛ لأنه يقال بلغ عنه ، إنما هى بمنزلة من فى ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾[٢] أى بلاغا كائنا من الله ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فى ترك القبول لما أنزل على الرسول؛ لأنه ذكر على أثر تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾وحد فى قوله له وجمع فى خالدين للفظ من، ومعناه.

●● ﴿حَتَّى﴾ يتعلق، بمحذوف دلت عليه الحال، كأنه قيل: لا يزالون على ماهم عليه حتي﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلول العذاب بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم أم المؤمنون؟ أى الكافر لاناصر له يومئذ، والمؤمن ينصره الله وملائكته وأنبياؤه.

●● ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ ما أدرى ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي﴾ ويفتح الياء حجازى وأبو عمرو ﴿أَمَدًا﴾ غاية بعيدة يعنى أنكم تعذبون قطعا ولكن لا أدرى أهو حال أم مؤجل.

●● ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ هو خبر مبتدأ أى: هو عالم الغيب ﴿فَلا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من خلقه ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ إلارسولا قد ارتضاه لعلم بعض الغيب ليكون إخباره عن الغيب معجزة له فإنه يطلعه على غيبه ماشاء، و«من رسول» بيان لمن ارتضي، والولى إذا أخبر بشى فظهر فهو غير جازم عليه ولكنه أخبر بناء على رؤياه، أو بالفراسة على أن كل كرامة للولى فهى معجزة للرسول، وذكر فى التأويلات قال بعضهم فى هذه الآية بدلالةتكذيب المنجمة وليس كذلك فإن فيهم من يصدق خبره، وكذلك المتطببة يعرفون طبائع النبات وذا لايعرف بالتأمل فعلم بأنهم وقفوا على علمه من جهة رسول انقطع أثره وبقى علمه فى الخلق ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ يدخل﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يدى رسول ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم حتى يبلغ الوحي.

---

(١) سورة «هود» ، الآية (٦٣).

(٢) سورة «التوبة» ، الآية (١).

●● ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أى: الرسل ﴿رِسَالاتِ رَبِّهِم﴾ كاملة بلا زيـادة ولانقصان إلى المرسل إليهم أى: ليعلم الله ذلك موجودا حال وجـوده كما كان يعلم ذلك قبل وجوده أنه يوجد، وحد الضمير فى من بين يديه للفظ من وجمع في أبلغوا لمعناه ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله ﴿بِمَا لَدَيْهِم﴾ بما عند الرسل من العلم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ من القطر والرمل وورق الأشجـار وزبد البحار فكيف لايحيط بمـاعند الرسل من وحـيه وكلامه. وعددا حال، أى: وعـلـم كل شيء معدودا مـحصورا، أومصدر فى معنى إحصاء ، والله أعلم.

(سورة المزمل - ﷺ - مكية، وهي
تسع عشرة آية بصري وثمان عشرة شامي)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفف بهابإدغام التاء في الزاي،كان النبي (ﷺ) نائما بالليل متزملا في ثيابه فأمر بالقيام للصلاة بقوله.

●● ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلا * نِّصْفَهُ﴾ بدل من الليل وإلا قليلا استثناء من قوله نصفه تقديره قم نصف الليل إلا قليلا من نصف الليل ﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ﴾ من النصف . بضم الواو غير عاصم وحمزة ﴿قَلِيلا﴾ إلى الثلث ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف إلى الثلثين، والمراد التخيير بين أمرين بين أن يقوم أقل من نصف الليل على البت وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان من النصف والزيادة عليه، وإن جعلت نصفه بدلامن قليلا كان مخيرا بين ثلاثة أشياء بين قيام نصف الليل تاماً، وبين قيام الناقص منه، وبين قيام الزائد عليه، وإنما وصف النصف بالقلة بالنسبة إلى الكل وإلا فإطلاق لفظ القليل ينطلق على ما دون النصف؛ ولهذا قلنا: إذا أقر أن لفلان عليه ألف درهم إلا قليلا أنه يلزمه أكثر من نصف الألف ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ﴾ بين وفصل من الثغر المرتل أي المفلج الأسنان وكلام رتل بالتحريك أي مرتل وثغر رتل أيضاً إذا كان مستوى البنيان، أو اقرأ على تؤدة بتبيين الحروف وحفظ الوقوف وإشباع الحركات ﴿تَرْتِيلاً﴾ هو تأكيد في إيجاب الأمر به وأنه لابد منه للقاريء.

●● ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ﴾ ستنزل عليك ﴿قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ أي: القرآن لما فيه من الأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقة ثقيلة على المكلفين، أوثقيلاً على المنافقين، أو كلام له وزن ورجحان ليس بالسفساف الخفيف.

●● ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ بالهمزة سوى ورش: قيام الليل. عن ابن مسعود - رضي الله عنه - فهو مصدر من نشأ إذا قام ونهض على فاعلة كالعافية، أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث، أو ساعات الليل؛ لأنها تنشأ ساعة فساعة، وكان زين العابدين (١) - رضي الله عنه - يصلي بين العشاءين، ويقول هذه ناشئة الليل ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ وطاء وفاقا شامي وأبو عمرو أي يواطيء فيها قلب القائم لسانه، وعن الحسن أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق. غيرهما: وطأ أي أثقل على المصلي من صلاة النهار لطرد النوم في وقته من قوله (ﷺ): «اللهم اشدد وطأتك

---

(١) هو الإمام الشريف؛ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المدني، زين العابدين، روى عن أبيه وعمه، وأرسل عن جده، كان زاهداً، تقياً، ورعاً، أثنى العلماء على دينه، وعلمه، وكان ـ رضي الله عنه ـ مثالاً لقرابة رسول الله ﷺ. ولد عام ٣٨ هـ، وتوفي عام ٩٤ أو ٩٥هـ.
تهذيب التهذيب (٤/ ١٩٢ـ ١٩٤).

على مضر[١] . ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأشد مقالا وأثبت قراءة لهدو الأصوات. وانقطاع الحركات.

●● ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ تصرفا وتقلبا فى مهماتك وشـواغلك ففرغ نفسك فى الليل لعبادة ربك، أو فراغا طويلا لنومك وراحتك.

●● ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره فى الـليل والنهار وذكر الله يتـناول التسبيح والتـهليل والتكبـير والصلاة وتلاوة القرآن ودراسـة العلم ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ انقطـع إلى عبادته عـن كل شيء. والتبتل : الانقطاع إلى الله تـعالى بتأميل الخير منه دون غيره. وقيل: رفض الدنـيا ومافيها والتماس ما عند الله ﴿تَبْتِيلاً﴾ فى اختلاف المصدر زيادة تأكيد أى بتلك الله فـتبتل تبتيلا، أو جيء به مراعاة لحق الفواصل.

●● ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالرفـع أى: هو رب، أو مبتـدأ خبره ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وبالجر شامى وكوفى غيرحفص بدل من ربك، وعن ابن عباس - رضـى الله عنهما - على القسم بإضمار حرف الـقسم نحـو الله لأفعلـن، وجوابه لا إلـه إلا هو كقولـك: والله لا أحد فى الـدار إلا زيد ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وليا وكفيلا بما وعدك من النصـر، أو إذا علمت أنه ملك المشرق والمغرب وأن لا إله إلا هو فاتـخذه كافيا لأمورك، وفـائدة الفاء أن لاتلبث بـعد أن عرفت فى تفـويض الأمور إلى الواحد القهار إذ لا عذر لك فى الانتصار بعد الإقرار.

●● ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فىَّ من الصاحـبةوالولد، وفيك من السـاحر والشاعر﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ جانبهـم بقلبك وخالـفهم مع حسن المحـافظة وترك المكافـأة وقيل هو منسـوخ بآية القتال.

●● ﴿وَذَرْنِي﴾ أى كلهم إلى فأنا كافيهم ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ رؤساء قريش مفعول معه أو عطف على ذرنى أى: دعنى وإياهم ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ التنعم وبالكسر الإنعام، وبالضم المسرة ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ إمهالا ﴿قَلِيلاً﴾ إلى يوم بـدر أو إلى يوم القـيامة ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾ للكافـرين فى الآخرة ﴿أَنكَالاً﴾ قيودا ثقالا جمع نكل ﴿وَجَحِيمًا﴾ نارا حرقة ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ أى الذى ينشـب فى الحلوق فلاينسـاغ يعنى الضريع والزقوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ يخلص وجعه إلى القلب، وروى أنه (ﷺ) قرأ هذه الآية فصعق[٢] وعن الحسن أنه أمسـى صائماً فأتى بطعام فعـرضت له هذه الآية فقال: ارفعه، ووضع عـنده الليلة الثانية فعرضت له فقال: ارفعه، وكذلك الليلة الثالثة فأخبر ثابت البنانى وغيره فجاءوا فلم يزالوا به حتى شرب شربة من سويق.

●●﴿يَوْمَ﴾ منصوب بما فى لدينا من معنى الفعـل أى استقر للكفار لدينا كذا وكذا يوم ﴿تَرْجُفُ

---

(١) الحديث متفق عليه.

(٢) الحديث عن أحمد فى الزهد.

﴿الأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أى: تتحرك حركة شديدة ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملا مجتمعا من كثب الشيء إذا جمعه كأنه فعيل بمعنى مفعول ﴿مَّهِيلاً﴾ سائلا بعد اجتماعه.

●● ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿رَسُولاً﴾ يعنى محمدا - عليه السلام - ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ يعنى: موسى - عليه السلام -﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ أى ذلك الرسول إذ النكرة إذا أعيدت معرفة كان الثانى عين الأول ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ شديدا غليظاً، وإنما خص موسى وفرعون، لأن خبرهما كان منتشراً بين أهل مكة، لأنهم كانوا جيران اليهود ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا﴾ هو مفعول تتقون أى كيف تتقون عذاب يوم كذا إن كفرتم، أو ظرف أى فكيف لكم التقوى فى يوم القيامة إن كفرتم فى الدنيا، أو منصوب بكفرتم على تأويل جحدتم أى كيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء؛ لأن تقوى الله خوف عقابه ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ﴾ صفة ليوما والعائدم محذوف أى فيه ﴿شِيبًا﴾ من هوله وشدته وذلك حين يقال لآدم - عليه السلام - قم فابعث بعث النار من ذريتك، وهو جمع أشيب، وقيل: هو على التمثيل للتهويل يقال لليوم الشديد يوم يشيب نواصى الأطفال.

●● ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ وصف لليوم بالشدة أيضاً أى: السماء على عظمها وإحكامها تنفطر به أى فما ظنك بغيرها من الخلائق، والتذكير على تأويل السماء بالسقف؛ أو السماء شيء منفطر، وقوله به أى بيوم القيامة يعنى أنها تنفطر لشدة ذلك اليوم وهو له كما ينفطر الشيء بما يفطر به ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ المصدر مضاف إلى المفعول وهو اليوم، أو إلى الفاعل وهو الله عزوجل ﴿مَفْعُولاً﴾ كائنا .

●● ﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ الآيات الناطقة بالوعيد ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أى فمن شاء اتعظ بها، واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى والخشية.

●● ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ اقل فاستعير الأدنى وهو الأقرب للأقل، لأن المسافة بين الشيئين إذا دنت قل ما بينهما من الأحياز، وإذا بعدت كثر ذلك ﴿ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ بضم اللام سوى هشام ﴿وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ منصوبان عطف على أدنى، مكى وكوفى ومن جرهما عطف على ثلثى ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ عطف على الضمير فى تقوم، وجاز بلا توكيد لوجود الفاصل ﴿ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أى ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى: ولايقدر على تقدير الليل والنهار ولايعلم مقادير ساعاتهما إلا الله وحده، وتقديم اسمه عزوجل مبتدأ مبنياً عليه يقدر هو الدال على أنه مختص بالتقدير، ثم إنهم قاموا حتى انتفخت أقدامهم فنزل ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ لن تطيقوا قيامه على هذه المقادير إلابشدة ومشقة وفى ذلك حرج ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فخفف عليكم

واسقط عنكم فرض قيام الليل ﴿فَاقْرَءُوا﴾ فى الصلاة والأمر للوجوب، أوفى غيرها والأمر للندب ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ عليكم ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ روى أبو حنيفة عن أبى هريرة -رضى الله عنه - أنه قال من قرأ مائة آية فى ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مائتى آيةكتب من القانتين [1] وقيل: أراد بالقرآن الصلاة، لأنه بعض أركانها أى: فصلوا ما تيسر عليكم ولم يتعذر من صلاة الليل ، وهذا ناسخ للأول، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس ، ثم بين الحكمة فى النسخ وهى تعذر القيام على المرضى والمسافرين والمجاهدين فقال ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم﴾ أى: أنه، مخففة من الثقيلة والسين بدل من تخفيفها، وحذف اسمها ﴿مَّرْضَىٰ﴾ فيشق عليهم قيام الليل ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يسافرون ﴿يَبْتَغُونَ﴾ حال من ضمير يضربون ﴿مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ رزقه بالتجارة، أو طلب العلم ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سوى بين المجاهد والمكتسب؛ لأن كسب الحلال جهاد قال ابن مسعود - رضى الله عنه -:أيما رجل جلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء [2] وقال ابن عمر- رضى الله عنهما - ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل فى سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبتى رجل أضرب فى الأرض أبتغى من فضل الله[3] ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كرر الأمر بالتيسير لشدة احتياطهم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ بالنوافل. والفرض لغة: القطع فالمقرض يقطع ذلك القدر من ماله فيدفعه إلى غيره، وكذا المتصدق يقطع ذلك القدر من ماله فيجعله لله تعالي، وإنما أضافه إلى نفسه لئلا يمن على الفقير فيما تصدق به عليه، وهذا؛ لأن الفقير معاون له فى تلك القربة فلايكون له عليه منة، بل المنة للفقير عليه ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ من الحلال بالإخلاص ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ أى: ثوابه وهو جزاء الشرط ﴿عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ مما خلفتم وتركتم فالمفعول الثانى لتجدوه خيراً وهو فصل . وجاز وإن لم يقع بين معرفتين، لأن أفعل من أشبه المعرفة لامتناعه من حرف التعريف ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وأجزل ثوابا ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من السيئات والتقصير فى الحسنات ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يستر على أهل الذنب والتقصير ﴿رَّحِيمٌ﴾ يخفف عن أهل الجهد والتوفير،وهو على ما يشاء قدير، والله أعلم.

---

(١) الخبر فى «كنز العمال» ، برقم (٧/ ٢١٤٦١).

(٢) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

(٣) الحديث عند البيهقى فى «شعب الإيمان».

سورة المدثر - ﷺ - مكية، وهى ست وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

روى جابر أن النبى (ﷺ) قال: كنت على جبل حراء: فنوديت: يا محمد إنك رسول الله فنظرت عن يمينى ويسارى فلم أر شيئا فنظرت إلى فوقى، فإذا هو قاعد على عرش بين السماء والأرض - يعنى الملك الذى ناداه - فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت: دثرونى دثرونى . فدثرته خديجة فجاء جبريل وقرأ (١).

●● ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أى: المتلفف بثيابه من الدثار، وهوكل ماكان من الثياب فوق الشعار. والشعار : الثوب الذى يلى الجسد وأصله المتدثر فأدغم .

●● ﴿قُمْ﴾ من مضجعك، أو قم قيام عزم وتصميم ﴿فَأَنذِرْ﴾ فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا، أو فافعل الإنذار من غير تخصيص له بأحد، وقيل: سمع من قريش ما كرهه فاغتم فتغطى بثوبه مفكرا كما يفعل المغموم، فقيل له: يا أيها الصارف أذى الكفار عن نفسك بالدثار قم فاشتغل بالإنذار وإن آذاك الفجار.

●● ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختص ربك بالتكبير وهو التعظيم أى: لا يكبر فى عينك غيره، وقل عندما يعروك من غير الله الله أكبر، وروى أنه لمانزل قال رسول الله (ﷺ): «الله أكبر» (٢) فكبرت خديجة وفرحت وأيقنت أنه الوحى، وقد يحمل على تكبير الصلاة، ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل: وماكان فلا تدع تكبيره.

●● ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ بالماء عن النجاسة؛ لأن الصلاة لا تصح إلا بها وهى الأولى فى غير الصلاة، أو فقصر مخالفة للعرب فى تطويلهم الثياب وجرهم الذيول إذ لايؤمن معه إصابة النجاسة، أو طهر نفسك مما يستقذر من الأفعال يقال: فلان طاهر الثياب إذا وصفوه بالنقاء من المعايب، وفلان دنس الثياب للغادر؛ ولأن من طهر باطنه يطهر ظاهره ظاهرا.

●● ﴿وَالرُّجْزَ﴾ بضم الراء يعقوب وسهل وحفص وغيرهم بالكسر العذاب والمراد ما يؤدى إليه ﴿فَاهْجُرْ﴾ أى: اثبت على هجره، لأنه كان بريئاً منه.

●● ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ بالرفع وهو منصوب المحل على الحال، أى: لاتعط مستكثرا رائيا لما تعطيه كثيراً أو طالباً أكثر مما أعطيت فإنك مأمور بأجل الأخلاق وأشرف الآداب وهو من: من عليه إذا أنعم عليه. وقرأ الحسن تستكثر بالسكون جواباً للنهى.

(١) الحديث متفق عليه، من حديث أم سلمة، وأتم منه.

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١ / ١٤٩١).

•• ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ولوجه الله فاستعمل الصبر على أوامره ونواهيه، وكل مصبور عليه ومصبور عنه.

•• ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ﴾ نفخ فى الصور، وهى النفخة الأولى، وقيل الثانية.

•• ﴿فَذَلِكَ﴾ إشارة إلى وقت النقر وهو مبتدأ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مرفوع المحل بدل من ذلك ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ خبر، كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير، والفاء فى فإذا للتسبيب، وفى فذلك للجزاء، كأنه قيل: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه، والعامل فى فإذا ما دل عليه الجزاء أى فإذا نقر فى الناقور عسر الأمر ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ وأكد بقوله غير يسير ليؤذن بأنه يسير على المؤمنين، أو عسير لايرجى أن يرجع يسيرا كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا.

•• ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أى: كله إلى يعنى الوليد بن المغيرة، وكان يلقب فى قومه بالوحيد ومن خلقت معطوف، أو مفعول معه﴿وَحِيدًا﴾ حال من الياء فى ذرنى أى ذرنى وحدى معه فإنى أكفيك أمره، أو من التاء فى خلقت أى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد، أو من الهاء المحذوفة، أو من أى خلقته منفرداً بلا أهل ولا مال، ثم أنعمت عليه ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيرا، أو ممدوا بالنماء وكان له الزرع والضرع والتجارة وعن مجاهد كان له مائة ألف دينار، وعنه أن له أرضاً بالطائف لاينقطع ثمرها ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضورا معه بمكة لغناهم عن السفر وكانوا عشرة أسلم منهم خالد[1] وهشام[2] وعمارة[3] ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الجاه والرياسة فأتمت عليه نعمتى الجاه والمال واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدينا.

•• ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه فيرجو أن أزيد فى ماله وولده من غير شكر. وقال الحسن، أن أزيد أن أدخله الجنة فأوتيه مالا وولداً كما قال ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[4] ﴿كَلَّا﴾ ردع له وقطع لرجائه أى: لا يجمع له بعد اليوم بين الكفر، والمزيد من النعم فلم يزل بعد نزول الآية فى نقصان من المال والجاه حتى هلك ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا﴾ للقرآن ﴿عَنِيدًا﴾ معانداً جاحداً، وهو تعليل للردع على وجه الاستئناف، كأن قائلا قال: لم لا يزاد فقيل: إنه جحد آيات المنعم وكفر بذلك نعمته، والكافر لايستحق المزيد ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾ سأغشيه ﴿صَعُودًا﴾ عقبة شاقة المصعد وفى الحديث الصعود جبل من نار تصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوى فيه كذلك أبداً[5].

•• ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ تعليل للوعيد كأن الله تعالى عاجله بالفقر والذل بعد الغِنى والعز لعناده ويعاقبه

(١) خالد بن الوليد، سيف الله المسلول، انظر ترجمته عند تفسير الآية (٦)، من سورة «الحجرات».

(٢) لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مراجع.

(٣) لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من مراجع.

(٤) سورة «مريم» ، الآية (٧٧).

(٥) الحديث عند الترمذى، من حديث أبى سعيد، يرفعه.

فى الآخرة بأشد العذاب لبلوغه بالعناد غايته، وتسميته القرآن سحراً يعنى أنه فكر ماذا يقول فى القرآن ﴿وَقَدَّرَ﴾ فى نفسه ما يقوله وهيأة ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب من تقديره ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرر للتأكيد وثم يشعر بأن الدعاء الثانى أبلغ من الأول ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فى وجوه الناس، أو فيما قدر ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ زاد فى التقبض والكلوح ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عنه أو عن مقامه وفى مقاله. وثم نظر عطف على «فكر وقدر»، والدعاء اعتراض بينهما، وإيراد ثم فى المعطوفات لبيان أن بين الأفعال المعطوفة تراخياً ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا﴾ ماهذا ﴿إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يروى عن السحرة. روى أن الوليد قال لبنى مخزوم: والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى؛ فقالت قريش: صبأ والله الوليد؛ فقال أبو جهل -وهو ابن أخيه -: أنا أكفيكموه فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فقام الوليد فأتاهم فقال: تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: فى كل ذلك: اللهم لا ثم قالوا: فما هو؟ ففكر فقال: ماهو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذى يقوله إلا سحر يؤثر عن مسيلمة وأهل بابل، فارتج النادى فرحا وتفرقوا متعجبين منه. وذكر الفاء دليل على أن هذه الكلمة لما خطرت بباله نطق بها من غير تلبث ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ولم يذكر العاطف بين هاتين الجملتين؛ لأن الثانية جرت مجرى التوكيد للأولى.

●● ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ سأدخله بدل من سأرهقه صعودا ﴿سَقَرَ﴾ علم لجهنم ولم ينصرف للتعريف والتأنيث ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ تهويل لشأنها ﴿لا تُبْقِي﴾ أى: هى لاتبقى لحما ﴿وَلا تَذَرُ﴾ عظماً، أو لا تبقى شيئاً يبقى فيها إلا أهلكته ولا تذره هالكا بل يعود كما كان ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أى: هى لواحة ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ جمع بشرة وهى ظاهر الجلد أى مسودة للجلود ومحرقة لها.

●● ﴿عَلَيْهَا﴾ على سقر ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أى يلى أمرها تسعة عشر ملكا عند الجمهور، وقيل صنفا من الملائكة، وقيل: صفا، وقيل: نقيبا ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أى: خزنتها ﴿إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ لأنهم خلاف جنس المعذبين فلا تأخذهم الرأفة والرقة؛ لأنهم أشد الخلق بأسا فللواحد منهم قوة الثقلين ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تسعة عشر ﴿إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أى ابتلاء واختبار ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حتى قال أبو جهل لما نزلت «عليها تسعة عشر» ما يستطيع كلّ عشرة منكم أن يأخذوا واحدا منهم وأنتم الدهم، فقال أبو الأشد- وكان شديد البطش - :أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين؛ فنزلت وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، أى: وما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون، وقالوا فى تخصيص الخزنة بهذا العدد مع أنه لا يطلب فى الأعداد العلل: أن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار، وستة يسوقونهم، وستة يضربونهم بمقامع الحديد، والآخر خازن جهنم وهو مالك وهو

الأكبر، وقيل: فى سقر تسعة عشر دركا، وقد سلط على كل درك ملك وقيل: يعذب فيها بتسعة عشر لونا من العذاب وعلى كل لون ملك موكل، وقيل: إن جهنم تحفظ بما تحفظ به الأرض من الجبال وهى تسعة عشر، وإن كان أصلها مائة وتسعين إلا أن غيرها يشعب عنها ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لأن عدتهم تسعة عشر فى الكتابين فإذا سمعوا بمثلها فى القرآن أيقنوا أنه منزل من الله ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد، وهو عطف على ليستيقن ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل أو يزدادوا يقينا لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا عطف أيضاً وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دالان على انتفاء الارتياب، ثم عطف على ليستيقن أيضاً ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ المشركون فإن قلت: النفاق ظهر فى المدينة والسورة مكية: قلت: معناه وليقول المنافقون الذين يظهرون فى المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب، وذا لا يخالف كون السورة مكية، وقيل: المراد بالمرض الشك والارتياب؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين ومثلا تميز لهذا، أو حال منه كقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾(١) ولما كان ذكر العدد فى غاية الغرابة وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمى مثلا، والمعنى: أى شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأى معنى أراد فى أن عدد الملائكة تسعة عشر لا عشرين وغرضهم إنكاره أصلاً وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ الكاف نصب وذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى أى مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يعنى إضلال المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا، وهدى المؤمنين لتصديقه ورؤية الحكمة فى ذلك يضل الله من يشاء من عباده وهو الذى علم منه اختيار الضلال ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وهو الذى علم منه اختيار الاهتداء، وفيه دليل خلق الأفعال ووصف الله بالهداية والإضلال. لما قال أبو جهل - لعنه الله - أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر نزل ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ لفرط كثرتها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له فى هذا العديد الخاص حكمة لاتعلمونها ﴿وَمَا هِيَ﴾ متصل بوصف سقر، وهى ضميرها أى وما سقر وصفتها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أى: تذكرة للبشر أو ضمير الآيات التى ذكرت فيها.

●● ﴿كَلَّا﴾ إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون ﴿وَالْقَمَرِ﴾ أقسم به لعظم منافعه ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف. وغيرهم إذا دبر ودبر بمعنى أدبر ومعناهما ولى وذهب وقيل: أدبر ولى ومضى ودبر جاء بعد النهار ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أضاء وجواب القسم ﴿إِنَّهَا﴾ ﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ هى جمع الكبرى أى لإحدى البلايا، أو الدواهى الكبر، ومعنى كونها إحداهن أنها من بينهن واحدة فى العظم لانظيرة لها كما تقول هو أحد

---

(١) سورة «الأعراف» (٧٣)، وهود (٦٤).

الرجال وهى إحدى النساء ﴿نَذِيرًا﴾ تميز من إحدى أى: إنها لإحدى الدواهى إنذارا، كقولك: هى إحدى النساء عفافا وأبدل من ﴿لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ بإعادة الجار ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الخير﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنه وعن الزجاج إلى ما أمر وعما نهى.

•• ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ هى ليست بتأنيث رهين فى قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾(1) لتأنيث النفس؛ لأنه لو قصدت الصفة لقيل رهين، لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث، وإنما هى اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل كل نفس بما كسبت رهن، والمعنى كل نفسه رهن بكسبها عند الله غير مفكوك ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ أى: أطفال المسلمين؛ لأنهم لا أعمال لهم يرهنون بها، أو إلا المسلمين فإنهم فكوا رقابهم بالطاعة كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أى: هم فى جنات لايكتنه وصفها ﴿يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يسأل بعضهم بعضا عنهم، أو يتساءلون غيرهم عنهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أدخلكم فيها ولا يقال لا يطابق قوله ما سلككم وهو سؤال للمجرمين قوله يتساءلون عن المجرمين وهو سؤال عنهم، وإنما يطابق ذلك لو قيل: يتساءلون المجرمين ما سلككم ليس ببيان للتساؤل عنهم، وإنما هو حكاية قول المسئولين عنهم؛ لأن المسئولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون قلنا لهم ما سلككم فى سقر، قالوا. لم نك من المصلين إلا أنه اختصر كما هو نهج القرآن وقيل: عن زائدة.

•• ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أى: لم نعتقد فرضيتها ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ كما يطعم المسلمون ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ الخوض: الشروع فى الباطل. أى: نقول الباطل والزور فى آيات الله ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ الحساب والجزاء ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ الموت.

•• ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ من الملائكة والنبيين والصالحين لأنها للمؤمنين دون الكافرين. وفيه دليل ثبوت الشفاعة للمؤمنين فى الحديث: «إن من أمتى من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من ربيعة(2) ومضر(3)»(4) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ﴾ عن التذكير وهو العظة أى القرآن ﴿مُعْرِضِينَ﴾ مولين حال من الضمير نحو مالك قائما ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ أى: حمر الوحش حال من الضمير فى معرضين ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ شديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها. وبفتح الفاء مدنى وشامى أى استنفرها غيرها ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ حال وقد معها مقدرة، والقسورة: الرما، أو الأسد فعولة من القسر، وهو القهر والغلبة شبهوا فى إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر بحمر جدت فى

---

(1) سورة «الطور» ، الآية (٢١).

(2) ربيعة: قبيلة من أسلاف قريش، تنسب إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. الأنساب (٥/٣١٨).

(3) مُضَر: قبيلة أخرى من أسلاف قريش، تنسب إلى مضر بن نزار، أخو ربيعة.

(4) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (١٢/٦٩٠٣٤).

نفارها ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا لرسول الله (ﷺ): لن نتبعك حتى تأتى كل واحد منا بكتب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر فيها باتباعك ونحوه قوله ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾(١) وقيل: قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح عند رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته ومنه من النار.

●● ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن تلك الإرادة وزجر عن اقتراح الآيات، ثم قال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكر، لا لا متناع إيتاء الصحف ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ردعهم عن إعراضهم عن التذكرة، وقال إن القرآن تذكرة بليغة الصحف ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أى: فمن شاء أن يذكره ولا ينساه فعل فإن نفع ذلك عائد إليه ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ وبالتاء نافع ويعقوب ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت مشيئة الله وإلا بمشيئة الله ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فى الحديث: هو أهل أن يتقى، وأهل أن يغفر لمن اتقاه(٢)، والله أعلم.

---

(١) سورة «الإسراء»، الآية (٩٣).

(٢) الحديث عند الترمذى والنسائى وابن ماجة، وغيرهم من حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ يرفعه.

(سورة القيامة مكية، وهى أربعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾أى: أقسم عن ابن عباس، «ولا» صلة كقوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ﴾(١) وقوله:

● فى بئر لا حور سرى وما شعر ●

وكقوله:

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة وكاد ضمير القلب لا يتقطع

وعليه الجمهور، وعن الفراء «لا» رد لإنكار المشركين البعث، كأنه قيل: ليس الأمر كما تزعمون، ثم قيل: أقسم بيوم القيامة، وقيل: أصله لأقسم كقراءة ابن كثير على أن اللام للابتداء، وأقسم خبر مبتدأ محذوف أى: لأنا أقسم، ويقويه أنه فى الإمام(٢) بغير الألف، ثم أشبع فظهر من الإشباع ألف، وهذا اللام يصحبه نون التأكيد فى الأغلب وقد يفارقه.

●● ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ الجمهور على أنه قسم آخر، وعن الحسن أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة فهى صفة ذم وعلى القسم صفة مدح أى: النفس المتقية التى تلوم على التقصير فى التقوى وقيل: هى نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها التى خرجت به من الجنة، وجواب القسم محذوف أى: لتبعثن دليله.

●● ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ﴾ أى: الكافر المنكر للبعث ﴿أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد تفرقها ورجوعها رفاتاً مختلطاً بالتراب ﴿بَلَىٰ﴾ أوجبت ما بعد النفى، أى: بلى نجمعها ﴿قَادِرِينَ﴾ حال من الضمير فى نجمع أى نجمعها قادرين على جمعها وإعادتها كما كانت ﴿عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ أصابعه كما كانت فى الدنيا بلا نقصان وتفاوت مع صغرها فكيف بكبار العظام.

●● ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ﴾ عطف على أيحسب فيجوز أن يكون مثله استفهاما ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة.

●● ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ تحير فزعا، وبفتح الراء مدنى: شخص ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ وذهب ضوؤه أو غاب من قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾(٣) به وقرأ أبو حيوة(٤) بضم الخاء ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: جمع بينهما فى الطلوع من المغرب، أو جمعا فى ذهاب الضوء، ويجمعان فيقذفان فى البحر فيكون

(١) سورة «الحديد» ، الآية (٢٩).

(٢) الإمام: هو مصحف عثمان ـ رضى الله عنه ـ الذى جمع فيه القراءات، وجمع الناس عليه، درءاً للفرقة والخلاف الذى كاد ينشب بين المسلمين؛ فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

ص ٣١٤

(٣) سورة «القصص» ، الآية (٨١).

(٤) أبو حيوة؛ شريح بن يزيد، راجع ترجمته عند تفسير الآية (٢٣٧) ، من سورة «البقرة».

نار الله الكبرى ﴿يَقُولُ الإنسَانُ﴾ الكافر ﴿يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ هو مصدر، أى: الفـرار من النار، أو المؤمن أيضاً من الهول، وقرأ الحسن بكسر الفاء، وهو يحتمل المكان والمصدر.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع عن طلب المفر﴿لا وَزَرَ﴾ لاملجأ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ خاصة ﴿يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ مستقر العباد، أو موضع قرارهم من جنة أونار مفوض ذلك لمشيئته من شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار ﴿يُنَبَّأُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ يخبر ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من عمل عمله ﴿وَأَخَّرَ﴾ مالم يعمله.

●● ﴿بَلِ الإنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ شاهد، والـهاء للمبالـغة كعلامة، أو أنثـه، لأنه أراد به جوارحه إذ جوارحه تشهد عليه، أو هو حجة على نفسه والبصيرة الحجة قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾(1) وتقول لغيرك: أنت حـجة على نفسك، وبصيرة رفع بالابـتداء، وخبره على نفسه تقدم عليه، والجـملة خبر الإنسان كقولك زيد على رأسه عمامة، والـبصيرة على هذا يجوز أن يكون الملك الموكل عليه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أرخى ستوره، والمعذار: الستر، وقيل: ولو جاء بكل معذرة ما قبلـت منه فعليه من يكذب عذره؛ والمعـاذير ليس بجمع معذرة لأن جمعـها معاذر بل هى اسم جمع لها ونحوه المناكير فى المنكر.

●● ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ بالقرآن وكان (ﷺ) يأخذ فـى القراءة قبل فراغ جبريل كراهة أن يتفلت منه، فقيل له: لا تحرك لسانك بقراءة الوحى مادام جبريل يقرأ لتأخذه على عجلة ولئلا يتفلت منك، ثم علل النهى عن العجلة بقوله فجعل قراءة جبريل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ فى صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ وإثبات قراءه فى لسانك، والقرآن القراءة، ونحوه ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾(2) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أى قرأه عليك جبريل فجعل قراءة جبريل قراءته﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أى قراءته عليك﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع عن إنكـار البعث، أو ردع لرسـول الله (ﷺ) عن العجلـة وإنكار لها عـليه، وأكده بقوله: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ كأنه قيل بل أنتم يابنى آدم لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه تعجلـون فى كل شيء، ومن ثم تحبون الـعاجلة الدنيا وشـهواتها ﴿وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها، والقراءة فيهما بالتاء مدنى وكوفى.

﴿وُجُوهٌ﴾ وهى وجوه المـؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة ناعمة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بلا كيـفية ولا جهة ولا ثبوت مسافة، وحمل النظر على الانتـظار لأمر ربها، أو لثوابه لا يصح؛ لأنه يقال نظرت فيه أى تفكرت، ونـظرته انتظرته ولا يعدى بإلـى إلا بمعنى الرؤية مع أنه لا يليـق الانتظار فى دار القرار.

●● ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ كالحة شديدة العبـوسة وهى وجوه الكفار ﴿تَظُنُّ﴾ تتوقع ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ فعل هو فى شدته﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهية تقصم فقار الظهر.

---

(1) سورة «الأنعام» ، الآية (١٠٤).

(2) سورة «طه»، الآية (١١٤).

●● ﴿كَلَّا﴾ ردع عن إيثار الدنيا على الآخرة، كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك وتنبهوا على ما بين أيديكم من الموت الذى عنده تنقطع العاجلة عنكم وتنتقلون إلى الآجلة التى تبقون فيها مخلدين ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أى: الروح وجاز وإن لم يجر لها ذكر؛ لأن الآية تدل عليها ﴿التَّرَاقِيَ﴾ العظام المكتنفة لثغرة النحرعن يمين وشمال جمع ترقوة ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يقف حفص على من وقيفة، أى قال حاضر، والمحتضر بعضهم لبعض: أيكم يرقيه مما به: من الرقية من حد ضرب، أو هو من كلام الملائكة أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب: من الرقى من حد علم ﴿وَظَنَّ﴾ أيقن المحتضر ﴿أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ أن هذا الذى نزل به هو فراق الدنيا المحبوبة ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التوت ساقاه عندموته، وعن سعيد بن المسيب هما ساقاه حين تلفان فى أكفانه، وقيل: شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة، على أن الساق مثل فى الشدة، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما -: هما همّان همّ الأهل والولد، وهمّ القدوم على الواحد الصمد ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ هو مصدر ساقه أى مساق العباد إلى حيث أمر الله إما إلى الجنة أو إلى النار.

●● ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ بالرسول والقرآن ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ الإنسان فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[1] ﴿وَلَٰكِنْ كَذَّبَ﴾ بالقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان، أو فلا صدق ماله يعنى فلا زكاه ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ يتبختر وأصله يتمطط أى يتمدد؛ لأن المتبختر يمد خطاه فأبدلت الطاء ياء لاجتماع ثلاثة أحرف متماثلة ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ كرر للتأكيد كأنه قال ويل لك فويل لك، ثم ويل لك فويل لك، وقيل: ويل لك يوم الموت، وويل لك فى القبر، وويل لك حين البعث، وويل لك فى النار.

●● ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أيحسب الكافر أن يترك مهملا لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ولايجازى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ بالياء ابن عامر وحفص أى: يراق المنى فى الرحم، وبالتاء يعود إلى النطفة ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أى: صار المنى قطعة دم جامد بعد أربعين يوما ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فخلق الله منه بشرا سويا ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ من الإنسان ﴿الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ أى: من المنى الصنفين ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أليس الفعّال لهذه الأشياء بقادر على الإعادة وكان (ﷺ) إذا قرأها يقول: سبحانك بلى[2]. والله أعلم.

° ° °

(١) سورة «القيامة»، الآية (٣).

(٢) الحديث عند أبى داود، وفى «كنز العمال» برقم (١٧٩٠٥/٧).

سورة الإنسان مكية، وهى إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ قد مضى ﴿عَلَى الإِنسَانِ﴾ آدم عليه السلام ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أربعون سنة مصوراً قبل نفخ الروح فيه ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ لم يذكر اسمه ولم يدر ما يراد به؛ لأنه كان طينًا يمر به الزمان ولو غير موجود لم يوصف بأنه قد أتى عليه حين من الدهر، ومحل لم يكن شيئًا مذكوراً النصب على الحال من الإنسان، أى أتى عليه حين من الدهر غير مذكور. ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ أى: ولد آدم، وقيل: الأول ولد آدم أيضًا، وحين من الدهر على هذا مدة لبثه فى بطن أمه إلى أن صار شيئًا مذكوراً بين الناس ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ نعت، أو بدل منها أى من نطفة قد امتزج فيها الماآن ومشجه ومزجه بمعنى ونطفة، أمشاج كبرمة أعشار فهو لفظ مفرد غير جمع، ولذا وقع صفة للمفرد ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ حال أى خلقناه مبتلين أى مريدين ابتلاءه بالأمر والنهى له﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ذا سمع وبصر.

●● ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ بينّا له طريق الهدى بأدلة العقل والسمع ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ مؤمنًا ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ كافراً حالان من الهاء فى هديناه أى إن شكر وكفر فقد هديناه السبيل فى الحالين؛ أو من السبيل أى: عرّفناه السبيل إما سبيلاً شاكرًا وإما سبيلاً كفورًا، ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز ولما ذكر الفريقين أتبعهما ما أعد لهما فقال.

●● ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاَ﴾ جمع سلسلة بغير تنوين حفص ومكى وأبو عمرو وحمزة وبه ليناسب أغلالاً وسعيرا إذ يجوز صرف غير المنصرف للتناسب غيرهم ﴿وَأَغْلالاً﴾ جمع غل ﴿وَسَعِيرًا﴾ ناراً موقدة وقال.

●● ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ﴾ جمع بر أو بار كرب وأرباب، وشاهد وأشهاد، وهم الصادقون فى الإيمان أو الذين لا يؤذون الذرّ، ولا يضمرون الشر ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ خمر فنفس الخمر تسمى كأسًا، وقيل: الكأس الزجاجية إذا كان فيها خمر ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما تمزج به ﴿كَافُورًا﴾ ماء كافور وهو اسم عين فى الجنة ماؤها فى بياض الكافور ورائحته وبرده.

●● ﴿عَيْنًا﴾بدل منه ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أى منها أو الباء زائدة، أو هو محمول على المعنى أى يلتذ بها أو يروى بها، وإنما قال أولاً بحرف من وثانيًا بحرف الباء؛ لأن الكأس مبتدأ شربهم وأول غايته، وأما العين فيها يمزجون شرابهم فكأنه، قيل: يشرب عباد الله بها الخمر ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ يجرونها حيث شاءوا من منازلهم ﴿تَفْجِيرًا﴾ سهلاً لا يمتنع عليهم.

●● ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم وهو جواب من عسى أن يقول ما لهم يرزقون ذلك والوفاء بالنذر مبالغة فى وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وَفى بما أوجبه على نفسه لوجه الله كان بما أوجبه الله عليه أوفى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ منتشراً من استطار الفجر .

●● ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى: حب الطعام من الاشتهاء والحاجة إليه أو على حب الله ﴿مِسْكِينًا﴾ فقيراً عاجزاً عن الاكتساب ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيراً لا أب له ﴿ وَأَسِيرًا﴾ مأسوراً مملوكًا أو غيره، ثم عللوا إطعامهم فقالوا.

●● ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أى: لطلب ثوابه، أو هو بيان من الله عز وجل عما فى ضمائرهم؛ لأن الله تعالى علمه منهم فأثنى عليهم وإن لم يقولوا شيئًا ﴿لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾ هدية على ذلك ﴿ وَلا شُكُورًا﴾ ثناء وهو مصدر كالشكر.

●● ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ أى: إنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة، أو إنا نخاف من ربنا فنتصدق لوجهه حتى نأمن من ذلك الخوف ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء نحو نهارك صائم، والقمطرير: الشديد العبوس الذى يجمع ما بين عينيه.

●● ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ صانهم من شدائده ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ أعطاهم بدل عبوس الفجار ﴿نَضْرَةً﴾ حسنًا فى الوجوه ﴿وَسُرُورًا﴾ فرحًا فى القلوب.

●● ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيثار. نزلت فى على وفاطمة وفضة جارية لهما لما مرض الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ نذروا صوم ثلاثة أيام فاستقرض على ـ رضى الله عنه ـ من يهودى ثلاثة أصوع من الشعير فطحنت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كل يوم صاعًا وخبزت فآثروا بذلك ثلاث عشايا على أنفسهم مسكينًا ويتيمًا وأسيراً ولم يذوقوا إلا الماء فى وقت الإفطار[(١)] ﴿جَنَّةً﴾ بستانًا فيه مأكل هنئ ﴿وَحَرِيرًا﴾ ملبسًا بهيًا.

●● ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حال من هم فى جزاهم ﴿فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الأسرة: جمع الأريكة ﴿لا يَرَوْنَ﴾ حال من الضمير المرفوع فى متكئين غير رائين ﴿ فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾ لأنه لا شمس فيها ولا زمهرير، فظلها دائم وهواؤها معتدل، لا حر شمس يحمى، ولا شدة برد

(١) الحديث قال عنه ابن الجوزى فى «الموضوعات» : «وهذا لا نشك فى وضعه».

تؤذي، وفى الحديث: «هواء الجنة سجسج لا حر ولا قر»(١) فالزمهرير البرد الشديد، وقيل: القمر أى الجنة مضيئة لا يحتاج فيها إلى شمس وقمر.

●● ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ قريبة منهم ظلال أشجارها عطفت على جنة أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها كأنهم وعدوا بجنتين؛ لأنهم وصفوا بالخوف بقوله: إنا نخاف من ربنا ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(٢) ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ سخرت للقائم والقاعد والمتكئ وهو حال من دانية أى: تدنو ظلالها عليهم فى حال تذليل قطوفها عليهم، أو معطوفة عليها أى: ودانية عليهم ظلالها ومذللة ﴿قُطُوفُهَا﴾ ثمارها جمع قطف ﴿تَذْلِيلاً﴾.

●● ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ أى: يدير عليهم خدمهم كئوس الشراب، والآنية: جمع إناء، وهو وعاء الماء ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أى: من فضة جمع كوب وهو إبريق لا عروة له ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾ كان تامة أى كونت فكانت قوارير بتكوين الله نصب على الحال.

●● ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أى: مخلوقة من فضة فهى جامعة لبياض الفضة وحسنها وصفاء القوارير وشفيفها حيث يرى ما فيها من الشراب من خارجها، قال ابن عباس - رضى الله عنهما -: قوارير كل أرض من تربتها وأرض الجنة فضة. قرأ نافع والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر بالتنوين فيهما. وحمزة وابن عامر وأبو عمرو وحفص بغير تنوين فيهما. وابن كثير بتنوين الأول، والتنوين فى الأول لتناسب الآى المتقدمة والمتأخرة، وفى الثانى لإتباعه الأول والوقف على الأول، قد قيل ولا يوثق به؛ لأن الثانى بدل من الأول ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ صفة لقوارير من فضة أى أهل الجنة قدروها على أشكال مخصوصة فجاءت كما قدروها تكرمة لهم، أو السقاة جعلوها على قدر ريّ شاربها فهى ألذ لهم وأخف عليهم. وعن مجاهد لا تفيض ولا تغيض.

●● ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ أى: الأبرار ﴿فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿كَأْساً﴾ خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً عَيْناً﴾ بدل من زنجبيلاً ﴿فِيهَا﴾ فى الجنة ﴿تُسَمَّىٰ﴾ تلك العين ﴿سَلْسَبِيلاً﴾ سميت العين زنجبيلاً لطعم الزنجبيل فيها، والعرب تستلذه وتستطيبه، وسلسبيلا لسلاسة انحدارها وسهولة مساغها، . قال أبو عبيدة: ماء سلسبيل أى: عذب طيب.

●● ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين، أو ولدان الكفرة يجعلهم الله تعالى خدمًا لأهل الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ لا يموتون ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ لحسنهم وصفاء ألوانهم وانبثاثهم فى مجالسهم ﴿لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ وتخصيص المنثور؛ لأنه أزين فى النظر من المنظوم.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث.

(٢) سورة «الرحمن» ، الآية (٤٦).

●● ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ظرف أى فى الجنة وليس لرأيت مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع فى كل مرئى تقديره وإذا اكتسبت الرؤية فى الجنة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ كثيراً ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعًا يروى أن أدنى أهل الجنة منزلة ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه، وقيل: ملك لا يعقبه هلك أو لهم فيها ما يشاءون، أو تسلم عليهم الملائكة ويستأذنون فى الدخول عليهم.

●● ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بالنصب على أنه حال من الضمير فى يطوف عليهم أى يطوف عليهم ولدان عاليًا للمطوف عليهم ثياب. وبالسكون مدنى وحمزة على أنه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ أى: ما يعلوهم من ملابسهم ثياب سندس رقيق الديباج ﴿خُضْرٌ﴾ جمع أخضر ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ غليظ. يرفعهما حملاً على الثياب نافع وحفص، ويجرهما حمزة وعلى حملاً على سندس، وبرفع الأول وجر الثانى أو عكسه غيرهم ﴿وَحُلُّوا﴾ عطف على ويطوف ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وفى سورة الملائكة: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾(1) قال ابن المسيب لا أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة واحدة من فضة وأخرى من ذهب، وأخرى من لؤلؤ ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أضيف إليه تعالى للتشريف والتخصيص، وقيل: إن الملائكة يعرضون عليهم الشراب فيأبون قبوله منهم، ويقولون: لقد طال أخذنا من الوسائط فإذا هم بكاسات تلاقى أفواههم بغير أكف من غيب إلى عبد ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا؛ لأن كونها رجسًا بالشرع لا بالعقل ولا تكليف ثم، أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدى الوضرة(2) وتدوسه الأقدام الدنسة يقال لأهل الجنة.

●● ﴿إِنَّ هَذَا﴾ النعيم ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ محمودًا مقبولاً مرضيًا عندنا حيث قلتم للمسكين واليتيم والأسير لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

●●﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ تكرير الضمير بعد إيقاعه اسماً لأنه تأكيد على تأكيد المعنى اختصاص الله بالتنزيل ليستقر فى نفس النبى ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله مفرقًا إلا حكمة صواباً ومن الحكمة الأمر بالمصابرة.

●● ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذية وتأخير نصرتك على أعدائك من أهل مكة ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾من الكفرة للضجر من تأخير الظفر﴿ آثِمًا﴾ راكبًا لما هو إثم داعيًا لك إليه ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ فاعلاً لما هو كفر داعيًا لك إليه ؛ لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل ما

---

(1) سورة «الحج» (٢٣) ، و«فاطر» (٣٣).

(2) الأيدى الوضرة: أى التى لم تغسل من وسخ الدسم لأن «الوضر»: وسخ الدسم، ونحوه. القاموس (٢ / ١٥٤).

هو إثم أو كفر، أو غير إثم ولا كفر فنهى أن يساعدهم على الأولين دون الثالث، وقيل: الآثم عتبة؛ لأنه كان ركابًا للمآثم والفسوق، والكفور: الوليد؛ لأنه كان غاليًا في الكفر والجحود والظاهر أن المراد كل آثم وكافر، أي: لا تطع أحدهما وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه فقد نهى عن طاعتهما معًا ومتفرقًا، ولو كان بالواو لجاز أن يطيع أحدهما؛ لأن الواو للجمع فيكون منهيًا عن طاعتهما معًا لا عن طاعة أحدهما، وإذا نهى عن طاعة أحدهما لا بعينه كان عن طاعتهما جميعًا أنهى، وقيل: أو بمعنى ولا أي ولا تطع آثمًا ولا كفورًا.

●● ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ صلِّ له ﴿بُكْرَةً﴾ صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلاً﴾ صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصلِّ صلاة العشاءين ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ أي: تهجد له هزيعاً طويلاً من الليل ثلثيه، أو نصفه أو ثلثه.

●● ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ يؤثرونها على الآخرة ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ قدامهم أو خلف ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ شديداً لا يعبئون به وهو القيامة؛ لأن شدائده تثقل على الكفار.

●● ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا﴾ أحكمنا ﴿أَسْرَهُمْ﴾ خلقهم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - والفراء ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أي إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم وبدلنا أمثالهم في الخلقة ممن يطيع.

●● ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ بالتقرب إليه ولطاعة له واتباع رسوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ اتخاذ السبيل إلى الله. وبالياء مكي وشامي وأبو عمرو. ومحل ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ النصب على الظرف أي: إلا وقت مشيئة الله وإنما يشاء الله ذلك ممن علم منه اختياره ذلك، وقيل: هو لعموم المشيئة في الطاعة والعصيان والكفر، والإيمان فيكون حجة لنا على المعتزلة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يكون منهم من الأحوال ﴿حَكِيمًا﴾ مصيبًا في الأقوال والأفعال.

●● ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ جنته لأنها برحمته تنال وهو حجة على المعتزلة؛ لأنهم يقولون قد شاء أن يدخل كلا في رحمته؛ لأنه شاء إيمان الكل والله تعالى أخبر أنه يدخل من يشاء في رحمته وهو الذي علم منه أنه يختار الهدى ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الكافرين؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، ونصب بفعل مضمر يفسره ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نحو أو عد وكافأ.

(سورة المرسلات مكية، وهى خمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع فى الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكرًا إلى الأنبياء عليهم السلام عذرًا للمحقين أو نذرًا للمبطلين، أو أقسم برياح عذاب أرسلهن فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب فى الجو ففرقن بينه كقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾(١) فألقين ذكرًا إما عذرًا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله فى الغيث ويشكرونها، وإما نذرًا للذين لا يشكرون وينسبون ذلك إلى الأنواء، وجعلن ملقيات للذكر باعتبار السببية عرفًا حال أى: متتابعة كعرف الفرس يتلو بعضه بعضًا، أو مفعول له أى أرسلن للإحسان والمعروف، وعصفًا ونشرًا مصدران، أو نذْرًا أبو عمرو وكوفى غير أبى بكر وحامد، والعذر والنذر مصدران من عذر إذا محا الإساءة، ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والشكر وانتصابهما على البدل من ذكرا أو على المفعول له.

●● ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إن الذى توعدونه من مجيء يوم القيامة ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لكائن نازل لا ريب فيه، وهو جواب القسم ولا وقف إلى هنا لوصل الجواب بالقسم ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ محيت أو ذهب بنورها، وجواب فإذا محذوف والعامل فيها جوابها، وهو وقوع الفصل ونحوه، والنجوم فاعل فعل يفسره طمست ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ فتحت فكانت أبوابًا ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ قلعت من أماكنها ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أى: وقتت كقراءة أبى عمرو أبدلت الهمزة من الواو، ومعنى توقيت الرسل تبيين وقتها الذى يحضرون فيه للشهادة على أممهم ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أخرت وأمهلت، وفيه تعظيم لليوم وتعجيب من هوله، والتأجيل من الأجل كالتوقيت من الوقت ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بيان ليوم التأجيل وهو اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ تعجيب آخر وتعظيم لأمره.

●● ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة لأنه فى أصله مصدر منصوب ساد مسد فعله ولكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليه ونحوه ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم﴾(٢) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾

---

(١) سورة «الروم» ، الآية (٤٨).

(٢) مواضع متعددة؛ منها : الأعراف (٤٦) ، والرعد (٢٤).

ظرفه ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بذلك اليوم خبره ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ الأمم الخالية المكذبة ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ مستأنف بعد وقف وهو وعيد لأهل مكة، أى: ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثل ما فعلنا بالأولين؛ لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل من أجرم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بما أوعدنا.

●● ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ حقير وهو النطفة ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الماء ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مقر يتمكن فيه وهو الرحم ومحل ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحال أى: مؤخر إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله وحكم به وهو تسعة أشهر، أو ما فوقها أو ما دونها ﴿فَقَدَرْنَا﴾ فقدرنا ذلك تقديرًا ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ فنعم المقدرون له نحن، أو فقدرنا على ذلك فنعم القادرون عليه نحن والأول أحق لقراءة نافع وعلى بالتشديد ولقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾(١) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بنعمة الفطرة.

●● ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ هو كفت الشيء إذا ضمه وجمعه وهو اسم ما يكفت كقولهم الضمام لما يضم، وبه انتصب ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ كأنه قيل: كافتة أحياء وأمواتًا، أو بفعل مضمر يدل عليه كفاتًا وهو تكفت أى: تكفت أحياء على ظهرها وأمواتًا فى بطنها، والتنكير فيهما للتفخيم أى: تكفت أحياء لا يعدون وأمواتًا لا يحصرون ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ عاليات ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ عذبًا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النعمة.

●● ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أى: يقال للكافرين يوم القيامة سيروا إلى النار التى كنتم بها تكذبون ﴿انطَلِقُوا﴾ تكرير للتوكيد ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ دخان جهنم ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لعظمه ثلاث شعب، وهكذا الدخان العظيم يتفرق ثلاث فرق ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نعت ظل أى لا مظل من حر ذلك اليوم وحر النار ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ فى محل الجر أى: وغير مغن لهم ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾ من حر اللهب شيئًا ﴿إِنَّهَا﴾ أى: النار ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ هو ما تطاير من النار ﴿كَالْقَصْرِ﴾ فى العظم، وقيل: هو الغليظ من الشجر، الواحدة قصرة ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ﴾ كوفى غير أبى بكر جمع جمل جمالات غيرهم جمع الجمع ﴿صُفْرٌ﴾ جمع أصفر أى: سود تضرب إلى الصفرة، وشبه الشرر بالقصر لعظمه وارتفاعه وبالجمال للعظم والطول واللون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأن هذه صفتها ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وقرىء بنصب اليوم أى: هذا الذى قص عليكم واقع يومئذ وسئل ابن عباس - رضى الله عنهما - عن هذه الآية وعن قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(٢) فقال: فى ذلك

---

(١) سورة «عبس» الآية (١٩)

(٢) سورة «الزمر» الآية (٣١).

اليوم مواقف فى بعضها يختصمون، وفى بعضها لا ينطقون، أو لا ينطقون مما ينفعهم فجعل نطقهم كلا نطق ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ فى الاعتذار ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عطف على يؤذن منخرط فى سلك النفى أى لا يكون لهم إذن واعتذار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذا اليوم.

●● ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين الحق والمبطل والمحسن والمسيء بالجزاء ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ يا مكذبى محمد ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ والمكذبين قبلكم ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حيلة فى دفع العذاب ﴿فَكِيدُونِ﴾ فاحتالوا علىّ بتخليص أنفسكم من العذاب. والكيد متعد تقول: كدت فلانًا إذا احتلت عليه ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالبعث.

●● ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من عذاب الله ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ جمع ظل ﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية فى الجنة ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: لذيذة مشتهاة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فى موضع الحال من ضمير المتقين فى الظرف الذى هو فى ظلال أى هم مستقرون فى ظلال مقولاً لهم ذلك ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فى الدنيا ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسنوا تجزوا بهذا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالجنة .

●● ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ كلام مستأنف خطاب للمكذبين فى الدنيا على وجه التهديد كقوله ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[1] ﴿قَلِيلًا﴾ لأن متاع الدنيا قليل ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ كافرون أى: إن كل مجرم يأكل ويتمتع أيامًا قلائل، ثم يبقى فى الهلاك الدائم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالنعم .

●● ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ اخشعوا لله وتواضعوا إليه بقبول وحيه واتباع دينه ودعوا هذا الاستكبار ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يخشعون ولا يقبلون ذلك ويصرون على استكبارهم، أو إذا قيل لهم صلوا لا يصلون ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأمر والنهى ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أى إن لم يؤمنوا بالقرآن مع أنه آية مبصرة ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية فبأى كتاب بعده يؤمنون . والله أعلم.

---

(١) سورة «فصلت» ، الآية (٤٠).

سورة النبأ مكية، وهى أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿عَمَّ﴾ أصله عن ما وقرىء بها، ثم أدغمت النون فى الميم فصار عما، وقرئ بها، ثم حذفت الألف تخفيفًا لكثرة الاستعمال فى الاستفهام، وعليه الاستعمال الكثير وهذا استفهام تفخيم للمستفهم عنه؛ لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضًا، أو يسألون غيرهم من المؤمنين، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث ويسألون المؤمنين عنه على طريق الاستهزاء ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أى: البعث وهو بيان للشأن المفخم، وتقديره عم يتساءلون، يتساءلون عن النبأ العظيم ﴿الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمنهم من يقطع بإنكاره ومنهم من يشك، وقيل: الضمير للمسلمين، والكافرين وكانوا جميعًا يتساءلون عنه؛ فالمسلم يسأل ليزداد خشية، والكافر يسأل استهزاءً ﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاختلاف، أو التساؤل هزوًا ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بأنهم سوف يعلمون عيانا أن ما يتساءلون عنه حق ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ كرر الردع للتشديد وثم يشعر بأن الثانى أبلغ من الأول وأشد.

●● ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ﴾ لما أنكروا البعث قيل لهم: ألم يخلق من أضيف إليه البعث هذه الخلائق العجيبة فلم تنكرون قدرته على البعث؟! وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات، أو قيل لهم لم فعل هذه الأشياء والحكيم لا يفعل عبثًا وإنكار البعث يؤدى إلى أنه عابث فى كل ما فعل ﴿مِهَادًا﴾ فراشًا فرشناها لكم حتى سكنتموها ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ للأرض لئلا تميد بكم ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكرًا أو أنثى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعًا لأعمالكم وراحة لأبدانكم، والسبت القطع ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ سترا يستركم عن العيون إذا أردتم إخفاء ما لا تحبون الاطلاع عليه ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقلبون فى حوائجكم ومكاسبكم ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سبع سموات ﴿شِدَادًا﴾ جمع شديدة أى محكمة قوية لا يؤثر فيها مرور الزمان أو غلاظًا غلظ كل واحدة مسيرة خمسمائة عام ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ مضيئًا وقادًا أى جامعًا للنور والحرارة، والمراد الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أى: السحائب إذا أعصرت أى: شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض أو الرياح؛ لأنها تنشىء السحاب وتدر أخلافه فيصح أن يجعل مبدأ للإنزال، وقد جاء أن الله تعالى يبعث الرياح فتحمل الماء من السماء إلى السحاب ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ منصبًا بكثرة ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ بالماء ﴿حَبًّا﴾ كالبر والشعير ﴿وَنَبَاتًا﴾ وكلأ ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿أَلْفَافًا﴾ ملتفة الأشجار واحدها لف كجذع وأجذاع، أو لفيف كشريف وأشراف، أو لا واحد له

كأوزاع»، أو هى جمع الجمع فهى جمع لف، واللف جمع لفاء وهى شجرة مجتمعة، ولا وقف من «ألم نجعل» ألفافًا، والوقف الضرورى على أوتادًا ومعاشًا.

●● ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين المحسن والمسيء، والمحق والمبطل ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ وقتًا محدودًا ومنتهى معلومًا لوقوع الجزاء أو ميعادًا للثواب والعقاب ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ بدل من يوم الفصل، أو عطف بيان ﴿فِي الصُّورِ﴾ فى القرن ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ حال أى: جماعات مختلفة أو أممًا كل أمة مع رسولها ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ خفيف كوفى أى شقت لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ فصارت ذات أبواب وطرق وفروج وما لها اليوم من فروج ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أى هباء تخيّل الشمس أنه ماء.

●● ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقًا عليه ممر الخلق فالمؤمن يمر عليها، والكافر يدخلها، وقيل: المرصاد: الحد الذى يكون فيه الرصد، أى: هى حد الطاغين الذين يرصدون فيه للعذاب وهى مآبهم، أو هى مرصاد لأهل الجنة ترصدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأن مجازهم عليها ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ للكافرين مرجعًا ﴿لابِثِينَ﴾ ماكثين حال مقدرة من الضمير فى للطاغين حمزة لبثين، واللبث أقوى إذ اللابث من وجد منه اللبث وإن قل، واللبث من شأنه اللبث والمقام فى المكان ﴿فِيهَا﴾ فى جهنم ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف جمع حقب وهو الدهر ولم يرد به عدد محصور بل الأبد كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية، ولا يستعمل الحقب والحقبة إلا إذا أريد تتابع الأزمنة وتواليها وقيل الحقب: ثمانون سنة وسئل بعض العلماء عن هذه الآية فأجاب بعد عشرين سنة لابثين فيها أحقابًا ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا﴾ أى: غير ذائقين حال من ضمير لابثين، فإذا انقضت هذه الأحقاب التى عذبوا فيها بمنع البرد والشراب بدلوا بأحقاب أخر فيها عذاب آخر وهى أحقاب بعد أحقاب لا انقطاع لها، وقيل: هو من حقب عامنا إذا قل مطره وخيره وحقب فلان إذا أخطأه الرزق فهو حقب وجمعه أحقاب فينتصب حالاً عنهم أى لابثين فيها حقبين جهدين ولا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا تفسير له، وقوله: ﴿إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناء منقطع أى لا يذوقون فى جهنم، أو فى الأحقاب بردًا روحًا ينفس عنهم حر النار، أو نومًا ومنه: منع البرُد البردَ ولا شرابًا يسكن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميمًا ماء حارًا يحرق ما يأتى عليه، وغساقًا ماءً يسيل من صديدهم. وبالتشديد كوفى غير أبى بكر.

●● ﴿جَزَاءً﴾ جوزوا جزاء ﴿وِفَاقًا﴾ موافقًا لأعمالهم مصدر بمعنى الصفة، أو ذا وفاق، ثم استأنف معللاً فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يخافون محاسبة الله إياهم أو لم يؤمنوا بالبعث

فيرجوا حسابًا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ تكذيبًا، وفعّال فـي باب فعّل كله فاش ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نصب بمضمر يفسره ﴿ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ مكتوبًا فى اللوح حال، أو مصدر فى موضع إحصاء أو أحصينا فى معنى كتبنـا؛ لأن الإحصاء يكون بالكتابة غالبًـا وهذه الآية اعتراض؛ لأن قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ مسبب عن كفرهم بـالحساب وتكذيبهم بالآيات أى: فـذوقوا جزاءكم والالتفات شاهد علـى شدة الغضب ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ فى الحديث: «هذه الآية أشد ما فى القرآن على أهل النار»[1].

•• ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ مفعل مـن الفوز يصلح مصـدراً أى: نجاة من كل مكروه وظـفرًا بكل محبوب ويصلح للمكان وهو الجنة، ثم أبدل منه بدل البعض من الكل فقال: ﴿حَدَائِقَ﴾ بساتين فيها أنواع الشجر الثمر جمع حديقة ﴿وَأَعْنَابًا﴾ كروما عطف عـلى حدائق ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نواهد ﴿أَتْرَابًا﴾ لدات مستويات فى السن ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ مملوءة ﴿لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ فى الجنة حال من ضـمير خبر إن ﴿ لَغْوًا﴾ باطلاً ﴿ وَلا كِذَّابًا﴾ الكسائى خفيف بمعنى مكـاذبة أى: لا يكذب بعضهم بعضًا ولا يكاذبه ﴿جَزَاءً﴾ مصدر أى: جزاهم جزاء ﴿مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً﴾ مصدر، أو بـدل من جزاء ﴿حِسَابًا﴾ صفة يعنى كافيًا، أو على حسب أعمالهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ بجرهما ابن عامر وعاصـم بدلاً من ربك، ومن رفعهـما فرب خبر مبتـدأ محذوف، أو مبتدأ خبـره الرحمن أو الرحمن صفته ولا يملكون خبر، أو هما خبران والضمير فى ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ لأهل السموات والأرض وفى ﴿مِنْهُ خِطَابًا﴾ لله تعالى أى: لا يملكـون الشفاعة من عذابه تعالـى إلا بإذنه أو لا يقدر أحد أن يخاطبه تعالى خوفًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إن جعلته ظرفًا للا يملكون لا تقف على خطابًا وإن جعلته ظرفا للايتكلمون تقف ﴿الرُّوحُ﴾ جبريل عنـد الجمهور، وقيل: هو ملـك عظيم ما خلق الله تعـالى بعد العرش أعظم منه ﴿وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ حال أى: مصطفين ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ﴾ أى: الخلائق، ثـم خوفًا من ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ فى الكلام، أو الشفاعة ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ حقًا بأن قال المشفوع له لا إله إلا الله فى الدنيا، أو لا يؤذن إلا لمن يتكلم بالصواب فى أمر الشفاعة.

•• ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الثابت وقوعه ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ مرجعًا بالعمل الصالح ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ فى الآخرة؛ لأن ما هو آت قريب ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ﴾ الكافر لقوله: إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا ﴿ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الشر لقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2] وتخصيـص الأيدي؛ لأن أكثر الأعمال تـقع بها، وإن احتمـل أن لا يكون

---

(١) الحديث عند الطبرانى ، وعند البيهقى فى «شعب الإيمان» موقوفاً.

(٢) سورة «الأنفال»، الآيتان (٥٠، ٥١).

للأيدى مدخل فيما ارتكب من الآثام ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة الذم، أو المرء عام وخص منه الكافر وما قدمت يداه ما عمل من خير وشر، أو هو المؤمن لذكر الكافر بعده وما قدم من خير، وما استفهامية منصوبة بقدمت أى: ينظر أى شيء قدمت يداه، أو موصولة منصوبة بينظر يقال: نظرته يعنى نظرت إليه، والراجع من الصلة محذوف أى ما قدمته ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ فى الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو ليتنى كنت ترابًا فى هذا اليوم فلم أبعث، وقيل: يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء، ثم يرده ترابًا فيود الكافر حاله، وقيل: الكافر إبليس يتمنى أن يكون كآدم مخلوقًا من التراب ليثاب ثواب أولاده المؤمنين، والله أعلم.

سورة النازعات مكية، وهى ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ لا وقف إلى هنا ولـزم هنا؛ لأنه لو وصل لصار يوم ظـرف المديرات، وقد انقضى تدبيـر الملائكة فى ذلك اليوم. أقسم سبحانه بطوائف الملائكـة التى تنزع الأرواح من الأجساد غرقًا أى إغراقًا فى النزع أى تنزعها من أقاصى الأجساد من أناملها، ومواضع أظفارها، وبالطوائف التى تنشطها أى تخرجها من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التى تسبح فى مضيها، أى: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمـرًا من أمور العباد مما يصلحهـم فى دينهم، أو دنياهم كما رسـم لهم، أو بخيل الغزاة التى تنـزع فى أعنتها نزعا تغرق فيـه الأعنة لطول أعناقها؛ لأنها عـراب والتى تخرج من دار الإسلام إلى دار الحرب مـن قولك: ثور ناشط إذا خـرج من بلد إلى بلـد والتى تسبح فـى جريها فتسبق إلى الغاية فتدبـر أمر الغلبة والظفر وإسناد التدبير إليها، لأنها مـن أسبابه، أو بالنجوم التى تنزع من المشرق إلى المغرب، وإغراقها فى النزع أن تقطـع الفلك كله حتى تنحط فى أقصى الغرب والتى تخرج مـن برج، إلى برج، والتى تسبـح فى الفلك من السيـارة فتسبق فتدبر أمـرا من علم الحساب، وجواب القسم محذوف وهو لتبعثن لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

●● ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تتحرك حركة شديدة والرجف شدة الحركة ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها، لأنها تضطرب بها الأرض حتى يموت كل من عليها ﴿تَتْبَعُهَا﴾ حال عن الراجفة ﴿الرَّادِفَةُ﴾ النفخة الثانيـة؛ لأنها تردف الأولى وبينهما أربعون سنة، والأولى تميـت الخلق، والثانية تحييهم.

●● ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ قلوب منكرى البـعث ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربـة من الوجيف: وهو الـوجيب وانتصاب يوم ترجف بمادل عليه «قلوب يومئذ واجفة» أى يوم ترجف وجفت القلوب، وارتفاع قلوب بالابتداء وواجفة صفتها ﴿أَبْصَارُهَا﴾ أى: ابصار أصحـابها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ مضطربة مـن الوجيف وهو الوجيب وانتصاب يوم ترجف بمادل عليه قلوب يومئذ واجفة أى يوم ترجف وجفت القلوب وارتفاع قلوب بالابتداء وواجـفة صفتها ﴿أَبْصَارُهَا﴾ أى أبصار أصحـابها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة لـهول ما ترى خبرها ﴿يَقُولُونَ﴾ أى منكرو البعث فى الدنيا استهزاء وإنكارا للبعث ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ استفهـام بمعنى الإنكار، أى أنرّد بعـد موتنا إلى أول الأمر فـنعود أحياء كما كنا، والحـافرة الحالة الأولى يقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته أى إلى حالته الأولى، ويقال. النقد عند الحافرة أى عند الحالة الأولى، وهى الصفقة أنكروا البعث ثم زادوا استبعادا فقالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ بالية نـاخرة كوفى غير حفـص وفعل أبلغ من فاعل يـقال نخر العظم فـهو نخر وناخر. والمعـنى: أنرد إلى الحياة بعـد أن صرنا عظاما بالـية، وإذا منصوب بمحذوف وهـو نبعث

﴿قَالُوا﴾ أى: منكرو البعث ﴿تِلْكَ﴾ رجعتنا ﴿إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ رجعة ذات خسران أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت وبعثنا فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها وهذا استهزاء منهم.

●● ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلق بمحذوف أى: لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل فإنها سهلة هينة في قدرته فما هى إلا صيحة واحدة ـ يريد النفخة الثانية ـ من قولهم: زجر البعير إذا صاح على ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذاهم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا فى جوفها، وقيل: الساهر أرض بعينها بالشام إلى جنب بيت المقدس، أو أرض مكة أو جهنم.

●● ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ استفهام يتضمن التنبيه على أن هذا مما يجب أن يشيع والتشريف للمخاطب به ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ حين ناداه ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المبارك المطهر ﴿طُوًى﴾ اسمه ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ تجاوز الحد فى الكفر والفساد ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الشرك والعصيان بالطاعة والإيمان. وبتشديد الزاى حجازى ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفة الله بذكر صفاته فتعرفه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ لأن الخشية لاتكون إلا بالمعرفة قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) أى: العلماء به وعن بعض الحكماء أعرف الله فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين فالخشية ملاك الأمور، من خشى الله أتى منه كل خير ومن آمن اجترأ على كل شر، ومنه الحديث: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»(٢). بدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه باللطف فى القول ويستنزله بالمداراة عن عتوه كما أمر بذلك فى قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾(٣) ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ أى: فذهب فأرى موسى فرعون العصا، أو العصا واليد البيضاء؛ لأنهما فى حكم آى واحدة ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى والآية الكبرى وسماهما ساحراً وسحرا ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله تعالى ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ تولى عن موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ يجتهد فى مكايدته، أو لما رأى الثعبان أدبر مرعوبا يسرع فى مشيته وكان طيّاشا خفيفا ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة وجنده ﴿فَنَادَىٰ﴾ فى المقام الذى اجتمعوا فيه معه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾لارب فوقى وكانت لهم أصنام يعبدونها ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾ عاقبه الله عقوبة الآخرة والنكال، بمعنى التنكيل كالسلام بمعنى التسليم، ونصبه على المصدر، لأن أخذ بمعنى نكل كأنه قيل نكل الله به نكال الآخرة أى: الإحراق ﴿وَالْأُولَىٰ﴾ أى الإغراق، أو نكال كلمتيه الآخرة وهى أنا ربكم الأعلى، والأولى، وهى ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(٤) وبينهما أربعون سنة أو ثلاثون أو عشرون.

---

(١) سورة «فاطر» ، الآية (٢٨).

(٢) الحديث عند الحاكم، والبيهقى فى «شعب الإيمان».

(٣) سورة «طه» ، الآية (٤٤).

(٤) سورة «القصص» ، الآية (٣٨).

●● ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ الله ﴿أَأَنتُمْ﴾ يامنكرى البعث ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقا وإنشاء ﴿أَمِ السَّمَاءُ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أى أم السماء أشد خلقا، ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَاهَا﴾ أى: الله، ثم بين البناء فقال: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أعلى سقفها، وقيل: جعل مقدار ذهابها في سمت العلو رفيعا مسيرة خمسمائة عام ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فعدلها مستوية بلا شقوق ولا فطور ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أبرز ضوء شمسها، وأضيف الليل والشمس إلى السماء؛ لأن الليل ظلمتها والشمس سراجها ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ بسطها، وكانت مخلوقة غير مدحوة فدحيت من مكة بعد خلق السماء بألفى عام، ثم فسر البسط فقال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ كلاها ولذا لم يدخل العاطف على أخرج، أو أخرج حال بإضمار قد ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أثبتها وانتصاب الأرض والجبال بإضمار دحا وأرسى على شريطة التفسير ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ فعل ذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم.

●● ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ الداهية العظمى التى تطم على الدواهى أى: تعلو وتغلب وهي النفخة الثانية، أو الساعة التى يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ بدل من إذا جاءت أى: إذا رأى أعماله مدونة فى كتابه تذكرها وكان قد نسيها ﴿مَا سَعَىٰ﴾ مصدرية أى سعيه، أو موصولة ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ وأظهرت ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل راء لظهورها ظهورا بينا ﴿فَأَمَّا﴾ جواب فإذا أى إذا جاءت الطامة فإن الأمر كذلك ﴿مَن طَغَىٰ﴾ جاوز الحد فكفر ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة باتباع الشهوات ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ المرجع أى مأواه، والألف واللام بدل من الإضافة وهذا عند الكوفيين، وعند سيبويه وعند البصريين هى المأوى له ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أى: علم أن له مقاما يوم القيامة لحساب ربه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ الأمارة بالسوء ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ المؤدى أى زجرها عن اتباع الشهوات، وقيل: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها، والهوى ميل النفس إلى شهواتها ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ أى: المرجع.

●● ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أى إقامتها، يعنى متى يقيمها الله تعالى وثبتها ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ فى شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم وتعلمهم به أى ما أنت من ذكراها لهم وتبيين وقتها فى شيء، كقولك: ليس فلان من العلم فى شيء، وكان رسول الله (ﷺ) لم يزل يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت[1] فهو على هذا تعجب من كثرة ذكره لها أى أنهم يسألونك عنها فلحرصك على جوابهم لاتزال تذكرها وتسأل عنها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ منتهى علمها متى تكون لا يعلمها غيره، أو فيم إنكار لسؤالهم عنها أى: فيم هذا السؤال، ثم قال: «أنت من ذكراها» أى: إرسالك وأنت آخر الأنبياء علامة من علاماتها فلا معنى لسؤالهم عنها، ولا يبعد أن يوقف على هذا على فيم، وقيل: فيم أنت من ذكراها متصل بالسؤال أى يسألونك عن الساعة أيان مرساها: ويقولون أين أنت من ذكراها، ثم استأنف فقال إلى ربك منتهاها ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ

(١) لم أجده فيما بين يدى من كتب الحديث.

﴿مَن يَخْشَاهَا﴾ أى لم تبعث لتعلمهم بوقت الساعة؛ وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدها. منذرٌ منون يزيد وعباس ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أى: الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا ﴿إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أى: ضحى العشية استقلوا مدة لبثهم فى الدنيا لما عاينوا من الهول كقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[1]. وقوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[2] وإنما صحت إضافة الضحى إلى العشية للملابسة بينهما لاجتماعهما فى نهار واحد، والمراد أن مدة لبثهم لم تبلغ يوما كاملا ولكن أحد طرفى النهار عشيته أو ضحاه، والله أعلم.

(١) سورة «الأحقاف»، الآية (٣٥).
(٢) سورة «المؤمنون»، الآية (١١٣).

سورة عبس مكية، وهى اثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿عَبَسَ﴾ كلح أى: النبى (ﷺ) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿أَن جَاءَهُ﴾ لأن جاءه، ومحله نصب، لأنه مفعول له، والعامل فيه عبس أو تولى على اختلاف المذهبين ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ عبدالله بن أم مكتوم وأم مكتوم[1] أم أبيه، وأبوه شريح بن مالك، أتى النبى (ﷺ) وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام فقال: يارسول الله علمنى مما علمك الله وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم فكره رسول الله (ﷺ) قطعة لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت؛ فكان رسول الله (ﷺ) يكرمه بعدها ويقول: «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى» واستخلفه على المدينة مرتين[2] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأى شئ يجعلك داريا بحال هذا الأعمى ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ يتطهر بما يسمع منك من دنس الجهل، وأصله يتزكى فأدغمت التاء فى الزاى، وكذا ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿فَتَنفَعَهُ﴾ نصبه عاصم غير الأعشى جوابا للعل، وغيره رفعه عطفا على يذكر ﴿الذِّكْرَىٰ﴾ ذكراك أى موعظتك، أى: أنك لا تدرى ما هو مترقب منه من نزل، أو تذكر ولو دريت لما فرط ذلك منك.

•• ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ أى: من كان غنيا بالمال ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض بالإقبال عليه حرصا على إيمانه. تصدى بإدغام التاء فى الصاد حجازى ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس فى أن لا يتزكى بالإسلام إن عليك إلا البلاغ.

•• ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسرع فى طلب الخير ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله أو الكفار أى أذاهم فى إتيانك، أو الكبوة كعادة العميان ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل وأصله تتلهى، وروى أنه ما عبس بعدها فى وجه فقير قط ولا تصدى لغني، وروى أن الفقراء فى مجلس الشورى كانوا أمراء.

•• ﴿كَلَّا﴾ ردع، أى لا تعد إلى مثله ﴿إِنَّهَا﴾ إن السورة أو الآيات ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فمن شاء أن يذكره ذكره وذكر الضمير؛ لأن التذكرة فى معنى الذكر والوعظ، والمعنى فمن شاء الذكر ألهمه الله تعالى إياه ﴿فِي صُحُفٍ﴾ صفة لتذكرة أى أنها مثبتة فى صحف منتسخة من اللوح، أو خبر مبتدأ محذوف أى: هى فى صحف ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ فى السماء، أو مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ عن مس غير الملائكة، أو عما ليس من كلام الله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كتبة جمع سافر أى: الملائكة ينتسخون الكتب من اللوح ﴿كِرَامٍ﴾ على الله، أو عن المعاصى ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياء جمع بار.

---

(١) هو الصحابى الشهير؛ عبدالله بن أم مكتوم، مشهور بكنيته، مختلف فى اسمه بين عبد الله أو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأصم، كان مؤذن رسول الله ﷺ مع بلال، كان ضريراً، أسلم بمكة، وهاجر إلى المدينة بعد بدر، وكان النبى ﷺ يستخلفه على المدينة، يصلى بالناس فى الغزاوات، مما يدل على تقديره له، توفى عام ٢٣ هـ. الأعلام (٥/٨٣).

(٢) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

●● ﴿قُتِلَ الإنسَانُ﴾ لُعِن[1] الكافر، أو هو أمية[2]، أو عتبة[3] ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ استفهام توبيخ أى أى شيء حمله على الكفر، أو هو تعجب أى ما أشد كفره ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ من أى حقير خلقه، وهو استفهام ومعناه التقرير، ثم بين ذلك الشيء فقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ على ما يشاء من خلقه ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ نصب السبيل بإضمار يسر أي، ثم سهل له سبيل الخروج من بطن أمه، أو بين له سبيل الخير والشر ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ جعله ذا قبر يوارى فيه لا كالبهائم كرامة له. قبر الميت: دفنه، وأقبره الميت أمره بأن يقبره ومكنه منه ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أحياه بعد موته.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع للإنسان عن الكفر ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ لم يفعل هذا الكافر ما أمره الله به من الإيمان، ولما عدد النعم فى نفسه من ابتداء حدوثه إلى آن انتهائه أتبعه ذكر النعم فيما يحتاج إليه فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ الذى يأكله ويحيا به كيف دبرنا أمره ﴿أَنَّا﴾ بالفتح كوفى على أنه بدل اشتمال من الطعام، وبالكسر على الاستئناف غيرهم ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ يعني: المطر من السحاب ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾ بالنبات ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالبر والشعير وغيرهما مما يتغذى به ﴿وَعِنَبًا﴾ ثمرة الكرم أى: الطعام والفاكهة ﴿وَقَضْبًا﴾ رطبة سمى بمصدر قضبه أى قطعه؛ لأنه يقضب مرة بعد مرة ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ﴾ بساتين ﴿غُلْبًا﴾ غلاظ الأشجار جمع غلباء ﴿وَفَاكِهَةً﴾ لكم ﴿وَأَبًّا﴾ مرعى لدوابكم ﴿مَتَاعًا﴾ مصدر أى: منفعة ﴿لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

●● ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ صيحة القيامة؛ لأنها تصخ الآذان أى تصمها، وجوابه محذوف لظهوره ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ لتبعات بينه وبينهم، أو لاشتغاله بنفسه ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ وزوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾ بدأ بالأخ ثم بالأبوين، لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين؛ لأنهم أحب. قيل: أول من يفر من أخيه هابيل، ومن أبويه، إبراهيم، ومن صاحبته نوح ولوط، من ابنه نوح ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ فى نفسه ﴿يُغْنِيهِ﴾ يكفيه فى الاهتمام به ويشغله عن غيره.

●● ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ مضيئة من قيام الليل، أو من آثار الوضوء ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أى: أصحاب هذه الوجوه، وهم المؤمنون ضاحكون مسرورون ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ يعلو الغبرة سواد كالدخان ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أهل هذه الحالة ﴿هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ فى حقوق الله ﴿الْفَجَرَةُ﴾ فى حقوق العباد، ولما جمعوا الفجور إلى الكفر جمع إلى سواد وجوههم الغبرة، والله أعلم.

---

(١) وجدتها «العل»، وهو لا يتماشى مع السياق، والتصحيح من المخطوطات الأخرى، والكتب المطبوعة.

(٢) هو الملعون ، أمية بن خلف الجمحي.

(٣) هو: عتبة بن ربيعة ، راجع ترجمته عند تفسير الآية (٧٨)، من سورة «هود».

سورة التكوير، مكية، وهى تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ذهب بضوئها مـن كورت العمامة إذا لففتها أى: يـلف ضوؤها لفا فيذهب انبساطه وانتشاره فى الآفاق. وارتفاع الشمس بـالفاعلية، ورافعها فعل مضمر يفسره كورت؛ لأن إذا يطلب الفعل لما فيه من معنى الشرط.

●● ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ تساقطت.

●● ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض وأبعدت، أو سيرت فى الجو تسيير السحاب.

●● ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ جمع عشراء وهى النـاقة التى أتى على حملها عشرة أشـهر، ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة ﴿عُطِّلَتْ﴾ أهملت عطلها أهلها لاشتغالهـم بأنفسهم، وكانوا يحبسونها إذا بلغت هذه الحالة لعزتها عندهم ويعطلون ما دونها. عطلت بالتخفيف عن اليزيدي.

●● ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كل ناحية. قال قتـادة: يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص فإذا قضى بيـنهما ردت أترابا فلا يبقى منها إلا ما فيه سـرور لبنى آدم كالطاوس ونحوه. وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :حشرها موتها، يقال ـ إذا أجحفت السنة بالناس وأموالهم ـ: حشرتهم السنة.

●● ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ سجرت مكي وبصرى: من سجر التنور إذا ملأه بالحطب أى: ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرا واحدا. وقيل : ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار.

●● ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت كل نفس بشـكلها الصالح مع الصالح فى الجـنة والطالح مع الطالح فى النار، أو قرنـت الأرواح بالأجساد أو بكتبها وأعمالها، أو نفـوس المؤمنين بالحور العين ونفوس الكافرين بالشياطين.

●● ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ﴾ المدفونة حية، وكانت العرب تئد البنات خشية الإملاق وخوف الاسترقاق ﴿سُئِلَتْ﴾ سؤال تلطـف لتقول بلا ذنب قـتلت أو لتدل علـى قاتلها أو هو تـوبيخ لقاتلـها بصرف الخطاب عنه كقوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾(١) الآية ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ وبالتشديد يزيد، وفيه دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب.

●● ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ فتحت. وبالتخفيف مدنى وشامى وعاصم وسهل ويعقوب. والمراد صحف الأعمال تطوى صحيفة الإنسان عند موته، ثم تنشر إذا حوسب، ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أى: فرقت بينهم.

---

(١) سورة «المائدة» ، الآية (١١٦).

●● ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال الزجاج: قلعت كما يقلع السقف.

●● ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقادا شديدا. بالتشديد شامى ومدنى وعاصم غير حماد ويحيي للمبالغة.

●● ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أدنيت من المتقين كقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾(١) فهذه اثنتا عشرة خصلة ست منها فى الدنيا والباقية فى الآخرة، ولا وقف مطلقا من أول السورة إلى ما أحضرت؛ لأن عامل النصب فى إذا الشمس وفيما عطف عليه جوابها وهو.

●● ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أى: كل نفس ولضرورة انقطاع النفس على كل آية جوز الوقف﴿ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ من خير وشر.

●● ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ لا زائدة ﴿بِالْخُنَّسِ﴾ بالرواجع بينا ترى النجم فى آخر البرج إذ كَرَّ راجعا إلى أوله ﴿ الْجَوَارِ﴾ السيارة ﴿الْكُنَّسِ ﴾ والغُيَّب من كنس الوحش إذا دخل كناسه، قيل: هى الدرارى الخمسة بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشترى تجرى مع الشمس والقمر وترجع حتى تختفى تحت ضوء الشمس، فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس، وقيل: هى جميع الكواكب.

●● ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أقبل بظلامه أو أدبر فهو من الأضداد ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ امتد ضوؤه ، ولما كان إقبال الصبح يلازمه الروح والنسيم جعل ذلك نفسا له مجازا وجواب القسم ﴿إِنَّهُ﴾ أى: القرآن﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ أى: جبريل ـ عليه السلام ـ وإنما أضيف القرآن إليه، لأنه هو الذى نزل به ﴿كَرِيمٍ ﴾ عند ربه ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ قدرة على ما يكلف لا يعجز عنه ولا يضعف﴿عِندَ ذِى الْعَرْشِ﴾ عند الله ﴿ مَكِينٍ ﴾ ذى جاه ومنزلة، ولما كانت حال المكانة على حسب حال المكين قال عند ذى العرش ليدل على عظم منزلته ومكانته﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أى: فى السموات يطيعه من فيها، أو عند ذى العرش أى عند الله يطيعه ملائكته المقربون يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه﴿ أَمِينٍ ﴾ على الوحي.

●● ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يعنى محمداً (ﷺ) ﴿بِمَجْنُونٍ ﴾ كما تزعم الكفرة وهو عطف على جواب القسم ﴿وَلَقَدْ رَآهُ ﴾ رأى محمد جبريل عليهما السلام ـ على صورته ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وما محمد على الوحى ﴿ بِضَنِينٍ ﴾ ببخيل من الضن، وهو البخل أى لا يبخل بالوحى كما يبخل الكهان رغبة فى الحلوان بل يعلمه كما علم ولا يكتم شيئا مما علم. بظنين مكى وأبو عمرو وعلى أى: بمتهم فينقص شيئاً مما أوحى إليه، أو يزيد فيه من الظنة وهى التهمة.

---

(١) سورة «ق» ، الآية (٣١).

•• ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما القرآن﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ طريد وهو كقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾(١) أى: ليس هو بقول بعض المسترقة للسمع وبوحيهم إلى أوليائهم من الكهنة.

•• ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافا، أو ذهابا فى بنيات الطريق أين تذهب. مثلت حالهم بحاله فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، وقال الزجاج: معناه فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم، وقال الجنيد: فأين تذهبون عنا وإن من شيء إلا عندنا.

•• ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ما القرآن إلا عظة للخلق ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ بدل من العالمين﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أى: القرآن ذكر لمن شاء الاستقامة يعنى أن الذين شاءوا الاستقامة بالدخول فى الإسلام، هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعا ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق أجمعين.

---

(١) سورة «الشعراء» ، الآية (٢١٠).

سورة الانفطار، مكية، وهى تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ انشقت ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ تساقطت ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض وصارت البحار بحراواحدا ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بحثت وأخرج موتاها وجواب إذا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أى: كل نفس برة وفاجرة ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ ما عملت من طاعة ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت فلم تعمل، أو ما قدمت من الصدقات، وما أخرت من الميراث.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ قيل الخطاب لمنكرى البعث ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ﴾ أى شيء خدعك حتى ضيعت ما وجب عليك مع كرم ربك حيث أنعم عليك بالخلق والتسوية والتعديل. وعنه - عليه السلام - حين تلاها «غره جهله»(١). وعن عمر - رضى الله عنه - غره حمقه. وعن الحسن: غره شيطانه. وعن الفضيل: لو خوطبت أقول غرتنى ستورك المرخاة. وعن يحيى بن معاذ أقول: غرنى برك بى سالفا وآنفا ﴿فَسَوَّاكَ﴾ فجعلك مستوى الخلق سالم الأعضاء ﴿فَعَدَلَكَ﴾ فصيرك معتدلا متناسب الخلق مع غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول ولا إحدى العينين أوسع ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، أو جعلك معتدل الخلق تمشى قائما لا كالبهائم. وبالتخفيف كوفى وهو بمعنى المشدد أى عدّل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت فكنت معتدل الخلقة متناسبا ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ما مزيدة للتوكيد أى ركبك فى أى صورة اقتضتها مشيئته من الصور المختلفة فى الحسن والقبح والطول والقصر، ولم تعطف هذه الجملة كما عطف ما قبلها، لأنها بيان لعدلك والجار يتعلق بركبك على معنى وضعك فى بعض الصور ومكنك فيها، أو بمحذوف أى ركبك حاصلا فى بعض الصور.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع عن الغفلة عن الله تعالى ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أصلا وهو الجزاء، أو دين الإسلام فلا تصدقون ثوابا ولا عقابا ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ أعمالكم وأقوالكم من الملائكة ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ يعنى أنكم تكذبون بالجزاء والكاتبون يكتبون عليكم أعمالكم لتجازوا بها ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم، وفى تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأمور، وفيه إنذار وتهويل للمجرمين ولطف للمتقين، وعن الفضيل أنه كان إذا قرأها قال: ما أشدها من آية على الغافلين.

●● ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ إن المؤمنين لفى نعيم الجنة ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وإن الكفار لفى النار ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ يدخلونها يوم الجزاء ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أى: لا يخرجون منها كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ﴾(٢). ثم عظم شأن يوم القيامة فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ فكرر للتأكيد والتهويل وبينه بقوله: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أى لا تستطيع دفعا عنها ولا نفعا لها بوجه، وإنما تملك الشفاعة بالإذن، يوم بالرفع مكى وبصرى أى هو يوم، أو بدل من يوم الدين ومن نصب فبإضمار اذكر أو بإضمار يدانون؛ لأن الدين يدل عليه ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أى لا أمر إلا لله تعالى وحده فهو القاضى فيه دون غيره.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة. (٢) سورة «المائدة»، الآية (٣٧).

(سورة المطففين . مختلف فيها، وهى ست وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ للذين يبخسون حقوق الناس فى الكيل والوزن ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أى: إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة، لما كان اكتيالهم من الناس اكتيالا يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل على مكان من الدلالة على ذلك، ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ويقدم المفعول عل الفعل لإفادة الاختصاص أى يستوفون على الناس خاصة، وقال الفراء: من وعلى يعتقبان فى هذا الموضع، لأنه حق عليه فإذا قال اكتلت عليك، فكأنه قال أخذت ما عليك، وإذا قال اكتلت منك فكأنه قال استوفيت منك. والضمير المنصوب فى ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ راجع إلى الناس أى: كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذف الجار وأوصل الفعل، وإنما لم يقل أو اتزنوا ، كما قيل أو وزنوهم اكتفاء ويحتمل أن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، لأنهم يدعدعون ويحتالون فى الملء وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فى النوعين ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ينقصون، يقال: خسر الميزان وأخسره ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعنى يوم القيامة، أدخل همزة الاستفهام على لا النافية توبيخا وليست ألا هذه للتنبيه، وفيه إنكار وتعجيب عظيم من حالهم فى الاجتراء على التطفيف كأنهم لا يخطرون ببالهم ولا يخمنون تخمينا أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة، ولو ظنوا أنهم يبعثون ما نقصوا فى الكيل والوزن. وعن عبد الملك بن مروان أن أعرابيا قال له: لقد سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن ونصب ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ بمبعوثون ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأمره وجزائه، وعن عمر - رضى الله عنهما - أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ هنا بكى نحيبا وامتنع من قراءة ما بعده.

●● ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه أى: ردعهم عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب ونبههم على أنه مما يجب أن يتاب عنه ويندم عليه، ثم اتبعه وعيد الفجار على العموم فقال ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ صحائف أعمالهم ﴿لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ فإن قلت: قد أخبر الله تعالى عن كتاب الفجار بأنه فى سجين، وفسر سجينا بكتاب مرقوم فكأنه قيل: إن كتابهم فى كتاب مرقوم فما معناه، قلت: سجين كتاب جامع هو ديوان الشرّ دوّن الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس ، وهو كتاب مرقوم مسطور بيّن الكتابة، أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه من رقم الثياب علامتها، والمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت فى ذلك الديوان ، وسمى سجينا فعّيلا من السجن وهو الحبس والتضييق؛ لأنه سبب الحبس والتضييق فى جهنم، أو لأنه مطروح تحت الأرض السابعة فى مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس وذريته، وهو اسم علم منقول من وصف كحاتم منصرف لوجود سبب واحد وهو العلمية فحسب.

●● ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم يخرج المكتوب﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ الجزاء والحساب﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ بذلك اليوم ﴿إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ مجاوز للحد ﴿أَثِيمٍ﴾ مكتسب للإثم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أى القرآن ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: أحاديث المتقدمين . وقال الزجاج: أساطير أباطيل واحدها أسطورة مثل أحدوثة وأحاديث ﴿كَلاَّ﴾ ردع للمعتدى الأثيم عن هذا القول﴿بَلْ﴾ نفى لما قالوا ويقف حفص على بل وقيفة ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ غطّاهم كسبهم أى غلب على قلوبهم حتى غمرها ما كانوا يكسبون من المعاصى . وعن الحسن : الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب. وعن الضحاك: الرين: موت القلب، وعن أبى سليمان (١) الرين والقسوة زماما الغفلة ودواؤهما إدمان الصوم: فإن وجد بعد ذلك قسوة فليترك الإدام ﴿كَلاَّ﴾ ردع عن الكسب الرائن على القلب ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾ عن رؤية ربهم ﴿يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ لممنوعون والحجب: المنع، قال الزجاج: فى الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم وإلا لا يكون التخصيص مفيدا، وقال الحسين ابن الفضل(٢) : كما حجبهم فى الدنيا عن توحيده حجبهم فى العقبى عن رؤيته، وقال مالك بن أنس - رحمه الله - :لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه وقيل عن كرامة ربهم لأنهم فى الدنيا لم يشكروا نعمه فيئسوا فى الآخرة عن كرامته مجازاة، والأول أصح، لأن الرؤية أقوى الكرامات فالحجب عنها دليل الحجب عن غيرها ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ثم بعد كونهم محجوبين عن ربهم لداخلون النار ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أى: هذا العذاب هو الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا وتنكرون وقوعه.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع عن التكذيب ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ﴾ ما كتب من أعمالهم والأبرار المطيعون الذين لا يطففون ويؤمنون بالبعث؛ لأنه ذكر فى مقابلة الفجار وبين الفجار بأنهم المكذبون بيوم الدين، وعن الحسن: البر الذى لا يؤذى الذر ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ هو علم لديوان الخير الذى دوّن فيه كل ما عملته الملائكة وصلحاء الثقلين، منقول من جمع علّى فعيل من العلو سمى به ، لأنه سبب الارتفاع إلى أعالى الدرجات فى الجنة، أو لأنه مرفوع فى السماء السابعة حيث يسكن الكروبيون(٣) تكريما له ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ما الذى أعلمك يا محمد ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ أى شيء هو ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ تحضره الملائكة، قيل: يشهد عمل الأبرار مقربو كل سماء إذا رفع ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ تنعم فى الجنان ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ الأسرة فى الحجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى كرامة الله ونعمه وإلى أعدائهم كيف يعذبون ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التنعم طراوته ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾

---

(١) لعله يقصد عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسى الداراني، أبو سليمان، صوفى ، دمشقي، أقام مدة ببغداد. الأعلام (٧ / ٢٩٣).

(٢) الحسين بن الفضل، راجع ترجمته عند تفسير الآية (١) ، من سورة «الفاتحة».

(٣) الكروبيون؛ أي: المقربون. القاموس (١ / ١٢٣).

شراب خالص لا غش فيه ﴿مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ تختم أوانيه بمسك بدل الطين الذى يختم به الشراب فى الدنيا. أمر الله تعالى بالختم عليه إكراما لأصحابه، أو ختامه مسك مقطعه رائحة مسك أى توجد رائحة المسك عند خاتمة شربه. خاتمة عليّ ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الرحيق، أو النعيم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليرغب الراغبون، وذا إنما يكون بالمسارعة إلى الخيرات والانتهاء عن السيئات ﴿وَمِزَاجُهُ﴾ ومزاج الرحيق ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ هو علم لعين بعينها سميت بالتسنيم الذى هو مصدر سنّمه إذا رفعه؛ لأنها أرفع شراب فى الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق وتنصب فى أوانيهم ﴿عَيْنًا﴾ حال أو نصب على المدح ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أى: منها ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ عن ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهم - يشربها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ كفروا ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ فى الدنيا استهزاء بهم ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يشير بعضهم إلى بعض بالعين طعنا فيهم وعيبا لهم، قيل: جاء علي - رضى الله عنه - في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا وقالوا: أترون هذا الأصلع؟ فنزلت قبل أن يصل عليّ إلى رسول الله (ﷺ) ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ﴾ أى: إذا رجع إلى الكفار منازلهم ﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ متلذذين بذكرهم والسخرية منهم. وقرأ غير حفص فاكهين أى فرحين ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ وإذا رأى الكافرون المؤمنين ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ أى خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه فى الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال ﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ وما أرسل الكفار ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أحوالهم ويرقبون أعمالهم، بل أمروا بإصلاح أنفسهم فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع غيرهم وتسفيه أحلامهم.

●● ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ ثم كما ضحكوا منهم هنا مجازاة ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والاستكبار، وهم على الأرائك آمنون، وقيل: يفتح للكفار باب إلى الجنة فيقال لهم: هلموا إلى الجنة، فإذا وصلوا إليها أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هل جوزوا بسخريتهم بالمؤمنين فى الدنيا إذا فعل بهم ما ذكر، والله أعلم.

سورة الانشقاق، مكية، وهي خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ تصدعت وتشققت ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت وأطاعت وأجابت ربها إلى الانشقاق ولم تأب ولم تمتنع﴿وَحُقَّتْ﴾ وحق لها أن تسمع وتطيع لأمر الله إذ هى مصنوعة مربوبة لله تعالى ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت وسويت باندكاك جبالها وكل أمت[1] فيها ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾ ورمت ما فى جوفها من الكنوز والموتى﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلت غاية الخلو حتى لم يبق شيء فى باطنها، كأنها تكلفت أقصى جهدها فى الخلو، يقال: تكرم الكريم إذا بلغ جهده فى الكرم وتكلف فوق ما فى طبعه ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ فى إلقاء ما فى بطنها وتخليها ﴿وَحُقَّتْ ﴾ وهى حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع وحذف جواب إذا ليذهب المقدر كل مذهب، أو اكتفاء بما علم بمثلها من سورتى التكوير والانفطار، أو جوابه ما دل عليه فملاقيه أى إذا السماء لاقى الإنسان كدحه.

●● ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ خطاب للجنس ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ جاهد إلى لقاء ربك وهو الموت وما بعده من الحال الممثلة باللقاء ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ الضمير للكدح وهو جهد النفس فى العمل والكد فيه حتى يؤثر فيها، والمراد جزاء الكدح إن خيرا فخير وإن شرا فشر،وقيل: لقاء الكدح لقاء كتاب فيه ذلك الكدح يدل عليه قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أى: كتاب عمله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلا هينا، وهو أن يجازى على الحسنات ويتجاوز عن السيئات. وفى الحديث: «من يحاسب يعذب»[2] فقيل: فأين قوله: «فسوف يحاسب حسابا يسيرا» قال ذلك العرض من نوقش فى الحساب عذب﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ إلى عشيرته إن كانوا مؤمنين، أو إلى فريق المؤمنين، أو إلى أهله فى الجنة من الحور العين ﴿مَسْرُورًا﴾ فرحا.

●● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قيل: تغل يمناه إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ يقول: يا ثبوراه والثبور: الهلاك ﴿وَيَصْلَىٰ﴾ عراقى غير علي﴿سَعِيرًا﴾ أى: ويدخل جهنم ﴿ إِنَّهُ كَانَ﴾ فى الدنيا ﴿فِي أَهْلِهِ﴾ معهم ﴿مَسْرُورًا﴾ بالكفر يضحك ممن آمن بالبعث، وقيل: كان لنفسه متابعا وفى مراتع هواه راتعا ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لن يرجع إلى ربه تكذيبا بالبعث، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ما عرفت تفسيره حتى سمعت أعرابية تقول لبنتها حورى أى ارجعى ﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد النفى فى لن يحور أى: بلى ليحورن ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ﴾ وبأعماله﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه، فلابد أن يرجعه ويجازيه عليها.

---

(١) الأمت: ما ارتفع من الأرض، مثل الهضبة والتل.

(٢) الحديث متفق عليه، من حديث عائشة.

●● ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ فأقسم بالبياض بعد الحمرة أو الحمرة ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ جمع وضم والمراد ما جمعه من الظلمة والنجم، أوما عمل فيه من التهجد وغيره ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم بدرا افتعل من الوسق ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أيها الإنسان على إرادة الجنس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول والطبق ما طابق غيره، يقال: ما هذا بطبق لذا أى لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء الطبق ، ويجوز أن يكون جمع طبقة وهى المرتبة من قولهم هو على طبقات أى لتركبن أحوالا بعد أحوال، هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض ، وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها، ومحل «عن طبق» نصب على أنه صفة لطبقا أى طبقا مجاوزا لطبق أو حال من الضمير فى لتركبن أى لتركبن طبقا مجاوزين لطبق، وقال مكحول: فى كل عشرين عاماً تجدون أمراً لم تكونوا عليه ويفتح الباء مكى وعلى وحمزة، والخطاب له - عليه السلام - .أى: طبقا من طباق السماء بعد طبق أى فى المعراج.

●● ﴿فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فما لهم فى أن لا يؤمنوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث والقرآن﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يجمعون فى صدورهم ويضمرون من الكفر وتكذيب النبى (ﷺ) أو بما يجمعون فى صحفهم من أعمال السوء ويدخرون لأنفسهم من أنواع العذاب ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أخبرهم خبرا يظهر أثره على بشرتهم ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غير مقطوع، أو غير منقوص ، والله أعلم.

(سورة البروج، مكية، وهى اثنتان وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ هى البروج الاثنا عشر، وقيل: النجوم أوعظام الكواكب ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ أى وشاهد فى ذلك اليوم ومشهود فيه، والمراد بالشاهد من يشهد فيه الخلائق كلهم وبالمشهود فيه ما فى ذلك اليوم من عجائبه وطريق تنكيرهما إما ما ذكرته فى قوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾(١) كأنه قيل: ما أفرطت كثرته من شاهد ومشهود، وإما للإبهام فى الوصف، كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يكتنه وصفهما وقد كثرت أقاويل المفسرين فيهما فقيل: محمد (ﷺ) ويوم القيامة، أوعيسى وأمته لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(٢) أو أمة محمد وسائر الأمم، أو الحجر الأسود والحجيج، أو الأيام والليالى وبنو آدم للحديث: «ما من يوم إلا وينادى أنا يوم جديد وعلى ما يفعل فيّ شهيد فاغتنمنى فلوا غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم القيامة»(٣) أو الحفيظة وبنو آدم، أوالله تعالى والخلق لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(٤) أوالأنبياء ومحمد ـ عليهم السلام ـ وجواب القسم محذوف يدل عليه.

●● ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أى لعن كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء إنهم ملعونون يعنى كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود وهو خد أى شق عظيم فى الأرض. روى عن النبى (ﷺ) أنه كان لبعض الملوك ساحر فلما كبر ضموا إليه غلاما ليعلمه السحر وكان فى طريق الغلام راهب فسمع منه فرأى فى طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس فأخذ حجرا فقال: «اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها»، فقتلها فكان الغلام بعد ذلك يبرىء الأكمه والأبرص، وعمى جليس للملك فأبرأه فأبصره الملك فسأله من رد عليك بصرك، قال: ربي، فغضب فعذبه، فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه فقدّ بالمنشار وأبى الغلام فذهب به إلى جبل ليطرح من ذروته فدعا فرجف بالقوم فطاحوا ونجا، فذهب به إلى قرقور فلجّجوا به ليغرقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلى حتى تجمع الناس فى صعيد وتصلبنى على جذع وتأخذ سهما من كنانتى وتقول باسم الله رب الغلام، ثم ترمينى به فرماه فوقع فى صدغه فوضع يده عليه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر فخدّ أخدودا وملأها نارا فمن لم يرجع عن دينه طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبى، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبى: يا أماه اصبرى فإنك على الحق فألقى

---

(١) سورة «التكوير» ، الآية (١٤).

(٢) سورة «المائدة» ، الآية (١١٧).

(٣) لم أجده فى كتب الحديث.

(٤) النساء (٧٩)،و (١٦٦)، والفتح (٢٨).

الصبى وأمه فيها[1] ﴿النَّارِ﴾ بدل اشتمال من الأخدود ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس.

•• ﴿إِذْ﴾ ظرف لقتل أى لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين حولها ﴿هُمْ عَلَيْهَا﴾ أى الكفار على ما يدنو منها من حافات الأخدود ﴿قُعُودٌ﴾ جلوس على الكراسى ﴿وَهُمْ﴾ أى: الكفار ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق ﴿شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك أن أحدا منهم لم يفرط فيما أمر به وفوض إليه من التعذيب، وفيه حث للمؤمنين على الصبر وتحمل أذى أهل مكة ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا﴾ وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان كقوله:

•ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم•

وقوله:

ما نقموا من بنى أمية إلـ ـــلا أنهم يحلمون إن غضبوا

وقرىء نقموا بالكسر، والفصيح هو الفتح ﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ذكر الأوصاف التى يستحق بها أن يؤمن به، وهو كونه عزيزا غالبا قادرا يخشى عقابه به، حميدا منعما يجب له الحمد على نعمته ويرجى ثوابه ﴿الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقريرا، لأن ما نقموا منهم هو الحق الذى لا ينقمه إلا مبطل، وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب عظيم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعيد لهم يعنى أنه علم ما فعلوا وهو مجازيهم عليه.

•• ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يجوز أن يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصة وبالذين آمنوا المطروحين فى الأخدود، ومعنى فتنوهم عذبوهم بالنار وأحرقوهم ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ لم يرجعوا عن كفرهم ﴿فَلَهُمْ﴾ فى الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ فى الدنيا؛ لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم، ويجوز أن يريد الذين فتنوا المؤمنين أى بلوهم بالأذى على العموم: والمؤمنين: المفتونين وأن للفاتنين عذابين فى الآخرة لكفرهم ولفتنتهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الذين صبروا على تعذيب الأخدود، أو هو عام.

•• ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البطش: الأخذ بالعنف فإذا وصف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم، والمراد أخذه الظلمة والجبابرة بالعذاب والانتقام ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أى: يخلقهم ابتداء، ثم يعيدهم بعد أن صيرهم ترابا دل باقتداره على الإبداء والإعادة على شدة بطشه، أو أوعد الكفرة بأنه يعيدهم كما أبدأهم ليبطش بهم إذا لم يشكروا نعمة الإبداء وكذبوا بالإعادة ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الساتر

---

(١) الحديث عند مسلم والترمذى والنسائي، وغيرهم.

للعيوب العافى عن الذنوب ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لأوليائه ، وقيل: الفاعل لأهل الطاعة ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه ومالكه﴿الْمَجِيدُ﴾ وبالجر حمزة وعلى على أنه صفة للعرش ومجد الله: عظمته، ومجد العرش: علوه وعظمه ﴿فَعَّالٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾ تكوينه فيكون فيه دلالة خلق أفعال العباد.

●●﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ أى: قد أتاك خبر الجموع الطاغية فى الأمم الخالية ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل من الجنود ، وأراد بفرعون إياه وآله، والمعنى: قد عرفت تكذيب تلك الجنود للرسل وما نزل بهم لتكذيبهم ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ واستيجاب للعذاب ولا يعتبرون بالجنود لا لخفاء حال الجنود عليهم ، لكن يكذبونك عنادا ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ أى: عالم بأحوالهم وقادر عليهم وهم لا يعجزونه والإحاطة بهم من ورائهم مثل، لأنهم لا يفوتونه كما لا يفوت الشيء المحيط به ﴿بَلْ هُوَ﴾ بل هذا الذى كذبوا به﴿قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ شريف عالى الطبقة فى الكتب وفى نظمه وإعجازه ليس كما يزعمون أنه مفترى وأنه أساطير الأولين ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من وصول الشياطين، محفوظ نافع صفة للقرآن أى: من التغيير والتبديل، واللوح عند الحسن شيء يلوح للملائكة فيقرءونه، وعند ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هو من درة بيضاء طولها ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب، قلمه نور وكل شيء فيه مسطور. مقاتل: هو على يمين العرش، وقيل: أعلاه معقود بالعرش وأسفله فى حجر ملك كريم، والله أعلم.

(سورة الطارق، مكية، وهى سبع عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ عظم قدر السماء فى أعين الخلق لكونها معدن رزقهم، ومسكن ملائكته، وفيها خلق الجنة فأقسم بها وبالطارق، والمراد: جنس النجوم ، أو جنس الشهب التى يرجم بها لعظم منفعتها ثم فسره بالنجم الثاقب أى: المضىء كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ووصف بالطارق؛ لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتى ليلا طارق، أو لأنه يطرق الجنى أى يصكه، وجواب القسم ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ لأن لما إن كانت مشددة بمعنى إلا كقراءة عاصم وحمزة وابن عامر فتكون إن نافية أى: ما كل نفس إلا عليها حافظ وإن كانت مخففة كقراءة غيرهم فتكون إن مخففة من الثقيلة أى: إن كل نفس لعليها حافظ. يحفظها من الآفات، أو يحفظ عملها ورزقها وأجلها، فإذا استوفى ذلك مات، وقيل: هو كاتب الأعمال، فما زائدة، واللام فارقة بين الثقيلة والخفيفة، وحافظ: مبتدأ وعليها: الخبر والجملة خبر كل، وأيتهما كانت فهى مما يتلقى به القسم.

●● ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذكر أن على كل نفس حافظا أمره بالنظر فى أول أمره ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه فيعمل ليوم الجزاء، ولا يملى على حافظه إلا ما يسرّه فى عاقبته. «ومم خلق» استفهام أى: من أى شيء خلق جوابه ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ والدفق: صب فيه دفع والدفق فى الحقيقة لصاحبه والإسناد إلى الماء مجاز، وعن بعض أهل اللغة دفقت الماء دفقا: صببته ودفق الماء بنفسه أى انصب، ولم يقل من ماءين لامتزاجهما فى الرحم واتحادهما حين ابتدىء فى خلقه ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من صلب الرجل وترائب المرأة: وهى عظام الصدر حيث تكون القلادة، وقيل: العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة.

●● ﴿إِنَّهُ﴾ إن الخالق لدلالة خلق عليه، ومعناه إن الذى خلق الإنسان ابتداء من نطفة ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ على إعادته خصوصا ﴿لَقَادِرٌ﴾ لبيّن القدرة لا يعجز عنه كقوله: إننى لفقير أى لبيْن الفقر. ونصب ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ أى: تكشف برجعه أو بمضمر دل عليه قوله رجعه أى يبعثه يوم تبلى ﴿السَّرَائِرُ﴾ ما أسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وما أخفى من الأعمال ﴿فَمَا لَهُ﴾ فما للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ فى نفسه على دفع ما حل به ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعينه ويدفع عنه.

●● ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أى: المطر وسمى به لعوده كل حين ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات ﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فاصل بين الحق والباطل، كما قيل له: فرقان ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ باللعب والباطل يعنى: أنه جد كله ومن حقه، وقد وصفه الله

بذلك أن يكون مهيبا فى الصدور معظما فى القلوب يرتفع به قارئه وسامعه أن يلم بهزل، أو يتفكه بمزاج ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعنى: مشركى مكة﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعملون المكايد فـى إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأجازيهم جزاء كـيدهم باستدراجى لهـم من حيث لا يعلمون، فـسمى جزاء الكيد كيدا كما سـمى جزاء الاعتداء ، والسيئة اعتداء وسيئة وإن لم يكـن اعتداء وسيئة، ولا يجوز إطلاق هـذا الوصف عـلى الله تـعالى إلا عـلى وجه الجـزاء كقـوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1] ـ ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[2] ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[3]﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ أنظرهـم فكـرر وخـالف بين اللفظين لـزيادة التسكين والتصبير﴿رُوَيْدًا﴾ مهلا يسيرا ولا يتكلم بها إلا مصغّرة، وهى من رادت الريح ترود رودا تحركت حركة ضعيفة.

(١) سورة «التوبة» ، الآية (٦٧).

(٢) سورة «النساء» ، الآية (١٤٢).

(٣) سورة «البقرة» ، الآية (١٥).

(سورة الأعلى ، مكية، وهى تسع عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ نزه ذاته عما لا يليق به، والاسم صلة، وذلك بأن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذى هوالقهر والاقتدار لا بمعنى العلو فى المكان ، وقيل: قل سبحان ربى الأعلي، وفى الحديث لما نزلت قال ـ عليه السلام ـ : «اجعلوها فى سجودكم»(١) ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أى: خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتا غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق، دلالة على أنه صادر عن عالم حكيم ، أو سوّاه على ما فيه منفعة ومصلحة ﴿وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أى: قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به أو فهدى وأضل، ولكن حذف وأضل اكتفاء كقوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾(٢) قَدَّرَ عليّ ﴿ وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أنبت ما ترعاه الدواب ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ يابسا هشيما ﴿أَحْوَىٰ﴾ أسود فأحوى صفة الغثاء.

●● ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴾ سنعلمك القرآن حتى لاتنساه ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينسخه وهذا بشارة من الله لنبيه أن يحفظ عليه الوحى حتى لا ينفلت منه شيء إلا ما شاء الله أن ينسخه فيذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته. وسأل ابن كيسان النحوي(٣) جنيدا عنه فقال: فلا تنسى العمل به فقال مثلك يصدر، وقيل : قوله فلا تنسى على النهى والألف مزيدة للفاصلة كقوله: ﴿السَّبِيلاْ﴾(٤) أى فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلا ماشاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أى إنك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل مخافة التفلت ، والله يعلم جهرك معه، وما فى نفسك مما يدعوك إلى الجهر، أو ما تقرأ فى نفسك مخافة النسيان، أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وما بطن من أحوالكم ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ معطوف على سنقرئك، وقوله: «إنه يعلم الجهر وما يخفى» اعتراض ومعناه: ونوفقك للطريقة التى هى أيسر وأسهل يعنى: حفظ الوحي، وقيل: للشريعة السمحة التى هى أيسر الشرائع، أو نوفقك لعمل الجنة ﴿فَذَكِّرْ﴾ عظ بالقرآن﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ جواب إن مدلول قوله فذكر، قيل: ظاهره شرط ومعناه استبعاد لتأثير الذكرى فيهم، وقيل: هو أمر بالتذكير على الإطلاق كقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾(٥). غير مشروط بالنفع.

---

(١) الحديث عند أبى داود وابن ماجة.

(٢) النحل (٩٣)، وفاطر (٨).

(٣) هو التابعى الفقيه المؤدب، صالح بن كيسان ، المدنى ، أبو محمد، مؤدب ولد عمر بن عبدالعزيز، وهو ثقة مأمون عند أهل الحديث، وهو إمام عند أهل الفقه، يقال: إنه طلب العلم فى السبعين، وعاش بعدها مثلها، وقيل أكثر من ذلك، فالله أعلم، توفى عام ١٤٠هـ . تهذيب التهذيب (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

(٤) سورة «الأحزاب» ، الآية (٦٧).

(٥) سورة «الغاشية» ، الآية (٢١).

●● ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ سيتعظ ويقبل التذكرة ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله وسوء العاقبة ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتباعد عن الذكرى فلا يقبلها ﴿الْأَشْقَى﴾ الكافر أو الذى هو أشقى الكفرة لتوغله فى عداوة رسول الله (ﷺ) قيل نزلت فى الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة ﴿الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ يدخل نار جهنم والصغرى نار الدنيا ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلا يَحْيَىٰ﴾ حياة يتلذذ بها، وقيل: ثم ، لأن الترجح بين الحياة والموت أفظع من الصلى فهو متراخ عنه فى مراتب الشدة.

●● ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ نال الفوز ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من الشرك، أو تطهر للصلاة، أو أدى الزكاة. تَفَعَّل من الزكاة كتصدق من الصدقة﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وكبر للافتتاح ﴿فَصَلَّىٰ﴾ الخمس وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة؛ لأن الصلاة عطف عليها وهو يقتضى المغايرة، وعلى أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما- ذكر معاده وموقفه بين يدى ربه فصلى له، وعن الضحاك، وذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى صلاة العيد ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة فلا تفعلون ما به تفلحون، والمخاطب به الكافرون دليله قراءة أبى عمرو يؤثرون بالياء ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أفضل فى نفسها وأدوم.

●● ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ هذا إشارة إلى قوله: قد أفلح إلى أبقى أى: أن معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف، أو إلى ما فى السورة كلها، وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة، لأنه جعله مذكورا فى تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدل من الصحف الأولى، وفى الأثر: وفى صحف إبراهيم: ينبغى للعاقل أن يكون حافظا للسانه، عارفا بزمانه، مقبلا على شأنه.

سورة الغاشية، مكية، وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

•• ﴿هَلْ﴾ بمعنى قد ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها يعني: القيامة وقيل النار من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾(١) : ﴿وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه الكفار، وإنما خص الوجه؛ لأن الحزن والسرور إذا استحكما في المرء أثرا في وجهه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ غشيت﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة لما اعترى أصحابها من الخزى والهوان﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعمل في النار عملا تتعب فيه وهو جرها السلاسل والأغلال، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار وهبوطها في حدور منها، وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت فهي في نصب منها في الآخرة ، وقيل: هم أصحاب الصوامع ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب والتهجد الواصب ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ تدخل نارا قد أحميت مددا طويلة فلا حر يعدل حرها. تُصلى أبو عمرو وأبو بكر ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ من عين ماء قد انتهى حرها والتأنيث فمن هذه الصفات والأفعال راجعة إلى الوجوه، والمراد أصحابها بدليل قوله ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وهو نبت يقال له الشِّرِق فإذا يبس فهو ضريع وهو سم قاتل والعذاب ألوان والمعذبون طبقات فمنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة الغسلين ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين هذه الآية وبين قوله ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾(٢) ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ مجرور المحل لأنه وصف ضريع﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أي منفعتا الغذاء منتفيتان عنه، وهما إماطة الجوع وإفادة السمن في البدن.

•• ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ ثم وصف وجوه المؤمنين ولم يقل ووجوه لأن الكلام الأول قد طال وانقطع ﴿نَّاعِمَةٌ﴾ متنعمة في لين العيش﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها وطاعتها لما رأت ما أداهم إليه من الكرامة والثواب ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ من علو المكان، أو المقدار ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب أو الوجوه ﴿فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي: لغوا أو كلمة ذات لغو، أو نفسا تلغو لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. لا يسمع فيها لاغية مكي وأبو عمرو. ولا تُسْمَعُ فيها لاغية نافع ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي عيون كثيرة كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾(٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ جمع سرير﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار، أو السمك ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما خوله ربه من الملك والنعيم ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب، وهو القدح، وقيل: آنية لا عروة لها ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم ليتلذذوا بها بالنظر إليها، أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى جنب بعض مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على مسودة واستند إلى

---

(١) سورة «إبراهيم» ، الآية (٥٠).

(٢) سورة «الحاقة» ، الآية (٣٦).

(٣) التكوير (١٤)، والانفطار (٥).

الأخرى ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ وبسط عراض فاخرة جمع زربية ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة، أو مفرقة فى المجالس ، ولما أنزل الله تعالى هذه الآيات فى صفة الجنة وفسر النبى - عليه السلام - بأن ارتفاع السرير يكون مائة فرسخ والأكواب الموضوعة لا تدخل فى حساب الخلق لكثرتها وطول النمارق كذا وعرض الزرابى ، كذا، أنكر الكفار وقالوا : كيف يصعد على هذا السرير، وكيف تكثر الأكواب هذه الكثرة، وتطول النمارق هذا الطول، وبسط الزرابى هذا الانبساط، ولم نشاهد ذلك فى الدنيا فقال الله تعالى.

●● ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ طويلة ثم تبرك حتى تركب، أو يحمل عليها، ثم تقوم فكذا السرير يطأطىء للمؤمن كما يطأطىء الإبل ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعا بعيد المدى بلا إمساك وعمد، ثم نجومها تكثر هذه الكثرة فلا تدخل فى حساب الخلق فكذا الأكواب ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبا ثابتا فهى راسخة لا تميل مع طولها فكذا النمارق ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحا بتمهيد وتوطئة فهى كلها بساط واحد تنبسط من الأفق إلى الأفق فكذا الزرابي، ويجوز أن يكون المعنى أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ويؤمنوا به ويستعدوا للقائه، وتخصيص هذه الأربعة باعتبار أن هذا خطاب للعرب وحث لهم على الاستدلال، والمرء إنما يستدل بما تكثر مشاهدته له، والعرب تكون فى البوادى ونظرهم فيها إلى السماء والأرض والجبال والإبل فهى أعز أموالهم، وهم لها أكثر استعمالا منهم لسائر الحيوانات، ولأنها تجمع جميع المآرب المطلوبة من الحيوان، وهى النسل والدر والحمل والركوب والأكل بخلاف غيرها، ولأن خلقها أعجب من غيرها فإنه سخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها لا تعاز[1] ضعيفا ولا تمانع صغيرا وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار[2]، وجعلها بحيث تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت وتجرها إلى البلاد الشاحطة[3]، وصبرها على احتمال العطش حتى إن ظمأها ليرتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل نابت فى البرارى مما لا يرعاه سائر البهائم.

●● ﴿فَذَكِّرْ﴾ فذكرهم بالأدلة ليتفكروا فيها.

●● ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ليس عليك إلا التبليغ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ بمسلط كقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[4]، بمصيطر مدنى وبصرى وعلى وعاصم ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ الاستثناء منقطع أى لست بمسئول عليهم، ولكن من تولى منهم وكفر بالله فإن لله الولاية عليه والقهر فهو يعذبه العذاب الأكبر، وهو عذاب جهنم ، وقيل: هو استثناء من قوله: فذكر أى فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم، وفائدة تقديم الظرف التشديد فى الوعيد وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ فتحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها جزاء أمثالهم و«على» لتأكيد الوعيد لا الوجوب إذ لا يجب على الله شيء.

---

(١) تعاز: تعارض وتمانع، والمعني: سهلة الانقياد، حتى مع الضعفاء.
(٢) الأوقار: الأحمال الثقيلة. (٣) الشاحطة: المتطرفة، البعيدة. (٤) سورة «ق» ، الآية (٤٥).

(سورة الفجر، مكية، وهى تسع وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر وهو الصبح كقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾(١) أو بصلاة الفجر﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذى الحجة،أو العشر الأول من المحرم، أو الآخر من رمضان، وإنما نكرت لزيادة فضيلتها ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ شفع كل الأشياء ووترها أو شفع هذه الليالى ووترها أو شفع الصلاة ووترها، أو يوم النحر، لأنه اليوم العاشر، ويوم عرفة، لأنه اليوم التاسع، أو الخلق والخالق. والوتر حمزة وعلي، وبفتح الواو غيرهما وهما لغتان فالفتح حجازى والكسر تميمى وبعد ما أقسم بالليالى المخصوصة أقسم بالليل على العموم فقال﴿وَاللَّيْلِ﴾ وقيل: أريد به ليلة القدر ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضى وياء يسر تحذف فى الدرج اكتفاء عنها بالكسرة، وأما فى الوقف فتحذف مع الكسرة، وسأل واحد الأخفش عن سقوط الياء فقال: لا، حتى تخدمنى سنة فسأله بعد سنة قال: الليل لا يسرى ، وإنما يسرى فيه عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقة، وقيل: معنى يسري: يسرى فيه كما يقال ليل نائم أى ينام فيه ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ اى فيما أقسمت به من هذه الأشياء﴿قَسَمٌ﴾ أى: مقسم به﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ عقل: سمى به؛ لأنه يحجر عن التهافت فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية؛ لأنه يعقل وينهى يريد هل تحقق عنده أن تعظم هذه الأشياء بالإقسام بها، أو عل فى إقسامى بها إقسام لذى حجر أى هل هو قسم عظيم يؤكد بمثله المقسم عليه أو هل فى القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لذى عقل ولب والمقسم عليه محذوف وهو قوله ليعذبن يدل عليه بقوله: «ألم تر إلى قوله: «فصب عليهم ربك سوط عذاب. ثم ذكر تعذيب الأمم التى كذبت الرسل فقال:

●● ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أى: ألم تعلم يا محمد علما يوازى العيان فى الإيقان وهو استفهام تقرير، وقيل: لعقب عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عاد كما يقال لبنى هاشم هاشم، ثم قيل للأولين منهم : عاد الأوى، والإرم تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم عاد الأخيرة، فإرم عطف بيان لعاد وإيذان بأنهم عاد الأولى القديمة، وقيل: إرم بلدتهم وأرضهم التى كانوا فيها ويدل عليه قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة وتقديره بعاد أهل إرم كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾(٢) ولم تنصرف ـ قبيلة كانت أو أرضا ـ للتعريف والتأنيث، وذات العماد إذا كانت صفة للقبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين أهل عمدا وطوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة وإن كانت صفة للبلدة فالمعنى أنها ذات أساطين، وروى أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخْلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانتْ له ملوكها: فسمع بذكر الجنة فقال: أبنى مثلها فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائه سنة، وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار

(١) سورة «المدثر» ، الآية (٣٤).

(٢) سورة «يوسف» ، الآية (٨٢).

والأنهار ، ولما تم بناؤهـا سار إليها بأهل مملكته ، فلـما كان منها على مسيرة يـوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهـلكوا. وعن عبدالله بن قلابة: أنـه خرج فى طلب إبل له فوقـع عليها فحمل ما قدر عليه مما تم، وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله فقال: هى إرم ذات العمـاد وسيدخلها رجل من المـسلمين فى زمانك أحمـر أشقر تسير على حـاجبه خال وعلى عقبة خال يخرج فى طلب إبل له ثم الـتفت فأبصر ابن قلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل(١) ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ أى: مثل عاد فـى قوتهم وطول قامـتهم كان طول الرجـل منهم أربعمائة ذراع أو لـم يخلق مثله مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا.

●● ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيـها بيوتا، قيل أول من نحت الجبل والصخور ثمود، وبنوا ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ﴿ بِالْوَادِ ﴾ بوادى القرى.

●● ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾ أى: ذى الجنود الكثيرة، وكانت لهم مـضارب كثيرة يضربونها إذا نزلوا، وقيل: كان له أوتاد يعذب الناس بها كما فعل بآسية﴿ الَّذِينَ﴾ فى محل النصب على الذم، أو الرفع على هم الذين أو الجر على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون ﴿طَغَوْا فِي الْبِلادِ﴾ تجاوزا الحد ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر والقـتل والظلم ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ مجاز عن إيقاع العذاب بهم عـلى أبلغ الوجوه إذا الصب يشعر بالدوام، والـسوط بزيادة الإيلام، أى: عذبوا عذابا مؤلما دائما ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهو المكان الذى يـترقب فيه، الرصد مفـعال من رصده ، وهذا مثل لإرصاده العباد وأنهـم لا يفوتونه، وأنه عالم بما يصدر منهم وحافظـه فيجازيهم عليه إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

●● ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أى: ضيق عليه وجعله بمقدار بـلغته، فقدَّر شامى ويزيد ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ أى: الواجب لمن ربه بالمرصاد أن يسـعى للعاقبة ولا تهـمه العاجلة، وهو قد عكـس فإنه إذا امتحنه ربه بـالنعمة والسعة ليشكر، قال: ربى أكرمنى أى: فضلنـى بما أعطانى فيرى الإكرام فى كثرة الحظ من الدنيا، وإذا امتحنه بالفقر فـقدَّر عليه رزقه ليصبر، قال: ربى أهاننى فيرى الهـوان فى قلة الحظ من الدنيا؛ لأنه لا تهمه إلا العاجلة وما يلذه وينعمه فيها فرد عليه زعمه بقوله.

●● ﴿كَلاَّ﴾ أى: ليس الإكـرام والإهانة فى كـثرة المال وقلتـه بل الإكرام فـى توفيق الـطاعة، والإهانة فى الخذلان، وقوله تعالى: «فيقول» خبـر المبتدأ الذى هو الإنسان، ودخول الفاء لما فى أما من معنى الشـرط والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبـر فى تقدير التأخير ، كأنه قـيل: فأما الإنسان فقائل ربى أكرمنى وقت الابتلاء، وكذا «فيقول» الثانى خبر لمبتدأ تقديره: وأما هو إذا ما ابتلاه ربه، وسمى كلا الأمرين من بسـط الرزق وتقديره: ابتلاء ، لأن كل واحد منهما اختبـار للعبد فإذا بسط

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع، ونحوه قوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة﴾(١) وإنما أنكر قوله: ربى أكرمن مع أنه أثبته بقوله فأكرمه، لأنه قاله على قصد خلاف ما صححه الله عليه وأثبته وهو قصده إن الله أعطاه ما أعطاه إكراما له لاستحقاقه كقوله: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾(٢) وإنما أعطاه الله تعالى ابتلاء من غير استحقاق منه ﴿بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين﴾ أى بل هناك شر من هذا القول وهو أن الله يكرمهم بالغنى فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة وحض أهله على طعام المسكين﴿وتأكلون التراث﴾ أى: الميراث﴿أكلاً لمًّا﴾ ذا لم وهو الجمع بين الحلال والحرام وكانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان ويأكلون تراثهم مع تراثهم ﴿وتحبون المال﴾ يقال: حبه وأحبه بمعنى ﴿حبًّا جمًّا﴾ بمعنى كثيرا شديدا مع الحرص ومنع الحقوق ، ربِّىَ حجازى وأبو عمرو يكرمون ولا يحضون ويأكلون ، ويحبون بصري.

•• ﴿كلاَّ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم ، ثم أتى الوعيد وذكر تحسرهم على ما فرطوا فيه حين لا تنفع الحسرة فقال: ﴿إذا دكت الأرض﴾ إذا زلزلت﴿دكًّا دكًّا﴾ دكاً بعد دك أى: كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا ﴿وجاء ربك﴾ تمثيل: لظهور آيات اقتداره، وتبين آثار قهره وسلطانه فإن واحدا من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة مالا يظهر بحضور عساكره وخواصه، وعن ابن عباس أمره وقضاؤه ﴿والملك صفًّا صفًّا﴾ أى: ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والإنس ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾ قيل: إنها برزت لأهلها كقوله: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾(٣) وقيل هو مجرى على حقيقته ففى الحديث يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها(٤) ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ أى يتعظ﴿وأنى له الذكرى﴾ ومن أين له منفعة الذكرى.

•• ﴿يقول يا ليتنى قدمت لحياتى﴾ هذه وهي حياة الآخرة أى: يا ليتنى قدمت الأعمال الصالحة فى الحياة الفانية لحياتى الباقية ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ أى: لا يتولى عذاب الله أحد، لأن الأمر لله وحده فى ذلك اليوم ﴿ولا يوثق﴾ بالسلاسل والأغلال ﴿وثاقه أحد﴾ قال صاحب الكشاف: لا يعذب أحد أحدا كعذاب الله ولا يوثق أحد أحداً كوثاق الله . لا يعذب ولا يوثق على وهى قراءة رسول الله (ﷺ) ورجع إليها أبو عمرو فى آخر عمره، والضمير يرجع إلى الإنسان الموصوف وهو الكافر، وقيل: هو أبى بن خلف أى لا يعذب أحد مثل عذابه، ولا يوثق بالسلاسل مثل وثاقه لتناهيه فى كفره وعناده، ثم يقول الله تعالى للمؤمن.

(١) سورة «الأنبياء» ، الآية (٣٥).

(٢) سورة «القصص» ، الآية (٧٨).

(٣) سورة «الشعراء» ، الآية (٩١).

(٤) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة ، لكن رواه الطبرى عن ابن مسعود ، يرفعه.

●● ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ﴾ إكراما له كما كلم موسى - عليه السلام - أو يكون على لسان ملك﴿الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن وهى النفس المؤمنة، أو المطمئنة إلى الحق التى سكّنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك ، ويشهد للتفسير الأول قراءة أبى يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة، وإنما يقال لها عند الموت أو عند البعث أو عند دخول الجنة ﴿ ارْجِعِي إِلَىٰ﴾ موعد ﴿رَبِّكِ﴾ أو ثواب ربك﴿رَاضِيَةً ﴾ من الله بما أوتيت ﴿مَّرْضِيَّةً ﴾ عند الله بما عملت﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ فى جملة عبادى الصالحين فانتظمى فى سلكهم ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ معهم، وقال أبو عبيدة أى مع عبادي، أو بين عبادى أى: خواصى كما قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(١) وقيل النفس: الروح ومعناه فادخلى فى أجساد عبادى، كقراءة عبدالله بن مسعود فى جسد عبدي، ولما مات ابن عباس بالطائف جاء طائر لم ير على خلقته فدخل فى نعشه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ولم يدر من تلاها. قيل نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وقيل فى خبيب بن عدي(٢) الذى صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة . فقال: اللهم إن كان لى عندك خير فحول وجهى نحو قبلتك فحول الله وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله، وقيل: هى عامة فى المؤمنين إذ العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

---

(١) سورة «النمل» ، الآية (١٩).

(٢) خبيب بن عدي: بطل فوق الصليب، صحابى من أوس المدينة وأنصارها، تردد على رسول الله منذ هاجر إليهم، وآمن بالله رب العالمين، وكان الرسول قد أرسله مع تسعة من أخوانه لمعرفة أخبار المشركين، فوقع فى الأسر، ومات شهيداً مصلوباً. (رجال حول الرسول ٣٩٠).

سورة البلد، مكية، وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أقسم سبحانه بالبلد الحرام وبما بعده على أن الإنسان خلق مغمورا فى مكابدة المشاق، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أى: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد يعنى مكة، كما يستحل الصيد فى غير الحرم عن شرحبيل[1] يحرمون أن يقتلوا بها صيدا ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت لرسول الله (ﷺ) وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم فى عداوته، أو على رسول الله بالقسم ببلده على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عنه، فقال: «وأنت حل بهذا البلد» أى: وأنت حل به فى المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، وذلك أن الله تعالى فتح عليه مكة وأحلها له وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له فأحل ما شاء وحرم ما شاء قتل ابن خطل [2] وهو متعلق ـ بأستار الكعبة ـ ومقيس بن صبابة وغيرهما وحرم دار أبى سفيان، ونظير قوله: «وأنت حل» فى الاستقبال قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[3] وكفاك دليلا على أنه للاستقبال أن السورة مكية بالاتفاق وأين الهجرة من وقت نزولها فما بال الفتح ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ هما آدم وولده، أو كل والد وولده أو إبراهيم وولده. وما بمعنى من ، أو بمعنى الذى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ جواب القسم ﴿فِي كَبَدٍ﴾ مشقة يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وعن ذى النون لم يزل مربوطا بحبل القضاء مدعوا إلى الائتمار والانتهاء والضمير في.

●● ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ لبعض صناديد قريش الذين كان رسول الله (ﷺ) يكابد منهم ما يكابد ، ثم قيل: هو أبو الأشد، وقيل: الوليد بن المغيرة، والمعنى: أيظن هذا الصنديد القوى فى قومه المتصف للمؤمنين أن لن تقوم قيامة ولن يقدر على الانتقام منه، ثم ذكر ما يقوله فى ذلك اليوم وأنه ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ أى: كثيرا جمع لبدة وهو ما تلبد أى كثر واجتمع، يريد كثرة ما أنفقه فيما كان أهل الجاهلية يسمونها مكارم ومعالى ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق ما ينفق رياء وافتخارا، يعنى أن الله تعالى كان يراه وكان عليه رقيبا، ثم ذكر نعمه عليه فقال:

---

(١) لم يحدد أى شرحبيل يقصد، ولعله التابعى العلامة؛ شرحبيل بن سعد، أبو سعد، الخطمى، المدني، مولى الأنصار، روى عن بعض الصحابة. قال ابن الحديني: «قلت لسفيان بن عيينة: كان شرحبيل ابن سعد يفتى؟! قال: «نعم ، ولم يكن أحد أعلم بالمغازى والبدريين منه...» . أ هـ . واختلفوا فى الاحتجاج به فى علم الحديث. توفى عام ١٢٣ هـ. تهذيب التهذيب (٢/ ٤٨٧، ٤٨٨).

(٢) ابن خطل: هو عبد العزى بن خطل، أسلم ثم ارتد، وقتل مسلماً، فأمر الرسول بقتله، فقتل يوم الفتح على يد سعيد بن حريث وأبو برزة الأسلمي.

(٣) سورة «الزمر» ، الآية (٣٠).

﴿أَلَمْ نَجعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما المرئيات ﴿وَلِسَانًا﴾ يعبر عما في ضميره ﴿ وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما ثغره ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقى الخير والشر المفضيين إلى الجنة والنار، وقيل الثديين.

●● ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى: فلم يشكر تلك الآيادى والنعيم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب ، أو إطعام اليتامى والمساكين، ثم بالإيمان الذى هو أصل كل طاعة وأساس كل خير بل غمط النعم وكفر بالمنعم، والمعنى أن الإنفاق على هذا الوجه مرضى نافع عند الله لا أن يهلك ماله لبدا فى الرياء والفخار، وقلما تستعمل لا مع الماضى إلا مكررة، وإنما لم تكرر فى الكلام الأفصح، لأنه لما فسر اقتحام العقبة بثلاثة أشياء صار: كأنه أعاد لا ثلاث مرات، وتقديره: فلا فك رقبة ولا أطعم مسكينا ولا آمن.

والاقتحام الدخول، والمجاوزة بشدة ومشقة والقُحمة الشدة فجعل الصالحة عقبة وعملها اقتحاما لها لما فى ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس وعن الحسن: عقبة والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان. والمراد بقوله: ما العقبة ما اقتحامها ، ومعناه أنك لم تدركه صعوبتها على النفس وكنه ثوابها عند الله: وفك الرقبة تخليصها من الرق والإعانة فى مال الكتابة. فكّ رقبة، أو أطعم مكى وأبو عمرو وعلى عـلى الإبدال من اقتحم العقبة وقوله وما أدراك ما العقبة اعتراض. غيرهم فك رقبة، أو إطعامٌ علي: اقتحامها فك رقبة أو إطعام والمسغبة المجاعة والمقربة القرابة والمتربة الفقر مفعلات من سغب إذا جاع وقرب وفى النسب يقال فلان ذو قرابتى وذو مقربتي. وترب إذا افتقر، ومعناه التصق بالتراب فيكون مأواه المزابل ووصف اليوم بذى مسغبة، كقولهم همٌّ ناصب أى ذو نصب، ومعنى «ثم كان من الذين آمنوا» أى دوام على الإيمان، وقيل: ثم بمعنى الواو، وقيل: إنما جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا فى الوقت؛ إذ الإيمان هو السابق على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصى وعلى الطاعات والمحن التى يبتلى بها المؤمن ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بالتراحم فيما بينهم﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أى: الموصوفون بهذه الصفات من أصحاب الميمنة.

●● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالقرآن، أو بدلائلنا ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أصحاب الشمال والميمنة والمشأمة اليمين والشمال، أو اليمن والشؤم أى الميامين على أنفسهم، والمشائيم عليهن ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ وبالهمزة أبو عمرو وحمزة وحفص أى: مطبقة من أوصدت الباب وأصدته إذا أطبقته وأغلقته. والله أعلم.

سورة الشمس، مكية، وهى خمس عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ تبعها فى الضياء والنور وذلك فى النصف الأول من الشهر يخلف القمر الشمس فى النور ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ جلى الشمس وأظهرها للرائين، وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه، لأن الشمس تنجلى فى ذلك الوقت تمام الانجلاء. وقيل: الضمير للظلمة، أو للدنيا، أو للأرض، وإن لم يجر لها ذكر كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾(١). ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يستر الشمس فتظلم الآفاق، والواو الأولى فى نحو هذا للقسم بالاتفاق، وكذا الثانية عند البعض وعند الخليل الثانية للعطف؛ لأن إدخال القسم على القسم قبل تمام الأول لا يجوز ألا ترى أنك لو جعلت موضعها كلمة الفاء، أو ثم لكان المعنى على حاله، وهما حرفا عطف فكذا الواو، ومن قال إنها للقسم، احتج بأنها لو كانت للعطف لكان عطفا على عاملين (٢)؛ لأن قوله والليل مثلا مجرور بواو القسم وإذا يغشى منصوب بالفعل المقدر الذى هو أقسم فلو جعلت الواو فى والنهار إذا تجلى للعطف لكان النهار معطوفا على الليل جرا، وإذا تجلى معطوفا على إذا يغشى نصبا فصار كقولك إن فى الدار زيداً، أو فى الحجرة عمرا، وأجيب بأن واو القسم تنزل منزلة الباء والفعل حتى لم يجز إبراز الفعل معها فصارت كأنها العاملة نصبا وجرا، وصارت كعامل واحد له عملان وكل عامل له عملان، يجوز أن يعطف على معموليه بعاطف واحد بالاتفاق نحو ضرب زيد عمرا وبكر خالدا فترفع الواو وتنصب لقيامها مقام ضرب الذى هو عاملهما فكذا هنا.

وما مصدرية فى ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أى: وبنائها وطحوها أى: بسطها وتسوية خلقها فى أحسن صورة عند البعض وليس بالوجه لقوله: «فألهمها لما فيه من فساد النظم والوجه أن تكون موصولة، وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذى بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذى سواها. وإنما نكرت النفس؛ لأنه أراد نفسا خاصة من بين النفوس، وهى نفس آدم كأنه قال وواحدة من النفوس، أو أراد كل نفس، والتنكير للتكثير كما فى علمت نفس(٣) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فأعلمها طاعتها ومعصيتها أفهمها أن أحدهما حسن والآخر قبيح.

●● ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ جواب القسم والتقدير: لقد أفلح، قال الزجاج: صار طول الكلام عوضا عن اللام، وقيل: الجواب محذوف وهو الأظهر تقديره ليدمدمن الله عليهم أى على أهل مكة لتكذيبهم

---

(١) سورة «فاطر» ، الآية (٤٥).

(٢) يقصد: عطفاً على معمولى عاملين مختلفين، أحدهما مجرور، والآخر منصوب، وهذا يتضح من بقية السياق.

(٣) سورة «التكوير» ، الآية (١٤)، الانفطار (٥).

رسول الله (ﷺ)، كما دمدم على ثمود، لأنهم كذبوا صالحا، وأما قد أفلح فكلام تابع لقوله: «فألهمها فجورها وتقواها» على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شيء ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ طهرها الله وأصلحها وجعلها زاكية ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أغواها الله، قال عكرمة: أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس أغواها الله، ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد، والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور وأصل دسّى دسس، والياء بدل من السين المكررة.

●● ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ بطغيانها إذ الحامل لهم على التكذيب طغيانهم ﴿إِذِ انبَعَثَ﴾ حين قام بعقر الناقة ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود قدار بن سالف، وكان أشقر أزرق قصيراً، وإذ منصوب بكذبت، أو بالطغوى ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ نصب على التحذير أى احذروا عقرها ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ كقولك: الأسد الأسد ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم منه من نزول العذاب إن فعلوا ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أى: الناقة أسند الفعل إليهم وإن كان العاقر واحدا لقوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾(١). لرضاهم به ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أهلكهم هلاك استئصال ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ بسبب ذنبهم وهو تكذيبهم الرسول وعقرهم الناقة ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فسوى الدمدمة عليهم لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ولا يخاف الله عاقبة هذه الفعلة، أى: فعل ذلك غير خائف أن تلحقه تبعة من أحد كما يخاف من يعاقب من الملوك؛ لأنه فعل فى ملكه وملكه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٢) ، فلا يخاف مدني وشامي.

---

(١) سورة «القمر» ، الآية (٢٩).

(٢) سورة «الأنبياء» ، الآية (٢٣).

(سورة الليل، مكية، وهى إحدى وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ المغشى أما الشمس من قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(١) أو النهار من قوله ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾(٢) أو كل شيء يواريه بظلامه من قوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾(٣) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ والقادر العظيم القدرة الذى قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد وجواب القسم ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إن عملكم لمختلف وبيان الاختلاف فيما فصل على أثره.

●● ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ حقوق ماله ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ ربه فاجتنب محارمه ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بالملة الحسنى وهى ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة، أو بالكلمة الحسنى وهى لا إله إلا الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ فسنهيئه للخلة اليسرى وهى العمل بما يرضاه ربه.

●● ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ بماله ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عن ربه فلم يتقه أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بالإسلام أو الجنة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للخلة المؤدية إلى النار فتكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد، أو سمى طريقة الخير باليسري، لأن عاقبتها اليسر وطريقة الشر بالعسرى، لأن عاقبتها العسر، أو أراد بهما طريقى الجنة والنار ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ ولم ينفعه ماله إذا هلك، وتردى تفعل من الردى وهو الهلاك، أو تردى فى القبر، أو فى قعر جهنم أى سقط.

●● ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ إن علينا الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وبيان الشرائع ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ فلا يضرنا ضلال من ضل، ولا ينفعنا اهتداء من اهتدى، أو أنهما لنا فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تتلهب ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلا الكافر الذى كذب الرسل وأعرض عن الإيمان.

●● ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ وسيبعد منها ﴿الْأَتْقَى﴾ المؤمن ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ للفقراء ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ من الزكاء أى: يطلب أن يكون عند الله زاكيا لا يريد به رياء ولا سمعة، أو يتفعل من الزكاة ويتزكى إن جعلته بدلا من يؤتى فلا محل له؛ لأنه داخل فى حكم الصلة، والصلات لا محل لها وإن جعلته حالا من الضمير فى يؤتى فمحله النصب، قال أبو عبيدة: الأشقى بمعنى الشقى وهو الكافر، والأتقى بمعنى التقى وهو المؤمن؛ لأنه لا يختص بالصلى أشقى الأشقياء ولا بالنجاة أتقى الأتقياء وإن زعمت أنه نكر النار فأراد نارا مخصوصة بالأشقى فما تصنع بقوله: وسيجنبها الأتقي؛ لأن

---

(١) سورة «الشمس» ، الآية (٤).

(٢) سورة «الأعراف» (٥٤)، والرعد (٣).

(٣) سورة «الفلق» ، الآية (٣).

التقى يجنب تلك النار المخصوصة لا الأتقى منهم خاصة، وقيل: الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ فى صفتيها، فقيل: الأشقى وجعل مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل وأبو بكر. وفيه بطلان زعم المرجئة، لأنهم يقولون لا يدخل النار إلا كافر

●● ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ أى: وما لأحد عند الله نعمة يجازيه بها إلا أن يفعل فعلا يبتغى به وجه ربه فيجازيه عليه ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ هو الرفيع بسلطانه، المنيع فى شأنه وبرهانه، ولم يرد به العلو من حيث المكان فذا آية الحدثان ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ موعد بالثواب الذى يرضيه ويقرّ عينه ، وهو كقوله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾(١).

---

(١) سورة «الضحى»، الآية (٥).

سورة الضحى، مكية، وهي إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ المراد وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس، وإنما خص وقت الضحى بالقسم، لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى ـ عليه السلام ـ وألقى فيها السحرة سجدا، أو النهار كله لمقابلته بالليل في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ سكن، والمراد سكون الناس والأصوات فيه، وجواب القسم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ما تركك منذ اختارك وما أبغضك منذ أحبك، والتوديع مبالغة في الودع؛ لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك، روى أن الوحي تأخر عن رسول الله (ﷺ) أياما فقال المشركون: إن محمدا ودعه ربه وقلاه، فنزلت[1] وحذف الضمير من قلى كحذفه من الذاكرات في قوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[2]، يريد والذاكرات له ونحوه: فآوى، فهدى، فأغنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: ما أعد الله لك في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود خير مما أعجبك في الدنيا، وقيل: وجه اتصاله بما قبله أنه لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك. أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك لتقدمه على الأنبياء وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ في الآخرة من الثواب ومقام الشفاعة وغير ذلك﴿فَتَرْضَىٰ﴾ ولما نزلت قال (ﷺ): «إذا لا أرضى قط وواحد من أمتي في النار»[3] . واللام الداخلة على سوف لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك ونحوه لأقسم فيمن قرأ كذلك؛ لأن المعنى لأنا أقسم، وهذا لأنها إن كانت لام قسم فلامه لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد فتعين أن تكون لام الابتداء، ولامه لا تدخل إلا على المبتدأ، والخبر فلابد من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا، كذا ذكره صاحب الكشاف[4] وذكر صاحب الكشف[5] : هي لام القسم واستغنى عن نون التوكيد، لأن النون إنما تدخل ليؤذن أن اللام لام القسم لا لام الابتداء، وقد علم أنه ليس للابتداء لدخولها على سوف، لأن لام الابتداء لا تدخل على سوف، وذكر أن الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر، ثم عدد عليه نعمه من أول حاله ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره.

---

(١) لم أجده في كتب الحديث المعتبرة.

(٢) سورة «الأحزاب» ، الآية (٣٥).

(٣) لم أجده في كتب الحديث المعتبرة.

(٤) صاحب الكشاف: الزمخشري، ترجمته عند تفسير الآية (٢٦)، من سورة «يونس».

(٥) صاحب الكشف: الثعلبي، ترجمته عند تفسير الآية (٢٥٩)، من سورة «البقرة».

•• فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً﴾ وهو من الوجود الذى بمعنى العلم والمنصوبان مفعولاه، والمعنى: ألم تكن يتيما حين مات أبواك ﴿فَآوَىٰ﴾ أى: فآواك إلى عمك أبى طالب وضمك إليه حتى كفلك ورباك ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾ أى: غير عالم ولا واقف على معالم النبوة وأحكام الشريعة وما طريقه السمع ﴿فَهَدَىٰ﴾ فعرفك الشرائع والقرآن، وقيل: ضل فى طريق الشام حين خرج أبو طالب فرده إلى القافلة، ولا يجوز يفهم به عدول عن حق ووقوع فى غى فقد كان ـ عليه السلام ـ من أول حاله إلى نزول الوحى عليه معصوما من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً﴾ فقيرا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجة أو بمال أفاء عليك من الغنائم.

•• ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجره فابذل قليلا أورد جميلا وعن السدى المراد طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أى: حدث بالنبوة التى آتاك الله وهى أجل النعم، والصحيح أنها تعم جميع نعم الله عليه ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع، والله أعلم.

سورة ألم نشرح، مكية، وهى ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ستفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك، ولذا عطف عليه وضعنا اعتبارا للمعنى أى: فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين وأزلنا عنه الضيق والحرج الذى يكون مع العمى والجهل، وعن الحسن ملىء حكمة وعلما ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها، وقيل: هو زلة لا تعرف بعينها وهى ترك الأفضل مع إتيان الفاضل، والأنبياء يعاتبون بمثلها ووضعه عنه أن غفر له، والوزر: الحمل الثقيل ﴿الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أثقله حتى سمع نقيضه وهو صوت الانتقاض ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ورفع ذكره أن قرن بذكر الله فى كلمة الشهادة والأذان والإقامة والخطب والتشهد وفى غير موضع من القرآن: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾(١)، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٢)، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(٣). وفى تسميته رسول الله ونبى الله ومنه ذكره فى كتب الأولين وفائدة لك ما عرف فى طريقة الأبهام والإيضاح، لأنه يفهم بقوله: ألم نشرح لك أن، ثم مشروحا، ثم أوضح بقوله صدرك ما علم مبهما وكذلك لك ذكرك، وعنك وزرك.

●● ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ أى: إن مع الشدة التى أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين يسرا بإظهارى إياك عليهم حتى تغلبهم، وقيل: كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله، فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم، ثم قال: إن مع العسر يسرا كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذى أنتم فيه يسرا، وجيء بلفظ مع لغاية مقاربة العسر زيادة فى التسلية ولتقوية القلوب، وإنما قال ـ عليه السلام ـ عند نزولها «لن يغلب عسر يسرين»(٤). لأن العسر أعيد معرفا فكان واحدا، لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى واليسر أعيد نكرة، والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى فصار المعنى إن مع العسر يسرين قال أبو معاذ: يقال: إن مع الأمير غلاما إن مع الأمير غلاما فالأمير واحد، وإذا قيل إن مع أمير غلاما وإن مع أمير غلاما، فهما أميران وغلامان كذا فى شرح التأويلات.

---

(١) النساء (٥٩)، والنور (٥٤)، ومحمد (٣٣).

(٢) النساء (١٣)، والنور (٥٢)، والأحزاب (٧١)، والفتح (١٧).

(٣) سورة «التوبة» ، الآية (٦٢).

(٤) الحديث فى مسند عبد الرزاق ـ بسنده ـ من حديث ابن مسعود.

●● ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أى: فإذا فرغت من دعـوة الخلق فاجتهد فى عـبادة الرب، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فـإذا فرغت من صلاتك فاجتهد فى الدعاء، واختـلف أنه قبل السلام أو بعده، ووجـه الاتصال بما قبـله أنه لما عدد عـليه نعمـه السالفة ومـواعيده الآتية بـعثه على الـشكر والاجتهاد فى العبادة والنصب فيها وأن يواصل بين بعضها وبعض ، ولا يخلى وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ واجعل رغبتك إليـه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

(سورة والتين، مكية، وهى ثمان آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أقسم بهما، لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة، روى أنه أهدى لرسول الله (ﷺ) طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه: «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس»(١). وقال: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة وقال: هى سواكى وسواك الأنبياء قبلى»(٢)، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ هو تينكم هذا وزيتونكم هذا، وقيل هما جبلان بالشام منبتاهما ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أضيف الطور، وهو الجبل إلى سينين وهى البقعة ونحو سينون بيرون فى جواز الإعراب بالواو والياء والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ يعنى مكة ﴿الْأَمِينِ﴾ من أمن الرجل أمانة فهو أمين، وأمانته أنه يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه، ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والأولياء فنبتت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه، والطور: المكان الذى نودى منه موسى، ومكة مكان البيت الذى هو هدى للعالمين، ومولد نبينا ومبعثه ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ أو الأولان قسم بمهبط الوحي على عيسى، والثالث على موسى، والرابع على محمد ـ عليهم السلام ـ وجواب القسم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ وهو جنس ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فى أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أى: ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أن رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا يعنى أقبح من قبح صورة وهم أصحاب النار، أو أسفل من سفل من أهل الدركات، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم، والتحسين أسفل من سفل فى حسن الصورة والشكل حيث نكسناه فى خلقه تقوس ظهره بعد اعتداله، وأبيض شعره بعد سواده، وتشنن جلده وكلَّ سمعه وبصره، ونغير كل شيء منه. فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف.

•• ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ودخل الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين اللغتين والاستثناء على الأول متصل، وعلى الثانى منقطع أى: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى والزمنى فلهم ثواب غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة والخطاب فى ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ للإنسان على طريقة الالتفات أى: فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع بالجزاء، والمعنى أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشرا سويا وتدريجه فى مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر لا ترى دليلا أوضح منه على قدرة الخالق، وأن من قدر على خلق الإنسان وعلى هذا كله لم يعجز عن إعادته فما سبب تكذيبك بالجزاء، أو لرسول الله ـ(ﷺ). أى فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل فما بمعنى من ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله وهو من الحكم والقضاء، والله أعلم.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة. (٢) الحديث عند الطبرانى فى «المعجم الأوسط».

(سورة العلق، مكية، وهى تسع عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

عن ابن عباس ومجاهد هى أول سورة نزلت والجمهور على أن الفاتحة أول ما نزل، ثم سورة القلم.

●● ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ محل باسم ربك النصب على الحال أى: اقرأ مفتتحا باسم ربك كأنه قيل: قل باسم الله ، ثم اقرأ الذى خلق ولم يذكر الخلق مفعولا ، لأن المعنى الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه أو تقديره خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق؛ لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات بتقديره أولى من بعض وقوله: ﴿خَلَقَ الإنسَانَ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه، ولأن التنزيل إليه، ويجوز أن يراد الذى خلق الإنسان إلا أنه ذكر مبهما، ثم مفسرا تفخيما لخلقه ودلالة على عجيب فطرته ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وإنما جمع ولم يقل من علقة لأن الإنسان فى معنى الجمع ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ الذى له الكمال فى زيادة كرمه على كل كريم ينعم على عباده النعم ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال: ﴿الَّذِى عَلَّمَ﴾ الكتابة﴿بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هى لما استقامت أمور الدين والدنيا ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ﴿إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ نزلت فى أبى جهل إلى آخر السورة ﴿أَن رَّآهُ﴾ أن رأى نفسه يقال فى أفعال القلوب. رأيتنى وعلمتنى ومعنى الرؤية العلم، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع فى فعلها الجمع بين الضميرين ﴿اسْتَغْنَىٰ﴾ هو المفعول الثانى ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ تهديد للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات، والرجعى: مصدر بمعنى الرجوع أى إن رجوعك إلى ربك فيجاريك على طغيانك.

●● ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ أى: أرأيت أبا جهل ينهى محمدا عن الصلاة ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أى: إن كان ذلك الناهى عن طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله.

●● ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ أو كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد.

●● ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أرأيت إن كان ذلك الناهي مكذبا بالحق متوليا عنه كما نقول نحن.

●● ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب حاله، وهذا وعيد، وقوله: «الذى ينهى» مع الجملة الشرطية مفعولا أرأيت وجواب الشرط محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يري، وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثاني، وهذا كقولك إن أكرمتك أتكرمني، وأرأيت الثانية مكررة زائدة للتوكيد.

●● ﴿كَلَّا﴾ ردع بأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله وأمره بعبادة الأصنام، ثم قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما هو فيه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار، والسفع: القبض على الشيء وجذبه بشدة. وكتبها فى المصحف بالألف على حكم الوقف، واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنها ناصية المذكور ﴿نَاصِيَةٍ﴾بدل من الناصية، لأنها وصفت بالكذب والخطأ بقوله: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ عن الإسناد المجازى وهما لصاحبها حقيقة وفيه من الحسن والجزالة ما ليس فى قولك ناصية كاذب خاطئ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ النادى المجلس الذى يجتمع فيه القوم والمراد أهل النادى روى أن أبا جهل مر بالنبى ـ عليه السلام ـ وهو يصلى فقال: ألم أنهك، فأغلظ له رسول الله ـ عليه السلام ـ فقال: «أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا فنزل(1)، والزبانية لغة: الشرط الواحد زبنية من الزبن ـ وهو الدفع ـ والمراد ملائكة العذاب، وعنه ـ عليه السلام ـ لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا (2) ﴿كَلَّا﴾ ردع لأبي جهل ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أى: اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾(3) ﴿وَاسْجُدْ﴾ ودم على سجودك يريد الصلاة ﴿وَاقْتَرِب﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود فإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد(4) كذا الحديث، والله أعلم.

---

(1) الحديث عند الترمذى والنسائى والحاكم، وغيرهم، باختلاف فى المتن.
(2) الحديث عند البخارى والنسائي، من حديث ابن عباس.
(3) سورة «القلم»، الآية (8).
(4) الحديث عند مسلم، من حديث أبى هريرة، وفيه: «وهو ساجد».

سورة القدر، مكية، وقيل مدنية وهي خمس آيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ عظم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون غيره، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه ورفع مقدار الوقت الذى أنزله فيه، روى أنه أنزل جملة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم كان ينزله جبريل على رسول الله (ﷺ) فى ثلاث وعشرين سنة، ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها ، والقدر بمعنى التقدير، أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالى،وهى ليلة السابع والعشرين من رمضان كذا روى أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ عن عاصم عن زر[1] أن أبى بن كعب كان يحلف على ليلة القدر أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وعليه الجمهور ولعل الداعى إلى إخفائها أن يحيي من يريدها الليالى الكثيرة طلبا لموافقتها وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى، واسمه الأعظم، وساعة الإجابة فى الجمعة، ورضاه فى الطاعات، وغضبه فى المعاصي، وفى الحديث: من أدركها يقول اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني[2] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أى: لم تبلغ درايتك غاية فضلها، ثم بين له ذلك بقوله.

●● ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزل الملائكة والروح وفصل كل أمر حكيم، وذكر فى تخصيص هذه المدة أن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة هى خير من مدة ذلك الغازى[3] ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إلى السماء الدنيا، أو إلى الأرض ﴿وَالرُّوحُ﴾ جبريل أو خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ، أو الرحمة ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أى: تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل وعليه وقف ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ ما هى إلا سلامة خبر ومبتدأ أى لا يقدْر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضى فى غيرها بلاء وسلامة، أو ما هى إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين، قيل: لا يلقون مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلموا عليه فى تلك الليلة ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أى إلى وقت طلوع الفجر. بكسر اللام على وخلف، وقد حرم من السلام الذين كفروا ، الله أعلم.

---

(١) التابعى المخضرم؛ زر بن حبيش بن حباشة بن أوس بن بلال، الأسدي، أبو مريم، الكوفي، أدرك الجاهلية، ولم ير النبى ﷺ حتى يعد من الصحابة، روى عن جمع من كبار الصحابة، مجمع على عدالته، وعلو قدره فى العلم بالقرآن وعلومه، توفى بعد عام ٨٠هـ، وقد تعدى ١٢٥ عاماً. تهذيب التهذيب (٢ / ١٩٠).

(٢) الحديث فى «كنز العمال»، برقم (٨ / ٢٤٢٨٢).

(٣) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

سورة البينة، مختلف فيها، وهى ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمد (ﷺ) ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أى: اليهود والنصارى: وأهل الرجل أخص الناس به وأهل الإسلام من يدين به ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ عبدة الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ منفصلين عن الكفر وحذف لأن صلة الذين تدل عليه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الحجة الواضحة والمراد محمد (ﷺ) يقول لم يتركوا كفرهم حتى يبعث محمد (ﷺ) فلما بعث أسلم بعض وثبت على الكفر بعض ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى محمد - عليه السلام - وهو بدل من البينة ﴿يَتْلُو﴾ يقرأ عليهم ﴿صُحُفًا﴾ قراطيس ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ من الباطل ﴿فِيهَا﴾ فى الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ مكتوبات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل.

●● ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ فمنهم من أنكر نبوته بغيا وحسدا ومنهم من آمن، وإنما أفرد أهل الكتاب بعد ما جمع أولا بينهم وبين المشركين؛ لأنهم كانوا على علم به لوجوده فى كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعنى: فى التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير شرك ولا نفاق ﴿حُنَفَاءَ﴾ مؤمنين بجميع الرسل مائلين عن الأديان الباطلة ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أى: دين الملة القيمة.

●● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ونافع يهمزهما، والقراء على التخفيف، والنبى والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل.

●● ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إقامة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أى: الرضا ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ وقوله: خير البرية يدل على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة، لأن البريئة الخلق واشتقاقها من برأ الله الخلق، وقيل: اشتقاقها من البرَى وهو التراب ولو كان كذلك لما قرءوا البريئة بالهمزة، وكذا قاله الزجاج، والله أعلم.

(سورة الزلزلة، مختلف فيها، وهى ثمان آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أى: إذا حركت زلزالها الشديد الذى ليس بعده زلزال. وقرىء بفتح الزاء فالمكسور مصدر والمفتوح اسم ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾أى: كنوزها وموتاها جمع ثقل وهو متاع البيت جعل ما فى جوفها من الدفائن أثقالا لها ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما فى بطنها، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[(١)] وقيل: هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث فأما المؤمن فيقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[(٢)] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا وناصبها ﴿تُحَدِّثُ﴾ أى: تحدث الخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فحذف أول المفعولين؛ لأن المقصود ذكر تحديثها الإخبار لا ذكر الخلق، قيل: ينطقها الله وتخبر بما عمل عليها من خير وشر، وفى الحديث: تشهد عل كل واحد بما عمل على ظهرها[(٣)] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أى: تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها أى إليها وأمره إياها بالتحديث.

●● ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿أَشْتَاتًا﴾ بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين، أو يصدرون عن الموقف أشتاتا يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ اى جزاء أعمالهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نملة صغيرة ﴿خَيْرًا﴾ تميز﴿يَرَهُ﴾ أى ير جزاءه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قيل هذا فى الكفار والأول فى المؤمنين، ويروى أن أعرابيا أخر خيرا يره فقيل له: قدمت وأخرت فقال:

خذا بطن هرشى[(٤)] أو قفاها فإنه   كلا جانبى هرشى لهن طريق

وروى أن جد الفرزدق أتاه - عليه السلام - ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآية فقال: حسبى حسبى وهى أحكم آية وسميت الجامعة ، والله أعلم.

---

(١)، (٢) سورة «يس» ، الآية (٥٢).

(٣) الحديث عند الترمذى والنسائي، وغيرهما، من حديث أبى هريرة.

(٤) هرشى: طريق ملتوية فى طريق مكة، بالقرب من الجحفة، يرى منها الشجر، ويتفرع عنها طريقان، يؤديان إلى المقصود، فأى الطريقين سلكت فأنت مصيب. معجم البلدان (٥/ ٤٥٧).

(سورة العاديات ، مختلف فيها، وهي إحدى عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أقسم بخيل الغزاة فتضبح، والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه حكاه فقال: أح أح، وانتصاب ضبحا على يضبحن ضبحا ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ تورى نار الحباحب وهى ما ينقدح من حوافرها ﴿قَدْحًا﴾ قادحات صاكات بحوافرها الحجارة، والقدح: الصك، والإيراء: إخراج النار، تقول: قدح فأورى، وقدح فأصلد وانتصب قدحا بما انتصب به ضبحا ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ تغير على العدو ﴿صُبْحًا﴾ فى وقت الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ فهيجن بذلك الوقت غبار ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ بذلك الوقت﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، ووسطه بمعنى توسطه، وقيل: الضمير لمكان الغارة، أو للعدو الذى دل عليه والعاديات، وعطف فأثرن على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه، لأن المعنى واللاتى عدون فأورين فأغرن فأثرن وجواب القسم.

●● ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لكفور أى: إنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه، أو وإن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك، أو إنه لحب المال القوى، وهو لحب عبادة الله ضعيف.

●● ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ بعث﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من الموتى، وما بمعنى من﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ ميز ما فيها من الخير والشر ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر، وخص يومئذ بالذكر وهو عالم بهم فى جميع الأزمان؛ لأن الجزاء يقع يومئذ ، والله أعلم.

(سورة القارعة ، مكية، وهي إحدى عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿الْقَارِعَةُ﴾ مبتدأ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثان ﴿الْقَارِعَةُ﴾ خبر ، والجملة خبر المبتدأ الأول، وكان حقه ما هي، وإنما كرر تفخيما لشأنها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أى أىّ شيء أعلمك ما هى؟ ومن أين علمت ذلك؟ ﴿يَوْمَ﴾ نصب بمضمر دلت عليه القارعة أى تقرع يوم ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ شبههم بالفراش فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعى من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار، وسمى فراشا لتفرشه وانتشاره ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف ألوانا، لأنها ألوان ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾[1] وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها.

●● ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ باتباعهم الحق وهى جمع موزون، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله أو جمع ميزان، وثقلها: رجحانها ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضا أو مرضية ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ باتباعهم الباطل ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فمسكنه ومأواه النار، وقيل: للمأوى أمٌ على التشبيه، لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ الضمير يعود إلى هاوية والهاء للسكت، ثم فسرها فقال: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ بلغت النهاية فى الحرارة ، والله أعلم.

---

(١) سورة «فاطر» ، الآية (٢٧).

سورة التكاثر، مكية، وهى ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ شغلكم التبارى فى الكثرة والتباهى بها فى الأموال والأولاد عن طاعة الله ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى أدرككم الموت على تلك الحال أو حتى زرتم المقابر وعددتم من فى المقابر من موتاكم ﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند النزع سوء عاقبة ما كنتم عليه ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فى القبور.

●● ﴿كَلَّا﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جواب لو محذوف أى: لو تعلمون ما بين أيديكم ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ علم الأمر يقين أى كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر، أو لفعلتم ما لا يوصف ولكنكم ضلال جهلة ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هو جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد لترون، بضم التاء شامى وعلى ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ كرره معطوفا بثم تغليظا فى التهديد وزيادة فى التهويل، أو الأول بالقلب، والثانى بالعين ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أى: الرؤية التى هى نفس اليقين وخالصته ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ عن الأمن والصحة فيم أفنيتموهما ، عن ابن مسعود - رضى الله عنه - وقيل: عن التنعم الذى شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه، وعن الحسن: ما سوى كن يؤويه وثوب يواريه وكسرة تقوية، وقد روى مرفوعا[1]، والله أعلم.

سورة العصر، مكية، وهى ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله تعالى: «والصلاة الوسطى صلاة العصر» فى مصحف حفصة، ولأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم، أو أقسم بالعشى كما أقسم بالضحى لما فيها من دلائل القدرة، أو أقسم بالزمان لما فى مروره من أصناف العجائب، وجواب القسم ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أى: جنس الإنسان لفى خسران من تجاراتهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت الذى لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصى وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو به الله عباده، وتواصوا فى الموضعين فعل ماض معطوف على ماض قبله، والله أعلم.

---

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة.

سورة الهمزة، مكية، وهي تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● ﴿وَيْلٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أي الذي يعيب الناس من خلفهم﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: من يعيبهم مواجهة وبناء فعلة يدل على أن ذلك عادة منه. وقيل: نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة، وقيل: في أمية بن خلف، وقيل: في الوليد، ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ﴿الَّذِي﴾ بدل من كل، أو نصب على الذم ﴿جَمَعَ مَالاً﴾ جمع شامي وحمزة وعلى مبالغة جمع، وهو مطابق لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ أي: جعله عدة لحوادث الدهر﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: تركه خالدا في الدنيا لا يموت، أو هو تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم فأما المال فما أخلد أحدا فيه.

●● ﴿كَلاَّ﴾ ردع له عن حسبانه ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ أي: الذي جمع ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ في النار التي شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعجيب وتعظيم﴿نَارُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هي نار الله ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ سنعتها ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألما منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه؟!! نار جهنم واستولت عليه، وقيل: خص الأفئدة، لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة ومعنى اطلاع النار عليها أنها تشتمل عليها ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم﴾ أي: النار أو الحطمة ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مطبقة ﴿فِي عَمَدٍ﴾ بضمتين كوفي غير حفص، الباقون في عَمَد وهما لغتان في جمع عماد كإهاب وأهب وحمار وحمر﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: تؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقا في استيثاق في الحديث: «المؤمن كيس فطن وقاف[١] متثبت، لا يعجل عالم ورع. والمنافق همزة لمزة حطمة[٢] كحاطب الليل لا يبالي من أين اكتسب وفيم أنفق»[٣]، والله أعلم.

---

(١) قاف: متتبع الأثر، من قفي، واقتفى ، إذا تتبع.
(٢) حطمة: أكول.
(٣) الحديث في «كنز العمال»، برقم (١/ ٦٨٩، ٨١٢).

(سورة الفيل، مكية، وهى خمس آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ كيف فى موضع نصب بفعل لا بـ «ألم تر» تر لما فى كيف من معنى الاستفهام، والجملة سدت مسد مفعولى تر، وفى ألم تر تعجيب أى عجب الله نبيه من كفر العرب وقد شاهدت هذه العظمة من آيات الله، والمعنى إنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترا فقامت لك مقام المشاهدة ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ روى أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشى بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجل من كنانة فقعد[1] فيها ليلا فأغضبه ذلك، وقيل: أججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها فحلف لَيَهْدِمَنَّ الكعبة فخرج بالحبشة، ومعه فيل اسمه محمود، وكان قويا عظميا واثنا عشر فيلا غيره، فلما بلغ المغمس[2] خرج إليه عبدالمطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبى جيشه وقدم الفيل، وكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح وإذا وجهوه إلى اليمن هرول، وأرسل الله طيرا مع كل طائر حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففروا وهلكوا، وما مات أبرهة حتى انصدع صدره فى قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشى فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بن يديه، وروى أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتى بعير فخرج إليه فيها فعظم فى عينه وكان رجلا جسيما وسيما وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذى يطعم الناس فى السهل والوحوش فى رءوس الجبال، فلما ذكر حاجته قال: سقطت فى عينى جئت لأهدم البيت الذى هو دينك ودين آبائك وشرفكم فى قديم الدهر فألهاك عنه ذود أخذلك فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه.

●● ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ فى تضييع وإبطال يقال ضلل كيده إذا جعله ضالا ضائعا، وقيل لأمرىء القيس[3] الملك الضليل؛ لأنه ضلل ملك أبيه أى ضيعه، يعنى أنهم كادوا البيت أولا ببناء القليس ليصرفوا وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه، وكادوه ثانيا بإرادة هدمه فضلل كيدهم بإرسال الطير عليهم ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾حزائف[4] الواحدة إبالة قال الزجاج: جماعات من ههنا وجماعات من ههنا ﴿ترميهم﴾ وقرأ أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ يرميهم أى الله، أو الطير، لأنه اسم جمع مذكر، وإنما يؤنث على المعنى ﴿بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ هو معربٌ من سنككل وعليه الجمهور أى الآجرّ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ زرع أكلهُ الدود.

---

(١) قعد فيها: تعبير يدل على قضاء الحاجة، وهذا من الأدب فى الكلام.
(٢) المغمس: مكان قرب مكة، فى طريق الطائف. معجم البلدان (٥ / ١٨٨).
(٣) هو الشاعر الجاهلى العملاق؛ امرؤ القيس بن حجر بن الحارث، الكندي، من أشهر شعراء العرب على الإطلاق، قال فى معظم أغراض الشعر، وأكثر من شعر الفحش والمجون، والغزل الفاحش، مشتهر جداً. الأعلام (٢ / ١١).
(٤) حزائف : طوائف وجماعات.

(سورة قريش، مكية، وهى أربع آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: فليعبدوا، أمرهم إن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين ودخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الشرط أى: إن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نسمة ظاهرة، أو بما قبله أى: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش يعنى أن ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف ، وهذا كالتضمين فى الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله تعلقا لا يصح إلا به وهما فى مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل، ويروى عن الكسائى ترك التسمية بينهما، والمعنى أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيحترموهم فضل احترام حتى يتنظم لهم الأمن فى رحلتيهم فلا يجترىء أحد عليهم ، وقيل: المعنى اعجبوا لإيلاف قريش، لإلاف قريش شامي، أى لمؤالفة قريش وقيل: يقال ألفته ألفا وإلافا، وقريش ولد النضر بن كنانة سموه بتصغير القرش وهو دابة عظيمة فى البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار، والتصغير للتعظيم فسموه بذلك لشدتهم ومنعتهم تشبيها بها، وقيل من القرش ، وهو الجمع والكسب، لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد ﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أطلق الإيلاف ، ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيما لأمر الإيلاف، وتذكيرا لعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به وأراد رحلتى الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس، وكانت لقريش رحلتان يرحلون فى الشتاء إلى اليمن، وفى الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون، وكانوا فى رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله فلا يتعرض لهم وغيرهم يغار عليهم.

●● ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ والتنكير فى جوع وخوف لشدتهما يعنى أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف فى بلدهم ومسايرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وقيل ذلك كله بدعاء إبراهيم، عليه السلام .

(سورة الماعون، مكية، وهى سبع آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أى: هل عرفت الذى يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه﴿فَذَلِكَ الَّذِي﴾ يكذب بالجزاء هو الذى ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أى يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى ويرده ردا قبيحا بزجر وخشونة﴿وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف أى: لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشى الله وعقابه ولم يقدم على ذلك فحين أقدم عليه دل أنه مكذب بالجزاء، ثم وصل به قوله.

●● ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعنى بهذا المنافقين لا يصلونها سرا، لأنهم لا يعتقدون وجوبها ويصلونها علانية رياء وقيل: فويل للمنافقين الذين يدخلون أنفسهم فى جملة المصلين صورة، وهم غافلون عن صلاتهم وأنهم لا يريدون بها قربة إلى ربهم ولا تأدية للفرض فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا يفعلون، ويظهرون للناس أنهم يؤدون الفرائض ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة ، وعن أنس والحسن قالا: الحمد لله الذى قال: عن صلاتهم ولم يقل فى صلاتهم، لأن معنى عن أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ذلك فعل المنافقين، ومعنى فى أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان، أو حديث نفس وذلك لا يخلو عنه مسلم، وكان رسول الله (ﷺ) يقع له السهو فى صلاته فضلا عن غيره. والمراءاة مفاعلة من الإراءة لأن الرائى يرائى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به، ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار الفرائض فمن حقها الإعلان بها لقوله (ﷺ): ولا غمة فى فرائض الله، والإخفاء فى التطوع أولى فإن أظهر قاصداً للاقتداء به كان جميلا، والماعون: الزكاة وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ما يتعاور فى العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها ، وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ : الماء والنار والملح، والله أعلم.

(سورة الكوثر، مكية، وهى ثلاث آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو فوعل من الكثرة، وهو المفرط الكثرة، وقيل: هو نهر فى الجنة أحلى من العسل، وأشد بياضا من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد، حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو الخير الكثير، فقيل له إن ناسا يقولون هو نهر فى الجنة فقال هو من الخير الكثير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فاعبد ربك الذى أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق مراغما لقومك الذين يعبدون غير الله ﴿وَانْحَرْ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفا

لعبدة الأوثان فى النحر لها ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أى: من أبغضك من قومك بمخالفتك لهم﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾ المنقطع عن كل خير لا أنت؛ لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر؛ يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك، ولك فى الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف فمثلك لا يقال له أبتر، إنما الأبتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة، وقيل نزلت فى العاص بن وائل سماه الأبتر، والأبتر الذى لا عقب له، وهو خبر إن وهو فصل.

(سورة الكافرين، مكية، وهى ست آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله أنهم لا يؤمنون، روى أن رهطا من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا نتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره، قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم فآيسوا ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أى: لست فى حالى هذه عابدا ما تعبدون ﴿وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ﴾ الساعة ﴿مَا أَعْبُدُ﴾ يعنى الله ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ ولا أعبد فيما أستقبل من الزمان ما عبدتم ﴿وَلا أَنتُمْ﴾ فيما تستقبلون﴿عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وذكر بلفظ ما؛ لأن المراد به الصفة أى: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، أو ذكر بلفظ ما ليتقابل اللفظان ولم يصح فى الأول من وصح فى الثانى ما بمعنى الذى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لكم شرككم ولى توحيدي، وبفتح الياء نافع وحفص، وروى أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ دخل المسجد والنبى (ﷺ) جالس فقال له: نابذ يا ابن مسعود فقرأ: «قل يا أيها الكافرون»، ثم قال له فى الركعة الثانية: أخلص: فقرأ: «قل هو الله أحد» فلما سلم، قال: يا ابن مسعود سل تجب[1]، والله أعلم.

(سورة النصر، مدنية، وهى ثلاث آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿إِذَا﴾ منصوب بسبح وهو لما يستقبل والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة، وروى أنها نزلت فى أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ النصر الإغاثة والإظهار على العدو والفتح فتح البلاد، والمعنى نصر رسول الله (ﷺ) على العرب، أو على قريش وفتح مكة، أو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ هو حال من الناس على

---

(١) لم أجده فيما بين يدى من كتب الحديث.

أن رأيت بمعنى أبصرت، أو عرفت، أو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت﴿فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ هو حال من فاعل يدخلون وجواب إذا فسبح أى إذا جاء نصر الله إياك على من ناواك وفتح البلاد ورأيت أهل اليمن يدخلون فى ملة الإسلام جماعات كثيرة بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله حامداً له، أو فصل له﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ تواضعا وهضما للنفس، أو دم على الاستغفار﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ ولم يزل﴿تَوَّابًا﴾ التوَّاب: الكثير القبول للتوبة وفى صفة العباد الكثير الفعل للتوبة، ويروى أن عمر - رضى الله عنه - لما سمعها بكى وقال: الكمال دليل الزوال، وعاش رسول الله (ﷺ) بعدها سنتين ، والله أعلم.

(سورة أبى لهب، مكية، وهى خمس آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ التباب: الهلاك، ومنه قولهم أشابة أم تابة أى هالكة من الهرم، والمعنى هلكت يداه لأنه فيما يروى أخذ حجرا ليرمى به رسول الله (ﷺ) ﴿وَتَبَّ﴾ وهلك كله أو جعلت يداه هالكتين، والمراد هلاك جملته كقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾(١) ومعنى وتب كان ذلك وحصل، كقوله:

جزانى جزاه الله شر جزائه   جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقد دلت عليه قراءة ابن مسعود - رضى الله عنه - : وقد تبَّ، روى أنه لما نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(٢) رقى الصفا وقال: يا صباحاه فاستجمع إليه الناس من كل أوب. فقال - عليه الصلاة و السلام - : يا بنى عبدالمطلب، يا بنى فهر إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقي؟!. قالوا: نعم. قال. «فإنى نذير لكم بين يدى الساعة» فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا دعوتنا فنزلت، وإنما كناه والتكنية تكرمة لاشتهاره بها دون الاسم أو لكراهة اسمه فاسمه عبدالعزى أو لأن مآله إلى نار ذات لهب فوافقت حاله كنيته، أبى لَهْب مكي.

●● ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ ما للنفى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مرفوع وما موصولة أو مصدرية أى ومكسوبه أو وكسبه أى لم ينفعه ماله الذى ورثه من أبيه، أو الذى كسبه بنفسه أو ماله التالد والطارف، وعن ابن عباش - رضى الله عنهما - ما كسب ولده. وروى أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن أخى حقا فأنا أفتدى منه نفسى بمالى وولدي.

●● ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ سيدخل سيصلى البرجمى عن أبى بكر والسين للوعيد أى هو كائن لا

---

(١) سورة «الحج» ، الآية (١٠).

(٢) سورة «الشعراء» ، الآية (٢١٤).

محـالة وإن تراخي وقـته ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ توقـد ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ هى أم جـميل بـنت حرب أخـت أبى سفيان﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل فى طريق رسول الله (ﷺ) وقيل: كانت تمشى بالنميمة فتشعل نار الـعداوة بين الناس ونصب عاصم حمالة الحطب على الشتم وأنا أحـب هذه القراءة وقد توسل إلى رسـول الله (ﷺ) بجميل من أحب شتـم أم جميل. وعلى هذا يسوغ الوقف على امرأته، لأنها عطفت علـى الضمير فى سيصلى أى سيصلى هو وامرأته والتقدير أعنى حمالة الحطب، وغيره رفع حمالة الحطب على أنها خبر، وامرأته، أو هى حمالة.

●● ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ حال ، أو خبر آخر، والمسد الذى فتـل من الحبال فتلا شديدا من ليف كان أو جلد، أو غيرهما والمعنى فى جيدهـا حبل من مسد الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابـون تحقيرا لها وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات لتجزع مـن ذلك، ويجزع بعلهـا وهما فى بيت الـعز والشرف وفى منصـب الثروة والجدة ، والله أعلم.

(سورة الإخلاص، مكية، عند الجمهور، وقيـل) مـدنـيـة عـنـد أهل البصرة وهى أربع آيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو ضمير الشأن والله أحد هو الشأن كقولك هو زيد منطلق، كأنه قيل: الشأن هذا وهو أن الله أحد لا ثانى له ، ومحل هو الرفع على الابتداء والخبر هو الجملة ولا يحتاج إلى الراجع، لأنـه فى حكم المفرد فـى قولك زيد غلامك فى أنـه هو المبتدأ فى الـمعني، وذلك أن قوله: «الله أحد» هو الشأن الذى عبارة عنه وليس كذلك زيد أبوه منطلق فإن زيدا، أو الجملة بدلان على معنيين مختلفين فلابد مما يصل بينهما.

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : قالت قريش: يـا محمد صف لنا ربك الذى تدعونا إليه فنزلت، يعنـى: الذى سألتمونى وصفه هو الله تـعالى وعلى هذا أحد خبر مبـتدأ محذوف أى هو أحد، وهو بمعنى واحد وأصله وحد فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفا.

والدليل على أنـه واحد من جهة العقل أن الواحد إما أن يـكون فى تدبير العالم وتخلـيقه كافيا أولا فإن كان كافيا كان الآخر ضائعا غير محتاج إليه، وذلك نقص والناقص لا يكون إلها وإن لم يكن كافيا فهو ناقص ، ولأن العقل يقتضى احتياج المفعول إلى فاعل والفاعل الواحد كاف وما وراء الواحد فلـيس عدد أولى من عدد فيـفضى ذلك إلى وجود أعـداد لا نهاية لها وذا محـال: فالقول بوجود إلهين محال، ولأن أحدهما إما أن يقدر على أن يـستر شيئا من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر

فإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلا وإن لم يقدر لزم كونه عاجزا، وإنا لو فرضنا معدوما ممكن الوجود فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزا، والعاجز لا يكون إلها، وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلها وإن قدرا جميعا فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا إلى إعانة الآخر فيكون كل واحد منهما عاجزا، وإن قدر كل واحد منهما على إيجاده بالاستقلال، فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثانى قادراً عليه، وهو محال، لأن إيجاد الموجود محال وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول مزيلا قدرة الثانى فيكون عاجزا ومقهورا تحت تصرفه فلا يكون إلها فإن قلت الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد زالت قدرته فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزا، قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزا، وأما الشريك فما نفذت قدرته بل زالت قدرته بسبب قدرة الآخر فكان ذلك تعجيز.

●● **﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾** هو فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده وهو السيد المصمود إليه فى الحوائج ، والمعنى هو الله الذى تعرفونه وتقرون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم وهو واحد لا شريك له، وهو الذى يصمد إليه كل مخلوق ولا يستغنون عنه، وهو الغنى عنهم.

●● **﴿لَمْ يَلِدْ﴾** لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا وقد دل على هذا المعنى بقوله: **﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾**(١) **﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾** لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده إذ لو لم يكن قديما لكان حادثا لعدم الواسطة بينهما ولو كان حادثا لافتقر إلى محدث، وكذا الثانى والثالث فيؤدى إلى التسلسل وهو باطل وليس بجسم، لأنه اسم للمتركب ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كل جزء منه بصفات الكمال فيكون كل جزء إلها فيفسد القول به كما فسد بإلهين أو غيره متصف بها بل بأضدادها من سمات الحدوث، وهو محال.

●● **﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾** ولم يكافئه أحد، أى لم يماثله، سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوى على صفاته تعالى، فقوله: هو الله إشارة إلى أنه خالق الأشياء وفاطرها، وفى طى ذلك وصفة بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعى القدرة والعلم لكونه واقعا على غاية إحكام واتساق وانتظام، وفى ذلك وصفه بأنه حى؛ لأن المتصف بالقدرة والعلم لابد وأن يكون حيا، وفى ذلك وصفه بأنه سميع بصير مريد متكلم إلى غير ذلك من صفات الكمال؛ إذ لو لم يكن موصوفا بها لكان موصوفا بأضدادها وهى نقائض وذا من أمارات الحدوث فيستحيل اتصاف القديم بها، وقوله: «أحد» وصف بالوحدانية ونفى الشريك وبأنه المتفرد بإيجاد المعدومات والمتوحد بعلم الخفيات، وقوله: «الصمد» وصف بأنه ليس إلا محتاجا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه فهو غنى لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد، وقوله: «لم يلد» نفى للشبه والمجانسة، وقوله: «ولم يولد» نفى للحدوث ووصف بالقدم والأولية، وقوله: «ولم يكن له كفوا أحد» نفى أن يماثله شيء ومن زعم

(١) سورة «الأنعام» ، الآية (١٠١).

أن نفى الكفء، وهو المثل فى الماضى لا يدل على نفيه للحال والكفار يدعونه فى الحال فقد تاه فى غيه، لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن فى الحال ضرورة إذ الحادث لا يكون كفؤا للقديم، وحاصل كلام الكفرة يئول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل والسورة تدفع الكل كما قررنا، واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقرا أى خبرا، لأنه لما كان محتاجا إليه قدم ليعلم من أول الأمر أنه خبر لا فضلة وتأخيره إذا كان لغوا أى فضلة؛ لأن التأخير مستحق للفضلات، وإنما قدم فى الكلام الأفصح، لأن الكلام سيق لنفى المكافأة عن ذات البارىء سبحانه وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان الأهم تقديمه، وكان أبو عمرو يستحب الوقف على أحد ولا يستحب الوصل، قال عبدالوارث [1] على هذا أدركنا القراء وإذا وصل نوَّن وكسر، أو حذف التنوين كقراءة: «عزيزُ ابن الله»، كفؤا بسكون الفاء والهمزة حمزة وخلف كفُواً مثقلة غير مهموزة. حفص. الباقون مثقلة مهموزة.

وفى الحديث: من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن[2]، لأن القرآن يشتمل على توحيد الله وذكر صفاته وعلى الأوامر والنواهى وعلى القصص والمواعظ وهذه الصورة قد تجردت للتوحيد والصفات فقد تضمنت ثلث القرآن، وفيه دليل شرف علم التوحيد وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم ويتضع بضعته ومعلوم هذا العلم هوالله وصفاته، وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله.

اللهم احشرنا فى زمرة العالمين بك العاملين لك، الراجين لثوابك، الخائفين من عقابك، المكرمين بلقائك، وسمع رسول الله (ﷺ) رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال: «وجبت». فقيل: يا رسول الله ما وجبت؟ قال: وجبت له الجنة[3].

---

(١) هو: عبد الوارث بن سعيد بن ذكوان، التميمي، العنبري، مولاهم، التنوري، أبو عبيدة البصري، أحد الأعلام، كان إماماً فى الحديث، رواياً ، متقناً، ثقة، إلا إنه كان يرى القدر، ولهذا مدحه العلماء، وعابوا عليه ذلك، قال ابن معين: «ثقة»، إلا إنه كان يرى القدر، توفى عام ١٨٠هـ، وهو يناهز الثمانين. تهذيب التهذيب (٣/ ٥٢٥، ٥٢٦).

(٢) الحديث فى «كنز العمال» ، برقم (١ / ٢٦٥٥، ٢٧٣٤).

(٣) الحديث عند الترمذى والنسائى والحاكم، من حديث أبى هريرة.

(سورة الفلق، مختلف فيها، وهى خمس آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

●● ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أى: الصبح، أو الخلق أو هو واد فى جهنم، أوجبٌ فيها.

●● ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أى: النار أو الشيطان. وما موصولة ، والعائد محذوف، أو مصدرية، ويكون الخلق بمعنى المخلوق، وقرأ أبو حنيفة - رضى الله عنه - من شر بالتنوين وما على هذا مع الفعل بتأويل المصدر فى موضع الجر بدل من شر أى شر خلقه أى من خلق شر أو زائدة.

●● ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه، ووقوبه دخول ظلامه فى كل شيء، وعن عائشة - رضى الله عنها - أخذ رسول الله (ﷺ) بيدى فأشار إلى القمر قال: «تعوذى بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب»[1] ووقوبه دخوله فى الكسوف واسوداده .

●● ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ النفاثات: النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها ويرقين، والنفث: النفخ مع ريق وهو دليل على بطلان قول المعتزلة فى إنكار تحقق السحر وظهور أثره.

●● ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أى إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه؛ لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على من حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره، وهو الأسف على الخير عند الغير والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها، وهو أول ذنب عصى الله به فى السماء من إبليس وفى الأرض من قابيل ، وإنما عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه، لأن كل نفاثة شريرة فلذا عرفت النفاثات، ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون فى بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر، ورب حسد يكون محمودا كالحسد فى الخيرات، والله أعلم.

---

(١) الحديث عند الترمذى والنسائى والحاكم وأحمد وغيرهم، من حديث عائشة.

(سورة الناس، مختلف فيها، وهى ست آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

•• ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ أى: مربيهم ومصلحهم.

•• ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم.

•• ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ معبودهم ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرة واحدة، لأن قوله: «ملك الناس إله الناس» عطف بيان لرب الناس، لأنه يقال لغيره رب الناس وملك الناس وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه وعطف البيان للبيان فكأنه مظنة للإظهار دون الإضمار، وإنما أضيف الرب إلى الناس خاصة، وإن كان رب كل مخلوق تشريفا لهم، ولأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس فى صدور الناس، فكأنه، قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذى يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم، وقيل: أراد بالأول الأطفال، ومعنى الربوبية يدل عليه، وبالثانى الشبان ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه، وبالثالث الشيوخ، ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه، وبالرابع الصالحين إذ الشيطان مولع بإغوائهم، وبالخامس المفسدين لعطفه على المعوذ منه.

•• ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فوسواس بالكسر كالزلزال، والمراد به الشيطان، سمى بالمصدر كأنه وسوسة فى نفسه، لأنها شغله الذى هو عاكف عليه أو أريد ذو الوسواس والوسوسة الصوت الخفى ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذى عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس، وهو التأخر كالعواج والبتات لما روى عن سعيد بن جبير إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولي، وإذا غفل رجع ووسوس إليه.

•• ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فى محل الجر على الصفة أو الرفع أو النصب على الشتم، وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على الخناس.

•• ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان للذى يوسوس على أن الشيطان ضربان جنى وإنسى كما قال ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾(١) وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أنه قال لرجل: هل تعوذت بالله من شيطان الإنس.

روى أنه ـ عليه السلام ـ سحرا فمرض فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدهما لصاحبه: ما باله. فقالك طُبَّ. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودى. قال: وبم طبه: قال: بمشط ومشاطة فى جف طلعة تحت راعوفة فى بئر ذى أروان، فانتبه (ﷺ) فبعث زبيرا وعليا وعمارا ـ رضى الله عنهم ـ فنزحوا ماء البئر وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه، وإذا فيه وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر فنزلت هاتان السورتان فكلما قرأ جبريل آية انحلت عقدة حتى

(١) سورة «الأنعام»، الآية (١١٢).

قام (ﷺ) عند انحلال العقدة الأخيرة، كأنما نشط من عقال، وجعل جبريل يقول: باسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء يؤذيك(١) ولهذا جوز الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله ـ عليه السلام ـ لا بما كان بالسريانية والعبرانية والهندية فإنه لا يحل اعتقاده والاعتماد عليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا ومن شر ما عملنا وما لم نعمل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيه، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الأنام وأصحابه مفاتيح دار السلام، صلاة دائمة ما دامت الليالى والأيام.

تم بحمد الله وتوفيقه الانتهاء من الكتاب

(١) لم أجده فى كتب الحديث المعتبرة ، لكن له شواهد فى الصحيحين.

فهارس الجزء الأول

أولاً : فهرس الأعلام.

ثانيا: فهرس الأماكن والبلدان.

ثالثاً: فهرس الفرق والملل.

رابعاً: فهرس المحتويات.

أولاً: فهرس الأعلام

م	العلم	رقم الصفحة	م	العلم	رقم الصفحة
	حرف «الألف»			**حرف «الحاء»**	
١	إبراهيم بن أدهم	٤٨	٢١	الحارث بن زيد	١٥٤
٢	إبراهيم بن السرى = الزجاج	٨	٢٢	حذيفة بن اليمان	١٦٤
٣	إبراهيم بن يزيد = النخعى	٢٠٢	٢٣	الحسن البصرى	١١
٤	أبى بن كعب	٤٦	٢٤	الحسين بن الفضل	٨
٥	أحمد بن الحسين النيسابورى	٦	٢٥	حفص بن سليمان	١٦
٦	أحمد بن على = أبو بكر الرازى	٤٣	٢٦	حفصة بنت عمر بن الخطاب	٩٨
٧	أحمد بن محمد بن إبراهيم = الثعلبى	١٣٤	٢٧	حمزة بن حبيب = الزيات	١٢
			٢٨	حيى بن أخطب النضرى	١٦٧
٨	الأخنس بن شريق	١٠٨		**حرف «الخاء»**	
٩	أسامة بن زيد	٢٤٤	٢٩	الخليل بن أحمد	٨
١٠	إسماعيل بن شعيب	٢٣		**حرف «الدال»**	
١١	إسماعيل بن عبدالرحمن	٦٥	٣٠	داود بن على	٢١٩
١٢	امرؤ القيس	١٢	٣١	دحية بن خليفة	٣٠٨
١٣	أنس بن مالك	٣٥		**حرف «الراء»**	
١٤	الأيهم = السيد	١٤٧	٣٢	رؤبة بن العجاج	٥٩
	حرف «الباء»			**حرف «الزاى»**	
١٥	بلال بن رباح، التيمى	٣١٧	٣٣	الزبير بن العوام	١٨٢
	حرف «الثاء»		٣٤	زفر	٢٤٨
١٦	ثابت بن الدحداح = أبو الدحداح	١١٥	٣٥	زيد بن سهل	١٩١
			٣٦	زيد بن عمرو	٢٣٩
١٧	ثابن بن قيس	١١٩		**حرف «السين»**	
١٨	ثوبان بن إبراهيم = ذو النون	١٩٤	٣٧	سعد بن أبى وقاص	١٩٢
	حرف «الجيم»		٣٨	سعيد بن جبير	١٢٤
١٩	جابر بن عبدالله	١٨١	٣٩	سعيد بن مسعدة = الأخفش	٣١
٢٠	جعفر بن محمد = جعفر الصادق	٢٠٥	٤٠	سفيان الثوري	١٨٥
			٤١	سفيان بن عيينة	١٨٤

م	العلم	رقم الصفحة
٤٢	سليمان بن مهران = الأعمش	٦٢
٤٣	سهل بن محمد = أبو حاتم السجستاني	١٥٢
	حرف «الشين»	
٤٤	شريح بن يزيد = أبو حيوة	١٨٢
٤٥	شريح بن يزيد الحضرمي	١٢٥
٤٦	شعبة بن عياش = أبو بكر	٩٢
	حرف «الصاد»	
٤٧	صخر بن حرب = أبو سفيان	١٠
٤٨	صفوان بن أمية	١٠
٤٩	صهيب بن سنان	١٠٩
	حرف «الضاء»	
٥٠	ضابيء بن الحارث «هامش»	٢٩٠
٥١	الضحاك بن ميمون	١٨٢
	حرف «الطاء»	
٥٢	طلحة بن عبيدالله	١٩٢
	حرف «العين»	
٥٣	عائشة بنت أبى بكر	٤٠
٥٤	عاصم ابن بهدلة	١٠
٥٥	عامر بن عبدالله العنبرى	٢٧٧
٥٦	عبدالحميد بن صالح	١٥٣
٥٧	عبدالرحمن بن صخر = أبو هريرة	٦
٥٨	عبدالرحمن بن عوف	١٩٢
٥٩	عبدالعزى بن عبدالمطلب = أبو لهب	٢١
٦٠	عبدالعزيز بن أحمد = شمس الأئمة	١٤٥
٦١	عبدالله بن أبى = ابن سلول	١٨١
٦٢	عبدالله بن جبير = الصحابي	١٩٠
٦٣	عبدالله بن جبير الهاشمى = القارىء	١٦٩
٦٤	عبدالله بن ذكوان	٩٨
٦٥	عبدالله بن سلام	١٩
٦٦	عبدالله بن سعد بن أبى السراح	٣٢٥
٦٧	عبدالله بن صوريا	٦٩
٦٨	عبدالله بن عامر اليحصبى	٧٦
٦٩	عبدالله بن عباس	٥
٧٠	عبدالله بن عمر بن الخطاب	٧٥
٧١	عبدالله بن عمرو بن العاص	٤٠
٧٢	عبدالله بن كثير	١٢
٧٣	عبدالله بن مسعود	١٤
٧٤	عبدالمسيح = العاقب	١٤٨
٧٥	عبيدالله بن الحسين = الكرخى	٤٣
٧٦	عتبان بن مالك	١١٣
٧٧	عثمان سعيد	٢٤
٧٨	عثمان بن سعيد = ورش	٤٤
٧٩	عثمان بن عفان	٦٣
٨٠	عدى بن حاتم الطائى	١٠١
٨١	عطاء بن أبي رباح	٢٧٠
٨٢	عكرمة بن عبدالله	٥٤
٨٣	علقمة بن قيس	٣٢
٨٤	على بن أبى طالب	١٨٩
٨٥	على بن الحسين بن واقد	٢٦٣
٨٦	على بن حمزة	١٠
٨٧	على بن محمد الشيبانى = صاحب اللباب	١٧٠
٨٨	عمار بن ياسر	١١٠
٨٩	عُمر بن الخطاب	٨٦
٩٠	عمر بن عبدالعزيز	٧
٩١	عمرو بن بحر = الجاحظ	٤٦
٩٢	عمرو بن الجموح	١١١
٩٣	عمرو بن عثمان = سيبويه	١١
٩٤	عمرو بن هشام = أبو جهل	٢١

م	العلم	رقم الصفحة
٩٥	عناق	١١٥
٩٦	عيسى بن عبدالعزيز	١٨٣
٩٧	عيسى بن مينا = قالون	١٠٠
	حرف «الفاء»	
٩٨	فرقد بن يعقوب	٢٩٥
	حرف «القاف»	
٩٩	قتادة بن دعامة	٤٦
١٠٠	قثم بن العباس	
١٠١	قس بن ساعدة	٢٣٩
١٠٢	ابن قميئة	١٨٨
	حرف «الكاف»	
١٠٣	كعب بن الأشرف	١٨٨
١٠٤	كناز بن الحصين = مرثد	١١٥
	حرف «الميم»	
١٠٥	مالك بن أنس الأصبحى	٩٠
١٠٦	مالك بن الصيف	١٦٨
١٠٧	مالك بن دينار	٣٣١
١٠٨	مجاهد بن جبر	٢٢
١٠٩	محمد بن أحمد بن الأزهر	٩٦
١١٠	محمد بن إدريس = الشافعى	٦
١١١	محمد بن الجنيد	١٥٩
١١٢	محمد بن الحسن بن فرقد	٨
١١٣	محمد بن الحسن	٢٤٨
١١٤	محمد بن زيد = الواسطى	١٧١
١١٥	محمد بن السائب	١٨٢
١١٦	محمد ابن سيرين	٣٠
١١٧	محمد بن صبيح بن السماك	٣٢٤
١١٨	محمد بن عبد الرحمن = ابن أبى ليلى	١٢٢
١١٩	محمد بن على بن أبى طالب = ابن الحنفية	١٦٧
١٢٠	محمد بن عمر = أبو بكر الوراق	١٧١
١٢١	محمد بن غالب	١٤١
١٢٢	محمد بن المستنير= قطرب	٣٣
١٢٣	محمد بن يزيد الثمالى = المبرد	٩٦
١٢٤	مسيلمة الكذاب	٩
١٢٥	مصعب بن عمير	١٨٧
١٢٦	معاذ بن جبل	١٠٢
١٢٧	معقل بن يسار	١٢١
١٢٨	معمر بن المثنى	٥٩
١٢٩	المفضل بن محمد	١٣١
١٣٠	مقاتل بن سليمان	٣١٣
١٣١	مكي بن أبى طالب	١٦
	حرف «النون»	
١٣٢	نافع بن عبدالرحمن	١٦
١٣٣	النعمان بن ثابت = أبو حنيفة	٥
١٣٤	نعيم بن مسعود الأشجعى	١٩٧
١٣٥	النصر بن الحارث بن علقمة	٣٢٦
	حرف «الهاء»	
١٣٦	هبيرة بن محمد بن التمار	١٣٩
١٣٧	هلال بن يحيى = صاحب الوقوف	٢٤
	حرف «الواو»	
١٣٨	واصل بن عطاء	١٥٨
	حرف «الياء»	
١٣٩	يحيى بن زياد = الفراء	٣٦
١٤٠	يزيد بن القعقاع	١٣٩
١٤١	عقوب بن إبراهيم = أبو يوسف	٣٨
١٤٢	يعقوب بن إسحاق	٤٩
١٤٣	يعقوب بن محمد = الأعشى	١٣٩

ثانياً: فهرس الأماكن والبلدان

م	المكان	رقم الصفحة
١	أريحا	٢٧٢
٢	إيلياء	٢٥٩
٣	بنو مليح	٣٢٦
٤	جمع المزدلفة	١٠٧
٥	الحديبية	١٠٤
٦	واسط	١٢٦

ثالثاً: فهرس الفرق والملل

م	المكان	رقم الصفحة
١	الأسلميون	٢٤٢
٢	الباطنية	٢٠٠
٣	الخوارج	٤٧
٤	الكرامية	٢٣
٥	المرجئة	١٨٤
٦	المعتزلة	٩
٧	المعطلة	٧٤
٨	الملكانية	٢٧٤
٩	الثنوية	٣٠٦

رابعاً: فهرس المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	تفسير سورة «الفاتحة»	٥
٢	تفسير سورة «البقرة»	١٤
٣	تفسير سورة «آل عمران»	١٤٧
٤	تفسير سورة «النساء»	٢٠٧
٥	تفسير سورة «المائدة»	٢٦٦

أولاً: فهرس الأعلام

م	العلم	رقم الصفحة
	حرف «الألف»	
١	إبراهيم بن يزيد التيمى	٣٤٩
٢	أبو طالب بن عبدالمطلب	٤٥٢
٣	أحمد بن الحسين = أبو الطيب	٥١٧
٤	المتنبى	
٥	أحمد بن على الرازى	٧١٤
٦	أحمد بن محمد بن حنبل	٣٩٤
٧	الأسود بن المطلب	٥٧٦
٨	الأسود بن عبديغوث	٥٧٦
	حرف «الباء»	
٩	بكر بن عبدالله المزنى	٦٩٩
	حرف «الثاء»	
١٠	ثابت بن أسلم البنانى	٣٥١
	حرف «الجيم»	
١١	جبير بن مطعم بن عدى	٤٠٤
١٢	جسر بن عمرو = النخع	٥٤٧
١٣	الجلاس بن سويد	٤٣٥
	حرف «الحاء»	
١٤	الحارث بن قيس بن عدى	٥٧٦
١٥	الحارث بن هشام	٤٠٧
١٦	الحسين بن مسعود البغوى =	٤٦٠
	صاحب المصابيح	
١٧	حمزة بن عبدالمطلب	٤١٢
١٨	حويطب بن عبدالعزي	٥٩٧
	حرف «الخاء»	
١٩	خالد بن صفوان	٦٥٩
٢٠	خباب بن الأرت	٦٤٧
	حرف «الدال»	
٢١	دلف بن جحدر = الشبلى	٣٦٨
	حرف «الراء»	
٢٢	الربيع بن خثيم	٣٦٨

م	العلم	رقم الصفحة
٢٣	الربيع بن سليمان	٦٧٥
	حرف «السين»	
٢٤	سراقة بن مالك بن جعشم	٤٠٧
٢٥	سعد بن عبادة	٣٩٥
٢٦	سعد بن معاذ	٣٩٥
٢٧	سلمان الفارسي	٥٩٧
	سعيد بن أوس	٦٧٧
٢٨	سمية بنت خياط = أم عمار بن	٥٩٨
٢٩	ياسر	
٣٠	سهل بن عبدالله التسترى	٥٣٥
٣١	سهيل بن عمرو	٤١٩
	حرف «الشين»	
٣٢	شقيق بن إبراهيم البلخى	٣٤٩
٣٣	شيبة بن عثمان بن أبى طلحة	٤٢١
	حرف «الصاد»	
٣٤	صالح بن بشير	٦٦٧
	حرف «الضاد»	
٣٥	الضحاك بن مزاحم	٥٠٢
	حرف «العين»	
٣٦	العاص بن هشام = أبو البخترى	٤٠١
٣٧	العاص بن وائل	٥٧٦
٣٨	عاصم بن عدى	٤٣٧
٣٩	عامر بن الحضرمى	٥٩٧
٤٠	عامر بن الطفيل بن جعفر	٥٤١
٤١	عامر بن قيس	٣٣٥
٤٢	عبادة بن الصامت	٣٩٣
٤٣	العباس بن عبدالمطلب	٤١١
٤٤	عبدالرحمن بن عمرو = الأوزاعى	٥٠٥
٤٥	عبدالله بن أحمد الكعبى	٣٧٧
٤٦	عبدالله بن الزبير بن العوام	٥٧٣
٤٧	عباس بن الفضل	٧٠٧

م	العلم	رقم الصفحة
٤٨	عبدالله بن الزعبرى	٧١٨
٤٩	عبدالله بن عبدالله بن أبى	٤٣٧
٥٠	عبدالله بن عثمان = أبو بكر	٣٩٥
٥١	الصديق	
٥٢	عبدالله بن قيس = أبو موسى	٤٤٠
	الأشعري	
٥٣	عبدالله بن المبارك	٣٩٤
٥٤	عبدالله بن محمد = أبو جعفر	٣٧٣
	المنصور	
٥٥	عتاب بن أسيد	٤١٥
٥٦	عتبة بن أبي لهب	٤٩٦
٥٧	عثمان بن مظعون	٥٩٤
٥٨	عروة بن الزبير	٦٩٨
٥٩	عقيل بن أبى طالب	٤١١
٦٠	عكرمة بن أبى جهل	٤١٩
٦١	عمرو بن صيفى = أبو عامر	٤٤٤
	الراهب	
٦٢	عمرو بن عبيد التميمى	٣٧٣
٦٣	عمرو بن عوف	٤٤٤
	حرف «الغين»	
٦٤	غنم بن عوف	٤٤٤
	حرف «الفاء»	
٦٥	الفضيل بن عياض	٤٧٥
٦٦	**حرف «القاف»**	
	القاسم بن أمية = أبو العاص	٤٩٦
٦٧	قتيبة بن مهران	٦٦٦
٦٨	**حرف «الكاف»**	
	كعب بن مالك	٤٤٤
٦٩	كعب بن مانع = كعب الأحبار	٥٢٦
	حرف «اللام»	
٧٠	لبيد بن ربيعة العامرى	٥٤١
	حرف «الميم»	
٧١	محمد بن داود الظاهرى =	٥٠٤
	صاحب الإيجاز	
٧٢	محمد بن صبيح بن السماك	٦٢٦
٧٣	محمد بن عبدالرحمن = قنبل	٤٥٣
٧٤	محمد بن عبدالوهاب الجبائى	٥٢٧
٧٥	محمد بن كعب القرظى	٤٥٨
٧٦	محمد بن مسلم = الزهرى	٤٢٣
٧٧	محمد بن يعقوب الأصم	٣٧٧
٧٨	محمود بن عمر الزمخشرى =	٤٦٠
	صاحب الكشاف	
٧٩	مرارة بن الربيع	٤٤٤
٨٠	مقاتل بن سليمان	٦١٥
٨١	المقداد بن عمرو	٣٩٥
٨٢	الموفق بن أحمد المكى	٥٠٤
	حرف «النون»	
٨٣	النضر بن الحارث	٢٣
٨٤	نجده بن عامر الحروى	٦٤٧
	حرف «الهاء»	
٨٥	هارون الرشيد	٣٥٣
٨٦	هشام بن عمرو	٤٠٢
٨٧	هلال بن أمية	٤٤٤
	حرف «الواو»	
٨٨	الوليد بن المغيرة	٥٧٦
٨٩	وهب بن منبه	٥٣٧
	حرف «الياء»	
٩٠	ياسر بن عامر	٥٩٨
٩١	يحيى بن معاذ	٦٥٤

ثانياً: فهرس الأماكن والبلدان

م	اسم المكان	رقم الصفحة
١	الايله	٦٤٧
٢	جرهر	٦٦٥
٣	طرطوس	٦٣٣
٤	عريش مصر	٥٣٣
٥	أفسوس	٦٣٥
٦	كوثى	٧١٢
٧	كنعان	٥٣٣
٨	مدين	٦٦٥
٩	نينوى	٤٧٥

ثالثاً: فهرس الفرق والملل

م	الفرقة	رقم الصفحة
١	الجهمية	٥٠٣
٢	القدرية	٥٣٦
٣	المشبهة	٣٥٨

رابعاً: فهرس المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	سورة «الأنفال»	٣٩٣
٢	سورة «التوبة»	٤١٥
٣	سورة «يونس»	٤٥٢
٤	سورة «هود»	٤٧٨
٥	سورة «يوسف»	٥٠٨
٦	سورة «الرعد»	٥٣٨
٧	سورة «إبراهيم»	٥٥٠
٨	سورة «الحجر»	٥٦٤
٩	سورة «النحل»	٥٧٧
١٠	سورة «الإسراء»	٦٠٣
١١	سورة «الكهف»	٦٢٩
١٢	سورة «مريم»	٦٥٥
١٣	سورة «طه»	٦٧٦
١٤	سورة «الأنبياء»	٧٠٠

فهارس الجزء الثالث

أولاً : فهرس الأعلام.

ثانيا: فهرس الأماكن والبلدان.

ثالثاً: فهرس الفرق والملل.

رابعاً: فهرس المحتويات.

أولاً: فهرس الأعلام

م	اسم العلم	رقم الصفحة
	حرف «الألف»	
١	إبراهيم بن محمد = نفطوي	٧٢٨
٢	أبي بن خلف	٧٩٢
٣	أحمد بن محمد = الطحاوي	٩٣٨
٤	أحمد بن يحيى = ثعلب	٧٩٦
٥	أسماء بنت عميس	٩٣٦
٦	أميمة بنت عبدالمطلب	٩٣٠
٧	أوس بن حجر	٩٠٥
	حرف «الباء»	
٨	باقل	٨٦٣
	حرف «الجيم»	
٩	جعفر بن أبي طالب	٩٣٦
١٠	جويرية بنت الحارث	٩٣٤
	حرف «الحاء»	
١١	حاتم بن إسحاق	٨٨٤
١٢	حاتم بن عبدالله الطائي	٨٢٨
١٣	حبيب بن أوس	٧٧٢
١٤	حسان بن ثابت	٧٦٢
١٥	الحسين	٩٦٣
١٦	حكيم بن حزام	٩١٩
١٧	حمنة بنت جحش	٧٦٢
١٨	حويطب بن عبدالعزى	٧٧٠
	حرف «الخاء»	
١٩	خالد بن زيد = أبو أيوب	٧٦٣
٢٠	خديجة بنت خويلد	٩١٩
٢١	خولة بنت حكيم	٩٣٤
	حرف «الراء»	
٢٢	الربيع بن أنس	٩٦٦
٢٣	ربيع بن ربيعة = سطيح	٨٢٧

م	اسم العلم	رقم الصفحة
٢٤	رملة بنت أبي سفيان = أم حبيبة	٩٣٥
٢٥	روح بن عبدالمؤمن	٧٢٣
	حرف «الزاي»	
٢٦	زفر بن الهذيل	٧٦١
٢٧	زيد بن أحمد	٧٢٣
٢٨	زيد بن حارثة	٩١٩
٢٩	زيد بن رفاعة	٧٦٢
٣٠	زينب بنت جحش	٩١٩
٣١	زينب بنت خزيمة	٩٣٤
	حرف «السين»	
٣٢	سحبان	٨٦٣
٣٣	السرى بن المغلس = السقطى	٩٠٧
٣٤	سعيد بن زيد	٩٢٦
٣٥	سعيد بن المسيب	٧٨٢
٣٦	سليمان بن عبدالملك	٨٢٨
٣٧	سودة بنت زمعة	٩٣٥
	حرف «الشين»	
٣٨	أم شريك بنت جابر	٩٣٤
٣٩	شريك ابن سحماء	٧٦١
	حرف «الصاد»	
٤٠	صفوان بن المعطل	٧٦١
٤١	صفية بنت حيي بن أخطب	٩٣٤
	حرف «الطاء»	
٤٢	طليحة بن خويلد	٧٢٨
٤٣	طيفور بن عيسى = أبو يزيد البسطامي	٨٢٩
	حرف «العين»	
٤٤	عامر بن شراحبيل	٨٨٧

م	العلم	رقم الصفحة
٤٥	عبدالرحمن بن أحمد = الداراني	٨٩١
٤٦	عبدالله بن جحش	٩٣٠
٤٧	عبدالله بن حبيب = أبو عبدالرحمن السلمي	٩٦٧
٤٨	عبدالله بن رواحة	٨٢٨
٤٩	عبدالملك بن مروان	٨٠١
٥٠	عتبة بن ربيعة	٧٧٥
٥١	عثمان بن المغيرة = الأعشى	٨٨٥
٥٢	عداس	٧٨٦
٥٣	عروة بن مسعود	٨٧٠
٥٤	عقبة بن أبي معيط	٧٩١
٥٥	عمرو بن سفيان = أبو الأعور السلمي	٩١٨
٥٦	عنترة بن شداد	٨٢٨
٥٧	عيسى بن عمر	٧٥٨
٥٨	عيينة بن حصن	٩٢٢
	حرف «الغين»	
٥٩	غيلان بن عقبة = ذو الرمة	٧٤٤
	حرف «الكاف»	
٦٠	كعب بن زهير	٨٢٩
٦١	كعب بن مالك	٨٢٩
	حرف «الميم»	
٦٢	محمد بن حبيب = الشموني	٨٨١
٦٣	محمد بن الحسين = السلمي	٨٧٩
٦٤	محمد بن علي = أبو جعفر الباقر	٨٠٣
٦٥	محمد بن ياسين	٧٢٧
٦٦	أم مسطح	٧٦٢
٦٧	ميمون بن مهران	٨٢٥
٦٨	ميمونة بنت الحارث	٩٣٤
	حرف «النون»	
٦٩	النابغة الذبياني	٨٥١
	حرف «الهاء»	
٧٠	همام بن غالب بن صعصعة = الفرزدق	٨٢٨
٧١	هند بنت أبي أمية = أم سلمة	٩٣٥
	حرف «الياء»	
٧٢	يوسف بن الحسين	٨٥٥

ثانياً: فهرس الأماكن والبلدان

م	اسم البلد	رقم الصفحة
١	اصطخر	٩٤٦
٢	تهامة	٩٢٢
٣	كابل	٩٤٦
٤	نجد	٩٢٢

ثالثاً: فهرس الفرق والملل

م	اسم الفرقة	رقم الصفحة
١	المروانية	٩٢٤

رابعاً: فهرس المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	سورة «الحج»	٧٢١
٢	سورة «المؤمنون»	٧٤١
٣	سورة «النور»	٧٥٨
٤	سورة «الفرقان»	٧٥٨
٥	سورة «الشعراء»	٨٠٥
٦	سورة «النمل»	٨٣٠
٧	سورة «القصص»	٨٥٣
٨	سورة «العنكبوت»	٨٧٦
٩	سورة «الروم»	٨٩٢
١٠	سورة «لقمان»	٩٠٥
١١	سورة «السجدة»	٩١٣
١٢	سورة «الأحزاب»	٩١٨
١٣	سورة «سبأ»	٩٤٣
١٤	سورة «فاطر»	٩١٨

فهارس الجزء الرابع

أولاً : فهرس الأعلام.

ثانيا: فهرس الأماكن والبلدان.

ثالثاً: فهرس الفرق والملل.

رابعاً: فهرس المحتويات.

أولاً: فهرس الأعلام

م	العلم	رقم الصفحة
	حرف (الألف)	
١	الأقرع بن حابس	١١٣٣
٢	إبراهيم بن أحمد = الخواص	١١٨٢
٣	أبو بكر بن الأصم	١٢٤٤
٤	أبو سعيد القرشي	١٠٧٦
٥	أحمد بن إبراهيم = صاحب الكشف	١٢٢١
٦	أحمد بن سليمان = الزبيرى	١٢٠٤
٧	أحمد بن محمد = البزى	١٢٦٠
٨	إسماعيل بن حماد = الجوهرى	١١١٦
٩	إسماعيل بن القاسم = أبو العتاهية	١١٠١
١٠	امرؤ القيس.	١٣٤٦
	حرف (التاء)	
١١	الترمذى	١٠٦١
١٢	تماضر بنت عمرو = الخنساء	١٠٨٥
١٣	تميم بن أوس = تميم الدارى	١١٠٣
١٤	تميم بن مر بن أد	١١٣٣
	حرف (الجيم)	
١٥	جعفر بن حرب	١٢٤٤
	حرف (الخاء)	
١٦	خالد بن الوليد	١١٣٥
١٧	خبيب بن عدى	١٣٢٥
	حرف (الراء)	
١٨	الربيع بن صبيح	١٢٦٤
	حرف (الزاى)	
١٩	زر بن حبيش	١٣٣٩
٢٠	زهير بن أبى سلمى	١١٣٧
٢١	زياد بن معاوية - النابغة	١١٥٩
٢٢	زيد بن أرقم	١٢٢٦
	حرف (السين)	
٢٣	سعد بن عمرو = المصطلق	١١٣٥
٢٤	أبو سعيد القرشى	١٠٧٦
	حرف (الصاد)	
٢٥	صالح بن كيسان	١٣١٨
	حرف (العين)	
٢٦	عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق	١١١١
٢٧	عبدالرحمن بن أحمد = أبو سليمان	١٣٠٩
٢٨	عبدالرحمن بن محمد = شاه الكرمانى	١٢٠٥
٢٩	عبد العزيز بن أبى رواد	١٢٠٦
٣٠	عبدالعزى بن خطل	١٣٢٦
٣١	عبدالله ابن أم مكتوم	١٣٠٢
٣٢	عبدالله بن طاهر	١٠٨٧
٣٣	عبدالملك بن عبدالعزيز = ابن جريج	١٢٥٦
٣٤	عبد الوارث بن سعيد	١٣٥٣
٣٥	عطاء بن السائب	١١٦٦
٣٦	الحسين = زين العابدين	١٢٧٣

م	العلم	رقم الصفحة	م	العلم	رقم الصفحة
	حرف «الميم»			**حرف «الياء»**	
٣٨	محمد بن حامد	١٠٧٤	٤٦	يزيد بن شجرة	١١٣٩
٣٩	محمد بن زكريا = أبو بكر الرازى	١٢٤٦	٤٧	يزيد بن معاوية	١١١١
٤٠	محمد بن عبدالله بن طاهر	١٢٦٠			
٤١	محمد بن مسلمة الأنصارى	١٢٠٧			
٤٢	مروان بن الحكم	١١١١			
٤٣	معاوية بن أبى سفيان	١١١١			
	حرف «الهاء»				
٤٤	هند بنت عتبة	١٢١٨			
	حرف «الواو»				
٤٥	الوليد بن عقبة	١١٣٤			

ثانياً: فهرس الأماكن والبلدان

م	اسم البلد	رقم الصفحة
١	هزيل	١١٦٤
٢	الأنبار	١٢٢٢
٣	أذرعات	١٢٠٧
٤	أريحا	١٢٠٧
٥	الحيرة	١٢٢٢
٦	ضروان	١٢٤٦
٧	المغمس	١٣٤٦
٨	اليمامة	١١٤٣
٩	أسد	١١٢٧
١٠	غطفان	١١٢٧
١١	بنو تميم	١١٣٣
١٢	بنو مصطلق	١١٣٥
١٣	ثقيف	١١٦٤
١٤	كلب	١٢٦٦
١٥	همدان	١٢٦٦
١٦	مزحج	١٢٦٦
١٧	مراد	١٢٦٦
١٨	حمير	١٢٦٦
١٩	ربيعة	١٢٨١
٢٠	مضر	١٢٨١

ثالثاً: فهرس الفرق والملل

م	اسم الفرقة	رقم الصفحة
١	الدهرية	٩٢٢٩
٢	الشمعونية	١٠٨٩
٣	بنو حنيفة	١٠٥٦

رابعاً: فهرس المحتويات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	سورة «فصلت»	١٠٥٥
٢	سورة «الشورى»	١٠٦٦
٣	سورة «الزخرف»	١٠٧٩
٤	سورة «الدخان»	١٠٩٣
٥	سورة «الجاثية»	١١٠٠
٦	سورة «الأحقاف»	١١٠٧
٧	سورة «محمد»	١١١٦
٨	سورة «الفتح»	١١٢٣
٩	سورة «الحجرات»	١١٣٢
١٠	سورة «ق»	١١٤٢
١١	سورة «الذاريات»	١١٤٩
١٢	سورة «الطور»	١١٥٧
١٣	سورة «النجم»	١١٦٢
١٤	سورة «القمر»	١١٧٠
١٥	سورة «الرحمن»	١١٧٦
١٦	سورة «الواقعة»	١١٨٤
١٧	سورة «الحديد»	١١٩٢
١٨	سورة «المجادلة»	١٢٠٠
١٩	سورة «الحشر»	١٢٠٧
٢٠	سورة «الممتحنة»	١٢١٤
٢١	سورة «الصف»	١٢١٩
٢٢	سورة «الجمعة»	١٢٢٢
٢٣	سورة «المنافقون»	١٢٢٥
٢٤	سورة «التغابن»	١٢٢٩
٢٥	سورة «الطلاق»	١٢٣٣
٢٦	سورة «التحريم»	١٢٣٨
٢٧	سورة «الملك»	١٢٤٢
٢٨	سورة «القلم»	١٢٤٧
٢٩	سورة «الحاقة»	١٢٥٤
٣٠	سورة «المعارج»	١٢٥٩
٣١	سورة «نوح»	١٢٦٣
٣٢	سورة «الجن»	١٢٦٨
٣٣	سورة «المزمل»	١٢٧٣
٣٤	سورة «المدثر»	١٢٧٧
٣٥	سورة «القيامة»	١٢٨٣
٣٦	سورة «الإنسان»	١٢٨٦
٣٧	سورة «المرسلات»	١٢٩١
٣٨	سورة «النبأ»	١٢٩٤
٣٩	سورة «النازعات»	١٢٩٨
٤٠	سورة «عبس»	١٣٠٢
٤١	سورة «التكوير»	١٣٠٤
٤٢	سورة «الانفطار»	١٣٠٧
٤٣	سورة «المطففين»	١٣٠٨
٤٤	سورة «الإنشقاق»	١٣١١
٤٥	سورة «البروج»	١٣١٣
٤٦	سورة «الطارق»	١٣١٦
٤٧	سورة «الأعلى»	١٣١٨
٤٨	سورة «الغاشية»	١٣٢٠
٤٩	سورة «الفجر»	١٣٢٢
٥٠	سورة «البلد»	١٣٢٦
٥١	سورة «الشمس»	١٣٢٨
٥٢	سورة «الليل»	١٣٣٠
٥٣	سورة «الضحى»	١٣٣٢
٥٤	سورة «الشرح»	١٣٣٤
٥٥	سورة «التين»	١٣٣٦
٥٦	سورة «العلق»	١٣٣٧
٥٧	سورة «القدر»	١٣٣٩
٥٨	سورة «البينة»	١٣٤٠

م	الموضوع	رقم الصفحة
٥٩	سوره «الزلزلة»	١٣٤١
٦٠	سورة «العاديات»	١٣٤٢
٦١	سورة «القارعة»	١٣٤٣
٦٢	سورة «التكاثر»	١٣٤٤
٦٣	سورة «العصر»	١٣٤٤
٦٤	سورة «الهمزة»	١٣٤٥
٦٥	سورة «الفيل»	١٣٤٦
٦٦	سورة «قريش»	١٣٤٧
٦٧	سورة «الماعون»	١٣٤٨
٦٨	سورة «الكوثر»	١٣٤٨
٦٩	سورة «الكافرون»	١٣٤٩
٧٠	سورة «النصر»	١٣٤٩
٧١	سورة «المسد»	١٣٥٠
٧٢	سورة «الإخلاص»	١٣٥١
٧٣	سورة «الفلق»	١٣٥٤
٧٤	سورة «الناس»	١٣٥٥

تفسير النسفي

المسمى

بمدارك التنزيل وحقائق التأويل

تأليف

الإمام الجليل

أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

المتوفى سنة ٧٠١ هـ

تحقيق

سيد زكريا

المجلد الأول

الناشر

مكتبة نزار مصطفى الباز